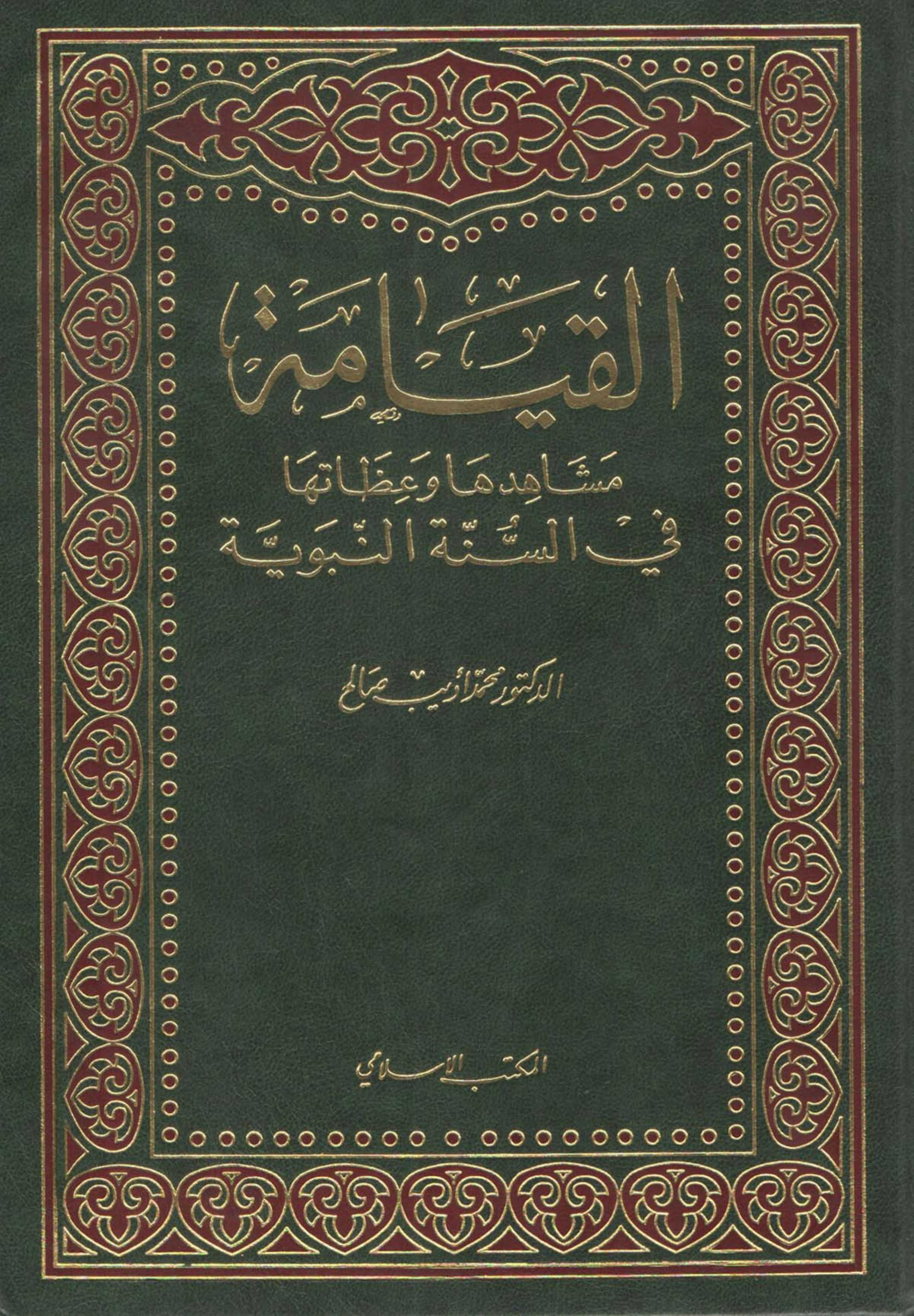
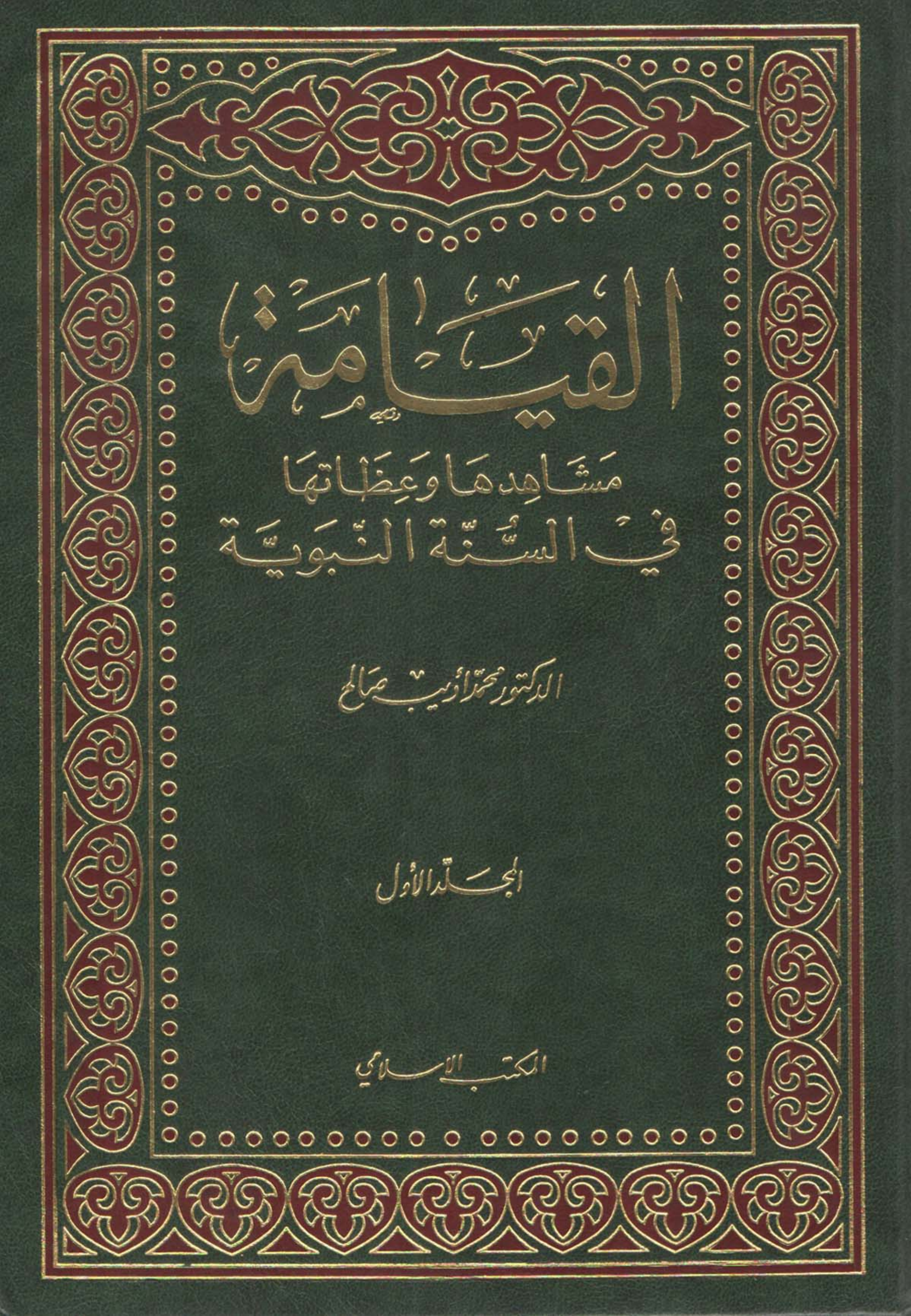
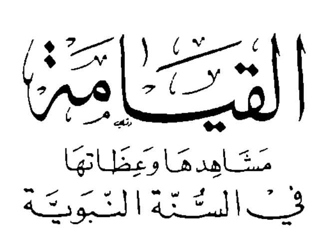
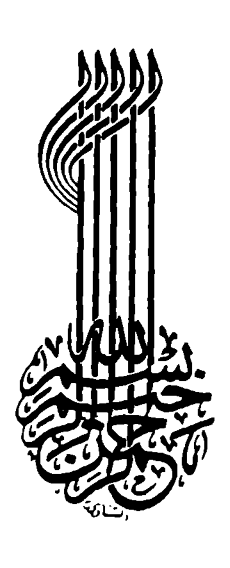

القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية
الدكتور محمد أديب صالح
المكتب الإسلامي

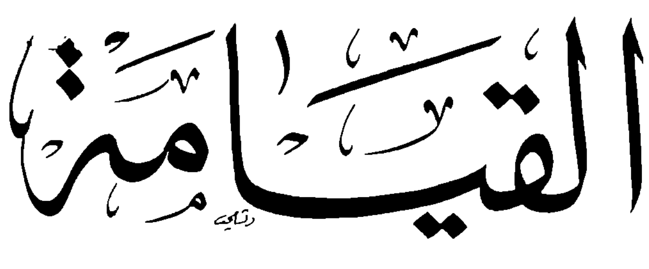


القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية
الدكتور محمد أديب صالح
المجلد الأول
المكتب الإسلامي


القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية



الدكتور محمّد أديب صَالح



مَشَاهِدهَا وَعِظَاتهَا
في السُّنّة النّبويّة

المجلّد الأوّل

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب ، ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف ، ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤



بين يدي الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على معلم الناس الخير سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحابته ومن اتبع هداه إلى يوم اللقاء .

هذه كلمات، أرجو من خلالها أن أذكر نفسي الوانية المقصرة وإخواني؛ بما ورد في نصوص السنة المطهرة ـ والسنة بيان الكتاب العزيز ـ من أخبار الهدى في شأن ما يكون بعد الموت ، وفي شأن يوم القيامة ، يوم الميعاد الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين ، وما ورد عن بعض العلماء العاملين ، والأتقياء من سلف هذه الأمة في ذلك .

ولئن كانت الحاجة قائمة أبداً ، إلى تذكير المؤمن بهذا الركن من أركان الإيمان، كيما يصدق في مراقبة الله عز وجل، ويشعر أن الوقوف بين يدي الله يوم الحساب كائن لا محالة ، يسأله فيه ربه عن النقير والقطمير !! إن الحاجة تبدو اليوم ـ وقد اجتاحت المادية الطاغية كثيراً من مجتمعات المسلمين ، ورانت الغفلة على القلوب ـ ضرورةً ملحةً ؛ فإن في ذكرى ما بعد الموت واليوم الآخر ، شحذاً للعزائم الواهنة، ودفعا إلى استقامة السلوك ، وتأصيلاً للمحور الذي تتحرك عليه حياة المسلم من بُعْدٍ عن الغفلة ،ويقين بما جاء عن الله وعن رسوله عليه الصلاة والسلام .

فمهما طال الأمد في الدنيا ، واستطاع المرء أن يغير ويبدل ، فيسيء هنا ويتجاوز هناك ، دونما رقيب من البشر أو عتيد ؛ فإن الله الذي يعلم السر وأخفى ، والذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، سيقفه بين يديه بعد بعث العباد من القبور ، ويسأله عما اجترحت يداه ، وعما كسب في حياته الدنيا ؛ ذلكم

قول الله سبحانه : ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ ذلك بأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ؛ يقول الله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت وإنما توفَّون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ ولذلك أُمر النبي ﷺ أن يُقسم على وقوع البعث بعد الموت والجزاء ، بعد أن قضى سبحانه بهما وأنهما كائنان لا محالة ، فقال جل شأنه : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثنّ ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير** ﴾.

من أجل هذا : كانت هذه الحقيقة الكبرى التي هي حق اليقين، ركناً من أركان الايمان ، فلا يكون المؤمن مؤمناً ، إلا باعتقاد أن يوم القيامة واقع ـ بمشيئة الله ـ لا ريب فيه ، حيث يجزى الناس بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ، روى الترمذي بسنده عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من رجل إلا سيكلمه ربه يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى شيئاً إلا شيئا قدمه ، ثم ينظر تلقاء وجهه فتستقبله النار ، قال رسول الله ﷺ: من استطاع أن يقي وجهه حر النار ولو بشق تمرة فليفعل » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح.

وهذا الإجمال الذى نراه في شأن المسؤولية ــ على عمومها ـ حيث ينحسر عن العبد ، ما كان له من أولياء ونصراء في الدنيا ، وتنصرف من طريقه الأسباب المعتبرة هناك ، فلا يرى هنا ـ وربه يكلمه ليس بينه وبينه ترجمان ــ إلا شيئاً قدّمه من العمل ــ هذا الإجمال ورد تفصيله من بعض الوجوه ، فيما أكرم الله الأمة من بيان الرسول عليه الصلاة والسلام . فقد جاء في الحديث من رواية أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيم فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه » . أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

أرأيت إلى هذه المسؤولية !! كم هي متسعة الأسباب ، رحبة الجنبات ، سؤال العبد عن عمره فيم أفناه ، وسؤاله عن علمه ماذا عمل به ، وسؤاله عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وسؤاله عن جسمه فيم أبلاه .

ترى : هل ينكر منصف، ما يتركه استشعار هذه المسؤولية ـ بشُعبها المتعددة كما تبدو في هذا الحديث ـ من آثار طيبة بنّاءة في كيان الفرد والجماعة ؟ فالوقت، والعلم ، والمال ، والجسم ؛ كل أولئك ـ بلا استثناء ـ يقف هذا العبد مسؤولاً عنه يوم القيامة ، والتهاون في شأن أي واحد منها ، مدعاة للمؤاخذة من الله تبارك وتعالى .

وما أجمل أن يأخذ المؤمن نفسه ـ وهو لبنة صالحة في جسم الجماعة ـ بالسلوك الذى يباعد بينه وبين العقاب يوم القيامة ،بالإضافة إلى العمل بالضوابط السليمة الخّيرة في الدنيا ..وذلك ما يعود بأفضل الثمرات على الأمة في الدنيا ويوم الدين .

هذا : وهنالك رواية للحديث بنحو ما رأينا ، ولكنْ للعلماء في واحد من رواتها مقالٌ جاء من قبل حفظه ، ذلكم ما روى الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم » .

وأنت ترى أن في نصوص السنة المطهرة ، ما يحدد جزئية من الجزئيات ، يصل الأمر على ساحة المساءلة من الله تبارك وتعالى، أن يسأل عبده المسلم عنها : قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبوسلمة قال : أنبأنا سليمان بن بلال عن عبدالله بن عبدالرحمن عن نهار العبدي أنه سمعه يحدث عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : «إن الله تبارك وتعالى ليسأل العبد يوم القيامة ، حتى إنه ليسأله يقول :أي عبدي رأيت منكراً فلم تنكره ، فإذ لقن الله عبداً حجته قال : يارب وثقتُ بك وفرقت من

الناس» وذلك ما روى ابن ماجه أيضاً عن أبي سعيد أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تبارك وتعالى ليسأل العبد يوم القيامة ... »

وإني مقدم للقارئ الكريم في ضوء تلك الحقائق ، صفحات زاخرة بالمشاهد والعظات التي تمليها النصوص ، وهي صفحات أذيعت من بضع سنوات من إذاعة القرآن الكريم بالرياض ، ولم أدخر وسعاً في التأصيل ـ قدر المستطاع ـ واستلهام ما تنطق به تلك المشاهد من عظات لابد أن تعمل عملها على صعيد السلوك في هذه الدار ، وما تملي من وثيق العلاقة بين الدنيا والآخرة، بين العمل وتحمل المسؤولية هنا، وبين الجزاء الآوفى هناك، وحيث يبدو الإيمان الصادق بما يكون بعد الموت، ويوم القيامة، وما يمكن أن تكون عليه العاقبة هناك مقوِّماً جذرياً من مقومات الاستقامة والصلاح والإصلاح في الدار العاجلة، مهما تشعبت المسالك وتنوعت الميادين، وهذا ما حرصت على بيان بتوفيق الله تعالى ، مصطحباً بضاعتي المزجاة.

اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا واغفر زلاتنا ،حتى نلقاك راضياً عنا بمنِّك وكرمك .

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا المصطفى صاحب المقام المحمود والحوض المورود وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

الإيمان باليوم الآخر

من المسلمات عند المسلم، أن الإيمان باليوم الآخر ، ركن من أعظم أركان الإيمان بعد الركن الأول ، وهو الإيمان بالله عز وجل ، وسمي اليومُ الآخر كذلك - كما يقول علماؤنا - لأنه آخر أيام الدنيا ، أو آخر الأزمنة المحدودة ، والمراد بالإيمان به: التصديق بما يقع فيه من الحساب والميزان والجنة والنار ، وقد وصف الله المتقين بقوله: ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ فهم يوقنون بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان ....

وإنها لحقيقة لا يداخل المؤمن أثارة من الريب في وقوعها . وقد أقسم الله تعالى على ذلك بقوله : ﴿ **الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه** ﴾ فاللام في « ليجمعنَّكم» موطئة للقسم - وقوله جل شأنه : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ خبر وقسم، أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، وذلك الجمع، يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله.

وهكذا يكون من أبرز سمات هذا اليوم ، أنه اليوم الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين ، حيث يسألهم الله ويجزيهم بأعمالهم، ولايظلم ربك أحداً .

وما من ريب في أن بعث الخلق ووقوفهم يوم العرض الأكبر أمام خالقهم ذي الجلال والإكرام ؛ الذي يعلم كلّ نفس ما كسبت ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .. ما من ريب في أن ذلك كله ، من مظاهر العدل الإلهي والحكمة الربانية !! وإلا فكيف يستقيم في ميزان العقل السليم ، أن يكون ما يكون من العباد في الدنيا ، ثم لا يكون هناك يوم للجزاء ، تقام فيه الموازين بالقسط ، وتوفّى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون . إن العدل الإلهي المطلق يقتضي ذلك ، وهو كائن لا

محالة ، كما أخبر القرآن عنه في العديد العديد من المواطن ، وكما جاءت بذلك السنة المطهرة على لسان المبيّن عليه الصلاة والسلام .

من أجل هذا : يمكن القول بأن العقل السليم الذى لا يخضع صاحبه لسلطان الهوى ، ينادي بالإيمان بيوم القيامة ، لما أنه يوم الفصل ، وإعطاء كل ذي حق حقه بميزان عدل لا يجور ولا يعول ... حيث لا ينفع المنحرفين عن الجادة أعوان ولا سلطان ، ولا يقبل الله من أهل الضلالة المحاربين لله ورسوله والمؤمنين صرفاً ولا عدلاً ، ولا ينفع المعرضين عن شريعة الله ـ العادلين به الأوثان الحاكمين بغير ما أنزل الله ـ أولياؤهم من شياطين الإنس والجن ، ولا يغني عنهم ما كانوا يكسبون .

والناظر في السنة المطهرة ـ وهي بيان الكتاب العزيز ـ يقع على طائفة مباركة من النصوص، لا تقتصر على الحديث عن يوم القيامة ، والحساب والصراط والجنة والنار ، وما إلى ذلك ، ولكنها تتناول قيام الساعة ، وما يكون قبلها من الأمارات ، كما تتحدث عن الموت وسؤال القبر ، وتدعو ـ ترغيبا وترهيباً ـ إلى ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، حتى يكتب عند الله في عباده الصالحين الذين تدركهم رحمة الله من أول لحظة من لحظات الآخرة بعد الموت ، فيجدون اليسر في سؤال الملكين ، حيث يكون القبر عليهم روضة من رياض الجنة ، ويوم الحساب بعد أن يبعث الله الخلائق يؤتى الواحد منهم كتابه بيمينه ، ويكون ـ بفضل الله ـ ممن قال الله فيهم :﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ .

وإنما كان ذلك في الهدي النبوي ـ والله أعلم ـ لما أن الموت هو المرحلة الأولى إلى عالم الآخرة ، كالذى نقرأ في قوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفّون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ .

والعلاقة ـ على هذا ـ وثيقة بين يـوم القيامة ،وبين الموت وما يكون بعده، بين يدي الساعة . وهذا مانجد الكلام عليه مفصلاً في حديث النبي ﷺ الذي لم يدع ـ وهو المبلغ عن ربه المبيِّن كتابه ـ طريقاً من طرق الخير ، إلا دل الأمة عليه، ورغّب به ولاطريقاً من طرق الشر ، إلا رغَّب عنه وحذر منه .

و إلى أن نلتقي على هذا التفصيل الذي أومـئ إليه على صفحات قادمات في حديـث النبي عليه الصـلاة والسلام عما بعد الموت ،وعن يـوم القيامة ومشـاهده وماتـزخر به مـن العظات ، أجـد من الخير أن أذكِّر بما ورد عنـه ﷺ بشأن الإيمان باليوم الآخر ، وكيف أنه ركن ركين من أركان الإيمان . فقد روى مسلم بسنده عن عمر رضي الله عنه قال :

« بينما نحن عنـد رسول الله ﷺ ذات يـوم إذ طلع علينـا رجل شـديد بيـاض الثياب شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيـه على فخذيه ، وقال : يامحمد أخبرني عن الإسـلام ، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهـد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسـول الله ، وتقيم الصـلاة ، وتؤتي الزكـاة ، وتحج البيت إن استطعـت إليه سبيلا . قال : صدقت ، قال : فعجبنا له ، يسأله ويصدقه .

قال فأخبرني عن الإيمان . قـال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبـه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمـن بالقدر خيره وشره . قال : صـدقت . قال فأخبرني عـن الإحسان ، قال : أن تعبـد الله كأنـك تراه ، فـإن لم تكن تراه فـإنه يـراك . قال : فـأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسؤول عنها بأعلـم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلـد الأمة ربتها ، وأن تـرى الحفاة العراة العالـة رعاء الشاء يتطـاولون في البنيان . قال : ثم انطلـق فلبثت ملياً ، ثم قال لي : ياعمـر ، أتدري من السائل ؟ قلت: الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

وجاء في رواية البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « كان النبي

ﷺ بارزاً يوماً للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان ، أن تؤمن بالله، وملائكته ، وكتبه ، وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث ... » الحديث .

اللهم ثبتنا على هذا الإيمان ، واشرح ــ بفضلك ورحمتك ــ صدورنا للعمل بمقتضاه ، واحشرنا يوم اللقاء في زمرة من قلت عنهم في كتابك الكريم : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾ . ولك الحمد على كل حال .

لقاء الله حق اليقين

الإيمان باليوم الآخر .. هـذا الركن العظيم الذي يأتي بعـد الإيمان بالله ـ وكل أركان الإيمان خيرٌ وهـدى ـ مابـد من إطـالة الرحلـة معه بالقـدر الذي يتسـع له المقام،طلباً للنجـاة يوم القيامة ، وسعيـاً وراء مايجب عمله في هذه الـدار العاجلة من أجل ذلك . والعهـد قريب بحديث الإسلام والإيمان والإحسـان الذي أوردته من روايـة مسلم، وأوردت بعضـه من روايـة البخاري والـذى جاء في شـأنه قـول القـاضي عياض رحمه الله : (اشتمـل هـذا الحديـث على جميع وظـائف العبـادات الظاهرة و البـاطنة ، من عقود الإيمان ، و أعمال الجوارح ، ومـن إخلاص السرائر والتحفظ مـن آفات الأعمال ، حتى إن علوم الشريعـة كلّها راجعة إليـه ومتشعبة منه) والذي يعنينا بـادىء ذي بدء ، أن الإيمان باليوم الآخر وما ينطـوي عليه من أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن القيامة لابد أن تقوم ، وأن ذلك حق اليقين ، قد عدّ في هذا الحديـث ركناً من أركان الإيمان ،لا تصـح عقيدة المؤمن إلا به ، ــ وقد وضح ذلـك في سؤال جبريـل عليه السلام ــ وقد جاء يعلـم الناس أمـر دينهم ـ رسـولَ الله ﷺ عن كـلٍ مـن الإسلام ، والإيمان ، والإحسـان ، فكـان من جـواب الرسول عليه الصلاة والسلام ـ كما جاء في رواية عمر رضي الله عنه عند مسلم عن قول جبريل : فأخبرني عن الإيمان ـ قوله صلوات الله وسلامه عليه « أن تؤمن بالله وملائكتـه وكتبه ورسله واليـوم الآخر ،وتؤمـن بالقدر خيره وشره » وقـال جبريـل : «صدقت» .

وهكذا يكـون هذا الكلام الطيـب الميمون ــ كما جاء في صحيح مسلـم من رواية عمـر رضي الله عنه ـ نصاً قـاطع الدلالة ، مـؤكداً ومقرراً ما جـاء في القرآن الكريـم ، من أن يـوم القيامة مـن الحقائق اليقينيـة التي ما بـدٌّ من أن تكـون من المسلّمات في عقل المؤمن وقلبه ، وأنها من المعلوم مـن الدين بالضرورة ؛ فالناس

لابد مبعوثون من قبورهم ، بقدرة الذى أنشأ الخلق أول مرة ، وهو بكل خلق عليم، وواقفون يوم الحشر بين يديه سبحانه ، يُعرضون لا تخفى منهم خافية ، حيث يجد كل إنسان ما قدّم ، فيجزى بالإحسان إحساناً ، وبالإساءة غير ذلك، ولا يظلم ربك أحداً ، وأنه ما بعد هذه الدنيا الفانية دار ، إلا الجنة أو النار ؛ فليتق الله امرؤ في نفسه وفيمن ولاه الله أمرهم ، وليعمل على التزود لذلك اليوم الذى يحشر الناس فيه حفاة عراة غرلاً ، والذى لا ينفع فيه مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ولا يخفى على ذي بصيرة أضاءت قلبَه بشاشة الإيمان ، أن خير زاد لذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، إنما هو تقوى الله في الشؤون كلها سراً وعلانية ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب** ﴾ . أقول هذا غير ناسٍ أن اليوم الآخر ، هو من الموت إلى آخر ما يقع يوم القيامة ، وقد وُصف بأنه الآخر ـ كما يقول العلماء ، ـ لأنه آخر أيام الدنيا ، أو آخر الأزمنة المحدودة ، أو لأنه لا ليل بعده ، ولا يقال يوم إلا لما لا يعقبه ليل ؛ والإيمان به : تصديق جازم بوجوده وبما يقع فيه ؛ من سؤال الملكين ، ونعيم القبر وعذابه ، والجزاء ، والبعث، والحساب والميزان ، والصراط ، والجنة وما أعدّ الله فيها للمؤمنين ، والنار وما أعدّ الله فيها للكافرين الجاحدين .. وغير ذلك مما بينه علماؤنا رحمهم الله ، أخذاً من النصوص في كتاب الله ، وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

هذا: وعند النظر في رواية البخاري ـ كما جاءت في الجامع الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ نجد ما يدعو إلى التذكير بنصها حرصاً على تبين ما تدل عليه اللفظة المتعلقة بالإيمان باليوم الآخر الذي هو من أهم أركان الإيمان بعد الإيمان بالله . ففي كتاب الإيمان من الجامع الصحيح جاء قول الإمام البخاري «باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة،

وبيان النبي ﷺ ـ ثم قال : جاء جبريل عليه السلام يعلمكم دينكم، فجعل ذلك كله ديناً ، وما بيَّن النبـي ﷺ لوفد عبدالقيس من الإيمان ، وقـوله تعالى : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ ـ ثم قال رحمه الله :حدثنا مسددٌ قال: حدثنا اسماعيل بن إبـراهيم قال : أخبرنا أبو حيـان التيميُّ عن أبي زُرعة عـن أبي هريرة قال : « كـان النبي ﷺ بـارزاً يوماً للنـاس ، فأتاه رجـل فقال : مـا الإيمان ؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ، ورسله وتـؤمن بالبعث . قال : ما الإسلام؟ قال : الإسـلام أن تعبدالله ولا تشرك به وتقيـم الصلاة ، وتـؤدي الزكاة المفـروضة وتصوم رمضان ، قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبدالله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك... إلى أن قال : ثم أدبر فقـال : رُدوه ، فلم يروا شيئاً فقال: هذا جبريل جـاء يعلـم النـاس دينهـم». قـال أبـوعبـدالله : جعـل ذلـك كلـهّ مـن الإيمان.

والمرادبـ«أبي عبدالله » هنـا : المؤلف ــ وهو الإمام البخـاري . وقولـه « جعل ذلك كلَّه من الإيمان» يعني الإيمان الكامل المشتمل على هذه الأمور كلها .

وأنت تـرى أن في هذه الرواية نصـاً على الإيمان بلقاء الله ، وقد وقعـت لفظة «وبلقائه» هنا بين الكتب والرسل وكذا لمسلم ــ كما يقول الحافظ ابن حجر ـ من الطـريقين ، ولم تقع في بقيـة الروايـات، ورأى البعـض أنها مكررة لأنها داخلـة في الإيمان بالبعث ، ولكن الحافظ رد ذلك فقال: والحق أنها غير ذلك ، فقيل : المراد بالبعـث القيام مـن القبور , والمراد بـاللقاء مـا بعد ذلـك ، وقيل : اللقـاء يحصل بالانتقال مـن دار الدنيا ، والبعث بعـد ذلك .. ولنا عودة إلى هـذا النص إن شاء الله، نستجلي من خـلاله ما يـزيد اليقين بوجود اليـوم الآخر ،وقيام النـاس لرب العالمين ، حيث يحشرهم الله جميعـاً ويضع الموازين القسط ليوم القيامـة . وهنالك توفّى كل نفـس ما كسبت وهم لايظلمـون . وإني داعٍ بما يدعو به أولـو الألباب : ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار﴾.

وأن الله يبعث من في القبور

كان من عناية العلماء بفقه حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، التدقيق في دلالة لفظةٍ ما ، وردت في النص عند فلان ، ولم ترد عند فلان ؛ ومن ذلك ما جاء من كلامهم على لفظة « ولقائه» التي وردت في رواية البخاري من حديث «الإسلام والإيمان والإحسان » ، وذلك في قول النبي عليه الصلاة والسلام جواباً لجبريل عليه السلام : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث ...» الحديث .

وقد أوردت من قبل كلام الحافظ ابن حجر ، وما نقل عن بعض العلماء في ذلك، من أنها مكررة لأنها داخلة في الإيمان بالبعث، وهو البعث بعد الموت . وقد ساعد على هذا الاتجاه ــ كما يبدو ـ أنها توسطت بين الكتب والرسل ، وتلا ذلك كله قوله عليه الصلاة والسلام : « وتؤمن بالبعث» غير أن الذى يطمئن إليه القلب ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر واستظهره، من أنها غير مكررة ، لأن معنى لقاء الله هنا مختلف عن معنى البعث؛ فالإيمان به تعالى . مضاف إلى الإيمان بالبعث بعد الموت ؛ إذ قيل : إن المراد بالبعث : القيام من القبور ، وباللقاء : ما بعد ذلك ، حيث القيام بين يدي رب العالمين للمساءلة ، وما يترتب عليها . ولم يدع رحمه الله أن يورد ما قيل من أن اللقاء يحصل بالانتقال من دار الدنيا ، أما البعث: فيكون بعد ذلك، ويدل على هذا رواية مطر الوراق التي جاء فيها «وبالموت وبالبعث بعد الموت » وكذا في حديث أنس وابن عباس .

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن الإمام أبا سليمان الخطابي رحمه الله ذهب إلى أن المراد باللقاء في قوله صلى الله عليه وسلم :« وبلقائه» : رؤية الله عز وجل . وقد تعقبه الإمام النووي رحمه الله بأن أحداً لا يقطع لنفسه برؤية الله المختصة بمن

مات مؤمناً ، والمرء لا يدري بم يختم له ، فكيف يكون ذلك من شروط الإيمان ؟ وأجيب عن كلام الإمام النووي : بأن المراد الإيمان بأن ذلك حق في نفس الأمر .
قال صاحب فتح الباري : (وهذا من الأدلة القوية لأهل السنة في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة ؛ إذ جعلت من قواعد الإيمان) .

ومما هو جدير بالملاحظة، ما نرى في هذه الرواية عند الإمام البخاري من قول النبي ﷺ وهو يبين أركان الإيمان « وتؤمن بالبعث » وفي رواية أخرى في التفسير «وتؤمن بالبعث الآخر » بزيادة كلمة الآخر . وقد رأينا من قبل أن رواية الإمام مسلم في حديث عمر رضي الله عنه « واليوم الآخر » .

أن يبعث الله من في القبور : حقيقة يصدِّق المؤمن جازماً بوقوعها ، وهي أمر هين بجانب قدرة الله تعالى على النشأة الأولى ، وعلى خلق السماوات والأرض وما فيهن، روى ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن العاصي بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتّه بيده ثم قال لرسول ﷺ : أيحيي الله هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم » قال : ونزلت الآيات من آخر «يسٓ» . وقال مجاهد وعكرمة وعروة ابن الزبير والسدي وقتادة : جاء أبي بن خلف إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول : يامحمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ونزلت هذه الآيات من آخر سورة «يسٓ» ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ...** ﴾ الآيات .

ولكن ما الذي يعنيه الوصف بالآخر في هذه الرواية عند البخاري في التفسير ـ من تفسير سورة لقمان حيث جاء فيها ـ كما مر آنفاً ـ « وتؤمن بالبعث الآخر» ؟ ذهب بعض العلماء إلى أن ذكر الآخر في قوله ﷺ : «وتؤمن بالبعث الآخر» جاء

للتأكيد كقولهم : أمسِ الذاهب، وقيل : لأن البعث وقع مرتين : الأولى الإخراج من العدم إلى الوجود ، أو من بطون الأمهات بعد النطفة والعلقة، إلى الحياة الدنيا، والثانية البعث من بطون القبور إلى محل الاستقرار ، وذهب بعضهم إلى أن الوصف بالآخر ، إما تأكيد : كأمس الدابر ، أو احتراز من غير الآخر ؛ لأنه إحياء بعد إماتة ، وقد كنا ميتين قبل نفخ الروح فأحيينا بنفخها ، ثم متنا ثم أحيينا لسؤال الملكين ، ثم متنا ، ثم أحيينا للحشر ؛ فهذا هو الآخر . أما اليوم الآخر :فقيل له ذلك ـ كما أسلفنا ـ لأنه آخر أيام الدنيا . أو آخر الأزمنة المحدودة؛ وهو ما اتجه إليه الحافظ ابن حجر في «الفتح» ، ومطلوب من كل مؤمن أن يعلم أن المرادمن الإيمان باليوم الآخر: التصديق الجازم بما يقع فيه من الحساب والميزان والصراط والجنة والنار ،وغير ذلك ، مما ثبت بالنصوص .

هذا : وقد استوقفت العلماء إعادة لفظة « وتؤمن » عند ذكر البعث ، وكأن الحكمة في تلك الإعادة ـ كما قالوا ـ الإشارة إلى أنه نوع آخر مما يؤمَن به ، لأن البعث سيوجد بعد ، وما ذكر قبله بعد ذكر الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل: موجود الآن ، وللتنويه أيضاً بذكره، لكثرة من كان ينكر من الكفار ، ولهذا كثر تكراره في القرآن . وقد رأينا من قريب ما ذكر في سبب نزول الآيات الأواخر من سورة «يسٓ» .

ومن الجدير بالملاحظة : أن رهبة القيامة ، والخشية من العرض الأكبر ، وما قد يترتب على ذلك أوقعت بعض الناس ممن كانوا قبلنا في شيء من اليأس، فحملهم ذلك على سلوك طريقة ، يحسبون أنها تحول دونهم ،ودون أن يعود أحدهم بشراً سوياً ؛ يسأل ويجزى بعمله ؛ إن خيراً فخير و إن شراً فشر . فقد روى الإمام أحمد بسنده أن عقبة بن عمرو أبا مسعود البدري الأنصاري قال لحذيفة رضي الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال سمعته ﷺ يقول: «إن رجلاً حضره الموت ، فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا حطباً كثيراً جزلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي

فامتحشت ، فخذوهـا ، فدقوها ،فذرُّوها في اليم ، ففعلـوا ، فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، فغفر الله عز وجل له ». وقد ورد الحديث في صحيحي البخـاري ومسلم بألفاظ كثيرة جاء في بعضهـا : «فأمر الله تعالى البحـر فجمع ما فيه ، وأمـر البر فجمع ما فيه ، قـال له كن فإذا هـو رجل قائم ، قـال : ما حملك على ما صنعـت؟ قال : مخافتك وأنـت أعلم فما تلافاه أن غفر له » .

امتَحَشَتْ ـ أو أمتُحِشَتْ : احترقت، والمحش احتراق الجلد وظهور العظم .

اللهم اجعل إيمانا بـاليوم الآخر سبيلاً إلى الاستقامة على الطـريقة ، وحسن التزود ليـوم المعاد. وارزقنـا مع الخوف مـن أليم عـذابك ، الـرجاء الصـادق بسعة رحمتك، وجميل فضلك و إحسانك .

وصلى الله وسلم وبارك على إمام الهدى سيدنا محمـد بن عبدالله ووفقنا لحسن التأسي به ، كيما نكون يـوم القيامة ـ إن شاء الله ـ من الناجين مـن النار ، الفائزين بالجنة دار المتقين .

أول منازل الآخرة

لم يكن عجباً من العجب ، أن نرى في منهج علمائنا رحمهم الله ، إيراد النصوص الواردة في شأن الموت ، وما يكون في القبر من سؤال الملكين ، ثم ما يترتب على ذلك ـ وهم بصدد الحديث عن يوم القيامة وما فيه من أهوال ينخلع لشدتها القلب ، ويشيب لها الوليد ـ وليس بدعاً ـ والأمر كذلك ـ أن يأخذني النظر فيما ورد في شأن ذلك اليوم العصيب يوم التناد ، وما يزخر به من مشاهد تحفز المؤمن إلى الخوف والرجاء ، فيشدني إلى أن أذكر ـ بادئاً بنفسي ـ ولو ببعضٍ من نصوص السنة الواردة في شأن ما يلقى العبد في القبر بعد الموت ، وما يكون من عاقبة كلٍ من المؤمن والكافر ، وما كان من هدي النبي ﷺ وبيانه على هذه الساحة .

ذلك لأن الارتباط وثيق بين القبر وما يكون فيه ، وبين يوم القيامة ؛ وإنما كان الارتباط على هذه الصفة ، لأن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، ومن مات فقد قامت قيامته الصغرى ؛ فإن نجا من القبر ، فما بعده أيسرُ منه ، وإن لم ينج : فما بعده أشدُّ منه . وأصحاب النبي ﷺ الذين سمت بهم تربية النبي ﷺ إلى حيث يخشون ويخافون سوء الحساب ، عرفوا هذه الحقيقة ، فكانت تتحرك نفوسهم لها ، وتفيض أعينهم من الدمع مما يتهيبون من المصير بعدها . قال الترمذي : حدثنا هنّا د قال : حدثنا يحيىٰ بن معين قال : حدثنا هشام بن يوسف عبدالله بن بحير أنه سمع هانئاً مولى عثمان قال : «كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلَّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتبكي من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال: إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه ، فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه ، فما بعده أشد منه ، قال : وقال رسول الله ﷺ : ما رأيت منظراً قط ، إلا القبر أفظع منه» . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا

من حديث هشام بن يوسف ومعلوم أن هشام بن يوسف ثقة . قال ابن الأثير : وزاد رزين : قال هانئ : وسمعت عثمان ينشد على قبر :

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ... وإلافإني لا إخالك ناجياً

والحق أن هذا الذي نرى من فعل عثمان رضي الله عنه ، يؤكد ما ينبغي للمؤمن أن يكون عليه ، من ترقب يحمله على المزيد من العمل الصالح ، والمسارعة إلى فعل الخيرات ، وتجنب كل ما يسخط الله ويؤدي إلى عذاب القبر ، وذلك شرٌ وبيل .

ولقد تأول العلماء هذا البكاء الشديد من عثمان رضي الله عنه ، عندما يقف على قبر حتى يَبُلَّ لحيته ، مع أنه من العشرة المبشرين بالجنة ، بعدد من الوجوه؛ كان منها : أن شدة الفظاعة كانت تنسيه ذلك ، أو أن يكون صنيعه خوفاً من ضغطة القبر ؛ فقد روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :« إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا سعد بن معاذ».

على أن هذه الخصلة العظيمة في عثمان رضي الله عنه ، وهي الخشية من عذاب الله ، تدل على مقدار ما وصل إليه من صفاء القلب ، والذوق الإيماني والقرب من الله تعالى ، واستشعار عظمته ، وضآلة ما يمكن أن يقدمه العبد بين يدي الله تعالى ـ وهو المنعم المتفضل ـ كما أن خصلة الخشية هذه ،لا تتعارض مع الرجاء الكبير بفضل الله تعالى ورحمته، كما لا تتعارض مع كون عثمان رضي الله عنه من المشهود لهم بالجنة ؛ فهذا النوع من السمو الذى يكرم الله به من يشاء من عباده، لا يتجزأ ، ولا تراه يغيب هنا ويحضر هناك . وكونه ـ أجزل الله مثوبته ـ من أولئك المبشرين رضي الله عنهم، مدعاة لأن يكون أكثر شفافية وخشية من عذاب الله الدال على سخطه والعياذ بوجهه سبحانه. وما من ريب في أن ذلك علامة القرب من الله الذى أعد لأهل تقواه جنة عرضها السماوات والأرض ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول

ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ « عينـان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله ».

هذا: وقد جـاء في بعض نسخ الترمذي التي بين أيدينـا (عبدالله بن بُجَيْر) بالجيم المفتوحـة مصغراً ، والصواب ـ والله أعلم ـ (عبـدالله بن بَحير) بفتح الباء وكسر الحاء ، وهو مـا نجده في رواية الحاكـم النيسابـوري وابن ماجـه . فقد روى الحاكم أبوعبدالله النيسابوري في كتاب الرقاق من « المستدرك» بسنده عن هشام ابن يـوسف قال : حدثنـا عبدالله بن بَحير قـال : « سمعت هانئاً مـولى عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول : رأيت عثمان واقفاً على قبر يبكي حتى بل لحيته ، فقيل له تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا ؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : القبر أول منـازل الآخرة ، فـإن نجا منـه ، فما بعده أيسر منـه ، و إن لم ينج منه، فما بعده أشـد منه ، وسمعت رسول الله ﷺ يقول : مـا رأيت منظراً إلا والقبر أفظـع منه » قـال أبو عبـدالله : هذا حـديـث صحيح الإسنـاد ولم يخرجاه ـــ يعني البخاري ومسلماً ، وقال الذهبي في كتابه « التلخيص » صحيح .

و إذا كانـت هذه الروايـة ، تنقل إلينا وصـف واقعة واحدة وقـف فيها عثمان رضي الله عنه على قبر يبكي ، فإن رواية ابن ماجه تطابق رواية الترمذي التي رأينا من قبـل، من حيث التعميم؛ فهـي تفيد أنه رضي الله عنه كـان إذا وقف على قبر بكى حتى تبل لحيته ، بمعنـى أن ذلك كـان ديدنـه رضي الله عنه ، فكلما رأى قبراً كانت منـه الخشية والدموع السخية ولفظ الـروايةبالسند عن هـانىء مولى عثمان قال : «كان عثمان بـن عفان إذا وقف على قبر يبكي ، حتى تبلّ لحيتـه ، فقيل له: تذكـر الجنة والنار ولا تبكـي وتبكي مـن هذا ؟ قال : إن رسـول الله ﷺ قال : إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر و إن لم ينج منه فما بعده أشد ، قال : وقال رسول الله ﷺ مارأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه » .

وهكذا تبـدو العلاقة وثيقة ، بين مـا يكون في القبر للعبد ، وبين ما يكـون له

يوم القيـامة ، لأن العبـد إن نجا مـن عذاب القبر ، كـان ذلك ممـا يبشر بالنجـاة الكبرى وأن ما بعده يـوم القيامة أيسر منه ، وإن لم ينج من عـذاب القبر ـ والعياذ بالله ـ كان ذلك نذير أن ما بعده يوم القيامة أشد منه .

اللهم إنـا نعوذ بـك من فتنـة القبر وعذابـه، ونسألـك أن تجعلنا ممـن ينالهم فضلك وإحسانك فيكون قبر الواحد منهم روضة من رياض الجنة ، ياذا الجلال والإكرام .

الميت.. وعرض مقعده بالغداة والعشي

حقيقةٌ أن العلاقة وطيدة بين ما يحصل للميت في القبر ، وبين ما يمكن أن يحصل له يوم القيامة ، حقيقة من الواجب أن تأخذ مكانها الملائم في تصور المؤمن وسلوكه ، في ظل العبوديةِ الصادقة لمولاه عز وجل، والإيمانِ بسؤال القبر الذي هو أول منزلة من منازل الآخرة ، فمن مات فقد قامت قيامته الصغرى، والنجاة من عذاب القبر ، معناها ـ والله أعلم ـ أن الأمر هيّن يسير في عرصات القيامة، يوم يقف الناس لرب العالمين . أما إن وقع الميت في حمأة عذاب القبر : فذلك عنوان ما هو أشد منه يوم الحساب ، نجانا الله من ذلك. يقول الرسول ﷺ كما روى الترمذي وابن ماجه والحاكم: « إن القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه، فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » وقد وقفتنا هذه الروايات على الذي كان يعرو عثمان رضي الله عنه من شدة البكاء حتى يبلَّ لحيته ، عندما يرى القبر ، تحسباً من الوقوع في هذا الذي كشف عنه رسول الله ﷺ .

وإن مما يؤكد العلاقة بين ما يحصل في القبر للعبد ، وبين ما يكون له يوم القيامة ، أن العبد إذا قبر ، عرض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ ؛ إن كان من أهل الجنة ، فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فمن أهل النار ، ويفسح للمؤمن في قبره سبعون ذراعاً ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون ، أما الكافر : فيضرب بمطارق من حديد ، ويضَّيق عليه في قبره حتى تختلف فيه أضلاعه .

قال الإمام البخاري : حدثنا إسماعيل قال : حدثنا مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ،وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم

القيامة » جاءت هذه الرواية تحت باب عقده رحمه الله لهذا ، عنوانه « باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي » وذلك في كتاب الجنائز من الجامع الصحيح . ورواه في بدء الخلق « باب ما جاء في صفة الجنة » وفي الرقاق « باب سكرات الموت » .

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ « إذا مات الرجل عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فالجنة وإن كان من أهل النار فالنار . قال : ثم يقال : هذا مقعدك الذى تبعث إليه يوم القيامة » والحديث رواه أيضاً مالك في الموطأ والترمذي والنسائي .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن الله يعطي الميت ما يحس معه بذلك الذي يمكن أن يكون في القبر ؛ فحين تكون الجنازة صالحة تقول : قدموني قدموني ، وحين تكون غير صالحة تقول : ياويلها أين تذهبون بها . روى البخاري بسنده عن سعيد بن أبي سعيد عن أبيه أنه سمع أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : «إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني قدموني ، وإن كانت غيرصالحة قالت : ياويلها أين تذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق » وقد أورد البخاري هذا الحديث عقب الحديث السابق تحت باب كلام الميت على الجنازة من كتاب الجنائز ، وكان هذا مدعاة لأن يبين الحافظ ابن حجر رحمه الله ـ فيما نقله عن ابن رشيد ـ أن هذه الترجمة مناسبة للتي قبلها ، كأنه ـ يعني البخاري ـ أراد أن يبين أن ابتداء العرض إنما يكون عند حمل الجنازة ، لأنها حينئذ يظهر لها ما تؤول إليه فتقول ما تقول . والترجمة التي قبلها ـ كما رأينا آنفاً ـ هي: «باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي».

من أجل هذا ، كان من الخير أن يكون المؤمن على ذكر من الموت ، كيما يستشعر تلك الحقائق التي أخبر بها الرسول عليه الصلاة والسلام ، بياناً لما جاء

في القرآن الكـريم ، ولينعكس ذلـك على سلوكه ، فتراه حـريصاً ـ أبـداً ـ على أن يكون وقافاً عند حدود الله ، بعيداً عن الغفلة التي تنسي الموت وسؤال الملكين في القبر ، وما لنتيجة السؤال من دلالة وأثر على ما يكون يوم العرض على الله الذي لا يخفى عليه خـافية . روى الترمذي بسنده عن عطية عـن أبي سعيد الخدري قال : «دخل رسـول الله ﷺ مصلاه ، فـرأى نـاسـاً كأنهم يكتشرون ــ تظهر أسنـانهم من الضحك ـ قال : أما إنكم لو أكثرتم ذكر ها دم اللذات لشغلكم عما أرى الموتُ ، فأكثروا ذكر هادم اللذات الموت ، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول : أنا بيت الغربة .. وأنا بيت الوحدة ، وأنا بيت التراب ، وأنا بيت الدود ، فإذا دفن العبد المؤمـن ، قال له القبر : مـرحباً ؛ وأهـلاً أما إن كنت لأحـب من يمشي على ظهري إليّ ، فإذا وليتك اليوم ، وصرت إلي ، فسترى صنيعـي بك قال : فيتسع له مدّ بصره ، ويفتـح له بـاب إلى الجنة ، وإذا دفـن العبد الفـاجر أو الكـافر ،قـال القبر : لا مرحبـاً ولا أهلاً ، أما إن كنت لأ بغـض من مشى على ظهـري إلي، فإذا وليتك اليوم ، وصرت إلي ، فسترى صنيعي بك قال : فيلتئم عليه حتى تلتقي عليه وتختلف أضـلاعه ، قـال : قال رسول الله ﷺ بـأصابعه فـأدخل بعضهـا في جوف بعض .... إلى أن يقول : قال رسول الله ﷺ : إنما القبر روضـة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » .

في ظل هذه الحقيقة وأمثالها .. كان من هدي النبي ﷺ دعوته إلى أن يحاسب كل مـن المسلم والمسلمـة نفسه هنـا في هذه الـدار ، ويكون شجـاعاً في النقـد الذاتي ، الذى يقوّم العوج ، ويهدي إلى الصواب ، في ضوء معايير الكتاب والسنة والعمل لما بعـد الموت . روى الترمذي بسنده عـن شداد بن أوس عـن النبي ﷺ قال: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعـاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ». قال : هـذا حديث حسن . قال: ومعنى قـوله : من دان نفسه يقـول : حاسب نفسه في الـدنيا قبل أن يحاسـب يوم القيامة ، ويـروى عن عمر بن الخطـاب أنه قال : «حاسبـوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وتـزينوا للعرض

الأكبر ، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا ».

والحق أن من رزق اليقظة ، فلم تشغله الدنيا عن العمل لما بعد الموت ، وكان صادقاً في تزكية نفسه ومحاسبتها ، فقد رزق خيراً كبيراً ، يجد حلاوة ثمرته يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وطوبى لمن يأتي يوم القيامة، وقد دان نفسه في الدنيا ، وعمل لذلك اليوم لاريب فيه ، فكان أهلاً للفوز بالجنة والنجاة من النار ، وسبحان الغفور الرحيم .

استعيذوا بالله من عذاب القبر

رحلة المؤمن في هذه الحياة ، وما يمكن أن يعترض طريقه إلى الله فيها ، من الصوارف والمعوقات ، جديرة أن تكون مصحوبة أبداً بما يذكِّر بالموت ، وما يكون من سؤال القبر الذي هو معتقد أهل السنة والجماعة ، وقامت الأدلة الواضحة على إمكان وقوعه كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن مايلقاه العبد في قبره من يسر ونعيم ، يكون عنوان نجاته يوم القيامة ، ﴿ **يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله** ﴾ وأن ما يلقاه من مكروه وعذاب ، يكون عنوان تعثره وشقائه في ذلك اليوم ، هنالك إذ يقال للإنسان : ﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾ . ويصدق في الجاحدين المعاندين قول الله جلت قدرته : ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين** ﴾ .

وما أكثر النصوص التي تنذر وتبشر على هذه الساحة ، وتضيء الطريق لمن يحرص على أن يسعى للآخرة سعيها ، بدءاً من الاستعداد للموت وسؤال القبر. من هنا كان مقتضى التعقل بعقل المعاد ، أن يسلك المؤمن سبيل أهل الجد في طلب النجاة يوم المعاد .

والناظر فيما جاء عن الله ورسوله في هذا الشأن العظيم ،لا يملك إذا عقل عن الله ما أراد ، إلا أن يدين نفسه ، ويحاسبها على ما وقعت فيه من تفريط ، ويعمل جاداً على أن يثبت على ما هو استقامة على الطريق ، ويتوب إلى الله عما هو انحراف وبعد عن مسلك أهل الصلاح والفلاح ، الذين يخافون مقام ربهم ، وينهون النفس عن الهوى ، ويجعلون همَّهم العمل لما بعد الموت ، ذاكرين يوم القيامة وأهواله ، جادين في التزود له بالزاد الذي أمر به الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، من العمل الصالح وتقوى الله في السر والعلن .

وصنيع هؤلاء ، دليل كمال العقل ، والفهم عـن الله ورسوله في هذا المضمار؛ فالأمر جد خطير ؛ والذي يغفل عـن أول منزلة من منازل الآخرة ، يكـون كمن يعمد إلى الخطر الماحق فيوقع نفسه فيه ، كيف وقد كشف الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، عن أنه قبل سؤال القبر ، وما يمكن أن تكون حال العبد من ورائه، هنالك ضغطة القبر . أخرج النسائي بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال بشأن سعد بن معاذ رضي الله عنه: «هذا الذي تحرك له عرش الرحمن ، وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً مـن الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرِّج عنه » . وروى الإمام أحمد والبيهقي من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: « إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا منها سعد بن معاذ ».

وأنت واجد أن في حـديث رسول الله ﷺ ، عن البرزخ وما يكون فيـه بوصفه المنزل الأول مـن منازل الآخرة ، وعنـوان ما يكون لصـاحبه يـوم القيامة ، تقـريراً وتفصيلاً لما جاء في الكتاب العزيز حول هذه المسألة الكبرى من مسائل العقيدة كما هو معروف في مظانه ، غير أنا نشير هنـا ـ وذلك على سبيل المثال لا الحصر ـ إلى ما جـاء في سورة المؤمنون مـن قول الله تبـارك وتعالى ﴿ **حتى إذا جاء أحـدهم الموتُ قال ربِّ ارجعون . لعلي أعمـل صالحاً فيما تركتُ كلاّ إنها كلمة هـو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون** ﴾ وإلى ما جاء في سورة غافر من قوله جل شأنه : ﴿ **فوقـاه الله سيئات ما مكـروا وحاق بآل فـرعون سـوء العذاب . النار يعـرضون عليها غُدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾. ونشير كذلك إلى ما روى أحمد وأبو داود والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي، مما نجـد فيه بيان تقرير وتفصيل، كان من نصـح رسول الله ﷺ للأمة في دنياها ويـوم الدين . قال الإمام أحمد : حدثنـا أبو معاوية قال : حـدثنا الأعمش عن منهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : «خرجنا مع النبـي ﷺ في جنازة رجل من الأنصـار ، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحـدْ ، فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حـوله ، وكأن على رؤوسنا الطير ، وفي يـده عود ينكت في

الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر ــ مرتين أو ثلاثاً ــ ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيضُ الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر ، ويجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج ، فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ،قال : فيصعدون بها ، فلا يمّرون ـ يعني بها ـ على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الرّوح الطيب ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم، فيشيِّعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة ــ فيقول الله عز وجلّ : اكتبوا كتاب عبدي في علّيّين ، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال: فتعاد روحه في جسده ،فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك فيقول : ربّي الله . فيقولان : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ ، فيقولان : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدّقت ، فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي : فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مدّ بصره ، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرُّك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له: من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي . . .

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل

الله ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه . فيقول : أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله ، وغضب ، فتفرّق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها ، لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها ،كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها ، فلا يمرّون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذهِ الريح الخبيثة ؟ فيقول : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمىَّ بها في الدنيا ، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿ لاتفتّح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط ﴾** فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، ثم تطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ **﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾** فتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، قال : فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، قال : فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فينادي منادٍ من السماء أن كذب فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرّها وسمومها ، ويضّيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت؟ فوجهك الوجه القبيح يجيء بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة ».

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأن يعيذنا من عذاب القبر ويثبتنا بقوله الثابت إنه البر الرؤوف الرحيم .

سؤال الملكين

كل من رزق حسن الصلة بمناهـج الاستنباط من نصوص الكتاب والسنة ، ووفِّق لاصطحابها على صعيد التطبيق العملي ، حيث النص واستنباط الحكم منه ـ دون إغماض العين عن الحكمة ـ ماتيسرت له الإحـاطة بها ... كل من حصل له ذلك أدرك ـ بتوفيق الله عز وجل ـ المقام العظيم الذى يتبوؤه البيان النبوي لكتاب الله العزيـز ، حيث ترى التقـرير حيناً ، والتـأكيد حيناً ، كما تـرى تفصيل الإجمال حيناً آخر ، وناهيك عن التخصيص و التقييد ، وإعطاء حكم جديد حين يقتضي الأمر ذلك ... إلى آخر ما هنالك مـن صور لهذا البيان النبوي الكريـم الذي اؤتمن سيد العالمين عليه بقوله تعالى في سورة النحل : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ .

ولا يعوزك أن تـرى آثار هذا البيـان المبارك ، وأنت تنظـر ببصيرة في نصوص الكتاب الكـريم، سعيـاً وراء المعنى المراد ، وفي معـالم الهداية فيهـا ،وهي تعـالج موضـوعاً أو موضـوعات تحمل في طيـاتها ، ما العباد بحـاجة إليه في أمـور دينهم ودنياهم ، فضلاً عما يتعلق بأمور الآخرة التي ينبغي للمؤمن أن يوليها ما تستحق من العناية ، لأن الآخرة هي دار القرار ، وليس بعد هـذه الدنيا دار ، إلا الجنة أو النـــار .

وفي شأن ما يكـون عليه حال كل من المؤمـن والكافر بعد الموت ، كـانت لنا وقفة عند آيـة كريمة في سورة المؤمنـون ، وأخرى مثلها في سورة غـافر (المؤمن) وكان الخير غامراً في بيان النبي ﷺ ، وهو يكشـف عما للعمل الصالح من أثر فيما يؤول إليه أمر مـن آمن بالله وعبده حق العبادة ، وعما للضلالـة المردية من أثر فيما يؤول إليه أمر من أعرض عن ذكر الله وأطاع الهوى والشيطان . وأعني بهذا البيان

ما جاء فيما أخرج أحمد وأبوداود والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي من رواية البراء بن عازب رضي الله عنه ، إذ جاء في الحديث من رواية أحمد رحمه الله بالنسبة للمؤمن ـ كما رأينا ـ « ..... ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول : أبشر بالذى يسرُّك هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي » . أما بالنسبة للكافر : فقد جاء في آخر الحديث « ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة » .

هذا : وسؤال الملكين المومى إليه في هذا الحديث ــ كما رأينا من قبل ـ نجد التنصيص عليه ، وعلى عذاب القبر فيما أخرج البخاري ومسلم وأبوداود والنسائي من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه . وقد جاء الإمام البخاري بعدد من الأحاديث في بعضها النص على سؤال الملكين تحت باب عقده لذلك في كتاب الجنائز من الجامع الصحيح عنوانه : « باب ما جاء في عذاب القبر وقوله تعالى : ﴿ إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكةُ باسطو أيديهم ، أخرجوا أنفسكم، اليوم تُجزون عذاب الهون ﴾ الهُون هو الهوان ، والهَوْن : الرفق . وقوله جلّ ذكره: ﴿سنعذبهم مرتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النارُ يُعرضون عليها غُدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ».

وأنت ترى أن في تقديم ذكر هذه الآيات ، بين يدي الأحاديث التي أوردها البخاري ، تنبيهاً على ثبوت عذاب القبر في القرآن ، وأن ما ورد في السنة يؤكد ويقرر ، ويفصِّل ما كان من إجمال في تلكم الآيات وغيرها ، وذلك كله من بيان السنة للكتاب العزيز . والآية الأولى هي الثالثة والتسعون من سورة الأنعام ونصُّها : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليَّ ولم يوح إليه شيء ،

ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ والآية الثانية هي الواحدة بعد المائة من سورة التوبة ونصُّها : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ ونجد بعد ذلك الآيتين الخامسة والأربعين والسادسة والأربعين من سورة غافر ، ونص الأولى : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ .

وأما الآية التي في الأنعام : فروى الطبراني وابن أبي حاتم من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم ﴾ قال : هذا عند الموت ، والبسط : الضرب ، يضربون وجوههم . قال الحافظ ابن حجر : « ويشهد له قوله تعالى في سورة القتال : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ وهذا وإن كان قبل الدفن فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة ، وإنما أضيف العذاب إلى القبر لكون معظمه يقع فيه ، ولكون الغالب على الموتى أن يُقبروا ، وإلا فالكافر ومن شاء الله تعذيبه من العصاة يعذب بعد موته ولو لم يدفن ، ولكن ذلك محجوب عن الخلق إلا من شاء الله » .

وفي شأن ما جاء في آية سورة التوبة ﴿سنعذبهم مرتين ﴾ روى الطبري وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط أيضاً ما دل على نوعين من العذاب للمنافقين أولهما : فضحهم حيث قال ﷺ ـ وهو يخطب ـ «اخرج يافلان فإنك منافق » الحديث ؛ فهذا العذاب الأول . والعذاب الثاني عذاب القبر . وروي الطبرى وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ عذاب الدنيا وعذاب القبر .

أما عن قوله تعالى في سورة غافر : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ فقد

ورد في السنة ما يدل على أنه يُعرض على أهل النار مقعدهم بالغداة والعشي، وأن هذا العرض يكون في البرزخ ، روى البخاري ومسلم وغيرهما عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما وهـذا لفظ البخـاري ، أن رسـول الله ﷺ قـال : « إن أحدكـم إذا مات عـرض عليه مقعده بـالغداة والعشي ، إن كان مـن الجنة ، فمن أهـل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النـار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » . قال القرطبـي : والجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر .

هذا ومن الأحاديـث التي أخرجها الإمام البخاري تحت البـاب المذكور ، ما نجد مـن قولـه رحمه الله حدثنا عيـاش بن الـوليد قال : حـدثنا عبـدالأعلى قال : حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بـن مالك رضي الله عنه أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ قـال : « إن العبد إذا وضـع في قبره وتولى عنـه أصحابـه ـ وإنـه ليسـمع قـرع نعالهم ـ أتـاه ملكان ، فيقعدانه فيقولان : مـا كنت تقول في هذا الـرجل ؟ لمحمد ﷺ . فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبـدالله ورسوله . فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قـد أبدلك الله به مقعداً مـن الجنة ، فيراهما جميعاً » قال قتـادة : وذكر لنا أنه يفسـح له في قبره ، ثم رجـع إلى حديث أنـس قال : « وأمـا المنافق والكـافر : فيقال لـه ماكنت تقـول في هذا الرجل ؟ فيقـول : لا أدري ، كنت أقول مـا يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها مـن يليه غير الثقلين » . وجاء في رواية مسلم : قـال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ويُملأ عليه خَضِراً إلى يوم يبعثون » .

والحق أن ما ورد من النصوص في كتاب الله وسنة النبي علية الصلاة والسلام ـ كما يشعر بها سيكون بعد الموت بين يدي يوم القيامة ـ يفترض أن يثير في المؤمن مزيداً مـن الحيطة في دين الله . واستشعار مـا هو كائن إذا بلغت الـروح الحلقوم؛ فالأمر جد لاهزل فيه ، والسعيد السعيد من خاف على نفسه ، فسلك طريق أهل الخشية، وكان للنفس والشيطان والهوى ، بالمرصاد . والله يتولى الصالحين .

تعوذوا من فتنة القبر

ماذا عليَّ لو جعلت الكلمة الأولى في هذه الصفحات، تذكيراً بعظيم قدر النبي عليه الصلاة والسلام . وكونه الرحمة المهداة ، وخيرَ من نصح لأمته في دينها ودنياها وآخرتها ، حتى تركها على المحجة البيضاء، التي لا يزيغ عنها ، ولا يتخذ هداها وراءه ظهرياً ، إلا هالك .

ولقد كان من نصحه لهذه الأمة ورحمته بها، أن كشف لها ـ في بيان لكتاب الله ـ عن يوم القيامة وأهواله وكل شأن يتصل به ؛ حتى أفاض صلوات الله وسلامه عليه في الحديث عما يكون للمرء بعد موته في القبر ، وعن أثر ما كسب في الدنيا ، أو اكتسب في ذلك .

وعلّم صلى الله عليه وسلم المؤمن كيف يحتاط لدينه ويحسن العمل لآخرته كيما يكون له حسن العاقبة بعد الموت ، ولا يقع في هوة عذاب القبر والعياذ بالله .

كما كان من هديه صلى الله عليه وسلم أن علّم المؤمن أيضاً كيف يلجأ إلى الله أن يعيذه من عذاب القبر وفتنة القبر ، لما أن الأمة تفتن في قبورها فمن كان في مرضاة الله نجا ، ومن كان من أهل الضلالة هلك مع الهالكين . وإنما كانت هذه العناية ببيان ما يكون ما بعد الموت ، وتذكير المؤمنين بذلك لما أن القبر ـ كما أسلفنا من قبل ـ أول منازل الآخرة ، وعنوان ما سوف يكون للمرء بعده يوم الدين، كما أنه المرحلة الأولى في رحلة البرزخ بين يدي يوم القيامة ، يوم المحشر الذي تعنو فيه الوجوه للحي القيّوم ، وقد خاب من حَمَلَ ظلماً ، اليوم الذي يقوم الناس فيه لرب العالمين ويأخذهم ـ وقد برزوا لله الواحد القهار ـ ما يأخذهم من الهول والله المستعان . ولا تعجب يومذاك ـ حيث القلوب واجفة والأبصار خاشعة ـ إذا رأيت المرء يفر من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، فلكل امرىء

منهم يومئذ شأن يغنيه . وكيف لا يكون ذلك كله ، وقد كشف عن الإنسان الغطاء فبصره اليوم حديد ، وتجلى ربنا بعظمته وجلاله ؛ فالأرض جميعاً قبضته يوم القيامة **﴿والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾** وذلكم ما روى مسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ « يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون» ؟ وهكذا كان الذي جاء عن النبي ﷺ بشأن القبر وسؤال الملكين وما يتعلق بذلك متسقاً كل الاتساق مع موقعه من اليوم الآخر وساعات الحساب يوم القيامة ، وقد وقفتنا بعض نصوص السنة سابقاً على شيء من ذلك ، وها نحن أولاء نتابع الرحلة مع نصوص أخر ، في حدود ما يعين على تلمس الهداية في تلك القضية الكبرى التي ترتبط أيما ارتباط بعقيدة المسلم و سلوكه ، وما يجب أن يكون عليه من عمل يحمل النظرة أبداً إلى ما بعد الموت ، فلا تشغله العاجلة عن الآجلة لأن يوم القيامة آت لا ريب فيه .

ومن الواضح أنه ـ بجانب النصوص التي تحدثت عن سؤال الملكين في القبر ـ هنالك ما يدل على اسم كل منهما ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إذا قبر الميت ـ أو قال أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المنكر ، وللآخر النكير فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول: ما كان يقول ، هو عبدالله ورسوله أشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً عبده وسوله، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، ثم ينوَّر له فيه ، ثم يقال له : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان : نم نومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقاً ، قال : سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله، لا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض : التئمي عليه؛ فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعه ، ولا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه

ذلك » أخرجه الترمذي وحسنه ، وهو على شرط مسلم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في حديث بشأن الملكين اللذين يتوليان السؤال في القبر : اسم الملكين اللذين يأتيان في القبر ، منكر ونكير ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن .

ولقد أخبر النبي ﷺ ـ وهو لا ينطق عن الهوى ـ أن عذاب القبر حق وأن أمته تفتن في قبورها وتعوذ ﷺ من عذاب القبر ومن فتنة القبر ، وأمر بذلك ، فعن عائشة رضي الله عنها: «أن يهودية دخلت عليها ، فذكرت عذاب القبر ، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر ، قالت عائشة : فسألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر ؟ فقال : نعم عذاب القبر حق ، قالت : فما رأيت رسول الله ﷺ وقد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر » أخرجه البخاري ومسلم . وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ قال رجل : أنا ، قال : فمتى ماتوا ؟ قال ماتوا في الإشراك ، فقال : إن هذه الأمة تفتن في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : تعوذوا بالله من عذاب النار ، قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار ، قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا تعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال ، قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال » أخرجه مسلم .

جزى الله عنا نبينا محمداً ﷺ أفضل ما جزى مرسلاً عمن أرسل إليهم ، فقد أنقذنا به من الهلكة في الدنيا ويوم الدين ،وصلى الله وسلم عليه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ، أعاذنا الله من عذاب القبر وعذاب النار، ومن الفتن ما ظهر منها وما بطن ، ومن فتنة المسيح الدجال إنه ـ جل شأنه ـ ولي ذلك والقادر عليه .

.. وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات

مرة أخرى ، نعود إلى الـرحلة مع الكلمة المبينة النيرة من حـديث النبي ﷺ وسلم ، في شأن ما هو مـؤذن بها يكون من عاقبة المرء يوم القيامة ، ومـا هو مآله في ذلك اليوم ؛ وأعني بذلك ما يحصل للميت في قبره من سؤال الملكين ، وما يمكن أن يكون مـن العذاب أو النعيم ،لأن القبر إما روضـة من رياض الجنـة ، أو حفرة من حفر النـار . والعبد إذا قبر ، عرض عليه مقعده بالغـداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهـل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النـار. وقد رأينا من قـريب مـا ذهـب إليـه البخـاري وغيره من دلالـة الآيات على عـذاب القبر ، وأن الأحاديـث الصحيحة صريحة في أن سـؤال الملكين حق ، وأن عـذاب القبر حق، عافانا الله من ذلك كما هي صريحة في أن الأمة تفتن في قبورها . ومن أجل هذا تعوذ رسو ل الله ﷺ من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة القبر وأمر بذلك ، والعهد قـريب بها أخـرج البخاري ومسلـم من أحـاديث تتنـاول هذه القضـايا ، وتكشف عنها بأوضح بيان .

وقد روى النسائي بسنـده عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بـن الزبير أنه سمع أسماء بنت أبي بكـر تقول : « قام رسول الله ﷺ ، فذكر الفتنـة التي يفتن بها المرء في قبره ، فلما ذكر ذلـك ضج المسلمـون ضجة حـالت بينـي وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ ، فلما سكنت ضجتهم ، قلت لرجل قريب مني : أي بارك الله لك ، ماذا قال رسـول الله ﷺ في آخر قوله ؟ قال : قد أوحـي إليَّ أنكم تفتنون في القبور قـريباً مـن فتنة الـدجال » والـذي عند البخـاري قولـه : «ضج المسلمـون ضجة» وروى مسلم بسنده عن طاووس عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ كان يعلمهـم هذا الدعاء كما يعلمهـم السورة من القرآن « قـولوا : اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعـوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من

فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » أخرجه النسائي أيضاً .

وهذه واقعة، تحمل نصاً يؤكد ما جاء في هذه الأحاديث؛ فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « خرجنا مع رسو ل الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلحدْ بعدُ ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير ، وبيده عود نكت به في الأض ، فرفع رأسه فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً » . رواه أبوداود .

هذا: وقد جاءت بعض الروايات، بما يشعر بالعلاقة بين عذاب القبر ، وبين قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾ قال الإمام البخاري : حدثنا حفص بن عمر قال : حدثنا شعبة عن علقمة بن مَرْثِدٍ عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبيﷺ قال : « إذا أُقعد المؤمن في قبره ، أُتي ثم شهد أن لاإله الإ الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت** ﴾ ثم قال : حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا غُنْدَرٌ قال: حدثنا شعبة بهذا ، وزاد ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا** ﴾ نزلت في عذاب القبر .

ونجد شيئاً من الزيادة في رواية مسلم . قال رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار بن عثمان العبديُّ قال: حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة عن علقمة بن مرْثد عن سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت قال : نزلت في عذاب القبر فيقال له : من ربك ؟ فيقول ، ربي الله ونبيّي محمد ﷺ ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ » ورواه أبوداود والترمذي ، كما أخرج شيخ المفسرين الطبري عدداً من الروايات في ذلك .

و إذا كان الأمر كذلك ، فلا بدع أن يكون من هديه صلى الله عليه وسلم، تعليم أصحابه ــ ومن ورائهم من يأتي من المسلمين ـ أن يدعوا الله تعالى بأن

يعيذهم من عذاب القبر ،فيثبتهم بقوله الثابت ، بعد أن يكون المؤمن قد أخذ بأسبابَ النجاة ائتماراً بما أمر الله ، وانتهاء عما نهى عنه ، واتباعاً للسبيل التي فيها مرضاة الله ومرضاة الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان هو صلى الله عليه وسلم لايدع أن يستعيذ من أمور كثيرة ، ومنها عذاب القبر كما رأينا من قريب . غير أن في حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام بعض الروايات التي تدل على أن رسول الله ، كان يأمر بالتعوذ من عذاب القبر ومن عذاب جهنم ، ومن فتنة المسيح الدجال ، ومن فتنة المحيا والممات ، وفي رواية ومن المأثم والمغرم ، كان يأمر بالتعوذ من ذلك كله أو أكثره في الصلاة . وكان هو يفعل ذلك ، دليلَ الأهمية المعطاة لهذه القضية الكبرى ، ورحمته ﷺ بأمته: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ روى مسلم بسنده عن محمد بن أبي عائشة عن أبي هريرة وعن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع : يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والمما ت ومن شر فتنة المسيح الدجال » وفي رواية له عن طاووس قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : «عوذوا بالله من عذاب الله ، عوذوا بالله من عذاب القبر ، عوذوا بالله من فتنة المسيح الدجال ، عوذوا بالله من فتنة المحيا والممات » .

وعلى السنن الذي نراه عند رسول الله ﷺ في منهجه الفريد في التربية ، من أنه كان يربي بالقدوة ، كما يربي بالتعليم والهداية ، جاء في الروايات التي تدل ـ كما أشرنا من قبل ـ أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يتعوذ مما أمر أصحابه أن يتعوذوا منه ؛ من هذه الروايات ما أخرج مسلم بسنده عن الزهري قال : أخبرني عروة ابن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم ، قالت : فقال

له قـائل : ما أكثـر ما تستعيـذ من المغرم يـارسول الله ،فقـال : إن الرجـل إذا غرم حدَّث فكذب ، ووعد فأخلف » .

معنى «أعوذ بك من المأثم والمغرم» : أعـوذ بك من الإثم والغُرم ، والغرم هو الدين.

وصلى الله وسلم على معلم الناس الخير الذي ترك أمته على المحجة البيضاء ، فمن اهتدى بهديه صلى الله عليه وسلم نجا وغنم، ومن أعرض عن سبيله كان من الهالكين.

من الأمور التي لا تقبل الجدل ، وحريٌّ بالمؤمن أن يكون على ذكر منها ، فلا ترين الغفلة على قلبه : أن سلامة التصديق بيوم القيامة والمعاد ، تقتضي أن يعمل المؤمن لما بعد الموت ، وأن يجعل نصب عينيه ما يمكن أن تكون عليه الحال في القبر وهو أول منزل من منازل الآخرة ، لأنه إن شملت المرء عناية الله وأضاء طريقه العمل الصالح ، فنجا من هول ذلك المنزل الذي استعاذ رسول الله ﷺ من عذابه ، فما بعد ذلك من ساعات الشدة الشادة يوم القيامة أيسر منه . وإن حقت عليه كلمة العذاب ، بعد سؤال الملكين ، وساءت حاله في الهالكين ، فما بعد ذلك أشد منه والعياذ بالله .

ومن هنا ـ والله أعلم ـ كان السلف الصالح عليهم الرضوان وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله ﷺ ، يُعدون العُدة لسؤال القبر ، ويخشون ما يمكن أن يكون فيه من الابتلاء والامتحان ، لما أن هذه الأمة ـ كما أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ـ تفتن في قبورها ، فترى الواحد منهم ـ على عظيم فضله وتقواه ـ قد يبكي ويطيل البكاء ، إذا ذكر القبر وما فيه ،لأنه المنزل الأول ـ كما أسلفنا ـ من منازل ذلك اليوم الذي قال الله فيه : ﴿يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ ولعل من الخير أن نعيد إلى الأذهان ما روى الترمذي في كتاب الزهد من السنن عن هانىء مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه بإسناد حسن «أنه قال : كان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبلَّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي ، وتذكر القبر فتبكي ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه ، فما بعده أشد منه » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه » . وزاد رزين : قال هانىء : وسمعت عثمان ينشد على قبر :

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة   وإلا فإني لا إخالك ناجيا

ألا وإن في صنيع عثمان رضي الله عنه؛ من عميق تأثره بذكر القبر ، وكل ما هو منه بسبب ، دلالة على عميق فهمه لما بيّن النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو المبلغ عن ربه عز وجل ـ من أهمية ماتكون عليه الحال في القبر ، وأن النجاة منه عنوان خيرية لما يكون يوم القيامة ، وأن عدم النجاة منه ـ أعاذنا الله والمؤمنين من ذلك ـ عنوان الخسران يوم المعاد ، ومن أجل هذا كانت تلك الخشية وكان ذلك التحسب ، فعثمان رضي الله عنه وأرضاه ،يبكي مشفقاً من عذاب الله الذي يكون عذاب القبر إيذاناً به ، بعد أن ينصرف أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .

فلو أنا إذا متنا تركنا   لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بعثنا   ونُسأل بعده عن كل شي

وإني مشير هنا إلى ما سبق من نصوص السنة المطهرة التي تحمل تخوّف النبي ﷺ على أمته من عذاب القبر وفتنة القبر ، وهديه في الاستعاذة والتضرّع إلى الله أن يعيذه من عذاب النار ، ومن عذاب القبر ، ومن الفتنة ما ظهر منها وما بطن ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال ومن المأثم والمغرم، وفي توجيه المؤمنين والمؤمنات إلى أن يستعيذوا من هذه العظائم وأمثالها ، بعد أن يكونوا قد قدموا من العمل الصالح في طاعة الله تعالى ، ما يقيهم الشدائد ويجعلُ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم الحساب ، والله المستعان .

غير أن مما يجدر التنبيه عليه : أنه بجانب تلك النصوص المطلقة في إثبات عذاب القبر ؛ هنالك من النصوص ـ التي سبق بعضها ـ ما يدل على أن إعلام النبي ﷺ بثبوت عذاب القبر ، قد جاء متأخراً في المدينة مهاجره عليه الصلاة والسلام ؛ قال الإمام البخاري : حدثنا عبدان قال : أخبرني أبي عن شعبة قال: سمعت الأشعث عن أبيه عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها « أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر ، فقالت : أعاذك الله من عذاب القبر .

فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عـذاب القبر فقال : « نعم عذاب القبر » قالت عائشة رضي الله عنها : فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوَّذ من عذاب القبر » زاد غُندر : «عـذاب القبر حق » ورواه النسـائي بلفظ « نعـم عذاب القبر حق » [1] أخرجه النسـائي بلفظ « نعم عذاب القبر حق » وفي بعـض الروايات عند البخاري ومسلم أنهما عجوزان من عجز يهود المدينة . وروى مسلم بسنده عن ابن شهـاب قال : حدثني عروة بـن الزبير أن عائشة رضي الله عنهـا قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ وعنـدي امرأة من اليهود وهي تقول: هـل شعرتِ أنكم تفتنون في القبـور ؟ قالـت : فارتـاع رسول الله ﷺ وقـال : إنما تفتن يهود ، قـالت عائشة : فلبثنا ليالي ثم قال رسول الله ﷺ : هل شعرت أنه أوحي إليَّ أنكم تفتنون فيالقبور ؟ قالت عائشة : فسمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيذ من عذاب القبر ».

ويلاحظ أن بين هذه الرواية وسابقتها مخالفة ـ في الظاهر ـ لأن في هذه، أنه صلى الله عليـه وسلـم أنكـر على اليهـودية ، وفي الأولى أنـه أقـرَّهـا . وقـد ذهـب الطحاوي والنـووي وغيرهما إلى أنهما قصتان ، فأنكـر النبي ﷺ قول اليهـودية في القصة الأولى ، ثم أُعلم النبـي ﷺ بذلك ولم يعلم عائشة ، فجـاءت اليهودية مرة أخرى ، أو اليهـوديتان ــ كما في بعض الـروايات ــ فذكـرت لها ذلك ، فكـذبتها عائشة رضي الله عنها بناء على الإنكار الأول ، ولم تكن علمت نزول الوحي بإثبات عذاب القبر ، فأعلمها النبيﷺ أن الوحي نزل بإثباته .. ومما يؤيد ذلك ما روى البخاري في « باب التعوذ من عـذاب القبر في الكسوف » من الجامع الصحيح من طريق عمرة عن عائشة « أن يهودية جاءت تسألها فقالت لها : أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت عائشة رسـول الله ﷺ « أيعذب الناس في قبورهم ؟ فقال رسـول الله ﷺ عائذاً بـالله مـن ذلك ثـم ركب رسـول الله ﷺ ذات غـداة مركبـاً فخسـفت الشـمس ـ فذكـر الحديث ـ وفي آخـره « ثم أمـرهـم أن يتـعـوذوا من

---

(١): « الجامع الصحيح ـ مع ـ فتح الباري » : (٣/ ٢٣٦) وانظر « جامع الأصول (١١/ ١٦٦) » « مسلم بشرح النووي » : (٥/ ٨٦) .

عذاب القبر » قال الحافظ : وأصرح منه ما رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري عن سعيد بن عمرو بن سعيد الأموي عن عائشة « أن يهودية كانت تخدمها ، فلا تصنع إليها عائشة شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر ، قالت : فقلت : يارسول الله هل للقبر عذاب ؟ قال : كذبت يهود، لا عذاب دون يوم القيامة ، ثـم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكـث ، فخرج ذات يوم نصف النهار ، وهو ينادي بأعلى صوته : أيها النـاس استعيذوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حـق » وفي هذا كله ــ كما يقول صاحـب الفتح ـ أنـه صلى الله عليه وسلم إنما علم بحكم عذاب القبر ، إذ هو بالمدينة في آخر الأمر ، كما تقدم تاريخ صلاة الكسوف في موضعه ، مشيراً بذلـك إلى أن صلاة الكسوف كانت في السنة العاشرة من الهجرة يوم توفي إبراهيم ولد الرسول عليه الصلاة والسلام .

هذا ، ومن حـق هذه المسألة العظيمة ؛ مسألـة عذاب القبر وسؤال الملكين والفتنة في القبور وما إلى ذلك ، أن نضيف إلى ما سبق تجلية لبعض الجوانب شيئاً مما جاء على ألسنة علمائنا الأعلام رحمهم الله تعالى .

قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم عند الكلام على حديث عائشة رضي الله عنها « أن يهودية قالت : هل شعرت أنكم تفتنون في القبور .. » الحديث. وفي الروايـة الأخرى دخلت عجوزان مـن عجز يهود المدينة وذكـرت أن النبيﷺ صدقهما ـ قال : هذا محمول على أنهما قضيتان ؛ فجرت القضية الأولى ، ثم أعلم النبي ﷺ بذلك ، ثم جاءت العجوزان بعد ليال فكذبتهما عائشة رضي الله عنها، ولم تكن علمـت نزول الوحـي بإثبات عـذاب القبر ، فدخل عليهـا النبي ﷺ ، فأخبرته بقول العجوزين ، فقال : صدقتا ، وأعلم عائشة رضي الله عنها بأنه كان قد نزل عليـه الوحي بإثبـاته ، وقولها : « لم أُنعم أن أصـدقهما » أي لم تطب نفسي، ومنه قولهم في التصديـق : نعم ، وهو ـ أي قـولها لم أنعم ـ بضم الهمـزة و إسكان النون وكسر العين)[1].

---

(١) مسلم بشرح النووي : (٥/ ٨٥ـ ٨٦) .

وجاء في الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (سئل رحمه الله هل يتكلم الميت في قبره أم لا ؟ فأجاب : يتكلم ، وقد يسمع أيضا من كلمه ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إنهم يسمعون قرع نعالهم » وثبت عنه في الصحيح « أن الميت يسأل في قبره : فيقال له : من ربك وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيثبت الله المؤمن بالقول الثابت ، فيقول : الله ربي والإسلام ديني ومحمد نبيي ، ويقال له : ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول المؤمن : هو عبدالله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى ، فآمنا به واتبعناه » قال شيخ الإسلام : وهذا تأويل قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وقد صح عن النبي ﷺ أنها نزلت في عذاب القبر ، وكذلك يتكلم المنافق فيقول : آه آه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته . فيضرب بمرزبة من حديد ، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال: لولا أن لاتدافنوا لسألت الله أن يسمعكم من عذاب القبر مثل الذي أسمع» وثبت عنه في الصحيح أنه نادى المشركين يوم بدر لما ألقاهم في القليب وقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » والآثار في هذا كثيرة منتشرة والله أعلم)[1].

وفي دفع لما قد يعرض من إشكال حول استنباط أن عذاب القبر حق من قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ مع أن الآيتين مكيتان وإنما أعلم رسول الله ﷺ بحكم عذاب القبر إذ هو في المدينة، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : (وقد استشكل ذلك بأن الآية المتقدمة مكية وهي قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا ﴾ وكذلك الآية الأخرى المتقدمة وهي قوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ...﴾ والجواب : أن عذاب القبر إنما يؤخذ من الأولى بطريق المفهوم في حق من لم يتصف بالإيمان ، وكذلك المنطوق في الأخرى في حق آل فرعون ، وإن

(١) " مجموع فتاوى ابن تيمية " :(٢٤/ ٣٧٩) .

التحق بهم من كان له حكمهم من الكفـار ؛ فالذي أنكره النبيﷺ إنما هو وقوع عـذاب القبر على الموحديـن ، ثم أعلـم ﷺ أن ذلـك قد يقـع على من يشـاء الله منهـم، فجزم بـه وحذر منـه ، وبالـغ في الاستعاذة منـه ، تعليماً لأمته وإرشـاداً ، فانتفى التعـارض بحمد الله تعالى . وفيه دلالة على أن عـذاب القبر ليس بخاص بهذه الأمة بخلاف المسألة ـ يعنـي المساءلة ـ ففيها اختلاف) [1] وقد فصل رحمه الله القول في ذلك في آخر الباب، ورجح أن المساءلة ـ كما تدل النصوص ـ واقعة أيضاً على الكفـار ومن شاء الله مـن الموحديـن ، مورداً قول ابـن القيم رحمه الله : (وليس في الأحاديث ما ينفي المسألـة عمن تقدم من الأمم ، وإنما أخبر النبي ﷺ أمته بكيفية امتحانهم في القبور ، لا أنه نفى ذلك عن غيرهم ، قال : والذى يظهر أن كل نبـي مع أمتـه كذلك ، فتعـذب كفارهـم في قبورهم بعـد سؤالهم وإقـامة الحجة عليهم ، كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال و إقامة الحجة) .

ثم استنبط الحافظ من النصوص ، أن الميت يحيا في قبره للمساءلة، خلافاً لمن ردّه ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ...﴾ الآية قال: فلو كان يحيا في قبره للـزم أن يحيا ثلاث مرات ويموت ثلاثـاً وهو خلاف النص . والجواب بأن المراد بالحيـاة في القبر ، ليس الحياة المستقرة المعهودة في الـدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبيره وتصرفه وتحتـاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء ، بل هي مجرد إعادة لفـائدة الامتحان الذى وردت به الأحـاديث الصحيحة ، فهـي إعادة عارضة، كما حيي خلـق لكثير من الأنبياء ، لمسألتهم عن أشياء ثـم عادوا موتى . قال : وفي حديث عائشة جواز التحديث عن أهل الكتاب بما وافق الحق[2] .

هذا : والحديث الـذي عناه الحافظ ، هو آخر حديـث أورده الإمام البخاري تحت «باب ما جاء في عذاب القبر » وروى فيه عـن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال : « إن العبـد إذا وضع في قبره تـولى عنـه أصحابـه ـ وإنـه

---

(١) " فتح الباري " : (٣/ ٢٣٦) .

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٤٠) .

ليسمع قرع نعالهم ـ أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ لمحمد ﷺ ، فأما المؤمن : فيقول أشهد أنه عبدالله ورسوله ، فيقولان له : انظر إلى مقعدك من النار ، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، فيراهما جميعاً قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره ، ثم رجع إلى حديث أنس قال : «وأما المنافق والكافر : فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس . فيقال : لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين» .

اللهم إن عذاب القبر حق ، وقد استعاذ منه نبيك محمد ﷺ كما أمر بالاستعاذة منه ، فأعذنا اللهم بمنك وكرمك منه ، وعافنا من لأوائه ، واجعله خير منزل لنا في عالم البرزخ ، كيما يكون روضة من رياض الجنة ، تؤذن بحسن العاقبة يوم يعرض الخلق على جبار السماوات والأرض لاتخفى منهم خافية ، إنك يا ربنا خير مسؤول ، وأعظم مأمول ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الرسول الكريم... والنفخ في الصور

في ضوء ما سبق من النصوص ،وفهوم أئمة الهدى رحمهم الله، نعود إلى القول المستبين : ماذا عن العاقبة في يوم المعاد يوم القيامة ؟ وما هو المصير فيما يسبق ذلك من سؤال القبر ، أعاذنا الله من فتنته وعذابه ؟ الذي يتطلع إليه المؤمن ـ وكله خوف من عذاب الله ورجاء بفضله وغفرانه ــ هو ما يمكن أن يكون من تلك العاقبة وذلك المصير بعد الموت ـ ذلك بأن الحصاد فيما وراء الحياة الدنيا هو الذي عليه المعوّل ، أليست الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ؟ اللهم نعم، فمن أوتي الحكمة ، واتسم عمله العقلي بالنظر إلى ما يكون بعد الموت في القبر، ويوم يحشر الناس حفاة عراة غرلاً كما بين الرسول عليه الصلاة والسلام .. هو العاقل الذى يضع الأمور مواضعها ، ولا تلهيه العاجلة عن الآجلة ، بل يتخذ من الدنيا مطية إلى الآخرة ، ويضع نصب عينيه أنه يوم يقف الناس سواسية بين يدي رب العالمين، لا ينفعه إلا ما قدّم من العمل الصالح ، الذي قام على الإيمان ، وربا على النهج السويّ ، نهج عباد الله الصالحين الذين تراهم ومطمح أنظارهم أبداً أن يكونوا على الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام ، ومن تبع سبيلهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين ، والفضل أولاً وآخراً لله تبارك وتعالى والسعيد السعيد من يستقيم على طاعة الله فيتغمده الله برحمته ، فإذا به قد زحزح عن النار ، وأدخل الجنة وكان من الفائزين .

والطريق التي نومىء إليها ، هي التي أرسى معالمها الصادق المصدوق رسول الله ﷺ ؛ إذ كان ما بعد الموت نصب عينيه ، وذكر الآخرة هجيراه ، ونفخة الصور يوم القيامة لا تبارح فكره ، وهو الذي زانه الله بالعصمة ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قول الله تعالى : ﴿ فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ قال رسول

الله ﷺ : « كيف أنعَم وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى السمعَ متى يؤمر ؟ قال : فسمع ذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، فشقَّ ذلك عليهم، فقال رسول الله ﷺ : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » رواه أحمد والطبراني وفي رواية لأبي جعفر الطبري عن ابن عباس : قوله : ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ قال: هو يوم ينفخ في الصور الذى ينفخ فيه ، قال ابن عباس : «إن نبي الله ﷺ خرج إلى أصحابه فقال : كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، ثم أقبل بأذنه يستمع متى يؤمر بالصيحة ، فاشتد ذلك على أصحابه فأمرهم أن يقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » . والحديث رواه أحمد والطبراني عن زيد بن أرقم رضي الله عنه بلفظ «قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ». قال الهيثمي : ورجاله وثقوا على ضعف فيهم .

والمراد بصاحب القرن المذكور في كلام النبي عليه الصلاة والسلام : الملك الموكَّل بنفخ الصور، وأنت ترى أن الصور ، والناقور ، والقرن ـ هنا ـ كلَّها ، بمعنى واحد.

هكذا نجد النبي عليه الصلاة والسلام ، تأخذ النفخة في الصور ، وما يمكن أن يتبعها من أهوال يوم القيامة بمجامع فكره ونفسه التقية العظيمة ، فلا يجد مكاناً في تلك النفس ، ولو باليسير من التنعُّم والفرح والترفه في هذه الدنيا ، قال ابن الأثير في النهاية بعد أن أورد قولهﷺ : « كيف أنعَمُ وصاحب القرن قد التقمه» أي كيف أتنعّم من النّعْمة بالفتح وهي المسرّة والفرح والترفُّه . وقد مر بنا من قبلُ ، ما كان منه صلوات الله وسلامه عليه من إعظام عذاب القبر والخشية على أمته منه ، وكيف كان يستعيذ من ذلك ويأمر المسلمين به ويعلمهم كيف يستعيذون ... فإذا أضفنا الموقف الأول وأمثاله إلى الموقف من عذاب القبر ، وهو ﷺ المبلغ عن ربه والمعلم والمربي .. بانت لنا بعض الملامح التي يحملها الهدي النبوي ، فيما يجب أن يكون عليه المؤمن ، وهو يمضي في هذه الدار الفانية ما يكتب له من العمر فيها ، وعمادُ ذلك أن يُحسن التأسي بنبيه عليه الصلاة

والسلام، فيذكر ما يكون في القبر والبرزخ ، وفي عرصات القيامة ، ويتزود لذلك كله بالزاد النافع الذى يباعد بينه وبين الغفلة **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولي الألباب﴾**. وقد وقفتنا النصوص الصحيحة من السنة في صفحات خلت ، على أن سؤال الملكين حق ، وأن عذاب القبر حق . والذي يحسن توكيده شحذاً للعزائم هنا : أن عذاب القبر واقع بالنسبة لمستحقيه من أمة محمد ﷺ وإن تأخر إعلام النبي ﷺ به . ولكن هذه القضية ، على عمومها ، كانت مقررة على الأمم قبلنا ، كما دل على ذلك ما أوردنا من قبل : يؤكد هذا الذي نقول ما أشرنا إليه فيما سبق ، وهو ما روى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت عليَّ عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا : إن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، قالت : فكذبتهما ولم أُنْعِم أن أصدِّقهما ، فخرجتا ودخل عليَّ رسول الله ﷺ ، فقلت له : يارسول الله إن عجوزين من عُجز يهود المدينة دخلتا عليَّ فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم ، فقال : صدقتا ، إنهم يعذَّبون عذاباً تسمعه البهائم ، قالت : فما رأيته بعدُ في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر » معنى لم أُنعم أن أصدقهما : أي لم تطب نفسي أن أصدقهما.

وإذا كان الأمر كذلك ــ ورسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ـ فما أحرى المؤمن أن يكون على ذُكر من ذلك كله ، وأن يضع في حسبانه ـ كما سبق ـ ما يجب من الإعداد لما بعد الموت في البرزخ ويوم المعاد . ولقد كان من رحمة النبي ﷺ بأمته أن هداها إلى الصراط المستقيم ؛ فما من خير إلا كشف عنه ورغّب فيه ، وما من شيء غير ذلك إلا بيّنه ورغّب عنه من أمثلة ذلك ما نرى من بيانه لبعض الأمور التي تكون سبباً في عذاب القبر والعياذ بالله فقد روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « مرّ النبي ﷺ بحائط من حيطان المدينة فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما ، فقال : النبي ﷺ : يعذبان وما يعذبان في كبير ، قال: بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة » ثم دعا بجريدة فكسرها كسرتين ، فوضع على كل قبر منها كسْرة ، فقيل له : يارسول

الله لم فعلت هذا ؟ قال لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا » . وفي رواية لمسلم «مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما : فكان يمشي بالنميمة ، وأما الآخر : فكان لا يستتر من بوله قال : فدعا بعسيب رطب فشقه اثنين ، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ، ثم قال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا » .

لقد تجاوز الأول الطهارة المعنوية وصار يمشي بالنميمة ، وتجاوز الآخر الطهارة المادية فلم يستتر من بوله ، وكلا الأمرين ليس كبيراً في زعمهما أو ليس كبيراً تركه ، فحقَّ عليهما ما يستحقان من العذاب .

وصلى الله وسلم على رسول الله الذي حملته الرحمة على عمل ما من شأنه أن يخفف عنهما بفضل الله من العذاب ، وعلى آله وصحابته وتابعيهم بإحسان ومن اهتدى بهديه فأصلح العمل ، وأعَدَّ العدة ليوم المعاد .

قالوا.. وهم في سياق الموت

ما أسلفنا مـن بعض النصوص التي بيّن فيهـا النبي ﷺ لأمته ما يكـون بعد الموت ، وأن الحال التي يكون عليها المرء يوم القيامـة ، مرتبطة تمام الارتباط بحاله في البرزخ ... ما أسلفنا من ذلـك وهو بيان لما جاء في الكتاب العزيـز ، كان حرّياً أن يرتفع بـأهل الصدق وفي مقدمتهم أصحـابه ﷺ ومن سلك سبيلهـم بإحسان إلى حيث المخافة من الله ، وتهُيّب العـاقبة والمصير بعد أن تقبض الروح ، ويصبح المرء في أول مرحلة من مراحل البرزخ ؛ حيث المقام إلى أن ينفخ في الصور ، وتقوم القيامـة ، ويقف النـاس لرب العـالمين . ولم يكن ذلـك بدعـاً في أهل الصـدق ، فرسـول الله ﷺ نفسه ـ كما أسلفت مـن قبل ـ لما نـزل قوله تعالى في سـورة المدثر : ﴿فإذا نقـر في الناقور فـذلك يومئـذ يوم عسير﴾ قال صلوات الله وسـلامه عليه: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته متى يؤمر فينفخ ؟ فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فقـالوا : كيف نقول : قال : قولـوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وإذن : فحسن الأسوة برسول الله ﷺ بعد الذي بيَّن عن القبر وما فيه ، وعن أهوال يوم القيـامة ، أن يكون ما نشير إليـه في أصحاب النبي ﷺ ومن أكـرمه الله بالسير على نهجهم واتبـاع سبيلهم بإحسان . أخرج الإمام أحمد في «الـزهد » عن عبادة بن نسيّ قال : لما حضرت أبابكر رضي الله عنـه الوفاة قال لعائشة رضي الله عنهـا : « اغسلي ثوبيَّ هـذين وكفنيني بهما ، فـإنما أبوك أحـد رجلين إما مكسـو أحسن الكُسْـوة أو مسلوب أسـوأ السلب » وعنـد ابن سعـد في رواية أخـرى عن عائشة رضي الله عنها ، أنها استشهدت لما حُضر بأبيها بقول الشاعر :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال أبوبكر رضي الله عنه وأرضاه : لا تقولي هكذا يابنية ولكن قولي : ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ وقال: انظروا ثوبَيَّ هذين فاغسلوهما ثم كفنوني فيهما ، لأن الحي أحوج للجديد من الميت، إنما هو للمهلة.

وأخرج ابن سعد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حضرته الوفاة ، كان مما قاله لابنه : «.. فإذا قبضت فأغمضني ، واقصدوا في كفني ، فإنه إن يكن لي عند الله خير ، أبدلني خيراً منه ، وإن كنت غير ذلك ، سلبني فأسرع سلْبي ، واقصدوا في حفرتي ، فإنه إن يكن لي عند الله خيرٌ وسّع لي فيها مدَّ بصري ، وإن كنت على غير ذلك ضيّقها عليَّ حتى تختلف أضلاعي ، ولا تخرجنّ معي امرأة ، ولا تزكوني بما ليس فيّ ، فإن الله هو أعلم بي ، وإذا خرجتم بي ، فأسرعوا في المشي ، فإنه إن يكن لي عند الله خير ،قدمتموني إلى ما هو خير لي ، وإن كنت غير ذلك ، كنتم قد ألقيتم عن رقابكم شراً تحملونه» . ومما ورد عنه رضي الله عنه بعد أن طُعن وجعل الأمر شورى وعرف أنه الموت ، قوله : «الآن لو أن لي الدنيا كلها لافتديت بها من هول المطّلع ، وقوله لابنه : ألصق خدي بالأرض يا عبدالله بن عمر ، يقول عبدالله رضي الله عنه : فوضعته من فخذي على ساقي فقال : ألصق خدي بالأرض ، فترك لحيته وخده حتى وقع بالأرض فقال : ويلك وويل أمك عمر إن لم يغفر الله لك ياعمر »، ثم قبض رضي الله عنه وأرضاه ، أخرجه الطبراني في حديث طويل عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وحسّن إسناده الهيثمي في «مجمع الزوائد ».

والحق أنا لو رحنا نستعرض ، ولو بعض ما ورد عن هؤلاء الرجال في خشيتهم من الله ، وفرَقهم من هول المطّلع ، وكيف كان إحساسهم بما جاء في الكتاب والسنة، مما يمكن أن يكون بعد الموت وعن مشاهد يوم القيامة ... لورحنا نستعرض بعض ذلك ، لطال بنا الحديث وطال ، ولكنها شذرات مباركات ، يبدو ـ والله أعلم ـ أننا نحن المسلمين بأمس الحاجة إليها اليوم ، بعد أن غزتنا الأفكار المنحرفة في عقر دارنا ، وبعد أن اهتزت بعض المقاييس الصحيحة عند كثير من المسلمين ، ولا تسل عن الاتجاهات المادية وسلطانها على الناس ، حتى كاد

البعض ينسى الموت ، ومـا يكون بعد الموت ، ولا يطيق أن يذكَّر بيـوم المعاد ، يوم يعرض الناس على رب العالمين ، فلا تخفى منهم خافية .

ولقد يكون من الخير ، أن نذكِّر بأن أولئك البررة الذين هم ثمرة من ثمرات التربية الإيمانية التي أحكمتها يد محمد ﷺ الصّناع ، كان يكون بين يدي الموت ، في حال مراجعة كاملة للحساب ، ما صنـع ، وماذا هو مقدم عليه . أخرج مسلم بسنده عن عبدالـرحمن بن شِماسَة َالمْريِّ قال : «حضرنا عمرو بـن العاص وهو في سياقة الموت ، فبكى طويلاً وحوّل وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : ياأبتاه أما أبشرك رسول الله ﷺ بكـذا ، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ قـال : فأقبل بـوجهه فقال : إن أفضل مـا نُعدُّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسول الله . إني كنت على أطباق ثـلاث . لقد رأيتنـي وما أحـد أشدَّ بغضـاً لرسـول الله ﷺ مني ، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون استمكنـت منه فقتلته ، فلو متُّ على تلـك الحال ، لكنت من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام في قلبي ، أتيت النبي ﷺ فقلت : ابسط يمينك فلأ بايعـك ، فبسط يمينه ، قال : فقبضت يـدي ، قال : مالك يـاعمرو ؟ قال : قلـت: أردت أن أشترط . قـال : تشترط بماذا؟ قلـت : أن يُغفـر لي ، قـال : « أمـا علمت أن الإسلام يهدم مـا كان قبله ؟ وأن الهجرة تهدم مـا كان قبلها ؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟» وما كان أحـد أحبّ إليَّ من رسول الله ﷺ ، ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملأ عينيَّ منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت ؛ لأني لم أكن أملأ عينـيَّ منه ولو مُتُّ على تلـك الحال ، لرجوت أن أكون مـن أهل الجنة . ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيهـا ،فإذا أنا مُتُّ فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فـإذا دفنتموني فشُنُّـواعليَّ التراب شنّاً ، ثـم أقيموا حـول قبري قدر مـا تنحر جزور وُيقسم لحمها حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي» [١] .

«في سياقة الموت» : أي حال حضور الموت . ومعنى : كنت على أطباق ثلاث أي على أحوال ثلاث ؛ قال الله جل شأنه : ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ فلهذا أتت

---

(١) " صحيح مسلم " : (١/ ١١٢).

«ثلاثاً» إرادة لمعنى أطباق ، « فشنوا عليَّ التراب» ضبطه العلماء كما يقول الإمام النووي بالسين المهملة «فَسُنُّوا» وبالمعجمة «فَشُنُّوا» ، وكذاقال القاضي عياض : إنه بالمعجمة وبالمهملة قال: وهو الصب، ويكون المعنى : (فصبوا) وقال القاضي عياض : وقيل بالمهملة : الصب في سهولة ، وبالمعجمة : التفريق . وروى الحديث أحمد في المسند وابن سعد في الطبقات وغيرهما .

وبعد : فنعّما يصنع المكلّف ، إذا هو ارتفع إلى مستوى التدبر الأخروي لهذه الوقائع ، وحاول الانتفاع بما يعطي هذا الحديث وأمثاله من أحكام لا غنى للمسلم عن التفاعل معها ، على صعيدي المعرفة والسلوك .وفي هذا الحديث ـ كما يقول الإمام النووي رحمه الله ـ عظم موقع الإسلام والهجرة والحج ، وأن كل واحد منها يهدم ما كان قبله من المعاصي ، كما بين الرسول عليه الصلاة والسلام.

وعلى صعيد ما ينبغي من حسن الظن بالله تعالى ، ورجاء فضله وإحسانه: في الحديث ، استحباب تنبيه المحتضر على إحسان ظنه بمولاه الرحيم الرحمن سبحانه وتعالى ، وذكر آيات الرجاء ، وأحاديث العفو عنده ، وتبشيره بما أعده الله تعالى للمسلمين وذكر أحسن أعماله عنده ليحسن ظنه بالله تباركت أسماؤه ويموت على ذلك « أنا عند ظن عبدي بي » قال الإمام النووي رحمه الله : « وهذا الأدب مستحب بالاتفاق ، وموضع الدلالة من هذا الحديث قول ابن عمرو لأبيه : أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ».

وفيه ما كانت الصحابة رضي الله عنهم عليه ، من توقير رسول الله ﷺ وإجلاله، حتى إن عمراً رضي الله عنه، ما كان يطيق أن يملأ عينيه منه إجلالاً له، ولو سئل أن يصفه ما أطاق، لأنه لم يكن يملأ عينيه منه .

ويلاحظ حرص عمرو رضي الله عنه على الابتعاد عن عادات الجاهلية ، وعما فيه إحداث شيء في الإسلام . فقوله : «لا تصحبني نائحة ولا نار » مردُّه إلى امتثال نهي النبي ﷺ عن ذلك . قال النووي : «وقد كره العلماء ذلك ، وأما النياحة:

فحرام ، وأما اتباع الميت بالنار : فمكروه للحديث ، ثم قيل : سبب الكراهة كونه من شعار الجاهلية ».

ويذكر هنا ما روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يتبع الجنازة صوت ولا نار يمشي بين يديها » ومما استنبطه العلماء من قوله رضي الله عنه : « ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي » إثبات فتنة القبر وسؤال الملكين وهو مذهب أهل الحق. ومن ذلك المكث عند القبر لحظة، نحو ما ذكر ، وأن الميت يسمع حينئذ من حول القبر .

اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين وأعذنا من فتنة القبر وعذاب القبر، وارض عن أصحاب نبيك أجمعين يارب العالمين .

التربية الإيمانية... وسياقة الموت

نعود ـ والعود أحمد ـ إلى ما كنا بسبيله في كلمات سبقت، من تلمّس الآثار التربوية والنفسية عند أولئك الذين حضروا متنزل الوحي ، وتناول إعدادهم والارتفاع بهم إلى مستوى الخشية الصادقة من عذاب الله ، محمد ﷺ بيده الأمينة الصّناع ، فباتوا ـ وهم يديرون حركة الحياة ويعمرون الأرض ـ على ذكر للموت وما يكون بعد الموت ، واستشعار عميق لتلكم الساعات الزاخرة بالهول يوم القيامة ، اليوم الذي يصدر فيه الناس أشتاتاً ليُروا أعمالهم : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ .

ومن الأهمية بمكان ـ أيضاً ـ تلمُّس الآثار نفسها ، عند من تبعوهم بإحسان واتخذوا من سبيلهم في التأسي برسول الله ﷺ والتأثر العميق بهديه سبيلاً، وما أجمل أن يأخذ الهدي النبوي طريقه إلى القلوب والعقول، فتتحول الهداية في سلوك الناس ، وجوداً ذاتياً ، شاهداً بصدق ما ربّى الناس عليه ، سيد الخلق وإمام المربين والمعلمين محمد عليه الصلاة والسلام .

والنماذج التي أوردتها فيما سبق ، عن أبي بكر وعمر وعمروبن العاص رضي الله عنهم ، تشير إلى عمق انفعالهم بذلك الهدي المحمدي ، حيث بلغت مخافتهم ومحاسبتهم لأنفسهم وهم ، في أحرج الساعات ، ما بلغت، ورأينا واحداً منهم ذلك العبد الخاشع الذي يشعر بضعفه وذلته بين يدي أحكم الحاكمين، وهو مقبل على تلك اللحظة الحاسمة ، حيث قبضُ الروح ، وقد بلغت الحلقوم ولا حول ولا طول .

والحق أن لهذه التربية على مخافة يوم الحساب ، وما قبله مما يكون في البرزخ، أثرها العظيم في السلوك ، وإذا قلنا : السلوك ، فمعنى ذلك أن هذا الأثر يتعدى

الفرد إلى الجماعة ، لأن مراقبة الله وخشية غضبه وعقابه ، كل أولئك يسهم في بناء الوازع الداخلي الذى يسهم إلى حد كبير في دفع الأذى عن الجماعة التي ضمنت سلامة لبناتها ، بل يسهم في الإصلاح وإقامة البناء الحضاري على الوجه المطلوب . وإذا كان هنالك من المخالفات ما لا تطوله يد السلطة ، فالوازع الداخلي الإيماني كفيل بأن يحول دون التجاوز ودون كل ما يؤذي ، سواء أكان ذلك على صعيد الفرد أم على صعيد الجماعة .

وهذا الذي نشير إليه ، ونحن نتلمس آثار الهدي النبوي في التربية على ذلك، يشدنا إلى رواية أخرى في شأن الذي كان من الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه وقد حضرته الوفاة ، بعد أن وقفنا من قريب على رواية الإمام مسلم في صحيحه ، لعل في ذلك مزيداً من البيان . فقد أخرج الإمام أحمد بسنده عن يزيد بن أبي حبيب أن عبدالرحمن بن شِماسَة حدثه قال : « لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة ، بكى ، فقال له ابنه عبدالله : لم تبكي ؟ أجزعاً من الموت فقال : لا والله ، ولكن مما بعد الموت ، فقال له : قد كنت على خير ، فجعل يذكِّره صحبته رسول الله ﷺ وفتوحه الشام ، فقال عمرو : تركت أفضل من ذلك كله : شهادة أن لا اله إلا الله . إني كنت على أطباق ليس فيها طبق إلا عرفت نفسي فيه، كنت أول قريش كافراً ، وكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ فلو مت حينئذ وجبت لي النار ، فلما بايعت رسو ل الله ﷺ ، كنت أشد الناس حياءً منه ، فما ملأت عيني من رسول الله ولا راجعته فيما أريد حتى لحق بالله ، حياءً ، فلو مت يومئذ ، قال الناس : هنيئاً لعمرو أسلم وكان على خير فمات عليه ، نرجو له الجنة. ثم تلبست بعد ذلك بالسلطان وأشياء ، فلا أدري عليَّ أم لي ؛ فإذا مت فلا تبكِيَنَّ عليَّ باكية، ولا يتبعني مادح ولا نار ، وشدوا عليَّ إزاري فإني مخاصم ، وشنوا عليَّ التراب شناً فإن جنبي الأيمن ليس أحق بالتراب من جنبي الأيسر، ولا تجعلُن في قبري خشبة ولا حجراً ، وإذا واريتموني فاقعدوا عندي قدر نحر جزور أستأنس بكم » وقد رأينا عند مسلم بعض الزيادات ومنها قوله رضي الله عنه في آخر كلامه : « كي

أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع رسل ربي ».

وقال الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية» : وفي رواية أنه ـ رضي الله عنه ـ بعد هذا ، حوّل وجهه إلى الجدار وجعل يقول : « اللهم أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فما انتهينا ، ولا يسعنا إلا عفوك» ، وفي رواية أنه وضع يده على موضع الغلّ من عنقه ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم لاقويٌّ فأنتصر ، ولا بريء فأعتذر ، ولا مستنكر بل مستغفر ، لا إله إلا أنت » فلم يزل يرددها حتى مات رضي الله عنه وهنالك رواية لابن سعد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما جاء في آخرها : «ثم قال : اللهم إنك أمرتنا فركبنا ، ونهيتنا فأضعنا ، فلا بريء فأعتذر ، ولا عزيز فأنتصر ، ولكن لا إله إلا الله ، ما زال يقولها حتى مات رضي الله عنه» ..

وكما أسلفنا ــ من قبل ــ لقد عمل تكوين أولئك البررة رجالاً ونساءً على الإيمان بالغيب والخوف من سوء العاقبة بعد الموت ويوم الحساب ، عمله في جعل الواحد منهم لبنة جدَّ صالحة في أمة تقوم على عقيدة التوحيد، وتعبد الله في كل ساحة من ساحات الخير والنفع للإنسان ، الأمر الذى أعطاها القدرة على بناء حضارة مثلى ، لم تدع باباً من أبواب الحياة إلا طرقته على أكمل وجه . وننظر هنا ـ على سبيل المثال ـ إلى واحد من الصحابة هو أبوموسى الأشعري رضي الله عنه ، وما كان من صدقه وعلمه وبلائه في الإسلام وتضحيته على ساحة الذود عن حياض الرسالة .

ولسوف نرى أن صفاء نفس أبي موسى ، وما كان من خشيته لله وتطلعه إلى الأنس في القبر ، والنجاة يوم الدين ، كل أولئك أسهم إسهاماً كبيراً في قدرته على تجاوز الصعاب وأخذ الحذر مما يلهي عن ذكر الله واليوم الآخر ، بل في تكوين شخصيته القادرة على العطاء المتكامل بإذن الله. أخرج أبو نعيم في الحلية عن الضحاك بن عبدالرحمن بن عرزب قال «دعا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فتيانه حين حضرته الوفاة فقال: اذهبوا فاحفروا وأوسعوا وأعمقوا ، فجاؤوا فقالوا:

قد حفرنا وأوسعنا وأعمقنا ، فقال : والله إنها لإحدى المنزلتين ، إما ليوسعنّ عليَّ قبري ، حتى تكون كل زاوية منه أربعين ذراعاً ، ثم لينفتحن لي باب إلى الجنة فلأنظرن إلى أزواجي ومنازلي ، وما أعدَّ الله تعالى لي من الكرامة ، ثم لأكونن أهدى إلى منزلي مني اليوم إلى بيتي ، ثم ليصيبني من ريحها وروحها حتى أبعث . ولئن كانت الأخرى ـ ونعوذ بالله منها ـ ليضّيقن عليَّ قبري حتى يكون أضيق من القناة في الزُّج ، ثم ليفتحن لي باب من أبواب جهنم فلأنظرن إلى سلاسلي وأغلالي وقرنائي ، ثم لأكونن إلى مقعدي من جهنم أهدى مني اليوم إلى بيتي ، ثم ليصيبني من سمومها وحميمها حتى أبعث» . قال أبو نعيم : رواه الجريري عن أبي العلاء عن بعض حفدة أبي موسى مثله .

رضي الله عن أبي موسي وهنيئاً له خشيته الصادقة ،وما زان قلبه من الاستنارة بالخوف والرجاء ، وما بدا عليه من تمثُّلٍ لهدي النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وصدق في اللجأ إلى الله في ساعة الشدة وهو مقبل عليه سبحانه .

اللهم ارزقنا حُسْن التأسي بنبينا محمد ﷺ ، والانتفاع بسيرة أصحابه الذين صدقوا في المواطن ، ولم يغيِّروا ولم يبدلوا ، وكانوا على المحجة التي فارقهم عليها سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه.

يسألون الجنة.. ويتعوذون من النار

لقد كان من هـدي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أنه كـان في إخباره أمته عما يكون بعد الموت ، وفي يـوم المعاد ، يوم المحشر العظيم الـذى لا أعظم منه ، حريصـاً على أن يكون مـا يخبرهم بـه ، ويعلمهم إيـاه ، حافـزاً للعمل الصـالح بـأوسع معـانيه ومـد لولاتـه ، ثم محاسبـة النفـس ، وتطويعهـا ترغيبـاً وترهيبـاً ، واستعلاء على المعوقات ، وتعميقـاً للإيمان بالغيب حتى كأنـه من عالم الشهادة ، لتكون على الجادة في عـدم الاشتغال بالعاجلـة عن الآجلة ، وفي مراقبـة الله تعالى وإخلاص الديـن في كل ما يأخذ المسلـم وما يذر ، وبذلك يكـون ذلك الإنسانَ الحق الجديد بتكـرمة الله تبـارك وتعالى ،لأنه يسهـم في حركـة الحياة وفـق المنهج الرباني الذي جعل لكل شيء قدراً ، وكان من أبرز سماته ، قول الله تبارك وتعالى : **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سو ف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾** قال علماؤنا: **﴿ وأن سعيه سـوف يرى﴾** أي يوم القيـامة ، كقولـه تعالى : **﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنـون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾**.

وشواهد ما نومىء إليه من هدي النبي ﷺ في تطويع سلوك المؤمن ، بحيث يتساوق مع الـذي آمن به مما يكـون بعد الموت ، ووجوب التطلع إلى مـا يكون من العاقبـة يوم الديـن ... شواهد ذلك كثيرة وفيرة في أحـاديثه صلوات الله وسـلامه عليه القولية والفعلية . جاء في باب فضل ذكر الله عز وجل من كتاب الدعوات في الجامع الصحيـح للإمـام البخاري قولـه رحمه الله : حدثنا قتيبـة بن سعيـد قال : حدثنا جرير عـن الأعمش عن أبي صالـح عن أبي هريرة أنـه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكـة يطوفون في الطـرق يلتمسون أهل الذكـر، فإذا وجدوا قـوماً يذكـرون الله تعالى ، تنادوا هلموا إلى حـاجتكم ، قال : فيحفونهم بـأجنحتهم إلى

السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم عز وجل ـ وهو أعلم منهم ـ ما يقول عبادي؟ قال : يقولون : يسبحونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك، قال: فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا والله ما رأوك ، قال: فيقول : كيف لو رأوني؟ قال : يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً ، قال: يقول : فما يسألوني ؟ قال: يسألونك الجنة ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يارب ما رأوها . قال : فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً ، وأشدَّ لها طلباً ، وأعظم فيها رغبةً. قال : فممَّ يتعوذون ؟ قال : يقولون : من النار قال : يقول : فهل رأوها ؟: فيقولون : لا والله يارب ما رأوها . قال : فيقول : كيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشدَّ لها مخافة ، قال : فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » .

ولشدَّ ما يفرح المؤمن ،وتطيب نفسه لهذه البشارة العظيمة، لأولئك الذين يقطعون دروب الحياة ، ذاكرين الله تعالى قولاً وعملاً في كل شأن من شؤونهم، مصد قين بما جاء به الكتاب العزيز والسنة النبوية عن الجنة والنار ، حتى كأن كلاً منهما تحت ناظريهما ، وذلك ما كان يريد النبي ﷺ ، يوم كان يعلِّم أصحابه ويبين لهم ما يكون بعد الموت ويوم الحساب ، ويربيهم على الذي علمهم إياه ، كيما يكون انفعالهم صادقاً بالذي آمنوا به وصدقوا ، فينعكس ذلك على سلوكهم عقيدة وعلماً وعملاً وإدارةً لشؤون الحياة ذاكرين الله تعالى ، بعيدين عن الغفلة التي تنزل بالمرء إلى ما دون سوية الإنسان والعياذ بالله ... لأنها تنسي العبد خالقه ، وتجعله يحب العاجلة ويذر الآخرة . ولا تسل عما يترتب على ذلك من الطامَّات والضلالات .

وشتان شتان ، بين من يرتقي ويرتقي بعمله الصالح وتقواه، رغبة في الجنة ورهبة من النار حتى كأنهما أمام ناظريه ، وبين من يضرب الران على قلبه ، وينسى

ذكر الله واليوم الآخر وساعات الحساب ، فتراه وقد استحوذ عليه الشيطان وأصبح في زمرة الغافلين .

ولقد كان تنبيه القرآن مبكراً إلى ذلك ، ففي سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ نقرأ قول الله تعالى في الآية التاسعة والسبعين بعد المائة : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ وكانت استجابة الصحابة عليهم الرضوان استجابة واعية لما وجّه إليه النبي ﷺ وهو المؤتمن على بيان كتاب الله ؛ فكنت ترى الخوف من يوم الحسرة ، والبكاء من خشية الله ، والحرص على أداء حقوق الله وحقوق العباد ، مخافة أن تزل القدم في يوم تشخص فيه الأبصار ، وترى الظالمين مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء .

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ قال الزبير رضي الله عنه: «أتكرر علينا الخصومة ؟ قال ﷺ : نعم ، قال رضي الله عنه : إن الأمر إذن لشديد». أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وكذا رواه الإمام أحمد وعنده زيادة : ولما نزلت ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله : أي نعيم نسأل عنه وإنما نعيمنا الأسودان : التمر والماء؟ قال ﷺ :« أما إن ذلك سيكون » وروى الترمذي من طريق سفيان بن عيينة بسنده ، عن عبدالله بن الزبير بن العوام عن أبيه قال : لما نزلت ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ قال الزبير : «يارسول الله فأي النعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: أما إنه سيكون » قال الترمذي : هذا حديث حسن ، ورواه ابن ماجة من طريق سفيان والترمذي أيضاً من طريق أبي بكر بن عياش عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لما نزلت هذه الآية ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ قال الناس : «يارسول الله عن أي النعيم نسأل ؟ فإنما هما

الأسودان والعـدو حاضر وسيوفنا على عـواتقنا ، قال ﷺ إن ذلك سيكـون » قال أبوعيسى : وحديـث ابن عيينة عن محمد بن عمرو عندي أصـح من هذا ، سفيان ابن عيينة أحفظ وأصح حديثاً من أبي بكر بن عياش .

هذا : وقد أشار الحافظ ابن كثير إلى رواية للإمام أحمد جاء فيها أنه لما نزلت : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون .ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قال الزبير: «أي رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الـدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال ﷺ : ليكررن عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حـق حقُّه . قال الزبير رضي الله عنه : والله إن الأمر لشديد » .

صلى الله على معلـم الناس الخير ، ورضي الله عـن أصحابـه الـذين علمـوا ، وعملوا وتخلقوا بالهدي النبـوي في النظر إلى العاقبة يوم القيامـة ، وما على الأمة إلا أن تأتسي بهذا الذي كانوا عليه من الانتفاع بالهدي المحمدي القويم .

نزول عيسى بين يدي الساعة
وحكمه بشريعة الإسلام

لقد تـرك نبينا محمـد ﷺ الأمة حين تركهـا ـ وقد وافـاه الأجل المحتـوم ـ على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، وكان من ذلك ـ والإيمان باليوم الآخر ، حق لاريب فيه من أهـم أركان الإيمان ، وكل أركان الإيمان مهم ـ أن بيّن لها ما يكون لـلإنسان في البرزخ ، بدءاً من سؤال الملكين في القبر ، ومـا يكون من أشراط الساعة وعلاماتها ، وما يكون يوم القيـامة بدءاً من النفخ في الصور، وحتى يقـضى بين العـباد ، فيذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، كل أولئك ليكون المؤمنون على بينـة من أمرهم ، فيتخذوا مـن الدنيا مزرعة لـلآخرة ، وتتضح لديهم الرؤيـة ، ويعرفوا دلالات الأحداث والـوقائع ، وما يكون مـن الأمور التي أخبر عنها ، أو أشار إليها عليه الصلاة والسلام .

ومن أشراط السـاعة ـ وهـي جمع شرط بفتح الراء ـ التي جاءت على ذكـرها الأحاديث الصحاح ـ نزول عيسى عليه السلام حاكماً عدلاً بشريعة الإسلام. روى البخاري بسنده عن ابن شهاب أن سعيد بن المسيَّب سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والـذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابـن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزيـر ، ويضع الحرب ـ وفي رواية ويضع الجزية ـ ويفيض المال حتـى لايقبله أحد حتى تكون السجدة الـواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ، ثم يقول أبوهريرة : واقرؤوا إن شئتم: ﴿**وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويـوم القيامة يكون عليهم شهيداً**﴾ جاءت هذه الرواية عند البخاري في كتـاب الأنبياء من الجامـع الصحيح : « باب نـزول عيسى بن مـريم عليه السلام ». وأورد رواية أخرى تحت « باب قتل الخنـزير » من كتاب البيوع عن

أبي هريرة أيضاً فيها شيء من الاختصار مع عبارة « ويضع الجزية » بدل «ويضع الحرب». وقد انصبَّ كلام العلماء في شرح الحديث على عبارة «ويضع الجزية» في الأغلب . ونص هذه الرواية قول الرسول عليه الصلاة والسلام : «والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» رواه مسلم .

وتحت هذا الباب روى البخاري أيضاً بسنده عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أن أبا هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف بكم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » تابعه عُقيل والأوزاعي. وفي بعض الأحاديث زيادة على ما ذُكر ، وابتداءٌ بالقسم من النبي ﷺ ، تأكيداً لنزول عيسى عليه السلام ؛ فقد روى مسلم بسنده عن عطاء بن مينا عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والله لينزلنّ ابن مريم حكماً عدلاً فليكسرنّ الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعنّ الجزية ، ولتُتركن القلاص فلا يُسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليُدعونّ إلى المال فلا يقبله أحد » وأورد القاضي عياض الرواية بلفظ « ولتُدعَوُنَّ » بالتاء .

القِلاص : جمع قَلوص وهي أول ما يركب من الإبل حتى تثني ، فإذا أثنت فهي ناقة ، وهي من الإبل كالفتاة من النساء والحدث من الرجال . وقال القاضي في كتابه « مشارق الأنوار » ولتتركنَّ القلاص فلا يُسعى عليها : (أي لا يخرج ساع لجمع الزكوات من الإبل وغيرها لقلة حاجة الناس للمال ، واستغنائهم عن ذلك ، كما جاء في آخر الحديث « وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد ») أما الإمام النووي : فحكم ببطلان هذا القول ، واستظهر أن المعنى ، أن يُزهد فيها ، ولا يُرغب في اقتنائها لكثرة الأموال وقلة الآمال , وعدم الحاجة ، والعلم بقرب القيامة . وإنما ذكرت القلاص لكونها أشرف الإبل التي هي أنفس الأموال عند العرب ، وهو شبيه بقول الله عز وجل : ﴿ وإذا العشار عُطِّلت ﴾ قال رحمه الله : (ومعنى لا يسعى عليها : لا يعتنى بها أي يتساهل أهلها فيها ، ولا يعتنون بها .

هذا هو الظـاهر . وقال القاضي عيـاض وصاحب المطالـع رحمه الله : معنى « لا يُسعى عليها » أي لا تطلب زكـاتها ، إذ لا يوجد من يعتليها . وهذا تـأويل باطل من وجوه كثيرة تفهم من هذا الحديث وغيره ، بل الصواب ما قدمنا والله أعلم) .

وقد يـرد تساؤل حـول الحكمة مـن نزول عيسـى عليه السـلام دون غيره من الأنبياء ،وحكمه بشريعـة الإسلام . وفي هذا يرى العلماء ـ كما أورد ذلـك صاحب الفتح ـ أن الحكمة في نزول عيسى بن مريم دون غيره من الأنبياء : الردُّ على اليهود في أنهم قتلوه ، فبيَّن الله تعالى كذبهم ، وأنه الذي يقتلهم ، أو أن نزوله ، لدنو أجله ليدفن في الأرض ، إذ ليس لمخلوق مـن التراب أن يموت في غيره . ولنا أن نقول : بأن في ذلك ــ والله أعلم ـ رداً على النصارى الـذين ادعوا أنه عليـه السلام إله أو ابن إله افتراء على الحقيقة وعليه هو نفسِه ، مع أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به ، أن اعبدوا الله .

يؤكـد هذا ، أنـه أيضاً يحكـم بشريعة محمـدﷺ ويكون مـن أتباعهـا . قال الحافظ : وقيل : إنه دعا الله لما رأى صفة محمـد وأمته ، أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه ، وأبقاه حتى ينـزل في آخر الزمان مجدداً لأمر الإسلام ، فيـوافق خروج الدجال فيقتلـه . والقول الأول هو الذى مـال إليه صاحب الفتـح فقال : والأول أوجه.

ولكن ماذا عن الإمامة يوم ينزل عيسى عليه السلام ؟

أسلفنا لفظ روايـة البخاري « كيف أنتم إذا نـزل ابن مريم فيكـم وإمامكم منكم » ونرى بجانـب ذلك ما روى الإمام مسلم بسنده عن نـافع مولى أبي قتادة الأنصاري أنه سمع أباهريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مـريم وأمكم »؟ فهذه الـرواية صريحة بأن عيسـى عليه السلام هو الـذى يؤم الناس بينها تقـول التى قبلها « وإمـامكم منكم » . وممـا يعين على تَبَيُّن المراد : ما روى مسلم بسنده عن الوليد بن مسلم قال : حدثنا ابن أبي ذئب عن ابن شهاب

عن نافع مولى أبي قتادة عن أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم فأَمَّكـم منكم ؛ فقلت لابن أبي ذئب ـ القائل الوليد بن مسلم ـ: إن الأوزاعي حـدثنا عن الزهري عن نافع عـن أبي هريرة « وإمامكم منكم» قـال ابن أبي ذئب : أتـدري ما « أَمَّكـم منكم ؟» قلـت : تخبرني ؟ قال : فـأَمَّكم بكتـاب ربكـم تبارك وتعـالى وسنة نبيكـم ﷺ » وعنـد الإمام أحمد مـن حديـث جابر في قصـة الدجال ونزول عيسـى « وإذا هم بعيسى ، فيقـال : تقدم ياروح الله ، فيقول : ليتقـدم إمامكم ، فليصل بكـم » ولابن ماجة في حـديث أبي أمامة الطـويل في الدجال قـال : «جلُّهم أي المسلمين ببيت المقدس ، وإمـامهم رجل صالح فبينما إمـامهم قد تقدم ليصلي بهم الصبح ، إذ نزل عيسـى بن مريم، فرجـع ذلك الإمـام ينكص ـ يمشـى القهقرى ـ ليتقـدم عيسى يصلي بـالناس ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له :تقـدم فصل فإنها لك أقيمت». وقد نقل الحافظ ابـن حجر عـن أبي الهروي قوله : حـدثنا الجوز قـي عن بعـض المتقدمين قال: معنى قوله : « وإمامكم منكم » يعنى أنه يحكم بالقرآن ، لا بالإنجيل .

واستنبط ابـن التين من قـوله : « وإمـامكم منكـم » أن الشريعة المحمـدية متصلة إلى يوم القيـامة ، وأن في كل قرن طائفـة من أهل العلم . وجميـل ما أوضح صاحب الفتـح من أن الذي ذكر ابـن التين وما قبله ،لايبين كون عيسـى إذا نزل يكون إمـاماً أو مـأمومـاً ، وعلى تقدير أن يكـون عيسى إمـاماً ، فمعنـاه أنه يصير معكم بالجماعة من هذه الأمة . واتجه الطيبـي إلى أن المعنى : يؤمكم عيسى حال كونه في دينكم . ولكـن يعكر على هذا القول ـ كما يرى الحافظ ـ قـوله في حديث آخر عند مسلم فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمـة الله هذه الأمة ». ولنستمع إلى مـا حقق ابن الجوزي إذ قال : لـو تقدم عيسى إماماً لو قع في النفس إشكال ، ولقيل : أتراه تقدم نائباً أو مبتدئاً شر عاً؟ فصلى مأموماً لئلا يتدنس بغبار الشبهـة وجه قوله ﷺ « لانبي بعدي» وفي صلاة عيسى خلف رجـل من هذه الأمة ، مـع كونه في آخر الـزمان وقرب قيام السـاعة،

دلالة للصحيح من الأقوال ، أن الأرض لا تخلو عن قائم لله بحجة والله أعلم .

وفي خاتمة المطاف : ما من ريب في أن هذا الذي أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام في شأن نزول عيسى عليه السلام ، وحكمه بشريعة الإسلام ، وأن ذلك من أشراط الساعة وعلامات يوم القيامة ، مما يزيد المؤمن إيماناً مع إيمانه ، بأحقية ما هو عليه من اتباع الإسلام والعمل بأحكامه وأخلاقه وآدابه ، وينبه الغافلين السادرين الساهين عن دينهم القويم ، وعن تذكر ذلك اليوم وما يكون فيه، وما يجب له من الإعداد الصالح والتزوّد النافع لما أنه حق لا ريب فيه . والله الهادي إلى سواء السبيل ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وله الشكر على نعمة الإسلام وكفى بها من نعمة ، ونسأله التوفيق والثبات .

الارتباط الوثيق
بين الدارين.. العمل والجزاء

الناظر في كتاب الله تعالى ، وبيانه من حديث النبي عليه الصلاة والسلام، يرى حين يكون من أهل النظر وإشراق البصيرة ، أن العمل في الدنيا وثيق الارتباط بالمسؤولية يوم القيامة ، فالأمر ليس متروكاً على عواهنه ، بل الله مطلع على ما يسر العبد وما يعلن ، ولسوف يجد الناس ما عملوا حاضراً يوم القيامة ، ولا يظلم ربك أحداً .

والمفروض بالمؤمن أن يكون على الجادة أولاً ، في نظرة تكاملية إلى تلكم العلاقة بين العمل في هذه الدار العاجلة ، وبين المسؤولية يوم الجزاء عما عمل : فليس هنالك انفصام ولا تجزئة . وأن يكون مرمى بصره وغاية مرامه مرضاةُ الله ، كيما يحشر بفضل الله تعالى مع من تشملهم العناية ، فيكونون من أهل جنات الفردوس ، نُزُلِ الأبرار الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وإذا كان الأمر كذلك : فليذكر المؤمن أن الجنة حفت بالمكاره ، وأن النار حفت بالشهوات ، ولابد من إعداد العدة للوصول إلى تلكم السلعة الغالية التي هي الجنة ، وقد ثبت في الحديث الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام : « ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة » .

وفي نطاق التكامل الذى نومىء إليه بين العمل في الدنيا ـ والسلوك بوجه عام ـ وبين المسؤولية يوم القيامة ومدى الارتباط بينهما ، تمكن الإشارة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام ، كثيراً ما كان يوجه أصحابه إلى الفضائل التي كانت فضائل بمعايير الإسلام ، ويحذرهم من السلوك المجافي لمعاني الخير ، والأخلاق التي تنبو عن مقتضيات الإيمان .. يوجههم من طريق التذكير بما يكون يوم

القيامة، من حصاد لنتائج هذا الخلق أو ذاك يشهده الخلق في واحد من المشاهد ؛ فتراه ـ صلى الله وسلم وبارك عليه ـ وهو يتخذ من هذه الحقيقة الكائنة في ذلك اليوم ، أداة مباركة لتعميق المراد في نفوس الناس ـ مستعيناً بذلك المشهد من مشاهد يوم القيامة الذى يعرضه ـ وهو لا ينطق عن الهوى ـ بشفافيته الرفيعة، وأسلوبه الفريد المؤثر ، حتى كأنك ترى المشهد ماثلاً أمامك ، وحتى تُحسَّ كأنك في روضة من رياض الجنة ، في حال الرضا عن العاملين وما يكون لهم من حسن الجزاء . وأما في الحالة الأخرى ـ والمشهد مرعب مخيف ـ فإنك تحسُّ كأن النار تلفحك بلهبها وتقول : هل من مزيد ؟

خذ مثلاً تحذيره ﷺ من الرياء والسمعة في القول والعمل ـ وذلك يتضمن الدعوة إلى التحقق بالتوحيد ، وإخلاص الوجهة لله عز وجل ـ كيف كشف عليه الصلاة والسلام عن ثلاثة أصناف من الخلق ، هم أوّل من تسعّر بهم النار يوم القيامة ، مع أن ظاهر الأمر في الدنيا : جمع للقرآن ، وجهاد في سبيل الله ، وبذل للمال ابتغاء وجه الله .. ولكن وراء الأكمة ما وراءها والله ، عليم بذات الصدور ؛ إذ لم يكن الإخلاص للهَ وطلبُ مرضاته وراء العمل ، بل الذى كان الرياءُ والسمعة ، والرغبة في الدنيا وحطامها ، وحب المباهاة ، وأن يقال : فلان كذا وفلان كيت . والله تعالى يقول : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك .

أخرج الترمذي عن أبي عثمان المدائني أن عقبة بن مسلم حدثه أن شُفياً الأصبحيَّ حدثه «أنه دخل المدينة ، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال: من هذا ؟ فقالوا : أبوهريرة ، قال : فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس . فلما سكت وخلا ، قلت له : أنشدك بحق ، وبحق ، لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته ! فقال أبوهريرة : أفعل ، لأحدثنك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته ، ثم نشغ أبوهريرة نشغة ، فمكث قليلاً ثم أفاق فقال : لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما

معنا أحد غيري وغيره ثم نشغ أبوهريرة نشغة أخرى ، ثم أفاق فمسح وجهه فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره ، ثم نشغ أبوهريرة نشغة شديدة ، ثم مال خاراً على وجهه فأسندته عليّ طويلاً ، ثم أفاق فقال : حدثني رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكلُّ أمة جاثية ؛ فأول من يدعو به ، رجل جمع القرآن ، ورجل يقاتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال ، فيقول الله للقارىء: ألم أُعلِّمْك ما أنزلتُ على رسولي ؟ قال : بلى يارب ، قال : فماذا عملت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار . فيقول : كذبت . ويقول الله : بل أردت أن يقال إن فلاناً قارىء ، فقد قيل ذاك . ويؤتى بصاحب المال ، فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يارب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله: بل أردت أن يقال : فلان جواد ، فقد قيل ذاك . ويؤتي بالذى قتل في سبيل الله ، فيقول الله له : فماذا قتلت ؟ فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله تعالى له : كذبت ، وتقول له الملائكة : كذبت ويقول الله : بل أردت أن يقال : فلان جريء ، فقد قيل ذلك . ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال : ياأباهريرة ، أولئك الثلاثة أول خلق تسعّر بهم النار يوم القيامة ».

نشغ: شهق حتى كاد يغشى عليه أسفاً أو خوفاً : قال ابن الأثير في النهاية : النشغ في الأصل الشهيق حتى يكاد يبلغ به الغشي ، وإنما يفعل الإنسان تشوقاً إلى شيء فائت وأسفاً عليه ومنه.

وما أحسبني بحاجة إلى مزيد من الكشف عن الدلالة العميقة لهذا الحديث، وما يوحي به ، وينبه عليه من التكامل بين العمل في الدنيا ومدى الإخلاص فيه ، وبين المسؤولية يوم القيامة ، والعلاقة الوثيقة بينهما ، الأمر الذى ينبغي للمؤمن أن يذكره أبداً ولا ينساه ؛ فمن مقتضيات الإيمان بأن يوم القيامة

كائن لاريب فيه ، وأن التصديق به أشبه ما يكون بالتصديق بطلوع الشمس وتوالي الليل والنهار .. من مقتضيات ذلك : الإيمان بما يترتب على هذا : من أن ذلك اليوم ، يومُ الجزاء بما كان الإنسان يعمل في دار العمل ، له ماكسب وعليه ما اكتسب.

هذا : والحديث الذي نحن بصدده ، والذي دلّنا على ما يكون من كشف للحقيقة التي تكون وراء العمل بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ، فيه ما يشير إلى مدى الانفعال بما فيه عند سامعيه من أهل الإيمان ، ذلكم ما نجد من قول الوليد أبي عثمان : فأخبرني عقبة بن مسلم أن شفياً ـ يعني راوي الحديث عن أبي هريرة ـ دخل على معاوية فأخبره بهذا ، قال أبو عثمان : وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيّافاً لمعاوية ، فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة ، فقال معاوية : قد فُعل بهؤلاء هذا فكيف بمن بقي من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً ،حتى ظننا أنه هالك ، وقلنا : قد جاءنا هذا الرجل بشرٍ، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال : صدق الله ورسوله : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ قال أبوعيسى : هذا حديث حسن غريب .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واكتبنا في زمرة الذين إذا ذُكِّروا ذكروا ، ولم يلههم متاع الدنيا وزخرفها عن قدر المسؤولية يوم القيامة حق قدرها ،وأن ذلك حق لا ريب فيه .

مكتوب بين عينيه: كافر

في ظلال الرحلة مع ما يسبق يوم القيامة من أشراط الساعة ، وما يكون في ذلك اليوم من الحشر العظيم والأهوال ، حيث الحصاد لما كان في الدنيا ، والسؤال عما كسب العباد في تلك الحياة الفانية ... إذ ترى كل إنسان قد ألزمه الله طائره في عنقه ، ويخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً : ﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾.. في هذه الرحلة المباركة ، أجدني مسوقاً مرة أخرى إلى التذكير بما منّ الله به على الخلق ببعثة محمد ﷺ إلى الإنس والجن ، وما أكرم به أمتنا من أنه ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، حتى استوفى أكمل استيفاء ما اؤتمن عليه من بيان الكتاب العزيز ، ودلالة المسلمين على كل ما فيه الخير العميم وسعادة الدارين ، وترغيبهم فيه ، والكشف عما فيه الشر في الدنيا ، وسوء المنقلب يوم الحساب ، والترغيب عنه . وكان من ذلك ما بيّن عليه الصلاة والسلام من أشراط الساعة التي تكون بين يدي يوم القيامة ، كيما يكون المؤمن على بينة من أمره، يُجانب الغفلة ما استطاع ، ويدرك المراد من الأمر الجلل حين يقع ، ويتبيّن مرمى الذى حدث من مؤشرات ونذر ، تذكر بيوم الدين ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ، وتراه ـ وهو يرجو الله واليوم الآخر ـ لا يمر بالوقائع، أو تمر به ، وهو كواحد من النظارة أمام رواية معروضة يبتغي من وراء المتابعة لمشاهدها قضاء الوقت ، ولكن ذكرى ، وتذكُّر ، وسلوك جاد لطريق أهل الخشية الذين لا يلهيهم الأمل ، ولا يخوضون مع الخائضين ، بل يتقون الله في السر والعلن ، ويخافون أشد الخوف يوم الحساب .

وقدأشرتُ من قبل إلى نزول عيسى عليه السلام ، وحكمه بشريعة الإسلام ، وأن ذلك واحد من أشراط الساعة ، وأشير اليوم إلى شرط آخر هو ظهور الدجال، لما أن ذلك من أبرز تلكم الأشراط والعلامات .ومن الأمانة أن يذكر المرء نفسه

وإخوانه لأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، عني بالكشف عن صفات الدجال الذي يمتحن فيه المسلمون بما يظهر على يديه ـ بإرادة الله من الأمور الخارقة بحسب الظاهر ، وحرص النبي ﷺ على تنبيه الأمة وتحذيرها مما سيكون ، كيما يُعدَّ المسلم العدة ، فيكون على قدر من الإيمان والمعرفة والوعي ، يباعد بينه وبين الوقوع في شرك الدجالين ، وبخاصة ذلك الدجال ، إن أدركه . وأنت واجد أن المؤمن الحق ـ كما جاء في السنة ـ لا تزيده مظاهر التمويه ، وما يجرى على يد الدجال ، إلا كفراً به ، ومزيداً من البصيرة بحقيقته واستمساكاً بالحق الذى جاء به خاتم النبيين ، وأن الدجال كافر بدعوى النبوة ، كافر كفراً أشد وأعتى بدعوى الإلهية والعياذ بالله ، وأنه أهون على الله من ذلك ، وقد جاءت أخبار الدجال في الصحيحين والسنن وغيرها من دواوين السنة .

قال الإمام البخاري: حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله قال : حدثنا إبراهيم عن صالح عن ابن شهاب عن سالم بن عبدالله أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قام رسول الله ﷺ في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : « إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا وقد أنذره قومَه ، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه ، إنه أعور وإن الله ليس بأعور » .

وهذا الذي نرى من تقرير النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه ما من نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال ،و الذي نرى من بيان صفة واضحة من صفاته الخِلقية ، نجد معه في رواية أخرى ، ذكراً لبعض المظاهر التي قد توقع ضعاف الإيمان والوعي في أحابيله ، فقد روى البخاري بسنده عن شعبة عن عبدالملك عن ربعي عن حذيفة عن النبي ﷺ قال في الدجال : « إن معه ماءً وناراً فناره ماء بارد ، وماؤه نار » قال ابن مسعود : أنا سمعته من رسول الله ﷺ .

ومن لطف الله تعالى : أنه مكتوب بين عيني الدجال : « كافر » يقرؤها المسلم الذي خالطت بشاشة الإيمان قلبه ، فكان له من الله نور يهديه سواء

الصراط، يقرؤها كاتباً كان أو غير كاتب . ذلكم ما روى البخاري وغيره ـ وهذا لفظ البخاري ـ عن أنس رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : مابعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب : «كافر» قال البخاري : فيه أبوهريرة وابن عباس عن النبي ﷺ .

وهكذا يكون على المؤمن ـ وهو يحرص على سلامة العاقبة ، وأن يلقى ربه آمناً يوم القيامة ، لا يخاف بأساً ولا رهقاً ، ولا يحمل أوزار التصديق بالدجال ، إن لقيه ... على المؤمن وهو يحرص على ذلك كله أن يتسلَّح بكل ما من شأنه أن يزيده إيماناً على إيمان ، ويقيناً على يقين ، ويمكنه ـ بعون الله ـ من أن يكون فوق الترهات والأباطيل ، وما يعتصم به الدجال من كذب وتمويه .

وحين يكون المؤمن على هذه السوية ، لا يضيره بإذن الله تمويه ذلك الكافر الخبيث ، فهو أهون على الله من كل تلك المظاهر التي تصحبه ، والأمور التي تجري على يديه ، ويمتحن بها إيمان أهل الإيمان وسلامة تصديقهم به ؛ فالمؤمنون يزدادون برؤيتها كفراً به ويقيناً بما هم عليه من الحق . أما الذين في قلوبهم مرض : فهم الذين يرتابون ، وتنطلي عليهم الأكاذيب والضلالات ، جاء في أول حديث أثبته الإمام البخاري في «باب ذكر الدجال» من كتاب الفتن في الجامع الصحيح قوله : حدثنا مسدَّد قال : حدثنا يحيى قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثني قيس قال : قال لي المغيرة بن شعبة : « ما سأل أحد النبي ﷺ عن الدجال ما سألته ، وإنه قال لي : ما يضرك منه؟ قلت : لأنهم يقولون : إن معه جبل خبز ، ونهر ماء ، قال : بل هو أهون على الله من ذلك » وفي رواية لمسلم : « قلت : إنهم يقولون : معه جبال من خبز ولحم ونهر من ماء ، قال : هو أهون على الله من ذلك » .

اللهم قوّ إيماننا ، وثبتنا على الحق ، وأعذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ومن فتنة المسيح الدجال ، إنك على كل شيء قدير .

من أدرك الدجال...
فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف

هذه خطوة أخرى ، على طريق نستجلي من خلالها قبساً من نصح النبي ﷺ لأمته ، في شأن شرط من أشراط الساعة ، وعلامة من علامات يوم القيامة ، وأعني به خروج المسيح الدجال أعاذنا الله من شره ومكره ، وقد رأينا فيما سبق بعضاً من نصوص الحديث التي جاءت على طرف من أخباره ، ونتابع اليوم ما كنا بدأناه إن شاء الله ؛ روى الإمام مسلم بسنده عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال : إن الله تعالى ليس بأعور ، ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافئة » . وفي رواية طافية .

هكذا رويت الكلمة بالهمز وتركه ، وكلاهما ـ كما يقول العلماء ـ صحيح. فالمهموزة «طافئة » هي التي ذهب نورها وغير المهموزة «طافية» التي نتأت وطفت مرتفعة وفيها ضوء .

وأنت ترى في هذا الحديث، حرص النبي ﷺ ـ وهو لا ينطق عن الهوى ـ على البيان القاطع لأمته عن ذلك الرجل ، خشية على المسلمين من الوقوع في أحابيله وأضاليله . وها نحن أولاء نجد في بعض الروايات ، مزيداً من بيان النبي عليه الصلاة والسلام ، للحقيقة التي تكمن وراء المظاهر المصاحبة للدجال ،وتوجيهاً لمن يبتلى بأن يشهد خروجه ، قال الإمام مسلم : حدثنا علي بن حُجرْ قال : حدثنا شعيب بن صفوان عن عبدالملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن عقبة بن عمرو أبي مسعود الأنصاري قال : انطلقت معه ، إلى حذيفة بن اليمان ، فقال له عقبة : حدثني ما سمعت من رسول الله ﷺ في الدجال قال : « إن الدجال يخرج وإن معه ماءً وناراً ،فأما الذي يراه الناس ماءً : فنار تحرق ، وأما الذي يراه الناس

ناراً : فماءٌ بارد عذب ، فمن أدرك ذلك منكم ، فليقـع في الذي يراه ناراً ، فإنه ماء عذب طيب » فقال عقبة : وأنا قد سمعته ، تصديقاً لحذيفة . وله من رواية أخرى عن ربعي بن خراش أيضا قال : اجتمع حذيفة وأبومسعود ، فقال حذيفة : «لأنا بما مع الدجال أعلـم منه ؛ إن معه نهراً من ماء ونهراً من نار ، فأمـا الذي ترون أنه نـار : ماء ، وأمـا الذى تـرون أنه مـاء : نـار ، فمن أدرك ذلـك منكم ، فـأراد الماء فليشرب من الذي يراه أنه نار فإنه سيجـده ماء ». قال أبومسعود : هكذا سمعت النبي ﷺ يقول . وهو كذلك عند أبي داود .

ومن الجدير بالـذكر ، أنه لم يكن في حديث النبي عليـه الصلاة والسلام ، ما يشعر بالحقبة الزمنية التي يخرج فيها الدجـال ؛ قرباً أو بعداً ، إلا ما كان من بيان أن خروجه من علامات الساعة ؛ فإن هنالك بعض الروايات التي يقول فيها عليه الصلاة والسلام :« إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه » وهذا يعطي احتمال أن يكون خروج الدجال في زمنه صلوات الله وسلامه عليه . وحجيجه أي محاججه ومغالبه بإظهار الحجة عليه ،والحجة : الدليل والبرهان ، هذه واحدة : أما الثانية : فإن في تلكم الروايـات علاجاً ناجحاً قـدّمه النبي ﷺ في مواجهة تلكـم الفتنة النكراء ، ذلكم هو قـراءة فواتح سورة الكهـف على ذلك الكافر الخبيـث ، وغير خاف أن هذه القراءة لآيـات من كتاب الله ، ما بدٌّ من أن يصحبهـا الإيمان القوي ، وصدق التوجه إلى الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض .

أخرج مسلم ـ في رواية طويلة مباركة تحمل مزيداً من التفصيل ـ بسنده عن عبدالرحمن بن جُبير بـنُ نُفير عن أبيه جبير بن نفير عن النّواس بـن سمعان قال : «ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة . فخفّض فيه ورفّع ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رُحنا إليـه ، عرف ذلك فينا ، فقـال : ما شأنكم ؟ قلنـا : يارسول الله ذكرت الدجال غـداة فخفّضت فيه ورفّعت حتى ظنناه في طـائفة النخل ، فقال: غير الـدجال أخـوفني عليكـم ، إن يخرج وأنـا فيكم . فـأنا حجيجـه ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شـاب قطط ـ

أي شديـد جعودة الشعـر مباعد للجعـودة المحبوبـة ـ عينه طـافئة كـأني أشبهه بعبدالعـزّى بن قطـن ، فمن أدركـه منكم فليقرأ عليـه فواتـح سورة الكهـف إنه خارج خلّـةً بين الشام والعراق ، فعاث يمينـاً ، وعاث شمالاً ، ياعباد الله فـاثبتوا، قلنا : يارسـول الله ، وما لبثه في الأرض ؟ قال : أربعـون يوماً ، يوم كسنـة ، ، ويوم كشهر ، ويـوم كجمعة ، وسائر أيامـه كأيامكم . قلنـا : يارسول الله فذلـك اليوم الـذي كسنة أتكفينـا فيه صـلاة يوم ؟ قـال : لا اقـدروا له قـدره . وجاء في آخـر الحديث قول النبي عليه الصلاة والسلام ؛ بعـد بيان ما يكون من الخير ، بعد أن يقتل الـدجال على يد عيسـى عليه السلام «.. ويبارك في الـرِّسل ـ يعنـي اللبن ـ حتى أن اللّقحة مـن الإبل لتكفي الفئام مـن الناس ، واللقحة من البقـر لتكفي القبيلـة من النـاس ، واللقحة مـن الغنم لتكفـي الفخذ مـن ا لناس ، فبينما هـم كذلك ، إذ بعث الله ريحاً طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكـل مسلـم ، ويبقى شرار النـاس يتهـارجـون فيهـا تهارج الحمُر فعليهـم تقـوم الساعة» .

وقد أخـرج أبوداود هـذا الحديث مختصراً عـن النواس بـن سمعان أيضـاً ، فروى بسنده عنه قال : « ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، فإنها جواركم من فتنته ... إلى أن يقول : ثم ينزل عيسى بن مـريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق فيدركه عند باب لُدٍ فيقتله».

جواركم من فتنته : أمانكم .

يقف للدجال..

أعظم شهادة عند رب العالمين

أسلفنا القول بأن النبي عليه الصلاة والسلام ، رحمةً بأمته وحرصاً على سلامة العاقبة للمؤمنين ، أعطى أهمية واضحة للكشف عن سمات المسيح الدجال الذى يكون ظهوره واحداً من أشراط الساعة بين يدي يوم القيامة، ذلك أن يوم القيامة هو يوم الجزاء ، وبمقدار ما يحفظ المؤمنُ من الفتن ما ظهر منها وما بطن ومنها فتنة المسيح الدجال ، يكون ذلك أدعى لأن يكون من الذين يؤتون الكتاب باليمين ، ويعدُّون في زمرة من نالوا حظهم من الكرامة التي أنبأ عنها قوله جل شأنه في سورة الانشقاق : ﴿ **ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه . فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً**﴾ وأين هؤلاء ممن قال الله فيهم : ﴿ **وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً . ويصلى سعيراً . إنه كان في أهله مسروراً . إنه ظن أن لن يحور بلى**﴾.

ولا يخفى أن رسولنا ﷺ ــ وهو الرحمة المهداة ـ إنما يريد ـ والله أعلم ـ ببيانه التفصيلي الواضح عن هذا الخبيث المسيح الدجال ، إنما يريد للمؤمنين والمؤمنات على اختلاف الأعصار ، أن يزدادوا علماً بذلك ، ويستعدوا له بالعمل الصالح ، ويتسلحوا باليقظة التي يولدها الإيمان والمعرفة ، وأن يكون لذلك مكانه المناسب على ساحة التربية الإيمانية والتعليم ؛ فهنالك يكون درء الفتنة بإذن الله وهنالك يظهر للعيان أن صنيع هذا الرجل لا يعدو أن يكون لوناً مموّهاً من ألوان التدجيل والكذب ، ولذلك سمي الدّجال ،وأصبحت هذه التسمية علماً عليه في الشرائع.

فالدجال: من الدّجل وهو التغطية والتمويه ، قال علماؤنا: وسمي الكذاب دجالاً لأنه يغطي الحق بباطله، وقال ابن دريد : سمي دجالاً لأنه يغطي الحق

بكذبه ، من أجل هذا نرى في العديد من كتب اللغة : أن كلمة الدجال أصبحت مصطلحاً عليـه، فترى هناك : قـولهم الدجـال : المسيح الكـذاب: وقيل : سمـي دجالاً لأنـه يقطع الأرض ويسير في أكثـر نواحيها ، وعلى أيـة حال : فهـو يقطع الكثير من نواحي الأرض مموِّها كذاباً ، يحاول أن يغطي الحق بباطله الذي جاء به، ولكن ذلك لا ينطلي على أهـل اليقين والحمدلله . وإنما سمي مسيحاً ــ كما يقول ابـن الأثير ـ لأن إحـدى عينيه ممسـوحـة لا يبصر بها .. وأما تسميـة عيسى عليـه السلام بالمسيح : فقيل : لمسح زكريا عليه السلام إياه ، وقيل : لأنه يمسح الأرض أي يقطعهـا ، وقيل : لأنـه كـان يمسح ذا العـاهـة فيبرأ . ولا بأس أن يكـون لهذه الأمور مجتمعة دخل في هذه التسمية .

والذي جرى بيانـه ، من حرص النبي ﷺ على تجنيب الأمة فتنـة هذا الكافر الضليـل وأذاه ، أثمـر نصـوصاً وفيرة في هـذا الموضـوع نجـدهـا في الصحيحين وغيرهما ، وكـان ذلك حجـة واضحة دامغـة في أنه سـوف يوجـد لا محالة ، وأنـه شخص محدّد السمات بعينه ، ابتلى الله به العباد بما يظهر على يديه من الأمور التي يضعف أمامها أهل الغفلة ،عافانا الله من ذلك ، أما المؤمن اليقظ الذى أكرمه الله بالتسلُّح باليقين والتقوى : فيثبت الثبات كلـه ، فلا يتزعزع، ولا يخالط قلبه أدنى شك في كـذب الدجـال ، وضلال مدَّعـاه ، مهما ظهر على يديـه من الأمـور التي يُقدره الله عليهـا ابتلاءً للعباد.. وروى الإمام مسلـم بسنده عن ابن شهـاب قال: أخبرني عبيدالله بـن عبدالله بن عُتبة أن أبـا سعيد الخُدري قال : حدثنـا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجـال ، فكان فيما حدثنا قال : يأتي وهو محرَّم عليه أن يدخل نقـاب المدينة ، فينتهي إلى بعض السِّباخ التي تلي المدينـة، فيخرج إليه يومئذ رجل هـو خير الناس ، أو من خير الناس ، فيقول له : أشهـد أنك الدجال الذى حـدثنا رسـول الله ﷺ حديثه ، فيقـول الدجال : أرأيتـم إن قتلت هـذا ثـم أحييته، أتشكّون في الأمر ؟ فيقولون: لا ، فيقتله، ثم يحييه ، فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني الآن ، فيريد الدجال أن يقتله ، فلا يسلطُ عليه».

وهنالك رواية أخرى لمسلم أيضاً عن أبي سعيد رضي الله عنه، تحمل نوعاً من التفضيل، في صنيع ذلك الرجل الذى يقوم للدجال ، ويصبر على أذاه ، وقد بلغ حدّ القتل مستعيناً بالله عز وجل ، ثم بصدق ما ورد عن النبي ﷺ من تلكم الأحاديث التي لم تدع ريبة لمستريب في أنه المسيح الكذاب ، فتراه ـ أعني الرجل ـ يقول للناس : «يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ».

ولقد جاء في الرواية المومى إليها عند مسلم عن أبي سعيد قوله رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ :« يخرج الدجال ، فيتوجه قِبله رجل من المؤمنين فتلقاه المسالح مسالح الدّجَّال ، فيقولون له : أين تعمد؟ فيقول : أعمد إلى هذا الذى خرج ، قال : فيقولون له: أوماتؤمن بربنا ؟ فيقول: ما بربنا خفاء ، فيقولون : اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض : أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه ، قال: فينطلقون إلى الدجال ، فإذا رآه المؤمن قال : يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ ، قال : فيأمر الدجال فيشبّح ، فيقول : خذوه وشجّوه ، فيوسعُ ظهره وبطنه ضرباً ، قال : فيقول : أو ما تؤمن بي ؟ قال : فيقول : أنت المسيح الكذاب ، قال: فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرّق بين رجليه ، قال : ثم يمشي الدجال بين القطعتين ، ثم يقول له : قم، فيستوي قائماً ، قال : ثم يقول له ، أتؤمن بي ، فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة ، قال : ثم يقول يا أيها الناس ، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس ، قال : فيأخذه الدجال ليذبحه ، فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً ، فلا يستطيع إليه سبيلاً ، قال : فيأخذ بيديه ورجليه ، فيقذف به فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار ، وإنما ألقي في الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين » .

اللهم اجعلنا من عبادك الذى يثبتون على الحق، ولا تزعزعهم الفتن ، واعصمنا من الدجاجلة أجمعين . وارزقنا الشهادة في سبيلك ياذا الجلال والإكرام، وصلى الله على إمام المرسلين ومن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ، والله ولي التوفيق .

غير الدجال.. أخوف لي عليكم

عنوان التوفيق ــ بلا ريب ـ أن يتلقى المسلم والمسلمة مـا جاء عن رسول الله ﷺ بوعي دقيق ، ويتقبله بتسليم عميق، يخالطه ما يذوق المؤمن من حلاوة الإيمان بأن محمـد بن عبدالله صلـوات الله وسلامه عليه خـاتم المرسلين المبلغ عـن ربه ، وأخبر عنه ربـه، بأنـه لا ينطق عـن الهوى ؛ إن هو إلا وحـي يوحـى . وإذا توافـر للمسلم ذلـك ، فلا تسل عما يكـرمه الله من القـدرة على تبين الأمور والتوقـي من الفتن مهما ادلهمـت الخطوب ، وتبهـرجت تلـك الفتن ؛ ذلـك ما رأينـاه في ذلك الرجل الذي لا ينخدع بما يظهر على يد الدجال ، والذي أخبر عنه النبي ﷺ بأنه خير الناس أو من خير الناس في مواجهة ذلك الضال الخبيث ، من عدم الافتتان بتمويهه وكذبه ، وبالثبات على الحق الذى جاء به الكتاب العزيز ، وبينه الرسول عليه الصلاة والسلام وأنه أعظم الناس شهادةً عند رب العالمين .

كان واضحاً ، أن ذلك الـرجل على ذُكر مما جاء في شأن ذلـك الكذاب، وما يتصف بـه على لسان الصـادق المصدوق الـذى لا ينطق عـن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، الأمر الذى يدل على ضرورة المعرفة والتصديق بما جاء عن الرسول الله ﷺ في أمر الفتن وأشراط السـاعة ، وما يكون بين يدي يوم القيامة ،ووعي ذلك ببصيرة إيمانية نافذة كيما يكون في مقدور المؤمن بتوفيق الله تعالى ، أن يثبت للفتن، ويواجه تحديات الفتانين ، تلك الفتن والتحديـات التي من أبرزها يومذاك : فتنة المسيح الـدجال وتحديـه لعباد الله . والـذي رأينا عنـد الإمام مسلـم ، رواه الإمام البخاري على صـورة أقل تفصيلاً ، وان كانـت الروايات جميعهـا ، تشرق بصنيع ذلك الرجل المؤمن وموقفه من المسيح الدجال ، تذكيراً للناس بكذبه ، وبما جاء عن الرسول الله ﷺ ، ومجاهرته بالحقيقة الإيمانية في ذلك ، وصبره على شديد انتقام الدجال منـه حين قتله ثم أحياه ، وإعلانه على رؤوس الأشهـاد ، أن ما حصل لم

يزده إلا بصيرة به أخزاه الله . جاء في الجامع الصحيح تحت باب لا يدخل الدجال المدينة من كتاب فضائل المدينة ، ما روى البخاري بسنده عن ابن شهاب قال: أخبرني عبيدالله بن عبدالله بن عُتبة ، أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجال ، فكان فيما حدثنا به أن قال:« يأتي الدجال ـ وهو محرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة ـ بعض السِّباخ التي بالمدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس ـ أو من خير الناس ـ فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ حديثه ، فيقول الدجال: أرأيت إن قتلت هذا ثم أحييتهُ هل تشكون في الأمر ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ثم يحييه ، فيقول حين يحييه : والله ما كنت قط أشد مني بصيرة مني اليوم ، فيقول الدجال: أقتله، فلا يسلطُ عليه » وجاء في رواية أخرى أوردها في كتاب الفتن من الجامع الصحيح «... والله ما كنت فيك أشدَّ بصيرة مني اليوم ، فيريد الدجال أن يقتله ، فلا يسلّطُ عليه » .

ومما تجدر الإشارة إليه أن تلكم الوقفة الإيمانية الواعية التي أخبر عنها رسول الله ﷺ حجة على هذه الأمة في وجوب الإعداد المتكامل للمسلم والمسلمة ـ كما أسلفنا من قبل ـ لأن ما فعله ذلك الرجل الذي كان يومئذ خير الناس أو من خير الناس ، دل على سلامة البنية عنده في القلب والعقل والسلوك. ولقد يتساءل البعض عما يجري على يد المسيح الدجال من إحياءُ الميت، وهو من هو في ضلاله وكفره الذي وصل به إلى ادعاء الربوبية والعياذ بالله ؛ وإحياء الموتى آية عظيمة من آيات الأنبياء وقد كان من جواب الإمام الخطابي رحمه الله «أن الذى يحصل من الدجال هو على سبيل الفتنة للعباد ، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق في دعاه ، وهو أنه أعور مكتوب على جبهته كافر ، يقرؤه كل مسلم ؛ فدعواه داحضة مع وسم الكفر ونقص الذات والقدرة ، إذ لو كان إلهاً لأزال ذلك عن وجهه، وآيات الأنبياء سالمة من المعارضة فلا يشتبهان ». وفي الدجال مع ذلك، كما يقول الحافظ ابن حجر ، دلالة بينة ـ لمن عقل ـ على كذبه ، لأنه ذو أجزاء

مؤلفة، وتأثير الصنعة ظاهر فيه مع ظهور الآفة به ، فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم فأسوأ حال من يراه من ذوي العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسوي خلق غيره ويعدله ويحسنه ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأقل ما يجب أن يقول : يامن يزعم أنه خالق السماء والأرض ، صور نفسك واعدلها ، وأزل عنها العاهة ، فإن زعمت أن الرب لا يحدث في نفسه شيئاً ، فأزل ما هو مكتوب بين عينيك . هذا ، وقد مر بنامن قبل قول النبي ﷺ « هو أهون على الله من ذلك » .

وجميل ما قال المهلب فيما روى عنه الحافظ : «ليس في اقتدار الدجال على إحياء المقتول المذكور ، ما يخالف ما تقدم من قوله ﷺ : وهو أهون على الله من ذلك، أي من أن يمكّن من المعجزات تمكيناً صحيحاً ، فان اقتداره على قتل الرجل ثم إحيائه لم يستمر له فيه ، ولا في غيره ، ولا استضرّ به المقتول إلا ساعة تألمه بالقتل ، مع حصول ثواب ذلك ، وقد لا يكون وجد للقتل ألماً لقدرة الله تعالى على دفع ذلك عنه» . أما القاضي ابن العربي صاحب «أحكام القرآن » و «عارضة الأحوذي» فقد عرَّج على ما يظهر على يد الدجال من الآيات الأخر ، وكشف عما يراه من الحكمة في ذلك ، مبيّناً أن الذين يسقطون في الفتنة، هم أهل الريبة مزعزعو الإيمان، وأنه لا خوف على أهل اليقين . ذلكم قوله رحمه الله : « الذي يظهر على يد الدجال من الآيات من إنزال المطر والخصب على من يصدقه ، والجدب على من يكذبه ، واتباع كنوز الأرض له ، وما معه من جنة ونار ومياه تجري ! كل ذلك محنة من الله واختبار ، ليهلك المرتاب وينجو المتيقن ، وذلك كله أمر مخوف ، ولهذا قال ﷺ : «لافتنة أعظم من فتنة الدجال » وكان يستعيذ منها في صلاته تشريعاً لأمته ، وأما قوله ﷺ في الحديث الآخر عند مسلم : « غير الدجال أخوف لي عليكم »فإنما قال ذلك للصحابة لأن الذي خافه عليهم أقرب إليهم من الدجال، فالقريب المتيقن وقوعه لمن يخاف عليه ، يشتد الخوف منه على البعيد المظنون وقوعه به ولو كان أشد ».

اللهم احفظنا من كل ما يجر إلى سوء العاقبة يوم القيامة ، وأعذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن واحفظنا بما تحفظ به عبادك الصالحين .

بادروا بالأعمال الصالحة فتناً..

كلما ازداد المؤمن معرفة وتصديقاً بالوقائع التي تنذر بيوم الوعيد، يوم القيامة، ازداد تحسباً واستعداداً لذلك اليوم الذى يركب الناس فيه ـ من شدة الهول ـ طبقاً عن طبق: ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾.

وبمقدار ما يكون التصور لتلك الأهوال، وما يتوقع العباد من مخاطر وهم قائمون لرب العالمين ... يكون حذر المؤمن من التقصير في جنب الله، وأن يحشر في عداد الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

وكلما ازداد القلب استنارة بالإيمان وذكر يوم الحساب، كان الحرص أوفر على العمل الصالح والإفادة من الوقت، وما كتب للإنسان من العمر في هذه الحياة الدنيا، التي هي دار ممر لا دار مقر، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول فيما أخرج البخاري وغيره من رواية ابن عباس رضي الله عنهما: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ ». وفي نصوص الحديث النبوي ما يدل أوضح الدلالة، على مدى اهتمام المصطفى عليه الصلاة والسلام ببيان علامات الساعة، وما يكون من الأمور العظام بين يدي يوم القيامة، وذلك ليقف المؤمنين على الصراط السوي في مواجهة تلك النذر، ويسلك بهم سبيل نجاتهم، يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون.

ولقد رأينا من قريب تفصيلاً في عدد من نصوص السنة في شأن شرطين من أشراط الساعة هما: ظهور المسيح الدجال أخزاه الله، ونزول المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة السلام وحكمه بشريعة الإسلام وقتله الدجال. والناظر في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، يجد بجانب ذلك وفرة في تلكم النصوص

التي تحدثت عـن علامات الساعـة بإجمال كما في الحديث الذي رواه حـذيفة بن أسيد الغفاري قال : « اطّلع النبي ﷺ علينا ونحـن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قلنا : نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان والدجـال والدابة وطلـوع الشمس من مغربها ، ونـزول عيسى بن مـريم صلى الله عليـه وسلم ، ويـأجوج ومـأجوج ، وثـلاثـة خسوف ، خسـف با لمشرق وخسـف با لمغرب ، وخسف بجـزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج مـن ا ليمن تطرد الناس إلى محشرهم . وفي رواية تخرج من قعرة عدن ».

أخرجه مسلم وأبوداود والترمـذي ، وكم ذا تجد في الهدي النبوي من نصوص تأتي على ذكر علامات متفرقة بين يدي الساعة ، وهي نصوص يفترض أن تزيد في عمل العـامل لما بعد الموت ، وتوقـظ الغافل ، وتـرد الجانح إلى الطريق التـي هي أقوم بعيداً عـن الغفلة والضياع ونسيان الله واليوم الموعـود . روى الترمذي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يكون بين يدي الساعة فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيـع أقوام دينهم بعرض من الـدنيا » قال أبوعيسـى : وفي الباب عن أبي هريرة وجندب والنعمان بن بشير وأبي موسى، وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد أورد رحمه الله كلاماً للحسن البصري في تفسير الكفر الذي يصبح عليه الرجل أو يمسي فقد روى بسنـده عن جعفر بن سليمان عـن هشام عن الحسن أنـه كان يقـول في هذا الحديـث: « يصبح الـرجل مـؤمنـاً ويمسي كافـراً ، ويمسي مؤمنـاً ويصبـح كافـراً » قال : يصبـح الـرجل محرِّمـاً دم أخيـه وعرضـه ومالـه، ويمسي مستحلاً له ، ويمسي محرِّماً لدم أخيه وعرضه وماله ، ويصبح مستحلاً له.

ومهما يكن من أمر : فإن الذي يرمـي إليه إمام الهداة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ـ والله أعلم ـ إثارة الحافز الإيماني الذي تكون تقوى الله ، في السر والعلن استجابة له ، كيما يبادر المؤمن تلك الفتـن بالعمل الصالح ، ويسارع إلى تحصين نفسه من لأوائها ، بـالبعد عن موجبات الغفلة ، والإعراض عـن ذكر الله وعن يوم

الوعيد﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ وذلك ما نجده في بعض روايات الحديث المومى إليه، التي نقع فيها على توجيه النبي ﷺ إلى تلك المبادرة ، وأن يأخذ المؤمن حذره فيعتصم بالكتاب والسنة ، ويملأ وقته بالاعمال الصالحة قبل أن تضطرم نار الفتن، ويشغله ذلك عما به نجاته في الدنيا ويوم الدين . قال الإمام مسلم: حدثني يحيى بن أيوب وقتيبة وابن حجر جميعاً عن إسماعيل بن جعفر ، قال ابن أيوب : حدثنا إسماعيل قال : أخبرني العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » ورواه الترمذي بلفظ « ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً » دون شك من الراوي وقال: هذا حديث حسن صحيح . وقد أوجز الإمام النووي بيان معنى الحديث فقال : «معنى الحديث الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة » قبل تعذرها والاشتغال عنها، بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة ، المتراكمة تراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر ، ووصف صلى الله عليه وسلم نوعاً من شدائد تلك الفتن ، وهو أنه يمسي مؤمناً ويصبح كافراً أو عكسه ، شك الراوي ، وهذا لعظم الفتن ، ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب والله أعلم» .

وهكذا يدعو رسول الله ﷺ المسلمين إلى التعجل بالأعمال الصالحة قبل مجيء الفتن المظلمة لأن الفتنة ـ والعياذ بالله ـ تحول دون المسلم ، ودون العمل المرضيِّ لله ، أو كمالِه على الوجه الذى ينبغي .

والأدهى من ذلك : أنها قد توقع البعض في شرك الصدود عن العمل ، وقسوة القلب ؛ فالمبادرة مطلوبة لإدراك الشيء قبل فواته بالنسبة للعمل ، أو للدفع قبل الوقوع بالنسبة للمعوقات والفتن ، وما يكون صداً مبطناً بعض الأحيان عن سبيل الله من قبل الفتّانين ، أولئك الذين يقفون ـ ظاهرين أو مقنّعين ـ دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها .

ويبدو أن حرصه ﷺ ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ على أن يسلك كل من المسلم والمسلمة طريق النجاة في يوم القيامة ـ وهي طريق قوامها الإيمان والوعي ـ من القضايا الكبار ، التي كانت تؤرقه وتحظى ببالغ اهتمامه صلوات الله وسلامه عليه ؛ أخرج البخاري بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : «استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة فقال : سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ؟ وماذا فتح من الخزائن ؟ أيقظوا صويحبات الحجر !! فرب كاسية في الدنيا عاريةٍ ـ أو عاريةٌ ـ في الآخرة» .

وأخرجه مالك في الموطأ كما أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح».

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين ورحمة العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

لعل من التواصي بالحق ، معاودة التذكير المرة تلو المرة، بأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى، إلا وقد أدى أمانة التبليغ والبيان،خير ما يكون الأداء ، ومن ذلك هديه صلى الله عليه وسلم فيما ينبغي أن يفعله المؤمن ليكون بفضل الله تعالى من أهل النجاة يوم القيامة . وقد أشرت من قريب إلى ما أخبر به ﷺ تنبيهاً وتحذيراً للأمة، من أن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، وأن على المسلمين أن يبادروا هذه الفتن بالأعمال الصالحة ، فيتعجلوا العمل المرضيَّ لله تعالى قبل فوات الأوان .

وما أعظمه هدياً ، أن يكشف صلوات الله وسلامه عليه عن وقوع الفتن، ويوجّه إلى المعتصم من شرها وأذاها ، كيما يكون المؤمن في منجاة ، تسلك به يوم القيامة طريق الفائزين الذين يصدق فيهم قول الله جل شأنه : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنّة فقد فاز وما الحياة الدنيا الإ متاع الغرور ﴾ والحديث الذى أشير إليه هو ما روى مسلم والترمذي ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا » إنها لفتن مرعبة حقاً . ومن خاف على نفسه الفتن صادقاً ، بادرها بالأعمال الصالحة والقربات النافعة عملاً بهدي النبي عليه الصلاة والسلام .

ومع هذا المنهج المبارك من هدي النبوة ، تطالعنا قبسات من حديثه عليه الصلاة والسلام ، تكشف عن مدى حرصه على أن يكون المؤمنون ـ أبداً ـ على ذكر من يوم الحساب ، ووعي لما يعنيه إيمانهم باليوم الآخر ، وأن أوضح أثر من آثار التذكر ، أن يفروا إلى الله وينيبوا إليه مخلصين ، وأن يتزودوا بصالح العمل لتلك

الرحلة التـي موعدها هناك ، حيـث المسؤولية والجزاء : «وقفوهم إنهم مسؤولون»
روى الترمذي بسنده عـن أبي بن كعب رضي الله عنه قـال : « كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : أيها الناس اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ،جاء الموت بما فيه . قال : قلت : يارسول الله إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال : ما شئت ، قلت : الربُع؟ قال : ما شئـت ، وإن زدت فهو خير لك ، قلت: النصف؟ قـال : ما شئت، وإن زدت فهو خير لك ، قلت : الثلثين ؟ قال : ما شئت ،وإن زدت خير لك . قلت : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : إذاً تكفى همَّك، ويغفر لك ذنبك قال أبوعيسى: هذا حديـث حسن . وفي بعض النسخ : حسن صحيح ، وأخـرجه أحمد والحـاكم في « المستدرك وصححه ووافقه الذهبي في «التلخيص » .

ولقد ترك عليه الصلاة والسلام الأمة على المحجة البيضاء ، ولم يدع أن يُدخل إلى قلوب الناس وعقولهم ــ بسمو موعظته ، وفائق بيانه وبليغ قـوله وما يصحب ذلك من ندى الرحمة والشفقة ـ ما يجعل يوم القيامة ، ووقوف الناس لرب العالمين، وما يسبـق ذلك ومـا يلحقه ... ما يجعـل ذلك كله كـأنه مـرئيٌّ رأي العين، وكان ذلك مـن كمال نصحه ﷺ للأمة ، وأداء حـق الله في توجيهها وجهة الخير، ومـا به تحسن العاقبة يوم اللقاء ، وتتحقق بإذن الله سعـادة الدارين . عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من رجـل إلا سيكلمه ربه يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمـن منه فلا يرى شيئاً إلا قدَّمه، ثم ينظـر أشأم منه فلا يرى شيئاً إلا شيئاً قدمه، ثم ينظر تلقاء وجهه، فتستقبله النار . قال رسول الله ﷺ: من استطاع منكم أن يقي وجهه حـر النار ولو بشق تمرة فليفعل » . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وأنت ترى أن الـرسول عليه الصلاة والسـلام قد عمد ـ وهـو سيد البلغاء ـ إلى أسلوب غـاية في الـوضوح ، فكشف بـالسهل الممتنع مـن الكلام ، عـن هذا المشهد الذي يبعـث في قلب المؤمن الكثير من الخشية والترقـب ، فما من أحد إلا

سيكلمه ربه يوم القيامة ، وليس بينه وبينه ترجمان ، ثم بيّن ﷺ مكانة العمل الصالح في الدنيا ، وعظم المسؤولية يوم القيامة . وأن السبيل إلى الوقاية من النار ـ بفضل الله تعالى ـ أن يقدِّم العبد ـ بعد الفرائض ـ ما هو قادر عليه من العمل الخالص لله عز وجلّ ، فإن ذلك نافعه هنالك مهما قلَّ إن شاء الله « من استطاع منكم أن يقي وجهه حر النار ولو بشق تمرة فليفعل » فما دام هذا القليل القليل المقدور عليه مع الإخلاص ، يقي الوجه حر النار ، فلأن يكون ذلك بما هو أكثر منه للقادر عليه ، أولى وأحرى .

هذا : وقد كان لهذا الهدي النبوي على ساحة التزود ليوم القيامة ، وما ينبغي للمؤمن من مراقبة الله ، والإحساس بأنه مسؤول في ذلك اليوم عما قدّم ... كان لهذا الهدي المبارك ، أثره البالغ في حياة الصحابة وسلوكهم الفريد المتميز، عليهم الرحمة والرضوان ، وأجزل مثوبتهم في الآخرين ؛ وهو أثر طيب مبارك ، تطالعنا نماذج منه في كل عصر . أما انحساره عن مجتمع ما في العالم الإسلامي : فهو بلاء كبير على الفرد والجماعة ، والواجب على القادرين في ميادين التربية والتعليم والإعلام ، توسيع دائرته في حياة الأمة ، كيما ينعكس على مناهجها في العمل والبناء والسلوك .

روى الإمام مالك في الموطأ بإسناد صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب، وخرجت معه ، حتى إذا دخل حائطاً ، فسمعته وهو يقول ، وبيني وبينه جدار ، وهو في جوف الحائط : «عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين !! بخ بخ والله يا ابن الخطاب لتتقينّ الله ، أو ليعذبنّك » وليس بخافٍ أن الفهم العميق لهذه الكلمات من عمر رضي الله عنه ، إنما يكون باصطحابها إلى سيرة الخليفة الثاني ، وما كان من خشيته لله وإخلاصه العميق وتواضعه الجم، مع عدله في الرعية وحزمه، وما أملى على التاريخ ،على صعيد التعامل مع مولاه سبحانه ، ومع نفسه وأهله ، ومع الآخرين في السلم والحرب وفي الرضا والغضب «عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك » .

لقد كان ذلك مـن الفاروق ـ وهو يحمل مسؤولية الحكم ـ ، صورة للتفاعل الحقيقي والتأثر الصادق بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، حين اتجه بالفرد والجماعة وجهة استشعار المسؤولية أمام علام الغيـوب يوم الدين ، كائناً من كان ذلك الفرد، وكائنة من كانت تلك الجماعة.

وقد آتى ذلك أُكُلَه في حياة الفرد والمجتمـع ، حيث كان الإحساس بالعلاقة الوثيقة بين ما يقدِّم المرء هنا ، وبين ما يجد هناك ، يتنامى في حسِّ الإنسان المسلم، وينعكـس ذلك صـدقَ مراقبـة لله ، وصلاحـاً في العمل والإنجـاز ، وارتفاعـاً إلى مستوى التطلّع إلى النجاة يوم الدين ، لا وقوفاً عند رغبات موقوتة في دار الفناء .

يوم يجعل الولدان شيباً..

النفخ في الصور

كان رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق ، المؤتمن على بيان الكتاب العزيز حفياً بأن يؤدي أمانة البيان ، وينصح للأمة في تبليغ ما أوحي إليه. وما من ريب في أنه عليه الصلاة والسلام قد أدى تلك الأمانة خير ما يكون الأداء ، ولم يخلّف وراءه شيئاً اؤتمن على بيانه إلا بينه، دق ذلك الشيء أو جل . وربما كانت حفاوته ببيان الأمور الغيبية ، أكثر وأشد، مع ما أوتي من البلاغة التي تتقطع دونها أعناق البلغاء ، لأن الناس في الأمور الغيبية ، يبدون أحوج إلى مزيد من البيان والتقرير والتأكيد ، وهذا أسلوب حكيم رفيع يتلمَّس حاجة النفس الإنسانية ، ويفيها حقها فيما يدخل القناعة والتصديق إلى العقل والقلب ، حتى كأن عالم الغيب عند المؤمن عالم شهادة ، وحتى لو كشف الغطاء - كما قال علي بن أبي طالب - لم يزدد هذا المؤمن يقيناً ، لأنه موقن من طريق الخبر الصادق في كتاب الله ، وحديث النبي عليه الصلاة والسلام .

وهذا الذى نقول ، ينتظم - فيما ينتظم - أخبار يوم الحشر يوم القيامة ، وما يسبقه من أمارات الساعة ،ومن نفخ الصور ، ثم ما يتبع ذلك من الأمور العظام . وفي حديث طويل رواه مسلم نقع في آخره على شيء من خبر النفخ في الصور ، وما يسبقه من تلك الريح الباردة التي تهب فلا تبقي على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقال ذرة من خير ، إلا وتقبضه ؛ فقد روى رحمه الله بسنده عن النعمان بن سالم قال : سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي يقول: سمعت عبدالله بن عمرو ، وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذى تحدث به تقول : إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ، فقال : سبحان الله - أو لا إله إلا الله ، أو كلمة

نحوهما ـ لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً ، إنما قلت لكم: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً ، يحرَّق البيت ويكون ، ويكون . ثم قال : قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين ،لا أدري، وفي رواية قال ابن عمرو : لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاما ،ً فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه ، فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ،ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل ، لدخلته عليه حتى تقبضه ، قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان ، فيقول : ألا تستجيبون ، فيقولون : فماذا تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم في ذلك دارٌّ رزقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتاً ورفع لِيتاً ، قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قال : فيُصعق ويصعق الناس ، ثم يرسل الله ـ أو قال ينزل الله ـ مطراً كأنه الطَّلُّ ، فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلُمّ إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسؤولون ، قال : ثم يقال : أخرجوا بعث النار ، فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، قال : فذاك يوم ﴿ يجعل الولدان شيباً ﴾، وذلك ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ .

في كبد جبل : أي وسطه وداخله ، كبد كل شيء وسطه . ونجد في معنى «أصغى ليتاً ورفع ليتاً » صورة مفزعة للإنسان عند ما يسمع نفخ الصور ، إذ تراه يميل صفحة عنقه من هنا ويرفع الأخرى من هنا ، فالليت صفحة العنق، وأصغى: أمال ، فهو من شدة الهول يتحرك حركات تبدو كأنها غير إرادية ،حتى كأن كل صفحة من صحفتي عنقه منفصلة عن الأخرى ، فهو يميل ليتاً ـ صفحة عنق ، ويرفع ليتاً صفحة عنق أخرى ، ونسأل الله السلامة والحفظ .

يلوط حوض إبله : يطيِّنه ويصلحه ، وأورد أبـو عبدالله الحاكم النيسابوري في «المستدرك » تحت كتاب « الأهوال» قول الله تبارك وتعالى في سورة النمل : ﴿ويوم ينفخ في الصـور ففزع من في السماوات ومـن في الأرض إلا من شاء الله وكـلٌّ أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبُها جامـدة وهي تمر مر السحاب صُنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾ وقوله جل شأنه في سورة الزمر: ﴿ ونفخ في الصور فصعِق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ ثم أورد حديثاً يدل على كمال الاستعداد عند الملك الموكل بالنفخ وهو إسرافيل ، وكيـف أنه ينظر نحو العرش ، تحسُّبـاً من أن يؤمر بـالنفخ قبل أن يرتـدَّ إليه طرفـه ، صورةً من صـور الطاعة المطلقـة عند الملائكة عليهـم السلام، وكيف أنهم لا يعصون الله ما أمـرهم ويفعلون ما يؤمرون ؛ فهـو يخشى أن يتخلَّف أقل زمن متصور ،عـن طاعة أمر الله بالنفخ في الصـور . روى رحمه الله بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قال رسول الله ﷺ : « إن طرْف صاحـب الصور مذ وكِّل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتدَّ إليه طرفه ، كأن عينيه كوكبان دريّان » قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . وقد تناول رسول الله ﷺ معنى الصـور بالبيان ، فذكـر أنه قرن ينفـخ فيه ، نجد ذلك فيما روى عبـدالله بن عمـرو بن العـاص رضي الله عنهما قـال : « جاء أعـرابي إلى النبـي ﷺ فقال : مـا الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه » أخرجه أبوداود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، كما رواه أحمد والدارمي وابن حبان والحاكم وغيرهم .

وفي بيان لما جاء في الكتاب العزيز ، من النص على النفختين ، نقع في بعض النصـوص مـن حديـث الـرسـول عليه الصـلاة والسـلام . على أن بين النفختين أربعين؛ كالذي نجد عند البخاري ومسلم ومالك في الموطأ ، وأبي داود والنسائي؛ ففي كتاب التفسير من الجامع الصحيح عقد البخاري باباً جعل عنوانه آية الزمر السالفة فقال : « باب ﴿ ونفخ في الصور فصعِـق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخـرى فإذا هـم قيام ينظرون ﴾ » ثم روى بسنده عن

الأعمش قال : سمعت أباصالح قال : سمعـت أباهريرة عن النبيﷺ قال : «ما بين النفختين أربعون . قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال : أبيْت ، قالوا : سنة؟ قال : أبيْت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيْتُ ، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق » .

وأهم ما في الموضـوع : أن يفتح المؤمن قلبه وعقلـه لهذه الحقائق الغيبية ، كيما يُعدَّ العـدّة ليوم يجعل الولـدان شيباً. ولا يجد ـ وقد أزفـت الآزفة ـ إلا ما قـدّم من عمل والله المستعان .

وإلى صفحات قـادمات ــ إن شاء الله ــ نستلهم فيهـا روايات أخـر في هذا الباب ، ما تحمل من البشارة والنذارة ، ونسأله تعالى أن يجعلنا من الملطوف بهم في ذلك اليوم العصيب ، ولاحول ولا قوة إلا بالله .

النفخ في الصور.. والهدي النبوي

في ظلال ما يدعو المؤمنَ إلى مزيد من التعرف، إلى ما يكون قبل يوم القيامة، من النفخ في الصور ، وكم هي المدة بين النفختين ، أعيد إلى الأذهان ما روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ واللفظ للبخاري ـ أن «ما بين النفختين أربعون » وعندما سئل أبوهريرة ، هل هي أربعون يوماً أو أربعون سنة أو أربعون شهراً كان يقول في كل مرة « أبَيْت» ، أي امتنعت؛ لقد امتنع رضي الله عنه أن يجزم أن المراد كذا وكذا وأن يعيِّنه ، لأن القضية توقيفية ، وليس عنده فيها توقيف .

وفي رواية مسلم زيادة تعطي شيئاً من التفصيل ؛ فقد روى بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون ، قالوا يا أباهريرة أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، ثم ينزل الله من السماء ماءً ، فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة » .

وأنت واجد في هذه الرواية عند مسلم ، أن التدرج في السؤال كان من اليوم إلى الشهر إلى السنة ، بينما كان هذا التدرج على غير هذه الصورة ، في رواية البخاري التي أوردناها من قبل ، والتي أتى بها رحمه الله ، عند تفسير قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿ ونفخ في الصور فصعِق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ فقد بدأ السؤال باليوم ، ثم انتقل إلى السنة ، وبعدها إلى الشهر . على أن هناك رواية أخرى للبخاري تبدو متطابقة مع رواية مسلم التي رأينا آنفاً : فعند تفسير قوله تعالى في سورة عم

يتساءلون : ﴿ يوم ينفخ في الصور فتـأتون أفواجاً ﴾ من كتاب التفسير في الجامع الصحيح روى بسنـده عن الأعمش عن أبي صـالح عن أبي هريـرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون . قـال : أربعون يوماً ؟ قال : أبيتُ ، قال : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، قال : أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، قال: ثم ينزل الله مـن السماء ماءً ، فينبتون كما ينبت البقل ، ليـس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذنب ، ومنه يُركّبُ الخلق يوم القيامة ».

هذا : ومما تجدر الإشارة إليه ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير «الناقور» الوارد في القرآن الكريـم ، بأنه الصور ، ذكر ذلك شيـخ المفسرين الطبري. وقال الحافظ ابـن كثير : قال ابـن عباس ومجاهـد والشعبي وزيـد بن أسلـم والحسن وقتادة والضحـاك والربيع بـن أنس والسدي وابن زيـد : الناقور : الصـور . قال مجاهد : وهو كهيئـة القرن . وفي كتاب «الرقـاق» من الجامع الصحيح جـاء قول البخاري تحت «باب نفخ الصور ».

قال مجاهد: الصور كهيئة البوق . زجرة : صيحة ، وقال ابن عباس : الناقور : الصور والراجفة : النفخة الأولى ، والرادفة : النفخـة الثانية . وقد ذكر الحافظ في «الفتح» أن تفسير زجرة بـــ «صيحة» هو من تفسير مجاهـد أيضاً . قال رحمه الله: وصله الفِريابي مـن طريق أبي نُجيح عن مجاهد في قـوله تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هـم قيام ينظرون ﴾ قال : صيحة . وفي قـوله تعالى ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ قال : صيحة . قلت ـ الكلام للحـافظ ـ : وهي عبارة عن نفخ الصور النفخة الثانية ، كما عبر بها عن النفخة الأولى في قوله تعالى: ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخِصِّمون ﴾ .

وقد رأينـا فيما سبق من النصـوص ، ما ذكر النبـيﷺ عن إعادة الخلـق بعد النفخ في الصور ، وذلك قوله : «ثم ينزل من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل..» الحديث ، وقرَّب ﷺ هـذا الأمر العظيم ببلاغتـه الفذَّة وأسلوبه الفـريد في كلام

البشر ، لبعض الصحابة حين سأله عن ذلك ؛ وهو ما روى أبو رزين العُقيْليّ رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله كيف يُعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال :« أما مررت بوادي قومك جدباً ، ثم مررت به يهتزُّ خضِراً؟ قلت: نعم، قال : فتلك آية الله في خلقه ، كذلك يحيي الله الموتى » أخرجه رزين ، كما قال ابن الأثير في « جامع الأصول » .

ولقد يعنينا ـ والأمر غاية في الأهمية ، والتناصح في الله قائم إن شاء الله ـ لقد يعنينا والأمر كذلك ، استذكار أن الذى لا يسع مؤمناً جهله أو تجاهله ، أن هذا الذي كشف عنه الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام من أمور يوم الفصل وما يسبقه من النذر ، ونبّه عليه بالقول البليغ الذى يلامس شغاف القلب، ويدخل أعماق النفس ، وذلك بياناً لما جاء في الكتاب العزيز حول هذه الأمور، وامتثالاً لما أمره الله تعالى به من الموعظة والقول في النفس قولاً بليغاً ، يأخذ طريقه إلى التفاعل والتأثير .. أن هذا اللون من الهدي النبوي ... أمانة في أعناق المكلفين، لما أنه معرفة يجب أن يتلوها التزود ليوم القيامة بخير زاد ، وسلوك السبيل التي تباعد عن اللهو والغفلة ونسيان يوم المعاد ، وتأخذ بالمؤمن إلى كل ما يذكر بالآخرة والنفخ في الصور النفخة الأولى والنفخة الثانية ... وبالحشر والمساءلة يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون : ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ فليس الأمر أمر ثقافة وكفى ، ولكنه أمر مسؤولية وتذكير، وهداية ترتبط أيّما ارتباط بالعاقبة والمصير . وما أجدر العاقل أن يفكر في المعاد، ويكون على ذكر من هدي خير العباد .

ولقد دلت نصوص الحديث النبوي ، على أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو خير المعلمين وسيد المربين ـ لم يكن في هديه معلماً فحسب، ولكنه كان نعم المربي بالقدوة وعظمة السلوك ؛ أقول هذا في كلام موصول بما جاء عنه ﷺ من بيان للنفخ في الصور ، فقد كان واضحاً ، أنه نبَّه الأمة على ما سيكون ، ودلّها على

ما يجب من العمل الصالح ، والإعداد لتلك الساعات المهولة ،لأن الأمر شديد شديد . وفي الوقت نفسه كان هو ـ فداه أبي وأمي ـ في خاصية نفسه ، شديد الخشية، لا يغفل عما سيكون ، ولا ينعم في الحياة الدنيا ، لما أن الملك الموكّل بالنفخ في الصور ينتظر بترقب شديد ، أن يؤمر فينفخ .

وهذا منه ﷺ ـ وهو صاحب الشفاعة العظمى والرحمة المهداة ـ مدعاة لكثير من العظة والتدبر .

وإني مذكِّر بما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ، ينتظر أن يؤمر فينفخ ؟ فكأن ذلك ثقل على أصحابه ، فقالوا : فكيف نفعل يارسول الله ، أو نقول ؟ قال : قولوا :حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا ، وربما قال : توكلنا على الله » أخرجه الترمذي .

رزقنا الله ـ بمنّه وفضله ـ الانتفاع بهدي النبي عليه الصلاة والسلام ، وحسن التأسي به ، وجعل ذلك زلفاناً إلى حسن العاقبة في يوم قال العزيز الجبار فيه : ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ .

بيان النبي ﷺ الذى يُطالعنا به الحديث النبوي الشريف ، وما تحمل نصوص الحديث من بصائر ... كل أولئك ، ليس ذلك المصدر الثّر المبارك للمعرفة وكفى ، ولكنه يحمل ـ مع المعرفة ـ منهجاً بالغ الدقة والتأثير في التربية والسلوك ؛ وتلكم هي الهداية التي أكرم الله بني الإنسان بها ، على مر العصور ؛ فترى الهدي النبوي يعلِّم ويوجه ويربي ؛ ينمي في النفس فضائلها ، ويقوِّم ما يكون من معوج ، ويأخذ بيد المسلم والمسلمة إلى حيث القدرة على العطاء ، والإسهام ببناء المجتمع الأمثل ، ناهيك عما يبعث ذلك من طمأنينة في النفس ، وقدرة على المثابرة في ساعات العمل والجهاد ؛ الأمر الذى ينتهي بالمؤمن ـ إن أخلص الدين وصدق الوجهة ، وجعل الآخرة نصب عينيه ـ إلى سعادة الدنيا ، والفوز برضوان الله وجنته يوم الدين .

وهذه العملية العظيمة ، بشعبها كلها ، ومقوماتها جميعاً ، نجدها ثمرة من ثمرات كون الحديث : ما أثر عن النبي ﷺ من قول ، أو فعل أو إقرار ، أو وصف خِلقي أو خُلقي ؛ فهو يعلِّم ويربي بالقول والفعل والإقرار وكل ما هو من ذلك بسبيل .

وجدتني مسوقاً إلى تقرير هذه الحقيقة والتذكير بها ـ وهي متجددة الهداية والنفع ـ وأنا بسبيل أن أصل الحديث بما مر بنا من قريب، من هدي النبي ﷺ في بيان ما ورد في الكتاب العزيز ، بشأن النفخ في الصور ، إيذاناً بقيام الساعة ، ثم ما كشفت عنه بعض النصوص ـ كما روى الترمذي ـ من أنه صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو الذي غفر الله له من ذنبه ما تقدم وما تأخر وجعل منه صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة ـ كان لا ينعَم في هذه الحياة خشية لله، وخوفاً من

أهوال القيامة التي يؤذن بها النفخ في الصور « كيف أنعَم وصاحب القرن ـ يعني الصور ـ قد التقم القرن ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ »؟ .

وليس بدعاً ـ وقد رأى الصحابة رضوان الله عليهم ذلك الترقب والتخوف منه عليه الصلاة والسلام ـ أن يشقَّ عليهم الأمر ويثقل ؛ وعندها قالوا : «كيف نفعل يارسول الله ـ أو نقول ـ ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . ذلكم واحد من الدروس بالغة العمق التي أعطاها رسول الله ﷺ لأمته ، بسلوكه ، وتجافي جنبيه عن مضاجع النعيم ، والوقوف للغفلة ونسيان اليوم الآخر بالمرصاد؛ فإذا كان المصطفى خاتم النبيين ، وهو هو فيما أعطي وأكرم ، تبلغ به الخشية من نفخ الصور هذا المبلغ : فعلى المسلم ـ وهو يذكر اليوم الآخر ويؤمن أنه حق لا ريب فيه ـ أن تكون وجهته ، حيث وجهّه النبيُ القدوةُ الناصحُ عليه الصلاة والسلام وهي الوجهة المؤذنة بحسن الخاتمة بعون الله .

على أن الناظر في حديث النبي ﷺ ، وسيرته على وجه العموم ، يجد أنه كان يتجاوز نفسه أبداً ، إلى الخوف على أمته أن تصاب في آخرتها ، وأن ينال المسلمين من سوء العاقبة ـ لا سمح الله ـ ما ينال أولئك الذين عميت بصائرهم ، فكانوا من أهل الجحيم . وقد بلغ به الأمر ، أن نهى أصحابه عن أن يشربوا من آبار الذين كذّبوا رسولهم صالحاً ، وعقروا الناقة التي نبهوا على عدم إيذائها ، فصبَّ عليهم ربهم سوط عذاب ، وأن يأكلوا من العجين الذى عجنوه بماء تلكم الآبار، خشية أن يصيبهم ما أصابهم ؛ لأن الذى ينتظر ثمود يوم القيامة ، من النكال والعذاب الشديد ، أشد وأعتى مما عوقبوا به في الدنيا ، نسأل الله السلامة . قال الإمام مسلم . حدثني الحكم بن موسى أبوصالح قال: حدثنا شعيب بن إسحاق: أخبرنا عبيدالله عن نافع أن عبدالله بن عمر أخبره « أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجر أرض ثمود ، فاستقوا من آبارها ، وعجنوا العجين ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهريقوا ما استقوا ، ويعلفوا الإبلَ العجينَ ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة » كما روى مسلم بسنده عن عبدالله بن دينار أنه سمع

عبدالله بـن عمر يقـول : قال رسول الله ﷺ لأصحـاب الحجر : «لا تـدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فـلاتدخلوا عليهم؛ أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم» . وفي روايـة أخرى له أيضاً : أن عبدالله بـن عمر رضي الله عنهما قال: «مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر ، فقال لنا رسول الله ﷺ : لا تدخلوا مسالك الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين ،حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم، ثم زجر فأسرع حتـى خلّفها »: أي زجر ناقته فسـاقها سوقاً كثيراً ، حتـى جاوز تلك المسالك .

هكذا نرى أن رسول اللهﷺ ـ وهو الـرحمة المهداة وسيّد النّصحة الرحماء ـ كما يخشى على نفسـه ، يخشى على أمته أن يصيبها مـا أصاب الذين ظلمـوا أنفسهم وعتوا عـن أمر ربهم ، وعصوا رسُله ؛ ذلـك لأن الأمر جدٌّ خطير ـ كمالايخفـى ـ فما أصـاب أولئك الظـالمين لأنفسهم وللحقيقـة هنـا ، هو عنـوان المصير المفزع يـوم المعاد؛ ، وذلك ما ينتظر قوم هود وقوم صالح وآل فرعون وأضرابهم ـ على اختلاف العصور ـ يوم المعاد ، يوم تـرى الظالمين المجرمين مقرنين في الأصفاد ، ﴿**سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار**﴾ .

والحق أن ما كـان عليه النبـي صلوات الله وسـلامه عليـه ، من ذكـرٍ للموت والنفخ في الصور ، وما يكون من أهوال يوم القيامة ، ومن شديد الخشية على نفسه وعلى أمته .. أعطى عطـاءه الطيب المبارك في النفوس ، فلـم تعدم الأمة في عصر من العصور ـ بدءاً من عصر الصحابة ـ من يتابعون الطريق ، فيقفون على المنهل العذب من إرث النبوة ، يتذكرون ويـذكّرون ، ويكون لهم من الإخلاص في القول والعمل ،وأنهم يخافـون يوم الحسـاب ، ما يسعفهـم في أن تعمل الموعظـة عملها ، ويأخـذ التذكير سبيلـه إلى النفوس ، فيضاعـف من جدّه في الطـاعة العـامل ، ويستيقظ الغافل ، ويعـودالجانح ، وتعلو ـ في طاعة الله وتـزكية النفس والنظر إلى العاقبة ــ همة من أصابته جائحة الـركون إلى الدنيا ، وغزا قلبـه شيء من نسيان يوم الدين .

أما الـذين غلبـت عليهم شقـوتهم : فليسوا مـن الاتعاظ والتـذكرُ في شيء والعياذ بالله ، وهـذا من أمراض الأمة اليـوم ، حيث الاغترار بالدار الفـانية ،وما فيها من متاع قليل ، وحيث الغفلة الضاربة ـ نتيجة الانزلاق الآثم ـ على كثير من القلوب ، حتى كأن أصحابها لا يعنيهم في قليل ولا كثير ما خاطب الله به المؤمنين في آخر آية أنزلها على نبيـه عليه الصلاة والسلام ، من قولـه جل شأنه : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ .

ولو فتحوا بصائرهم لكلام الله ، ولما كان عليه رسول الله ، من مراقبة وتذكُّر، لكان لهم مع يـوم المعاد ، وما يكون فيـه من الأهوال ، وما يـزخر به من المشـاهد العظام ، شأن آخر . هـذا عمر رضي الله عنه ـ وهو يسير بالأمـة على السنن الذى ورثه من هدي النبـوة ـ يقول كما روى عنه ثابت الحجـاج :« زنوا أنفسكم قبل أن توزنـوا ، وحاسبـوها قبـل أن تحاسبوا ، فـإنه أهـون عليكم في الحسـاب غداً ،أن تحاسبـوا أنفسكم ، وتـزينوا للعـرض الأكبر » ﴿ **يومئذ تعرضـون لا تخفى منكم خافية** ﴾ أخـرجه أبـونعيـم في الحلية . وفي روايـة أخـرى لابن الجوزي في «صفـة الصفوة» «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنـوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر » ﴿**يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾ .

رضي الله عن الخليفـة الثاني عمـر ، الذي كان لـه من مـراقبته لله عـز وجل ، ومخافته يوم الحسـاب ، ما أسهم أيمًا إسهام في تحقيق العدل ، والـردع عن الظلم ، والحفاظ على إنسانية الإنسان ، وعلى حرية المسلم وكرامته في العالمين .

الظلم ظلمات يوم القيامة..
وعاقبة السوء للمفلس

كان مـن هدي النبي ﷺ ، أنه ــ مع المهام الجسام التـي كان يرتاد ميـادينها تبليغاً وتعليماً وجهـاداً وبناءً للفرد والمجتمع والـدولة ـ يُرى صلى الله عليـه وسلم لايني ينمـي التوازن ــ في النفوس ــ بين حركـة الحياة في هـذه الدار ، المنـوط بها العمل، وبين الخشية مما يكون في عرصات القيـامة ، وما يمكن أن يؤول إليه الأمر يوم توفى كل نفس ما كسبت وهـم لايظلمون . الأمر الذي ينعكس على السلوك، استقامة في العمـل ، وإحساساً بالمسـؤولية ، وبعداً عن الـركون إلى زائل النعيم، ومتاع الغرور . ناهيـك عن المراقبة الصادقة لله عز وجل ؛ فالعبـاد جميعهم مردُّهم إلى الله ، وهو سبحانه العليم بما يفعلون .

وتدل النصوص ،على أنـه صلوات الله وسلامه عليه ، كثيراً ما كـان يتخذ من الوعيد بما يحصل يـوم القيامة من حساب وعقاب ، وإعـلانٍ عن المنحرف بسِمة انحرافه وضلالـه، طريقاً من طرق الهداية في تثبيـت المستقيم على استقامته ، ورد المخطىء إلى طريق الهدى والصواب . هذه آثام ثلاثة يبيِّن الرسول ﷺ أن الوقوع في أي منها يـودي بصاحبه إلى أن لا يكلمـه الله يوم القيـامة، ولا ينظر إليـه . إنه الوعيد بعقوبة ينخلع ـ لشدتها وعمق دلالتها ـ قلب المؤمن التقي ، خوف أن تقع به، والإيمان يدعو إلى أن يحرص هذا المؤمن الحرص كلَّه ، على أن ينجو بنفسه من تلك المهلكة ، بأن لا يقـع فيما نبه عليه النبي عليه الصلاة والسـلام ، قال الإمام البخاري ، حدثني عبدالله بن محمد قال : حدثنا سفيان عن عمرو عن أبي صالح السمّان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامـة ولا ينظر إليهم ، رجـلُ حلف على سلعة لقـد أعطي بها أكثر ممـا أعطي،

وهو كـاذب . ورجل حلـف على يمين كاذبة بعـد العصر ، ليقتطع بها مـال رجل مسلم، ورجل منع فضل مائه . فيقول الله : اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك » جـاء ذلك في كتاب المساقاة من الجامـع الصحيح . وتحت «باب اليمين بعد العصر » أورد البخاري أيضاً حـديثاً ، يحمل الوعيد يوم القيـامة لثلاثة ذكر فيهم واحد بصفة مغايرة لصفة جاءت لأحـد الثلاثة في الرواية السابقة ، مع ذكر العذاب الأليـم في الوعيد ، وعدم التـزكية من الله . فقد روى بسنـده عن أبي صالح عـن أبي هريرة رضي الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ : « ثلاثـة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ؛ رجل على فضل ماء بطريق يمنع منه ابن السبيل ، ورجل بايع رجلاً لا يبايعه إلا للدنيا ، فإن أعطاه ما يريـد وفى ، وإلا لم يف له ، ورجل سـاوم رجلاً بسلعة بعد العصر ، فحلـف بالله لقـد أعطي بها كـذا وكـذا فأخـذها » . ورواه مسلـم وأبـو داود والترمذي بلفـظ مقارب .

هذا : ونقع في حديث آخر على وعيد بالمصير نفسه لثلاثة ، فيهم اثنان لم يرد ذكرهما فيما سبق من الروايات ، وإن كـان يجمع الكلَّ ، أنهم لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظـر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم . ذلكـم ما روى مسلم بسنده عن خَرَشَة بن الحُرِّ عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظـر إليهم ، ولا يزكيهم ولهم عذاب إليم ، قـال : فقرأها رسول الله ﷺ ثـلاث مرار . قـال أبوذر : خـابوا وخسروا مـن هم يـارسول الله ؟ قـال : المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب ».

ألا إن رسول الله ﷺ لا ينطـق عن الهوى ، وهو المؤتمن على أن يبلـغ عن الله ما أراد سبحـانه ... فلينظـر امرؤ ، بـم يلقى ربـه عز وجـل يوم العـرض الأكبر ، وليبتعد عن مهاوي الـردى وظلم النفس ، لكيلا يكون واحداً مـن هؤلاء ، الذين ينالهم وعيد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهـا هي ذى صـورة أخرى ، مـن صور الـوعيد الـذى يتحقق يـوم القيامـة، نجدها فيما توعد النبي ﷺ الظالمين ، بـأن يكون ظلمهم الناس في الدنيا ،ظلمات عليهم يوم القيامة ، لا يهتدون معها سبيلاً ، حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم .وإنه لمشهد مروِّع حقاً ، حين يتحوّل الظلم إلى ظلمات على أصحابه في الآخـرة . قلوبهم مظلمـة ـ والعيـاذ بالله ـ وأيـديهم ملوَّثـة بالأذى ، فجـاء الجزاء ظلماتٍ بعضها فوق بعض ، وفضيحةً على رؤوس الخلائق يوم يقوم الأشهاد. فاذا رؤيت هذه الظلمات ـ والجزاء من جنس العمـل ـ عرف الناس أن أصحابها ، هم ظلمة الناس في الدنيا .

قال الإمام مسلم : حـدثنا عبدالله بن مسلمة بن قعنـب قال : حدثنا داود ـ يعني ابن قيس ـ عن عبيد الله بن مِقسم ، عن جابـر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلـم فإن الظلم ظلمات يوم القيـامة ، واتقوا الشح ، فـإن الشح أهلك مـن كان قبلكـم ، حملهم على أن سفكوا دمـاءهم واستحلـوا محارمهم » .
وروى مسلم بسنده عـن أبي موسى رضي الله عنه قـال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يملي للظالم ، فإذا أخذه لم يفلته ».

وينتقل بنا حديث رسول الله ﷺ إلى مشهد آخر من مشاهد الجزاء يوم القيامة عماده ذلك الإنسـان الذى سماه رسول الله ﷺ المفلـس ، هذا الإنسـان يجيء يوم القيامة ـ وقد أساء إلى عباد الله وارتكب في حقهم ما نهى الله عنه ـ فيؤخذ لهم من حسناتـه ، فإذا نفـدت تلك الحسنات ، وبقـي لهم حقوق ، أخذ مـن خطايـاهم فطرحت عليه ثم طرح في النار .

مشهد تتغلغل دلالتـه إلى الفرد ، والجماعة ،وشتى أنواع التعـامل والسلوك ، كيما يستقيم الجميع على الجادة ، ويحذروا الله واليـوم الآخر ، ويتقوا ما يكـون من عاقبة الذين يفسدون في الأرض ، ولا يصلحون ، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قـال : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلـس فينا من لا

درهم لـه ولا متاع . فقـال : إن المفلس من أمتـي ، من يأتي يـوم القيامـة بصلاة وصيام وزكـاة ، ويأتي قد شتـم هذا ، وقذف هـذا ، وأكل ما ل هـذا ، وسفك دم هذا، وضرب هـذا ، فيعطي هـذا من حسنـاته ، وهـذا من حسنـا ته ، فـإن فنيت حسناته قبل أن يقضي مـا عليه ، أُخذ من خطاياهم فطرحـت عليه ، ثم طرح في النار » وأخرجه أحمد ، والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ولعل في هذا البيان من النبي عليه الصلاة والسلام ، ما يقطع العذر على من يؤمنون باليوم الآخر ـ ويبلغهم هـذا الوعيد الذي يصوِّره مشهد المفلس الحقيقي، وطريقة الاقتصاص منه ، والحال التي يؤول إليها في خاتمة المطاف ، من الطرح في النار ... ـ ثم يقعون في هذا التجاوز لحدود الله ، عندما يتعاملون مع إخوانهم. على أن النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو الرحمة المهداة ـ لم يدع الأمر على عواهنه في هذه القضيـة ، بل نبّـه على أن يكون المسلـم على حذر مـن تلكم العـاقبة، فيردَّ المظالم ، ويؤدي الحقوق إلى أصحابها ، قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي لا بيعٌ فيه ولا خلال ، ودعا لـه بالرحمة إن فعل ذلك : أخـرج الترمذي عن أبي هريـرة قال: قال رسول الله ﷺ : « رحـم الله عبداً كـانت لأخيـه عنده مظلمـة في عرضٍ أو مـال ، فجاءه ، فاستحلَّه قبل أن يؤخذ ،وليس ثم دينار ولا درهم ؛ فإن كانت له حسنات أخـذ من حسنـاته ، وإن لم تكـن لـه حسنات حمّلوه عليـه من سيئـاته » . قـال أبوعيسى : هذا حـديث حسن صحيح غريب من حـديث سعيد المقبُري ، وقد رواه مالك بن أنس عن سعيد المقبُري عن أبي هريرة عن ا لنبي ﷺ نحوه .

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وارزقنا حسن الانتفاع بما دَلّ عليه نبينا محمد عليـه الصلاة والسلام من السلوك المنجي ـ بعون الله ـ يوم الدين .

﴿وخشعت الأصوات للرحمن... وقد خاب من حمل ظلماً﴾

في طريقنا إلى اصطحاب ما يكشف عن الحشر ،وأهوالـه يوم القيامـة ، من نصوص الحديث الشريف .. يدعوني الحرص على البعد عن التشتت في استجماع الحقائق ، أن أعيد إلى الأذهان ما أشرق به الهدي النبوي ـ تبياناً للكتاب العزيز ـ من إيضاح لما يكون من النفخ في الصور ، وهو ما عُبر عنه بالقرن في بعض الروايات ، حيث ينفخ في الصور النفخة الأولى ، وهي النفخة التي لا يسمعها أحد إلا صَعِقَ وأصغى ليتاً ، ورفع ليتاً كما جاء في الحديث الصحيح ، أي أمال عنقه إلى هنا وهنا من هول الصعقة . ثم ينفخ فيه النفخة الثانية ، فإذا الخلائق قيام ينظرون .

والذي نلمح إليه من كلام النبي ﷺ: هو البيان الأمين لما جاء في كتاب الله تعالى عن قيام الساعة ، والنفخ في الصور من مثل قوله جل شأنه : ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون** ﴾ . وقد مرّ بنا في صفحات سلفت حديث جامع رواه مسلم حول هذه المسألة الغيبية الكبرى ، ومما جاء في هذا الحديث قوله ﷺ : « ..... ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً ، قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ، ويصعق الناس، ثم يرسل الله ـ أو قال ينزل الله ـ مطراً كأنه الطَّل ، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلُمَّ إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون . . .» الحديث .

هكذا تعلن القدرة الإلهية إعلانها ، ويبدو مشهد الخلائق ، وهو المشهد الذي يبدو عدد أصحابه مستعصياً على الحصر ، وأي من العباد يستطيع حصر ذلك؟، والحق أنه لا يحيط به إلا الخالق القادر الذي هو بكل شيء محيط . مشهد يراه الرائي هنالك حيث يخرج الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية ، كأنهم جراد منتشر ، ويقومون لرب العالمين . ومع هذا العدد الهائل للبشرية منذ بدء الخليقة إلى يوم البعث ، يمتد رواء الهول ، ويضرب الترقب بجرانه ، فلا تحسُّ لتلك الجموع الحاشدة صوتاً ، ولا تسمع لهم ركزاً : ﴿**يومئذ يتَّبعون الداعي لا عوج له، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً**﴾ فهم ساعة يرون يوم القيامة وأهواله ، يستجيبون مسرعين إلى الداعي ؛ حيثما أمروا ، بادروا إليه لا يميلون عنه.. قال محمد بن كعب القرطبي :« يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، ويطوي السماء، وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادي منادٍ ، فيتبع الناس الصوت يؤمونه» إنه الهول الذي تسقط أمامه الأقنعة، وتنحسر المظاهر البراقة الخادعة، ويخضع الجميع لله، وتذل أعناقهم لعظمته ، فترى الكل مستجيباً إلى المنادي ،لا يعاند ولا يميل ﴿**وعَنَت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً**﴾ قال ابن عباس وغيره في معنى « عنت» خضعت وذلت ، واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت ، القيوم الذى لا ينام ، وهو قيّم على كل شيء ، يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه ، الذي كلُ شيء فقير إليه ،لا قوام له إلا به . وقد خاب من حمل ظلماً يوم القيامة ؛ فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه ، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ، كما جاء في ا الحديث الصحيح . وفي الحديث القدسي « يقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم » وروى البخاري بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة » وقد أوردنا من قبل ما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ..» الحديث .

ويستفاد مما قرره علماؤنا أجزل الله مثوبتهم ــ كما نقل الحافظ بن حجر والإمام ابن الجوزي ـ أن الظلم يبلغ من السوء ، أنه يشتمل على أكثر من معصية ؛ فهو ـ إلى كونه ظلماً للنفس واعتداءً على الغير ، وإيذاءً له بنفسه أو ماله ، أو دينه وعرضه ، أو أي حق من حقوقه المشروعة ــ هو مبارزة لله بالمخالفة ، عما شرع لعباده وأوجب من العدل والتراحم ، وانتهاكٌ لحرمات الحق وإنسانية الإنسان ، وإضرارٌ بالجماعة . والمعصية فيه أشد من غيرها ؛ لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار . قالوا : وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ؛ لأنه لو استنار القلب بنور الهدى ،لاعتبر واتقى ؛ فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى ، اكتنفت ظلماتُ الظلمِ الظالم ، حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً.

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة ، حيث يقف الناس للمساءلة ، وترى أنه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، نجد في نصوص السنة على صعيد البيان للكتاب ، ما ينبيء عن قبض الله الأرض وطي السماء ، وعن الحال التي يحشر الناس عليها يوم المعاد ؛ ها هو ذا الإمام البخاري يعقد في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه « باب يقبض الله الأرض يوم القيامة » رواه نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ ثم قال : حدثنا محمد بن مقاتل قال : أخبرنا عبدالله قال : أخبرنا يونس عن الزهري عن أبي سلمة قال : حدثني سعيد بن المسيبَّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » وكذا رواه مسلم . وروى مسلم بسنده أيضاً عن سالم بن عبدالله قال : أخبرني عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمني ، ثم يقول : أنا الملك : أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك، أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ »

وتدل بعض الروايات على أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان يبدو عليه

الاهتمام البالـغ ، وهو يكشـف عن هـذه الحقيقة بيـاناً لما جـاء عنها في الكتـاب الكريم : فقد روى مسلم وابن ماجة عـن عبيد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبدالله ابن عمر كيـف يحكي رسول الله ﷺ قال : « يـأخذ الله عز وجل سماواتـه وأرضيه بيديه فيقول : أنا الله ـ ويقبض أصابعـه ويبسطها ـ أنا الملك !! حتى نظرت إلى المنبر يتحرك مـن أسفل شيء منـه ، حتى إني لأقـول أساقـط هو بـرسول الله ﷺ «يقبض أصابعه ويبسطها » هو النبي ﷺ.

هذا : وفي الباب الـذي أتينا على ذكره ، روى البخاري بسنـده عن أبي حازم قال : سمعـت سهل بن سعد قـال : سمعت النبي ﷺ يقول: « يحشر النـاس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقُرصة النقي. قال سهل أو غيره : ليس فيها معلَمٌ لأحد ».

عفراء : بيضاء إلى حُمرة . كقُـرصة النقى ومعنى قرصـة النقي : الخبز الحُوّارى قال ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث » : (وفيه « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء ، كقُرصة النّقي » يعني الخبز الحُوّارى) والخبز الحُوّارى: ما كان دقيقه أبيض وهـو لُباب الدقيق . وفسر الإمام الخطابي النقيَّ بـالدقيق النقي الخالي من الغش والنخال .

وإلى صفحات قادمات نتـابع فيها الرحلة إن شاء الله مـع نصوص أخر من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن والله المستعان .

كما بدأنا أول خلق نعيده

جزى الله عنا محمداً ﷺ ـ فيما بلّغ ونصح وبيّن ـ خير ما جزى نبياً عن أمته ؛ فقد كان في إعلامه الأمـة بجزئيات ما يقع يوم القيامة ، وما يكـون فيه ؛ مزيد من النصح الـذى يجعل المؤمن على بصيرة من أمـره ، كيما يتزوّد لذلك اليـوم ، ويُعدَّ العدَّة للتخلص من تلكم الأهوال ، فيكون ـ بفضل الله ـ من الفائزين .

وفي ذلك أيضـاً قطع للعـذر ؛لأن الأمر لا يكـون بغتة ، مـادام العلم بـه قد حصل من كتاب الله ، ومن المؤتمن على بيانه ، رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وفي رحلتنـا مع نصـوص الهدي النبوي ، المتعلقـة بـذلك اليـوم الذي يجعـل الولدان شيباً ، وقفتنا ـ من قريـب ـ كلمات مباركات من الهدي النبوي ، على أمر عظيم، وهـو صفة الأرض التي يحشر الناس عليهـا يوم القيامـة ، وذلك فيما روى البخاري بسنده عن سهل بن سعد قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضـاء عفراء كقُرصة النَّقي . قال سهـل ـ أو غيره ـ : ليس فيها معلم لأحد » .

وقد أشرت إلى معنى « عفراء » وأنها البيضاء التي تضرب إلى الحمرة قليلاً كما قال القاضي عياض ، وأشرت كذلك إلى معنى « كقرصة النّقي » ، وأن المراد الخبز الحُوّارى كما يقـول ابن الأثير ، أو الـدقيـق الخالي مـن الغش والنخـال كما يقـول الخطابي ، والخطب سهل ؛ إذ أن المؤدى يكاد يكون واحداً والله أعلم .

وهذه الأرض كما نـرى في نص الحديث ، ليـس فيها معلم لأحـد . وفي رواية لمسلم ـ كما سنرى ـ ليس فيها علم لأحـد ، والعَلم والمَعْلم ـ على ما يرى الحافظ ابن حجر ـ بمعنـى واحد . والمعلم ـ بفتح الميم واللام ـ الشيء الذى يستدل به على الطريـق ؛ فهي مستـوية ليـس فيها عـلامة ، تـدل على بناء ، أو سكـن ، أو

عمل، ولا على أثـر ، أو شيء من العلامات البـارزة التي يهتدي بها النـاس إلى ما يريـدون ، من الطرق والأمكنة ومـا إلى ذلك . قال الإمـام الخطابي : يريد ــ يعني الرسـول ﷺ ـ أنها مستـوية . وقال القـاضي عياض: المراد أنها ليـس فيها عـلامة سكنـى ولابناء ولا أثـر ، ولا شيء من العـلامـات التي يهتـدى بها في الطرقـات ؛ كالجبل والصخرة البارزة . وجميل قوله رحمه الله : وفيه تعريض بأرض الدنيا ، وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها . وقال العلامة محمد بن أبي جمرة ـ كما لخص كلامه الحافـظ ابن حجـر ـ : (فيـه دليل على عظيـم القـدرة ، والإعلام بجـزئيات يـوم القيامة، ليكون السامع على بصيرة فيخلِّـص نفسه من ذلك الهول ، لأن في معرفة جزئيات الشيء قبل وقوعه ، رياضة النفس وحملها على ما فيه خلاصُها ، بخلاف مجيء الأمـر بغتة . وفيـه إشارة إلى أن أرض الموقـف ــ والله أعلم ــ أكبر من هـذه الأرض ، الموجودة ، جـداً، والحكمة في الصفة المذكـورة ، أن ذلك اليوم يـوم عدل وظهور حق ، فاقتضت الحكمة ، أن يكون المحلُّ الذى يقع فيه ذلك ، طاهراً عن عمل المعصية والظلم ، وليكون تجليه سبحانه على عباده المؤمنين على أرض تليق بعظمته ، ولأن الحكم فيه إنما يكون لله وحده ، فناسب أن يكون المحل خالصاً له وحده) .

هذا : ولفـظ رواية مسلـم ـ وهي عـن سهل بن سعـد رضي الله عنه أيضـاً ـ «يحشر الناس يوم القيـامة على أرض بيضاء عفراء كقُـرصة النّقي ليس فيهـا علم لأحد » والملاحظ ــ كما أشرنا من قبل ــ أن كلمة «معلم» ،عند البخـاري تقابلها كلمة «علـم» هنا ، وإن كـانا بمعنى واحـد . وجعل البخـاري عبارة «ليـس فيها معلم لأحد » من قـول سهل بن سعد أو غيره . وهذا ما لانجـده في روايـة مسلم. بل نجد « ليس فيها عَلَم لأحد » .

صلى الله على معلـم الناس الخير ؛ هـذا عن صفـة الأرض التي يحشر عليهـا العباد !!! ولكن مـاذا عن الحال التي يكون الناس عليها ، يـوم يلاقون ربهم على أرض المحشر ؟ إن النصوص تقـودنا ـ وهي تتحـدث عن هذا الأمر الجلـل ـ إلى

مشهد من مشاهـد القيامة العظيمة المؤثرة ، وهو مشهد يأخـذ سِمته الحقيقية من كون العباد ــ وقد قاموا لـرب العالمين وحق عليهم قـول جبار السماوات والأرض **﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾** ـ كل منهم في شغل شاغل عن الآخر ، بما يواجه من الهول ، وما يحيط به من ترقب المصير ، فلكل منهـم يومئذ شأن يغنيه ، أجل يغنيه عن النظـر إلى صورة مـا عليه الناس ؛ فهـم محشورون حفاة عـراة غرلاً ــ أي بلا ختان ـ إنه لا مكـان في تلك الساعات العصيبة لأن ينظر امـرؤ إلى عورة الآخر ، رجلاً كان أو امرأة .

ألا ما أشد ذلك الهول !! وما أحرج تلك الساعات التي لا منجاةمن ويلها إلا برحمة الـرحيم الـرحمن . قال الإمام البخـاري : حدثنا قتيبـة بن سعيـد قال: حدثنا سفيان عن عمرو عن سعيـد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول: «**إنكم ملاقو الله حفاة عراة غُرلاً**» وقال في رواية أخرى : حدثنا علي قال : حـدثنا سفيان قال : قال عمرو : سمعت سعيد بن جبير قال : سمعت ابن عباس قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إنكم ملاقو الله حفاة عراة مشاةً غُرلاً » . قال سفيان : هذا مما نعدُّ أن ابن عباس سمعه من النبي ﷺ. ولـه في رواية أخرى عن ابـن عباس أيضاً قال : قـام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عُراة غُرلاً » **﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعـداً علينا إنا كنا فاعلين﴾** ألا وإن أول الخلائق يكسـى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي ، فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يارب أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : **﴿ وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنـت الرقيب عليهم وأنـت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فـإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾** قال : فيقال : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقـابهم » . زاد في رواية : « فـأقول : سحقـاً سحقـاً » وأخرجـه مسلم والترمـذي والنسـائي وأحمد وغيرهم .

وتتساءل عـائشة رضي الله عنها ، حين تعلـم أن الناس يحشرون حفـاة عُراة غُرلاً عن هذا الأمر المهول : فيكون جـواب الرسول ﷺ « الأمر أشد من أن يهمَّهم ذلك» وفي بعض الروايات ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

ولنا إن شـاء الله عودة إلى هـذه المسألـة العقديـة الكبرى ، المرتبطة بـالإيمان بالغيـب ، نستجلي دلالة الهدي النبـوي فيها ، وما تـزخر بـه من شـدة الهول الذي يغمر الناس في ذلك اليوم المهول .

وجزى الله عنـا نبينا محمداً ﷺ خير مـا جزى نبيناً عـن أمته ؟ فقد تـركنا على بيضاء نقيَّةٍ ليلُها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾
(١)

ما أعظم ما يتجه إليه المؤمن ، من استكانة إلى مولاه ، تزين عمله الصالح ، كيما يحشر يوم الحساب في زمرة من يأمنون عند الخوف ؛ ويقيهم الله شر ذلك اليوم المستطير ، حيث الهول الهائل ، والنذر التي تأخذ بمجامع القلوب؛ ومن لطف الله وكريم امتنانه على أمة الإسلام ، أنه أبان للمؤمنين في كتابه ،وعلى لسان نبيه عليه الصلاة والسلام ، عما يكون في تلك الساعات العصيبات ، من مشاهد ، كي يأخذوا حذرهم، ويكونوا ـ برحمته تعالى ـ في مأمن من مزلات الأقدام ، والانصراف إلى الجحيم . وقد أسعدنا الهدي النبوي من قريب بالإخبار عن واحد من أشد مشاهد يوم الفصل ، وذلك باصطحاب بعض من الأحاديث الصحيحة، التي نصت على أن الناس يحشرون إلى ربهم حفاة عراة غُرلاً مصداقاً لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ .

وهذه خطوة ـ لا يحسن العدول عنها ـ مع تلكم النصوص ، بعد إشارة عجلى إلى شيء من الهدي فيها، كانت بمثابة التقديم؛ فالمفتاح السليم المبارك إلى تصور ذلك المشهد ، بحسّ المؤمن ، وخشية مما يكون عليه الأمر يوم المعاد ، أن نصطحبها ونستجلي ــ قدر المستطاع ــ ما تحمل من معان ، وما تدل عليه حين تكشف عن ذلك المشهد من وعد ووعيد ، وكيف أن الأمر يوم القيامة، أشد من أن ينظر امرؤ ــ رجلاً كان أو امرأة ـ إلى عورة الآخر ، مع أن الكل مشاة حفاة عراة غرل بلا ختان ؛ لأن ما يحيط بالناس في ظل ذلك الهول الهائل ، يجعلهم ،ولكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، كما جاء من خلال تلك النصوص بيان الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام .

هذا: والذي رأيناه من قبل : بعضُ ما أورده الإمام البخاري في «باب الحشر » من كتاب الرقاق في الجامع الصحيح من رواية عبدالله بن عباس رضي الله عنهما . ولفظه : « إنكم ملاقو الله حفاة عراة مشاة غرلاً » وبمثل هذا جاءت رواية مسلم عن ابن عباس أيضاً أنه سمع النبي ﷺ يخطب وهو يقول : « إنكم ملاقو الله حفاة عراة غُرلاً » وجاء في روايات أخر التصريح بالحشر على الحال المشار إليها ؛ فمن حديث رواه الإمام البخاري قال ابن عباس : قام فينا النبي ﷺ يخطب فقال: إنكم محشورون حفاة عراةً غرلاً - **﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾** وروى البخاري ومسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « قام فينا رسول الله خطيباً بموعظة فقال : يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً **﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾** ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، ألا إنه سيجاء برجال من أمتي ، فيؤخذ بهم ذات الشِمال فأقول : يارب أصحابي ، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : **﴿ وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾** قال : فيقال لي : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » قال مسلم: وفي حديث وكيع ومعاذ « فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » وهذا مما يذكرنا بأولئك الذين ارتدوا بعده ﷺ من أصحاب مسيلمة الكذاب ونحوهم من المنافقين ، أعاذنا الله من ذلك .

ولفظ الحديث عند الإمام أحمد في المسند « يحشر الناس حفاة عراة غرلاً فأول من يكسى إبراهيم عليه السلام ، ثم قرأ **﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾** ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وجاء في رواية الترمذي « كما خُلقوا» وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وفي لفظ لأحمد من رواية ابن مسعود رضي الله عنه من حديث طويل « إذا جيء بكم عراة حفاة غرلاً » وكما أسلفنا غير مرة،

لم يكن هدي النبي ﷺ في شأن الحشر ، وما تكون عليه حال الناس يوم القيامة، بمعزل عن الانفعال الصادق عند الأصحاب عليهم الرضوان ، بل كان التصديق، وكان التأثر والانفعال مع الحقائق ، وشهد ما وصل إلينا من تاريخهم - وهم يديرون دفة الحياة ويبنون حضارة الإسلام ــ ما كان لذلك كله من انعكاس على السلوك ، وصدق الوجهة عند الفرد والجماعة . ولقد بلغ الأمر بجابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أن رحل إلى الشام ، من أجل أن يسمع حديث الحشر، والحال التي يكون عليها الناس ، يوم يحشرون ، ويلقون مالك الملوك ربهم سبحانه وتعالى وما يكون من القصاص العادل، وأخذ الحقوق لأصحابها . قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد قال : أخبرنا همام بن يحيى عن القاسم بن عبدالواحد المكي عن عبدالله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبدالله يقول : بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ ، فاشتريت بعيراً ، ثم شددت عليه رحلاً ، فسرت عليه شهراً حتى قدمت الشام ، فإذا عبدالله بن أُنيس ، فقلتِ للبواب : قل له جابر على الباب ، فقال : ابن عبدالله ؟ فخرج يطأ ثوبه ، فاعتنقني واعتنقته ، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص ، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة - أو قال العباد - عراة غُرلاً بهماً . قلت : وما بُهماً؟ قال: ليس معهم شيء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قرُب : أنا الملك، أنا الديان ، لاينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقضيه منه ،حتى اللطمة ، قال: قلنا: وكيف وإنما نأتي الله عز وجل عراة غرلاً بُهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات » .

أرأيت إلى هذا الاهتمام من جابر رضي الله عنه بحديث الرسول ﷺ وبخاصة ما له علاقة بذلك اليوم الذي تشخص فيه الأبصار ، ويحشر الناس على الحال التي دل عليها قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾!! وجزى الله

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، يوم تساءلت عما يخطر في بال كل من يقرأ أو يسمع تلكم الأحاديث ، وكان في جواب النبي ﷺ ، ما دلّ على شدة الهول الذي يضرب بجرانه على أهل الحشر ، فينصرفون عن النظر إلى العورات ،لأن الأمر أشد من ذلك . وما أروع الحقيقة القرآنية ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ روى البخاري بسنده عن عبدالله بن أبي مليكة قال: حدثني القاسم بن محمد بن أبي بكر أن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :« يُحشرون حفاة عراة غرلاً . قالت عائشة رضي الله عنها : قلت: يارسول الله الرجالُ والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أشدُّ من أن يهمهم ذلك » وفي رواية لمسلم: «قلت: يارسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ : ياعائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » .

ونجد في رواية للنسائي قولها رضي الله عنها للرسول عليه الصلاة والسلام بعد الذي سمعت عن ا لحشر : «فكيف بالعورات ؟ قال عليه الصلاة والسلام: لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

سبحان الله أي مشهد هذا الذي يكون عليه العباد ، وأيُّ شدة شادة تلكم التي تصرف ، حتى عن التفكير بأن ينظر إنسان ــ رجلاً كان أو امرأة ــ من الآخر ما هو محرم عليه النظر إليه ، مع أن الجميع محشورون حفاة عراة غرلاً !!

اللهم سلّم سلّم ، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة .

﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾
(٢)

كان من رحمة النبي ﷺ بأمته ، أنه عني أيما عناية بتوجيه المسلمين إلى معرفة ما تحمل ساعات القيامة ، من الترقب والخوف ، في خضم الأهوال التي تحفل بها تلك الساعات العصيبات ، وإلى كل ما يصل بحبل النجاة ، ويثمر ـ بعون الله وفضله ـ الفوز بنعيم الخلد في جنة النعيم .

ومما يتصل بالشطر الأول من تلكم القضية الكبرى ،ما نقع فيه ،على نصوص من السنة المطّهرة ، تزخر بالكشف عن تلكم الحقائق المهولة يوم الحساب، والتي إذا قورن أي جزء منها بقدرة الإنسان العادية على الاحتمال ، وُجد أن لطف الله، ثم شفاعة النبي ﷺ في الخلق لإمضاء المساءلة والحساب ، هما اللذان يسعفان في أن يتابع الناس ،حتى تقال كلمة الفصل ، ويعلم المصير إلى الجنة أو النار .

ولقد يشهد لهذا ويؤكده ، ما كان من عائشة رضي الله عنها ـ وهي الفقيهة التقية القانتة أم المؤمنين رضي الله عنها ـ حيث تساءلت بشيء من العجب والاستغراب ، عما يخلّفه كون العباد يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ، من الوقوع في حرمة أن ينظر بعضهم إلى عورات بعض ، وكان من جواب النبي ﷺ تقريره الواثق ، لحقيقة مذهلة قد تخفى على الناس ، وهي أن الأمر في ظل تلك الأهوال المطبقة، أشد من ذلك ، فلكل من العباد ـ على اختلاف ما هم عليه ـ شأن يغنيه عن أن ينظر إلى الآخرين ، فيتأثم برؤية العورات . فقد جاء عند البخاري ومسلم والنسائي قول عائشة رضي الله عنها : « النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض » ؟ وقول الرسول ﷺ في الجواب : « الأمر أشد من أن يهمَّهم ذلك » أجل : الأمر أشدُّ من أن يهمَّهم هذا اللون من النظر ، بحيث يلتفت

بعضهم إلى بعض ، وهم على هـذه الحال من التجرد التي تُذكِّر بها كـانوا عليه يوم ولدوا .. كيف لا ، وهم مقبلون على أحكم الحاكمين ، يـواجهون حصاد ما قدّموا في الدنيا ؛ فإما إلى جنة عـرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، وإما إلى نار وقودها الناس والحجـارة أعدت للكافرين . وقد ينال العصاة فيهـا ما ينالهم من التـأديب والتطهير ، ثـم يُخرجون منهـا بكرامـة التوحيـد ، فضلاً مـن الله العزيـز الحميد، ومن فضلـه ـ وهو الرحيـم الرحمن ـ ما فتـح لعباده من أبواب الشفـاعة، التي تتم بإذنه سبحانه وتعالى .

ولك أن تذهب بذهنك كلَّ مذهـب، فيما تكون عليه مشاعر العباد ، في تلك الساعـات المثقلة بـالرهبـة والخوف وشديد القلـق ، والتي تحمـل ما تحمـل ، من الترقب المضني الذى يهزُّ الكيان هزّاً ، ويشغل المرء عن أي شيء وراء نفسه ـ كما ثبت ذلك في كتاب الله والصحيح من الأحاديث ـ تخوفاً مما سيكون عليه مصيره . وإذا كان الأمر كـذلك ـ وهو حقيقـة لا مراء فيها ـ فـأنى له أن يجد ما يـدفعه إلى النظر إلى عورات الآخرين !! وأنى له أن ينصرف ـ ولو لحظات ـ عما هو فيه !! إنه في شغل شاغـل دونه كل ما كان يشغلـه في دنيا الفناء ... والأمر يـومئذ لمن بيده الأمر كله ، رب الأرض والسماء .

أرأيـت إلى ما جـاء في رواية للنسـائي من قـول النبي ﷺ ، رداً على تسـاؤل عائشة المثقل بالعجب والرعب : ﴿ **لكل امرىء منهم يـومئذ شأن يغنيه** ﴾ حيث رأى في الكلمة القرآنية المنبئـة عن حقيقة الموقف أفضل ما يقنـع في هذا المقام ، ونعمت الفقيهة الواعية أم المؤمنين .

وهذه الآيـة الكريمـة ـ وهـي الآية السـابعة والثـلاثون مـن سورة «عبـس» السورة المكية ـ قد سبقت بقوله تعالى : ﴿ **فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه** ﴾ ثم قال سبحانه : ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ فكأنه ﷺ يريد أن يفهم عـائشة رضي الله عنها ، ومن ورائها الأمة ،

أن من المحال ، على الناس ـ يوم الحشر ـ وهم على هذه الحال حيث يفر المرء من أقرب الناس إليـه قائلاً : نفسي نفسي ـ أن يلتفت الواحد منهـم ، إلى ما تتسائلين عنه؛ فلكل امرىء من العباد جميعاً ، شأن يغنيه .

ويبدو أن ذلك التسـاؤل المثقل بالكثير من الاستغراب ، والرعـب، من قبلها رضي الله عنها، والذي دعـا إليه ما جاء في تلكـم الأحاديث الصحيحة ، مـن بيان الحال التي يحشر الناس عليها ، يوم يقوم الجميع لرب العالمين .. يبدو أنه قد وقع أيضاً من امرأة لم يذكر اسمها ؛ فقـد جاء في رواية للترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قـال : «تحشرون حفاة عراة غُرلاً . فقـالت امرأة : أيبصر ، أو أيرى بعضنا عورة بعـض ؟ فقال ﷺ : يا فلانة لكل امرىء منهـم يومئذ شأن يغنيه » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وهـا نحن أولاء ، نقـع على نـص فيه نـوع من التفصيـل يكشـف عن مـدى الـرعب الـذي أصاب عـائشـة رضي الله عنها ــ وهـو رعب مثقـل بالاستغـراب والتعجب كما أسلفت ــ حيث سمعت ما سمعـت من رسول الله ﷺ مجيباً بقـوله تعالى : ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ حول هذه القضية الكبرى ،وذلك المشهد المذهل يوم الحشر ؛ ثم عن العلاقة بين إخباره عليه الصلاة والسلام ـ بما أخبر ـ وبين الآية المشار إليها ؛ فقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن عائذ بن شريح عن أنس بن مالك قال : «سألت عـائشة رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله بأبي أنت وأمي ، إني سـائلتك عن حديـث، أفتخبرني أنت به ؟ قال : إن كـان عندي منه علـم . قالـت: يانبـي الله كيف يحشر الـرجال ؟ قـال: حفاة عـراة . قالـت: واسوأتاه مـن يوم القيامة ، قال : وعـن أي ذلك تسألين ، إنه قـد نزل عليّ آية لا يضرك إن كان عليكم ثيـاب أو لا يكون ، قالت: أيَـةُ آية هي يانبـي الله ؟ قال : ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾» .

على أن هنالك رواية، يرد فيها الذعر والتساؤل من زوجة أخرى ، من زوجات

النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن للعلماء في هذه الرواية مقال ، وذلك ما أخرج البغوي في تفسيره عن عطاء بن يسار عن سودة زوج النبي ﷺ قالت: «قال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان ، فقلت: يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال : قد شُغل الناس، ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ » قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه جداً ، وهكذا رواه ابن جرير عن أبي عمار الحسين بن حريث المروَزي عن الفضل بن موسى ، ولكن قال أبو حاتم الرازي : عائذ بن شريح ـ وهو أحد الرواة ـ ضعيف وفي حديثه ضعف .

ومهما يكن من أمر : فالمفروض بالمؤمن ، أن يكون له من تلك الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ ، والتي كشفت عما يحيط بالحشر من الأمور العظام ، ما يحفزه إلى عدم الركون إلى الدنيا ـ وهو يعمر الأرض ويكدح في الحياة ـ وإلى مزيد من العناية والاهتمام ، بكل ما من شأنه حسن الإقبال على الله ، وتقواه في السر والعلن ، والاستعداد ليوم لا يسأل فيه حميم حميماً : ﴿ وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ إنه اليوم الذي تحكم مشهد العباد فيه ، تلكم الحقيقة الهائلة المتمثلة في قول الله تعالى : ﴿لكل امرىء منهم يؤمئذ شأن يغنيه ﴾.

ولقد كان من رحمة النبي ﷺ بأمته ، أن وجَّه المسلمين إلى ما فيه حسن العاقبة ؛ أمناً من الخوف يوم الفزع الأكبر ، ونجاة من أهواله الجسام ؛ وطوبى لمن كان همُّه الأخذ بهديه عليه الصلاة والسلام ؛ ففي كتاب الرقاق من الجامع الصحيح « باب كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » روى البخاري بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : «أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل . وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك ».

وما من ريب في أن عدم الركون إلى الدنيا ، والنظر إليها على أنها دار ممر وزوال، وأن الآخرة هي دار القرار ، كل أولئك ، مما يحمل المؤمن على التزود الصادق ليوم المعاد .

ومن ثمرات ذلك ما يعقبه الله من صفاء النفس، وجلاء القلب حتى كأنه يرى ويسمع ويحسُّ ما يكون من تلك المشاهد المذهلة في عرصات القيامة.

والسعيد السعيد من سلك طريق أهل السعادة والفلاح ، مشمِّراً عن ساعد الجدِّ في طلب سلعة الله الغالية ، جنة عدن نُزلِ الأبرار ﴿ **إن الأبرار لفِي نعيم على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم نضرة النعيم** ﴾.

يحشرون على وجوههم إلى جهنم

ما وقفنا عليه من نصوص، تكشف عما يكون من الهول يوم الحشر ، وماتكون عليه حال العباد ... يأخذ بنا إلى ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، من إخبار عن سوء حال الكفار ، في معادهم يوم القيامة، وحشرهم إلى جهنم ، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات ، جزاء ما كسبوا في الدنيا من المآثم والضلال المبين ؛ وكفرهم بما جاءت به رسلهم الذين تلوا عليهم آيات ربهم ، وأنذروهم لقاء يوم القيامة ، ولم يألوا جهداً في بيان الحق ،والدلالة على صراط الله المستقيم ، ولكن من حقت عليهم الضلالة، عتوا عن أمر ربهم، وأصروا على العناد ، واستكبروا على الحق وأهله ، فكان لهم سوء المصير في ذلك اليوم الذي يحشرون فيه على أسوأ حال . قال الله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ **الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شرٌّ مكاناً وأضل سبيلاً** ﴾ وقد عقد الإمام البخاري في كتاب التفسير من الجامع الصحيح ، باباً جعل عنوانه هذه الآية فقال فيه : «باب ﴿ **الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً** ﴾» ثم قال رحمه الله : حدثنا عبدالله بن محمد قال : حدثنا يونس بن محمد البغدادي قال :حدثنا شيبان عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه « أن رجلاً قال: يانبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ » قال قتادة : «بلى وعزة ربنا » ولفظ رواية الحاكم من وجه آخر عن أنس رضي الله عنه: «سئل رسول الله ﷺ : يحشر أهل النار على وجوههم ؟» .

وفي رواية أخرى للبخاري ، جاء التصريح بقول الرجل عند سؤاله الرسول عليه الصلاة والسلام عن هذه المسألة « كيف يحشر الكافر على وجهه ؟» وذلك عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال : « يانبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟

قال : « أليس الذي أمشاه على الرجلين في الـدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ » قال قتادة : بلى وعزة ربنا » .

وأنت تـرى ، أن الذي دعا إلى هـذا التساؤل ، ما جـاء في الآية الكريمـة من سورة الفـرقان ، التي دلـت بوضوح، على أن الكـافرين يحشرون على وجـوههم إلى جهنـم ، ثم بينـت الآيـة أنهم شرٌّ مكانـاً وأضـل سبيلاً ، وكـان مـن فقه الإمـام البخاري : أن جعلها في التفسير تـرجمة الباب الذى أورد تحته هـذا الحديث ـ كما ذكرت آنفاً ـ ولقد أفادت الأمة أيّما فائدة من سؤال ذلك الرجل عن ذلك ؛ إذ كان في جواب النبي ﷺ ـ وهو لا ينطق عن الهوى ـ ما يكفي ويشفي ، فالله تعالى وهو الخالق القادر سبحانه ، كما قدر على أن يمشي الكافر على الرجلين في الدنيا ، فهو قادر بالأولى على أن يمشيـه على وجهه يوم القيامـة ، وكان من يقين قتادة وبـالغ تصديقه بما بينه الرسول ﷺ ووجه العقول إليه ، هذا القسم الذي حمله إلينا قوله: «بلى وعزة ربنا» . وياهول ذلـك المشهد يوم ترى الكفار يحشرون ـ بقـدرة العزيز القهار ـ على وجوههـم إلى جهنم وبئس القرار . إن الأنفة من الخضـوع والذلة لله في الدنيا ، وإن عبادة غيره جـل شأنه والخضوع له ، كل أولئـك أعقبهم هذا الذي تراه الخلائق من حالهم يوم القيامة ، والجزاء من جنس العمل !

أين التعالي والتعاظم ؟ أين الاستكبـار والعناد ... لقد استحال ذلك كله إلى ظلام كـالح ، يضرب عليهـم وهم على تلـك الحال المهينة ، فبـدل أن يمشوا على أرجلهم ، يحشرون على وجوههم ، والـوجه من الإنسان أبرز ما فيـه ، وعليه ترتسم الآثار التي تنطوي عليها النفوس ... فما كان أعزّهم في الدنيا ـ كما يزعمون وتسوّل لهم أهواؤهم والشياطين ـ وما أذلهم في ذلك المشهد الذي يكاد ينطق بالقضية من بدايتها ، وحتى تلكم النهاية المخزية .

هذا : وبالتصريح بكلمة « كيف» وبالخطـاب بـ « يارسول الله» بدل « يانبي الله» جاءت الرواية عند الإمام مسلم ، فقد روى بسنده عن شيبان عن قتادة قال :

حدثنا أنس بن مالك « أن رجلاً قال : يارسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال: أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا ، قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة » ؟ قال قتادة : «بلى وعزة ربنا ». فالأمر مرتبط بإرادة الله وقدرته ؛ فقد شاء بحكمته أن يكون المشي على الحالة المعروفة في الدنيا ، وله سبحانه أن يشاء للكفار غير ذلك يوم تصف الوجوه للحي القيوم إيذاناً بما استوجبه مسلكهم في الدنيا من العقوبة على هذه الصورة في الآخرة ، وهو القادر القاهر سبحانه .

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة المباركة ، من بيان المصطفى عليه الصلاة والسلام ، نقرأ ما أخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفاً مشاةً ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاًعلى وجوههم ، قيل : يارسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حَدَب وشوك » قال الترمذي : هذا حديث حسن . ورواه البزار أيضاً .

قال الحافظ ابن حجر : ويؤخذ من مجموع الأحاديث أن المقربين يحشرون ركباناً ، ومن دونهم من المسلمين على أقدامهم ، وأما الكفار : فيحشرون على وجوههم .

الحَدَب : الغِلظ المرتفع من الأرض .

اللهم ثبتنا بقولك الثابت، واكتب لنا ـ بفضلك وإحسانك ـ أن نكون في زمرة من قلت عنهم في كتابك الكريم: ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه** ﴾.

لم يكن عبثاً ، بل كـان عين الحكمة الهادية ، ما جرى عليه الكتـاب العزيز ، وبيـانه مـن حديـث خاتـم النبيين عليه الصـلاة والسلام ،على أسلـوب التقريـر والتأكيـد المرة تلو المرة ، في بيان ما يكـون بعد الموت ، وما ينتظر العبـاد في ذلك اليوم الـذي يجعل الولـدان شيباً ، من الأمـور العظام ، والأهوال الجسـام . ونبينا صلوات الله وسلامه عليـه ـ وقد أوتي جوامع الكلم ـ لم يـزل شديد الاهتمام ببيان كل مـا يلزم بيانـه للأمة ، في هـذه الشؤون ، وكـان حفياً ـ على وجـه الخصوص ـ بالكشف عما تـزخر به عرصات القيامـة ، من مشاهد مثقلة بكـل ما يفزع ويهول، كيما يكون المؤمـن على يقظة، لما سيكـون عليه الأمـر بعد أن تبلـغ الروح الحلقـوم، ويوافيـه الأجل ، ويدخـل دار الجزاء ،بعد أن استـوفى ما كتب لـه في دار العمل. وليس من القول المعـاد: أن نعيد إلى الأذهان ما سبقت الإشارة إليـه غير مرة ، من أن النبي صلى الله وسلم وبـارك عليه ، لم يأل جهداً في أن يجمـع إلى البيان المومى إليه ـ وهـو يفصل ما أجمل القرآن الكـريم أو يقرر ويؤكـد ـ الدلالة على الطـريق الموصلة إلى حسن العاقبة ، والنجاة ـ بفضل الله عز وجل ـ من تلك النذر المهولة والأمور العظـام ، التي قـال الله في شأنها : ﴿ **ياأيها النـاس اتقوا ربكم إن زلـزلة الساعة شيء عظيـم .يوم ترونها تذهـل كل مرضعة عما أرضعـت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ .

وذلـكم هو المنهج الفريد المتكامل في التربية ، إذ تـراه عليه الصلاة والسلام ـ وهو الرحمة المهداة ـ يكشف عما سيكون مـن تلك المشاهد المهولة في ساعات الحشر وفي عرصات القيـامة ، وفي الوقت نفسه يـأخذ بيد المؤمن ــ كما أشرنا ـ إلى حيث السلوك المتـوائم مع طلب النجاة والفوز المبين ، في يوم يحشر فيـه الكافرون على وجوههم إلى جهنم ، وترى أنه ما للظـالمين من حميم ولا شفيع يطاع . ويقول

خزنة الجنة للمؤمنين ، بعد أن تفتح لهم أبوابها : ﴿ **سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ ويحمد المؤمنون ربهم على ما صدقهم من الوعد بتلكم العاقبة جزاء الإيمان والاستقامة على ما أراد ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾.

ومن هذا الباب الذي يُشرق بالمنهج الفريد المتكامل في التربية ، ما روى البخاري في كتاب التفسير من الجامع الصحيح ، قال رحمه الله : حدثنا منذر بن الوليد بن عبدالرحمن الجارودي قال : حدثنا أبي قال : حدثنا شعبة عن موسى بن أنس رضي الله عنه قال : «خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين ــ حنين ـ فقال رجل : من أبي ؟ قال : أبوك فلان فنزلت هذه الآية : ﴿ **لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم** ﴾» .

وفي كتاب الرقاق من الجامع الصحيح جعل البخاري قوله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » عنواناً لباب قائم بذاته ، وأخرج تحته بالسند عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » والمراد بالعلم هنا في قوله ﷺ لو تعلمون ما أعلم ـ كما يقول الحافظ ابن حجر ـ : ما يتعلق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه ، والأهوال التي تقع عند النزع والموت، وفي القبر ، ويوم القيامة ؛ ومناسبةُ كثرة البكاء وقلة الضحك في هذا المقام : واضحة ، والمراد به التخويف ، ولقد يزداد الأمر وضوحاً ، إذا علمنا أن لهذا الحديث سبباً أخرجه سُنيد في تفسيره بسنده والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما جاء فيه: «خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا بقوم يتحدثون ويضحكون فقال : « والذى نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » ومن خلال الفهم العميق لهذه الكلمات المضيئة الهادية ، يقولها إمام الرحماء وسيد العالمين ﷺ ، من أن المؤمن في ذكره لما سيكون في حالة النزع ، وبعد الموت ، وفي القبر ، ويوم القيامة ، تحول اليقظة الإيمانية بينه

وبين أن يكون لاهياً غافل القلب، يخوض مع الخائضين ، بل يُؤرقه ذلك ويحرك كوامن نفسه ويجعله ــ مع رجائه فضل الله ورحمته ــ خائفاً وجلاً يبكي ذنوبه ويتضرع إلى مولاه بخشوع وخضوع .. أقول : ومن خلال الفهم العَميق لتلكم الكلمة الهادية المشرقة بالرحمة والنصح للأمة ، قال الحسن البصري رحمه الله : «من علم أن الموت مورده ، والقيامة موعده ، والوقوف بين يدي الله تعالى مشهده، فحقه أن يطول في الدنيا حزنه » وفي كلام الحسن هذا : ما يذكرنا بقول النبي ﷺ : «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » رواه أحمد والترمذي وابن أبي الد نيا في محاسبة النفس ، والحاكم من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه وقد سبقت الإشارة إليه .

وإنا لنسأل الله الذي وسعت رحمته كل شيء ، أن يجعلنا من الذين يكتب لهم هذه الرحمة ، ويأخذ بأيدينا إلى ما فيه السلامة من مشهد اليوم العظيم ، وأن يحشرنا ــ وهو الكريم المنان ــ في عداد من يقال لهم : ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ .

كيف يستوي المؤمن والكافر في الحشر؟

أن تكون حال الإنسان يوم الحشر ، على صورة تُشعر بما كان عليه في الدنيا من إيمان أو كفر ، طاعةً أو معصية ؛ حقيقةٌ تتبدى بعض مظاهرها يوم البعث والنشور ، في مشاهد تحمل من الهول المروِّع ما تحمل ، وتؤذن بذلك الخسران المبين لأولئك الذين عميت منهم البصائر في الدنيا ، وضلُّوا سواء السبيل ... ولقد كانوا من قبل يجحدون ، أن يكون ما هم فيه من العناد والمكابرة ، سبيلَهم إلى تلك الحال التي يحشرون عليها ، وما يتلو ذلك من خلود في العذاب المهين . لقد نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وتردّوا في حمأة النسيان لما أتاهم من الآيات البينات، فحقت عليهم كلمة العذاب ، وصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى في سورة طه: ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**﴾ . ولقد آذنت نصوص الكتاب والسنة ــ كما سبق ــ بما يثبت أن الكافر يحشر على وجهه يوم القيامة، وهو ما جاء في سورة الفرقان من قول الله جل شأنه: ﴿**الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً** ﴾ وكيف أن النبي ﷺ ـ كما روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ـ وقد سئل عن ذلك ــ : « أليس الذي أمشاه على رجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » ؟ وأن قتادة قال حين بلغه ذلك : «بلى وعزة ربنا» .

وإذا كانت الحال التي يحشر عليها الكافر يوم القيامة ، ويبصرها الخلائق في ذلك المشهد القاهر المهول، نتيجة طبيعية لما كسب في دنياه ، لأن كل امرىء بما كسب رهين ، ولا يظلم ربك أحداً ، فليس من نافلة القول : تقرير أن هذه الحقيقة في وجهها الآخر ، تشرق بما تزخر به النصوص من مبشرات للمؤمن ، تكشف عن رحمة الله به يوم الحشر ، جزاء ما قدَّم من العمل الصالح ، القائم على

الإيمان وما يقتضيه، فالحال التي يكون عليها المؤمن عند الحشر ،غير الحال التي يكون عليها الكافر ، وكيف تستوي في ميزان العدل الإلهي عاقبة من آمن وعمل الصالحات ، وعاقبة من جحد وكان من الضالين المكذبين . روى أبو ذر الغفاريُّ رضي الله عنه قال : « إن الصادق المصدوق حدثني أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج : فوج راكبين طاعمين كاسين ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم في النار ، وفوج يمشون ويسعون ، يلقي الله الآفة على الظهر فلا يبقى، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة يعطيها بذات القتب لا يقدر عليها » أخرجه النسائي في كتاب الجنائز «من السنن » بإسناد حسن .

ولقد يسعف في أن نقدر كرامة الله للمؤمن في ذلك اليوم العصيب، حق قدرها ، أن نكون على ذكر من تلكم الأهوال التي تحيط بالناس في ساعات الحشر ، وما هم عليه من الترقب الذي يضرب بثقله وشدته على النفوس ، خوفاً من أن تكون السوءى هي العاقبة ؛ ولا تعجب من هذا الترقب المضني ، وقد دنت الشمس من رؤوس الخلائق ، وألجمهم العرق ، وأحاطت بهم الشدة الشادة من كل صوب !!

وفي نصوص الحديث النبوي بيانٌ أيُّ بيان لهذه الأهوال المفزعات المرعبات ، التي تكون في ذلك اليوم المشهود . كان ذلك من النبي عليه الصلاة والسلام للأمة كي يأخذ المسلم بالأسباب التي تخلصه منها ، مستعيناً بالله عز وجل ، مخلصاً في العبودية له والضرع إليه ؛ عقد الإمام البخاري في كتاب التفسير من الجامع الصحيح باباً جعل عنوانه قول الله تعالى في سورة المطففين ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ فقال رحمه الله : «باب ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾» ثم روى بسنده عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قال: ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه» وكان من فقهه أجزل الله مثوبته، أن عاد فأورد الحديث عن ابن عمر أيضاً في كتاب الرقاق من الجامع تحت باب قول الله تعالى : ﴿ **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ وقال ابن عباس : وتقطعت بهم

الأسباب أي الوُصُلات في الدنيا ».

وروى مسلم بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيﷺ : « ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ قال: يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه» وفي رواية ابن المثنى قال : « يقوم الناس » لم يذكر «يوم» . وقد عنون الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم لهذا الحديث وما تلاه ، في الكلام على أهوال يوم القيامة بقوله : «باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها ».ثم إن هذا المشهد الذي تنفطر لهوله الأكباد ، حملت إلينا دواوين السنة روايات أكثر تفصيلاً في شأنه؛ الأمر الذي يزيد المؤمن حذراً على حذر ، ويحمله على المسارعة إلى أخذ الأهبة، والعمل لما بعد الموت ، والسير في طريق الصادقين الذين يُعِدُّون لذلك اليوم عُدَّته ، ذاكرين قول الله تعالى : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾.

وتحت الباب المومى إليه قريباً ، من كتاب الرقاق في الجامع ، روى البخاري بسنده عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم » وروى مسلم بسنده عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن رسول الله ﷺقال : «إن العرق ليذهب يوم القيامة في الأرض سبعين باعاً ، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم » يشك ثور أيهما قال . وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبيه ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ إلى العجز ومنهم من يبلغ وسط فيه ــ وأشار بيده ألجمها فاه ـ رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا ، ومنهم من يغطيه عرقه ـ وضرب بيده وأشار » رواه أحمد والطبراني وإسناد الطبراني جيد.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

شرُّ الندامة... يوم القيامة

من الحقائق التي لا غنى عن استدامة تقريرها ووعي مدلولها : أن ما جاء عن النبي ﷺ من كشف عـن تلك الأهوال التي تحيط بالناس يوم القيـامة ، كان ـ إلى جانب أنـه صورة من صور الأمانة في التبليـغ ـ دعوةً مؤكَّدةً إلى المنهـج المتكامل الذي على المسلم سلوكـه في الدنيا ، وهو يمضي ما قُدر لـه من العمر ، كيما يكون مرمـى بصره ـ وهـو يتحرك على ساحـة الحياة بـواقعية وبصيرة ـ سـلامةَ العـاقبة وحسن المآب في الآخرة ، فـلا ينسى ـ وهو يقـود حركة الحياة ـ أن الدار الآخرة هي دار القرار ، وأنها هـي الحياة الحقيقية ، كما قال الله تعـالى في سورة العنكبوت وهي سورة مكية : ﴿ **وما هـذه الحياة الدنيـا إلا لهو ولعب وإن الـدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾ كما لا يغفل ـ وهو يخوض معركة العمل لنفسه ولأمته ـ عن تلكم العظـائم ، التي تطبع مشاهد القيامـة يوم الحشر الأكبر ، حيث الخزي المردي على الكافرين . ﴿ **و يوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا ، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ [الأحقاف : ٣٤] .

ولقد أخذ الصحابة رضوان الله عليهم بهذا المنهـج ، وكذلك فعل من تبعهم بإحسان عبر تـاريخ الأمة الطويـل . روى ابن أبي شيبة في « مصنفه » عـن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله : « إنما أخاف عليكم اثنين طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طـول الأمل ينسي الآخـرة ، وإن اتباع الهوى يصد عـن الحق ، وإن الدنيـا قد ترحلـت مدبرة ، وإن الآخـرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنـون .. فكونوا مـن أبناء الآخرة ، فـإن اليوم عمـل ولا حساب ، وغـداً حساب ولا عمـل » وقد جـاء عن عبـدالله بن مسعـود أنه كـان يكثر في خطبـه أن يقول : « شرُّ العَـذَل ـ أي الملامـة والعتب ـ عند الموت ، وشر الندامة يوم القيامة » .

كنت مسوقاً إلى التذكير بذلك المنهج الذى لايخفى على ذي بصيرة إليه ، وبما كان له من آثار في حياة المسلمين الصادقين ؛ بدءاً من الصحابة عليهم الرضوان : بين يدي الرحلة المباركة ، مع روايات أخر من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام في شأن ما يكون من الشدة يوم البعث والنشور ، لبيان ما يجب من الارتباط بين المعرفة وبين والسلوك على هذا الصعيد . وقد أوردت من قريب ما روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن العرق ليذهب يوم القيامة في الأرض سبعين باعاً ، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم ». ورأينا تفصيلاً لهذا الإجمال ، فيما روى أحمد والطبراني . وروى الإمام مسلم في صحيحه ما يدل على أن الناس يكونون في العرق على قدر أعمالهم ؛ فقال رحمه الله : حدثنا الحكم بن موسى أبو صالح قال : حدثنا ابن حمزة عن عبدالرحمن بن جابر قال : حدثني سُليْم بن عامر قال : حدثني المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:« تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم مقدار ميل. قال سُليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل ، أمسافة الأرض ، أم الميل الذي تكتحل به العين ؟. قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حَقَويه ، ومنهم من يُلجمه العرق إلجاماً ، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه » . وأخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة من الجامع الصحيح ـ وهو السنن ـ وقال : حديث حسن صحيح .

الحَقْوُ : مشدّ الإزار عند الخصر .

ولقد يرد على بعض الأذهان إشكال في هذا ، بسبب ما عرف الإنسان من قانون المسافة بين الشمس والأرض اليوم ، وأن ذلك في غاية الدقة، وأنها لو كانت أقرب لكان كذا ، ولو كانت أبعد لكان كذا .. وجوابنا على ذلك أن هذا الذي يتحدث عنه الرسول ﷺ من الغيب الذي على المسلم أن يؤمن به ،لأنه صادر عن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام. وما اكتشفه الإنسان ـ بطريق

العلم- من قوانين ، يجب أن يصحبه أن الذي أجرى الكون بقدرته التي لا تحدُّ، وحكمتِه التي لا تتناهى : هو الله تبارك وتعالى .. وإذا كان الأمر كذلك : فهو - جل شأنه - قادر بالأولى ،على أن يحيط الناس بالأهوال - يوم القيامة - كيف يشاء، وعلى النظام الذى يريد ، فهو الخالق القادر الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ،لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .ثم إن قضية البعث والنشور كلّها - وبجميع مافيها هي من نوع ما نقول ؛ فالذي قدر على إيجاد الحياة من العدم - وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون - قادر على أن يحي الموتى ، وأن يبعث الخلائق ليوم لا ريب فيه، وإذن فليس من العلم في شيء أن نحتكم فيما يكون من الغيب الذي جاء به الخبر الصادق، إلى قوانين اكتشفناها - وهي من خلق الله تبارك وتعالى - ثم نجعلها حاكمة على قدرة الله وحكمته خصوصاً وأن الأمر أمر عالم الغيب في الآخرة .

وفي تبيان لتلك القضية المرعبة، قضية ما يصيب الناس من العرق، وما ينالهم من النصب ، في ذلك المشهد من مشاهد ذلك اليوم العظيم، جاء في كلام الشيخ محمد بن أبي جمرة: « ومن تأمل الحالة المذكورة ، عرف عظم الهول فيها ، وذلك أن النار تحف بأرض الموقف وتدنى الشمس من الرؤوس .. فكيف تكون حرارة تلكم الأرض ، وماذا يرويها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعاً ، مع أن كل واحد لا يجد إلا قدر موضع قدمه . فكيف تكون حالة هؤلاء في عرقهم مع تنوعهم فيه ؟ إن هذا لما يبهر العقول ، ويدل على عظيم القدرة . ويقتضي الإيمان بأمور الآخرة أن ليس للعقل فيها مجال ، ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس ولا عادة ، وإنما يؤخذ بالقبول ، ويدخل تحت الإيمان بالغيب. ومن توقف في ذلك دل على خسرانه وحرمانه . وفائدة الإخبار بذلك ؛ أن يتنبه السامع فيأخذ بالأسباب التي تخلصه من تلك الأهوال ويبادر إلى التوبة من التبعات ، ويلجأ إلى الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة ، ويتضرّع إليه في سلامته من دار الهوان ، وإدخاله دار الكرامة بمنه وكرمه».

اللهم اجعلنا من صادقي الإيمان بالغيب ، الـذين تغشاهم رحمتك ، فينالون إحسانك وفضلك في دار الكرامة والإحسان يا سميع الدعاء ، يا كريم العطاء .

يوم لا ظلّ إلا ظله

ما يزال الكلام موصولاً بالحديث عن الحشر، يوم يقوم الناس حفاة عراة غرلاً لرب العالمين ، وذلك في ضوء ما ورد من الأخبار الموثقة عن الصادق المصدوق سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وغير خاف ما تفيض به السنة ، من إبراز لتلكم الملامح المرعبة المذهلة ، التي تطبع المشاهد في ذلك اليوم الذي لا قبل للعباد بما يكون فيه إلا بفضله تعالى وعونه كما قال جل ثناؤه في سورة الحاقة : **﴿فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾** .

وليس عجباً من العجب ـ والعرق يلجم الناس والهول لا يفتأ يشتد في الضرب على القلوب ـ أن يتمنى متمنٍّ أن يريحه الله ولو بالمصير إلى النار . فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الرجل ليُلجمه العرق يوم القيامة فيقول : يارب أرحني ولو إلى النار » رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيد ، وأبو يعلى ، ومن طريقه ابن حبان إلا أنهما قالا : « إن الكافر ليلجمه العرق فيقول ..» الحديث .

ومما يزيد في شدة ذلك الهول الهائل ، ويضاعفها أضعافاً مضاعفةً ، ما يبصر الإنسان ، مما يلقى غيره من الناس إضافة إلى ما يلقى هو نفسه . ولقد أشار إلى ذلك الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، أخذاً مما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فقد روى الطبراني عنه بإسناد جيد قال : « الأرض كلها نار يوم القيامة ، والجنة من ورائها كواعبها وأكوابها ؛ والذي نفس عبدالله بيده : إن الرجل ليفيض عرقاً حتى يسيح في الأرض قامتَه، ثم يرتفُع حتى يبلغ أنفه وما مسّه الحساب . قالوا : مم ذلك يا أباعبدالرحمن ؟ قال: مما يرى الناس ويلقون » .

وهذا الذي نرى من الإخبار عن تلكم الساعات، المثقلة بها لا يكاد يحتمل في ذلك اليوم العبوس القمطرير، يوجب أن يكون المؤمن أكثر استمساكاً بحبل الله المتين، وتصديقاً بما جاء من تلك النُذُر عن سيد المرسلين، وأن يكون أشدّ حرصاً على تزكية نفسه، وأخذها بكل ما هو مرضٍ لله ولرسوله، كيما يحشر في عداد أهل الفلاح إن شاء الله، وينتظمه عقد من يقيهم الله شرّ ذلك اليوم ويلقيهم نضرة وسروراً، ويجزيهم بما صبروا جنة وحريراً.

ولا ينسى المرء حين يذكّر نفسه والآخرين بذلك، أن يذكر معه أن النبي ﷺ قد أسلم المؤمنين بهديه الكريم، إلى كثير من أبواب الخير، التي إذا ولجوها، أظلهم الله في ظله وأكرم مثواهم، وجعلهم في زمر الناجين الفائزين. وإني مذكر - على سبيل المثال لا الحصر - ببعض ما ورد في هدي النبي عليه الصلاة والسلام من البشارة لأناس تزكو نفوسهم، فيكونون على المستوى اللائق، خشيةً لله ومراقبة له سبحانه، فيوفيهم الله أعمالهم ويظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله... وبشذرات مما ورد من الترغيب بعمل من الأعمال، وأن فعل ذلك من المؤمن، يكون سبيله لأن ينعم بظل عرش الله في ذلك اليوم العظيم، الذي يتسم بمشهد الخلائق وهم يعانون من هول الحر وما ينالهم من العرق الذي يُلجم كلاً بحسبه، كما ورد في النصوص. قال الإمام البخاري: حدثنا مسدَّد: حدثنا يحيى عن عبيدالله قال: حدثني خُبيبُ بن عبدالرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ إمام عادل، وفي رواية إمام عدْل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلّق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» وقد روى البخاري هذا الحديث في عدد من الأبواب في كتابه الجامع كان منها «باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد» من كتاب الأذان، و «بابُ

الصدقة باليمين » من كتاب الزكاة و«بابُ فضل من ترك الفواحش » من كتاب الحدود ، كما أورده مختصراً في «باب البكاء من خشية الله عز وجل » من كتاب الرقاق. ورواه الإمام مسلم بلفظ مطابق تقريباً ،حيث أخرج في صحيحه بالسند المتصل عن حفص بن عاصم ، عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » وله عن أبي سعيد الخدري أو عن أبي هريرة بلفظ « ورجل معلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه » . وقد أخرج الترمذي هذا الحديث في كتاب الزهد من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ ولكن مع التخالف في قليل من الألفاظ، والتقديم والتأخير في ذكر بعض السبعة المذكورين ، المنعم عليهم بتلك الكرامة يوم القيامة ، من الإظلال في ظل عرش الله فقال رحمه الله : حدثنا الأنصاري قال: حدثنا معن قال : حدثنا مالك عن خُبيب بن عبدالرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلُّه ، إمام عادل ، وشاب نشأ بعبادة الله ، ورجل كان قلبه معلقاً بالمسجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله، فاجتمعا على ذلك وتفرقا ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» . قال أبوعيسى وهذا حديث حسن صحيح .

والله المسؤول أن يقينا شدة الهول يوم الدين ، وأن يكرمنا بما يكرم به عباده الصالحين . فيظلّنا في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وصلاة الله وسلامه على الرحمة المهداة سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين .

من سبل النجاة.. في الهدي النبوي

عندما يدار الحديث عن يوم الفصل ــ وما أدراك ما يوم الفصل ــ وتعلن النصوص إعلانها في شأنه خطاباً للعقول والقلوب ، كيما يحسن المؤمن التزود لرحلة البقاء ، يبدو من الضرورة بمكان ، استذكار حقيقة أن النبي ﷺ لم يدع باباً من أبواب الخير إلا دلّ أمته عليه ، ورغّب فيه ، ولا باباً من أبواب الشر إلا نبّه إليه وحذّر منه ، كل أولئك كان منه ـ فداه أبي وأمي ــ درءاً للجهالة والسقوط ، وحرصاً على حسن العاقبة، والمعافاة من تلكم العظائم التي تشهدها عرصات القيامة ، يوم يشتد الكرب فلا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . إن وعد الله حق .

والهدي النبوي ــ وهو بيان الكتاب المعجز ــ يفيض ترغيباً وترهيباً بهذه الحقيقة ، فهو نور يهدي إلى ما فيه سعادة الدارين ، والنجاة يوم يقوم الناس لرب العالمين . أخرج الترمذي بسنده عن أبي كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظُلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ـ أو كلمة نحوها ـ وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، قال : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربّه ، ويصلُ فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأفضل المنازل . وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو نيته فأجرهما سواء ، وعبدٍ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم ولا يتقي فيه ربّه ، ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبدٍ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً ، فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو نيته فوزرهما فيه سواء » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الإمام

أحمد في المسند والبغوي في « شرح السنة» . وجاء عند أحمد أيضاً برواية فيها شيء من الاختصار ، قال رحمه الله : حدثنا وكيع قال : حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن أبي كبشة الأنماري قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر رجلٍ أتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل به في ماله فينفقه في حقه ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً ،فهو يقول : لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل،قال : قال رسول الله ﷺ : فهما في الأجر سواء . ورجلٍ آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط فيه ، ينفقه في غير حقه . ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً يقول : لو كان لي مال مثل هذا ،عملت فيه مثل الذي يعمل . قال : قال رسول الله ﷺ : فهما في الوزر سواء ».

ودلالة هذا الحديث، على ما يصل بالمؤمن ـ أن لو عمل بمقتضاه ـ إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة ، دلالة واضحة ليس فيها لبس أو غموض ، وهنالك ينجو بفضل الله، مما يعاني الناس في مشاهد القيامة ، من الهول وما ينتابهم من الرعب الشديد ... وما على المؤمن ـ إذا كان على ذكر من يوم الحساب وما فيه ـ إلا أن يسلك طريق النجاة التي أوضح معالمها ، من أرسله الله رحمة للعالمين صلوات الله وسلامه عليه ، فقد ترك أمته على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك .

وفي خطوة أخرى ، على هذه الساحة من هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، في تحديد المنهج الذي على المؤمن أن يسلكه ليكون ـ بفضل الله ورحمته ـ من الناجين الفائزين برضوان الله يوم الحسرة ، حيث تحدق الأهوال المتلاطمة وتبلغ القلوب الحناجر ، ويلجم الناس العرق ، ولا يسأل حميم حميماً ... في خطوة أخرى على هذه الساحة ، تطالعنا كلمات نورانية في ذلك الهدي الكريم ، تبصرّ المؤمنين بحقيقة هي على غاية الأهمية ، كيما يتنبهوا ، ويحذروا ، ويعملوا على أن لا تضرب الغفلة على قلوبهم ، تلك الحقيقة هي: أن الجنة قد حفت بالمكاره ، وأن النار قد حفت بالشهوات ، والسعيد السعيد من اجتاز الابتلاء؛ وهو اختبار يتناول ميادين الحياة كلها من حيث السلوك، فإما إلى جنة عرضها السماوات

والأرض، وإما إلى نار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين .

قال الإمام مسلم : حدثنا عبدالله بن مسلمة بن قعْنب قال : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت وحميد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « حفّت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات » وكذا رواه الترمذي ورواه مسلم بهذا اللفظ ، لفظ حفت عن أبي هريرة أيضاً ، فقال : وحدثني زهير بن حرب قال : حدثنا شبابة قال : حدثني ورقاء عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بمثله .

ونجد الحديث عند البخاري بلفظ « حجبت» على الأكثر وبلفظ « حفّت» أيضاً ؛ فقد عقد رحمه الله في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه «باب حجبت النار بالشهوات» ثم قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره » .

والحق أن الامتحان شاق وعسير ، ولكنه يسير على من يسّره الله عليه ؛ فالمؤمن يعزم عزمته مستعيناً بالله عز وجل ، فيصبر على اقتحام المكاره التي تقوده إلى الجنة ، ويصبر على محاذرة تلكم الشهوات التي تسوقه إلى النار وتجعله يعاني ما يعاني من أهوال اليوم العظيم،وسبحان من إليه المرجع والمآب وهو حسبنا ونعم الوكيل.

العقبى بين المكاره والشهوات

في معرض التذكير بحقيقة كبرى في هدي النبي عليه الصلاة والسلام، تتعلق بنصحه للأمة في الدلالة على طريق الخير وأبوابه، والترغيب بها والدعوة إليها ، والتنبيه على أبواب الشر ، والترهيب منها والتحذير من سلوك مسالكها ، الأمر الذي يضمن للمؤمن ـ بفضل الله وجميل عطائه ـ أن ينجو يوم الحسرة مما يغشى تلكم المشاهد من الهول ، وأن يكون ممن يفوزون بالجنة التي فيها ـ كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم وغيره ـ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

أقول: في معرض التذكير بهذه الحقيقة، التي يجدر بالمؤمن أن يكون أبداً على ذُكر منها ، يحتاج الأمر إلى مزيد من الاستنارة بما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه من قول النبي عليه الصلاة والسلام : « حجبت النار بالشهوات وُحجبت الجنة بالمكاره» وبما أخرج مسلم عن أبي هريرة أيضاً ، وما أخرج هو والترمذي برواية أنس رضي الله عنه من قوله ﷺ : «حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» قال الإمام النووي في شرحه لرواية مسلم :«حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات » هكذا رواه مسلم «حفت» ووقع في البخاري «حُفت» ووقع فيه أيضاً « حجبت» وكلاهما صحيح. وقال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث برواية «حجبت» عند البخاري: كذا للجميع في الموضعين ـ يعني «حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره» إلا الفرْويَّ فقال : « حفت» في الموضعين ، وكذا هو عند مسلم من حديث ورقاء بن عمر عن أبي الزناد ـ يعني عن الأعرج عن أبي هريرة ـ وكذا أخرجه مسلم والترمذي من حديث أنس .

وليس يخفى على ذي بصر في أسلوب النبي عليه الصلاة والسلام ، أن هذا

الحديث ـ بروايتيه « حفّت» و«حجبت» وكلاهما صحيح كما قال الإمام النووي ـ هو من بديع الكلام وفصيحه ، ومن جوامع الكلم التي أوتيها النبي ﷺ من التمثيل الحسن ، حيث المعاني الغزيرة في الكلمات القليلة ، وحيث البلاغة التي لا تكاد تدانى في كلام البشر ، والأسلوب الرائع الفريد في كلام خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، المتسق الاتساق كله ، مع أمانة البيان للكتاب الكريم المعجز، والمعنى: أن الجنة ــ كما قال العلماء ــ لا توصل إلا بارتكاب المكاره وأن النار توصل بالشهوات ، وكذلك هما محجوبتان ، فمن هتك الحجاب وصل إلى المحجوب ، فهتك حجاب الجنة باقتحام المكاره ، وهتك حجاب النار باقتحام الشهوات ، فأما المكاره : فيدخل فيها الجهاد في سبيل الله والاجتهاد في العبادات، والمواظبة عليها ، والصبر على مشاقها ، وكظم الغيظ والعفو والحلم ، والصدقة، والإحسان إلى المسيء ، والإنفاق في سبيل الله . والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصبر عن الشهوات ، والصبر على ما يصيب المؤمن في سبيل مرضاة الله عز وجل ورفع الظلم عن المسلمين ونحو ذلك ... وأما الشهوات التي النار محفوفة بها : فالظاهر ـ كما يقول الإمام النووي ـ أنها الشهوات المحرمة كالخمر والزنا والنظر إلى الأجنبية والغيبة واستعمال الملاهي ونحو ذلك من كل ما هو محرم ، وأما الشهوات المباحة : فلا تدخل في هذه ، لكن يكره الإكثار منها ، مخافة أن يجر إلى المحرمة ، أو يجعل القلب قاسياً ، أو يشغل عن الطاعات ، أو يحوج إلى الاعتناء بتحصيل الدنيا للصرف فيها ونحو ذلك .

هذا وقد أخرج الترمذي الحديث المشار إليه في «كتاب صفة الجنة» من الجامع الصحيح ــ السنن ـ ، وأورد رواية أنس رضي الله عنه ولفظها ـ كما ذكرت آنفاً ـ «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح . ثم أورد الحديث الذي يعتبر ـ بحق ـ تفصيلاً لما أجمل في سابقه ، فروى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبريلَ إلى الجنة فقال : انظر إليها و إلى ما أعددت

لأهلها فيها قال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها قال : فرجع إليه، قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكاره ، فقال : ارجع فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره ، فرجع إليه فقال : وعزتك لقدخفت أن لا يدخلها أحد . قال : اذهب إلى النار ، فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفّت بالشهوات فقال : ارجع إليها ، فرجع إليه فقال ، وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها » قال : أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقد رواه أحمد وأبوداود والنسائي وابن حبان والحاكم والبغوي في شرح السنة .

وإني داع بما يدعو به عباد الله الصالحون : اللهم أجرنا من مشاهد هذا الهول يوم الحشر الأكبر ، ونسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ، وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهداه واتبع سنته وجاهد في الله حق جهاده إلى يوم الدين .

بين المكاره والشهوات... الامتحان العسير

إنها لصورة عظيمة بالغة القوة والتأثير ، تثير القلب والعقل ، وتحفز إلى تخطي العوائق ، تلك التي أبرز النبي ﷺ ببيانه الفذ من خلالها ـ وقد أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً ـ أن بين المرء ، وبين أن يفوز بالنعيم المقيم في جنة الخلد ، مهام عليه أن يقطعها ، بصدق الإيمان وصالح العمل ، ولو كان في ذلك شديد المخالفة للنفس والهوى ، وما يكون من حب النفس للعافية من المكاره والمصاعب .. تلك الصورة القوية المؤثرة هي التي أشرق بها قوله عليه الصلاة والسلام ـ على شيء من الاختلاف في الروايات ـ : «حفّت الجنة بالمكاره» أو «حجبت الجنة بالمكاره». وهذا جزء من حديث تحمل تتمته ـ كما سبق ـ صورة أخرى ليست أقل عظمة و إثارة للقلوب والعقول ، وحفزاً للهمم على تجاوز الصعاب، بغية الفوز بمرضاة الله تعالى ، والنجاة يوم الحسرة من عذاب غليظ.. أعني قوله عليه الصلاة والسلام : « وحفّت النار بالشهوات » أو «وحجبت النار بالشهوات » إنها صورة تقابل سابقتها ، ويبين المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من خلالها ، أن بين المرء وبين لظى النزاعةِ للشوى ، حاجزاً عليه أن يطوّع نفسه على عدم تخطيه وتجاوزه، لأن تخطيه وتجاوزه يعنيان الوقوع في حمأته ، والسقوط المردي في جهنم وبئس المهاد . ذلك الحاجز أو الحجاب : هو الشهوات المقعدة عن الخير وعمل الصالحات ، ولفظ الحديث يشمل تلك الشهوات ، بمختلف أنواعها وألوانها وبواعثها .

والنظر في الروايات ـ على تعددها ـ يسعف في تجلية المعنى المراد، والاستنارة بما قَصد إليه بهذا البيان نبي الهدى عليه الصلاة والسلام . ولعل من الخير التذكير بأن الحديث، حمل طابع الإجمال في روايتي الإمامين البخاري ومسلم، وهذا الإجمال الذي يؤدي غرضه في الكشف عن بواعث الصراع بين المؤمن والمكاره،

وبينه وبين الشهوات ، رأينا تفصيلاً له من قريب فيما روى أحمد وأبوداود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم في المستدرك والبغوي في شرح السنة ، حيث أوردتُ رواية الترمذي . ونحن على موعد مع مزيد من الإيضاح لهذه القضية الكبرى في هدي النبي عليه الصلاة والسلام وهو يتحرّى لـلأمة طرائق الخير ، ويسلك بها مسالك الأمن يوم الخوف في عرصات القيامة ، وحسن المآب في البعد عن النار ودخول الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين . ها نحن أولاء نجد الحافظ ابن حجر يقرر في تناوله الحديث عند البخاري ، أن هذا النص الكريم من جوامع كلمه ﷺ وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس، والحض على الطاعات وإن كرهتها النفوس وشق عليها . واتجه الحافظ رحمه الله إلى أن الحديث الذى جاء فيه شيء من التفصيل لهذه القضية ، التي لها مالها من أثر في سلوك المؤمن ، من حيث البعد عن الغفلة ، والتطلع إلى العاقبة يوم الدين، فيه إيضاح الحديث الذى أدير عليه الكلام ، ولذلك أورده معزواً إلى من رواه واستعان بذلك على مزيد من وضوح المعنى وبيانه ،يقول رحمه الله: وقد ورد إيضاح ذلك من وجه آخر عن أبي هريرة ، فأخرج أبوداود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم من وجه آخر عن أبي هريرة رفعه « لما خلق الله الجنة والنار ، أرسل جبريلَ إلى الجنة فقال : انظر إليها ، قال : فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفّت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها ، فرجع فقال : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها ، فرجع فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفّت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجوَ منها أحد ».

ثم بين أن هذا يفسر رواية الأعرج يعني رواية «حفت الجنة بالمكاره ، أو حجبت » الحديث، فإن المراد بالمكاره هنا ما أمر المكلف بمجاهدة نفسه فيه فعلاً وتركاً، كالإتيان بالعبادات على وجهها ، والمحافظة عليها ، واجتناب المنهيات قولاً

وفعلاً ، وأطلق عليها المكـاره، لمشقتها على العامل ، وصعوبتها عليـه، ومن جملتها الصبر على المصيبة ، والتسليـم لأمر الله فيهـا ، والمراد بالشهـوات : ما يستلـذ من أمور الدنيـا ،مما منع الشرع من تعاطيه ، إمـا بالأصالة ، وإما لكـون فعله يستلزم ترك شيء من المأمورات ، ويلحق بذلك : الشبهات ، والإكثار مما أبيح خشية أن يوقع في المحرم ، فكأنه قال :لا يـوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المشقات المعبر عنها بـا لمكاره ، ولا إلى النـار إلا بتعـاطـي المحرمـات ، وهما محجـوبتـان : فمن هتـك الحجاب اقتحم .

ويمكن القول بـأن الحجاب الأول ، وهو ما دون الجنة مـن المكاره ، مطلوب اقتحامه ، أما الحجاب الثاني وهو مـا دون النار من الشهوات : فالمطلوب محاذرته والبعـد عنه ، لأن اقتحـامه يعنـي الوقـوع في النار والعيـاذ بالله ، يـؤكد ذلـك أنَّ «حُفَّت» ـ كما في الروايات الأخر ـ من الحفاف وهو ما يحيط بالشيء ، فلا يتوصل إليه إلا بتخطيـه كما في قولـه تعالى في سـورة الكهف : ﴿ **وحففناهما بنخل** ﴾ أي جعلنا النخل مطيفة بأحِفَّتِهما . فالجنة لا يتوصل إليها إلا بصدق العزيمة في قطع مفاوز المكاره ، والنار لا ينجى منها إلا بترك الشهوات . على اتساع ميادين المكاره في كل ما يطلب من المسلم فعله ، واتساع ميـادين الشهوات في كل ما يطلب من المؤمن تركه .

وجميل ما كان من صنيع القاضي أبي بكر العربي في كتابه « عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي» فبعد أن أشار إلى روايتي « حفّت » «وحجبت» بيَّن رحمه الله أن معنى « حجبت » جُعلت المكارهُ بينها وبين طالبها حجاباً ؛ فلا يصل إليها حتـى يقتحمها ، وكـذلـك قـوله : « حفّـت» معنـاه جُعلـت حِفافَيْهـا : أي على جوانبها، وهو الحجـاب بعينه ، لأن لفظ الحجاب أبلغ في بيان المنـع من الوصول لأنه أخـص به في الضِّـدِّية وقـوله: « حفت النـار بالشهـوات » مثله في التنـزيل، وعكسـه في المعنـى .. وفي بيـان لروعـة التعبير النبـوي وسمـو الأداء الموصـل إلى المطلوب العظيـم بهذه الكلمات القليلة الجامعـة قال رحمه الله : (وهـو من بـديع

الفصاحة وغريب البيان ؛ فمعنى « حفت النار بالشهوات » أن الشهوات موضوعة على جوانبها ، فمتى اقتحم الشهوة سقط في النار ، وكذلك قوله «حُجبت»، أي جعلت الشهوات حجاباً بين العبد وبينها ، فإذا أتى الشهوة دخل النار ، لارتباطها معها واتصالها بها ،وأنها خطاطيفها ، فالنار لا يقصدها مرتكب الشهوة ،وإنما يقع فيها بالتسبب ، والجنة يطلبها ويقصدها المرء عن علم ، ولا يصل إليها إلا باحتمال المكروه . وفي هذا قال النبي ﷺ :« لما خلق الله الجنة والنار قال لجبريل : اذهب إلى الجنة فانظر إليها ، فرجع إليه وقال له : فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ـ يعني اشتاق إلى دخولها أو احتال على دخولها ـ فلما خلق المكاره حولها قال له : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ،»وبمثل هذا أيضاً كان القول في النار).

جزى الله عنا نبينا محمداً ﷺ بما بلَّغ فأحسن أيَّما إحسان ، وبين فسما بيانه أيَّما سمو ، ونسأله تعالى مزيداً من لطفه وتوفيقه .

الإظلال يوم القيامة.. وطرائق البز إليه

من الخير ومبشرات التـوفيق للمـؤمن ،أن يكـون دائم الصلة بما يـذكره بـالله واليوم الآخر ، وما نطقت به السنن الإلهية من التكليف في هذه الدار العاجلة ، وما ينتظر المرء في دار الجزاء يوم يؤخـذ بالنواصي والأقدام ، ويوفًّى كل إنسـان حسابه كاملاً غير منقوص .

ومما يضمن دوام هذه الصلـة ، ويجعل منها المورد الثر ، بالطاعـة الذي يباعد بين المؤمن وبين الغفلة : النظر ببصيرة فيما ورد عن رسـول الله ﷺ ـ وهو المبين عن الله ما أراد ـ في شأن اليـوم الموعود ، بشارةً كان ذلك أو نذارةً ، تـرغيباً أو ترهيباً، خصوصاً وأن إمام الهداة صلوات الله وأزكـى تسليماته عليه ، لم يدع أن يكون خير ناصـح في ذلك البيـان ، ولم يغفل شـاردة ولا واردة على سـاحـة الهدى والتبصير . روى الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لاتتمنوا الموت فـإن هول المطّلع شديـد ، وإن من السعادة أن يطـول عمر المرء ويرزقـه الله الإنابة» وروي عـن عمر رضي الله عنـه قوله : « لـو أن لي ما في الأرض جميعاً لافتديـت به من هول المطّلع » .قـال ابن الأثير في النهاية : « يريـد بالمطَّلع الموقف يوم القيامـة ، أو ما يشرف عليه من الآخرة عقيب الموت ، فشبهـه بالمطّلع الذي يشرف عليه من موضع عال».

ومما يفرح قلـب المؤمن أنه ـ مع الـوعيد الشديد ، كما أسلفـت، والكشف مما يطبـق على العباد في ذلـك اليـوم المهول مـن الهم والفـزع البـالغين ، ومن تلكـم المخاوف التي لها سلطان أيُّ سلطان على النفوس ـ هنالك ما يبشر المؤمنين الذين يخلصون لله دينهـم ، ويجدُّون في عمل الصالحات ، والجهـاد في سبيل الله ـــ وذكر رسول الله ﷺ فئـات منهم ـــ أن الله يظلهم في ظلـه يوم لا ظـلَّ إلا ظلُّه ، وكنـت

أوردت في معرض الإشارة إلى ذلـك ، ما صحّ عن الرسول عليـه الصلاة والسلام من قوله : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله ... » الحديث .

ومما ينشرح لـه الصدر ، ويـدخل على قلـب المؤمن مـا يجعله مسروراً ، فـرحاً بفضل الله ورحمته ، أن العدد في هذا الحديث لا مفهوم له ، فلا يعني تعبير «سبعة» أن إظلال الله في تلكـم الساعات المثقلـة بالشـدة والترقب المضني الـذي لايكاد يوصفـ لما يحدث مـن القلق ـ مقصـور على السبعة المذكـورين ـ بمعنـى أن ليس لآخرين سواهم تلك الكرامة التي يتفضل الله بها على أهل القرب ، فيكون الروح والريحان ـ بل الفضـل أوسع وأشمل ؛ فهناك العديد من النصوص التـي تؤكد ما لبعضهم ، وتبشر غيرهم بما عنـد الذي لا تنفذ خزائن رحمتـه ولا ينقصها العطاء. قال الإمام مسلم : حدثنـا قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنـس فيما قرىء عليه عن عبدالله بـن عبدالرحمن بـن معمر عن أبي الحُبـاب سعيد بـن يسار عن أبي هـريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ، اليـوم أظلهم في ظلي يوم لا ظـل إلا ظلي » وكذلك رواه أحمد والـدارمي. وظاهـر النص ــ كما ترى ـ أن هـؤلاء المتحابين بجـلال الله ، بعظمته وطـاعته لا للدنيا ، يغمرهم هذا الفضل ، فيكونون في ظله سبحانه من الحر والشمس، ووهج الموقف، وأنفاس الخلق ، وهذا ـ كما يقول القاضي عياض ـ قول الأكثرين . ونقل الإمـام النووي عـن عيسى بـن دينار أن المعنـى: كفُّهـم من المكـاره وإكرامهـم، وجعلهم في كنفه وستره . ويبدو ـ والله أعلم ـ أن المآل واحد ، فإنهم ينعمون بهذه الكرامـة الربـانية من الإظـلال والستر ، وهم بأشـدالحاجة إلى ذلـك ، ولله الحمد والمنّة .

وجاء هـذا الحديث عنـد مالك في الموطـأ بلفظ « لجلالي» بالـلام عوضـاً عن «بجلالي» بـالباء . والأنس بعبير الـرحمة التي يفيـض بها هذا النص الكـريم، لمن يرقون إلى منـزلة التحاب لعظمة الله لا للـدنيا ، يأخذ بـأيدينا إلى ميدان آخـر من ميادين العطاء الإلهي في ساعات لا يسـأل فيها حميم حميماً ، حيـث دلّ رسول الله

أمته على ما يكون سبباً لهذا العطاء .

ففي باب الجهاد ، ومعاونة المجاهدين والغزاة في سبيل الله ، نقع في هدي النبي ﷺ على ما يبشر به من يكون عوناً للغازي في سبيل الله ، بالقدر الذى يستطيع ، أن له بذلك أن يظله الله يوم القيامة ، وأكرم بها من بشارة، ترتفع بالمؤمن المصدق بما يكون من أهوال الآخرة ، والرهق الذى يصيب الناس في المحشر ، إلى تجاوز ما يقعد عن الجهاد ومعاونةأهله ، كيما يفوز بمرضاة الله ويكون في عداد أولئك الذين تشملهم نفحات الرضا ، فيظلهم الله في ظله يوم لاظل إلاظله . قال الإمام أحمد في المسند ، حدثنا أبوسلمة الخزاعي قال : أنبأنا ليث ويونس قالا : حدثنا ليث عن يزيد بن عبدالله بن أسامة بن الهاد عن الوليد بن الوليد عن عثمان بن عبدالله ـ يعني ابن سراقة ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من أظل رأس غاز أظله الله يوم القيامة، ومن جهز غازياً حتى يستقل ، كان له مثل أجره حتى يموت . قال يونس : أو يرجع ، ومن بنى لله مسجداً يذكر فيه اسم الله تعالى بنى الله له بيتاً في الجنة** » .

معنى «قال يونس: أو يرجع » أن يونس زاد في روايته بعد قوله أو يموت زاد «أو يرجع ». وتجدر الإشارة إلى أن راوي الحديث عثمان بن عبدالله بن سراقة ، أمه زينبُ بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فهو سبطه ، وقد روى عثمان عن جده مرسلاً ، كما أخرج ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه حديثه عن جده عمر بن الخطاب ، ومقتضاه ـ كما يقول الحافظ ابن حجر ــ أن يكون سمع منه ، فالله أعلم. وقد ذكر الحافظ رحمه الله أنه وقع مصرحاً بسماعه منه عند أبي جعفر الطبري في كتابه « تهذيب الآثار» وذلك في ثلاثة أحاديث، منها الحديث الذى نحن بصدده . والحديث رواه أيضاً أبو يعلى الموصلي في مسنده، والحاكم وابن حبَّان والبزار ، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي فقال : صحيح .

وعلى ساحة التعامل الاقتصادي ، وتنمية روح التعاون الأخوي بين المسلمين،

وإبعاد ما يكون من الجشع والطمع ، جاء الترغيب من النبي ﷺ لمن ينظر معسراً، أو يضع عنه من الدين: أن الله يظله في ظلـه يوم القيامة . روى مسلم في صحيحه من حديث جابر الطويـل وقصة أبي اليَسَر ، أن النبي ﷺ قال: «من أنظر معسراً أو وضع عنـه أظله الله في ظله » وروى الإمـام أحمد بسنده عـن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أظل الله عبداً يوم لا ظل إلا ظله أنظر معسراً أو ترك لغارم » ونجـد عند الترمذي من روايـة أبي هريرة رضي الله عنه قـول النبي عليه الصـلاة والسلام : « من أنظر معسراً أو وضـع له، أظله الله يوم القيـامة تحت ظل عرشه يوم لاظل إلا ظله ». والذي عند ابن ماجه من رواية أبي اليسر رضي الله عنه قـوله صلـوات الله وسلامـه عليه: « مـن أحب أن يظلـه الله في ظله ، فلينظـر معسراً أو يضع له » .

والصدقة طريق ميمونة إلى فضل الله بالإظلال في ساعات الحشر ،وما أدراك ما سـاعات الحشر . روى الإمام أحمد عـن مرشد بن عبـدالله اليَزَني قال : حـدثني بعـض أصحاب النبـي ﷺأنه سمـع رسـول الله ﷺ يقول : « إن ظـل المؤمن يـوم القيامه صدقته» وفي رواية أخرى عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « كل امرىء في ظل صدقته ، حتى يفصل بين الناس أو قال : يحكم بين الناس».

أعود إلى التذكير النافـع إن شاء الله مرة أخرى ، بأن ما أوردتـه من النصوص المبشرة بظل الله يوم لا ظل إلا ظله ، ليست للحصر ، ولكنها إيذان بأن طرق الخير الموصلة إلى النجـاة من أهوال القارعـة ، مفتحة الأبواب لمن يعملـون الصالحات، طـاعةً لله ولـرسولـه مخلصين ، ويستعلون على حطـام الدنيـا وزخرفهـا ، واضعين نصب أعينهـم أن يوم الديـن آتٍ لا ريب فيه ، وأن العاقـل من أخلص الـوجهة وتزوّد لذلك اليوم بخير زاد ... ويا بؤس من تقعده الغفلة عن المسارعة قبل فوات الأوان ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ونضع الموازين القسط ليوم القيامة

مـن علامـات الإيمان واستنارة القلـب بـاليقين ، أن ترى المسلـم ، خالـص الوجهـة في العبادة ، صـادق العزيمـة في التزود ليـوم الحساب ، فتراه يُعـدُّ العُدَّة لتلكم الساعات التي تعرض فيها الأعمال على الله ، فـلا تخفى عليه جل شأنه من العباد خافيـة ، وتوفى كل نفس مـا كسبت وهم لايظلمون . وغير خـاف ما لتلكم الساعات مـن الثقل، كما أنها ساعات مترعـة بالجهد والضيق الشـديد ، يرى المرء رأي العين ـ وهـي مطبقة عليـه ـ مصداق قـول الله جل شـأنه في سـورة الأنبياء : ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينـا بها وكفى بنـا حاسبين ﴾ . فالحق تباركت أسماؤه وتقـدست صفاته، يعطي كل ذي حـق حقه ، كما جاء في الكتاب العزيـز ، وبيانه من حـديث النبي عليه الصلاة والسلام ، فهو سريع الحساب ، وكل شيء محصىً عنده في كتاب، لا يعـزب عن علمـه مثقـال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وعنـد العرض يـوفي كـلاً حسابه ويجازيه بعمله ، ولا يظلم ربك أحداً .

ولقد كان مـن دعاء إبراهيم عليه الصـلاة والسلام ـ وهو يتـوجه إلى البارىء مالك يوم الدين الذي يقف العبادَ في يوم الفصل للسؤال والجزاء ـ كان من دعائه بارك الله عليه وعلى آلـه في العالمين : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالـدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ قال العلماء : أي يوم تحاسب عبادك بأعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

مـن هنا كـان ما نجـد في الهدي النبوى ــ بيـاناً لما في القـرآن الكريـم ـ مـن الدعـوةإلى يقظة القلب، لكيلا تعمـى البصيرة ، فينسى المرء يوم الحسـاب ، ذلك لأن نسيان ذلـك اليوم، ظلم للنفس ، ووقـوف بها على حافة الهاوية ، يـوم العرض

الأكبر والحساب ، وأي هاوية أشد وأعتى، من الوعيد الذي يحمله قول الله تعالى في سورة صٓ ﴿ **إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب**﴾. لقدحق عليهم العذاب الشديد، بما تركوا من سلوك طريق الله الذي يباعد بين الإنسان وبين نسيان الآخرة، ووقوف العباد بين يدي رب العالمين. أو بأنهم تركوا العمل بما يقتضيه الإيمان بذلك اليوم ـ فصاروا كالناسين. والحسابُ ـ في واقع الأمر ـ قريب قريب، وطوبى لمن وضع هذه الحقيقة نُصب عينيه ، في هذه الدنيا ، ولم يقع في شرك الغفلة والنسيان واستبدال العاجلة بالآجلة ، ولقد جاء التحذير من الإعراض عن تلكم الحقيقة نتيجة الغفلة مبكراً في القرآن ؛ فقد افتتحت سورة الأنبياء ـ وهي سورة مكية ـ بقول الله جل ذكره : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ أخرج النسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ ﴿ **في غفلة معرضون** ﴾ قال «في الدنيا». وليس بدعاً أن يكون لمدلول هذه الآية، وما توجه إليه من التدبر والتذكر ، من أثر بالغ في سلوك من أكرمهم الله بيقظة القلب وتفتح البصيرة ، ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره ما روي في ترجمة عامر بن ربيعة ، أنه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلّم فيه رسول الله ﷺ ، فجاءه الرجل فقال : إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب ، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعَقِبك من بعدك. فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون**﴾ وروى الحافظ ابن عساكر قول بعضهم: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول :

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن

فقيل له : من أين أخذ هذا؟ قال من قول الله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ .

وإنه لمشهد عظيم من مشاهد القيامة ، جدير بأن يوقظ القلوب ، ويشحذ

العزائم للعمل الذى يُعقب ـ بفضل الله ـ النجاة يوم العرض الأكبر ، حيث يقول جبار السماوات والأرض: ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ أجل إنه لمشهد بالغ العظمة، توحي به الآية التي أشرنا إليها من قبل ، وهي الآية السابعة والأربعون من سورة الأنبياء ونعني بها قول الله عز وجل: ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ وكم في حديث النبي ﷺ من النماذج التي تعكس ما يحمله هذا المشهد ـ الذى يضم الخلائق وموازين الأعمال ـ من علم الله المحيط، وقدرته التي لا تدانيها قدرة ، وعدله المطلق جل شأنه وله سبحانه المثل الأعلى ـ ناهيك عن الرحمة التي وسعت كل شيء ، وهو الحكيم في وضعها حيث يشاء . من هذه النماذج ما روى الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «توضع الموازين يوم القيامة ، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ، ويوضع ما أحصى عليه الميزان قال : فيبعث به إلى النار ، قال : فإذا أُدبر به، إذا صائح من عند الرحمن عز وجل يقول : لا تعجلوا فإنه قد بقي له ، فيؤتى ببطاقة فيها (لا إله إلا الله) فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان ».

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو نوح فزاد ؛ أنبأنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها «أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه ، فقال : يارسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأضربهم وأشتمهم ، فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله ﷺ : يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم ، كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قِبَلك » فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف ، ـ يعني ويصيح ـ فقال رسول الله ﷺ : ما له لا يقرأ كتاب الله ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها**

وكفى بنا حاسبين ﴾ فقال الرجل : يارسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء ، وإني أشهدك أنهم أحرار كلهم » .

هكـذا تعمل الهداية عملها ، في نفوس الصادقين في التطلع إلى الهداية، فتراهم إذا ذكِّروا بيوم القيامة والحساب ، ذكروا ، فسما بهم حب الآخرة ومافيها لأهل الإيمان ، على زخرف الدنيا وحطامها ، وذلك طريق أهل النجاة المفلحين الذين صفت قلوبهم من الأكدار ، فانتفعوا بالهدي المحمَّدي ؛ إخلاص وجهة ، وعملاً للآخرة ففازوا بحسن المآب في يوم لا مردَّ له من الله ﴿ إن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾.

من نوقش الحساب هلك

مـا أكثر مـا يقع النـاظـر في حديـث الـرسول عليـه الصلاة والسـلام : على النصوص التي تزيده يقيناً على يقين، بأن نبينـا ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى، حتى أدى أمانة البيان لكتاب الله الكريم ، خيـر ما يكون الأداء ، وبلغ عن ربـه ما أراد ـ جل شأنه ـ أفضل وأحكم ما يكون التبليغ .

وغير خاف ، أنَّ كثيراً من القضايا الكبـار ، كان يمكن أن تظل على إجمالها، أو عمومها و إطلاقها ، لولا بيان النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن ذلك : العديد مـن الأمور العظـام التي ستكـون يوم القيـامـة ، وفي مقدمتهـا الحساب والنـاس معروضون على ربهم ،لا يملك الواحد لنفسـه ضراً و لا نفعاً إلا ما شاء الله . ولعلّ مـن المسلمات التي لا غنـاء عن استذكارهــا على الـدوام ، ما يجب على المؤمـن سـلوكه ـ كما أسلفـت غير مرة ـ من الاستعـداد لتلكم الساعات المثقلـة بالشدة ، حيث يقف الناس للمساءلة بين يدي رب العالمين ، وحيث الحقيقة المعلنة في قول الله جل شأنه : ﴿ **ونضع الموازيـن القسط ليوم القيامـة فلا تظلم نفـس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾. ولكن ما هي أبعاد ذلك بالنسبة للخلق ؟ أهو العرض ؟ أم هو مناقشـة الحساب ؟ ذلك ما تكفلت ببيانه السنة المطهـرة وكان من رحمة الله بـالناس: أن فصّل الإجمال الـوارد في كتاب الله ، من قلّده الله أمانة البيان عليه الصلاة والسلام .

هذه عائشة رضي الله عنها تسمع رسـول الله ﷺ يقول: « من حوسب عذب» وفي رواية «من نوقش الحساب عذب» فيقع ذلك من نفسها موقع الاستغراب مع الذى تعلم من قول الله تعالى : ﴿ **فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾ وهنـالك تحرص على أن تفهـم بيان ذلـك مـن صاحـب الشريعة عليـه

الصلاة والسلام ؛ ويؤدي رسول الله الأمانة ، ويجلّي ذلك الأمر على أتم صورة ـ كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله ـ وكان من فقه الإمام البخاري رحمه الله أن استنبط من ذلك مراجعة من سمع شيئاً حتى يعرفه ، فعقد في كتاب العلم من جامعه الصحيح باباً عنوانه : « باب من سمع شيئاً فراجعه حتى يعرفه» وقال هناك : حدثنا سعيد بن أبي مريم قال : أخبرنا نافع بن عمر قال : حدثني ابن أبي مُليكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأنَّ النبي ﷺ قال : « من حوسب عُذب» قالت عائشة: فقلت : أو ليس يقول الله تعالى : ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ قالت : فقال : « إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك » .

والمراد بالعرض : عرض الناس على الميزان . ونوقش من المناقشة وأصلها الاستخراج ــ ومنه نقش الشوكة إذا استخرجها. والمراد هنا ــ كما يقول العلماء ـ المبالغة في الاستيفاء ؛ فمناقشة الحساب:تحقيقه وتدقيقه والاستقصاء فيه ، ولكن أين ما عند العبد أن يقوم لذلك؟ قال الحافظ ابن حجر في الفتح : (والمعنى أن تحرير الحساب يفضي إلى استحقاق العذاب ، لأن حسنات العبد موقوفة على القبول ، وإن لم تقع الرحمة المقتضية للقبول، لا يحصل النجاء) .

وفي الحديث ـ كما نرى ــ ما كان عند عائشة من الحرص على تفهم ما تسمع من النبي عليه الصلاة والسلام ، جزاها الله عن المؤمنين والمؤمنات خير الجزاء، وأن النبي ﷺ ، لم يكن يتضجر من المراجعة في العلم ، بل يتسع صدره لكل ما فيه سلامة البيان وإيصال الخير لعباد الله ، لما أنه المؤتمن على بيان الكتاب ، المبلغ ـ وهو صلوات الله وسلامه عليه الصادق المصدوق ـ عن الله ما أراد.

وعند الكلام في « التفسير » من الجامع الصحيح عقد الإمام البخاري عند الكلام على سورة ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ باباً عنوانه ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ وروى بسنده هناك أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد يحاسب إلا هلك. قالت : قلت يارسول الله جعلني الله فداءك ،

أليس يقول الله عز وجل : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾؟ قال : ذاك العرض يُعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك ». وفي رواية لمسلم والترمذي وأبي داود ، وهي عند البخاري أيضاً قال ابن أبي مُلكية : « إن عائشة كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه، إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وإن النبي ﷺ قال: من نوقش الحساب عذّب ، فقالت: أليس يقول الله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً . وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ ؟ فقال : إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ». وفي رواية « وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذّب» . وأخرج الترمذي في التفسير من كتابه الجامع بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيﷺ قال : « من حوسب عذب».

هكذا كشف النبي عليه الصلاةوالسلام ببيانه الفذّ ، عن هذه الحقيقة، وهي أن المراد من الآية الكريمة العرض ، حيث تعرض أعمال الناس على الميزان الذي يقيمه الله يوم القيامة بالقسط ، فيزن أعمال العباد ، ويجازيهم بتلك الأعمال ؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر . أما من وقع في التحقيق والتدقيق والاستقصاء ــ ولا يكون ذلك إلا بما كسبت يداه ــ: فهو هالك، يكون نصيبه العذاب في جهنم وساءت مصيراً . ذلكم ما رأينا من قوله صلوات الله وسلامه عليه إيضاحاً لعائشة رضي الله عنها : «إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامةإلا هلك» . وكان الذي استوقف أم المؤمنين رضي الله عنها قوله عليه الصلاة والسلام ـ كما رأينا ـ من «نوقش الحساب عُذّب» مع أن الله تعالى يقول : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً . وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ .

أما بعد : فإن بيان النبي ﷺ لهذه القضية الكبرى ــ وهو الرحيم بأمته الحريص على نجاتها يوم الدين ـ جدير بأن يدفع المؤمن دفعاً صادقاً ، إلى مراجعة رصيده من العمل في الدنيا ، وهل هو جارٍ على سَنَن العمل المقبول صحةً وإخلاصاً ، وأن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب، نسأل الله أن يتغمدنا بفضله ورحمته ويجعلنا من الذين لايُناقَشون الحساب يوم المعاد ، إنه أرحم الراحمين .

تحللوا من مظالمكم قبل يوم الحساب

إذا ذكر الرحماء من عباد الله ، فحيَّهلا بالرحمة المهداة نبينا محمد ﷺ سيد الرحماء ، فلقد أرسله الله رحمة للعالمين ، وجاء وصفه في الكتاب الكريم أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وإنها لرحمة تظهر آثارها ـ بلا استثناء ـ في كل جانب من جوانب هديه صلوات الله وسلامه عليه ، وحسبك أنه ﷺ لم يدع طريقاً يبلغ بصاحبه سعادة الدنيا والآخرة ، إلا سلكه ودل الأمة عليه ، ولاطريقاً يودي بصاحبه إلى الشقوة ، إلاحذر منه ورغب عنه ؛ كل ذلك ببالغ الحكمة وروائع البيان.

وددت التذكير بهذه الحقيقة، التي لا يرتاب فيها إلا من عشيت منه البصيرة ، وسفه نفسه ، وانقلب ـ جامد الحس ، خبيث النفس ـ على عقبيه ، بين يدي التذكير مرة أخرى ببعض ما وجّه إليه النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في شأن السبيل المنجية يوم الدين ، يوم ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام** ﴾ وترى المشاهد المروّعة ،والأهوال الآخذ بعضها برقاب بعض، هنالك لا مفر ولا وزر ﴿ **إلى ربك يومئذ المستقر** ﴾ ، الناس موقوفون لرب العالمين، وأعمال العباد معروضة عليه سبحانه ، والموازين القسط، تؤذن بنتائج الأعمال، وحصاد ما زرع في الدار العاجلة ؛ فإما إلى الجنة التي وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإما إلى جهنم وبئس مثوى المتكبرين .

وبعد : فهذا لون من ألوان الهداية التي تحمل من رحمة النبي ﷺ بأمته، والحرص على نجاتها من تلكم الأهوال، ما الله به عليم . ونعني بذلك : تحذيره ﷺ من الظلم، وتجاوز الحدود التي شرعها الله ، تنظيماً للعلاقات بين العباد ؛ وما دام يوم الحساب واقعاً لا محالة : فعلى من كان عنده مظلمة لأخيه ، أن يتحلّل منها برد

الحقـوق ، والحصول على الـرضى والمسـامحة ؛ ذلـك لأن عدم التحلـل من تلكـم المظلمة ــ في اسـتمرار لتجاوز الحقوق والعـدوان على الآخـرين ـ طريـق للهلكة يوم الفصل ـ والعيـاذ بالله ـ وذلك بضياع الحسنات ، وإن لم يكـف ذلك مؤاخذة على الظلم والتعدي، وأكـل الحقوق، ينتقل إلى العقوبة بطرح سيئـات من سيئات المظلوم على الظـالم ، وسوءُ العـاقبة هنـالك واقـع لا محالة ، والعيـاذ بالله . أخـرج البخاري في كتاب المظـالم من الجامع الصحيح عن أبي هريـرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مـن كانت له مظلِمـة لأخيه من عرضـه، أو شيء، فليتحلّله منه اليـوم ، قبل أن لا يكون دينـار ولا درهم ، إن كان له عمـل صالح ، أخـذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه » .

إن النبَّي عليـه الصلاة والسـلام ـ وهـو يحمل أمـانة النصـح للأمـة في دينها ودنياهـا وآخرتها ـ يـريد للمؤمـن أن لا يلقى الله يـوم يقف الناس لـرب العالمين ، للمساءلة و الجزاء ، مثقـلاً بظلم أخيه أو إخوانـه المؤمنين ، ولذلك يدعـو لتحلّل الظالم من المظلمة التي لأخيه عنده . والمسارعة إلى ذلك: واجبة قبل فوات الأوان، وقبل أن لايكـون دينار ولا درهـم في ذلك اليـوم العصيب ؛ وإلا كـان ما رأينـا في النص مـن أخذ الحسنـات ، فإن لم تكف، طـرح على الظالم مـن سيئات صـاحبه المظلوم . وفي روايـة أخرى للبخاري جاءت في كتـاب الرقاق من الجامـع : يقول رسول الله ﷺ فيما يروي أبوهـريرة رضي الله عنه : « من كانت عنـده مظلمة لأخيه فليتحلّله منها ، فإنه ليس ثمَّ دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه » ولقد كان من بلاغة النبيﷺ ، وحرصه على أن تأخذ الهداية في هذا الموضوع طريقها إلى النفوس : أنه ـ بجانب ما نـرى من الأمر بالتحلل من المظالم في الدنيـا ـ نقع على صورة أخرى وهي الترغيب العظيـم لأمته عليه الصلاة والسـلام ، بهذا الفعل ؛ وذلك بالـدعاء بالرحمة لمن يتحلّل أخاه من مظلمته .

ويفترض بالمؤمن أن يحرص الحرص كلَّه ،على امتثال أمر الرسول عليه الصلاة

والسلام ،لأن طاعتـه من طاعة الله ، وعلى المبـادرة إلى فعل ما به تُنـال الرحمة التي دعا بها صلوات الله وسلامـه عليه ، وقد تقدَّم ما أخرج الترمـذي بسنده عن سعيد المقبري عـن أبي هريـرة رضي الله عنه قـال : قال رسـول الله ﷺ : «رحم الله عبـداً كانـت لأخيه عنـده مظلمة في عرض أو مـال ، فجاءه فاستحلَّـه قبل أن يـؤخذ ، وليس ثمَّ دينار ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته ، وإن لم يكن له حسنات، حمَّلـوه عليه من سيئاتـه» قال أبوعيسـى ؛ هذا حديث حسـن صحيح غريب من حديث سعيد المقبري ، وقد رواه مالك بن أنس عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

هكذا نـرى الأمر تارة بقولـه ﷺ: « فليتحلّل » والأمر يقتضي الوجـوب ما لم يُصرف عنه بقرينـة ،ولا قرينة ، ونرى الدعـاء بالرحمة لمن يفعل ذلـك تارة أخرى. وما أجمل أن يستضيء قلـب المؤمن بهذا ، فيقلـع هذا المؤمـن عن الظلـم، ويعمل جاهداً ، على أن ينفض عـن كاهليه آثار التجاوز والاعتداء على الآخـرين ، وذلك بسلوك السبيل التي وجه إليها الناصح الأمين عليه الصلاة والسلام .

هـذا : والمراد بالحسنـات ـ كما يقـول الحافظ ابـن حجر ـ : الثواب عليهـا، وبالسيئـات: العقاب عليها ؛ وقـد استُشكل إعطـاء الثواب، وهو لايتنـاهى ، في مقابلة العقاب، وهو متناه ـ لأن الكلام على من لقي الله مؤمناً مع الذي اجترحه في الدنيا ـ وأجيب بأنه محمول على أن الذي يعطاه صاحب الحق من أصل الثواب ، ما يـوازي العقوبـة عن السيئة ، وأمـا ما زاد على ذلـك ـ بفضل الله ـ فإنـه يبقى لصاحبه . وهذا مـن عظيم منة الله تبارك وتعالى . وقد أوضـح ذلك الإمام البيهقي بقولـه : (سيئات المؤمـن على أصول أهـل السنة، متنـاهية الجزاء ، لأن مـن ثوابها الخلود في الجنـة ؛ فوجه الحديـث عندي ـ والله أعلـم ـ أنه يعطـى خصماءُ المؤمن المسيء من أجر حسناته ، ما يوازي عقوبـة سيئاته، فإن فنيت حسناته، أخذ من خطايا خصومـه ، فطرحت عليه ، ثم يعذب إن لم يعف عنه . فـإذا انتهت عقوبة تلك الخطايا ، أدخل الجنة بما كتب له من الخلود فيها ،بإيمانه، ولا يعطى خصماؤه

ما زاد من أجر حسناته ، على ما قابل عقوبة سيئاته ، يعني من المضاعفة ، لأن ذلك من فضل الله يختص به من وافى يوم القيامة مؤمناً والله أعلم).

صلى الله وسلم على الرحمة المهداة نبينا محمد الذي لم يأل جهداً في بيان الداء والدواء. ونسأل الله معافاته من الوقوع في الظلم، وبخاصة ما كان ظلماً يخرج عن الإيمان ، حتى نلقاه ـ جل وعلا ـ راضياً عنا بمنه وكرمه .

وياويح الظالمين الذين يختم على قلوبهم ، فلا ينتفعون بهدي النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ويبوؤون يوم القيامة بالخسران المبين، ويفتضح أمرهم على رؤوس الأشهاد ، جزاءً بما ظلموا ، وانتهكوا حرمات المؤمنين .

.. ثم طُرِح في النار

ما جاء في شأن الحسـاب والقصاص يوم القيامة ـ يوم الحسرة والنـدامة ـ من آي الكتاب الكـريم ، وحـديث الـرسول عليـه الصلاة والسـلام ، جديـر بالكثير الكثير من التدبـر والتفكر ، والعمل على تطويع السلوك في هـذه الدار ، لما يعقب النجاة بين يـدي الله عز وجـل في ساعات ، لا يجد فيهـا المرء إلا ما كسب ؛ ومن ذلك أن يتخفـف مما اكتسب مـن مآثم الظلم وتجاوز الحقـوق. وقد أسعدتنـا من قريـب ، وقفة عجلى مـع دعوة الـرسول عليـه الصلاة والسـلام ، من وقـع في حمأة الظلم، إلى أن يتحلّل أخـاه من مظلمته ، قبل أن يأتي يوم لا درهـم فيه ولا دينار ، وإلا ناله البوار وسوء العاقبة ، ولسوف يندم عند القصاص ، ولات ساعة مندم .

وفي حديـث موصـول بهذا الذي دعـا إليه الـرسول عليـه الصلاة والسـلام ، وتـوعّد المهمـل المسوّف لـه حتى وقـوع الواقعـة ، تحسن الإشـارة إلى أن الرسـول صلوات الله وسلامه عليه، ندّد بمن تُعميه الشهوة والهوى ، فيخالف عن أمر الله، بـالعدوان على الآخـريـن ، وتجاوز ما شرع الله مـن معـايير تحكـم العلاقـات بين المؤمنين وسماه «المفلس» مهما كان شـأنه من الغنى والـرفعة فى أمور الدنيـا . قال الإمام مسلم: حدثنا قتيبة بن سعيد وعلي بن حُجر قالا : حدثنا اسماعيل وهو ابن جعفر بـن العلاء عـن أبيه عـن أبي هريـرة أن رسول الله ﷺ قـال : « أتدرون مـا المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكـاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا، وأكل مال هـذا ، وسفك دم هـذا ، وضرب هذا ، فيعطـى هذا مـن حسناتـه وهذا مـن حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثـم طرح في النـار » . وأخرجـه الترمذي في «بـاب ما جـاء في شأن الحسـاب والقصاص» من كتاب صفة يوم القيامة فى الجامـع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ ثم

قال : قال أبوعيسى : هذا حديث صحيح .

والملاحظ أن الحديث ـ كما أشرت آنفاً ـ أعطى تعريفاً دقيقاً للمفلس، كما هو في المعيار الأخروي ، حيث العبد بأمس الحاجة إلى ما يثقل موازينه من الخير، كيما يكون من أهل النجاة ، في ساعات تبلغ فيها الشدة مبلغها ، وتطالعك المشاهد المهولة بما تنخلع له القلوب ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .. ولكن هذا العبد ـ وهو على هذه الحال ـ يتوالى عليه الأذى ، بما قدمت يداه ، فلا تبقى له حسنات ، بل يطرح من سيئات من ظلمهم وآذاهم، ثم يُطرح في النار . ذلكم هو الإفلاس حقاً ، والمصابُ به هو المفلس بحق ، كما وضح ذلك في بيان رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ذلك بأن من فقد المال أو قلَّ ماله في الدنيا ، يزول ذلك عنه بالموت ، أو بالغنى تتفتح سبله من جديد ، أما ذاك الذي أصيب بفقدان حسناته عند القصاص والحساب ، ولم يكف ذلك بل طرح عليه من سيئات ضحاياه الذين أنزل بهم ظلمه في الدنيا ولفّهم بعدوانه الأثيم: فهو المفلس الهالك لأن الخسارة التي ما بعدها خسارة ؛ ما يصيب المرء هناك ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ﴾. قال الإمام النووي في معرض شرحه للحديث : (معناه أن هذا حقيقة المفلس ، وأما من ليس له مال أو قلّ ماله : فالناس يسمونه مفلساً ، وليس هو حقيقة المفلس ، لأن هذا أمر يزول وينقطع بموته ، وربما ينقطع بيسار يحصل له بعد ذلك في حياته . وإنما حقيقة المفلس هذا المذكور في الحديث : فهو الهالك الهلاك التام ، والمعدوم الإعدام المُقطع ، فتؤخذ حسناته لغرمائه ، فإذا فرغت حسناته ، أخذ من سيئاتهم، فوضع عليه، ثم ألقي في النار ، فتمت خسارته وهلاكه وإفلاسه).

هذا وقد نقل عن بعض أهل البدع، إثارة شبهة مفادها : أن الحديث الذي نحن بصدده ، معارض لقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ لأن فيه أن هذا الظالم المؤذي، إذا لم يقض ما عليه بأخذ حسناته لمن ظلمهم وآذاهم ، يطرح عليه من سيئاتهم ، فكيف يتحمل أعباء إساءة الآخرين ؟ وجميل ما رد به الإمام المازري

المتوفى سنة ستة وثلاثين وخمسمائة للهجرة ، من أنه لا تعارض ؛لأن ذلك الظالم المعتدي عوقب بظلمه وتعديه حدود الله في تعامله مع الآخرين ، فما عومل به ، كان من أجل قضاء ما ترتب عليه من حقوق . قال رحمه الله : (وزعم بعض المبتدعة أن هذا الحديث معارض لقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وهذا الاعتراض غلط منه وجهاله بينة ، لأنه إنما عوقب بفعله ووزره وظلمه ، فتوجبت عليه حقوق لغرمائه ، فدفعت إليهم من حسناته ، فلما فرغت ، وبقيت بقية قوبلت على حسب ما اقتضته حكمة الله تعالى في خلقه وعدله في عباده ، فأخذ قدرها من سيئات خصومه ، فوضع عليه فعوقب به في النار ، فحقيقة العقوبة إنما هي بسبب ظلمه ، ولم يعاقب بغير جناية وظلم منه ، وهذا كله مذهب أهل السنة، والله أعلم) .

والحق أن ما يحلّ بهذا الظالم لنفسه وللآخرين ـ والأعمال معروضة على الله ـ مظهر من مظاهر العدل الإلهي ،لأن كل امرىء بما كسب رهين ، ولا يظلم ربّك أحداً ، وقد حذّر النبي ﷺ ـ في بيانه للقرآن ـ من الظلم ، وأنذر من تعمى بصائرهم فيقعون فيه، أسوأ العواقب في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك، ترى الإصرار من البعض على هذا الذي كان منه التحذير . روى البخاري بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺقال : «الظلم ظلمات يوم القيامة » وقد أحسن رحمه الله صنعاً حين جعل هذا الحديث عنوان باب في كتاب المظالم من الجامع الصحيح فقال: « باب الظلم ظلمات يوم القيامة» ثم أورد الحديث . فمن أراد الآخرة ، وأن يكون ممن يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، حيث الظلام يلف الظالمين ، فعليه أن يسعى لذلك سعيه ، ويقف عند الذي وجه إليه الرسول عليه الصلاة والسلام .

اللهم اهدنا فيمن هديت ، واجعلنا ممن يريدون الآخرة ويسعون لها سعيها، ذاكرين قول الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ .

ماذا.. عن أول ما يحاسب به العبد

يوم الجمع يوم واقع لا ريب فيه ، والعباد كلهم راجعون في ظله إلى الله ، وهو سبحانه يجازي كلاً بعمله ، ويوفي الجميع دينهم الحق.

وكم تحمل مشاهد ذلك اليوم ، من أهوال لا يجنِّبها إلا أهل الاستقامة المتقون ، الذين أنابوا في الدنيا إلى ربهم العليم الحكيم . ﴿**فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون**﴾. أما الذين أعمتهم الضلالة ووقعوا في مهاوي الغفلة والظلم: فلهم عذاب جهنم يصلونها وبئس القرار ، وصدق ربنا إذ يقول: ﴿ **واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين**﴾ .

وفي مواجهة هذه الحقيقة التي نطق بها الكتاب ، وأعطاها حديث رسول الله ﷺ ما تستحق من البيان ، ما أشدَّ ما كان من حرص النبي ﷺ - كما هو ثابت - على تجنيب أمته، مسالك الجنوح عن الصراط السوي ، لما يحمل ذلك من مخاطر تودي بصاحبها إلى الهلكة ، يوم يقوم الحساب .

وما مر بنا - من قبل - من صور هديه الكريم ﷺ في هذا المضمار ، يقودنا إلى صور أخرى ، ما بد من قراءتها ببصيرة المؤمن الذي تقوده المعرفة بما جاء عن الله ورسوله ، إلى العمل الصالح المخلص ، طلباً للنجاة يوم ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام** ﴾ وتجعله يخاف أشد الخوف على نفسه، من الوقوع فيما حذّر منه ، وتوعد على فعله ، النبي عليه الصلاة والسلام .

ومن صور الهداية التي نلمح إليها : ما جاء عن النبي ﷺ في شأن الصلاة التي هي أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين ، بأنها أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله ، فإن كان من أهل إقامتها على الوجه الذي ينبغي ؛

علماً بأحكامها ، وإخلاصاً لله عز وجل في أدائها، كان ذلك عنوان فلاحه ونجاحه، وإن كان الأمر غير ذلك : فهنالك الخيبة والخسران ، أعاذنا الله والمؤمنين من شرهما. أخرج الترمذي بسنده عن قبيصة بن حُريث أو حُريث بن قَبيصة أنه قال : قدمت المدينة فقلت : اللهم يسِّر لي جليساً صالحاً قال : فجلست إلى أبي هريرة فقلت : إني سألت الله أن يرزقني جليساً صالحاً ، فحدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لعل الله أن ينفعني به ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاتُه ، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت، فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيء قال عز وجل : انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمَّل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك » قال : وفي الباب عن تميم الداري ، قال أبوعيسى : حديث أبي هريرة حديث حسن غريب من هذا الوجه . هذا : وقد أورد الترمذي هذا الحديث في الصلاة من كتابه الجامع باب «ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ».

وفي «باب المحاسبة على الصلاة » من كتاب السنن الصغرى ــ المجتبى ـ أخرج النسائي بسنده عن همام عن قتادة عن حُريث بن قبيصة قال : قدمت إلى المدينة ، قال : قلت : اللهم يسر لي جليساً صالحاً ، فجلست إلى أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : فقلت : إني دعوت الله عز وجل أن ييسّر لي جليساً صالحاً فحدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لعل الله أن ينفعني به قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما يحاسب به العبد بصلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر ـ قال همام : لا أدري هذا من كلام قتادة أو من الرواية ـ فإن انتقص من فريضته شيء قال : انظروا هل لعبدي من تطوع ، فيكمَّل به ما نقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على نحو ذلك » خالفه أبو العوّام .

وقال النسائي : أخبرنا أبوداود قال : حدثنا شعيب يعني ابن بيان بن زياد ابن ميمون قال : كتب علي بن المديني عنه . ثم أورد رواية أخرى ليس فيها ما ذكر

من قصة قبيصة بن حريث، أو حريث بن قبيصة ، ولفظها كما يلي : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قـال: « إن أول ما يحاسب به العبـد يوم القيامة صـلاته فإن وُجدت تامة كتبت تامة و إن كان انتقص منها شيء قال : انظروا هل تجدون له من تطوع ، يكمَّل لـه ما ضيع من فريضة من تطـوعه، ثم سائر الأعمال تجري على حسب ذلـك » وفي رواية أخـرى فيها شيء مـن الاختصار ؛ نجـد عن أبي هـريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: « أول ما يحاسب به العبد صلاتُه فإن أكملها وإلا قال الله عـزو جل : انظروا هـل لعبدي من تطوع ، فـإن وجد له تطـوع قال : أكملوا به الفريضة ».

أما الإمام أحمد رحمه الله : فنجد الرواية عنده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مع شيء من الاختلاف في اللفظ فقد جاء في المسنـد : حدثنا عبدالله قال: حدثني أبي قال : حدثنا حسن بن موسى قال : حدثنا حماد بن سلمة عن الأزرق بن قيس عن يحيـى بن يعْمُـرَ عن رجل مـن أصحاب النبـي ﷺ قال : قـال رسول الله ﷺ «أول ما يحاسب به العبد صلاته ، فإن كان أتمها كتبت له تامة ، وإن لم يكن أتمها قال الله عز وجل : انظـروا هل تجدون لعبدي من تطوع فتكملوا بها فـريضته ؟ ثم الزكاة كذلك ثم يؤخذ الأعمال على حسب ذلك». وهذه رواية أبي داود وابن ماجة أيضـاً. ورواه أبوداود كـذلـك بمعناه مـن روايـة تميم الـداري ، وأخـرجه الحاكـم وصححه ، ووافقه الذهبي . وواضح ـ كما يقول أهل الدراية ـ أن الحديث صحيح بشواهده .

هكذا يطلـع علينا الهدي النبـوي بالمكـانة العظيمـة العظيمة ، التـي يعطيها النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو لا ينطق عـن الهوى ـ لإقامة الصلاة بأحكامها وخشـوعها ، وصـدق التـوجه مـن خلالها إلى البـارىء المصـور الذي يعلـم السر وأخفى، فـالهول على أشده يوم الحساب، والنـاس في ترقب للمصير ، والسـاعات العصيبات سـاعا ت حصاد لما قدم العبـد في الدنيا ، في ظل ذلـك المشهد الهائل المروّع الزاخر بالترقب والخوف، تجد أول ما يحاسب عليه العبد من عمله الصلاة ،

وبجانب الأهميـة المعطاة لإقامة الصـلاة في الحديث على اختلاف رواياتـه، نجد فيه ما نجد مـن نصح سيد العالمين لأمته ، فهو يريـد للمسلم أن يكون على يقظة قلبيـة يستعلي معها على الغفلـة والمعـوقات ، ويحسـن التـزود لتلكـم الساعـات العصيبات، لعل الله يحشره في زمرة السعداء الفائزين .

ولنا إن شاء الله عودة إلى هذا الحديث، نسعد ببعض معانيه الأخرى وأبعاده ، ونسألـه تعالى أن يضيء قلـوبنا بهدي نبيه المصطفـى عليه الصـلاة والسلام ، كيما نسعد بإقامة الصلاة على وجهها ، وننجو يوم التغابن مع الناجين .

أكثروا ذكر هادم اللذات

حين يسلك المؤمن سبيل أهل الخشية الذين لا يفرّطون في جنب الله ، وتؤرقهم شدائد يوم الحساب ، لما أنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، وتراهم إذا ذُكر الله وجلت منهم القلوب ، وخشعت الجوارح ، وذرفت من الخشية الدموع ، وإذا ذكروا هول المطَّلع، وما يكون في عرصات القيامة من مشاهد يشيب لها الوليد ، وكيف يحاسب العباد ويُسألون ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً** ﴾.. حين يسلك المؤمن سبيل هؤلاء المتقين الأبرار ، تملك مراقبة الله عليه نفسه، ويصبح ما أخبر عنه القرآن وبينته السنة عن ذلك اليوم العصيب، كأنه أمام ناظريه يراه رأي عين ، وعندها لايني يجدُّ ، ويجتهد في تحصيل كل ما من شأنه، أن يثقل موازينه يوم الوعيد ، ويجعله بفضل الله من الفائزين بما بشر الله به ـ من تثقل موازينه ويأخذ كتابه بيمينه ـ من عيشة راضية وجنة نعيم ﴿**فأما من ثقلت موازينه . فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية . وما أدراك ماهيه نار حامية** ﴾ .

وهنا يرى هذا المؤمن لزاماً ، أن يغتنم الفرص المتاحة ، والنعم المسبغة عليه ـ وفق المنهج الرباني ـ لتكون عونه على ما يتطلع إليه في الآجلة ، شأنه شأن المؤمنين الصادقين ، الذين لا تشغلهم الفانية عن الباقية ،ولا يدعون طريقاً من طرق النجاة يوم الحشر الأكبر، إلا سلكوه ؛ أجل يغتنم كل ما أسبغ الله عليه من النعم الظاهرة والباطنة ، وما رزقه من الوسائل وهيأ له من الأسباب ، للقيام بما كلِّف به حق القيام ، والتقرب إلى مولاه بجلائل الأعمال ، قبل أن تقوم في وجهه نوازع الهوى والشيطان ، وتقعده الصوارف والمعوقات ؛ وهكذا تجده كلما ذكر يوم الحساب وأهواله، ازداد حرصاً على مبادرة الفتن والعقبات ، وما سيكون من أمور الساعة ، بالأعمال الصالحة ، والقُرَب النافعة، لتكون زاده يوم اللقاء ،

وهنالك تغمره النفحات الإلهية ، وينعم بما يكرم الله به عباده الخاشعين له ، الخاضعين لجلاله ، الذين يعملون الصالحات مخلصين منيبين .

ولقد نبّه الرسول عليه الصلاة والسلام ــ وهو لا ينطق عن الهوى ــ على وجوب هذه المبادرة ، إذا أريدت النجاة في يوم يجد فيه العباد ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً . قال الإمام الترمذي : حدثنا أبو مصعب عن محرز بن هارون عن عبدالرحمن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال سبعاً ؛ هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مُطغياً ، أو مرضاً مُفسداً ، أو هرماً مفنّداً ، أو مجهزاً ، أو الدجال فشرٌّ غائب ينتظر ، أو الساعة ، فالساعة أدهى وأمر».

قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث الأعرج عن أبي هريرة إلا من حديث مُحرز بن هارون هذا . وقد روى بشر بن عُمر وغيره عن مُحرز ابن هارون هذا . وقد روى معمر هذا الحديث عمن سمع سعيداً المقبُريَّ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه وقال : «تنتظرون ».

هكذا نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يعنى في هذا الحديث ـ وهو يستخدم الواقع في التربية والتوجيه إلى الخير ـ بالحث على المسارعة إلى العمل، والمبادرة بالعبادة ، والتعجل بالطاعة ـ بأوسع معانيها والساحات التي تشملها ـ فإن العبد ـ كما يقول أبوبكر بن العربي ـ بين هذه السبعة الأحوال، في قواطع عن الأعمال؛ إما بفقر وإما بغنى ، وإما بكبر ، وإما بمرض ، وإما بموت، وهو أشد على العبد، إلى آخر ما ذكر عليه الصلاة والسلام . وقد أورد الترمذي بعد هذا الحديث ما روى أبوهريرة عن النبي ﷺ من قوله : « أكثروا ذكر هاذم أو ها دم اللذات » وجميل قول صاحب «عارضة الأحوذي » تعليقاً على هذا النص، وذكره في أعقاب حديث الأمر المبادرة (إذا تذكر العبد الموت وكان منه على رَصَدَ ، إذ هولُه بالمرصاد ، انقطع أمله وكثر عمله ، وهانت عليه لذاته ، ولم يكن للدنيا قدْر

عنده، إذ ليس بالحقيقة من قُطّانها ، وإنما هو ينزل نفسه بمنزلة الميت في كل حين من أحيانها ، فيعرض عن الدنيا ويقبل على الآخرة ، ويزْهَقُ الشيطان عنه ، ويلزمه الملك ، وخاصة إذا فعل فِعل عثمان رضي الله عنه وقال قوله). وقد مر بنا « أنه — رضي الله عنه ـ كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلَّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ قال : إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده شر منه ، وقال : ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه » رواه الترمذي وغيره .

ألا ما أشد حرص النبي عليه الصلاة والسلام ،على توجيه الأمة إلى ما فيه الفلاح والفوز بمرضاة الله في الدنيا ويوم الدين ، وما أجمل أن يُتلقى هديُه عليه الصلاة والسلام بإيمان ويقين ، ورغبةٍ صادقة في العمل الصالح الذي يجده المؤمنون نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم المعاد .

ولعل من الخير ، أن نشير إلى أن الجيل القدوة الذي رباه النبي عليه الصلاة والسلام على عينه، وصاغت سلوكَه يدُه الصناع ، كان على أعز مكان وأغلاه في حسن التقبل لهدي النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، وجعلِ الهوى تبعاً له في كل حال ، كل أولئك مع التناصح فيما بينهم، على الأخذ بهذا الخير العميم.

جاء في وصية أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حين استخلفه: « أوصيك بتقوى الله ياعمر إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار ، لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفرائض .. ألم تر ياعمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفّت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا الباطل أن يكون خفيفاً .. إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا سمعت بهم قلت : إني أخاف أن لا

أكون مـن هؤلاء ، وذكـر أهل النار بـأقبح أعمالهم ، فأمسـك عن حسنـاتهم، فإذا سمعت بهم قلـت : إني لأرجو أن لا أكون منهم وذكـر آية الرحمة مع آيـة العذاب ليكـون العبد راغبـاً راهباً لا يتمنـى على الله غير الحق.فإذا حفظـت وصيتي، فـلا يكونـن غائب أحـب إليك مـن الموت وهو آتيـك ، وإن ضيعت وصيتـي ، فلا يكونن غائب أكره إليك من الموت ولن تعجزه » .

اللهم ارزقنا خشيتك، وأسكـن قلوبنا محبتك . اللهم رحمتك نـرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقـل من ذلك ، وأصلح لنا شأننا كله واغفـر لنا ذنبنا كله برحمتك نستغيث ومن عذابك نستجير ، بيدك الخير إنك أنت التواب الرحيم .

الصحة والفراغ.. والمبادرة بالأعمال

الصدق في طلب النجاة يوم التغابن ، وأن يكون المرء في عداد من ينشر الله عليهم رحمته ، فيزحزحون عن النار ، ويُدخلون جنة النعيم ،.. هذا الصدق ، لابد له من أمارة تدل عليه ؛ وهي حسن الامتثال لما وجّه إليه القرآن الكريم، وبينه المصطفى سيد العالمين ؛ من اغتنام فرص الخير ، والمسارعة إلى كل ما هو من ذلك بسبب ، ناهيك عما يجب على المؤمن ، من أن يبادر بالأعمال الصالحة والقربات النافعة، ما يمكن أن يكون من الصوارف والمعوقات ، أو الركون إلى التسويف والخضوع لتسويلات النفس والشيطان، التي تؤذن بأن أجل العمل قد فات ، وأن الفائدة المتوخاة منه باتت في حيز المستحيل .

ومن حسن الامتثال المطلوب من المؤمن؛ المسارعة إلى التحقق بما هدى إليه النبي عليه الصلاة والسلام ، على ساحة العمل والسلوك ، وإلا كان الأمر أشبه بدعوى تفتقر إلى دليل .

وإني مذكر بما أسلفت عن النبي ﷺ في ذلك ، توطئة لاصطحاب ما جاء من دعوته صلوات الله وسلامه عليه إلى حسن الإفادة من نعمتي الصحة والفراغ، وشكرهما الشكر الحقيقي ، لكيلا يقع المؤمن في البخس والنقص، على ساحة التعامل معهما ، فيكون من المغبونين .

أما عن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل فوات الأوان : فقد روى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال سبعاً ؛ هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنّداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال: فشرُّ غائبٍ ينتظر ، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر» وهذا ما يشدنا ـ كما أسلفت ـ إلى هديه ﷺ بشأن تلكما النعمتين العظيمتين : الصحة والفراغ .

قال الإمام البخاري : حدثنا مكي بن إبراهيم قال : أخبرنا عبدالله بن سعيد ، هو ابن أبي هند ، عن أبيه عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ ». أخرجه الترمذي وابن ماجه ، وقد رواه أحمد بتقديم كلمة الفراغ على كلمة الصِّحة إذ جاء عنده : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الفراغ والصحة » وأخرجه أبو نعيم في المستخرج عن عبدالله بن سعيد بسنده بلفظ « الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس » وأخرجه الدارمي بزيادة « من نعم الله » فجاء عنده بلفظ: « إن الصحة والفراغ نعمتان من نعم الله مغبون فيهما كثير من الناس » .

والغَبْن : بفَتح الغين وسكون الباء : النقص في البيع ، يقال : غُبِن فهو مغبون أي منقوص في الثمن أو غيره ، وغَبِن رأيُه غبَناً بتحريك الباء من باب تَعِب : قلَّت حكمته وذكاؤه .

هكذا يكشف النبي ﷺ بهذه الكلمات الجوامع ، عن أهمية الصحة والفراغ في حياة المسلم ، مؤكداً وجوب استخدامها فيما ينبغي ، ناعياً على الذين يتهاونون بأمرهما ولا يستعملونهما على الوجه المطلوب فيما يسعد في الدنيا ، ويقي ما تحمله عرصات يوم القيامة من مشاهد الهول وشديد الترقب في الآخرة ، مع أن الإيمان بما جاء عن الله ورسوله، في شأن الآخرة ، وحشر الناس ووقوفهم للمساءلة بين يدي رب العالمين ، كل أولئك يقتضي أن تستخدم الصحة في طاعة المنعم سبحانه وتعالى ، بأوسع ما تحمل كلمة الطاعة من معنى ، وأن يملأ الوقت بالنافع والمرضي عند الله ، والذي لا يفعل ذلك ، يكون مغبوناً لكونه باعهما بثمن بخس ، ولم يحمد رأيه في ذلك ، فاستبدل النقص أو الخسران بالربح .

وما من ريب في أن هذا الحديث ـ كما أسلفنا ـ من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام ، لأنه جمع في هذه الكلمات القليلة المعاني الغزيرة ، وذلك لبيان الأهمية البالغة لنعمتي الصحة والوقت في حياة الإنسان ، وموقع كل منهما في العمل

للآخرة ، ومتى يكون الربح ، ومتى تكون الخسارة على هذا الصعيد ؟ مشيراً صلوات الله وسلامه عليه ، إلى أن المقصرين المصابين بالغبن فيهما كثير .

وقد أشار ابن بطال كما نقل الحافظ ابن حجر ـ رحمهما الله ـ إلى أن المرء لا يكون فارغاً ، حتى يكون نقياً صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك، بأن توافر له الصحة والفراغ ، فليحرص على ألا يغبن ، بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شكره امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فمن فرط في ذلك فهو مغبون .

وفي قوله ﷺ : « كثير من الناس » إشارة إلى أن الذي يوفَّق في ذلك ـ كما أسلفت ـ قليل ، وهو تنبيه منه ﷺ ، على ما يجب من عُلو الهمة، كيما يكون المؤمن في منجاة من الوقوع فيما وقع فيه أولئك المفرطون .

وزاد ابن الجوزي الأمر وضوحاً بما قرره ، من أن الإنسان قد يكون صحيحاً ولا يكون متفرغاً لانشغاله بكسب المعاش ، وقد يكون مستغنياً ، ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمع الصحة والفراغ ، وقصَّر في نيل الفضائل ، وجنح إلى الكسل عن الطاعة والعمل الصالح ؛ فهو المغبون الذي ناله الخسران ، ذلك لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة ، حيث المسؤولية والحساب ، فمن استعمل صحته وفراغه في طاعة الله تعالى ، فهو المغبوط ، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون ، لأن الفراغ يعقبة الانشغال ، والصحة يعقبها السقم ، ولو لم يكن إلا الهرم لكفى:

يسر الفتى طول السلامة والبقا ... فكيف ترى طول السلامة يفعل
يرد الفتى بعد اعتدال وصِحَّةٍ ... ينوء إذا رام القيام ويحمل

وأنت واجد أن العلاقة ماسة، بين دعوة النبي ﷺ إلى المبادرة بالأعمال الصالحة ، قبل أن تقع الصوارف عن العمل ، وبين اهتمامه ﷺ بتلكم النعمتين: الصحة والفراغ ، إذ كيف يبادر بالأعمال الصالحة، من تهاون في شأن ما أعطاه الله من العافية، وما هيأ له من الوقت ؟ لقد تهاون في رأس المال الممنوح من الله ، فلا

بد أن يقلع عن ذلك ويعامل الله ــ كما يقول الطيبي ـ بالإيمان ومجاهدة النفس ، وعدوّ الدين ، ليربح خَيْري الدنيا والآخرة ، وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ومعاملة الشيطان ، لئلا يضيع رأس ماله مع الربح .

والواقع أنه كلما تفتحت أمام الإنسان آفاق الحضارة ، شعر بالقيمة الهائلة للقدرة الصحية والوقت تماماً ، هذا في الدنيا .. فما بالك بأمور الآخرة ، مع الشعور بأن الصحة والفراغ نعمتان من الله ؟ إن الذي يقرأ بوعي وتدبُّر ما جاء في شأن يوم الفصل ، ويتجه ببصيرته إلى التفكر بما يثقل ذلك اليوم من مشاهد تنذر بالويل والثبور ـ ما لم تدرك المرءَ رحمةُ الله ـ وما يجد العباد من الافتقار الكبير ، إلى مثقال الذرة عند ساعة الحساب .. إن الذي يقرأ النصوص على هذا السنن ، يجد أن من العبث العابث، أن يستهين ، ولو بأقل القليل من الوقت ، وأن يتبع هواه فيخلد إلى أرض التواني والكسل في طاعة الله ، والتزود لذلك اليوم المهول ، وماذا نحن صانعون بما نصت عليه الأحاديث، من المسؤولية عن كل نعمة أنعم الله تبارك وتعالى علينا بها ؟ ماذا صنعنا بها ، وكيف تقربنا إلى الله تعالى ، أم أننا لم نتقرب والعياذ بالله ؟ يقول رسول الله ﷺ فيما روى الإمام الترمذي : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحرث ؛ وتركتك ترأس وتربع ، فكنت تظن أنك ملاقي يومِك هذا ؟ قال: فيقول: لا ، فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني » . قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح غريب .

ومعنى قوله : اليوم أنساك : يقول : اليوم أتركك في العذاب ، هكذا فسّروه ، قال أبو عيسى : وقد فسَّر أهل العلم هذه الآية ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ قالوا : إنما معناه ، اليوم نترككم في العذاب .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد بن عبدالله المبينِ عن الله ما أراد ، وعلى آله وصحابته ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم اللقاء .

أثر العناية بالفرائض يوم الجزاء

الخير يجلب الخير إن شاء الله : حقيقـة نذكرها ،وقـد أسعدتنا قبل هـذا وقفة مع ماجاء في هدي النبي عليـه الصلاة والسلام ، من أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامـة من عمله الصلاة ؛ فـإن صلحت: فقد أفلح وفـاز بمرضاة الله ، و إن فسدت : فقد بـاء بالمذمة والخسران ، ومن عظيـم فضل الله أنه إن كان لـه تطوُّع جُبر به ما انتقص من الفريضة ، ثم الـزكاة كذلك ، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك . وقـد أوردت من قريب عـدداً من الروايات التـي تكشف عن هديـه عليه الصـلاة والسلام ، في منهـج التعامـل مع هـذه الفريضـة التي هـي أهم أركـان الإسلام بعد الشهـادتين ، وكيف أنه صلوات الله وسـلامه عليه، كان أحـرص ما يكـون، تنبيهـاً لأمته على مثـل هـذه القضـايـا ذات الحجم الكبير في سـاعـات الحساب يـوم القيامة ، الأمر الـذي يرتفع بـالمؤمن إلى مستوى المعرفـة الصحيحة بالأحكام، ثم المراقبة الصادقة لله عز وجل في صلاته وسائر عباداته وأعماله؛ لأنه إن أحسن هنـا ، فاز بجزاء الإحسـان هناك ، حيـث المصير رهن ـ بعـد فضل الله ورحمته ـ بمقدار ما يكون من صلاح العمل، والإتيان به على الوجه المطلوب ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ، ولما للصلاة من أهمية عظمـى في الإسلام ، كانت هي أول ما يحاسب به العبد يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فليحتط المؤمن لدينه، بإقـامة الصـلاة حق إقـامتها ، كيما تكون ـــ إن شاء الله ـــ عنوان سـلامة العـاقبة والنجاة .

هذا : ومـن الروايـات التي أشرنا إليهـا ما أخـرج الإمام أحمد وأبـو داود وابن ماجة وغيرهم أن رسـول الله ﷺ قال : « أول ما يحاسب به العبد صـلاته؛ فإن كان أتمها كتبـت له تـامة ، وإن لم يكـن أتمها قـال الله عز وجـل : انظروا هـل تجدون لعبدي مـن تطوُّع فتكملوا بها فريضتـه ؟ ثم الزكـاة كذلك ثم تـؤخذ الأعمال على

حسب ذلـك » ولفظ ابن ماجـة « أول ما يحاسب به العبـد يوم القيامة صـلاته »
وقال أبوداود: حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال : حدثنا إسماعيل قال ، حدثنا يونس عن الحسن عن أنـس بن حكيم الضبي قال : خاف من زياد أو ابـن زياد ، فأتى المدينة ، فلقـي أبا هـريرة قـال: فنسبني فـانتسبت لـه فقال: يـافتى ألا أحـدثك حديثاً؟ قال : قلت بلى رحمك الله ، قال يونس : وأحسبه ذكره عن النبي ﷺ قال : « إن أول ما يحاسب النـاس به يوم القيامـة من أعمالهم الصلاة ؛ قال : يقـول ربنا جـل وعز لملائكتـه وهو أعلـم : انظروا في صـلاة عبدي أتمهـا أم نقصها ؟ فـإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً قال :انظروا هل لعبدي من تطوُّع ؟ فإن كان له تطوع قال : أتموا لعبدي فـريضته من تطوعه ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم ».

وروى أبويعلى بسنده عن أنـس بن مالك رضي الله عنه أنه قـال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما افترض الله على النـاس من دينهـم الصلاة ، وآخـر ما يبقـى الصلاة، وأول ما يحاسب به الصلاة ويقول الله: انظـروا صلاة عبدي ، فإن كانت تامة كتبـت تامة ، وإن كانـت ناقصة يقول : انظـروا هل لعبدي من تطـوُّع ؟ فإن وجد له تطـوُّع تمت الفريضة من التطوع ، ثم قـال : انظروا هل زكاته تـامة ؟ فإن كانـت تامة ، كتبت تـامة ، وإن كانت نـاقصة قال : انظـروا هل له صدقـة ؟ فإن كانت له صدقة تمت له زكاته » .

ومن الواضح أنه بمقدار الوعي المبصر لهذه الحقيقة التي يقررها الرسول عليه الصلاة والسلام ، مـن أن أول ما يحاسب به العبـد يوم القيامة مـن عمله الصلاة، يكون الاهتمام الواعي الصـادق ، بأداء تلك الفريضة على ميقاتها ــ كما أسلفنا ـ ، وإقامتها على الوجه الذي ينبغي، استيفاء لأحكامها والخشوع فيها أكثر وأوفر .

ومن الجدير بالذكر : أن علماءنا رحمهم الله لم يدعوا أن ينظروا مع هذا الحديث برواياته المتعددة ، ما ورد من أن أول ما يقضـى بين ا لناس يوم القيامة في الدماء ،

وقد نقل صاحب « تحفة الأحوذي» عن العراقي في «شرح الترمذي » أنه لا تعارض بين حديث الباب، وهو حديث الصلاة ، وبين الحديث الصحيح : «إن أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » فالحديث الأول محمول على حق الله تعالى ، وهذا الحديث محمول على حقوق الآدميين فيما بينهم . فإن قيل : فأيهما يقدم ، محاسبة العباد على حق الله ، أو محاسبتهم على حقوقهم ؟ فالجواب أن هذا أمر توقيفي ، وظواهر الأحاديث دالة على أن الذي يقع أولاً ، المحاسبة على حقوق الله تعالى قبل حقوق العباد. أما عن إكمال ما انتقص العبد من الفريضة بالتطوُّع : فيحتمل أن يراد به ــ كما يقول العراقي ـ ما انتقصه من السنن والهيئات المشروعة فيها ؛ من الخشوع والأذكار والأدعية ، وأنه يحصل له ثواب ذلك في الفريضة ، وإن لم يفعله ، وإنما فعله في التطوع ، ويحتمل أن يراد به ما انتقص أيضاً من فروضها وشروطها ، ويحتمل أن يراد ما ترك من الفرائض رأساً فلم يصلِّه، فيعوّض عنه من التطوع ؛ والله سبحانه وتعالى يقبل من التطوعات الصحيحة عوضاً عن الصلوات المفروضة .

وقال القاضي أبوبكر بن العربي في «عارضة الأحوذي» : (يحتمل أن يكون يكمَّل له ما نقص من فرض الصلاة وأعدادها بفضل التطوع ، ويحتمل ما نقصه من الخشوع ، والأول عندي أظهر ، لقوله : ثم الزكاة كذلك وسائر الأعمال ، وليس في الزكاة إلا فرض أو فضل ، فكما يكمّل فرض الزكاة بفضلها ، كذلك الصلاة ، وفضل الله أوسع ، ووعده أنفذ ، وعزمه أعم وأتمُّ).

وأياً كان العدم أو النقص : فكون المسلم ممن يُعنى بالإتيان بالنوافل ، فذلك من أبواب الفضل الإلهي ، حيث يكمّل نقص الفريضة بالتطوع ، ونعمّا يصنع المؤمن ، حين يبادر المخاوف الأخروية بالأعمال الصالحة ، ويسارع إلى التقرب إلى مولاه ، وإبعاد نفسه من النار ، بحسن أداء الفريضة، والحرص على النافلة ، فالتطوع بالنوافل من أعظم القربات إلى الله ، ومن محاسن ذلك : ما يكون من جبر نقص الفريضة يوم الحساب . أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال : قـال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عـادى لي ولياً فقد آذنته بـالحرب وما تقرب إليّ عبـدي بشيء أحبَّ إليّ ممـا افترضته عليـه ، وما يـزال عبدي يتقـرب إليّ بالنـوافل حتى أحبّـه ، فإذا أحببته ، كنت سمعـه الذي يسمع بـه ، وبصره الذي يبصر به ، ويـده التي يبطش بها ، ورجلـه التي يمشي بها ، وإن سألنـي لأعطينَّه ، ولئن استعـاذني لأعيذنَّه » الحديـث . وجاء في رواية لأحمد رحمه الله « .. ومـا تقرب إليّ عبدي بمثل أداء الفرائض ، وما يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، إن سألني أعطيته . وإن دعاني أجبته ... » .

اللهم وفقنـا للعمل الـذي ننجو بـه يوم الحسـاب ، واجعلنا مـن الذيـن إذا أحسنـوا استبشروا وإذا أساؤوا استغفـروا ، واحفظنا مـن الغفلة وطـريق الغـافلين حتى نلقاك وأنت راض عنا سميع الدعاء .

أهلية التكليف.. والمسؤولية يوم الحساب

تكريم الله للإنسان ، بجعله أهلاً للتكليف ، ثم المسؤولية عما كلف به، يحمل العاقل على مزيد من الاهتمام بأخذ الحذر من الغفلة أو نسيان يوم الجزاء، وما يكون في عرصات القيامة ، من مشاهد تطفح بالهول والرهبة من المصير ... ولقد ترك النبي ﷺ أمته على المحجة البيضاء، فيما بيّن من مواطن المسؤولية والجزاء ما بيَّن ، وكشف عن أبعاد ذلك ، في تلكم الساعات العصيبة ، حيث يضع ربنا الموازين بالقسط ، ولا يجد المرء عندها إلاما قدّم . قال الترمذي : حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن قال : أخبرنا الأسود بن عامر قال : حدثنا أبوبكر بن عياش عن الأعمش عن سعيد بن عبدالله بن جريج عن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيم فعل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن عمره فيم أبلاه » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وسعيد بن عبدالله بن جريج هو بصري وهو مولى أبي برزة رضي الله عنه وأبو برزة اسمه نضلةُ بنُ عبيد . وروى الترمذي أيضا عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :« لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عُمُره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم » وهو حديث حسن . كما مر من قبل .

هكذا يكشف النبي ﷺ عن ميدان بالغ الأهمية ، من ميادين المسؤولية يوم الحساب ، حيث الأمور على أشدها هناك ، وهذا الميدان يشمل ـ فيما يشمل ـ سؤال المرء عن العمر ـ الذي هو فرصة متسعة من فرص العمل والتقرب إلى الله ـ فيم أفناه ، وسؤال عن العلم ـ الذي يقطع العذر ، ويكون حجة لصاحبه إن صحبه العمل ، أو حجة عليه إن لم يصحبه العمل ـ ماذا عمل به ، وإلى أي حد

طوّع سلوكه لما علم ، وسؤال عن المال من أين جاء به هل اكتسبه من الطرق المشروعة، وفي أي الطرق أنفقه ؟ هل شكر المنعم المتفضل فأنفقه في مرضاة الله ، أم غفل عن الله وأنفقه فيما لايرضيه سبحانه ؟ وسؤال عن الجسم ـ الذى هو مركب الإنسان وهو يدير حركة الحياة ـ فيم أبلاه؟ وفي الرواية الأخرى ـ كما رأينا ـ سؤال عن الشباب بعد السؤال عن العمر ، وهو تخصيص بعد تعميم ، يدل على أهمية تلك المرحلة من مراحل العمر ، ويحمّل الشباب ـ وهم نبض الحياة في الأمة ـ مزيداً من المسؤولية ، تتناسب مع الحيوية والقدرة على العطاء .

وها نحن أولاء أمام صورة مرعبة من صور المسؤولية والجزاء ﴿ **يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ للّه** ﴾ ، وهي صورة ذلك الإنسان الذي غفل عن الله ، وبدل أن يشكر النعم التي أنعم الله بها عليه ، بوضعها في طاعته سبحانه ، جنح عن الصراط السويّ ، ولم يقدّم شيئاً من الخير ، فيمضى به إلى النار والعياذ بالله. فقد أخرج الترمذي عن الحسن وقتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **يُجاء بابن آدم يوم القيامة وكأنه بَذَجٌ ، فيوقف بين يدي الله تعالى، فيقول الله تعالى : أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك ، فماذا صنعت ؟** : فيقول يارب جمعته وثمرته ، وتركته أكثر ما كان فارجعني آتك به ، فإذا عبد لم يقدّم خيراً، فيُمضى به إلى النار ».

البَذَج بفتح الذال : ولد الضأن . قال أبوعيسى : وقد روى هذا الحديث غير واحد عن الحسن قولَه ولم يسندوه .

هذا : وفي إسناد الحديث ضعف، ولكن يشهد له معنى الحديث الآتي ، وهو ما روي عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول الله له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخّرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع ، أفكنت تظن أنك ملاقيَّ يومك هذا؟ فيقول : لا ، فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني » أخرجه

الترمذي وقال : هذا حديث صحيح غريب ، ومعنى قوله « اليوم أنساك » يقول: اليوم أتركك في العذاب ، هكذا فسّروه . قال أبوعيسى ، وقد فسر بعض أهل العلم هذه الآية ﴿ فاليوم ننساهم ﴾ قالوا: إنما معناه: اليوم نترككم في العذاب وقد أُشير إلى ذلك من قبل .

من هنا كان السلف الصالح عليهم الرحمة والرضوان ، على ترقب تام ليوم التلاق ، وما يكون في ساعات الحشر من الأهوال ، ووضع كل واحد من العباد أمام الذي هو مسؤول عنه من النعم؛ ماذا عمل بها وهل أدى حق الله فيها. والذي يُقض مضاجعهم : محاسبة أنفسهم وماذا أعدوا من الزاد لذلك اليوم العصيب. روى أبو نعيم في الحلية بسنده أن أبا هريرة رضي الله عنه بكى في مرضه ، فقيل له: ما يبكيك ؟ فقال : «أما إني لا أبكي على دنياكم هذه ، ولكني أبكي على بعد سفري ، وقلة زادي ، وأني أصبحت في صعود ومهبط على جنة ونار ، لا أدري لأيهما يؤخذ بي » وروي عن معمر قال : بلغني عن أبي هريرة أنه كان إذا مر بجنازة قال : «روحي فإنا غادون ، أو اغدي فإنا رائحون ، موعظة بليغة ، وغفلة سريعة ، يذهب الأول ويبقى الآخر ألا عقل ؟».

ثم كانت هذه اليقظة الإيمانية ، والتبصُّر فيما أخبر عنه النبي ﷺ من مشاهد القيامة ، وما يقع من شدة وكرب ووقوف للسؤال بين يدي رب العالمين ديدن من تبع الصحابة بإحسان ، في أخذ أنفسهم بالأعمال التي تكون بإذن الله سبيلهم إلى النجاة والفوز العظيم ، وفي مواعظهم البليغة ، ونصحهم لعباد الله المؤمنين . وهذا ما نجده عند التابعي الثقة العابد الزاهد سعد بن بلال رحمه الله. روى أبو نعيم بسنده عن عبدالرحمن بن أبي حوشب قال : سمعت بلال بن سعد يقول: «أربع خصال جاريات عليكم من الرحمن مع ظلمكم أنفسكم وخطاياكم: أما رزقه: فدارٌ عليكم، وأما رحمته : فغير محجوبة عنكم ، وأما ستره فأسبغ عليكم، وأما عقابه : فلم يعّجل لكم ، ثم أنتم على ذلك لاهون تجترئون على إلهكم ، أنتم تكلَّمون ، ويوشك الله تعالى يتكلم وتسكتون ، ثم يثور من أعمالكم دخان تسود

منه الوجوه ﴿ **فاتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ اللهم اجعلنا هداةً مهتدين ، غير ضالِّين ولا مضلِّين ، وانفعنا بهدي نبيك المصطفى صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين .

.. فاليوم أنساك كما نسيتني

لله ما أعظم دين الإسلام الذي أتم الله به النعمة على الأمة المحمدية ، وما أعظم أن يكون المؤمن ، على تقدير لهذه النعمة وشكران لها ؛وذلك بالتزام حدود الله، واغتنام ما آتاه الله في الدنيا، من أجل العمل للآخرة ، وما من ريب في أن الطريق إلى ذلك ـ بعد الإيمان ـ معرفة صحيحة متصلة بأصول هذا الدين ومنابعه، وسلوك تزينه الاستقامة ، متسق مع تلك المعرفة. إن المؤمن ، حيث يأخذ نفسه بهذا المنهج القويم، يكون في كنف الله وستره وعونه ، ويكون من أبناء الآخرة الذين يقدرون المسؤولية هناك قدرها ، ولا ينسيهم ما يكون في الدنيا من زخرف ومتاع ، أنهم إلى الموت صائرون﴿**وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور**﴾.

ولقد بصّر النبي ﷺ الأمة ـ وهو لسيد النَّصَحَةِ الرحماء ـ بما هو كائن يوم القيامة من سؤال الله عباده عما أنعم عليهم من نعم، ماذا أدّوا حقه فيها ، وعلى أي وجه استخدموها ، هل كانوا على ذكر من يوم الدين وساعات الحساب، وما تحمل مشاهد القيامة، من الشدة والكرب، أم أنهم وقعوا في شرك النسيان، والغفلة والضياع ؟ أجل ،بصّر النبي ﷺ بذلك، ولم يدع زيادة لمستزيد ، وفي ذلك ما فيه، من امتحان التفاعل الإيماني عند الأمة ، ومقدار التأثر الذي ينعكس على السلوك في كل ما هو من أمور الآخرة بسبيل . قال الإمام مسلم : حدثنا محمد بن أبي عمر قال : حدثنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: «قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضارّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ؟ قالوا : لا . قال : فهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة ؟ قالوا : لا . قال : فو الذي نفسي بيده ، لا تضارّون في رؤية ربكم ؛ إلا كما تضارّون في رؤية أحدهما . قال : فيلقى العبد فيقول : أي فُلْ

ألم أكرمك وأسوّدك ، وأزوّجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى ، فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثاني فيقول : أي فُل ألم أكرمك وأسوّدك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى أي رب ، فيقول : أفظننت أنك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يارب ، آمنت بكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع ، فيقول الله : ههنا إذاً ، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك ، ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقي ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليتعذر من نفسه، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه » . وما من ريب في أن نطق هذه الجوارح على صاحبها المنافق ، وشهادتها عليه حيث أنطقها الله الذي أنطق كل شيء، يذكّر بقول الله تبارك وتعالى في سورة يس : ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾.

هذا : ومن الحقائق التي لايرتاب فيها إلا معاند مكابر ، أن الجيل الذي رباه رسول الله ﷺ على عينه ، كان مثال التصديق ، وحسن الإفادة من هدي النبيﷺ في النفس ، وفي أداء الأمانة بتوجيه الآخرين ، وتذكيرهم بما يكون يوم القيامة، الأمر الذي يوجب على المؤمن، أن يتزود له فيحسن الزاد ، روى مسلم بسنده عن خالد بن عمير العدوي قال : « خطبنا عتبة بن غزوان رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد : فإن الدنيا قد آذنت بصُرم ، وولت حذّاء ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفة جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ، ولا يدرك لها قعراً ، والله لتملأن أفعجبتم !! ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرةُ أربعين سنة ، وليأتينَّ عليها يوم وهي كظيظ من الزحام . ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ، ما لنا

طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا ، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك ، فأتزرت بنصفها ، وأتزر سعد بنصفها . فما أصبح اليوم منا أحد، إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار ، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً ، وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت ، حتى يكون آخر عاقبتها ملكاً ، فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا » .

الصرم : الانقطاع والذهاب . ولّت حذّاء : أي مسرعة الانقطاع. الصُّبابة: البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء يتصابها: يشربها . الكظيظ : الممتلىء .

ولقد أورد الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه : «طريق الهجرتين وباب السعادتين » أبياتاً لواحد من أهل الخشية السالكين، نورد بعضها للعبرة والانتفاع إن شاء الله فيما يلي :

فيا عجباً من مُعرض عن حياته ... وعن حظه العالي ويلهو ويلعب
ولو علم المحروم أيَّ بضاعة ... أضاع لأمسى قلبه يتلهب
فإن كان لا يدري فتلك مصيبة ... وإن كان يدري فالمصيبة أصعب
بلى سوف يدري حين ينكشف الغطا ... ويصبح مسلوباً ينوح ويندب
ويعجب ممن باع شيئاً بدون ما ... يساوي بلا علم وأمرك أعجب
لأنك قد بعت الحياة وطيبها ... بلذة حلم عن قليل سيذهب
فهلا عكست الأمر إن كنت حازماً ... ولكن أضعت الحزم والحكم يغلب
تصدُّ وتنأى عن حبيبك دائماً ... فأين عن الأحباب ويحك تذهب
ستعلم يوم الحشر أيَّ تجارة ... أضعت إذا تلك الموازين تنصب

جزى الله خير جزائه ، نبينا محمد بن عبدالله ، ورضي الله عن أصحابه الكرام الذين آمنوا وصدّقوا وكانوا خير مثال يحتذى في العمل بهديه، صلوات الله وسلامه عليه وجزى الله الإمام ابن القيم خير جزائه على ما صنف وكتب في هذا الباب وذكَّر بصنيع أولئك الأصفياء . والله لايضيع أجر من أحسن عملاً .

كفى بنفسك اليوم شهيداً عليك

إذا ذكر يوم الوعيد، يوم تجيء كل نفس معها سائق وشهيد ، كان ذلك مدعاة لأن يزيـد المؤمن من صلتـه بأخباره ، بمشاهـده، ونذره، وأحوالـه ،كيما يكون على اليـابسة، علماً وعمـلاً وأخـذاً بأسبـاب النجاة التـي يطمـح إلى تحقيقها عبـاد الله الصالحون. ذلك بأن الفقه في أخبار ذلك اليوم ـ كما ترى في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ـــ جدير ، بأن يـدفع إلى العمل الجادّ المبصر للآخـرة ، وأن يكون المعيار الأخروي هو المقدَّم في وزن الأعمال والتصرفات، وفي هذا الهدي النبوي ، ما يوحي ، بأن المؤمن عندما يعطي العمل للآخرة حقه من العناية ، معرفة بالأحكام وإخلاصاً لله عز وجل ، يكـرمه الله بأن يكفيه أمـر دنياه ، لأن الآخرة خير لـه من الأولى ، وهي بـلا ريب خير وأبقى ، جاء في بعـض وصايا الإمام سفيـان الثوري رحمه الله قوله : « أحسن سريرتك يحسن الله علانيتك ، وأصلح فيما بينك وبين الله يصلح الله فيما بينـك وبين الناس ، واعمـل لآخرتـك يكفك الله أمـر دنياك . بـع دنياك بآخرتك تربحْهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ».

ولقد تـرك النبيﷺ الأمة على المحجة البيضـاء، حيث كشف ـ وهـو المؤيد بالـوحي ـــ بإحـاطة تامـة ـ كما أسلفنـا ـ عما يكـون في اليوم الموعـود ، بين العباد وخالقهم جل شأنه وتباركـت أسماؤه ، وعن المآل الذي يصير إليه، أولئك الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، ورانــت الغفلة على قلوبهم، فنسوا الله واليوم الآخر، وكانوا من أهل النار . وقد رأينـا في صفحات خَلَتْ ما روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل قول المنـافق يوم القيامة : «يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلـك وصليت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير مـا استطاع فيقول الله : ههنا إذاً ، أي قف ههنا حتى تشهد عليك جوارحك إذ قد صرت منكراً .. ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليـك » ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليه ،

لأن عمى القلب ، جعله يظن أن نهج النفاق الذي كان عليه في الدنيا، يمكن أن ينفع في هـذا اليوم العصيب أيضـاً .. «فيختم على فيـه ، ويقال لفخذه وعظـامه: انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعُذر من نفسه» يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « وذلك المنافـق وذلك الذي يسخط الله عليه » . أرأيت إلى هذا المشهد المروّع من مشاهد القيامة ؟ أنكـر المنافق وكذب ، فأنطق الله جوارحه بالشهادة عليـه، فكانت هذه الجوارح شـاهد الله الذي يعلم السر وأخفـى عليه: الآن نبعث شاهدنا عليك .

هكذا تعلن الحقيقة إعلانها ، ويخسر الزيف وأهلوه ، ويكب المنافق في الدرك الأسفل مـن النار ، أمـا أعماله التي حسبهـا تنطلي على الآخريـن : فلم تغـن عنه شيئاً، لأنها فقدت أعز ركن وأغلاه ، وهو الإيمان .

وهذه صورة أخرى، من صور أخّاذة فيـاضة بالعظات والعبر ، تضمها تلك المشاهـد التي يفترض أن تشحذ العـزائم، وتباعد بين المرء، وبين النفـاق وأهله، وتُعلي قدر العلم الأخروي، في نظر المؤمن ، كيما يكون من المسارعين في الخيرات، والأعمال الصالحات التـي حرّرت من الشوائب والأكـدار ، أولئك الذيـن تكتب لهم النجـاة في ساعـات الهول ، ويفوزون بـرضـوان الله ، وما أعـد لأهل الفـلاح والخشية من النعيم المقيم. أخرج الإمام مسلم بسنده عن سفيان الثوري عن عُبيد المُكتِب عن فضيل عـن الشعبي عن أنس بن مالك رضي الله عنـه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ ، فضحك ، فقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا: الله وسوله أعلم، قال : من مخاطبـة العبد ربه ، يقول : ياربِّ ألم تُجرني من الظلـم، قال : بلى ، قال: فيقول : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، قال : فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، قـال : فيختم على فيه ، فيقال لأركانه: انطقي ، قـال : فتنطق بأعمالـه ، قال : ثـم يخلّى بينه وبين الكلام ، قـال : فيقول: بُعداً لكنّ وسُحقاً فعنكن كنت أناضل » ورواه النسائي وابن أبي حاتم .

وغير خافٍ أن حديث النبي عليه الصلاة والسلام في هذا : لون مبارك من ألوان البيان، لما جاء في القرآن الكريم حول هذا المشهد الناطق بما يؤول إليه أمر أعداء الله، من مثل قول الله جل وعز في سورة فصلت : ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه تُرجعون** ﴾.

يوزعون : يساقون ويُدفعون إلى جهنم.

هذا : وقد ذكر الحافظ ابن كثير ما روى ابن أبي حاتم بسنده عن يونس بن عبيد عن حميد بن هلال قال : قال أبوبردة: قال أبوموسى : «ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض عليه ربه عز وجل عمله فيجحد ويقول : أي وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول له الملك : أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟ فيقول: لاوعزتك رب ما عملته، قال : فإذا فعل ذلك ختم على فيه».

أما المؤمن : فيعترف بالخطأ ، ويرجو مولاه المغفرة ، قال شيخ المفسرين الطبري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال: حدثنا ابن عُلَيَّة قال : حدثنا يونس بن عُبيد عن حميد بن هلال قال : قال أبوبردة : قال أبوموسى الأشعري رضي الله عنه: « يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فيعرض عليه ربّه عمله فيما بينه وبينه، فيعترف ، فيقول: نعم أي رب عملت عملت عملت، قال : فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها ، قال : فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئاً ، وتبدو حسناته ، فودّ أن الناس كلهم يرونها . ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه عمله، فيجحد ويقول : أي رب وعزتك، لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل ، فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟

فيقول: لا وعـزتك أي رب مـا عملته ، فـإذا فعل ذلـك ختم الله على فيـه » . قال أبوموسى الأشعـري رضي الله عنه : فإني أحسب أول ما ينطق منـه الفخذ اليمنى، ثم تـلا :﴿اليـوم نختم على أفـواههم وتكلمنـا أيـديهم وتشهد أرجلهـم بما كانـوا يكسبون ﴾ .

اتقوا النار ولو بشق تمرة

كثيرة هي تلك الأحاديث ، التي تضع العباد أمام الحقائق المذهلة التي تواجه الإنسان يوم القيامة ، وفي الوقت نفسه، تقدم قوارب النجاة ، وتأخذ بيد المكّلف إلى ساحة العمل المجدي في هذه الدار ، وهو العمل الخالص لله عز وجل مهما قلَّ ، مادام هو الممكن ، ومادام قد فُعل على الوجه الذي بيّنه الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإذا توافر للمسلم ذلك ، كان العمل قميناً ـ بفضل الله تعالى ـ أن يقي صاحبه مصارع السوء في ذلك اليوم العصيب ، حيث تشتد الحاجة إلى العمل المنجي ، ويتعاظم الافتقار إلى جبار السماوات والأرض الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى ؛ لأن الهول شديد شديد ، والساعات تمر مثقلةً بالكثير الكثير ، من الترقب والمشقة، حيث ترى كل أمة جاثية ، ولكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه، قال الإمام البخاري : حدثنا عمر بن حفص قال : حدثني الأعمش قال : حدثني خثيم عن عدي بن حاتم قال : قال النبي ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان ، ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة ».

إنه الموقف الذي لا محيص منه ، وهو حقيقة يؤمن بها المسلم، إيماناً يجعلها منه ، كأنه يراها هنا في الدار العاجلة ويُحِسُّها ، فليعدّ لها العدّة ، وليحكّم المعيار الأخروي في العمل ، والعاقل كل العاقل من تزوّد لتلك الرحلة ، ولقي ربه بقلب سليم . وتحمل الرواية عند الإمام مسلم شيئاً من التفصيل، الذي يسعف في مزيد من وضوح الرؤية من أجل العمل والإعداد ، فقد روى بسنده عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تِلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق

تمرة » ثم قال الإمام مسلم :زاد ابن حجر : قـال الأعمش : وحدثني عمرو بن مرة عن خيثمة مثله ، وزاد فيه «ولو بكلمة طيبة » وقال إسحاق : قال الأعمش : عن عمرو بـن مرة عن خيثمـة . وله في رواية أخـرى عن عدي بـن حاتم أيضـاً قال : «ذكر رسول الله ﷺ النار فأعرض وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ، ثم أعرض وأشاح حتى ظننـا أنه كأنما ينظـر إليها ، ثم قال : اتقـوا النار ولو بشـق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » . وجاء في رواية ثالثة لمسلـم أيضاً «أنه ﷺ ذكر النار فتعوذ منها، وأشاح بـوجهه ثـلاث مرات ، ثم قـال : اتقوا النـار ولو بشـق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » .

وذلك ما نجده عنـد الإمام البخاري عن عدي بن حـاتم : قال النبي ﷺ : «اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ثلاثاً ، حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

وواضح أن هذا كلّه ، فيمن لا يجد إلا ذلك القليـل مما يتقي به النار ، بذلاً في سبيل الله ، فما بالك بمن يجد ما هو أكثر وأوفر ؟ كيف لا يبني وقاية تقيه من النار، يصوغها من العمل المرضي لله عز وجل .... ؟

أما وقد دلّ النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو الرحمة المهداة ـ على الطريق ، وبيّن الأمر خير بيان ، فـلا عذر لمعتذر يأتي يـوم القيامة ، فيكلمه ربـه ليس بينه وبينـه ترجمان ، ولا يجد المخـرج من الـوقوع في النـار التـي تستقبله ــ وهي مـآب الطاغين ـ إلا ما قدّم في هذه الدنيا ، مـن الغرس الطيب والعمل الذي يكون نوراً بين يديه ، ومنجاة مما يقع فيه الخلق الذين عميت منهم البصائر في الدنيا ، حتى إذا نسوا الله في عـاجل أمرهـم ، عاقبهم بـالنسيان في آجلـه ، وكان مأواهـم النار وبئس القرار .

وفي تأكيد لمقام العمل هنا ، وأثره في ساعـات المسؤولية هناك ، تطالعنا رواية الترمذي عـن طريق الأعمش: « مـا منكم من رجـل إلا سيكلمه ربه يوم القيـامة

وليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى شيئاً إلا شيئاً قدمه ، ثم ينظر أشأم منه ، فلا يرى شيئاً إلا شيئاً قدّمه ، ثم ينظر تلقاء وجهه فتستقبله النار ، قال رسول الله ﷺ : « من استطاع منكم أن يقي وجهه حر النار ولو بشق تمرة فليفعل » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . حدثنا أبو السائب قال : حدثنا وكيع يوماً بهذا الحديث عن الأعمش ، فلما فرغ وكيع من هذا الحديث قال : من كان هاهنا من أهل خراسان ، فليحتسب في إظهار هذا الحديث بخراسان ، لأن الجهمية ينكرون هذا . اسم أبي السائب: سلْمُ ابنُ جَنادةَ بن سلم بن خالد بن جابر بن سمرة الكوفي . والحديث رواه النسائي وابن ماجة والدارمي.

هذا : والناظر في هديه عليه الصلاة والسلام ، في شأن النهج الذي على المؤمن أن يسلكه في دار العمل هنا ، استعداداً ليوم المسؤولية والحساب والجزاء هناك ، نجد أنه صلوات الله وسلامه عليه ، لم يأل جهداً في أن يكشف لأمته عن ضرورة الحفاظ على الوقت، واغتنام الفرص، قبل أن يأتي اليوم الذي لا مردَّ له من الله ، حيث يفوز الذين استنفدوا الطاقة في مرضاة ربهم ، والتقرب إليه ، والتخلق بأخلاق المؤمنين حقاً ، والذين لهم مغفرة عند ربهم ورزق كريم. أخرج الترمذي في كتاب الزهد من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ عن يحيى بن عبيد الله قال: سمعت أبي يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : «ما من أحد يموت إلا ندم ، قالوا : وما ندامته يارسول الله ؟ قال : إن كان محسناً : ندم أن لا يكون ازداد ، وإن كان مسيئاً : ندم أن لا يكون نزع» فالمحسن يندم على أن لا يكون ازدادمن الإحسان الذي ينفع في ذلك اليوم العظيم ، والمسيء يندم على أن لا يكون انتهى عن الإساءة وتاب وأناب، عسى أن يغفر الله له ما فرط من ذنوب وآثام ..

ربنا اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منا أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير ..

على جسر جهنم.. اللهم سلم سلم

كلما ازداد إقبال المؤمن على الآخرة ، وسلك مسالك الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب .... ازداد حرصاً على إمعان النظرات المتبصرة ، فيما جاء عن رسول الله ﷺ ــ وهو يبلغ الرسالة، ويبين الكتاب ـ في شأن يوم المعاد ، وما يقبل عليه العبادمن المسؤولية والجزاء، كلٌ بما قدّم وعمل . وهذا ـ بعون الله تعالى ـ طريقه لأن يكون من أهل التوفيق ، الذين لا تلهيهم الدنيا بملذاتها وشهواتها ـ مهما كانت الزخارف والمغريات ــ عن ذكر الله ، والتفكر بما يكون يوم الحساب ، ولا تشغلهم ـ وهي دار الزوال ـ عن الآجلة التي هي دار القرار ،والتفكير بما يكون يوم الحساب ، وفي الوقت نفسه ، يبلغ بهم الخوف والرجاء ، أن يديموا غسل الحوبة بالندم والاستغفار ، ويقبلوا على التوبة قبل أن تبلغ الحلقوم .

و إذا كان الأمر كذلك ــ ولب القضية وجوهرها ما يكون من الإقبال على الآخرة ــ فالاستزادة من مخالطة النصوص التي تؤذن بما يزخر به اليوم الآخر من مشاهد ، وتكشف عن الحقائق التي درج المتخلفون عن ركب أهل التقوى ، أن يهوِّنوا من شأنها، ويلبسوها المعاني التي تنصح بحب الدعة والغفلة... أقول: الاستزادة من مخالطة النصوص على هذه الشاكلة، رغبةً في العلم والعمل : من التعقل الأخروي، أن يجعلها المؤمن هجيراه ، كيما يكون ذلك عوناً له على التأسي بأهل التقوى المحسنين ، والانصراف عن طريق الغافلين الذين ينساهم ربهم يوم الدين.

وهذه الإشارة ، ذات نسب إلى ما نحن بسبيله ، من متابعة الحديث عن مساءلة الله عباده ، يوم لا يسأل حميم حميماً ، وما يكون من نصب الصراط الذي ما بد من أن يعبروا عليه ، وهم على يقين ، بأن المصير إما إلى جنة الخلد التي وعد

المتقون ، وإما إلى نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى . عقد الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه : « الصراط جسر جهنم» وقال هناك : حدثنا أبو اليمان قال : أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني سعيد وعطاء بن يزيد أن أباهريرة رضي الله عنه أخبرهما عن النبي ﷺ ، حدثني محمود قال : حدثنا عبدالرزاق قال : أخبرنا معمر عن الزهري عن عطاء ابن يزيد الليثي عن أبي هريرة قال : «قال أناس : يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال: هل تضاروّن في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا :لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه يوم القيامة ، كذلك يجمع الله الناس فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه .. فيتبع من كان يعبد الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون ، فيقول أنا ربكم فيقولون : نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب جسرُ جهنم ، قال رسول الله ﷺ: فأكون أول من يُجيز ، ودعاء الرسل يومئذ اللهمّ سلّم سلّم ، وبه كلاليب مثل شوك السعدان ، أما رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله . فتخطف الناس بأعمالهم ، منهم الموبق بعمله ، ومنهم المخردل ثم ينجو . حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج، ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يُخرجوهم فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل من بني آدم أثر السجود ، فيخرجونهم قد امتحشوا ، فيُصبُّ عليهم ماء يقال له ماء الحياة ، فينبتون نبات الحبّة في حميل السيل، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ، فيقول: يارب قد قشبني ريحها ، وأحرقني ذكاؤها فاصرف وجهي عن النار ، فلا يزال يدعو الله فيقول: لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره ،

فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره ، فيصرفُ وجهه عن النار ، ثم يقول بعد ذلك: يارِبِّ قربني إلى باب الجنة ، فيقول : أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ؟ ويلك ياابن آدم ما أغدرك . فلا يزال يدعو ، فيقول : لعّلي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره ، فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، فيعطي الله ما شاء من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره ، فيقربه إلى باب الجنة ، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله له أن يسكت ، ثم يقول : ربّ أدخلني الجنة . ثم يقول : أو ليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ؟ ويلك يابن آدم ما أغدرك ؟ ، فيقول : يارب لا تجعلني أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو حتى يضحك ، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها ، فإذا دخل فيها ، قيل : تمنَّ من كذا . فيتمنى . ثم يقال له : تمنّ من كذا فيتمنى ، حتى تنقطع به الأماني ، فيقول له : هذا لك ومثله معه ، قال أبوهريرة : وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً » ثم قال البخاري : قال عطاء : وأبوسعيد الخدري جالس مع أبي هريرة لايغير عليه شيئاً من حديثه حتى انتهى إلى قوله : « هذا لك ومثلُه معه » قال أبوسعيد : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « هذا لك وعشرة أمثاله » قال أبوهريرة : حفظت « ومثلُه معه » .

وهكذا يؤكد عطاء ـ وهو هنا عطاء بن يزيد الليثي المتوفى سنة سبع ومائة للهجرة ـ يؤكد موافقة أبي سعيد الخدري أباهريرة رضي الله عنهما في نص هذا الحديث بطوله إلا أن أباسعيد يحفظ « هذا لك وعشرة أمثاله » وأبوهريرة يحفظ «هذا لك ومثلُه معه » .

شبّه رسول الله ﷺ كلاليب الصراط بشوك السعدان ، والسعدان : جمع سعدانة وهو نبات ذو شوك يضرب به المثل في طيب مرعاه، قالوا : (مرعى ولا كالسعدان). وقوله ﷺ : « أما رأيتم شوك السعدان » هو استفهام تقرير لاستحضار الصورة المذكورة ، وهي صورة خطف الكلاليب الناس بأعمالهم. ونقل الحافظ ابن حجر عن الزين بن المنير قوله : «تشبيه الكلاليب بشوك السعدان خاص بسرعة اختطافها وكثرة الانتشاب فيها مع التحرز والتصون تمثيلاً

لهم بما عرفوه في الدنيا وألفوه بالمباشرة ».

وورد في الحديث كلمة « امتَحشوا » وفي بعض الروايات « امتُحِشوا » ومعناها احترقوا . ذَكاؤها بفتح الذال : شدة وهجها قال ابن الأثير في « النهاية » : وفي حديث ذكر النار « قشبني ريحها وأحرقني ذَكاؤها » الذَّكاء : شدة وهج النار . يقال: ذَكَّيتُ النار : إذا أتممت إشعالها ورفعتَها . وذكت النار تذكو ذَكاً ـ مقصور ـ أي اشتعلت وقيل : هما لغتان .

وللحديث بقية ، نسعد فيها ثانية باصطحاب هذا النص الكريم المثقل بالتوجيه والعبر ، ونرى ماله من روايات أخر ، تسهم في مزيد من الوضوح وتبيُّن الملامح ، ونسأله تعالى أن يجعلنا من الذين يجوزون الصراط ملطوفاً بهم لا تخطفهم الكلاليب ، ولا تزِلُّ بهم الأقدام ، منعماً عليهم بجنة الرضوان ـ فضلاً من الله ورحمة ـ إنه نعم المولى ونعم النصير .

الصراط جسر جهنم

في الحديث الذي أورده الإمام البخاري في بـاب عنوانه « باب الصراط جسر جهنم» مـن كتاب الرقاق في الجامـع الصحيح ـ كما رأينـا من قريب ـــ حقائق إيمانية لابـد من استـذكارها ، إذ نطـالع فيها نطـالع ، أن الصراط حـق ، وأن دعاء الرسل هناك حـق ، وأن الناجين يكرمون بحسب منازلهم ، وأن أهـل الضلالة ،لا يقـوون على جـوازه ، ويسقطـون في جهنـم. فقـد جـاء هنـاك : « ويُضرب جسر جهنم»، قال رسول الله ﷺ: «فأكون أول من يُجيز ، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلِّم سلِّم » وفي رواية مسلم ـ كما سيأتي : « ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا وأمتي أول مـن يجيز ولا يتكلم يومئذ إلا الـرسل ، ودعوى الرسل يـومئذ اللهم سلّم سلّم».

هكـذا يـدل الحديـث، على ثبـوت هـذا المشهـد العظيـم الهائل : الصراط يضرب ـ يُمَدُّ ـ بين ظهري جهنم، وترى الناس محشورين للعبور عليه، وكلهم على هذا الترقب والحذر الشديد ، فالمؤمنون يكرمهم الله بالنجاة ، على حسب منازلهم، والآخرون ، يغمرهم ظلام الضلال ، فيسقطون في نـار لظى، أعاذنا الله برحمته ومنّه وفضله ، من هولها وعذابها الغليظ .

وأحقية وجود الصراط ، وأنه جسر جهنم، هـو مذهب أهل الحق كما يتضح من تـرجمة الإمام البخـاري للأحـاديث الـواردة في ذلك بقـوله :« الصراط جسر جهنم» وقال الإمام النووي رحمه الله : وهو جسر على متن جهنم يمر عليه الناس كلهم، فـالمؤمنون ينجون على حسب حـالهم ـ أي منازلهم ـ والآخـرون يسقطون فيها أعاذنا الله الكريم منها .

والرسول ﷺ أول مـن يُجيز : أي أول من يمضي عليه ويقطعـه، يقال: أجزت

الوادي وجزتـه، لغتان بمعنى واحد، وينقل عـن الأصمعي قوله: أجـزته: قطعته وجزته : مشيت فيه والله أعلم.

ولشدة ما يكون من الأهوال ، وما يحمل ذلك المشهد من اضطراب النفوس ، خشية سوء المصير والوقوع في جهنم، لا يتكلم في حال الإجازة ، إلا الرسل عليهم الصلاة والسـلام ، ومن كمال شفقتهم ورحمتهم للخلـق ، يكون دعاؤهـم: «اللهم سلّم سلّـم ». نقول هذا ،لأنـه قد يظن أن الكلام ممتنـع يوم القيامـة ، إلا في حال إجازة الصراط ، ففي ذلك اليوم المشهود مواطن، يتكلم فيها الناس ، وتجادل كل نفـس عن نفسهـا ، ويسـأل بعضهـم بعضاً ، ويتـلاومـون ، ويخاصـم التابعـون المتبوعين كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنـوا أشد حباً لله ولو يـرى الذين ظلموا إذ يـرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتُبعـوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ .

وقد استنبط العلماء من دعـاء الرسل « اللهم سلّم سلّم» في تلـك الساعات العصيبة، ساعات إجازة الصراط ، أن الدعـوات تكون بحسب المواطن ، فيدعى في كل موطن بما يليق به ؛وذلك ما علمناه رسول الله وعرف من هديه . وقد جاء في بعـض الـروايات أن شعـار المؤمـن على الصراط « رب سلّـم سلّم » قـال الإمـام الترمذي : حـدثنا علي بن حُجـر قال: أخبرنا علي بن مسهـر عن عبدالـرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعيد عن المغيرة بن شعبـة قال : قال رسـول الله ﷺ : « شعار المؤمن على الصراط رب سلّـم سلّم » قال أبوعيسى : هذا حـديث حسن غـريب مـن حديـث المغيرة بن شعبـة لا نعرفـه إلا من حـديث عبـدالرحمن بـن إسحاق. وفي الباب عن أبي هريرة ، اللهم لطفك بعبادك .

ألا إن هذا الدعاء الذي يلهمه الله الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ والمؤمنين

عموماً ـ كما نصت هذه الرواية عند الترمذي ـ أنسب وأصلح ما يكون من الدعاء في تلك الساعات المثقلة بالحرج وشديد الرعب، حيث الخطر المحدق، والمصير المخوف المرتقب.

هذا والكلام على الصراط ـ جعلنا الله ممن يجوزونه بسلام ـ يصلنا بما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام من أن الصراط هو أحد مواطن ثلاثة يطلب فيها النبي ﷺ، فهو لا يخطئها : الصراط والميزان والحوض . وأكرم الله أمتنا بأن سأل أنس بن مالك رضي الله عنه الشفاعة ، فأمره أن يطلبه أول ما يطلبه عند الصراط؛ فإن لم يجده ، فليطلبه عند الميزان ، وإلا فعند الحوض . ذلكم ما أخرج الإمام الترمذي بسنده عن النضر بن أنس بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال : سألت النبيﷺ أن يشفع لي يوم القيامة . فقال : أنا فاعل . قال : قلت يارسول الله فأين أطلبك ؟ قال : تطلبني أول ما تطلبني على الصراط قال : قلت : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : فاطلبني عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك عند الميزان قال : فاطلبني عند الحوض ، فإني لا أخطىء هذه الثلاثة المواطن . قال أبوعيسى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وجاء في مسند الإمام أحمد حدثنا عبدالله قال : حدثني أبي قال : حدثنا يونس بن محمد قال : حدثنا حرب ابن ميمون عن النضر بن أنس عن أنس قال : سألت نبي الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة قال : قال : أنا فاعل بهم، قال : فأين أطلبك يوم القيامة يانبي الله قال: اطلبني أول ما تطلبني على الصراط ، قال : قلت : فإذا لم ألقك على الصراط ؟ قال : فأنا عند الميزان ، قال : قلت فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : أنا عند الحوض لا أخطىء هذه الثلاث مواطن يوم القيامة » .

ألا ما أحوج الناس في ذلك اليوم العصيب، إلى رحمة الله الواسعة ولطفه الكبير . وهنيئاً لمن قدّموا في الدنيا ما يؤهلهم لتلك الرحمة وجميل اللطف، فتراهم، وقد أشرق عليهم نور الشفاعة المحمدية ، وياويح من لم تدركه هذه الرحمة ، من وخيم العاقبة وسوء المصير . ولقد يعجز العقل عن وصف ما يدخل من الفرح

على قلوب الناجين الذين تدركهم ألطاف الله وينالون الشفاعة ؛ روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن صهبان قال: سمعت أبابكرة عن النبي ﷺ قال: « يُحمل الناس على الصراط يوم القيامة فتتقادع بهم جنبة الصراط تقادُع الفراش في النار ، قال : فينجي الله تبارك وتعالى برحمته من يشاء ، قال : ثم يؤذن للملائكة والنبيين والشهداء أن يشفعوا ، فيشفعون ويخرجون ، ويشفعون ويخرجون ، ويشفعون ويخرجون ، وزاد عفان مرة فقال أيضاً : ويشفعون ، ويخرجون من كان في قلبه ما يزن ذرة من إيمان » قال أبو عبدالرحمن حدثنا محمد بن أبان قال: حدثنا سعيد بن زيد مثله .

قال علماء اللغة : التقادع : التهافت والتتابع في الشيء ، كأن كل واحد يدفع صاحبه أن يسبقه، قال الإمام الرازي : وفي الحديث: «يحمل الناس على الصراط يوم القيامة فتتقادع بهم جنبتا الصراط تقادع الفراش في النار » .

اللهم اجعلنا في تلك الساعة المهولة، ممن يستجاب فيهم دعوة رسلك عليهم السلام : اللهم سلّم سلّم . يا أرحم الراحمين .

ذكرت النار فبكيت

أهل الفلاح الذين صفت بالتقوى قلوبهم ، واستنارت بالإيمان عقولهم ، لا يفتؤون يعملون من الصالحات ، ويأتون من القربات ما يزيد إيمانهم بالغيب، الأمر الذي يزيدهم طمأنينة على طمأنينة ، ويجعل ما أخبر به القرآن ، وبينته السنة: قريباً من نفوسهم، حتى كأنه بين ظهرانيهم يرونه بأم أعينهم، يشهدونه مصدقين ، ويحسّون وجوده الحق، لا يخالطهم في ذلك أدنى ريب أو التباس، الأمر الذي يسعف في الاستقرار النفسي ، والتفاؤل برحمة الله في عاجل الأمر وآجله . ومن هذه القضايا التي يريح الإيمان بها قلبَ المؤمن وعقله : أن الصراط حق. ومعلوم أن مذهب أهل الحق إثباته ، وأنه كائن لا محالة ؛ فهو جسر يضرب على جهنم ليعبر عليه الناس إلى مصيرهم ـ كما سبق الحديث عن ذلك آنفاً ـ فالمؤمنون ينجون على حسب منازلهم ، والآخرون يسقطون في نار السعير ، نعوذ بالله العزيز الرحيم من عذابها وشر بلواها .

والمؤمن عندما يتصور ذلك المشهد ، الذي هو حق لا ريب فيه ، يزداد خوفاً من سوء العاقبة والعقاب، كما يلوذ بربه خاشعاً خاضعاً ، رجاء المغفرة والثواب، ومن غير اللائق ولا المقبول ، أن يطيع المؤمن نفسه وهواه ، فيصيبه طائف من الغفلة، يجعله يتقاصر عن العمل الصالح في هذه الدار ، ويقعد عن النّصَب في سبيل الله مع القاعدين . ولذلك ما بد من الدأب المبصر ، على تزكية النفس ومحاسبتها ، ومجافاة الهوى وشياطين الإنس والجن ﴿ **قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دسَّاها** ﴾ .. لا بد من ذلك ، كيما تكون مشاهد القيامة وما تحمل من الأهوال نصب عين المؤمن ، تذكره إذا غفل، وترتفع به إلى معايير الآخرة وعدم الركون إلى مغريات العاجلة إذا ونى .

ولقد دلّت الأحاديث الصحيحة على أن الناس يكونون على الصراط، وقد حصل ما حصل من تبدل الأرض والسماوات، بقدرة الواحد القهار، قال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة قال : حدثنا عليّ بن مُسهرٍ عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿ **يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات** ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يارسول الله؟ فقال : «على الصراط» وبهذا اللفظ رواه ابن ماجة في باب « ذكر البعث» من كتاب (الزهد) في السنن . والآية التي تشير إليها السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، هي قوله تعالى في الآية الثامنة والأربعين من سورة إبراهيم: ﴿ **يوم تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾ وقد سُبقت بقول الله جل وعز : ﴿ **فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام**﴾. وأخرج الترمذي بسنده عن الشعبي أيضاً عن مسروق قال: « تلت عائشة هذه الآية: ﴿**يوم تبدّل الأرض غير الأرض** ﴾ قالت: يارسول الله ، فأين يكون الناس؟ قال : على الصراط ». قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وروي من غير هذا الوجه عن عائشة ، أُم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وقد كانت من أحرص الناس على فقه ما يتلى في بيت رسول الله ﷺ من الكتاب والحكمة ، وأن لا تدع أن تستفسر وتسأل وتستضيء بالجواب ، وأعطاها الله ما أعطاها ، من دقة الفهم والقدرة على النفاذ .. أم المؤمنين أجزل الله مثوبتها تخبرنا ، بأنها كانت أول من سأل رسول الله عليه الصلاة والسلام ، عن الآية المذكورة في سورة إبراهيم، قال عبدالله بن الإمام أحمد : حدثني أبي قال : حدثنا بن أبي عدي عن داودعن عامر عن مسروق قال: قالت عائشة: « أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ **يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾ قالت: فقلت: أين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال : على الصراط » .

وغير خاف أن الرسول عليه الصلاة والسلام ــ كما تدل الروايات ـ قد كشف لها رضي الله عنها ـ وقد سألته هذا السؤال ــ أن أحداً من أمته لم يسأله عنه قبلها .

ولا يخفى ما في ذلك من التكريم لها ، ومن تقرير تلك الفضيلة فيها، فضيلة التطلع إلى المعرفة ، والفهم من صاحب الشريعة المؤيد بالوحي عليه الصلاة والسلام . وكم حملت أسئلة أم المؤمنين جزاها الله خير الجزاء ، إلى الأمة ما حملت من الخير ، والهداية في الدين والدنيا والآخرة . جاء في مسند أحمد : حدثنا عبدالله قال : حدثنا أبي قال : حدثنا عفان قال : حدثنا القاسم بن الفضل قال : قال الحسن : قالت عائشة : يارسول الله ﴿ **يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسماوات** ﴾ أين الناس ؟ قال: «إن هذا لشيء ما سألني عنه أحد من أمتي قبلك ، الناس على الصراط » والحق أن المدة التي يقضيها العباد وهم على الصراط، والتي لا نعرف مداها في عمق الزمن ، ساعات مثقلات بالخوف المضني ، والحذر الشديد الشديد، ولو كشف الغطاء عما يصيب النفوس من هول ذلك المشهد، لرأيت العجب العجاب . وأشد من هذا ما يكون من طبيعة الصراط ،وكيف هو ، وقد ضرب جسراً بين ظهري جهنم، ومما جاء في ذلك ما روى مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه من قوله : « ولقد بلغنا أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف». نسأل الله لطفه ونقول : يارب سلّم سلّم .

وحملت إلينا بعض النصوص صورة مهولة أخرى عن الصراط، وأنه من المواطن التي لا يذكر فيها أحد أحداً ، إذ كلٍّ واحد من العباد ، لديه من الحذر وخوف المصير حيث تخطف جهنم من أُذن لها أن تخطفه ــ ما يشغله عن الآخرين. أخرج أبوداود بسنده عن يونس عن الحسن عن عائشة أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخفُّ ميزانه أم يثقل ، وعند الكتاب حين يقال:﴿ **هاؤم اقرؤا كتابيه** ﴾ حتى يعلم أين يقع كتابه ، أفي يمينه أم في شماله ، أم من وراء ظهره ، وعند الصراط ، إذا وضع بين ظهري جهنم» قال يعقوب: عن يونس ، وهذا لفظ حديثه. وفي رواية أخرى عنها رضي الله عنها قالت: « قلت:

يارسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : ياعائشة أما عند ثلاث فلا: أما عند الميزان حتى يثقل أو يخفَّ : فلا ، وأما عند تطاير الكتب، فإما أن يعطى بيمينه أو يعطى بشماله: فلا ، وحين يخرج عنق من النار ــ يعني طائفة منها ـ فينطوى عليهم ويضغط عليهم، ويقول ذلك العنق : وكلِّت بثلاثة، وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد فينطوي عليهم ، ويطرحهم في غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أدق من الشعرة وأحدُّ من السيف ، عليه كلاليب ، وحسك، تأخذ من شاء الله، والناس عليه كالطرف ، وكالبرق، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون: رب سلمّ سلّم، فتموج ، فسالم، ومخدوش سلَم ـ أي كالأسير ـ ومكور في النار على وجهه ». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» : رواه أحمد وفيه ابن لهيعة ـ وهو ضعيف وقد وثق ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

وما من ريب في أن المؤمن الذي يداخله من الخشية ما يداخله ، حين يذكر هذا المشهد وأمثاله ، من مشاهد القيامة، يدفعه ذلك ـ بعون الله ـ إلى حسن التزود بالتقوى ، وذكر الآخرة وبذلك يأمن إن شاء الله يوم الخوف .

روى أبوبكر ابن أبي شيبة عن الحسن البصري أنه قال : «إن المؤمنين عجلوا الخوف في الدنيا ، فآمنهم الله يوم القيامة ، وإن المنافقين أخروا الخوف في الدنيا فأخافهم الله يوم القيامة» .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وهو المسؤول ــ جل شأنه ــ أن يسلك بنا ــ وهو ذو الفضل العظيم ـ طريق النجاة والأمن يوم يقوم الحساب .

فضل الله.. وآخر أهل الجنة دخولاً

أخرج أبـو نعيم في «الحلية» مـن طريق أبي بكر بـن أبي شيبة عن معمـر عن يحيى عن الحسن البصري أنه قال: « إن المؤمـن قوَّام على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يـوم القيامة على قوم حـا سبوا أنفسهم في الدنيـا، وإنما شق هـذا الأمر على قـوم أخذوا هـذا الأمر على غير محاسبـة، إن المؤمن يفجـؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيـك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله مـا من وُصلة إليك، هيهـات حيل بينـي وبينك، ويفرط منـه الشيء فيقول: مـا أردت إلى هذا، مالي ولهذا، والله مالي عذر بها، ووالله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله، إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلَكتهـم، إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل، يعلم أنه مأخوذ عليه في ذلك كله ».

وددت أن تكون كلمات هـذا التابعـي القدوة رحمه الله، مـدخلاً إلى مـا نحن بسبيله ،من متابعة الكلام على الصراط الذي يُضرب يوم القيامة جسراً بين ظهري جهنم، حيث يكون المؤمن على أشد حال من الخوف والرجاء، يضرع معها إلى الله جبـار السماوات والأرض الذي لا يسـأل عما يفعـل، أن يمـنّ عليه بفكـاك رقبتـه ونجاته من النار.

والذي يزيد الأمر شدة: ما يكون من مشهد الناس ـ وهم يعبرون جسر جهنم أو يحاولون العبور ـ وبهذا الجسر كلاليب مثـل شوك السعدان؛ إنها صورة مرعبة، قربها رسـول الله ببلاغته إلى الناس. كـلاليب لا يعلم قدر عظمهـا إلا الله.. انظر إليها وهي تخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبق بعمله، ومنهم المخردَل، ثم ينجو. ومن الخير ــ زيادةً في البيـان ـ استـذكار مـا جاء في ذلـك عند الإمـام البخاري، وذلك في الرواية المطوَّلة التي أخرجها عن أبي هـريرة رضي الله عنه في كتاب الرقاق

من الجامع الصحيح ، تحت بابٍ عنوانه .« الصراط جسر جهنم » .

ورغبةً في تبيُّن المعنى المراد من مختلف جوانبه، يحسن إيراد بعض الروايات الأخرى. وفي خطوة إلى تحقيق ذلك . نتجه إلى ما جاء عند الإمام مسلم في صحيحه. إذ في الرواية شيء من الاختلاف عما جاء في رواية الإمام البخاري؛ فقد روى رحمه الله بسنده عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي أن أباهريرة أخبره «أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ، فقال رسول ﷺ : هل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ، قالوا : لا يارسول الله ، قال : هل تضارّون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك ، ويجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبَّعه، فيتبِّع من كان يعبد الشمس ، الشمس ،ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربُنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون ، فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه . ويُضربُ الصراط بين ظهرَي جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلّم سلّم ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان ، قالوا: نعم يارسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم المؤمن الموبَق بعمله ، ومنهم المجازى حتى يُنَجَّى ».

إنه لمشهد مخيف حقاً ، ولا منجاة من مخاطره ، إلا بلطف من الله اللطيف الخبير ؛ وكم يحسن المؤمن إلى نفسه ، وينأى عن ظلمها ، إذا اتخذ من هول ذلك المشهد ، حافزاً يحفزه إلى طريق النجاة ، يسلكها بعزيمة صادقة ، وقلب متصل بالله الرحيم الرحمن ؛ فقد جاءبعد ذلك قوله ﷺ : «.. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يُخرِج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يخرجوا

من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ، ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ، ممن يقولون : لا إله إلا الله ، فيعرفونهم في النار ، يعرفونهم بأثر السجود ـ تأكل النار من ابن آدم إلا السجود ـ حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود ، فيُخرجون من النار وقد امتحشوا ـ أي احترقوا ـ فيصب عليهم ماء الحياة ، فينبتون كما تنبت الحِبة في حميل السيل» ـ أي كما تنبت بذرة البقول والعشب في مجرى السيل من الطين والغثاء ـ والمراد التشبيه في سرعة النبات وحسنه وطراوته .

وفي بشارة تفرح قلوب المؤمنين ، قال ﷺ بعد ذلك : «ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ـ وهو آخر أهل الجنة دخولاً ـ فيقول : أي رب اصرف وجهي عن النار فإنه قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها ـ أي آذاني وأهلكني وغير جلدي وصورتي لهبُها واشتعالها ـ فيدعو ما شاء الله أن يدعوه ، ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل عسيت إن فعلتُ ذلك بك أن تسأل غيره ؟ فيقول: لا أسألك غيره ، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله ، فيصرفُ الله وجهه عن النار .

فإذا أقبل على الجنة ورآها ، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول : أي رب قدِّمني إلى الجنة . فيقول الله : أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك ، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك ، فيقول : أي رب ، ويدعو الله حتى يقول له: هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره ؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطي ربه ما شاء الله من عهود ومواثيق ، فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا قام إلى باب الجنة، فرأى ما فيها من الخير والسرور ، فيسكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أي رب أدخلني الجنة ، فيقول الله تبارك وتعالى له : أليس قد أعطيتَ عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أُعطيت ، ويلك ياابن آدم ما أغدرك ! فيقول : أي رب لا أكون أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو الله ، حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه ، فإذا ضحك الله منه قال : ادخل الجنة ، فإذا دخلها ، قال الله : تمنّه ، فيسأل ربه ويتمنى حتى إن الله ليذكّره من كذا وكذا ، حتى إذا انقطعت به الأماني قال

تعالى : لك ذلك ومثله معه ».

قال عطاء بن يزيد : وأبوسعيد الخدري مع أبي هريرة ، لا يرد عليه من حديثه شيئاً ، حتى إذا حدّث أبوهريرة : أن الله قال لذلك الرجل : ومثلُه معه ، قال أبوسعيد : وعشرةُ أمثاله يا أبا هريرة ، قال أبو هريرة : ما حفظتُ إلا قوله : لك ذلك ومثلُه معه . قال أبو سعيد : أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله ذلك لك وعشرةُ أمثاله . قال أبوهريرة : وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً ».

وليس هذا عجباً في سعة رحمة الله تعالى !! والمهم أن يتخذ المؤمن من هذا العطاء السخيّ ، باعثاً على أخذ الأهبة والإعداد لتلك الساعات العصيبات. وصلاة الله وسلامه على نبينا محمد نبي الهدى والرحمة وعلى آله وصحابته الذين حملوا عنه هذا الدين ، وما به يسعد المؤمن في الدنيا ، وينجو به من أهوال يوم التناد ، يومِ قال فيه جبار السماوات والأرض : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ .

الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم

الأحاديث الواردة في شأن الصراط - كما تؤكد ضرورة الإيمان ، بأنه واقع لا محالة - تكشف عن مورد من موارد الاعتبار والعظة ، فيما هو عليه؛ من وجود كلاليب فيه ،تشد الهالكين إلى السقوط في جهنم ، بينما يتفاضل الناجون حسب منازلهم. وقد استوعبت هذه الأحاديث معالم ذلك المشهد المهول من مشاهد يوم الفصل، وما أدراك ما يوم الفصل . ولئن كانت تلك النصوص من الهدي النبوي، تخبر الخبر الصادق ،عما سيحدث في ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيباً ، إنها في الوقت نفسه ،تحمّل الناس أمانة العمل الذي يتسق مع هذا الذي سوف يقع لا محالة ، فحلقة المعرفة تقود بلا كلفة ولا عنت، إلى الحلْقة التي تليها، وهي المسؤولية التي تقتضي شَغْلَ الوقت بالعمل الصالح والاستنارة بهدي الكتاب والسنة ،من أجل النجاة يوم الدين، والفوزِ بمرضاة رب العالمين ، التي مآلها جناتٌ تجري من تحتها الأنهار أعدت للمتقين. أما من رانت على قلوبهم الغفلة : وأعرضوا عما جاءهم من البينات والهدى ، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ناسين الله واليوم الآخر ، فمآلهم سوء العاقبة ، ونار ﴿**وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾.

وما من ريب، في أن من ثمرات الإيمان والعمل الصالح ، أن يعطى المؤمنون والمؤمناتُ يوم القيامة نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم. ولا تسل عن موقعه العظيم - والشدة الشادة مستحكمة عند الصراط - قال تعالى في سورة الحديد : ﴿**من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم . يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم**﴾ ذكر الحافظ ابن كثير عن عبدالله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿**يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم**﴾ أنه قال:

على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثـل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً ، من نوره في إبهامه يتقد مـرة، ويطفأ مرة . ورواه ابـن أبي حاتم وابـن جرير . وقـال الحسن البصري : ﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾ يعني على الصراط .

وفي بعض الآثار : أن الناس كلهم يعطون النور ، ولكن نور المنافقين ينطفىء عند الصراط . قال الضحاك : ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفيء نور المنافقين ، فلما رأى المؤمنون ذلك ، أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفىء نور المنافقين، فقـالوا : ربنا أتمم لنا نورنا . وفي حديث ابـن عباس عند ابن مردويه : فيعطى كل إنسان منهم نوراً ثم يوجهون إلى الصراط ؛ فما كان من منافق: طفـىء نورُه ، وفي لفـظ: «فإذا استـووا على الصراط ، سُلـب نور المنـافقين فقالـوا للمؤمنين : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ...﴾ » الآية .

ولا يرتاب مرتاب في أن ظلام الضلالـة والظلمِ في الدنيا ،ونسيانَ الله واليوم الآخر ، يعقبـان أصحابها ، ما لا قبـل لهم به في تلكم اللحظـات الحرجات على الصراط ـ وقد ضرب جسراً على جهنم وسبحان اللطيف الخبير ـ أخرج أبوبكر بن أبي شيبة في مصنفه عن بشر بن عاصم قال: « كتب عمر بن الخطاب عهداً لبشر بن عاصم فقال : لا حاجة لي فيه، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الولاة يجاء بهم يوم القيامة فيقفـون على جسر جهنم، فمن كان مطواعاً لله ، تنـاوله الله بيمينه حتى ينجيه، ومن كان عاصياً لله ، انحرف به الجسر إلى واد من نار يلتهب التهاباً. قال: فأرسل عمر إلى سلمان وأبي ذر ، فقـال لأبي ذر : أنت سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم والله ، وبعد الـوادي واد آخر من نار . قال : وسأل سلمان ، فلم يخبر بشيء ، فقـال عمر : من يـأخذهـا بما فيها ؟ فقال أبـو ذر : من سلب الله أنفه وعينيه وأصرع خده إلى الأرض ».

وفي حديث موصول مع الكلام على الصراط جسرِ جهنم، تحسن الإشارة إلى

أن ما أوردتُـه من قبل، مـن روايتي البخاري ومسلـم، قد جاء عنـد الإمام أحمد في المسند بلفظ مختصر عنهما، ذلك ما روى هناك بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبـي ﷺ قال: « يضرب جسر على جهنم، قـال النبي ﷺ: فأكـون أولَ من يجيز، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلّم سلّم، وبها كلاليب مثل شوك السعدان، هـل رأيتم شـوك السعدان، قـالـوا: نعم يـارسـول الله، قال: فـإنها مثل شـوك السعدان غير أنـه لا يعلم قدر عظمهـا إلا الله تعالى، فتخطف النـاسَ بأعمالهم، فمنهم الموبَق بعملـه ومنهم المخردَل ». وجاء في روايـة مسلم « فأكون أنـا وأمتي أول من يجيـز » قال الإمـام النووي: المعنـى أكون أنـا وأمتي أول مـن يمضي على الصراط ويقطعه، يقال: جـاز الواديَ وأجازه: إذا قطعه وخلّفه. قـال القرطبي صاحب « المُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم » والمتوفى سنة ست وخمسين وستمائة: (يحتمل أن تكون الهمزة هنا للتعدية، لأنـه لما كان هو وأمته أول من يجيز على الصراط، لزم تـأخير غيرهم عنهـم حتى يجوز، فـإذا جاز هـو وأمته، فكـأنه أجاز بقية الناس). ووقع في حديث عبدالله بن سلام عند الحاكم: « ثم ينادي مناد أين محمد وأمته؟ فيقـوم فتتبعه أمته برُّها وفاجرهـا فيأخذون الجسر، فيطمس الله أبصار أعدائه فيتهافتون من يمين وشمال، وينجو النبي والصالحون ».

والمخردل ـ كما يقـول ابن الأثير في النهاية ـ المرمـي المصروع، وقيل: المقطّع تقطعه كلاليب الصراط حتى يهوي في النار.

هذا: وقد آن أن نصحـب رواية الترمذي وموضـع الكلام على الصراط منها؛ ففي ذلك إن شاء الله، مزيد من تجلية المعنى المراد؛ فقد روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ثم يطّلع عليهم رب العـالمين فيقول: ألا يتبع كل إنسان ما كانـوا يعبدونه فيمثّل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون، فيطّلع عليهم رب العالمين، فيقول: ألا تتّبعون الناس؟ إلى أن يقول: «.. فيعرّفهم نفسَه ثم يقول: أنا ربكم فاتبعوني،

فيقـوم المسلمون ، ويـوضع الصراط ، فيمـرون عليه مثـلَ جياد الخيـل والركـاب، وقولهم عليه : سلِّـم سلِّم . ويبقى أهل النـار ، فيطرح منهم فيها فـوجٌ ، ثم يقال: هل امتلأت ؟ فتقول: «هل من مزيد» ثـم يطرح فيها فوجٌ ، فيقال : هل امتلأت؟ فتقول : «هل من مزيد »؟ حتى إذا أوعبـوا فيها ، وضع الرحمن قدمه فيها ، وأزوى بعضها إلى بعـض ، ثم قال : قطْ ، قـالت: قطْ قـطْ ؛ فإذا دخل أهل الجنـة الجنة، وأهل النار النار ، قال : أُتي بالموت ملبّياً ، فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار ، ثم يقـال : يا أهل الجنة ، فيطَّلِعون خائفين ، ثم يقـال : يا أهل النار، فيطَّلعون مستبشرين يرجون الشفاعة ، فيقال لأهل الجنة ولأهل النار : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون ـ هؤلاء وهؤلاء ـ : قد عرفناه ، هو الموت الذي وكِّل بنا ، فيضجع ، فيذبح ذبحـاً على السور الذي بين الجنة والنـار ، ثم يقال : يا أهـل الجنة خلودٌ لا مـوت ، ويا أهـل النار خلـودٌ لا مـوت » قال أبـو عيسـى : هذا حـديث حسـن صحيح... ومعنى قوله في الحديث : « فيعرِّفهم نفسه »: يعني يتجلى لهم .

ولله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل .

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾

ما أحوج الإنسان، أياً كان موقعه في هذه الحياة، إلى مخالطة ما أخبر عنه النبي ﷺ ـ وهو الرحمة المهداة ـ من أمور يوم القيامة، وما يصحب ذلك من مشاهد مروّعة تدع الناس ـ إلا من رحم ربك ـ على حال لا تكاد توصف، لشدة الهول وترقب المصير. فلقد كان ﷺ خير ناصح لأمته، بل لبني الإنسان أجمعين، من سبقه ومن لحقه، عندما بشر وأنذر، وكشف اللثام عما سيكون من سؤال القبر والنفخ في الصور، والبعث بعد الموت، والحشر والنشر، والوقوف للمساءلة بين يدي رب العالمين، ومن وضع الميزان، وضرب الصراط بين ظهري جهنم.. ثم عما يؤول إليه أمر كل واحد من العباد؛ من دخول الجنة، أو القذف في النار..

ذلك بأنه ﷺ جعل الناس ـ بصنيعه المبارك الميمون ـ على بينة من أمرهم؛ يعقل من يعقل، فيشغَل النفس بتقوى الله والعمل الصالح، ضماناً للزاد المناسب لتلك الرحلة، فهو على ذكر مما يلزم لذلك، يجدُّ السّير ولا ينسى الله واليوم الآخر. ويصدُّ عن الحق من يصُد؛ ترين على قلبه الضلالة، وتلفُه بظلامها الغفلةُ عن الله، ونسيانُ يوم الحساب، وهنا ينقلب على عقبيه ظالماً نفسه، ويحشر يوم القيامة أعمى، تخطفه كلاليب الصراط وتلقي به في جهنم، لا يبالي الله به في أي وادٍ هلك!!

والعهد قريب بنصوص من هدي خير العباد، مؤذنة بأن كلاليب الصراط ـ وهو الجسر المضروب بين ظهرى جهنم ـ تخطف الناس وهم يمرون عليه ـ على حسب منازلهم ـ والسعيد من أدركته رحمة الله، فنجا من ذلك الهول، وكان من الفائزين. وقد بلغت النصوص في هذا المقام حدّاً عظيماً، في بيان ما ينفع الأمة بيانه من شؤون هذا الجسر الذي يُجعل ـ بقدرة الله تعالى ـ بين ظهري جهنم، ولا

تسل عن الاختبار الصعب، الذي لا يعرف حاكما ولا محكوماً هناك .

غير أن هنالـك نصوصاً ، تحمـل مزيـداً من وصف ذلـك الجسر ،يتجلى فيها المزيد من حرص النبي ﷺ على أمته ، أن ينالها ذلك الخطر المهول ، في حال المرور من فوقه ـ وقد اشتد الكـرب ووجفت القلوب ـ. ففي باب﴿ **وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة** ﴾ من كتاب التـوحيد في الجامع الصحيح ؛ روى البخـاري بسنده عن أبي سعيـد الخدري رضي الله عنه قال : «قلنـا : يارسـول الله هل نرى ربنـا يوم القيامة؟ قال هل تضارّون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً ؟ قلنا : لا ، قال: فإنكم لا تضارّون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما ، ثم قال: ينادي مناد ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم ، وأصحـاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحـاب كل آلهة مع آلهتهـم ، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، وغُبرَات من أهل الكتاب ، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب ، فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ قـالوا : كنا نعبد عزيراً ابن الله، فيقال : كـذبتم لم يكـن لله صاحبـة ولا ولد ، فما تـريدون ؟ قـالوا : نـريد أن تسقينـا ، فيقال : اشربـوا فيتسـاقطون في جهنـم ، ثم يقـال للنصـارى : ما كنتـم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال: كذبتم لم تكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ فيقولون : نريد أن تسقينا، فيقال : اشربوا ، فيتساقطون ، حتى يبقى من كان يعبد الله من برّ أو فاجر ، فيقال لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس ؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منا إليـه اليوم . وإنا سمعنا منادياً ينادي : ليلحق كل قوم بما كانـوا يعبدون وإنما ننتظر ربّنا ، فيأتيهم الجبـار في صورةٍ غير صورتِه التي رأوه فيها أول مـرة ، فيقول : أنا ربكم ، فيقـولون : أنت ربنا ، فـلا يكلمه إلا الأنبيـاء ... إلى أن يقول : ثـم يـؤتى بـالجسر ، فيُجعـل بين ظهـري جهنم قلنـا : يارسـول الله وما الجسر ؟ قـال : مدْحَضـة مزِلـة ، عليه خطـاطيف ، وكـلاليب ، وحسكةٌ مفلطحة لها شوكة عُقيفاء تكون بنجد يقال لها : السعدان ، المؤمن عليها كالطـرف ، وكالبرق ، وكالريـح ، وكأجاويد الخيـل والركاب؛ فناجٍ مُسلَّـم، وناج

مخدوش ، ومكدوس في نـار جهنم، حتي يمَّر آخـرهم ، يُسحبُ سحْبـاً ؛ فما أنتم بأشدَّ لي مناشدةً في الحق ـ قد تبين لكم ـ من المؤمن يومئذ للجبّار .

وإذا رأوا أنهم قد نجـوا في إخوانهم(*) ، يقولون : ربنـا إخواننا الذيـن كانوا يصلون معنا ، ويصـومون معنا ، ويعملون معنا ، فيقول الله تعـالى : اذهبوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقـال دينار من إيمان ، فأخرجوه ، ويحرّم الله صـورهم على النار ، فيأتونهم ـ وبعضهم قد غاب في النار إلى قـدميه ، وإلى أنصاف ساقيه ـ فيُخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : اذهبـوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فأخرجوه، فيُخرجون من عرفوا ، قـال أبوسعيد : فإن لم تصدقوني فاقرؤوا ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها** ﴾ . فيشْفع النبيون والملائكة والمؤمنون ، فيقول الجبـار: بقيت شفـاعتي ، فيقبـض قبضة مـن النار ، فيخـرج أقوامـاً قد امتحشوا، فيُلقـون في نهر بأفواه الجنـة يقال له: مـاء الحياة، فينبتون في حـافتيه كما تنبـت الحِبة في حميـل السيل، قـد رأيتموهـا إلى جـانب الصخـرة ، وإلى جانـب الشجرة ، فما كـان إلى الشمس منها، كان أخضر ، ومـا كان منها إلى الظـل ، كان أبيض، فيخـرجون كأنهم اللـؤلؤ ، فيجعل في رقـابهم الخواتيم، فيدخلـون الجنة ، فيقـول أهل الجنـة: هؤلاء عتقـاء الرحمن ، أدخلهـم بغير عمل عملـوه ، ولا خيرٍ قدموه ، فيقال لهم : لكم مارأيتم ومثله معه » .

هكذا يجيـب النبي ﷺ من سألـوه عن الجسر الذي يجعل بين ظهـري جهنم بقوله : «مدحضة مزِلّة » أي تزل فيه الأقـدام وتزلق ، «عليه خطاطيف وكلاليب» الخطـاطيف : جمع خُطّـاف . قال ابـن الأثير في النهايـة : وهو الحديـدة المعوجّـة كالكلّـوب يختطف بها الشيء يجمع على خطـاطيف. ومنه حـديث القيامـة « فيه خطاطيف وكلاليب ».

وكـأن مجيء اللفظين على هـذه الصـورة ، لأن الكلاليـب جمع كلّـوب وهـو حديدة معّوجة الرأس أيضاً . وهذا من بلاغته الفذّة عليه الصلاة والسلام ، لما أنه

(*) ولأبي ذر عن الكشمهني « وبقي إخوانهم » .

أراد أن يقّرب المشهد ، بكل ما فيه من الهول والمخاطر المرتقبة ، كي يكون المؤمنون على المحجة البيضاء ، في إدراك مـا سيكون ، ويعقدوا العزم على حسـن التزود في العاجلـة الفانيـة ، لذلك اليـوم . وفي الجسر مع الخطاطيـف والكلاليـب حسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء : أي ملتوية تكون بنجد يقال لها : السعدان .

هذا : وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإمام الترمذي : بعد أن روى الحديث الجامع عن الرؤية ومخاطبـة الرب عباده ، وتجليه للمؤمنين ، وعن الصراط ومـا يتعلق به ، وعن ذبح الموت وما إلى ذلك ـ وقد أوردت بعضه من قريب ـ بعد هذا: ذكر رحمه الله أنه حديث حسن صحيح ثم قال : وقد روي عن النبي ﷺ روايات كثيرة مثل هـذا ، ما يـذكر فيـه أمر الـرؤيـة أن الناس يـرون ربهم ، وذكرُ القـدم وما أشبـه . والمذهب في هـذا عند أهـل العلم من الأئمـة: مثل سفيان الثـوري ، ومالـك بن أنس، وابـن المبارك ، وابن عيينة ، ووكيـع ، وغيرهـم : أنهم رووا هذه الأشيـاء ، ثم قالوا : تُروى هذه الأحاديث ونؤمن بها ، ولا يقال : كيف ؟ وهذا الذي اختاره أهل الحديث؛ أن تُروى هذه الأشياء كما جاءت ، ويؤمن بها ، ولا تُفسَّر ولا تُتوهم ، ولا يقال : كيف ؟ وهذا أمـر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليـه . ثم قال : ومعنى قوله في الحديث: « فيعرِّفهم نفسه » يعني : يتجلّى لهم.

اللهم الطـف بنا واجعلنا ـ بفضلـك ـ عند المرور على الصراط مـن الناجين الفائزيـن ؛ فإنـه لا ملجأ ولا منجـى منك إلا إليـك، إنك أهـل التقوى ، وأهـل المغفرة ، والمحمود يا ربنا على كل حال .

في أعقاب القراءة النافعة إن شاء الله ، للحديث الجامع الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ وفيه ما يثير كوامن الإيمان بالغيب ، والرغبة الصادقة في معرفة المزيد عما تكون عليه حال الناس ، عند المرور على الجسر المضروب بين ظهري جهنم ـ تحسن القراءة المتأنية ـ بمشاركة العقل والقلب ـ لرواية أخرى له ففيها ما يطمئن قلب المؤمن ، ويزيد الأمر وضوحاً ،على طريق استجلاء المعاني وتبيُّن المراد . إذ جاء في تلك الرواية التي أخرجها رحمه الله في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ بعد الكلام على أحقية رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى يوم القيامة ـ قول رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتَّبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب ، إلا يتساقطون في النار ؛ حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغُبَّرِ أهل الكتاب ـ يعني بقاياهم ـ فيدعى اليهود ، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عُزيراً ابن الله فيقال : كذبتم ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فماذا تبغون ؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فأسقنا ، فيشار إليهم ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فيتساقطون في النار . ثم يدعى النصارى ، فيقال لهم: ماكنتم تعبدون؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فيقال لهم : ماذا تبغون؟ فيقولون : عطشنا ياربنا فأسقنا، قال : فيشار إليهم ألا تردون ؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضه بعضاً ، فيتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله من برٍ وفاجر ، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى ، في أدنى صورة من الصور التي رأوه فيها ، قال : فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا: ياربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم ، فيقول: أنا ربكم،

فيقولـون : نعوذ بالله منك لا نشرك بـالله شيئاً ـ مـرتين أو ثلاثاً ـ حتـى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب ، فيقول : هـل بينكم وبينه آية ، فتعرفونـه بها ؟ فيقولون : نعم ـ فيكشف عن سـاقٍ ، فلا يبقى من كـان يسجد لله من تلقاء نفسـه ، إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقـاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد ، خرّ على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحوّل في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال : أنا ربكم ، فيقـولون : أنت ربنا ، ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحلّ الشفـاعة ، ويقـولون : اللهـم سلّم سلّـم ، قيل يـارسول الله ، ومـا الجسر؟ قال : دحض مَزَلّـةٌ ، فيه خطاطيف وكلاليب، وحسـك تكون بنجد ، فيها شوكـة يقال لها : السعدان ، فيمر المؤمنـون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالـريح، وكالطير ، وكأجاويد الخيل الركاب ، فناج مسلَّم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم؛ حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فو الذي نفسي بيده ، ما منكم من أحد بـأشدَّ منـاشدة لله في استقصاء الحق ، مـن المؤمنين لله ،لإخوانهم الـذين في النار ، يقولون : ربَّنـا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجـون ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم . فتحرّم صورهم على النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، قد أخذت النار إلى نصف ساقيه ، وإلى ركبتيه ، ثم يقولون : ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول: ارجعوا ، فمن وجدتـم في قلبه مثقال دينار من خير ، فأخرجـوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقـولون : ربَّنـا لم نذر فيهـا أحداً ممن أمـرتنا ، ثـم يقول: ارجعـوا ، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير ، فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربَّنـا لم نذر فيها ممن أمرتنـا أحداً ، يقول : ارجعوا ، فمن وجـدتم في قلبه مثقال ذرة من خير ، فـأخرجوه ، فيُخرجـون خلقاً كثيراً ، ثم يقولـون : ربَّنا لم نذر فيها خيراً .

وكان أبـوسعيد الخدري يقـول : إن لم تصدقـوني بهذا الحديث ، فـأقرؤوا إن شئتم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفهـا ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ فيقول الله عز وجـل : شفعت الملائكة وشفع النبيـون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الـراحمين ، فيقبض قبضة من النـار ، فيخرج منها قومـاً لم يعملوا

خيراً قط ، قد عادوا حُمماً ، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة ، يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحِبَّة في حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ، ما يكون إلى الشمس أصيفرُ وأخيضرُ ، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيضَ ، فقالوا : يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية ، قال : فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة ؛ هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة ، بغير عمل عملوه ، ولا خيرٍ قدّموه ، ثم يقول: ادخلوا الجنة ، فما رأيتموه ، فهو لكم، فيقولون ربَّنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين ، فيقول : لكم عندي أفضلُ من هذا ، فيقولون : يا ربّنا أيُّ شيءٍ أفضلُ من هذا ؟ فيقول : رضاي ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

ولمزيد من التوثيق الذي ينشده العلماء، قال مسلم : قرأت على عيسى بن حمَّاد زُغبَة المصري هذا الحديث في الشفاعة وقلت : أحدِّث بهذا الحديث عنك أنك سمعت من الليث بن سعد ؟ فقال : نعم . قلت لعيسى بن حمَّاد : أخبركم الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري أنه قال : قلنا : يارسول الله أنرى ربنا؟ قال رسول الله ﷺ : هل تضارّون في رؤية الشمس إذا كان يومٌ صحوٌ ؟ قلنا : لا ، وسقت الحديث حتى انقضى آخره ، وهو نحو حديث حفص بن ميسرة ، وزاد بعد قوله : «بغير عمل عملوه ولا قدم قدّموه » «فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه ». قال أبوسعيد : بلغني أن الجسر أدقُ من الشعرة وأحدُّ من السيف . وليس في حديث الليث « فيقولون ربنا أعطيتنا مالم تعط أحداً من العالمين» وما بعده ، فأقربه عيسى بن حماد .

جاء في وصف الجسر ـ وهو الصراط ــ أنه دحض مزَلَّة أو مزِلّة بفتح اللام وكسرها والمراد : الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر ــ كما سبق ــ ويقال: دحضت الشمس أي مالت ، وحجة داحضة أي : لا ثبات لها. والله حسبنا ، وهو نعم الوكيل.

من نوقش الحساب هلك

من مشاهد اليوم الموعود التي كشفت عنها النصوص ، في حديث من لا ينطق عن الهوى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والتي تدعو إلى كثير من العظة والتذكر، ومجانبة الغفلة ومسالك الغافلين ... من هذه المشاهد ، تلك التي تحمل إلى الأمة ما يكون من مناجاة الله العبدَ يوم القيامة ـ في عديد من الأحوال والصور ـ وما يكون من عرَضات ؛ عرضتان : جدال ومعاذير ، وعرضة تتطاير عندها الصحف في الأيدي ؛ فآخذٌ بيمينه ، وآخذٌ بشماله . وحديث العَرْض ـ من حيث هو ـ حديث كما يقول الإمام الترمذي في جامعه ـ السنن ـ حديث صحيح حسن، لكن حديث تعدد العرضات للعلماء فيه مقال . غير أن جوهر القضية الكبرى ، القضية التي ينبغي أن لا يبارح المؤمنَ تمثُّلها ـ وهو يكدح في هذه الحياة ـ أعني إيتاء الكتاب باليمين ، أو بالشمال ، أو من وراء الظهر ؛ فهو من الأمور المنصوص عليها في الكتاب العزيز ، وصحيح السنة النبوية المطهرة ـ كما سبق ـ ، والله اللطيف المستعان. قال الترمذي: حدثنا سويد بن نصر قال : أخبرنا ابن المبارك عن عثمان بن الأسود عن ابن أبي مُليكة عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نوقِشَ الحساب هلك » قلت : يارسول الله إن الله تعالى يقول: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ . قال : ذلك العرض » قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح حسن. ورواه أيوب أيضاً عن ابن أبي مُليكة. وروى بسنده عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «يُعرض الناس يوم القيامة ثلاثَ عَرَضات ، فأما عَرْضتان : فجدالٌ ومعاذير ، وأما العرضة الثالثة : فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي ؛ فآخذ بيمينه وآخذ بشماله ». ورواه البعض عن الحسن عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، غير أن إسناد الحديث ضعيف لأن الحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة كما أنه لم يسمع من أبي موسى . لذلك قال أبوعيسى : ولا يصح هذا

الحديث مـن قِبَلِ أن الحسن لم يسمـع من أبي هـريرة ، وقد رواه بعضهـم عن علي الرفـاعيّ عن الحسن عـن أبي موسى عـن النبي ﷺ ، قال أبو عيسـى : ولا يصح الحديث من قبـل أن الحسن لم يسمع من أبي مـوسى . وقد نقل الحافـظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري » كلام الترمـذي هذا ثم قال : وهو عند ابـن ماجة وأحمد من هذا الوجه ، مرفوعاً . وأخرجه البيهقي في « البيع » بسند حسن عن عبدالله بن مسعود موقوفاً .

هكذا يدفـع الناس عن أنفسهم في المرة الأولى ، ويقولـون : لم يُبلغنا الأنبياء، ويحاجُّون الله تعالى ـ وهو ما عُبِّر عنه بـالجدال والمعاذير ـ وفي المرة الثانية يعترفون ويعتذرون ، بـأن يقول كلٌّ : فعلتـه سهواً وخطأ وجهـلاً ، أو نحو ذلك ــ كما قال صـاحب « المرقـاة شرح المشكـاة » ـ أمـا في المرة الثالثـة : فتتطـاير الصحـف في الأيدي؛ فمنهم آخـذ بيمينه وهو من أهـل السعادة ، ومنهم آخذ بشمالـه وهو من أهل الشقاوة ، عافـانا الله من ذلك ، وجعلنا ممن يؤتـون كتبَهم بأيمانهم، ويفوزون برضوان الله وما أعدّ لعباده المتقين في جنات النعيم .

وهذه صورة أخرى ، مـن صور مناجاة الله للعبد يوم القيـامة ، تحمل البشرى بالمزيد مـن فضل الله ومغفرته لعبـده المؤمن ، كما تحمل النذارة بما يـؤول إليه أمر الكافرين والمنافقين ، حيث ينادى بهم على رؤوس الخلائق : ﴿**هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظـالمين**﴾. وقد روى البخاري حديـث هذه الصورة التي تحمـل الوعد والـوعيد ، في عدد مـن المواطن مـن كتابه « الجامـع الصحيح» وجاءت إحدى تلك الروايات في كتاب المظالم «باب قول الله تعالى : ﴿**ألا لعنة الله على الظالمين**﴾». إذ قال رحمه الله: حـدثنا مـوسى بن اسماعيـل قال: حـدثنا همّام قال: حدثني قتادة عن صفوان بن مُحرزٍ المازنيّ قال : « بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما ، آخذٌ بيده إذ عـرض رجل فقال: كيف سمعـت رسول الله ﷺ في النجوى ؟ فقـال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول : إن الله يُدني المؤمن ، فيضـعُ عليه كنفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي ربّ.

حتى إذا قرره بـذنوبه ، ورأى في نفسه أنـه هلك ، قال : سترتها عليك في الـدنيا ، وأنا أغفرها لـك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافـرون والمنافقون : فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » .

والنجوى في الأصـل: السِرّ والمراد بها هنا ـ كما يقـول ابن الأثير ـ منـاجاة الله تعـالى للعبد يـوم القيامـة ، وسياق الحديـث يدل عليـه . وكنف الله تعـالى : ستره ورحمته ولطفه .

وللبخاري في رواية أخرى من طريق صفوان أيضاً « بينا ابـن عمر يطوف إذ عرض رجل فقال : ياأبـاعبدالرحمن ـ أو قال يا ابن عمر ــ هل سمعت النبي ﷺ يقول في النجوى ؟ فقال : سمعت النبي ﷺ يقول: « يُدنى المؤمن من ربه ـ وقال هشام : يـدنو المؤمن ــ حتى يضع عليه كنفـه فيقرره بذنـوبه : تعرف ذنـب كذا؟ يقول: أعرف ، يقول: ربّ أعرف (مرتين) فيقـول : سترتُها في الدنيا ، وأغفرها لك اليوم، ثم تطوى صحيفة حسناته . وأما الآخرون ـ أو الكفار ـ : فينادى على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ».

هكذا تجد أن الإيمان الصـادق ، مع التذكر عنـدما يمسُّ المؤمنَ طـائف من الشيطان ، والاعترافَ بالذنـب بين يدي الله عز وجل ، كل أولئك يكـون ـ بفضل الله ـ بـريد أن يوضـع هذا المؤمن ــ في تلك السـاعات العصيبات ــ في كنف الله، يقرِّبـه ويغفر لـه ويرحمه . أما الكفـار والمنافقون : فيجـزون بما كسبوا مـن الكفر، والعناد وظلم النفـس ، والعباد، أن ينادى بهم على رؤوس الأشهـاد : هـؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ، ويساقون إلى جهنم وبئس المهاد .

وتزداد الصـورة وضوحـاً يدعو إلى المزيـد من العظـة والاعتبار ، بما نـرى من رواية مسلم ، حيث روى بسنده عن صفوان بن محرز قال : قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ؟ قال: سمعته يقول: « يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربـه عزوجل، حتي يضع عليه كنفه ، فيقرره بـذنوبه ، فيقول : هل

تعـرف؟ فيقول :أي رب أعـرف ، قـال : فإني قـد سترتها عليـك في الدنيـا ، وإني أغفرها لك اليوم ، فيعطى صحيفة حسنـاته . وأما الكفار والمنافقون : فينادى بهم على رؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كذبوا على الله» .

اللهم ثبتنا على الإيمان ، واسلك بنا طريق البررة الصادقين واحفظنا من شر الوقوع في حمأة المنافقين الكاذبين ، الذيـن يفتضح أمرهم على رؤوس الخلائق يوم الدين .

البطاقة المنجية

كلما أطال المؤمن الاصطحابَ المتبِّصر لحديث النبـي عليه الصلاة والسلام ، أكرمـه الله بالمزيد من المعـرفة التي تنير السبيل ، وتعين على تجاوز الصعـاب التي تعترض العمل الأخـروي ؛ من داخـل النفس ، أو من خـارجها. أقـول هذا ، على طريـق المتابعة لصـور أخر ، من مخاطبـة العبد ربه في سـاعات المساءلـة ، المترعة بالخوف والترقب . وذلك في اليوم الذي ترى الناس ، وقد أحاطت بهم شدة الهول من كل مكان ، فلكل امرىءٍ منهم يومئذ شأن يغنيه .

وفي ظل هذه الحقيقة ، نقف عند حديث ـ مرّ بنا نحوه في مناسبة أخرى ، من قبل ـ ينقل إلينـا ضحك النبي ﷺ من مخاطبة العبد ربّه ، وما يـؤول إليه الأمر من الختم على فيـه ، ونطق أركانـه التي أمرت بالنطـق بالشهادة عليـه ، ولا ينفعه أن يدعوَ عليهن بقوله : بعداً لكن وسُحقاً ، ذلكم ما روى مسلم بسنده عن الشعبى عن أنس بن مالك قال : كنا عنـد رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قـال: قلنا : الله ورسـوله أعلم ، قـال : من مخاطبـة العبد ربـه ، يقول: يارب ألم تُجرني مـن الظلم ؟ قـال : يقول : بلى ، قـال : فيقول: فـإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني قـال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيـداً ، وبالكرام الكاتبين شهـوداً ! قال : فيختم على فيه ، فيقـال لأركانه : انطقي ، قـال : فتنطق بأعمالـه ، قال : ثـم يخليَّ بينه وبين الكـلام ، قال : فيقـول : بُعداً لكـن وسُحقاً ، فعنكن كنت أناضل »..

معنى أناضل : أجادل وأخاصم.

هكذا أعذر الـرجل من نفسه ، حيـث أزال الله عذره من قبل نفسـه، بكثرة ذنوبـه وشهادة أعضائه عليـه بحيث لم يبق لـه عذر يستنـد إليه ، وكانـت شهادة

أعضائه استجابة لطلبه ، أن لا يظُلم عندما قال : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، وتلك المخاطبة، التي خاطب بها ذلك العبد المثقل بالأوزار وعماية القلب ربه ؛ هي التي أضحكت رسول الله ﷺ ، وفي ذلك تنبيه أي تنبيه، على عدم الوقوع في شرك الغفلة التي تنسي العبدَ خالقَه العليم الخبير وتنتهي به إلى ما انتهى إليه حال ذلك العبد ، الذي لقي الله على حال ، أودت به إلى شر عاقبة وأسوأ مصير .

وياللّه ما أعظم نعمة الإيمان ، وما أكرم المؤمن الصادق ـ الذي أضاء نورُ الشهادتين قلبَه ـ على الله ، وما أحسن أن يقرَّ المؤمن بذنبه ، ويؤوب بالتوبة إلى مولاه .

ولننظر إلى أثر ذلك ، وما يؤول إليه مصير هذا العبد من عباد الله ؛ حيث المساءلة بين يدي ربنا الرحيم الرحمن ؛ فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : **قال رسول الله ﷺ : « إن الله سيخلّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر له تسعة وتسعين سجلاً ، كلُّ سجلٍ مثلُ مدِّ البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلَمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفَلَكَ عُذْرٌ ؟ فيقول : لا ياربِّ ، فيقول الله تعالى : بلى إن لك عندنا حسنةً، فإنه لا ظلم اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقول : احضُر وزنَك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة؛ فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ؛ ولا يثقل مع اسم الله شيء »** .
أخرجه الترمذي بإسناد صحيح في كتاب الإيمان من الجامع ـ سنن الترمذي ـ باب «ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله» . واللفظ له وأخرجه أيضاً ابن ماجة ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، والبيهقي ، وغيرهم .

وفي رواية ابن ماجة شيء من التفصيل ، يزيد من وضوح هذه الصورة

المباركة، التـي تتجلى فيها رحمة الخالق جلّ شـأنه بعباده المؤمنين ، وتتعاظـم زنة الكلمة الطيبة لا إلـه إلا الله محمد رسول الله . قال رحمه الله : حدثنـا محمد بن يحي قال حدثنا ابن أبي مريم قال : حدثنا الليث قال : حدثني عامر بن يحيى عن أبي عبدالرحمن الحُبُليّ قال: سمعت عبدالله عمروٍ يقول : قال رسول الله ﷺ : «يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مدَّ البصر ، ثم يقول الله عز وجل : هل تنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا ياربِّ ، فيقـول : أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ ثـم يقول : ألك عن ذلـك حسنة ؟ فيُهاب الـرجل ، فيقول : لا ، فيقـول : بلى إن لك عنـدنا حسناتٍ ، وإنـه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال : فيقـول : ياربِّ ما هذه البطاقة مع هـذه السجلات ؟ فيقول: إنك لا تُظلـم، فتوضـع السجلات في كفـة ، والبطاقـة في كفة ، فطـاشت السجـلات وثقلت البطاقة» ...

معنى يُهاب : يـوقع في هيبة . طـاشت: ارتفعت لخفتهـا . والبطاقة : الـرقعة الصغيرة . والسجل : الكتاب الذي كتبت فيـه الأعمال ، يقال : سجّل القاضي: قضى وحكم ، وأثبت حكمه في السجل .

هـذا : ومما تجدر الإشـارة إليه، أن الغفلـة عما جاء في الكتـاب العزيـز ، وفي هدي النبي عليـه الصلاة والسلام ، في شأن الارتباط التام بين العمـل في الدنيا ، والمسؤولية بين يـدي المولى عز وجل في الآخرة : مرض عضـال يعـاني منه كثير من المسلمين الذين أصبحوا يفكرون بعقول، كأنها عقول من لا يؤمنون بيوم الحساب، ويقيسون الأمور بالمقـاييس الماديَّة ، والمنافع العاجلـة، التي لا تقيم كبير وزن ، لما جاء مـن نصوص كثيرة واضحة الدلالـة في الكتاب والسنة ، حول هـذا الموضوع الجلل ، وأنى لهم العذر ، وقد كـان رسول الله ﷺ حريصاً الحرص كله ، على أن يبين للأمة ما يسلـك بها سبيل النجاة ، يوم توضع الموازين القسـط ليوم القيامة ، وتستعلن الحقيقة التي يحملها قول الله تعالى : ﴿فمن يعمل مثقـال ذرة خيراً يره.

ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ !! فعن عائشة رضي الله عنها قالت : «جاء رجل فقعد بين يدي رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني ، وأشتمهم وأضربهم ؛ فكيف أنا منهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : إذا كان يوم القيامة ، يحسُب ما خانوك وعصَوك وكذبوك وعقابَك إياهم، فإن كان عقابك إياهم وبقدر ذنوبهم ، كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم ، دون ذنوبهم ، كان فضلاً لك ، وإن كان عقابك إياهم ، فوق ذنوبهم ، اقتُصَّ لهم منك الفضلُ ، فتنحّى الرجل وجعل يهتف ويبكي ، فقال له رسول الله ﷺ : أما تقرأ قول الله تعالى : **﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾** فقال الرجل : يارسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرارٌ كلهم ». أخرجه الترمذي وهو حديث حسن . وقال أبوعيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن غزوان ،وقد روى أحمد بن حنبل عن عبدالرحمن بن غزوان هذا الحديث . وأخرج الحديث أيضاً ابن جرير الطبري في « تهذيبه » والبيهقي .

وصلاة الله وسلامه على من أدى الأمانة ، فأحسن الأداء ، وبلّغ الرسالة، فأحسن البلاغ ، وعلى آله الطيبين الأطهار ، وصحابته البررة الأخيار ، وكل من أحسن التأسيَ والاتباع ، ورزق سلامةَ الفهم والانتفاع .

فيُمضى إلى النار!!

ما أشدَّ ما تحمل ساعات الهول يوم القيامة، من حصاد هو قاصمة الظهر، والطريقُ إلى سواء الجحيم ، إنه حصاد ما عمل أولئك الذين لم يقدِّموا خيراً ، وكانوا لا يرجون لله وقاراً ، ولا يرفعون بكلمة الهداية رأساً ، اجتالتهم الشياطين ، وركبهم الهوى ، ودرجوا على أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴿ **ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحَلُّوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾ .

وهذا الذي نتحدث عنه ، من تلك العاقبة وسوء المصير ، كان مما نبّه عليه نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ـ وهو يبين عن الله ما جاء في شأن القيامة وأهوالها ـ فهذا إنسان يقفه الله بين يديه ، ويذكّره نعمَه عليه ، ويدّعي هو ويدّعي ، وفي خاتمة المطاف ، يُمضى به إلى النار ، لأنه خالي الوفاض من الخير ، فليس لديه أثارة من طاعة ، أو مخافةٍ لله ، تكون مفتاح نجاته من عذاب السعير .

جاء في كتاب القيامة من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ قوله رحمه الله : حدثنا سعيد بن نصر قال : أخبرنا ابن المبارك قال : أخبرنا اسماعيل بن مسلم عن الحسن ، وقتادةُ عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «يُجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَجٌ ، فيوقف بين يدي الله ، فيقول الله له : أعطيتك وخَوَّلتُكَ وأنعمت عليك ، فماذا صنعت؟ (فيقول : يارب جمعتُه وثَمَّرْتُه ، فتركته أكثر ما كان، فارجعني آتِك به ، فيقول له : أرني ما قدمت فيقول : يارب جَمَعتُه وثَمَّرْتُهُ ، فتركته أكثر ما كان ، فارجعني آتِك به) فإذا عبدٌ لم يقدم خيراً ، فيُمضى به إلى النار » وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

البَذَج : ولد الضأن ـ كما مرَّ من قبل ـ وجمعه: بِذجان بالكسر . وقال ابن

الأثير في «جامع الأصول»: البَذَج : كلمة فارسية تكلمت بها العرب وهو أضعف ما يكون من الحُملان . قال أبوعيسى : وقد روى هذا الحديث غير واحد عن الحسن قولَه ، ولم يُسندوه ، وإسماعيل بن مسلم يضعَّف في الحديث من قبل حفظه ، وفي ا لباب عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري . ولكن هذا الحديث يشهد له ما كنا أوردنا من قبل وهو ما أخرج الترمذي بسنده أيضاً عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخّرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع؛ أفكنت تظن أنك ملاقي يومِك هذا ؟ قال : فيقول : لا ، فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتني » قال أبوعيسى : هذا حديث صحيح غريب.

ومعنى قوله : «اليوم أنساك» يقول : اليوم أتركك في العذاب ، هكذا فسَّروه. قال أبوعيسى : وقد فسَّر بعض أهل العلم هذه الآية ﴿ فاليوم ننساهم﴾ قالوا : إنما معناه : اليوم نتركهم في العذاب . ومعنى «ترأس» : يكون رئيس القوم ، و «تربَع»: تأخذ ربُع الغنيمة كما كان في الجاهلية ، والمعنى : ألم أجعلك رئيساً مطاعاً !

هذه الصورة المهولة ، التي يشهد الخلائق من خلالها ، عاقبة أولئك الذين نضَبت نفوسهم من الخير ، واستحبُّوا العمى على الهدى ، وتبعث في نفس العاقل ما تبعث من المخافة ، والرهبة من سوء المصير ... هذه الصورة ، تقابلها صورة أخرى في مشاهد يوم الدين ـ وما أكثر مشاهد الخوف والرجاء يومذاك التي تحمل في طياتها آثار رحمة الله بعباده الذين ما زال في أعماقهم بقية باقية من ندى الخير والإعتراف بالذنب والتسليم لما يقضي به الله رب العا لمين ـ وليست بعيدةً وقفتُنا مع ما روى الترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي وغيرهم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ؛ من حديث ذلك الرجل من أمة محمد ﷺ ، الذي يخلِّصه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فبعد أن يُنْشَرَ له

تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مثل مد البصر ، فلا ينكر منها شيئاً ، ويعترف بأن الكتبة الحافظين لم يظلموه ، يقول الله له : بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم اليوم ، فتُخرج بطاقة فيها ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول : أحضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تُظلم ، فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفه ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شيء .

وإذا كانت النفحة المباركة تذكر بأختها : فهذه صورة أخرى، يبدّل الله فيها سيئات واحد من عباده ، حسناتٍ . أخرج مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها . رجل يؤتى به يوم القيامة . فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها ، فيعرض عليه صغارها ، فيقال له : عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر ـ وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال ـ له : فإن لك مكانَ كلِ سيئة حسنة . فيقول : رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا ، قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح.

أما بعد : فهذا بيان النبي عليه الصلاة والسلام الذي ترك الأمة على بيضاء نقيةٍ ليلُها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فطوبى لمن انتفع بهذا الهدي الكريم، وعمل لما بعد الموت ، وكانت «مشاهد القيامة» من سلوكه في هذه الدار ، بحسبان .

لعل من الإنصاف للحقيقة ، وحسـن تقدير عمل العاملين : أن نشير إلى أن ساعات الهول، وشديدَ الخوف يوم الفزع الأكبر، وما تحمل مشاهد ذلك اليوم ، من صور تنخلع لها القلوب ، كـل أولئك كان ملء سمع السلف الصـالح وبصرهم؛ يذكرونه على أحوالهم كلها ، فيأخذهم ذلك إلى ساحة العمل، والاجتهاد في تقوى الله والعمل المبرور ، وشدِّ الأيدي على هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، فيما أخبر به عن الداء والـدواء ؛ ذلك بأنه ﷺ ـ كما أشرت غير مرة ـ لم يدع أن يبين لأمته ، مـا فيه الخير والسعـادة في الدنيـا والآخـرة، حين كشف القنـاع، عما سيكون يـوم الحساب، وعـن الطرائق التـي تجنِّب ـ إذا سلكـت ـ ويـلات ما ينتظـر الغافلين المعرضين ، لما أن هذا السلوك مجلبة ـ إن شاء الله ـ لفيض رحمته سبحانه وتعالى ، ولطفه بعبده التوّاب المنيب إليه .

من ذلك ما جـاء عنه ﷺ ، من توجيه إلى ملء ما قدّر الله من الحقبة الزمنية ـ التي هي عمر الإنسان ـ بالصالح من العمل ، ومحاولة حفظها من سيء العمل، وبيان أن الخيريَّة في الأولى ، وأن نقيضها في الثانية ؛والعاقل من ذُكِّر فتذكَّر .

وعلى هذا : يكون طول عمر المرء ـ مصحوباً بالتقوى وصالح العمل ـ سبيل النجاة بـإذنه تعالى . والعكـس بالعكـس . نجد هذا فيما أخـرج الترمذي وغيره ـ واللفظ للترمـذي ـ عـن عبدالله بـن بسر «أن أعرابيـاً قال : يـارسول الله مـن خيرُ الناس؟ قال : من طال عُمره وحسُن عمله » قـال أبوعيسى : هذا حديث حسن غريب من هـذا الوجه . وفي الباب عن أبي هريرة وجـابر رضي الله عنهما . وله من رواية أخـرى عن أبي بكر عن أبيـه « أن رجلاً قال : يارسـول الله أيُّ الناس خير ؟ قال : من طال عُمُره وحسُن عمله ، قال : فأيُّ الناس شرٌّ ؟ قال : من طال عمره

وساء عمله » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح .

إنه المعيار الدقيق الذي يبدو ـ وهو من نور النبوة ـ على نسب صحيح من بيان قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ والطريق التي لا طريق غيرها ـ بفضل الله وعونه ـ إلى النجاة يوم الحساب ، يوم ترى الناس سكارى ـ حيارى ـ من شدة الهول وعظم الترقب والتساؤل ، عما يكون المصير ، وما هم بسكارى ـ ما شربوا المسكر الذي يذهب بالعقل ـ ﴿**ولكن عذاب الله شديد**﴾ أجل ... ولكن عذاب الله شديد ، والعاقل كل العاقل من تبصر وتفكر وعمل في العاجلة على أن يتزوّد بخير الزاد للآجلة .

وما من ريب أيضاً ، في أن معيار الخيرية وما يقابلها ،وكون ذلك منوطاً بطول العمر مع حسن العمل ـ من هنا ـ وبطول العمر وسوء العمل ـ من هناك ـ .. ما من ريب في أن هذا ، على صادق النسب إلى بيانه ﷺ ، لما جاء من هدي كتاب الله العزيز على هذه الساحة ـ وما أكثر ذلك وأوفره ـ من مثل قول الله الرحيم الرحمن في سورة آل عمران ، بدءاً من الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة: ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين**﴾.

وأنت واجد في هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، منهجاً لا يرتفع إلى دقته وسموِّه إلا نبي يوحى إليه ، وهو منهج قوامه ـ على صعيد التذكير بالمسؤولية يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ ربط واقع الإنسان المحدودِ وجودُه على هذا الكوكب ـ وهو يُمضي ما كتب له في دار الفناء من زمن يطول أو يقصر ـ بما سيكون يوم

الدين ، يوم تستعلـن الحقيقة التي يغفل عنها الكثير من النـاس في الدنيا ، أولئك الـذيـن أسلمـوا لغير الله وجـوههـم، وخضعـت تصرفـاتهم للشيطـان ، والهوى والشهوات ، بدل أن تعنـوَ للحي القيوم الذي بيـده ملكوت السماوات والأرض ـ تلـك الحقيقةُ ، هـي ما دل عليـه بيقين قـول الله تبارك وتعـالى : ﴿ **وقفوهـم إنهم مسؤولون** ﴾ من المسؤولية الفردية : فكل فرد مسؤول بين يدي رب العالمين. يؤكد ذلك قوله سبحانه : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ .

أخرج البخـاري في كتاب الأحكـام « باب مـن شاقَّ شـاقَّ الله عليه » مـن الجامع الصحيـح من طريـق أبي تميمة الهُجَيْمِيِّ قـال : شهدت صفوان ،وجُنـدَباً وأصحابه ، وهـو يوصيهم ، فقالـوا : هل سمعت من رسـول الله ﷺ شيئاً ؟ قال: سمعته يقول: من سمَّعَ سمَّعَ الله به يوم القيامة ، قال : ومن شاقَّ شقَّ ـ أو شاقَّ ـ الله عليه يـوم القيامة ، قـالوا: أوصنا ، فقال : إن أول مـا ينتن من الإنسـان بطنُه ، فمن استطـاع أن لا يأكـل إلا طيباً فليفعـل ، ومن استطـاع أن لا يُحال بينه وبين الجنة، بملءِ كفٍ من دم أهراقَه فليفعل» .

صفـوان : تابعـي ثقة مشهـود من أهـل البصرة . وجُنْدَب : هـو ابن عبـدالله البَجَلي الصحـابي المشهـور ، وكـان مـن أهـل الكـوفـة ، ثـم تحول إلى البصرة . وأصحابه: أي أصحاب صفوان .

أرأيـت إلى هذا الارتبـاط !! مـن سمّع هنـا في الدنيـا ، سمّـع الله به في يـوم القيامة، ومن شاق هنا في الدنيا ، شق الله عليه أو شاق الله عليه يوم القيامة. سمّع فلان بفلان : إذا فضحه وأظهر عيباً كان يستره ، ومن فعل ذلك بالناس ، فإن الله يفعل به مثلَه ؛ بأن يهتكه ويكشف عيوبه للناس في الدنيا والآخرة .

قالوا : ويجوز أن يراد بالتسميع، الرياء ؛ فالله يعاقب المرائي من جنس عمله، فيظهر الى الناس ، أن غرضـه طلب الرياء وأن عمله لم يكن خـالصاً . ومن أدخل

المشقة على المؤمنين، فظلمهم وآذاهم ، أو شاقّهم بالمخالفة ومفارقة الجماعة ، فإن الله يعاقبه على ذلك يوم القيامة ، كما في حديث عائشة الذي رواه مسلم من قوله ﷺ : « اللهم من وليَ من أمر أمتي شيئاً ، فشقَّ عليهم ، فاشقُق عليه ».

وفي آخر الحديث الأسبق : وعيد شديد على قتل المسلم بغير حق ، يوضحه ما روى الطبراني عن جندَب قوله : « تعلمون أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحولنَّ بين أحدكم وبين الجنة ـ وهو يراها ـ ملءُ كف دم من مسلم أهراقه بغير حلِّه ».

أهْراقه : أراقه ؛ لأن الهاء في هَرَاقَ بدلٌ من همزة أراق .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واشرح صدورنا للعمل الذي يسلك بنا سبيل النجاة والفوز المبين يوم الهول الأكبر، إنك وليُّ ذلك والقادر عليه .

وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير ، الذي عمل على أن تصلح عاجلة العباد ، بما نبه عليه ، مما يكون في الآجلة من المساءلة والحساب . وعلى آله وصحابته ومن استمسك بسنته إلى يوم الدين .

الظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة

كان فيما رأينا من هدي النبي ﷺ ، على ساحة الكشف عما يكون يوم القيامة، وما يلقى الناس من شدائد ـ وقد استبانت بلا لبس حقيقة ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ ـ أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان على المنهج الأقوم في بيانه للأمة ، عندما أوضح العلاقة بين حركة الحياة في سلوك المسلم ، وبين السؤال عن كل صغيرة وكبيرة يوم القيامة ، وفي ذلك ما فيه ، من بناء البواعث الذاتية ، على العمل الصالح ، والاستقامة على طاعة الله وتقواه ، في السر والعلن ، كائناً ما كان الثغر الذي أقام الله عليه المسلم في هذه الدار الفانية ، التي هي معبر للدار الباقية. وطوبى لمن كان على ذُكر من هذه الحقيقة أبداً ، فلم يخضع لوساوس الغفلة ، ولا نسي الخالق الذي يعلم السر وأخفى ، ولا يوم الحساب . ونصوص الهدي النبوي التي سعدنا بالرحلة معها من قريب، ليست للحصر ، بل تأخذ بأيدينا ، إلى نماذج مضيئة أخرى ، تزيد الأمر وضوحاً ، وتعين في تثبيت المستقيم على الطاعة، وإيقاظ الغافل ، أن لو كان حريصاً على التذكر وانتهاج سبيل المبصرين : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ .

ها نحن أولاء أمام مشكلة كبرى ــ هي مشكلة الظلم ــ يطالعنا التوجيه المحمدي بالكشف عن واقع الصلة بينها ، وبين العقوبة المعدّة للظالم في الآخرة ، فيُرهِّب من الظلم ، ويبين بكثير من الوضوح والجلاء ، أنه ظلمات يوم القيامة . ولست بحاجةٍ إلى التنبيه على ما تعنيه كلمة «الظلمات » في ذلك اليوم العصيب ، ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ ولكن لا نور للمنافقين والظالمين والكافرين . ولندع للذهن أن يذهب كل مذهب في تفسير هذا العنوان وهو الظلمات لهؤلاء ، بينما نور البررة الأخيار يسعى بين أيديهم

وبأيمانهم. أخرج مسلم عن جابر بن عبدالله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » وأخرج البخاري ومسلم والترمذي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «الظلم ظلمات يوم القيامة » وكلام الرسول ﷺ هذا كلام المبلغ عن الله عز وجل، وطاعته ﷺ من طاعة الله ، « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وامتحان المسلم في مقدار الامتثال والتنبه، كائن أبداً في العمل بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام، فليس لمؤمن ولا مؤمنة خيرة فيما جاء عن الله ورسوله، أن يقول واحد منهم: أفعل أولا أفعل .. فمقتضى الإيمان : أن يمتثل المسلمون والمسلمات لما قضى الله ورسوله من الأمر ؛ ومما يناقض دعوى الإيمان: عدم الامتثال والاستسلام . قال الله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً** ﴾. ثم ماذا يفعل الغافلون والظالمون ، وهم على دعوى الإيمان مقيمون ؟ **يقول الله تبارك وتعالى : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلِّموا تسليماً** ﴾ . من أجل هذا كان أهل البصيرة أحرص ما يكونون على صالح العمل ، وأن تستنير صحائفهم بالتقوى ومجانبة الظلم يوم تعرض الأعمال على الله تبارك وتعالى ، ويثير المخاوف في نفوسهم أيُّ خسران يلحق بهم ، على ساحة العمل الأخروى .

من أمثلة ذلك ـ والأمثلة تكاد تعز على الحصر ـ ما يرى الناظر من خبر أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، وخوفِها من أن يكون الآخرون سبقوها بالهجرة حقاً ، وأنهم أحق برسول الله ﷺ ، ثم فرحِها وفرحِ كل الذين هاجروا من اليمن، وألقتهم السفينة في الحبشة ، وعادوا مع جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، حيث وافَوْا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر ، فأسهم لهم . روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « بلغَنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا

مهاجرين إليه ، أنا وأخوان لي ، أنا أصغرهم ، أحدهما أبو بردة ، والآخر : أبورُهـم ـإما قال: في بضعة و إما قال: في ثلاثة وخمسين،أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي ـ قال : فركبنا سفينـة ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فـوافقنا جعفر بن أبي طالـب وأصحابـه عنده ، فقـال جعفر : إن رسـول الله ﷺ بعثنا هـا هنا ، وأمـرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، قال : فأقمنا معـه حتى قدمنا جميعاً . قال : فوافينا رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر ، فـأسهم لنا ــ أو قال : فأعطـانا منهـا ـ وما قسـم لأحد غـاب عن فتـح خيبر منها شيئـاً ، إلا لمن شهـد معه ، إلا لأصحـاب سفينتنا مـع جعفر وأصحابه ، قسم لهم معهم ، قال : فكان ناس من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ : سبقناكم بالهجرة ، قال : فدخلت أسماء بنت عميس ـ وهي ممن قدم معنـا ـ على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة ، وقـد كانت هاجـرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه، فدخل عمـر على حفصة ، وأسماء عندها ، فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت: أسماء بنت عميس ، فقال عمر : آلحبشية هذه؟ آلبحرية هذه ؟ فقالت أسماء : نعم ، فقال عمر : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم ، فغضبت ، وقـالت كلمة : يا عمر ، كلا والله ، كنتـم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا في دار ـ أو في أرض ـ البُعداء البُغضاء في الحبشة ، وذلك في الله وفي رسوله ، وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً ، حتى أذكر ما قلت لرسول الله ، ونحن كنا نؤذى ونخاف ، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله ، ووالله لا أكذب ولا أزيغ ، ولا أزيد على ذلك ، قال : فلما جاء النبي ﷺ قالت : يـانبي الله ، إن عمر قال كـذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ : ليـس بأحق بي منكم ، وله لأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم ـ أهل السفينة ـ هجرتان .

قالت : فلقـد رأيت أبا موسى وأصحـاب السفينة يأتونني أرسـالاً ، يسألوني عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم رسول الله ﷺ .

قال أبـو بردة : فقـالت لي أسماء : فلقد رأيـت أبا موسـى و إنه ليستعيـد هذا الحديث مني » .

وفي كلام موصول بقوله ﷺ : «الظلم ظلمات يوم القيامة» ظلماته : مخازٍ وفضائح على رؤوس الأشهاد ، وسَوْقٌ إلى جهنم وبئس المهاد.. أين هذا الذي نرى في حديث أسماءَ بنتِ عُميس رضي الله عنها ، من عدل النبي ﷺ ، حين أعطى لكل ذي حق حقَّه في شأن الهجرة ، ومن امتثال عمر ، ورغبة أسماءَ في أن لا تُحرَمَ شيئاً من ثواب الهجرة ومالها من ضياءٍ في تاريخ الإسلام!!.. أين هذا ، من سلوكِ ظالمٍ يُعقِبُ ظلمات الخزي ، والندامةِ يوم القيامة!! وليس بنافع الظالمين اعتذارهم القميءُ عما أجرموا في الدنيا ، وتعسَّفوا في استعمال الحق عندما كانوا من ذوي السلطان، ولاهم يُرجَعون إلى الدنيا، ليعملوا غير الذي عملوا هناك من قباحات ـ كما يزعمون ـ!! ذلك قوله جلَّ ثناؤه في سورة الروم : ﴿ **فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتُهم ولاهم يُسْتَعْتَبون** ﴾.

ولقد كان من فقه الإمام البخاري يرحمه الله ، ما يُرى في عدد من تراجم أبواب (كتاب المظالم) في الجامع الصحيح عنده ، من توثيق العلاقة ، بين ظلم الظالم في الدنيا ، وعقابة الصارم ـ على ساحة المسؤولية ـ يوم الحساب ، وما تكون عليه حاله المهينة والناس قيام ينظرون ؛ فتحت قوله : (كتاب المظالم) جاء قوله : «في المظالم والغصب وقولِ الله تعالى : ﴿**ولا تحسبنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون ، إنَّما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعي رؤوسهم**﴾ : رافعي رؤوسهم . المُقنِعُ والمقمِحُ واحد »

المهطع : الذي ينظر في ذِلةٍ وخشوع لا يقطع بصره ، ومقنعي رؤوسهم : رافعيها ليعودوا فيطأطئوها.. وهكذا.

ونقرأ تحت «باب قصاص المظالم» « قال مجاهد : «مهطعين » مُديمي النظر. وقال غيره : مسرعين لا يرتدُّ إليهم طرفهم. ﴿وأفئدتهم هواء﴾ يعني جُوفاً لاعقول لهم. ﴿**وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجبْ دعوتك ونتبع الرسل، أولم تكونوا أقسمتم من قبلُ مالكم من زوال.**

وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ » .

وياويح الظالمين الذين يهون عليهم أن يُلغوا ـ بتصرفهم ـ إنسانية الإنسان ، وحقوقه، وما كرّمه به ، غافلين أو متغافلين عن حقيقة أن « الظلم ظلمات يوم القيامة» وأن « دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب» ؛ فإذا غفلوا هم وزبانيتهم ، فإن الله ــ الذي حرَّم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً ـ لا يغفل سبحانه. وما أكثر النصوص في ذلك!! جاء في حديث أخرجه أحمد من رواية عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : «الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة .. كان منها في قوله ﷺ : «وأما الديوان الذي لايترك الله منه شيئاً : فظُلْمُ العباد بعضهم بعضاً ؛ القصاص لا محالة » [المسند: ٦/ ٢٤٠].

اللهم انصر عبادك المستضعفين ، وأهلك أعداءك الظالمين الجاحدين ، أنت الناصر وأنت المعين ، ولاحول ولا قوة إلا بك ياذا الجلال والإكرام .

الشفاعة العظمى

عندما تذكر الأمور العظام، التي تزخر بها مشاهد القيامة ـ حيث الشدَّة الشاأَدةُ تضرب بجرانها على الخلائق ـ ما بدٌّ من أن يذكر معها، ما أعطى الله نبينا محمداً ﷺ من الخصائص ـ ومنها الشفاعة العظمى ـ في شأن القضاء بين العباد، وإراحتهم من هول الموقف، وشدائده المذهلة، حيث يجد الناس أجمعون، أنهم بأمس الحاجة إليه ﷺ، ليخرجهم من المأزق المطبق عليهم بأثقاله ومصاعبه، ولا يجدون بعد رحلة طويلة، طلباً للخلاص ولو إلى الجحيم ... لا يجدون غيره صلوات الله وسلامه عليه، شافعاً بين الأنبياء والرسل عليهم السلام، يحقق لهم عند مالك يوم الدين جل شأنه ما هم متطلعون إليه، من القضاء بين العباد، لينفضوا إلى المساءلة، ومن بعدها إلى ما يكون من المصير هذا إلى جانب ما أعطي صلى الله وسلم وبارك عليه من الشفاعة لأمته، على حسب المنازل، وما يتطلع إليه أولئك الذين تخفق قلوبهم طلباً للنجاة، أو التخفيف من نتائج المساءلة بين يدي رب العالمين.

أخرج الإمام البخاري في كتاب التيمم من الجامع الصحيح بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيُّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة» وفي رواية أخرى له عن جابر رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأيُما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت

الشفاعة» . قال ابن دقيق العيد ـ كما نقل عنه الحافظ ابن حجر ـ: (الأقرب في كلمة الشفاعة ـ هنا ـ أن اللام فيها للعهد ، والمراد الشفاعة العظمى في إراحة الناس من هول الموقف ،ولا خلاف في وقوعها) وكذا جزم النووي وغيره . أما الشفاعة الخاصة بأمته عليه الصلاة والسلام على حسب المنازل ـ وهي مصداق كونه الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ـ فقد جاء النص عليها في عدد وافر من الأحاديث، وفي بعض تلك الأحاديث: أنه صلوات الله وسلامه عليه ، اختبأ دعوته المستجابة شفاعةً لأمته يوم القيامة ، قال الإمام البخاري : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، وأريد أن أختبىء دعوتي شفاعةً لأمتي في الآخرة » وأخرج مسلم بسنده عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، فيستجاب له فيؤتاها ، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة » ورواه مالك في « الموطأ » .

وجاء ما يعطي مزيداً من الوثوق بهذا ، في رواية أخرى عند البخاري ومسلم، وهي أن أباهريرة رضي الله عنه قال لكعب الأحبار : إن نبي الله ﷺ قال: « لكل نبي دعوة يدعوها ، فأنا أريد إن شاء الله أن أختبىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فقال كعب لأبي هريرة : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم».

ونقع في بعض تلك النصوص المباركة، على أن الشفاعة نائلة ـ إن شاء الله ـ من مات من هذه الأمة المحمدية، على التوحيد الخالص ـ فهو لايشرك بالله شيئاً ، ولا يدعو من دونه أحداً ـ الأمر الذي يوجب المزيد من العناية بأمر الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » التي عليها مدار الإسلام وأخذ الحذر من كل ما يجفوها ، أو يسير بالمسلم على خلاف ما تقتضيه ، كي لا يقع في شيء من من الشرك الأصغر ـ وما أكثر الدواعي الشيطانية إليه ـ فضلاً عن الوقوع في الشرك الأكبر ؛ فالذين تهفو قلوبهم إلى شفاعة المصطفى عليه السلام ، ما بدَّ من أن

يدخلوا من هـذا الباب المشرق الوضاء. قال الإمام مسلم : حدثنـا أبوبكر بن أبي شيبة وأبوكريب واللفظ لأبي كريب قالا : حـدثنا أبومعاوية عن الأعمش عن أبي صـالح عـن أبي هريـرة قال : قـال رسول الله ﷺ : «لكـل نبي دعـوة مستجابـة ، فتعّجل كـل نبي دعوته ، وإني اختبـأت دعوتي شفاعـة لأمتي يوم القيامـة ، فهي نائلـة إن شـاء الله ، مـن مات من أمتـي لا يشـرك بالله شيئـاً » وأخرجـه الترمذي بنحوه .

ومما يجد ر ذكره : أن سلامة القاعدة بـالنسبة للمسلم ـ وهي أن يلقى الله وهو لا يشرك به سبحانه شيئاً ـ عنوان خيرية في تلكم الساعات ، التي يكون العبد فيها أحوج ما يكون إلى نفحـة من نفحات الرحمة الربانية ، تـدفعه إلى أن يكون في زمرة الناجين ؛ فمما جـاء في شأن الشفـاعة أيضـاً ، وأنها لأهل الكبـائر من أمتـه عليه الصلاة والسـلام : ما روى أبـوداود في كتاب السنـة من « السنـن » عن أشعـثَ الحُدَّاني عن أنـس بن مالـك رضي الله عنه عن النبـي ﷺ قال : « شفاعتـي لأهل الكبائر من أمتي » قال المنذري : وأخرجه البخاري في « التاريخ الكبير » بالإسناد الذي أخرجه أبوداود . وأخرج الترمذي بسنده عن معمر عن ثابت عن أنس رضي الله عنـه قال : قـال رسـول الله ﷺ : « شفاعتـي لأهل الكبـائر مـن أمتي » قـال أبوعيسى : هـذا حديث حسن صحيح غـريب من هذا الوجـه ، وفي الباب عن جابر . ثم روى بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال : رسول الله ﷺ: « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» قال محمد بن علي : فقال لي جابـر : يامحمد ، ومن لم يكـن من أهل الكبائر ، فما لـه وللشفاعة ؟ قال أبوعيسى : هذا حـديث غريب من هذا الوجه ، يستغـرب من حديث جعفر ابن محمد .

هذا ، وجاء الحديـث برواية أخرى فيهـا التأكيد بـ (إنَّ) ، والنـص على يوم القيامة ؛ فقد أخـرج ابن ماجة بسنده عن جعفـر بن محمد عن أبيه عن جـابر بن عبـدالله رضي الله عنهما قال : سمعـت رسول الله ﷺ يقـول : « إن شفـاعتي يـوم

القيامة لأهل الكبائر من أمتي » .

وإلى أن نلتقي على متابعة ما ورد من تفصيل ما يحدث بين يدي الشفاعة العظمى والشفاعة الخاصة : أود التذكير بدءاً بنفسي ، بحقيقة أن الطريق إلى رحمة الله يوم الحساب ، والتكرمةِ بشفاعة نبينا المصطفى خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام : إخلاصُ الدين لله، وتزكية النفس. لتكون طيِّعة السلوك وفق مقتضيات الإيمان ، ثم صدق توجه العبد لله ـ الذي لا ربَّ غيره ، ولا خير إلا خيره ـ أن يتغمده برحمته ، ويجعله ممن تنالهم شفاعة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

والفضل أولاً وآخراً له سبحانه ، ولكن على المؤمن أن يأخذ بأسباب النجاة من النار والفوز بالجنة ، امتثالاً لأمر الله ورسوله بذلك ، وإنه لأمرٌ من مقتضيات أهلية التكليف ، بعد نعمة الإيمان .

دلالة ما نطقت به صحاح الأحاديث، في شأن ما خُصّ به النبي ﷺ من الشفاعة العظمى ، دلالة سامية عميقة، تعبّر عن جانب مما أكرم الله به نبيه ﷺ من عظيم القدر والشرف ؛ ذلك لأنها شفاعة ، تأخذ طابع العموم لجميع الخلائق المحشورين في الموقف، إلى ربهم يوم الدين ، أن يريحهم الله من أهوال الموقف، ويقضيَ بينهم ؛ فهي شفاعة للقضاء والفصلِ بين العباد كلهم، دونما تمييز . ولك أن تتصور بثاقب ذهنك وفكرك ، أيَّ منجاة يصيرون إليها بعد شفاعته عليه الصلاة والسلام ؛ ولذلك كانت الشفاعةَ العظمى . وقد أكرمه الله ــ والأمة من ورائه ـ بالدعوة المستجابة التي اختبأها شفاعة لأمته في ذلك اليوم يومِ الدين .

والحق أن الشفاعة العظمى ــ وهي من المكارم التي خصه الله بها ــ وكانت عظمى، لما أنها تتعلق بالخلائق عموماً ـ كما سلف ـ لا بالأمة المحمدية على وجه الخصوص ـ هذه الشفاعة ثبت في السنة تفصيل القول فيها ، وفي المقدمات التي تسبقها ، حيث يلجأ العباد إلى عدد من الرسل عليهم الصلاة والسلام، كي يكونوا شفعاءهم عند الله ، من أجل فصل القضاء ، يدفعهم إلى ذلك رغبة الخلاص من ساعات الكرب الشديد المرهق ، والهم المطبق على صدورهم، والضيق الحرجِ الذي لا يجدون منه فكاكاً ، أجل يدفعهم إلى ذلك : رغبة الخلاص من هذا الذي هم فيه ؛ ولكن الرسل يعتذرون ، وتظل رغبة الفصل في القضاء بين الخلائق قائمة، ويستجيب رسول الله ﷺ ، فيشفع ويشفَّع و يتحقق ـ بإكرام الله ـ المطلب العام الجلل . وما رأيناه من قبل في هذا الشأن قليل من كثير .
وقال البخاري : حدثنا سليمان بن حرب قال : حدثنا حماد بن زيد قال : حدثنا معبد بن هلال العَنَزِيُّ قال : اجتمعنا ناسٌ من أهل البصرة ، فذهبنا إلى أنس بن مالك ، وذهبنا معنا بثابت البُناني إليه يسأله عن حديث الشفاعة ، فإذا هو في

قصره ، فوافقناه يصلي الضحى ، فاستأذنّا فأذن لنا ــ وهو قاعد على فراشه ـ فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أدلَّ من حديث الشفاعة ، فقال : يا أباحمزة هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاؤوك يسألون عن حديث الشفاعة فقال : حدثنا محمد ﷺ : إذا كان يوم القيامة ماج الناس في بعض ، فيأتون آدم فيقولون : اشفع لنا إلى ربك فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم ، فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله ، فيأتون موسى ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى ، فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى ، فيقول: لست لها ، ولكن عليكم بمحمد ﷺ ، فيأتونني فأقول : أنا لها، فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، وأخرُّ له ساجداً ، فيقال : يامحمد ارفع رأسك ، وقل يُسمعْ لك ، وسل تُعْطَ ، واشفع تُشفّعْ ، فأقول : يارب أمتي أمتي ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان ؛ فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخرُّ له ساجداً ، فيقال : يامحمد ارفع رأسك ، وقل يُسمعْ لك ، وسل تُعْطَ ، واشفع تُشفَّع ، فأقول : يارب أمتي ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخرُّ ساجداً ، فيقال: يامحمد ارفع رأسك ، وقل يُسمع لك ، وسل تُعْطَ واشفع تُشفَّع ، فأقول : يارب أمتي أمتي ، فيقول : انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق، فأفعل ».

يقول راوي الحديث عن أنس: فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا : لو مررنا بالحسن ، وهو متوارٍ في منزل أبي خليفة ، فحدثنا بما حدثَنا أنس بن مالك، فأتيناه فسلمنا عليه ، فأذن لنا ، فقلنا له : ياأباسعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك ، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة ، فقال : هيه، فحدثناه بالحديث ، فانتهى إلى هذا الموضع فقال: هيه ، فقلنا: لم يزد على هذا ، فقال: لقد حدثني وهو جميع منذ عشرين سنة، فلا أدري أنسي، أم كره أن

تتكلوا ، فقلنا ياأباسعيد ، فحدثْناه ، فضحك وقال : خُلق الإنسان عجولاً ، ما ذكرته إلا وأنا أريد أحدثكم . حدثني كما حدثكم به ، قال : « ثم أعود الرابعة ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخرُّ له ساجداً ، فيقال : يامحمد ارفع رأسك ، وقل يُسمع ، وسل تُعْطَ ، واشفع تُشفّع ، فأقول : يارب ائذن لي فيمن قال لا إله الله ، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي ، لأخرجنَّ منها من قال: لا إله إلا الله».

وأخرج هذا الحديث أيضاً من روايـة أنس رضي الله عنه مسلم في صحيحه، ولفظه في آخر الرواية قال ـ أي الحسن ـ : قد حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذ جميع ، ولقد ترك شيئاً ما أدري أنسي الشيخ ، أو كره أن يحدثكم فتتكلوا . قلنا له: حدِّثْنا ، فضحك وقال : خُلق الإنسان من عجل ، ما ذكرت لكم هذا ، إلا وأنا أريد أن أحدثكموه . «ثم أرجع إلى ربي في الرابعة ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم أخرُّ له ساجداً فيقال لي : يامحمد ارفع رأسك وقل يُسمع لك، وسل تُعْطَ، واشفع تُشفّع ، فأقول: يارب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله . قال : ليس ذاك لك ـ أو قال : ليس ذاك إليك ـ ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي ، لأخرجن من قال لا إله إلا الله» قال ـ أي معبد بن هلال العنزي راوي الحديث عن أنس ـ فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك ،ـ أُراه قال : قبل عشرين سنة وهو يومئذ جميع ـ .

قوله عز وجل : «وجبريائي» فهو بكسر الجيم: أي عظمتي وسلطاني وقهري. قال الإمام النووي وأما قوله : فأشهد على الحسن أنه حدثنا به .. إلى آخره ، فإنما ذكره تأكيداً ومبالغة في تحقيقه وتقريره في نفس المخاطب ، والإ فقد سبق هذا في أول الكلام والله أعلم .

هذا : والذي عليه المحققون أن ما ذكر من تلكم الشفاعة للأمة ، يكون بعد الشفاعة في فصل القضاء ، وهو ما كان يرجوه العباد، وانتهوا بطلبه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام . ونسأله تعالى أن يكتبنا في زمرة من تنالهم شفاعته ـ صلوات الله وسلامه ـ يوم الحساب .

المقام المحمود.. وفصل القضاء

الناظر في نصوص السنة الواردة في شأن الشفاعة العظمى، يوم الحشر الأكبر، تلك المكرمة التي خُصَّ بها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ـ فيما خصه الله به من المكارم ـ لا يجد عند الإحاطة بداً من اعتقاد أن ذلك ، سوف يكون من المشاهد المؤثرة المبشرة ، التي تفرح نفوس المؤمنين ، وتُدخل المزيد من الطمأنينة إلى قلوبهم ، ويفترض أن يُسرَّ بها كل امرىء ، أوتي قدراً من الإنصاف والعقل السليم ؛ ذلك بأن هذه الخصوصية في حقيقتها : إكرام الخلائق بالفصل في القضاء يوم الدين ـ وقد شفع لهم خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ـ بعد اشتداد الكرب وتفاقم الخطب ، وتمنيهم ـ لشدة ما هم فيه من الهم والحزن ـ الانصراف ولو إلى النار .

ومع الخطوة الأولى ، لتَبَيُّنِ الحجم الذي تأخذه هذه القضية ، كان اصطحاب واحدة من روايات الإمام البخاري ـ من قريب ـ وفيها الإشارة إلى أن الشفاعة العظمى: إحدى عدد من الخصائص التي أُكرم بها النبي عليه الصلاة والسلام، دون رسل الله جميعاً ؛ فكل من سئل الشفاعةَ من الأنبياء ـ بدءاً بآدم وانتهاء بعيسى عليهم الصلاة والسلام ـ صدر منه الاعتذار . وتبلغ الشدة مبلغها في الناس ، ويطبق عليهم الغم القاتل من كل مكان ، فيأتون رسول الله صلى الله وسلم وبارك عليه ، فيقول : أنا لها ، ويكون ما يكون من إكرام الله له ، والاستجابة لشفاعته .

والذي تجدر الإشارة إليه: أن هذه الشفاعة العظمى،عند أكثر العلماء: المقام المحمود الذي جاء التصريح به في القرآن الكريم ، وذلك بقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر

كان مشهوداً. ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ و «عسى» في كتاب الله للتحقق، لا للترجي شأن الأفعال التي على هذه الشاكلة كلِّها . قال الإمام الطبري : (عسى ولعل من الله واجبة). فالمقام المحمود ـ بفضل الله ـ حاصل يومذاك لسيدنا محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .
أخرج الترمذي في كتاب التفسير من الجامع الصحيح « سنن الترمذي » عن داود بن يزيد الزُّغافِري عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : **﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً ﴾** سئل عنها قال : « هي الشفاعة » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن ، وداود الـزُّغافري هو داود الأزدي ابن يزيد بن عبدالله ، وهو عم عبدالله بن إدريس . وأخرجه أحمد في المسند . وقال الإمام البخاري : حدثنا إسماعيل بن أبان قال : حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن علي قال : سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول:« إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً ، كلُّ أمة تتبع نبيها ، يقولون : يافلان اشفع ، حتي تنتهيَ الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود » . وهذا واضح ـ كما ترى ـ في تفسير ابن عمر رضي الله عنهما للشفاعة العظمى بالمقام المحمود ، الذي ورد ذكره في قوله تعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام : **﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾** .

الجُثا : جمع جُثوة ـ بالضم ـ كخطا وخُطوة: الشيء المجموع. قال ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث » (ومنه حديث ابن عمر رضي الله عنهما : إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً كل أمة تتبع نبيها » أي جماعة . فيكون المعنى: يصيرون جماعات كل جماعة تتبع نبيها. وحكى ـ رحمه الله ـ أن هذه اللفظة وردت « جُثيٌّ » بتشديد الياء جمع جاثٍ ، وهو الذي يجلس على ركبتيه .

هذا : وقد جاء في بعض الروايات ما يؤكد أن الشفاعة العظمى ـ وهي المقام المحمود ـ إنما تكون ليقضى بين الخلق ـ كما سبق ـ . من ذلك ما روى البخاري عن عبيد الله بن أبي جعفر أنه قال : سمعت حمزة بن عبدالله بن عمر رضي الله

عنهما قال : قال النبي ﷺ : « ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتيَ يوم القيامة ، وليس في وجهه مُزعة لحم ، وقال : إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن ؛ فبينما هم كذلك، استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ ، وزاد عبدالله : حدثني الليث قال : حدثني ابن أبي جعفر « فيشفع ليقضى بين الخلق ، فيمشي حتي يأخذ بحلقة الباب ، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم ».

هكذا يأخذ النبي ﷺ بحلقة باب الجنة ، ويظهر فضلُه على سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، بما يعطى من ذلك المقام العظيم الذي يحمده أهل الجمع كلُّهم . قال الحافظ في « فتح الباري » : (والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى ، التي اختصّ بها ، وهي إراحة أهل الموقف من أهوال القضاء بينهم، والفراغ من حسابهم . والمراد بأهل الجمع : أهل الحشر ، لأنه يوم يجمع فيه الناس كلهم) .

من هنا نجد أنه، لما كان هذا المقام مقامَ الشفاعة لفصل القضاء ، وإراحة أهل الموقف ـ على اختلاف مللهم ونحَلِهم ـ من تلكم الأهوال، أهوالِ القضاء بينهم، ومعرفة المصير بعد الحساب ... كان مقاماً محموداً يحمد فيه النبيَّ ﷺ الخلائقُ جميعُهم ، وهو ما ذهب إليه الأكثرون الذين اتجهوا إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ افعل الذي أمرتك به من إقامة الفرائض في أوقاتها ، والتهجد بالليل ، لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً ، يحمدك فيه الخلائق كلهم ، وخالقهم تبارك وتعالى .

وتجدر الإشارة إلى أن شيخ المفسرين الإمام الطبري ـ بعد أن قرر أن أكثر أهل التأويل ، على أن المقام المحمود ، هو الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .. ـ أورد بسنده عدداً من الآثار التي تؤيد ما ذهب إليه . من ذلك ما روى عن ابن عباس رضي

الله عنهما قوله: ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ قال : المقام المحمود : مقام الشفاعة، كما روى عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ **فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ قال : المقام المحمود : مقام الشفاعة يوم القيامة . وروى مثل ذلك عن مجاهد ولكن بلفظ : شفاعة محمد يوم القيامة. وقال رحمه الله : حدثنا عبد الرحمن قال : حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن صلة بن زفر عن حذيفة رضي الله عنه قال : « يُجمع الناس في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفاةً عراةً كما خلقوا ، قياماً لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه ، ينادى يامحمد فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك ، والشر ليس إليك ، والمهديُّ من هديت ، عبدك بين يديك ، وبك وإليك ، ولا منجا منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت، فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى ».

وأنت ترى أن الحاجة إلى النظر في مزيد من النصوص، قائمة، بغيةَ استجلاءٍ أوفرَ لهذه المكرمة التي اختص الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام وما يتعلق بها. واللهَ أرجو أن يكون لنا من هدي النبي ﷺ في هذا الأمر العظيم ، ما يزين القلوب بالخشية من يوم الحساب ، ويحفز على سلوك الطريق الأقوم التي تجعل صاحبها أهلاً لنيل شفاعة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام والفوزِ بالجنة ، والنجاةِ من عذاب السعير .

المقام المحمود.. وثمرة الدعاء بالوسيلة

في متابعة للكلام على واحد من أعظم مشاهد القيامة ، وهو مشهد الشفاعة العظمى من النبي ﷺ للناس ، من أجل فصل القضاء بين الخلائق .. يبدو من الضرورة بمكان ، أن يتخذ المسلمون من ذلك ، باعثاً على المزيد من اليقين بعظمة قدر المصطفى صلوات الله وسلامه عليه عند الله ، وما يقتضي ذلك، من محاسبة النفوس على التقصير في جنب الله، وفي حسن التأسي به صلوات الله وسلامه عليه ؛ فليس من الإنصاف في شيء ، زعمُ التقدير الكامل ، والمحبة الصادقة للنبي عليه الصلاة والسلام ، ثم المجافاةُ عن سنته ، ومظاهرةُ أعداء الله على شريعته. إن مشهد الشفاعة العظمى يوم الدين، جدير بالكثير من التأمل المبصر ، الذي يدفع إلى العمل ، ويحرك العزائم، ويوقظ الهمم، إلى ما فيه استئناف طريق الخير ، والتحويلُ الصادق للسلوك ، كيما يتسق مع الذي هدى إليه صاحب هذه الشفاعة التي خصه الله بها تعظيماً لقدره عليه الصلاة والسلام .

وهنا لابد من استذكار ما قاله المحققون من العلماء : من أن الشفاعة العظمى، هي المقام المحمود الذي ورد ذكره في سورة الإسراء . وهذا يرشد إلى ما روى النسائي بإسناد صحيح من حديث حذيفة رضي الله عنه قال : « يجتمع الناس في صعيد واحد ، فأول مدعوٍ محمد ، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك ، المهدي من هديت ، عبدك وابن عبديك ، وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت » فهذا قوله : «﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾» وصححه الحاكم . ومن الواضح أن هذا تفسير من حذيفة رضي الله عنه للمقام المحمود الذي اختص الله به نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام ، في ذلك اليوم الذي تشخص فيه الأبصار ، وتبلغ الشدة فيه أن تضع كل ذات حمل حملها ، فتكون شفاعته صلى الله عليه وعلى آله

وسلم ، سبباً في أن يريح الخلائق ربُهم من عظيم ما هم فيه من الهم والغم والضيق . وهذا لا ينسي ما أكرمه الله به من شفاعته عليه الصلاة والسلام لأمته ، إذ اختبأ دعوته ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ لتحقيق ذلك جزاه الله عن الأمة خير الجزاء .

ثم إن حديث حذيفة رضي الله عنه ، قد أخرجه الطبري في « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » ـ كما مر بنا من قبل ـ ولكن بلفظ « يُجمع الناس في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، حفاةً عراةً كما خُلقوا ، قياماً ، لا تكلمً نفس إلا بإذنه ، ينادي : محمد، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك... » الحديث . فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى .

وهنا لاغنى عن التذكير بما أخرج الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: « إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً ، كل أمة تتبع نبيها ، يقولون : يافلان اشفع ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، وذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود».

وكان لابد من هذا التذكير ، لدفع ما قد يتوهم، من أن بين حديث ابن عمر هذا، وحديث حذيفة رضي الله عنهم، شيئاً من المنافاة ؛ والواقع غير ذلك ، فلا منافاة بينهما ،لأن هذا الكلام ـ كما يقول الحافظ في الفتح ـ كأنه مقدمة للشفاعة.

أما بعد : ففي هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، الذي أكرم الله به هذه الأمة، ما يرغِّب المسلمين بشيء ذي صلة بالمقام المحمود ، لو فعله المسلم بخلوص نية وصدق توجه إلى الله عز وجل ؛ هوّن الله عليه من كُرب يوم القيامة، وحلت له شفاعة النبي ﷺ . وما أحوج الناس في يوم يقول الله فيه : ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ إلى تخفيف الكرب ، وشفاعة صاحب الشفاعة صلوات الله وسلامه عليه . ذلكم ما رغب به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، من الدعاء حين يسمع المسلم النداءَ : أن يؤتيَ الله النبي الكريم صلوات الله وسلامه

عليه الوسيلةَ والفضيلَة ، وأن يبعثه مقاماً محموداً الذي وعده ، وأن المسلم إن فعل ذلك :حلت له شفاعة نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام .

أخرج البخاري في كتاب التفسير من الجامع الصحيح تحت «باب عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة » ثم قال البخاري : رواه حمزة بن عبدالله عن أبيه ـ يعني ابن عمر ـ عن النبي ﷺ . وأخرجه البخاري باللفظ نفسه، عن جابر في كتاب الأذان من الجامع الصحيح « باب الدعاء عن النداء ».

هكذا تتفتّح أبواب الخير للمسلم ، ويأخذ بيده البيان النبوي الكريم، إلى ما لو دعا به، فاز بتلك النعمة العظيمة ، التي لا يقدر قدرها، وهي نيل شفاعة نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام .

هذا : وقد جاء بيان « الوسيلة» المدعو بها للنبي عليه الصلاة والسلام ، فيما روى مسلم بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلّوا عليَّ ؛ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلّى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة ، حلّت له الشفاعة » وأخرجه أبوداود في سننه عن عبدالله بن عمر أيضاً ، ولكن بلفظ « فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة» .

ولقد كان من تمام النعمة ، وورود تفسيرٍ لمعنى الوسيلة في بعض روايات الحديث.. فقد أخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال

رسول الله ﷺ : « سلوا الله لي الوسيلة ، قالوا : يارسول الله ، وما الوسيلة ؟ قال: أعلى درجة في الجنة ، لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو » وأخرجه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة وغيرهم .

أما عن الفضيلة الواردة في الدعاء المطلوب : فذهب الحافظ ابن حجر إلى أنها المرتبة الزائدة على مراتب سائر الخلق ، ويحتمل أن تكون منزلة أخرى ، أو تفسيراً للوسيلة . ولم يجد الحافظ بداً من اللجوء إلى هذه الاحتمالات ، لأنه لم يَرِدْ نص توقيفي ، بتحديد معناها ، كالذي ورد في معنى الوسيلة.. وكل ذلك خير إن شاء الله.

وفي كلام موصول بالحديث عن المقام المحمود ، تجدر الإشارة إلى أن ما جاء في السنة هو ـ في حقيقته ـ لون من ألوان البيان التقريري ، لتلك العِدَةِ الربانية الكريمة ، التي اقترنت بفعل التحقق «عسى» في سورة الإسراء أعني قوله عز وجل : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ . ومن إكرام الله لأهل الإيمان ، ما فتح ربنا لكل منهم ـ مكلَّفين ومكلَّفات ـ من هذا الباب المبارك على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام .. البابِ الذي يصل بالمؤمن، إلى أن يكون ـ بفضل الله ورحمته ـ من الفائزين بشفاعة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ؛ فعلى كل مؤمن ومؤمنة ـ قياماً بهذا الحق ـ أن يكون في دعائه عندما يسمع النداء: قوله : «وابعثه ـ يعني خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ـ مقاماً محموداً ـ أو المقام المحمود ـ الذي وعدته».

ولكم يُغْبَطُ أولئك الذين يرزقون ، أن تكون ألسنتهم رطبة بذكر الله، والصلاة على النبي صلى الله وسلم وبارك عليه ، وأداءِ هذا الدعاء ، وما كان على شاكلته، حقَّ الأداء ، بقلب حاضر ، ونفس راضية مطمئنة ؛ فذلك عنوان خير غامر ، يهدي صاحبه ـ برحمة الله ـ إلى حسن العاقبة يوم الدين ، والحظوةِ بشفاعة سيد المرسلين، ولا تسل عما يكون بعد ذلك ، من الخلود في النعيم المقيم، والفوز برضوان من الله أكبر ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

مشهد ما يكون لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم، من المقام المحمود، يوم يقف الناس لرب العالمين ، المقامِ الذي يحمده عليه الخلائق أجمعون ، لما أنه يخرج بهم إلى فصل القضاء ، والفراغِ من الحساب، والانتهاء إلى معرفة المصير ، بعد أن غشيهم من الهم والغم ما غشيهم ، وبعد أن ضرب عليهم الترقب المردي سداد.. هذا المشهد العظيم في ذلك اليوم ، ذو دلالة واضحة على أحقية الوفاء ، بتلك العدة المباركة في سورة الإسراء ، لسيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه ، وأنه لا أحد أوفى بوعده من الله . وقد زاد الأمَر إشراقاً ، مجيءُ عدد من نصوص السنة ، التي حملت البيان التقريري لهذا العطاء الرباني له عليه الصلاة والسلام ، والذي يتسبب بهذا الخير للناس أجمعين يومذاك ؛ ذلكم ما رأينا من الأحاديث التي ترغِّب في ان يدعو المسلم إذا سمع النداء، بأن يؤتي الله النبي ﷺ الوسيلة والفضيلة ، وأن يبعثه المقام المحمود الذي وعده ، وأن المسلم إن فعل ذلك، وجبت له الشفاعة .

وكان من عناية علمائنا بهذا الأمر العظيم ، أن تبصروا في مجيء بعض الروايات بلفظ المقام المحمود معرَّفاً ، ومجيءِ بعضها منكَّراً ؛ فقد جاءت روايات النسائي وابن حبان وابن خزيمة بلفظ « وابعثه المقام المحمود» بالتعريف، وجاءت رواية البخاري ـ كما رأينا من قبل ـ بلفظ التنكير . «وابعثه مقاماً محموداً » وهو محمود لأنه مقام يحمده فيه الأولون والآخرون . وهو ـ في الأصل كما يقول الإمام النووي ـ مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات ، والرواية بتنكير « مقاماً » كأنها حكاية للفظ القرآن . ونقل عن الطيبي قوله : (إنما نكَّره لأنه أفخم وأجزل كأنه قيل : مقاماً محموداً أي محموداً بكل لسان) وهذا لا يتنافى ـ والله أعلم ـ مع الرواية بالتعريف، لأن ا المآل ـ كما يقول العلماء ـ إلى المقام الذي جاء

التصريح به في القرآن .

ومن الخير أن نشير ، إلى أن رواية التعريف ، جاءت أيضاً من طريق علي بن عياش شيخ البخاري بالسند إلى جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، حيث ورد فيها «.. وابعثه المقام المحمود الذي وعدته إلا حلت له شفاعتي يوم القيامة » ونقع في رواية للبيهقي على زيادة « إنك لا تخلف الميعاد» . وعقد الإمام ابن خزيمة في «جماع أبواب الأذان والإقامة» من صحيحه باباً عنوانه « صفة الدعاء عند مسألة الله عز وجل للنبي ﷺ الوسيلة واستحقاق الداعي بتلك الدعوة الشفاعة يوم القيامة» ثم قال : أخبرنا أبو طاهر قال : أخبرنا أبوبكر قال : أخبرنا موسى بن سهل الرمليُّ قال : أخبرنا عليُّ بن عياش قال : حدثنا شعيب بن أبي حمزة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : «من قال إذا سمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة ».

وقال ابن حبان في (باب الأذان) من صحيحه : « ذكر إيجاب الشفاعة في القيامة لمن سأل الله جلّ وعلا لصفيه صلى الله عليه وسلم المقام المحمود عند الأذان يسمعه » أخبرنا ابن خزيمة قال : حدثنا محمد بن يحيى قال : حدثنا علي ابن عياش قال : حدثنا شعيب بن أبي حمزة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال النبي ﷺ : «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته ، إلا حلّت له الشفاعة يوم القيامة ».

ومن الواضح أن ابن حبان ، فيما ترجم للحديث، كان كلامه فيما ذهب إليه من الترجمة ، أكثر دلالة على أهمية النظر إلى المقام المحمود في فقه النص ، إذ جعل سؤال المقام المحمود للنبي ﷺ في الدعاء عند سماع النداء، هو الأساس في

إيجاب الشفاعة؛ ذلك قوله ـ كما رأينا ـ « ذكر إيجاب الشفاعة في القيامة لمن سأل الله عز وجل لصفيّه ﷺ المقام المحمود عند الأذان يسمعه » وفي ذلك مافيه من التوجيه ـ من خلال الترجمة المشعرة بفقه الحديث ـ إلى تلكم المكانة العظيمة للمقام المحمود ، الذي خُصّ به النبي ﷺ دون أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام ، والذي جعله الله باباً كريماً من أبواب الفضل على الخلائق جميعاً ؛ ومعاذ الله أن ينقص ذلك من قدر الوسيلة والفضيلة ، تلكما المنزلتين العظيمين الجليلتين، والحمد لله الذي خصّ ـ بفضله ـ نبينا محمداً ﷺ بالعدد الوافر من الخصائص، وجعله سيد ولد آدم بإطلاق .

أما الإمام ابن خزيمة : فقد اتجه في الترجمة التي وضعها للحديث، إلى الوسيلة، وهي المنزلة التي علمنا من خلال الأحاديث الصحيحة ، أنها منزلة فريدة في الجنة لا تليق إلا له عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. ومن الخير أن نعيد إلى الأذهان ما ورد بشأنها مما روى مسلم بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول : «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة ، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ؛ فمن سأل لي الوسيلة ، حلّت له الشفاعة ».

هذا : وهنالك أقوال أخر في المقام المحمود ، لست بسبيل التفصيل فيها؛ كالجلوس على العرش ، والجلوس على الكرسي ، وأخذ لواء الحمد ؛ ويظهر أن المقام المحمود ـ كما يحكي بعض المحققين ـ هو مجموع ما يحصل له ﷺ في تلك الحالة ، وفي مقدمة ذلك الشفاعة العظمى ، وكأن بعض الأمور مقدمات للشفاعة ، إذ يشعر قوله ﷺ في آخر الحديث : « حلّت له شفاعتي» أن الأمر المطلوب له ، هو الشفاعة .

ومهما يكن من أمر : فإن التراجم التي وضعها علماؤنا أجزل الله مثوبتهم

للأحاديث ــ وقد رأينا منها صنيع البخاري وابن حبان وابـن خزيمة ـ هي صورة من فقهـم لتلك الأحـاديث ، ومخالطتهـم العقلية والقلبيـة لسنة المصطفـى عليه الصلاة والسـلام . وهذا يتضح ــ أكثر مـا يتضح عند الإمـام البخاري رحمه الله ، حتى قالوا : فقـه البخاري في تراجم أبواب الصحيح أو في تـراجمه . وقد يختلف اجتهادهم في وضـع هذا العنوان أو ذاك . ولكن الشراح رحمهـم الله ـ على تفاوت مراتبهم ـ لم يألـوا جهداً في بيان ما يجب بيانه من الحديث ، وقـد رأينا من قبل أن الإمام البخـاري قد تـرجم لحديـث سؤال المقـام المحمود للـرسول عليـه الصلاة والسلام في كتاب الأذان من الجامع الصحيح بقوله : «باب الدعاء عند النداء» . وترجم له في كتاب التفسير عند إيراد مـا جاء في شأن سورة الإسراء بقوله : « باب عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً».

والأهمُّ الأهمُّ وراء ذلـك كله بالنسبة للمسلم ، أن يكون على بينـة من أمره ، يدرك مدى المسؤولية التي حُمِّلَها ببيان النبي عليه الصلاة والسلام للكتاب ، وأن يكون مـا جاء عنـه في شأن القيـامة ــ على وجه الخصـوص ـ نصـبَ عينيه خـوفاً ورجاءً، فلا يقعده عن العمل رجاء ؛ فذلك فتنة الشيطان ، ولا ييئسه من رحمة الله وشفاعـة النبي ﷺ خـوف ؛ فذاك تـوهم الغـافلين . وليكن على ذكـر دائم لقولـه تعالى : ﴿ ومـن أراد الآخرة وسعـى لها سعيها وهـو مؤمـن فأولئـك كان سعيهـم مشكوراً﴾ .

الشفاعة.. ومسؤولية المسلم

حديث رسول الله ﷺ المبينِ عن الله ما أراد، منبع ثرٌّ من منابع العطاء الخيِّر، وحسبك أنه بيان الكتاب المعجز، والطريق المشرقة إلى فهم هذا الدين؛ ما كان منه ذا صلة بعالم الغيب، وما كان ذا صلة بعالم الشهادة، ومن هنا كانت طاعة رسول الله، من طاعة الله، لما أنه المبلغ عن الله، والمبين كتابه. ومن هنا أيضاً كانت عناية العلماء بسند الحديث ومتنه.

حملني على التقديم ـ أو التذكير ـ بهذه المعاني، ما أجد من دواعي المتابعة لفهم أهل العلم، من النصوص الواردة في شأن ما اختصَّ الله به نبينا محمداً ﷺ، من «المقام المحمود» الشفاعة العظمى، من أجل فصل القضاء بين الخلق، وهو مقام يحمده فيه الأولون والآخرون، وليس أحد إلا وهو تحت لوائه فيه، حيث يسجد بين يدى جبار السماوات والأرض، ويقال: اشفع تشفّع، وتكون شفاعته لجميع الخلائق، في إزالة هول الموقف، والانصراف إلى فصل القضاء. ومن النصوص التي أعنيها ـ على هذه الساحة ـ ما روى البخاري بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنها ـ والعهد باصطحابه قريب ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة» وأخرجه النسائي وابن خزيمة وابن حبان بلفظ «المقام المحمود» بالتعريف.

فقد استشكل بعض العلماء ـ كما يقول الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» جعل استحقاق الجنة، ثواباً لقائل ذلك، مع ما ثبت من أن الشفاعة للمذنبين! وهذا من المستشكِل، محاولة لتجلية الأمر، وفهم المراد من خلال النصوص مجتمعة دون بتر واحد عن الآخر.

قال الحافظ رحمه الله : وأجيب بأن له صلى الله عليه وسلم شفاعاتٍ أخرى ؛ كإدخال الجنة بغير حساب ، وكرفع الدرجات ، فيعطى كل أحد ما يناسبه . ثم ذكر ما نقل القاضي عياض عن بعض شيوخه، أنه كان يرى اختصاص ذلك ـ يعني الشفاعة ـ بمن قاله مخلصاً ، مستحضراً إجلال النبي عليه الصلاة والسلام، لامن قصَد بذلك مجردَ الثواب ، ونحو ذلك ، ولكنه لم يرتضِ هذا الرأي فقال : وهو تحكُّم غير مرضيّ ، ولو كان إخراج الغافل اللاهي، لكان أشبه .

هذا : ومما يجدر التنبيه عليه ، أنه كلما كان المرء أعمقَ تصوراً و إدراكاً لمشاهد القيامة ، وما تزخر به من الشدة الأليمة والهول المطبق ـ وهذا لا يكون إلا بتزكية النفس على الوجه المطلوب ـ كان أقربَ إلى المستوى الذي يستطيع ، معه بما يرزق من حلاوة الإيمان واستنارة البصيرة ، أن يقدر مشهد الشفاعة العظمى ــ وهي المقام المحمود الذي يحمده الأولون والآخرون ـ حَق قدره .

فهذا المقام الذي يشفع فيه النبي ﷺ للخلق ـ من لدن آدم إلى يوم الدين ـ من أجل فصل القضاء ، هو في أحد وجهيه :خصوصية للنبي عليه الصلاة والسلام ، لم يشركه فيها نبي مرسل ، ولا ملك مقرّب ، وفي الوجه الآخر : نعمة عظمى لا يكاُد يدرك مداها، تُسبَغ على الخلائق أجمعين ، وهو في الوقت نفسه: إعلان أحقية الوفاء بالعِدة المباركة ؛ ومن أوفى بعهده من الله !!

وفي نظرات ثاقبة لهذه الخصوصية العظيمة، التي يشهدها الخلق ويحمدونها، كانت للعلماء وقفاتٌ دقيقة رقيقة ، عند تفسيرهم للآيات المتعلقة بها ؛ من ذلك ما نرى عند الإمام القرطبي مثلاً . إذ قال عند تفسير الآية التي تلي قوله تعالى : **﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾** وهي قوله عز وجل: **﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾** قيل : المعنى أمِتْني إماتة صدق ، وابعثني يوم القيامة مبعث صدق ، ليتصل بقوله : **﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾** كأنه لما

وعده بذلك ، أمره أن يدعو ، ليُنجزَ له الوعد .

وقيل : أدخلني في المأمور ، وأخرجني من النهي .

وقيل : علّمه ما يدعو به في صلاته ؛ من إخراجه من بين المشركين ، و إدخاله موضع الأمن ، فأخرجه من مكة ، وصيَّره إلى المدينة . وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ بمكة ثم أُمر بالهجرة ، فنزلت ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ وقال : هذا حديث حسن صحيح . وتقديم القول الأول وهو : (أمتْني إماتة صدق وابعثني يوم القيامة مبعث صدق، ليتصل بقوله : ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو لينجز له الوعد) يوحي بأنه لا تعارض مآلاً ، بين ما ذكر من الأقوال . فالفضل كائن في الدنيا والآخرة . ووعد الله حق وصدق .

ولعل مما يؤيد ذلك: ما نجد عند صاحب «التحرير والتنوير» في بيانه لمعنى الآية المذكورة ؛ فهو يرى أنه لما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالشكر الفعلي ، عطف عليه الأمر بالشكر اللساني ، بأن يبتهل إلى الله، بسؤال التوفيق في الخروج من مكان ، والدخول إلى مكان ، كيلا يضرَّه أن يستفزَّه أعداؤه من الأرض ليخرجوه منها ، مع ما فيه من المناسبة لقوله تعالى: ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ فلما وعده بأن يقيمه مقاماً محموداً ، ناسب أن يسأل أن يكون ذلك حالَه ، في كل مقام يقومه. وفي هذا التلقين إشارة إلهية إلى أن الله مخرجه من مكة إلى مهاجَره .

وفي تأكيد لهذا المعنى، واتساع في دلالته ، كانت الإشارة إلى أنه في المدُخل والمُخرج من قوله تعالى : ﴿ أدخلني مُدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق ﴾ اختير هنا الاسم المشتق من الفعل المتعدي، للإشارة إلى أن المطلوب، دخول وخروجٌ ميسّران من الله تعالى، وواقعان بإذنه. وذلك دعاء بكل دخول وخروج مباركين ، لتتم المناسبة بين المسؤول ،وبين الموعود به ـ وهو المقام المحمود ـ . وهذا السؤال

يعمُّ كل مكان يدخل إليه ، ومكان يخرج منه . والصدق هنا : الكمال وما يحمد في نوعه ، لأن ما ليس بمحمود فهو كالكذب ، لأنه يخلف ظن المتلبِّس به .

أعود مرة أخرى ، إلى تذكير نفسي ، ومن يؤرقهم طلب النجاة يوم الدين ، بأن بيان النبي ﷺ في شأن القيامة ؛ بشارةً ونذارةً ، وما أعطاه الله من المقام المحمود، والشفاعة لأمته ، التي هي من بواعث الرجاء ، لمن تقلقهم شدة الخوف .. كل أولئك أمانة في أعناق المسلمين ، وإشعارٌ بالمسؤولية التي لا يتخذها وراءه ظهرياً ، إلا من سَفِهَ نَفْسَهُ وظلمها ، وأعرض عن الحق ، اتباعاً للهوى وطاعةً لشياطين الإنس والجن .

والله المسؤول أن يأخذ بأيدينا إلى ما به نكون من أبناء الآخرة ، الذين يخشون ربهم بالغيب ، ويخافون سوء الحساب ، وبذلك لا نُحْرمُ ـ بفضل الله ومنِّه ـ شفاعةَ نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام .

ما تقتضيه أخبار الشفاعة

مما لا يختلف في شأنه عاقلان ، أن الأخبار الصادقة الواردة في شأن عالم الغيب ـ ومنها أخبار القيامة وما يكون يوم يعرف المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام ـ أمانة في أعناق المسلمين من الواجب أن يولوها، ما هي جديرة به من التبصُّر الواعي ، الذي يقود إلى أخذها مأخذ الجد ،على ساحة التصور ، وعلى ساحة السلوك وتصريف الأمور . وليس العهد بعيداً بالكلام على الشفاعة العظمى ، تلك المكرمة الربانية، التي أوتيها نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام ، والتي يحمده عليها الأولون والآخرون ، وكم لذلك من دلالات ، ينبغي أن تأخذ أبعادها في حسِّ المؤمن وضميره ، كي تنعكس مزيداً من الحب له عليه الصلاة والسلام ، ومضاعفةً للعمل على إحياء سنته ، والتزودِ بتقوى الله ليوم الحساب .

والكلام على الشفاعة العظمى: يشدُّنا إلى الكلام على شفاعته بأمته ؛ فهو صلى الله عليه وسلم إمام النبيين ،وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم ، وله في الوقت نفسه شفاعة خاصة بأمته ـ على تفصيل فيها تعطيه النصوص ـ. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر قال : حدثنا زهير يعني ابن محمد عن عبدالله بن محمد عن الطفيل ابن أُبيٍّ بن كعب عن أبيه عن النبي ﷺ قال: « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم ، غير فخر » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : «لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً ـ أو شِعباً ـ لكنت مع الأنصار ». ولأحمد في رواية أخرى : حدثنا زكريا قال : حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أُبَيّ بن كعب عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين ..» فذكر نحوه .

ولفظ الروايـة الأولى : نجده عند ابن ماجة ؛ إذ روى في «السـنـن» بسنده عن الطفيل بـن أبي بن كعب عـن أبيه أن رسول الله ﷺ قـال : « إذا كان يوم القيـامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ، غير فخر ».

والتحدث بتلك النعم العظمـى ـ مصحوباً بذلك التواضع الـرفيع ـ واضح في كلامه عليه الصلاة والسلام . ولقد يقدُر المرء بعض قَدْرَ تلك الخصائص، أو كلَّه ـ مع التوفيق ـ إذا كان على ذكر مما يـزخر به ويزخر ذلك اليوم ، من ساعات عصيبات وهـول هائل، تـرى الناس مـن شدتـه لا يلوون على شيء ، ويبلـغ بهم الخوف ، أن يقول كل واحد منهم : نفسي نفسي .

ويبدو ـ والله أعلم ـــ أن النبي صلوات الله وسلامه عليه ـــ وهو أعلم الناس بـأحوال ذلـك اليوم وأهوالـــه ، وما فيـه النجاة ـــ بفضل الله ـــ من ذلـك الكرب العظيم ـ ... كان كِلفاً بأن يبيِّن لأمته ما خصّه الله به من الفضل ، الذي يستعلن يوم يقوم الناس لرب العالمين ، لما يترتـب على ذلك وأمثاله، من الاعتزاز الإيماني ، والحوافـز النافعـة المجدية ، على طـريق السـالكين المنيبين إلى الله . وقد يكـون ، كشف عن ذلك غير مرة . وفي عدد من المناسبات ـ على طريق الهداية والتبليغ ـ أخرج الترمذي في كتـاب المناقب من الجامـع الصحيح ـ سنن الترمـذي ـ بسنده عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونـه ، قال : فخرج ، حتى إذا دنـا منهم سمعهم يتذاكـرون ، فسمع حديثهـم ، فقال بعضهـم : عجباً أن الله عـز وجل اتخذ مـن خلقه خليـلاً ، اتخذ إبراهيم خليلاً ، وقال آخر : ما هذا بـأعجبَ من كلام موسى، كلّمه تكليماً ، وقال آخر : فعيسـى كلمة الله وروحه ، وقـال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخـرج عليهم ، فسلّم وقال : قد سمعت كلامكم، وعجبكم أن إبراهيم خليل الله ، وهو كذلك ، ومـوسى نجـيُّ الله ،وهـو كذلـك ، وعيسى روح الله وكلمتـه وهـو كذلـك، وآدم اصطفاه الله وهو كـذلك . ألا وأنا حبيب الله ، ولا فخـر ، وأنا حامل لـواء الحمد يوم القيامة ، ولا فخر ، وأنا أول شافـع وأول مشفَّع يوم القيامة، ولا فخر، وأنا أول

من يحرِّك حِلق الجنة ، فيفتح الله لي ، فيدخلُنيها ومعي فقراء المؤمنين، ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ،ولا فخر» قال أبوعيسى : هذا حديث غريب . وأخرجه الدارمي بهذا اللفظ في المقدمة من « السنن ».

وللترمذي في رواية أخرى عن أبي بن كعب أيضاً عن النبي ﷺ قال : «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر» .

ألا ما أشد الحاجة في ذلك اليوم العصيب، إلى تلك الشفاعة ، وما أكرم محمداً ﷺ على الله ، حتى جعله أول شافع ومشفّع يوم القيامة . أخرج الإمام مسلم بسنده عن عبدالله بن فروخ قال : حدثني أبوهريرة رضي الله عنه قال : قال: رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفّع ».

وهذه المكرمات التي تنطق بها النصوص ، والتي تتبدى مشرقةً على رؤوس الخلائق ، يوم الفصل مترابطةٌ تمام الترابط، آخذٌ بعضها برقاب بعض، مبينةٌ تمام الإبانة ، عن إكرام الله للأمة المحمدية، ببعثه من أرسله الله رحمة للعالمين ؛ وما على المسلم ، إلا أن يكون على النهج السوي في دار العمل هنا ، النهجِ الذي يؤهله لأن يكون بفضل الله ، الإنسان الباني الجدير بالتمكين، والعزة في الدنيا ، ولنيل الشفاعة في الآخرة ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ جاء في شرح الإمام النووي لهذا الحديث: (وأما قوله ﷺ : « يوم القيامة » مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة ، فسبب التقييد أن في يوم القيامة يظهر سؤدُدُه لكل أحد ، ولا يبقى منازع ولا معاند ونحوه ، بخلاف الدنيا ، فقد نازعه ذلك فيها، ملوك الكفار وزعماء المشركين ، وهذا التقييد قريب من معنى قوله تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ مع أن الملك له سبحانه قبل ذلك ؛ لكن كان في الدنيا، من يدعي الملك، أو من يضاف إليه مجازاً ، فانقطع كل ذلك في الآخرة).

وإني مورد ـ إضافة إلى ما مر بنا من قبلُ ـ بعضاً من الروايات التي تقرر ما

ذُكِرَ وتؤكده . فقد جاء الحديث عند الإمام أحمد في المسند بلفظ « الأرض» بدلاً من «القبر» إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أنا سيد ولد آدم ، وأول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفّع » وله في رواية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع يوم القيامة ولا فخر ».

هذا : وبجانب ما كشف عنه عليه الصلاة والسلام ، من تلكم الفضائل التي شاء الله أن يختصه بها ، وأن تكون طائفةٌ منها يوم القيامة ـ ومنها الشفاعة العظمى وشفاعته بأمته ، وهي الأمة المرحومة ـ بيَّن صلوات الله وسلامه عليه ، أنه ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد سأل سُئِل الشفاعة ، وعلمُه ﷺ بها تحمل مشاهد القيامة من الهول الهائل، جعله ـ والله أعلم ـ يختبيء دعوته للشفاعة ، ويجعلها لمن مات من أمته لا يشرك بالله شيئاً ، أ و لأهل الكبائر منهم، كما ورد في بعض النصوص.

اللهم تفضل علينا بالفهم عن نبيك المصطفى ورسولك المجتبى ، والعمل ـ على بصيرة ـ بهديه القويم ، كيما نكون ممن تنشر عليهم رحمتك يوم الدين ، وتدركهم شفاعته صلوات الله وسلامه عليه ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ﴾.

اللهم أمتي أمتي!!

لا بِدْعَ ـ ورسول الله عليه الصلاة والسلام بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وساعات يوم الفصل ، ساعات مثقلة بما يقضُّ المضاجع ، ويسلمُ القلوب إلى شديد الخوف وعظيم القلق ـ أن يكون ما أُعطيه صلوات الله وسلامه عليه ــ من المنزلة العظيمة عند الله، وما خُصَّ به من خصائص ، ليست لأحد من الأنبياء والمرسلين ــ روحاً وريحاناً على الأمة المحمدية ، ونوراً يضيء الطريق إلى جنة عرضها السماوات والأرض، أعدت للأبرار الصالحين ؛ ذلك بأنه عليه الصلاة والسلام كان ــ وهو يأخذ المسلمين بأسباب الهداية والتمكين في هذه الدار دار الممر والعمل والجهاد ــ لا ينـي أن يكون شفيقاً على الأمة ، أغلى ما تكون الشفقة وأعلاها ، فهو أبداً يخاف أن تتنكب الجادةَ ، فيصيبَها يوم المعاد ، ما أصاب الأمم التي خالفت عن أمر الله ، وعصت رسله ، والله عزيز ذو انتقام .

قال الإمام مسلم : حدثني يونس بن عبد الأعلى الصَدَفيُ قال : أخبرنا ابن وهب قال : أخبرني عمرو بن الحارث، أن بكر بن سوادة حدّثه عن عبدالرحمن ابن جبير عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما « أن النبي ﷺ تلا قول إبراهيم: ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني .. ﴾ الآية وقول عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾. فرفع يديه ، فقال : اللهم أمتي أمتي ، وبكى ، فقال الله عز وجل: ياجبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسلْه ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ــ وهو أعلم ـ فقال الله: ياجبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك » وأخرجه ابن أبي حاتم من رواية عبدالله بن عمرو أيضاً . وفي الحديث ـ كما يقول العلماء ـ البيان الواضح لكمال شفقته ﷺ على أمته ، واعتنائه بمصالحهم ، واهتمامه بأمرهم ، ناهيك عن

البشارة العظيمة لهذه الأمة زادها الله شرفاً، بما وعدها الله تبارك وتعالى بقوله: «سنرضيك في أمتك ولا نسوءك».

ولا تسل عما في هذه الكلمات النورانية المباركة، من بيان عِظم منزلة النبي ﷺ عند الله تعالى، وعظيم لطفه سبحانه به ﷺ، الأمر الذي له ما له من الأثر، في جلب الخير العميم للأمة، التي يفترض أن تكون على مستوى الشكران لهذه النعمة العظيمة؛ إيماناً وعلماً وعملاً، وجهاداً في سبيل الله. وما أشد الحاجة ـ يوم يقف الناس لجبار السماوات والأرض، وتحدق بالناس المخاطر ـ إلى هذا اللطف الإلهي الكريم، ومنه هذه الشفاعة كما سيأتي. ولقد اتجه الإمام النووي إلى أن هذا الحديث من أرجى الأحاديث لهذه الأمة، أو أرجاها. وواضح، أن الحكمة في إرسال جبريل لسؤاله ﷺ، إظهار شرفه صلوات الله وسلامه عليه، وأنه بالمحل الأعلى، فيُسترضى، ويُكرم والله أعلم.

وما من ريب في أن الحديث موافق لقول الله عز وجل في سورة الضحى ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ وأما عن قوله تعالى: «ولا نسوءك» فيما أمر به جبريل عليه السلام، أن يبشر به النبي ﷺ: فنقل النووي عن الإمام عبدالله بن إسماعيل التميمي الأصبهاني: أنه تأكيد للمعنى، أي لا نحزنك، لأن الإرضاء قد يحصل بحق البعض بالعفو عنهم، ويدخل الباقي النار، فقال تعالى: نُرضيك ولا ندخل عليك حزناً، بل ننجي الجميع، والله أعلم.

والحق أن رحمة النبي ﷺ بالمؤمنين، وإشفاقه من سوء العاقبة للأمة يوم الدين: كل أولئك، مما زاد في تأثره القلبي، حتى البكاء، وتفاعله مع قوله جل شأنه في سورة إبراهيم: ﴿ **رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم** ﴾ وقوله تعالى على لسان عيسى عليه الصلاة والسلام في سورة المائدة ـ كما ورد في النص الذي نحن بصدده ـ ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾. حتى قال الحافظ ابن

كثير رحمه الله: وهذه الآية ـ يعني آية المائدة ـ لها شأن عظيم ونبأ عجيب، وقد ورد في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قام بها ليلة، حتى الصباح يرددها. وقد أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها، ويسجد بها ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ فلما أصبح قلت: يارسول الله مازلت تقرأ هذه الآية، تركع بها وتسجد بها؟ قال: إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي، فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً» وله من طريق آخر وسياق آخر بسنده عن جَسْرَة بنت دجاجة «أنها انطلقت معتمرة فانتهت إلى الرَّبذة، فسمعت أبا ذر يقول: قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء، فصلى بالقوم، ثم تخلف أصحاب له يصلون، فلما رأى قيامهم وتخلفهم، انصرف إلى رحله، فلما رأى القوم قد أخلَوا المكان، رجع إلى مكانه يصلي، فقمت خلفه، فأومأ إليَّ بيمينه، فقمت عن يمينه، ثم جاء ابن مسعود، فقام خلفي وخلفه، فأومأ إليه بشماله، فقام عن شماله، فقمنا ثلاثتنا، يصلي كل رجل منا بنفسه، ويتلو من القرآن ما شاء الله أن يتلو، فقام بآية من القرآن يرددها، حتى صلى الغداة، فلما أصبحنا، أومأت إلى عبدالله بن مسعود أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة، فقال ابن مسعود، بيده: لا أسأله عن شيء، حتى يحدث إليَّ، فقلت: بأبي أنت وأمي، قمت بآية من القرآن ومعك القرآن، لو فعل هذا بعضنا، لوجدنا عليه، قال: « دعوت لأمتي » قلت: فماذا أجبت، أو ماذا رد عليك؟ قال: «أُجِبْتُ بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طلعة تركوا الصلاة» قلت: أفلا أبشر الناس؟ قال: بلى، فانطلقت معنفاً قريباً من قذفة حجر، فقال عمر: يارسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادة؛ فناداه أن ارجع فرجع. وتلك الآية ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ».

هذا: وقد أورد النسائي حديث قيام الرسول ﷺ بالآية المذكورة، في كتاب الصلاة من السنن الصغرى « المجتبى» وجعل عنوانه « ترديد الآية » ثم روى

بسنده عن قدامة بن عبدالله قال : حدثتني جَسْرَة بنت دَجاجة قالت : سمعت أبا ذر يقول: « قام النبي ﷺ ، حتى اذا أصبح بآية ، والآية ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ». أما البيهقي : فقد أورد الحديث في كتاب الصلاة من السنن الكبرى تحت باب « ترتيل القراءة » إذ روى بسنده هناك عن خرشة بن الحر عن أبي ذر قال : سمعت رسول الله ﷺ ، وهو يصلي ذات ليلة، وهو يردد آية، حتى أصبح بها يركع وبها يسجد ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ﴾ قلت: يارسول الله مازلت تردد هذه الآية حتى أصبحت قال : «إني سألت ربي الشفاعة لأمتي وهي نائلة من لا يشرك بالله شيئاً » ثم جاء برواية جسرة رحمها الله .

صلى الله وسلم على الرؤوف الرحيم با لمؤمنين ، الشفيق عليهم في الدنيا ويوم الدين ، وردَّ المسلمين إلى حسن التأسي به، وإلى ما فيه الانتفاع بهديه ، كيما تصلح حالهم في العاجلة ، ويظفروا بالسعادة الأبدية في الآخرين .

شفاعته ﷺ وفضله

أسعدتنا من قريب، وقفة مباركة طيبة ، مع بعضٍ من نصوص الهدي النبوي الناطقـة برأفة النبـي ﷺ ، ورحمته بـا لمؤمنين ، وكمال شفقته عليهم، و إشفـاقه أن يصيبهم النكال يوم المعاد ـ وقد بلغت القلوب الحناجر ، وامتلأت خوفاً وجزعاً ـ وأن تُسلكَ بهم سبيل تجافي سبيل الفوز بالجنة، والنجاة من النار . وما من ريب في أنه صلوات الله وسلامـه عليه، قد أعطي بجانب الشفاعة العظمـى ـ وهي المقام المحمود ـ الشفـاعة الثانية الخاصة بـأمته ، وتحمل إلينا نصوص السنـة ابتهاله إلى الله، أن يعطيه تلـك الشفاعة ، وأنـه اختبأ دعوته التـي منّ الله بها عليه، شفـاعة لأمتـه في الآخرة، كما حصلـت الإشـارة إلى ذلك مـن قبـل . وهـذه ضميمة مـن الأحاديـث في شأنها ، تزيـد المؤمن يقيناً على يقين بـوقوعهـا يومذاك ؛ ففـي كتاب الدعـوات من الجامع الصحيح ، عقـد الإمام البخارى بـاباً عنوانه : « لكـل نبي دعوة مستجابـة » وقال : حدثنا إسماعيل قال : حـدثني مالك عن أبي الـزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، وأريـد أن أختبىء دعـوتي شفاعـة لأمتـي في الآخرة ، ثـم قال رحمه الله : وقـال لي خليفة : قـال معتمر : سمعت أبي عـن أنس عن النبـي ﷺ قال: لكل نبـي سأل سؤلاً ، أو قال: لكل نبـي دعوة قد دعا بها ، فاستجيبت، فجعلـت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة».

ومن فقـه الإمام البخاري في تراجـم الأبواب، أنه أورد هذا الحديـث أيضاً في كتاب التوحيـد من الجامع الصحيح تحت «باب المشيئة والإرادة » فـأخرج بسنده عن أبي سلمة بن عبدالرحمن أن أبا هـريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي دعوة ، فأريد أن أختبـىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » وقـد أسلفت من قبل أن علمه ﷺ بما يحمل يوم القيـامة من الأهوال، حيث الضرورةُ الملحة لبـارقة أمل

تُشعر بالنجاة ، وتجاوز الصعاب المروّعة ، إلى الزحـزحة عن النار ، ودخول الجنة ، مع الذي ملأ الله به قلبه من الرحمة بالأمة ، والشـفقة عليها. كل أولئك ـ والله أعلم ـ جعله جزاه الله عن الأمة خير الجزاء ، يتجه هذه الوجهة في اختباء دعوته، شفاعة لأمته يومئذ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً . فأنت واجـد أنـه آثر أمتـه بهذه الـدعـوة ، وكـان حكيماً جِدَّ حكيم ، في وضـع الأمـور مواضعها، لأن الناس أحوج ما يكونون في ذلك اليوم إلى الشفاعة ، فجعل الدعوة فيما ينبغي ، وفي أهـم أوقات الضرورة الملحـة ـ كما أسلفنـا ـ نـاهيك عما في هـذا الحديث، من بيان فضله صلوات الله وسلامـه عليه على سائر الأنبياء ، وماله من كرامة متميزة ــ وهو النبي المصطفى عند الله عز وجل ـ قـال ابن بطال : (في هذا الحديث بيـان فضل نبينا ﷺ على سائر الأنبيـاء ، حيث آثر أمته على نفسـه وأهل بيته بـدعوتـه المجابة ، ولم يجعلهـا أيضاً دعاءً عليهـم بالهلاك كما وقـع لغيره ممن تقـدم) وقال ابـن الجوزي: (هذا مـن حسن تصرفـه ﷺ لأنه جعـل الدعـوة فيما ينبغي، ومن كثـرة كرمه، لأنه آثر أمتـه على نفسه ، ومن حسن نظـره ، لأنه جعلها للمذنبين مـن أمته، لكونهم أحـوج إليها مـن الطائعين) وقال النـووي (فيه كمال شفقته ﷺ على أمته ، ورأفته ، واعتناؤه بالنظـر في مصالحهم ، فجعل دعوته ، في أهم أوقات حاجتهم) .

هذا : وقد أخرج الإمام مسلم هذا الحديث في عدد من الروايات ، وفي أكثرها يحمل النص عبارة ـ ان شاء الله ـ فقد روى بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبـي دعوة ، وأردت إن شاء الله أن أختبىء دعوتي شفاعـة لأمتي يوم القيامة » وله في رواية أخرى عن ابن شهاب أن عمرو بن أبي سفيان بن سفيان بن أسيد بن جـارية الثقفي أخبره أن أبا هـريرة قال لكعب الأحبـار : إن نبي الله ﷺ قال : «لكل نبي دعـوة يدعوها ، فأنا أريد إن شاء الله أن أختبـىء دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة». فقال كعب لأبي هريرة: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال أبـوهريرة : نعم . وفي بعـض الروايات، مـا يشعر بأن الأنبياء عليهـم الصلاة

والسلام تعجلوا دعواتهم المستجابة ، وأنه ﷺ اختبأ دعوته شفاعة لأمته يوم الدين ، وأن هذه الشفاعة نائلة إن شاء الله من مات من الأمة المحمدية لا يشرك بالله شيئاً . قال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر ابن أبي شيبة وأبو كريب ـ واللفظ لأبي كريب ـ قالا : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجّل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك با لله شيئاً » وفي رواية أخرى « لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، فيستجاب له فيؤتاها ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة » وفي لفظ « دعابها في أمته » وفي آخر « دعاها لأمته ».

وهذه الروايات يفسر بعضها بعضاً ، ولابد من النظر فيها مجتمعة . ومعناها ـ كما يرى الإمام النووي ـ أن كل نبي له دعوة متيقنة الإجابة ، وهو على يقين من إجابتها ، وأما باقي دعواتهم : فهم على طمع من إجابتها ، وبعضها يجاب، وبعضها لا يجاب . ونقل عن القاضي عياض أنه يحتمل أن يكون المراد : لكل نبي دعوة لأمته كما في الروايتين الآخيرتين والله أعلم .

وبعد: فلابد من الإشارة ؛ إلى أن عدداً من الروايات ـ كما سيأتي فيما بعد إن شاء الله ـ يحمل تقييد نيل الشفاعة، بعدم الشرك بالله تعالى ، وكما رأينا آنفاً . من هذه الروايات ما نجد في كتاب الدعوات من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ حيث أخرج أبوعيسى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « لكل نبي دعوة مستجابة ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وهي نائلة إن شاءالله من مات منهم لا يشرك بالله شيئاً » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح . والروايات بهذا القيد : تقتضي التذكير بما سلف ، من أن العلماء ، قد وفَّقوا بين تعليق الشفاعة على التوحيد، وبين ما جاء من كونها لأهل الكبائر ، ويأتي تفصيل ذلك في حينه إن شاء الله !

رزقنا الله التوحيد الخالص ، والعمل بما يقتضيه ، وصلى الله وسلم وبارك على الشافعْ المشفع ، وعلى آله وصحابته الذين آمنوا به واتبعوا النور الذي أنزل معه صدقاً في المواطن ، وإخلاصاً في الطاعة ، وإحساناً في التزود ليوم لا ريب فيه ، فكانوا أجدر الناس بشفاعته عليه الصلاة والسلام ، التي اختبأ الدعوة المستجابة لها ، رحمةً بأمته وإشفاقاً عليها ، جزاه الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وآتاه الوسيلة والفضيلة ، وبعثه المقام المحمود الذي وعده في كتابه العزيز .

الشفاعة.. والتوحيد الخالص

لا يسأم المؤمن ـ وهو يسعى للآخرة سعيهـا ـ من معاودة النظر في كل ما هو من مبشرات النجاة يوم الدين بسبب . ومن عيون ذلك : ما ورد من الخبر الصادق في شأن شفاعة ﷺ لأمته ، عند الله بإذنـه يوم تَجِفُ القلوب ، وتستولي الخشية من سوء القرار ،على النفوس . وإنها لبشارة عظمى، جديرة بأن يعمل المؤمن ، ليكون يومئذ من أهلها .

ولقد كان مـن فضل الله على الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام أن لكل منهم دعوة مستجـابة . ولأمر ما ، تعجّـل كل نبي دعـوته في الدار العاجلـة ، وأكرم الله الأمة المحمديـة ، بأن اختبأ رحمة العالمين سيـدنا رسول الله عليه الصـلاة والسلام دعوته شفاعة لأمته يوم الحساب . كما رأينا عند البخاري ومسلم والترمذي .

ومن الـروايات التي جاء فيهـا ذكر التعجُّل : مـا أخرج ابن ماجـة في كتاب الزهد «باب ذكر الشفاعة » من السنن بسنـده عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسـول الله ﷺ: « لكل نبـي دعوة مستجابـة فتعجّل كـل نبي دعـوته ، وإني اختبأت دعـوتي شفاعـة لأمتي، فهـي نائلـة من مـات منهم لا يشركُ بـالله شيئاً » وأخرج الإمام مـالك في الموطأ عن أبي الـزناد عن الأعرج عـن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : « لكل نبي دعوة يـدعو بها ، فأريد أن أختبـي دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة » . ومما يجدر ذكره : أن شفاعة النبي ﷺ الخاصة هذه ، قد جاء ذكرها في بعض الروايات ، مضمومـة إلى حديث الشفاعة العظمى بطوله ؛ الأمر الـذي يوحي ــ والله أعلم ـ بتعدد المواقـف التي كان صلى الله عليـه وسلم، يكشـف فيها لأمتـه عما سيكون يـوم الفصل ، ويثير في قلـوب أصحابـه كوامـن الإيمان ، من أجل العمل والإعداد لذلك اليوم العظيم، ومن ورائهم من يدخل في

هذا الدين ، حتى يرث الله الأرض ومـن عليها ، أخرج الإمام أحمد بسنده عن علي ابن زيـد عن أبي نضْرة قـال : خطبنا ابـن عباس رضي الله عنهما على منبر البصرة فقال : قال رسول الله ﷺ : «إنه لم يكن نبي إلا له دعوة قد يُنجَزها في الدنيا ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنـه الأرض ولا فخر ، وبيدي لـواء الحمد ولا فخر ، آدم فمـن دونه ، تحت لوائي ولا فخر ؛ ويطول يوم القيامةعلى الناس، فيقول بعضهم لبعض، انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر ، فليشفع بنـا إلى ربنا فليقـض بيننا ... إلى أن يقـول : فيأتـون عيسى فيقـولون : ياعيسـى اشفع لنا إلى ربـك فليقض بيننا ، فيقـول : إني لست هناكم ، اتُّخِذْتُ إلهاً من دون الله ، وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي ، ولكن أرأيتم لو كان متاع في وعـاء مختوم عليه، أكان يقـدر على ما في جوفه حتـى يُفَضَّ الخاتم ؟ قال : فيقولـون : لا ، فيقول: إن محمداً ﷺ خاتم النبيين ، وقـد حضر اليوم ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال رسول الله ﷺ ، فيأتونني فيقولون : يامحمد اشفع لنا إلى ربك فليقض بيننا ، فأقول : أنا لها ، حتى يأذن الله عز وجل لمن يشاء ويرضـى ، فإذا أراد الله تبارك وتعالى أن يصـدع بين خلقه ، نادى منـادٍ : أين أحمد وأمته ، فنحن الآخـرون الأولون ، ونحن آخر الأمم ، وأول من يحاسـب ، فتُفرج لنا الأمم عن طريقنا ، فنمضي غُرّاً محجلين من أثر الطَّهور ، فتقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلهـا ، فنأتي باب الجنة ، فآخذ بحَلْقة البـاب ، فأقرع الباب، فيقال : من أنت ؟ فأقول : أنا محمد ، فيفتح لي ، فآتي ربي عز وجل على كرسيه أو سريره ـ شك حماد ـ فأخرُّ له ساجداً فأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي، وليس يحمده بها أحد بعدي ، فيقال: يامحمد ارفع رأسك وسل تعطه . وقل تُسمع واشفع تشفّع ، فأرفع رأسي فأقول: أي رب أمتي أمتي ، فيقول : أخرج من كان في قلبه مثقال كذا وكذا ــ لم يحفظ حماد ـ ثم أعيد فأسجد ، فأقـول ما قلت ، فيقال: ارفع رأسـك ، وقل تُسمـع ، وسل تُعطـه ، واشفع تشفّـع ، فأقـول : أي رب أمتي أمتـي، فيقول : أخـرج مـن كان في قلبـه مثقال كـذا وكـذا دون الأول ، ثم أعيـد

فأسجـد ، فـأقول مثل ذلك فيقـال لي : ارفع رأسك وسل تعطـه ، واشفع تشفَّع فأقـول: أي رب أمتي أمتي، فيقـال : أخرج من كـان في قلبه مثقال كـذا كذا دون الأول، ثم أعيـد فأسجد فـأقول مثل ذلك ، فيقـال لي : ارفع رأسك وسـل تعط ، واشفع تشفّع ، فأقول: أي رب أمتي أمتي ، فيقال : أخرج من كان في قلبه مثقال كذا كذا دون ذلك ».

هكذا يبدأ الحديـث بخصائص ، يذكرها النبي ﷺ بتـواضع جم ، وأدب لا يجـارى ، ومنها اختباء دعوته شفاعة عند الله ـ بإذنه ـ لأمته في الآخرة . ويكون من الحكمة أن يسهب صلـوات الله وسلامه عليه في الكلام النيّر المبارك عـن الشفاعة العظمى ، حيث يتحقق للخلائق ما يريدون ، ثم يذكر ﷺ استجابة ربه الكريم المنان ، لدعوته فيما أراد من الشفاعة بأمته، على تلكم الصور التي نطق بها النص من كلامه عليـه الصلاة والسلام ، فيما أخبر ـ وهو الصادق المصـدوق ـ عن ذلك كله .

ومما يؤكد شفقـة النبي ﷺ على أمته ، وحرصه على أن تكون مـن أهل النجاة يوم الحسرة ، ما جاء عنه صلوات الله وسلامه ، عليه أنه خُيِّر بين الشفاعة وغيرها، فاختار الشفاعـة، جزاه الله خير ما يجزي نبياً عن أمته ، جاء في كتـاب القيامة من الجامع الصحيح سنن الترمـذي : حدثنا هنّادٌ قال : حدثنا عبْدة عن سعيد ، عن قتادة ، عن أبي المليـح عن عوف بن مـالك الأشجعي قال : قـال رسول الله ﷺ: «أتاني آتٍ من عند ربي ، فخيّرني بين أن يُدخل نصف أمتي الجنة، وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعـة ، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً ». وقـد روي عن أبي المَليح عن رجل آخر من أصحاب النبيﷺ عن النبيﷺ، ولم يذكر عن عوف بن مالك، وفي الحديث قصة طويلة . حدثنا قتيبة قال : حـدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أبي المليح عن عـوف بن مالك عـن النبي ﷺ نحوه . وهذا مـا نجده عند ابن مـاجة بلفـظ مقارب، مـع شيء من الـزيادة ؛ فقـد أخرج في كتـاب الزهـد، باب «ذكـر الشفاعة » من السنـن عن سُنَيْم بن عامر أنه قـال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون

ما خيّرني ربي الليلة ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه خيّرني بين أن يُدخل نصفَ أمتي الجنة ، وبين الشفاعة . فاخترت الشفاعة » قلنا : يارسول الله ! ادع الله أن يجعلنا من أهلها ، قال : هي لكل مسلم » .

وما أحسبني بحاجة إلى تجديد التذكير بأن الشفاعة ـ كما تعطي النصوص ـ منوطة بالتوحيد الخالص لله عز وجل ، ومن كان على التوحيد الخالص، لم يقعده الفرح بها ـ وهي من فضل الله ورحمته بهذه الأمة ـ عن أخذ نفسه بأسباب الاستقامة ، وخشية الله بالغيب ، وتقواه سبحانه في السر والعلن ، والحرصِ على أن يكون هديُ الشافع المشفّع صلوات الله وسلامه عليه، طريقه المسلوكة إلى دار البقاء ، يوم يضع الله الموازين القسط ليوم القيامة ، وهنالك توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

المبشرات.. وشحذ الهمم للطاعة

ما من ريب في أن أحاديث الشفاعة، تجعل الرجاء بفضل الله ورحمته، يربو ويتعاظم، الأمر الذي يدع المؤمن أقرب إلى الطمأنينة، بأنه من أهل النجاة والفوز، في تلكم الساعات الفاصلة يوم اللقاء، ولكن يفترض في الوقت نفسه ، أن تكون ثمرة التفاعل مع تلك الأحاديث، والتأثر بمدلولاتها وعطائها ، حافزاً فعّالاً من حوافز الاستزادة من كل ما يقرب إلى الله زلفى في هذه الدار ، دارِ التكليف والعمل، وباعثاً من بواعث الحرص، على أن تزين تصرفات المؤمن تقوى الله وخشيته ـ جل شأنه ـ بالغيب ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾. ومن الأهمية بمكان ، استذكار أن السلف الصالح رضوان الله عليهم، ما كانت تزيدهم المبشرات، إلا قوة في شحذ الهمم للمسارعة إلى الطاعة والجهاد ، وإعداد العدة ليوم الحساب ، حتى كأنهم يرون الجنة والنار رأي عين ، بل إن بعضهم كان إذا رأى النار في الدنيا ، أذكرته نار الآخرة جهنم، وأصابه من الرعب والخوف من سوء العاقبة ما أصابه ، لما يتقالُّ من عمله ــ مهما كان هذا العمل ـ إذا وزن بما يجب أن يكون . على أن إخلاص التوجه إلى الله في طلب الرحمة، يوم لا ينفع إلا الرحمة ـ ومنها شفاعة النبي ﷺ ـ من الأمور التي لا ينبغي لمؤمن أن يغفل عنها ، أو يقصر في أن يرجوَها بذِلّة وخشوع وخضوع .

أقول هذا وفي الجعبة شذرات مباركات، تتعلق بنصوص الشفاعة والتفاعل معها ، صُنعَ المخبتين المنيبين. من ذلك ما ذكرت المصادر عن الثقة العابد الربيع ابن خُثَيْم ـ من جلة التابعين ـ الذي قال له عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : «لورآك رسول الله ﷺ لأحبك ».

أخرج أبونُعيم في الحلية بسنده عن بكر بن ماعز أنه قال : « انطلق الربيع بن خُثَيْم وعبدالله بن مسعود إلى شاطىء الفرات ، فمرّ بأولئك الحدادين ، فلما رأى

تلك النيران ، خرّ مغشياً عليه ، فرجع إليه ، فقال: ياربيع ! فلم يجبه ، فانطلق فصلّى بالناس العصر ، ثم رجع إليه ، ياربيع ياربيع، فلم يجبه، ثم انطلق فصلى بالناس المغرب ، ثم رجع، ياربيع ياربيع ، فلم يجبه، حتى ضربه برد السَّحر ». ورواه أبووائل عن عبدالله . كما أخرج أبو نُعيم بسنده أيضاً عن أبي وائل قال : خرجنا مع عبدالله بن مسعود ومعنا الربيع بن خُثَيم ، فمررنا على حداد ، فقام عبدالله ينظر حديدة في النار، فنظر ربيع إليها ، فتمايل ليسقط ، فمضى عبدالله، حتى أتينا على أتون على شاطىء الفرات ، فلما رأى عبدالله النار تلتهب في جوفه، قرأ هذه الآية ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً** ﴾ إلى قوله ﴿**ثبوراً**﴾ قال: فصعِق الربيع ، فاحتملناه ، فجئنا به إلى أهله ، قال : ثم رابطه إلى المغرب فلم يفق ، ثم إنه أفاق فرجع عبدالله إلى أهله .

هذا: والذي يلي قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿ **تغيظاً وزفيراً** ﴾ قوله سبحانه : ﴿**وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً . لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً**﴾ .

ولقد أردت هذه الكلمات، أن تكون ذكرى ــ والذكرى تنفع المؤمنين ــ بين يدي المتابعة الهادفة لكلمات مضيئات في شأن البشارة ، بأن خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، لابد أن يشفع عند الله يوم الحشر الأكبر للمذنبين من أمته، الذين ماتوا وهم لا يشركون بالله شيئاً .. عسى أن يستزيد من العمل العاملون ، وأن يوفق المقصّرون ـ وأنا منهم ـ إلى الحرص على أن تكون مبشرات الشفاعة ، غير مقطوعة النسب عن نصوص التكليف، والدعوة إلى الأخذ بكل ما يُربي الإيمان في النفوس، ويحفز على الجهاد والاستكثار من القربات؛ طاعةً لله وإخلاصاً في تقواه ، شأنَ السلف الصالح الأمناء على العمل بدين الله ، الذين كانوا على إرث النبوة في ذلك، جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين كل خير . وهذه مسألة مهمة ـ والله أعلم ـ على طريق تزكية النفس ، والانتفاع بالأخبار الصادقة عن يوم الدين ، كيما يكون لها سلطانها على السلوك ؛ فإذا اقترن ذلك ، بصورة عملية من صنيع السلف

الصالح ، تثير الرغبة في التأسي ، كان ذلك خيراً على خير .

ونعود إلى ما نحن بسبيله. قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا عبدالصمد قال: حدثنا محمد بن أبي المليح الهذليُّ قال : حدثني زياد بن أبي المليح عن أبيه عن أبي بردة عن عوف بن مالك الأشجعي «أنه كان مع النبي ﷺ في سفر ، فسار بهم يومهم أجمع ، لا يحُلُّ لهم عقدة ، وليلته جمعاء ،لا يَحُلُّ عقدةً إلا لصلاة ، حتى نزلوا أوسط الليل ، قال: فرَقب رجل رسو ل الله ﷺ حين وضع رحله ، قال: فانتهيت إليه ، فنظرت فلم أر أحد إلا نائماً ،ولا بعيراً إلا واضعاً جرانه نائماً . قال: فتطاولت، فنظرت حيث وضع النبيﷺ رحله ، فلم أره في مكانه ، فخرجت أتخطى الرحال ، حتى خرجت إلى الناس ، ثم مضيت على وجهي في سواء الليل، فسمعت جرْساً ، فانتهيت إليه فإذا أنا بمعاذ بن جبل والأشعري ، فانتهيت إليهما، فقلت : أين رسول الله ﷺ ؟ فإذا هزيز كهزيز الرحا ، فقلت : كان رسول الله ﷺ عند هذا الصوت ، قالا : اقعد اسكت، فمضى قليلاً ، فأقبل حتى انتهى إلينا، فقمنا إليه ، فقلنا : يارسول الله فزعنا إذ لم نرك ، واتبعنا أثرك ، فقال: إنه أتاني آتٍ من ربي عز وجل، فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة ، وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة ، فقلنا : نذكِّرك اللهَ والصحبة إلا جعلتنا من أهل شفاعتك ، قال : أنتم منهم ؛ ثم مضينا ؛ فيجيء الرجل والرجلان ، فيخبرهم بالذي أخبرنا به ، فيذكِّرونه اللهَ والصحبةَ ، إلا جعلهم من أهل شفاعته ، فيقول: فإنكم منهم ، حتى انتهى الناس فأضبّوا عليه ، وقالوا : اجعلنا منهم قال : فإني أشهدكم أنها لمن مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً ».

وأخرجه أحمد من طريق أخرى عن عوف بن مالك الأشجعي أيضا قال: «عرّس رسول الله ﷺ ـ ذات ليلة ـ فافترش كل منا ذراع راحلته ، قال : فانتهيت إلى بعض الليل ؛ فإذا ناقة رسول الله ﷺ ليس قُدّامَها أحد ، قال : فانطلقت أطلب رسول الله ﷺ ، فإذا معاذ بن جبل وعبدالله بن قيس قائمان ، قلت: أين رسول الله ﷺ ؟ قالا : ما ندري ، غير أنا سمعنا صوتاً بأعالي الوادي، فإذا مثل

هزيز الرحـا قال: امكثوا يسيراً ، ثم جاءنا رسول الله ﷺ فقـال : إنه أتاني آت من ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة، فقلنا : ننشدك الله والصحبة، لما جعلتنا من أهل شفاعتك ، قال : فإنكم من أهل شفاعتـي ، قال : فأقبلنا معـانيق إلى الناس ، فإذا هـم قد فزعوا وفقـدوا نبيهم ، وقال رسول الله ﷺ : إنـه أتاني الليلة من ربي آت ، فخيرني بين أن يـدخل نصف أمتي الجنـة وبين الشفاعـة ، فاخترت الشفـاعة ، قـالوا: يـارسول الله ننشـدك الله والصحبة، لما جعلتنا من أهل شفاعتك ؛ فلما أضبُّـوا عليه قال : فأنا أشهدكم أن شفاعتي لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمتي ».

معانيق : أي مسرعين . وهزيز الرحا : صوت دورانها . قال ابن الأثير : (وفيه «إني سمعت هزيزاً كهزيز الـرحا » أي صوت دورانها). فلما أضبّوا عليه : أي فلما أكثروا عليه ، يقال : أضبّوا : إذا تكلّموا متتابعاً ، و إذا نهضوا في الأمر جميعاً .

جزى الله نبينا محمداً ﷺ ـ على مـا اختار ـ من الشفاعة للأمة ــ ما هو أهله ، وكتب لنا أن نكون في الآخرة من أهلهـا ، ولله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل .

عموم الشفاعة.. وأسعد الناس بها

هذه خطوة أخرى ، مع نصوص من الهدي النبوي، تسعف ــ بعون الله ـ في تجلية ما يبدو في الظاهر تعارضاً بين تلك النصوص الواردة في شأن من يكونون أهلاً لأن تنالهم شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ إذ هناك ما يدل ، على أنها لمن مات لا يشرك بالله شيئاً ، وهنالك ما يدل ، على أنها لأهل الكبائر من الأمة . ولم يُعجز العلماءَ ذلك ، عن التوفيق بين دلالات النطق الكريم ـ كما أشرت من قبل ـ وتبيُّن القاعدة التي يقوم عليها هذا الإكرام من الله عز وجل ، حين أعطى نبيه المصطفى ﷺ العطاء الجزيل ، وحقق له ما أراد من الرحمة بأمته.

عقد الإمام أبوداود في « كتاب السنة » من السنن باباً في الشفاعة قال فيه: حدثنا سليمان بن حرب قال: حدثنا بسطام بن حريث عن أشعث الحداني عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » وبهذا اللفظ أخرجه ابن حبان و الحاكم.. وبهذا اللفظ أيضاً ، ومن الطريق نفسها رواه أحمد في المسند . وأخرجه البخاري كذلك في « التاريخ الكبير » عن أنس ابن مالك رضي الله عنه ولكن بلفظ « شفاعتي لأهل الكبائر » وأخرج الترمذي في «كتاب القيامة » من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ــ بسنده عن معمر عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: قال : رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . وفي الباب عن جابر : ثم روى بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال محمد بن علي : فقال لي جابر : « يامحمد من لم يكن من أهل الكبائر ، فماله وللشفاعة ؟» قال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه يستغرب من حديث جعفر بن محمد. قال «صاحب تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي » : والحديث

ضعيف لضعف محمد بن ثابت ، ولكنه يعتضد بحديث أنس المذكور ، رواه الطبراني عن ابن عباس ، والخطيب عن ابن عمر وعن كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنهم. والحاجة إلى الشفاعة قائمة لرفع الدرجات، إن لم يكن المسلم ممن أشير إليهم في هذه النصوص . ونجد عند ابن ماجة رواية بزيادة « إنّ» المؤكدة ولفظ « يوم القيامة» حيث روى بسنده عن جابر بن عبدالله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي » وله في رواية أخرى تحمل شيئاً من التفصيل والتعليل عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « خُيِّرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى ، أترونها للمتقين ؟ لا ، ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين » قال البوصيري في الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

والملاحظ ، أن العلماء يتأولون هذا الحديث الذي خصّ بالشفاعة أهلَ الكبائر من الأمة، بأنه يعني الشفاعة التي هي دعوة النبي ﷺ التي ادخرها لأمته؛ فالإضافة في كلمة « شفاعتي» بمعنى ال العهدية، أي الشفاعة التي وعدني الله بها ، ادَّخرتها لأهل الكبائر من أمتي ، وفسّر ذلك ــ كما نقل عن المناوي ــ بأنه لوضع السيئات، والعفو عن الكبائر ، وأما الشفاعة لرفع الدرجات : فلكل من الأتقياء والصلحاء الذين استحقوا هذا الإكرام بتقواهم وصلاحهم . وقد ورد في بيان ذلك العديد من نصوص السنة المطهرة ، من ذلك ما أخرج الترمذي بسنده عن عطية عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أمتي من يشفع للفئام من الناس ، ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن .

ومهما يكن من أمر : فإن الأساس في الموضوع : أن يلقى المسلم ربه وهو على الدين الخالص، توحيداً لله تبارك وتعالى ، وبُعداً عن كل ما يعكر صفو هذا التوحيد ؛ وذلك بأن يموت ـ يوم يموت ـ وهو على قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خالصاً من قلبه ونفسه ، روى البخاري في كتاب العلم من الجامع الصحيح

بسنده عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : « لقد ظننت ياأباهريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولَ منك، لما رأيت من حرصك على الحديث !! أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة : من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه » . وفي رواية « من قِبَلِ نفسه» ومن الواضح أن في قول النبي ﷺ : «من قال لا إله الا الله » احترازاً من المشرك. ولابد من التنبيه على أن المراد من الحديث: النطق بالكلمة الطيبة بجزأيها ، لكن قد يكتفى ــ كما يقول العلماء ـ بالجزء الأول من كلمتي الشهادة لأنه صار شعاراً لمجموعهما . فإذا قال الموحد: « لا إله إلا الله ، فالمقصود : لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وقد اتجه الحافظ ابن حجر ، إلى أن أفعل التفضيل في قوله ﷺ: « أسعد الناس بشفاعتي..» على بابه ؛ فكل أحد يلقى الله على التوحيد الخالص ، يحصل له سعد بشفاعته عليه الصلاة والسلام ، ولكن المؤمن المخلص أكثر سعادة بها ؛ فإنه ﷺ يشفع في الخلق جميعاً لإراحتهم من هول الموقف والقضاء بينهم، ويشفع في بعض الكفار ، بتخفيف العذاب ، كما صح في حق أبي طالب ، ويشفع في بعض المؤمنين بالخروج من النار بعد أن دخلوها ، وفي بعضهم بعدم دخولها بعد أن استوجبوا دخولها ، وفي بعضهم بدخول الجنة بغير حساب ، وفي بعضهم برفع الدرجات فيها ؛ فظهر الاشتراك بالشفاعة ، وأن أسعدهم بها المؤمن ، المخلص والله أعلم .

هذا ولعل أباهريرة رضي الله عنه سأل هذا السؤال ، عند تحديثه ﷺ بقوله «وأريد أن أختبيء دعوتي شفاعة لأهل الكبائر من أمتي » ـ كما مر بنا ـ غير مرة . ثم إنه غير خافٍ ما يدل عليه قوله ﷺ « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو من قِبَل نفسه » من ضرورة الإخلاص في قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، الذي ينبني عليه ما ينبني ، وأن يكون ذلك باختياره . وقد وقع في رواية أحمد وصححه ابن حبان من رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه، ما يفيد ضرورة

تصديق القلبِ اللسانَ ، واللسانِ القلبَ ، وقد جاء في تلك الرواية « وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً وأن محمداً رسول الله يصدّق لسانَه قلبُه ، وقلبَه لسانُه ».

وجميل ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر في « الفتح » من أن الشفاعة المسؤول عنها هنا : بعض أنواع الشفاعة، وهي التي يقول ﷺ في شأنها : أمتي أمتي ، فيقال له : أخرج من النار من في قلبه وزن كذا من الإيمان ؛ فأسعد الناس بهذه الشفاعة ، من يكون إيمانه أكمل ممن دونه ، وأما الشفاعة العظمى في الإراحة من كرب الموقف: فأسعد الناس بالشفاعة : من يسبق إلى الجنة ، وهم الذين يدخلونها بغير حساب، ثم الذين يلونهم ، وهو من يدخلها بغير عذاب، بعد أن يحاسب ويستحق العذاب، ثم من يصيبه لفح النار ولا يسقط .

والحاصل ــ كما يقول الحافظ رحمه الله ــ أن في قوله « أسعد » إشارة إلى اختلاف مراتبهم في السبق إلى الدخول، باختلاف مراتبهم في الإخلاص ولذلك أكده بقوله : « من قلبه » مع أن الإخلاص ؛ محله القلب ، ولكن إسناد الفعل إلى الجارحة ، أبلغ في التأكيد والله أعلم .

الحوض.. والكوثر

من المشاهد العظيمة الغامرة بفضل الله و إحسانه يوم الدين ، مشهد الحوض وروده؛ وقد جاءت النصوص لتدل بوضوح لا يحتمل اللبس ، على أن نبينا محمداً ﷺ يكرمه الله بالحوض يوم القيامة ، وهو الحوض الذي من ورده شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، وثبت أنه ﷺفرط الأمة على الحوض ، أي سابقها إليه كالمهييء له .

قال القاضي عياض رحمه الله في «إكمال العلم» ـ كما نقل الإمام النووي ـ: أحاديث الحوض صحيحة ،والإيمان به فرض ، و التصديق به من الإيمان ، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة ، لا يتأول ولا يختلف فيه ، وحديثه متواتر النقل ، رواه خلائق من الصحابة .

قال الإمام مسلم : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يعقوب ، يعني ابن عبدالرحمن القاريّ، عن أبي حازم قال : سمعت سهلاً يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : « أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، وليَرِدَنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم » قال أبو حازم : فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث ، فقال : هكذا سمعتَ سهلاً يقول؟ فقلت : نعم ، قال : وأنا أشهدعلى أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول: «إنهم مني ، فيقال : إنك لا تدري ما عملوا بعدك ، فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي » .

كما عقد الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه: «باب في الحوض وقول الله تعالى : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ وقال عبدالله بن زيد قال النبي ﷺ : اصبروا حتى تلقوني على الحوض».

ثم جاء بعدد من الأحاديث كان منها ما روى بسنده عن أبي عوانة عن سليمان عن شقيق عن عبدالله عن النبي ﷺ « أنا فرطكم على الحوض » .

وقد جمع الروايات بطرقها الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه « البعث والنشور» بأسانيدها وطرقها المتكاثرات فقال القاضي عياض : وفي بعض هذا ما يقتضي كون الحديث متواتراً .

وهذا الذي نرى من كون النبي ﷺ فرط الأمة على الحوض ـ أي سابقها إليه ـ جاءت به الرواية عند مسلم وغيره أيضاً. قال الإمام مسلم : حدثني أحمد بن عبدالله بن يونس قال : حدثنا زائدة قال : حدثنا عبدالملك بن عمير قال: سمعت جندباً يقول : سمعت النبي ﷺ يقول :« أنا فرطكم على الحوض» .

وتضع الأحاديث أيدينا على صفات لهذا الحوض الذي يكرم الله به نبيه ﷺ ومن يقسم له أن يرده من أمته . روى البخاري بسنده عن ابن أبي مُليكة قال: قال عبدالله بن عمرو : قال النبي ﷺ : « حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبداً ». وله في الجامع الصحيح أيضاً عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه » ، قال أبو بشر: قلت لسعيد : إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : « النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه ». وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : « والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية. آنيةُ الجنة ، من شرب منها لم يظمأ آخر ماعليه ، يشخُب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ . عرضه مثلُ طوله، ما بين عمان إلى أيلة ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل» أخرجه مسلم.

وها نحن أولاء نجد الترمذي يختص صفة أواني الحوض بباب خاص في

كتاب القيامة من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ وقد أخرج بسنده هناك عن عبدالله بن الصامت عن أبي ذر قال : «قلت يارسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكِبها في ليلة مظلمة مصحية . آنيةُ الجنة ، من شرب منها شربة لم يظمأ آخر ماعليه ، عرضُه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وفي بيان لتلكم الكرامة العظيمة لإمام النبيين عليه الصلاة والسلام ، وتذكيرٍ للأمة بالعلاقة بين الكوثر والحوض، كيما تسلك طريق الشكر للنعمة ، وتكون لها الحظوة بذلك العطاء الإلهي لنبيها صلوات الله وسلامه عليه ... نجد الرسول الكريم، يكشف عن بعض ذلك في عدد من نصوص الهدي النبوي؛ روى أبو داود في كتاب السنة من السنن بسنده عن المختار بن فلفل قال: سمعت أنس ابن مالك رضي الله عنه يقول : « أغفى رسول الله ﷺ إغفاءةً فرفع رأسه متبسماً ، فإما قال لهم : وإما قالوا له : يارسول الله لم ضحكت؟ فقال: إنه أنزلت عليَّ آنفاً سورة فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ حتى ختمها فلما قرأها قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه نهر وعَدَنيه ربي عز وجل في الجنة ، وعليه خير كثير ، عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيتُه عدد الكواكب ».

وتطالعنا بعض الروايات ، بما فيه الجمع بين كونه ﷺ فرطَ الأمة على الحوض، وبين بعض صفات الحوض ؛ من ذلك ما روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ألا إني فرط لكم على الحوض، وإن بُعْدَ ما بين طرفيه كما بين صنعاءَ وأيلة كأن الأباريق فيه النجوم » .

اللهم آت أنفسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها. اللهم اجعلنا ممن يجدّون في طلب الآخرة بالاستقامة على طاعتك وطاعة رسولك ، علماً وعملاً ، وجهاداً، حتى نكون ممن يكرمون بورود حوضه ﷺ ، فلانظمأ بعد ذلك أبداً .

نصوص الحديث النبوي، واضحة الدلالة ، في إنبائها عما يكون من إكرام الله جل شأنه لإمام الهداة نبينا محمد علية الصلاة والسلام ، بالحوض المورود ، وكيف يتعدى ذلك إلى الأمة المحمدية ، حيث يتفضل الله على من يشاء بوروده على المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وأن من قُسم له أن يرده ، شرب ، ومن شرب منه شربة لم ينله ظمأ ، ولا سقم بعدها أبداً . وهنا لابد من وضع العلاقة بين الحوض وبين الكوثر الوارد ذكره في سورة الكوثر ، بالحسبان .

وتقودنا هذه الحقيقة التي دلت عليها الكلمات الهاديات ، إلى النظر فيما كان عليه السلف الصالح ــ جزاهم الله عن الأمة كل خير ـ من إيمان عميق بهذه المكرمة العظيمة ، حتى كأن الواحد منهم يراها في هذه الدار ــ حيث عالم الشهادة ــ ماثلةً أمام ناظريه . ومن سعي حثيث على طريق العبودية الخالصة والتقوى ، والنصح للأمة ، والمحبة الصادقة للرسول ﷺ ، وحسن اتباعه والتأسي به ، كيما يكونوا من أولئك الواردين على الحوض ، الذين ينعمون بما تفضل الله به عليه وعلى أمته ، وما خصّه به في الدنيا والآخرة، من الفضائل العظام.

قال الإمام الحجة أبو محمد عبدالحق الإشبيلي الأزدي المتوفى سنة ٥٨١ في كتاب « العاقبة » بين يدي إيراده أحاديث الحوض : (قد سمعت ـ رحمك الله ـ بعطش هذا اليوم والتهابه ــ يعني يوم القيامة ـ وما يصل إلى القلوب من أُواره واحتراقه ، وأن الماء في ذلك اليوم أعز موجود وأعظم مفقود ، وأن لا منهل مورود، إلا حوض صاحب المقام المحمود ﷺ ، ولا مشرب لأمته سواه ، ولا تبرد أكبادهم إلا به ، وأن الشربة منه ، تروي من الظمأ ، وتشفي من الصدى ، وتُذهب كل داء، فلا يظمأ شاربها ولا يسقم بعدها أبداً ، وأنها ترد العقل العازب ، والشباب

الذاهب ، ويؤوب معها من الزمن الصالح ما لم يكن قبل بآيب ، وأنه لا يرد ذلك الحوض إلا من ورد في الدنيا حوض شرعته ، وتمسك بسنته ، وتوفي على ملته، وإلا فيجلى عنه ، ولا يدنو منه ، ولا يكاد ، ويضرب عنه ضرباً تتقطع له الجوانح والأكباد).

وإذا كان تأكيد القناعة الإيمانية ، بأن الحوض محقّق الوجود ـ يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ نافعاً ، فإن متبصّراً بالنصوص، لا يرتاب في أن وصف النبي ﷺ له ـ كما مرّ بنا من قبل ـ لم يدع ريبة لمستريب ، في استيقان وجوده، الأمر الذي دعا أهل الخشية ، إلى الجمع بين الإيمان بهذه الحقيقة ، وبين العمل الذي يكون ـ بتوفيق الله ـ طريقهم إلى ورود الحوض ؛ونرا هم يدعون الله تعالى أن يرزقهم في الدنيا علمه، وفي الآخرة رزقه ؛ فإن من صفاته: أن من شرب منه لم يظمأ أبداً . أخرج الإمام مسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إني لَبِعُقْرِ حوضي أذود الناس لأهل اليمن ، أضرب بعصاي حتى يرفضّ عليهم . فسُئل عن عرضه فقال : من مقامي إلى عمان . وسئل عن شرابه ؟ فقال : أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، يَغُتُّ فيه ميزابان يمُدّانه من الجنة ، أحدهما من ذهب والآخر من ورق» .

عُقر الحوض : مؤخره ، وقوله : لأهل اليمن ، أي لأجل أن يرد أهل اليمن ، والذَّود : الطرد والدفع . يرفضُّ : يتفرق ، وارفضّ الدمع إذا جرى متفرقاً مترششاً ، والمراد : حتى يسيل عليهم ماء الحوض . وقوله ﷺ يَغُتُّ فيه ميزابان هو من غت الماءُ يَغُتُّ إذا جرى جرياً له صوت ، قال ابن الأثير : وقيل : يدفق الماء فيه دفقاً متتابعاً .

والنبي ﷺ يُرضيه ويُثلج صدره، أن يكون أكثر النبيين عليهم الصلاة والسلام وُرّاداً على حوضه ؛ لأن لكل نبي حوضاً ، والكل يريد كثرة الواردين. أخرج الترمذي بسنده عن قتادة عن الحسن عن سمُرة قال: قال رسول الله ﷺ :

«إن لكل نبي حوضاً وإنهم يتباهـون أيُّهم أكثرُ واردةً ، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة» . قال أبو عيسى : هـذاحديث غريب ، وقد روى الأشعـث بن عبدالملك هذا الحديث عن النبي ﷺ مرسلاً ولم يذكر فيه سمُرة ، وهو أصح .

ولما كان المصطفـى عليه الصـلاة والسلام ، فـرط الأمة على الحوض ، رأينـاه يدل من سأله الشفاعة يوم القيامة، على مواطن وجوده صلوات الله وسلامه عليه؛ وهـي الصراط والميـزان والحوض ، فـإن لم يلقـه على الصراط ولا عنـد الميـزان ، فليطلبه عند الحوض ، لأنه ﷺ لا يخطىء هذه المواطن الثلا ثة ـ كما مرّ ذلك من قبل ــ وقد روى الترمذي الحديـث الكاشف عن ذلـك في باب «ما جـاء في شأن الصراط» من جامعه الصحيح « السنن» قال رحمه الله : حدثنا عبدالله بن الصباح الهاشمي قال : حـدثنا بدل بن المحبَّر قـال : حدثنا حرب بـن ميمون الأنصاري أبو الخطاب قال : حدثنا النضر بن أنس بن مـالك عن أبيه قال : « سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يـوم القيامة ، فقال : أنـا فاعل ، قـال: قلت: يارسول الله، فـأين أطلبك ؟ قال: أولَ ما تطلبني على الصراط قال : قلت : فإن لم ألقك؟ وفي رواية ـ فإن لم ألفِك ـ أي أجدك ـ على الصراط ؟ قال : فاطلبني عند الميزان ، قلت : فإن لم ألقك عند الميـزان ؟ قال : فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطـيء هذه الثلاث المواطن ». قال أبوعيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وأخرجه الإمام أحمد ـ مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ ـ. جاء في المسند: حدثنا عبدالله قال : حـدثني أبي قال : حدثنا يونس بن محمـد قال : حدثنا حرب ابن ميمون عن النضر بن أنس عن أنـس رضي الله عنه قال : «سألت نبي الله ﷺ أن يشفع لي يـوم القيامة، قـال : أنا فاعـل بهم ، قال : فأيـن أطلبك يوم القيـامة يانبي الله قـال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط . قال : قلـت : فإذا لم ألقك على الصراط قال : فأنا عند الميزان ، قال : قلـت فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : فأنا عند الحوض لا أخطيء هذه الثلاث مواطن يوم القيامة ».

وهـذا الحديث الـذي دلّ على تلكم المواطـن التي لا يخطئهـا سيد العـالمين صلـوات الله وسلامـه عليه يـوم القيـامة ، والتـي تسبّـب بالكشـف عنها سـؤال الصحابي الجليل أنس بن مالـك رضي الله عنه النبي ﷺ الشفاعة ، أورده الحافظ ابن كثير في «البدايـة والنهاية » وقال : رواه الترمـذي من حديث بـدل بن المحبَّر وابن ماجة في سننـه من حديث عبدالصمد؛ كلاهما عن حـرب بن ميمون بن أبي الخطاب الأنصاري البصري مـن رجال مسلم ، وقد وثقه علي بـن المديني وعمرو ابن علي الفلاّس، وفرقا بينه وبين حرب بن أبي عبدالرحمن العبدي أيضاً .

ولنا عودة إلى هذا الحديـث الميمون ـ إن شاء الله ـ طلباً للمـزيد من الاستنارة بمعانيه وأبعاد الإيمان به في حياة أهل الإيمان ، ونسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعلنـا ممن يردون الحوض في ذلـك اليوم العصيب ، الحوضِ الـذي، من شرب منه شربة، لم يظمأ بعدها أبداً ، وهو ـ سبحانه ـ المحمود على كل حال .

الورود على الحوض متى يكون؟

البيان الشافي عن الحوض المورود ، ومكانته على ساحة الإكرام والمثوبة لعباد الله الصالحين ، الـذين لم يغيِّروا ولم يبدلوا ، وظلـوا على العهد ؛ وفاءً بالموثـق الذي قطعوه على أنفسهم بالإيمان ... هذا البيان في حديث النبي عليه الصلاة والسلام، صفحة مباركة، ينتظمها عقد ما يدل على عظيم قدره صلى الله عليه وسلم ومكانته الرفيعـة عند الله عـز وجل ـ ومـن ورائه أمته ــ وما يكـون له يوم القيـامة ــ حيث الأهوال العظام والمصائب الجسام التي تضرب على قلوب الناس بالأسداد ـ من خصائص ومكارم ، وهـو في الوقت نفسه، لون مشرق بالـغ التأثير ، من الهدي في دعوة المسلمين إلى الاستمساك بما مـنَّ الله عليهم ، من الكتاب والسنـة ، والعض بالنواجذ على ما فيهما من النور والهداية ــ وكل ما في الكتاب والسنة نور وهداية ـ والاستعـلاء على نوازع الأهـواء والشياطين ، كيما يكـون كـل مسلم ومسلمـة على الطريق التـي تصل بصاحبها ــ وهو يسارع إلى مغفرة الله وجنتـه في دار الخلد إلى منزلـة أن يكون ـ بـرحمة الله وفضله ـ أهلاً لـورود الحوض على نبيه الشافـع المشفَّع عليه الصلاة والسـلام ، فيشرب منه ، ولا يظمأ بعد ذلك أبـداً، ولا يذاد عنه، كما تذاد الإبل الضالة ، يطردها من يطردها عن ورود الماء .

أقول هـذا : لأنه قد ثبـت في صحاح الأحاديـث : أن الرسول ﷺ يـرى يوم القيامـة أناسـاً من أمتـه يذادون عـن الحوض، كما تذاد الإبـل الضالـة ، فيقول : «أليسوا من أمتي ؟ فيقال له : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ».

وأنـت ترى أن الله تعـالى ، شـاء بحكمته أن يكـون المصطفـى عليه الصـلاة والسلام فَـرَطَ الأمة على الحوض ، وقد كشف ﷺ في كثير مـن أحاديثه عـن ذلك، فأبان أنه فـرط أمته على الحوض، أي سابقهم كالمهيىء له . وذلـك وجه من وجوه

رحمته بالمؤمنين إذ أنه ـ كما صنعه سبحانه على عينه ـ بالمؤمنين رؤوف رحيم .

وحين يدار الحديث عن رأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين ، تطل على هذه الساحة واحدة من وقائع كثيرة ، تدل أوضح دلالة على رأفته ورحمته بالواحد من أفراد الأمة؛ فهو لا يضيق ذرعاً براغب في الشفاعة يوم الحساب ، يلحُ عليه في الطلب، والسؤال عن موعد اللقاء في عرصات القيامة ، ويكون الحوض ثالث ثلاثة من المواطن التي حدّدها صلوات الله وسلامه عليه، مكاناً لهذا اللقاء ، كي يحقق للسائل طلبته في أن يفوز بشفاعته ﷺ ، ويسلكه الله في زمرة من يخلدون في الجنة دار المتقين ، وهو الرحيم المتفضل سبحانه .

ودليل ذلك ما جاء في رواية لأحمد والترمذي ، أوردتها في مناسبة أخرى، أن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، سأل النبي ﷺ الشفاعة وكان من جواب الرسول الكريم: أنه فاعل إن شاء الله . ويصرُّ أنس على معرفة المكان الذي يطلب فيه الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، كي يطمئن قلبه ، ويستريح إلى أنه من أهل الشفاعة بإذن الله، يدعوه إلى ذلك أدبه مع الله وخشيته بالغيب ، وصدق محبته لنبيه صلى وسلم وبارك عليه .

ولما استجاب ﷺ لطلبه قال له : يارسول الله فأين أطلبك ؟ قال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط ، وخشي أنس أن لا يقسم له لقاء ، فقال : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : «فاطلبني عند الميزان . وكذلك احتاط رضي الله عنه للأمر بعد الثانية فقال : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ عندها قال صاحب الحوض المورود عليه الصلاة والسلام : « فاطلبني عند الحوض المورود ؛ فإني لا أخطىء هذه الثلاث مواطن ». أرأيت إلى خلق الرأفة والرحمة الذي وصف الله به نبيه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، كيف تجلّى واضحاً مشرقاً غاية الإشراق في هذه الواقعة التي سوف تقع في يوم يشيب لهوله الوليد ؟

وفي حديث موصول بما سبق ، نذكر ما أخرج أبوبكر البزار بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا فرط بين أيديكم ، فإن لم تجدوني فإني على الحوض ، وسيأتي أقوام رجال ونساء ، ثم لا يذوقون منه شيئاً ».

هذا وسؤال أنس بن مالك رضي الله عنه النبي ﷺ الشفاعة يوم القيامة، دعا العلماء للتساؤل عن هذه الشفاعة ، فقالوا : المقصود بالشفاعة التي سألها أنس كما جاء النص: الشفاعة الخاصة من بين هذه الأمة ، دون الشفاعة العامة . وتبياناً لقوله : قلت يارسول الله فأين أطلبك ؟ قال الطيبي رحمه الله : أي في أي موطن من المواطن التي أحتاج لشفاعتك أطلبك لتخلصني من تلك الورطة ؟ فأجاب ﷺ : «عند الصراط ،وعند الميزان ، وعند الحوض » أي أفقر الأوقات إلى شفاعتي: هذه المواطن .

وقد يبدو شيء من التعارض الظاهري بين ما يتقرر في هذا الحديث، وبين الذي مر بنا من قبل ، من حديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه أبوداود: فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال ﷺ: « أما في ثلاثة مواطن : فلا يذكر أحد أحداً،عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل؟،وعند الكتاب حين يقال: هاؤم اقرؤوا كتابيه حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره؟، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم » قال الطيبي : جوابه لعائشة بذلك ، لئلا تتكل على كونها حرمَ رسول الله ﷺ ، وجوابه لأنس ، كيلا ييأس.

واتجه بعض العلماء في التوفيق بين الحديثين اتجاهاً آخر : فقد نقل صاحب تحفة الأحوذي عن القاري قوله : فيه أنه خادم رسول الله ﷺ ، فهو محل الاتكال أيضاً ، مع أن اليأس غير ملائم له أيضاً. فالأوجه أن يقال : إن الحديث الأول محمول على الغائبين ، فلا أحد يذكر أحداً من أهله الغُيَّب، والحديث الثاني محمول على من حضره من أمته . وهكذا بّين النبي عليه الصلاة والسلام لأنس

رضي الله عنه ، ومن وراء ذلك للأمة ، أنه لا يتجاوز هذه المواطن الثلاثة في ذلك اليوم العصيب الزاخر بالمشاهد المؤذنة بالمصير ، ولا أحد يفقده فيهن جميعاً ، فلابد أن يلقاه في موضع منهن .

وتحسن الإشارة بعد هذا : إلى أن الحديث يدل على أن الحوض بعد الصراط ، وإلى ذلك أشار الإمام البخاري في صحيحه ، حيث أورد أحاديث الحوض بعد أحاديث الشفاعة وبعد نصب الصراط ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح : وإيراد البخاري لأحاديث الحوض ، بعد أحاديث الشفاعة وبعد نصب الصراط : إشارةً منه إلى أن الورود على الحوض ، يكون بعد نصب الصراط والمرور عليه، وأيَّدَ ذلك بالحديث الذي نحن بصدده .

ثم ذكر الحافظ ، أنه قد استشكل كون الحوض بعد الصراط ، بما ورد - كما سيأتي - من أن جماعة يُدفعون عن الحوض، بعد أن يكادوا يردون ، ويُذهب بهم إلى النار . ووجه الإشكال: أن الذي يمر على الصراط، إلى أن يصل إلى الحوض، يكون قد نجا من النار ، فكيف يُرد إليها ؟ قال رحمه الله : ويمكن أن يحمل على أنهم يقربون من الحوض ، بحيث يرونه ويرون النار ، فيدعون إلى النار ، قبل أن يخلصوا من بقية الصراط . وذهب أبو عبدالله القرطبي في كتابه « التذكرة في أحوال الموت وأمور الآخرة » إلى أن الصحيح - كما يرى - أن للنبي ﷺ حوضين؛ أحدُهما في الموقف قبل الصراط ، والآخر داخلَ الجنة ، وكل منهما يسمى كوثراً ، ولم يرتض الحافظ ذلك ،لأن الكوثر نهر داخل الجنة - كما تدل النصوص - وماؤه يصب في الحوض ، ويطلق على الحوض كوثر لكونه يُمَدُّ منه .

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

عمر بن عبدالعزيز.. وورود الحوض

كلما أنعم المؤمن النظر فيما يكون يوم القيامة من مشاهد وأهوال ، وما يطلع على الناس، من المكرمات العظام لنبينا محمد ﷺ ، ومنها الحوض المورود، وإكرام الأمة المحمدية بوروده والشرب منه، إلا من أثقلته المعوقات ، أو دُفع عنه بسبب مخالفته عن أمر الله ورسوله .. كلما أمعن المؤمن النظر في هذا ، ازداد إيماناً بضرورة التصديق الذي لا تشوبه شائبة ، بأن ما أخبر عنه الرسول ﷺ واقعٌ لا محالة ، وأن على المؤمن ــ في هذه الدار ـ وهي مزرعة الآخرة ــ أن يبذل قصارى جهده على طريق العمل الصالح والتقوى ، كي يكون يوم القيامة من الفائزين، ويحظى بكرامة الورود على ذلك الحوض الذي صحَّ من صفاته العظيمة، ما صحّ عن النبي ﷺ .

وقد سلف القول فيما كان من اختلاف العلماء، في أن الحوض ؛ هل هو قبل الصراط ، أو بعده ،وما رجحه الحافظ وكثير من العلماء، أنه بعد الصراط ، غير أن الأهم في الموضوع ، ما ذكرت من ضرورة الإيمان به ، والعمل على أن يكون المسلم من أهل وروده إن شاء الله .

من أجل هذا : كانت النقمة الشديدة بعد ثبوت النصوص التي بلغت مبلغ التواتر ـ كما يرى المحققون ـ على من يبدو منه شيء من التشكك في أمر الحوض وورده ؛ فقد سمع أنس رضي الله عنه قوماً يتذاكرون الحوض ، فقال : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتحاورون في الحوض ، لقد تركت عجائز خلفي ، ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي ﷺ .

قال القرطبي في « الجامع لأحكام القرآن » : وفي حوضه يقول الشاعر :

ياصاحب الحوض من يدانيكا ... وأنت حقاً حبيب باريكا

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره ـ يعني الحوض ـ قد أعطيه رسول الله ﷺ زيادة على حوضه صلى الله عليه أزكى صلاة وسلَّم تسليماً كثيراً .

ولكم كان أهل الخشية والإيمان بالغيب، إيمانَهم بعالم الشهادة ، يخافون على أنفسهم، أن لا يكون لهم حظ الورود الذي هو من أعظم ما يكرم به المؤمنون يوم الدين . ذلك لأن الكيِّس ـ كما قال عليه الصلاة والسلام ـ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني . قال بعض العلماء عند الكلام على قول الرسول ﷺ :« إن لكل نبي حوضاً يُباهون أيُهم أكثر واردة ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة » : فهذا رجاء رسول الله ﷺ ؛ فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين، وليحذر أن يكون متمنياً ، ومغتراً ، وهو يظن أنه راج ، فإن الراجي للحصاد: من بث البذر ، ونقى الأرض وسقاها الماء، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ، ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد . أما من ترك الحراثة والزراعة وتنقية الأرض وسقيها: وأخذ يرجو من فضل الله ، أن ينبت له الحب والفاكهة ، فهذا مغتر ومتمن ، وليس من الراجين في شيء ، وهكذا رجاء أكثر الخلق، وهو غرور الحمقى نعوذ بالله من الغرور والغفلة ، فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا ، قال الله تعالى : ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾.

وهذا يقودنا إلى مثل رائع من أمثلة الإيمان العميق، بما جاء عن النبي ﷺ في شأن الحوض ، والحرص على السلوك الموصل بعون الله، إلى الفوز بمكرمة الورود عليه، والشرب منه ، مع صدق الإنابة والتحسر على التقصير .. ذلكم هو خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ورضي عنه .

قال الإمام الترمذي : حدثنا محمد بن اسماعيل قال: حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا محمد بن المهاجر عن العباس عن أبي سلام الحبشي قال : بعث إليّ عمر بن عبدالعزيز ، فحملت على البريد قال : فلما دخلت عليه قلت : يا أمير المؤمنين

لقد شق علي مركبي البريد ، قال يا أبا سلام ما أردت أن أشق عليك ، ولكن بلغني عنك حديث تحدثه عن ثوبان عن النبي ﷺ في الحوض ، فأحببت أن تشافهني به، قال أبو سلام : حدثني ثوبان عن النبي ﷺ قال : حوضي من عدن إلى عمان البلقاء ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأكاويبه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين ، الشعث رؤوساً ، الدنس ثياباً ، الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السُّدَد » قال عمر : « لكني نكحت المتنعمات ، وفتح لي السُّدَد ، ونكحت فاطمة بنت عبدالملك ، لا جرم أني لا أغسل رأسي حتى يشعث ، ولا أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ ». قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد رُوي هذا الحديث عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان عن النبي ﷺ ، وأبو سلام الحبشي اسمه ممطور وهو شاميّ ثقة .

ثم إن الذي فعله عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، لا يعدو أن يكون العدول عما هو تجاوز للحد المطلوب في النظافة والتنظيف ، مما يعد تنعُّماً وترفاً ، وليس النظافةَ المطلوب شرعاً أن يكون عليها المؤمن ؛ وإذا لوحظ ما كان عمر أجزل الله مثوبته من الترف ، قبل أن يلي الخلافة ، ازداد الأمر وضوحاً فيما عناه ، جزاه الله عن الأمة كل خير .

من كذب به.. لا سقاه الله منه

ما من ريب في أن المؤمن المصدق بما جاء عن رسول الله ﷺ من الغيب، كالذي أوردت من أحاديث الحوض فيما سبق، يكون في نعمة غامرة من الطمأنينة واستنارة القلب وراحة النفس في الدنيا، كما يكون له ـ إذا مات على ما ذاق من حلاوة ذلك الإيمان ـ الحظ الأوفى في الآخرة إن شاء الله ؛ وما ظنك بأولئك الذين يمشي نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، ويردون على الحوض يشربون منه، حيث رسول الله ﷺ فرطهم عليه!! أما أولئك الذي يغشاهم من الشك ما يغشاهم: فلا تسل عما يساورهم من القلق النفسي، والتوهم المضني ،والحيرة القاتلة ؛ فهم على حال ينهش قلوبهم فيها الاضطراب ، ولا يفتؤون يصطلون بنار الخواء الروحي. وما أسوأ أن يهمل المرء عقله، ويتجاوز الدليل الناصع والحجة القاطعة، إلى حيث سلطانُ الهوى والشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، فهنالك الخسران المبين في الدنيا ويوم الدين .

أخرج أبو داود بسنده إلى أبي طالوت عبدالسلام بن أبي حازم قال: « شهدت أبا برزة رضي الله عنه دخل على عبيد الله بن زياد، فحدثني فلان، سماه مسلم، يعني ابن إبراهيم، وكان في السِّماط ، فلما رآه عبيد الله قال : إن محمديكم هذا الدحداح ـ يعني القصير ـ ؟ ففهمها الشيخ فقال : ما كنت أحسب أني أبقى في قوم يعيرونني بصحبة محمد ﷺ ، فقال له عبيد الله : إن صحبة محمد ﷺ لك زين غير شين، ثم قال : إنما بعثت إليك لأسألك عن الحوض ، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر فيه شيئاً ؟ قال أبو برزة : نعم ، لا مرة، ولا اثنتين، ولا ثلاثاً ، ولا أربعاً ، ولا خمساً ، فمن كذَّب به فلا سقاه الله منه، ثم خرج مغضباً ».

السِّماط : الصفُّ من الناس .

وأورد الحافظ عبدالرزاق الصنعاني هذه الواقعة في المصنف، برواية فيها طول، وذلك عن عبدالله بن بريدة الأسلمي قال : (شك عبيد الله بن زياد في الحوض، الذي يُذكر ـ وكانت فيه حرورية ـ ميل إلى الفرقة من الخوارج ، فقال : أرأيتم الحوض، ما أراه شيئاً ، فقال له ناس من صحابته : فإن عندك رهطاً من أصحاب النبي ﷺ ، فأرسل إليهم فاسألهم . فأرسل إلى رجل من مزينة ، فسأله عن الحوض، فحدثه، ثم قال : أرسل إلى أبي برزة الأسلمي، فأتاه وعليه ثوبا حَبِرَةٍ، قد ائتزر بواحد وارتدى بالآخر، قال راوي الخبر : وكان رجلاً لحيماً إلى القصر فلما رآه عبيد الله ضحك ثم قال : إن محمديكم هذا الدحداح ؟ قال : ففهمها الشيخ فقال : واعجباه ، ألا أُراني في قوم يعدُّون صحابة محمد ﷺ عاراً !! قال : فقال له جلساء عبيد الله : إنما أرسل إليك الأمير ليسألك عن الحوض؛ هل سمعت رسول الله ﷺ يذكره ؟ قال : نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يذكره ، فمن كذب به فلاسقاه الله منه . قال : ثم نفض رداءه وانصرف غضبان. فأرسل عبيد الله إلى زيد بن الأرقم ، فسأله عن الحوض ، فحدثه حديثاً مونَقاً أعجبه ، فقال : إنما سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : لا ... ولكن حدثنيه أخي . قال: فلا حاجة لنا في حديث أخيك) .

ويبدو أن الحديث الذي نفى زيد أن يكون سمعه من رسول الله ﷺ ، هذا الحديث.. وإلا فقد حدث هو بأحاديث عديدة عن الحوض ، فقال أبوسبرة ـ رجل من صحابة عبيد الله ـ: فإن أباك حين انطلق وافداً إلى معاوية رضي الله عنه، انطلقت معه، فلقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فحدثني من فيه إلى فِيَّ حديثاً سمعه من رسول الله ﷺ ، فأملاه عليَّ وكتبته ، قال : فإني أقسمت عليك لما أعرقْتَ هذا البرذون ،حتى تأتيني بالكتاب ، قال : فركبت البرذون، فركضته حتى عرق، فأتيته بالكتاب ، فإذا فيه: (هذا ما حدثني عبدالله بن عمرو ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « « إن الله يبغض الفُحْشَ والتَّفَحُّشَ ، والذي نفس محمد بيده، لاتقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفحش وسوء

الجوار ، وقطيعة الأرحـام ، وحتى يُخوَّن الأمين ويؤتمن الخائن ، والذي نفـس محمد بيده، إن أسلم المسلمين ،لمن سلم المسلمون من لسانه ويده ، وإن أفضل الهجرة، لمن هجر مـانهاه الله عنه ، والـذي نفسي بيده ، إن مثل المؤمـن كمثل القطعـة من الذهب، نفخ عليهـا صاحبها، فلم تتغير ولم تنقص ، والذي نفـس محمد بيده، إن مثل المؤمـن كمثل النحلـة، أكلت طيباً ووضعـت طيباً ، ووقعـت فلم تكسر ، ولم تفسد ، ألا وإن لي حوضاً ما بين ناحيتيه كما بين أيلة إلى مكة ، أو قال : صنعاء إلى المدينة، وإن فيه من الأباريق مثل الكواكـب ، هو أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسـل؛ من شرب منـه ،لم يظمأ بعـدها أبـداً » قـال أبو سبرة : فـأخذ عبيـد الله الكتاب، فجزعت عليه ، فلقيت يحيى بن يعمر ، فشكوت ذلك إليه . فقال : والله لأنا أحفظ له مني لسورة من القرآن ، فحدثني به كما كان في الكتاب سواء).

هذا ، وقد سبقت الإشارة فيما مضى إلى أن كثيراً من المحققين يرون بالدليل، أن أحاديث الحوض، بلغت مبلغ التواتر، فالسعيد السعيد : من استمسك بما جاء عن الله ، وعـن الصادق المصدوق عليه الصـلاة والسلام، ولم يصرفه صـارف عن مقتضى التصديق الجازم، ثم راح يعمل بعمل المخبتين المقربين، الذين لا تلهيهم الدنيا بمتاعها وزخرفها عن الآخرة، الآخرة التي هي دار البقاء، وفيها من إكرام الله لنبيـه ﷺ ، ولمن آمن بـه وصدق بما جـاء بـه ، مالا عين رأت ولا أذن سمعـت ولا خطر على قلـب بشر ؛ وكما أن الحوض مكرمة تفضـل اللهبها على نبينـا صلوات الله وسلامـه عليه، فورود ذلـك الحوض ، من فضـل الله على الأمة المحمديـة ، وهنيئاً للصادقين صدقهم ، يردون ذلك الحوض ، ويشربـون منه ، فلا يظمؤون بعد ذلك أبداً .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين ـ الذي استودع الأمة أمانة الإيمان بالغيب والعمل بما يقتضيه ذلك الإيمان ـ ، وعلى آله وصحابته الذين لم يغيِّروا ولم يبدِّلوا ، أما المنافقون : فلهم شأن آخر !

ولعل من الخير أن نشير ، إلى أن ما كان من عبدالله بن زياد وميله إلى رأي الخوارج في الحوض، يذكّر ـ وبضدها تتميز الأشياء ـ بما ذكرنا من قريب عن خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وأرضاه، الذي كان ـ على عظيم عدله وورعه وتقواه ـ يخشى أن لا يكون من الذين يردون الحوض ، وأن يحجزه عن ذلك ، ما حظي به من نعيم الدنيا ، مع أنه كان من أزهد الناس فيها، وهو في سدة الحكم ، بل كان رحمه الله مضرب المثل في ذلك . أما عبيدالله هذا !!ـ وكان والياً على البصرة والكوفة ـ فإلى جانب إساءته البالغة في قتله الحسين رضي الله عنه سبط رسول الله ﷺ ... والمخالفةِ عما يليق من سلوك الوالي مع أصحاب الرسول ﷺ فيما هو ثابت على أكمل وجه من الصحة، صدر عنه ذلك التشكك الجاهل المُهين .. وقد ذكر الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية» أنه كانت في ابن زياد، جرأة ومبادرة إلى ما لايجوز ، ومالا حاجة به؛ لما ثبت في الحديث الذي رواه أبو يعلى ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ «أن عائذ بن عمرو ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ـ دخل على عبيدالله بن زياد فقال : أي بُني !! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن شر الرعاء الحطمة فإياك أن تكون منهم » فقال له : اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ ، فقال : وهل كانت لهم نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم ».

« الحطمة »: هو العنيف برعاية الإبل في السوق والإ يراد والإصدار ، يلقي بعضها على بعض ويشتد عليها. ضرَبه ﷺ مثلاً لوالي السوء ، ويقال أيضاً : «حُطم» بلاهاء . نخالة : يعني أن عائذاً ليس من فضلاء الصحابة وعلمائهم . وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه .

قال ابن كثير : وروى غير واحد عن الحسن أن عبيدالله بن زياد ، دخل على معقل بن يسار يعوده . فقال له : إني محدثك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من رجل استرعاه الله رعية، يموت يوم يموت ، وهو غاش رعيته، إلا حرم الله عليه الجنة ».

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنـا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾
اللهم لا تضلنـا بعد الهدى ، واحفظنا من نـزغات الشياطين والهوى، وأوردنـا يوم القيامة حوض نبيك المصطفى عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم . والحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ...

في مستهل هذه الكلمات الموصولة بالحديث عن مكرمة الحوض التي أعطيها النبي عليه الصلاة والسلام ، أود أن أدعو بما دعا به بعض علمائنا يرحمهم الله حين قال: اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة ، خصّ الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم. وقد اشتملت الأخبار على وصفه، ونحن نرجو أن يرزقنا الله في الدنيا علمه ، وفي الآخرة ذوقه ؛ فإن من صفاته: أن من شرب منه لم يظمأ أبداً .

والواقع أن من التوفيق ، أن يدعو المؤمن ربه مخلصاً، بأن يرزقه الله في الدنيا إيماناً ، يثمر العلم بتلك المغيَّبات التي أخبر عنها الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ـ ومن عيونها : الحوض المورود ـ وأن يرزقه كذلك، ورود هذا الحوض والشربَ منه يوم الجزاء ،فإنه لا يحرم ذلك إلا محروم ، وقد دعا بعض أصحاب النبي ﷺ ـ كما أسلفنا ـ على من كذَّب به أن لا يسقيه الله عز وجل منه.

ومن البداهة بمكان ، وجوب أن يكون المؤمن شديد الخوف من مثل هذا ، حريصاً الحرص كلَّه ، على تجنب ما يورث الوقوع فيه أو فيما يوصل إليه . جاء في مسند أحمد قول عبدالله ابنه : حدثني أبي قال: حدثنا عبدالرزاق قال: أنبأنا معمر عن مطر عن عبدالله بن بريدة الأسلمي قال : « شك عبيدالله بن زياد في الحوض ، فأرسل إلى أبي برزة الأسلمي، فأتاه ، فقال له جلساء عُبيدالله : إنما أرسل إليك الأمير ليسألك عن الحوض ، فهل سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ؟ قال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يذكره ، فمن كذب به فلا سقاه الله منه » وقد مرّ بنا ـ من قريب ـ ما روى أبوداود في السنن وعبدالرزاق في المصنف من أن عبيدالله بن زياد، كان منه موقف الإنكار للحوض ، وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أنه قد رجع عن ذلك والله أعلم بحقيقة الحال . قال الحافظ : وعند أحمد من طريق

عبدالله بـن بريـدة عن أبي سبرة الهذلي قال : «قـال عبيدالله بـن زياد : مـا أصدِّق بالحوض ، وذلك بعد أن حدثه أبوبرزة والبراء ، وعائذ بن عمرو ؛ فقال له أبوسبرة: بعثني أبوك في مال إلى معـاوية ، فلقيني عبدالله بن عمرٍو فحـدثني، وكتبته بيدي من فيه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : مـوعدكم حوضي ..» الحديث . فقال ابن زياد حينئذ: أشهد أن الحوض حق ». ويبدو أن الصحابة الذين حدثوا هذا الوالي عن الحوض كان يسوءهم ما يرون منه في شأن التصديق ، وليس هذا غريباً ، فهم على اليقين الذي لا يتزعزع مـن التصديق بذلك ، ويرون منـه ما يرون !! روى أبو يعلى الموصليُ من طريق سليمان بن المغيرة عن ثـابت عن أنس رضي الله عنه قال: «دخلت على ابـن زياد ــ وهم يذكـرون الحوض ـ فقال : هـذا أنس فقلـت : لقد كانت عجائز بـا لمدينة كثيراً ما يسألن ربهن أن يسقيهن مـن حوض نبيهن ». قال الحافظ: وسنده صحيح .

والحق أنه فيما وراء التصـديق ـ وقـد تواترت أحـاديث الحوض ـ فـإن النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ـ لم يدع أن يرغب في كل ما ينتهي با لمسلـم إلى ورود الحوض، ويرهّب مما يمكن أن يجعله من المحرومين مـن ورده حفظنا الله من ذلك ؛ فـا لمؤمنون المستقيمون على طـاعة الله الذين يقومون بعبادته جل وعلا حـق القيام ـ وفي مقدمة ذلك الصلاة بشرائطها وأركانها وواجباتها وسننها والخشـوع فيها ، وكل ما يتعلق بها من الطهـارة الظاهرة والطهارة البـاطنة ـ.. هـؤلاء المؤمنون المتقون يعـرفهم النبي ﷺ حين يـردون عليه الحوض، غراً محجلين من أثر الوضوء ، ليست لأحد غيرهم، ونعمت الكرامة هذه، ونعم عطاء الكريـم هذا . أخرج ابن ماجة بسنده عن ربعـي عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن ، والذي نفسي بيده لآنيتُه أكثر من عدد النجوم ، ولهو أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل، والـذي نفسي بيده إني لأذود عنـه الـرجال كما يـذود الـرجل الإبـل الغـريبة عـن حوضه. قيـل : يارسول الله أتعرفنـا ؟ قال : نعم تردون عليَّ غُـراً محجلين من أثر

الوضوء ،ليست لأحد غيركم » وأخرج بسنده أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ «أنه أتى المقبرة فسلّم على المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون . ثم قال: « لوددنا أنا رأينا إخواننا» قالوا : يارسول الله أو لسنا إخوانك ؟ قال : أنتم أصحابي . وإخواني الذين يأتون من بعدي ، وأنا فَرَطُكم على الحوض . قالوا : يارسول الله ، كيف تعرف من لم يأت من أمتك ؟ قال : أرأيتم لو أن رجلاً له خيلٌ غُرٌّ محجلة بين ظهراني خيل دُهْمٍ بُهْمٍ، ألم يكن يعرفها ؟ قالوا : بلى . قال : فإنهم يأتون يوم القيامة غُرّاً محجَّلين من أثر الوضوء ، قال : أنا فرطكم على الحوض ...» الحديث .

ولا يدع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، أن يرغب في كل ما من شأنه النجاة يوم القيامة ، وورود الحوض ، ويرهّب من كل ما هو عكس ذلك . ها هو ذا ترغيبه ﷺ في استقامة السلوك ، وتحكيم ضوابط الإسلام في كل ما يأخذ المسلم أو يذر ، في علاقته بالآخرين ، مهما علت منازلهم في هذه الدار أو دنت. فمن اقتحم العقبة ، وحكّم في كل شأن من شؤونه معايير الكتاب والسنة ، فهو القريب من الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويرد عليه الحوض ، ومن خالف عن أمر الله ورسوله ، واتبع هواه في معاونة الظالمين ، ومظاهرة أهل الباطل، وتصديقهم بكذبهم ، وحيفهم على أهل الحق ، فليس من الرسول ﷺ في شيء ، وليس الرسول ﷺ منه في شيء ، ولا يرد عليه الحوض . قال الحافظ أبوبكر عمرو ابن عاصم الشيباني المتوفى سنة سبع وثمانين ومائتين في كتاب « السنة» : حدثنا أبوبكر قال : حدثنا الفضل بن دكين عن سفيان عن أبي حصين عن عاصم العدويِّ عن كعب بن عجرة قال : قال : رسول الله ﷺ : « إنه سيكون بعدي أمراء ، فمن دخل عليهم ، فصدَّقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس مني ولست منه ، وليس يرد عليَّ الحوض ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فهو مني وأنا منه ، وهو وارد عليّ الحوض ». ثم أورده من طريق أخرى من رواية الشعبي قال: حدثني العدوي عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ مثله.

واذا كـان الأمر كـذلك : فـالواجـب أن يبادر المسلـم إلى عمل مـا رغّب بـه الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام ، واجتناب ما نهى عنه، وحذَّر من الوقوع في حمأته ، كيما يبرهن على محبته له عليه الصـلاة والسلام ، ويرد عليه الحوض، وتلكم هي السعـادة الحقيقية ؛ أما طاعـة الشيطان والهوى ، وممالأة الظالمين وتصـديقهم بكذبهم : فتلكم قاصمة الظهر ، وبريد الخسران يوم العرض على الله ، وعدمُ ورود الحوض على الرحمة المهداة صلوات الله وسلامه عليه .

ألا إنه البـلاغ المبين من سيد الخلـق ﷺ، والعاقل مـن استمع القول فـاتبع أحسنه ، ولم يدع أن يسلك في عاجلته الطريق المأمونة التي تنتهي به ـ بفضل الله ـ أن يكون في الآجلة من أولئك الذين يعرفهم رسول الله ﷺ بسيماهم ، ويردون عليه الحوض . ولله عاقبة الأمور .

السمة التـي أوضح النبـي ﷺ ، أنه يعْـرف أبناء الأمـة بها، وهم يـردون عليه الحوض، ألاوهـي أنهم يردون غـرّاً محجلين مـن آثار الـوضـوء ، وهي لهم وليسـت لأحدغيرهم.. هذه السمة المباركة التي كشف عنها الهدي النبوي، يحمل ذكرُها ما يحمل من الترغيب في سلوك السبيل التي تجعل المسلم ـ كما سلف من قبل ـ من أهل الورود على الحوض ، والخطوة بالشرب منه ، ولا تسل عن السعادة الغامرة في ذلك ، حيث يحصل هذا والرسول ﷺ هناك ، لما أنه فرط الأمة على الحوض .

وليـس مـن مكـرور القـول ، التذكير بحقيقـة أن المصطفـى عليـه الصـلاة والسلام، لم يدع ـ وهو إمام الهداة وسيد الرحماء ــ أن يرغِّب أبداً في كل ما هو خير في الدنيا والآخـرة ، وأن يحذر من كل ما هو شر كـذلك . وكان من مظـاهر تلكم الهداية النبوية ، أنه فتح للأمة طريق الرغَب بالدلالة على ما يضمن ـ بتوفيق الله ـ الورود على الحوض والشرب منه ، كما آذن بشتى أساليـب التذكير ، بالوعيد على ما يكون سبباً في الحيلولة دون المسلم ، ودون أن يَسْعد بالورود والشرب ، وهذا من الأسلوب العملي الموفق غـايه التوفيق، في تـربية النبي ﷺ وهديـه ، فهو يدل على الغاية العظيمة، ويرسم طريقها ، مرغباً مبشراً ، ويحذِّر من الداهية المنكرة، ويشير إلى ما هو سبيلها ، متوعِّداً منذراً.

من أجل هذا، كان لابد من متابعـة الرحلة مع تلكم النصوص، التي تجلَّت فيها عظمـة الهدي النبوي ، والحكمةُ الـرائعة في تـوجيهه عليه الصـلاة والسلام ، وكريمِ يده الصّنـاع ، التي اتخذت من التذكير بالآخرة ، والترغيـب فيما يكون من تكرمة الله لعباده المؤمنين هناك ـ ومن ذلك ورود حوضه صلوات الله وسلامه عليه الذي أكرمـه الله به وأعطاه الكوثر يَمُـدُّه من الجنة ـ اتخذت من ذلـك وسيلة، هي من أنجـع الوسـائل في إعطاء العمـل الأخروي حقـه، في هذه الحيـاة، بعيداً عـن

الغفلة والنسيان ، أخرج الإمام مسلم بسنده عن سعد بن طارق عن ربيع بن حراش عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن حوضي لأبعد من أيلة من عدن والذي نفسي بيده إني لأذود عنه الرجال كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن حوضه. قالوا : يارسول الله وتعرفنا ؟ قال : نعم ، تردون عليّ غراً محجّلين من آثار الوضوء ليست لأحد غيركم ».

والملاحظ هنا : أن الوضوء الذي هو مفتاح الصلاة ـ وهي أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين ـ تكون آثاره نوراً على مواضعه في جبهة المؤمن وغيرها يوم القيامة ؛ وبهذا النور ، يعرف محمد ﷺ أمته .

قال أهل اللغة : الغرة بياض في جبهة الفرس ، والتحجيل بياض في يديها ورجليها ، ومن هنا قال العلماء: سمي النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة : غرة وتحجيلاً ، تشبيهاً بغرةالفرس والله أعلم . فالمسلمون الذين عُنوا بتلكم الفريضة العظيمة المباركة وإسباغ الوضوء لها ـ كما ينبغي ـ يردون على النبي ﷺ وهو على الحوض ، غراً محجلين ، يسطع النور من وجوههم ومن بقية المواضع من آثار الوضوء . أجل يردون على النبي ﷺ ـ وهو فرط الأمة عليه ـ يتقدمهم ليرتاد لهم ويهيء لهم، ما يحتاجون إليه مما يضمن سلامة الورود والشرب.

وفي هذا الحديث وأمثاله ـ كما يقول الإمام النووي ـ بشارة لهذه الأمة زادها الله تعالى شرفاً ، فهنيئاً لمن كان رسول الله ﷺ فرطه .

وأنت واجد عند الصحابة رضي الله عنهم ـ دائماً ـ ما يدل على حسن الامتثال لما وجه إليه، ونبّه عليه رحمة العالمين عليه الصلاة والسلام ؛ وذلك ما نجده عند أبي هريرة رضي الله عنه هنا في هذه المسألة، حيث يحرص الحرص كلّه على ما فيه الأجر ، وأن يكون من وراد الحوض يوم الدين . وهذا وأمثاله في جيل الصحابة ـ الذين هم القدوة بعد رسول الله ـ كثير كثير . روى الإمام النسائي في السنن الصغرى « المجتبى» بسنده عن أبي حازم قال : كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ

للصلاة ، وكان يغسل يديه حتى يبلغ إبطيه ، فقلت: ياأباهريرة ما هذا الوضوء؟ فقال لي: يابني فرّوخ أنتم ههنا ! لو علمت أنكـم ههنا ما توضأت هذا الوضوء - أي خاف مـن ظنهم بـه تغيير أمر مشروع - سمعـت خليلي يقول :« تبلـغ حلية المؤمن حيث يبلغ الـوضوء » ثم قال النسائي : أخبرنا قتيبة عن مـالك عن العلاء ابن عبدالـرحمن عن أبيه عن أبي هريرة « أن رسـول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: السـلام عليكم دار قـوم مؤمنين ، وإنـا إن شاء الله بكـم لاحقون ، وددت أني قـد رأيت إخـواننا ، قـالوا : يـارسول الله ألسنـا إخوانـك قال : بـل أنتم أصحـابي، وإخواني الـذين لم يأتـوا بَعْدُ وأنا فـرطهم على الحوض ، قـالوا : يارسـول الله كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك ؟ قال : أرأيـت لو كان لرجل خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ في خيل بُهْم دُهم ألا يعـرف خيله ؟ قالوا : بلى ، قال : فـإنهم يأتون يوم القيـامة غُراً محجلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض».

قـال علماؤنـا في معنى « وددت أني قـد رأيـت إخـوانـنـا » أو «أنا قـد رأينـا إخواننا» كما في رواية مسلـم: أي رأيناهم في الحياة الدنيا. قـال القاضي عياض: وقيل: المراد تمني لقـائهم بعد الموت . وقال الإمـام الباجي : قولـه ﷺ : « بل أنتم أصحابي » ليـس نفياً لأخـوتهم ، ولكن ذكرَ مـرتبتهم الـزائدة بالصحبـة ، فهؤلاء إخـوة صحابـة ، والذيـن لم يأتـوا، إخوةٌ ليسـوا بصحابـة، كما قال تعـالى: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ .

وتظل لهؤلاء الذيـن جاءوا من بعده ــ ويلقاهم عليه الصـلاة والسـلام ،غراً محجلين، مستنيرة مواضع الوضوء فيهم، وهو على الحوض يرتاد للأمة - تظل لهم هذه المكانة ، وفي ذلـك ما فيه من الترغيب بالأعمال التي توصـل - بإذن الله - إلى تلك الثمرة المباركة الطيبة .

أما منزلـة الصحبة : فرزق ميمون لا يجارى ولا يبارى ، فمـن لقى النبي ﷺ مؤمناً ، ورآه ، ولـو مرة في عمره ، وحصلت له مـزية الصحبة: أفضل مـن كل من

يأتي بعـد؛ فإن فضيلة الصحبـة ـ من حيث هـي ـ لا يعدلها عمـل . قال العلماء : وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . قـال القاضي عياض : واحتجوا بقوله ﷺ : « لو أنفق أحـدكم مثـل أحد ذهبـاً ما بلغ مُـدَّ أحدهـم ولا نصيفه » ، وهـذا لايمنع مضاعفـة الأجر للاّحقين حين يبلغون مـن الإحسان أن يضاعـف لهم الأجر ؛ لأن الصحابة كانوا يجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون .

هذا : والدُّهم في قوله ﷺ: « في خيل دُهم بُهم ، أو بُهم دُهم» ـ كما في بعض الروايات ــ جمع أدهم وهو الأسود ، والدهُمة : السواد ، والبُهـم : جمع بهيم وهو في الأصل : الذي لا يخالط لونه لون سواه .

أما بعد : فكم يحسن المؤمن إلى نفسه في الدنيا ويوم الحساب ، إذا هو استقام على أمر الله هنا ،لأن في ذلك ضمان حسن العاقبة ـ بإذن الله ـ من نيل الشفاعة ، وورود الحوض ، نـاهيك عـن الـرضى والطمـأنينة النفسيـة في هـذه الدار ،ومـا أحـوجنا في هـذا العصر الـذي اضطربـت فيه المعـايير ، واشتـد القلق ، وكثـرت الأمراض النفسية ... ما أحوجنا إلى تلك الطمـأنينة التي تدفع هذه المساوىء في الأجسام والنفوس : فهل نحن فاعلون ؟

السيماء.. والبشارة والنذارة

هذه متابعة لرحلة، اقتضاهـا الكلام على الحوض وأهمية وروده يوم القيامة ، حيـث الظمـأ الـذي يكـاد يقتـل الناس؛ وهـي رحلـة مـع نصـوص مـن الهدي المحمدي، تكشف عما خصت به الأمة المسلمة من السيماء، التي يعرفها النبي ﷺ بها وهو يتقدمها على الحوض ـ يهيء لها أمر الورود والشرب ـ تلك أنهم يردون في تلك الحقبة الفاصلة من الزمن، غـراً محجلين من آثار الوضوء .. أجل غراً محجلين تشرق وجوههـم وجباههم وأطرافهـم، بنور الوضـوء، في ذلك اليوم الذي يـلاقي الناس فيه من الأهـوال ما يلاقون ، ويتميز المؤمنون عن غيرهم بـأنهم ـ وقد رضوا بالله رباً وبالإسـلام ديناً ، واتخذوا من منهاج الله نبراساً ـ يتميّـزون بما كانوا عليه في الدنيا من الإيمان بـالغيب، وبما قدّموا من الأعمال الصالحة التـي يقتضيها الدين الخالص ، وبما صدقـوا مع الله في طاعته وطـاعة ، رسوله عليـه الصلاة والسلام ، فتراهم ينالون كرامة الله وفضله، بأن يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، ويردون الحوض على النبي صلـوات الله وسلامه عليه ، حيـث يكون هو فرطَ الأمـة هناك، كما ثبت في الصحيح من الأحاديث .

وفي ظل هذه المتابعة: نذكر ما روى ابـن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « تـردون عليّ الحوض غُراً محجلين مـن الوضـوء سيماءَ أمتي ليس لأحد غيرها » هذه السيماءُ ـ العلامة ـ التي خصت بها الأمة المحمدية، هي ـ بجـانب كونها جديـرة بإثارة الهمم والعـزائم ، من أجل العمل لـذلك اليوم الذي تظهر فيه أحقية من يستأهل الورودعلى حوض النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ تبـدو حافزاً عظيماً يحفز على تمام العنايـة بإقامة الصـلاة، وفي مقدمة ذلك : استكمال الطهارة على الوجه الذي ينبغي، وفي ذلك إيذان بوجوب طهارة القلب والخشـوع ، الخشوع الذي جعله الله في مقـدمة الخصال ، التـي بها يفوز

المؤمنون بالفلاح ، وذلك في قـوله جل شأنه : ﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ الآيات وهي من سورة المؤمنون . وقد أحسن ابن ماجة حين أخرج الحديث المذكور في كتاب الزهد مـن سننه، تحت باب عنوانه ـ كما أسلفنا ـ «بـابُ صفة أمـة محمد ﷺ » وفي «بـاب ذكر الحوض » مـن كتاب الـزهد أيضـاً أخرج بسنده ـ عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن حوضي لأبعد مـن أيلة إلى عدن . والذي نفسي بيـده لآنيتُه أكثرُ من عـدد النجوم ، ولهُو أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسـل ، والذي نفسي بيده إني لأذود عنه الرجال كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن حوضه ، قيل : يارسول الله أتعرفنا ؟ قال: نعم ، تردون عليّ غُرّاً محجلين من أثر الوضوء ، ليست لأحد غيركم » .

ونجد في الموطأ رواية للإمام مالك تحمـل ـ بجانب الكشف عن الخصوصية المذكوره للأمة المحمدية ـ بأن الرسـول ﷺ يعرف من يأتي من أمته ـ وقد سبقهم إلى الحوض يرتاد لهم ويهيء ـ بأثر الوضوء لكونهم يأتون غرّاً محجلين من الطهارة المباركـة .. تحمل بجانب ذلـك نهياً شديـداً من المصطفى صلوات الله وسـلامه عليه، عـن فعل أي شيء يتسبـب في أن يطرد صاحبـه عن حـوضه عليـه الصلاة والسـلام « فلا يُذادنَّ أحد عن حوضي كما يذاد ـ أي كما يطرد ـ البعير الضال ؛ فقد أخرج إمام المدينة عن العلاء بن عبدالـرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: السلام عليكـم دار قوم مؤمنين ، وإنا أن شاء الله بكم لاحقون . وددت أني قـد رأيت إخواننا ، فقالوا : يـارسول الله : ألسنا إخوانك ؟ قـال : بل أنتم أصحابي . وإخواننا الـذين لم يأتوا بعدُ ، وأنـا فَرطهم على الحوض . فقالوا : يـارسول الله كيف تعرف مـن يأتي بعدك من أمتـك ؟ قال: أرأيتم لو كان لرجل خيلٌ غُرٌّ محجّلـةٌ في خيل دُهم بُهم ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يارسـول الله قال : فـإنهم يأتـون يوم القيامـة غُرّاً محجّلين مـن الوضـوء ، وأنا فَرطهم على الحوض ؛ فـلا يُذادنَّ رجال عن حـوضي كما يذاد البعير الضال ...» الحديث. ورواه ابن ماجة وغيره .

فكأن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: وإذا كان الأمر كذلك ــ حيث العناية بالصلاة التي هي أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين تورث بفضل الله ، هذه الخصوصية ـ فلا يفعلنَّ أحدُ فعلاً يخالف فيه عن هذا الخير العظيم ، لكيلا يبوءَ بالحرمان من ورد الحوض ،لأن أولئك المحرومين، الذين اجترحوا ما لا يستحقون معه ذلك الورود المبارك، والشربَ الذي لا يُظمَأُ بعده أبداً ـ يطردون عن الحوض كما يطرد البعير الضال ، لأن البعير الضالَّ لا صاحب له فيسقيَه ويعنى به ـ أعاذنا الله جميعاً من ذلك ، ومنَّ علينا بفضله وإحسانه، كيما نسعد بشفاعته ﷺ، وورود حوضه، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ومما ينبغي أن لا يغفل عنه مسلم ، أن المعرفة المشار إليها ، تشعر بالمزيد من الترقب، وخشية أن لا يكون المرء في عداد أولئك الذين تدركهم العناية ، فيردون الحوض؛ إذ الناس عطاش ، فيشربون منه، فلا يعرف الظمأ بعدها إليهم سبيلاً . ذلك بأن هذه النصوص، التي كشفت عن أن الرسول عليه الصلاة والسلام، يعرف أمته بآثار الوضوء، ينبغي أن تجعل المؤمن في غاية الحذر من التهاون والغفلة؛ لأن المسلم إذا كان من أهل الورود فيا للكرامة والنعمة الفائقة، وإذا كان لا سمح الله ممن أثقلتهم أوزارهم، وعندها يذاد ـ يطرد ـ كما يذاد البعير الضال ؟ فياللخيبة القاتلة ، والخسارة التي لا تعوَّض .

وهذا الذي نومىء إليه من معرفة النبيﷺ أمته ـ وهو فرطها على الحوض يوم القيامة ــ يرى الناظر في نصوص السنة العديد من النصوص التي تقرره وتؤكده، وقد أوردت بعضها فيما سبق . على أن في بعض الروايات ما يوحي بعلاقات أخر ، غير التي ذكرت فيها أوردته . فقد أخرج الإمام أحمد في المسند بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من أمتي أحد إلا وأنا أعرفه يوم القيامة ، قالوا : يارسول الله ، من رأيت ومن لم تر ؟ قال : من رأيت ومن لم أر ، غُراً محجّلين من أثر الطُّهور» وله في رواية أخرى عن أبي الدرداء

رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة ، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه ، فأنظر إلى بين يديَّ ، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك ، وعن يميني مثل ذلك ، وعن شمالي مثل ذلك . فقال له رجل : يارسول الله، كيف تعرف أمتك بين الأمم، فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال : هم غُرٌّ محجَّلون من أثر الوضوء ، ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتَوْنَ كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم يسعى بين أيديهم ذريتُهم » وفي رواية أخرى له « فأعرفهم أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ».

اللهم اهدنا بهداك ، ووفقنا لصالح القول والعمل ، حتى نلقاك راضياً عنا يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرزوا لله الواحد القهار .

الإفاضة في الحديث عن يوم التناد في الكتاب والسنة، توحي بما ينبغي للمؤمن أن يكون عليه ، من يقظة بالغة ـ وهو يمضي ما كتب له من العمر في هذه الدار ـ.. ولذا فالحديث عن هذا اليوم الذي لا ريب فيه ، يوم الفصل الذي يجمع الله فيه الخلائق للمساءلة والحساب؛ فمنهم شقي وسعيد ... الحديث عن ذلك اليوم ،وما يزخر به من مشاهد البشارة والنذارة: ذكرى متجددة يهشُّ لها قلب المؤمن وَيَبَشُّ ، ويستبشر ويخاف .. يستبشر ويفرح بما أعد الله لعباده الصالحين ، مما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين في استدامة وخلود ، ويجِلُ قلبه ويخاف من سوء العاقبة ، وما أعد الله لأهل الضلالة الغافلين ، من نار تلظى وبئس القرار .

وفي كلا الحالين: ترى من رُزق العقل الأخرويَّ ، يضاعف من العمل الصالح، ويحاسب نفسه ، ويجدُ السير إلى الجنة سلعةِ الله الغالية ... يجدُّ السير إليها على طريق أهل الخشية والفلاح ، المنيبين إلى ربهم ، الراجين ثوابه ، والخائفين عقابه يوم الدين .

ثم إن تلك الذكرى ـ والذكرى تنفع المؤمنين ـ ترتفع بالمؤمن، إلى حيث النظرةُ الإيمانية المتبصرة إلى حقيقة هذه الدار الفانية ، وما يجب فيها من الصدق مع الله ، والغرس الطيب الذي يصلح زاداً للدار الباقية ؛ لما أن العاجلة دار ممر ، لا دار مقر، دار عمل يقدم المرء بين يديه، والحصاد هناك ،حيث يوفيه الله حسابه والله سريع الحساب .

وإنها لقضية، تبلغ من الأهمية وتوجيه السلوك، أن تقف المرءَ على اليابسة من أمره، فلا يكون من أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ **كلا بل تحبون العاجلة .**

وتذرون الآخرة ﴾ تقفه كذلك ، وهو لا يفتأ يذكر أن لله سُنَّةً في المثوبة والعقوبة ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . فالعاملون للدنيا ـ على غير بصيرة وحسبان للآخرة ـ سُنَّتْ لهم عاقبة يغشاهم ظلامها في جهنم وبئس المهاد . والعاملون للآخرة ـ على نفاذ في البصيرة وإخلاص في الوجهة ـ سنت لهم عاقبة نعمّا هي ؛ مرضاة الله تعالى ، وعطاء إلهي لايُجَذُّ ، من ورود على الحوض ، ونعيم مقيم في دار المقامة والخلود. وشتان بين الطريقين والغايتين ، وهل يستوي السالكون طريق الهداية والنور ، والسالكون طريق العماية والضلال؟! لا يستوون عند الله ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً** ﴾.

وما من ريب، في أن كلاً من الوعد بحسن العاقبة وكريم العطاء ، ومن الوعيد بالمهانة وسوء المصير ، يقع موقعَه الفاعل المؤثر من عقل المؤمن وقلبه، حين يكون على تزكية لنفسه، وعدم الانقياد لهواه ، فيحمله الوعد الصادق ـ كما لايخفى ـ على أن يأخذ أمر النجاة في الآخرة، على أنه جدٌّ لا هزل فيه ، وأن لا يقصر في محاسبة نفسه، ودينها في تحكيم لشريعة الله ، ومراقبة له عز وجل ، وعمل لما بعد الموت ؛ أما الوعيد الذي تنخلع له القلوب، ويقض مضاجع الصالحين : فينأى به عن طريق أهل الغفلة الذين نسوا الله واليوم الآخر ، وغرّتهم الحياة الدنيا، وغرّهم بالله الغرور . وتراه يمشي على الأرض ، كأن نار السعير بلهيبها ومن يصلاها ، من الضالين والظالمين، أمام ناظريه ، وكأن العقاب المتوعّد به، أقرب إليه من أمور دنياه، وما يلهيه عن ذكر الله ، وترقب يوم الحساب . وصدق ربنا إذ يقول : ﴿ **فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى** ﴾ .

كان لزاماً ، أن أبدأ بهذه الكلمات ، مجتازاً بها إلى ما أريد ، من متابعة الحديث عن واحد من مشاهد القيامة ، لما أن في الجَعبة بعضاً مما تفيض به المصادر

الأصلية من أحاديث نبوية كريمة تُبينُ عن وعد الله ورسوله ، لأولئك الذين يستضيئون بنور التقوى ، ويستقيمون على طاعة الله ، قولاً وعملاً في العقيدة والعبادة والسلوك؛ في تعاملهم مع الله ، وفي تعاملهم مع عباده ، ويصبرون على ذلك، منضبطين بميزان الحق الذي لا يعول، مهما كانت التكاليف والواجبات .

وهذا الوعد الذي ندندن حوله : مثوبةُ الكريم المنان سبحانه في الآخرة ، ومن هذه المثوبة، الورودُ على حوض المصطفى عليه الصلاة والسلام والشربُ منه، ناهيك عن الفوز بشفاعته صلوات الله وسلامه عليه ، والدخول في زمرة من يكرمهم الله بالجنة التي لا يزول نعيمها ، ولا تنقضي مظاهر الإكرام فيها ، فهي مستَقَرُّ الأبرار ، ودار المتقين .

كما أن في تلك النصوص، ما يحمل الوعيد الشديد، لأولئك الذين يُحدثون ما يُحدثون بعد رسول الله ﷺ ، تغييرا وتبديلاً ، ومخالفةً عن الصراط السوي ، حتى إذا عُرضوا على ربهم، كان من عاقبتهم بما أحدثوا من السوء أي : أنهم يطردون عن الحوض الذي تهفو إلى وروده نفوس المؤمنين، وتتطلع إليه همم عباد الله الصالحين. وعندما يأسى رسول الله ﷺ على هذا الفريق من الناس، الذين دلّته أمارات معينة على أنهم من أمته ـ في الأصل ـ عندما يأسى عليهم، وقد عرفهم بسيماهم ، وهم يذادون عن الحوض ، يقال له : « إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» .

هذه واقعة ،لا يدع رسول الله عليه الصلاة والسلام، أن يدعو في أعقابها ـ وقد طلب منه ذلك ـ لواحد من الصحابة عليهم الرضوان أن يغفر الله له ويرفع منزلته يوم القيامة . كما لا يدع أن يدعو لأخيه ـ الذي طلب الدعاء ـ بمغفرة ذنبه والدخول يوم القيامة مُدْخلاً كريماً. وفي ذلك ما فيه من الوعد بتلك المثوبة الفائقة ،على ما فعلا رضي الله عنهما ، والرضى عن صنيعهما والترغيب فيه . أخرج الإمام البخاري في كتاب المغازي من الجامع الصحيح عن أبي موسى الأشعري

رضي الله عنه قال : « لما فرغ النبي ﷺ من حُنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دريد بن الصِّمة ، فقُتل دريد وهزم الله أصحابه . قال أبوموسى: وبعثني مع أبي عامر ، فرُمي أبوعامر في ركبته رماه جُشَمِيٌّ بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه فقلت : ياعمِّ من رماك ؟ فأشار إلى أبي موسى فقال : ذاك قاتلي الذي رماني ، فقصدتُ له فلحقته فلما رآني ولّى ، فاتبعتُه وجعلت أقول له : ألا تستحيي ، ألا تثبتُ ! فكفّ ، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلتُه ، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك قال : فانزع هذا السهم ، فنزعته فنزا منه الماء . قال: ياابن أخي، أقرىء النبي ﷺ السلام وقل له : استغفر لي . واستخلفَني أبوعامر على الناس ، فمكث يسيراً ثم مات . فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مُرمَل ، وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه ، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقوله : قل له استغفر لي ، فدعا بماء فتوضأ ، ثم رفع يديه فقال: اغفر لعُبيدٍ أبي عامر - ورأيت بياض إبطيه - ثم قال : اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس . فقلت : ولي استغفر ، فقال : اللهم اغفر لعبيد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مُدخلاً كريماً . قال أبوبردة : إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى ».

أوطاس : من النوادر التي جاءت بلفظ الجمع للواحد ، وهو وادٍ في ديار هوازن جنوبي مكة بنحو ثلاث مراحل . وكانت غزاة أوطاس في شوال بعد فتح مكة بنحو شهر ، ذلك أنه لما هزم الله المشركين يوم حنين بعث رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري وأبا موسى في آثار من التجأ إلى أوطاس من المشركين . ولما قتل أبوعامر ، أخذ اللواء أبوموسى ثم كان ما دل عليه الحديث ، وحظي كلٌّ من أبي عامر - وهو عم أبي موسى - وأبي موسى رضي الله عنهما - وقد أبليا البلاء الحسن - حظيا بكريم العطاء لهما يوم القيامة ، بفضل دعاء رسول الله عليه الصلاة والسلام ، كفاء الجهاد في سبيل الله والإخلاص فيه .

الدعاء بالرفعة يوم القيامة.. والدرس العظيم

في حديث عما ينبغي أن يكون عليه المؤمن، من تفاعل مع الذي دعت إليه نصوص الكتاب والسنة، من عدم الركون إلى الدنيا ـ وهي دار الفناء الآيلة إلى الزوال ـ والتطلع أبداً إلى ما يثقل الموازين في دار البقاء ، يوم يضع الله الموازين بالقسط ، وتوفى كل نفس ما كسبت ، ولا يظلم أحد شيئاً ، وأن يكون قلب المؤمن وعقله من الوعد والوعيد بحسبان .. في حديث عن هذه القضية الكبرى ، في حياة من ينشُدون مرضاة الله ورسوله والسعادة في الدنيا ويوم يقوم الحساب ، أوردت ما أخرج الإمام البخاري في باب غزاة أوطاس من كتاب المغازي في الجامع الصحيح من حديث أبي عامر وأبي موسى الأشعريين ، وكيف أن أباعامر رضي الله عنه لم ينس وقد أصيب بسهم أثبته في ركبته جشمي من المشركين، وكان ذلك سبب استشهاده : لم ينس ـ وهو على هذه الحال، من استقبال ما أعد الله للشهداء من الكرامة في دار البقاء ـ : أن يوصي أباموسى بعد أن استخلفه على الناس ـ وهم يطاردون فلول الأعداء في أوطاس ـ أن يرجو رسول الله ﷺ أن يستغفر له .

كل ذلك حرصاً منه رضي الله عنه أن يكون في عداد من تسلم لهم أمور الآخرة، ويحظون بما يكون من تكرمة يوم القيامة لمن أخلصوا دينهم لله ، وعبدوه حق عبادته ، وجاهدوا في سبيله ؛ ومن ذلك ورودهم على الحوض، في وقت يشتد فيه الكرب على الناس ، ويبلغ بهم العطش مبلغه ؛ ويردونه على المصطفى صلوات الله وسلامه عليه راضية نفوسهم ، شاكرة ألسنتهم وقلوبهم ، فرحين بفضل الله عليهم، أنهم لا يُبعدون عنه ولا يذادون .

ويُنفِذُ أبوموسى رضي الله عنه ما أوصاه به أبوعامر ، وهو يجود بنفسه، ويدعو النبيُّ ﷺ بعد أن رفع يديه إلى السماء ورؤي بياض إبطيه، قائلاً: « اللهم اغفر لعبيدٍ أبي عامر » ولا يكتفي بهذا ، بل يقول بعدها : « اللهم اجعله يوم القيامة

فوق كثير مـن خلقك من النـاس » وهنيئاً لأبي عامر رضي الله عنـه ، ما دعا لـه به سيد العالمين عليه الصلاة والسلام .

وتتحرك خطرات الإيمان في نفس أبي موسى، ويرغب صادقاً ـ وهو على هذه الحال مـن اللجأ إلى الله مـن أجـل أبي عـامر ــ في أن يكـون لـه حظ مـن دعـاء المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . قال رضي الله عنه فقلت: ولي استغفر . وكان لأبي موسـى ما يـريد ؛ إذ قال رسـول الله وهو الرحمة المهـداة صلوات الله وسـلامه عليه: « اللهم اغفـر لعبيد الله بن قيس ذنبه وأدخلـه يوم القيامة مُـدْخلاً كريماً ». قال أبوبردة ـ عمر أو الحارث بن أبي مـوسى ـ إحداهما لأبي عامر ، والأخرى لأبي موسى .

وليس بخـافٍ ما يدركه المؤمـن ببصيرته ، أن كلاً مـن الصحابيين الجليلين، كان حريصاً على أن يدعو له رسول الله بالمغفرة ، وهما في حال الوفاء ببيعهما الذي بايعا به الله سبحانه ، من بذل الأموال والأنفس في سبيل الله عز وجل ، كيما يسلم لهما ـ بفضـل الله ـ جهادهما ، ونصرتهما لـدين الله ،والفوز بمنـازل المجاهديـن يوم الدين .

وعلّم رسول الله أمته، حين دعا للأول ثم للثاني، أن من خير الدعاء للمؤمن، دعاءً يرفع درجاتـه يوم القيامة ، ويجعله بفضـل الكريم المنـان ، ممن يدخلهم جل شأنه في دار القرار ، مُـدخلاً كريماً ، يصل بهم إلى مستقر رحمته ، الجنـةِ التي وعد عباده الصالحين .

ولعل مما يزيد في النفع إن شاء الله ، إيـراد رواية الإمام مسلم للحديث الذي نسعد بإشراق هديه من صنيع المصطفى ﷺ وصاحبيه ، ففيها مزيد من الإيضاح، يعين على استجلاء أبعاده ومراميه ، في توجيه المؤمنين إلى الحرص العملي الصادق على التزود في هـذه الدار الدنيا ، بما يثقـل الموازين في الدار الآخرة ، وينجـي من شدائد يوم الحشر ، ومصـاعبه العظام . ويا نعـم ما يكون ما وراء ذلـك من عيشة

راضية، في جنة عالية قطوفها دانية ، يقال لأهلها وقد غمرهم الرضوان فيها : **﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾**. وها هي ذي روايته رحمه الله ؛ فقد أخرج بسنده عن أبي بردة عن أبيه قال : لما فرغ النبي ﷺ من حنين ، بعث أباعامر على جيش إلى أوطاس ، فلقي دريد بن الصِّمَّة ، فقتل دريد وهزم الله أصحابه ، فقال أبوموسى : وبعثني مع أبي عامر ، قال : فرُمي أبوعامر في ركبته ، رماه رجل من بني جُشَم بسهم ، فأثبته في ركبته ، فانتهيت إليه فقلت : ياعمِّ من رماك ؟ فأشار أبوعامر إلى أبي موسى فقال : إن ذلك قاتلي ، تراه ذلك الذي رماني. قال أبوموسى : فقصدت له ـ أي لمن رمى أباعامر ـ فاعتمدته فلحقته . فلما رآني ولّى عني ذاهباً ، فاتبعته وجعلت أقول له : ألا تستحيي ؟ ألست عربياً ؟ ألا تثبت؟ فكفّ ، فالتقيت أنا وهو ، فاختلفنا أنا وهو ضربتين ، فضربته بالسيف فقتلته ، ثم رجعت إلى أبي عامر فقلت: إن الله قد قتل صاحبك ، قال : فانزع هذا السهم، فنزعته فنزا منه الماء ـ أي انصب من موضع السهم ـ فقال : ياابن أخي انطلق إلى رسول الله ﷺ ، فأقرئه مني السلام وقل له : يقول لك أبوعامر : استغفر لي . قال ـ أي أبوموسى ـ واستعملني أبوعامر على الناس، ومكث يسيراً ، ثم إنه مات. فلما رجعت إلى النبي ﷺ دخلت عليه ـ وهو في بيت على سرير مُرمل وعليه فراش وقد أثر رمال السرير بظهر رسول الله ﷺ وجنبيه ـ فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر ، وقلت له : قال : قل له : يستغفر لي . فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ منه ، ثم رفع يديه ثم قال : « اللهم اغفر لعُبيد أبي عامر » حتى رأيت بياض إبطيه ، ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس » فقلت : ولي يارسول الله فاستغفر ، فقال النبي ﷺ : « اللهم اغفر لعبدالله بن قيس ذنبه ، وأدخله يوم القيامة مُدخلاً كريماً » قال أبوبردة : إحداهما لأبي عامر ، والأخرى لأبي موسى .

السرير المرمَل: هو المعمول بالرُمال وهي حبال الحُصر التي تضفر بها الأسرة.

اللهم ارض عن أبي عامر وأبي موسى وعن أصحاب نبيك أجمعين ، بما

جاهدوا وصبروا ، وبما صدقـوا ما عاهدوا الله عليه ، فكان لَهم مـن الخير في الدنيا والآخرة ما كان .

اللهم اغفـر لنا ذنـوبنا ، وأدخلنـا يوم القيـامة مُـدخلاً كـريماً ، واجعلنا ممـن ينتفعـون بسير أولئك المجـاهـدين الصـادقين ، وأوردنا يـوم المعـاد حوض نبيـك المصطفى نشرب منه ، فلا نظمأ بعد ذلك أبداً إنك ولي ذلك والقادر عليه .

أن يصبر المؤمن نفسه على طاعة الله ، ويحرص أشـد الحرص ـ وهو يمضي ما كتب له من العمـر في الدنيا ـ على أن يكون من أهل الإنـابة والخشية ، وأن يكون هجيراه تقـوى الله في السر والعلن ، كيما يحشر ــ بفضـل الله ــ في زمرة المرحـومين الذين لا يخطئهم، أن يلقوا رسول الله ﷺ في عرصـات القيامة ،حيث الهلع الذي يغشى النـاس ، والشدة التي لا ينفـع معها، إلا ما قـدم المرء من صالـح العمل، ويسعدون بما يكرم الله بـه عباده المتقين، من ورود حوض المصطفـى عليه الصلاة والسلام .. أن يصبر المؤمـن نفسه على هذا المسلـك المبارك الميمـون ، وأن يكون النظر إلى الغاية في الآجلة دأبَه وهجيراه ، أمر مبشر مطمئن ، ولايختلف على أهميته في حياة المسلم عاجلاً وآجلاً ، اثنان من أهل البصيرة ، الذين ذاقوا حلاوة الإيمان بالغيب، وعقلوا عن الله وسوله، ما جاء من الأخبار في ذلك ـ ومن هذه الأخبار ما ورد في شأن الحوض ـ حتى كأن ذلك كله مرئي رؤية عين ، لا يخطئه الناظر .

ومن أبجديات المعتقـد على هذه الساحة ، أن طاعة رسـول الله في التصديق بذلك ، والرغبـةَ فيما رغب به والحذرَ مما رغب عنه : من طـاعة الله تعالى ، والمؤمن بحسّه النامي ، ينبغي أن يحسن التعامل مع نصوص كلٍ من الوعد والوعيد .

وهذا الـذي نديـر حوله الحديـث ، يدعو إلى التـذكير ، بما ثبت مـن حرص النبي ﷺ على أن لا تخطىء شفـاعته أياً من أفراد أمتـه ، وأن لا يحرم واحد منهم الورود على الحوض ، ولكـن الناس يظلمون أنفسهـم، بمجانبـة الصراط السوي، طاعةً للهوى والشيطان . فقد مر بنا من قريب تحديده صلى الله عليه وسلم لبعض المواطن التي هي مظنة وجوده عليه الصلاة والسـلام يوم القيامة ، فإذا أراد مؤمن أن يلقاه ، فليلقه عند واحـد منها ، ذلكم ما أخبر به أنس بـن مالك رضي الله عنه

أنه سأل رسول الله ﷺ أن يشفع له يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل إن شاء الله . يقول أنس : قلت : فأين أطلبك ؟ قال : أول ما تطلبني على الصراط ، قلت فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : فاطلبني عند الميزان ، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال : فاطلبني عند الحوض ، فإني لا أخطىء هذه الثلاثة مواطن . وهو حديث أخرجه الترمذي بإسناد حسن ، وليس بعيداً عهدنا بها ينبىء عن أساه عليه الصلاة والسلام ، على أولئك الذين كانوا يذادون عن الحوض ، وكان من رحمته بأمته وشفقته عليها ، أن سأل عن سبب ما يحصل ، فأجيب بأن هؤلاء ، قد غيّروا وبدّلوا .

وحديث المواطن الثلاثة ، ينقلنا إلى ما أوردنا فيما سبق ، من أن الناس يبلغ بهم الهلع والخوف ، من سوء القرار ، أن لا يذكروا أهليهم في مواطن ثلاثة ـ منها الصراط والميزان ـ حتى يعلم كلٌّ ما يفعل الله به بعدها ، ذلكم ما أخرج أبوداود في «السنن» كتاب السنة عن عائشة رضي الله عنها قالت : «ذكرت النار فبكيت، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك ؟ قلت : ذكرت النار فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال : أما في ثلاثة مواطن : فلا يذكر أحد أحداً ؛ عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ؟ وعند تطاير الصحف ، حتى يعلم أين يقع كتابه ، في يمينه أم في شماله ، أم من وراء ظهره ؟ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم ، حتى يجوز » وهو حديث حسن . قال ابن الأثير في « جامع الأصول» : وفي رواية ذكرها رزين: « قالت : قلت أوقيل : يارسول الله هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قالت : أو قيل : فأين نجدك ؟ قال :لا أخطىء ثلاثة مواطن : عند الميزان ، وعند الصراط ، وعند الحوض ».

ومما ينبغي التنبيه عليه ، أن هذا التحديد المشار إليه ، قد صحبه نوع من تخصيص الحوض بالذكر ، من بعض الوجوه ؛ من ذلك ما أخرج الترمذي من تقرير ، أن فقراء المهاجرين أول الناس وروداً عليه. وفي كتاب « التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة » للإمام القرطبي المتوفى سنة إحدى وسبعين وستمائة، وقال

أنـس بن مـالك رضي الله عنـه : « أول مـن يرد الحوض على رسـول ﷺ الذابلـون الناحلون السائحون الذين إذا جنّهم الليل استقبلوه بالحزن » . وحين كان الرسول ﷺ يتحدث إلى الأنصـار في أعقاب قَسـم ما أفـاء الله على المسلمين في « حُنين» أخبرهم ـ وهو ينظر بنور الله ـ أنهم سيلقون أثرةً ، وأمرهم بالصبر حتى يلقوه على الحوض ؛ وكان ذلك إيـذاناً منه صلوات الله وسلامه عليـه، بما سيكون لهم من الأجر ، ومـا سينالون مـن ورود حوضـه عليه الصلاة والسـلام ، فخصَّ الحوض بالذكـر ، دليلَ الأهمية وعظيمِ كرامـة الله بوروده . وأجدر بمن آمنـوا بنبيِّهم عليه الصلاة والسلام وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أن يكونوا في مقدمة الورّاد الذين يشربون من مائه المتدفق من الكوثر ، فلا يعرف الظمأ إليهم، بعد أن شربوا سبيلاً.

ولا يخفى أن هـذه قضية تتخطـى حدود الزمـن ، لتغزو العقـول والقلوب ، فتشحذَ الهمم، وتوقظ من الركون إلى المعوقات الملهيات عن الطريق الصاعدة، في ملء ساعات العمر وأيامه، بالمجـدي من العمل في ضوء ضوابط الإسلام ، لا في ضوء الضـوابط الغازيـة ، التي لا تغني يـوم الدين عـن صاحبها فتيـلاً ، بل ربما كانت عائقاً دونه ، ودون أن يبلغ مـا يبلغه حداة ركب الإيمان ، ومَحَبَّةِ النبي عليه الصلاة والسلام ، العاملون بسنته ، ونصرتِها في كل ميدان .

وهـذه عودة إلى النـص : أخـرج البخاري في كتـاب المغـازي من « الجامـع الصحيح » بسنده عن عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه قال : « لما أفاء الله على رسوله يوم حنين، قسم في الناس في المؤلفـة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، فكـأنهم وجدوا ، إذ لم يصبهـم مـا أصاب النـاس ؛ فخطبهـم ــ عليه الصـلاة والسلام ــ فقال : يامعشر الأنصـار ، ألم أجدكـم ضُلالاً فهداكـم الله بي ،وكنتم متفـرقين فألفكـم الله بي ، وعالـةً فأغنـاكـم الله بي ؟ كلما قال شيئـاً ، قالـوا : الله ورسولـه أمنّ . قـال : ما يمنعكـم أن تجيبوا رسـول الله ﷺ؟ قال : كلما قـال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ .

قال : لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا !! ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وشعباً ، لسلكت واديَ الأنصار وشِعْبَها ، الأنصار شعار، والناس دثار . إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» .

وأخرج الخطبة وقصتها الإمام مسلم في صحيحه وغيره ، وختمت الرواية بقوله عليه الصلاة والسلام : « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» . وهذه الكلمات النبوية المشرقة تجمع إلى ما بينت من مكانة الأنصار ، وأمرهم بالصبر على ما سيلقون من أثرة ، ما يكون من إكرام الله لهم، جزاء صبرهم ورضاهم أن يردوا على الحوض ، ويلقوا رسول الله ﷺ عند الورود . ودلالة ذلك على عظيم الإنعام والإكرام بالحوض ، لا تخفى.

وهكذا يسلّي رسول الله ﷺ الأنصار الذين أحبوه الحب العظيم، ولم يألوا جهداً في نصرته ،ولم يبخلوا بأية معاونة لإخوانهم المهاجرين ؛ يسليهم رسول الله ﷺ ـ ومن ورائهم الأمة ـ عما يفوتهم من الدنيا ، بما يحصل لهم ـ بفضل الله ـ من ثواب الآخرة . وعنوان ذلك ، لقياهم رسولَ الله صلوات الله وسلامه عليه على الحوض.. يلقونه وقد سبقهم إخوانهم فقراء المهاجرين بالورود .

وما من ريب في أن المؤمن عندما يقدِّم جانب الآخرة على الدنيا ، يكون في غاية التعقل ، بله الذوق الإيماني ، لأنه بذلك يقدم الباقي على الفاني، والآخرة خير وأبقى . فليصبر المؤمنون الذين يفوتهم شيء من الدنيا على طريق جهادهم ، ونصرتهم للحق وأهله، حتى يلقوا رسول الله ﷺ على الحوض . وأنعم بها من كرامة، وأجزل بها من عطاء ، لقيا صاحب الشفاعة عليه الصلاة والسلام ، ووروdُ حوضه والشرب منه، يوم المساءلة والحساب .

فاصبروا حتى تلقوني على الحوض

كان فيما أوردت من خطبة النبي ﷺ في الأنصار ، بعد قسم غنائم حُنين التي رواها البخاري ومسلم وغيرهما ، تسليته صلوات الله وسلامه عليه من فاته شيء من الدنيا ، بما يحصل له من ثواب الآخرة ؛ فقد أخبر الأنصارَ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ وهذا من دلائل النبوة ـ أنهم سيلقون في قادمات الأيام أَثَرَةً ـ أو أُثْرَةً ـ فَيُسْتَأْثَر عليهم بما لهم فيه اشتراك في الاستحقاق، ودعاهم إلى الصبر على ذلك ، لأن ما عند الله خير وأبقى . وحظهم في الآخرة أعلى وأغلى . وقد خصّ الحوضَ بالذكر عند البيان لهذه الغاية التي ينتهي إليها المؤمن المصدق ، لما في ورود الحوض على النبي ﷺ من التكرمة لأهل الإيمان الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فلم يغيروا ولم يبدلوا . ذلكم قوله صلى الله عليه وسلم: **«فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»** .

وتحسن الإشارة هنا ، إلى أن بعض روايات الحديث الأخر ، تحمل شيئاً من التفصيل يكشف عن أن الذين صدر منهم العتْب بعد العطاء الكبير للمؤلفة قلوبهم ، وعدمِ إعطاء الأنصار ، هم ناس حديثة أسنانُهم وليس غيرهم ، كما يكشف عن العلة التي من أجلها ، خصّ رسول الله ﷺ أناساً غيرهم بالعطاء ، وأن ما عومل به الأنصار ، كان متسقاً مع ما رزقوا من سمات الخير ، وهو في الوقت نفسه تكرمة لهم، تكشف عما لرسول الله ﷺ من حسن الظن في تقدير الأمور ؛ فالناس يذهبون بالشاء والبعير ، وهم يذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالهم ، كما أن بعض الروايات ــ كما سيأتي ـ تنص على أن القوم بَكَوْا حتى أخضلوا لحاهم، بعد أن سمعوا ما سمعوا من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ، البالغ السمو والإشراق في تكرمتهم ، وهدايته لهم. أخرج البخاري بسنده في كتاب المغازي من الجامع الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال ناس من الأنصار ـ

حين أفاء الله على رسـوله ﷺ مـا أفاء مـن أموال هـوازن ، فطفق النبـي ﷺ يعطي رجالاً المائة مـن الإبل ـ فقـالوا : يغفر الله لـرسولـه ﷺ ، يعطي قريشـاً ويتركنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم!! قال أنـس : فحُدِّث رسول الله ﷺ بمقالتهم ، فأرسل إلى الأنصار ، فجمعهم في قبـة من أدم ، ولم يَدْعُ معهم غيرهـم ، فلما اجتمعوا قام النبيﷺ فقـال : ما حـديث بلغني عنكـم ؟ فقال فقهاء الأنصـار : أما رؤسـاؤنا يارسـول الله : فلم يقولوا شيئـاً ، وأما ناس منا حـديثة أسنانُهم : فقالـوا : يغفر الله لـرسول الله ﷺ ، يعطـي قـريشاً ويتركنـا ، وسيـوفنـا تقطر مـن دمـائهم ، فقـال النبيﷺ: فإني أعطـي رجالاً حديثي عهد بكفـر أتألفهم، أما ترضـون أن يذهب الناس بالأمـوال ، وتذهبون بالنبـيﷺ إلى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبـون به خيرٌ مما ينقلبون به ، قالوا : يارسول الله قـد رضينا، فقال لهم النبيﷺ : ستجدون أَثرة ـ أو أُثرة ـــ شديدة حتـى تلقوا الله ورسولـه ﷺ ، فإني على الحوض » هكذا يـدّخر الله للأنصـار في الآخرة ، خير عوض لما صبروا عـن فواتـه في الدنيا ، ومـا أجمل هذه الكلمات التي تفيـض بالبشارة الكريمـة والهدي الصالح ، وتترقرق كـأنها حبات اللؤلؤ وأين منها ذلك !! « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » أو « فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ ؛ فإنِّيَ على الحوض ».

يقررها النبـي ﷺ للذين صدقـوا العهد ، ووفوا بالبيعـة ، فآووا ونصروا وآثروا إخوانهم المهاجـرين ، وجاهدوا في الله حـق جهاده ، ولم يتخلفوا عن سـاحة من ساحات البذل ندبهم رسول الله ﷺ إليها ، وصدق فيهم وفي أمثالهم ، قول الحكيم الخبير : ﴿ رجال صدقـوا ما عاهدوا الله عليـه فمنهم من قضى نحبـه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلاً ﴾ .

وماذا أنت راءٍ وراء هذه الجوامع من الكلم ، التي ارتفعت بسموها إلى حيث يصف ﷺ عـلاقته بـالأنصار بقولـه : « لولا الهجرة لكنـت امرءاً مـن الأنصار» وقوله : « الأنصار شعار والناس دثار» فلولا المكانة الدينية العظيمة للهجرة ، وأنه عليه الصـلاة والسلام حريـص على أن لا تتبدل بغيرهـا ـ وذلك لعظيـم شرفها ـ

لكان امرءاً من الأنصار . والأنصار شعار ـ وهو الثوب الذي يلي الجسد من الجسد ، والناس دثار ـ والدثار الثوب الذي فوق الشعار ـ .

أرأيت إلى هذا الفارق ؟ الأنصار شعار ، والناس دثار . إنها استعارة يدركها العربي ، وكل من تذوق شيئاً من أساليب العربية ، ويفقه معناها العميق المعبر عن مدى قرب الأنصار منه عليه الصلاة والسلام ، وقربه منهم ، وكونهم بطانته وخاصته . وكان ذلك بتلكم الكلمات القليلة عدداً ، الجامعة الغزيرة معنىً.

ولا بدع : فقد أوتي صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ـ جوامع الكلم ، واختصر له الكلام اختصاراً . وما أجمل التناسق بين الشكل في سمو بلاغته ، وبين المضمون في صدقه وإصابته كبد الحقيقة ، قال الحافظ ابن حجر في صدد الشرح لهذه القطعة من الحديث : (وهي استعارة لطيفة لفرط قربهم ـ يعني الأنصار ـ منه وأراد أيضاً أنهم بطانته وخاصته ، وأنهم ألصق به ، وأقرب إليه من غيرهم . زاد في حديث أبي سعيد : « اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ قسماً وبالله حظاً » .

لقد عمل صدقهم في حب الرسول الكريم عمله ، فنالوا هذا التوجه ـ المؤذن بالرفعة ـ منه عليه الصلاة والسلام في الدنيا ، كما سيقت إليهم بشرى أنهم ملاقوه على الحوض . « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » أي اصبروا واحتسبوا ما تلقون من الأثرة في أمور الدنيا، حتى تموتوا ؛ فإنكم ستجدونني على الحوض، فيحصل لكم الانتصاف ممن ظلمكم، والثواب الجزيل على الصبر ، فأكرم بالبشرى ، وأكرم بالموعد على الحوض، في لقاء النبي عليه الصلاة والسلام هناك ، وأعظم بهذا الجزاء على الصبر ﴿ إنّما يوَفَّى الصَّابرُون أجْرَهم بغير حساب ﴾ .

هذا : ونجد عند الإمام أحمد في المسند رواية، يبرز فيها شديد تأثر الأنصار

بكلام النبي ﷺ والحقائق التي طرحها حين خاطب فيهم القلوب والعقول ؛ فقد جاء في تلك الرواية ـ وهي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ قول النبي ﷺ: «يامعشر الأنصار ما قالةٌ بلغتني عنكم وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا: بل الله وسوله أمنُّ وأفضل ، قال : ألا تجيبونني يامعشر الأنصار ، قالوا :وبماذا نجيبك يارسول الله ، ولله ولرسوله المنُّ والفضل ؟ قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصُدِّقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك ، أوجدتم في أنفسكم يامعشر الأنصار، في لعاعة من الدنيا ، تألفتُ بها قوماً ليُسلموا ووكلُتكم إلى إسلامكم ؟ أفلا ترضون يامعشر الأنصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ في رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولوسلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قَسْماً وحظاً ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقنا ».

وواضح هنا كل الوضوح ، ما يدل عليه بكاء القوم الشديد ، حتى أخضلوا لحاهم من فرط التأثر والانفعال ، بما وجه إليه المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم ـ كما يقول الحافظ في شرحه لرواية البخاري ـ (إقامة الحجة على الخصم ، وإفحامه بالحق عند الحاجة إليه ، وحسن أدب الأنصار في تركهم المماراة ، والمبالغة في الحياء ، وبيان أن الذي نقل عنهم كان عن شبانهم الأحداث لا عن شيوخهم و كهولهم ؛ وفيه مناقب عظيمة لهم لما اشتمل من ثناء الرسول البالغ عليهم ـ كما أسلفنا ـ وأن الكبير ينبه الصغير على ما يغفل عنه ، ويوضح له وجه الشبهة ليرجع إلى الحق ؛ وفيه المعاتبة واستعطاف المعاتَب وإعتابه عن عتبه، بإقامة حجة من عتب عليه، والاعتذار والاعتراف).

اللهم اجعلنا هداة مهديين وبلغنا منازل الأبرار يوم القيامة وأحلل كريم رضوانك على الأنصار وعلى المهاجرين ، وأصحاب رسول الله أجمعين .

إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم

في قراءة مبصرة لما يفيض بـه الهدي النبوي الكريم، مـن دعوة المسلم إلى أن يكون ـ على حالاته كلها ـ مذكراً ما يكون من المساءلة ـ بعد أن يوضع في كل عنق كتاب منشور ـ أمام قيوم السماوات والأرض في يوم لاريب فيه .

وفي قراءة أخـرى مثلها ، على صعيد مـا يدل على رحمته صلى الله عليـه وسلم بأمته، والتنبيـه على اجتناب كل ما من شـأنه حرمان المرء مـن نفحات الرحمن في ذلـك اليوم العصيـب ـ ومنهـا الورود على حـوضـه صلوات الله وسـلامه عليـه ـ والانتظامُ في عداد مـن يطردون عن ذلك الحوض، بما كسبت أيديهم مـن المخالفة عـن سواء الصراط ـ كما تقدم مـن قبل ـ نقع في الأحـاديث التـي تبرز مشاهـد القيامـة، على العديـد من النصـوص التي تحمل شـديد النـذارة والوعيـد المفزع، لأولئـك الذيـن ظلموا أنفسهـم ، وتنكبوا الجادة ، مـوغلين في مهاوي الضـلال، فباؤوا بالخزي والحرمان ، من ورود ذلك الحوض المبارك يومذاك . وهذا يعني أنهم من المبعدين الـذين خسروا أنفسهـم، وضلّ عنهم ما كانـوا يكسبون . ولو رأيتهم وهم يـذادون عنه ويطردون ، لرأيـت العدل الإلهي في أسمى صوره وأبهاهـا ـ ولله المثل الأعلى ـ والعدل من العليم الحكيم جلّ شأنه ، عين الحكمة ومفصِل الحق . ذلك بأنهم اتبعوا غير سبيل المؤمنين، فولاهم الله ما تولّوا ، ولم ينالوا ما ناله أولئك الذين ظلوا على العهد ، حتى وافتهم آجالهم ، وهم على الصراط السوي .

فالذين ينقلبون على أعقابهم، ويتخذون هدي المبلغ عن الله ما أراد، ظهرياً ، أنّى لهم ورود حوضه عليه الصلاة والسلام .

من أجل هذا : كان من دلائل نبوته صلى الله وسلم وبارك عليه أنه ـ كما أكّد بما لا يقبل الشك ـ وجود الحوض في الآخرة وهو ما تشهد به صحاح الأحاديث ـ

نبه على ما سيكون يومئذ من حال أولئك الهلكى ؛ إذ القلوب لدى الحناجر ، والأقنعة التي كانت تتخذ جُنّة في الدنيا ، غير نافعة أصحابها ، وكلٌّ صائرٌ إلى عاقبة ما كسب في دار الفناء .

من أجل هذا : لا تعجب إذا رأيت النبي ﷺ ، يحذر من التنافس في الدنيا، والوقوعِ في أحابيل الضلال التي يزينها شياطين الإنس والجن ، ومن طاعة الهوى المردي، والنفسِ الأمارة بالسوء ، والاستسلامِ للشهوات ، لأن ذلك موجب للغفلة والبعد عن الله ، مما يؤدي بصاحبه ـ إن لم يراجع نفسه ـ إلى أن يكون في زمرة الذين تدركهم الشقوة ، فيطردون عن الحوض والعياذ بالله . أخرج الإمام البخاري في كتاب الرقاق «باب الحوض وقول الله تعالى : ﴿ إنّا أعطيناك الكوثر ﴾ » من الجامع الصحيح بسنده عن عقبة رضي الله عنه « أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلّى على أهل أُحُد صلاته على الميت ، ثم انصرف على المنبر فقال : إني فَرط لكم ، وأنا شهيد عليكم ، وإني والله أنظر إلى حوضي الآن ، وإني أُعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض ـ أو مفاتيح الأرض ــ وإني والله ما أخاف عليكم أن تُشركوا بعدي ، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها » .وقد أورد الإمام البخاري هذا الحديث في « باب الصلاة على الشهيد » من كتاب الجنائز، وفي « باب علامات النبوة » من كتاب الفضائل. كما أورده في « باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها» . وفي هذه الروايات كلها جاء قول الراوي : « ثم انصرف إلى المنبر » أما هذه الرواية التي أثبتها هنا من : « باب الحوض وقول الله تعالى : ﴿ إنّا أعطيناك الكوثر ﴾ » فقد جاءت العبارة فيها بلفظ « ثم انصرف على المنبر » وجاء في بعض الروايات « إني قد أعطيت» بدل « وإني أعطيت » كما هي العبارة هنا .

وفي هذا الحديث معجزة للنبي ﷺ وأعلام من أعلام نبوته؛ منها ـ كما سبق ـ تأكيد وجود الحوض وأنه فرط الأمة إليه ، وإخباره عن المحرومين من الورود، وتخوفه على الأمة ، من الوقوع فيما يقتضي الإبعاد عنه، في تلكم الساعات العصيبات، وبخاصة ما يتعلق بأمر التنافس في الدنيا ، الذي لا تخفى الآثار

السيئة للوقوع فيه، لأن التنافس المقصود هنا ، هو ذلك الذي يؤدي إلى التنافر المردي ، والسرف ، والتعدي لحدود الله . ولذلك أخرج البخاري الحديث المذكور ـ وهذا من فقهه رحمه الله ـ في علامات النبوة من كتاب الفضائل في الجامع الصحيح.

وقد أشار الحافظ ابن حجر يرحمه الله ، إلى أن في الحديث إنذاراً بما سيقع ، فوقع كما قال ﷺ ، وقد فتحت عليهم الفتوح ، وآل الأمر في بعض الأحيان إلى الاختلاف المشاهد المُحَسّ ، مما يشهد بمصداق خبره ﷺ . ووقع من ذلك في هذا الحديث إخبار ﷺ بأنه فرطهم أي سابقهم وهو كذلك ، وأن أصحابه لا يشركون بعده ، فكان كذلك ، ووقع ما أنذر به من التنافس في زهرة الدنيا ، وما خاف على المسلمين حصوله . وتقدم في معنى ذلك ـ كما يقول الحافظ ـ حديث عمرو بن عوف مرفوعاً « ما الفقرَ أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم ، كما بسطت على الذين من قبلكم » .

ومما يجب التنبيه عليه ، ما يُرى من أن النبي ﷺ ذكر الحوض في قوله : « والله إني لأنظر إلى حوضي الآن » وقرن ذلك بأنه شهيد على الأمة يوم القيامة، وبالتحذير من التنافس في الدنيا . وفي ذلك ما فيه من توجيه الأمة إلى ضرورة القيام بكل ما من شأنه درءُ المفاسد التي تقود إلى السوأى ، والمصير المخزي يوم الحساب.

وآية ذلك: أن من يحرصون على تجنب تلك المفاسد ، ويسلكون طريق الصلاح ، والإصلاح في القول والعمل ، يكرمهم الله تعالى ، بأن يلقوه على الحوض، فيردون ورود الفرِح بفضل الله ، المطمئن إلى مصير السعداء في جنة تجري من تحتها الأنهار ، ولا يُبعدون كما يُبعد الذين ضيَّعوا أمانة الطاعة ، والعمل بشريعة الله.

ثم إن في الاقتران المومى إليه ، إيذاناً بما يجب من الابتعاد الصارم ، عن كل ما يكون سبباً في ذلك الإبعاد عن الاستمتاع بتلك النعمة العظيمة ، التي هي عنوان التوفيق والقبول، في ذلك اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، والسعيد من أدركته الرحمة فكان من الناجين . قال ابن التين رحمه الله : (النكتة في ذكره ـ يعني الحوض ـ عقب التحذير الذي قبله . أنه يشير إلى تحذيرهم من فعل ما يقتضي إبعادهم عن الحوض) .

وأنت واجد أنه ﷺ ، بدأ الكلام بعد انصرافه إلى المنبر بقوله : « إني فرط لكم وإني شهيد عليكم » ثم أكد وجود الحوض يوم الفصل تأكيداً لا مزيد عليه ، وذلك بقوله صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ـ: «وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن » الأمر الذي يدل على أن الله كشف له عنه لما خطب ـ والله أعلم ـ .

ولما كانت المنافسة في زهرة الدنيا، بزخرفها وشعبها الوفيرة المتنوعة ، تأتي في مقدمة ما يوقع المرء فيها لا تحمد عقباه في الدنيا ويوم الدين ـ ومن ذلك عدم ورود الحوض ، أعاذنا الله من ذلك ـ أوسع العلماء القول فيها تيسيراً لحصول الانتفاع بهديه عليه الصلاة والسلام . من ذلك ما نرى عند صاحب « فتح الباري» رحمه الله ؛ فعند الكلام على الحديث ، وشرح تلك المنافسة ـ التي تخوّف الرسول ﷺ على الأمة، بدءاً بأصحابه رضي الله عنهم منها ـ أشار إلى حديث أبي سعيد الذي أورده البخاري في أوائل كتاب الرقاق من الجامع الصحيح «باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ». وقد جاء في هذا الحديث قول الرسول ﷺ : « إن أكثر ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من بركات الأرض . قيل : وما بركات الأرض ؟ قال: زهرة الدنيا . فقال له رجل : وهل يأتي الخير بالشر ؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننت أنه يُنزل عليه ، ثم جعل يمسح عن جبينه فقال : أين السائل؟ قال : أنا . قال أبو سعيد : لقد حمدناه حين طلع لذلك . قال : لا يأتي الخير إلا بالخير . إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حَبَطاً أو يُلِم،

إلا آكلة الخَضِرة ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس ، فاجترَّت وثلطت وبالت ، ثم عادت فأكلت ، وإن هذا المال حُلوة ؛ من أخذه بحقه ووضعه بحقه ، فنعم المعونة هو ، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل لا يشبع».

صلى الله وسلم وبارك على هذا النبي الكريم معلم الناس الخير ، على ما بلغ فأحسن التبليغ ، وعلى ما بين مبشراً ومنذراً ، فأحسن البيان .

وكم يصادف المسلمَ كلَّ يوم من الوقائع التي تدل أبلغ الدلالة وأوضحها، على أحقية ما نبه عليه وحذّر منه الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام !!. وليحذر الذين يعرضون عن الهدي المحمدي، ويستبدلون الذي هو أدنى ـ من الأفكار الدخيلة والشهوات القاتلة ـ بالذي هو خير ، أن تصيبهم يوم العرض الأكبر قارعة الحرمان من أن يكونوا في زمرة وُرَّاد الحوض ...

وللحديث صلة تتاح من خلالها ـ إن شاء الله ـ نظرات في بعض الروايات الأخر ، ونسأله تعالى أن يحشرنا في زمرة الناجين الفائزين بما وعد الرحمن عباده بالغيب، إنَّ وعده كان مأتيّاً .

سُحقاً سُحقاً لمن غيّر بعدي!!

ما كنا بسبيله من الكلام على تحذير النبيﷺ أصحابه الكرام، والأمةَ من ورائهم، من الوقوع فيما يكون سبباً في الحيلولة دون الواحد منهم، ودون ورود الحوض يوم الدين .. يقتضينا تجديد الصلة بما حمل الهدي النبوي المبارك، من بيان لقضية كبرى، قضية فئام من الناس يعرفهم يوم القيامة بسيما تميزهم، ويراهم يبعدون عن حوضه وهم مقبلون عليه، وعندما يتساءل عن سبب هذا الأمر الخطير، أمرِ إبعاد هؤلاء عن الحوض، يجاب بما يدل على أن السبب في ذلك، جنوحهم عن سبيل الهدى إلى مزالق الضلال، فيقول النبي عليه الصلاة والسلام: « سُحقاً سحقاً ».

جاء في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح تحت قول البخاري: « باب في الحوض وقول الله تعالى: « إنا أعطيناك الكوثر» قوله رحمه الله: حدثنا سعيد بن أبي مريم قال: حدثنا محمد بن مطرِّف قال: حدثني أبو حازم عن سهل بن سعد قال النبي ﷺ: « إني فرطكم على الحوض، من مرَّ عليَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يحال بيني وبينهم ».

لقد عرفهم النبيﷺ ـ والمعرفة حاصلة بسيماء دلت عليها أحاديث ـ مرّ من قبل بعض منها ـ ولكنهم غيَّروا وبدّلوا، فلم تغن عنهم تلك السيماء شيئاً، لما جاء الأمر الإلهي، بأن يحال بينهم وبين الرسول الكريم، لكيلا يردوا الحوض.

وهذا العلَم من أعلام النبوة في هذا الذي سوف يكون لا محالة، يزيد المؤمن حرصاً على أخذ نفسه، ومن ولاه الله أمرهم بطاعة الله تعالى، والوفاءِ بعهده جلَّ شأنه، وعهد رسوله عليه الصلاة والسلام، كيما يوفق في تجنب طريق الغفلة والغافلين، وتكون الآخرة ـ أبداً ـ منه بحسبان. قال علي بن أبي طالب رضي الله

عنه : « ارتحلت الدنيـا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكـل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبنـاء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فـإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » .

ومـن الواضـح ، أن هـؤلاء الذيـن يعرفهـم النبـي ﷺ ـ وهـو على الحوض ، ويعرفونه ، ثم يحال بينه وبينهم ، فيصرفون عنه ـ جاءت النصوص التي تدل ـ كما سبقت الإشارة ـ على أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، فرجعوا القهقرى ، وأحدثوا ما لم يأذن به الله ورسـوله . من تلك النصوص : ما جاء عنـد الإمام البخاري بعد الحديث السابق الذي جاء فيه : ـ كما سبق ـ « ليردنّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهـم » حيث قال رحمه الله : قال أبو حـازم : فسمعني النعمان بن أبي عيأَّش فقال : هكذا سمعت من سهـل ؟ فقلت : نعم ، فقال : أشهد على أبي سعيد الخدري ، لسمعتـه وهو يزيـد فيها : فأقـول ـ القائل النبـي ﷺ ـ : « إنهم مني، فيقـال : إنك لا تدري مـا أحدثوا بعـدك ، فأقول : سُحْقـاً سحُقاً لمن غيَّر بعدي ». وقال ابن عباس رضي الله عنهما : سُحْقاً : بُعداً . يقال : سحيق : بعيد ، سحقه وأسحقه : أبعده .

ولا يخفى أن الرسـول ﷺ ما كان ليدعـو بقوله : « سُحْقاً سُحْقـاً » لمن بدّل بعده ، إلا لأن المخالفة عن أمر الله ورسوله بالتبديل، أمر كبير ممقوت ، وبخاصة إذا كان من يقـع في ذلك الجنوح المهلك، ذا كلمة مسموعـة وأثر في المجتمع ؛ إذ هنالـك يحمل آثـار وزره، ووزر الذين كـان له الأثـر في وقوعهـم أيضاً في التغيير والتبديل .

ومهما يكن من أمر : فإن في كلامه ﷺ التحذير البالغ للمسلمين من الوقوع في هذه المهلكـة، مهلكةِ التغيير والتبديل ، و إحـداثِ ما لم يأذن بـه الله في منهج حيـاتهم ، لما أن ذلك يعـود على فاعلـه والمتسبـب به ، والـراضي مع القـدرة على الإنكار والتغيير ، بعاقبـة السوء في الآخرة ، ومن ذلـك: الحرمان من ورود الحوض

الذي هو من كرامة الله لخاتم النبيين ثم لأمته .

هذا : والأحاديث التي تحمل هذا الوعيد ، وتكشف عما يعاقب به أولئك الذين أحدثوا ما أحدثوا ، من الجنوح عن الصراط السوي، بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام، تشعر بأن مواقف الهداية في شأن هذه القضية، قد تعددت ، لما يبدو من ألوان الكلام في توجيه النبي ﷺ وعداً ووعيداً . أخرج الإمام مسلم بسنده عن عمرو بن الحارث أن بُكيراً حدثه عن القاسم بن عباس الهاشمي عن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة عن أم سلمة زوج النبي عليه الصلاة والسلام «أنها قالت: كنت أسمع الناس يذكرون الحوض ، ولم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ ، فلما كان يوماً من ذلك والجارية تمشُطني ، فسمعت رسول الله ﷺ يقول : أيها الناس ، فقلت للجارية : استأخري عني ، قالت : إنما دعا الرجال ، ولم يدع النساء ، فقلت : إني من الناس ، فقال رسول الله ﷺ : إني فرطكم على الحوض فإياي لا يأتينَّ أحدكم ، فيُذَبَّ عني كما يُذبُّ البعير الضال، فأقول : فيم هذا ؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سُحْقاً » ثم روى مسلم من طريق أخرى عن عبدالله بن رافع قال : كانت أم سلمة تحدث «أنها سمعت النبي ﷺ يقول على المنبر وهي تمتشط : أيها الناس فقالت لما شطتها: كفي رأسي » بنحو حديث بكير بن القاسم بن عباس .

ومن الملاحظ أن بعض العلماء حمل هؤلاء الذين يطردون عن الحوض ، كما يطرد البعير الضالُّ ، على المنافقين ؛ قالوا : ولذا قال ﷺ : سُحْقاً ؛ إذ لا يقول ذلك في مذنب أمته ، بل يهمه أمره ، ويشفع له . وقيل : هؤلاء صنفان : عصاة مرتدون عن الاستقامة ، لا عن الإسلام ؛ فهؤلاء بدلوا الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة. والصنف الثاني : مرتدون إلى الكفر والعياذ بالله ، واسم التبديل والإحداث، يشمل الصنفين .

على أن هنالك بعض الروايات ، التي تحمل مزيداً من التفصيل في شأنهم؛

فرواية تنص على أنهم ارتدوا على أدبارهـم القهقرى ، وأخرى تنطق بأنهم نكصوا على أعقابهم ــ أو رجعوا على أعقـابهم ـ إلى آخرمـا هنالك . مـن ذلك مـا أخرج البخاري في كتـاب الرقاق مـن الجامع الصحيح بسنـده عن ابن أبي مليكـة عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : قال النبي ﷺ : « إني على الحوض حتى أنظر مـن يرد عليَّ منكم ، وسيـؤخذ ناس دوني ، فأقـول : يارب مني ومـن أمتي، فيقال : هل شعرت ما عملوا بعدك ؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم » فكان ابن أبي مليكة يقول : اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا ، أو نفتن عن ديننا .

وإني لأدعو ــ وقد تجارت بنـا الأهواء وتداعـت علينا الأمـم وغزتنـا الأفكار المضلّلة ـ بدعاء ابن أبي مليكة : اللهم إنـا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن في ديننا . ولله عاقبة الأمور .

المشهد المروّع..

يذودهم الرسول عن الحوض!!

أبنـاء الآخرة: هـم الجديـرون بأن يغبطـوا على سلـوكهـم، الذي لا يحيـد عما يقتضيه العمل للنجـاة، يوم ترجـف الراجفة تتبعها الـرادفة . ولقد أثنـى الله تبارك وتعالى على أولئك الذين يجمعون إلى تسبيـح الله في بيوته التي أذِن أن ترفع ، وأداء ما افترض الله عليهم من صلاة وزكاة وغيرهما ، وأن الـدنيا لا تلهيهم عن ذكر الله وعبـادتـه .. يجمعـون إلى ذلـك كلـه ، أنهم ﴿ **يخافون يـوماً تتقلـب فيه القلـوب والأبصار**﴾ وهو يـوم القيامة ؛ ذلكم قـوله جل ثناؤه في سـورة النور : ﴿**في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عـن ذكر الله وإقـام الصلاة وإيتـاء الزكـاة يخافون يـوماً تتقلـب فيه القلوب والأبصار** ﴾ وكان من كرمه وفضله سبحانه ، أنه يجزيهم الجزاء الأوفى ، في ذلك اليـوم الذي يخافـونه ، ويعملون مخلصين ، ليكـونوا فيـه من النـاجين ، فقال تعالى: ﴿**ليجزيهم الله أحسن مـا عملوا ويزيدهـم من فضله والله يرزق مـن يشاء بغير حساب** ﴾ .

ويوم تقـع الواقعـة ، وتجيء بثقلها الصاخّـة ، وتمدُّ الطامـة الكبرى بإذن الله مدّها ، ويبرز العباد لله الواحد القهار .. هنالك تبدو الحاجة ملحّة ، إلى قبس من رجـاء ، يفرِّج ــ بعـون الله ـ الكـربـة ، و يكشف الغُمَّـةَ ، ويعين على تبيّن المصير، ويكرم الله العبـاد ، بنبينا محمد عليه الصـلاة والسلام ، فتكون الشفاعـة العظمى للفصل في القضـاء ، وإراحة الناس من كـربات الموقف المثقـل بالحسرات ؛ ولا تسل عن إكرام الله للأمة المحمديـة !! ومن هذا الإكرام : ورود الحوض ـ بصفاته التي بينها هو صلوات الله وسلامه عليه ــ وهنالك يعلن الاختبار الدقيق العميق

إعلانه ، فبجانب أهل الرضى الذين يكرمهم الله بورود ذلك الحوض على النبي ﷺ ، وينعم عليهم بالشرب منه ، فلا يظمأون بعد ذلك أبداً ... بجانب هؤلاء، تبرز حال أولئك الذين تحول إساءتهم ، دونهم ودون أن يردوه ويشربوا منه ـ كما سلفت النصوص في هذا ـ ذلك بأنهم نُبِّهوا فلم يتنبهوا ، وذُكِّروا فلم يتذكروا ، وأحدثوا بعد رسول الله في الدين، ما لايتفق مع كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام : ولقد يغشى قلوبهم الخزي ، فتأكلها الندامة ،ولات ساعة مندم .

والذي تجدر الإشارة إليه ، أن في بعض الروايات الأخر ، التي جاءت في شأن هذه القضية البالغة الأهمية ، ما يزيد الأمر وضوحاً على وضوح ، وينبه على أخذ الحذر الشديد في هذه الدار ، وعدم الوقوع في تلك الطامات التي وقع فيها أولئك الفئام من الناس ، فكان جزاؤهم أن يذادوا عن الحوض على رؤوس الأشهاد ، مصحوباً ذلك بإبلاغ النبي ﷺ وبارك عليه ، أنهم مازالوا يرجعون القهقرى في دينهم ، الأمر الذي قعد بهم عن أهلية الورود .

أخرج الإمام مالك في الموطأ من حديث طويل يرويه أبوهريرة رضي الله عنه قول النبي ﷺ : « وأنا فرطهم على الحوض ، فلا يذادنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ، أناديهم ألا هلمّ ، ألا هلمّ ! فيقال : إنهم قد بدّلوا بعدك ، فأقول : فسُحْقاً ، فسُحْقاً ». وجاءت هذه القطعة من الحديث عند ابن ماجة من رواية أبي هريرة أيضاً بلفظ «... أنا فرطكم على الحوض ، ليُذادنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضالّ ، فأناديهم : ألا هلمُّوا ، فيقال : إنهم قد بدّلوا بعدك ، ولم يزالوا يرجعون على أعقابهم ، فأقول : ألا سحقاً سحقاً » وأخرجه الإمام أحمد .

ولئن كان في الروايات التي سلفت، ما يخبر عن أن هؤلاء النفر من الناس ، سوف يطردون ويبعدون عن الورود ، وكان فيها وعيد الرسول ﷺ على المخالفة، وتحذيره من الرجوع القهقرى في الدين ، الأمر الذي يعقب المصاب الأخروي

الأليم، في الطرد عن الحوض ... إن هنالك روايـات تكشف عن أن الرسول ﷺ، سوف يتولى بنفسه ذود بعض الناس عن ذلك الورود الكريم ، لما أنهم خالفوا عن سبيل الله ، وأذعنـوا لدواعـي النفس والهوى والشيطـان . جاء في مسنـد أحمد قول عبدالله ابنـه : حدثني أبي قـال : حدثنا محمـد بن جعفر قـال : حدثنا شعبـة عن محمد بن زيـاد أنه قال : سمعت أبا هريـرة رضي الله عنه يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفس محمـد بيده لأذودنَّ رجالاً منكم عن حوضي كما تـذاد الغريبة مـن الإبل عـن الحوض » وفي رواية لـه أيضاً عـن محمـد بن زيـاد قال : سمعـت أباهريرة رضي الله عنه يقول : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : « والذي نفسي بيده لأذودنَّ عن حوضي رجالاً كما تُذاد الغريبة من الإبل » .

ويلاحظ هنـا قسَم النبيﷺ على هذا الأمر المخيـف المرعب، الذي يفترض أنه يـزيد المؤمن خشيـةً من الغفلة التـي تسوء معهـا العاقبة يـوم الحسرة ، وتكون طريقاً للخزي المبين ،والخسارة التي لا تعدلها خسارة ، إلا أن تكون مثلها أو من نوعها ، نسأل الله العافية .

على أن هنالك مـن الأحاديث ، ما يدل أيضاً على أن رسـول الله عليه الصلاة والسلام ، يذود النـاس من أجل أناس بـأعيانهم ، ذلكم ما أخـرج الإمام أحمد في المسند قـال : حدثنا عفـان قال : حدثنـا همام قال : حدثنـا قتادة عن سـالم عن معدان عـن ثوبـان أن النبيﷺ قـال : « أنا بعُقـر حوضي يـوم القيامـة أذود عنه الناس لأهـل اليمن ، وأضربهم بعصاي حتـي يرفـضّ عليهم، قال : قيـل للنبي ﷺ: ما سعتـه ؟ قال : مـن مقامي إلى عمان ، يَغُـتُّ فيه ميـزابان يَمُـدَّانه » وبهذا اللفظ رواه ابن حبان وقد سبقت الإشارة إليه .

الصحـابي الجليل ثـوبـان : هو مـولى رسـول الله ﷺ . عُقر الحوض : بضـم العين: موضع الشاربة منه ـ كما يقول ابـن الأثير في النهاية ـ أي أطردهم لأجل أن يرد أهـل اليمن . حتى يـرفضَّ عليهم : حتى يسيـل عليهم . ومعنى يغُـتُّ فيه

ميزابان : أي يدفقان فيه الماء دفقاً متتابعاً ـ كما سبق ـ .

ولأحمد من رواية أخرى عن ثوبان أيضاً ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا عند عُقر حوضي أذود الناس عنه لأهل اليمن ، إني لأضربهم بعصاي حتى يرفضَّ عليهم ، وإنه ليغتُّ فيه ميزابان ؛ أحدهما من ورِق والآخر من ذهب، ما بين بصرى وصنعاء ، أو ما بين أيلة ، أو قال : من مقامي هذا إلى عمان ». وفي رواية له أيضاً « ... فسئل رسول الله ﷺ عن عرضه فقال : من مقامي هذا إلى عمان . وسئل عن شرابه فقال : أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، يصب فيه ميزابان يمدانه من الجنة ، أحدهما ذهب والآخر ورق » .

جزى الله عنا نبينا محمداً ﷺ خير ما جزى نبياً عن أمته وجنبنا الوقوع فيما يكون سبباً للذَّود عن حوضه ، وبلّغنا ـ بمنه وكرمه ـ منازل الأبرار المتقين مع الصديقين والشهداء والصالحين . وحسن أولئك رفيقاً .

العملَ العملَ... ومن وردَ أفلح

من الحقائق التي تجدر مراعاتها عند النظر في هدي النبي ﷺ ، ما يدل عليه هذا الهدي الميمون من أنه صلوات الله وسلامه عليه ، لم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى أدى أمانة البيان لكل ما يلزم بيانه خير الأداء ، سواء فيما يتعلق بعالم الشهادة ، أو بعالم الغيب؛ ومما يتعلق بعالم الغيب إخباره ﷺ وبارك عليه وعلى آله عن الحوض ومن أين يستمد ماءه ، وما هي صفاته ، ثم عن حال أولئك الذين يراهم فيعرفهم بسيماهم يوم القيامة وإذا بهم يذادون عنه كما تذاد الإبل الضالة ، ويعلم عليه الصلاة والسلام حينذاك أن طردهم عن الحوض ، إنما كان بسبب أنهم أحدثوا بعده في الدين ما لايتفق مع الكتاب والسنة ، وما زالوا يرجعون القهقرى، في التزامهم بالطاعة والإنابة إلى الله . وقد سلف من النصوص، ما يفصح عن هذا الأمر الجلل ، ويحمل تحذير الأمة من الإقدام على ما أقدم عليه أولئك الذين غيّروا وبدّلوا ، فعوقبوا بهذا الحرمان من ورود الحوض الذي منَّ الله به على نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلى أمته من بعده . مع أن من أعظم البشائر ، أن من ورده وشرب منه شربة ، لم يظمأ بعدها أبداً . وهذه حقيقة يتجاهلها أولئك الجانحون المفرِّطون .

ومن الجدير بالملاحظة حقاً ، أن الناظر في مجموع الروايات الواردة في هذا، يغلب على ظنه أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد عرض هذا الموضوع في العديد من المناسبات ـ والله أعلم ـ مؤكداً ما يجب فعله ،وما يجب تركه من أجل الحظوة بتلك المنة الكبرى ، منة الورود على الحوض والشرب منه .

من أجل هذا : كان حسناً ـ إن شاء الله ـ إيراد زمرة أخرى من الروايات تنمُّ عن تنوع أساليب الهدي النبوي في هذا ، والهدي النبوي ـ كما نعلم ـ قاطع العذر ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام ، أمضى حياته كلها بعد الرسالة ، في

التبليغ عن الله ، والبيان الـذي اؤتمن عليه بشتى الأساليب النافعـة التي دلت على صـدق نبوتـه ، وأحقية أمـانته فيهـا ، وأنـه لا ينطق عـن الهوى إن هو إلا وحـي يوحـى . وقـد حافـظ أئمة الهدى مـن جهابـذة العلماء على حديثـه صلى الله عليه وسلم مـن بعده ، بما حفظـوا ودوّنوا ، وقعّـدوا قواعـد الجرح والتعديـل ، والقبول والرد ، وكـان أن أفنوا أعمارهم في خـدمة السنة المطهّرة ، بمنهجيـة بالغة الـدقة ، وأمانة منقطعة النظير . عن أبي سعيـد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما بـال رجال يقولون : إن رحم رسول الله ﷺ لا ينفـع قومه ، بلى والله إن رحمي موصـولة في الدنيـا والآخرة ، و إني أيها الناس فـرطكم على الحوض ، فإذا جئتـم ؛ قال رجل: يـارسول الله أنا فـلان بن فلان وقـال آخر : أنا فـلان بن فـلان ، فـأقول : فأما النسـب: فقد عرفته ، ولكنكـم أحدثتم بعدي وارتـددتم القهقرى » رواه أبو يعلى ورجاله ـ كما يقـول الهيثميُّ ـ رجال الصحيح غير عبدالله بن محمد بن عقيل ، وقد وثّق .

هكذا لا ينفـع من أحدث في دين الله ، بعـد الرسول عليه الصـلاة والسلام، وارتد القهقرى، نسب ولا أرومة ؛ فهو يذاد عن الحوض بما قدّمت يداه في الدنيا، ولا يظلم ربك أحـداً . وأخرج الإمام أحمد بسنده عـن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنا فرطكم على الحوض ، فمن ورد أفلح ، ويجاء بأقوام فيـؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : أي رب ! فيقال : مـازالوا بعدك مرتدين على أعقابهم » وأخرجه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه .

ولا ريب في أن من نعـم بالورود فقد أفلح ، لأن ذلك عنـوان النجاة والفوز العظيم ، في ذلك اليـوم العصيب الذي تغمر النـاس فيه ـ مع الأهـوال العظام ـ رهبة المصير . أما من لم يرد : فأين منه الفلاح !! ولو سلك سبيل الفالحين ؛صِدْقَ إيمان ، وصلاحَ عمـل، مستعيناً بـالله ، صادق التوكـل عليه ، لحظـي بهذا الفضل الكبير، ولكنه لم يفعـل ولا حول ولا قوة إلا بـالله . وأخرج ابن حبـان في صحيحه بالسنـد عن ابن جريـج قال: حدثنـي أبو الزبير قـال : سمعت جابر بـن عبدالله

يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا فرطكم بين أيديكم ، فأنا على الحوض ما بين أيلة ومكة ، وسيأتي رجال بآنية وقُرب ثم لا يذوقون منه شيئاً » . وتدل بعض الروايات على أن بعض الناس يرفعون إليه رؤوسهم وهو على الحوض ، فيُجتذبون ويُقطعون عن أن يكونوا من وراد الحوض . والروايات السابقة التي تحمل شيئاً من التفصيل ، وقفتنا على سبب اجتذاب هؤلاء وقطعهم، وهو أنهم أحدثوا بعد رسول الله ﷺ ما أحدثوا ، وما يزالون يرجعون القهقرى ؛ فبدلاً من التوبة النصوح ، والعودة إلى حظيرة الإيمان الذي لا تشوبه شائبة ، والسلوك الذي يكون انعكاس الإيمان ، كان منهم الإصرار على ما فعلوا ، والتراجع المخزي الذي يجرُّ على صاحبه أوخم العواقب . أخرج أبوبكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك الشيباني المتوفى سنة سبع وثمانين ومائتين للهجرة في كتاب « السنة» بسنده عن علي بن زيد عن الحسن عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال : « ليردنّ علي الحوض رجال حتى إذا رفعوا إليَّ رؤوسهم اختُلجوا دوني » اختُلجوا : اجتذبوا واقتطعوا . وله في رواية أخرى بلفظ « ليردنَّ أقوام عليَّ الحوض حتى إذا رفعوا رؤوسهم اختلجوا دوني»

ونحن واجدون في بعض الروايات، ما يدل أكثر وأكثر ، على مزيد اهتمام النبي ﷺ بورود الواردين من أمته ،وأنه ينتظر من يرد عليه من المسلمين ، وتكون المفاجأة التي يلزم المؤمنَ أن يثبت على طريق الإسلام ، لكيلا يكون من صُناع تلك المفاجأة .

قال أبوبكر عمرو بن أبي عاصم الشيباني في كتاب « السنة » : حدثنا أبو المغلِّس عبدربه بن خالد ، قال : حدثنا الفضيل بن سليمان عن عبدالله بن عثمان ابن خُثيم أنه سمع ابن أبي مليكة يحدث عن عائشة رضي الله عنها « أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وأنا أسمع: إني فرطكم على الحوض ، أنتظر من يرد عليَّ منكم، واللهليقتطعنَّ رجال دوني» وله من رواية أخرى بسنده عن موسى بن عقبة عن أبي الزبير قال : حدثني جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول :

«أنا بين أيديكـم فإن لم تجدوني ، فأنا على الحوض والحوض مـا بين أيلة إلى مكة . وسيأتي رجال ونساء يطردون فلا يطعمون منه شيئاً ».

وتطالعنا رواية أخرى له رحمه الله من طريق عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا فرطكم على الحوض ؛ فمن ورد عليَّ أفلح . ويؤتى بقوم فيؤخذ بهم ذات الشمال ».

ألا ما أجمل وأدعى للتفاؤل بالنجاة يوم القيـامة والفوز بإكرام الله للمؤمنين ، أن يستقبل المؤمن مـا ثبت من هدي النبـي ﷺ وبيانه في هذه المغيّبـات ـ ومنها كرامـة الحوض لنبينا ﷺ والأمـة من بعده ـ بقلب تـزينه حـلاوة الإيمان ، فتهش نفسه لـذلك وتبـش ، ويحزم أمره على طريـق العمل الصالـح ، والتزود بـزاد عباد الرحمن المتقين ، كيما يفوز بما يفوزون به من الفضل الإلهي، ومنه ورود ذلك الحوض والشرب منه ، يوم يحشر الناس لرب العالمين .

وعلى صعيد التربية والتذكير بأمور الآخـرة وما فيها : تبدو الحاجة ملحّة ، إلى إعطاء الإيمان بالغيب ، والتصديق بحقيقة المغيبات التي جاءت الأخبار الصادقة فيها ، مزيداً مـن العناية التي تعتمد على جلاء القلوب وصفـاء النفوس ، وتنويع الأساليب النـافعة في الإقلال من أثر الضـوابط المادية الغازية ، وعـوامل الجفوة ، وقسوة القلب . والله المستعان .

كلما صفا القلب ولان لذكر الله ،كان أكثر تفاعلاً مع الكلمة الخيّرة ، من هدي النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ؛ وهذا ما ينبغي أن يحرص عليه المؤمن، لكيلا تذهب به قسوة القلب، إلى حيث يقف موقف الجفوة ، لما حملت إلينا أحاديث رسول الله ﷺ من أخبار اليوم الموعود ، وما اكتنف ذلك من الترغيب والترهيب والبشارة والنذارة ؛ فتراه يرجو رحمة الله ، ويخاف عذابه ، ﴿**والله لا يضيع أجر المحسنين**﴾.

وفي السنة المطّهرة: معالم على طريق المؤمنين ، كم تسعف ـ إذا أُخذت مأخذ الجد وعزائم الرجال ـ في تحديد المسار الصالح الذي يضمن بإذن الله، حسن الانتفاع بما تدل عليه الأخبار المومى إليها ، وتأخذ بيد المؤمن ـ أن لو ثبت على هذا المسار المضيء بطاعة الله والإخلاص في الدين ــ إلى خير عاقبة يوم القيامة، وأسلم مصير .

من هذه المعالم : ما أخرج الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن . وقد سلفت الإشارة إلى هذا الحديث في بعض المناسبات من قبل .

أدْلج ــ بإسكان الدال ـ سار من أول الليل . قال الحافظ أبو محمد شرف الدين الدمياطي المتوفى سنة خمس وسبعمائة في كتابه « المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح » : (والمعنى أن من خاف الله تعالى شمَّر في طاعته ، وسار إليه عجلاً مع السابقين من السالكين ؛ فإذا مضى ليل المجاهدة وانفجر فجر الآخرة ، ورأى ما قطعه في سرى سيره من المفاوز والمخاطر، وشاهد قرب منزلته من الحبيب

عليه الصلاة والسلام ، وانقطاع من أقعده الكسل ، وغره الأمل ، أنشد لسان حاله : « عند الصباح يحمد القوم السُّرى ») .

قادني إلى هذه الكلمات ، ما توحي به أحاديث الحوض التي أسعدنا اصطحابها، مما ينبغي استذكاره والانتفاع به علماً وعملاً في الطريق المسلوكة ـ بعون الله ـ إلى القرب من رسول الله ﷺ يوم الدين ، وورود حوضه ، والاطمئنان إلى الفوز بما يسهر في طلبه المشمّرون في الطاعة ، السالكون طريق المجاهدة والجهاد ، من نعيم لا يزول ، ورضوان من الله القدوس السلام المؤمن المهيمن ، سبحانه وتعالى .

فالرحلة الطيبة التي نعمنا معها بصحبة عدد من تلك الأحاديث ـ بمختلف الروايات ـ في شأن تلك المكرمة الربانية ، التي هي من مظاهر الإنعام الإلهي على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يوم القيامة ، وحافز مبارك من حوافز الخير ، التي تبعث على شحذ الهمم ، وتقوية العزائم في المسارعة إلى الرضوان .. هذه الرحلة ـ كما وقفتنا على أن وجود الحوض على الشكل الذي وصفه به النبي ﷺ حقيقة لا يماري فيها إلا من سفه نفسه ، أو قل حظه من الهدى ـ أخذت بأيدينا إلى ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، من تصديق لا يقبل الشك بوجود ذلك الحوض ، وأخذ ما كان في تلك النصوص ، من الوعد بوروده والشرب منه، والوعيد بالطردعنه والإبعاد، مأخذَ الجد وصدق العزيمة ، كيما يستقيم السير ، وتحسن العاقبة .

وقد كان آخرَ ما أوردته على هذه الساحة الميمونة ، طائفةٌ من الأحاديث التي رواها أبوبكر عمرو بن أبي عاصم في « كتاب السنة » . وحملت إلينا تلك النصوص ـ فيما حملت من الخير والهداية ـ ترغيباً واضحاً في السلوك الذي تزينه استقامة المتقين ، وخضوع المخبتين ، وعزائم أولي الألباب ، والذي يجعل المؤمن ـ بفضل الله ورحمته ـ من وّراد ذلك الحوض ، المزدان بإكرام الله لنبيه المصطفى

ولأمته ، والمكرَمين بالشرب منه في ذلك اليوم الزاخر بالأهوال ، والعطش الشديد يوم القيامة .

ولم يقتصر الأمر في تلكم الأحاديث على هذا ، فقد حملت نصوصها النيِّرات ـ مع ذلك الترغيب ـ ترهيباً شديداً من الوقوع فيما نبه عليه النبي ﷺ ،وحذر منه بالغ التحذير ، من تمرُّغ في وهدة الانحراف عن الجادة ، والرجوع القهقرى عن منهج الله ، الأمر الذي يعقب صاحبه الطرد المهين عن الحوض ، والحرمان من وروده والشرب منه .

ويزيد الأمر شدة ، ويجعل لون العقوبة فاقعاً شديد التأثير ، أن الرحمة المهداة ﷺ يكون هناك ؛ لأنه ـ كما أخبر وهو الصادق المصدوق ـ فرط الأمة على الحوض إذ يقدُمها، ويهيء للورَّاد ما به ينعمون بتلك الفضيلة العظيمة والكرامة البالغة .

هذا : وفي صورة من صورة الترابط والتواؤم ،بين المعرفة وبين المسؤولية التي تقتضيها تلك المعرفة في الإسلام ـ لأن المعرفة بالدين ليست ترفاً ثقافياً ، ولكنها بريد المسؤولية والطريق إليها ـ . في صورة من صور هذا الترابط : أحسن الإمام أبوبكر عمرو بن عاصم الشيباني حين أتبع أحاديث الحوض التي أخرجها رحمه الله ، بما يشعر ـ على وجه اليقين ـ الرغبة الإيمانية الصادقة والتطلع النقي الخالص، إلى أن يكتبه الله في عداد أولئك الذين تدركهم العناية، فيطوَّقون كرامته ورود الحوض والشرب منه ؛ فهو مؤمن بما جاء عن الرسول ﷺ ، لا يعتوره شك ولا يخالجه إعراض ، وإنه ليرجو الله تبارك وتعالى أن يجعله ممن يحظون بتلك الكرامة، لما أن ذلك عنوان رضاه سبحانه ، وسمة من سمات الصدق ، في محبة الرسول عليه الصلاة والسلام .

قال أبوبكر ـ أجزل الله مثوبته ـ : (والأخبار التي ذكرناها في حوض النبي ﷺ توجب العلم ، أن يعلم كنه حقيقته ، وأنها كذلك ، وعلى ما وصف به نبينا عليه الصلاة والسلام حوضه ، فنحن به مصدقون غير مرتابين ولا جاحدين،

ونرغب إلى الذي وفقنا للتصديق به ، وخذل المنكرين له والمكذبين به عن الإقرار به والتصديق به ، ليحرمهم لذة شربه ، أن يوردنا فيسقيَنا شربةً نعدم لها ظمأ الأبد بطوله ، ونسأله ذلك بتفضله) ذلكم ما دعا به هذا الإمام الكبير جزاه الله عن الأمة كل خير . وأُراني أقول مثنياً على هذه الكلمات المشرقة بصادق التضرُّع والخشية : اللهم تقبل هذا الدعاء ، وأشركنا جميعاً بكريم العطاء ، أنت ولينا في الدنيا والآخرة ، توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين .

وهكذا ندرك ، من خلال موقف هذا الإمام من أهل الحديث عمرو بن أبي عاصم وأمثالِه أن المؤمن ـ كما يرى في أحاديث الحوض عنواناً على رحمة المصطفى ﷺ بأمته ، وإعلاناً عن واحدة من خصائصه العظيمة التي خصَّه بها رب العالمين — يرى فيها عنوان الوعد الكريم المبشر ، والوعيد المنذر . أما الوعد الكريم : فهو للمؤمنين المصدقين، العاملين، الذين يعقلون عن الله ورسوله ، فيجمعون إلى الإيمان ، ما يجب من العمل ، وتراهم، وديدنهم أن يعملوا الصالحات مخلصين ، لا تشغلهم الفانية عن الباقية ، ولا يفتؤون يذكرون الله واليوم الآخر ، وحالُهم على المدى في القول والعمل والسلوك : حال من يخشون ربهم بالغيب ، ويخافون يوم الحساب .. أجل يخافون يوم الحساب ؛ إذ القلوب واجفة ، والأبصار خاشعة ، ولكل من الخلائق يومئذ شأن يغنيه .

أما الوعيد الذي تنخلع له القلوب : فهو لأولئك الجانحين الذين لا يرعوون عن شك، ولا يتقاصرون عن انحراف ، ولا يتورعون عن أن يحدثوا من الانحراف ما يوجب الغضب والعقاب ، فإذا ذُكرِّوا بآيات الله ، وما جاء عن رسول الله ﷺ في شأن البعث النشور ، وما تحمل مشاهد القيامة ، من الأهوال الجسام التي تحيط بالناس ، وما جاء عن صفات ورّاد الحوض الشاربين منه ، والخلال التي تكون سبباً في طرد من يطرد عنه يومئذ ، ويبوء بالحرمان من تلك المزيّة التي ينالها الصادقون ... أقول إذا ذُكِّرَ أولئك الغافلون المعرضون عن هدي الله ورسوله ، بتلكم الآيات والأحاديث، خرّوا عليها صماً وعمياناً ، ولذلك تراهم ـ وقد خربت

قلوبهم ــ معرضين عن العمل المجدي ، منقلبين على أعقابهم خاسرين ، همُّهم الاشتغال بمتاع الدنيا ولهوها عن الآخرة ، وما أعد الله فيها لأهل التقوى ، من النعيم المقيم .

والحق أن الأمة مدعوة إلى التعرف على رجال السلف الصالح الذين أخلصوا الوجه لله ، وحرصوا على العمل بسنة رسول الله، ليكون ذلك عوناً لها ـ والحضارة المادية تضرب على القلوب بالأسداد ــ على استئناف الطريق الراشدة المرضية لله ورسوله ، والتي تقدُر العمل للآخرة حق قدره ، وتسلك بالمؤمن إلى حيث يرد الحوض على النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، بعد أن قدّم في هذه الدار ما قدّم ، من الجهاد في سبيل الله وعمل الصالحات .

هذا حديث يراد له أن يتصل اتصال العظة والذكرى ، بصنيع الإمام أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الشيباني الذي جاء في أعقاب مروياته عن الحوض ـ كما رأينا من قريب ـ وفيه الدعاء الخاشع المتضرع أن يكتبه الله في زمرة من يكرمهم المولى جلت قدرته ، بالورود على ذلك الحوض ، حيث ينعمون بالشرب منه بين يدي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فرطِ الأمة عليه ؛ فهو ـ رحمه الله ـ مؤمن مصدق بهذه الكرامة الربانية لرسوله الكريم ، غير مرتاب بوجودها ، ولا جاحد لها ، وكل ما يخشاه أن يحشر ـ لاقدر الله ـ فيمن يقدمون ، وقد انتابتهم الشكوك والريب ، أو كانوا ممن أحدثوا ما ليس من الدين في شيء ، فعوقبوا بالإبعاد عن الحوض ، أعاذنا الله من ذلك .

وهذا الذي رأينا عند هذا الإمام من أهل الحديث، من الفهم العميق لدلالة الإيمان والتصديق ، وما ينبغي أن يتميز به المؤمن من تزكية النفس ، وتذليلها لكل ما هو من مقتضيات الإيمان بالغيب ، وما جاء به الخبر الصادق من المغيّبات ، هو الذي جعل من أولئك العلماء العاملين وعباد الله الصالحين ـ وبخاصة أهل القرون المفضَّلة ـ خيرَ سلف لهذه الأمة ، إقبالاً على الله ، وحرصاً على العمل بالكتاب والسنة ، ودأباً على المسارعة في الخير ، والاستزادة من الطاعات والقربات؛ كل أولئك في مراقبة لله عز وجل في السر والعلن ، وجهاد في سبيله ، وتطلع دائم ، إلى أن يكون حبلهم موصولاً بحبل النجاة من غضب الله وعقابه ، والفوز بمرضاته سبحانه وتعالى . وأن يكونوا من ورّاد حوض نبيهم المصطفى محمد عليه الصلاة والسلام ، الناجين عند المرور على الصراط ، وبذلك يستبشرون بما ينشر الله عليهم من رحمته ، فينتظمهم عقد أهل الجنة ، الذين يتفضل عليهم المولى عز وجل بالنعيمِ المقيم، الذي يتقاصر عنه وصفنا ، والكرامةِ

التي عنوانها رؤية وجهه الكريم جل شأنه . وفي الوقت نفسه ، قلوبهُم وَجِلَةٌ أن لا يتقبل منهم ما يعملون . ولقد كان هذا ديدنَهم وهجيراهم في أقوالهم وأفعالهم وسلوكهم ، وفي تبليغهم عن رسول الله ما أراد . هذا أبو سليمان داود الطائي الثقة الفقيه الزاهد ـ كما يقول الحافظ ابن حجر ـ المتوفى سنة ١٦٠هـ أو سنة ١٦٥هـ ، يقول له أحد أقربائه يوماً : ياأباسليمان قد عرفت الرحم بيننا فأوصني . فدمعت عيناه ثم قال له : «ياأخي إنما الليل والنهار مراحل ، تنزل بالناس مرحلةً مرحلةً، حتى تنتهي بهم إلى آخر سفرهم ، فإن استطعت أن تقدم في كل يوم مرحلةٍ زاداً لما بين يديه فافعل ، فإن الانقطاع عن قريبٍ ما هو ،والأمر أعجل من ذلك ، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاض من أمرك ، فكأنك بالأمر قد بغتك). وبعد هذه الوصية الجامعة التي كان محورها وجوبَ التزود للآخرة ، والحفاظَ على الوقت واغتنامَ ما يجب أن يغتنم، لأن أحداً لا يدري متى يحين أجله ، ويأتيه داعي ربه ، وفي كثير من التواضع الجم وصدق مع الله ومع نفسه : قال داود رحمه الله لذلك القريب : « إني لأقول هذا وما أعلم أحداً أشدَّ تضييعاً مني لذلك » أجل : لأن من عرف الله ، ودأب على خشيته سبحانه بالغيب وخاف ـ صادقاً ـ يوم الحساب ، وما يكون فيه، حتى كأنه رؤية عين ، كان أحرص على ملء ساعات العمر بما ينفع، وكان أشد تبصُّراً بما لنفسه وما عليها ، وأكثر تخوفاً على ما يصير إليه الأمر يوم الحساب .

والحق أن الأمر الذي يبدو على غاية الأهمية في هذا الموضوع : هو أن السلف الصالح ، جزاهم الله خير الجزاء ، كانوا حريصين ـ مع التوحيد الخالص ـ على تأصيل المعرفة، بورود منهلها الصافي الزلال من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وفي الوقت نفسه تراهم مدركين الإدراك كلّه، أن هذا العلم، يجب أن يقود إلى العمل والإنابة إلى الله ، والخشية الصادقة التي تجعل أمر الآخرة وما يكون فيها ، بحسبان ، حتى باتوا ـ وقد تزكّت نفوسهم ـ وهم أقوى بعون الله من صوارف الدنيا وزخرفها ، ولا عجب في ذلك ، وقد لزموا غرز النبي عليه

الصلاة والسلام ، وكان اتباعَ هديه على علم وبصيرة ، أحلى لهم من كل شيء .

وفي كلام لإبراهيم بن أدهم العالم الزاهد المشهور والمتوفى سنه ١٦٢ مما يرويه أبو نعيم في الحلية قوله رحمه الله : « أصبحت بالله مؤمناً ، وبلقاء الله مصدقاً وبحجته معترفاً ، ومن ذنبي مستغفراً ، ولربوبية الله خاضعاً ، ولسوى الله جاحداً، وإلى الله تعالى فقيراً ، وعلى الله متوكلاً ، وإلى الله منيباً ، أُشهد الله وأُشهد ملائكته وأنبياءه ورسله وحملة عرشه ، ومن خلق وما هو خالق، بأن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، ومنكراً ونكيراً حق ، ولقاءك حق ، ووعدك حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . على ذلك أحيا وعليه أموت، وعليه أبعث إن شاء الله ».

وبعد هذه الكلمات المشرقة بسنا التوحيد ، والإيمان بما يكون بعد الموت، ويوم يقوم الناس لرب العالمين ـ التي حرص على أن لا يدعها مجملة ، بل يفصّلها بعض التفصيل ـ نجده يدعو الله تعالى بدعوات مباركات كان منها :

« اللهم أنت ربي لا رب لي إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك اللهم من شر كل ذي شر ، اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك والخير كله بيديك وأنا لك ، أستغفرك وأتوب إليك.

آمنت اللهم بما أرسلت من رسول، وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب صلِّ اللهم وسلم على محمد وعلى آله وسلم كثيراً ، وعلى أنبيائه ورسله أجمعين آمين يارب العالمين .

اللهم أوردنا حوضه واسقنا بكأسه مشرباً مرياً سائغاً هنياً لا نظمأ بعده أبداً، واحشرنا في زمرته ، غير خزايا ، ولا ناكسين ،ولا مرتابين ، ولا مقبوحين ، ولا

مغضوباً علينا ولا ضالّين .

اللهم اعصمني من فتن الدنيا ووفقني لما تحب من العمل وترضى ، وأصلح لي شأني كله ، وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ».

رحم الله إبراهيم بن أدهم وأعلى مقامه في الآخرين ، ورزق الله أمتنا الانتفاع بهذا السلوك المضيء بسنا التوحيد الخالص ، المضمّخ بعبير العبودية ، وصدق الضراعة ، المزدان بحضور القلب ، والرغبة الصادقة في النجاة يوم الدين ، ﴿ يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾

الجنة حق والنار حق

ما كان لي ـ والحديث يدار عن القيامة ومشاهدها من خلال نصوص السنة المطهرة التي هي بيان الكتاب العزيز ـ أن أتجاوز إلى اصطحاب بعض، مما حملت إلينا دواوين الهدي النبوي، من أحاديث تتعلق بالجنة التي أعدّها الله لعباده الصالحين، والتي فيها ما لا قبل للحواس بالإحاطة به، ولاخطر على قلب بشر، وتكشف عن صفاتها وخصائصها، وما تزدان به من الخير العميم، والفضل العظيم... ما كان لي أن أتجاوز إلى ذلك، دون أن أذكرّ بما جاء عن النبي ﷺ في شأن الجنة والإيمان بها، والطرائق التي رسمها بتوجيهاته عليه الصلاة والسلام، والمناهج التي دلّ عليها في إطار التصديق، والقول، والعمل والسلوك، وبيّن ـ وهو المؤتمن على البيان الكريم ـ أن من سلكها مخلصاً، فاز بالرضا، وكان من أهل النعيم المقيم، الذي لا ينقص ولا يحول، بمنّه وعظيم فضله سبحانه وتعالى.

ها نحن أولاء أمام الذي صح عنه عليه الصلاة والسلام، من الإعراب عن إيمانه الذي لا يجارى، بحقيقة أن الجنة حق وأن النار حق، وذلك ضمن دعاء زاخر بالحب وحرارة الشوق إلى الله، مضمَّخٍ بندى العبودية الصادقة، التي يسمو بها ويسمو إلى أعلى عليين، مشرقٍ بجزيل الحمد والثناء على الله، والاعتراف بأحقية وعده جل شأنه ولقائه، والاستسلام المطلق لما يريد، والرضا بما يقضي به سبحانه ويحكم.

ففي كتاب التهجد من الجامع الصحيح: عقد الإمام البخاري باباً عنوانه «(التهجد بالليل وقوله عز وجل ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾» ثم قال رحمه الله: حدثنا علي بن عبدالله قال: حدثنا سفيان قال: حدثنا سليمان بن أبي مسلم عن طاوس أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما، قال « كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: اللهم لك الحمد أنت قيّم السماوات والأرض ومن فيهن،

ولك الحمد لك مُلك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت مَلِك السماوات والأرض، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدِّم وأنت المؤخر ،لا إله إلا أنت ولا إله غيرك » قال سفيان : وزاد عبدالكريم أبو أمية « ولا حول ولا قوة إلا بالله » قال سفيان : قال سليمان بن أبي مسلم : سمعه من طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ .

سفيان هنا هو سفيان الثوري . وأنت ترى أنه ﷺ ذكر أن الجنة حق وأن النار حق، ضمن زمرة مباركة مما يجب الإيمان به ، إيماناً لا يعتريه ارتياب، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أنت الحق ووعد الحق ولقاؤك حق ، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق » قال الحافظ ابن حجر (وإطلاق اسم الحق على ما ذكر من الأمور : معناه أنه لابد من كونها ، وأنها مما يجب أن يصدق بها ، وتكرار لفظ « حق » للمبالغة والتأكيد).

ويرى رحمه الله أن في قوله: « والجنة حق والنار حق » إشارة إلى أنهما موجودتان ، والاعتقاد بهذا الحق بالنسبة إلى الجنة والنار ، عنوان الفوز في الآخرة؛ فالإيمان به، مع الإيمان بأن عيسى عبدالله ، وابن أمته، بعد الشهادتين ، طريق صاحب ذلك الإيمان إلى الجنة، يدخل من أي أبوابها الثمانية شاء . قال الإمام مسلم : حدثنا داود بن رُشيد قال : حدثنا الوليد ـ يعني ابن مسلم ـ عن ابن جابر قال: حدثني عمير بن هانىء قال: حدثني جنادة بن أبي أمية قال : حدثنا عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ: « من قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق وأن النار حق ، أدخله الله من أي أبواب الجنة

الثمانية شاء » .

ألا ما أجمل أن يُقبل المرء على الله بقلب صادق، وعقل متطلع إلى مخالطة الحقيقة، دون رواسب وانصياع للهوى ، فيوقنَ بما جاء عن الله ورسوله، من عالم الغيب ، حتى كأن ما آمن بوجوده معاينٌ مشهور !! وعندها يكون في عداد أولئك الذين استقاموا على المحجة البيضاء ، فرضي الله عنهم ورضوا عنه ، ويحظى يوم القيامة ، بما يحظى به طلاب الآخرة الصادقون المنيبون .

ولقد أحسن الإمام النووي ــ أجزل الله مثوبته ــ في قوله عند شرح الحديث المذكور : (هذا الحديث عظيم الموقع، وهو أجمع ، أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد ؛ فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج عن جميع ملل الكفر ، على اختلاف عقائدهم وتباعدها ، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم، وسمى عيسى عليه السلام كلمة ،لأنه كان عن الكلمة، فسمي بها ، كما يقال للمطر رحمة) .

وبعد: فما أحوج المسلمين والمسلمات، إلى قراءة جديدة ـ على نور من الإيمان بالغيب ـ للنصوص التي تحمل تلك الحقائق وأمثالها، ومراجعة ما نحن عليه من الإيمان بأن الجنة حق، وأن النار حق ، سيما وقد طغت المادة على الكثيرين منا ، واضطربت المعايير هنا وهناك ، وأصبحت أمور العاجلة هي المعيار الذي يحتكم إليه ، حتى كأن البعض من المسلمين ، ليس من الإيمان بهذه الحقيقة ، حقيقةِ المساءلة يوم الحشر ، والجنة والنار ، في شيء .

نعم ما أحوج كل مسلمة ومسلمة ، إلى هذه المراجعة ، كيما يعمل الكل جاهدين ، على أن ينعكس هذا الإيمان على السلوك ، وتقدير الأمور والتصرفات ، على الوجه الذي يقتضيه الإيمان بالغيب ، والحسُّ الصادق ، بأنه ليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وقفنا الحديث الذي رواه الإمام البخاري رحمه الله ، في شأن الدعاء الذي كان يدعو به النبي ﷺ إذا قام يتهجد من الليل ، والذي تضمن ـ فيما تضمن ـ الكشف عن يقين النبي ﷺ بأن الجنة حق وبأن النار حق ... وقفنا هذا الحديث على عظم المكانة التي يحتلها التصديق بوجود الجنة والنار ، وكيف أن هذا التصديق ، عنوان خيرية لصاحبه ، يجد عاقبتها يوم القيامة، كما وجد حلاوة الإيمان في هذه الدار .

ولعل من الخير التذكير ، بأن من فقه الإمام البخاري أنه ـ كما أورد هذا الحديث في كتاب التهجد من الجامع الصحيح ـ أورده في كتاب الدعوات منه بنحو الرواية التي رأينا ، وأورده كذلك في كتاب التوحيد من الجامع أيضاً باختلاف يسير ، فقد عقد تحت الكتاب المذكور من الجامع باباً ترجم له بقوله: «باب قول الله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ﴾» وأخرج هناك بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « كان النبي ﷺ يدعو من الليل: اللهم لك الحمد أنت رب السماوات والأرض ، لك الحمد أنت قيِّمُ السماوات والأرض ومن فيهن . لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، قولك الحق ، ووعدك الحق ولقاؤك حق ، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدّمت وما أخرت، وأسررت وأعلنت ، أنت إلهي لا إله لي غيرك» حدثنا ثابت بن محمد قال : حدثنا سفيان بهذا وقال : «أنت الحق وقولك الحق » . وهنالك بابان آخران تحت كتاب التوحيد المومى إليه، أورده تحت كل منهما: أحدهما « باب قول الله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾» والثاني « باب قول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ﴿إنه لقول فصل﴾ :

حق ﴿ وما هو بالهزل ﴾ باللعب ».

وقد أولى النبي ﷺ الإيمان بوجود الجنة والنار ، أهمية بالغة ، نلمحها في ذلك الترغيب العظيم الذي رأيناه فيما روى مسلم بسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال أشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له ،وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله وابن أمته ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق وأن النار حق ، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء » . وفي رواية أخرى له « أدخله الله الجنة على ما كان من عمل » وهذا ما نجده بشيء من التفاوت عند الإمام البخاري ؛ فقد جاء في كتاب الأنبياء من الجامع الصحيح قوله « باب قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ قال أبوعبيد : « كلمته » كن فكان . وقال غيره : ﴿وروح منه ﴾ أحياه فجعله روحاً ﴿ولا تقولوا ثلاثة ﴾» . حدثنا صدقة ابن الفضل قال: حدثنا الوليد عن الأوزاعي قال : حدثني عمير بن هانيء قال : حدثني جُنادة بن أبي أمية عن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل ».

وقد اتجه الحافظ ابن حجر رحمه الله إلى أن معنى قوله ﷺ : « على ما كان من العمل» أي من صلاح أو فساد ، لكن أهل التوحيد ، لا بد لهم من دخول الجنة قال: (ويحتمل أن يكون معنى قوله: «على ما كان من العمل » أي يدخل أهل الجنة الجنة ، على حسب أعمال كل منهم في الدرجات . وقد دلت أحاديث الشفاعة ، على أن بعض العصاة ، يعذب ثم يخرج، وهو ما يُخَصُّ به هذا العموم).

فجميع الموحدين في خاتمة المطاف، إلى الجنة بفضل الله تعالى ورحمته بهذه الأمة .

وفي حديث موصول بالرواية التي تنص على أن وجود كلٍ من الجنة والنار حق لا مرية فيه ، نقرأ ما أخرج أبوداود في كتاب الصلاة من السنن بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما : «أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول : اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت قيّام ـ أوقيّم ـ السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق والنار حق، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما اقدمت وأخرت ، وأسررت وأعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنت » وأخرجه ابن ماجة والدارمي .

ومن الواضح أن في بعض الروايات تكراراً لكلمة « لك الحمد » ، واختتام الدعاء بقوله ﷺ : « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

اللهم اجعلنا من أهل تقواك الذين يؤمنون بالغيب؛ فالجنة حق والنار حق ووعدك حق والساعة حق، وباعد بيننا وبين الغفلة وأهلها ، كيما نذوق حلاوة الإيمان، فنعمل الصالحات على الوجه الذي يرضيك ، ونفوز بالجنة ، وننجو من النار إنك أهل التقوى وأهل المغفرة .

أحقية الجنة والنار.. الإيمان والأثر

نعمة الإيمان بأن الجنة حق وأن النار حق : نعمة عظمى تستحق الشكر المتجدد لله عز وجل ، بالقول والعمل . وفي متابعة ، لما للإيمان بهذه الحقيقة الناصعة، من بالغ الأهمية ، على صعيد التصور ، ومزاولة عمارة الأرض وفق المنهج الرباني ، ومن عظيم الأثر في السلوك ، والإسهام في بناء الوجود الإسلامي، وتسيير حركة الحياة التي هي معبر الإنسان إلى الآخرة دار البقاء .. في متابعة لذلك : تجدر الإشارة إلى أن إشراق القلب والعقل بهذا الإيمان ، كان مفتاح الوثوق بما يقال ، والطمأنينة إلى سلامة ما يراد في علاقة المسلم بأخيه المسلم؛ ذلكم ما نقع عليه في صحيح مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه الذي يبيُنُ فيه عن توفيق الله إياه في ملاحقة المشركين والظفر بهم في إحدى المواجهات ـ وهو خير رجّالة رسول الله ﷺ في ذلك اليوم ـ عندما أغار عبدالرحمن الفزاري على ظهر رسول الله ﷺ فقتله أجمع، واستاق راعيَه بلا رحمة ؛ فقد كان من كلامه عن وقائعه مع المعتدين ، وما أبلى فيهم من البلاء الحسن ـ حتى كأنه وحده كوكبة كبيرة من المقاتلين ـ قوله رضي الله عنه : «... قال الفَزاري : ما هذا الذي أرى ؟ قالوا : لقينا من هذا ـ يعنى سلمة ـ البَرَح ـ أي الشدة ـ والله ما فارقنا منذ غَلَس ، يرمينا حتى انتزع كل شيء في أيدينا . قال : فليقم إليه نفر منكم أربعة. قال : فصعد إليَّ منهم أربعة في الجبل . قال : فلما أمكنوني من الكلام قلت: هل تعرفونني ؟ قالوا ؛ لا ، ومن أنت ؟ قال : قلت : أنا سَلَمة بن الأكوع ، والذي كرّم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته ، ولا يطلبني رجل منكم فيدركَني. قال أحدهم : أنا أظن . قال : فرجعوا ، فما برحت مكاني ، حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخلّلون الشجر ، قال : فاذا أوّلُهم الأخرم الأسديُّ ، على إثره أبوقتادة الأنصاريُّ ، وعلى إثره المقداد بن الأسود الكنديُّ . قال : فأخذت

بعنان الأخرم . قال : فولّوا مدبرين قلت : ياأخرم احذرهم لا يقتطعوك حتى يلحقَ رسول الله ﷺ وأصحابه ، قال : ياسلمة : إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حقٌّ والنار حقٌّ ، فلا تَحُلْ بيني وبين الشهادة ، قال : فخلَّيته ، فالتقى هو وعبدالرحمن . قال : فعقر بعبدالرحمن فرسَه، وطعنه عبدالرحمن فقتله، وتحّول على فرسه . ولحق أبوقتادة بعبدالرحمن ، فطعنه فقتله .

هكذا كانت رغبة الأخرم الأسديِّ الصادقةُ في الشهادة ، مدعاة لأن يناشد سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ـ وهو لا يكاد يبقي من العدو أحداً ـ تلك المناشدةَ العظيمةَ ، من أجل أن يتيح له المناجزة مع القوم ، لعله يفوز بتلك الكرامة العظيمة ، كرامةِ الشهادة في سبيل الله ، وكانت تلك المناشدة ـ كما جاء النص عليها ـ « ياسلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتعلم أن الجنة حق والنار حق ، فلا تَحُلْ بيني وبين الشهادة ».

والملاحظ أن سلمة رضي الله عنه ، كان قد خاف على أخيه أخرم ، من أن يقتله أولئك المتمرسون بالغزو والسطو ، حتى استاقوا ظهر رسول الله أجمع، وقتلوا راعيَه، يقودهم في ذلك عبدالرحمن الفَزاري .

غير أن أخرم رضي الله عنه ، كان أكثر شوقاً إلى الجنة ، وكانت الشهادة في سبيل الله ، أسمى من أن يعدل عنها ،طلباً للعافية من مناجزة الفزاري .

من أجل ذلك ، أملى على التاريخ قولَه لسلمة : « إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق وأن النار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة ». إنه ـ رضي الله عنه ـ يطمح إلى الشهادة ، كيما يفوز بما يؤتي الله الشهداء من الفضل ، وما يكون لهم من النعيم في الفردوس الأعلى ، ناهيك عن أنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

وهكذا بدا أثر الإيمان بوجود الجنة والنار ، وأن ذلك حق لاريب فيه.. بدا بضيائه المعبِّر في تلك الواقعة المثقلة بالدروس ـ وما أكثر الوقائع ذات الدلالة

على ذلك الأثر ـ الأمر الذي يدعو إلى مراجعة النفس، في أمر الانصياع إلى ما يقتضيه اليقين ، بأن الجنة حق ، والنار حق .

على أن كلمات الصحابي الجليل ، الذي رزق الشهادة ، بعد أن ناشد أخاه أن لا يحول دونه ودونها ، بقدر ما تتسامى في دلالتها على ما تنطوي عليه نفوس الصحابة رضوان الله عليهم ، من إعطاء الإيمان بأحقية الجنة والنار ، تلك الأهميةَ البالغةَ؛ فإنها تتسامى كذلك، بمزيد من الإشراق، لتكون واحداً من المعالم الهادية في حياة الأمة، التي ما تفتأ تبحث عن المخرج مما هي فيه ، من فتنة حب الدنيا وكراهية الموت ، ومن الوقفة المجافية للاستقامة ، في عدد من أمور الغيب التي دلّت عليها آي الكتاب الكريم ، ونصوص السنة النبوية الصحيحة ؛ ذلك بأنها وقفة تناقض، ولا تعني الكثير في دنيا الواقع ، والسلوك ، والعمل لما بعد الموت ؛ وأوضح الأمثلة على هذا الذي نقول ـ والله أعلم ـ الإيمان بالحقيقة التي حولها ندندن ، والمفترض أن يتجاوز الأمر ذلك الإيمان النظري ، إلى الشوق الدائم إلى الجنة ، وسلوك السبيل الأمثل مسارعةً اليها ، والخوف الشديد من النار ، والانصراف الحازم عن كل ما يمت إلى طريقها بصلة .

وغير خافٍ ما تحمل نصوص الكتاب والسنة ، من دعوة حارة إلى الالتزام بهذا المنهج القويم ، وجيلُ الصحابة الفريد في بني الإنسان ، نموذج واضح مشرق على هذا الالتزام ، وليس أدلَّ على ذلك ـ وما أكثر هذه المواقف ـ ما جرى بين سلمة وبين الأخرم ، الذي رزق الشهادة بعد ذيَّاك الحوار .

وهل ينسى أهل الحجى، موقف عُمير بن الحمام رضي الله عنه يوم بدر ، عندما حمله الشوق إلى الجنة ،على المسارعة إلى نقد الثمن ، وهو الاستشهاد في ساحة اللقاء مع المشركين، أعداء الله والحق والإنسان . لقد استطال رضي الله عنه الزمن الذي يتقضى بأكله بضع تمرات، كانت في يده حينذاك ، فألقى بها، وقاتل القوم حتى قتل ؛ فكان أولَ قتيل من الأنصار في الإسلام ـ كما يقول ابن الأثير ـ

وكان من أوائل البُنـاة لمجد الإسلام وحضارة الإسلام ؛ لقـد استقبل الموت راضياً مطمئنـاً كأنـه ينظر إلى مقـامه في الجنـة التي عـرضها السماوات والأرض ، والتـي اشتـاق إليها بعـد إخبار الـرسـول عليه الصـلاة والسلام ، بـأنها الجزاء الأوفى لمن يحسن العطاء ؛ فالله قد أوجب الجنـة، لمن استُشهد في سبيله . أخرج أحمد ومسلم والحاكم وغيرهـم من حـديث أنـس رضي الله عنه «أن الـرسول ﷺ قـال لما التقى الجمعان يوم بدر : «قوموا إلى جنـة عرضها السماوات والأرض » قال : يقول عمير بن الحمام الأنصاري : يارسول الله ، جنةٌ عرضها السماوات والأرض ؟ قال: نعم ، فقال : بخ بخ ، فقـال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك : بـخ بخ ؟ قال : لا والله يارسـول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلهـا . قال ﷺ : « فإنك مـن أهلها ». قال: فأخرج تمرات من قَـرَنه ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئـن أنا حييت حتى آكل تمراتي هـذه ، إنها لحياة طـويلة ، قـال : ثم رمـى بما كان معـه من التمـر ، ثم قاتلهم حتى قتل » .

بخ بخ بسكون الخاء ، أو كسرها منونـاً : اسم فعل بمعنى: أستحسن ، تطلق لتفخيم الأمـر وتعظيمه في الخير. وقـوله : فـأخرج تمرات مـن قرنـه أي من جَعبـة النُّشاب . وروى ابن إسحاق أنه قال : « بـخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء » وألقى التمرات من يده ، وأخذ السيف وقاتل القوم وهو يقول:

ركضـــاً إلى الله بغير زاد	إلا التقى وعمل المعـــاد
والصبر في الله على الجهاد	إن التقى من أعظم السـداد
وخير ما قـــاد إلى الرشـاد	وكـل حي فإلـى النفـــاد

وصلى الله على نبينـا محمـد وآلـه ورضي الله عـن صحـابتـه الـذيـن آمنـوا بـه صادقيــن ، وجاهدوا في سبيل الله مخلصين .

الكلمة الطيبة.. والفوز بالجنة

عندمايكون المؤمن ــ فيما يذوق من حلاوة الإيمان ـ شديد التطلع إلى فضل الله تبارك وتعالى ، والطمع في إحسانه ؛ ومن ذلك أن يكتبه في عداد من يدخلهم ـ برحمته ـ جنات النعيم ، ويكون الإيمان بأحقية الجنة والنار ، بريد الشوق إلى الجنة ، وما وعد الله عباده المنيبين الصادقين في الآخرة : فالأمر لا يتوقف عند علمه، بأن الجنة حق والنار حق ، ولكن يتجاوز إلى ما يقتضيه ذلك ، من المسارعة إلى كل ما فيه مرضاة الله تعالى ، والفوز بالجنة والنجاة من النار . ولا تسل عما تولده عزيمة السالكين، من هذا الشوق إلى دار الخلد والرضوان ، فترى الواحد منهم ، وهو على هذا الشوق ، يسعى السعي الحثيث في هذه الدار ، كيما يكون أهلاً للدخول في زمرة الذين يحظون بما يحظى المحبون ، فيحلُّهم رب العالمين دار المقامة من فضله، حيث تفتح لهم أبواب الجنة ، ويقول لهم خزنتها : ﴿**سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾.

وهذا الشوق المقلق إلى الجنة ، الذي يصبح صنِو الإيمان بها ،تجده ديدن رجالنا من السلف الصالح عليهم الرحمة ، وكان يدفعهم أبداً ، إلى صالح العمل، وذكرِ الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وأخذِ الإسلام بقوة ، والتعالي على سفاسف الأمور وحطام الدنيا ، لما أنهم يعتقدون أن ما عند الله خير وأبقى، ولا يظلمون فتيلاً .

قال أبو نعيم في « الحلية » : حدثنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل قال : حدثني أبي قال : حدثنا يحيى بن إسحاق قال : حدثنا مهدي ابن ميمون قال: أخبرنا الجريري قال : كنا عند محمد بن سيرين ، فلما أردنا القيام قلنا. دعوةً ياأبابكر ، قال : (اللهم تقبل منا أحسن ما نعمل ، وتجاوز عنا في

أصحاب الجنة وعدَ الصدق الذي كانـوا يوعدون). وفي ترغيب لجلسائه رحمه الله في تحقيـق شُعب الإيمان على صعيـد الـواقع والعمـل ،ومنهـا إمـاطة الأذى عـن الطريق، وهو أدناها، كما جاء في الحديث الصحيح ، وبيان أن ذلك طريق المغفرة والجنة ؛ حدَّث يوماً ـ كما جاء في الحليـة ـ فقال :(رأيت جليساً لي في المنام ، فإذا ساقاه مـن ذهب؛ فقلت له : مـا صنع الله بك ؟ فقال : غفـر لي وأدخلني الجنة ، وأبدلنـي بدل ساقـيَّ ساقين من ذهـب، أسرح بهما في الجنة حيث شئـت. قلت: بماذا ؟ قال : بعزل الأذى عن الطريق) وأورد ذلك الذهبي في السير وابن الجوزي في صفة الصفوة ، وغيرُهما .

والمؤمن في حين أن الشـوق إلى الجنة يـدفعه إلى العمـل ،واغتنام الفـرص في طاعة الله ، لا ينسى ما يكـون في عرصات القيامة من مشاهد ، تـذهل الخليل عن خليله ، وتجعـل الولـدان شيباً ، لما أن ذلـك مدعـاة للكثير من اليقظـة ، وصدق العزيمة، في عدم الركون إلى الدنيا وزخرفها ، والقدرة بعون الله ، على مغالبة النفس والهوى ، من أجل الانصراف الكامل عن طريق الغافلين ، وقطعِ كل وشيجة تمت إلى الغفلة والإعراض عن ذكر الله واليوم الآخر ، بصلة .

ولقد كـان من إكرام الله لهذه الأمة ، أن هـداها برسول الله ﷺ إلى التـوحيد ، الكلمة الطيبـة «لا إله إلا الله محمد رسـول الله» وجعل منهـا ، حين ينطق بها المرء خالصةً من قلبه ونفسه، ويعمل بمقتضاها مؤدياً حقها ، طريقاً إلى دار الخلد التي وعد الله عباده الأبرار . وأنت واجد أن الأحاديث الصحيحة تفيض بهذه الحقيقة ، وتفتح لأهل الإيمان باباً عريضاً مـن أبواب الخير ....والذين يُحرمون من مخالطة تلك الكلمة النورانية ، المثقلة بندى الهداية والعطاء ـ بألسنتهم وقلوبهم وعقولهم ـ هم المحرومون والعياذ بالله . قال الإمام مسلم رحمه الله : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب كلاهما عن إسماعيل بن إبراهيم قال أبوبكر : حدثنا ابن عُليّة عن خالد قال : حـدثني الوليد بن مسلم عن حُمران عـن عثمان رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ ، « من مـات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل ا لجنـة » وله من

طريق أخرى عن الوليد أبي بشر أنه قال : سمعت حُمران يقول: سمعت عثمان يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول مثلَه سواءً . وروى بسنده أيضاً عن أبي هريرة قال : «كنا مع النبي ﷺ في مسير . قال : فنفدت أزواد القوم ، قال : حتى همَّ بنحر بعض حمائلهم، قال : فقال عمر : يارسول الله، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم ، فدعوت الله عليها ، قال : ففعل ، قال : فجاء ذو البُرِّ بِبُرِّه وذو التمر بتمره قال : وقال مجاهد : وذو النواة بنواة ، قلت: وما كانوا يصنعون بالنوى ؟ قال : كانوا يمصّونه ويشربون عليه الماء ، قال : فدعا عليها ، قال : حتى ملأ القوم أزودتهم قال : فقال عند ذلك : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى اللهَ بهما عبد غيرَ شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة » .

هكذا امتثل الجميع لأمر النبيﷺ ، وقدموا صورة عملية للتعاون المثمر على صعيد الواقع ، في ظل أخوةِ الإسلام ، الأخوة التي قامت على تلكم الدعامةِ المباركة معينِ الخير الذي لا ينفد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكان أن وجد النبي ﷺ ، من خلال هذه الصورة المشرقة المعبرة ، طريقاً للتذكير بفضل الشهادتين ، وأنه لا يلقى الله عبدٌ غير شاك فيهما إلا دخل الجنة .

ومما لا شك فيه ، أنه لابد من أداء حق الكلمة الطيبة والعمل بمقتضاها ، كما تدل على ذلك النصوص بمجموعها ، إذ لا يصح الاكتفاء بنص وإهمال بقية النصوص .

ويحس التنبيه على أن كلمة «حمائل» التي جاء ت في هذا الحديث، وردت في بعض الروايات بالجيم أيضاً « جمائل » وذهب أبوعمرو بن الصلاح إلى أن كلا الروايتين صحيح قال رحمه الله : فهي بالحاء جمع حَمولة بفتح الحاء، وهي الإبل التي تحمل ، وبالجيم جمع جِمالة بكسر الجيم جمع جمل ، ونظيره حجر وحجارة ، والجمل هو الذكر دون الناقة .

وفي هذا الذي همّ به النبي ﷺ ، من نحر بعض الحمائل ، بعد أن نفدت

أزواد القوم ، وأحاط بهم خطر الجوع الشديد : بيان لمراعـاة المصالح ـ كما قال ابن الصلاح ـ وتقديم الأهم فالأهم ، وارتكاب أخف الضررين لدفع أضرِّهما . وحين أشار عمـر بما أشار ، أخـذ النبي ﷺ بـرأيه رضي الله عنـه ، وأعطى أمتـه ـ وولاة أمرها بخاصة ، وهو الأسوة الحسنة ـ درساً عظيماً في قبول الرأي النافع، والعمل به. وقـول أبي هريرة رضي الله عنـه «حتى مـلأ القوم أزودتهم » المراد به ـ كما يقول العلماء ـ حتـى ملأ القـوم أوعية أزودتهم ، فحـذف المضاف، وأقيـم المضاف إليـه مقامه ، قـال القاضي : ويحتمل أنـه سمى الأوعية أزواداً ، باسـم ما فيها، كما في نظائره والله أعلم .

هذا : ويبدو أن هذه الواقعة كانت في غزوة تبوك ـ كما في الرواية التي سوف نوردها إن شاء الله ـ فقد أصاب الناس مجاعة ، واستأذنـوا رسول الله ﷺ في نحر نواضحهم ـ وهي الإبل التي يسقى عليها ـ ليأكلوا ويدّهنوا .

وفي خاتمة المطـاف : ليس بدعاً أن يـذكِّرنا هـذا الحديث، وما ختم بـه من البشارة العظيمة، بـدخول الجنة لمن شهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، غيرَ شاك فيهما ، بما مر بنا من قريب ، من قوله ﷺ ـ كما جاء في صحيح مسلم ـ «من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله وابن أمته ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ،وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء » .

ألا ما أعظم تلك المشاهد المضيئة يوم الدين ، مشاهد من كانوا على التوحيد الخالص في الـدنيا ، فكـان عاقبـة الواحد منهـم أن يدخـل من أي أبـواب الجنة الثمانية شاء !!

ما يزال الحديث موصولاً ، بما جاءت به الأحاديث النبوية من بيان لعظمة الكلمة الطيبة كلمة التوحيد ، وأن من قالها خالصاً من قلبه دونها شك أو ارتياب، كانت عاقبته الجنة . وهي بشارة عظيمة لهذه الأمة المحمدية ؛ ولكن لا بد من ضميمة تدل عليها النصوص بمجموعها ؛ وهي أن كلمة التوحيد، يفترض أن يقترن بها في سلوك المؤمن ، أداءُ حقها، والقيامُ بما تقتضيه من العمل.

وهنا ما بدُ من النظر في روايات أخرى ، لمعرفة الزمان الذي حصلت فيه الواقعة التي أعقبت سرور النبي ﷺ من جنده ، وبيانه ما لكلمة التوحيد ، من أثر في صنيعهم وما تعقب من الفوز بالجنة . فالرواية التي حملت إلينا همَّ النبي ﷺ بذبح الحمائل وهي الإبل التي تحمل ، إنقاذاً لجنده من مجاعة ألمَّت بهم ، ثم أخذِه برأيِ عمر رضي الله عنه، بجمع ما بقي من أزواد القوم، ودعاء الله تعالى أن يبارك فيها ، وأن رسول الله ﷺ قال بعد أن ملأ القوم أزودتهم : « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍ فيهما إلا دخل الجنة »... هذه الرواية تشدنا إلى رواية صحيحة أخرى - كما أشرت من قبل - تدل على أن هذه الواقعة قد حصلت في غزوة تبوك ؛ والرواية التي أعنيها نقع عليها عند الإمام مسلم. قال رحمه الله: حدثنا سهل بن عثمان بن وأبو كريب محمد بن العلاء جميعاً عن أبي معاوية ، قال أبو كريب : حدثنا أبومعاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد - شك الأعمش - قال : لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، قالوا : يارسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا وادَّهنَّا ، فقال رسول الله ﷺ : افعلوا ، قال : فجاء عمر ، فقال : يارسول الله ، إن فعلت قلّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة ، لعل الله أن يجعل في ذلك، فقال رسول الله ﷺ: نعم . قال: فدعا بنطع فبسطه ، ثم دعا بفضل

أزوادهم، قـال : فجعل الـرجل يجيء بكـف ذرة ، ويجيء الآخر بكـف تمر ، قال: ويجيء الآخر بكسْرة ، حتى اجتمع على النطع مـن ذلك شيء يسير ، قال : فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة ، ثم قال : خذوا أوعيتكم ، قال : فأخذوا في أوعيتهم، حتى مـا تركوا في العسكـر وعاءً إلا ملأوه . قال : فـأكلوا حتى شبعـوا ، وفضلت فضلة ، فقـال رسول الله ﷺ :« أشهـد أن لا إله إلا الله وأني رسـول الله لا يلقى الله بهما عبد غيرَ شاكٍ فيُحجب عن الجنة » .

وواضح هنا ــ كما أشرت غير مرة ـ أن الذي أدخل الغبطـة إلى نفس رسول الله ﷺ ـ ما رأى في صحابته ـ وهم في الشدة الشادة ـ من أثرٍ لكلمة التوحيد في عقولهم وقلوبهم وسلوكهـم ، فهم يطيعون أمره ، ويمتثلون لما يوجههـم إليه ، وهم يتصرفون في ظل أخـوة الإسلام ، القائمة على وشيجة تلك العقيـدة، التي ألف الله بها بين قلوبهم ، تصرفاً يحمل كل المعاني الخيّرة لتلك الأخوة ، حتى كأنهم الجسد الواحـد ، كما جاء في الحديـث الصحيح « المؤمن للمـؤمن كـالبنيان يشـد بعضه بعضاً وشبك ﷺ بين أصـابعه » فلما رأى ما رأى من جمع أزوادهم ــ على قلتها ـ ، وما بـارك الله فيها بدعـائه ، عاد يـذِّكر بالأصـل الذي قام عليـه هذا كلـه ، وهو الشهادتـان ، وأداء حقهما والعمل بمقتضـاهما ؛لأن ما حصـل كان أثـراً من آثـار التفاعل الإيماني بين النطق بالشهادتين ،وبين إشراقـة السلوك فيما فعل الصحابة رضي الله عنهم؛ ومن هنا تأوّل علماؤنا بعض الأحاديث التي يوحي ظاهرها ، بعدم التقيد بما هو حق كلمة التوحيد في العمل والسلوك. قال الإمام النووي عند شرحه للأحاديث التي أخـرجها مسلم في هذا الموضوع الذي له ما لـه من الأثر في حياة الفرد والجماعـة والأمة : (واعلـم أن مذهب أهـل السنة ومـا عليه أهـل الحق من السلف والخلف، أن من مـات موحداً دخل الجنة قطعاً على كـل حال ؛ فإن كان سالمَاً من المعاصي ، كالصغير والمجنون الذي اتصل جنونه بالبلوغ ، والتائب توبة صحيحـة مـن الشرك أو غيره مـن المعاصي ، إذا لم يحدث معصيـة بعـد تـوبتـه، والموفّـق الذي لم يُبتـلَ بمعصية أصـلاً ؛ فكل هـذا الصنف يـدخلون الجنـة ، ولا

يدخلون النـار أصلاً ، لكنهم يردونها على الخلاف المعـروف في الورود ؛ والصحيح أن المراد به المرور على الصراط ــ وهو منصوب على جهنم ــ أعاذنا الله منهـا ومن سائر المكروه .

وأما مـن كانـت له معصيـة كبيرة ، ومات مـن غير توبـة: فهو في مشيئـة الله تعالـى ؛ فـإن شاء ، عفـا عنه ، وأدخله الجنـة أولاً ، وجعله كـالقسم الأول ، و إن شـاء ، عذبه القدْرَ الذي يريده سبحانه وتعالى ، ثم يدخله الجنة .

فلا يخلد في النار أحـد مات على التوحيد ، ولو عمل مـن المعاصي ما عمل ، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ، ولو عمل من أعمال البر ما عمل).

ثم قال يرحمه الله : (هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة ، وقد تظاهرت أدلة الكتـاب والسنة و إجماع من يُعتدُّ به من الأمـة ، على هذه القاعدة ، وتواترت بذلك نصوص تحصِّل العلم القطعي .

فإذا تقررت هذه القاعدة ، حُمل عليها ما ورد من أحاديث الباب وغيره ؛ فإذا ورد حديث في ظـاهره مخالفة ، وجب تأويله عليهـا ، ليجمع بين نصوص الشرع ، وسنذكر من تأويل بعضها ما يعرف به تأويل الباقي إن شاء الله تعالى والله أعلم).

هذا : وقد أورد القاضي عياض ـ فيما أورد من الآراء عند شرح الأحاديث ـ ما نقل عن الحسن البصري من أن المعنى : مـن قال الكلمة وأدى حقها وفريضتها ، وقولَ البخاري : بأن ذلك لمن قالها عند النـدم والتوبة ومات على ذلك ، ثم قال : (وهذه التأويلات إنما هي إذا حملت الأحاديث على ظاهرها ، وأما إذا نُزِّلت منازلها فلا يشكل تأويلهـا على ما بينه المحققون ؛ فنقرر أن مذهب أهـل السنة بأجمعهم من السلـف الصالـح ، وأهل الحديـث ، والفقهاء ، والمتكلمين على مذهبهـم من المحققين: أن أهـل الذنـوب في مشيئة الله تعـالى ، وأن كـل من مـات على الإيمان وتشهد مخلصاً من قلبه بالشهادتين ، فإنه يدخل الجنة ، فإن كان تائباً أو سليماً من المعـاصي دخل الجنـة برحمة ربـه ، وحرم على النـار بالجملـة ؛ فإن حملنـا اللفظين

الـواردين على هـذا ، فيمن هـذه صفتُه، كـان بيِّنـاً . وهذا معنـى تأويلي الحسـن والبخـاري ؛ وإن كان هـذا من المخلطين بتضييـع ما أوجـب الله تعالى عليـه ، أو بفعل مـا حرم عليـه ، فهو في المشيئـة ، لا يقطع في أمـره بتحريمـه على النار ، ولا باستحقاقه الجنة ، لأول وهلة ، بل يقطع ، بأنه لابد من دخوله الجنة آخراً ، وحالُه قبل ذلـك في خطر المشيئـة ؛ إن شاء الله تعـالى عذبـه بذنبـه ، وإن شاء عفـا عنه بفضله .

ويمكن أن تستقل الأحاديث بنفسها ويجمـع بينها ، فيكون المراد باستحقاق الجنة ، ما قدمناه من إجماع أهل السنة أنه لابد من دخولها لكل موحد ؛ إما معجَّلاً معافى ، وإما مؤخَّراً بعد عقابه .

والمراد بتحريم النار : تحريم الخلود ، خـلافاً للخوارج والمعتزلة في المسألتين . ويجوز في حـديث « مـن كـان آخـر كلامـه لا إلـه إلا الله دخـل الجنة » أن يكـون خصوصاً لمن كان هذا آخر نطقه وخـاتمة لفظه . وإن كان قبلُ مخلِّطاً : فيكون سبباً لرحمة الله تعالى إياه ونجاتِه رأساً من النار وتحريمِه عليها ، بخلاف من لم يكن ذلك آخرَ كـلامه من الموحديـن المخلِّطيـن . وكذلك مـا ورد في حديث عبادة مـن مثل هـذا ، ودخولـه من أي أبواب الجنة شاء ، يكـون خصوصاً لمن قال مـا ذكره النبي ﷺ، وقرن بالشهادتين حقيقة الايمان والتوحيد الذي ورد في حديثه ؛ فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته ، ويوجـب له المغفرة والرحمة ، ودخول الجنة لأول وهلة إن شاء الله تعالى والله أعلم).

قال الإمـام النووي : هـذا آخر كـلام القاضي عيـاض رحمه الله وهو في نهايـة الحسن .

إنها العظة البالغة ، والتوجيه إلى مسلك أولي النهـى الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يوم الحساب .

يقرب من الجنة... ويباعد من النار

يوم الوعيد وما أدراك ما يوم الوعيد : نُذُر الشدة العاتية تتوالى وتتفاقم، والأهوال الجسام مطبقة من هنا وهناك . ومشاهد الترقب المضني، آخذ بعضها برقاب بعض !!

وإذا كان الأمر كذلك : فما أعظم أن يخوض المرء غمار ذلك اليوم ، وقد حمل بين جنبيه مخالطةَ بشاشة الإيمان قلبه ، وازدانت أيام عمره ـ في الدنيا ـ بأداء ما افترض الله عليه ، والتقرب إليه سبحانه ، بالإكثار من الطاعات، وفعل القربات، في إخلاص للدين ، وسعي دائب إلى ما يحقق له النجاة ـ بفضل الله ورحمته ـ من أن يكون في عداد من تسعَّر بهم النار يوم القيامة، ويلقون غياً . وذلكم هو العمل بما تقتضيه كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » من الإتيان ، بما هو من حقها على ساحة العمل ، برهاناً على صدق قائلها .

أجل : ما أعظم أن يأتي المرء يوم الفزع الأكبر ، والترقب المضني ، وهو على هذه الحال ، لما أن ذلك عنوان أهليته لما بشربه النبيﷺ من كانوا كذلك ، بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للبررة الصالحين . ولكم تحفز تلك البشارة العظيمة من الصادق المصدوق المبلغ عن الله ما أراد ، أولئك الذين صاحبهم التوفيق وكانوا من أهل الآخرة ، على مضاعفة العمل الصالح ، والمسارعة إلى كل ما فيه مغفرة الذنوب، وإضاءة الطريق إلى دار النعيم ، والفوز بما يكرم الله به أهل الصدق في عرصات القيامة ، وما يفيض عليهم من رحمته الغامرة ، وفضله العظيم .

ولقد حملت إلينا دواوين السنة أنباء نفر من الناس ، كانوا يسعدون بسؤال المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أن يخبرهم بما يقربهم من الجنة، وما يباعدهم عن

النار ؛ يحثهم على ذلك شوق إلى الفوز بدار الخلود ، التي هي عنوان مرضاة الله تعالى ، وصدق في طلب النجاة من الجحيم ، لما أنها عنوان غضبه ـ جل شأنه ـ وعقابه ، ناهيك عن الرغبة المخلصة في أخذ العلم بالطريق الهادية، من معينها المبارك ، في هدي الرسول الكريم الذي لا ينطق عن الهوى ، والمبلّغ عن الله ما أراد. أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري « أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر ، فأخذ بخُطام ناقته أو بزِمامها ، ثم قال: يارسول الله ـ أو يامحمد ـ أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار ، قال : فكفّ النبي ﷺ ، ثم نظر في أصحابه ثم قال : لقد وُفِّق ، أو لقد هُدي . قال: كيف قلت ؟ قال : فأعاد : فقال النبي ﷺ : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم ، دع الناقة » .

والملاحظ أن شدة حرص هذا الأعرابي على سؤال رسول الله ﷺ ، وعلى تلقي إعلامه بما يقرب من الجنة ويباعد من النار ، بلا مشقة : جعله يمسك بخُطام الناقة أو زمامها . فلما حصل جوابه ، قال له رسول الله ﷺ : دعها .

وهكذا دلت الواقعة ، على أن رسول الله ﷺ قد شهد للسائل بالهداية ـ أو التوفيق ـ لما أنه طلب هذا المطلب منه عليه الصلاة والسلام ، وأنه أوضح له معالم الطريق ، التي إن سلكها مخلصاً لله تبارك وتعالى ، قرَّبته من الجنة وباعدته من النار « تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ،وتؤتي الزكاة ،وتصل الرحم» وأخرج مسلم بسنده عن أبي أيوب أيضاً أنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: دُلني على عمل أعمله ، يدنيني من الجنة ويباعدني من النار . قال : «تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصل ذا رحمك » فلما أدبر : قال رسول الله ﷺ: « إن تمسّك بما أُمر به دخل الجنة » وفي رواية ابن أبي شيبة « إن تمسّك به ».

إنها مقدمات توصل ـ بفضل الله ـ إلى ما يُبتغى من النتيجة المُرضية . أما

الإعـراض عن كـل ما هـو حقُ « لا إلـه إلا الله محمد رسـول الله » ، والمجافـاةُ لما تقتضيه : فذاك مما يذكر بقول الشاعر :

والدعاوى إن لم يُقيموا عليها ... بينات أصحابُها أدعياء

وهذه رواية أخرى ، تذكر فريضـة الصوم ، ولا تأتي على صلة الرحم ، فتعطي بُعداً جـديداً لبشارة النبـي ﷺ بدخول الجنة، لمن تمسّـك بها أمر به ــ كما جاء في الحديث ـ فعـن أبي هريرة رضي الله عنه « أن أعرابياً جـاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله دُلَّني على عمل ، إذا عملته دخلـت الجنة ! قال : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصـلاة المكتوبة ، وتؤدي الـزكاة المفروضة، وتصـوم رمضان . قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبـداً ولا أنقص منه ، فلما ولّى قال النبي ﷺ : مـن سرّه أن ينظر إلى رجـل من أهـل الجنة، فلينظـر إلى هذا » رواه البخـاري ومسلم . صلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة سيدنا محمد رسول الله ، وهنيئاً لهذا الرجل ما بشره به صلوات الله وسلامه عليه ، من أنه من أهل الجنة .

قال علماؤنـا : والظاهر مـن قوله ﷺ : « مـن سره أن ينظر إلى رجل مـن أهل الجنة فلينظر إلى هـذا » أن النبي ﷺ علم أنه يوفي بما التزم، وأنـه يدوم على ذلك ، ويدخل الجنة .

وأنت ترى أن الرسول الكريم، قد ذكـر صلة الرحم مرة ، وذكر الصوم مرة ، وفي حديـث وفد عبـدالقيس عنـد البخاري ومسلـم « أنهاكم عما يُنبـذ في الدبـاء والنقير والحنتم والمزفَّت » وتعليـل ذلك : حكمته ﷺ في مراعاة حـال السائل وما يعنيه ، فهو يضع الأمور مواضعها ، ويعطي كلاً بحسبه ، قال الإمام النووي رحمه الله : (وأما ذكره ﷺ صلـة الرحم في هذا الحديـث ، وذكرُ الأوعية في حديـث وفد عبدالقيس وغير ذلك في غيرهما : فقال القـاضي عياض وغيره رحمهم الله : ذلك بحسب ما يخص السائل ويعنيه والله أعلم) وأخرج مسلم بسنده عن أبي سفيان عن جابـر قال : «أتى النبيﷺ النعمانُ بـن قوقل فقال: يـارسول الله ! أرأيت إذا

صليت المكتوبة وحرّمت الحرام ، وأحللت الحلال، أأدخل الجنة ؟ فقال النبي ﷺ : نعم » وفي رواية أخرى له عن جابر أيضاً «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أرأيت إذا صليت الصلوات المكتوبات ، وصمت رمضان ، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً . أأدخل الجنة ؟ قال: نعم : قال : والله لا أزيد على ذلك شيئاً ».

الدُّباء بالمد : هو القرع اليابس أي الوعاء منه . والنقير بالنون المفتوحة والقاف : جذع ينقر وسطه . وأصح الأقوال في « الحنتم » وهو جمع حنتمة : أنها جرار خُضر . وأما المزفّت : فهو المقيَّر ، أي المطليُّ بالقار وهو الزفت .

قال العلماء : وأما النهي عن هذه الأربع : فهو أنه نهيٌ عن الانتباذ فيها ، وهو أن يُجعَلَ في الماء حبّاتٌ من تمر ، أو زبيب ، أو نحوها ، ليحْلُوَ ، ويُشْرَبَ ، وإنما خصَّت هذه بالنهي ـ وكان ذلك من عادتهم كما يبدو ـ لأنه يسرع الإسكار فيها ، فيصير حراماً نجساً ، وتبطل ماليّته ، فنهى عنه ، لما فيه من إتلاف المال ، ولأنه ربما شربه بعد إسكاره من لم يطّلع عليه .

وللحديث صلة نتعرف من خلالها على ما قال العلماء في دلالة قول الرجل: «والله لا أزيد على ذلك شيئاً » ففي معرفة أقوالهم في ذلك خير كثير . رزقنا الله العلم والعمل ، وأخذ بأيدينا إلى ما فيه الفوز بالجنة والنجاة من النار ، إنه ـ سبحانه ـ جواد كريم .

رجل من أهل الجنة

ليس عجباً من العجب، أن تنقل إلينا دواوين السنة المطهرة، أخبار أناس كانوا يحرصون على أن يدلهم رسول الله ﷺ على عمل يدنيهم من الجنة ، ويباعدهم من النار ، مع وفرة النصوص التي أوضحت المعالم فيما هو طريق الجنة ، وما هو طريق النار ..

أجل ليس هذا الحرص عجباً من العجب؛ فالعاقل كل العاقل ، من جعل همّه حُسْنَ العاقبة بين يدي الله عز وجل، بحيث يزحزح عن النار ، ويفوز ـ بفضل الله ورحمته ـ بدار المقامة التي يكرم الله بها عباده الذين رضي عنهم ورضوا عنه ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾ .

ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو سيد ولد آدم بإطلاق ـ كان لا يفتأ يسأل الله عز وجل ، بضراعة العبد الخاشع الخاضع ، أن يدخله الجنة ويعيذه من النار . وسار على هذا الهدي أصحابه رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان . جاء في الحديث الصحيح « أن الرسول ﷺ قال لرجل : كيف تقول في الصلاة ؟ قال : أتشهَّد وأقول : اللهم إني أسألك الجنة ، وأعوذ بك من النار ، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ ، فقال النبي ﷺ : « حولها ندندن» أي حول الجنة ودخولها ،والنار والنجاة منها ، ندور في أدعيتنا . وإنا لنسأله تعالى الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل، ونعوذ به جل شأنه من النار ، وما قرّب إليها من قول أو عمل .

ولقد أوردت ـ فيما أوردت من قبل ـ بعض ما ورد في صحيحي البخاري ومسلم من حديث ذلك الأعرابي ، الذي حرص على أن يدلّه النبي ﷺ على عمل يدنيه من الجنة ، ويباعده من النار ، وجاء في بعض تلك الروايات ـ أن الأعرابي

بعد أن رسم له النبي ﷺ الطريق إلى الجنـة، وأوضح معالمها ،عقيدةً وعبادةً ؛ كان منه أن قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه . تلا ذلك إخبار النبي ﷺ أنـه من أهل الجنة . ذلكـم ما روى أبوهريـرة رضي الله عنه « أن أعـرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقـال : يـارسول الله دُلنـي على عمل إذا عملتُـه، دخلت الجنـة قال : تعبدالله لا تشرك بـه شيئاً ، وتقيـم الصلاة المكتوبـة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان قـال : والذي نفسي بيده ،لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه ، فلما ولّى قال النبي ﷺ : « من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » وقد ذكرتُ ما قال العلماء في تأويل هذه العبارة الأخيرة من الحديث.

هذا : ونجد في رواية أخرى ، أن النبي ﷺ أسند الفلاح إلى السائل إن صدق، ولا ريب أن دخول الجنة فلاح أيُّ فلاح . ذلكم ما أخرج البخاري عن أبي سهيل ابن مالك عن أبيه أنه سمع طلحـة بن عبيد الله يقول : «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس ، يسمع دويُّ صوته ولا يُفقه ما يقول ، حتى إذا دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال : هـل عليَّ غيرها ؟ قـال : لا ، إلا أن تطّوع . قـال رسول الله ﷺ : وصيـام رمضان . قال : هـل عليَّ غيره ؟ قال : لا ، إلا أن تطّوع ، قال : وذكـر له رسول الله ﷺ الزكاة ، قـال : هل عليَّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطّـوع . قال : فأدبر الـرجل وهـو يقول : والله لا أزيـد على هـذا ولا أنقـص . قال رسـول الله ﷺ : أفلـح إن صـدق » وفي رواية لمسلـم « أفلـح وأبيه إن صـدق » أو « دخـل الجنة وأبيـه إن صـدق » .

وقال الإمـام مسلم : حدثني عمـرو بن محمد بـن بُكيرٍ الناقدِ قال : حـدثنا هاشم بن القـاسم أبو النضر قال : حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثـابت عن أنس ابن مالك قال : « نُهينا أن نسـأل رسول الله ﷺ عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل ، فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية

فقال: يامحمد أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: صدق قال: فمن خلق السماء ؟ قال : الله ، قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : الله ، قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال ، آلله أرسلك ؟ قال : نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا، قال ﷺ : صدق ، قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ، قال: صدق قال : فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا ، قال : صدق ، قال : فبالذي أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، قال :صدق . قال : ثم ولّى ، قال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها ولا أنقص منهن ، فقال النبي ﷺ : لئن صدق ليدخلن الجنة » فهذا إخبار مؤكد من النبي ﷺ بدخول الجنة لهذا الأعرابي ــ وهو ضِمام بن ثعلبة كما ثبت في رواية البخاري وغيره ـ إن صدق ، والزعم هنا : مرادٌ به ـ كما يقول الإمام النووي ـ القول المحقق والصدق الذي لا شك فيه ،لأن الزعم ، ليس مخصوصاً بالقول المشكوك فيه أو الكذب . وقد ورد استعماله بمعنى الصدق في كثير من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما جرى على لسان أئمة العربية ، كسيبويه ، وغيره من علماء اللغة الكوفيين والبصريين .

وقد مر في رواية سابقة قول الرسول ﷺ : « أفلح إن صدق » بعد قول الأعرابي : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . وقد أزال علماؤنا ما قد يبدو من إشكال في هذه النقطة ؛ فقد قرر الإمام النووي : أن الفلاح راجع إلى المجموع ، بمعنى أنه إذا لم يزد ولم ينقص ، كان مفلحاً ، لأنه أتى بما عليه ومن أتى بما عليه ، فهو مفلح ، وليس في هذا، أنه إذا أتى بزائد ، لا يكون مفلحاً ،لأن هذا مما يعرف بالضرورة ؛ فإنه إذا أفلح بالواجب ، فلأن يفلح بالواجب والمندوب ، أولى . وقال رحمه الله : وقد يشكل قول الأعرابي : لا أزيد على هذا ، وليس في الحديث جميع

الواجبـات ، ولا المنهيات الشرعيـة ، ولا السنن ، ولا المنـدوبات ! والجواب : أنـه جاء في رواية البخـاري زيادة توضح المقصود ، قـال : « فأخبره رسول الله بشرائع الإسلام . فأدبر الرجل وهو يقول : لا أزيد ولا أنقص مما فرض الله عليَّ شيئاً » .

اللهم إنا نسألك عزيمة الرشد والثبات في الأمر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

هذا رجل من أهل الجنة

كلما أحسن المؤمن صلته بالله عز وجل ، وصدق في حرصه على أن يبلغ يوم الفصل مبلغ الناجين ، كان أكثر انتفاعاً بما تطفح به كلمات الهدي النبوي ، من بشريات ، سوف تتحقق في ذلك اليوم ، لعله يكون من أصحابها ، مؤمناً أن الفضل أولاً وآخراً للرحيم الرحمن سبحانه وتعالى .

وعنوان ذلك: أن يكون هذا المؤمن أبداً مع الذي تقتضيه عقيدة التوحيد ،لا يحيد عما هو من حقها وفرضها ، ممسكاً بعاتق الميزان فيما هو من حقوق الله ، وفيما هو من حقوق العباد ؛ فيما هو من زخرف الدنيا متاعِ الغرور ، وفيما هو من عمل الآخرة ، والنور الذي ينفع صاحبه يوم المعاد ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً** ﴾ .

فمن وفِّق لسلوك هذا النهج ـ وهو يحرص الحرصَ كلَّه على أن يحشر في عداد من تبيض وجوههم يوم الدين ــ يستبشر في عرصات القيامة ، بنعمة الله وفضله ، حيث أعلام العدل والإحسان منصوبة ، ﴿**والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً** ﴾ ويلمس الأثر الطيب ،لاستقامته على ذلك النهج السويِّ الماثلِ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهو ما تمليه الكلمة الطيبة ، بكوكبها الدري «شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فيأمن ، حيث الناس في فزع وخوف ، ويحظى بجنة الخلد التي هي من جزيل العطاء الإلهي . وسبحان من لا تنفد خزائنه ، ولا ينقص من ملكه عطاء .

وفي خطوة أخرى على هذا السنن ، ما أجمل أن نكون على ذكر مما تشرق به نصوص السنة المطهرة من حديث أولئك الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة، بصفاتهم العامة ، أو بأسمائهم. وقد رأينا بعضاً من تلك النصوص من قبل .

قال الحاكم أبو عبدالله النيسابوري في كتـابه « المستدرك » : حدثني محمد بن هانىء قال: حدثنـي يحيى بن محمد بن يحيى قال: حدثنـا أبوعمر الحَوْضيُّ قال : حدثنا همام عـن قتادة قال : حدثنـي العلاء بن زياد وحـدثني يزيد أخـو مطرِّف وحدثنـي رجلان آخران نسي همام أسميهما أن مطرفـاً حدثهم أن عيـاض بن حماد حدثه أنـه سمع النبي ﷺ يقول في خطبتـه :« أصحاب الجنة ثلاثـة : ذو سلطان مصدِّق ومقسـط موفق ، ورجـل رحيم رقيـق القلب بكل ذي قـربي ، ورجل فقير عفيف » ثـم قال أبـوعبد الله : هذا حـديث صحيح الإسنـاد ولم يخرجاه ــ يعني البخاري ومسلماً ـ وقال الذهبي في كتابه « التلخيص » : رواه مسلم .

والهدي النبوي في هـذا النص وأمثاله ــ وهي كثيرة وفيرة ـ واضح في تـرغيب الأمة في هـذه الأخلاق الكـريمة ؛ كـلٌّ حسب مـوقعه ،حـاكماً كان أو محكـوماً ، وحسبك أن ذلـك طريـق المؤمن إلى الجنـة، لأن هذا الصنيـع، دليل الصـدق في العقيدة ،وتذوق حلاوة الإيمان.

وفيما وراء العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم: تأخذ بعض نصوص السنة بأيدينا ، إلى أسماء أخرى ،ذُكر أصحـابها بأعيانهم ، في معرض البشارة بأنهم من أهل الجنـة ؛ فتحت « بـاب مناقـب عبدالله بـن سلام رضي الله عنـه» من كتـاب مناقـب الأنصار في الجامع الصحيـح . قال الإمام البخـاري : حدثنا عبـدالله بن يوسـف قال : سمعت مـالكاً يحدث عن أبي النضر مـولى عمر بن عبيـد الله عن عامر بـن سعد بن أبي وقاص عن أبيـه قال : « ما سمعت النبـي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض : «إنه مـن أهل الجنة » إلا لعبدالله بـن سلام . وفيه نزلـت هذه الآية: ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ﴾ الآية قال : لا أدري قال مالك الآيةَ أوفي الحديـث» . وقد أخرج ابـن ماجـة أن عبدالله بن سـلام رضي الله عنه ، كـان اسمه في الجاهليـة الحصين ،فسمّاه النبـي ﷺ عبـدالله ، وكان مـن حلفـاء الخزرج من الأنصـار ، أسلم أولَ مـا دخل النبيﷺ المدينـة ، ومات سنـة ثلاث وأربعين للهجرة.

ثم روى البخاري بسنده عن محمد بن قيس بن عُباد قال : « كنت جالساً في مسجد المدينة ،فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع ، فقالوا : هذا رجل من أهل الجنة ، فصلّى ركعتين تجوّز فيهما ، ثم خرج، وتبعته، فقلت : إنك حين دخلت المسجد قالوا : هذا رجل من أهل الجنة ، قال : والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم . وسأحدثك لم ذاك ؟ رأيت رؤيا على عهد النبيﷺ، فقصصتها عليه، ورأيت كأني في روضة ــ ذكر من سعتها وخضرتها ــ وسْطها عمود من حديد ، أسفله في الأرض وأعلاه في السماء ، في أعلاه عروة ، فقيل لي : ارقه ، فقلت : لا أستطيع ، فأتاني مِنْصَفٌ ـ وهو الخادم ـ فرفع ثيابي من خلفي ، فرقيت حتى كنت في أعلاها ، فأخذت في العروة ، فقيل : استمسك ، فاستيقظت و إنها لفي يدي ، فقصصتها على النبيﷺ فقال : تلك الروضة الإسلام ، وذلك العمود عمود الإسلام ، وتلك العروة العروة الوثقى ، فأنت على الإسلام حتى تموت » وذلك الرجل عبدالله بن سلام ، قال البخاري : وقال لي خليفة : حدثنا معاذ قال. حدثنا ابن عون عن محمد قال : حدثنا قيس بن عباد عن ابن سلام قال : « وصيف بدل مِنْصَف ».

وتجدر الإشارة إلى أن قول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في الحديث الأول. « ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام » قد استشكل بأنه ﷺ قد قال لجماعة : إنهم من أهل الجنة غير عبدالله بن سلام ، ويبعد أن لا يطلع سعد على ذلك . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : وأجيب بأنه ـ يعني سعداً ــ كره تزكية نفسه ،لأنه أحد العشرة المبشرة بذلك . وتُعُقِّبَ بأنه لا يستلزم ذلك، أن ينفي مثلَ ذلك في حق غيره .

واستظهر الحافظ في الجواب : أن سعداً رضي الله عنه قال ذلك بعد موت المبشَّرين ،لأن عبدالله بن سلام عاش بعدهم ، ولم يتأخر معه من العشرة ،غير سعيد ؛ وسعيد هو : سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي . ويؤخذ هذا من قوله : «يمشي على الأرض » ووقع في رواية مسلم عن سعد أيضاً : « ما سمعت

رسول الله ﷺ يقول في حي : إنه في الجنة إلا لعبدالله بن سلام ». كما وقع في رواية إسحاق بن الطباع عن مالك عند الدار قطني « ما سمعت النبي ﷺ يقول لحي يمشي : إنه من أهل الجنة ... » الحديث ..

وقد أخرج ابن حبان من طريق مصعب بن سعد عن أبيه، سبب هذا الحديث بلفظ : سمعت النبي ﷺ يقول : « يدخل عليكم رجل من أهل الجنة ، فدخل عبدالله بن سلام » وهذا يؤيد صحة رواية الجماعة ، ويضعف رواية سعيد ابن داود عند الدارقطني التي جاء فيها ذكر سلمان الفارسي رضي الله عنه .

وهنيئاً للكرام أصحاب البشريات الكريمة ، ورضي الله عن عبدالله بن سلام ، الذي دخل التاريخ ، مثلاً لمن عرف الحق فاتبعه ، ولم يحل دون إيمانه حائل من تلك الرواسب التي حالت دون الآخرين ، ودون أن يؤمنوا بمحمد ﷺ مع أنهم يعرفونه ـ مما جاء في التوراة والإنجيل ـ كما يعرفون أبناءهم ، وكان على الوفاء بما عاهد الله عليه ، والصدق في طاعة النبي ﷺ ، وعلاقته بالإسلام و إخوانه المسلمين .

والله المسؤول أن يرزقنا العبرة ، وينفعنا بتلك البشريات العظيمة بالجنة ، تلك البشريات التي كانت لها أسبابها من الإنابة إلى الله ، ومحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ما نزال ـ ونحن نذكر مشاهد القيامة وأهوالها وفضل الله على عباده المؤمنين الصادقين الذين لا يخزيهم الفزع الأكبر ـ ما نزال مع الرحلة المباركة ، التي تطوّف بنا في رحاب طائفة من نصوص السنة المطهرة ، التي تحمل بشرى النبي ﷺ بالجنة لأناس بأعيانهم ، حيث صرّح صلوات الله وسلامه عليه بأسمائهم .

ولعل من المفيد حقاً ، أن أعيد إلى الأذهان ، ما جاء في حديث البخاري الذي تقدم من قريب ، من أن عبدالله بن سلام رضي الله عنه الذي شهد رسول الله ﷺ بأنه من أهل الجنة قال ـ أعلى الله مقامه ـ حين نقل إليه قيس بن عُباد كلام من قالوا : هذا رجل من أهل الجنة ـ « والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم » ؛ فقد فُسّر هذا الكلام بأنه إنكار من عبدالله بن سلام ، على من قطع له بالجنة ، فكأنه ـ رضي الله عنه ـ ما سمع حديث سعد بن أبي وقاص ، الذي نصّ على البشارة، وكأنهم ما سمعوه ، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ويحتمل أن يكون هو أيضاً سمعه ، لكنه كره الثناء عليه تواضعاً .

ويحتمل أن يكون إنكاراً منه على من سأله ذلك ، لكونه فهم منه التعجب من خبرهم ، فأخبره بأن ذلك لا عجب فيه ، بما ذكر له من قصة المنام ، وأشار بذلك القول إلى أنه لا ينبغي إنكار ما لا علم له به ،إذا كان الذي أخبره به من أهل الصدق .

وفي شأن العروة التي استمسك بها عبدالله ، وقال بعد أن قصّ الرؤيا: «فاستيقظت وإنها لفي يدي » قال العلماء : أي أن الاستيقاظ كان حال الأخذ من غير فاصلة ، ولم يُرد أنها بقيت في يده في حال يقظته ، ولو حمل على ظاهره ، لم يمتنع في قدرة الله ، لكن الذي يظهر خلاف ذلك، قال الحافظ : ويحتمل أن يريد

أن أثرها بقي في يده بعد الاستيقاظ ، كأن يصبح فيرى يده مقبوضة .

وما من ريب في أن استمساكه بالعروة الوثقى بعد إكرامه بروضة الإسلام ، وعمود الإسلام ، وقول النبي ﷺ : «فأنت على الإسلام حتى تموت »... ما من ريب في أن ذلك عنوان خيرية كانت بريده إلى دار الخلد ، التي حمل إليه الصادق المصدوق ﷺ البشارة بها ، وسبحان المتفضل بعطائه على من شاء بها شاء ، **﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾**.

وحري بنا ــ في تساوق مع أهمية هذه القضية ـ إيراد ما جاء عند مسلم من البشرى المباركة والمبشَّر بها رضي الله عنه ، ففي ذلك ما يزيد الأمر وضوحاً ، ويعين على تجلية ما يكون قد أجمل في رواية البخاري . قال الإمام مسلم: حدثنا محمد بن المثنى العنزي قال : حدثنا معاذ بن معاذ قال : حدثنا عبدالله بن عون عن محمد ابن سيرين عن قيس بن عُباد قال : «كنت في المدينة ـ في ناس فيهم بعض أصحاب النبي ﷺ ـ فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع ، فقال القوم : هذا رجل من أهل الجنة ، هذا رجل من أهل الجنة ، فصلى ركعتين يتجوّز فيهما ، ثم خرج فاتبعته ، فدخل منزله ، ودخلت ، فتحدثنا ، فلما استأنس قلت له : إنك لما دخلت قبلُ قال رجل كذاكذا ، قال سبحان الله ! ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم ذاك ؟ رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه، رأيتني في روضة ـ ذكر سعتها وعُشْبها وخُضرتها ـ وَوَسْطَ الروضة عمود من حديد، أسفلُه في الأرض وأعلاه في السماء ، في أعلاه عروة ، فقيل لي : ارقه ، فقلت له: لا أستطيع . فجاءني مِنصَفٌ (قال ابن عون : والمنصف الخادم) فقال بثيابي من خلفي ــ وصف أنه رفعه من خلفه بيده ـ فرقيت حتى كنت في أعلى العمود ، فأخذت بالعروة ، فقيل لي : استمسك .

فلقد استيقظت وإنها لفي يدي، فقصصتها على النبي ﷺ : فقال : تلك الروضة الإسلام ، وذلك العمود عمود الإسلام ، وتلك العروة عُروة الوثقى، وأنت

على الإسلام حتى تموت » قال : والرجل عبدالله بن سلام .

وقد رأينا من قبل تفصيل القول عند الحافظ ابن حجر ، في كلمة عبدالله «ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم » والذي اتجه إليه الإمام النووي رحمه الله: أن قوله هذا : إنكار منه رضي الله عنه، حيث قطعوا له بالجنة ، فيحمل على أن هؤلاء بلغهم خبر سعد بن أبي وقاص، بأن ابن سلام من أهل الجنة، ولم يسمع هو ، ويحتمل أنه كره الثناء عليه بذلك ؛ تواضعاً وكراهة للشهرة .

وفي رواية أخرى لمسلم عن خَرَشَةَ بنِ الحُرِّ قال : كنت جالساً في حلقة في مسجد المدينة ، قال : وفيها شيخ حسن الهيئة ـ وهو عبدالله بن سلام ـ قال فجعل يحدثهم حديثاً حسناً ، قال : فلما قام قال القوم : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا ، قال : فقلت: والله لأتبعنّه فلأعلمنَّ مكان بيته، قال : فتبعتهُ ، فانطلق حتى كاد أن يخرج من المدينة، ثم دخل منزله ، قال : فاستأذنت عليه فأذن لي ، قال : ما حاجتك يا ابن أخي ؟ قال : فقلت له : سمعت القوم يقولون لك لما قمت: من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا ، فأعجبني أن أكون معك ، قال : الله أعلم بأهل الجنة ، وسأحدثك ممَّ قالوا ذاك. إني بينما أنا نائم إذ أتاني رجل فقال لي : قم، فأخذ بيدي فانطلقت معه. قال: فإذا أنا بجوادَّ عن شمالي ، قال : فأخذت لآخذَ فيها ، فقال لي : لا تأخذ فيها فإنها طُرق أصحاب الشِّمال ، قال: فإذا جوادُّ منهجٌ على يميني ، فقال لي: خذ ههنا فأتى بي جبلاً فقال لي : اصعد قال : فجعلت إذا أردت أن أصعد ، خررت على أسْتي قال : حتى فعلت ذلك مراراً . قال : ثم انطلق بي حتى أتى بي عموداً رأسه في السماء وأسفله في الأرض ، في أعلاه حلقة ، فقال لي : اصعد فوق هذا ، قال : قلت : كيف أصعد هذا ورأسه في السماء ؟ قال : فأخذ بيدي فزجل بي ـ أي رمى بي ـ قال : فإذا أنا متعلق بالحلقة ، قال : ثم ضرب العمود فخرّ ، قال : وبقيت معلّقا بالحلقة حتى أصبحت .

قال : فأتيت النبي ﷺ فقصصتها عليه فقال : « أما الطرق التي رأيت عن يسارك: فهي طرق أصحاب الشمال ، قال : وأما الطرق التي رأيت عن يمينك: فهي طرق أصحاب اليمين ، وأما الجبل : فهو منزل الشهداء ، ولن تناله. وأما العمود فهو عمود الإسلام ، وأما العروة : فهي عروة الإسلام ، ولن تزال متمسكاً بها حتى تموت» .

جوادٌ منهج على يميني : طرق واضحة بينة مستقيمة ، والنهج الطريق المستقيم وطريق منهج ومنهاج ونهج أي بين واضح . فزجل بي : رمى بي .

اللهم ألحقنا بعبادك الصالحين ، وارزقنا الانتفاع بهذه الأخبار الصادقة وأمثالها ، وحسن النظر فيما كان عليه من أكرموا بالبشريات ، من وقوف عند حدود ما شُرع، ومسارعة إلى ما فيه مرضاة الله تعالى ، والتخلّق بأخلاق المنيبين المحسنين. لك الحمد ياربنا في الأولى والآخرة ، أنت وليُّنا فنعم المولى ونعم النصير .

من أدب المبشرين بالجنة

﴿ أصحاب الجنة يومئـذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ هذه حقيقة قرآنية لا ريب فيها ، تحمـل إلى أهل الإيمان المخبتين إلى ربهم ، بشرى عظيمـة أكرم بها مـن بشرى، وقد أشرقت بها كلمات مباركات قطعية في ثبوتها ، قطعية في دلالتها . ولكم تحفز البشرى إلى العمل ، وتجعل عباد الرحمن في شوق إلى جنة الخلد دار النعيم المقـيم ؛ فهي مثـواهم الكريم في دار القـرار ، وهي فضل من فضلـه ، وعطاء من عطائه سبحانه .

ومنذا الذي يشرح الله صدره للإسلام ، ويتعرض للنفحات الربانية ، فيذوق حلاوة الإيمان ، ثم لا يشتاق إلى دار المقامة ، حيث النعيم المقيم ، والفضل الذي لا يُحَدُّ والعطـاء الذي لا ينفـد ؟. أقـول هذا : والحديـث مـوصول إن شـاء الله ـ بالرحلة المباركة التي وقفتنا على نصوص تفيض بما بشر به النبي ﷺ من بشر من المسلمين ، بأنه من أهل الجنة .

وهـا نحـن أولاء مـع البشرى الكـريمـة لخديجة أم المؤمنين رضي الله عنهـا وأرضاها . وخـديجة هي أول من تزوجهـا ﷺ وكان عليه الصلاة والسـلام قبل أن يتزوج بها ، قد سافر في مالها مقارضاً إلى الشـام ، فرأى منه ميسرة غلامها ما رغبها في الاقتران به صلـوات الله وسلامه عليه . وكـانت رضي الله عنها وأجزل مثـوبتها تدعى في الجاهلية ـ كما يقول الزبير بن بكار ـ « الطاهرة» وماتت ـ على الصحيح ـ بعـد المبعث بعشر سنين ، أي قبـل الهجرة بثـلاث سنين ، وقـد أورد الحافظ ابـن حجر في فتح الباري ما روى الفاكهـي في « كتاب مكة» عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان عند أبي طـالب ، فاستأذنه أن يتوجه إلى خـديجة فأذن له ، وبعث بعده جاريـة يقال لها : نبعة، فقال لها : انظري مـا تقول له خديجة ؟ قـالت نبعة :

فرأيت عجباً ، ما هو إلا أن سمعت به خديجة ، فخرجت إلى الباب ـ وذكرت ما كان من شديد اهتمامها ـ وأنها قالت بعد ذلك : بأبي وأمي والله ما أفعل هذا الشيء ولكني أرجو أن تكون أنت النبيَّ الذي ستبعث ، فإن تك هو : فاعرف حقي ومنزلتي وادع الإله الذي يبعثك لي . قالت : فقال لها : «والله لئن كنت أنا هو ، قد اصطنعت عندي مالا أضيعه أبداً ، وإن يكن غيري ، فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً » .

وتأتي الإشارة ـ فيما بعد ـ إلى شيء من فضائلها ، فهي أفضل نسائه ﷺ على الراجح عند المحققين . وليس عجباً من العجب ، أن يكرمها الله بالجنة التي هي خير مستقراً وأحسن مقيلاً ، وقد بشرها زوجها سيد العالمين بذلك، بأمر الله سبحانه وتعالى ، قال الإمام البخاري في كتاب الفضائل من الجامع الصحيح «باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها » قال رحمه الله: حدثنا سعيد بن عفير قال : حد ثنا الليث قال : كتب إليَّ هشام بن عروة قال عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة ـ هلكت قبل أن يتزوجني ـ لما كنت أسمعه يذكرها ، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب . وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها من ما يسعهن » والبيت المبشر به هنا هو بيت في الجنة كما أوضحت ذلك الروايات الأخرى . ففي رواية أخرى للبخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: « ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة من كثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها . قالت: وتزوجني بعدها بثلاث سنين ، وأمره ربه عز وجل ـ أو جبريل عليه السلام ـ أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب ».

وتحسن الإشارة إلى أن عبارة : «وأمره ربه أو جبريل عليه السلام » شك من الراوي. وقد جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري في هذا الباب « باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها » ما يدل على أن البشارة بذلك من الله كانت على لسان جبريل عليه السلام ، قال رضي الله عنه : « أتى جبريل النبي

ﷺ فقال :يارسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام ، أو طعام ، أو شراب ؛ فإذا هي أتتك ، فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة ، من قصب لا صخب فيه ولا نصب ».

والملاحظ هنا ، أنه مع تقرير أن البشارة من الله ، وأن الذي حملها جبريل عليه السلام، قد جاء وصف جديد للبيت، وهو أنه لاصخب فيه ولا نصب، وهو ما تضع أيدينا عليه رواية أخرى عند البخاري أيضاً ؛ ذلكم قوله رحمه الله: حدثنا مسدّد قال : حدثنا يحيى عن إسماعيل قال : قلت لعبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما : «بشّر النبي ﷺ خديجة ؟ قال نعم ، ببيت من قصب، لاصخب فيه ولا نصب». وقوله : « بشر النبي ﷺ خديجة »؟ هو استفهام محذوف الأداة فكأنه قال هل بشر النبيﷺ ؟؟ وقد جاء الاستفهام مصرّحاً به عند مسلم رحمه الله ؛ فقد أخرج بسنده عن عبدالله بن نمير ومحمد بن بشر العبدي عن إسماعيل قال : «قلت لعبد الله بن أبي أوفى أكان رسول الله ﷺ بشَّر خديجة ببيت في الجنة ؟ قال : نعم، بشرها ببيت في الجنة لاصخب فيه ولا نصب » وهو كذلك عند أحمد .

وقد جاءت الرواية عند الترمذي بلفظ «ما حسدت أحداً ما حسدت خديجة» بدلاً من «ما غرت على أحد من أزواج النبي ﷺ ما غرت على خديجة ».

ولا بد من التنبيه على أن المقصود من الحسد في كلام عائشة رضي الله عنها : حسد الغبطة ، لا الحسد الذي ينبىء عن سوء طوية صاحبه والعياذ بالله ؛ ففي باب فضل خديجة رضي الله عنها من كتاب المناقب في السنن ـ الجامع الصحيح ـ روى الترمذي بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : « ما حسدت أحداً ما حسدت خديجة . وما تزوجني رسول الله ﷺ إلا بعد ما ماتت ، وذلك أن رسول الله ﷺ بشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب» قال الترمذي: هذا حديث حسن .

من قصب . قال : إنما يعني به قصب اللؤلؤ . والحديث عن أمر الله تعالى

نبيه ﷺ أن يبشر خديجة رضي الله عنها تلك البشرى العظيمة المباركة جاء في رواية ابن ماجة أيضا ، فقد جاء في تلك الـرواية عن عائشة رضي الله عنها. «ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب ـ يعني مـن ذهب ـ قاله ابن ماجة . وجاء في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات .

رضي الله عن خديجة ، وعن جميع أمهات المؤمنين ، وهنيئاً لها ما بشرت به من هذا القصر العظيم في جنة الخلد التي قال الله بشأنها : ﴿ **إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾.

وما أعظمه مشهداً يوم الدين .. مشهد ما أكرمها به رب العالمين .

بيت خديجة في الجنة

حين يـذكر المؤمـن الـدار الآخرة ، ومـا يزخـر بـه يوم القيـامـة من الأهـوال والشدائد ، يوم يعض الظالم على يـديه ويقول الكافر ياليتني كنت تـراباً ... يذكر كذلك ما يؤول إليه أمر المؤمنين الذين استقاموا على الطريقة ،وكانوا على المحجة البيضاء ، من دخول الجنة التي أعدها الله لعباده الصادقين .

وما حصل من البشائر بهذا الفضل الكبير ، على لسان المصطفى عليه السلام لأناس بأعيانهم ـ وهو من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام ـ مع إيضاح السبيل الموصلة إلى تلك النعمة العظمى ، هو نور على نور ، وخير على خير .

ومما يفرح القلب ، ويدل على عظيم حكمة الله تعالى ، وفضله الذي لا يحد ، ما آذن به الهدي المحمدي على لسان الرسول الكريم ، أن خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها التي أشهـدها ﷺ ـ وهي المرأة الحصيفـة العاقلة الصادقـة ـ نبأ الحدث العظيم في تاريخ الإنسانيـة ، يوم فجأه الوحي ، كانت في مقدمـة من أكرمهم الله بهذه البشرى ، بل جاء التصريح في بعض الأحاديث، أن الله تبارك وتعالى أمر نبيه ﷺ أن يبشرها بذلك . وقد أوردت بعضاً من تلك الروايات مما جاء عند البخاري ومسلم والترمـذي وابن مـاجة . وقد جـاء النص على أن البشـارة كانـت ببيت في الجنة مـن قصب لا صخب فيـه ولا نصب ، كالـذي رأينا عن إسماعيـل بن أبي خالد قال : « قلت لعبدالله بـن أبي أوفى: أكان رسول الله ﷺ بشر خديجة ببيت في الجنة ؟ قـال : « نعم بشرها ببيت في الجنـة من قصب لا صخب فيـه ولا نصب» متفق عليه واللفظ لمسلم . وفي رواية « وأمره ربه عز وجل أن بشِّرها ببيت في الجنة من قصب » وروى الإمـام أحمد في المسند عن هشام بـن عروة بن الزبير عـن أبيه عروة عن عبدالله بـن جعفر بن أبي طالب أنه قـال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت

أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيـه ولا نصب » . وفي هذا إعلان من النبي ﷺ أنه أمر بأن يزف إليها هذه المكرمة من رب العالمين .

والقصب بفتح القاف والصاد : اتجه العلماء إلى تفسيره باللؤلؤ . وقد طلعت علينا بعض الروايات بما يؤيد هذا التفسير ؛ فقد جاء عند الترمذي قوله بعد رواية الحديث: من قصب: قال : يعني قصب اللؤلؤ . ونقل الحافظ ابن حجر عن ابن التين قوله : المراد بـه لؤلؤة مجوفة كالقصر المنيف . قـال الحافظ : قلت : عند الطبراني في « الأوسط» من طريق أخرى عن ابن أبي أوفى « يعني قصب اللؤلؤ» وعنده في « الكبير » من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه « ببيت من لؤلؤة مجوفة » وأصله في مسلم . وعنده في « الأوسط» من حديث فاطمة رضي الله عنهـا قالت: «قلت : يارسول الله أين أمي خديجة ؟ قال : في بيت من قصب . قلت : أمن هذا القصب ؟ قال : لا ، من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت ».

ولم يدع بعض العلماء أن يكشـف عن الحكمة في اختيار كلمـة القصب، وأن ذلك مـرتبط بما فـازت به خديجة ـ بين النساء ـ مـن السبق بـالمبادرة إلى الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام ـ ونُذُرُ الفتنة والأذى تحيط به وبمن يمكن أن يؤمن به من كل جانب ـ قال السهيلي رحمه الله : النكتة في قوله : « من قصب» ولم يقل «من لؤلـؤ » أن في لفظ القصـب، مناسبة لكونها أحرزت قصـب السبق بمبادرتها إلى الإيمان دون غيرها ، ولذا وقعت هذه المناسبة في جميع ألفاظ هذا الحديث .

ويضيف صاحـب الفتح إلى ذلك : أن في القصب مناسبة أخـرى ، من جهة استواء أكثـر أنابيبه ، وكـذا كان لخديجة من الاستواء ، مـاليس لغيرها ، إذ كـانت رضي الله عنهـا ، حريصـة على رضاه صلـوات الله وسـلامه عليـه بكل ممكـن ، ولم يصدر منها ما يغضبه قط كما وقع لغيرها .

وجميل ما ذهب إليه أبوبكر الإسكـافي في كتابه « موائد الأخبار» من أن المراد بالبيت الذي نصت عليه الروايـات بلفظ « ببيت في الجنة » بيت زائد على ما أعدّ

الله لها من ثواب عملها ، ولهذا قال: « ولا نصب » أي لم تتعب بسببه. قال السهيلي: لذكر البيت معنى لطيف ، لأنها كانت ربة بيت قبل المبعث ، ثم صارت ربة بيت في الإسلام منفردةً به ، فلم يكن على وجه الأرض في أول بعث النبي ﷺ بيت إسلام إلا بيتها ، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضاً غيرها ، قال : وجزاء الفعل يذكر غالباً بلفظه ، وإن كان أشرف منه ، فلهذا جاء في الحديث بلفظ «البيت» دون لفظ «القصر » .

ويرى الحافظ رحمه الله ، أن لذكر البيت معنى آخر ، لأن مرجع أهل بيت النبي ﷺ إليها ، لما ثبت في تفسير قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ قالت أم سلمة رضي الله عنها : لما نزلت دعا النبي ﷺ فاطمة وعلياً والحسن والحسين فجلَّلهم بكساء فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي ..» الحديث، أخرجه الترمذي وغيره . ومرجع أهل البيت هؤلاء إلى خديجة ؛ لأن الحسنين من فاطمة ، وفاطمة بنتها ، وعلي نشأ في بيت خديجة، وهو صغير ، ثم تزوج بنتها بعدها ، فظهر رجوع أهل البيت النبوي إلى خديجة رضي الله عنها دون غيرها .

هذا وقد دلت الروايات ، على أن البيت المبشَّرَ به لا صخب فيه ولا نصب، والصخب : الصياح والمنازعة برفع الصوت . أما النصب : فهو التعب، والسهيلي رحمه الله ـ على طريقته في تلمّس الحكم والمناسبات ـ ذهب إلى أن مناسبة نفي هاتين الصفتين ـ أعني المنازعة والتعب ـ عن ذلك البيت العظيم الذي بشرت به أم المؤمنين السيدة خديجة ؛ أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام ، أجابت خديجة طوعاً ، فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا تعب في ذلك ، بل أزالت عنه كل نصب ، وآنسته من كل وحشة ، وهوَّنت عليه كل عسير ، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها ، بالصفة المقابلة لفعلها . وقد جاء في المسند عند أحمد على لسان بعض الرواة قوله: وقال مرة ـ يعني ابن أبي أوفى ـ: «لا صخب أو لا لغو فيه ولا نصب».

ولقد يكون من الخير ، أن نشير إلى ما جاء في بعض روايات الحديث التي سبقت، من اقتران البشارة الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها ، بطلب جبريل عليه السلام من النبي ﷺ أن يقرأ على خديجة السلام من ربها عز وجل ومنه هو ؛ كالذي جاء عند البخاري ومسلم « ... فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ... » الحديث. وهو ما نجده في المسند عند الإمام أحمد إذ روى بسنده عن أبي زرعة قال : سمعت أباهريرة يقول : « أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يارسول الله هذه خديجة قد أتتك بإناء معها فيه إدام ، أو طعام، أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » . زاد الطبراني في الرواية المذكورة «فقالت : هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام » .

وللنسائي من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال جبريل للنبي ﷺ : إن الله يقرىء خديجة السلام ــ يعني فأخبرها ـ فقالت : إن الله هو السلام وعلى جبريل السلام وعليك يارسول الله السلام ورحمة الله وبركاته ».

وموعدنا إن شاء الله صفحات قادمات تزيدنا ــ من خلال كلام المحققين ـ إدراكاً لدلالة الحديث ومراميه. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحابته ورضي الله عن خديجة وعن أمهات المؤمنين أجمعين .

عائشة وفضائل خديجة

هذه كلمات يتصل نسبها بشيء مما جاء في بعض نصوص الحديث النبوي من أمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام ، أن يبشر زوجه النابهة الصادقة ذات السبق في الإسلام ، ببيت في الجنة لا صخب فيه ولا نصب ، ومن إبلاغ جبريل عليه السلام إياه ، أن يقرئها السلام من ربها عز وجل ومنه .

وهذه النصوص الفوَّاحة بالشذى ، المشرقة بضياء الإحسان : ليس بدعاً أن تأخذ بالمؤمن ـ وقد خالطت معانيها عقله وقلبه ـ إلى حيث الإحساس العميق بمزيد فضل الله تعالى على عباده المؤمنين ، الذين رزقوا الوقفة الصادقة مع الحق؛ وإذا ذُكر الصدقُ وأهله في المؤمنين والمؤمنات ، فحيَّهلاً بالسيدة خديجة رضي الله عنها ، التي بلغ من فضلها ـ أعلى الله مقامها في عليين ـ أن أُمر البشير النذير صلوات الله وسلامه عليه ، بأن يبشرها بما يكون لها في دار الكرامة من العطاء ، وبأن يقرئها السلام من الله عز وجل ، ومن الروح الأمين جبريل عليه السلام .

وما من ريب، في أن مظاهر الفضل على هذه الساحة في دار الجزاء ، وتوفية العباد دينهم الحق ، تأتي بمثابة الظل الظليل في صحراء الهول الهائل الذي يضرب بكلكله على العباد ، عند الحشر في عرصات القيامة ، يوم لا ملجأ ولا منجى من الله ذي السلطان والجبروت ، إلا إليه سبحانه .

والحق أن الأمر بإقراء السلام من الله عز وجل ومن جبريل عليه السلام ، محطة عظيمة البركة والإشراق ، تستوقف المؤمن على طريق المناقب التي رزقتها خديجة أم المؤمنين عليها الرحمة والرضوان . ولقد كان فيما سلف من الأحاديث المتعلقة بالسلام عليها ، ما روى النسائي من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال جبريل للنبي ﷺ : « إن الله يقرىء خديجة السلام » ـ يعني فأخبرها ـ

فقالت: « إن الله هـو السلام ، وعلى جبريل السلام ، وعليك يـارسول الله السلام ورحمة الله وبـركاتـه زاد ابن السُّنـي من وجـه آخر : « وعلى مـن سمع السـلام إلا الشيطان » .

وقد أورد الحافـظ ابن حجـر ـ أجـزل الله مثوبتـه ـ مـا قرر العلماء مـن أن في القصـة دليلاً على وفـور فقههـا ؛ لأنها لم تقل: « وعليـه السـلام » كما وقع لبعـض الصحابـة حيث كانـوا يقولون في التشهـد : السلام على الله ؛ فنهاهـم النبي ﷺ وقال : «إن الله هو السلام فقولوا : التحيـات لله » فعرفت خديجة لصحة فهمها أن الله لايردُّ عليه السلام كما يرد على المخلوقين ؛ لأن السلام اسم من أسماء الله . وهو أيضاً دعاء بالسلامة ، وكلاهما لا يصلـح أن يردَّ به على الله ، فكأنها قالت : كيف أقول: عليه السلام والسلام اسمه، ومنه يطلب ، ومنه يحصل . فيستفاد منه أنه لا يليق بالله إلا الثناء عليه ، فجعلت مكان السـلام ، رد الثناء عليه ، ثم غايرت بين ما يليق بالله ، ومـا يليق بغيره ، فقالت: وعلى جبريل السلام ، ثـم قالت: وعليك السلام. قالوا: ويستفاد منه رد السلام على من أرسل السلام وعلى من بلَّغه.

والذي يظهر أن جبريل عليه السلام ، كان حاضراً عند جوابها ، فردت عليه وعلى النبي ﷺ ، مـرة بالتخصيص ومـرة بالتعميم ، ثـم أخرجت الشيطـان عمن سمع، لأنه لا يستحق الدعاء بذلك .

ولكـن ما الحكمـة في تبليغها السـلام على هذه الصـورة ؟ قيل : إنما بلّغهـا جبريل عليه السلام السلام من ربها بواسطة النبيﷺ احتراماً للنبي ﷺ ، وكذلك وقع لماسلم على عائشـة ؛ لم يواجهها بالسلام بل أرسله مـع النبيِّ ﷺ ، ذلكم ما روى البخاري ومسلم ـ واللفظ للبخاري ـ أن أبـاسلمة قال: إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومـاً : « ياعائشة هذا جبريل يقرئك السـلام» قالـت: فقلت: وعليه السـلام ورحمة الله وبركـاته ، تـرى ما لا أرى ، تـريد رسـول الله ﷺ . وعند مسلم مـن حديـث أبي سلمة أيضاً أن عـائشة حـدثته «أن النبـي ﷺقال لها: إن

جبريل يقرأ عليك السلام . قالت : فقلت : وعليه السلام ورحمة الله ».

هذا : واستنباط الحكمة المشار إليها ، حدا بالعلماء إلى تعليل مواجهة مريم بالخطاب في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريّاً . وهزِّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ .. الآيات . فقيل : لأنها نبية وقيل : لأنها لم يكن معها زوج يحرم معه مخاطبتها .

ثم إن أهمية الموضوع على ساحة التكريم لخديجة رضي الله عنها، مع النصوص الواردة في شأن فاطمة وعائشة رضي الله عنهما ، جعلت بعض العلماء أيضاً يطيلون النظر ملياً بما ورد . هذا الإمام أبو القاسم السهيلي ينقل في «الروض الأنف» عند شرحه الحديث إقراء السلام خديجة الذي أورده ابن إسحاق في السيرة : عن أبي بكر بن داود أنه سئل أعائشة أفضل أم خديجة ؟ فقال: عائشة أقرأها رسول الله ﷺ السلام من جبريل ، وخديجة أقرأها جبريل السلام من ربها على لسان محمد ﷺ.

ومن صريح ما جاء في تفضيل خديجة رضي الله عنها ، ما أخرجه أبوداود والنسائي وصححه الحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ قال : أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد » ونقل الحافظ عن السبكي الكبير قوله : (لعائشة رضي الله عنها من الفضائل ما لا يحصى ، ولكن الذي نختاره وندين الله به أن فاطمة أفضل ثم خديجة ثم عائشة) وغني عن البيان : أنه ليس في الأفضلية المقررة لإنسان من عباد الله ، غضٌّ من قدر من فَضَلهم. ورضي الله عن فاطمة وخديجة وعائشة، وسائر أمهات المؤمنين ، وجزى الله الجميع عن الإسلام والمسلمين كل خير .

ولا شك في أن مما أكرم الله به خديجة رضي الله عنها ، وكان باباً مباركاً من أبواب فضائلها ومناقبها ، ذلك السبق إلى الإسلام ، ومؤازرة رسول الله ﷺ في وقت الشدة والاختبار العظيم ، حيث الخطوة الأولى في الدعوة إلى كلمة التوحيد

في ظل جاهلية جهلاء ، اضطربت فيها الموازين والقيم، والدنيا كلها ترزح تحت سلطان الشرك والوثنية الظاهرة أو المبطنة ، والتفاخرُ بالآباء والأجداد مرفوعُ الراية على سنن التقليد الأعمى وإهمال العقل ، وكل ما يمت إلى ذلك من سلوك تولده تلك الظلمات .

وقبل أن أعيد إلى الأذهان حديث بدء الوحي ، الذي آذن بصدق خديجة وعميق حصافتها وحسن تدبيرها ، والذي يكشف عن مواقفها التي كان لها جميل الأثر في سير الدعوة ، أود التذكير بحقيقة بالغة الأهمية في أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ إذ كان ـ كما سلف من قبل ـ غايةً في الوفاء لزوجه خديجة رضي الله عنها ، حتى بعد موتها ، وقد بلغ من صدق عائشة مع نفسها ومع دينها ، أن تصرح بأنها كانت تغار عليها بعد موتها ، ولا تدع أن تذكر ما تعلم من فضائلها التي عرفتها منه عليه الصلاة والسلام . ونعمت هذه الغيرة التي تحكمها تقوى الله وأخلاق الإسلام .

وغير خاف أنه صلى الله وسلم وبارك عليه ، قد كان يثني عليها بعد وفاتها ما لم يثن على غيرها ؛ يطالعنا في ذلك حديث عائشة رضي الله عنها الذي أورده الحافظ ابن عبدالبر في كتابه « الاستيعاب » قالت أم المؤمنين : « كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام ، فأخذتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها؟ فغضب ثم قال : والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء . قالت عائشة : فقلت في نفسي : لا أذكرها بسيئة أبداً ».

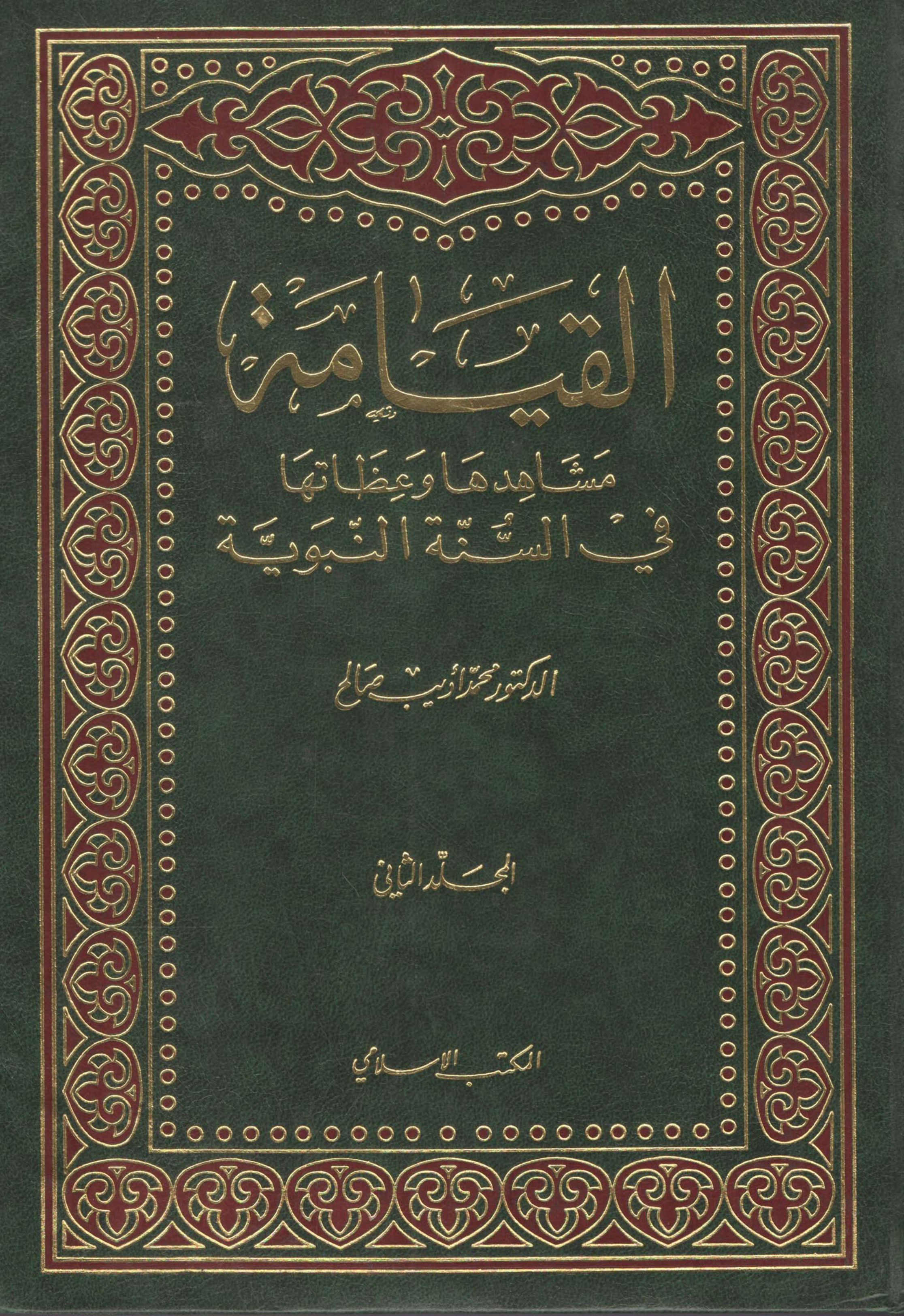
وجاءت الرواية عند أحمد بلفظ « ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء». وروى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكن كان النبي ﷺ

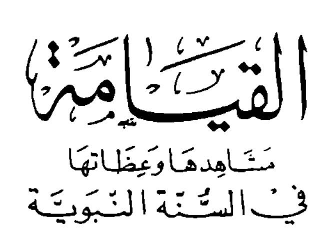
يكثر ذكرها ، وربما ذبـح الشاة ، ثم يقطعها ، ثم يبعثها في صـدائق خديجة . فربما قلت له : كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خـديجة !! فيقول : كانت ، وكانت، وكان لي منها ولد » أي كانت فاضلة ، وكانت عاقلة ، وكانت حسنة التبصر في الأمور ، ونحـو ذلك. وأخـرجه الترمـذي بنحوه . فكثـرة ذكره ﷺ إيـاها ــ وهو الصـادق المصدوق ـ عنوان ثنـاء وتعداد فضائل ، جاءت في المرحلة الشاقـة ، مرحلة البدء على طريق مواجهة الجاهلية والجاهليين بالدعوة .

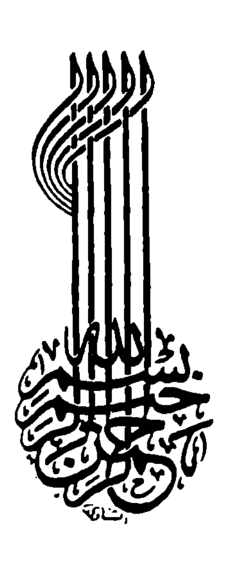
رضي الله عن خـديجة وعن أمهات المؤمنين جميعـاً . وأكْرِمْ ببيت ، القـوّام فيه وولي أمره إمام الأنبياء . وربَّته المؤتمنة عليـه خديجة بنت خويلد أم المؤمنين ، التي كـانت رمـزاً عظيماً من رمـوز الإيمان والإخلاص وحســن التبصر ، وعنوانـاً بالـغ الإشراق ،على أن المرأة التـي تجمع إلى الإيمان بُعْـدَ النظـر ، والارتفاع إلى مستـوى المسؤوليـة ، تستطيع ـ بعون الله ــ أن تفعل الكثير الكثير ، على طريق الـدعوة إلى الله، وبنـاء حضارة الإسـلام . والحمد لله الـذي زيّن مـواقف خـديجة في تاريـخ الإسلام ، ورفع قدرها في الدنيا ويوم الدين ، يوم يشهد الخلائق مشهد إكرامها منه سبحانه وتعالى ، وهو الرحيم الرحمن رب العالمين .

الفهرس

*****


القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية
الدكتور محمد أديب صالح
المجلد الثاني
المكتب الإسلامي


القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية



الدكتور محمد أديب صالح



المجلد الثاني

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

دار العمل.. ودار الجزاء

الارتباط الوثيق ـ في الإسلام ـ بين دار العمل ودار الجزاء ، يحمل ما يحمل من العدل الإلهي المطلق ، والحكمة البالغة التي يدركها البررة أولو الألباب ؛ ولذلك ما له من أثر بالغ في بناء الإنسان ، والحضارة المتوازنة المؤمنة ، وصناعة التاريخ ؛ فالله تعالى ـ وهو الذي أمر بالعدل والإحسان ـ لا يضيع عمل عامل ، من ذكر أو أنثى ، والعلاقة بين العمل في الدنيا ، والجزاء في الآخرة ، لا ينالها تفكك أو انحلال . ومهما رجعت البصر والفكر في هذا المنهج الرباني ، فسوف تجد أن الحكمة تقود إلى حكمة وراءها ، وأن الإعجاز في تساميه ، يأخذ بيدك إلى إعجاز بعده ، وسبحان الحكيم الخبير .

وددت أن أقدم هذه الكلمات بين يدي حديث موصول بالكلام على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، ومشهد إكرامها يوم الدين ؛ فهي ذات فضائل عظام، تذكر في هذه الدار فتشكر ، وفي الوقت نفسه جاءت الأحاديث الصحيحة التي تعلن ـ بمختلف رواياتها ومروياتها ـ عن إكرام الله لها يوم الدين ، جزاء ما قدمت للرسول عليه الصلاة والسلام ، وللدعوة الإسلامية التي كانت مهددة بالمخاطر من كل صوب .

والمؤمنون حقاً والمؤمنات ؛ الذين يضعون الوقائع موضعها ، عندما تؤرقهم مشاهد القيامة ، وما سيكون يوم الوعيد ، يوم يقول جبار السماوات والأرض لجهنم: ﴿هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ يفرح قلوبهم ما حملت البشائر للمؤمنين الصادقين والمؤمنات الصادقات . وإذا ذكر هؤلاء ، فهنيئاً للسيدة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ، ثناء الأمين على وحي الله ﷺ ، وما أعد لها الكريم المنان في دار المتقين .

وما من ريب في أن ما يسّر الله إيراده مـن الأحاديث في فضائلها ، وإكرام الله لـه يُبَيِّنُ الكثير من خصـائص شخصيته عليـه الصلاة والسـلام ، حتى قبـل أن يوحى إليه، وكيف كانت أخلاقه التي تراها منه ، دليلها الواضح المشرق على أن الله لن يخزيـه أبداً ؛ فحاشـا لله العليم الخبير ــ جلت حكمته ــ أن يُخزيَ محمداً ، ومحمد ﷺ يصـل الرحـم ، ويحمل الكلَّ ، ويقـري الضيـف ، ويكسـب المعدوم ، ويعين على نوائب الحق ، إلى غيرما عرفت من كريم سجاياه قبل البعثة وبعدها .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكـر : فمما لا ينبغي إغفاله هنا ، ما أشرنـا إليه من قبل في شأن موقف عائشة من السيدة خديجة ، إذ مما يستوجب التأمل من الناحية الموضوعيـة ، ويؤكد تلكـم الفضائل لخديجة ، ويرفـع من قدر عـائشة رضي الله عنهما : ما كان من أمانتها في رواية ما سمعت من رسول الله ﷺ من فضل خديجة، وأن غيرتها كانت لا تتجاوز بها حدود الأخلاق الإسـلامية وتقوى الله ؛ فإن جلَّ ما ورد في مناقب السيدة خـديجة ، هو من رواية أم المؤمنين عائشة الصـديقة التي لم تكتم شيئـاً من أخبار بنت خـويلد ، ومن ذلـك الحديث الذي دعا إلى إيـراده ما سبق من نصوص .

جاء في كتاب بدء الوحي من الجامـع الصحيح قول الإمام البخاري : حدثنا يحيى بن بكير قال : حـدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عـن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثـل فلق الصبح ، ثم حبّب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حـراء ، فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ــ الليالي ذوات العدد قبل أن ينـزع إلى أهله ، ويتزود لـذلك ، ثم يرجـع إلى خديجة فيتزود لمثلهـا ، حتى جاءه الحق وهو في غـار حراء ، فجاءه الملك فقـال : اقرأ ـ قال: مـا أنا بقارىء . قال : فأخذني فغطني حتي بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء ، فـأخذني فغطني الثـانية حتى بلـغ مني الجهـد ، ثم أرسلني فقـال : اقرأ فقلت: مـا أنا بقارىء ، فـأخذني فغطني الثـالثة ثم أرسلنـي فقال : ﴿ **اقرأ باسم**

ربك الذي خلق .خلق الإنسان مـن علق . اقرأ وربك الأكرم ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنهافقال : زملوني زملوني ـ فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع ، فقال لخديجة : وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسي ، فقالـت خديجة : كلا والله مـا يخزيك الله أبداً ــ إنك لتصل الـرحم، وتحمـل الكـلَّ وتكسـب المعــدوم ، وتقـري الضيـف، وتعين على نـوائب الحق ـ فانطلقت بـه خديجة حتى أتت بـه ورقة بن نوفل بـن أسد بن عبدالعـزى ابن عم خديجة ، وكـان امرءاً تنصّر في الجاهلية ، وكـان يكتب الكتـاب العبرانيَّ ، فيكتب من الإنجيـل بالعبرانيـة ما شـاء الله له أن يكتـب ، وكان شيخـاً كبيراً قد عمـي ، فقالت لـه خديجة: يا ابن عـمٍّ اسمع من ابن أخيـك . فقال له ورقة : يـاابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى. ياليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجيَّ هم ؟ قال : نعم ،لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركنـي يومك أنصرْك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشـب ورقة أن توفي وفتر الوحي » .

جاء النص هنا بالنسبة لقـول الملك في المرة الأولى لرسول الله ﷺ : اقرأ بلفظ «قال : مـا أنا بقارىء » ولأبي ذرٍ والـوقت: «قلت» كما في المرتين التـاليتين. وورقة ابن نوفل ابن عم خديجة رضي الله عنها ، كان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها عبادة الأوثان إلى الشام وغيرها يسألان عـن الله ، فأما ورقة : فأعجبه دين النصرانية فتنصر ، وكان لقي من بقي من الرهبان على دين عيسى عليه السلام ولم يبـدل ، ولهذا أخبر بشأن النبـي ﷺ والبشـارة به ، إلى غير ذلـك ممـا أفسده أهـل التبديل وكذبوا على الله وعلى الناس . وأما زيد : فتدل الروايات على أنه هدي إلى اتباع ملة إبراهيم وإسماعيل ولكنه توفي قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام .

هذا: وحاجة التبيين على نطاق واسع لهذه النقطة المهمة وأثرها فيما تزدان به مشاهد القيامة مما أعد لخديجة مـن العطاء ، لنا عودة إلى هذا الحديث إن شاء الله وصلى الله وسلم على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمـد بن عبدالله ورضي الله عن أزواجه الطيبات الطاهرات أمهات المؤمنين .

لا يخزيك الله أبداً

أن تكـون خـديجة رضي الله عنهـا، زوجَ النبي ﷺ أيـام كـان يخلـو في حِـراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد ـ كما جاء في الحديث ـ وقد تزوّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتـزود لمثلها .. عنـوان خيرية ، يـوحي بـاطمئنانها إلى مـا كان يصنـع صلوات الله وسلامه عليه .

أن يعود إليها حين يفجؤه الوحي ترجف بوادره ، فيخبرها بما جرى له، إخبار الواثـق بعقلها وقدرتها على الحوار في شـأن الحادث الجلل ، مفصحـاً عما جال في خاطره .

أن تستدل ـ فور الإخبـار بما حدث له ـ بأخلاقـه السمحة الكريمة ، على أن الله لن يخزيه أبداً ، ثم تـرى أن يذهب وتذهب معه إلى ابن عمها ورقـة بن نوفل، الذي كان بتوحيـده ومعرفته بالانجيل قبل التحريف والتبـديل ، أهلاً للمشورة فيما حصل ... كل أولئك من المعالم المشرقة التـي تضع أيدينا على حقيقة أن هذه السيدة الكريمة بنت خويلد ، كانت في المنزلة السامية ـ التي لا تجارى ـ في بنات جنسها يومذاك ، وأنه كان من حكمة الله وجميل صنعه ، أن قضاها واختارها ـ وهو أعلم بما يقضي ويختار ــ زوجاً للنبيﷺ في تلك المرحلة مـن مراحل حياتـه ـ وقد أعدَّه لحمـل الرسـالة الخاتمة والله أعلـم حيث يجعل رسـالته ــ فواجهـت المرحلة بكفاية منقطعة النظير ، وأصبحت ـ بحق ـ تلك المرأة العظيمة التي يزينها ذلك السمـو ـ ؛ عقـلاً وحصانة واستنارة بصيرة ـ كفـاء ما يوجب واقـع تلك المرحلة، فشدت من أزر النبيﷺ ، وكان في ذلك ما فيه من خير للبشرية جمعاء .

والحقيقة المستنيرة هذه: تتبدى شذرات ضيائها ــ أول ما تتبدى ـ في حديث بدء الـوحي الـذي أوردته مـن رواية الإمـام البخاري التـي سلفت مـن قريـب.

والحاجة إلى الاستنارة بتلك الشذرات، تدعو بداهة إلى اصطحاب هذا الحديث مرة أخرى ، ومن المفيد حقاً ، أن أورده برواية الإمام مسلم التي جاءت بنحو رواية البخاري ـ على اختلاف في بعض الألفاظ والعبارات ـ ربما أعان على المزيد من تجلية المعنى المراد ، وأسعف في تلمس بعض من تلكم الآفاق المضيئة في حياة أم المؤمنين رضي الله عنها . وهي آفاق تدل بالغ الدلالة ـ كما ذكرت آنفاً ـ على أنه، مع الفضل الإلهي الذي لا ينكره إلا جاحد ، فإنها ـ رضي الله عنها ـ قدّمت في دار العمل ، ما وجدت مثوبته في دار الجزاء ، بيتاً في جنة عدن من قصب اللؤلؤ لا نصب فيه ولا وصب، وهو بيتٌ مشهده أنعم به من مشهد يوم اللقاء . وسبحان من عطاؤه هو العطاء ﴿ **وما كان عطاء ربك محظوراً** ﴾.

ففي باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ أخرج رحمه الله في صحيحه عن عروة ابن الزبير « أن عائشة زوج النبيﷺ أخبرته أنها قالت : كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حِراء يتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ، قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزدود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الحق وهو في غار حِراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ : قلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال: ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب الرَّوع ، ثم قال لخديجة : أي خديجة مالي، وأخبرها الخبر . قال : لقد خشيت على نفسي . قالت له خديجة : كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً ، والله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ ،

وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبري ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت له خديجة : أي عم ! اسمع من ابن أخيك . قال ورقة بن نوفل : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى عليه السلام. ياليتني فيها جذعاً ، ياليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ، قال رسول الله ﷺ : أو مخرجيَّ هم ؟ قال ورقة : نعم! لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً » .

يلاحظ هنا أن الرواية عند مسلم جاءت على ذكر خمس آيات من سورة العلق حيث انتهت بقوله تعالى : ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ بينما جاءت رواية البخاري في كتاب بدء الوحي على ثلاث فقط حيث ختمت بقوله جل شأنه : ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾ والخطب يسير .

البوادر : جمع بادرة وهي اللحمة التي بين المنكب والعنق ، تضطرب عند فزع الإنسان .

وسبحان من خاطب نبيهﷺ بقوله : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ وقول خديجة رضي الله عنها ، وهي تعدد بعض أخلاق النبي ﷺ : «وتحمل الكل» أصل الكلِّ : الثقل ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وهو كَلٌّ على مولاه ﴾ ولايدخل في حمل الكل: الإنفاق على اليتيم والضعيف ، والعيال ونحو ذلك . وهو من الكلال بمعنى الإعياء . أما قولها : « وتكسب المعدوم » فقد قال أبو العباس ثعلب وأبوسليمان الخطابي وجماعات من أهل اللغة : بجواز ضم التاء « تُكسب» وفتحها « تكسب» فهما لغتان إذ يقال : كسبتُ الرجل مالاً وأكسبته مالاً بمعنى واحد . وأفصحهما باتفاقهم «كسبته بحذف الألف». والمراد بالناموس في كلام ورقة: جبريل عليه السلام ، وهو في أصل اللغة صاحب السر ، كما جزم به البخاري في أحاديث الأنبياء من الجامع الصحيح : وصلة الحديث الموعد إن شاء الله .

الرحمة بين المعرضين والعتقاء

مرّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بإحدى المقابر فقال : « السلام عليك أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات. أنتم لنا سلف فارط ، ونحن لكم تبع ، وبكم عما قليل لاحقون . اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم . الحمدلله الذي جعل الأرض كفاتاً أحياءً أمواتاً، والحمد لله الذي خلقكم وعليها يحشركم ، وطوبى لمن ذكر المعاد ، وأعدّ للحساب ، وقنع بالكفاف » .

كفاتاً : أي تكفت الناس: تحفظهم أحياءعلى ظهرها في دورهم،وأمواتاً في بطنها.

فعنوان اليقظة والبعد عن الغفلة عند المؤمن : أن لا تستغرقه هذه الدار الفانية، فتلهيَه عن ذكر المعاد والدار الباقية ، وأن يكون تذكرة لما بعد الموت ، وما يحصل من سؤال القبر ثم الحشر والنشر ، ومشاهد القيامة ، وما تحمل تلك المشاهد من العبر والعظات : حافزاً قوياً على عمل الصالحات ، والتوبة النصوح من الزلات والمخالفات ، والمسارعة إلى مغفرة من الله تعالى ، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمؤمنين الذين يعملون الصالحات .

أما السلوك المجافي لتلك اليقظة المباركة : ركوناً إلى دار الغرور ، وإدباراً عن الإنابة إلى دار الخلود : فتلكم الطامة التي تقود صاحبها إلى المهالك ، وتجعله في زمرة من يحرمون الأمن يوم الخوف ، إذ القلوب لدى الحناجر في يوم شديد الكرب ، منذر للغافلين بسوء المصير .

ولقد نعى الله على أقوام يصدون عن سبيل الله في الدنيا ، وينسون الله واليوم الآخر ، فلا تتحرك قلوبهم لأخبار الهول يوم الوعيد ، ولا تجود أعينهم بدمع

خاشعة في سجدة ذِلَّةٍ بين يدي جبار السماوات والأرض ، ولا يذكرون قوله جلت عظمته : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ حتى إذا جاء يوم الحشر الأكبر ، غشيتهم ظلمات الضلال في الدنيا ، وأرداهم وهن الغفلة ، فانقلبوا على أعقابهم خاسرين .. لقد ساء مصيرهم بما كسبوا من السيئات في الدنيا ، وبما نسوا يوم الحساب ، وتراهم ــ وقد أحيط بهم ،وأدركوا حقاً ما كانوا عنه غافلين ، يتمنون ـ وياللخزي ـ حين يرون العذاب ، لو يردون إلى الدنيا، ليعملوا غير الذي عملوا، فيسلكوا طريق الهداية الذي جفوه أشد الجفوة ، وناصبوا أهله أشد العداء ﴿ **ولو ترى إذ وُقِفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذِّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانون يخفون من قبل ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون**﴾.

إنها الأهوال التي لا ينجيهم منها هـذا التمني الكاذب ! فقد خسروا أنفسهم بما غرقوا فيه من اللهو واللعب ، والصدِّ عـن سبيل الله، والإعراض عن كل طريق توصل إلى الجنـة ، وتباعد من النـار ، وتجعلهم في مأمن يـوم الخوف الأكبر حيث يجمع الله الخلائق للحساب ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله يوم يـأتي تأويله يقول الذين نسوه مـن قبل قد جاءت رسـل ربنا بالحق فهل لنـا من شفعاء فيشفعوا لنـا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾.

أجل قد خسروا أنفسهـم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، تـرى كم هم في حمأة الغواية غارقون ، ولما يكون يوم القيامة ناسون !؟ كل هذا مع رحمة الله الواسعة التي لو كانوا أهلاً لها ، لـوسعهم ما يسع غيرهم من أهل الشفاعـة والرحمة ، فقد كتب سبحانه على نفسـه الرحمة تفضلاً منه وإحسـاناً ، وقد غلبت رحمتـه غضبه ؛ روى أحمد والبخاري ومسلم عـن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال : «لما قضى الله الخلق كتب في كتـابه فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتـي غلبت غضبي» وأخرج ابن مـردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قـال : قال رسول الله ﷺ : «إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش ، إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضـة أو قبضتين ، فيخرج من النار خلقاً لم

يعملوا خيراً ، مكتوب بين أعينهم: عتقاء الله » وروى عبدالرزاق في «المصنف» عن سلمان في قوله تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ قال إنا نجد في التوراة عطفتين : أن الله خلق السماوات والأرض ، وخلق مائة رحمة ـ أو جعل مائة رحمة ـ قبل أن يخلق الخلق ، فوضع بينهم رحمة واحدة ، وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، قال : فبها يتراحمون وبها يتعاطفون ، وبها يتباذلون ، وبها يتزاورون وبها تحنُّ الناقة ، وبها تبحُّ البقرة ، وبها تثغو الشاة ، وبها تتابع الطير .. فإذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده ، ورحمته أفضل وأوسع » أرأيت كم يظلم الإنسان نفسه عندما يقسو قلبه ، فلا يتحرك لأخبار ما ، .. ولا يتأثر بما جاء في كتاب الله وبما ثبت عن الصادق المصدوق ﷺ في شأن ما يكون الفصل!!

ياحسرة على هؤلاء الذين استغرقهم الباطل، وأصابهم من وثنية الهوى وزخرف الدينا ما أصابهم ، حتى باتوا لا ينتفعون بموعظة ، لأن الران ضرب على قلوبهم بالأسداد؛ فأنَّى لهم وقد أوصدت منهم القلوب، أن تنالهم نفحات الرحمة التي جاء ذكرها في الحديث بياناً لما جاء في كتاب الله عز وجل ، وعندما يتمنى أحدهم العودة إلى الدنيا ، كي يصلح ما أفسد ـ على زعمه ـ ترتد أمنيته إلى فيه ، لما يعلم الله من أن ما يتمناه ،عبث من العبث ، ولعقة على لسانه من لغو الكلام .

وإلى جانب ما سبق : هذه صورة أخرى في كتاب الله تؤكد هذه الحقيقة ، ذلكم قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ .

هذا : وحديث الرحمة ، التي يسير هؤلاء في غير الطريق الموصلة إليها ، والذي رأيناه موقوفاً على سلمان عند عبدالرزاق في مصنفه ، نجد نحوه مرفوعاً أيضاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام . أخرج مسلم بسنده عن ابن شهاب أن سعيد بن المسيَّب أخبره أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ؛

فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » وله من رواية أخرى « إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوامّ، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها ، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ».

ولمسلم أيضاً من رواية سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن لله مائة رحمة ؛ منها رحمة بها يتراحَم الخلق بينهم وتسع وتسعون يوم القيامة » . وأخرج نحوه أحمد وابن ماجة .

اللهم اجعلنا ممن تنالهم رحمتك فيأمنون يوم الخوف ، ويدخلون الجنة بغير حساب .

طريق الجنة.. وطريق النار

كان من رحمة الله بهذه الأمة المحمدية أنه ـ سبحـانه وتعالى ـ أضاء لها بكتابه العزيز وبيـانه من سنة المصطفى عليـه الصلاة والسلام طرائق سيرهـا من خلال الإيمان بالله واليوم الآخر .

ورأينا في ذلـك توازنـاً وتكاملاً لا مثيـل لهما ؛ ففي الوقـت الذي تطفـح فيه النصوص بالكلام على ما يكون بعد الموت ، وعلى مشـاهد القيامة وما يثقلها من العظائم والأهـوال ، وعما ينبغي للمؤمـن فعله ، كيما يكـون على الجادة ، فيحسن مصيره يوم التغـابن ، ويحشر في زمـرة أولئك الـذين سبقـت لهم من الله الحسنـى ، وبشرهم جل ثناؤه بأنهم **﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾**... في الوقت الذي تشرق فيه تلـك النصوص بذلك ، نجد النصوص الكثيرة الوفيرة في الكتاب الكريم ، وفي الحديـث الشريف، التي تزخر بالهداية إلى الطـريق الموصلة ـ بإذن الله ـــ إلى دار المقامة والخلود ، والمزحـزحة عن نار السعير ـ وهي طريق إن سلكها المؤمن صادق الوجهة ، مخلص النية ، فاز عند الله بالحسنـى ، وكان مـن أهل النعيم المقيـم الذين قـال جل ثنـاؤه فيهم : **﴿ إن المتقين في مقام أمين . في جنّات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلـك وزوجناهم بحور عين . يـدعون فيها بكـل فاكهة آمنين . لا يذوقـون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقـاهم عذاب الجحيم . فضـلاً من ربك ذلك هـو الفوز العظيم﴾**.

ومفتاح ذلك ـ على تنوع موارده وأساليبه ـ تقوى الله ـ بمعناها الدقيق الشامل كما جاء في الكتاب والسنة ـ في مختلف الشؤون ، والسلوك الذي تحكمه ضوابط المنهج الرباني في تربية المسلم وإعداده .

والمهم قبل كل شيء : صدق الوجهة ، والحرص على سلامة المآل يوم الدين ؛ فذلك باب عريض من أبواب الخير إذا ولجه المؤمن ، اهتدى ـ بفضل الله ـ إلى مرابع النجاة من النار والفوز بالجنة ، وأخذ حظه في مشهد أهل النعيم ، يوم يغمرهم نور الإحسان الإلهي على رؤوس الأشهاد . عقد الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً عنوانه « باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » ثم قال : حدثنا موسى بن مسعود قال : حدثنا سفيان عن منصور والأعمش عن أبي وائل عن عبدالله رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك » .

الشراك : أحد سيور النعل التي تكون في وجهه ويختل المشي بفقده .

ولا يخفى أن الرسول ﷺ قد بلغ الغاية في هذا الحديث؛ إذ هو من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام في بيان هذه الحقيقة ، حقيقة قرب كل من الجنة والنار من الإنسان ، واستخدم وهو سيد البلغاء ـ صورة واقعية جد قريبة من الناس في تحركهم « أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » موضحاً ببساطة ويسر ، أن أقرب طريق إلى الجنة الطاعة ، وأقرب طريق الى النار المعصية ، والسعيد من عقل عن الله ورسوله فاهتدى .

هكذا تعلمنا هذه الكلمات الجوامع أن الطاعة ـ كما يقول ابن بطال ـ موصلة إلى الجنة وأن المعصية مقربة إلى النار ، وأن كلاً من الطاعة والمعصية قد تكون في أيسر الأشياء .

وما دام الأمر كذلك ، فينبغي للمرء أن لايزهد في قليل من الخير أن يأتيه ، ولا في قليل من الشر أن يجتنبه ؛ فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها ، ولا السيئة التي يسخط عليه بها .

والذي اتجه إليه الإمام ابن الجوزي في معنى الحديث: «أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد ، وفعل الطاعة ، والنار كذلك، بموافقة الهوى وفعل المعصية» .

ومما يؤكد هذه الحقيقة التي يتنـاولها العلماء بالبيان من خلال الهدى النبوي ، ما أخـرج البخاري في كتاب الـرقاق من الجامع الصحيـح أيضاً ، عن أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : « إن العبد ليتكلم بالكلمـة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً ، يـرفعه الله بها درجات . وإن العبد ليتكلم بالكلمـة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم» .

إن هذا التوجيه المبـارك ـ كما يحفز الهمم ويثير العزائم ـ يـدعو إلى الكثير من الحيطة والحذر . ولكـن إذا سلمت البداية على الـوجه المشروع، تساوقاً مـع هدي المصطفى عليه الصـلاة والسلام ،وإخلاصاً لله تبارك وتعـالى : فحدث ولا حرج، عما يكـون مـن طيـب الثمـرات في العاجلـة والآجلـة إن شـاء الله . روى الإمـام البخاري بسنده عن عمرو بن جرير قـال : سمعت أباهريرة عن النبي ﷺ قال : « انتدب الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال مـن أجر أو غنيمة ، أو أدخلـه الجنة ، ولـولا أن أشق على أمتي مـا قعدت خلف سرية ، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا » .

يذكر المؤمن هذه البشارة العظيمـة ، لمن يخرج مجاهداً مخلص النية ، ويذكر معها أهوال يوم الفصل ، وما يكون مـن الشدائد المذهلة يوم القيامة ، فيدرك أي فضـل يتفضّل الله بـه على عبـاده المؤمنين ، بما فتـح لهم من أبـواب السعـادة في الداريـن ، وما عليهم إلا أن يكـونوا على المستوى الإيماني الـذي أراده رسول الله ﷺ ـ وهـو لا ينطق عن الهوى ـ حين زفَّ إلى الأمـة هذه البشرى الكريمـة الغنية بما فيه عز الدنيا ووجود الأمة الحقيقي ، والفوز بالجنة في الآخرة .

وجميل صنيـع الإمام البخاري مـن إيراد هذا الحديـث تحت باب ترجـم له بقوله « الجهاد من الإيمان » في كتاب الإيمان مـن الجامع : وبمزيد من التفصيل ، روى الإمام مسلم عـن عُمارة وهو ابن القعقاع عن أبي زرعة عـن أبي هريرة رضي الله عنه قـال : قال رسـول الله ﷺ: « تضمَّن الله لمن خـرج في سبيله لا يخرجـه إلا

جهاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديقاً برسلي فهو عليَّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفسي محمد بيده ما من كَلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم، لونُه لون دم وريحه ريح مسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً. ولكن لا أجدُ سعةً فأحملهم ولا يجدون سعةً ويشق عليهم أن يتخلفوا عني. والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل». هكذا جاءت الرواية هنا بلفظ «تضمّن» كما رأينا عند البخاري «انتدب»، وفي رواية للبخاري وأخرى لمسلم ـ كما سيأتي ـ «تكفّل الله» والمعنى ـ كما يقول الإمام النووي ـ أوجب الله تعالى الجنة بفضله وكرمه سبحانه وهذا الضمان ـ أو الكفالة ـ موافق لقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ..﴾ الآية وعبارة «إلا جهاداً في سبيلي» هكذا جاءت ـ كما يقول العلماء في جميع النسخ «جهاداً» بالنصب، ولذا قال بعده: «وإيماناً وتصديقاً». وهو منصوب كما يقول النووي ـ على أنه مفعول له، وتقديره لا يخرجه المخرج ولا يحركه المحرك إلا للجهاد والتصديق، فهو لا يخرجه إلا محضُ الإيمان والإخلاص لله تعالى. وبه جاءت الرواية عند البخاري ـ كما رأينا ـ رواية أخرى لمسلم، ولعله الأصوب؛ فقد روى رحمه الله بسنده عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «تكفّل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا جهاد في سبيله، وتصديق كلمته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة».

صلى الله وسلم على البشير النذير محمد رسول الله، وهنيئاً للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وهنالك يأمنون يوم الخوف في عرصات القيامة، ويفوزون بالزحزحة عن النار ودخول الجنة في زمرة أهل التقوى والمجاهدين في سبيل الله مخلصين مصدقين.

إن عذاب ربك لواقع

مباركة ميمونة الأثر ، غزيرة النفع ، مشرقة بالهدي النبوي ، تلك الأخبار التي حملتها إلينا دواوين الحديث النبوي الشريف عن الرسول المصطفى ﷺ المبين عن الله ما أراد في شأن ما يكون بعد الموت ، ويوم تقوم الساعة ، وما تنذر به القارعة من مشاهد تزرع الهلع وخوف المآل بعد ذلك ، لأنه ليس بعد الدنيا دار ـ كما جاء في صادق الخبر ـ إلا الجنة أو النار . ﴿ فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى﴾ .

من هنا كانت تلك الأخبار ـ بما تقدم من ألوان المعرفة بذلك كله ، في بيان لما جاء في القرآن الكريم ـ عاملاً من أهم العوامل في إذكاء روح العمل الصالح ، والإعداد لما بعد الموت ، وما يجري في عرصات القيامة إذ الفزع مطبق ، كفاء ما يكون عليه حال الخلائق ، وقد دنت الشمس من رؤوسهم ، وأحاطت بهم المخاطر ، ولا يجد المرء إلا ما قدم ، والأمر يومئذ لله .

وهكذا : فالمعرفة بأخبار الآخرة ، وما تفيض به ساعات الحشر من مشاهد ، ليست من باب الترف الثقافي في جمع المعلومات ، ولكنها ـ بالنسبة للمؤمن ـ بريد المسؤولية ، وحسن النظر في العواقب وإحكام الخطة ـ بعد الاستعانة بالله ـ في قدر العمل للدار الباقية حق قدره ، وفي خوف من الجحيم ، التي لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى ، خوفاً يبعث الهمة ولا يوقع في اليأس ، والرجاء بدخول الجنة التي حفت بالمكاره ، وطريقها حزن بربوة ، والتي أعدها الله لأهل التقوى من عباده ، رجاءً لا يبعث على التواني والتقصير في جنب الله .

والحق أنه لا ينفع القلب شيء ـ بعد سلامة الاستمساك بالكتاب والسنة ـ

مثل شوق مقلـق إلى جنة عدن وما فيها من الإكـرام الإلهي لأولي النهى ، حيث لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون ، ومثل خوف مزعج من نـار كلما نضجت جلـود أصحابها ، بـدّلهم الله جلوداً غيرهـا ليذوقـوا العذاب الذي يذكّر بـه قوله تعالى :﴿ **إن شجـرة الزقـوم . طعام الأثيـم . كالمهـل يغلي في البطون كغلي الحميم**﴾ هـذا مع يقين أن دخـول الجنة مظهـر من مظـاهر الـرحمة والرضا، ودخـول النار مظهر من مظـاهر غضب الله ، والحرمان الـذي ليس بعده حرمان .

وعلى مر التاريخ ، تجد عباد الرحمن ينتفعون الانتفاع المصحوب بالطمأنينة ، لصلاح آخـرتهم ، عندما ينظرون فيما ورد في كتـاب الله وسنة رسوله عليـه الصلاة والسلام من تلكم الأخبار والحقائق التي نوميء إليها ، ويتفاعلون معها تفاعلاً ، يرتفـع بهم عن حمأة الغفلـة والخوض مع الخائضين ، ويسمـو بهممهم إلى حيـث الطاعة والتقـوى ، ومحاسبة النفس ومراقبة الله تعـالى في كل صغيرة وكبيرة ، حتى كأنهم يرون أمور الآخـرة تُظِلُّ خطاهـم في كل حين ، ويعيشون مشـاهد القيامة في هذه الدار ، لما أنه قد جاء بذلك الخبر الصادق والحمد لله . ولقد كان من ثمرات هـذا السلوك عنـد السلف الصـالح ومـن سار على نهجهـم ، سلامـة بنية الفـرد وسلوكه ، وانتظـام أمر المجتمع في كل زمـان يتحقق فيه ذلك المنهـج ؛ خشيةً لله بالغيب، وإيثاراً للباقية على الفانية .

وهل ينـازع منازع في شديد الحاجـة اليوم إلى هذا المنهج المستنير ، وقـد شط بـالأمة النـوى عن حقـائق الديـن ، وطـال الأمد وقسـت القلوب في الكثير مـن البقـاع، وزيــن الشيطـان لضعفـــاء اليقين ، أن الحرص على إبـراز الترابـــط بين المسؤولية في دار العمـل ، والجزاء في دار الجزاء ، من نافلة القـول وسقط المتاع !! والغفلةُ القاتلة يزداد سلطانها عن طريق المادة والغزو الفكري يوماً بعد يوم ؟

وإذا كان الأمـر كذلـك ، فلابـد من النظـر في بعض المواقـف التي تعين في

إعطاء أخبار القيامة مكانها على ساحة التأثير والتأثر ، والفاعلية والانفعال ، كيما تكون المعرفة ـ بحق ـ بريد القيام بالمسؤولية ، والعمل المجدي ليوم الحساب ، يوم تبلى السرائر ، ويتذكر الإنسان ما سعى .. هـذا عمر رضي الله عنه وأرضاه ـ وهو من هو ، حزماً في إنفاذ شريعة الله ، وقوة في داخـل الدولة الإسلامية وخارجها ، وتحقيقاً لـوجود الإنسان المسلـم ـ ينصدع قلبه عنـد ما يـسمع تـالياً يتلو فـواتح سورة الطور وهي قوله تعالى : ﴿ **والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحـر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . مـاله من دافع** ﴾ إذ جاء تـأكيد هـذه الحقيقة حقيقـة أن العذاب واقـع بالكفـار لا محالة، بالقسـم وبأنَّ والـلام ؛ أجل ينصدع قلبـه ويمرض شهراً أو عشريـن يومـاً يعوده الناس فيها . وقـد أورد الحافظ ابن كثير في تفسيره ما أخـرج أبوبكر بن أبي الـدنيا بسنده عن جعفر بن زيد العبدى أنه قال : «خرج عمر رضي الله عنه يعسُّ المدينة ذات ليلـة ، فمر بـدار رجـل من المسلمين، فـوافقه قـائماً يصلي، فـوقف يـستمـع قراءته، فقرأ ﴿ **والطور** ﴾ حتى بلغ ﴿ **إن عذاب ربـك لواقع . مـا له مـن دافع** ﴾ قال: قسم ـ ورب الكعبة ـ حق ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط ، فمكث ملياً ، ثم رجع إلى منزله فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه ».

وهنالـك بعض الـروايات التـي تنص على أنـه هو رضي الله عنـه الذي قـرأ الآيات، وحصل له مـا حصل من التأثر العميق بهذه الحقيقـة القرآنية ، في شأن العذاب الذي سيلحق بالكفار ، والانفعـال الصادق بها ، إذ خاف صادقاً على نفسه ـ وهو خليفة المسلمين ـ ماذا سيكون المصير يوم العرض على الله ؟ ذلكم ما أخرج أبـوعبيد القـاسم بن سـلام المتوفى سنة ٢٢٤هــ في « فضائل القـرآن » عن الحسن أن عمر بـن الخطاب قرأ ﴿ **إن عذاب ربك لواقع** ﴾ فربا لها ربوة عيد لها عشرين يـوماً . وأورده الحافظ بـن كثير في تفسيره والسيوطي في الـدر المنثور . وفي الدر المنثور أيضاً ، أخـرج أحمد في الزهد عن مالك بن مِغْوَل أنـه قال: «قرأ عمر ﴿ **والطور . وكتاب مسطور . في رقٍ منشور** ﴾، قال: قسم ، إلى قوله : ﴿ **إن عذاب**

ربك لواقع . ما له من دافع ﴾ فبكى ثم بكى حتى عيد من وجعه ذلك ».

لقد ارتاع الخليفة الراشد الذي كانت الآخرة ـ وهو على كرسي الخلافة ـ نصب عينيه، خشية أن تزلّ قدمه ـ وهو يحمل المسؤوليات الكبار ـ فيكون ممن يمسّهم سوط العذاب يوم المساءلة بين يدي من يعلم السر وأخفى . ارتاع رضي الله عنه عند تلاوته أو سماعه حقيقة ﴿إن عذاب ربك لواقع ﴾ إنه قسم من الله عز وجل مصحوب بالتأكيد ؛ فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾ مقسماً على ذلك مؤكداً له ، وذلك يوم القيامة ، ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ﴾ . وما لهذا العذاب الواقع بالكافرين من دافع يدفعه، إذا أراد الله لهم ذلك ، أو ينقذهم منه إذا وقع . ولك أن تذهب بذهنك كل مذهب في الربط بين استقامة عمر وحزم عمر ، و إنفاذ شريعة الله على الجميع ـ دون محاباة من عمر ـ وما كان للمسلمين ودولة الإسلام من سطوة مباركة في عهده، لك أن تذهب في ذهنك كل مذهب في الربط بين ذلك كله ـ وهو بعض ما يجب أن يقال ـ وبين هذا التأثر بالقرآن ، وخوفه ـ أجزل الله مثوبته وأعلى مقامه في الآخرين ـ من سوء العاقبة يوم الدين ، نتيجة ما حمل من أمانة الحكم وسياسة الرعية بالإسلام .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وأحمد عن جبير بن مطعم قال : قدمت المدينة في أسارى بدر على رسول الله ﷺ ، فوقفت إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب ، فسمعته يقرأ « إن عذاب ربك لواقع» فكأنما صدع قلبي . وجبير رضي الله عنه كان ـ في هذه الواقعة ـ ما يزال على غير دين الإسلام ، وقدم على رسول الله ﷺ في فداء أسارى بدر ، لما كان له من المكانة العظيمة عند قومه ، إذ كان من أكابر قريش وعلماء النسب فيها .

ويبدو أن سماعه لتلكم الكلمات المباركات من الذكر الحكيم ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ فتح قلبه للحقيقة والتطلع إليها . قال الحافظ ابن حجر في

«الإصابة» وقـدم على النبيﷺ ـ يعني جبيراً ــ في فداء أسارى بدر ، فسمعـه يقرأ الطور ، قال: فكـان ذلك أول ما دخل الإيمان في قلبـي . روى ذلك البخاري في الصحيح ، وقـال له النبـيﷺ : « لو كان أبـوك حياً وكلمني فيهـم لوهبتهـم له» وأسلم ابن جبير رضي الله عنه بين الحديبية والفتح ، وقيل في الفتح .

إنها أمانة المعرفة : أن تكون حافز اليقظة والبعد عن الغفلة في دار الفناء.

وفي الأخبار الصادقة عما يكون يوم الحسـاب ، ما يكفي لأن يتجاوز المؤمن كل ما يقعده عن طلب الآخرة ،والعمل ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

حين يعمل القرآن عمله في القلب

تقودنا متابعة الكلام على مشاهد القيامة ، إلى استذكار أن الذين يطمعون أن يجعلهم الله من ورثة جنة النعيم، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون .. طريقهم إلى ذلك ـ بعد الاستعانة بالله عز وجل ـ حسن تمثلهم لحقيقة أن العلم بأخبار ما بعد الموت ، وما يكون بعد النفخ في الصور والحشر ، والحال التي يكون عليها العباد وهم يترقبون ساعة المساءلة والحساب ، لا يجوز أن يكون نصيبه من حياة المؤمن أن يتخذ لوناً من ألوان الترف الثقافي نزيد به المعلومات بعيداً عن المجاهدة والعمل ، بل يفترض أن يكون هذا العلم، باباً عريضاً ينفذ بصاحبه إلى الشعور الإيماني بمسؤولية العبد في الآجلة، عما كسب في العاجلة ، والتأثر الصادق رغباً ورهباً ـ كما أسلفت غير مرة ـ خوفاً ورجاءً ، وأخذ النفس بجدية المسارعة إلى البر ، والمحاسبة الواعية كيما تستقيم على سواء الصراط ، و يكون صاحبها من أبناء الآخرة الذين ترقى بهم عزائمهم إلى حيث يكونون ـ بصبرهم على لأواء الطريق ـ في عداد أولئك الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وفازوا بجنة تجري من تحتها الأنهار جزاء بما كانوا يعملون .

ولنا في صنيع السلف الذين قام سلوكهم ـ وهم يأخذون بهذا الدين ـ على التأسي برسول الله عليه الصلاة والسلام ، وانعكس ذلك على حياة الفرد بخاصة، وعلى المجتمع المسلم بعامة ... لنا في صنيعهم ما يوقظ من الغفلة . ويشد الأزر ، ويسعف ـ بعون الله ـ في الدأب على طريق الصالحين . وإذا استقام أمر المؤمن على هذا ، قطع الرحلة إلى الآخرة ، ومشاهد القيامة أمام ناظريه تدفعه إلى صالح العمل ، وتذكره إذا غفل . لأن يقظة القلب مدعاة إلى التأثر الفاعل بكلمات الله في كتابه العزيز ، وبيان رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام ، الأمر الذي لا يُحَدُّ نفعه على طريق العمل الأخروي .

ومن شواهد الصدق على ذلك، ما سلف من شديد تأثر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله تعالى : **﴿ إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع ﴾** وما أكثر الشواهد في حياة السلف عليهم الرحمة والرضوان ، والجنة مفتحة الأبواب لمن طلبها بإيمان وصدق وصبر **﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾** . روى الطبراني من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحى عن مسروق أن تميماً الداري رضي الله عنه ، قام ليلة حتى أصبح . يردد هذه الآية **﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾** .

إن من مشاهد القيامة في الآخرة، ما يكون في خاتمة المطاف من تميز بين الذين اجترحوا السيئات، عملوها وكسبوها ، وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأين هؤلاء من أولئك ؟ وهل يستقيم في ميزان العقل السليم أن يسوّى الخبيث بالطيب ؟ أفمن كان على بينة من ربه ، وأخذ نفسه بالتزام الهداية ، كمن عميت بصيرته وأسلم نفسه للهوى وللشيطان ؟ إن من عدل الله أن لا يساوي في الآخرة وكذلك في الدنيا ، بين الذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وسوف يشهد العباد يوم القيامة ذلك ــ وهذا ما استوقف تميماً رضي الله عنه ، فقام ليلة يردد الآية في صلاته حتى أصبح ، ويروى أنه كان يرددها ويبكي ! أرأيت إلى هذا التبدل الذي صنعه الإيمان باليوم الآخر في النفوس !! جاء في كتاب «الداء والدواء» لابن القيم رحمه الله « وقرأ تميم الداري ليلة سورة الجاثية ، فلما أتى على هذه الآية **﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾** جعل يرددها ويبكي حتى أصبح ».

ولعلي لا أعدو الحقيقة ، إذا ذهبت إلى أن هذا التأثر بتلكم الكلمات الربانية الهادية، يشعر بأن المشهد ماثل أمام الصحابي الجليل ـ والله أعلم ــ كالذي رأينا عند عمر رضي الله عنهما ، فهو يخاف على نفسه أن تزل به القدم ، فيكون مثل

أولئك الفجار الذين تمرغوا في أوحال الضلالة في الدنيا ، وأين هم ـ وقد اجترحوا السيئات ـ من أولئك الأبرار الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وعمر ـ رضي الله عن عمر ـ ألم يمرضه الروع حين قرأ أو حين سمع تالياً يتلو في صلاته ﴿ **إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع** ﴾ وكأنه قد أحيط به يوم القيامة فهو خائف أن يكون من أهل الجحيم؟ .

والحق أن من أعظم نعم الله على العبد ، أن يكون التفاعل قائماً بينه وبين آي الكتاب وأحاديث النبي ﷺ التي أوفت على الغاية في تبيان ما تحفل به مشاهد القيامة من نُذُر ، وما يؤول إليه أمر العباد ؛ فهؤلاء زُمر إلى جنة لهم فيها نعيم مقيم، وأولئك زمر إلى جهنم وبئس المهاد . من أجل هذا كان الواحد من أصحاب رسول الله ﷺ يخاف على نفسه أن تكون بينه، وبين ما جاء من أخبار المساءلة يوم القيامة ، جفوة تباعد بينه وبين العمل بما علم ، والاستعداد ليوم الحساب ، قبل أن يدعوه داعي ربه الموت . روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : « إنما أخشى على نفسي أن يقال لي يوم القيامة : ياعويمر هل علمت؟ فأقول : نعم ، فيقال: ماذا عملت فيما علمت ؟» وفي رواية أخرى : «أخوف ما أخاف أن يقال لي يوم القيامة : أعلمت أم جهلت ؟ فإن قلت: علمت، لا تبقى آية آمرة أو زاجرة إلا أخذت بفريضتها : الآمرة هل ائتمرت ، والزاجرة هل ازدجرت ، فأعوذ بالله من علم لا ينفع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع » .

وهذا الذي أخذ به نفسه رضي الله عنه من الحرص على العمل بما تهدي إليه الآية الكريمة في كل ما هو من أمرها ، أوزجرها ، ومن الحزم في كل ما يتعلق بأمور الآخرة بخاصة ، وأن يكون ما ينتظر العباد يوم الفصل منه بحسبان . قد كان أميناً في جعل النصح به إلى الآخرين وإيصائهم به ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . فقد روى الإمام أحمد عن حبيب بن عبيد أن رجلاً أتى أبا الدرداء فقال : أوصني فقال له : « اذكر الله عز وجل في السراء يذكرك في الضراء . فإذا أشرفت على شيء من

الدنيا فانظر إلى ماذا يصير » إنه يصير إلى فناء ، والذي يحتسب في ميزان العبد ثقلاً يوم القيامة ، ما أعدّ لذلك اليوم ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لوكانوا يعلمون ﴾.

وفي وصية من وصايا أبي الدرداء رضي الله عنه لأهل دمشق يقول : « مالي أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكم لا يتعلمون !! وأراكم أقبلتم على ما تكفل لكم به ، وتركتم ما أمرتم به . ألا إن قوماً بنوا شديداً ، وجمعوا كثيراً ، وأملوا بعيداً . فأصبح بنياهم قبوراً ، وأملهم غروراً ، وجمعهم بوراً . ألا فتعلموا وعلّموا ، فإن العالم والمتعلم في الأجر سواء » .

وتذكيراً بما لابد من مداومة التذكير به ، وهو ما يكون بعد الموت ، ويوم تقوم الساعة ويحشر الناس على هيئاتهم يوم ولدوا حفاة غرلاً ، كان رضي الله عنه يقول: « لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت ، لما أكلتم طعاماً على شهوة ، ولا شربتم شراباً على شهوة ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ، ولخرجتم إلى الصعد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ، ولوددت أني شجرة تعضدثم تؤكل» .

والذي ينبغي التنبه إليه ، ووضعه موضعه من بناء الحياة الإسلامية المتكاملة وفق المنهج الرباني ؛ أن هذا التفاعل مع دلالات النصوص المشرقة بكليات ما يحصل يوم القيامة وجزئياته ، والإحاطة بتلك المشاهد العظام ، ما كان ليصرف الصحابة ـ وهم يحملون دين الله إلى الناس كما شاء الرسول عليه الصلاة والسلام ـ عن ممارسة شؤون الحياة على الوجه الأكمل ، وخوض معارك التحدي لتكون كلمة الله هي العليا ، ولكنه وقفهم على الجادة في أن يأخذوا بالأسباب المستطاعة في عمارة الأرض وبناء الحضارة ، وأن يكون وجوب التطلع إلى المصير في الآخرة، والانتفاع بما تعطي مشاهد القيامة من عبر ودروس: بحسبان ، فلا يتقاصرون عن الأخذ بأسباب الحياة وإعداد القوة ، وفي الوقت نفسه لا تلهيهم العاجلة عن الآجلة ، ولا يغفلون عما يلزم العمل الأخروي من صبر وإخلاص . بل تراهم

يديمون الاجتهاد في تـزكية نفوسهم ، وجلاء قلوبهم، كيما يكون ذلـك كله ـ بعون الله ـ سبيلاً إلى النجاة يوم لا يجد العباد من دون الله من ولي ولا نصير .

وما أحوج المسلمين اليـوم إلى هذا المنهج القويم ، يترسمون خطـا أصحابه ، ويعملون به جادين على صعيد الفرد والأسرة والجماعة .

والعاملون بذلـك لهم بشارة الفوز المبين ، مصداقاً للحقيقة القـرآنية التي لا معدى عنها ﴿ لا يستـوي أصحاب النـار وأصحاب الجنـة أصحـاب الجنة هـم الفائزون ﴾ .

أبناء الآخرة.. وعلو الهمة

وقائع السلوك عند الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان ، كانت ضياء في جبين السلف الصالح ، وقد أظهرت هذه الوقائع مقدار تفاعلهم القلبي والعقلي مع ما أبرزته آي الكتاب العزيز ، وبيانها من حديث سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام : من سمات يوم القيامة وأخبار مشاهده الناطقة بحقيقة الوعد والوعيد ، والبشارات والنذر ؛ وما كان من انعكاس ذلك على سلوكهم المتميّز بإدارة شؤون الحياة ، والسير على الطريق التي لا تشغلهم فيها عمارة الأرض ومطالبها؛ عن أن يكونوا من أبناء الآخرة، يتطلعون إلى النجاة من عذاب السعير ، والفوز بالنعيم الخالد الذي لا يزول ، في جنة الخلد التي وعد المتقون .

وفي حديث موصول بهذه الحقيقة ، نتابع اصطحاب بعض النصوص التي تقرر ذلك وتؤكده ، وتكشف عن التبدّل العظيم الذي كان يحدثه الهدي الرباني - آيةً كان أو حديثاً - في النفوس والقيم ، حتى باتوا - عليه الرحمة والرضوان - في خشية دائمة لله ، يرهبون المصير في يوم كان شره مستطيراً .

أخرج أبو نعيم في الحلية: « أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر ، يبكي حتى يبلَّ لحيته ، وقال : لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي ، لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير . وفي « صفة الصفوة » للإمام ابن الجوزي : أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يشتد خوفه من اثنين : طولِ الأمل واتباع الهوى . قال رضي الله عنه : « فأما طول الأمل : فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى : فيصد عن الحق . ألا و إن الدنيا قد ولَّت مدبرة ، والآخرة مقبلة ، ولكل واحدة بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ؛ فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل ».

والخوف الحقيقي من تلكم الساعات في عرصات القيامة ، وما يمكن أن يؤول إليه الأمر بعدها ، هو الذي يبعث على مضاعفةِ الجهد في مرضاة الله تعالى ﴿فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب﴾ وأخذِ النفس بالعزيمة التي ترتفع بصاحبها إلى مدارج الأبرار أهل القرب، الذين ينيلهم الله الدرجات العلى في دار البقاء . ولا يعدم المؤمن أن يجد في الهدي النبوي دائماً ما ينير الطريق إلى ذلك ؛ ترغيباً وترهيباً . من ذلك ما نجد على طريق النهج التربوي الذي كان يسلكه عليه الصلاة والسلام، في الترغيب بالجنة وشدًّ المسلمين إلى التطلع إليها ، من خلال السلوك المنضبط بضوابط التقوى ، ما بيَّن عليه الصلاة والسلام من أنها سلعة الله الغالية التي كفاء دخولها والحظوة بنعيمها الخالد : همة عالية ، وعزيمة راشدة في طاعة الكبير المتعال ، وتخطٍ لما يقع في الطريق إليها من عقبات الشهوة ، وحب العافية ، والاغترار بدار الفناء التي أوضح الكتاب الكريم أنها متاع الغرور . فعن أبي هريرة رضي الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث أبي النضر .

وأنت ترى أنه صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو سيد البلغاء ـ استعان بالواقع الذي يتفاعل الناس معه يومذاك ، من حيث الحرص على علو الهمة في طلب النجاة، عندما تذرُّ ملامح الخطر بقرونها . فالإدلاج : السير من أول الليل ، وهذا ما كانت تفعله العرب إذا حزب الأمر وعلا صوت النذير ؛ فإذا توانى متوان ، وقع على أم رأسه وحلت به الندامة .

وعلى طريق استخدام ذلك في أسلوبه عليه الصلاة والسلام : من خاف الله ورغب في جنة عدن التي وعد بها عباده الأبرار ، شمَّر عن ساعد الجد في الطاعة والإنابة والصبر على ما يقتضيه ذلك ، وسارع إلى مولاه عجلاً مع السابقين السالكين . فإذا مضى ليل المجاهدة ، وطلع فجر الآخرة ، وشاهد قرب منزلته يوم القيامة ، وانقطاع من أقعده الكسل ، وغرّه بالله الغرور ، شكر الله على توفيقه بعد

النصَب إلى الفوز بتلكم السلعة الغالية جنة الخلد ، التي وفق لنقد ثمن الفوز بها راضياً مطمئناً ، مستشعراً نعمة الله وفضله أن وفقه لذلك وأعانه عليه . فالسلعة الغالية عند الله تعالى : مطلب سامٍ لا بد له ـ مع العمل ـ من التوفيق ، وأصحاب العزائم الذين سلكوا ـ بتوفيق الله تعالى ـ المسلك المؤدي إلى الفوز بتلك السلعة الغالية دار الأبرار المتقين ، التي هي خير نـزل وخير مستقر ، حري بمشهدهم يوم القيامة أن يذكّر ـ كما قال بعض العلماء ـ بقول الشاعر :

عند الصباح يحمد القوم السرُّى .

ولكم يشعر المؤمن المشوق إلى رضوان الله في نعيم الجنة المقيم ، بعظيم منة الله تبارك وتعالى ، عندما يبصر تعدد طرائق الحصول على تلكم السلعة الغالية ؛ فهي كثيرة وفيرة ، وما عليه إلا أن يصدق الله في طلبها ، ويكون عند الذي يقتضيه الإيمان بالغيب ، وبأن موعود الله حق لا ريب فيه .

روى ابن أبي حاتم بسنده عن عبدالعزيز ـ يعني ابن أبي داود ـ قال : «بلغني أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ وعنده بعض أصحابه وفيهم شيخ ـ رجل مُسن ـ فقال الشيخ : يا رسول الله حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال الدنيا كلها ، قال : فوقع الشيخ مغشياً عليه ، فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده فإذا هو حي ، فناداه قال : ياشيخ قل لا إله إلا الله فقالها : فبشره بالجنة ، قال : فقال أصحابه : يا رسول الله أمن بيننا ؟ قال : نعم يقول الله تعالى : ﴿ **ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد** ﴾.

قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث مرسل غريب .

وروى ابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال : « وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين ؛ إذا خافني

في الدنيا آمنته يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة ».

إنه لمشهد مؤثر حقاً تطير له قلوب المؤمنين فرحاً يوم القيامة ، مشهد أولئك الذين أحسنوا العمل في الدنيا فجيء بهم إلى الجنة ، وفتحت لهم أبوابها وقال لهم خزنتها : ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُري كساه الله من خُضْر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم» رواه أبو داود. كما رواه من طريق عطية العوفي باختلاف يسير .

وأخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : «أيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيما مؤمن سقى مؤمناً على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً على عُري كساه الله من خُضْر الجنة ». قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، وقد روي هذا عن عطية عن أبي سعيد موقوفاً وهو أصح عندنا وأشبه .

وما من ريب في أن من كان من أبناء الآخرة ـ تهفو نفسه بصدق إلى أن يكون من الناجين يوم الدين ، الفائزين برضوان من الله أكبر ـ يسارع في الخيرات التي هدى إليها النبي عليه الصلاة والسلام ، وما أكثر الموائد المباركة التي رغب ﷺ في ارتيادها لمبتغي دار المقامة جنة النعيم . أخرج النسائي عن شرحبيل بن السِّمط رضي الله عنه أنه قال لكعب بن مرة : يا كعب حدثنا حديثاً عن رسول الله ﷺ واحذر ، قال: سمعته يقول : «من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة» فقال له : حدثنا عن النبي ﷺ واحذر ، قال : سمعته يقول : « ارموا من بلغ العدو بسهم رفعه الله به درجة » فقال ابن النَّحام : يا رسول الله وما الدرجة ؟ قال : أما إنها ليست بعتبة أمك ، ولكن ما بين الدرجتين مائة عام » .

إنها المدارج المضيئة إلى الغاية العظمى ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

جزاءً بما كانوا يعملون

مشهد المتقين الأبرار ، الذين غمرتهم أنوار الكرامة من ذي الجلال والإكرام ، وراحوا يرفلون بسعادة الفوز العظيم ، حيث المنتهى إلى دار المقامة جنة النعيم.. هذا المشهد المنير الرائع الذي يعز على الوصف ، والذي تبصره الخلائق يوم القيامة ــ وقد فُصل بين العباد ..ـ إنما يظهر جلاله للمؤمن أكثر وأكثر ، وتبدو دلالته على عظيم فضل الله وكرمه أوسع وأوسع ، إذا كان هذا المؤمن على ذُكرٍ مما وُعد به هؤلاء الأبرار المتقون ، الذين أحسنوا العمل في دار العمل ، وصدقوا في طلب جنة المأوى ؛ فلقد أعَدَّ الله لهم في دار البقاء من جزيل العطاء والنعيم المقيم، ما لم تبلغ العين أن تراه ، ولا الأذن أن تسمعه ، بل إنه ـ من ارتفاعه فوق المعلوم من زهرة الدنيا ـ لم يخطر على قلب إنسان .. إنه الإنعام الذي لا يخضع لمقاييس البشر في الدنيا ؛ فالله تبارك وتعالى لا رادّ لفضله ، وعطاؤه غير مجذوذ ، فهو المعطي ، وهو المانع، وخزائنه جل شأنه لا تنفد .. وهو سبحانه يجزي كلاً بما قدّم لغده ، فلا يضيع عنده مثقال ذرة من عمل .. ولا تسل عما وراء ذلك من واسع الفضل وجزيل الإحسان !.

والنصوص الدالة على ذلك كثيرة وفيرة ؛ منها قوله تعالى في سورة السجدة إيذاناً بما أعدّ لمن تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، فيقفون بين يديه خاشعين متبتلين ، ثم لا يدعون أن يتقربوا إليه سبحانه بالإنفاق في سبيل الله : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ وجاء في الحديث القدسي ، ما زاد المعنى المراد في الآية تجلية تزيد من فرح المؤمنين بفضل الله وكرمه، في ذلك اليوم العصيب، يوم الفصل ، حيث لا يسأل من شدة الهول حميم حميماً ، ودعاء الرسل على الصراط : اللهم سلّم سلّم: عقد الإمام البخاري في كتاب

التفسير من الجامع الصحيح بـاباً جعل ترجمته الآية الكريمـة المومى إليها فقال : باب ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ ثم روى بسنده عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**قال الله تبـارك وتعالى : أعددتُ لعبادي الصـالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلـب بشر** » قال أبو هريـرة : اقرءوا إن شئتم : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قـرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ كما أسند عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضـاً عن النبـي ﷺ أنه قـال : «**يقول الله تعـالى : أعددت لعبـادي الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر دُخراً من بلْه ما أُطلعتم عليه ثم قرأ ﴿ فلا تعلـم نفس ما أخفي لهم مـن قرة أعين جزاءً بما كـانوا يعملون** ﴾».

دُخراً : مـدخوراً .مـن بَلْه ما أطلعتـم عليه : مـن غير ما أطلعتـم عليه. أي جعلت ذلك لهم مدخـوراً من غير ما أُطلعتم عليه ـ كما يـرى بعض العلماء ـ لأن الرواية جاءت عنـد مسلم بدون « من » قال الإمام النووي : ومعنـاها دع عنك ما أطلعكم عليـه ، فالذي لم يطلعكـم عليه أعظـم . وكأنه أضرب عنـه استقلالاً في جنب مالم يُطلع عليه . وقيل : معناها غير . وقيل : كيف .

وهكذا لا يعلم أحد مقدار ما أخفى الله لهؤلاء البررة الأطهار في الجنات، من النعيم الخالد الذي لا ينفد، واللذات والخيرات التي لم يطَّلع على مثلها أحد ؛ فهم ـ كما يـرى الحسن البصري ـ لما أخفوا أعمالهم ، كـذلك أخفى الله لهم مـن الثواب جزاءً وفـاقاً ، فإن الجزاء من جنـس العمل . قال رحمه الله : « أخفى قـوم عملهم ، فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر » رواه ابن أبي حاتم .

وأخرج مسلـم بسنده عن أبي صخـر حميد بن زياد أن أبـا حازم حدثـه قال : سمعت سهل بن سعد الساعدي يقول : «شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنـة حتى انتهى ، ثم قـال ﷺ في آخر حديثه : فيهـا ما لا عين رأت ولا أذن

سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم اقرأ هذه الآية ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع ... إلى قوله : يعملون** ﴾. زاد الحاكم في « المستدرك » : فذكرته للقرظي ـ وهو محمد بن كعب ـ فقال : « إنهم أخفوا الله عملاً ، وأخفى لهم ثواباً ، فقدموا على الله ، فقرّت تلك الأعين » قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبي : صحيح .

هذا : ونفي خطور هذا المتفضّل به على قلب بشر من لدن رب العالمين سبحانه في الحديث : حمل البعض على القول : إنما قيل « بشر » ، لأنه يخطر بقلوب الملائكة . واتجه الحافظ في « فتح الباري » إلى أن الأولى حمل النفي في عبارة « ولا خطر على قلب بشر » على عمومه فإنه أعظم في النفس ؛ بمعنى أن النفي عن البشر هنا ، لا يعني إثباته للملائكة . ويؤيد ذلك ما روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « إنه مكتوب في التوراة : لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب . قال : ونحن نقرأ : ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني والحاكم وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ـ يعني البخاري ومسلماً ـ وقال الذهبي في كتابه « التلخيص » . حديث صحيح .

وفي رواية أخرى لأبي جعفر الطبري : قال عبدالله : «إن في التوراة مكتوباً : لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر ولم تسمع أذن ، وما لم يسمعه ملك مقرَّب ».

وهذه رواية ، تكشف عن لون من ألوان العلاقة بين فضل الله الذي تنص عليه الآية التي ورد في شأنها الحديث القدسي ، وبين دلالة قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ **أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون** ﴾[١٦] أسند الطبري شيخ المفسرين في « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » . عن جابر بن زيد عن ابن

عباس عن النبي ﷺ عن الروح الأمين قال: «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فيقتصُّ بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة واحدة وسَّع الله له في الجنة، قال: فدخلت على يزداد ــ أو أزداد ــ فحدّث بمثل هذا. قال: قلت: فأين ذهبت السيئة؟ قال: ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون ﴾ قلت: قوله: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ قال: العبد يعمل سراً أسرّه إلى الله لم يعلم به الناس، فأسرّ الله له يوم القيامة قرة عين. وروى الطبري بسنده عن مجاهد قال: دعا أبوبكر عمر رضي الله عنهما فقال: «إني أوصيك بوصية أن تحفظها؛ إن لله في الليل حقاً لا يقبله بالنهار، وبالنهار حقاً لا يقبله بالليل، إنه ليس لأحد نافلة حتى يؤدي الفريضة، إنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقل ذلك عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل. وخفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة لاتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم. وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف!! ألم تر أن ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم؛ فيقول قائل: أين يبلغ عملي من عمل هؤلاء؛ وذلك أن الله عز وجل تجاوز عن أسوأ أعمالهم فلم يبده!! ألم تر أن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم حتى يقول قائل: أنا خير عملاً من هؤلاء؛ وذلك بأن الله رد عليهم أحسن أعمالهم!! ألم تر أن الله عز وجل أنزل آية الشدة عند آية الرخاء، وآية الرخاء عند آية الشدة، ليكون المؤمن راغباً راهباً لئلا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يتمنى على الله أمنية يتمنى على الله فيها غير الحق» وروى الوصيةَ أبو نعيم بزيادة: «فإن أنت حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحبَّ إليك من الموت ـ وهو آتيك ـ وإن أنت ضيعتَ وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ـ ولست بمعجزه».

إنها للنعمة العظمى أن يوفق العبد لعمل الصالحات، وبذل الوسع في مرضاة الله والجهاد في سبيله ـ شأن أهل العزائم والصدق ـ ويفوز يوم التناد بما هم فائزون به من قرة أعين، جزاءً بما كانوا يعملون.

اقتحام المكاره.. لا ارتكاب الشهوات

من خلال منهج نبوي متميّز ، آيةٍ في حسن تربية الأمة على ما بلّغ عليه الصلاةوالسلام وعلّم ، كان ـ آتاه الله الوسيلة والفضيلة ـ حريصاً على أن لا تكون البشارة بالجنة، وما يفوز به الأبرار من رضوان الله وعطائه الكريم ـ كما سلف غير مرة ـ مدعاة للتهاون في جنب الله ، والتقصير فيما ينبغي أخذ النفس فيه بالجد من العمل بطاعته تعالى في السر والعلن ، وعدم الركون إلى زخرف الغفلة ، والمزالق الماكرة في دار الغرور ؛ فكشف ـ صلى الله وسلم وبارك عليه ـ عن حقيقةٍ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بطريق جنة الخلد ، وأخرى ترتبط الارتباط نفسه بطريق نار السعير، وعنوان ذلك في هديه صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو لا ينطق عن الهوى ، وترى في الواقع تأييداً لما يقول ـ أن الجنة محفوفة محجوبة بالمكاره ، فطريقها شاقة، لا بد لها من الهمم العالية والعزائم الراشدة ، وأن النار محفوفة محجوبة بالشهوات، فطريقها مذلّلة ميسّرة لمن رضي بالدنية ، وأطاع شيطانه وهواه .

وهكذا ، فالصادق في طلب دار النعيم ، والفوز بالموعود فيها من رضوان الله مطلوب منه ـ على وجه اليقين ـ أن يعد نفسه لاقتحام المكاره وتجاوز ما يكون من شديد المصاعب والمعوقات، من داخل النفس ومن خارجها ؛ وذلك بسلوك الطريق التي رضيها الأبرار الذين قال الله فيهم : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم. على الأرائك ينظرون** ﴾ أولئك الذين عزّ عندهم المطلوب ، فصدقوا في الطلب. والمعرض عن هذا الخيْر ـ أعاذنا الله من ذلك ـ يتجاوز ساحة الخير إلى الشر ، ويغرق في حمأة الشهوات التي تصرفه ـ بزينتها وزخرفها ـ عن الله واليوم الآخر ؛ شأن الفجار الذين قال الله فيهم: ﴿ **وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين وماهم عنها بغائبين** ﴾ فتراه يسَوّف ويلهيه الأمل ، ويبذل نفسه رخيصة في سبيل الضلال والعتوّ عن أمر الله ، ويكون ذلك طريقه إلى جهنم وبئس المهاد .

عقد الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح باباً ترجم له بهذه الحقيقة التي حولها ندندن فقال : «باب حجبت النار بالشهوات» ثم قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال : « حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره » وقد أوردت هذا الحديث في مناسبة سابقة . وفي كتاب « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » كان أول حديث أورده الإمام مسلم هذا الحديث ولكن بلفظ « حفّت » لا بلفظ «حجبت » فقد أخرج بسنده هناك عن حماد بن سلمة وحُميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ».

وكما وقع في رواية البخاري « حجبت » وقع عنده في رواية أخرى « حفّت» وكلاهما صحيح ؛ فقد اجتمع كلام العلماء ـ كما يقول الإمام النووي ـ على أن هذا من بديع الكلام وفصيحه وجوامعه التي أوتيها ﷺ من التمثيل الحسن . والمعنى: لا يوصَل إلى الجنة إلا بارتكاب المكاره والصبر عليها ، ولا يوصَل إلى النار إلا بالشهوات ، والشهوات هنا ، تؤخذ بأوسع معنىً متصوَّر .

وكذلك هما ـــ أي الجنة والنار ـ محجوبتان بهما ـ يعني بالمكاره والشهوات ـ فمن هتك الحجاب ، وصل إلى المحجوب ؛ فَهَتْكُ حجاب الجنة باقتحام المكاره، وهَتْكُ حجاب النار بارتكاب الشهوات . قالوا : فأما المكاره : فيدخل فيها الاجتهاد في العبادات والمواظبة عليها , والجهاد في سبيل الله ، وكظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والعدل في الرضى والغضب ، والصدقة ، والإحسان إلى المسيء وأما الشهوات التي النارُ محفوفة بها : فالظاهر ـ كما يقول النووي ـ أنها الشهوات المحرمة ؛ كالخمر ، والزنا ، وأكل الربا ، والظلم ، وترك الجهاد ، والنظر إلى الأجنبية والاعتداء على الحرمات والحقوق ، والغيبة ، والنميمة ، واستعمال الملاهي ونحو ذلك . قال رحمه الله : وأما الشهوات المباحة : فلا تدخل في هذه ، ولكن يكره الإكثار منها ، مخافة أن يجرَّ إلى المحرّمة ، ويقسِّي القلب، أو يشغَلَ عن الطاعات،

أو يحوج إلى الاعتناء بالدنيا للصرف فيها ، ونحو ذلك .

وهكذا يقرر النبي صلوات الله وسلامه عليه في هديه ـ وهو خير الهدي لما أنه بيان كتاب الله ـ أنـه ما بدٌّ لطالب الآخرة ، وأن يكون ممـن تشرق بهم مشاهد أهل الجنة يوم القيـامة : من العمل الصـالح، على سعة مدلـوله وما يزينـه من شمول؛ وفضل الله ـ فيما وراء ذلك ـ لا يحد .

كان لا بد من التذكير بهذه الحقيقة ، بين يدي متابعة الرحلة مع روايات أخر للحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » الذي جاء مقرراً ومؤكداً لما جاء في قول الله جل ثناؤه: ﴿ **فلا تعلم نفس مـا أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كـانوا يعملون** ﴾ كما أسلفت من قبل . ذلك بأن الآية الكريمة تقرر الأمرين جميعاً ؛ فما أخفي من قرة أعين لأولئك الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يـدعون ربهم خوفاً ووطمعاً ، ومما رزقهم الله ينفقون ، كان جـزاءً ـ والفضل لله وحده ـ بما قـدموا من العمل في الدنيـا ، وكانوا بعيديـن عن الـرياء محبين للستر في ذلك ، ليكـونوا أقـرب إلى الإخلاص وتـوحيد الوجهـة . والعهد قريـب بكلمة واحد من سـادات التابعين، أعني الإمـام الحسن البصري رحمه الله ، وهي قوله في بيان لهذه المنقبة عندهم ، والتلمس الذوقي لحكمة الله فيما أسبغ عليهم في الآخـرة من هذا العطاء الكبير على هـذه الصورة : « أخفى قوم عملهم ، فأخفى الله لهم ما لم ترَ عين ولم يخطر على قلب بشر ».

ولعل مما يسعف في زيـادة الوضوح، لهذه المسألة التي يحتـاج استشعارها إلى صفاء في النفـس وجلاء في القلب : ما روى الإمـام أحمد في المسند عن أبي هـريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قـال : « دعا الله جبريل ، فأرسله إلى الجنـة فقال: انظر إليها وما أعددت لأهلها فيهـا ، فرجع إليه ـ جل ثناؤه ـ فقـال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلهـا ؛ فحجبت بالمكـاره . فقال : ارجع إليهـا ، فرجع إليهـا فقال: وعزتـك خشيت أن لا يدخلهـا أحد . ثم أرسله إلى النـار ، فقال : اذهب فـانظر

إليها وما أعددت لأهلها ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يدخلها أحد يسمع بها ؛ فحجبت بالشهوات . ثم قال : عد إليها فانظر إليها . فرجع إليه ـ سبحانه ـ فقال: وعزتك لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها ».

وفي استئناف للرحلة مع النصوص الهادية في روايات الحديث القدسي السابق : نقع على بعض الروايات التي يميزها اختلاف يسير ، يعين في مزيد من توكيد العلاقة البيانية بين الآية والحديث ، وإثارة الحوافز الباعثة على سلوك الطريق الأمثل الذي سلكه أولئك البررة المكرمون . أخرج الإمام مسلم ـ بعد الرواية السابقة « حفت الجنة ... » الحديث، بسنده عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : قال الله عز وجل: « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ وله عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: « من يدخل الجنة ينعَم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه» وأخرجه ابن جرير الطبري. زاد الحافظ ابن كثير «في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» ومعنى « لا يبأس» : لا تصيبه الشدة وتغير الحال . والفعل : بئس يبأس ، وِزان سمع يسمع .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : قال الله تعالى: « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر دُخراً بلْهَ ما أطلعكم الله عليه » وقد رأيناها من قبل عند الإمام البخاري. «دُخراً » بالدال بمعنى مدخوراً من بلْهِ . والمعنى هنا : دع عنك ما أطلعكم الله عليه ، فالذي لم يطلعكم الله عليه أعظم .

وهذه رواية ثالثة تجمع بين ما جاء في الروايتين السابقتين . يقول الله عز وجل: «أعددت لعبادي الصالحين ... إلى أن يقول : دخراً بله ما أطلعكم الله عليه ، ثم قرأ ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ .

وقد أوردت ـ من قـريب ـ رواية سهل بن سعد السـاعدي رضي الله عنه عند مسلم أيضاً وفيها شيء من التفصيل .

وقد أخـرج الترمذي الحديـث في الجامع الصحيـح ـ سنـن الترمذي ــ بلفظ «وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ **فلا تعلم نفس** ... ﴾ الآية . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

والرواية عند ابن ماجة في « السنن » مطابقة لرواية البخاري . وجاء في آخرها قال : وكان أبو هريرة يقرؤها : « من قُرات أعين ».

اللهـم وفقنا للعمـل بما يـرضيك ، واجعلنـا من عبـادك الصـالحين ، الذيـن يغمرهم فضلك ، ويعُّمهم عطاؤك ، إنك أنت الوهاب ذو الفضل العظيم .

أرفع أهل الجنة منزلة

كلما صدقت الوجهة في طلب الآخرة، والفوز بنعيم الأبرار في دار المقامة، كان المؤمن أسعدَ بتلكم المبشرات التي تزدان بها آي الكتاب الكريم، وأحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وأقدرَ على تحويل التطلعات والأماني، إلى عمل لا يضعف مع المكاره والمعوقات ، ذلك بأن كلاً من البشارة والنذارة بالنسبة للمؤمن : حقيقة مؤكدة ،لا تقبل الاحتمال ، لما أنها جاءت من طريق الخبر الصادق وحياً متلوّاً أو وحياً غير متلو ؛ فهي بلا ريب حق اليقين . واذا كان الأمر كذلك فلا بِدع أن يجعل المؤمن هجيراه ـ بجانب العمل المرضي عند الله ورسوله ـ وقفاتٍ متدبرةً عند تلكم الأخبار التي حملت البشارة بالجنة أو النذارة بالجحيم .

ولقد وقفتنا رحلة قريبة مع بعض النصوص ، على ما جاء في الحديث القدسي الصحيح « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » من تلكم البشرى العظيمة لأولئك المتقين الأبرار من المؤمنين ،بما تقصر عقول البشر عن الإحاطة به وهي بشرى وثيقة الصلة بقوله تعالى في سورة السجدة : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ وقد أوردت عدداً من النصوص في ذلك. منها ما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً ـ أو دخراً ـ بله ما أطلعكم الله عليه ثم قرأ ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ وعند البخاري من بله .

هذا : ولما لسبب ورود الحديث ـ إن وجد ـ من أهمية في تبيُّن المعنى المراد ، وتجلية نافعة لأبعاد النص ، اهتم الحافظ ابن حجر ببيان أن سبب الحديث

القدسي الذي نسعد باصطحابه ، ما جاء في رواية أخرى من أن موسى عليه السلام سأل ربه عن أدنى أهل الجنة منزلةً ، وأرفع أهل الجنة منزلة؟ فكان الجواب عن أرفعهم ما ينطق به هذا الحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين ....» فتحت باب « أدنى أهل الجنة منزلة فيها » من كتاب الإيمان . قال الإمام البخاري رحمه الله :

حدثنا سعيد بن عمرو الأشعثيُّ قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن مطرّفٍ وابن أبجر عن الشعبي أنه قال : سمعت المغيرة بن شعبة رواية إن شاء الله وحدثنا ابن أبي عمر قال : حدثنا سفيان قال حدثنا مطرِّف بن طريف وعبدالملك ابن سعيد سمعا الشعبيَّ يخبر عن المغيرة بن شعبة قال : سمعته على المنبر ، يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال : وحدثني بشر بن الحكم ـ واللفظ له ـ قال : حدثنا سفيان ابن عيينة قال : حدثنا مطرِّف وابن أبجرَ سمعا الشعبيَّ يقول : سمعت المغيرة بن شعبة يخبر به الناس على المنبر ، قال سفيان : رفعه أحدهما (أُراه ابنَ أبجرَ) قال : «سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيىء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أي ربِّ ! كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذاتهم ، فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت ربّ ، فيقول : لك ذلك ومثلُه ومثلُه ومثلُه ، فقال في الخامسة : رضيت ربِّ : فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك ، فيقول : رضيت ربّ ».

قال : ربّ فأعلاهم منزلةً ؟ قال : أولئك الذين أردتُ ، غرستُ كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذنٌ ، ولم يخطر على قلب بشر . قال : ومصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ .

المراد بقوله : ما أدنى أهل الجنة ؟ ما صفة أو ما علامة أدنى أهل الجنة .

ومعنى « وأخذوا أَخَذَاتهم » أي : ما أخذوه من كرامة مولاهم وحصّلوه ـ كما يقول القاضي عياض ـ أو يكون معناه : قصدوا منازلهم .

ومعنى « أردت » في هذا المقام : اخترت واصطفيت . وأما « غرست كرامتهم بيدي » إلى آخره فمعناه : اصطفيتهم وتوليتهم فلا يتطرق إلى كرامتهم تغيير . قال علماؤنا : وفي آخر الكلام حذف، اختصر للعلم به تقديره : ولم يخطر على قلب بشر ما أكرمتهم به وأعددته. ومصداقه هو بكسر الميم ومعناه : دليله وما يصدقه.

ألا ليت أنا بقدر ما يخالط قلوبَنا من الفرح بهذا الفضل، الذي تعجز عقول البشر عن إدراك قدره ، نشمر عن ساعد الجد ، مسابقين إلى كل ما فيه إخزاء الشيطان ، ورضوان الله تبارك وتعالى ، مستعلين على سلطان الشهوة والهوى ، شأن أولئك السالكين الذين اتجهت قلوبهم إلى بارئها بالإيمان ، وصالح العمل، والشوق إلى لقاء الله .

وإذا كانت جنة الخلد ، التي هي موعود للبررة الأتقياء من عباده ، لا عوض لها ولا مثل ؛ فما قولك بما أخفي للبررة المجدّين من قرة أعين . والعهد قريب بالحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه وابن ماجة في « السنن » « ألا مشمّر ـ أو ألاهل مشمرٌ ـ إلى الجنة فإن الجنة لا خطر لها » أي لا عوض لها ولا مثل. قال ابن الأثير: والخطر: مثل الشيء وعِدْ له، ولا يقال إلا في الشيء الذي له قدْر ومزية.

هذا : وغير خافٍ أن في هذا الحديث ما يدل على أدنى أهل الجنة منزلةً ، كما يدل على أن تلك الكرامة التي أخبر ربنا تبارك وتعالى عنها ، وهي ذلك النعيم الذي لم تعلمه نفس بشر ولا ملك ، ولا يحيط بقدره عقل ، إنما هو لأعلى أهل الجنة منزلاً ، وقد ذهب إلى ذلك القرطبي في « الجامع » ؛ فقد عمد إلى بيان معنى قوله تعالى: ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ من خلال الحديث القدسي الذي نحن بصدده وما ورد في ذلك ، وأتى على قول ابن مسعود رضي الله عنه : « في التوراة مكتوب : على الله للذين تتجافى جنوبهم

عن المضاجع مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: « الأمر في هذا أجل وأعظم من أن يُعرف تفسيره». ولا ريب في أن هذا من فقهه ـ أجزل الله مثوبته ـ في الدين ،وعلمه بالتأويل .

ثم قال القرطبي: قلت : وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلاً كما جاء مبيناً في صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ . وأورد رواية مسلم التي مرّ ذكرها آنفاً .

هذا : وقد أخرج الترمذي هذا الحديث عن المغيرة بن شعبة أيضاً من طريق ابن أبي عمر ، ولكن دون قوله: «فأعلاهم منزلة قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ، قال: ومصداقه من كتاب الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ هذا في النسخ التي اطلعتُ عليها ... ثم قال الترمذي: قال أبو عيسى هذا حسن صحيح . وروى بعضهم هذا الحديث عن الشعبي عن المغيرة ولم يرفعه والمرفوع أصح . ولكن الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد أن أورد رواية مسلم بالسند بتمامها قال : ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر وقال : حسن صحيح... إلى آخر كلامه . وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ولكن بلفظ «فقال موسى: أي رب ، وأيُّ أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال : إياها أردت وسأحدثك عنهم؛ غرست لهم كرامتي بيدي وختمت عليها ... » إلى آخر الحديث .

اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبنا ورحمتك أرجى عندنا من أعمالنا ، فاغفر لنا وارحمنا واكتب لنا الفوز بالجنة والنجاة من النار إنك أنت الغفور الرحيم .

اليوم المضمار.. وغداً السباق

ليس مـن مكرور القـول، التذكير بأن خـوض معركـة الحياة على نهج ، عمادُه تقوى الله ومراقبته في السر والعلن ، والجهاد بشتـى ميادينه ، وغير ذلك من أعمال البر التي تتحقق معها العبودية لله ، علماً وعملاً وسلوكاً ؟ كل أولئك طريق الفلاح الـذي يعطي ثمـراتـه الخيِّرة يوم يحشر الله العبـاد للمسـاءلـة والحساب ، ويكـون صاحبه ـ بفضل الله ـ ممن تصرف وجوههم عن النار ، ويفوزون بدخول الجنة دار النعيم .

والحقائق التي لابد أن تأخذ مكانها عند التذكير بهذا : ما دل عليه قول النبي ﷺ في حديث أسعدنا اصطحابه من قريب : « حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بـالمكاره » كما هي روايـة البخاري . أو « حفَّت الجنـة بالمكاره وحفَّـت النار بالشهوات » كما هي رواية مسلم .

ووعي هـذه الحقيقة ، وتـوظيفها على سلّم الأولـويات والاهتمامـات في حياة المسلم : أمر على غاية الأهمية ؛ وقد كان ذلك واضحاً عند السلف الصالح، بدءاً من الصحـابة عليهـم الرضوان ، أولئـك الذيـن ما فتؤوا ـــ وهم يحملـون تبعات الـرسـالة في أنفسهـم وفي ذويهم ، ويبلغـونها الآخـريـن ـــ يسارعـون إلى عمـل الصـالحات ، راجين مغفرة الله ورضـوانه ، وأن يكتبهـم في زمرة مـن يقال لهم يـوم الدين : ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ زادُهم على هذه الرحلة المباركة في خضم الحياة، سلوك السبيـل الموصلة إلى المقصد ، دونما إبطاء أو ركون إلى طريق الغافلين ، أو ما هو من هذه الطريـق بسبب ؛ فالدار الدنيا في نظرهم ـ وذلك هـو الحق ـ مضمار للعاملين الصادقين ، والسـابق من سبق إلى جنـة الخلد فكان ـ بـرحمة الله ـ من الفائزين . ولا تسـل عن وافر العطاء الـذي يتفضل الله به

على البررة الصالحين من عباده ، والمجاهدين في سبيله ، حيث أعد لهم من النعيم الذي لا يزول ما لم تره عين ، ولم تسمع بـه أذن ، ولا خطر على قلب بشر مقدارُ ما أعدَّ منـه . أخرج الحاكم في المستـدرك عن عطاء بـن السائب عن أبي عبـدالرحمن السُّلَمي أنـه قال : نـزلنا مـن المدائن على فرسـخ ، فلما جاءت الجمعـة حضرت ، فخطبنا حذيفـة رضي الله عنه فقال : «إن الله عز وجـل يقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا وإن الساعـة قد اقتربت . ألا وإن القمر قـد انشق . ألا وإن الـدنيـا قد آذنـت بفـراق ، ألا وإن اليـوم المضمار ، وغداً السبـاق . فقلـت لأبي : أيستبق الناس غداً ؟ قال : يا بني إنك لجاهل ، إنما يعني أن العمل اليوم ، والجزاء غداً . فلما جـاءت الجمعة الأخرى ، حضرنا ، فخطبنـا حذيفة فقـال : « إن الله عز وجل يقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا وإن الدنيا قـد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السبـاق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابـق من سبق إلى الجنة» قال أبو عبدالله : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبي في « التلخيص » : صحيح .

أبو عبدالـرحمن السُّلَمي : هو عبدالله بـن حبيب بن رُبَيِّعة الكـوفيُ المقرىء ، مشهور بكنيته ، ولأبيه صحبة . ثقة ثبت مات بعد السبعين .

هكذا يوضح صاحب رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أن اليوم العمل في الدنيا للاستباق في الجنة ، ويكرر ذلك في خطبه عندما يخطب الجمعة في الناس ، حرصاً على أن تأخذ هذه الحقيقـة مكانها في النفوس ، فتتحول المعرفة إلى ما يبرهن على القناعة بها، من عمل واجتهاد في طاعة الله بغية الفوز يوم السباق في دار البقاء . قـال ابن الأثير في « النهاية » : وفي حـديث حذيفـة : « اليوم المضمار وغداً السباق » أي اليـوم العمل في الدنيا للاستبـاق في الجنة . والمِضمار يطلق على الموضـع الذي تضمَّـر فيه الخيـل ، كما يطلـق على المدة التي فيهـا التضمير . وفي الحديـث الـذي رواه النسـائي وعـزاه الهيثمـي في « مجمـع الـزوائد » إلى أبي يعلى والطبراني « من صام يوماً في سبيل الله باعـده الله من النار سبعين خريفاً للمضمِّر

المجيد ». والمضمِّر هو الـذي يضمِّر خيلـه إذا أعدهـا لغزو أو سبـاق . وتضمير الخيل : أن يظـاهر عليهـا بالعلـف حتى تسمـن وتقوى ، ثـم لا تُعلف إلا قـوتاً ، ليكون أنجى لها وأخف ؛ لأنها بقلة العلف ـ على هذه الصورة ـ تخف . وقيل: تشد عليها سروجها ، وتجلَّل بـالأجلة حتى تعرق تحتها ، فيذهـب رهَلُها ويشتد لحمها. والمجُيد: صـاحب الجيـاد من الخيـل . قال الإمـام أبو سليمان الخطـابي : «ومعنى الحديث أن الصائم يباعده الله من النار مسافة سبعين سنة تقطعها الخيل المضمَّرة الجياد ركضاً ».

مـرة أخرى : رضي الله عـن حـذيفـة بن اليمان ، الصحـابي الأمين على تبليـغ حقائق الدين الحنيف إلى الناس ، وأعلى مقامه في جنات عدن ، بما أوضح ـ بهذه الصورة الرائعة ـ أن العاجلة: دارُ العمل والإعداد من أجل الفوز بالسباق غداً يوم الدين . وما على المؤمن إلا أن يبذل الوسـع في هذا الإعداد لليوم الموعود ، ولا يدَعَ أن يكون عالي الهمـة ، قويَّ العزيمة ، يغالب المعـوقات ، ويصبر على الشدائد في سبيل الله ، يدين نفسه ويحاسبها ، ويتخذ من الشيطان عدواً كما أمر الله ... إنه إن فعل ذلك ، حاز بعون الله قصب السبق في السباق الآتي لا محالة ، يوم لا يفوز إلا من أحسنوا السير على السنن الذي هدى إليه المصطفى عليه الصلاة والسلام .

فكما يضمِّر الخيلَ صـاحبُها إذا أعدَّها لغزو أو سباق ؛ على المؤمـن أن يرتفع بـإيمانه وجهـاده على الشهوات والمعـوقات ، ويحسـن سلوك ذلـك السَنن الـذي يصل، إلى الجنة مع الأبرار أهل الإنابـة والخشية الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ويباعد بينه وبين النار ، التي لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذّب وتولى .

وأنت واجـد أن حذيفـة رضي الله عنه ، قد وفّـق التوفيـق كلّه في إبـلاغ تلك الحقيقة للناس ، وحثهم على أن يأخذوا بأسباب النجاة والفوز ، بما أفاد من الواقع الذي هم مخالطوه وعارفوه ، أعني السباق ، والتضمير للفوز به وما إلى ذلك .

وتحسن الإشارة إلى أن الناظر في دواوين السنـة المطهرة ، يقع على العديد من

النصوص التي تتحدث عن السبق بين الخيل ، وإضمار الخيل للسبق وما يتعلق بذلك . وقد عقد الإمام البخاري في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح ثلاثة أبواب هي :

«باب السبق بين الخيل » «باب إضمار الخيل للسبق » «باب غاية السباق للخيل المضمّرة» . وتحت هذا الباب روى بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « سابق رسول الله بين الخيل التي ضُمِّرت ، وأرسلها من الحفياء، وكان أمدُها ثنيّة الوداع ، فقلت لموسى : فكم كان بين ذلك ؟ فقال : ستة أميال أو سبعة . وسابق بين الخيل التي لم تضمَّر ، فأرسلها من ثنية الوداع ، وكان أمَدُها مسجدَ بني زُريق . قلت : فكم بين ذلك ؟ قال : ميلٌ أو نحوُه ، وكان ابن عمر ممن سابق فيها ».

وإذا كان الأمر كذلك ـ في الإعداد هنا والسباق هناك ، ويومُ الوعيد واقع لا محالة ـ فالعاقل كل العاقل من يعطي المضمار ، حقه ليفوز يوم السباق بالسبق إن شاء الله .

وكم يحسن المسؤولون عن تربية الأجيال المسلمة ؛ ذكوراً وإناثاً في خضم الصراع الفكري في العالم ، وما يُرى من اضطراب القيم والمعايير !! إذا وضعوا هذه الحقيقة وأمثالها في الحسبان ، تزدان بها مناهج التربية والتعليم والإعلام ـ في كل مرحلة بحسبها ـ ويربى عليها الفرد والجماعة ! إذاً لجَنَت الأمة من وراء ذلك أطيب الثمرات في الدنيا ، وكان الفوز بجنات تجري من تحتها الأنهار في دار القرار، يتوّج ذلك برضوان من الله أكبر والله ذو الفضل العظيم .

وغنيٌّ عن البيان، أن رجال أمتنا الذين إذا ذُكروا ، ذُكرت المكارم والفضائل في شتى الميادين ، والذين أضاء بهم تاريخ الإنسانية ، لم يبلغوا ذلك ـ على صعيد أنفسهم وأمتهم ـ إلا بالتزامهم هذا المنهج القويم . أخرج البخاري بسنده عن ابن شهاب عن حُميد بن عبدالرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال : «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة يا عبدالله هذا خير . فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريَّان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة . فقال أبو بكر رضي الله عنه : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم» .

إن الصدِّيق أبا بكر خليفة رسول الله وصاحبه في الغار ، وقاهر المرتدين في حرب الردة ، قد أحسن التزوَّد للدار الآخرة ، فهو يريد أن يدعى من تلك الأبواب كلها ، وبشره رسول الله ﷺ بما تطمح إليه نفسه الراضية المرضية ، ولا بدع فهو الصدّيق الذي لم يبارح مسار الصدق في إيمانه وعمله وحبه الفريد لرسول الله ﷺ قِيد أنملة ؛ فرضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين ، والموفق من احتذى حذو أهل الفضل والتمكين .

الفردوس.. أوسط الجنة وأعلى الجنة

كلما ذكر المؤمن مشاهد القيامة بما تحمل من أثقال المكلفين ، وبما تزخر به من النذر الشداد ، يوم ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودَّة ، ولا يفوز بالنجاة إلا الصادقون ..

كلما ذكر المؤمن ذلك: تضاعفت تطلعاته إلى النجاة، وكان عليه أن يجدَّ في طلبها ـ وهي من معالي ما يطلب ـ صابراً على المكاره مهما تكن ، وأن يشمر بهمة عالية تسمو به إلى الآفاق المشرقة بمرضاة الله تعالى . وتجعله ـ بفضل الله سبحانه ـ من أهل القرب، الذين بتقواهم يسمون عن طاعة الهوى والشيطان مهما تنوعت الأساليب والزخارف ، ويفلحون بتزكية أنفسهم ـ كما أمر الله ـ وذلك طريق الحظوة يوم الدين ، والانسلاك في زمرة الأبرار المفلحين .

وليس عجباً من العجب، أن يضع المؤمن نُصب عينيه التشمير الذي رغب به الرسول عليه الصلاة والسلام ، من أجل الفوز بنعيم أبدي لا مثل له ولا نظير ، وهو مظهر من مظاهر رضا الله تعالى ؛ فالذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، والذين يحبهم جل شأنه ويحبونه ، يتجلى عليهم بفضله وإحسانه فيُحلُّهم دار كرامته ، مقولاً لهم : ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾. ويعطيهم ما به تقرُّ أعينهم، ثم يزيدهم من فضله ، فيرضى عنهم رضاءً لا يسخط بعده أبداً .

ومن نعم الله العظمى ومنته الكبرى: أنه جل شأنه، هدى في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ إلى هذه الغاية، والنبي ﷺ ـ وحديثه بيان القرآن ـ لم يدع أن ينوّع أساليب الترغيب العظيم في الجنة والصدق في طلبها . وهنيئاً لمن ينتفع بالهداية ويسعد بها وينتظمه يوم القيامة ذلك المشهدُ الفياض بالنور والعطاء الإلهي ، مشهدُ البررة أهل التقوى، وهم على باب الجنة التي يورثها العاملون المخلصون .

ولقد كان لترغيبه ﷺ بأسلوبه الحكيم ـ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ـ كبير الأثر في نفوس أصحابه، حتى كأن الآخرةَ شغلُ أحدهم الشاغل، وحتى كأن مشاهد القيامة تصحبهم على المدى ، وتحكم سلوكهم والقيم التي تحركهم، ويظل ذلك فيمن سار على هديهم بإحسان ، فترى الواحد منهم في صلته بالناس وعمله وسلوكه، صورة متحركة للإسلام ، لما أن مبتغاه مرضاة الله عز وجل، وأن يلقى ربه وهو عنه راض . وعندما يدعو داعي الجهاد ، يقبل على الموت باسم الثغر منشرح الصدر ، ولسان حاله ينادي : يارياح الجنة هبي . وبعد أن يُستشهد يتمنى أن يعود إلى الدنيا مرة بعد مرة ، ليفوز بالشهادة ذلك الفوز المتجدد . عقد البخاري في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح باباً ترجم له بقوله : «باب درجات المجاهدين في سبيل الله» ثم روى بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال النبي ﷺ : « من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، فقالوا : يا رسول الله أفلا نبشر الناس ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أُراه قال: وفوقه عرش الرحمن ـ ومنه تفجرّ أنهار الجنة » ثم قال البخاري قال محمد بن فليح عن أبيه « وفوقه عرش الرحمن» .

أرأيت إلى هذا الترغيب العظيم ، الذي كان يقع في نفوس المؤمنين موقع الماء البارد الزلال من الصديان ، وكم صنع الأسلوب النبوي ـ بعون الله ـ من رجال ، وكم استثارت حكمته ﷺ من قُدَر وطاقات ومواهب . وكلما تراءت لنا مواكب الشهداء يوم المعاد ، ومشاهد من زحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة ، لابد أن نذكر هديه ﷺ على هذه الساحة ـ وهو يبين كتاب الله العزيز ـ وكم أفاض على الدنيا من بصائر . ونمضي مع هذا الهدي الكريم، لنشهد أي أثر عظيم صنعه في بنية المسلم وتطلعاته إلى جنة الفردوس ؛ من ذلك كشفه عن مظاهر العطاء الإلهي يوم

القيـامة للمجـاهـد في سبيل الله ! ذلكـم فيما روى البخاري عـن أبي هـريرة عنـه صلوات الله وسـلامة عليـه أنه قال : « لَقَـابُ قوسٍ في الجنـة خير مما تطلـع عليه الشمس وتغـرب» و أنه قـال : « لغَدْوة في سبيل الله خير ممـا تطلع عليـه الشمس وتغرب » .

القاب : القَدْر . فمعنى « قاب قوسٍ » أي قدرُ قوسٍ . وكذلك القِيد بكسر القاف بعدها ياء ساكنة ثم دال معناه : القَدر .

ولقد جاءت الرواية الأخرى عند البخـاري بلفظ «لقابُ قوسٍ أحدكم » فقد روى بسنـده عن حميـد قال: وسمعـت أنس بـن مالـك عن النبـي ﷺ أنه قـال: «لَرَوْحةٌ في سبيل الله أو غَـدْوَةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولَقَابُ قـوسٍ أحدكم من الجنة أو موضع قِيدِ ــ يعني سوَط ـ أحدكم خير من الدنيـا وما فيها ، ولو أن امرأةً من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما أو لملأته ريحاً ، ولَنصيفُها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » .

يلاحظ هنا : أن القِيدَ فُسِّر بالسـوط . ويرى الحافظ ابن حجر أنه تفسير غير معروف ، إذ القِيدُ ـ كما سبق ـ بمعنى القاب وهو القَدر . قال رحمه الله : ولهذا جزم بعضهم بأنه تصحيـف وأن الصواب قِدٍّ بكسر القاف وتشديد الـدال وهو الـسوط المتخذ مـن الجلد . ثـم كان من تحقيقـه أن دعوى الـوهَم في التفسير أسهـل من دعوى التصحيف في الأصل. والقِيد بمعنى القاب كما بين من قبل ، والمقصود من ذلك لهذه الترجمة : الأخير ، والنصيـف من قولـه « ولنصيفها » بفتـح النون وكسر الصاد بعدها ياء ساكنة ثم فاء : الخمار بكسر الخاء وتخفيف الميم .

وفي توكيـدِ لحقيقةِ ما يُعطـى الشهيدُ يومَ القيـامة ـ وهـو ما يُفهم مـن خلال ترغيـب النبي ﷺ ــ نقل صـاحب الفتح عـن المهلّب قـولَه : «إنما أورد ــ يعني البخاري ــ حديث أنـس هذا ـ يعنـي الذي جاء فيـه قوله ﷺ : « وَلَقـابُ قوس أحدكم من الجنـة خير من الدنيا وما فيها » ـ ليبين المعنى الـذي من أجله يتمنى

الشهيد أن يرجع إلى الدنيا ،ليقتل مرة أخرى في سبيل الله ، لكونه يرى من الكرامة بالشهادة فوق ما في نفسه ؛ إذ كل واحـدة يعطاها من الحور العين لو اطلعت على الدنيا لأضاءت كلُّها ». وروى ابن ماجة من طريق شهر بن حوشب عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : ذكر الشهيد عند النبي ﷺ فقال : «لا تجف الأرض من دم الشهيد حتـى تبتدره زوجاته مـن الحور العين، وفي كل يد واحدة منهـن حلةٌ خير من الدنيا وما فيها ». ولأحمد والطبراني من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً « إن للشهيد عند الله سبع خصال » فذكـر الحديث وفيه : ويزوَّج اثنتين وسبعين زوجة مـن الحور العين » قال الحافـظ : إسناده حسـن . وأخرجـه الترمذي مـن حديـث المقدام بن معديكرب وصححه .

وأكرم بهذا العطاء الذي تشهده الخلائق يوم القيامة مصداقاً لألوان الترغيب في حديث الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام . وكم تُغني ترغيباته ﷺ تلك المشاهد المضيئة من أهل الجنة التي وُعد المتقون، وللشهداء فيها النصيب الأوفى .

المشمرون للجنة.. مشاهد!!

مشاهد عباد الرحمن الذين أخلصوا دينهم في الدنيا ، وصدقوا الوجهة في فرارهم إليه سبحانه .. مشاهد هؤلاء المرضيين له سبحانه ، الذين تفتح لهم أبواب الجنة يوم الجمع الذي لا ريب فيه ، ويفوزون بالنعيم المقيم السرمدي في دار الكرامة ، ما كانت لتعلن إعلانها على رؤوس الأشهاد ، وتزدان بها ازدانت به من النور الذي يسعى بين أيدي أصحابها وبأيمانهم ، لولا فضل الله العلي الكبير ، ثم الاستجابة العملية الصادقة لترغيب الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام أمته ـ وهو يبين عن الله ما أراد ـ بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ووافتهم المنية وهم على ذلك .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام ـ في ترغيبه ـ حريصاً على أن يطبع سلوكَ المسلم ـ وهو يمتثل الأوامر ويجتنب النواهي ـ تكاملٌ واعٍ بين حرارة الشوق إلى ذلك المستقر المبارك الذي هو خير كله ، وبين ما يجب من العمل ، وإقامة الدليل على صدق الاشتياق، والتطلع إلى ذلك الفضل العظيم الذي يمنُّ الله به على من أحبوا لقاءه ، فهانت عليهم الملذات والشهوات، واستعلوا على معوقات الدنيا وهو يمارسون شؤون الحياة وفق معايير الإسلام ، ويعملون لإعلاء كلمة الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو قال : حدثنا هشام بن سعد عن سعيد بن أبي هلال عن ابن أبي ذباب عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ مرَّ بشِعب فيه عيينة ماء عذبٍ فأعجبه طيبه فقال : لو أقمت في هذا الشِعب ، فاعتزلت الناس ، ولا أفعل حتى أستأمر رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام ، فقال : لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاة ستين عاماً خالياً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم

الجنة ، اغزوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة ».
الفُواق والفَواق : بضم الفاء وفتحها : ما بين الحلبتين من الوقت .

هذا بيان واضح جليٌّ من خير الخلق عليه الصلاة والسلام لذلك الصحابي الذي لم يُقدم على اتخاذ قرار ، فيما اشتهت نفسه من العزلة وترك الجماعة، إلا بعد استئذان رسول الله ﷺ ، فكان هذا البيان للمستشير المستأذِن، ولمن وراءه من أبناء الأمة ، الذي قام على أن طريق جنة الخلد ، سلعة الله الغالية ، طريق الجهاد، والإسهام في بناء الفرد المسلم والمجتمع المسلم ، من طريق الجهاد ، والعمل المشترك، والصبر على ما يعترض ذلك من المشاق والنصَب، لا العزلة في ذلك الشِعب، ولو مع التعبد عند تلك العيينة التي عذُب ماؤها وطاب ، مع ما للعبادة من قيمة جُلّى، ويُحمد له ـ رضي الله عنه ـ بما أعطى لمن بعده درساً في التعامل مع الإسلام ، وأن على المسلم أن لا تحكمه الرغبات الفردية، دون الرجوع إلى حكم الله ورسوله في كل شأن من الشؤون .

وتطالعنا رواية الترمذي للحديث، بما يزيد هذه القضية وضوحاً وتجلية ؛ فقد أخرج بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : «مرّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعب فيه عيينةٌ من ماء عذبةٌ ، فأعجبته لطيبها ، فقال : لو اعتزلت الناس ، فأقمت في هذا الشِعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : لا تفعل : فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً . ألا تحبون أن ينظر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا في سبيل الله . من قاتل في سبيل الله فَواق ناقة وجبت له الجنة » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

ذلكم هو المنهج النبوي في بناء حياة الأمة على الإسلام ، بناءً متكاملاً ، يشيع الحياة الحقيقية في كل جانب ، ويقيم الواقع الإسلامي في توجه صادق إلى الله ، وإخلاص في الجهاد في سبيله ، وتطلُّع إيماني عملي إلى عطاء الرحمن الرحيم

سبحانه وتعالى، في جنة لا يزول نعيمها ، وأصحابها في هذا النعيم المقيم خالدون ؛ لأنهم عبدوا الله حق العبادة ــ بمفهومها العميق الشامل ــ وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ولم يبخلوا بمستطاع .

وأكرم به مشهداً ، مشهد هؤلاء الأبرار المجاهدين في سبيل الله ، وهم ينقلون خطاهم يوم القيامة ، إلى دار العطاء الرباني الذي لايُحَدُّ ، في سلعته الغالية التي وُعدوها ، واشتد شوقهم إليها.. مشهدهم والنور بين أيديهم وبأيمانهم إليها ، بما كان من سعيهم الحثيث المخلص، وبما شمرّوا إليها ــ عملاً بترغيب رسول الله الصادق الأمين ـ فكان لهم بفضل الله ما أرادوا ، وصدق فيهم قول الله جلّ شأنه: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ ولم لا يكونون كذلك، وهم في رضوان الله يرفلون في نعيمها ، وتراهم ﴿على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم نضرة النعيم . يسقون من رحيق مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أخرج ابن ماجة بسند في بعض رجاله مقال عن كُريب مولى ابن عباس أنه قال : حدثني أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه : « ألا مشمِّر للجنة ، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطّرد ، وفاكهة كثيرة نضِجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحُللٌ كثيرة في مقام أبداً . في حبْرة ونضْرَة ، في دور عالية سليمة بهية . قالوا: نحن المشرون لها يا رسول الله ! قال : قولوا إن شاء الله . ثم ذكر الجهاد وحضّ عليه » .

معنى ألا مشمِّر للجنة : ألا ساع لها غاية السعي جادٌ فيها أكمل الجد ، لأن التشمير في الأمر والتشمُّر : الهُّم وهو الجد فيه والاجتهاد قال ابن الأثير : وفي حديث ابن عباس «فلم يقرب الكعبة ولكن شمَّر إلى ذي المجاز » أي قصد وصمّم وأرسل إبله نحوها . وحضُّ النبي ﷺ من خلال هذا التعبير « ألا مشمّرٌ » على التشمير في طلب الجنة ، واضح كل الوضوح ، والخطر هنا : المِثل ـ كما أشرت في مناسبة أخرى ــ فالجنة لا مثل لها ، ولا يقال هذا إلا في الشيء الذي له قدر

ومزية قال السندي : وعلى هذا : هو من قولهم : هذا خطر لهذا : أي مِثل له في القدر . ونَهر مطّرد : أي جار عليها من اطّردَ الشيءُ أي تبع بعضه بعضاً وجرى . وجاء في النهاية: وفي حديث الإسراء « فإذا نهران يطّردان » أي يجريان وهما يفتعلان من الطّرد . والحَبْرة : النعمة وسعة العيش . أما النّضرة : فهي حسن الوجه ورونقه .

وأخرج الحديث ابن حبان في صحيحه بلفظ « ألا هل مشمّرٌ للجنة ، فإن الجنة لا خطر لها .. الحديث ».

وكم في تاريخنا من الوقائع التي تثبت جِدِّيَة وصدقَ ما قال أصحاب رسول الله ﷺ ، وقد رغبهم رسول الله في الجنة وندبهم إلى العمل لها ،عندما قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله ونبَّههم على أن يقرنوا هذه الدعوى بالمشيئة فيقولوا إن شاء الله . وقصة استشهاد عمير بن الحُمام ، بضم الحاء وتخفيف الميم ، السُّلَمي الأنصاري، وهي القصة القريبة من نفس كل مؤمن، غُرّة في جبين تلك الوقائع لما أنها ـ والله أعلم ـ صورة صادقة تعبر عن سرعة الاستجابة العملية لما رغب فيه رسول الله ﷺ يوم بدر ، من أن الفوز بالجنة ، عاقبة من قتل وهو يقاتل المشركين محتسباً مقبلاً غير مدبر ، فقد جاء عند ابن اسحاق «أن رسول الله ﷺ قال : والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» ، وسارع عُمير إلى الموت في سبيل الله ملقياً تمرات كانت في يده لأنه استبطأ أن ينتظر ساعة لقاء الأحبة في الجنة حتى يأكلها . وعند مسلم عن أنس رضي الله عنه «أنه لما دنا المشركون يوم بدر قال رسول الله ﷺ : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض . قال : يقول عمير بن الحُمام الأنصاري : يارسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : نعم قال : بخٍ . بخٍ . فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك بخٍ . بخٍ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال : «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قَرَنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، قال : فرمى بما كان معه من

التمر ثم قاتلهم حتى قتل ».

لقد كانت الجنـة التي عرضها السماوات والأرض، والتي آمن بـوجودها حتى كأنه يراها رأي عين ، أغلى عنده من الحياة في هذه الدار الفانية ، فكانت المسارعة بعد التصديق الجازم ، وكان الاستشهاد ...

إن مواكب أهل الجنـة يوم القيامة ، برهان على أن التفـاعل الإيماني الصادق، مع دعـوة الخير يُعطي عطـاءه في بناء المجتمع الإسـلامي المنشـود، ويثمر ثمـراته الطيبة يوم الفصل في الآخرة ، ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾.

الفردوس الأعلى.. والشهادة

نتابع اليوم مـا سبق من الكلام، حول الاستجابة الصـادقة لترغيب النبي ﷺ في الجنة، وما أعـد الله لأهل الجهاد والتقوى وصـالح العمل ، من النعيـم الذي لا ينفد والخلـود الذي شاءه الله لأهـل القرب الذين لم يضنُّوا ببذل الوسـع مهما غلا الثمن ، لأنهم علمـوا أن الجنة ـ وهـي سلعة الله ـــ غالية ،لا تنـال إلا بالصبر على المكاره واقتحام عقباتها بعزيمة ، وصدق معـه سبحانه . ولقد أوردت ـ فيما سبق ـ عدداً من الوقائع، كان آخرها واقعة الاستجابة الرائعة من عُمير بن الحُمام السَّلَمي الأنصاري يوم بدر حيـث الأمور على أشدها ، والفئة القليلة العـدد والعدة تقاتل الفئة الكـافرة كبيرة العـدة والعدد . ومـا أكثر أولئـك الذيـن صدقـوا ما عـاهدوا الله عليه ، وسـوف تشهد الخلائق ، كيف تزدان بـدمائهم الـزكية مشاهد القيـامة ، لأنهم كـانوا على يقين ـــ تتزعـزع الجبال ولا يتـزعزع ـــ بأن الله اشترى مـن المؤمنين أنفسهم وأمـوالهم بأن لهم الجنة يقاتلـون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعـداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ولا أحد أوفى ببيعه من الله ..

وهذا واقعةٌ تذكر ـ من جهة أخرى ـ بإسهام المؤمنات مع المؤمنين ، على هذه الساحة الميمـونة بنورها وعطر دمائهـا ، أجل تذكِّر بما كان عليـه النساء المؤمنات أمهـات الشهداء، مـن صبر واحتسـاب ، وشعـور بفضل الله عليهـن ، أن قسـم لأولادهن أن يكـونوا جُنْـد الحق بقيادة النبـي عليه الصـلاة والسلام ، وأن تكـون عاقبتهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأنهم بعد استشهادهم . أحياءٌ عند ربهم يرزقون .

وما أعظم أن يكون من وراء العاملين المجـاهدين . أمهات على هذا المستوى من الإيمان بـالغيب والتصديق بما بشر بـه رسول الله عليه الصلاة والسـلام ، ففي

باب « من أتاه سهم غَرْب فقتله » من كتاب الجهاد في الجامع الصحيح قال الإمام البخاري : حدثنا محمد بن عبدالله قال : حدثنا حسين بن محمد أبو أحمد قال: حدثنا شيبان عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبيَّ ﷺ فقالت : يا نبي الله تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غَرْب أو غَرَبٌ - فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء . قال : يا أم حارثة إنها جنان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » وفي رواية أخرى للبخاري ما يدل على صغر سن حارثة يومذاك ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام - وهو سيد الحكماء - وجّه الأمّ ونبّهها بأسلوبه الحكيم على كليمة بدرت منها ، وقد جاءت في باب « فضل من شهد بدراً» من كتاب المغازي إذ روى رحمه الله بسنده عن حُميد أنه قال : سمعت أنساً رضي الله عنه يقول : « أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام ، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله قد عرفتَ منزلةَ حارثة مني ، فإن يكن في الجنة أصبرْ وأحتسبْ ، وإن تكن الأخرى ترَ ما أصنع فقال : ويحك - أَوَ هبِلتِ - أوَ جنةٌ واحدة هي ؟ إنها جنان كثيرة وإنه في جنة الفردوس » .

وهنيئاً لحارثة ، البشارة بجنة الفردوس ! إنها البشارة التي تتألق سمواً ويتضوّع شذاها بالنفحات الإلهية من الكريم المنان . وقد صحّ عن النبي ﷺ بيان للفردوس ، بأنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، بين ذلك عليه الصلاة والسلام - كما سبق من قبل - في معرض الترغيب بصدق الإيمان ، والعمل الصالح ، والجهاد في سبيل الله ، والقيام بالعبادة على الوجه المطلوب ، وأن من سلك هذه السبيل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة : فتحت باب « درجات المجاهدين في سبيل الله » من كتاب الجهاد في الجامع الصحيح روى البخاري بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال النبي ﷺ : « من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، فقالوا : يا رسول الله أفلا نبشر الناس ؟ قال : إن في

الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ؛ فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، ـ أراه قال : وفوق عرش الرحمن ـ ومنه تفجّر أنهار الجنة » قال محمد بن فُليح عن أبيه : « وفوقه عرش الرحمن » .

ولا بد من ملاحظة أن الزكاة والحج وهما من أركان الإسلام الخمسة ، لم يرد ذكرهما في هذه الرواية ، فهل كان ذلك لأنهما لم يكونا فُرضا ؟ ذلك ما ذهب اليه ابن بطال ، وقال الحافظ ابن حجر : بل سقط ذكره ـ أي الحج ـ على أحد الرواة ، فقد ثبت الحج في الترمذي في حديث معاذ بن جبل وقال فيه : « لا أدري أذكر الزكاة أم لا » ؟ وأيضاً فإن الحديث لم يذكر لبيان الأركان ، فكان الاقتصار على ما ذكر إن كان محفوظاً لأنه هو المتكرر غالباً ، وأما الزكاة : فلا تجب إلا على من له مال بشرطه ، والحج فلا يجب إلا مرة على التراخي .

وجميل ما ذهب إليه صاحب « فتح الباري » من أن قوله ﷺ : « وجلس في بيته أو وجلس في أرضه التي ولد فيها » فيه تأنيس لمن حُرم الجهاد ، وأنه ليس محروماً من الأجر ، بل له من الإيمان والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة وإن قصَّر عن درجة المجاهدين .

هذا : وروايات الحديث يوضح بعضها بعضاً ؛ ففي قول أبي هريرة في رواية البخاري هنا : « فقالوا : يا رسول الله » الذي خاطبه بذلك، هو معاذ بن جبل كما في رواية الترمذي ــ التي سترد قريباً إن شاء الله ــ أو أبو الدرداء كما وقع عند الطبراني ، وأصله في النسائي ، لكن قال فيه : « فقلنا ».

وتحسن الإشارة إلى أنه كانت للعلماء وقفة عند قوله عليه الصلاة والسلام: «وإن في الجنة مائة درجة » فقد نقل الشراح عن الطِّيبي قوله : «هذا الجواب من أسلوب الحكيم ، أي بشِّرهم ــ والخطاب لحذيفة ـ بدخولهم الجنة بما ذكر من الأعمال ، ولا تكتف بذلك ، بل بشِّرهم بالدرجات . ولا تقتنع بذلك ، بل بشرهم

بالفردوس الذي هو أعلاها ». واتجه ابن حجر إلى أنه لو لم يرد الحديث إلا كما وقع هنا - أي في رواية أبي هريرة عند البخاري - لكان ما قال - يعني الطيبي - متجهاً، لكن وردت في الحديث زيادة دلت على أن قوله: « في الجنة مائة درجة » تعليل لترك البشارة المذكورة. فعند الترمذي من رواية معاذ المذكورة « قلت: يا رسول الله ألا أخبر الناس؟ فقال ﷺ: ذر الناس يعملون، فإن في الجنة مائة درجة » فظهر أن المراد: لا تُبشِر الناسَ بما ذكرته من دخول الجنة لمن آمن وعمل الأعمال المفروضة عليه، فيقفوا عند ذلك، ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه من الدرجات التي تحصل بالجهاد، وهذه هي النكتة في قوله: « أعدها الله للمجاهدين » به. وإذا تقرر هذا، كان فيه تعقب على قول بعض شرّاح المصابيح - ويعني الطيبي -: سوّى النبيُّ ﷺ بين الجهاد وعدمه، وهو الجلوس في الأرض التي ولد فيها؛ ووجه التعقب: أن التسوية ليست على عمومها، وإنما هي في أصل دخول الجنة، لا في تفاوت الدرجات كما قررته والله أعلم. وليس في هذا السياق ما ينفي أن يكون في الجنة درجات أخرى أعدت لغير المجاهدين دون درجة المجاهدين.

ويرى العينيُّ أن استدلال الحافظ ابن حجر بالزيادة التي وردت في حديث معاذ غير مسلّم؛ لأن الزيادة المذكورة: في حديث معاذ بن جبل، وكلام الطيبي وغيره: في حديث أبي هريرة؛ فكيف يكون ما في حديث معاذ، تقليلاً لما في حديث أبي هريرة ... إلى آخر كلامه. وذهب القسطلاني إلى القول بأن ما قاله العيني ليس مانعاً مما ذكره الحافظ ابن حجر؛ فالحديث يبين بعضه بعضاً، وإن تباينت طرقه واختلفت مخارجه ورواته، على ما لا يخفى.

وصلى الله وسلم وبارك على البشير النذير الذي علّم أمته الكتاب والحكمة، ووضع الأمور مواضعها، فجعل من الخبر عما أعدّ الله لعباده الصالحين — على درجاتهم مجاهدين وغير مجاهدين — حافزاً أيَّ حافز على تجويد العمل في الدنيا والإخلاص فيه، وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته وجاهد في سبيل الله إلى يوم الدين..

الرحلة مع مشاهد القيامة، كما حملت أخبارها الكلمات الهاديات في كتاب الله وفي بيانه من حديث خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، مذكرة ـ أبداً ـ بما ورد في دواوين السنة من الترغيب النبوي الكريم في سلعة الله الغالية ، جنة الخلد التي جعلها نُزلاً لأهل التقوى من عباده ، وأودعها من الكرامة لهم ، مالا يعلم علمه إلا هو سبحانه ! فمن خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل .

وكما تذكِّر الرحلة بتلك السلعة العظيمة المباركة ، تذكِّر بما بيَّن عليه الصلاة والسلام ، من الطرائق التي لابد من سلوكها من أجل الفوز بها ، وهي طرائق تتناسب مع عظمتها ورفعة منزلتها . وهل ينسى المؤمن ما حملت نصوص السنة إلى الأمة من ترهيبه عليه الصلاة والسلام ــ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ــ من نار الجحيم، مصير من طغى وآثر الحياة الدنيا ، وبيان المنهج الذي لابد من أخذ النفس به على صعيد التصور والسلوك ، كيما يزحزح المرء ـ برحمة الله ــ عن النار ، ولا يكون في عداد من يصلونها ويدعون هنالك ثبوراً ، ويقال لهم : لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً .

ومن دلائل نبوة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ، ما جاء في هديه ـ وهو يثير كوامن الإيمان في نفوس أهل الإيمان شوقاً إلى الجنة ــ كما سلف في رواية البخاري وغيره ـ بالفردوس ، وأنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ودعوته المسلمين أن يسألوا الله الفردوس ــ إذا سألوه ــ أن يجعلهم من أهلها خالدين فيها أبداً لا يصيبهم فيها ظمأ ولاهم عنها ينزفون .

وعلى سنن العناية بما يزيد الدلالة وضوعاً في الكشف عن الغرض الهادي في النصوص ، يبدو لزاماً ، إيراد الحديث على ما هو في رواية الترمذي عن معاذ رضي

الله عنه ، لما في تلك الرواية من البيان لأمر أُجمل في رواية البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، واستشهد بذلك الحافظ ابن حجر وهو يتناول النص بالشرح والتحليل . ذلك ما أخرج رحمه الله في باب «ما جاء في صفات درجات الجنة » من سنن الترمذي « الجامع الصحيح » عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من صام رمضان ، وصلّى الصلوات ، وحج البيت ــ لا أدري أذكر الزكاة أم لا ــ كان حقاً على الله أن يغفر له ، إن هاجر في سبيل الله أو مكث بأرضه التي ولد فيها . قال معاذ : ألا أخبر بها الناس ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذر الناس يعملون ، فإن في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلى الجنة وفوق ذلك عرش الرحمن ، ومنها تفجرّ أنهار الجنة ، فإذا سألتم الله ، فاسألوه الفردوس » والحديث حسن تشهد له رواية النسائي في باب « درجة المجاهد في سبيل الله » من « السنن ». فقد أخرج النسائي رحمه الله في هذا الباب عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أقام الصلاة وآتى الزكاة ومات لا يشرك بالله شيئاً ، كان حقاً على الله أن يغفر له، هاجر، أو مات في مولده . فقلنا : يارسول الله ألا نخبر بها الناس فيستبشروا بها ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ، ولولا أن أشقّ على المؤمنين ، ولا أجد ما أحملهم عليه ، ولا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا بعدي ، ما قعدت خلاف سرية ، ولوددت أني أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل » إسناده حسن .

والحق أن النبي عليه الصلاة والسلام ــ كما يبدو من هديه الحكيم ومنه ما نرى في هذه النصوص ـ كان حريصاً ـ وهذه حقيقة سبقت الإشارة إليها غير مرة ـ على التكامل في التوجيه الهادف إلى بناء الإنسان المسلم ، بحيث يرغّب في جنة عدن وما تزدان به من إكرام الله للبررة أهل التقوى من عباده ، ولا يدع أن يجمع إلى ذلك، إرشاده المؤكد إلى أخذ الأسباب الموصلة ـ بفضل الله ـ إلى المقصود ، وذلك بانتهاج سبيل المنيبين ، عملاً للصالحات ، وإكثاراً من القربات وفعل الطاعات،

وجهاداً في سبيل الله .. كل أولئك مع استيفاء شريطين أساسيتين هما : أن يكون العمل وفق هديه عليه الصلاة والسلام ، وأن يكون خالصاً لله عز وجل لا تشوبه شائبة رياء أو غرض دنيوي قريب؛ فسلعة الله الغالية ـ وهي الجنة ــ لا تنال بالإهمال والقعود مع القاعدين ، ولكن تنال بالنصَب في طاعة الله على النهج المرضيِّ لله ولرسوله ، وذلكم هو التوفيق للفوز برحمة الله تعالى ، التي تجعل من يفوز بها ، أن يكون في مثوى المتقين يوم يقوم الناس لرب العالمين .

ولقد يكون من الخير التذكير بأن منهجه عليه الصلاة والسلام ، فيما نحن بسبيل إيضاحه ، يؤول بالمسلم والمسلمة إلى أن لا يتخذ المرء من البشارة العظيمة في الآخرة ، وسيلة إلى الكسل أو التقاصر عن أي عملٍ أُخروي في طاعة الله ، بل يتخذ من البشريات ، حافزاً يصل به إلى أطيب الثمرات بعون الله .

أخرج النسائي تحت عنوان « ما لمن أسلم وهاجر وجاهد » من كتاب الجهاد في السنن الصغرى « المجتبى » عن عمرو بن مالك الجنْبي أنه سمع فَضَالة بن عُبيد يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا زعيم ـ والزعيم الحميل ـ لمن آمن بي وأسلم، وهاجر ، ببيت في ربض الجنة ، وبيت في وسط الجنة ، وأنا زعيم لمن آمن بي وأسلم وجاهد في سبيل الله ببيت في ربض الجنة ، وببيت في وسط الجنة ، وببيت في أعلى غرف الجنة ؛ من فعل ذلك ، فلم يدع للخير مطلباً ولا من الشرّ مهرباً ، يموت حيث شاء أن يموت ».

الزعيم : الكفيل وكذلك الحميل . ربض الجنة : أدناها ، وربَض المدينة : ما حولها . جاء في النهاية : ربض الجنة : بفتح الباء : ما حولها خارجاً عنها تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدينة وتحت القلاع .

وليس هذا ـ ومثله كثير ـ فحسب ، بل وردت بعض الأحاديث التي تكشف عما يحصل بين المؤمن والشيطان من الصراع ؛ لما أن الشيطان يريد أن يصدَّ المؤمن عن سبيل الله وطرائق الخير ، وكيف أن المؤمن ـ بصدقه ، وعزمه في طلب مرضاة

الله ، ومتابعته طريـق الجنة المحفوف بالمكاره والصعاب ـ فـاز بأن يكون حقاً على الله ـ وهو المنعـم المتفضل سبحانه ـ أن يُحلَّـه دار المقامة خالـداً فيها ونعمت دار المتقين .

روى النسائي في الباب السـابق ذكره من « المجتبى » عن سبرة بـن الفاكه أو ابن أبي الفـاكه رضي الله عنه قال : سمعـت النبي ﷺ يقول : « إن الشيطـان قعد لابن آدم بـأطرقه ، قعد في طـريق الإسلام فقـال : تسلم وتذر دينك وديـن آبائك وآباء آبـائك، فعصاه وأسلـم، وقعد له بطـريق الهجرة فقـال: تهاجر وتـذر أرضك وسماءك؟ وانما مثل المهاجر كمثـل الفرس في الطِّوَل ، فعصاه فهاجر ، ثـم قعد له بطريق الجهاد ، فقـال : تجاهد ؟ فهو جهد النفس والمال ، فتقاتـل فتقتل ، فتُنكَح المرأة ويقسم المال ، فعصاه فجاهد . قال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخلـه الجنة ، أو وقصته دابة كـان حقاً على الله أن يدخله الجنـة » قال الحافظ في « التهذيب » وهو يترجم لسَبُرة . وفي إسناد حديثه اختلاف ، وقال وهو يترجم لـه في « الإصابة » : صحـابي نزل الكوفـة له حديـث عند النسائي بـإسناد حسن إلا أن في إسناده اختلافاً ، وجاء بالحديث الذي نحن بصدده ثم قال : وقد صححه ابن حبان .

الطِّـوَل : بكسر الطاء وفتـح الـواو : الحبل الـذي يشد أحـد طـرفيه في وتـد والطـرف الآخر في يـد الفرس ، وهـذا من كـلام الشيطان ومقصـوده ـ كما يقـول العلماء ـ أن المهاجر يصير كالمقيّد في بلاد الغربة لا يدور إلا في بيته ولا يخالطه إلا بعض معارفه ، فهـو كالفرس في طِوَل لا يدور ولا يرعـى إلا بقدره ، بخلاف أهل البلاد في بلادهم ؛ فانهم مبسوطون لا ضيق عليهم ، فأحدهم كالفرس المرسل .

وما مـن ريب في أنه بقدر مـا يكون المرء صادق الشوق إلى الجنـة ، والفوز بما يكون من كرم الله في أرجائها بعد الأهوال الشداد التي تضرب على الناس بالأسداد في عرصـات القيامـة ، يكون جـدَّ حريـص على عمل الصـالحات ، والإكثار مـن

الطاعات والبعد عن المخالفات ، والبذل في سبيل الله أكثر وأكثر ، بدءاً بالأعمال المفروضة التي افترضها الله على عباده واجتناب المحرمات .

وهنيئاً لأهل الاستقامة وصلاح القول والعمل ، ما بشَّر به رسول الله ﷺ .

والسعيد السعيد من انتفع بهديه عليه الصلاة والسلام انتفاعاً ينعكس على أعمال الجوارح والقلب .

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريـرة رضي الله عنهما قالا : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « والذي نفسي بيده ـ ثلاث مرات ـ ثم أكبّ ، فأكبّ كل رجلٍ منا يبكي ، لا يدري على ماذا حلف ، ثم رفع رأسه في وجهه البشرى ، فكانت أحبّ الينا من حُمْر النعَم ، قال : ما من عبـد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع ، إلا فتحت لـه أبواب الجنة وقيل : ادخل بسلام » أخرجه النسائي في « باب وجوب الزكاة » وهو حديث حسن .

حُرمت عليه الجنة

لا يخفى أنـه لا يبلغ المرء ما يبلغ أهـل الرضى ، مـن دخول الجنة يوم الـدين والفوز برضوان من الله أكبر ، إلا بأن ينسج على منوالهم ، ويأخذ نفسه بما أخذوا به أنفسهم مـن الطاعة لله ولرسـوله عليه الصلاة والسـلام ، طاعة قائمـة على العلم بالدين ، خالصةً لا تشوبها الأهـواء، ولا نزوات النفس وزخرف الشيطان ؛ فسلعة الله الغالية : ثمنُها متسق مع سموِّهـا ، ورضوان الله لا ينال بالعبث والانحدار إلى سلـوك الغـافلين ، ولكن ينـال بـالجد والاجتهـاد في العمـل للآخـرة ، والتعـرض لنفحات الله ، على ساحة العبودية الخالصة له سبحانه . ومن عقل عن الله ورسوله ذلك، كان حريّـاً أن لا يحيد عن الصراط السوي ، وأن ينعم بالنفحـات الربانية ، ويحظى برحمة المولى جـل وعلا التي لاغناء لمخلوق عنها . وإن رحمة الله قـريب من المحسنين .

ولما كانت الأعمال بالخواتيـم ـ كما أخبر الرسول عليه الصلاة والسـلام ـ كان مطلوبـاً من المؤمن ـــ وهو يطمـح إلى جنة عرضهـا السماوات والأرض ، لا يمسُّ أهلها نصَبٌ ولا يمسُّهم فيها لغوب ـــ أن يكون حريصاً الحرص كلَّه على أن يكون على المحجة البيضاء ، يخاف أن تـزلَّ به القدم ، فلا يصبر على طـريق النجاة صبر المجدّين ، ولا يقف من الشهوات والفتن الموقعات موقف الذين يرجون رحمة الله ، ويخافون من عذابه يوم الدين ، فيختم له بمصير الغافلين .

وفي حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ما يُبين عما يؤول إليه أمر بعض الناس من الخسران المبين ، بـالحرمان من دار المقامة جنة النعيـم ، بسبب انقلاب حالهم ، وتغيُّر ما بأنفسهم؛ الأمر الذي يدخـل الرعب الشديد إلى النفس، من أن تتقاعس في الخير ، أو تتهاون في عمل صالح ، طمعاً بطول السلامة وبعد الأجل،

ويحرك القلب إلى مزيد من اليقظة الإيمانية ، خشيـة أن ينال المؤمن ما نال هؤلاء ـ والمُعاذ الله ـ يـوم زاغوا عن الطريق الآمنـة ، طريق العبودية وحسـن الإنابة إلى الله والتوجه إليه وحده بالاستعانة على لأواء الطريق ، والعمل الصالح والجهاد .

هنا مَثَلٌ ممن كـان قبلنا ـ والتذكير يدعو للاعتبار ــ نراه في رجل أخبر رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصـدوق ـ أنه بادر بقتل نفسه ضجراً ممـا هو فيه من ضرٍ أصابه ، ونزوعـاً إلى عدم الرضى بقضاء الله ؛ فقد نكأ جُـرحَه ، لا للتداوي ، ولكن ليتحر ، فحرّم الله عليه الجنة . ذلكم ما أخـرج الإمام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء من الجامع الصحيح « باب ما ذكر عن بني إسرائيل » حيث قال رحمه الله : حدثنا محمد قال : حدثنا حجاج قال : حدثنا جرير عن الحسن ـ يعني البصريَّ ـ قال : حـدثنا جنـدب بن عبـدالله رضي الله عنه في هـذا المسجد ، ومـا نسينا منـذ حدثنـا ، وما نخشى أن يكون جنـدب كذب على النبي ﷺ قال : قـال رسول الله ﷺ : « كان فيمن كان قبلكم رجل به جُرح ، فجزع ، فأخذ سكينا ، فحَزَّ بها يده ، فما رقأ الدم حتى مات . قال الله تعالى : بـادرني عبدي بنفسه حرَّمت عليه الجنة ». قال العلماء : المسجد المذكور هنا : مسجد البصرة .

والملاحظ أن الحسـن البصري رحمه الله ـ حرصاً منـه على الإفادة من حـديث رسول الله ﷺ ، والاتعاظ بالواقعة المخبر عنها ـ عمد إلى إدخال المزيد من القناعة إلى نفوس السامعين ، والوثوق بما يقال ؛ فهو يشير بقوله : « وما نسينا منذ حدثنا » ـ كما يقول الحافظ ـ إلى تحققه لما حدّث به ، وقرب عهده ، واستمرار ذكره له .

أما قوله : « وما نخشى أن يكـون جندب كذب على النبي ﷺ » : ففيه إشارة إلى أن الصحـابـة عدول ، وأن الكـذب مـأمـون من قبلهـم ، ولا سيما على النبـي صلوات الله وسلامـه عليه . وعلى هذا تقع الطمـأنينة الكاملة ، ولا عـذر في عدم الاعتبار .

وقال الإمام مسلم : حـدثني محمد رافع قال : حدثنا الزبير ــ وهو محمد ابن

عبدالله بن الزبير ـ قال : حدثنا شيبان قال : سمعت الحسن يقول : « إن رجلاً ممن كان قبلكم خرجت به قُرحةٌ ، فلما آذته انتزع سهماً من كنانته ، فنكأها فلم يرقأ الدم حتى مات . قال ربكم : قد حرّمت عليه الجنة . ثم مدّيده ـ أي الحسن البصري ـ إلى المسجد فقال : إي والله لقد حدثني بهذا الحديث جندب عن رسول الله ﷺ في هذا المسجد ».

وله من رواية أخرى عن وهب بن جرير قال : حدثني أبي قال : سمعت الحسن يقول : حدثنا جندب بن عبدالله البجليُّ في هذا المسجد ، فما نسينا ، وما نخشى أن يكون جندب كذب على رسول الله ﷺ . « خرج برجل فيمن كان قبلكم خُراج » فذكر نحوه .

وأنت ترى أن ما جاء في الحديث من قول النبي ﷺ : « قال الله : بادرني عبدي بنفسه » هو كناية عن استعجال الرجل المذكور الموت ، فكان ذلك طريقه إلى أن يُحرِّم الله عليه الجنة التي أعدّها المولى لعباده الطائعين الراضين بقضائه ، المسلمين وجوههم إليه في السراء والضراء ، والتي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وهذا الحرمان دلّ عليه قوله جل ثناؤه ـ كما جاء في هذا الحديث القدسي ـ: « بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة » لأن ذلك جارٍ مجرى التعليل للعقوبة . وهو ما ما أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخبر به المسلمين فينتفعوا به ، ويعتبروا الاعتبار الذي يحول دونهم ودون أن يقعوا ـ لا سمح الله ولا قدر ـ فيما وقع فيه ذلك الرجل ـ ممن كان قبلنا ـ الذي كشف صلوات الله وسلامه عليه عن صنيعه في مواجهة الابتلاء ؛ فبدلاً من أن يحمد الله ويرضى بقضائه فيما قضى ، ويأخذ بالأسباب ، ضاق ذرعاً بالقدر ، فضجر واستعجل الموت، تخلصاً مما هو واقع به، ناسياً ما هو مسبغ عليه من نعم الله الظاهرة والباطنة ، فكان أن استحق هذا النكال الشديد « بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة » .

لقد استعجل الموت بتعاطـي سببه من إنفاذ مقاتله ، فجعـل له فيه اختياراً . عصى الله فناسب أن يعاقبه . ودلّ ذلك على أنـه فعل ما فعل استعجالاً للموت ، لا قصداً للمداواة التـي يغلب على الظن الانتفاع بها . قال الإمـام النووي : ثم إن هذا محمول على أنـه نكأها ـ أي خـرقها وقسرها وفتحها ــ استعجالاً للموت ، أو لغير مصلحة ، فـإنه لو كـان على طريـق المداواة التي يغلب على الظـن نفعها ، لم يكن حراماً ـ والله أعلم ـ وما من ريب ـ كما ذكرت آنفاً ـ في أن العبرة بهذه الواقعة، تكمن في أن لا يقع المؤمـن فيما يعكر صفو الطريق الموصلة ــ بفضل الله ورحمته ـ إلى جنة الخلد يوم القيامة، يوم ترى أهل التقوى الذين وجهوا وجوههم في العقيدة والعمل ، إلى الذي فطر السماوات والأرض حنفاء مسلمين له سبحانه ، في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وسبيل الجنـة : عماده التوحيد الخالص ، وصـدق التوجه إلى مقلـب القلوب جل شـأنه ، في العبادة والعمل ، والـرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ... وكـل ما هو من ذلك كله بسبب .

فالجنة ــ سلعة الله الغالية ــ دار الكرامة والرضـوان التي يتحرق شوقـاً إليها المتقون الذين صفت عن الأكدار قلوبهم،وأخلصت التوجه إلى الكريـم نفوسهم.. هذه الـدار الكريمـة المبتغاة ، تنتظر راغبيهـا الذيـن يخلصون القصـد ، ويحسنون التزود على طريق الرحلة إليه ، بل تشتاق إليهم كما يشتاقون إليها .

وفي ظل الحقيقـة التي هـدى إليها الإرشاد النبـوي للأمـة ، تطالعنـا الأخبار الموثقة ،أن ما حدث لذلك الرجل من بنـي إسرائيل ، حدث ما يشبهه لرجل كان في ساحة الجهـاد مع المسلمين في حنين ، ودلّ ما حدث على أنه ليـس بذاك ؛ فقد قاتل هذا الرجل قتالاً شديداً ، ولكن زَيْغَ القلب جرّه إلى التي ينأى عنها المؤمنون، فحُرم الجنـة وكان مـن أهل الجحيـم . أخرج الإمـام مسلم في صحيحـه عن ابـن المسيَّب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « شهدنا مع رسول الله ﷺ حنيناً ، فقال

لرجل ممن يُدعى بالإسلام : هذا من أهل النار . فلما حضرنا القتال ، قاتل الرجل قتالاً شديداً ، فأصابته جراحة ، فقيل : يا رسول الله ، الرجل الذي قلت آنفاً . إنه من أهل النار ، قاتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات . فقال النبي ﷺ : إلى النار ، فكاد بعض المسلمين أن يرتاب .. فبينما هم على ذلك ، إذ قيل : إنه لم يمت، ولكن به جراحاً شديداً ، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح ، فقتل نفسه. وأُخبر النبي ﷺ بذلك ، فقال : الله أكبر ، أشهد أني عبدالله ورسوله ، ثم أمر بلالاً فنادى في الناس : أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ».

هذا : وفي قول أبي هريرة : « فكاد بعض المسلمين أن يرتاب » أثبتت (أن) مع (كاد) وهو جائز ولكنه قليل .

وصلى الله وسلم وبارك على من لا ينطق عن الهوى، فقد أطلعه الله على حقيقة ذلك الرجل ومصيره . وأنى لمن هو على هذه الشاكلة ، أن يكون من أهل الجنة وقد حاد عن سبيلها ، لذا كان يوم القيامة الحرمان منها ــ كما أخبر إمام الصادقين ــ وسبحان مقلِّب القلوب ، ونسأله تعالى أن يثبتنا ، فضلاً منه وإحساناً، بقوله الثابت ويجعلنا يوم الآزفة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

من جميل ما أكـرم الله به أمتنا التي أعزها الله بالإسلام ، مـا زخرت به دواوين السنـة المطهرة ، مـن الدلالـة على أبواب الخير التـي إن أحسن المؤمـن ولوجهـا، وصلت به إلى منازل الأبرار في جنة الفردوس مثوى عباد الله الصالحين .

وهذه الحقيقة هي في أحد وجهيها : حافز من أعظم الحوافز على تلبية النداء، والصبر على ما يوجبه سلوك الطريق الصاعدة إلى تلك المنازل ، وذلك بنقد الثمن الـذي لابد مـن نقـده ؛ إيماناً وجهـاداً في سبيـل الله وصبراً على المكاره . وهـي في وجهها الآخر : فيض من فيض الكرم الإلهي من لدن رب كريم ، خزائنه ملأى لا ينقصها عطاء ، ويده سحاء بالجود الذي لا ينقطع ، وهو الغني الحميد .

ومما يشهد لهذا من الكتاب العزيز : تلـك الآية الكريمة التي عبّرت عن عقد التبايع بين الخالـق سبحانه وتعالى وبين المؤمنين على السلعة الغـالية، ذات القدر العظيم ، ذلكم قول الله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ..** ﴾.

فالمؤمنون عقدوا مع مولاهم تبارك وتعالى هذه البيعة؛ رضىً واختياراً من غير ثبوت خيار ، موقنين بأن السلعة التي هي محور المقصد؛ من الخسران البيّن والغبن الفاحش: أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة ، تذهب لذتها وشهوتها ، وتبقى لـوعتها وحسرتها ، ولـذلك رضـوا ببذل الأنفـس والأموال ثمنـاً لها . غير أن المولى الكريم جلّ ثناؤه لم يبتغْ منهم نفوسهم وأموالهم طلباً للربح عليهم، بل ليظهر أثر الجود والكرم في قبول المبيع مع عيبه، والإعطاء عليه أجلّ الأثمان ، ثم جمع لهم بين الثمن والمثمـن . ولمتأمل أن يتـأمل قصة جـابر بـن عبدالله ـ وقـد اشترى منه ﷺ

بعيره ، ثم وفّاه الثمن وزاده ، وردّ عليه البعير ـ وكان أبوه عبدالله رضي الله عنه قد قاتل مع النبي عليه الصلاة والسلام في وقعة أحد ، فذكّره بهذا الفعل حال أبيه مع الله ، وأخبره « أن الله أحياه وكلّمه كفاحاً وقال : يا عبدي تمنَّ علي ». قال الإمام ابن القيم رحمه الله : فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق ، فقد أعطى السلعة ، وأعطى الثمن ، ووفق لتكميل العقد ، وقبل المبيع على عيبه ، وأعاض عليه أجلَّ الأثمان ، واشترى عبده من نفسه بماله، وجمع له بين الثمن والمثمن ، وأثنى عليه ، ومدحه بهذا العقد ، وهو سبحانه الذي وفقه له وشاءه منه .

وهنا تتجلى للمؤمن تلك الثمرات الطيبة ، التي يجنيها من وراء الصدق في طلاب الجنة، مستشعراً أنها تستحق أكثر وأكثر ، وأن التهاون في شأنها، سفه لا ينزل إلى دركه سفه ؛ لذا ، فهو يخاف على نفسه تسويلات الهوى وشياطين الإنس والجن، ويحاذر أن يقع ـ في شأن الآخرة ـ بما لا تحمد عقباه .

وهو إن وُفق للصدق في طلب السلعة الغالية ، وسعى لذلك سعيه وهو مؤمن، فاز بعطاء أوفر وأعظم ، كما سلفت الإشارة إلى ما كان من إكرام الله جل وعلا أولئك الذين عقدوا معه ـ تباركت أسماؤه ـ عقد المبايعة التي عبر عنها قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... ﴾ الآية.

وقد أسعدتنا من قريب وقفة مع قوله عليه الصلاة والسلام : « قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . واقرؤوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ .

والمؤمن الموفق لاستشعار هذه الحقيقة في المعتقد والسلوك ، تقتضيه النظرة المحيطة المتكاملة ، أن يخشى أشد الخشية مما توعّد الله به من سقطوا في مهواة الضلال، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا مع الغافلين، أولئك الذين تهبط بهم الغفلة إلى أن يبارحوا طريق الجنة إلى طريق غيرها ، وهي طريق لاحبة مظلمة ، لا تلبث

أن تقـذف بهم إلى نار الجحيـم ، مـع أن ظاهـر الحال ــ فيما يبـدو للناس ــ أنهم يعملون بعمل أهل الجنة ، لأن الأعمال بالخواتيم ، وله سبحانه عاقبة الأمور .

ومن هذا المنطلق ، يبدو لزاماً إعطاء مـزيد من العناية ، لتجلية هذه الحقيقة التي صحبنا لها رواية الإمام مسلم في شأن الـرجل الذي كان يبدو للناس أنه على طريق الجنـة ، ولكن النبي محمداً ﷺ أبان للنـاس أنه من أهل النـار ، وليس من الجنة وأهلها في شيء ، ثم جاءت الواقعة التي أكدت صحة وصدق ما أبان رسول الله ﷺ وهو المبلغ عن ربه ولا ينطق عـن الهوى . فتحت باب « الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها » مـن كتاب الرقاق في الجامع الصحيح روى الإمـام البخاري عن سهل بن سعد السـاعدي رضي الله عنه أنه قال : « نظر النبـي ﷺ إلى رجل يقاتل المشركين ـ وكـان من أعظم المسلمين غناءً عنهـم ـ فقال : من أحـب أن ينظر إلى رجل من أهل النار ، فلينظر إلى هذا . فتبعه رجل ، فلم يزل على ذلك حتى جُرح ، فاستعجل الموت ، فقـال بذبابة سيفه ، فـوضعه بين ثدييه ، فتحامـل عليه ، حتى خرج من بين كتفيـه . فقال النبي ﷺ : إن العبد ليعمـل ـ فيما يرى الناس ــ عمل أهل الجنة ، وهو من أهل النار ، ويعمل ـ فيما يرى الناس ـ عمل أهل النار ، وهو من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بخواتيمها » .

معنى « وكان مـن أعظم المسلمين غناءً عنهم » أي كفاية . وذبـابة السيف : حده وطرفه .

هكذا يدل الحديث ـ بـرواياته المختلفة ـ أن مطلوباً من المسلـم ـ وهو يطمع أن يدخله المولى في أهل الجنة الذين هم فيها خالدون ـ أن يأخذ حذره من نزغات الشياطين ، وتسـويلات النفس والهوى ؛ وإذا مسّه طـائف من الشيطان تـذكّر ، فتاب وأناب فكان من المبصرين ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون ﴾ وكما يرجو المسلم رحمة الله ومغفرته، يخشى عذابه إن هو حاد عن الجادة ، وتمرّغ في حمأة الزيغ الصارف عـن موائد الخير ، فالله غفور رحيم، والله شديـد العقاب . قال ابـن بطال : في تغييب خـاتمة العمل عن العبـد حكمة

بالغـة ، وتدبير لطيـف ؛ لأنه لـو علم ــ وكان ناجياًــ أُعجب وكسِـل ، وإن كان هالكاً ازداد عتواً . فحجب عنه ذلـك ليكون بين الخوف والرجاء . وقد روى الإمام الطبري عن حفص بن حميد أنه قال : قلت لابن المبارك : «رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً ، فقلت في نفسي : أنـا أفضل مـن هذا ، فقـال: أَمْنُكَ على نفسـك أشد مـن ذنبه». قال الطبري : «لأنه لا يدري ما يؤول إليـه الأمر ؛ لعل القاتل يتوب فتقبل توبته ، ولعل الذي أنكر عليه يختم له بخاتمة السوء» .

وهنـا لابد مـن الإشارة إلى أن كـلام كلٍ مـن عبدالله بـن المبارك وأبي جعفـر الطبري لا يقتضي التقليل مـن شأن جـريمة القتـل ظلماً ، فقاتـل العمد المسلـمَ: ظلمُه ظلم شديد ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً ﴾ سورة النساء : آية ٩٣ . ولكن الأمر يدور حول العلاقـة القلبية بين هـذا القاتـل وبين مولاه ؛ إذ الأعمال بـالخواتيم ، فلعلـه تاب وأناب ، علماً بأن التوبـة لاتستوفي شرائطها كاملة إلا بأداء حقـوق العباد والتحلل من المظالم ، مع استيفاء شرائطها الأخرى . والمؤمن في الحالات كلها ،لا يأمن مكر الله ويخاف من الحور بعـد الكور ، لأن الأعمال بـالخواتيم، كما بين رسـول الله عليه الصلاة والسلام .

هذا ولعل واقعة الرجل الذي عمد إلى إزهـاق روحه بيده : قد كانت في غزوة حنين، كما سبـق فيما روى الإمـام مسلم، أو في غـزوة خيبر ، كما سنـرى في بعـض روايات البخاري ، وليس ما يمنع أن تكـون قد تكررت ؛ فقد أورد الإمام البخاري القصة أيضـاً في « باب غزو خيبر » مـن كتاب المغازي في الجامـع الصحيح ، كما أوردها في كتاب القـدر تحت باب ترجم له بقـوله : «باب العمل بـالخواتيم » قال رحمه الله : حدثنـا حبّان بـن موسى قـال : أخبرنا عبدالله قـال : أخبرنا معمـرٌ عن الزهري عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :« شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر ، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن يدّعي الإسلام : هذا من أهل النار ، فلما حضر القتال ، قاتل الرجل من أشد القتال ، وكثرت به الجراح ، فأَثْبَتَتْه، فجاء

رجل من أصحاب النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، أرأيت الذي تحدثت عنه أنه من أهل النار ! قاتل في سبيل الله من أشد القتال ، فكثرت به الجراح ، فقال النبي ﷺ: أما إنه من أهل النار ، فكاد بعض المسلمين يرتاب ، فبينما هو على ذلك ، إذ وجد الرجل ألم الجراح فأهوى بيده إلى كنانته ، فانتزع منها سهماً فانتحر بها ، فاشتدَّ رجال من المسلمين إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يارسول الله صدّق الله حديثك ، قد انتحر فلان فقتل نفسه ، فقال رسول صلى الله عليه وآله وسلم: يا بلال قم فأذن : لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ».

ولابد من ملاحظة ما جاء في هذه الرواية من قول أبي هريرة في شأن الرجل المنتحر : «فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدّعي الإسلام ». وجاء في رواية سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عند مسلم : « فجرح الرجل جُرحاً شديداً ، فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه بالأرض ، وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل على سيفه ، فقتل نفسه ؛ فخرج الرجل ـ يعني الذي قال : أنا صاحبه ـ يقف معه إذا وقف ويسرع إذا أسرع ـ إلى رسول الله ﷺ فقال : أشهد أنك رسول الله . قال : وما ذاك ؟ قال : الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار ، فأعظم الناس ذلك ، فخرجت في طلبه حتى جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه في الأرض، وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل فقتل نفسه ، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وإن الرجل يعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » .

ألا ما أعظم أن يكون المؤمن ـ وهو يعمل الصالحات ويجاهد في سبيل الله ـ شديد اليقظة، متوكلاً حق التوكل على مولاه عز وجل، يخاف على نفسه أن تزل به القدم، فتكون عاقبته السوأى يوم الحساب ، وأن يدأب على سلوك الطريق التي يسلكها الصالحون وهم يعبدون ربهم حق العبادة مخلصين، فتحسن العاقبة ـ بعون الله وفضله ـ وينعم هناك، بما أعدّ الله لهؤلاء الأبرار من صنوف الخير والعطاء.

الجنة برحمة الله.. والنجاة بعفوه

كثيرة هي الطرائق التي دلّ الشارع الحكيم المسلم عليها ، ودعاه إلى تحمل تبعاتها وأعبائها ـ وإن كان يجمعها الصراط المستقيم ـ إذا كان صادق الرغبة في أن يكون نزله يوم الحسرة نُزُلَ السعداء الموفقين ، حيث العطاء الرباني ، والفضل الذي لايدانيه فضل ، وذلك هو الفوز الكبير .

وقد سبقت الإشارة غير مرة من ذي قبل ، إلى العديد من تلك الطرائق المباركة، كما ورد ذكرها في حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، بياناً لما دلت عليه آيات الكتاب الكريم .

والسعيد الموفق : من يقبل عن الله ورسوله، فيأتي يوم القيامة ـ وقد بلغت الشدة الشادَّة منتهاها ـ زادُه على عتبة المساءلة: أعمالٌ صالحة خالصة ، عملها في الدنيا، راجياً رحمة مولاه وإحسانه ، فإذا بالعاقبة تكون خير عاقبة ، وإذا بالجنة التي تُزلف للمتقين ، تكون مأواه ومستقره خالداً فيها ، ولا تسل عما يكون من الفرح بفضل الله ، ورحمته حينذاك .

غير أن العلماء ـ وهم يواجهون النصوص في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وما دلّت عليه من ترتُّب دخول الجنة على العمل ، ثم من الكشف عن أن هذه العاقبة المبتغاة لكل مؤمن إنما تكون برحمة الله تعالى ولطفه بعباده المؤمنين ـ نبّهوا إلى أن الجنة ـ كما يقول الإمام ابن القيم ـ إنما تُدخَل برحمة الله تعالى ، وليس عمل العبد مستقلاً بدخولها وإن كان سبباً ، ولهذا أثبت الله تعالى دخولها بالأعمال في قوله : ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ ونفى رسول الله ﷺ دخولها بالأعمال بقوله : « لن يدخُلَ أحدُكم الجنةَ بعمله ..... » الحديث قال رحمه الله موضحاً ذلك في كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » . ولاتنافي بين الأمرين لوجهين : أحدهما ـ ما

ذكره سفيان وغيره قال : كانوا يقولون : النجاة من النار بعفو الله ، ودخول الجنة برحمته ، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال . ويدل على هذا حديث أبي هريرة الذي يبين أن أهل الجنة إذا دخلوها ، نزلوا فيها بفضل أعمالهم. والثاني ـ أن الباء التي نفت الدخول في قوله ﷺ : « لن يدخلَ أحدُكم الجنةَ بعمله » هي باء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابلاً للآخر ، والباء التي أثبتت الدخول في قوله تعالى : ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ هي باء السببية التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره ، وإن لم يكن مستقلاً بحصوله . وقد جمع النبي ﷺ بين الأمرين بقوله : «سددوا وقاربوا وأبشروا ، واعلموا أن أحداً منكم لن ينجوَ بعمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته ». ومنْ عَرف الله تعالى وشهد مشْهدَ حقه عليه ومشهدَ تقصيره وذنوبه ، وأبصر هذين المشهدين بقلبه ، عرف ذلك وجزم به والله سبحانه وتعالى المستعان .

ولكم يكون العبد على الجادة ، إذا وعى هذه الحقيقة، وأعطاها حقها على ساحة المعاملة مع رب العالمين ، فلا يدع أن يعمل ويجدَّ في طلب دار المتقين ، آخذاً نفسه بما يقتضيه طلبها والشوق إليها ـ وقد حفت بالمكاره ـ والرغبةُ في الزحزحة عن النار ـ وقد حفت بالشهوات ـ من صبر ومصابرة وبعد عن سبل الغافلين . وفي الوقت نفسه يُحاذر أن يُنسيه العمل ، والمسارعة إلى الأخذ بأسباب النجاة ، والفوز يوم الدين ، أن الأمر أولاً وآخراً بيد الخالق الحكيم جلّ وعلا ؛ أكانت العاقبة المرتقبة ، أعلى عليين ، أو كانت سواء الجحيم ، وطوبى لمن أدركته العناية الربانية فكان من الناجين ، وفاز فوز من يدخلون الجنة برحمة مولاهم الكريم المنان ، ويقال لهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾.

هذا : والحديث الذي أشار إليه ابن القيم والذي ينصُّ على أن أهل الجنة إذا دخلوها ، نزلوا فيها بفضل أعمالهم ، هو ما أخرجه الترمذي في جامعه ـ سنن الترمذي ـ بالسند إلى سعيد بن المسيّب « أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه ، فقال له أبو هريرة : أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد : أفيها

سوق ؟ قال : نعم أخبرني رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم ، ثم يؤذن في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون ربهم، ويبرز لهم عرشه ، ويتبدّى لهم في روضة من رياض الجنة ، فتوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم ـ وما فيهم دنيّ ـ على كثبان المسك والكافور ، وما يرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلساً . قال أبوهريرة قلت: يارسول الله وهل نرى ربنا ؟ قال : نعم هل تتمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ قلنا: لا ، قال : كذلك لا تمارَوْن في رؤية ربكم . ولا يبقى في ذلك المجلس رجلٌ إلا حاضره الله محاضرة حتى يقولَ للرجل منهم : يا فلان بنَ فلان أتذكر يوم كذا وكذا ؟ فيذكَّر ببعض غدراته في الدنيا ، فيقول : يارب أفلم تغفر لي ؟ فيقول : بلى ، فَسَعَةُ مغفرتي بلغت بك منزلتك هذه ؟ فبينما هم على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم ، فأمطرت عليهم طيباً لم يجدوا مثل ريحه شيئاً قط ، ويقول ربنا تبارك وتعالى : قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة ، فخذوا ما اشتهيتم ؛ فنأتي سوقاً قد حفّت به الملائكة ، فيه مالم تنظر العيون إلى مثله ، ولم تسمع الآذان ، ولم يخطر على القلوب ، فيحْمل لنا ما اشتهينا ، ليس يباع فيها ولا يشترى ، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضُهم بعضاً قال : فيقبل الرجل ذو المنزلة المرتفعة فيلقى من هو دونه ـ وما فيهم دنيٌّ ـ فيروعه ما يرى عليه من اللباس ، فما ينقضي آخر حديثه ، حتى يتخيَّلَ إليه ما هو أحسن منه ، وذلك أنه لا ينبغي لأحد أن يحزنَ فيها ، ثم ننصرف إلى منازلنا ، فيتلقانا أزواجنا ، فيقلن : مرحباً وأهلاً ، لقد جئت وإن بك من الجمال أفضل مما فارقتنا عليه ، فيقول : إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار ، وبحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا ». قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد روى سويد بن عمرو بن الأوزاعي شيئاً من هذا الحديث.

وعند المنذري في « الترغيب والترهيب» : (وقد رواه ابن أبي الدنيا عن هِقْلِ ابن زياد كاتب الأوزاعي أيضاً واسمه محمد وقيل : عبدالله وهو ثقة ثبت احتج به مسلم وغيره عن الأوزاعي قال : نبئت أن سعيد بن المسيب لقي أبا هريرة فذكر

الحديث).

وما من ريب في أن من يهمه أمر العقبى، ويكون مطمح بصره وبصيرته أبداً ، ما يمكـن أن يناله، يوم يقـف الناس للمساءلة بين يـدي جبار السماوات والأرض رب العالمين .. ما من ريـب في أن من يهمه ذلك ويأخذ عليـه مجامع قلبه ، يتخذ مما ورد في شـأن الجنة ونعيمها عـن رسول الله عليـه الصلاة والسلام ، حـافزاً على العمل والإكثار مـن الطاعات والقربات مـع صدق التوكل على مـولاه جل وعلا الذي بيده الخلق والأمر وكل شيء عنده بمقدار .

والمؤمـن حين تزيـن أعمالَه هـذه الإشراقةُ المبـاركةُ ، يكـون عند الله بـالمنزلـة الرفيعة، فهو سبحـانه لا يضيع عنده عمل عامل ، ولكـم كان رسول الله ﷺ وهو إمام المربين النـاصحين على غاية السمـو في المنهج والأسلوب عنـدما كان يـوجه أصحابه ـــ ومن ورائهم الأمة ـــ إلى أن الارتباط قائم بين الحال التي يكـون عليها المؤمن في الـدنيا ، وبين مـا ينالـه من الكرامـة في دار المقامـة جنة النعيـم . أخرج الترمذي بسنده عن محمـد بن عبدالله بن مسلم عن أبيه عن أنـس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : « سئِل رسول الله ﷺ : مـا الكوثر ؟ قال : ذاك نهر أعطانيه الله ـ يعني في الجنـة ـ أشدُ بياضـاً من اللبن وأحلى مـن العسل ، فيها ـ أي الجنـة ـ طيْر أعناقها الجُزُر ، قال عمر: إن هذه لناعمة ، قال رسول ﷺ :« أكَلَتُها أحسُن منها ». قال أبو عيسى : هذا حـديث حسن غريب . ومحمد بن عبدالله بـن مسلم هو ابن أخي ابـن شهاب الزهـري ، وعبدالله بن مسلـم قد روى عـن ابن عمر وأنـس بن مالك.

أرأيت : يقـول البشير النذير لعمر : «أكَلَتُهـا أحسن منها» ! اللهـم اجعلنا من أهل كرامتك في الـدنيا ويوم الدين ، وهب لنا من لدنـك رحمة تدخلنا بها ـ يا الله ـ دار كرامتك في عبادك الصالحين .

الشوق إلى الجنة.. والخوف من النار

ليس عجباً من العجب، أن يأخذ التطلـع إلى العاقبة يوم القيامة ،على المؤمن مجامع قلبه ونفســه، فيقدُر هذا الأمر الخطير قدره ، لأن ذلـك عنوان العمل العقليِّ للمعاد ، ووضع الأمور مواضعها دون وكـس أو شطط ؛ فالناظر فيما ورد في كتاب الله وما فصّله النبي ﷺ من أخبار يوم الفصل، وكان على بينة من ربه ، واستنارة في بصيرته ، لايملـك إلا أن يحسب لتلكم السـاعات العصيبات حسـابها ، ويعمل جاهداً دونها توانٍ أو كسل، في سبيل أن يرضى الله عنه ، فيزحزح عن الجحيم التي تسعَّر لأهل الضلالـة الذين يصدون عن سبيل الله ، ويُدْخَـل الجنة التي كتب الله أن تكون هي المأوى لعباد الرحمن المتقين ، الذين عقلوا عنه جل شأنه وعن رسوله عليـه الصلاة والسـلام ، ما ورد في شـأن اليوم الآخـر من حقـائق لاريب فيهـا ، فتفتحت قلوبهم رجاءً وخوفاً ، وسمت هممهم على طريق السالكين الذين ناصبوا الغفلة العداء ، فانتصروا على أنفسهم ، ولم تحل المكاره دونهم ،ودون أن يكونوا من أهل القرب في جنات النعيم .

والحق أن عباد الرحمن هؤلاء ـ الذين نـرجو أن يكتبنا الله برحمته في زمرتهم ـ بما عقلوا عـن الله ورسوله ، وصـدقوا بما جاء غـاية التصـديق ، قد سلمـت لهم نقطة البدء على طريق الاستقامة والعمل الذي يقرب إلى الله ، وأنعم بذلك حافزاً يرتفع بصاحبه فوق الشهوات والمثبطات ويمكِّنه ـــ بعون الله وفضله ـ من الانتصار على عدو المؤمنين الشيطـان وعلى نفسه الأمارة بالسـوء . ولنا بأصحـاب رسول الله ﷺ ومن تبعهـم بإحســان الأسوة الطيبـة النافعة ، على طـريق التصـديق الـذي يثمر العمل، ويعلي همة السـالكين إلى كل مـا فيه مـرضاة الله ورسـوله ، والفـوز بعقبى الدار في جنة الخلـد التي وُعد المتقون . فـأين من ذاك النعيم المقيـم في دار المقامة التي فيهامن المكارم مالا يحصى ، ومن العطاء الجزيل مالا يستقصى ، نعيم زائل

في الـدنيـا انفانيـة لايخلـو ــ مهما طال أمـده واتسعـت مسـالكـه وشعبه ــ مـن المنغِّصات، ناهيك عما يمكن أن يُعقبه من المسؤولية بين يدي رب العالمين .

لقـد انتفع أصحـاب النبي ﷺ ، ومـن سار على نهجهـم عبر التاريـخ، بهذا التصديـق ، الذي بعث في عقـولهم وقلوبهم الطمأنينـة، وشدَّ عزائمهـم إلى عمل الصالحات ، بأوسع معاني العمل الصالـح في الدنيا . والإكثار من القربات؛ علماً وعملاً وعبـادة وجهاداً وتـزكية للنفـس، وحملاً لها على الجادة ، حتى غـدا الواحـد منهم ــ وهو يسعى ويسهـم في بناء الحياة الإسـلامية ـ كـأنه يتحرك في عـرصات القيامة؛ فهو يروح ويغدو ، وقلبه مفعم بالشوق إلى الجنة ، والإحساس بشدة الهول يوم القيامـة وترقب المصير ، وهكذا يتحرك على حـال كأنه يرى معهـا الجنة والنار في عالم الشهود .

وما أشد حاجة الأجيال المسلمة التي تواجه التحديات الفكرية والعملية، إلى التزام هـذا المنهج الـذي هو عنـوان التكامـل والعقلانيـة الحقيقية، التـي تنشىء الحضارة السليمة من العِـوَج ، وتسعد الإنسان في الدنيا ويوم الـدين . قال الإمام البخاري في كتاب المناقـب من الجامع الصحيح : حدثني محمـد بن الحكم قال : أخبرنا النضر قال : أخبرنا إسرائيل قال : أخبرنا سعد الطائي قال : أخبرنا مُحِلُّ بن خليفة عن عـدي بن حاتم قال : « بينـا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجـل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطـع السبيل ، فقال : ياعديُّ ، هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد أنبئتُ عنها . قال : لئن طالت بك حياة لترينَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله ـ قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دُعَّـار طيء الذين قد سَعَّروا البـلاد؟ ـ ولئن طالت بك حيـاة لتفتحنَّ كنوز كسرى ! قلت: كسرى بن هُرمُـز ؟ قال : كسرى بن هُرمُز ! ولئن طـالت بك حياة لترينَّ الرجل يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضـة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منـه . وليلقينَّ الله أحدُكـم يوم القيـامة وليـس بين وبينه تـرجمان يترجم لـه ، فيقولـنّ : ألم أبعث إليـك رسولاً فيبلغَك ؟ فيقـول: بلى . فيقول : ألم أعطـك مالاً وأُفضلْ عليـك ؟ فيقول : بلى، فينظرُ عـن يمينه فـلا يرى إلا جهنم ، وينظـر عن

يساره فلا يـرى إلا جهنم . قال عدي : سمعـت النبي ﷺ يقول : اتقوا النـار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد شِقَّ تمرة ، فبكلمة طيبة . قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل مـن الحيرة تطوف بـالكعبة لا تخاف إلا الله ، وكنـت فيمن افتتـح كنوز كسرى بـن هُرمز ، ولئن طالت بكم حياة لترونّ ما قال أبو القاسم ﷺ : يُخرج ملء كفه» .

الظعينة : المرأة في الهودج وهي في الأصل اسم للهودج . والحيرة : بكسر الحاء وفتح الراء : كانـت بلد ملوك العرب الذين تحت حكـم آل فارس ، وكان مليكَهم يومئـذ إياسُ بـن قبيصة الطـائي، وليها مـن تحت يد كسرى بعـد قتل النعمان بـن المنـــذر ، ولهذا قال عدي بن حاتم : فأين دُعار طيِّء ؟ والدعَّار : جمع داعر وهو الشـاطر الخبيـث المفسد ؛ والمراد : قُطَّـاع الطـريق. وطـيِّء على وزن سَيِّد : قبيلـة مشهورة منها عدي بـن حاتم راوي الحديث، وبلادهم مـا بين العراق والحجاز ، وكانـوا يقطعون الطـريق على مـن مرّ عليهـم بغير جِوار يجمعـه معهم ، ولـذلك تعجـب عديٌّ رضي الله عنـه ، كيف تمر المرأة عليهـم وهي غير خـائفة . وسعّـروا البلاد : أي أوقدوا نار الفتنة . والمعنـى أنهم ملؤوا الأرض شراً وفساداً وهو مـستعارٌ من استِعار النار وهو توقُّدُها .

والحديث رواه أحمد في المسند والترمذي في الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ وعرضت روايـة الترمذي لإسلام عدي ،وجـاء فيها من تذكير النبـي ﷺ وإخباره عما العبد ملاقيه في الآخـرة « فإن أحدكم ملاقي الله ، وقائلٌ لـه ما أقول لكم : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ؟ فيقول : بلى، فيقول: ألم أجعل لك مالاً وولداً ؟ فيقول : بلى ، فيقول : أين ما قـدمت لنفسك ؟ فينظر قُدّامه ، وبَعْـدَه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، ثم لا يجد شيئاً يقي به وجهه حرَّ جهنم، لِيَقِ أحدكم وجهَه النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد ، فبكلمـة طيبة ، فـإني لا أخاف عليكـم الفاقـة فإن الله نـاصركم ومعطيكم ، حتـى تسير الظعينة فيما بين يثـرب والحيرة أكثر مـا تخاف على مطيتها السَّرَق، قال: فجعلت أقول في نفسي : فأين لصوص طيِّء» . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غـريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بـن حرب . وروى شعبة عن سماك بن حرب عـن عبّاد بن حُبَيْش عن عـدي بن حاتم عـن النبي ﷺ الحديث

بطولـه . وفي رواية أحمد شيء من الاختلاف اليسير مـع تفصيل يؤكـد عمق إيمان عدي بكل ما أخبر بـه الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد جـاء في تلك الرواية : «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسـلام تقول : اتَّبَعَه ضعفة الناس ومن لا قوة لـه وقد رَمَتهـم العـرب . أتعرف الحيرة؟ قلـت: لم أرهـا وقـد سمعت بها ، قـال : فوالذي نفسي بيده، ليتمنّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحنَّ كنوز كسرى بن هُرمُز . قال : قلت كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم كسرى بن هرمز ، ولَيُبذَلنّ المال حتى لا يقبله أحد . قال عدي ابن حاتم : فهـذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت مـن غير جوار ، وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بـن هرمز . والذي نفسي بيده لتكون الثـالثة لأن رسول الله ﷺ قالها » .

وقسم عدي هذا له دلالته اليقينية على صدق إيمانه ، إنه يقسم على أن الثالثة كائنة لا محالة لأن من لا ينطق عن الهوى قالها .

ولكم يقوي هـذا اليقين من العزائم ، ويشحذ من الهمم ، ويـدفع إلى المزيد من عمل الصالحات ، وتجاوز المكاره والصعاب في سبيل الوصول إلى جنة المأوى، دار الكرامـة التي أُكُلها دائم وظلهـا ، وفيها مـا تشتهي الأنفس وتلـذ الأعين، بله رضوان الله ورؤية وجهه الكريم .

وقد روى البيهقي هـذا الحديث بطوله وجاء فيه : « وليلقينّ الله أحـدُكم يوم يلقاه ليـس بينه وبينـه ترجمان يترجم لـه فيقول : ألم أبعـث إليك رسـولاً يبلغك ؟ فيقول : بلى فينظر يمنة فلا يرى إلا جهنم ، وينظـر عن شماله فلا يرى إلا جهنم . قال عـدي : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اتقـوا النار ولو بشـق تمرة ، فإن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة » .

اللهم آمنا وصدقنـا بما جاء به نبيك محمد عليه الصـلاة والسلام . ونسألك ـ وأنت الجواد الكريم ـ أن تنجينا من النار وتدخلنا الجنة مع أحبائك المحسنين .

تمام النعمة.. والخواتيم

الإيمان العميق بما أخبر بـه النبي عليه الصـلاة والسلام من الغيـب بـعامة ، وعما هو كائن يـوم القيامة وعن الجنة وأهلهـا والنار وأهلها بخاصـة ، كان منطلق الجيل المبارك جيل الصحـابة رضي الله عنهم، ثم من تبعهم بـإحسان ، إلى صالح العمل ، مصحوباً ذلك بالتفاعل الصادق مع الترغيب بالجنة والترهيب من النار . كل أولئك مع الإمسـاك بعاتق الميزان ، الذي يقفهم على أن العمـل لدخول الجنة ليس هو الأمر كلَّه ـ كما أسلفنا ـ ولكـن لابد من رحمة الله وفضله . وليس بدعاً أن يكون هـمُّ المؤمن دخول الجنـة والنجاة من النـار ! لأن ذلك عنوان رضـى الله عن العبد وقـرب العبد مـن مولاه سبحـانه ، وإنما يكـون تمام النعمة بـذلك ، كما بين الرسـول عليه الصـلاة والسلام؛ أخـرج الترمذي بسنـده في كتاب الـدعوات مـن الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ عن معـاذ بن جبل أنه قال : « سمع النبي ﷺ رجلاً يدعـو يقول : اللهم إني أسألك تمام النعمـة ، فقال : أيُّ شيء تمام النعمة ؟ قال : دعـوةٌ دعوت بها أرجـو بها الخير . قال : فـإن من تمام النعمـة دخولَ الجنـة والفـوزَ مـن النار ». «وسمـع رجـلاً وهـو يقـول : ياذا الجلال والإكـرام ، قـال : استُجيب لـك فسل ». «وسمـع النبي ﷺ رجـلاً وهو يقـول : اللهم إني أسـألك الصبر ، فقال : سألـت الله البلاء ، فسله العافيـة » قال أبو عيسى : هـذا حديث حسن .

ألا وإن هـذا البيان مـن النبي ﷺ الـذي أوضـح بدقـة وجلاء ، أن مـن تمام النعمة دخـول الجنة والفوز من النـار ـ وإن كان سببـه دعاء هذا الرجـل ـ إلا أن الكلام يحمل طابع العموم من المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وهو المبين عن الله ما أراد ، وخصوص السبـب لا يمنع عموم اللفظ ، فهي حقيقة ؛ مـن الواجب أن تكون في حسبان المسلم وهو يكدح في هذه الـدار الفانية ،عالماً أن الآخرة هي دار

القرار . وأنه إذا كان حريصاً على تمام النعمة بدخول جنة الخلد دار النعيم، والفوز بالزحزحة عن النار التي لا يصلاها إلا الأشقى ، فليسلك الطريق إلى ذلك ، عملاً وصدق توجه إلى الله عز وجل . وذلك ما نجده في سير الأبرار من هذه الأمة ، الذين استقاموا على الطريقة، فكانت لهم بشرى الخير في الدنيا، والخلود في جنات عدن في الآخرة . وقد سبقت الإشارة إلى ما كان عليه أبو بكر رضي الله عنه من صدق الإيمان ،وعلو الهمة في الله تعالى ، ونصرة دينه ، وحرصه ـ وهو في مقدمة الرعيل الأول من الصحابة ـ أن يكون له نصيب في كل باب من أبواب الخير التي تنهض بأصحابها إلى دار الرضوان يوم القيامة ، حيث يفوز المتقون بما أعد لهم من جنات وعيون .

عقد الإمام البخاري رحمه الله في كتاب الصوم من الجامع الصحيح باباً ترجم له بقوله باب : « الريان للصائمين » ثم روى بسنده عن ابن شهاب عن حميد بن عبدالرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة ياعبدالله هذا خير ؛ فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة . فقال أبوبكر رضي الله عنه : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم ». وبهذا اللفظ رواه الترمذي من طريق حُميد بن عبدالرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال : حديث حسن صحيح .

وكان من فقه البخاري للنصوص ومدلولاتها ، أنه رأى في الحديث المذكور واحدة من مناقب أبي بكر رضي الله عنه وهي سعيه الحثيث ـ كما أسلفنا ـ إلى أن لا يدع طريقاً يوصل ـ بعون الله ـ إلى دار المقامة إلا سلكه ، وأنه يتطلع ـ بصدق ـ إلى أن يدعى إلى الجنة من الأبواب التي ذكرها رسول الله ﷺ كلها . فهو مسارع أبداً إلى مغفرة من الله وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

وهكذا نقع على هذا النص في كتاب فضـائل الصحابة من الجامع الصحيح وقد أورده البخـاري من طـريق أخرى عـن ابن شهاب ، كما هـي عادتـه في الأعم الأغلب أنه يعدد مواطن إيراد الحديث بكـامله أو يقطعه تبعاً لما يحمل من المعاني بطرق أخرى ، تضمن فوائد في السند مع الفوائد المستوفاة من المتن . وجاءت هذه الرواية بنحو تلك مع شيء من الاختـلاف . قال رحمه الله : حدثنا أبو اليمان قال : أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرنا حميد بـن عبدالرحمن بن عوف أن أبا هريرة قـال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول : « مـن أنفـق زوجين في شيء من الأشيـاء في سبيل الله دعي من أبـواب ـ يعني الجنةً ـ يا عبدالله هذا خير . فمـن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان مـن أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان مـن أهل الصدقة دعـي من باب الصدقـة ، ومن كان من أهـل الصيام دعي من باب الريـان . فقال أبوبكر : ما على هذا الذي يدعـى من تلك الأبواب من ضرورة. وقال: هل يدعى منها كلِّهـا أحد يارسول الله ؟ قال: نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبـابكر » . وقول النبي ﷺ : «وأرجو أن تكون منهم يـا أبابكر » هو للتحقق فقد قرر العلماء أن الرجاء من الله تعـالى ومن نبيه ﷺ واقع . وبهذا التقرير يدخـل الحديث ــ كما قال الحافـظ ـ في فضـائل أبي بكر . ووقـع في حديـث ابن عباس عنـد ابن حبان في نحـو هذا الحديث التصريح بـالوقوع لـه رضي الله عنه . ولفظه قال : « أجل وأنت هو يا أبابكر ».

قال صاحب الفتح: وفي الحديث من الفوائد: أن من أكثر من شيء عرف به، وأن أعمال البر قـلّ أن تجتمع جميعهـا لشخـص واحـد على السواء ، وأن الملائكـة يحبـون صـالحي بني آدم ويفـرحـون بهم.. إلى أن قـال : وأن تمني الخير في الـدنيـا والآخرة مطلوب.

وهذا الإشراق المثمر في سلوك عقلاء الأمة ونابهيها ، يذكّر بما سبقت الإشارة إليه أن الأعمال بـالخواتيم، كما أوضـح ذلك النبـي عليه الصـلاة والسلام ، وهـي حقيقة لابد أن تأخذ مكانها في نهج المسلم وهو يكدح في هذه الحياة ومرمى بصره

ما يؤول إليه الأمر بعد أن ينقضي أجله فيها كما يكشف عن أن الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا على يقظة تامة تجعلهم على ذكر من الحقيقة التي تباعد بينهم وبين الغفلة والغرور ، حتى وجدنا صحابياً كأبي هريرة رضي الله عنه يستعين بذلك على تأويل ما ورد في أخبار من قبلنا من سوء عاقبة أناس كانوا ـ فيما يرى الناس ـ على الطريق السوي ، وساءت حالهم في خاتمة المطاف ، فأصبحوا من أهل النار، بعد أن كانوا ـ فيما يبدو ـ من سالكي طريق الجنة مع السالكين .

أخرج أبو داود في كتاب الأدب من السنن عن عكرمة بن عمار قال : حدثني ضمضم بن جوْس قال : قال أبو هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين ؛ فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة ، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول : أقصر ، فوجده يوماً على ذنب، فقال له : أقصر ، فقال : خلِّني وربي ، أبُعثتَ عليَّ رقيباً ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك ، أوقال : لايدخلك الله الجنة . فقبض الله أرواحهما ، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال الرب تعالى للمجتهد : أكنت عالماً ، أو أكنت على ما في يدي قادراً ؟ وقال للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار ». قال أبوهريرة : « والذي نفسي بيده لتكلَّم والله بكلمة أوبقت دنياه وآخرته » ورواه أيضاً الإمام أحمد في المسند بإسناد حسن .

أوبقتْ : أهلكتْ . وأراد أبو هريرة بالكلمة ، قول أحد الرجلين لصاحبه : «والله لا يغفر الله لك ، أو والله لايدخلك الله الجنة ». ومما يؤيد هذا ما روى مسلم عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ حدَّث أن رجلاً قال : والله لا يغفر الله لفلان ، وأن الله تعالى قال : من ذا الذي يتألّى عليَّ أن لا أغفر لفلان ؟ فإني قد غفرت له وأحبطت عملك » .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا ، وارزقنا حسن الأدب معك ومع خلقك والبعد عن مزالق النفس والهوى ، وأن نعي بقلوبنا وعقولنا الدلالة العميقة لقوله ﷺ : « إنما الأعمال بالخواتيم ».

أهل الجنة.. والرضوان

كلما طالت رحلة المؤمن مع حديث رسول الله ﷺ في شأن يوم الدين ومشاهده العظام وما يتبع ذلك من دخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار، تجلّى له فضل الله الذي لاينفد ، ورحمته التي ينشرها على عباده المخلصين ، فيما يضاعف لهم من العطاء ، ويعظم لهم من المثوبة .

ولا يخفى أنه ـ جل شأنه ـ قد فتح لعباده أبواب الرحمات في الدنيا ، بما يسّر من سبل الخير ودلّ عليها ؛ وجماع ذلك: طاعته سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ؛ فمن أطاع الله ورسوله على ما يرضى الله ورسوله ، فقد سلك الطريق إلى دار الخلود ، ومن فعل غير ذلك ، انقلب على عقبيه وكان من الخاسرين . أخرج البخاري بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى . قالوا : يارسول الله ومن يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى ».

وعن أبي هريرة أيضاً روى الإمام أحمد في المسند بلفظ « كل أمتي يدخل الجنة يوم القيامة قالوا : ومن يأبى يارسول الله ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » .

وما من ريب في أن طاعة رسول الله من طاعة الله ، ذلكم قول الله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره: «من أطاعني فقد أطاع الله » وما يقال في الطاعة ، يقال في المعصية أعاذنا الله من ذلك . فمن قام بتلك الطاعة حق القيام فعمل بسنة النبي ﷺ أدخله الله جنته وأفاض عليه من النعيم الخالد مالا يحيط به إلا هو جل وعلا ، ومن عصى رسول الله بإعراضه عن سنته واتباع غير هديه ، فقد أبى ، أي امتنع بذلك العصيان

الذي هو عصيان الله عز وجل ، عن دخول الجنة .

وما أشد احتياج العبد ، إلى فهم هـذه الحقيقة التي لا يتمارى بها عاقل ، كيما يكون الأخذ بتكاليفهـا ، بريده إلى دار المقامة التي يفـوز بها السعداء الأبرار . قال الحافظ رحمه الله : أبـى بفتح الموحدة . أي امتنـع . وظاهره أن العمـوم مستمر لأن كلاً منهم لا يمتنع من دخول الجنة ، ولذلك قالوا : ومن يأبى ؟ فبين لهم أن إسناد الامتناع إليهم عن الدخول مجاز عن الامتناع عن سنته، وهو عصيان الرسول عليه الصلاة والسلام . وهـذا ـ كما سبق ـ معصية لله تبارك وتعـالى ،لأن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى وهو المبلغ عن الله ما أراد ؛ فعصيـان المبلِّغ عنه سبحانه عصيان له لأن الأمر ــ أولاً وآخراً ـ مردُّه إليـه جل وعلا . وقال العلماء في قـوله ﷺ : « من أطاعنـي فقد أطـاع الله » بأن هـذه الجملة منتـزعة مـن قولـه تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ أي لأني لا آمر إلا بما أمر الله به ، فمن فعل ما آمره به فإنما أطاع مـن آمرني أن آمـره . قال صـاحب الفتـح عند الكـلام على هذا الحديـث : ويحتمل أن يكون المعنـى :لأن الله أمر بطاعتي؛ فمـن أطاعني ، فقد أطـاع أمر الله بطاعتـي ، وفي المعصية كذلـك . والطاعة هـي الإتيان بـا لمأمور به والانتهـاء عن المنهي عنه ، والعصيان بخلافه .

فليشهد أهل الشوق إلى جنة الخلد هـذا المشهد ، وليعقلوا عن رسول الله ﷺ هذه القـاعدة النورانيـة التي هي حـق اليقين ، والساعـي إلى الفوز يوم القيـامة لا كفران لسعيه ، والله شاكر له سعيـه المضموم ـ في رحاب الإيمان ـ إلى الإرادة الحقة والعزيمة الصادقة ﴿ ومن أراد الآخـرة وسعى لها سعيها وهو مـؤمن فأولـئك كان سعيهم مشكوراً ﴾.

هذا : وقد أخرج أحمد والحاكم من طريق صـالح بن كيسان عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه الى رسول الله ﷺ : « لَتَدخُلُنَّ الجنة إلا من أبى وشرد على الله شِراد البعير » وسنده على شرط الشيخين ولـه شاهـد عن أبي أمـامة عنـد

الطبراني ، وسنده جيد .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الموصوف بالإباء ـ وهو الامتناع ـ إن كان كافراً ، فهو لا يدخل الجنة أصلاً ، وإن كان مسلماً فالمراد ـ كما تدل النصوص ـ منعه من دخولها مع أول داخل إلا من شاء الله تعالى . وشرد على الله شِراد البعير : أي نفر وأدبر عن طريق الحق الذي يصل به إلى دار الخلد بفضل الله ورحمته . قال ابن الأثير في النهاية : فيه « لتدخلن الجنة أجمعين إلا من شرد على الله » أي خرج عن طاعته وفارق الجماعة . يقال : شرد البعير يشرد شُروداً وشِراداً : إذا نفر وذهب في الأرض .

ولكم يحسن المؤمن صنعاً حين يحرص مخلصاً أن يكون من أهل الطاعة لله ولرسوله ، ولا يشرُدَ عنها ـ بالمخالفة والإعراض ـ شِراد البعير الذي نفر وضلّ السبيل فأحدقت به المخاطر من هنا وهناك !!

وبعد : فمن ذا الذي يتمارى، بأنه مهما عمل العبد، فنِعَم الله عليه أوفر وأوفر، ومننه أكثر أكثر ، وما يتفضل عليه مولاه ـ بعد أن يدخله الجنة وينعم بها تزدان به من الخيرات الحسان ـ أمر أعظم من أن ندركه نحن العبيد الضعفاء ، بعلمنا القليل القليلُ ووسائلنا المحدودة ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ عقد الإمام البخاري في كتاب التوحيد من الجامع الصحيح باباً ترجم له بقوله : « بابُ كلام الرب مع أهل الجنة » وقال هناك : حدثنا يحيى بن سليمان قال : حدثني ابن وهب قال : حدثني مالك عن زيد بن أسلمَ عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : «إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ! فيقول : ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك ؟ فيقولون : يارب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » ورواه مسلم بهذا اللفظ عن أبي سعيد وقد

جاء تحت باب تـرجم له الإمام النـووي في شرحه للصحيح بقولـه :« باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً ». وقد أخرجه البخاري من قبل في الرقاق من طريـق معاذ بن أسد ولكن بلفظ « أنا أعطيكم أفضـل من ذلك » بدل «ألا أعطيكم أفضل من ذلك »؟ وبهذا اللفظ أخـرجه الترمذي في كتاب الجنة من « الجامع الصحيح » سنن الترمـذي بسنده عن زيد بن أسلم وقـال : هذا حديث حسن صحيح .

«رضواني » بكسر الراء وضمها . وفي حديث جابر ـ كما يقول الحافظ ـ «قال: رضواني أكبر ». وفيـه تلميح بقولـه تعالى : ﴿ ورضوان مـن الله أكبر ﴾ لأن رضاه سبحانه وتعالى ، سبب كل فوز وسعـادة ، وكل من علم أن سيده راضٍ عنه، كان أقر لعينه وأطيب لقلبه من كل نعيم لما في ذلك من التعظيم والتكريم . وواضح ما يدل عليه هذا الحديث من أن النعيم الذي حصل لأهل الجنة : لامزيد عليه ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾

وجميل ما ذهب إليه الشيخ أبـو محمد بن أبي جمرة في كتاب « بهجة النفوس » من أن في هذا الحديث، جواز إضافة المنزل لساكنه ، وإن لم يكن في الأصل له، فإن الجنة ملك لله عز وجل ، وقد أضافها لساكنها بقوله : يا أهل الجنة . والحكمة ـ كما يرى ـ في ذكر دوام رضاه بعد الاستقرار : أنه لو أخبر به قبل الاستقرار ، لكان خبَراً من باب علم اليقين ، فأخبر به بعـد الاستقرار ليكون من باب عين اليقين . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ فلا تعلـم نفس ما أخفي لهم مـن قرة أعين ﴾ قال : وفيه الأدب في السؤال ، لقولهم : وأي شيء أفضل من ذلك لأنهم لم يعلموا شيئاً أفضل مما هـم فيه ، فاستفهموا عما لا علـم لهم به. وفيه أن الخير كله والفضـل والاغتباط إنما هو في رضا الله سبحانه وتعالى . وكل شيء ما عداه ـ وان اختلفت أنواعه ـ فهو من أثر ذلك الخير ، وهـو النعيم الحقيقي . وفيه دليل على رضا كـلٍ من أهل الجنة بحاله، مـع اختلاف منازلهم وتنويع درجـاتهم،لأن الكل أجابوا بلفـظ واحد وهو «أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك » . والله المحمود على كل حال .

ثابت بن قيس.. الأدب والخوف من النار

المؤمن ــ وهو على بصيرة من ربـه ـ لا يفتأ ينظـر في هدي نبيه عليـه الصلاة والسلام ، ليعلم ماذا عليـه أن يعمل لإصلاح دينه الذي هو عصمـة أمره ، ودنياه التي فيها معاشـه ، وآخرته التي إليها معاده . ويدعو ربـه بتحقيق ذلك كما علمه الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهو واجد ـ بتوفيق الله تعالى ـ أن المصطفى محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، لم يدع أن يأخذ بالأيدي إلى كل ما هو فلاح في المعاش والمعاد ، وأن يحذر الأمة من كل ما يمت إلى الخسران الحقيقي بصلة أو نسـب . وذلك كله متسق تمام الاتساق مع عظمة الإسلام ، في شموله لأمور الدين والدنيا . والعاجلة والآجلة ... وهذا ما يذكرنا بواحدة من إشراقات الهداية في سلوكه عليه الصلاة والسلام ،حيث كان لا يدع ذكر الجنة والنار ، وأن الجنة حق ، وأن النـار حق، في أسمى لحظات العبودية لله عز وجل ـ وهو يتهجد في الليل يصليّ خاشعاً ، ويناجي ربه جل جلاله ضارعاً متقـرباً ــ وفي ذلك مـا فيه مـن تأكيـد العلاقـة بين الإيمان بالله وأسمائه الحسنى وصفاتـه العلى ، وبين الإيمان بالجنـة والنار ، لما أن هـذه العلاقـة بريـد العبوديـة الخالصة لله تبـارك وتعالى ، وإحسان العمـل في دار الدنيا استعـداداً لدار الجزاء، حيث لا دار بعد هذه الدار إلا الجنة أو النار .

أخرج البخـاري بسنده في كتاب التوحيـد من الجامع الصحيـح عن سليمان الأحول ، أن طاووساً أخبره أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول: « كان النبي ﷺ إذا تهجد من الليل قال : اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنـة حق ، والنـار حق، والنبيـون حق ، والسـاعة حـق ،

اللهم لك أسلمت وبك آمنت، وعليك تـوكلت ، وإليك أنبت، وبك خاصمت وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله إلا إنت» .

وله من روايـة أخرى في كتاب التهجد من الجامع الصحيـح « كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت قيِّم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمـد ، لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولـك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولـك الحمد أنت مَلِك السماوات والأرض ، ولـك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقـاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حـق، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حـق ، والساعة حق اللهم لك أسلمـت ، وبك آمنت، وعليك توكلت ، وإليـك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمـت فاغفر لي ما قدمت وما أخـرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنـت المؤخر لا إله إلا أنت ـ أو ـ لا إله غيرك » قال سفيان : وزاد عبـدالكريم أبو أميـة « ولا حول ولا قوة إلا بالله » قال سفيـان : قال سليمان بن أبي مسلم سمعه من طـاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ . ورواه مسلم بنحـو هذا وأخصر منه، ولكن بلفظ « أنت قيّام السماوات والأرض » .

هكذا كانت حال النبي ﷺ في صلته بربه سبحانه وتعالى . وفي الحديث ـ كما يلاحظ ـ زيادة معرفته صلوات الله وسلامه عليه بعظمة مولاه جل وعلا ، ومواظبته على الذكـر والدعـاء والثناء عليه سبحـانه ، مـع التضرع والإعلان الصـادق عن التوكل والإنـابة ، والاعتراف بالحقوق، والإقـرار بصدق الوعد والـوعيد، وأن الجنة حق ،وأن النار حـق ؛ وفي هذا الاقتران ـ كما أسلفت ـ ما فيـه من ضرورة أن يكون المؤمن على ذكر أبداً من أحقية وجود الجنة والنـار ، وما لذلك من الأثر البالغ على العمل في هـذه الدار استعداداً لما بعـد الموت ، وصدق التوجـه إلى قيوم السماوات والأرض وحسن الإنابة إليه والتوكل عليه .

ولقد انتفع الصحابة أيّما انتفاع بهذا السلوك المشرق المتميز من النبي ﷺ ـ وهم خير من تأسّى بمن أوجب الله التأسي به ـ فأحسنوا العمل مخلصين دينهم لله، وكانوا أهلاً لأن يتحقق لهم موعود الله من الفضل الكبير يوم المعاد ، بل فاز بعضهم بالبشرى الخاصة بجنة الله ، التي جُعلت نزل الأبرار المحسنين .

كان ثابت بن قيس بن شماس خطيب الأنصار ومن أرفع الصحابة صوتاً ، فلما نزل قوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ . بلغ من تقواه وحرصه على كمال الأدب مع النبي عليه الصلاة والسلام أن انحاز إلى بيته خوفاً من معاودة ما رآه سوء أدب معه ، وأن يكون قد حبط عمله بسبب ارتفاع صوته فوق صوت النبي ﷺ ، فبشره صلوات الله وسلامه بالجنة .

أخرج الإمام البخاري في المناقب وكتاب أعلام النبوة وفي التفسير من الجامع الصحيح بسنده عن موسى بن أنس بن مالك عن أنس رضي الله عنه « أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل : يارسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكّساً رأسه فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شرٌ . كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ، فقال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة ، فقال : اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة ».

والمعتمد أن الرجل الذي علم عِلمَ ثابت لرسول الله ﷺ هو سعد بن معاذ رضي الله عنه : قال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة قال : حدثنا الحسن ابن موسى قال: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البُناني عن أنس بن مالك أنه قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت

النبي﴾ إلى آخر الآية جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار . واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ ، فقال : يا أبا عمر : ما شأن ثابت ؟ أشتكى ؟ قال سعد : إنه لجاري ، وما علمت له بشكوى . قال: فأتاه سعد فذكر له قول الرسول ﷺ : فقال ثابت : أُنزلت هذه الآية ، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ ، فأنا من أهل النار ؛ فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : بل هو من أهل الجنة » وقال مسلم : حدثنا هُرَيم بن عبدالأعلى الأسديُّ قال : حدثنا المعتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يذكر عن ثابت عن أنس أنه قال : لما نزلت هذه الآية واقتص الحديث ولم يذكر سعد بن معاذ وزاد : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ، رجل من أهل الجنة .

هذا : وقد أشار البخاري في بعض الروايات ـ على عادته في التقصّي ـ إلى نزول آية الحجرات المذكورة وذلك فيما رواه ابن شهاب عن إسماعيل بن محمد بن ثابت قال . قال ثابت بن قيس بن شماس : «يارسول الله إني أخشى أن أكون قد هلكت، فقال: وما ذاك ؟ قال: نهانا الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا جهير » الحديث وفيه : فقال له عليه الصلاة والسلام « أما ترضى أن تعيش سعيداً وتموت شهيداً وتدخل الجنة ».

وكان من دلائل نبوته ﷺ ، أن ثابتاً رضي الله عنه قتل شهيداً في حروب الردة يوم مسيلمة، كما جاء في عدد من الروايات ؛ من ذلك ما جاء في «الطبقات» عند ابن سعد في آخر الرواية : « بل هو من أهل الجنة ». « فلما كان يوم اليمامة انهزم المسلمون فقال ثابت: أف لهؤلاء ولما يعبدون ، وأف لهؤلاء ولما يصنعون ، قال: ورجل قائم على ثلمة فقتله وقتل » : وروى البخاري «أنه قد تحنَّط يومها استعداداً للموت في سبيل الله» . وروى ابن أبي حاتم في تفسيره قصة ثابت وجاء في آخرها: قال أنس : «فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة ، كان في بعضنا بعض الانكشاف ، فأقبل وقد تكفن وتحنَّط فقاتل حتى قتل».

وجاء في رواية ابن المنذر في تفسيره ، ذكر القصة مطولة وفيها قول النبي ﷺ : «تعيش حميداً وتموت شهيداً» وفيها : «فلما كان يوم اليمامة ثبت حتى قتل».

صلى الله على رسول الله وهنيئاً للصحابي أدبه وورعه ، ثم الشهادة في سبيل الله ـ كما بشره سيد العالمين ـ والفوز بالجنة مع إخوان له أحياءٍ عند ربهم يرزقون .

رسول الله ﷺ.. وقصر عمر في الجنة

مهما بدأ المؤمن المصدق النظر وأعاد، فيما حملت الأخبار الصادقة عما يكون يوم القيامة، من سعة رحمة الله تعالى ، وبالغ فضله على من يدخلهم جنته التي يُزلفها لأحبائه المخلَصين ، فلن يبلغ شيئاً يذكر من مدى تلك الرحمة ، وما يكون من سابغ النعمة وبالغ الفضل .

والخير كل الخير ، في أن يتخذ المؤمن من تلك الأخبار التي هي حق اليقين، باعثاً كريماً قوياً على العمل الذي يسلك به ـ بعون الله وفضله ـ طريق أهل الفلاح الذين يسعدون بالعطاء الإلهي يوم الدين ، فينقلبون خير منقلب هناك ويتبوّؤون خير متبوّأ في نعيم لا ينفد ، ورضوان من الله أكبر .

هذه واحدة : وأما الثانية : فإنك كثيراً ما ترى أن الطريق المسلوكة إلى الجنة، تشمل فضيلة أخرى، وهي العمل نفسه الذي أخبر النبي ﷺ ، أنه طريق العبد إلى غرف الجنة التي تجري من تحتها الأنهار !! وما ظنك بتلك الموائد الربانية التي تدعو الصادقين الصالحين إليها ، كيما يكونوا في الآخرة من الفائزين ؛ وإنها لموائد كثيرة وفيرة غامرة بالخير ، كم تنفع المقبلين عليها ، أن لو استجاب المشوقون إلى الجنة وصدقوا في طلب أن يُدخَلوها ويزحزحوا عن النار . وعلى سبيل المثال لا الحصر : ها هي ذي دعوة النبي ﷺ إلى الاستغفار ، وهي دعوة يبين فيها عليه الصلاة والسلام سيد الاستغفار وثمرته ، فيحظى المستجيبُ ، بالاستنارة بالكلم الطيب توبة وإنابة ومناجاة لله تبارك وتعالى ، وفي الوقت نفسه ، يكون ذلك سبيله إلى ما هو مشوق إليه في يوم المعاد .

أخرج البخاري في كتاب الدعوات من الجامع الصحيح عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ربي

لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» . قال : «ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها ، فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة» وعند النسائي « فإن قالها حين يصبح موقناً بها فمات دخل الجنة ، وإن قالها حين يمسي موقناً بها دخل الجنة ».

وجاء الحديث عند الترمذي من رواية عثمان بن ربيعة عن شداد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له : «ألا أدلك على سيد الاستغفار ؟: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت وأبوء إليك بنعمتك عليَّ ، وأعترف بذنوبي ، فاغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، لا يقولها أحدكم حين يمسي فيأتي عليه قدرٌ قبل أن يصبح إلا وجبت له الجنة ، ولا يقولها حين يصبح فيأتي عليه قدرٌ قبل أن يمسي إلا وجبت له الجنة ».

هكذا يبشر النبي ﷺ من قال هذه الكلمات ، التي يتضوَّع منها شذى العبودية الخالصة التي لا تبارح قلب صادق الإيمان وعقله ، والإنابة الخاشعة والتذلُّل لله تبارك وتعالى ـ مخلصاً من قلبه موقناً بثوابها ـ يبشره بدار المقامة جنةِ النعيم التي تُزلف يوم القيامة للمتقين .

وفي الحديث ـ كما يبدو ـ إشارة إلى أن المراد بالسيادة في قوله : «سيد الاستغفار » الأفضلية ، ومعناها الأكثر نفعاً لمستعمله .

وأي نفع يداني نفع أن يرضى الله عن العبد ويتفضلَ عليه بإدخاله جنته !! قال ابن أبي جمرة : (جمع ﷺ في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أنه يسمى سيد الاستغفار ؛ ففيه الإقرارُ لله وحده بالإلهية والعبودية، والاعترافُ بأنه الخالق ، والإقرارُ بالعهد الذي أخذه عليه ، والرجاءُ بما وعده به،

والاستعاذةُ من شر ما جنى العبد على نفسه ، وإضافةُ النعماء إلى موجدها ، وإضافة الذنب إلى نفسه ، ورغبتهُ في المغفرة ، واعترافهُ بأن لا يقدر أحد على ذلك إلا هو) .

وفى خطوة أخرى على هذه الساحة : نقع على ترغيب النبي ﷺ بالعلم النافع في الدين والدنيا ، ببيان أن سلوك الطريق لطلب هذا العلم، مفتاح الطريق الموصلة إلى الجنة ؛ ذلكم ما روى مسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفّس عن مؤمن كُربة من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كُربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسِر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة ... إلى أن يقول : « ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سّهل الله له به طريقاً إلى الجنة» وهذا لفظ الترمذي دون لفظة « له » وفي رواية أبي داود « ما من رجل يسلك طريقاً يطلب فيه علماً إلا سهّل الله طريقاً إلى الجنة ، ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبُه ».

تُرى أيُّ مِنَّة هذه المنَّة الكريمة ، وأي إحسان هذا الإحسان العظيم !! المؤمن الذي أضاء الإيمان بصيرته يسلك طريقاً يلتمس فيه العلم النافع ، فيعود ذلك بالخير عليه وعلى مجتمعه في الدنيا ، وفي الوقت نفسه يكون سلوك هذه الطريق ـ كما قرّر الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى ـ مدعاة لأن يسّهل الله له به طريقاً إلى جنة الخلد التي لا تعلم نفس ما أخفي لأصحابها من قرة أعين ، جزاءً بما كانوا يعملون .

وما أكثر ما تفيض به أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، من الترغيب بدار المقامة ونعيمها الذي لا ينقطع ولا يزول . ويانعم ما يفعل المؤمن ، فيقبل عن رسول الله ﷺ ،لأن من قبل عن رسول الله فعن الله قبل ـ كما يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه ـ. يانعم ما يفعل فعل أولي النهى الواضعين نصب أعينهم مصيرهم الأخروي ، فيسلُك ـ وهو يمضي العمر في هذه الدنيا ـ مسلكهم وهم ماضون إلى ربهم كيما يكون في زمرتهم يوم اللقاء .

وحين نتجاوز مرحلة التقرير لهذه الحقيقة من خلال الهدي النبوي ، إلى واقع الناس ، لنرى مقدار التفاعل معها ، وانعكاس هذا التفاعل على السلوك ، نجد العجب العُجاب في حياة الجيل الذي اؤتمن على نقل دين الإسلام إلى الأمة جيل الصحابة عليهم الرضوان ، ومن تبعهم بإحسان عبر التاريخ .

وإذا كان الأمر كذلك : فليس عجيباً أن يكون الارتباط جدَّ وثيق بين سلوك الفرد منهم ـ وهو يسهم في بناء الوجود الإسلامي بشموله وعمقه ـ وبين ما يناله من المبشرات على لسان من لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام .

وما أجد من بأس، في أن أصحب بعض المؤيدات من فضائل أولئك البررة رضي الله عنهم وأجزل مثوبتهم ؛ روى أبو داود في سننه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به » وقال الترمذي : حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا أبو عامر العَقديّ قال: حدثنا خارجة بن عبدالله عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » وقال ابن عمر : «ما نزل بالناس أمر قطُّ فقالوا فيه وقال فيه عمر أو قال ابن الخطاب فيه ـ شك خارجة ـ إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر ». قال أبو عيسى : وفي الباب عن الفضل بن العباس وأبي ذر وأبي هريرة وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وبلغ من صدقه مع الله ورسوله، ما نجد فيما روى أبو داود عنه رضي الله عنه أنه قال : «استأذنت رسول الله ﷺ في العمرة ، فأذن لي ، وقال لي : لا تنسنا يا أخيَّ من دعائك، أو قال أشركنا يا أخيَّ في دعائك» قال عمر : « فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا ». وعند الترمذي : أنه استأذن النبي ﷺ في العمرة فقال : « أي أخي أشركنا في دعائك ولا تنسنا ».

وها نحن أولاء نجد النصوص تنطق بالارتباط الوثيق بين هذه الفضائل ، وبين البشرى بدخول دار النعيم والخلود فيها مع الخالدين . وهذا أمر جدير بأن

يزيد المؤمن يقيناً بعدل الله وإحسانه ، وأن يشدَّ من أزره في التخلق بأخلاق الخيرين . أخرج البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « بينا أنا نائم رأيتني في الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا : لعمر ، فذكرت غيرته فوليت مدبراً ، فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله ؟» وفي رواية «فذكرت غيرة عمر فوليت مدبراً » قال أبو هريرة : فبكى عمر ونحن جميعاً في ذلك المجلس مع رسول الله ﷺ ثم قال عمر : بأبي أنت يا رسول الله أعليك أغار ؟

صلى الله وسلم وبارك على رسول الله الذي كان نعم المعلم ونعم المربي، وهنيئاً لعمر ـ رضوان الله عليه ـ مقامه في جنة الخلد يوم يبعثون . ويانعم ما تفعل هذه الموعظة في نفوس المشوقين إلى جنة الخلد ، فيغذُّون السير للّحاق بركب السالكين الصادقين ويتبوؤن يوم القيامة من دار الكرامة حيث يشاؤون .

المؤمنون الذين رزقوا حسن التبصر والاهتمام بوسائل النجاة، يوم يجمع الله الأولين والآخرين للمساءلة والحساب.. هؤلاء المؤمنون، عندما يذكرون الجنة وما تزدان به من مظاهر الإكرام الإلهي والعطاء الذي يجلُّ عن الإحاطة ولا ينفد، لابد أن يذكروا ـ بجانب ذلك ـ سنة الله جل شأنه في العطاء والمنع، وهي السنة التي تؤكد ما يجب أن يكون عليه المؤمن، من إرادة صادقة في طلب الآخرة، وسعي حثيث لها، بما يلزم لذلك من العمل بصبر وإخلاص دائبين، كيما يفوز بما يفوز به السعداء من تلكم الجنات التي يرزقون فيها رزقاً حسناً بغير حساب. وأين هذا مما يؤول إليه أمر الضالين المكذبين الصادِّين عن سبيل الله، من نار جهنم خالدين فيها وبئس المصير ﴿ بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيراً. إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً. وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرَّنين دعوا هنالك ثبوراً. لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً. قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً. لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ الفرقان: ١١ـ١٦.

فطالب الآخرة الذي يسير وفق سنة الله في ذلك، سوف يؤتيه الله ما سأل، ويجعل الجنة مأواه عنده سبحانه وتعالى، لأنه أراد الآخرة، وصدق في أن سعى لها سعيها وهو مؤمن ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾. أما المخالفة عن سنن الله تبارك وتعالى: فهي نذير حرمان في الدنيا والآخرة، وعنوان عبث من العبث لا يكون من ورائه إلا سوء العاقبة والعياذ بالله؛ فعن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « بشر هذه الأمة بالسناء والنصر والتمكين، ومن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب » حديث صحيح أخرجه رزين ـ كما في جامع الأصول لابن

الأثير ـ ورواه أحمد في المسند ، وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك .

هكذا يـدل النص بوضوح على أن مـن عمل على هدي السنن الإلهيـة، وسار معها في عبـادته وعملـه ـ كما أمـر الله وبيّن رسولـه عليه الصـلاة والسلام ـ كان التوفيـق حليفه ، فنـال سعادة الدنيـا الموصولة بسعـادة الآخرة . وأخـرج الترمذي بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «استحيوا من الله حق الحياء . قلنا : إنا لنستحيي من الله يا رسول الله والحمد الله . قال: ليس ذلك ، ولكـن الاستحياء من الله حق الحيـاء : أن تحفظ الرأس وما وعـى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، وآثر الآخرة على الأولى؛ فمن فعل ذلـك فقد استحيى من الله حق الحيـاء ». وللعلماء في أحد رواته مقـال. ولكن صححـه الحاكم ووافقـه الذهبـي في « التلخيص » لأن لـه شواهـد يـرتقي بها إلى هـذه الدرجـة . وقال الحافـظ المنـذري : رواه الطبراني مرفـوعاً مـن حديث عائشة رضي الله عنها .

ولكم حملت إلينا نصوص الحديث ـ وهـي كلام المبيّن ﷺ عن الله تعالى ـ من البشائر لأهل الاستقامـة، وما يفيض عليهم المولى جل جلالـه من الرحمة والفضل والإحسان ، مما يثير الأمر الذي يوقظ الهمم بالإيمان ، ويشُدُّ على يد المشوق إلى دار السلام نُزُلِ الأبرار الصـادقين ، بخالص العمـل وصادق العـزيمة . قـال الإمام البخاري : حدثنا إبراهيـم بن المنذر قال : حدثنا محمد بن فليـح قال : حدثنا أبي عن هلال عن عبـدالرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريـرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمـر ليلة البدر ، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة ، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا تباغض بينهم ولا تحاسد ، لكل امرىء زوجتان مـن الحور العين يُرى مخ سوقهن من وراء العظم واللحم ».

ولا يداخلنّك ـ يا أخي ـ شيء مـن العجب والاستغراب ؛ فالإكرام ـ كما هو

معلوم - إكرام من لا تنفد خزائنه ، ويجلُّ عطاؤه عن الإحاطة ، وفضله هو الفضل العظيم . وماذا عن ترائي أهل الجنة ، والمنازل التي يبلغونها في دار الكرامة ؟ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إن أهل الجنة يتراءون أو يتراءَيون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم . قالوا : يارسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » ورواه مسلم أيضاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر » الحديث. والذي عند الترمذي من رواية أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون في الغرفة كما تتراءون الكوكب الشرقي أو الكوكب الغربي الغارب في الأفق والطالع ، في تفاضل الدرجات ، فقالوا : يارسول الله أولئك النبيون ؟ قال: بلى والذي نفسي بيده ، وأقوام آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين » قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح .

والذي لابد من استذكاره على أرض الواقع ، كيما تفيد الأمة من صنيع أولئك الذين سبقوا ، فتأخذ بأسباب النصر والتمكين في الدنيا ، والفوز بتلكم المكرمات في الآخرة ، ما كان من التفاعل مع الهدي النبوي ، والتأثر الصادق الذي أورث صدق العزيمة وخالص العمل بفضل الله عز وجل ؛والحديث موصول بما قد أشرت إليه من قبل في معرض الحديث عن التفاعل مع الهدي النبوي ، من بعض النماذج في سيرة عمر رضي الله عنه وما بشره به رسول الله ﷺ من تلك المكانة العظيمة في الجنة . وعلى هذا السنن نذكر ما روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب ، فقلت : لمن هذا ؟ فقالوا : لرجل من قريش فما مَنَعني أن أدخله يا ابن الخطاب إلا ما أعلم من غيرتك . قال : وعليك أغار يار سول الله ؟» و بنحو ذلك رواه الترمذي ولكن بشيء من الاختلاف إذ أخرج بسنده عن حميد عن أنس رضي الله عنه أن

النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب ، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لشاب من قريش ، فظننت أني أنا هو ، فقلت : ومن هو ؟ فقالوا : عمر بن الخطاب » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ، وابن حبان في صحيحه . ومعلوم أن رؤيا الأنبياء الصادقة وحي ، فما بالك بخاتمهم وإمامهم عليه وعليهم الصلاة والسلام !!

وأنت ترى أنه قد اجتمع لعمر رضي الله عنه توفيقه لما كان عليه من الصدق في نصرة الإسلام ومحبة الرسول عليه الصلاة والسلام والشدة في دين الله ، وبشرى النبي صلوات الله وسلامه عليه بأنه من أهل الجنة ؛ إذ أنه رأى قصره فيها كما جاء في تلكم الأحاديث الصحيحة . والحق أن بشارة أبي حفص بدار المقامة، لم يقتصر ورودها على نصوص الرؤيا هذه، ولكنها جاءت في مناسبات أخرى ؛ إذ أنه من العشرة المبشرين بالجنة ــ كما هو معلوم ـ وهنالك من الأحاديث ما يحمل له البشرى بدار المقامة مع أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين ، ذلكم ما روى البخاري وغيره ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال : «كنت مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة ، فجاء رجل فاستفتح ، فقال النبي ﷺ: افتح له وبشره بالجنة ، ففتحت له فإذا هو أبو بكر ، فبشرته بما قال رسول الله فحمد الله ، ثم جاء رجل فاستفتح ، فقال النبي ﷺ : افتح له وبشره بالجنة ففتحت له فإذا هو عمر ، فأخبرته بما قال النبي ﷺ فحمد الله ، ثم استفتح رجل، فقال لي : افتح وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ، فإذا عثمان ، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ ، فحمد الله ، ثم قال : الله المستعان » . الحائط : هو البستان .

ولا يخفى أن الحديث يجمع بين ثنتين من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام، وبين هذه البشائر الكريمة بجنة الخلد لهؤلاء البررة أبي بكر وعمر وعثمان ـ على بلوى تكون لعثمان ــ جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين كل خير ، وأسكنهم الفردوس الأعلى بما بُشروا به . وقد جاءت الرواية عند مسلم بنحو هذا عن أبي موسى أيضاً ، على شيء من التفصيل في بعض الأمور واختصار في بعضها.

ولفظها « بينما رسـول الله ﷺ في حائط من حائط المدينـة ،وهو متكىء يركُـز بعود معـه بين الماء والطين، إذ استفتح رجـل ، فقـال : افتح وبشره بـالجنـة قال : فـإذا أبوبكـر ، ففتحتُ له وبشرته بـالجنة ، قال: ثـم استفتح رجل آخر ، فقـال : افتح وبشره بالجنة، وذهبت فإذا هو عمر . ففتحت له وبشرته بالجنة . ثم استفتح رجل آخر . قـال : فجلس النبي ﷺ فقال: افتـح وبشره بالجنة على بلوى تكـون . قال: فذهبت فإذا هو عثمان بن عفان. قال . ففتحت وبشرته بالجنة. قال : وقلت الذي قال . فقال: اللهم صبراً والله المستعان » .

يركزُ بعود : أي يضرب بأسفله ليثبته في الأرض .

هنيئاً لهؤلاء الأجلة الكـرام ما بشروا به وما يكـون لهم يوم ﴿ **لايجزي والد عن ولده، ولا مـولود هو جـاز عن والـده شيئاً** ﴾. هنيئاً لهم ولـلأمة هـذا المشهد النيِّر المثقل بالعطاء ، الشاهد على إخلاصهم في الدين ، وصدق نبوة سيد المرسلين .

بشريات الجنة.. والرميصاء

حين يكون الحديث عن المصير في الآخرة ، وما يرجوه المؤمن وما يخافه من خلال ما ورد من الخبر الصادق ، عن مشاهد يوم القيامة وعظاته، وترقب الناس لما يؤول إليه أمرهم ، بعد الشدة التي تبلغ من ثقلها على النفوس، المبلغ الذي لا ينفضُّ العباد معه إلى فصل القضاء، إلا بالشفاعة العظمى التي أذن الله تعالى بها لنبينا عليه الصلاة والسلام ..حين يكون الحديث عن ذلك الأمر الجلل ، ويحفز المؤمن ما يحفزه على المبادرة والعمل ،لا بدع في أن يداخل النفس الكثير من الغبطة بما تحمل من تخصيص النبي ﷺ نفراً من أصحابه ـ وكل أصحابه على خير ـ بأن بشرهم بالجنة والفوز الكبير ، لما أن الصحابة رضوان الله عليهم، هم الذين آمنوا به صلوات الله وسلامه عليه وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، وحملوا الرسالة ـ علماً وعملاً وجهاداً ـ إلى من وراءهم من المسلمين، فلا يكابر في عظيم فضلهم ـ على تفاوت درجاتهم ـ إلا جاهل أو زائغ ، وحسبك في الدلالة على ذلك الفضل ، ما جاء في كتاب الله وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وهو كافٍ شاف .

وددت التقديم بهذه الكلمات ، وأنا بسبيلٍ من النظر في بعض من مشاهد القيامة، والانتفاع بعظاتها، والتذكير بما ورد في شأن أولئك الذين بُشروا بإكرام الله لهم بالجنة على لسان من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، كيما نكون ـ جميعاً ـ على ذكر من أن المؤمن إذا أراد أن يلحق بركب الأبرار .ويفوز بما فازوا به من سعادة الدارين ، فيحشرَ في زمرة من تُزلف لهم الجنة يوم الدين ، فما عليه إلا أن يسير على نهجهم ، ويتأسى بصنيعهم، في أن تكون عمارة الأرض، مصحوبة بإخلاص النية ،وصلاح العمل ، في توجه صادق إلى الآخرة ، وعدم الركون إلى الدنيا متاعِ الغرور . وقد أوردت من قريب حديثاً بروايتين للبخاري ومسلم تحمل

كل منهما بشارة ثلاثة من الخلفاء الراشدين بالجنة .

ولعل من الخير إيراد رواية أخرى عند البخاري تحمل فوائد أخر ، وتفصيلاً يعين على مزيد من فقه ذلك الحديث . قال رحمه الله : حدثنا محمد بن مسكين أبو الحسن قال : حدثنا يحيى بن حسّان قال : حدثنا سليمان عن شريك بن أبي نَمِرٍ عن سعيد بن المسيَّب أنه قال : « أخبرني أبو موسى الأشعريُّ أنه توضأ في بيته ثم خرج فقلت : لألزمن رسول الله ﷺ ولأكونن معه يومي هذا . قال : فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ فقالوا : خرج ووجَّه هاهنا ، فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس ، فجلست عند الباب - وبابها من جريد - حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته ، فتوضأ فقمت إليه ، فإذا هو جالس على بئر أريس ، وتوسّط قُفّها وكشف عن ساقيه ودلّاهما في البئر فسلمت عليه ، ثم انصرفت فجلست عند الباب ، فقلت : لأكوننّ بَوّاب رسول الله ﷺ اليوم، فجاء أبوبكر ، فدفع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال أبوبكر . فقلت : على رِسلك ، ثم ذهبت فقلت : يارسول الله هذا أبوبكر يستأذن ، فقال : ائذن له وبشره بالجنة . فأقبلت حتى قلت لأبي بكر : ادخل ورسول الله يبشرك بالجنة ، فدخل أبوبكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القُفّ ودلّى رجليه في البئر كما صنع النبي ﷺ وكشف عن ساقيه . ثم رجعت فجلست وقد تركت أخي يتوضأ ويلحَقني ، فقلت : إن يرد الله بفلان خيراً - يريد أخاه - يأت به . فإذا إنسان يحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عمر بن الخطاب ، فقلت : على رِسلك ، ثم جئت إلى رسول ﷺ ، فسلمت عليه فقلت : هذا عمر بن الخطاب يستأذن ، فقال : ائذن له وبشره بالجنة ، فقلت : ادخل وبشَّرك رسول الله ﷺ بالجنة ، فدخل ، فجلس مع رسول الله ﷺ في القُفّ عن يساره ودلّى رجليه في البئر . ثم رجعت فجلست : فقلت : إن يرد الله خيراً بفلان يأت به ، فجاء إنسان يحرك الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : عثمان بن عفان ، فقلت : على رِسلك . فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال : ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ، فجئته فقلت له : ادخل ، وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة على بلوى تصيبك . فدخل فوجد القُفّ قد ملىء ، فجلس وجاهه

من الشق الآخر . قال شريك بن عبدالله : قال : سعيد بن المسَّيب: « فأولتها قبورهم». قُفُّ البئر : الدَّكَه التي تجعل حولها ، وأصل القُف ما غلظ من الأرض وارتفع أو هو من القَف اليابس . ومعنى «على رِسلك» أي اثبت ولا تتعجل، يقال ـ كما جاء في « لسان العرب » ـ لمن يتأنى ويعمل الشيء على هينته .

هذا : ولما كان الأمر ، أمرَ فرح بفضل الله ومنته على هؤلاء البررة الذين من أحبهم فبحب رسول الله أحبهم ، وأمرَ تعرُّف على المعالم المضيئة التي تقود ـ بعون الله ورحمته ـ إلى الجنة ، كان من الواجب تجاوزُ هذا اللون من البشائر ، إلى أخرى غيرها تكشف عن صلة العقبى المباركة، بالإيمان والإخلاص والصبر ، وبما قدّم المؤمن في الدنيا من صالح العمل في ذكر لله تعالى ، وخوف يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار . وفي ذلك ما فيه ـ والله أعلم ـ من شحذ الهمم ، وتحريك العزائم، والارتفاع عن كل ما يقعد بالمؤمن ، عن أن يكون في ركب من أراد الله بهم الخير ، فبوَّأهم يوم القيامة خير متبوَّأ ، ﴿ونودوا أن تكلم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾.

هذا بلال رضي الله عنه ـ وهو ذو السابقة في الإسلام والصبر على المحنة في سبيل الله والثبات على الحق حتى اخترمته المنون ـ يراه رسول الله في الرؤيا بين يديه في الجنة ، فيسأله عن أرجى عمل عمله في الإسلام . روى البخاري بسنده عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: يابلال حدثني بأرجى عمل عملتَه في الإسلام ، فإني سمعت دفّ نعليك بين يديَّ في الجنة. قال : ماعملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهّر طُهوراً في ساعة ليل أو نهار ، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي» .

قال أبو عبدالله : «دفَّ نعليك» يعني تحريكهما ، وقال الحميدي : الدف: الحركة الخفيفة والسير اللين. وجاءت الرواية عند مسلم بلفظ « فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يديَّ في الجنة » والخشف : الحركة الخفيفة .

وهنالك رواية أخرى للبخاري، يجتمع فيها الحديث عن بلال وعمر والرميصاء زوجة أبي طلحة؛ وذلك ما جاء عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه

قال : قال النبي ﷺ : « رأيتني دخلت الجنة ، فإذا بالرميصاء امرأة أبي طلحة ، وسمعت خَشْفة فقلت : من هذا ؟ فقال : هذا بلال . ورأيت قصراً بفنائه جارية فقلت: لمن هذا ؟ فقال : لعمر ، فأردت أن أدخلَه فأنظرَ إليه ، فذكرت غيرتك ، فقال عمر : بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار ..؟ » .

ولعل من الوفاء للحقيقة أن لا نتجاوز هذا الحديث ـ الذي شمل فيما شمل من البشريات والمكارم ـ أن الرميصاء امرأة أبي طلحة ـ وتُدعى أمَّ سليم ـ كانت أول من رأى النبي ﷺ في الجنة في تلك الرؤيا ـ دون أن نذكر واحدة من فضائل هذه الصحابية الجليلة وهي أنها كانت أقدَرَ من زوجها ـ وفي كلِ خير ـ على مواجهة مصابٍ أليم؛ هو فقدُ ولدهما ، وأنها كانت في غاية الاتزان والحصافة عندما أرادت إقناعه بصنيعها . ذلك ما روى مسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سُليم فقالت لأهلها : لاتحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه ، قال : فجاء ، فقرّبت إليه عشاءً فأكل وشرب ، فقال : ثم تصنعت له أحسن ما كانت تَصَنَّعُ قبل ذلك ، فوقع بها ، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها ، قالت : يا أبا طلحة ، أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت ، فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، قالت : فاحتسب ابنك ، قال : فغضب وقال : تركتِني حتى تلطختُ ثم أخبرتِني بابني؛ فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ ، فأخبره بما كان . فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله لكما في غابر ليلتكما ..» الحديث.

هذا جانب من الجوانب في شخصية من رآها النبي ﷺ في الجنة في رؤياه ورؤيا الأنبياء وحي .

ألاليت أنا بقدر ما ننادي بالمزيد من العناية بتثقيف المرأة، وبناء شخصيتها، نعنى بتوجيه الفتاة المسلمة، الى الدراسة المتبصرة لسيَر هؤلاء الفضليات في نساء العالمين ، النساء اللواتي أسهمن بإيمانهن ووعيهن وصدقهن إسهاماً ملحوظاً في بناء الحياة الإسلامية يومذاك ، كما أسهمن على مدى تاريخنا المجيد أيّما إسهام في بناء حضارة الإسلام .

بشريات الجنة.. والعمل

من الإنصـاف للحقيقة ، والدقـة الأمينة في فهـم الوقائع وسير الـرجال ، أن يذكر المؤمن بكثير من التوقير ، والحب والتقدير ، أولئك الذين صدقوا في إيمانهم مع الرسول عليـه الصلاة والسلام، وكانوا يصدرون في تصرفـاتهم عن هذا الإيمان المقترن بالحب ، وظلوا على العهد ـ إخلاصاً في الدين ، وصدقاً في المواطن ، وصبراً على المحـن في سبيل الله ـــ. وأن ما حصـل مـن البشارة بجنـات تجري من تحتهـا الأنهار أُكُلُها دائم وظلُّها ، لم يزد أولئك الذين زفّت إليهم البشريات، إلا ثباتاً على الحق ، واستهـانة بـالصعاب ، ووقـوفاً ـــ على الـدوام ـ عنـد حدود الله ومـا شرع، واستمسـاكاً على المدى بما هـو سبيـل النجاة يـوم الديـن ، والفـوز بمرضـاة رب العالمين.

أسوق هذه الحقيقة ـ والعهد قريب بـالحديث عن بعض من تلكم البشريات ـ كيما يكـون ذلك سبيـلاً لإدراك أن ما تنقلـه الأخبار الصـادقة عما أعـدّ لأولئك الذين خصّهـم النبي ﷺ بالبشارة ، مبيناً عما سيكـون لهم من العطاء ﴿**يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات وبـرزوا لله الـواحـد القهـار**﴾ جزاء مـا كـان مـن استقامة سلوكهم، وصبرهم على نصرة دين الله حتى وافتهم المنية ... لإدراك أن ما جـاء عن خـاتـم النبيين ﷺ في شأنهم ، يقتضي المؤمـن أن يـزداد يقيناً بـا لله مـن الحكمة البالغة في سننه التي لا يضلُّ السالك على هديها ، وأن يجمع إلى الفرح بما تفضّل الله بـه على أولئك الذيـن كانوا ـــ وهم مـع النبي ﷺ ـ أشـداء على الكفار رحماء بينهم ، تـراهم ركعاً سجداً يبتغـون فضلاً من الله ورضـوانـاً ... أن يجمع إلى هذا الفرح الخوف مـن سوء العاقبة ، وما تحمـل مشاهد القيامة مـن العظائم التي يشيب لهولها الوليد ، والـرجاء بفضل الله ورحمته و إحسانه : فـالمآب إليه سبحانه ، وهو الجواد الغفور الرحيم ، وعذابه هو العذاب الأليم .

وهذا أمر ، إن أحسن توظيفه على سلم الأولويات والاهتمامات ، يبعث ـ بلا ريب ـ على تجويد العمل في عمارة الأرض وحسن التزود ليوم المعاد ـ دون تسويف أو إهمال ـ بخير زاد .

من أجل هذا ، لم يدع الصحابة رضوان الله عليهم ـ مع كل البشريات المعهودة ـ أن يأخذوا أنفسهم بما يضيء طريق الآخرة ، داعين الله أن يثبتهم بقوله الثابت ، كيما يكون الواحد منهم في عداد من يبدّل الله سيئاتهم حسنات ، وتكون لهم يوم الحسرة عقبى الدار . وإلى جانب ذلك كانوا لا يدعون أن يتناصحوا فيما بينهم على هذه الساحة ، وأن يذكِّر بعضهم بعضاً الآخرة وأهوالها ، والقيامة وما يكون فيها ، فيزداد المحسن إحساناً ، ويتذكّر المقصر ، فيسارع إلى اللحاق بركب السالكين السابقين، الذين لا يعدلون بطريق الجنة ـ مهما اشتدت فيه المكاره ـ طريقاً ، أولئك الذين يجعل الله لهم لسان صدق في الآخرين ، ويبوئهم خير مبوّأ في دار النعيم .

روى الطبراني عن نُعيم بن نَمْحةَ قال : كان في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه : «أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ! فمن استطاع أن يُقضى الأجلُ وهو في عمل الله عز وجل فليفعل . ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل . إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم ﴿**ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم**﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدَّموا في أيام سلفهم ، وحلوا بالشقوة والسعادة . أين الجبارون الأولون الذين بَنَوا المدائن وحصنوها بالحوائط ، قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تَفْنى عجائبُه فاستضيئوا منه ليومِ ظلمة ، واستنصحوا كتابه وتبيانه ، إن الله قد أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾ لاخير في قول لايراد به وجه الله ، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهلُه حلمَه ، ولا خير فيمن يخاف في الله لومةَ لائم » قال الحافظ ابن كثير في شأن إسناد هذه الخطبة : هذا إسناد جيد

ورجاله كلهم ثقات ، وشيخ حَرِيز بن ـ عثمان وهو نُعيم بن نَمحة ـ لا أعرفه بنفي ولا إثبات ، غير أن أبا داود السجستاني قد حكم بأن شيوخ حريز كلهم ثقات ، وقد روي لهذه الخطبة شواهد من وجوه أخر والله أعلم . وأوردها السيوطي في « الدر المنثور » .

وهذه الموعظة التي تثير مشاعر اليقين وتذكّر الله واليوم الآخر ، وتدعو إلى عدم الاغترار بما يكون للمرء في الحياة الدنيا ، كانت تلقى هي وأمثالها، ما تستحق من التفاعل والاتعاظ الذي يبعث على العمل، والاستعداد لدار الخلود. ويا نعم ما ينتظر العاملين الذي لا يغرُّهم الزخرف ولا يلهيهم الأمل ونسيان الأجل ، من الخير العميم ، والكرم الإلهي المتجدد في جنات النعيم؛ فما من عمل صالح يعمله المرء في الدنيا، إلا وقد تفضل الله بإكرام صاحبه في الآخرة ، وما أكثر الأمثلة وأوفرها على ذلك . روى ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول : أين العافون عن الناس ؟ هلموا إلى ربكم وخذوا أجوركم ، وحق لكل امرىء مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة» . ولا تسل عن واسع رحمة الله وكريم إحسانه فيما وراء ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا : حدثنا زهير قال : حدثنا سعد الطائيَ قال : حدثنا أبو مُدِلَّة مولى أم المؤمنين عائشة أنه سمع أبا هريرة يقول: «قلنا يا رسول الله ، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا ، وكنا من أهل الآخرة ، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد ! فقال : لو تكونون ، أو قال : لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي ، لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يَغفر لهم . قال : قلنا : يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : لبنة ذهب ولبنة فضة ، ومِلاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلْها ينعم ولا يَبْأسْ ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى

شبابه. ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم؛ تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز وجل: وعزتي لأنصرنَّك ولو بعد حين». ورواه الترمذي وابن حبان وابن ماجة والطبراني في الأوسط والدارمي. وهو حسن بشواهده، ولفظه عند الترمذي: قال أبو هريرة رضي الله عنه: «قلنا: يارسول الله ما لنا إذا كنا عندك رقّت قلوبنا وزهدنا في الدنيا، وكانت الآخرة كأنها رأيُ عين؟ فإذا خرجنا من عندك فأنسنا في أهالينا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا؟ قال: لو أنكم إذا خرجتم تكونون على حالكم عندي، لزارتكم الملائكة في بيوتكم ولصافحتكم في طرقكم، ولو لم تذنبوا لذهب بكم..» إلى أن يقول: قلت: يارسول الله، الجنةُ ما بناؤها؟ قال: لبنة من فضة ولبنة من ذهب..» الحديث.

والذي عند ابن ماجة «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين» وجاءت الرواية عند الدارمي مقصورة على السؤال عن الجنة ما بناؤها؟ ولفظها: «قلنا: يارسول الله: الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنة من ذهب ولبنة من فضة، ملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها الياقوت واللؤلؤ، وترابها الزعفران، من يدخلها يخلُدْ فيها، ينعم لا يبأس، لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم» وهكذا كان جوابُ النبي ﷺ أوسعَ مما يقتضيه السؤال، إذ رأى ــ وهو سيد الحكماء ـ أن يزِفَّ البشرى للسائلين ـ ومن ورائهم الأمة ـ بقبضة من مكارم ذي الجلال والإكرام على أهل الجنة؛ فالذي يدخلها ينعَم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت. وهؤلاء الذي كانوا لله في كل الشؤون، لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم، ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾.

وهذه البشرى العظيمة نجدها أيضاً فيما روى الإمام مسلم عن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من يدخل الجنة ينعَمُ لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه» وله في رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة

رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « ينادي منادٍ إن لكم أن تصِحّوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيَوا فلا تموتوا أبداً . وإن لكم أن تشِبّوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعَموا فلا تبتئسوا أبداً ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ » .

البأس والبأساء : شدة الحال ، فهي لا تصيبهم . ينعم : يدوم نعيمه .

جعلنا الله ـ بمنه كرمه ـ ممن ينادون هذا النداء العلويَّ المبارك ، إنه المتفضل الجواد الكريم .

طريق الجنة.. وإجابة الداعي إليها

﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتاً** ﴾ هذه حقيقة لا يماري فيها مؤمن ، ولكن وراء الإيمان ، أن تكون أنباء يوم الفصل ؛ بشاراتها ونذرها ، باعثاً على تقوى الله ، واتباع صراطه المستقيم ؛ فالذين يحدوهم الإيمان إلى الإقبال على تلك الأنباء وما تحمل من الحديث الصادق عن مشاهد القيامة وأهوالها العظام الجسام ، تلك الأهوال التي ترى الناس معها ــ وقد غمرتهم شدتها ـ سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله ، شديد ... الذين يحدوهم الإيمان إلى الإقبال على ذلك خائفين من عذاب الله ، راجين رحمته وجنته ، فيتدبرون بكليتهم معاني النصوص ومدلولاتها ، ويتبينون ما تقوم عليه مشاهد القيامة وما تزخر به من بشارة أو نذارة .. فيتذكرون ويتفكرون ؛ من علامات الصدق في إيمانهم ، وحسن استجابتهم لدعوة الخير ، أن يتلمسوا الطريق إلى حسن العاقبة ، كيما يحشروا ــ برحمة الله وعونه ـ في زمرة من تكلؤهم عناية الله ، فينجون مع الناجين ، وتهب عليهم نفحات الرحمة والإحسان ، فيكونون في روح وريحان وجنة نعيم .

وإنها لطريق، لا يصبر على سلوكها إلا أصحاب الهمم الصادقون ، الذين يعلمون حق العلم أن النار ـ كما أخبر الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ـ حفّت أو حجبت بالشهوات ، وأن الجنة حفّت أو حجبت بالمكاره .

ولم لا يصبر طلاب الجنة المشوقين إليها على متاعب طريقها ، ويتلذذون بما يبتلون ؛ وهم يرتادونها بصدق وعزيمة ، وهي سلعة الله الغالية التي ينشدون ، والتي لا تنال بالقعود عن معالي الأمور ، والتهاون في الاستمساك بشرع الله ، وأخذ ما جاء عن الله ورسوله بقوة !! لم لا يصبرون وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وأصبح ما طالعتهم به النصوص من أخبار الآخرة ، كأنه رأي عين في عالم

الشهادة!! وقد مر بنا في مناسبة أخرى ما رواه الترمذي وحسّنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة ».

ومما اتفقت عليه الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أولهم إلى خاتمهم - كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله - أن الجنة ليس لها إلا طريق واحد ، وأما طرق الجحيم : فأكثر من أن تحصى ؛ ولذا يوحِّد سبحانه سبيله ، ويجمع سبل النار ؛ كقوله تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ **وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر** ﴾ أي ومن السبيل جائر عن القصد وهي سبيل الغَي .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر قال : حدثنا أبوبكر عن عاصم عن أبي وائل عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : «خطّ رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، قال : ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ...** ﴾ » الآية وأخرجه الحاكم في « المستدرك » وقال : صحيح ولم يخرجاه - يعني البخاري ومسلماً -.

وفي رواية أخرى لأحمد قال : هذه سبل متفرقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً ...** ﴾ الآية .

وللحديث شاهد أشار إليه الحاكم في « المستدرك » ، وهو ما روى الإمام أحمد في المسند بسنده أيضاً عن الشعبي عن جابر قال : « كنا جلوساً عند النبي ﷺ ، فخط خطاً هكذا أمامه فقال : هذه سبيل الله ، وخطين عن يمينه وخطين عن شماله ، وقال : هذه سبل الشيطان ، ثم وضع يده في الخط الأوسط ، ثم تلا هذه الآية ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ ».

ولقد يرد على هذا قول الله جل ثناؤه : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ إذ جمع سبل السلام التي قال العلماء : إنها طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة . والجواب عن ذلك ــ على ما يرى ابن القيم ـ أنها سبل تجمع في سبيل واحدة ، وهي بمنزلة الجوادِّ والطرق في الطريق الأعظم ؛ فهذه هي شعب الإيمان ، يجمعها الإيمان وهو شعبة ، كما يجمع ساقُ الشجرة أغصانها وشُعَبها ؛ وهذه السبل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره ، وطاعة أمره ، وطريق الجنة هي إجابة الداعي إليها ليس إلا .

أخرج البخاري في كتاب الاعتصام من الجامع الصحيح عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم ، فقال بعضهم : إنه نائم وقال بعضهم : العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً . فقالوا : مثله كمثل رجل بنى داراً ، وجعل فيها مائدة ـ وفي رواية مأدبة ـ وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار ، وأكل من المائدة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة . فقالوا : أوِّلوها يفقهْها . فقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان ؛ فالدار الجنة ، والداعي محمد ﷺ ؛ فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله . ومحمد فَرْقٌ بين الناس ».

معنى « ومحمد فرق بين الناس » أي أنه ﷺ يفرق بين المؤمنين والكافرين بتصديقه وتكذيبه ؛ فمصدقوه المستجيبون لدعوته مؤمنون . ومكذبوه الجاحدون للحق كافرون . وفي رواية « فرّق بين الناس » والمآل من حيث المعنى واحد .

هكذا مُثل للجنة بالدار ، ومُثِّل له صلى الله وسلم وبارك عليه بالداعي إليها؛ وفي ذلك تقريب للمعنى ، وإثارة لهمم أهل الإيمان من أجل الاستجابة الصادقة للداعي ـ وهو الرسول الكريم محمد ﷺ ـ لما يثمر ذلك على أصحابه، بل والأمة

من الخير العظيم، دخولاً للجنة التي لا ينقطع مـا فيها من النعيم ولا يزول ، وفوزاً برضوان الله الأكبر الذي لا يسخط بعده على أهل تلك الجنة أبداً .

قال الحافظ ابن حجـر عند شرحه لهذا النص الكريم: في الحديـث « فقالوا: الدار الجنة » : أي الممثَّل بها . زاد في رواية سعيد بن أبي هلال : « فالله هو الملك، والدار الإسلام والبيـت الجنة ، وأنت يا محمـد رسول الله» وفي حديث ابـن مسعود عند أحمد « أمـا السيد : فهو رب العالمين . وأمـا البنيان : فهو الإسـلام ، والطعام الجنة ، ومحمد الداعي » فمن اتبعه كان في الجنة .

وانظر إلى هذا الارتباط الـوثيق مرة أخرى، بين طاعة الله وطاعـة رسوله عليه الصلاة والسلام ، وكيف تكون ثمرة طاعة رسول الله ﷺ دخول دار النعيم والتنعُّم بعطاء الله فيها ؛ فأهلها ينعمون ولا يبأسون « فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله » أي لأنه رسول صـاحب المأدبة ؛ فمن أجابـه ودخل في دعوته أكل مـن المأدبة ، وهو كناية عن الفـوز بدخول الجنة التي أعدت لمن آمنوا وعملـوا الصـالحات ، وموعود ربنا الكريم المنان عباده الأبرار المتقين .

قال الحافـظ رحمه الله : ووقع بيـان ذلك في رواية سعيـد . ولفظه : «وأنـت يا محمد رسـول الله ، فمن أجابـك دخل الإسلام . ومـن دخل الإسلام دخـل الجنة . ومن دخل الجنة أكل ما فيها ».

ولا ريب في أن المراد بدخول الإسلام : دخوله بصدق إيماني يحمل على العمل بحق الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله ».

ولهذا الحديث الذي هو مأدبة من مآدب الخير صلة إن شاء الله .

الجنة والنار.. ومثل النذير العريان

ما يزال الحديث موصولاً بما كنا ـ من قبل ـ بصدده ، من حقيقة: أن طريق دارالسلام التي هي دار المفلحين عند ربهم ، إذ هم في روضة يحبرون : عنوانه المشرق المتلألىء الواضحة معالمه ، السديدة خطاه ؛ استجابةٌ ملؤها الصدق والإخلاص لدعوة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، المبلغ عن الله ما أراد ، وأن من أطاعه إيماناً واستقامة على سواء الصراط ، فقد أطاع الله عز وجل، لأن الله فرض طاعته ، وجعلها من طاعته سبحانه، وفرض العمل بسنته كما فرض العمل بكتابه .

وهذا الذي لا خلاف عليه عند المؤمنين ، وعلماء الأمة وصالحيها ، قد رأينا من قريب مصداقه وتقريبه إلى الأذهان من طريق المثل الذي ضربته الملائكة ؛ وذلك فيما روى البخاري من حديث الملائكة الذين تحدثوا ـ عليهم السلام ـ عند رسول الله ﷺ وهو نائم ، ولكن العين نائمة والقلب يقظان .

وعندما يقدُر المؤمن ، ما يكون يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ويُبلس المجرمون ، وتراهم يومئذ مقرنين في الأصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، ويتمنى الناس فصل القضاء والانفضاض، ولو إلى النار ، لكثرة ما يهولهم الأمر وتشتد عليهم الصعاب .. عندما يقدر المؤمن ذلك اليوم الموعود حق قدره ، بقلب وعقل حاضرين ، تستوقفه ـ على ساحة الرغبة العميقة في النجاة من عذاب الله الأليم، والفوز بعطائه الكبير في جنة عرضها السماوات والأرض ــ تلك الحقيقة التي أوضحها أولئك النفر من الملائكة عليهم السلام بالمثل كما أسلفت ، ويحاذر نسيانها ، بله الغفلة عنها .

وهذه رواية أخرى، تصرح برؤيا لرسول الله ﷺ في هذا الشأن، وأن جبريل وميكال عليهما السلام هما اللذان أدارا الحديث وضربا المثل. أخرج الترمذي في جامعه الصحيح ـ سنن الترمذي ـ عن سعيد بن أبي هلال عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجليَّ، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك. إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه فالله هو الملك، والدار الإسلام. والبيت الجنة. ومن دخل الجنة أكل ما فيها» قال أبو عيسى: هذا حديث مرسل. سعيد بن هلال لم يدرك جابر بن عبدالله وفي الباب عن ابن مسعود.

ولا يخفى أن مدار الأمر ـ بسعته وعمقه ـ على طاعة النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام فيما دعا إليه العباد، وهو لا يدعو إلا إلى خير يبلغه عن الله عز وجل، ويفوز العامل به بسعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة. وأنعِم بمن جعل الآخرة همّه، فتخذ من الشيطان عدواً، وسارع إلى تلكم الطاعة المثلى، وفاز يوم تجيء الصاخة مع الفائزين ﴿ يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾. ويا شقوة من أدبر وتولى ناسياً ذلك اليوم، لاهياً عنه قد زلّت به القدم، فكان في طاعة الهوى والشيطان.

ومما هو جميل بالغ النفع: أن يكون المؤمن ـ وهو يرجو أن يقسم له حظ في مواكب الأبرارالذين يدخلون جنة عدن متفضلاً عليهم بالخلود فيها ـ أن يكون على ذُكر من أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ كما سبق ـ سمى عصيانه إباءً ـ والمعاذ بالله ـ وقد كشف بذلك عما يصحب التولي عن الحق والداعي إليه، من الحركة النفسية المتمردة داخل الإنسان المعرض عن ذكر الله وكلمته، كي يعرف العاقل الداء، ويختار له أفضل الدواء. أخرج البخاري وغيره ـ واللفظ للبخاري ـ

عن أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كل أمتي يـدخلون الجنة إلا من أبى . قـالوا : يارسول الله ، ومن يأبـى ؟ قال : من أطاعني دخـل الجنة ، ومن عصاني دخل النار » وقد كنت أوردت ـ فيما سلف ـ أكثر من رواية لهذا الحديث، وأحسن البخاري رحمه الله صنعاً حين أخرجه في كتـاب الاعتصام بالكتاب والسنة من الجامع الصحيح ، مع المثل الموضح الذي تقدم الإيماء إليه .

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن أهمية هذه الحقيقـة ، مضافاً ذلك إلى حرصه ﷺ على صالـح المآل لأمته يوم المعـاد ، مما جعله كثير العنايـة بها ، كَلِفاً بتنويـع الأسلوب والصورة عند عرضها في هديه الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال الإمام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من الجامع الصحيح أيضاً : حدثنـا أبو كريب قـال : حدثنا أبو أسامـة عن بُريد عـن أبي بُرْدة عن أبي موسى عن النبـي ﷺ أنه قال : « إنما مثلي ومثل ما بعثني الله بـه ، كمثل رجل أتى قومـاً فقال : يا قـوم إني رأيت الجيش بعينـيَّ ، وإني أنا النذيـر العريان ، فـالنجاءَ النجاء . فأطاعه طـائفة من قومه فأدلجوا ، فانطلقوا على مهلهـم فنجَوا . وكذَّبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل من أطـاعني فاتبع ما جئت بـه ، ومثل من عصاني ، وكذّب بما جئـت به من الحق » .

ولسنا في مرية ـ والحمد لله ـ من أن نجاة من أطاع رسول الله ﷺ واتبع ما جاء به ، إنما هي بزحـزحته عن النار التي لا يصلاها إلا الأشقـى ، الذي كذب وتولى ، وفوزه بالجنة التـي يورثها الله ـ بمنه ورحمته ـ عباده المنيبين المتقين . وأن هلاك من عصاه وكـذَّب بما جاء بـه ، إنما هو بدخـوله يوم الحشر جهنـم التي تكـون مأواه ، حيث يضاعف له العذاب فيها ويخلد فيه مهاناً .

هذا : والمثـل الذي أوضح النبـي ﷺ من خلالـه ـ وهـو سيد البلغاء ـ أمر النجاة مـن نار السعير ،والفـوز بجنة الخلـد لمن أطاعـه واتبع هـداه ، وأمر الهلاك

والتردي في الجحيم لمن كـان منه التكذيـب والعصيان .. هذا المثـل الرائع المعبِّر : نموذج مشرق بـالغ الـرفعة في روعـة الأسلوب و إشراق البـلاغة الفـاذّة المتميزة في كلامه عليه الصلاة والسلام ـ وقد أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً ـ وكيـف لا وقد اؤتمن ـ فـداه أبي وأمي ـ على بيان الكتـاب المعجز الذي لا يـأتيه الباطـل من بين يـديه ولا مـن خلفه ، وعجـز العرب ،وهـم أرباب البيـان وأئمة البلاغـة والفصاحـة في الدنيا يـومذاك ،عـن أن يأتوا بشيء مـن مثله ؛ فكـان من حكمته سبحانه لله تعالى ، أنه كما أهّله واصطفاه لحمل الرسالة وتبليغها ، اصطفاه كذلك خِلقياً وموهبةً ـ مع جلال الوحي ونوره ـ لبيان الكتاب الكريم، بياناً يتسق مع كونه الكتاب المعجز ، وأدبَّه ربه فأحسن تأديبه صلوات الله وسلامه عليه .

وأنت ترى أنه عليه الصلاة والسلام ، شبه نفســه من طريق الاستعارة ـ وهو يدعـو إلى سلوك السبيل الموصلـة الى النجاة يوم الديـن ـ بالنـذير العريـان الذي يبصِّر قومـه بالخطر المحدق ، وكـل الدلائل تدل على صدقـه ؛ فالذين أطـاعوه، أدلجوا ـ ساروا أول الليـل أو ساروه كلّه ـ فنجـوا من أن يقعوا ضحية ذلـك الخطر مـن العدو ، والـذيـن كـذبوه ولم يلقـوا بـالاً لإنـذاره ، صبّحهم جيـش العـدو ، فاجتاحهم وأوقع فيهم الهلكة .

وللعلماء في المراد بـ « النذيـر العريـان » عـدة آراء . والأصل فيـه ـ كما يـرى البعض ـ أن رجلاً لقـي جيشاً فسلبوه وأسروه ، فانفلت إلى قومـه فقال : إني رأيت الجيش فسلبوني ، فرأوه عرياناً فتحققوا صدقه ، لأنهم كانوا يعرفونه ولا يتهمونه في النصيحـة ، ولا جرت عـادته بـالتعري ، فقطعـوا بصدقـه لهذه القرائن ، وعملـوا بنصحه ؛ فضرب النبي ﷺ لنفسه ولما جاء بـه من الهدى الذي يخرج من الظلمات إلى النـور ، وينجي يـوم القيامـة ـ بـإذن الله ـ مـن العذاب المهين ... ضرب مثلاً بذلك لما أبداه من الخوارق والمعجزات الدالـة على القطع بصدقه ـ وفي مقدمتها القرآن الكريم ـ تقريباً لأفهام المخاطبين بما يألفـونه ويعرفونه . ويؤيده ـ كما يقول العلماء ـ مـا أخرجه الـرامهرمزي في كتاب « الأمثـال » وهو عند أحمد أيضـاً بسند

جيد مـن حديـث عبدالله بـن بريدة عـن أبيه قـال : «خرج النبـي ﷺ ذات يوم ، فنادى ثـلاث مرات : أيها النـاس مثَلي ومثَلكم مثَل قـوم خافـوا عدواً أن يـأتيهم، فبعثوا رجـلاً يترايا لهم ؛ فبينما هو كـذلك ، إذ أبصر العدو ، فـأقبل لينذر قـومه ، فخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس أُتيتم ـ ثلاث مرات ـ » وأحسن ما فسر به الحديث من الحديث .

وقد أبان ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث » أنه عليه الصلاة والسلام خصَّ العُريان لأنه أبين للعين وأغرب عند المبصر ، وذلك أن ربيئة العرب وعينهم يكون على مكان عالٍ ؛ فإذا رأى العدو قد أقبل ، نزع ثوبه وألاح به .

وصلى الله وسلَّم وبارك على المبين عن ربه مـا أراد ، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكـره الغافلون ، ونفـع المسلمين بهديه صلوات الله وسـلامه عليه ؛ فـالسعيد الموفّق من فقه وعمل ، وسلك سواء الصراط ، ففاز بالجنة نُزُلِ الأبرار الصادقين.

أهل الجنة وأهل النار.. في المثل النبوي

البيان النبوي آية من آيات الله الدالّة على بالغ حكمته، وعظيم قدرته، جل وعلا ، في تقليد نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أمانة البيان للقرآن المجيد المعجز الذي لم يستقم للعرب ـ وهم أهل الفصاحة والبلاغة واللسَن ـ أن يأتوا ولو بسورة من مثله ، وثبت عجزهم عن ذلك ، بعد أن خُوِّلوا هم أنفسهم الحكم في شأن الإتيان وعدمه ، وصدق فيهم وفي الناس كافة قول الله تبارك وتعالى : **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾**.

ولقد تكون النظرة ـ من أهل النظر ـ إلى البيان النبوي أكثر استيفاءً ، إذا لوحظ ما كان من تمام الاتساق، شكلاً ومضموناً ، بين ما تضمنته الرسالة التي كان يؤديها عليه الصلاة والسلام ، ويخاطب بدعوتها ـ أول ما يخاطب ـ العرب، وفي مقدمتهم قريش ، وهم على ما هم عليه من الكلمة المنتقاة ، و الاختيار الموفق من لهجات العرب ، وجمال الأسلوب وبلاغة التعبير ، وبين الثوب الذي ألبسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تلك المضمونات ؛ تعبيراً وأسلوباً ، وقولاً بليغاً يأخذ بمجامع القلوب ، هي الغاية بعد كتاب الله عز وجل . كل هذا وميزان البلاغة من بدء البعثة إلى لحوقه بالرفيق الأعلى لا يعول ، وسحر البيان الصادق المؤثر لا يريم ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، لا تنفك تعلن عن نفسها في كل حال ؛ من أول يوم خوطب فيه بالتبليغ ،وحتى وافته المنية عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. ولا تسل عما خُصَّ به من جوامع الكلم التي تزين العلاقة بين الأسلوب في التعبير وبين المعاني العظيمة ، التي يطلب الوفاء بتحقيقها، على ساحة الهداية والبلاغ المبين.

أقول هذا ، ولم يمـض إلا اليسير على إيراد واحد من النماذج الـوفيرة في هديه عليه الصـلاة والسلام ، حيـث استخدم بعنـاية فـائقة غير متكلفـة، ضرْب المثل لإيضاح مـا يريـد ، وهو يعـظ الناس ويقـول لهم في أنفسهم قـولاً بليغاً كما أمـره مولاه، ويدلهم على ما فيه عتق رقابهم من النار ، وأن يكونوا ممن يتحقق لهم في يوم لا ريب فيه، موعود الله بنعيم لا يبلى في دار المقامة .

لقد أفـاد ـ ﷺ ـ من البيئـة العربيـة، حيث العيـون تستطلع أخبـار العدو، فضرب لنفسه المثـل بالنذيـر العريان، الذي يبصِّر بقـوله وبحالـه، قومه بـالخطر، ليقيهم غائلة مـداهمة العدو ؛ فمن صدّق هذا النذير ، أخذ بـالأسباب، ونجا مع النـاجين، ومن كـذّب واتخذ الحقيقـة النـاصعة وراءه ظهـريـاً ، قعـد عن الأخـذ بالأسبـاب ،وهلك مع الهالكين . وكذلـك حال المصدقين الطـائعين ، والضالين المكذبين .

فطريق البعد عن نـار السعير ، وأن يكون المرء في عداد أهل الجنة المفلحين : التصديق بما جـاء به الداعي محمد عليـه الصلاة والسلام واتباعه . أمـا التكذيب والإعراض عن الحق الذي جاء به من عند ربه : فذلك عنوان الضلال ، والطريق المؤدية إلى شر مأوى ، جهنم وبئس المصير .

والنموذج الذي هـو موطن الإيماء والتذكير ، والـذي قرر الحقيقة من طـريق ضرب المثل المشرب بواقع البيئة العربية يومذاك ، رأيناه فيما روى البخاري عن أبي موسـى الأشعري رضي الله عنه عن النبـي ﷺ أنه قال : « إنما مثلي ومثل مـا بعثني الله به كمثل رجـل أتى قوماً فقـال : يا قوم إني رأيت الجيـش بعينيَّ ... » الحديث وجاءت الرواية عند البخاري أيضاً في كتاب الرقاق ولكن بأخصر مما سبق ، حيث روى بسنده هناك عن أبي بردة عن أبي موسى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ما بعثنـي الله كمثل رجل أتى قـوماً فقال : رأيـت الجيش بعيني ، وإني أنا النـذير العُريان ، فـالنجاءَ النجاء ، فأطاعتـه طائفة فأدلجوا على مهَلهم فنجـوا ، وكذبته

طائفة فصبّحهم الجيش فا جتاحهم ».

وقـد أشرت من قبـل إلى بعض المعـاني . وأود التنبيه هنـا على أن الحافظ ابـن حجر ذكر أن محمد بن خالد روى الحديث بلفظ « النذير العربان » بالباء ، وقال : فإن كـان هذا محفوظـاً : فمعناه « الفصيح بـالإنذار » لا يكني ولا يـورّي ، يقال : رجل عـربان ، أي فصيح اللسـان ، وكأن الحافظ لم يـرتض ذلك . والنـذير يحض القوم على طلب النجـاة بقوله : « فالنجـاء النجاء » أي اطلبوا النجاء بـأن تسرعوا الهرب ، إشارة إلى أنهم لا يطيقون مقاومة ذلك الجيش .

صلى الله وسلم وبارك على سيد الأنبياء ، كيف قرّب الحقيقة إلى الأذهان بهذه الصورة المعبرة المؤثرة التي ليست غريبة عن العربي في بيئته يومئذ ، وأراها تصلح في كل عصر ـ دون ريب ـ للإنذار بالخطر المحدق يتهدد المسلمين ، وإن اختلفت أسباب الخطر ومظاهره .

وقد أشار المصطفى صلوات الله وأزكى تسليماتـه عليه، إلى أن النذير العريان جاء بما يؤكد صدقه على وجـه اليقين ، كيما يمتثل القوم ، ويبادروا الهلاك المرتقب والاجتياح ، بتفـويت الفرصة على العـدو . قال الطِيبي رحمه الله : (في كـلامه ﷺ أنواع من التأكيدات: أحدها ـ « بعينيَّ » ثانيها ـ قوله: « وإني أنا » . ثالثها ـ قوله: « العُريان » لأنـه الغاية في قرب العـدو ، ولأنه الذي يختص في إنـذاره بالصدق، وكان الناس طائفتين ؛ طائفة أطاعوا ، فـأدلجوا على مهلهم فنجوا ، وطائفة كذّبوا وعصوا ، فبـاؤوا بالهلاك ، إذ صبّحهـم الجيش فاجتـاحهم)؛ فـالداعـي الصادق الناصح الـذي يحمل مؤيدات صدقـه ونصحه كلّها ، محمد ﷺ ، والطـائفة التي أطاعت فكانت عاقبتها النجاة ، هم المؤمنـون المصدقون العاملون وفق ما يقتضيه الإيمان وحسن الاتبـاع ؛ وتلك سبيلهـم ـ بفضل الله ـ إلى جنات الفـردوس التي جعلها الله نزلاً لعباده الصالحين . أما الذين كذبوا وتولَّوا : فهم الكافرون المعرضون وهلاكهم ما يترصـدهم من المصير المحتوم في نار وقودهـا الناس والحجارة أعدت

للكافرين . قال الطيبي : (عبر في الفرقة الأولى بـالطاعة ، وفي الثانية بالتكذيب، ليؤذن بأن الطاعة مسبوقة بالتصديق ، ويُشعر بأن التكذيب مستتبع للعصيان)».

وبعد : فما أحسبه مكروراً من القول أن أعود إلى تقرير أن الرسول ﷺ أوضح الحقيقة ـ كما سلف ـ بضرب المثل أوفى مـا يكون الإيضاح وأجمله . ها هو ذا ﷺ : يشبه نفسه بالرجل مدار الحديث، وإنذاره بالعذاب القريب ، بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبِّح ، وشبه من أطاعه من أمة الدعوة ومن عصاه ، بمن كذب الرجل النذير ومن صدقه !!.

ومن حـق هذا البيـان النبوي الكـريم، التـذكير بما هو معلـوم من أنـه عليه الصلاة والسـلام ، كان حفِيَّـاً ، شديـد الاهتمام ببيان السبيـل الموصلة ــ برحمة الله وفضله ــ إلى دار النعيم ، والترغيب في سلوكهـا بدءاً من داخـل النفس ، والحض على ما من شأنه سلامة المستقر في الآخـرة دار الخلود ؛ فالدار الآخرة، هي الحيوان لو كـانوا يعلمون . ولم يدع ــ صلوات الله وسلامـه عليه ـ أن يكشف عـن السبل التي تنتهـي بالهلاك الأبـدي، حيث الانسـلاك في زمر أهـل النار الخالـدين فيهـا والمعاذ الله ، وأن يرهِّـب من ذلك، ترهيباً بالـغ الشدة والتأثير . وكان هذا من كريم نصحه ، وكمال شفقته على أمته صلوات الله وسلامه عليه ، حتى إنك لتجده عليه الصلاة والسلام ، يقـرب إلى الأذهان في بعض كلامـه، صورة من صور المعـاناة ، بحرصه على إبعـاد الناس عن النار ، كيما يـزحزحوا عنها وينقلبـوا إلى جنة الخلد، وكيـف يُصمُّ بعـض النـاس أسماعهـم، ويتقحمون ــ طـاعـةً للهوى والشيطـان وخضـوعـاً للشهـوات ــ يتقحمون في جهنـم، وَمَثَلُهـم في ذلـك كمثـل الفـراش والدوابّ التي تتهافت على النار ، فتقع فيها بلا عقل ولا إدراك .

أخـرج البخاري وغيره ــ واللفـظ للبخاري ــ في كتاب الـرقـاق من الجامـع الصحيح بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنـه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نـاراً ، فلما أضاءت ما حوله ، جعل الفراش

وهذه الـدوابُّ التي تقـع في النار يقعـن فيها ، فجعـل الرجـل يَزَعُهُـنَّ ، ويغلبنه فيتقحَّمن فيها ؛ فأنا آخذ بحجزكم من النار وأنتم تقحَّمون فيها ».

الحُجزَ : جمع حُجْـزة وهي معقد الإزار والسراويـل . تقحَّمون : مـن التقحُّم وهو الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت . يزَعُهُنَّ : يدفعهن .

أرأيت إلى هـذه البلاغة النبـوية في استخدام هذا المثـل المنتزع من الـواقع !! حقـاً إنه عليـه الصلاة والسـلام ـ كما وصفـه ربه عـز وجل ـ ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾. وما على الذين يتطلعون صادقين إلى إنقـاذ أنفسهم من النار ، والخلوص يـوم المساءلـة والحسـاب إلى الجنة يتبـوؤون منهـا حيـث يشاؤون، إلا أن يسمعـوا ويطيعـوا أمره عليـه الصلاة والسـلام فيما أمـر ، ويجتنبوا نهيـه فيما نهى ، وبذلـك ينجون ممـا وقع فيه مـن ذكروا في المثل، ويكـونون ــ بفضل الله ـ في عـداد الأتقياء الأنقياء المفلحين، الذين رُزقوا أن يكونوا يوم الحسرة ، في جنة الفردوس خالدين .

دار المقامة.. والصبر على طريقها

وقفنا الكلام على طريق الجنة وأن عنوانهَ المشرقَ المتلألئَ طاعةُ رسول الله ﷺ التي هي من طاعة الله، على حديث يبرز حِرْصَ النبي ﷺ على أن يباعد الأمة عن الوقوع في الجحيم، ويسلكَ بها سبيل الوصول إلى الجنة، وكان من بلاغته وسمو أسلوبه عليه الصلاة والسلام، أن استخدم المثل الواقعي لإيضاح هذه الحقيقة، وتقريبها إلى الأذهان، كيما تكون حافزاً إيمانياً يدفع إلى العمل، والانعتاق من سلطان الهوى والشيطان، لأن الذي يعرض عن ذكر الله، ويقع في حبائل الهوى والشيطان، متولياً عن هدي النبي عليه الصلاة والسلام، لا يُمْترى في أنه يعرّض نفسه للوقوع في جهنم وبئس المهاد، مثله في ذلك: مثل الفراش والدواب التي تتهافت على الوقوع في النار، يذبُّها الذي استوقد النار بكلتا يديه، وهي تصر على التقحّم فيها، وقد رأينا في هذا رواية للحديث عند الإمام البخاري.

وفي حديث موصول بهذه النقطة، يحسن إيراد رواية الإمام مسلم التي جاءت في الصحيح تحت باب «شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم». قال رحمه الله: حدثنا عبدالرزاق قال: أخبرنا معمرٌ عن همام بن منبه قال: **هذا ما حدثنا** أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله ﷺ: «**مثَلي كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدوابُّ التي في النار يقعن فيها، وجعل يَحْجُزهنّ ويغلبْنَه فيتقحّمن فيها. قال: فذلكم مثلي ومثلُكم. أنا آخذ بحُجزكم عن النار، هلُمّ عن النار، هلُمّ عن النار، فتغلبوني تقحّمون فيها**» وله في رواية أخرى عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهنَّ عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلّتون من يدي**». وقد رويت كلمة تفلّتون بوجهين. أحدهما: تفلَّتون وأصلها تتفلّتون،

والثاني : تُفلِتـون ـ مـن أفلت ـ وكـلاهما صحيح في العربيـة : تقول : أفلـت مني وتفلَّت : إذا نازعك الغلبة والهرب ثم غلب وهرب .

هذا : وصورة الأخـذ بالحُجز إبعاداً للناس عـن النار ـ وهي صـورة من عمل النبي ﷺ ـ توضـح ما كان مـن حرصـه على أن يبتعد الناس عـن طريـق جهنم، والتهافت الشديد عليها ، وأن يسلكوا طريـق الجنة ـ وهـم يصرُّون على ما يوقعهم فيها ـ هذه الصورة جـاء التعبير عنها عند مسلم بصيغة اسم الفاعل لـلأخذ «فأنا آخذٌ بحجـزكم » وبصيغـة المضارع « فـأنا آخُـذُ بحجزكـم » أما عنـد البخاري: فجاءت بصيغة اسم الفاعل فقط . والفاء هنا استوقفت العلماء من حيث موقعها البلاغـي؛ قال الطيبي رحمه الله : الفـاء فيه: فصيحـة ، كأنه لما قـال : « مثلي ومثل الناس » أتى بما هو أهم وهو قوله : « فأنا آخِذٌ بحجزكم».

ومن هذه الدقيقـة التفتَ من الغيبة في قوله : « مثـل الناس » إلى الخطاب في قوله: « بحجـزكم » كما أن من أخذ في حـديث من له بشـأنه عناية، وهـو مشتغل بشيء يوررطه في الهلاك ، يجد لشدة حرصه على نجاته أنه حاضر عنده؛ وفيه إشارة إلى أن الإنسان ، إلى النـذير أحوج منه ـ كما يقول هذا العلاّمـة ـ إلى البشير ، لأن جبلته مائلة إلى الحظ العاجل دون الحظ الآجل .

وواضح أن في الحديث: ما كان فيه ﷺ مـن الرأفة والرحمة والحرص على نجاة الأمة ،وأن تتجـه وجهة العاقبة المبـاركة في دار الأبرار ، دار النعيم كما قـال تعالى : ﴿**حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ ، لقد بلغ رسول ﷺ الغـاية بهذا المثل المؤثر الذي يلامـس بنوره وواقعيته شغاف القلب ، وينبه الغـافلين الذين يغترون بـزخرف الـدنيا ، ويتبعـون الشهـوات ، ناسين دار القـرار .. ينبههم على محاسبـة أنفسهـم وأنهم ، وهـم في طـاعـة الشهوة والهوى والشيطـان ، يلقـون بأنفسهـم في جهنم التي قال الله فيها : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً . **لابثين فيها أحقاباً** ﴾ وهل مـن العقل في شيء: أن يوبقَ المرء نفسـه راضياً مختاراً ، فيكـون من

أهل الجحيم ، وأمامه طريق الجنة مفتَّح الأبواب! ؟ إنه إن فعل ذلك ـ وهو المخلوق الذي كرمه الله بالعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ـ كان مثله في هذه الجهالة المطبقة ، والعناد المفرط ، كمثل تلكم الدواب والفراش والجنادب التي تلقي بنفسها في النار ، وهي لا عقل لها ولا إدراك ؛ يحجزها الذي استوقد النار عنها وهي تتقحّم فيها ؛ أفيرضى عاقل لنفسه أن يكون كهذه المخلوقات عديمة الإدراك ، يدفعه النبي ﷺ بهديه الكريم، وشفقته العظيمة عن طريق جهنم ، ويوجهه إلى طريق النعيم المقيم، ويأبى هو إلا العصيان والحرص على نار السعير؟.

أما بعد : فإن هذا الذي رأينا في هذا الحديث، وحديث «النذير العريان» من قبله : يشدنا إلى الفهم العميق لمدى الارتباط بينهما ــ ومثلهما كثير في الهدي النبوي ـ وبين الحديث الذي رأينا من قبل بعض رواياته عند البخاري والترمذي وأحمد والذي يحدد بضرب المثل ــ كما ذكر الملائكة عليهم السلام ، أو جبريل وميكائيل فقط ـ طريق الجنة المبارك النيرّ وهو إجابة الداعي محمد عليه الصلاة والسلام الذي أرسله الله رحمة للعالمين .

وكم في حديث النبي عليه الصلاة والسلام ــ وهو المبلغ عن الله ما أراد ـ من توجيهات تسمو بالعاقل ـ أن لو امتثل وأطاع ، وصبر على ما يكتنف طريق الجنة من مكاره ـ إلى أن يكون في منازل أولئك الأبرار فيها ، ونعمت دار المقامة، نزلاً للأبرار المقربين . أخرج الإمام أحمد بسنده عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري أُراه قد رفعه إلى النبي ﷺ قال : « أيُّما مؤمن سقى مؤمناً شَربةً على ظمأ ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيُّما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع ، أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيُّما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عُرِي ، كساه الله من خُضْرِ الجنة ».

والنسب متصل ــ كما ـ ترى بين هذه الكلمات النورانية، وبين قوله تعالى في سورة المطفّفين: ﴿ إن الأبرار لفي نعيم. على الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم

نَضْرة النعيم . يسقون مـن رحيق مختوم ...﴾ ولفظ الحديث عنـد أبي داود عن أبي سعيد أيضاً عـن النبي ﷺ قال : « أيما مسلم كسا مسلماً ثوبـاً على عُري كساه الله من خُضْر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم ».

وأخرجه الترمذي بلفظ « أيُّما مؤمـن » كما هو عند أحمد ، وأشار إلى رواية وقفه على أبي سعيد ، وأنها عنده أصح وأشبه .

وتجدر الإشـارة إلى أن الحديـث الموقـوف مـا وقـف بـه على الصحـابي ، أمـا الحديث المرفوع : فهو ما رفع إلى النبي ﷺ . غير أن الحديث الموقوف إذا كان مما لا يقال من قبل الرأي والاجتهاد : فله حكم المرفوع . وحديث أبي سعيد هنا من هذا القبيل .

اللهـم اجعلنا مـن الذيـن يستمعون القـول فيتبعون أحسنـه ، واحشرنا يـوم القيامة في زمرة عبادك المتقين الذين يسقون في دار كرامتك من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

العمل والجزاء.. الترابط والصلة

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يرمي ـ وهو يكشف عن الصلة بين الجزاء الذي يُكرم به المؤمنون العاملون للصالحات يوم القيامة، وبين العمل وتحمل المسؤولية في الدنيا ـ إلى أن يكون المؤمنون على ذكر أبداً من أن طريق الجنة، على نسب متصل بالاستجابة الصادقة لله وللرسول عليه الصلاة والسلام . ولما كانت طاعته ﷺ ـ كما هو معلوم ـ من طاعة الله ، دارت الأحاديث على أن الطريق التي تبدأ بالإيمان والعمل الصالح ، في إخلاص وصدق توجه الى الله عز وجل ـ وصفوتها: إجابة الداعي محمد عليه الصلاة والسلام ـ تنتهي بالمؤمن إلى أن يدخل ـ بفضل الله ـــ جنة النعيم التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ ومما أوردت في ذلك من قبل: ما روى أحمد والبخاري والترمذي من حديث الملائكة الذين أوضحوا هذه الحقيقة بضرب المثل للنبي عليه الصلاة والسلام ؛ فهو الداعي إلى الجنة ، ومن أجابه إلى دعوته، كان من أهلها .

وتدعو الرغبة في المزيد من الوضوح، إلى إيراد رواية أخرى للترمذي ، حرص الإمام ابن القيم على ذكرها ،والدلالة على مواطن الهداية للعمل الأخروي فيها ، كما حرص عدد من الشراح وفي مقدمتهم الحافظ ابن حجر ،على الإفادة منها في شرح الحديث، وبيان أحكامه ، وقد أخرجها أبو عيسى في باب « مثل الله لعباده » من كتاب الأمثال في الجامع ـ سنن الترمذي ـ قال رحمه الله : حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا ابن أبي عدي عن جعفر بن ميمون عن أبي تميمة الهجيميِّ عن أبي عثمانَ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ العشاء ثم انصرف فأخذ بيد عبدالله بن مسعود حتى خرج به إلى بطحاء مكة ، فأجلسه ثم خطّ عليه خطّاً ، ثم قال : « لا تبرحنّ خطّك ، فإنه سينتهي إليك رجال ، فلا تكلمهم فإنهم لا يكلمونك، أو لن يكلموك ، قال: ثم مضى رسول الله ﷺ حيث أراد ، فبينا أنا

جالس في خطي، إذ أتاني رجال كأنهم الزُّطُّ ـ جيلٌ من السودان ـ أشعارهم وأجسامهم ، لا أرى عورةً ، ولا أرى قشراً ، وينتهون إليَّ لا يجاوزون الخطَّ ، ثم يصدرون إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان من آخر الليل ، لكن رسول الله ﷺ قد جاءني رسول الله ﷺ وأنا جالس فقال : لقد أراني منذ الليلة ، ثم دخل عليَّ في خطيّ ، فتوسّد فخذي فرقد ، وكان رسول الله ﷺ إذا رقد ، نفخ ، فبينا أنا قاعد، ورسول الله ﷺ متوسّد فخذي ، إذا أنا برجال عليهم ثياب بيض ، الله أعلم مابهم من الجمال ، فانتهوا إليَّ ، فجلس طائفة منهم عند رأس رسول الله ﷺ ، وطائفة منهم عند رجليه ، ثم قالوا بينهم : ما رأينا عبداً قطُّ أوتي مثلَ ما أوتي هذا النبي ، إن عينيه تنامان ، وقلبُه يقظان ، فاضربوا له مَثلاً : مَثَلَ سيدٍ بنى قصراً ، ثم جعل مأدبةً ، فدعا الناس إلى طعامه وشرابه ، فمن أجابه ، أكل من طعامه وشربَ من شرابه ، ومن لم يُجِبْه عاقبه ـ أو قال : عذّبه ـ ثم ارتفعوا ، واستيقظ رسول الله ﷺ عند ذلك ، فقال : سمعتَ ما قال هؤلاء ؟ وهل تدري من هؤلاء ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : هم الملائكة ، فتدري ما المثل الذي ضربوا ؟ـ أوضربوه ـ قلت: الله ورسوله أعلم. قال : المثل الذي ضربوا : الرحمن تبارك وتعالى بنى الجنة ودعا إليها عباده ، فمن أجابه دخل الجنة ، ومن لم يجبه عاقبه ـ أو عذبه ـ ». قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

ومعلومٌ أن نبينا محمداً صلى الله وسلّم عليه، هو المبلغ عن الله عز وجل ما أراد؛ فمن أطاعه، فقد أطاع الله ودخل الجنة ، ومن عصاه ، فقد عصى الله وكانت عاقبتُه جهنَم وساءت مصيراً . وأخرج الحديث الإمام أحمد في المسند: وفيه أن عبدالله بن مسعود أرعب مما رأى رُعباً شديداً ... وجاء في تلك الرواية .... « قال بعضهم ـ أي الملائكة ـ لبعض : اضربوا له مثلاً ونؤول نحن ، أو نضرب نحن وتؤولون أنتم، فقال بعضهم لبعض : كمثل سيّد ابتنى بيتاً حصيناً ، ثم أرسل إلى الناس بطعام ـ أو كما قال ـ فمن لم يأت طعامَه ، أو قال : لم يتبّعه ،عذبه عذاباً شديداً ـ أو كما قالوا ـ قال الآخرون : أما السيد : فهو رب العالمين ، وأما البنيان :

فهو الإسلام، والطعام الجنة ، وهو الداعي ، فمن اتبعه كان في الجنة ... ومن لم يتبعه عُذّب. ثم إن رسول الله ﷺ استيقظ فقال : ما رأيت يا ابنَ أمِ عبد ؟ فقال عبدالله : رأيت كذا وكذا ، فقال النبي ﷺ : ماخفي عليَّ مما قالوا شيء ، قال نبي الله ﷺ : نفر من الملائكة أو قال : هم من الملائكة أو كما شاء الله » .

هكذا يجري الترغيب بالجنة والدلالة على طريقها ،كما يجري الترهيب من النار والتنبيه على كل سبيل توصل إليها ، الأمر الذي يدل على العناية الفائقة بالمؤمن، وسمو المنهج الموضوع لتربيته و إعداده ، ليكون في نفسه، وفي أسرته ومجتمه، قادراً على تحقيق العبودية لله تعالى، في تناسق كامل، بين عمارة الأرض في الدنيا وفق شريعة الله، وبين التزوّد الصالح لدار الخلود ؛ فهو يسعى ويكدح هنا، غير ناسٍ أن الدنيا دار ممر لا دار مقر ، ونصب عينيه الأجل المحتوم ، وما يكون بعد الموت ،وما تحمل مشاهد القيامة من الهول الهائل ، ﴿**يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً**﴾. أخرج الترمذي بسنده عن النوّاس بن سمعانَ الكِلابيِّ أنه قال: قال رسول الله ﷺ :« إن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً ، على كنفي الصراط داران لهما أبواب مفتّحة ، على الأبواب ستورٌ ، وداعٍ يدعو على رأس الصراط ، وداعٍ يدعو فوقه ﴿ **والله يدعو إلى دار السّلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ والأبواب التي على كنفي الصراط : حدود الله ، فلا يقع أحد في حدود الله حتى يُكشَفَ السِّتر ، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه » قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

فهنيئاً للذين تستنير بصائرهم، ويكون مطمح أنفسهم المطمئنة، ما يهنأ به أحباب الله المتقون ، الوقّافون عند حدود الله لا يزيغون، والذين يبلغ الانفعال الصادق بهم المدى، وهم يستمعون لواعظ ربهم ، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، وكأن الجنة والنار عندهم كأن كلاًّ منهما رأي عين .

اللهم إنا ندعوك كما أمرتنا فاستجب لنا بفضلك وجودك كما وعدتنا . اللهم

اغفر لنـا وارحمنا وأعتق رقـابنا من النار ، وخـذ بأيدينـا إلى حيث أحبابـك المتقون الأبرار .

وصلى الله وسلم على الـرحمة المهداة سيدنا محمـد ، وعلى آله وصحابته الـذين عقلوا عنـه صلى الله عليه وسلـم ما أراد فـانتفعوا ونفعـوا ، وعلى من اهتـدى بهذا الهدي الميمون ، فسار في طريق البررة المفلحين .

كثيرة هي الدلائل التي تحمل على الجزم بأن من سمات جنة الخلد وخصائصها: أنها سليمة كلّ السلامة من الآفات والمنغصات ،وكلِ ما يمت إلى ذلك بصلة. وهذا كله من فضل الله تبارك وتعالى، على من رضي عنهم ورضوا عنه، من عباده الذين غادروا هذه الدار ، وهم من خشيته جل شأنه مشفقون ؛ ولذلك سماها ربّنا «دار السلام» ؛ ففي سورة الأنعام : نقرأ في معرض البيان لما أعد الله لعباده الصالحين في الآخرة قوله سبحانه : ﴿ **لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون** ﴾ ونقرأ في سورة يونس قوله تباركت أسماؤه : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ .

فالجنة ـ وهي دار السلام ـ أعدَّها الله ــ فضلاً منه و إحساناً ـ لأولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ وهو سبحانه يدعو إليها بلسان رسله عليهم الصلاة والسلام . أخرج الطبري عن قتادة قال : « الله السلام وداره الجنة» وله من رواية أخرى عن قتادة في قوله : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام﴾ قال : « الله هو السلام وداره الجنة». وقد جاء الترغيب في الجنة هنا ، بكونها دار السلام في سورة يونس بعد أن ذكر الله تعالى الدنيا ونبّه على سرعة زوالها، وأن ما فيها إلى فناء . **أما الجنة** : فهي مبرَّأة من هذا كله ، وأنها نُزُلٌ من عند الله ، وما عند الله خير للأبرار .

قال الحافظ ابن كثير : وسماها دار السلام، أي من الآفات والنقائص والنكبات . وقد مر بنا من قريب ما روى الترمذي من قوله ﷺ : « **إن الله ضرب** مثلاً صراطاً مستقيماً ، على كنفي الصراط داران لهما أبواب مفتّحة ، على الأبواب ستور وداع يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو فوقه» ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ والأبواب التي على كنفي الصراط

حدود الله، فلا يقع أحد في حدود الله، حتى يكشف السِّتر ، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه». وتوجيه النبي ﷺ إلى الاستماع، وحسن الامتثال لواعظ ربنا الرحيم الرحمن من طريق الربط بين المثل، وحقيقة أن المدعُوَّ إليها : دار السلام ، واضح لا يحتاج إلى مزيد بيان ، وطريق دار السلام : إنما يكون بالتوجه الصادق إلى الآخرة، حتى خلال العمل في الدنيا الفانية ؛ وذلك يحصل بحسن النية ،وعدم الركون إلى متاع الغرور ، وأن يكون المؤمن ــ وهو يسهم في إعمار الأرض ـ خاضعاً للمنهج الرباني ، لا يزيغ عنه ولا يحيد .

فالرسول ﷺ يريد للمسلمين أن لا يضعفوا ، فتُوجهَهم الدنيا وزينتُها ، لأن مصيرها إلى فناء وزوال . ولكن يريد لهم أن يطلبوا الآخرة الباقية ، وأن يلتمسوا ما عند الله بطاعته ، فإن الله يدعوهم إلى داره ، وهي جنَّاته التي أعدّها لأوليائه؛ وإنهم إن فعلوا ذلك، سلموا من الهموم والأحزان فيها ،لأنها دار السلام ، وأمنوا من فناء ما فيها من النعيم والكرامة التي أعدّها لمن دخلها .

وأَعظم بالمثل الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو سيد البلغاء وإمام المربين الأمناء ـ تبياناً لهذه الحقيقة، وحرصاً على أن يكون المسلمون عند الذي هداهم إليه ربهم تبارك وتعالى ، وتولى بيانه ـ هو ـ عليه الصلاة والسلام. أخرج الطبري بسنده عن معمر عن أيوبَ عن أبي قلابة عن النبي ﷺ أنه قال: «قيل لي : لتنم عينُك ، ولْيعقلْ قلبُك ولتسمَعْ أذنك . فنامت عيني وعقل قلبي وسمعت أذني ، ثم قيل : سيد بنى داراً ثم صنع مأدبة ، ثم أرسل داعياً ، فمن أجاب الداعي، دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد . ومن لم يجب الداعي ، لم يدخل الدار ، ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد ، فالله السيّد ، والدار الإسلام ، والمأدبة الجنة ، والداعي محمد ﷺ ».

والحق أن مسؤولية الفهم عن الله وعن رسوله عليه الصلاة والسلام، في أمر الإجابة المومى إليها ، وما يتعلق بذلك من التماس الوصول إلى ماوُعد به المؤمن في

دار البقاء ، بطاعة الله وطاعة رسولـه ... هذه المسؤولية ، قد أعين أهل الإيمان على تحملها من وجوه شتى ؛ ولكن الهمم تتفاوت ، والسعيد من وفق للعمل ، وكان في كدحه إلى ربه من أهل الآخرة . أخرج الإمام أحمد في المسند عن زر بن حبيش عن عبدالله بن مسعود أنـه قال : «إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجـد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فـاصطفاه لنفسه ، فابتعثه بـرسالته ، ثم نظـر في قلوب العباد بعد قلب محمـد ، فوجد قلوب أصحـابه خير قلوب العباد ، فجعلهـم وزراء نبيه يقاتلون على دينه ، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء » .

هذا : والحديـث السابـق الذي نصّ على أن الـدار الإسلام ، والمأدبـة المدعو إليها الجنة ، والـداعي محمد ﷺ رواه عن رسول الله ﷺ أبـو قِلابة وهو تـابعي ثقة فاضل ولكن الحديث إذا سقط من سنده اسم الصحابي ، يكون « مرسلاً » لعلماء الحديـث منه مـوقـف ، غير أن هذا الحديـث جـاء متصـلاً عند البخـاري وأحمد والترمذي وغيرهـم كما مرّ مـن قبل ، حيث رفعـه إلى النبي ﷺ الصحـابي الجليل جابر بـن عبدالله رضي الله عنهما ، وما دام الحديث المرسل قد أخـرجه الطبري فلا بأس من الإشارة إلى أنه هـو نفسه يرحمه الله ، أخرجه أيضاً متصلاً بروايـة جابر بن عبدالله الـذي رفعه إلى الـرسول عليه الصـلاة والسلام . قال أبـو جعفر : حـدثنا القاسم قال : حدثنا الحسين قال : حدثني حجـاج عن ليث بن سعد ، عن خالد ابن يـزيدَ ، عن سعيـد بن أبي هلال عن جـابر بن عبـدالله أنه قال : «خـرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : إني رأيت في المنام كأنّ جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجليّ ، يقول أحـدهما لصاحبه : اضرب له مثـلاً ! فقال : اسمع سَمِعَـت أذُنُك ، واعقِلْ عقَلَ قَلبُـك ، إنما مثَلك ومثَل أمتك ، كمثل ملك اتخذ داراً ، ثـم بنى فيها بيتاً ، ثم جعـل فيها مأدبةً ، ثم بعث رسـولاً يدعو الناس إلى طعامـه ، فمنهم من أجاب الـرسول ، ومنهـم من تركـه ، فالله الملك ، والـدار الإسلام ، والبيـت الجنة ، وأنت يا محمد الرسول ، من أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ،

ومن دخل الجنـة أكل ما فيها ». وقـد روى الطبري ما روى: عند كلامـه على قوله تعالى : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ .

وأنت واجـد في العديد مـن النصوص، مـا يدل على الدعـوة إلى الإقبال على الله، وعدم الركون إلى ما يلهي عن ذلك من أمـور الدنيا، كيما تكون العاقبة ـ بإذن الله ـ دخول الجنة دار السلام ، فتلكم هي الطريق .

روى أبو جعفر عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ ذكر لنا أن في التـوراة مكتوباً « يا بـاغي الخير هلُمَّ، ويـا باغـي الشر انته » كما روى بسنـده عـن أبي الدرداء رضي الله عنـه قال : قـال رسول ﷺ : «ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وبجنبَتَيْها ملكان يناديان، يسمعان خلق الله إلا الثقلين : يا أيها النـاس هلموا إلى ربكم ، إن ماقل وكفـى خير مما كثر وألهى » قال : وأنزل ذلك في القرآن في قوله : ﴿والله يدعو إلى دار السلام ﴾ الآية. ورواه أحمد في مسنده مطولاً بهذه الزيادة : «ولاآبـت شمس قط إلا بُعث بجَنَبتيْها ملكان يناديـان يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : اللهم أعط منفقـاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً » والله ولي التوفيق .

المؤمن ـ في نظرته المتدبرة إلى تلكم البصائر ، التي تبرز ما يحفل به يوم الفصل من الأمور العظام، والشدائد التي يبلغ من هولها، أن يقول الكافر : ياليتني كنت تراباً ...ـ حريٌ أن لا تعزب عنه لحظة واحدة، حقيقة أنه لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ؛ فالموقنون الذين استجابوا لله وللرسول ، فأطاعوا واطمأنوا بالهدى فكان حظُهم الفوزَ بالنعيم المقيم !! أين منهم أولئك الذين أصمُّوا آذانهم عن دعوة الحق ، وصدُّوا عن السبيل، فباءوا بالخسران المبين ، جهنم يصلونها وبئس المهاد ﴿**لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون**﴾ إنهم لا يستوون عقيدة، ولا عملاً ، ولا سلوكاً في الدنيا ، كما أنهم ـ وهذا من سنن الله التي لا تتبدل ـ لايستوون عاقبة .. المؤمنون الصادقون في روضات الجنات يحبرون ، والكافرون الجاحدون في نار جهنم خالدون .

وإذا كان الأمر كذلك : فمقتضى النظرة المتدبرة في تلكم البصائر الهادية ، واستذكار هذه الحقيقة الناصعة ، أن يُخضع المؤمن نفسه لمنهج الله في هذه الدار ، فيجعلَ من عمره فُرصاً جدَّ مواتية للإقبال على الله ، وملء الوقت بالزاد النافع ليوم المعاد ، وبذلك يكون ـ بفضل الله وبإحسانه ـ من أهل الفوز برضوان الله، وعطائه الذي لا يُجَدُّ ، في جنات النعيم . وإذا كان الخير يدل على الخير ويجلبه ؛ فهنا حقيقة أخرى جاءت على لسان المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهي ارتباط الخيرية بطول العمر وحسن العمل ، والعكس بالعكس والعياذ بالله . ذلكم ما روى الترمذي بسنده عن عبدالله بن بُسْرٍ : «أن أعرابياً قال : يارسول الله من خيرُ الناس؟ قال: من طال عُمرُه وحسن عملُه » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . كما روى بسنده أيضاً عن أبي بكرة: « أن رجلاً قال : يا رسول الله أيُّ الناس خيرٌ ؟ قال : من طال عمره وحسن عمله ، قال : فأيُّ الناس

شرٌّ ؟ قال من طال عُمرُه وساء عمله ». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح .

هذا التعريف الدقيق لخير الناس ولشر الناس من رسولنا الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، إيذان بأن من طال عمره وحسن عمله ، هو السالك طريق الجنة مع السالكين ، وعندما تعلِن عاقبة أهل التقوى إعلانها، يوم الحشر ، يكون في زمرة من تغشاهم رحمة الله ، وينادون بعد تلكم الساعات العصيبات ﴿ أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾. أما من طال عمره وساء عمله : فياله من سالك طريق أهل الشقوة ، كلما امتدَّ به الأجل أثقلته الأوزار، فكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، ويوم القيامة تقذف به تلك الأوزار في عذاب بئيس ، ماله عنه من محيص .

وهكذا تكون الخيرية المنشودة ـ كما حدّدها الهدي المحمدّي ـ عنوان العاقبة المشرقة يوم اللقاء ، يوم تجد كل نفس ما عملت وتبلو ما قدَّمت. وما على المؤمن وهو يفتح قلبه للكلمة الهادية المضيئة، التي تحدّد معالم الطريق إلى جنة الخلد، إلا أن يبادر ويسارع ، وما أعزّ ما يؤول إليه الأمر في دار القرار ، وهنيئاً لمن يوفقون لصالح العمل في العاجلة ، فيظلهم الله بظله يوم القيامة وتسلمهم الرحمة الربانية إلى خير مستقر وأحسن مقيل . وما ظنك بإنعام ذي الفضل والإنعام وإكرام ذي الجلال والإكرام !! عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام» أخرجه الترمذي وهو حديث حسن. وجاء في رواية للبخاري عن أبي هريرة أيضاً قوله ﷺ : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أُراه قال : وفوقه عرش الرحمن ـــ ومنه تفجّر أنهار الجنة ». قال محمد بن فُلَيْح عن أبيه « وفوقه عرش الرحمن» وأخرج الترمذي بسنده عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: « في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها

درجة ، ومنها تفجَّر أنهار الجنة الأربعة ، ومن فوقها يكون العرش ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس » وهو حديث صحيح . فكم يحسن المؤمن لنفسه ولمجتمعه بطاعة الله في الدنيا، وكم يمهِّد بالحفاظ على عقيدته أن ينقضها، أو يعكر صفوها شيء ، وبالجدِّ في طلب مرضاة الله، إخلاصاً وخشية منه سبحانه ومن اليوم الآخر .. كم يمهّد بذلك ليكون في زمرة الأبرار الذين ينشر الله عليهم رحمته يوم القيامة، فيحظى بدار الخلد ، ويفوز بما أفاض الله عليهم من رضوان ، ناهيك عن العطاء الذي لاتشوبه شائبة انقطاع أو زوال ؛ فمهما رأيت من العطاء ، فالحق أن وراءه ما هو أكثر وأوفر؛ وسبحان من لاتنفذ خزائنه، ولا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء.

أخرج البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح عن أبي حازم عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » ثم قال رحمه الله : قال أبو حازم : فحدثت به النعمان ابن أبي عياش فقال : حدثني أبو سعيد عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجوادُ أو المضمّرُ السريعُ مائة عام وما يقطعها ». وجاء الحديث عند مسلم بلفظ الرواية الأولى ، كما جاءت الرواية الثانية عنده بدون أو في قوله «أو المضمّرُ» وبنصب كلمتي «الجواد والمضمّر » ؛لأن فعل «سار » يأتي لازماً ومتعدياً ، ذلك قوله ـ رحمه الله ـ بعد ذكر الرواية الأولى : قال أبو حازم : فحدثت به النعمان ابن أبي عياش الزُّرقيَّ فقال: حدثني أبو سعيد الخدريُّ عن النبي ﷺ قال: « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجوادَ المضمَّرَ السريعَ مائة عام ما يقطعها».

قال ابن الأثير في النهاية : عند شرح كلمة المضمّر : تضمير الخيل هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن ثم لا تعلف إلا قوتاً لتخف . وقيل : تشدُّ عليها سروجها وتجلّل بالأجلَّة حتى تعرق تحتها فيذهب رهلها ويشتد لحمها ؛ وقد مر بنا شيء من ذلك فيما سبق .

ألا وإن المؤمن المصدّق بما جاء عن الله ورسوله ، يجد في هذه الأخبار الصادقة وأمثالها ، مزيداً من بواعث العمل للآخرة ، والسير في الطريق التي تنتهي بالمعافاة من النار والفوز بالجنة ...

اللهم آمنا وصدقنا فوفقنا لتقواك في الدنيا واكتبنا في زمرة من تنشر عليهم رحمتك يوم القيامة ، كيما نفوز بما يفوز به أحباؤك الموفقون .

مازلت أذكر ـ والحديث موصول بالكلام على الإكرام في جنة الخلد ـ ما سعدنا به ، ضمن رحلة مع واحد من تلكم النصوص المباركة، في حديث رسول الله ﷺ التي تكشف عن صورة من صور العطاء الإلهي هناك : وهو الظل الممدود للشجرة العظيمة . ولقد يقدر المرء ذلك أكثر وأكثر ، حين يضع في الحسبان أن دخول دار السلام ، والحظوة بموعود الله فيها من وافر الإكرام ، وما لا ينقطع من الإنعام .. يأتي وقد سبقته ساعات عصيبات وأهوال شداد ، تُثير في قلب المؤمن مزيداً من وجوب الشكر ، على نعم لا يقادر قدرها، ولا يحصيها إلا خالقها سبحانه وتعالى .

والصورة التي ألمح إليها ، جاءت فيما روى البخاري ومسلم وغيرهما من قوله ﷺ في رواية سهل بن سعد رضي الله عنه : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لايقطعها » وفي رواية أبي سعيد رضي الله عنه « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمّر السريع مائة عام ما يقطعها ».

والذي أود الإشارة إليه، أن للحديث رواية ، تشعر بأن هذا الذي ورد في السنة المطهرة ، لون مبارك من ألوان البيان للظل الممدود الذي جاء ذكره في سورة الواقعة من قوله تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود وطلح منضود . وظل ممدود ﴾ فالسدر يخضد الله شوكه، ويجعل مكان كل شوكة ثمرة شهية، كما جاء في الحديث . والظل الممدود يشير إلى مداه البعيد ، وفضل الله في مدّه ـ وهو الذي مدّ الظل في الدنيا ولو شاء لجعله ساكناً ـ يشير إلى ذلك هذا البيان النبوي في تلك الروايات التي نحن بصددها. قال الحافظ ابن كثير : حدثنا محمد بن محمد ، هو البغوي قال : حدثني حمزة بن عباس ، قال : حدثنا عبدالله بن

عثمان ، قال : حدثنا عبدالله بن المبارك قال : أخبرنا صفوان بن عمر عن سليم بن عامر قال: « كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ؟ قال: أقبل أعرابي يوماً فقال : يارسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال: وما هي ؟ قال: السدر ؛ فإن له شوكاً مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله يقول : في سدر مخضود؟ خضد الله شوكه ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمراً تفتّق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام ما فيها لون يشبه الآخر ».

وفي كتاب بدء الخلق من الجامع الصحيح روى البخاري عن عبدالرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة » واقرأوا إن شئتم: ﴿ وظل ممدود﴾ وقد جعل رحمه الله من قوله تعالى : « وظل ممدود » ترجمة لباب وحيد لسورة الواقعة في كتاب التفسير من الجامع فقال : «باب ﴿وظل ممدود ﴾» ثم قال: حدثنا علي بن عبدالله قال: حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها . واقرءوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾» ولفظ الحديث عند ابن أبي حاتم « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها » اقرءوا إن شئتم ﴿وظل مدود﴾» وكذلك هو عند الحافظ أبي يعلى الموصلي . وعند الإمام أحمد يتردد اللفظ بين سبعين ومائة وتسمى شجرة الخلد ؛ إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو مائة سنة هي شجرة الخلد » وعند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري : وقال : « ذلك الظل الممدود» .

والظل ـ كما يقول العلماء ـ الراحة والنعيم والجهة كما يقال : عز ظليل ، وأنا في ظلك.. أي كنفك ، وهو ما نجده في مفردات الراغب الأصفهاني، حيث ذهب إلى أن الظل أعم من الفيء فإنه يقال : ظل الليل وظل الجنة ، ولكل موضع لا

تصل إليه الشمس ، ولا يقال الفيء إلا لما زالت عنه الشمس. قال: ويعبر بالظل عن العز والمنعة والرفاهية والحراسة ، ويقال عن غضارة العيش : ظل ظليل .

وكانت للحافظ ابن حجر وقفة عند بعض الروايات تعين على نوع من التحديد . قال رحمه الله :(وقع التعبير في هذا الحديث بلفظ الفيء في حديث أسماء بنت يزيد عند الترمذي ولفظها : سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وذكر سدرة المنتهى ـ يسير الراكب في ظل الفيء منها مائة سنة ، أو يستظل بظلها الراكب مائة سنة ، ويستفاد منه تعيين الشجرة المذكورة في حديث الباب . وأخرج أحمد وصححه ابن حبان من حديث أبي سعيد رفعه إلى رسول الله ﷺ «شجرة طوبى مائة سنة » وفي حديث عقبة بن عبدالسلمي في عظم أصل شجرة طوبى « لو ارتحلت جذعة ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرماً » أخرجه ابن حبان في صحيحه). والترقَوة . العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق والجمع تراقي .

وماذا أنت قائل، في شأن الإنعام الذي لايكاد يُبلغ مداه ، على من كتبت لهم السعادة، ففازوا بدار المقامة، وأنه إنعام في كل حالة وعلى كل صعيد ، ففيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون ﴿لا يصدّعون عنها ولا يُنزِفون﴾.. وقد مر بنا فيما سبق ، ما روى البخاري في كتاب الرقاق من الجامع عن أنس أن أم حارثة أتت رسول الله ﷺ ـ وقد هلك حارثة يوم بدر ، أصابه سهم غَرْب ـ وهو الذي لا يدرى من رماه فقالت : يارسول الله قد علمتَ موقع حارثة من قلبي، فإن كان في الجنة لم أبك عليه ، وإلا سوف ترى ما أصنع . فقال لها : هبلتِ ؟ أجنة واحدة هي ؟ إنها جنان كثيرة ،وإنه في الفردوس الأعلى » . وعلى منهجه الكريم ﷺ ، خرج من واقعة حارثة إلى ما هو أعم: اذ تحدث عن عاقبة أولئك الصفوة الأخيار ، الذين يقدمون بين يديهم في دار البقاء ، جهاداً صادقاً في سبيل الله مهما قلّ أو كثر ، فقال عليه الصلاة والسلام بعد الحديث السابق : «غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم ـ أو موضع قدم أحدكم ـ من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل

الجنة اطّلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأت مـا بينهما ريحاً ، ولنصيفها ـ يعني الخمار ـ خير من الدنيا وما فيها».

وما أعظم ما نجـده ـ أبداً ـ في المنهج النبوي من تنمية للعـلاقة بين ما يكون للعبد في الدار الآخرة ، وبين سلوكه في دار الـدنيا ، كيما يتخذ المسلمون من تلكم الأخبار الصـادقة ـــ وما أحـوجهم اليوم إلى ذلـك ـ بـاعثا متجـدداً لا يقهر ، على الإكثار مـن عمل الصالحات، وجعل الاستقـامة على دين الله ـ في الشـؤون كلها ـ شعاراً حقيقياً ،لا يجفوهُ المؤمن ولا يحيد عنه ، مع ذلّة لله تعالى، وخشوع صادق بين يديـه ، وشكر لأنعمـه المتجددة التـي أسبغها على العبـاد ظاهـرة وباطنـة . روى البخاري في كتاب الرقاق من الجامع عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال النبـي ﷺ : « لا يَدْخـل أحدٌ الجنة إلا أُرَي مقعـده من النـار لو أساء ليزداد شكراً ، ولا يـدخل النـارَ أحدٌ إلا أُرِي مقعـده من الجنـة لو أحسـن ليكون عليـه حســرة ».

وصلى الله وسلم وبـارك على الرحمة المهداة سيدنـا محمد وعلى آله وصحـابته ، والتابعين لهم بإحسان .

أول زمرة تدخل الجنة

الوقافون عند حدود الله ، الخاشعون الخاضعون لذي الجبروت سبحانه ، المنيبون إليه ، القانتون بين يديه، يدعونه تضرعاً وخفية.. هؤلاء البررة الأتقياء الأنقياء الذين يسهمون بنصيب وافر في بناء الحياة الإسلامية، كما أمر الله ، ويُغِذُّون السير إلى ما وعد الله عباده المتقين في دار البقاء ... ذكرى مشاهد القيامة وما تحمله من العِبَر والحقائق التي لا مرية فيها ، هي منهم دائماً بحسبان ، فهم يطاردون الغفلة، وينأون بالطاعة عن طريق الغافلين ، وتراهم ـ على الحالات جميعها ـ ديدن أحدهم ـ أبداً ـ تزكية نفسه وحملها على الجادة ، ناهيك عن تذكير من ولاه الله أمرهم باليوم الآخر ،وما يكون فيه ، كيما يكونوا من أهل الاستقامة ؛ عدلاً ، وإقامة لشريعة الله في الدنيا ، والنجاة من عذاب الله المهين ، والنزول بخير المنازل يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وغير خاف على أولي النهى، أن التجافي عن دار الفناء والغرور ، والإنابة إلى دار البقاء والخلود : من علامات اليقظة، وعدم نسيان الموت وما يكون بعده ، والراغب في النجاة من العذاب الأليم يوم العرض على الله ، وأن يُسْلَكَ في زمرة الأبرار أهلِ النعيم : يأخذُ نفسه بهذا المنهج المبارك الذي لا يضل سالكه، ولا يُحرم العاملُ به منازل المقرّبين .

والحق أن العطاء الإلهي لأهل القرب في دار الخلد؛ إذ هم ﴿ على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نَضْرة النعيم ﴾ ، مهما عمل المرء في الدنيا ، ليكون من أهله في الآخرة ،لا يفي ولو بجزء يسير منه ،والفضل لله أولاً وآخراً ، ولكن من إكرام الله: أن المنازل تكون هناك بحسب الأعمال هنا .

ذلكم ما روى مسلم عن الأعمش عن صالح عن أبي هريرة أنه قال : قال

رسول الله ﷺ : « أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الـذين يلـونهم على أشـدِ نجم في السماء إضـاءة ، ثم هـم بعـد ذلك منـازل .. » الحديث . والسعيد السعيد من أخذ نفسه بمنهج أهل السعادة والقرب ، ليكون له ما لهم ويتبوأ من الجنة ما يتبوؤون ، ثم قـابل ذلك بزيادة الشكر للمنعم المتفضل سبحانه .

أما مـن غلبت عليه الشقـوة ، واستراح إلى ضلال سعيـه : فتراه هناك في شر المنازل ، ومـا أشد الحسرة التي تضرب على قلبـه ونفسه على ما فـرّط في جنب الله ، وباع نفسه في الدنيا للهوى والشيطان ..

وقد أراد النبـي ﷺ ـ وهو بـا لمؤمنين رؤوف رحيم ـ أن لا تغيـب عن المؤمنين هذه الحقيقة التـي هي من سنن الله التي لا تتحوّل ولا تتبـدل ، فبيّن عليه الصلاة والسلام ، كيف أنه لا يـدخل أحد الجنة إلا أُريَ مقعده من النـار لو أساء، ليزداد شكراً . أجل ليزداد شكراً لله تعالى أن نشر عليه رحمته وعمّه بلطفه، فكان من أهل الإحسان ، فلم يسـيء في الدنيا وسلـك طريق الأبرار إلى دار النعيم . كما بيَّن عليه الصلاة والسلام كيف أنه لا يدخل أحد النار إلا أرِي مقعده من الجنة لو أحسن، ليكون عليـه حسرة . إي والله إنها لأشد الحسرات ؛ فلو أحسـن في الدنيا ، بـاتباع الحق والعمل بما جاء به المصطفى عليه الصلاة والسلام ، لكان في ذلك المقعد من الجنة، ولكنـه اتخذ إلهه هواه، واستبـدل الذي هو أدنـى بالـذي هو خير ... ألا إن المؤمن ـ وهـو يحسن في الدنيـا ـ واضعٌ قـدمه على الطريق الميمونة التـي تصل به ـ بفضل الله ـ إلى حيث منزلتـه في جنة الخلد التـي وعد الله عباده الأبـرار ، وعكس ذلك صنيع أهل الجحيم ، تجدهم ـ ويابئست الحال ـ ساهين في الدنيا لاهين، إذا ذكّروا لا يـذكرون ، وفي طغيـانهم يعمهون ، فـلا بدع أن يكـونوا يـوم القيامـة بشر المنازل ، تغشى قلوبهم الحسرة ، لما أنهم قد انقلبوا على أعقابهم خاسرين .

واستـذكـار المؤمنين لهذه الحقيقـة ، ضرورة على صعيـد الاعتقـاد والعمـل

والسلوك...

وقد أوردت في مناسبة أخرى بيانها على لسان النبي عليه الصلاة والسلام وذلك فيما روى البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح حيث قال رحمه الله: حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب قال: حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: « لا يدخل الجنة أحد إلا أرِي مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، ولا يدخل النار أحد إلا أرِي مقعده من الجنة لو أحسن، ليكون عليه حسرة » وقد وقع عند ابن ماجة بسند صحيح من طريق آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن ذلك يقع عند المساءلة في القبر. جاء عنده في كتاب الزهد من السنن ما روى بسنده عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الميت يصير إلى القبر، فيُجلَس الرجل الصالح في قبره غيرَ فزع ولا مشعوف، ثم يقال له: فيم كنت؟ فيقول: كنت في الإسلام. فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول الله جاءنا بالبينات من عند الله فصدّقناه. فيقال له: هل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى الله ـ يعني في الدنيا ـ فيفرج له فرجة قِبَلَ النار، فينظر إليها يحطِم بعضها بعضاً، فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله. ثم يفرجُ له قِبلَ الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك، ويقال له: على اليقين كنتَ وعليه مُتَّ وعليه تبعث إن شاء الله. ويُجلَسُ الرجلُ السوء في قبره فزِعاً مشْعوفاً. فيقال له: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري. فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلتُه. فيُفرَجُ له قِبلَ الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر إلى ما صرف الله عنك، ثم يُفرج له فُرجةٌ قِبلَ النار، فينظرُ إليها، يحطِم بعضُها بعضاً، فيقال له: هذا مقعدك، على الشك كنت، وعليه مُتَّ، وعليه تُبعث إن شاء الله تعالى».

معنى « المشعوف »: الذي أصابته شدة الفزع الذي يذهب بالقلب. وعبارة «على اليقين كنت» تدل ـ كما ما يقول العلماء ـ على أن من كان على اليقين في الدنيا يموت عليه عادة. وكذا في جانب الشك.

هذا : وليس هنالك ما يمنع من فهمِ أن كلاً من مقعد المرء في الجنة، ومقعده في النار ، أن لو كان المحسن قد أساء ، ومقعده من النار ومقعده من الجنة، أن لو كان المسيء قد أحسن ، يعرضان ـ والله أعلم ـ في القبر من أجل ما يكون ، ويعرضان يوم القيامة فيما هو كائن .

والعبرة كل العبرة ، في أن لا تشغل المسلم صوارفُ الحياة عن تذكر ما يجب تذكره من أمور الآخرة ، وأن يجدَّ الجدَّ كلَّه في أن يكون يوم الحسرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ وإن رحمة الله قريب من المحسنين .

ما يطالع المسلم من أخبار اليوم الـذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليـم ، وما أفاض النبي ﷺ عما يكـون فيه لأهل السعـادة، وعما تحمل أهوالـه لأهل الشقـاوة .. كل أولئـك تجده مصحوبـاً بهدي النبّي صلى الله وسلـم وبارك عليه، في التـوجيه البيّن الواضح إلى طـريق السعادة هناك ، والكشـف عن معالمه وآياته والترغيب فيه ، وقل مثل ذلك في بيان معالم الطريق الآخر ، والتوجيه إلى معرفتـه والترهيب منه . وتـرى ذلك مبثوثـاً في شتى الأقوال والأفعـال المتعلقة بـالمكلف، رجـلاً كان أو امـرأة، وبسلوك كـلٍ منهما ، ومقدار انضبـاطه بمعـايير الإسلام أو عدم انضباطه . وكأنه عليه الصلاة والسلام يعلن للأمة : ذلكم طريق الجنة ، وذلكم طريـق النار ، وليختر عاقل لنفسه ، وسبحان الـرحيم الرحمن الذي بيده زحزحة من يزحزح عن النار ، ودخول من يدخل الجنة .

من أمثلة ذلك ما أخرج الترمذي بسنده عـن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظـاً وهو يقدر على أن ينفِّذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامـة حتى يخيِّره في أي الحور شاء » وهو حديـث حسن . وعن أبي بكر بن المنكدر عـن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثـلاث من كن فيه نشر الله عليه كنفه ، وأدخله جنتـه ؛ رفقٌ بالضعيف ، وشفقة على الوالـدين ، وإحسان إلى المملوك » رواه الترمذي وحسّنه . وفي ذلك ما فيه ـ كما نرى ـ من وضع الترغيب في الجنة على الطـريق المؤديـة إلى إصلاح السلـوك ، وذلك على صعيـد التعامـل بين المسلم وأخيه المسلـم، أياً كان ، فضلاً عـن أن يكون أماً أو أباً ، الأمـر الذي يعود على الفرد والجماعة بالخير ؛ فإذا صلح الفرد ، صلحـت الجماعة، وكان ذلك إيذاناً باستقامة خُطى الأمة على طريق التمكين في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة.

وهذه واحدة من شذرات الهدي النبوي ، ترد في شأن الاهتمام بأن يعطي المسلمون أولوية لصلاة الفجر وصلاة الجماعة، نقرأفيها ما صح عن رسول الله ﷺ من ترتيب دخول الجنة على ذلك ، والفوز بتكرمة الله ومزيد فضله على أهلها، بتمكينهم من رؤيته جلّ شأنه وتباركت أسماؤه . ففي كتاب مواقيت الصلاة «باب فضل صلاة الفجر » من الجامع الصحيح روى البخاري بسنده عن جرير ابن عبدالله أنه قال : « كنا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون ـ أو لا تضامون في رؤيته ـ فإن استطعتم أن لا تُغْلَبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قال: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ . وهذا ترغيب من النبي ﷺ ليُشعر ـ مع ما سيأتي ـ أنه مهما اشتدت أهوال يوم القيامة، وحفلت مشاهده بالمفزع المرعب من الوقائع ، فإن المؤمن الذي يأخذ نفسه بمنهج الحرص على طاعة الله ، والعمل بهدي سيد الهداة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، يكون له حسن العاقبة . فلا ينجو من الأهوال فحسب ،ولكن ينضم إلى النجاة، أن يكون في خير منزلة : يتمتع بنعيم الجنة ، ويكرمه الله برؤيته ،وتبارك الله رب العالمين .

والحديث أخرجه مسلم باختلاف يسير ، إذ روى بسنده عن قيس بن أبي حازم أنه قال : سمعت جرير بن عبدالله وهو يقول : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: « أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامُّون ، أو لا تضامون . في رؤيته فإن استطعتم أن لا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » ــ يعني العصر والفجر ــ . ثم قرأ جرير : ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ . ويلاحظ هنا أن جريراً رضي الله عنه فسّر المراد بالصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها : بالعصر والفجر .

وتحسن الإشارة إلى أن « تضامون » من قوله ﷺ: «لا تضامّون » أو «لا تضامون » حسب الروايات يجوز فيها ضم التاء وفتحها . و « تضامّون » بتشديد

الميم من الضم: أي لا ينضم بعضكم إلى بعض ولا يقول :أرنيه ، بل كل ينفرد برؤيته سبحانه وتعالى . وتُضامون بتخفيف الميم من الضيم وهو الظلم يعني : لا ينالكم ظلم بأن يرى بعضكم دون بعض ، بل تستوون كلكم في رؤيته جل شأنه.

وفي الباب نفسه روى البخاري بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من صلّى البَرْدين دخل الجنة » وقال ابن رجاء : حدثنا همّام عن أبي جمرة أن أبا بكر بن عبدالله بن قيس أخبره بهذا . حدثنا إسحق عن حبان قال : حدثنا همّامٌ قال : حدثنا أبو جمرة عن أبي بكر بن عبدالله عن النبي ﷺ مثلَه . ورواه مسلم وأبوداود وأحمد .

البَرْدان : بفتح الباء وسكون الراء تثنية بَرْد ، والمراد صلاة الفجر وصلاة العصر، دل على ذلك ما جاء في نص الحديث « فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » ثم إن جريراً رضي الله عنه كشف عن ذلك، كما جاء في رواية مسلم ـ بقوله : يعني العصر والفجر . وإنما سميتا بَرْدين لأنهما ــ كما يقول الإمام الخطابي ــ تصلَّيان في بَرْدي النهار ، وهما طرفاه ، حين يطيب الهواء وتذهب سَورة الحر . ونُقل عن أبي عبيد: أن صلاة المغرب تدخل في ذلك أيضاً .

وقد يُتساءل عن وجه التخصيص بالعصر والفجر ، مع عظم قدر الصلوات كلها ؟ وأجاب الكرماني : بأنه كان إظهاراً لزيادة شرفهما وترغيباً في حفظهما . ونقل الحافظ عن البزار توجيه اختصاص هاتين الصلاتين بدخول الجنة دون غيرهما من الصلوات ما محصّله : إن «من » موصولة لاشرطية ، والمراد الذين صلوهما أولَ ما فُرضت الصلاة ، ثم ماتوا قبل فرض الصلوات الخمس، لأنها فرضت أولاً ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، ثم فرضت الصلوات الخمس؛ فهو خبر عن ناس مخصوصين لا عموم فيه ، أي كأنه قال : الذي صلى البَردين دخل الجنة . وهذا تأويل بعيد ؛ ولذلك قال الحافظ رحمه الله :ولا يخفى ما فيه من التكلف : والأوجه

أن « من » شرطية ، وقوله : « دخل » جواب الشرط . وعلى هذا يكون الرسول عليه الصلاة رتب دخول الجنة على القيام بهاتين الصلاتين . وعدل عن الأصل وهو فعل المضارع كأن يقول : من صلى البردين يدخل الجنة، إرادة للتأكيد في وقوعه بجَعْل ما سيقع ــ وهو دخول الجنة يوم الفصل ـ كالواقع . وهذا كثير في نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وصلّى الله وسلم على من أرسله الله رحمة للعالمين بما رغّب في الجنة دار المقامة ورسم لأمته طريقها بياناً للكتاب العزيز ، ونسأله تعالى أن يجعلنا ممن إذا ذكِّروا ذكروا ، وله الحمد في الأولى والآخرة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

جنة المأوى التي وُعد المتقون : مطلب كريم من فضل رب كريم ، لا يني المؤمنون وهم يخضعون لمولاهم ويضرعون إليه ، يسألونه ذلك المطلب ، وكما ثبت في النصوص : يسأله إياه لهم ملائكته الكرام ، بل إن دار السلام الجنة، تسأل ربها أهلَها البررة الكرام ؛ فأهلها يسألون الرحيم الرحمن إياها، والملائكة تسألها لهم، والرسل عليهم الصلاة والسلام، يسألونه إياها لهم ولأتباعهم . يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : «ويوم القيامة يقيمهم سبحانه بين يديه، يشفعون فيها لعباده المؤمنين ، وفي هذا من تمام ملكه، وإظهار رحمته وإحسانه وجوده وكرمه، وإعطائه ما سُئل : ما هو من لوازم أسمائه وصفاته واقتضائها لآثارها ومتعلقاتها ، فلا يجوز تعطيلها عن آثارها وأحكامها ؛ فالرب تعالى : جواد له الجود كله يجب أن يسأل إياه، فهو خالق السائل وسؤاله ومسؤوله ؛ وذلك لمحبته سؤال عباده له ورغبتهم إليه ، وطلبهم منه ، وهو يغضب إذا لم يُسأل :

الله يغضب إن تركت سؤاله   وبني آدم حين يسأل يغضب

وأحب خلقه إليه : أكثرهم وأفضلهم له سؤالاً ، وهو ـ سبحانه ـ يحب الملحين في الدعاء ، وكلما ألحّ العبد عليه في السؤال أحبَّه وقرَّبه وأعطاه . روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من لا يسألْه يغضب عليه » ورواه الترمذي بلفظ « من لم يسأل الله يغضب عليه » ولعل في هذا لوناً من ألوان البيان لقوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ .

وكلما ربا الإيمان في القلب ، وحصّن بالطاعات ، والبعد عن المخالفات ، ازداد هذا القلب معرفة بربه وأسمائه، وصفات كماله ونعوت جلاله ، وكان الدعاء

أقرب إلى القبول والفوز بذلك المطلب العظيم ، جنة الخلد التي أعدّها الله برحمته وكريم إحسانه للأبرار الصادقين ، وما على المؤمن ـ وهو يرجو رحمة الله ويخشى عذابه ويطمع بجنات عدن ـ إلا أن يخلص العمل ويصدق في التوجه إلى مولاه ، بضراعة الخاشع المنيب ، وهو جل شأنه يجيب المضطر إذا دعاه ، فهو قريب مجيب .

فما بالك إذا كان سبحانه ـ بمنه وفضله ـ قد جعل الجنة نفسها تسأل ربها أهلها ؟ فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة : اللهم أدخله الجنة ، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار : اللهم أجره من النار » رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة وقال الترمذي : وقد روي عن أبي إسحاق عن بُريد بن أبي مريم عن أنس بن مالك موقوفاً أيضاً . ويعني بالموقوف ـ كما هو معلوم ـ أنه روي على أنه من كلامه رضي الله عنه ، ولكن له حكم المرفوع إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لأن مثل هذه الأخبار مما لا يقال من قبلَ الرأي والاجتهاد . وتطالعنا بعض الروايات بالسؤال سبعاً بدل ثلاث . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله : « ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار : إن عبدك فلاناً استجار مني فأجره ، ولا يسأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة : يارب إن عبدك فلاناً سألني فأدخله الجنة » يعني سألك إياي .

والنسب واضح بين ما جاء في هذه الأحاديث ، وبين ما جاء في الكتاب الكريم، من أن الله تباركت أسماؤه يتفضل على عباده المتقين بإدخالهم الجنة التي سألوها ووعدهم إياها ، مثوبة على طاعتهم في الدنيا ، وأكرم بسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام بياناً لكتاب الله العزيز : هانحن أولاء نقرأ في سورة الفرقان قول الله تعالى : ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً . لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً ﴾ جاء ذلك بعد الكلام على جهنم أعاذنا الله منها ، وما يسمع لها من تغيظ وزفير وكيف أن

الكافرين إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً دعوا هنالك ثبوراً ؛ فالله تبارك وتعالى يقول لنبيه ﷺ : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالساعة : أهذه النار التي وصف لكم ربكم صفتها وصفة أهلها خيرٌ أم جنة الخلد ـ كما يقول الإمام الطبري ـ التي يدوم نعيمها ولا يبيد ، وقد وعِد بهذا النعيم من عمل الصالحات، ولم يفرط في جنب الله فكانت هذه الجنة ، جزاء أعمال المتقين في الدنيا ، ومصيراً يصيرون إليه في الآخرة ، لهم فيها مما يشاؤون مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، خالدين فيها لا يزولون عنها ولا يزول عنهم نعيمها . والمؤمنون سألوا ربهم ذلك في الدنيا حين قالوا : ﴿**ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك**﴾ وحين سألوا الجنة واستعاذوا من النار ، كما علمهم نبيهم عليه الصلاة والسلام ، فكان إعطاء الله المؤمنين جنة الخلد التي يحظون فيها بالنعيم المقيم، وفاءً بوعده الذي وعدهم ، ومن أوفى بعهده من الله ، واستجابة لمسألتهم إياه ذلك ﴿ **كان على ربك وعداً مسؤولاً** ﴾ كما أن الاستجابة لسؤال الملائكة الجنة للبررة المتقين بقولهم : ﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم**﴾ ـ كما جاء ذلك صريحاً في الكتاب الكريم ـ لها مكانها ـ والله أعلم ـ في ساحة هذا الوعد، وعدِ ربنا العزيز الرحيم . أخرج الطبري عن ابن زيد في قوله تعالى : ﴿ **كان على ربك وعداً مسؤولاً** ﴾ قال : سألوه إياها في الدنيا ، طلبوا ذلك فأعطاهم وعدهم؛ إذ سألوه أن يعطيهم فأعطاهم فكان ذلك وعداً مسؤولاً . والواقع أنهم تضرعوا إليه طالبين ذلك ، والملائكة سألوه ـ عليهم السلام ـ أن ينعم عليهم ـ أعني المؤمنين ـ بجنات عدن التي وعدهم إياها .

والمهم في الموضوع : أن أهل القرب لا يقفون عند حدود السؤال وكفى ، بل تجدهم على الحظ الوافر من الاجتهاد في الطاعة ، وسلوك سبيل الإنابة إلى مولاهم عز وجل . ومن أراد الآخرة حقاً ، وصدقاً ، ورجا أن يكون نزله يوم القيامة جنة المأوى ، فما أكثر ما يجد من الفرص المتاحة، والرياض النضرة التي يرتادها أحباب الله المفلحون ، المخلصون أعمالهم له سبحانه ، الصادقون في طلب الجنة والمعافاة من دخول النار . أخرج الترمذي بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن

لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » وقال : وليس في هذا الحديث ذكر الأسماء » قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن صحيح . وعند البخاري ومسلم «لله تسعة وتسعون اسماً ـ مائة إلا واحدة ـ لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قلت يارسول الله وما رياض الجنة ؟ قال: المساجد . قلت: وما الرتع ؟ قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ». رواه الترمذي وحسّنه .

كنز من كنوز الجنة!!

الحديث موصول بحقيقة، لا لبس فيها ولا غموض؛ هي ما هيّأ المولى تبارك وتعالى لعباده في الدنيا من طرائق الخيْر ، وما يسَّر لهم من وسائل النجاة يوم الدين ، والاستزادة من الصالحات كيما يكونوا يوم القيامة من الفائزين بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . آية ذلك ما نجد في كثير من آي الكتاب الكريم، وفي بيانه من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، مما يدل على ذلك ، وما يرغب فيه ، ويكشف عن معالمه والحمد لله .

فبمقدار ما ينتظر المرءُ من أهوال اليوم الموعود، ومشاهده التي تجعل الولدان شيباً ، قد فتحت للمؤمن في الدنيا ـ وهي مزرعة الآخرة وممرٌّ لها ـ تلكم الأبواب المباركة التي تؤول به ، أن لو دخلها بإخلاص نية وصدق عزيمة ، إلى أن يكون من أهل النجاة ، يوم تغشى الحسرة الأليمة أولئك الذين لم يكونوا في العاجلة يرجون لله وقاراً ، فباتوا على نسيان لآيات الله و إعراض عن الهدي الذي جاءهم به رسول الله ﷺ ، فنسيهم الله يوم القيامة وكانوا من أهل الجحيم ..

هذا توجيه من النبي عليه الصلاة والسلام للمؤمن ـ وهو يسهم في إعمار الدنيا وفق منهج الله ، ويجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله ، فيناله ما يناله من أذى الظالمين، وقد يبتلى ببعض المصائب ـ أن يكون على ذكر من أن الحول والقوة بيد الله ؛ يعينه على ذلك أن يقول معتقداً : « لا حول ولا قوة إلا بالله » وبذلك تشرق على قلبه الطمأنينة ويزداد إيماناً وقدرة على الرضا بقضاء الله وقدره ، وتحمُّل ما يصيبه في سبيل الله . ووراء ذلك كله : تكون « لاحول ولا قوة إلا بالله » طريقه إلى خير المنازل يوم المعاد ، لما أنها كنز من كنوز الجنة . ﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ . قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا يحيى بن سعيد قال:

حدثنا سفيان عـن الأعمش عن مجاهد عن ابن أبي ليلى عـن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال : « لا حـول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنـة » ونجد عند أحمد رحمه الله رواية أخـرى يقول فيها أبـو ذر : قال رسول الله ﷺ : « هـل لك في كنز مـن كنوز الجنة ؟ قـال : فقلت : نعـم ، قال : « لا حـول ولا قوة إلا بـالله » ورواه ابن مـاجة بإسناد صحيح ورجاله ثقات .

وهذا التعليـم من النبـي ﷺ لأبي ذر . وقع مثله ضمـن واقعة معينـة في غزوة خيبر ، لأبي موسى الأشعـري عبدالله بن قيس رضي الله عنه ؛ فقـد أخرج البخاري في « باب غزوة خيبر » من كتاب المغازي في الجامع الصحيح بسنده عن أبي عثمان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « لما غزا رسول الله ﷺ خيبر ـ أو قال : لما توجه رسول الله ﷺ ، أشرف الناس على وادٍ فـرفعوا أصواتهم بالتكبير ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إنكـم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم وأنـا خلف دابة رسول الله ﷺ ـ فسمعني وأنـا أقول : لاحول ولا قوة إلا بـالله ، فقال لي : يا عبدالله بـنَ قيس قلت : لبيك يارسـول الله . قال ؛ ألا أدلُّك على كلمة كنز من كنـوز الجنة ؟ قلت: بلى يارسـول الله فداك أبي وأمي قال : لاحـول ولا قوة إلا بالله ». هكذا نجـد النبي عليه الصـلاة والسلام قـد دلّ كلاً من أبي ذر وأبي مـوسى الأشعـري على أن هذه الكلمة المبـاركة التـي تحمل الكثير الكثير مـن معاني التـوحيد والإيمان بـالقدر ، وصدق الاستسلام لله عز وجل « لاحول ولا قوة إلا بالله » كنز من كنوز الجنة . وفي ذلك مـا فيه مـن الترغيب بـذكر الله بها ، واستشعـار معانيهـا الجمة في كـل قول وعمل؛ ومن أبرزهـا التبرِّي من الحول والقوة ، وأن ذلك كله بريـد المؤمن المصدق العامل ، إلى جنة الخلد إن شاء الله .

هـذا : وتحسن الإشـارة إلى أن هذا السيـاق في الحديث ـ كما يقول الحافـظ ـ يوهم أن ذلك وَقَـعَ وهُمْ ذاهبون إلى خيبر ، وليس كذلك ، بـل إنما وقع ذلك حال رجوعهم ، لأن أبا مـوسى إنما قدم بعد فتح خيبر مع جعفـر بن أبي طالب ، وعلى

هذا : ففي السياق حذف تقديره ؛ لما توجه النبي ﷺ إلى خيبر فحاصرها ، ففتحها، ففرغ ، فرجع ، أشرف الناسُ على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير .. الحديث. وقد أورد البخاري هنا الحديث غير مرة في كتاب الدعوات من «الجامع»، كما أورده في كتاب القدر ، ولفظه في «باب الدعاء إذا علا عقبة»: «كنا مع النبي ﷺ في سفر ، فكنا إذا علونا كبرَّنا فقال النبي ﷺ : أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصَّم ولا غائباً ولكن تدعون سميعاً بصيراً . ثم أتى عليَّ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال : يا عبدَالله بنَ قيس ، قل : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة . أو قال : ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » وله من رواية أخرى « ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة »؟ وفي رواية غيرها « ألا أعلمك كلمة هي من كنوز الجنة » ؟ الحديث. ورواه مسلم عن أبي موسى بلفظ « كنا مع النبي ﷺ في سفر » أيضاً . ورواه ابن ماجة مختصراً ؛ ففي «باب ما جاء في لا حول ولا قوة إلا بالله » من كتاب الأدب في السنن أخرج بسنده عن أبي موسى قال : «سمعني النبي ﷺ وأنا أقول : لاحول ولا قوة إلا بالله . قال : يا عبدالله بنَ قيس ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ؟ قلت: بلى يا رسول الله قال : قل : « لاحول ولا قوة إلا بالله » .

اربعوا على أنفسكم : ارفُقوا بها ولا تُجهدوها ..

ولا يخفى ما في الحديث ــ على تعدد رواياته ـ من ملامح تدل على حرص الرسول عليه الصلاة والسلام، على تعليم الأمة حقائق الدين ،وتربيتهم عليها، الأمر الذي يضمن ـ بإذن الله ـ سلامة السير الواعي في الدنيا ، وحسن العاقبة في الآخرة ، يقول ابن بطال ـ كما في فتح الباري ـ : (كان عليه الصلاة والسلام معلماً لأمته ، فلا يراهم على حالة من الخير إلا أحب لهم الزيادة ، فأحبَّ للذين رفعوا أصواتهم بكلمة الإخلاص والتكبير ، أن يضيفوا إليها التبريَ من الحول والقوة، فيجمعوا بين التوحيد والإيمان بالقدر). وقد جاء في الحديث « إذا قال العبد لا حول ولا قوة إلا بالله قال الله : أسلم عبدي واستسلم» قال الحافظ : أخرجه

الحاكم مـن حديث أبي هـريرة بسند قـوي ، وفي رواية قـال لي : « يا أبا هـريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ قلـت : بلى يا رسول الله ، قال : تقول : لاحول ولا قوة إلا بـالله . فيقول الله : أسلم عبـدي واستسلم» . وزاد في روايـة « ولا منجا ولا ملجأ من الله إلا إليه ».

اللهم إنا قـد تبرأنا من حولنـا وقوتنا إلى حولـك وقوتك ، فاغفـر لنا وارحمنا واجعلنا ــ بفضلك و إحسانـك ـ ممن يغمـرهم نور فضلـك يوم الحساب فـإنه لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، يا مجيب الدعاء .

البشرى.. رياض الجنة وغراس الجنة

ما كـان للناظـر في الأخبار المنثورة في دووايـن السنة عـن القيامـة ، أن يغادر القول في تلكم الكلمة المبـاركة التي بيّن الرسول ﷺ أنها كنز مـن كنوز الجنة « لا حول ولا قـوة إلا بالله » قبل التعـرف إلى شيء من مراميها، وعـلاقة ذلك بطـريق جنات النعيـم؛ فقد استـوقف ذلك علماءنـا يرحمهـم الله ، فعملوا على تبين المراد، وإيضاح ما له مـن أثر في شـحذ عزائم المؤمنين ، للعمل على أن يكونـوا ـ بفضل الله ـ في زمـرة المكرمين الخالديـن في دار المقامة عنـد رب العالمين . ومما جـاء عند الإمام النووي، في شرحه لصحيح مسلم عند الكلام على كون « لا حول ولا قوة إلا بالله » كنـزاً من كنوز الجنـة قوله : (قـال العلماء : سبب ذلك أنها كلمـة استـسلام وتفويض إلى الله تعالى ، واعتراف بالإذعان له ، وأنه لا صانع غيره ، ولا رادّ لأمره ، وأن العبد بضعفـه لا يملك شيئاً مـن الأمر . ومعنى الكنـز : أنه ثواب مـدَّخر في الجنة ، وهو ثواب نفسي، كما أن الكنز أنفس أموالكم)

وحاصل المعنى عند الحافظ ابن حجر : أن هذه الكلمة الزاخرة بالعبودية لله من ذخائر الجنة ، أو من محصلات نفائس الجنة .

ولكم يفرح المؤمن بهذه البشارة العظيمة وأمثالها ؛ ومن الصدق في ذلك : أن يحفزه هذا التوجيه النبوي الكريم ، على مزيد من وعي هذا الكنز ، ودلالته العميقة الوثيقة الصلة بخالص العبودية لله ، وأبعاده الواجب أن تكون على صعيد العبادة والعمل ، والإكثـار من القربات التـي تضيء الطريق إلى دار الخلود . هـا هي ذي بعض المصادر تطـالعنا بتسمية الكلمة التـي نحوِّم حولها : « غراسَ الجنـة ». فقد أخرج أحمد والترمذي وصححـه ابن حبان عن أبي أيـوب رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ ليلة أسري بـه مر على إبراهيـم ـ على نبينا وعليه الصـلاة والسلام ـ فقـال : يا

محمـد مر أمتـك أن يكثروا مـن غراس الجنـة ، قـال : وما غـراس الجنة ، قـال : «لاحول ولا قوة إلا بالله ».

ويزيـد الأمر الذي نومـىء إليه تأكيداً ، مـا جاء من الترغيب بقـولها ، ضمن عدد من التوجيهات النبوية الكريمة، الأمر الذي يحكم العلاقة بين ما تدل عليه، وبين العبادة والعمل ؛ أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «كنت أمشي مع رسـول الله ﷺ في نخل لبعض أهل المدينـة فقال : يا أبا هـريرة هلك المكثرون ، إلا مـن قال هكذا وهكذا وهكـذا ـ ثلاث مرات حتـى بكفه عن يمينه وعن يساره وبين يديه ـ وقليل ما هم . ثم مشى ساعة فقال : يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ فقلت : بلى يا رسول الله قال : قل : لاحول ولا قوة إلا بالله ولا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم مشى ساعة فقال : يا أبا هريرة وهل تدري ما حق الناس على الله وما حق الله على الناس ؟ قلـت : الله ورسوله أعلم . قال : فإن حق الله على الناس أن يعبـدوه ولا يشركوا به شيئاً . فإذا فعلوا ذلـك فحق عليه أن لايعذبهم».

هكـذا تجد أن المؤمن إذا صـدق مع الله ، يتقلـب أبداً في ألـوان من العطـاء الربـاني، طمأنينة في الـدنيا ،وعيشاً خـالداً في النعيم يـوم الدين ؛ ومـن آيات الله العظام أنك ترى الأمـور نفسها التي تبعث في قلب المؤمن الطمـأنينة ، وتشيع في علاقته بمولاه السكينـة ، هي نفسها تكون ـ بفضل الله ـ طـريقه إلى دار المقامة في الخالديـن . ولقد رأينـا من قبل مـا روى الترمذي عـن أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : « إذا مررتم بـرياض الجنة فارتعـوا . قلت : يارسـول الله وما رياض الجنة قـال : المساجد ، قلت : ومـا الرتع يا رسـول الله ؟ قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » .

سبحان الله العظيـم، ما أكـرمه وأجـزل عطاءه ... المسـاجد ــ وهي بيـوته ـ رياض الجنة ، والـرتع فيها تسبيح وتحميـد وتهليل وتكبير . وما أعظم مـا أعد من

نفحات السعادة لمن يذكُر هذا الهدي النبوي الدالّ على موائد الخير الذي لا ينفد، ويأخذ نفسه بالعمل به ، والاستزادة من نوره الذي يشق الظلمات إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض .

ويزداد الأمر اتساعاً حين يجعل الرسول ﷺ ـ وهو يحرص على أن تشيع طمأنينة القلوب في النفوس ، ليكون أصحابها أقدر على أداء رسالتهم ـ حين يجعل وهو يحرص على ذلك ، من حِلق الذكر التي يذكر الله فيها وفق المنهج النبوي رياضاً للجنة أيضاً ؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قال : وما رياض الجنة ؟ قال : حِلق الذكر » رواه الترمذي وحسّنه .

والحِلق : جمع حَلْقة . ورواه الإمام أحمد عن أنس أيضاً ولفظه «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حِلق الذكر ، كما رواه البيهقي في « شعب الإيمان » .

وهذه الثمرة الطيبة التي ينالها الذاكرون ، تأخذ بيدنا إلى نماذج كثيرة رتّب فيها النبي ﷺ دخول الجنة على لون من ألوان الذكر ، والموفّق من هُدي إلى حسن الاتباع ، فذكر الله بلسانه وهو على نور من ربه ، وعمل بما دلّ عليه النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم ذكره ـ على حالاته كلها ـ ذِكراً عملياً يصحب الذكر القوليّ ، فأخذ نفسه بأحكام الدين : عبادة وعملاً وسلوكاً ؛ إقامةً لشرع الله ، ومراقبة يزينها صفاء التوحيد لمن لا تخفى عليه سبحانه وتعالى خافية . والإحسان ـ كما جاء في الصحيح ـ « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وهذه ثلة من النماذج التي يجري الإيماء إليها . قال الإمام أحمد : حدثنا علي ابن عاصم قال : أنبأنا حصين بن عبدالرحمن عن سعيد بن عبيدة عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا اضطجع الرجل فتوسد يمينه ثم قال : اللهم إليك أسلمت نفسي ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت إليك ظهري ، ووجهت

إليك وجهي رهبة منك ورغبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت؛ ومات على ذلك بني له بيت في الجنة أو بوىء له بيت في الجنة » .

ألا ما أكرم ما يفوز به يوم العرض الأكبر أهل الإنابة إلى الله ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وتسمو نفوسهم بكمال الرضا عما رزقهم الله من نعمة الإسلام والإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . روى ابن ماجة بإسناد صحيح عن أبي سلاّم خادم النبي ﷺ عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : «ما من مسلم أو إنسان أو عبد يقول حين يمسي وحين يصبح : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ، إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة » إنها الجنة التي وعد الله عباده الصالحين ، والله لا يخلف الميعاد . وفي حديث حسن صحيح أخرجه الترمذي في السنن بسنده عن جابر رضي الله عنه نقرأ قول النبي ﷺ : « من قال سبحان الله العظيم وبحمده غُرست له نخلة في الجنة » .

وبعد : فغير خافٍ أن من علامات الصدق في ذكر الله عز وجل ، أن ينعكس ذلك على السلوك فيما بين العبد وبين الله ، وفيما بينه وبين عباد الله . فكلما كان حظه من الاستقامة على شرع الله والوقوف عند حدوده أوفر ، كان ذلك أدلَّ على صدقه في ذكر الله الذي رغّب فيه رسول الله ﷺ ، وكان حفياً ببيان ماله من آثار مباركة يوم يقوم الناس لرب العالمين . روى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رجلاً قال : يارسول الله إن لفلان نخلةً ، وأنا أقيم حائطي ـ أي بستاني ـ بها، فمُره أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها ، فقال له النبي ﷺ : أعطها إياه بنخلة في الجنة ، فأبى . فأتاه أبو الدحداح ، فقال : بعني نخلتك بحائطي؛ ففعل ، فأتى النبي ﷺ فقال : يارسول الله إني قد ابتعت النخلة بحائطي ، قال : فاجعلها له فقد أعطيتكها ، فقال رسول الله ﷺ : كم من عِذق رداح لأبي الدحداح في الجنة ، قالها مراراً فأتى ـ أي أبو الدحداح ـ امرأته فقال : يا أم الدحداح اخرجي من الحائط ، فإني قد بعته بنخلة في الجنة ، فقالت : ربح البيع ـ

أو كلمة تشبهها ـ ».

هنيئاً لهذا الصحابي الجليل ما فعل ، وهنيئاً لـزوجته التي كانت معه في البذل على حد سواء ، هنيئاً لهما هذا الصدق الذي أعقبَهما نخلة في الجنة .وجل ذكر ربنا إذ يقول : ﴿ **ومن أراد الآخـرة وسعى لها سعيها وهـو مؤمـن فأولئك كـان سعيهم مشكوراً** ﴾.

منازل الشهداء.. واشتياق الجنة إلى ذويها

موائد العطاء الإلهي منصوبة ، والجنة تشتاق إلى أهلها الصادقين في طلبها الذين يقيمون على دعواهم الدليل ، وما على من أراد أن يباعد بينه وبين النار ويوقى عذابها المهين ، ويُدخل الجنة يخلد فيها أبداً مع الخالدين .. ما عليه إلا أن يشمِّر عن ساعد الجد ، ويأتي من العمل في هذه الدنيا ، ما يكون له ـ بفضل الله ـ نوراً يهديه إلى منازل الأبرار الذين باعوا أنفسهم لله حقاً وصدقاً ، ولم تغرَّهم الأماني التي هي من تسويلات النفس والشيطان . قال الإمام مسلم : حدثنا حسن بن علي الحلوانيُّ قال : حدثنا أبو توبةَ الربيعُ بن نافع قال : حدثنا معاوية ـ يعني ابن سلاّم ـ عن زيدٍ أنه سمع أبا سلاّم يقول : حدثني عبدالله بن فَرّوخ أنه سمع عائشة رضي الله عنها تقول : « إن رسول الله ﷺ قال : إنه خُلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصِلٍ ؛ فمن كبّر الله ، وحمد الله ،وهلّل الله ، وسبّح الله واستغفر الله ، وعزل حجراً عن طريق الناس ، أو شوكة أوعظماً عن طريق الناس ، وأمر بمعروف ، أو نهى عن المنكر عدد تلك الستين والثلاثمائة السُّلامى ، فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار » قال أبو توبة : وربما قال : « يُمسي » .

وليس من مكرور القول معاودة التذكير بما يُفرح قلب المؤمن، مما أعدّ الله لأهل القرب من هذه الأمة المحمدية ـ وفي ذؤابتهم الشهداء ـ من المكرمات العظام ؛ الأمر الذي يدلُّ على أحقية السبيل التي سلكوها إلى النعيم المقيم في دار المقامة والحمد لله . أقول : هذا ليس من مكرور القول لأن أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وخاضوا معركة الحياة في عبودية خالصة له عز وجل غير آبهين بزخرف الحياة الدنيا ونعيمها الزائل ، هم النماذج الحية للقيم التي حُمِّلتها الأمة من رسالة الإسلام والمعالم المضيئة على طريقها إلى النصر والتمكين ، وهي شاهد صدق على كريم نعمة الإيمان وفضل الشهادة في سبيل الله ؛ فلا بدع ـ وحالهم

كذلك ـ أن يكونوا أحياءً عند ربهم يرزقـون ، وأن تكون الجنة مأواهم ، يرزقون فيها بغير حساب. أخرج أبـو داود في « السنن » بسنده عن ابـن عباس رضي الله عنهما قال : قـال رسول الله ﷺ : « لما أصيـب إخوانكـم بأحـد ، جعل الله أرواحهـم في جوف طير خُضْرٍ تـرد أنهار الجنة تأكـل من ثمارها ، وتـأوي إلى قناديلَ مـن ذهب معلقةٍ في ظـل العرش ، فلما وجدوا طيب مـأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالـوا : من يبلّغُ إخواننا عنا، أنّا أحياءٌ في الجنة نرزق ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكُلوا عند الحرب ، فقال الله سبحانـه : أنا أبلغهم عنكـم ـ قال ــ : فأنزل الله : ﴿ **ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيـل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقـون . فرحين بما آتاهم الله من فضلـه ويستبشرون بالذين لم يلحقـوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهـم ولاهم يحزنون** ﴾ ورواه الطبري .

وأخرج ابن ماجة في « الـسنن » عن مسروق بن الأجدع عن عبدالله بن مسعود في قوله: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتـاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون**﴾ قال : أما إنا سألنا عن ذلك . فقال: « أرواحهم كطير خضرٍ تسرح في الجنة في أيها شاءت ، ثم تأوي إلى قناديلٍ معلقةٍ بالعرش فبينما هم كذلك إذ اطَّلع عليهم ربك اطّلاعة فيقول : سلـوني ما شئتم . قالوا : ربنا وماذا نسـألك ونحن نسرح في الجنة في أيها شئنا ؟ فلما رأوا أنهم لا يُترَكون من أن يسألوا ، قالوا : نسألك أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا إلى الـدنيا ، حتى نقتل في سبيلك ، فلما رأى أنهم لا يسـألون إلا ذلك تُركوا ».

ومن البيِّن أن هذا الحديث وأمثاله ، مما ورد في بيان ما جاء في الكتاب العزيز عن منزلـة هؤلاء الذين وفوا ببيعتهـم مع الله ، واستبشروا ببيعهم الذي بـايعوا به ، وأكرمهم المولى بدخول جنة المأوى في خـاتمة المطاف في رحلتهم الى الآخرة ... من البيِّن أن هذه النصوص المبـاركة ، كما تدل على أن هؤلاء البررة لم يبخلـوا ببذل ما يجب على طريق جنـة الخلد ، وكانوا مستبشريـن ببيعهم الذي بايعـوا به ، تدل في الوقت نفسه على عمـق الصلة ، بين ما أكرموا به من الحسنـى وزيادة ، وبين تربية

أجيال الأمة ، على أن يـزين حياتها إيمان بالغيب ، وإقبـال على الشهادة في سبيل الله ، وسعي حثيث إلى توثيق العرى بين المشاعر والسلوك ، وبين ما يقتضيه صدق المشوقين إلى الجنة ، من استعـلاء على كل المعوقات التي تطرح على طـريق المؤمن وهو يفـرُّ إلى الله ، ويضطلع بما يكون من أعبـاء الترغيب والترهيب التـي تصحب المكاره التي حفت بها الجنة ، وأنعم بدار المقامة نُزلاً لأهل الجهاد المتقين .

هذا وقد روى أبو جعفر الطبري الحديث الـذي سبق عن ابن مسعود بلفظ : «أما إنا قد سألنا عنها فقيل لنـا : إنه لما أصيب إخوانكم في أحد .. إلى أن يقول : فيطّلع الله إليهم اطّلاعة فيقول : ياعبادي ما تشتهون فأزيدكم ؟فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنـا ! الجنة نأكل منها حيث شئنـاً ـ ثلاث مرات ـ ثـم يطّلع فيقول : ياعبادي ما تشتهون فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنا ، الجنة نأكل منها حيث شئنا ! إلا أنا نحـب أن تَرُدَّ أرواحنا في أجسادنا ، ثم تَرُدَّنا إلى الـدنيا فنقاتل فيك حتى نقتل فيك مرة أخرى ».

إنها حوافز الخير يطرحها الترغيب بالجنة للعاملين ، و يربي بها رسول الله أمته جيـلاً بعد جيـل ، على أن يكون الشـوق إلى الجنة والتطلـع إلى ما فيهـا من إكـرام الله عباده المقربين ، طاقة فاعلة في تجويد حركة الحياة وفق المنهج الرباني ، وإعداد الإنسان المسلم للمـوقف الذي يأتسي بـه أبداً بسلف هذه الأمـة ، إنابة إلى الله ، وجهاداً في سبيله ، وتخشعاً بين يديه ....

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة الميمونـة ، تطالعنا بعض النصوص التي لا تقتصر على الكشف عن أن الجنة تشتاق إلى أحبائها ـ عموماً ـ بل تأتي على ذكر نفر منهـم. أخرج الترمذي في كتـاب المناقب مـن السنن عن أنـس بن مالـك أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة علي وعمارٍ وسلمان » قال أبو عيسى : هذا حـديث حسن غريب لا نعرفـه إلا من حديث الحسن بـن صالـح . ويابشرى من وعت قلوبهم حقيقة الإيمان بالغيب، فعقلوا عن الله ورسوله ، ولزموا ما أراد الله ورسوله ، فحصلوا على سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة .

حولها ندندن

كم ذا يقع المتتبع لنصوص الحديث في هـدي النبي ﷺ قولاً وفعلاً وإقراراً ، على الكثير من شواهـد الصدق على حقيقة العبودية الخالصة عنـده عليه الصلاة والسلام ، وأنه ﷺ ـ على عظيم فضله وما خصّـه الله به من الخصائص ـ كان ـ كما أشرت غير مرة ـ يكثر أن يسأل الله الجنة ، ويستعيذ بـه من النار ـ وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ـ ويعلّم أصحابه ذلك .

أخرج الإمام أحمد في المسند بسنـده عن معاذ بن رفاعة الأنصـاري عن رجل من بني سلمة يقال له : سليم « أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن معاذ بن جبل يأتينـا بعدما نام ، ونكـون بأعمالنا بالنهـار ، فينادي بالصلاة ، فنخـرج إليه فيطوِّل علينا . فقال رسـول الله ﷺ : يا معاذ بن جبل لا تكن فتّـاناً ، إما أن تصلي معي ، وإما أن تخفف على قومك ، ثم قال : يا سليم ماذا معك من القرآن ؟ قال: إني أسأل الله الجنة ، وأعوذ بـه من النار ، والله ما أحسن دندنتـك ولا دندنة معاذ. فقال رسول الله ﷺ : وهل تصير دندنتي ودندنة معاذ إلا أن نسأل الله الجنة، ونعوذ بـه من النـار ؟» ثم قـال سليم : سترون غـداً إذا التقى القـوم إن شاء الله ، قـال : والناس يتجهزون إلى أحد ؛ فكان في الشهداء رحمة الله ورضوانه عليه .

تلكم هي الدعوة التي حولها يدنـدن أسوتنا الحسنة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وصاحبـه معاذ رضي الله عنه (سؤال الله الجنة والاستعاذة بـه من النار) وذلك إيـذان للأمة بـالأهمية البالغـة ،لما ينبغي أن ينطـوي عليه قلب المؤمـن من الخوف والرجاء . وأخـذاً بما تدل عليه عبارة النص ، ثم دلالـة الأولى ، ما أحسب أن مؤمناً يخامره شـك في أنه أولى بالأمة أن تكون على قدم رسـولها المصطفى عليه الصلاة والسـلام في سؤال الله الجنـة والاستعاذة به مـن النار . وصـدقُ اللهجة في

هذا: دليلُه أن لا يألو المؤمن جهداً في أخـذ النفس بطريق أهل الصدق في طلاب الجنة والحرص على النجاة مـن النار ، وأن يسعى للآخرة سعيها ، استجـابة لما دعا إليه الله جـل شأنه ورسـوله عليه الصـلاة والسلام ؛ وذلكـم طريق الفـوز بحسن العاقبة وسعادة الدارين .

هذا : والتعبير بالدندنة هنا ، له إيحاؤه النفسي ودلالته على المناجاة الخافتة لله عز وجل . جاء في «النهاية» لابن الأثير : الدندنة أن يتكلم الرجل بالكلام تسمع نغمته ولا يُفهـم ، وهو أرفـع من الهينمة قليـلاً . والحديث أخـرجه أبـو داود وابن ماجـة ، ولفظ ابـن ماجة بسنده عـن أبي هريرة رضي الله عنه قـال : قال رسول الله ﷺ لرجل : « ما تقول في الصلاة ؟ قال : أتشهد ثم أسأل الله الجنة ، وأعوذ به من النـار ، أما والله لا أحسن دنـدنتك ، ولا دندنة معاذ . فقال ﷺ : حـولها ندندن » وفي روايـة « حولهما نـدنـدن » بالتثنيـة . قـال البـوصيري في « الزوائد » : إسنـاده صحيح ورجاله ثقات . والضمير في « حولهما » ـ كما يقول ابن الأثير ـ عائد للجنة والنار . فالدندنة حول الجنة: طلب لها ، والدندنة حول النار : استعاذة منها .

وكما أسلفت ــ وأسأل الله عفوه ومغفـرته ــ: إذا كان هذا مـن رسول الله ﷺ وواحد مـن صحابته الكـرام ؛ فما بالك بالآخـرين ـ وقـد حفت الجنة بـالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ـ !! على أن ذكر معاذ هنا ليس على سبيل الحصر في واقعة بعينها ، ولكن لأنه المذكور ـ رضي الله عنه ـ في هذه الواقعة ، وإلا فأصحاب النبي ﷺ الذين اختارهم ربنا جلت حكمته ، للأخذ عن رسوله ومصطفاه صلوات الله وسلامـه عليه ، وحملِ الـدين ؛ إيماناً وعلماً وعمـلاً وجهاداً إلى الأمـة ، كانـوا ومن تبعهم بإحسان ــ وأبواب الخير مشرعة على المدى ـ على هذه الدنـدنة المباركة لأن سؤال الله الجنة ، والاستعاذة بـه من النار بصدق من يؤمن بـأنهما حق ، يبلغ به أن يستشعر كـأنه يراهما أمام نـاظريه رأي عين ، يعنيـان مزيداً من الـرجاء والخوف ؛ الأمر الذي يشحذ العزائم لعمل الصالحات ، والإنابة إلى الله ، والإكثار من ذكره ـ جل وعـلا ـ وطلب مغفرتـه ورحمته ؛ يصحب ذلك ذكـر للموت والبلى ، وأن المرء

مهما زُيّن له في هذه الـدار الفانية ، لاحول له ولا طول يـوم الحشر ، ولا ولي له من دون الله ينصره من عذاب السعير إذا أوقعه ضلاله في الهلكة ، ومن وراء ذلك : أن تكون مشاهد القيامة وعظاتها منه بحسبان .

عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال : « لما طعن أبو عبيدة بن الجراح ـ أصابه الطاعـون ـ بالأردن وبها قبره ، دعا مـن حضره من المسلمين فقال : إني مـوصيكم بوصيـة إن قبلتموهـا لم تزالـوا بخير ؛ أقيموا الصلاة وآتـوا الزكـاة وصومـوا شهر رمضـان ، وتصـدقوا وحجـوا واعتمـروا ، وتـواصـوا ، وانصحوا لأمـرائكـم ، ولا تغُشّوهم ولا تلهينكـم الدنيا ، فإن امـرءاً لو عمِّر ألف حـول ما كان له بـد من أن يصير إلى مصرعي هذا الـذي ترون ، إن الله كتب الموت على بني آدم فهـم ميتون ، وأكْيَسُهُمْ أطوعهم لربه ، وأعملهم ليوم معاده والسلام عليكم ورحمة الله . ثم قال: يا معاذ بن جبـل صلّ بالناس . ومات رضي الله عنه . فقـام معاذ في الناس فقـال : أيها الناس توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة نصوحاً ، فإن عبداً لا يلقى الله إلا تائباً من ذنبه كان حقا على الله أن يغفـر له إلا من كان عليه دين ، فإن العبـد مرتهن بدينه، ومن أصبـح منكم مهاجـراً أخاه ، فليلقه فليصـافحه ، ولا ينبغي لمسلـم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث فهو الذنب العظيم » رواه ابن عساكر .

ولا يخفى أن المؤمن عندما يكون على هـذه الحال؛ من البعد عن الغفلة وذكر يوم المعـاد ، تكون الرغبـة في دار النعيم ، والرهبـة من أن تكون الجحيـم في الآخرة مأواه ، من الأمـور التي تأخذ عليـه نفسه ، فيزداد دعاؤه وتضرعـه كيما يبلغه الله ما يريد من الوقاية من النـار والانسلاك في زمرة أهل الجنة . غير أن بعض الناس قد يغالون في التفصيلات عند سؤال الجنة والاستعـاذة من النار ، حتى يخشى عليهم أن يكونوا ممن يعتَدونَ في الدعاء ، ولذلك لم يدع الرسول ﷺ ـ وهو سيِّد النَصَحة المربين ـ أن ينبـه على هذا الأمر ، ويوجـه إلى عدم الاعتداء في الـدعاء. لأن الله لا يحب المعتدين . والمؤمن يحسن صنعاً عندما يدعو ربه مخلصاً بهذا الدعاء الجامع : «اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما

قرب إليها من قول أو عمل ».

أخرج أبـو داود في كتاب الصلاة من «السـنـن» بسنده عن ابن سعـد بن أبي وقـاص أنه قـال : (سمعنـي أبي وأنا أقـول : اللهم إني أسـألـك الجنة ونعيمهـا وبهجتها وكذا وكذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، وكذا وكذا ، فقال : «يابني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون أقوام يعتدون في الدعاء » فإياك أن تكون منهم ، إنك إن أعطيت الجنة أعطيتها وما فيها من الخير ، وان أعذت من النار أعـذت منها وما فيهـا من الشر » هذا هـو الأدب النبوي الذي يشمـل ـ فيما يشمل ـ أن يكـون المؤمن على أدب مع ربه في الـدعاء، وذلكم هو السمـو في بناء الإنسان ــ وقد امتدت إلى هذا البنـاء يد محمد ﷺ الصناع ــ والخير كل الخير في حسن الاتباع وكمال التأسي والعمل بهديه صلوات الله وسلامه عليه .

وجاءت روايـة الحديث عنـد أحمد بشيء من التفصيـل، يعين على مزيـد من الفقه لما حصـل التنبيه عليه . فقـد أخرج رحمه الله بسنـده عن مولى لسعـد بن أبي وقاص عن ابـن سعد «أنه كان يصلي ، فكـان يقول في دعائه : اللهـم إني أسـألك الجنة وأسألك من نعيمها وبهجتها ،ومن كـذا ومن كذا ومن كذا ومن كذا ، وأعوذ بك من النار وسـلاسلها وأغلالها ،ومن كذا ومن كذا . قـال : فسكت عنه سعد، فلماصلى ، قال لـه سعد : تعـوذت من شر عظيـم وسألـت نعيماً عظيماً ـ أو قـال: طويلاً ـ قـال رسول الله ﷺ : « إنه سيكون قوم يعتدون في الـدعاء » وقرأ ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخُفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ قال شعبة : لا أدري قـوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخُفية﴾ ـ يعني تـلاوة الآية ـ هذا من قول سعـد أو قول النبي ﷺ، وقال له سعد : «قل : اللهم أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل » .

ألا ما أعظـم هذا التكـامل : تُسأل الجنـة ، ويسأل التوفيـق لسلوك الطـريق إليها في الأقـوال والأفعال . ويستعاذ مـن النار ، ويسأل العـوذ من كل مـا يقرب

إليها من قول أو عمل ، ويتضمن ذلك سؤال التوفيق للابتعاد عن كل ما يقرب إليها أو يمت إليها بصلة .

وعلى طريقة السلف الصالح ، من الحرص على النصح وهداية الآخرين ، يبدو أن هذا التوجيه كان ديدن أهل التقوى والصلاح ، عملا بالهدي المحمدي في ذلك . روى ابن ماجة بسنده عن أبي نعامة « أن عبدالله بن مغفّل سمع ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتُها ، فقال : أي بنيّ ، سل الله الجنة وعُذْ به من النار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون قوم يعتدون في الدعاء » .

اللهم إني داع بدعاء نبيك المصطفى عليه الصلاة والسلام : فأسألك يارحمن الدنيا والآخرة الجنة ، وأعوذ بك من النار .

الآخرة خير.. ومناديل سعد في الجنة

إنه مهما مسَّ الإنسان من الضر في هذه الدار ، وناله من المتاعب والمصاعب في سبيل الله ، ومهما فاته من أمور الدنيا وشهواتها ، فما أعدّ الله له في الآخرة من النعيم المقيم في جنات عدْن خير وأبقى ، وهذه حقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ؛ فقد جاء بها القرآن الكريم وبيانه من حديث النبي عليه الصلاة والسلام.

لذا كان مما يهّون أمر المصائب في الحياة الدنيا ، وما يحسُّ به المرء من نقص في مطلب من مطالبها : أن يكون على ذكر من جود رب العالمين في دار البقاء على عباده الذين أحسنوا في دار الفناء ، بعد أن يشتد الكرب يوم الحشر الأعظم ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ويتمنى الناس ـ من ثقل ما يضرب قلوبهم من الهول ـ أن لو يخُلص بهم ولو إلى النار .

من هنا كان اصطحاب هذه الحقيقة وما جاء من الأخبار الصادقة حولها : عاملاً على غاية الأهمية، في بعث السكينة والطمأنينة على طريق العمل لإعلاء كلمة الله ، والإفادة من الطاقات التي أعطيها المرء من أجل التزود بتقوى الله تعالى ـ وهي خير زاد ـ ليوم الحساب . إنه إن سلك هذه السبيل بإخلاص وصدق عزيمة كان ـ بفضل الله ورحمته ـ في زمرة الوارثين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون . وما أعظم ما تزدان به دار المقامة مما أخفي لأصحابها من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون . أخرج البخاري ومسلم عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه ـ وهو أبو موسى الأشعري ـ أن رسول الله ﷺ قال : «جنتان من فضة آنيتُهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنات عدن » وأخرجه الترمذي ورزين ـ كما في

جامع الأصول لابن الأثير . ولفظ الترمذي « إن في الجنة جنتين » وهو عنده حديث حسن صحيح .

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل للمؤمن ، لا يراهم الآخرون » ولفظ البخاري « درة مجوفة » ، وفي رواية أخرى للبخاري « إن في الجنة خيمةً من لؤلؤة مجوفةٍ عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون » ولمسلم رواية أخرى بلفظ « إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوّفة ، طولها ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » والترمذي بعد أن روى حديث الجنتين السابق قال : وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال : «إن في الجنة لخيمةً من درة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ولعل من الخير أن نشير إلى أن بعض الأحاديث قد كشفت عن حظ أناس بأعيانهم يكون في الآخرة كفاء عمل عملوه في الدنيا ، وأن مثوبتهم الجنةُ ـ بما جاهدوا أو بما أنفقوا ـ إلى غير ذلك مما يوفّق فيه المؤمن من القربات ؛ ففي حديث طويل رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي : حديث حسن ، جاء قول عثمان رضي الله عنه : «.. هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماءٌ يستعذب إلا بئر رُومة، فقال رسول الله ﷺ : «من يشتريها ويجعلُ دلوه فيها مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة ، فاشتريتها من صلب مالي ..» كما جاء قوله رضي الله عنه: «.. هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله ، فقال رسول الله ﷺ : من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالي » وجاء في بعض الروايات ذكر المغفرة بدلاً من الجنة ، كما جاء عن رسول الله ﷺ فيما يكون لعثمان رضي الله عنه يوم الفصل جزاء تجهيزه جيش العسرة، ما يشملهما جميعاً ؛ فعن عبدالرحمن بن خباب رضي الله عنه قال: «شهدت

رسول الله ﷺ وهو يحثُّ على تجهيز جيش العسرة ، فقام عثمان بن عفان ، فقال: يارسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله . ثم حضّ على الجيش فقام عثمان فقال : يا رسول الله عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر وهو يقول : ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه » أخرجه الترمذي وهو حديث حسن .

جيش العسرة هو جيش غزوة تبوك . والأحلاس : الأكسية التي تكون على ظهور الإبل تحت الرحال والأقتاب ، واحدها حِلس .

وفي صورة غاية في الإشراق والوضوح أيضاً ، نقرأ في مناقب سعد بن معاذ رضي الله عنه وكريم ما يعطاه في الجنة : ما ورد في الصحيح من أن مناديل سعد في الجنة أحسن من ثوب حرير ، أو جبة سندس أهديت إلى النبي عليه الصلاة والسلام ؛ ففي « باب مسِّ الحرير من غير لبس » من كتاب اللباس في الجامع الصحيح، روى البخاري بسنده عن جابر رضي الله عنه أنه قال : أهدي للنبي ﷺ ثوب حرير ، فجعلنا نلمسه ونتعجب منه ، فقال النبي ﷺ « أتعجبون من هذا ؟ قلنا : نعم . قال : مناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا ». وأين المناديل من الثوب الجميل المُهدى ؟ ولكنها مناديل سعد في الجنة . وقال بعض العلماء: خصّ المناديل بالذكر لكونها تُمتَهن، فيكون ما فوقها أعلى منها بطريق الأولى.

والمناديل : جمع مِنديل وهذا هو الذي يحمل باليد ، قال ابن الأعرابي وابن فارس وغيرهما : هو مشتق من الندل وهو النقل لأنه ينقل من هنا إلى هنا . وفي رواية أخرى للبخاري عن أنس رضي الله عنه : « أهدي للنبي ﷺ جبة سندس ـ وكان ينهى عن الحرير ـ فعجب الناس منها فقال : والذي نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذٍ في الجنة أحسن من هذا ».

أرأيت إلى هذا التأكيد بالقسم من الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام!! وجاءت رواية لمسلم بلفظ الحلة وعرضت لِلينها ؛ فقد روى بسنده عن أبي إسحاق

قال: سمعت البراء يقـول : أهديت لرسـول الله ﷺ حلة حرير ، فجعـل أصحابه يلمسونها ويعجبون من لينهـا ، فقال : «أتعجبون من لين هذه ؟ لمناديـلُ سعد بن معاذ في الجنة خيرٌ منها وألين » وأورد مسلم رحمه الله رواية أنس رضي الله عنه والتي جاء فيها : ـ وكان ينهى عن الحرير ـ وأخـرجه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وهذا الذي أنبأ به عليه الصلاة والسـلام ـ كما يدُلُّ بلا ريبْ على فضل سعد رضي الله عنه الذي أصيـب يوم الأحزاب ، ومات متـأثراً بتلك الإصابـة ، بعد أن أحسن في الحكـم بين المسلمين وبين بني قـريظة ــ يضع أيـدينا على واحـدة من سمات المنهج النبوي الكريـم في التربية والإعداد ؛ انظر كيف كان نقـل الصحابة من الإعجاب بلين السنـدس في ثوب الحرير ـ وهو مـن زخرف الدنيا ــ إلى ما هو أعظم وأغلى للمؤمن في الجنة ، وذلك بذكر ما لشخص معيّن ـ بالتحديد ـ كان له من البلاء الحسن مـا له رضي الله عنه ، الأمر الذين يعين أكثـر وأكثر على إدراك ما أراده النبـي ﷺ . إنها نقلة عـريضـة بين ذلك الثـوب الحريـري في الدنيـا ، وبين مناديل سعد في الجنـة في عالم الآخرة ، وهي في الوقت نفســه عميقة بما أحدثت في نفوس أولئك الرجال البررة ، وما يمكن أن تحدثه في نفوس من يتبعونهم بإحسان ، واثقين الوثـوق كله بقول الله جـل وعلا : ﴿ إن الله اشترى مـن المؤمنينَ أنفُسَهُـم وأموالَهم بأن لهم الجنة.. ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وما الحياة الدنيـا إلا متاع الغرور ﴾ فأين هذا من ذاك ؟.

رجل من أهل الجنة

أهوال يوم القيامة ـ وهو يوم مجموع له الناس ويوم مشهود ـ لا تصرف المؤمن عن الرجاء الكبير بفضل الله ورحمته ، وما تشرق به ساحة الرضوان الأكبر التي تضيىء للسالكين ـ على تعدد النماذج والألوان ـ طريق الجنة ؛ فلا تكاد تنتهي من خبر في السنة عن واحد من البررة ، وما له في دار القرار ، حتى يطالعنا خبر مبارك آخر عن غيره ؛ الأمر الذي يثير في النفس كوامن الإيمان ، ويقف المؤمن على حقيقة أن رحمةالله قريب من المحسنين ؛ فما عليه إلا أن يسلك سبيل أولئك الذين غمرهم نوال الرحيم الرحمن ، ففازوا بما وعد المتقون . وحسنُ المآب في الآخرة ، وأن تكون الجنة هي المأوى ؛ لا يخفى على مؤمن أنه مبتغىً كريم، يسأله عباد الله الصالحون ، وفي مقدمتهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام .

أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث طويل دعاءً للنبي ﷺ يقول فيه : « .. اللهم ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، الركّع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وأنت تفعل ما تريد ...» ومثل ذلك كثير في أدعيته عليه الصلاة والسلام ، مما دعا به أو علّم أصحابه أن يدعوا به . قال الإمام عبدالرزاق الصنعاني صاحب « المصنف » والمتوفى سنة عشر ومائتين للهجرة : أخبرنا معمر عن الزهري قال : أخبرني أنس بن مالك قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال : «يطلع عليكم الآن من هذا الفَج رجل من أهل الجنة . قال : فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد علّق نعليه في يده الشمال، فسلّم. فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك : فطلع الرجل على مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً : فطلع ذلك الرجل على مثله حاله الأول. فلما قام النبي ﷺ تبعه ـ أي تبع الرجل ـ عبدالله بن عمروبن العاص

فقال : إني لاحيتُ أبي فـأقسمت أن لا أدخل عليه ثـلاثاً ؛ فإن رأيت أن تـؤويني إليك حتى تمضي الثلاث ، فعلت . قال : نعم ، قال أنس : كان عبدالله يحدث أنه بات معه ثلاث ليالٍ ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعارَّ ، انقلب على فراشـه وذكر الله وكبر حتـى يقوم لصلاة الفجـر ، قال عبـدالله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضـت الثلاث ، كـدت أحتقر عملـه ، قلت : يـا عبدالله ، لم يكن بينـي وبين والدي هجر ولا غضب ، ولكنـي سمعت رسول الله ﷺ يقـول ـ ثلاث مرات ـ يطلع عليكم رجل من أهـل الجنة ، فاطلعت ثلاث مرات ، فأردت أن آوي إليك لأنظر مـا عملك ، فأقتدي بـك ، قال : ما هو إلا مـا رأيت . قال : فانصرفـت عنه، فلما وليت دعاني فقـال ، ما هو إلا ما رأيـت ، غير أني لا أجد في نفسي على أحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسده على مـا أعطاه الله إياه البتة ، فقال عبدالله : هذه التي بلغت بك ، هي التي لا نطيق » .

تنطف : تقطر . والتعارُّ : السهر والتقلُّب على الفراش ليلاً مع كلام .

سبحان الله الجواد الكريـم ، وصلى الله وسلم على رسول الله المبلّغ عـن الله ما أراد، المؤتمن على بيان كتاب الله العـزيز ؛ومن هذا البيان تفصيل مـا أعدّ الله لأهل التقوى والصـلاح ـ على تنـّوع ميادين العمـل التي هيئت لهم في الـدنيا وخـاضوا غمارها ـ من جـزاء سخيٍ في الآخرة ، وحسبـك أن يكون الواحـد منهم مـن أهل الرضى ، الذيـن يحلُهم الله دار المقامة من فضله ، والذين لا تعلـم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون .

هذا وإخبار النبي ﷺ ـ ثلاث مرات ـ عن هذا الـرجل ـ كما ورد في الحديث الذي نحن بصدده ـ أنه من أهل الجنة ، يدخل في معجزاته عليه الصلاة والسلام ودلائل نبوتـه ، كما أن حال الـرجل ، في نقاء صـدره من الحسـد والغش لأحـد من المسلمين وأنه لا يقـول إلا خيراً ، يعطي أهمية بـالغة لهذا الخلق العظيـم ، ويبعث على التخلق به ، لما أن ذلك يرقى بصاحبه إلى دار الخلود بإذن الله ، وكم لذلك من أثر بالـغ في بناء المجتمع الاسلامـي ، الذي يقوم أول ما يقـوم على صفاء النفوس

ونقائها في ظل أخوة الإسلام .

هـذا : وقد أخـرج الحديـث الإمـام أحمد في المسند مـن طـريـق عبدالـرزاق باختلاف في بعض الألفاظ ،وهو اختلاف يسعـف في مزيد من التصور للواقعة ، قال رحمه الله: حـدثنا عبدالـرزاق قال : حدثنا معمـر عن الزهـري قال : أخبرني أنس بن مالك قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار تنطـف لحيته من وضوئه ، قد تعلق نعليه في يده الشمال ، فلما كان الغد قـال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الـرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالـث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضـاً . فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى ، فلما قام ﷺ تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثـاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضيَ فعلت . قـال : نعم . قـال أنس : وكـان عبدالله يحدث أنـه بات معـه تلك الليالي الثلاث فلـم يره يقوم من الليـل شيئاً غير أنه إذا تعارَّ وتقلـب على فراشه ذكر الله عز وجـل وكبرّ حتى يقوم لصلاة الفجر ، قـال عبدالله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث، وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبدالله إني لم يكن بيني وبين أبي غضـب ولا هجر ، ولكن سمعت رسول الله يقـول ـ ثلاث مرات ـ يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آويَ إليك لأنظر مـا عملك فأقتدي به ، فلم أرك تعمـل كثير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : فما هو إلا ما رأيت . قال : فلما وليت دعاني، فقال : ما هـو إلا ما رأيت ، غير أني لا أجد في نفسي لأحـد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه ، فقال عبـدالله هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق » ورواه ابن المبارك في « كتاب الزهد ».

اللهم خلقنا بأخلاق عبادك الصالحين ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، وباعـدنا عن الحسـد لأحد من أوليائك المسلمين ، حتـى نلقاك راضياً عنـا يارب العالمين .

فضل الله.. والبشارة بالجنة

كان من إكرام الله لهذه الأمة، أن رسول الله ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى ملبياً نداء ربه إلا وقد بيّن للأمة كل ما يجب بيانه، وترك الناس على بيضاء نقية ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. ولكن الغشاوة والتخبط في الظلام مع الغافلين، إنما يكونان من طاعة الهوى والشيطان، والانصياع لما توحي به النفس الأمارة بالسوء.

ومن بيان النبي ﷺ على صعيد ما يجب سلوكه في الدنيا، ليحظى المؤمن بأفضل المنازل، حيث الجنة ونعيمها، والنوال الذي لا ينفد من الله الرحيم الرحمن، وما يجب الابتعاد عنه، لكيلا تسوء العاقبة، ويكون الهبوط ـ في الآخرة ـ بأخبث المنازل، حيث نار السعير سلاسلها وأغلالها، وشجرة الزقوم طعام الأثيم؛ من هذا البيان ما أخرج الترمذي بسنده عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه. قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظُلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ـ أو كلمةً نحوها ـ وأحدثكم حديثاً فاحفظوه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر: عبدٍ رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربّه ويصلُ فيه رحمه، ويعلمُ لله فيه حقاً؛ فهذا بأفضل المنازل. وعبدٍ رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو نيته فأجرهما سواء. وعبدٍ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل. وعبدٍ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو نيته، فوزرهما سواء».

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه أحمد في المسند بإسناد صحيح وهو عند البغوي في « شرح السنة ».

وفي رواية لأحمد : « مثل هـذه الأمة مثل أربعة نفر ؛ رجـل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمـل به في مـاله فينفقه في حقـه ، ورجلٍ آتاه الله علماً ، ولم يـؤته مـالاً ، فهو يقول : لو كان لي مثل ما لهذا عملت فيـه مثل الذي يعمل ، قال : قال رسول الله ﷺ : فهما في الأجر سواء ، ورجـلٍ آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبـط فيه ، ينفقه في غير حقه، ورجلٍ لم يـؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقـول : لو كان لي مال مثـلَ هذا عملت فيه مثلَ الذي يعمل قال : قال رسول الله ﷺ : فهما في الوزر سواء ».

وهذا الجانـب من هـدي النبي ﷺ في إضاءة الطـريق لمن أراد الآخـرة بحق، ورغب في الجنـة والزحزحـة عن النار بصـدق ، يؤذن بعمـوم هديه ﷺ الـذي أنار السبيل وأوضـح المنهج ، والسعيـدُ السعيد مـن انتفع بهذا الهدي المبـارك وحظي بحسن العـاقبة ؛ فكـان بفضل الله ورحمته ، ممـن تزلف لهم الجنـة ، ويغمرهـم نور العطاء الإلهي فيها . وأين هـذا من عاقبة من يخالفون عن أمـر رسول الله الذي هو من أمر الله ، فيبوؤون بأخبث المنازل ، جهنم وبئس المهاد .

وإذا كان الشيء بالشيء يـذكر ، والهدي النبوي تتكامل فيه منـابع الضياء ؛ فإني مذكّر بما سبق أن أوردته من إخبار النبي ﷺ عن رجل ـ يطلع على القوم ـ أنه من أهـل الجنة ، وتبيّن أن مـا عنده ــ بعد الإيمان ـ سـلامة صـدره لكل أحـد من المسلمين، وكونُه لا يقـول إلا خيراً . وكم في ذلك من عظيم توجيهـه عليه الصلاة والسلام إلى هذا الخلق الـذي هو من أعمال القلوب التي لا غنى ــ لسلامة عمل الجوارح وأن تكون مقبولة ـ عنها . وكم في ذلك أيضاً من إيضاح أن هذا السلوك النقي عن الشوائب شِعـب مبارك من شِعاب الخير ـ وما أكثرهـا في هدي النبوة ـ يرتبط بسبيل الجنة دار الخلود .

وإذا كان المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام ، قد أخبر

عن ذاك الرجل بأنه من أهل الجنة ، ورأى أحد الصحابة أن يتعرف على صنيعه الذي كان به من أهلها . فقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن رجالٍ آخرين ، لم يكن أمرهم بحاجة إلى التبيُّن والتعرف على صنيعهم المتميِّز الذي جعلهم ـ بفضل الله ـ من أهل دار الرضوان . ذلكم ما أخرج الترمذي بسنده في باب مناقب عمر ابن الخطاب رضي الله من السنن ـ جامع الترمذي ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يطّلع عليكم أو ـ يطلع عليكم ـ رجل من أهل الجنة ، فاطّلع أبو بكر ، ثم قال يطّلع عليكم رجل من أهل الجنة فاطّلع عمر » ورواه الحاكم في المسند في المستدرك مقتصراً على ذكر أبي بكر وصححه ووافقه الذهبي في كتابه «التلخيص» كما رواه أحمد في المسند من حديث جابر رضي الله عنه وفيه ذكر أبي بكر وعمر وعلي ، وكذا رواه الطبراني في الأوسط والبزار وهو حديث حسن .

ورواية أحمد فيها شيء من التفصيل . قال رحمه الله حدثنا إبراهيم بن أبي العباس قال : حدثنا أبو المليح قال : حدثنا عبدالله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب عن جابر قال : «يطلع عليكم من تحت هذا السور رجل من أهل الجنة، قال : فطلع عليهم أبو بكر رضوان الله عليه ، فهنأناه بما قال رسول الله ﷺ ، ثم لبث هنيهة ، ثم قال : يطلع عليكم من تحت هذا السور رجل من أهل الجنة قال : فطلع عمر . قال : فهنأناه بما قال رسول الله ﷺ . قال : ثم قال : يطلع عليكم من تحت هذا السور رجل من أهل الجنة اللهم إن شئت جعلته علياً ـ ثلاث مرات ـ فطلع علي رضي الله عنه» قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » إسناده حسن .

وإذا استذكرنا ما يلقى الناس يوم الفصل من الأهوال التي تزخر بها مشاهده وساعاته ، أمكننا أن نقدر إكرام الله بالجنة لمن جاءت الأحاديث النبوية على ذكرهم ـ وهو سبحانه الجواد الكريم ـ . وهذا لا يتنافى مع الثابت أيضاً من سعة الجود من ذي الجلال والإكرام للمؤمنين، على ساحة أكثر عدداً من أمته عليه الصلاة والسلام ؛ كالذي أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله

عنه أنـه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : « يدخل الجنـة من أمتي زمرةٌ ـ هم سبعون ألفـاً ـ تضيء وجـوههم إضـاءة القمر ليلة البـدر ، قال أبـو هريـرة : فقام عكّاشة بن محصن ـ أو عكاشة ـ الأسـدي فرفع نمرة عليه فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقـال : رسول الله ﷺ : « اللهم اجعله منهم » ثـم قام رجل مـن الأنصار ، فقـال : يارسـول الله ادع الله أن يجعلني منهـم فقال : « سبقـك بها عكاشـة ».

وبعد : فسبحان من قال في كتابه الكريم : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

العشرة المبشرون بالجنة

من عيون الموكب العظيم يوم التناد ، موكب الأبرار الذين أشرقت بهم أرض الإسلام في الدنيا ، ويطلعون على الناس ـ وهم في طريقهم إلى جنة الخلد يوم الفصل الذي لا مرية فيه ـ أكثر إنارة وإشراقاً : أولئك العشرة المبشرون بالجنة من أصحاب المصطفى عليه الصلاة والسلام رضي الله عنهم وأرضاهم . فإنك تراهم بعد أن أخذت مشاهد الهول ما أخذت من الناس ؛ صورة ناطقة عن كرم الله وفضله ، والإعلان عن توفيتهم جزاءهم غير منقوص ، بما صدقوا ما عاهدوا الله عليه في دار العمل ، وما قدموا من عمل صالح ، وحب لله ولرسوله . وجهاد في سبيل الله .

فليهنأ أولئك العاملون المخلصون هنا في هذه الدار ، بما ينالهم في ذلك اليوم العظيم ـ يوم الفصل ـ من توفيتهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، وانتظامهم ـ بفضل الله ـ في زمرة من تزلف لهم جنة الخلد التي ﴿ **لا يمسُّنا فيها نصَب ولا يمسُّنا فيها لغوب** ﴾ وسبحان من اختصَّ من شاء بما شاء .

عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أبوبكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وطلحة في الجنة ، والزبير في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة ، وسعدُ في الجنة ، وسعيد في الجنة ، وأبوعبيدة بين الجراح في الجنة » . أخرجه الترمذي في كتاب المناقب من جامعه «السنن » . وسعدٌ : هو سعد بن أبي وقاص ، أما سعيد : فهو سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل . وفي رواية أخرى للترمذي عن سعيد عن النبي ﷺ قال : «عشرة في الجنة ».. وعدَّ سعيد التسعة وسكت عن العاشر ، فقال القوم : ننشدك الله يا أبا الأعور من العاشر ؟ قال : نشدتموني بالله : أبو الأعور في الجنة . قال أبو عيسى:

أبو الأعور هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. وسمعت محمد بن اسماعيل يقول: هذا الحديث أصح من الأول . وفي رواية أخرى : « ولو شئت لسميت العاشر فقالوا : من هو ؟ فسكت ، فقالوا : من هو ؟ قال : سعيد بن زيد ».

ولا نعدم في بعض الروايات ، إشارة إلى وثوق سعيد الشديد مما يقول ، وإلى شيء من فضلهم رضي الله عنهم، وما كان من ثباتهم على الحق ونصرة الدين؛ ففي حديث رواه أبو داود والترمذي يقول سعيد رضي الله عنه : «أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : ــ وإني لغنيٌّ أن أقول عليه ما لم يقل ، فيسألني عنه غداً إذا لقيته ـ أبوبكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وسعد بن مالك ـ هو سعد بن أبي وقاص ــ في الجنة ، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة ، وأبوعبيدة بن الجراح في الجنة ،وسكت عن العاشر ، قالوا : من هو العاشر؟ فقال: سعيد بن زيد ـ يعني نفسه ـ ثم قال : والله لمشهدُ رجلٍ منهم مع رسول الله ﷺ يغبَرُّ فيه وجهه ، خيرٌ من عمل أحدكم ولو عمِّر عُمُر نوح ». قال ابن الأثير في جامع الأصول : زاد رزين ، ثم قال : «لا جرم لما انقطعت أعمارهم أراد الله أن لا يقطع الأجر عنهم إلى يوم القيامة، والشقي من أبغضهم والسعيد من أحبهم». وما من ريب في أن حبّهم مفضٍ بصاحبه ـ مع العمل ـ إلى دخول الجنة التي بشروا بها عليهم الرحمة والرضوان . ومن أحبهم فبحب رسول الله ﷺ أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضه ـ والعياذ بالله ـ أبغضهم ، ولذلك رأينا الإنكار يشتد على من يبدو منه ـ ولو شيء من سوء الأدب معهم ــ ويا ويح أولئك الذين يعبثون بتاريخ الأمة ، وتتعمد قلوبهم ــ ببُغضِ أصحاب رسول الله ـ وجهة تباعدهم عن طريق الجنة وتسلك بهم طريق جهنم وبئس المصير .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن العلاء عن ابن إدريس ، أخبرنا حصين عن هلال بن يَساف ، عن عبدالله بن ظالم ، وسفيانُ عن منصور عن هلال بن يساف ، عن عبدالله بن ظالم المازني ، ذكر سفيان رجلاً فيما بينه وبين عبدالله المازني قال : سمعت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قال : « لما قدم فلان إلى الكوفة قام فلان

خطيباً ، فأخذ بِيَدي سعيدُ بن زيد فقال : ألا ترى إلى هذا الظالم ، فأشهد على التسعة إنهم في الجنة ولو شهدت على العاشر لم إيثم - قال ابن إدريس : والعرب تقول: إيثم وآثم - وقلت : ومن التسعة ؟ قال : قال رسول الله ﷺ وهو على حِراء : « اثبت حراء إنه ليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد . قلت : ومن التسعة ؟ قال: رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ، وقال: وعبدالرحمن بن عوف ، قلت: ومن العاشر ؟ فتلكأ هنيهة ثم قال: أنا».

هكذا تُزلف الجنة لأحباب الله البررة الذين آمنوا برسول الله ﷺ وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه - وفي مقدمتهم العشرة المبشرون بالجنة - وكان المآل الذي ينشدون في الآخرة ، أغلى وأعز عندهم من كل ما في الدنيا من زخرف ومتاع. وكان ذلك - بحكمة الله - متسقاً تمام الاتساق بما اختارهم - سبحانه - له من حمل الأمانة في نقل ما أخذوا عن المصطفى سيد العالمين - الذي أحبوه أكثر مما أحبوا أموالهم وأولادهم وأنفسهم - من الدين: عقيدةً وشريعة وسلوكاً إلى الأمة. وكان أداؤهم لتلك الأمانة خير أداء ؛ فهم - كما اقتضت مشيئة الله وحكمته - أنقى الناس قلوباً ، وأصفاهم نفوساً ، والجيل الفريد الذي يجب أن يحظى من أجيال الأمة المتعاقبة ، بالحب والتقدير البالغين ، وأن يكون ذلك مدعاة لأخذ النفوس بالمنهج الوضّاء الذي سلكوه - وهم يرتادون الطريق لمن بعدهم - فحازوا بذلك قصب السبق ، وحضّ عليه الصلاة والسلام على التأسي بهم ، وأخبر بما يكون لهم من المكرمات ، يوم لا يجد العبد إلا ما قدّم ، وما يفوزون به من رضوان الله في جنة الفردوس . « .. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ». من حديث العرباض بن سارية الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة والدارمي وأحمد .

وليس بدعاً بعد هذا - وهم على نور من ربهم في الدنيا ، تغمرهم رحماته ، وينزل بهم فضله في دار القرار - أن يدعو رسول الله ﷺ الأمة، وهي أمة الشهادة

على الناس والمنوط بها بناء حضارة مباركة، يسعد معها الإنسان في الدنيا ويوم الدين .. أن يدعو صلوات الله وسلامه عليه إلى الأدب الجم معهم ، والموقف الإيماني الصادق منهم ، وينذر من خالفوا عن ذلك بطشة الله وعقابه . أخرج الترمذي بسنده عن عبدالرحمن بن زياد عن عبدالله بن مغفّل قال : قال رسول الله ﷺ : « اللهَ الله في أصحابي ، اللهَ اللهَ في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي ؛ فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومَن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله . ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه » ورواه أحمد . وفي رواية « من يأخذه الله فيوشك أن لا يفلته » .

اللهم لا تجعل في قلوبنا أثارة من سوء الأدب مع أحد من أصحاب نبيك عليه الصلاة والسلام ، واحشرنا يوم الحساب في زمرة الوقافين عند حدودك ، إنك ولي ذلك والقادر عليه .

جنة الخلد.. وبيعة الرضوان

من مظاهر الترابط في المنهج النبوي بين الدنيا والآخرة ، ما جرت الإشارة إليه غير مرة ، من كشفه ﷺ ـ وهو يؤدي أمانـة البيان لكتاب الله تعالى ـ عن الارتباط الوثيق بين المسؤولية في الدنيا والجزاء يوم يعيد الله الخلق كما بدأهم ، وتقريره ـ وهو يقارع بأصحـابه الباطل في كل ميدان ــ ما يكون من البشارة بخصـوصية الفضل الإلهي في ذلك اليوم الـزاخر بالشدائد على أناس بـأعيانهم ، بزحزحتهـم عن النار وإدخالهم الجنـة ؛ بما عملوا مـن الصالحات ، وجـاهدوا في الله حـق جهاده ، وبما استقاموا على الطريقة وصبروا وصابروا حتى أتاهم اليقين .

أقول ذلك ـ وبين يديَّ العديد مـن الأمثلة على ذلك ؛ في هديه عليه الصلاة والسلام مضافـة إلى ما سبق ـ مـن أبرزها ما جاء في شـأن الصحابة الذيـن بايعوا تحت الشجرة ، قبيل صلـح الحديبية في السنة السادسة للهجـرة ، وجاء الثناء على بيعتهم وصنيعهم في الكتاب العزيز ، رضي الله عنهم وأرضاهم .

والبيعة المشار إليها ، هـي بيعة الرضوان التي أخذهـا النبي ﷺ على من كان معه من الصحـابة يومذاك ، بعـد أن أشيع أن عثمان رضي الله عنه قد قتـل ، وكان رسول الله قد أوفده إلى مكة ليُعلم زعماء قريش بمقصده ﷺ من التوجه إلى البيت العتيق في البلد الحرام . وكانت تلك البيعة ـ كما عند البخاري وغيره ـ على الموت . وفي بعض الـروايات ــ كما عند مسلـم ـ أنها كـانت على عـدم الفرار . وثبـت في الصحيحين أن المبايعين رضي الله عنهم كانوا بضع عشرة مائة .

وفي اصطحاب لما نحن بسبيلـه ، نذكر ما روى جابر رضي الله عنـه عن النبي ﷺ أنه قال : « ليدخلنّ الجنة من بايع تحت الشجرة إلا صاحب الجمل الأحمر » أخرجه الترمذي وحسَّنه . وأنت ترى في حديث النبي ﷺ ما يشعر بالقسم على أن

الجنة هي المأوى يوم القيامة ، لأولئك الذين سُعدوا في ساعة من ساعات الشدة على المسلمين، في مواجهة الشرك وأهله ، فبايعوه عليه الصلاة والسلام على الموت في سبيل الله ، على أن لا يفروا من الموت ، فهم يصدقون في موطن اللقاء مع العدو، ولو كلفَهم ذلك أرواحهم، ولم لا ؟ وهذه صورة مشرقة من الوفاء بالبيع ، تضاف إلى حقيقة أن بين المؤمنين وبين الله جل شأنه مبايعة على القتال في سبيل الله ، وأن لهم بذلك الجنة ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن...** ﴾. وقوله ﷺ : « ليدخلنَّ » مشعر بالقسم ، لأن اللام موطئة للقسم، فكأنه ﷺ قال : « والله ليدخلنّ الجنة من بايع تحت الشجرة » ثم إن هذه النون في « ليدخلنّ » هي نون التوكيد الثقيلة ، فهي مؤكدة بعد القسم . وأعظم بها بشارة من إمام المجاهدين عليه الصلاة والسلام يقترن فيها التوكيد بالقسم .

وياخسارة صاحب الجمل الأحمر ، الذي شغله البحث عن جمله إلى الحد الذي جعله يعرض عن المبايعة حرصاً على أن يصيب ذلك الجمل الأحمر فلا يفقده ، لأن ذلك خير له ـ كما يزعم ـ وفي مثل هذه الأحوال فتش عن الإيمان !! قد يكون وجد طلبته التي حرص عليها ، ولكنه باء بالخسران المبين لجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت لعباد الله الصالحين المجاهدين . روى ابن أبي حاتم بسنده عن جابر رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : «يدخل من بايع تحت الشجرة كلُهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر ، إلا صاحب الجمل الأحمر » قال : فانطلقنا نبتدره ؛ فإذا رجل قد أضل بعيره ، فقلنا : تعال فبايع . فقال : أصيبُ بعيري أحبُّ إلي من أن أبايع .

هذا : وقد حملت إلينا بعض الروايات صورة أخرى للبشرى العظيمة، ألا وهي المغفرة ، وأن الرجل المومى إليه ، لم يستجب لمن دعوه إلى رسول الله ﷺ ليستغفر له الله ؛ والمآل واحد في الأمرين جميعاً ، فالمغفرة بريد الجنة ، وإعراض هذا الرجل المحروم عن المبايعة ، واستهانته بالمجيء إلى رسول الله ليستغفر له،

مردُّها إلى علة واحدة وهي مرض القلب ـ والعياذ بالله ـ قال الإمام مسلم : حدثنا عُبَيْد الله بنُ معاذٍ العنبريُّ قال : حدثنا أبي قال : حدثنا قُرَّة بن خالد عن أبي الزبير عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من يصعدُ الثنية ثنية المُرار ، فإنه يُحَطُّ عنه ما حُطّ عن بني إسرائيل » قال : فكان أولَ من صعدها خيلُنا خيلُ بني الخزرج . ثم تتامَّ الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « كلكم مغفور له إلا صاحبَ الجمل الأحمر » فأتيناه فقلنا له : تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ ، فقال : والله لأن أجدَ ضالتي أحبُّ إلي من أن يستغفر صاحبُكم . قال : وكان رجلٌ ينشد ضالة له. وفي رواية أخرى : فإذا هو أعرابي جاء ينشد ضالة له . وفي رواية للإمام أحمد : « فاذا هو رجل ينشد ضالة ».

أما عن هذا الأعرابي صاحب الجمل الأحمر : فقد أورد الحافظ في شأن اسمه ما روى الحافظ ابن عساكر أنه الجدُّ بن قيس المنافق . ورجح ذلك القاضي عياض ـ كما قال النووي ـ . ومما يؤيد ذلك ما روى أبوبكر الحميدي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قوله : « لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة وجدنا رجلاً منا يقال له : الجدُّ بن قيس مختبئاً تحت إبط بعيره ». وقال الحافظ ابن عبدالبر : قيل : إنه تاب .

المرار : شجر مر . وأصل الثنية ــ كما يقول العلماء ـ الطريق بين جبلين ، و الثنية المذكورة هنا في الحديث هي عند الحديبية . والمنقول عن ابن إسحاق : أن ثنية المُرار ـ أو ــ المَرار بضم الميم وفتحها : مهبط الحديبية ، الأمر الذي يؤكد أن الواقعة هي واقعة بيعة الرضوان والله أعلم .

أما قوله ﷺ : « فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل » فهو إشارة إلى قوله تعالى : في سورة البقرة : ﴿.. وقولوا حِطةٌ نغفرْ لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ إذ أُمروا أن يقولوا : حِطَّة ، أي ربنا اغفر لنا وحُط عنا خطايانا ، ولو صدقوا لحُطَّ عنهم ، ولكنهم غيّروا ، وبدّلوا ، ومكروا .

وهنيئاً لأولئك الغرّ الميامين الأماجد، ما ينتظرهم من حسن المآب وهم راضون مرضيّون، يتبوؤون من جنة الخلد غرفاً على سرر متقابلين. ﴿**يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾. لقد كان معنى مبايعتهم رسول الله على الموت، أنهم صادقون في شوقهم إلى الجنة التي تشتاق إلى أصحابها، وما أكرم هذا الاشتياق المتبادل! لقد أقبلوا على الفداء مستبشرين بالبيعة الكريمة التي كان لها ما كان من أثر في تاريخ الإسلام، ولم يترددوا في أن يقفوا الوقفة التي لا أصدق منها في التعبير عن محبتهم للرسول ﷺ، والاندفاع الرائع في نصرته.

ويبدو أن رسول الله لم يقتصر ـ وهو سيد الدعاة ـ فيما زف إليهم من البشرى العظيمة على صورة واحدة وكفى!!. فقد طالعتنا الروايات التي تقدمت بموعدة المبايعين بدخول الجنة، وبالمغفرة، وتطالعنا روايات أخر بنفي دخول النار عن كل من بايع يومذاك، ذلكم ما روى جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «لايدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة» أخرجه بهذا اللفظ أحمد وأبو داود والترمذي. وأخرج مسلم بسنده عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبدالله يقول: أخبرتني أم مبشّرٍ أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد. الذين بايعوا تحتها قالت: بلى يا رسول الله! فانتهرها. فقالت حفصة: ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾. فقال النبي ﷺ: قد قال الله عز وجل: ﴿**ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثياً**﴾».

وفي خاتمة المطاف: تجدر الإشارة إلى أن ما جاء عن رسول الله ﷺ في شأن هؤلاء الذين تزدان بهم مواكب الخالدين في جنة الخلد يوم القيامة، هو لون من ألوان البيان الكريمة لما أشرقت به الكلمات الهاديات في الكتاب العزيز، ثناءً عليهم وبياناً خالداً لقيمة تلك البيعة، قال تعالى: ﴿**إنَّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكثُ على نفسه ومن أوفى بما عاهد**

عليهُ الله فسيؤتيـه أجراً عظيماً ﴾ وقال سبحانه : **﴿ لقد رضي الله عـن المؤمنين إذ يبايعـونك تحت الشجرة فعلـم ما في قلوبهم فأنـزل السكينة عليهم وأثـابهم فتحاً قريباً ﴾** .

فإذا كانوا ـ وهم يبايعـون رسول الله ـ إنما يبايعون الله ، وإذا كان الله قد رضي عنهم بصنيعهـم هذا ، فليس بـدعاً أن تكون لهم تلـك الكرامة المشهـودة في اليوم المشهود يوم يقف الناس لرب العالمين ، وأن يكـون صنيعهم الذي أشرق به تاريخ الدعـوة المحمدية والجهـاد في سبيل إعـلاء كلمة الله .. معلماً من معـالم التضحية والبذل على طريق الأمـة التي تداعى عليها الأمم كما تـداعى الأكلة إلى قصعتها ، وأمانة في الأعناق ، يسهـم أداؤها في الانعتاق ـ بإذن الله ـ من الـواقع الأليم الذي يغمر بظلامه المسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الاستزادة من القراءة المتدبرة لما ورد في الأحاديث الصحيحة، من الجزاء الأوفى الذي يكرم الله به عباده الصالحين يوم القيامة، وما يفيض عليهم من إحسانه وينشر من رحمته... هذه الاستزادة المباركة، تنمي في حسّ المؤمن الرغبة الصادقة في الثبات على الطريق التي أشرقت نصوص الكتاب والسنة بالترغيب بسلوكها والترهيب من مجافاتها، بل يفترض أن تكون مُخالَطةُ ما ورد في شأن ذلك الإكرام الإلهي لأولي النُّهى المنيبين الخاشعين المجاهدين، بمثابة الحافز الحقيقي على الاستزادة من كل ما من شأنه أن يسلم صاحبه ـ برحمة الله ورضوانه ـ إلى أن يكون من الأبرار ورثة جنة النعيم، الذين يقال لهم يوم التغابن: ﴿ **ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود** ﴾.

ومما يزيد المؤمن يقيناً بحكمة الجبار المتكبر سبحانه وتعالى؛ ما يُرى من أن الإيذان بالفضل الإلهي، على أهل القرب وما يُفيض عليهم ـ سبحانه ـ من جزيل الإنعام ـ وتلك حقيقة لا ريب فيها ـ تصحبه النصوص الهادية إلى ما به تحصيل ذلك بإذن الله، تلك النصوص ـ وما أوفرها في الكتاب والسنة ـ التي تنادي المؤمنين: أن هذه طريق الجنة إن كنتم صادقين. أخرج الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على إثرهم كأشدِ كوكب إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرىء منهم زوجتان، كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن، يسبحون الله بكرة وعشياً ... » الحديث. وقال الإمام مسلم: حدثني عمر والناقد ويعقوب بن إبراهيم الدورقيُّ جميعاً عن ابن عُلَيَّةَ (واللفظ ليعقوب) قالا: حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّةَ قال: أخبرنا أيوبُ عن محمدٍ قال: «إما تفاخروا، وإما تذاكروا: الرجال في الجنة أكثر

أم النساء ؟ فقال أبـو هريرة : ألم يقل أبـو القاسم ﷺ : إن أول زمرة تـدخل الجنة على صورة القمر ليلـة البدر ، والتي تليها على أضوأ كـوكب دري في السماء ، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة عزَب»!! وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح « وفي رواية أخرى للبخاري » ... لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بُكرة وعشياً ».

ويانعمّا تفعل هذه النعماء في النفوس ، فيتجه المؤمنون إلى أن يكونوا من أبناء الآخرة ؛ أجـل يكونـون من أبنـاء الآخرة وهـم يعمرون الأرض ، ويبنـون الحضارة المتكاملة المتـوازنة على علم وهدى ؛ فإذا هـم يوم القيامة : والمثـوى مثوى الأبرار المتقين ، والمآب مآب أحباب الله المحسنين .

وإذا استنطقت الـواقع في ظل حـركة الحياة التـي لا تتوقف حتـى يأذن الله ، ألفيت انعكـاس الإيمان بما يكون لأهـل القرب عنـد الله يوم الـدين ؛ مـزيداً مـن الاستمساك الـواعي بكتـاب الله ؛ والعمل الدائب بسنـة المصطفى عليـه الصلاة والسلام في السراء والضراء ، وكـم لذلك من آثـار طيبة في حياة الفـرد والمجتمع ، وتنقية طريق الأمة من الشوائب ؛ لما أن أبناء الآخرة يزودونها بالكفايات المخلصة في كل مجال ؛ فهم مصـابيح الهدى والبناء القويم ، مهما ادلهمـت الخُطوب واشتد الظلام ، وسبحان من لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

أخرج النسائي عن شُرحبيل بن السِّمط رضي الله عنه أنه قال لكعب بن مرة : يا كعب حدثنا عن رسول الله ﷺ واحـذر ، قال : سمعته يقول : «من شاب شيبة في سبيل الله كانـت له نوراً يومِ القيامـة ، فقال له : حدِثنا عـن النبي ﷺ واحذر ، قال : سمعتـه يقول : ارمـوا ، من بلغ العـدو بسهم رفعه الله بـه درجة ، فقـال ابن النحّام : يا رسول الله ، وما الدرجة ؟ قـال : أما إنها ليست بعتبة أمك ، ولكن بين الدرجتين مائة عام » وهو حديث صحيـح . وعن شرحبيل رضي الله عنه أيضاً أنه قال لعمرو بـن عَبَسَةَ : حدثني حـديثاً سمعتَه من رسـول الله ﷺ ، قال : سمعت

رسول الله ﷺ يقول : « من شاب شيبة في الاسلام كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهـم في سبيل الله فبلغ العـدوَ أو لم يبلغ ، كان له كعتـق رقبة مؤمنـة ، ومن أعتق رقبة مؤمنـة كانت فداءه من النار عضواً عضواً ». أخـرجه النسائي ، وأخرج الترمذي ذكر الشيب وحده ، وأخرج أبو داود ذكر العتق وحده .

هكذا يربي سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه الأمة ،على أن يكون حسن العاقبـة والفوز بما أعـد الله لعباده المتقين ، قـوة دافعة إلى صـلاح العمل وانتظـام السلوك ، في تواؤم كـامل بين الأمرين جميعاً ، مهما اتسعت دائرة العمـل في الدنيا وتنوعت ميـادينه . أخرج ابن مـاجة بسنده عن علي رضي الله عنـه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : « من أتى أخـاه المسلم عائداً ، مشـى في خرافة الجنـة حتى يجلس فـإذا جلس غمـرته الـرحمة فإن كـان غُدوةً صلى سبعـون ألف ملـك حتى يمسـي ، وان كان مساءً صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح » ورواه أبو داود موقوفاً على علي رضي الله عنه ولفظه « ما من رجل يعود مريضاً محسياً إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح ، وكان له خريف في الجنة ، ومن أتاه مصبحاً خرج معه سبعـون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي ، وكـان له خريف في الجنة » .

وقال أبو داود : وأسنـد هذا عن علي رضي الله عنه من غير وجـه صحيح عن النبي ﷺ ولعلـه يعني رواية الترمذي عـن ثوير بـن أبي فاختة وهو ضعيـف رمي بالرفض .

وقوله ﷺ « وكان له خريـف في الجنة» الخريف : الثمر الذي يُخترف أي يجنى ويقطف ، فعيل بمعنى مفعول . فهو خريف أي مخروف .

وروى مسلم والترمـذي عن ثـوبان رضي الله عنـه قال : قـال رسول الله ﷺ : «عائد المريض في مخرفة الجنة » .

والمخرفة ــ كما يقول ابن الأثير ـ سكة بين صفين من نخيـل ، يجتني من ثمار

أيهما أراد . وفي رواية لمسلم « لم يزل في خُرفة الجنة ، قيل: يارسول الله وما خُرفة الجنة قال : جناها ».

وإذا كان الأمر كذلك : فالغبطة كل الغبطة لمن يعقلون عن الله ورسوله ، ويحدوهم الشوق إلى الجنة ، إلى المسارعة في الخيرات واجتناب المهلكات ، فيمضون في الحياة يعمرون الأرض ويبنون قوة الإسلام موجهين وجوههم للذي فطر السماوات والأرض ، مستمسكين بالحق الذي نزل به الكتاب لا يبارحون سبيل المتقين ، ولا ينقضون الميثاق مع رب العالمين .

وقد مر بنا ـ من قبل ـ ما يؤكد التواؤم المومى إليه بين العمل في الدنيا ، والمثوبة في الآخرة بشتى الميادين ، ويكشف عن واحدة من مناقب أبي بكر رضي الله عنه في نظرته الشاملة وسلوكه المتكامل . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة يا عبدالله هذا خير ؛ فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله ما على أحد يدعى من تلك الأبواب كلها ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر ». أخرجه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي والنسائي .

والله نسأل أن يمنَّ علينا بمغفرته ورحمته فيجعلنا ـ ونحن نمارس شؤون الحياة ـ من أبناء الآخرة ، الذين لا ينسون الله واليوم الآخر ، ويفوزون برضوان من الله أكبر يوم الوعيد .

تفرحهم البشرى.. ويحبون لقاء الله

ما أعظم أن يحرص المؤمن على اجتناب المسالك التي تسلم إلى الغفلة ، وتصل حبله بالغافلين ، وأن يستذكر ـ على الدوام ـ ما للمؤمن الذي يعمل الصالحات ، ويشغل نفسه بالإكثار من القربات ، من منزلة رفيعة عند الله رب العالمين ؛ فهذه جنات الفردوس التي تجري تحتها الأنهار ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، جعلها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات نزلاً ، فتراهم فيها على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ، لا يمسُّهم فيها نصب ولا يمسُّهم فيها لغوب . وهذه موائد الخير في الدنيا ، مفتحة أبوابها ، لأهل الاستقامة الذين أخلصوا لله دينهم ، ووجّهوا لفاطر السماوات والأرض وجوههم ؛ فكانوا المنيبين حقاً ، والأوابين صدقاً ، كيما تكون تلك الأبواب حين يدخلونها سبيلهم لدخول تلكم الجنات ، والفوز بمتبوّأ واسع كريم ، خالدين فيه أبداً ، ﴿**نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار**﴾ .

إن المؤمن إذا انتهج هذه الطريق المزدانة بنور الهدى والتوفيق ، كان على الجادة المأمونة العواقب في الدنيا ، ثم كان ـ بفضل الله ـ ممن ينشر عليهم الله رحمته في دار البقاء ، وينيلهم رضوانه في خير مستقر وأحسن مقيل .

أقول هذا ، وأمام ناظريَّ شذرات مما دلّ عليه الهدي النبوي من ملامح لبعض الأبواب الخيّرة التي تسلم صاحبها ــ إن وفى بالميثاق ــ إلى خير عقبى في نعيم لا يشوب صفاءه كدر ، ولا يعكر وجوده انقطاع ، ولله الحمد في الأولى وفي الآخرة ، وهو ــ سبحانه ـ ذو الفضل العظيم . هذه بعض النصوص التي تزجي كريم البشرى للمؤمن ـ لا بسبب عمل عمله ، ولكن بسبب فقد ولدٍ له وصبره على ذلك ـ بأن فلذة كبده هذا سوف يسبقه إلى باب الجنة ، ويفتحه له بيده . فعن

معاوية بن قرة رضي الله عنه «أن رجلاً أتى النبيَّ ﷺ ومعه ابن لـه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : أتحبه ؟ فقال : أحبك الله كما أحبـه ، فمات ـ أي الولد ــ ففقده النبي ﷺ ـ يعني الأبَ ــ فسأله عنه ، فقال : أما يسُرك أن لا تأتيَ بـاباً من أبواب الجنة ، إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك ؟»

سبحان الله !! ما هـذه الصورة الآسرة الندية بعطـاء ذي الجلال والإكرام ... إن هذا الأب لا يكون مـن أهل الجنة فحسب ، ولكن الله يتفضل عليـه بأن يكون ولده الذي فقده في الدنيا ـ وهو يحبه الحب الكبير ، حب الوالد لولده ، وهو حبٌ من وضع الله وفطرته ، غنيٌ عن التفسير والبيان ـ تفضل عليه جل شأنه بأن يكون ولده هذا ، هو الذي يسعى بين يديه ، فيسبقه إلى باب الجنة فيفتحه له .

وهذه رواية أخرى يقـول فيها معاوية بن قرة رضي الله عنـه : « كان النبي ﷺ إذا جلس ، يجلس إليه نفر من أصحابه ، فيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده بين يديه ، فهلـك ـ أي الولد ـ فامتنع الرجـل أن يحضر الحلقة لذِكر ابنه ، ففقده النبي ﷺ ، فقـال : مالي لا أرى فلاناً ؟ قالوا : يـارسول الله بُنَيُّه الذي رأيته ، هلك ؛ فلقيه النبـي ﷺ ، فسأله عن بُنَيه ، فأخبره أنـه هلك ، فعزاه عليه ، ثم قال : يافلان ، أيهما كان أحبَّ إليك ، أن تتمتع به عمرك ، أولا تأتيَ إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدتـه قد سبقك إليه يفتحه لك ؟ قال : يـانبي الله ، بل يسبقني إلى باب الجنـة يفتحها لي ، لهو أحـب إلي . قال : فذاك لـك » أخرجـه النسائي في سننه الصغرى « المجتبى » باب الأمر بالاحتساب والصبر على المصيبة ، وباب في التعزية من كتاب الجنائز . وإسناده صحيح .

ومما يؤكد هذه البشارة العظيمة التي تـزيد من رضى المؤمن بقضاء الله وقدره والصبر على المصاب ــ مهما بلغت فداحتـه ـ واحتسـاب الأجر عند الله سبحـانه وتعالى ، مـا روى ابن عباس رضي الله عنهما أنـه سمع رسول الله ﷺ يقـول : « من كان لـه فَرَطان مـن أمتي دخل الجنـة بهما . قالـت عائشة : فمـن كان له فـرط من

أمتك؟ قال : ومن كان له فرط يا موفقة . قالت : فمن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال : أنا فرط أمتي لم يصابوا بمثلي » أخرجه الترمذي في الجنائز باب « ما جاء في ثواب من قدّم ولداً » وإسناده حسن .

الفَرط : السابق المقدم على القوم في طلب الماء والمنزل . وإذا مات للإنسان ولدٌ فهو فرَطٌ له .

ويانعم ما بشَّر به النبي ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ من دار الخلد التي لا يفنى نعيمها ولا يبيد ؛ إنها البشرى التي يفرح بها قلب المؤمن ، فيهشّ لها ويبشّ ، ويزداد يقيناً بأن ما عند الله خير وأبقى . وكم لذلك من أثر على السلوك في الثبات على الحق ، والصبر عند الصدمة الأولى ، والاستعلاء على ما يعرض للعاملين في خدمة الحق الذي نزل به الكتاب والدعوة إليه ، من صوارف الرغب والرهب ، ومعوقات المتاع الزائل ، وما يغترُّ به الغافلون .

والذين يقدُرون البشارة بالجنة حق قدرها ، تجدهم ـ قبل ذلك وبعده ـ يحبون لقاء الله ، فلا يرهبون الموت ، ولا يأسون على ما يفوتهم في العاجلة ، إلا أن يكون تقصيراً في طاعة ، أو تهاوناً في اغتنام الوقت للعمل المجدي يوم الحساب . فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقلت : يا نبي الله أكراهية الموت ، فكلنا نكره الموت ، قال : ليس كذلك ، ولكن المؤمن إذا بُشِّر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله ، فأحب الله لقاءه . وإن الكافر إذا بُشِّر بعذاب الله وسخطه ، كره لقاء الله ، فكره الله لقاءه » أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

وفي رواية لمسلم قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، والموت قبل لقاء الله » .

وعن شريح بن هانىء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ». قال:

«فأتيت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين ، سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله ﷺ حديثاً ، إن كان كذلك فقد هلكنا . فقالت : إن الهالك من هلك بقول رسول الله ﷺ ، وما ذاك ؟ قلت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » وليس منا أحد إلا ويكره الموت ، فقالت رضي الله عنها : قد قاله رسول الله ﷺ ، وليس بالذي تذهب إليه ، ولكن إذا شخص البصر ، وحشرج الصدر ، واقشعرّ الجلد ، وتشنجت الأصابع ؛ فعند ذلك من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ....» الحديث.

رضي الله عن أم المؤمنين الصديقة فيما أبانت لشريح بن هانىء ، وفيما أفادت الأمة بهذه الإبانة ، وهل يستوي من بُشر برحمة الله وجنته التي يُزلفها ـ برحمته ـ لعباده الصالحين ، ومن بُشر بسخط الله وعذابه في نار تلظى ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى ﴾!! لا يستويان مثلاً . وأنَّى لمن أعرض عن ذكر الله وأسلم نفسه لطاعة الهوى والشيطان ، أن يكون كمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه العزيز الغفار !!

وهذه الجنة الموعودة المبشَّر بها ـ في كتاب الله ، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ـ من يسعى للآخرة سعيها وهو مؤمن .. هذه النعمة العظمى ، والمنة الكبرى والجزاء الأوفى للموفقين المفلحين .. لا يحرمها إلا محروم ، تخذ المبشرات وراءه ظهرياً ، وراح يعمل بعمل أهل الجحيم .

أما المؤمن الذي أخلص لله دينه وعمله ، وصدق في طاعته ـ جلّ ذكره ـ والعبودية له ، والتذلل بخضوع بين يديه : فلا تزيده البشريات إلا دأباً على عمل الصالحات، والإقبال على الله في الإكثار من الطاعات ، وتجنب المخالفات، وكيف لا يكون من ذاق حلاوة الإيمان على هذه الحال من الصفاء والنقاء مع الله، والشوق إلى دار المتقين !وساحةُ البشارة : هذه الحال التي يغبط الغبطة كلها من رزقها وأكرم بها ، والمبشر بجنة المأوى : الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه

عليه بياناً لما جاءت به آي الكتاب الكريم !!.

ومن الخير أن نذكر ما أخرج الترمذي وغيره عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة جنتين : آنيتُها وما فيهما من فضة . وجنتين : آنيتُها وما فيهما من ذهب ، وما بين القوم ، وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ولكم يحسن المسلمون صنعاً حين يخوضون معارك تحقيق الذات بالإسلام ، بأن يشتد حرصهم على بناء الفرد هذا البناء المتكامل ، الذي يضع الأمور مواضعها، فلا تشغل عمارة الأرض الإنسان ، عن أن يحب لقاء الله ؛ فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .

رزقنا الله حسن الانتفاع بنور الهداية النبوية ، وأخذ بأيدينا إلى ما فيه النجاة عند أحكم الحاكمين ..

إلى الجنة.. وأول من يقرع بابها

المؤمن الذي ذاق حلاوة الإيمان وأصبح إيمانه بالمغيَّبات التي وردت أخبارها في القرآن وفي حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، يقيناً لا يكاد يفترق مطلقاً عما هو ثابت في عالم الشهادة ومنها ، ما جاء في شأن مشاهد القيامة وما ادخر الله لعباده المؤمنين إلى يوم الجزاء من المثوبة ، حيث يتفضل عليهم بإدخالهم المقام الأمين جنات تجري من تحتها الأنهار ، يغمرهم فيها الرضى ويسعدهم النظر إلى وجهه الكريم سبحانه ... هذا المؤمن ليس شيء أحبَ إلى نفسه من أن يكون يومَ الجزاء المثقل بالمخاوف والأهوال ، من أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى، وأسعدهم أن تشرق عليهم نفحات الجنة في صحبة من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿وحسن أولئك رفيقاً ﴾؛ فإذا ذكر المؤمن ذلك ، وذكر معه أن محمداً ﷺ أول من يقرع باب الجنة ، ازداد يقينه بما هو كائن ، وتضاعفت محبتُه لقاءَ الله، كيما يكون من أهل الرضا في دار الكرامة والنعيم .

أخرج الترمذي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ ينتظرونه ، قال : فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فيُسمَعُ حديثهم ، فقال بعضهم : عجباً إن لله من خلقه خليلاً ؛ اتخذ إبراهيم خليلاً ، وقال آخر : ما ذاك بأعجب من كليمه موسى ، كلّمه تكليماً ، وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه. وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم، فسلّم فقال: سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك. ألا و أنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفّع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حَلْقة الجنة فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولافخر » وأخرجه

الدارمي في السنن. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف لا يزداد شوق المؤمن إلى الجنة، وحرصه على سلوك طريقها، وكيف لا يفرح الفرح العظيم، بفضل الله ورحمته حين يُكرَم بهذه الكرامة، ونبيه وشفيعه محمد عليه الصلاة والسلام أول الناس يشفع في الجنة، وأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأول من يقرع باب الجنة، ويحرك حلْقتها، فيدخلها ومعه فقراء المؤمنين، وهو أكرم خلق الله على الله، إلى غير ذلك مما أعطي من خصائص تشهدها الخلائق هناك !! اللهم إنها الفرحة المرضيَّة المطلوبة في القرآن ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ قال الإمام مسلم : حدثنا قتيبة بن سعيد وإسحاق بن إبراهيم. قال قتيبة : حدثنا جرير عن المختار بن فُلفُل عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً » وأخرج بسنده عن أنس أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة ». وما قولك في حوار يقوم على باب الجنة بين أكرم الأولين والآخرين أول من يحرك حلقة الجنة صلوات الله وسلامه عليه. وبين الملك الموكّل بفتحها؛ إذ يستفتح نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام، فيفصح الملك عليه السلام عن أنه مأمور أن لا يفتح لأحد قبله؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت ؟ فأقول : محمد. فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك ».

ألا ما أجدر أهل الإيمان في هذا العصر الذي طغت فيه المادة ومعاييرها على كثير من الناس، أن يكون لهم من هذه البشريات العظيمة التي يكونون من أهلها إذا ثبتوا للزعازع وظلوا على العهد، قائمين بالسنة علماً بها وعملاً بهديها وحفاظاً عليها، لما أنها بيان الكتاب والطريق إلى فهمه وتدبره، ولأن طاعة الرسول من طاعة الله .. أجل ما أجدرهم أن يكون لهم من هذه البشريات، حافز على العمل الصالح أيُّ حافز، وباعث على استئناف مسيرة الخير أي باعث !! إنهم إن فعلوا ذلك، فاقتحموا العقبات والمكاره، وتجاوزوا الرغبة في العافية إلى تحقيق الوجود

الإسلامي ، عادهم التمكين في الأرض ، وغمرتهم نفحات الرحيم الرحمن يوم الدين. وهنالك تزلف لهم الجنة ، ويدخلونها آمنين ، بعد أن يكون رسولهم وحبيبهم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أول من قرع بابها وحرّك حلقتها ، مستفتحاً للدخول .

ولقد وردت بعض النصوص التي تدل على أن ما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام من خصوصية أوليته المومى إليها تكرمةً له ولأمته.. كائن يوم الشفاعة العظمى ، وما يعطاه صلوات الله وسلامه عليه من المقام المحمود. من ذلك ما جاء عند الإمام أحمد في المسند من حديث تلك الشفاعة العامة، التي تكون ليأذن جبار السماوات والأرض ـ سبحانه ـ بفصل القضاء بين الناس في ذلك اليوم الموعود ، ما روى ابن عباس رضي الله عنهما « .. فإذا أراد الله أن يصدع بين خلقه، نادى منادٍ : أين أحمد وأمته ، فنحن الآخرون الأولون ، فنحن آخر الأمم وأول من يحاسب ، فتَفرُجُ لنا الأمم من طريقنا ، فنمضي غراً محجلين من أثر الطهور وتقول الأمم : كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلُها ، قال : ثم آتي باب الجنة فآخذُ بحلْقة باب الجنة ، فأقرع الباب ، فيقال : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيفتح لي فأرى ربي عز وجل وهو على كرسيه ـ أو سريره ـ فأخر له ساجداً وأحمده بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي ولا يحمده بها أحد بعدي ، فيقال : ارفع رأسك ، وقل تُسمَعْ وسل تعطه ، واشفع تشفّعْ ، قال فأرفع رأسي ، فأقول : رب أمتي أمتي، فيقال لي : أخرج من النار من كان في قلبه مثقال كذا وكذا . فأخرجهم. ثم أعود فأخر ساجداً بمحامد لم يحمده بها أحد كان قبلي ، ولا يحمده بها أحد بعدي ، فيقال لي : ارفع رأسك ، وقل يُسمَع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفّع ، فأرفع رأسي فأقول : أي رب أمتي أمتي ، فيقال : أخرج من النار من كان في قلبه مثقال كذا وكذا ، فأخرجتهم قال : وقال في الثالثة مثل هذا »

وإذا كان الأمر كذلك ، فما على المؤمن إلا أن يقدُرَ ما أعطي نبيه ـ وهو سيد الأنبياء والمرسلين ـ من هذه المكرمات يوم الحساب قدره ، ويوظف الإيمان به على

طريق الصلاح والإصلاح والجهاد في سبيل الله كيما يكتبه الله ـ برحمة الله وإحسانه ـ مع الذين تشملهم كرامة الصحبة في جنة النعيم ؛ فقد أعطى ﷺ كل ذي حق حقه ، ولم يخص المجدّين في طلب الجنة شيئاً ، رجالاً كانوا أو نساءً ، وبشر المستقيمين على صالح العمل وإخلاص الدين لله بأكرم البشريات . ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في كتاب « حادي الأرواح » ما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا أول من يفتح باب الجنة ، إلا أن امرأة تبادرني فأقول لها : ما لك ومن أنت ؟ فتقول : أنا امرأة قعدت على يتامى » وقد سبقت الإشارة إليه .

إنه لمشهد أخاذ من مشاهد يوم الفصل مشهد تلك المرأة المؤمنة التي تغبط على أنها آثرت رعاية اليتامى على حظ نفسها ، فكانت لها هذه المنزلة العظيمة التي تمثلت في حديث رسول الله إليها ، بعد أن بادرته على باب الجنة وسبحان الرحمن الرحيم ..

الـذيـن يبرهنون على صـدق إيمانهم بحسـن اتبـاع المصطفى عليـه الصـلاة والسلام، والتأسي به حقَّ التـأسي ، ينالون ـ مع التوفيق في الدنيـا ـ حظ أن يكونوا من ورثة جنة النعيم يوم القيامة ، ويشهدون من إكرام الله له عليه الصلاة والسلام بما أعطاه مـن الخصائص مـا يشهدون ؛ ومن تلـك الخصائص : أنـه صلوات الله وسلامه عليه أول من يفتـح له باب الجنة ـ كما دلت أحاديث سلفـت ـ بل هنالك بعض الروايـات التي جاءت بلفظ « ومفاتيـح الجنة يومئذ بيـدي » روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتـوا ، وقائدهم إذا وفدوا ، وشـافعهم إذا حُبسوا وأنـا مبشرهم إذا أيسوا ، لواء الحمـد بيدي ، ومفاتيح الجنة يـومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولـد آدم يومئذ على ربي ولا فخر ، يطوف عليَّ ألف خادم كأنهم اللؤلؤء المكنون » أخرجه الترمذي والبيهقي واللفظ له . ورواه بلفظ « والمفاتيح يومئذ بيدي ».

ومما ينبغي أن ينبه الغافل ، ويزيد مـن حرص العامل المجدِّ في طاعة الله ، أن رُوَاء هذه المنقبـة التي يكرم الله بها حبيبه المصطفـى عليه الصلاة والسـلام ، يمتدُّ حتى يصل إلى الأمة ، فالسبـق وأولية دخول الجنة يوم القيامة للأمـة المحمدية مع نبيها عليه الصلاة والسلام .

أخرج البخـاري في « باب مـاذكر عـن بني اسرائيـل » من كتـاب أحاديـث الأنبياء في الجامع الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بَيْدَ كل أمة أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيـه ، فغداً لليهود وبعد غد للنصارى » والمقصـود باليوم : يوم الجمعة. وتحت «باب هدايـة هذه الأمة ليوم الجمعة» أخرج مسلـم بسنده عن أبي

هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة بيد أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا اليوم الذي كتبه الله علينا ، هدانا الله له . فالناس لنا فيها تبع . اليهود غداً والنصارى بعد غد » وأخرجه النسائي من رواية حذيفة رضي الله عنه بلفظ «وكذلك هم لنا تبَعٌ يوم القيامة ، ونحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق ».

بيد أن : غير أن ، سوى أن ، إلا أن ، أو من أجل .

ثم إن أولية دخول الجنة تقترن بأولية السبق يوم القيامة مضافاً ذلك إلى فضيلة يوم الجمعة ، وهدايةِ الأمة المحمدية ، نجد ذلك فيما روى مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فاختلفوا ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق ، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ، هدانا الله له(قال يوم الجمعة) فاليوم لنا ، وغداً لليهود وبعد غد للنصارى » وأخرجه أحمد في المسند .

قال الإمام السيوطي في شرحه للحديث : « الآخرون السابقون : أي الآخرون زماناً الأولون منزلة . والمراد أن هذه الأمة وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية ، فهي سابقة إياهم في الآخرة ، بأنهم أول من يحشر ، وأول من يحاسب وأول من يقضى بينهم ، وأول من يدخل الجنة» . وفي حديث حذيفة ـ كما رأينا ـ «نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضي لهم قبل الخلائق ».

هذا : ولمزيد من البيان ، وحرصاً على تذكر الارتباط بين ما خُصّ به نبينا عليه الصلاة والسلام، وبين ما خصت به الأمة بفضل أنها أمته ؛ لعل من الخير أن نورد قدراً آخر مما ورد في شأن ما خصّ به عليه الصلاة والسلام من كونه أولَ من يقرع باب الجنة ويحرك حلْقته ، وأنه أول من يدخلها يوم القيامة ؛ فقد روى أحمد

والترمذي والدارمي ـ واللفظ له ـ عن زيد بن علي بن جُدعان عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها ، قال أنس: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحركها، وصف لنا سفيان كذا ـ وسفيان هو ابن عيينة ـ وجمع أبو عبدالله أصابعه وحركها .. الحديث » .

أقعقعها : أحركها . والقعقعة : تحريك الشيء اليابس الصُلب مع صوت .

ثم إن هذا كله يوحي ، بأنه ليس من نافلة القول ، بل هو باب التناصح ، تأكيد ما يجب من محبة النبي ﷺ ، محبةً تبلغ أن يكون عليه الصلاة والسلام أحبّ إلى المسلم حتى من نفسه التي بين جنبيه ، وأن برهان الصدق في ذلك أن تُتْبَعَ هذه المحبة بالطاعة وحسن الاتباع ، إنفاذاً صحيحاً للأوامر ، واجتناباً ـ مثله ـ للنواهي ، ورضىً بحكمه ﷺ في كل صغيرة وكبيرة ، دونما حرج في الصدر ، أو جنوح عن السبيل التي حدّد معالمها عليه الصلاة والسلام .

إن المسلم حين يلتزم بهذا المنهج ، يضع قدمه ـ برسوخ ـ على الطريق الموصلة بفضل الله ، إلى دار المقامة حيث يكون النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو الأسوة الحسنة المباركة ـ أول داخليها بل أوّل من يأخذ بحلقة باب الجنة فيقعقعها .

وفي رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إني لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمتي يوم القيامة ولا فخر ، وأعطى لواء الحمد ولا فخر ، وأنا سيّد الناس يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر ، وآتي باب الجنة فآخذ بحلقتها ، فيقولون : من هذا ؟ فأقول : أنا محمد ، فيفتحون لي فأدخل ، فأجد الجبار مستقبلي فأسجد له ، فيقول : ارفع رأسك يا محمد وتكلم يُسْمَع منك ، وقل يقبلْ منك ، واشفع تشفّع ، فأرفع رأسي فأقول : أمتي أمتي يارب ، فيقول : اذهب إلى أمتك ، فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من شعير من الإيمان فأدخله الجنة ، فأذهب ، فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك أدخلتُهم الجنة ، فأجد الجبار مستقبلي فأسجد له ، فيقول : ارفع رأسك

يـا محمد وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفّع ، فأرفع رأسي فأقول: أمتيِ أمتي يارب ، فيقول : اذهب فمن وجـدتَ في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأدخله الجنة ، فـأذهبُ فمن وجدت في قلبه مثقال ذلـك أدخلتُهم الجنة ، وفرغ من حساب الناس ، وأدخل من بقي من أمتي في النار مع أهل النار ، فيقول أهل النار : مـا أغنى عنكم أنكم كنتـم تعبدون الله ولا تشركون به شيئـاً !! فيقول الجبار : فبعزتي لأعتقنهم من النار فيرسل إليهم فيخرجون من النار وقد امتحشوا ـ أو امتُحِشوا ـــ فيدخلون في نهر الحياة ، فينبتـون فيه كما تنبت الحِبة في غثـاء السيل ويكتب بين أعينهم : هؤلاء عتقاء الله ، فيذهب بهم ، فيدخلون الجنة ، فيقول لهم أهل الجنة : هـؤلاء الجهنميون ، فيقول الجبار : بل هـؤلاء عتقاء الجبار » رواه أحمد والترمذي والنسائي والدارمي ، وهذا لفظ الدارمي .

ومعنى امتَحشوا : احترقوا . وامتُحشوا بالمبني للمجهول : أحرقتهم النار .

ولنا عـودة إلى الكلام على هؤلاء العتقـاء ومشـهدهم المؤثر المعبر مـن خلال النصوص الواردة في شـأنهم إن شـاء الله ..

إنه لمشهد بالغ الدلالة ، متنوع العطاء ، عميق التأثير ، يزيد من عظمته وروعته أنه واقع في يوم الحشر المثقل بالشدائد المفعم بترقب المصير ، وإنه لمشهد تتجلى فيه رحمة الخالق تبارك وتعالى وما خصّ به نبينا محمداً ﷺ من الخصائص الرفيعة يومذاك . ومن وراء ذلك ، ما خصّ به سبحانه الأمة المحمدية ، ذلكم ما يُرى على رؤوس الأشهاد من أنه عليه الصلاة والسلام أول الناس قرعاً لباب الجنة ودخولاً إليها ، وأن أمته أسبق الأمم إلى أعلى مكان في الموقف ، وإلى الفصل والقضاء ، وإلى دخول الجنة أيضاً . بل هنالك بعض الروايات التي تدل ـ كما سنرى ـ على أن الجنة محرمة على الأنبياء عليهم السلام ، حتى يدخلها هو ﷺ . والحديث موصول بما ورد حول ذلك من نصوص السنة النبوية المطهّرة التي رأينا بعضاً منها في الماضي القريب . روى الدارقطني من حديث زهير بن محمد عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن الزهري عن سعيد بن المسيَّب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلَها ، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي » قال الدارقطني : غريب عن الزهري ولا أعلم روي عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن الزهري غير هذا الحديث ، ولا رواه إلا عمر بن أبي سلمة عن زهير .

وقد مرّ بنا من قبل ما ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولاً الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم » . قال الإمام ابن القيم رحمه الله : (فهذه الأمة أسبق الأمم خروجاً من الأرض وأسبقهم إلى أعلى مكان في الموقف ، وأسبقهم إلى ظل العرش وأسبقهم إلى الفصل والقضاء بينهم ، وأسبقهم إلى الجواز على الصراط ، وأسبقهم إلى دخول الجنة ، فالجنة محرمة على الأنبياء حتى

يدخلها محمد ﷺ ، ومحرمة على الأمم حتى تدخلها أمته).

أرأيت إلى هذه المنقبة العظيمة التي تغمر بضيائها ورفعتها أمة محمد ﷺ !! ناهيك عن تفرد سيد العالمين وخاتم المرسلين بذلك العطاء الرباني الكريم !! غير أن الذي ينبغي أن يكون في الحسبان أبداً ـ يصحب المسلم في سلوكه وموقفه من الإسلام على ظهر هذا الكوكب في دار الفناء ـ.. وجوبُ العمل الذي فيه مرضاة الله ورسوله ، والاستمساك بكل ما هو من صفات المتقين الذين يدخلهم الله دار كرامته ، ويفيض عليهم رضوانه ، لما أنهم كانوا أهلاً للفضل في انتسابهم إلى الأمة المحمدية ، ودعوى أنهم من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، وليس بدعاً أن يكونوا ـ بفضل الله ورحمته ـ أول الأمم دخولاً الجنة ، كما أن رسولهم الذي آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولُ الخلق دخولاً لها .

والذي ما بدٌّ من الإشارة إليه ، أن المصطفى عليه الصلاة والسلام ، لم يدع أن يبين من هو أول الأمة دخولاً !! ذلكم قول أبي داود في سننه : حدثنا هنّاد بن السَّرِي عن عبدالرحمن بن محمد المحاربي عن عبد السلام بن حرب عن أبي خالد الدالاني عن أبي خالد مولى آل جعدة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي، فقال أبوبكر : يا رسول الله وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه ، فقال رسول الله ﷺ : أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي » قال المنذري : فيه أبو خالد الدالاني ـ واسمه يزيد بن عبدالرحمن ـ وثقه أبو حاتم الرازي وقال ابن معين : لا بأس به .

وقد فهم ابن القيم من قول أبي بكر « وددت أني كنت معك » أن ذلك كان حرصاً منه رضي الله عنه على زيادة اليقين ،وأن يصير الخبر عياناً ، كما قال إبراهيم الخليل ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال : أولم تؤمن ؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ ثم قال رحمه الله : وأما الحديث الذي رواه ابن ماجة في سننه: حدثنا

إسماعيل بـن عمر الطلمـيُّ قال : أنبـأنا داود بن عطـاء المدينيُّ عـن صالـح بن كيسان عن ابن شهاب الزهري عن ابن المسيَّب عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يصافحه الحق عمر ، وأول من يسلم عليه ، وأول من يأخذ بيده فيدخلـه الجنة» فهـو حديث منكـر جداً ، قال الإمـام أحمد : داود بن عطـاء ليس بشيء وقال البخاري : منكر الحديث .

وقـد يتساءل البعـض عـن السابقين مـن هـذه الأمـة ـ عمـوماً ـ إلى الجنـة وصفتهم، والجواب عـن ذلك أن أحاديث كثيرة كشفـت عن صفاتهم وما كـانوا عليه في دار العمل ؛ الأمر الذي يُشعر دونما لبس بالارتباط الوثيق بين ما كان عليه المسلم في الدنيا ، ومـا يؤول إليه أمره في الآخرة ، تذكيراً للأمة بمـدى العلاقة ـ كما أشرت غير مرة ـ بين التكليف وتحمل التبعـة في الدنيا دار العمل ، وبين الجزاء في الآجلة دار الجزاء . وقـد مرّ بنـا بعض الأحاديـث المومى إليهـا في مناسبـة أخرى. وأخرج الإمام أحمد في المسند بسنده عن عامر العقيلي عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « عرض علي أول ثلاثة من أمتـي يدخلون الجنة وأول ثلاثـة يدخلون النار ؛ فأما أول ثـلاثة يدخلون الجنة : فـالشهيد ، وعبد مملوك لم يشغلـه رق الدنيـا عن طاعـة ربه ، وفقير متعفـف ذو عيال ، وأول ثـلاثة يدخلون النار : فأمير مسلَّط ، وذو ثروة مـن مال لا يؤدي حق الله من ماله ، وفقير فخور ».

وهذه زمرة أخرى ، نجدها فيما روى شعبة بن قيس عن حبيب عن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قـال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يدعى إلى الجنة يـوم القيامة الحامدون الـذين يحمدون الله في السراء والضراء » وأخـرج الإمام أحمد في المسند والطبراني ـ واللفـظ له ـ عن ابـن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : تقول الملائكة : ربنا نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سماواتك، لاتدخلْهم الجنة قبلنا ، فيقول : عبادي لا يشركون بي شيئاً ، تتقى بهم المكاره ، يموت أحدهم وحاجته في

صدره لم يستطع لها قضاءً ، فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب : ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾.

هذا : وكان للعلماء في الجمع بين هذه الأحاديث وبين قوله تعالى : ﴿والسابقون السابقون . أولئك المقربون . في جنات النعيم﴾ أقوالٌ : أرجحها أن السابقين في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات ، وأن السابقين إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان فلفظ « السابقون » الأول غير لفظ « السابقون » الثاني . وسبحان من يتفضل على عباده بالهداية إلى الصراط المستقيم، بما يعطي من الفطرة وأهلية التكليف ، ثم يرحمهم ـ إن هم سبقوا إلى الإيمان ، وسارعوا الى التقرب بالخيرات وعمل الصالحات ـ بأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وذلك الفوز العظيم .

ولنا عودة إلى هذه القضية قضية السبق إلى دخول الجنة ، كيما نقف على ما سلكه العلماء في الجمع بين ما تقدم من النصوص ، وبين ما ورد في أبواب الفضائل من التصريح بسبق بعض الصحابة إلى الجنة ، ومن ذلك ما جاء في الصحيح « أن رسول الله ﷺ سأل بلالاً رضي الله عنه : بم سبقتني إلى الجنة ، فما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي » رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم وجزاهم بما عملوا وبما صبروا وجاهدوا خير الجزاء ونسأله تعالى ـ وهو الرحيم الرحمن ـ أن يكتبنا في زمرة من تغشاهم رحمته يوم تُزلف الجنة للمتقين غير بعيد ، وأن يوفقنا لعمل الصالحات ، والمسارعة إلى الخيرات ، إنه البر الجواد الكريم لا رب غيره ولا خير إلا خيره ..

الإكرام الإلهي للأمة المحمدية يوم الفزع الأكبر بجنات تجري من تحتها الأنهار أُكُلُها دائم وظلُّها ، لمن استقاموا على الطريقة وسلكوا سبيل المتقين .. هذا الإكرام الإلهي يذكّر دائماً بما يسَّر ربنا تبارك وتعالى من سبل الخير في الدنيا ، وما فتح لعباده المؤمنين من أبواب الهداية إلى الطريق التي تسلمهم - إن سلكوها بالعمل الصالح والجهاد في سبيل الله وإخلاص الدين لله - إلى تلكم الكرامة الربانية دار النعيم . والمهم أن يكون المؤمن على التزام بمنهج أهل الصدق ، لا يحيد عن الجادة ، ولا ينسى مولاه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، سواء في ذلك السر ، والعلانية . إنه إن فعل ذلك ، ألفى أنه أمام الكثير الكثير من موائد الفضل التي ليس لارتياد المؤمن لأي منها جزاءٌ إلا الجنة ، فما بالك إذا علت الهمة وصدقت العزيمة ، واستعلى المؤمن بإيمانه على المعوقات والصوارف !!

أرأيت إلى ما ورد في شأن السورة التي تشرق بالتوحيد الخالص وعدد من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى « سورة الإخلاص » وكيف وثّق النبي ﷺ بين تلاوتها من قبل رجل من الصحابة ، وبين وجوب الجنة !! أخرج الإمام مالك في الموطأ عن عبيدالله بن عبدالرحمن عن عُبيد بن حُنَيْن مولى آل زيد بن الخطاب أنه قال : سمعت أبا هريرة يقول : «أقبلت مع رسول الله ﷺ ، فسمع رجلاً يقرأ « قل هو الله أحد » فقال رسول الله ﷺ : « وجبت » فسألته : ماذا يا رسول الله ؟ فقال : «الجنة» فقال أبو هريرة : فأردت أن أذهب إليه فأبشره ، ثم فرقت أن يفوتني الغداء مع رسول الله ﷺ ، فآثرت الغداء مع رسول الله ﷺ ، ثم ذهبت إلى الرجل فوجدته قد ذهب ». وأخرجه الترمذي عن أبي هريرة مختصراً بلفظ : « أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد الله الصمد ، فقال رسول الله ﷺ : «وجبت » قلت : وما وجبت ؟ قال : « الجنة » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن

غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن أنس . ومن رواية أبي هريرة أخرجه النسائي أيضاً بذكر السورة كلها إذ جاء فيها : « فسمع رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾. فقال رسول الله ﷺ : وجبت ، فسألته : ماذا يا رسول الله؟ قال : الجنة ».

وتطالعنا بعض الروايات بأخذ ورد بين رجل من الأنصار ، وبين من كان يؤمهم في مسجد قباء ، فيقرأ بسورة الإخلاص ـ لأنه يحبها وبسورة أخرى معها ـ وبإخبار هؤلاء رسول الله ﷺ بصنيع ذلك الرجل ، فيبشره النبي ﷺ بأن حبه للسورة أدخله الجنة . وأنعم بها بشارةً يظفر صاحبها بأن يكون في زمرة من تغشاهم رحمة الله يوم القيامة ويغمرهم فضله ، ويبدل سيئاتهم حسنات ، فتفتح لهم أبواب الجنة ويقول لهم خزنتها : ﴿سلام عليكم طِبْتُم فادخلوها خالدين ﴾. روى الترمذي بسنده عن ثابت البُناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : «كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم في الصلاة فقرأ بها ، افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرُغ منها ، ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه فقالوا : إنك تقرأ بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تُجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى قال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أؤمكم بها فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ، وكانوا يرونه أفضلَهم ، وكرهوا أن يؤمَهم غيرُه . فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر ، فقال : يافلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك ؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة ؟ فقال : يارسول الله إني أحبها ، فقال رسول الله ﷺ: « إن حُبها أدخلك الجنة» قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه من حديث عبيد الله بن عمر عن ثابت .

ورواه النسائي بأخصر من هذا ، عن عائشة رضي الله عنها بإسناد صحيح. قال الترمذي : وروى مبارك بن فَضالة عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال : يارسول الله إني أحب هذه السورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾. فقال : « إن حبك إياها يدخلك

الجنة» .

ومما ينفع المؤمن غاية النفع في الآخرة ـ والله أعلم ـ أن يكون في هذه الدار سليم التصور ليوم الحشر يوم القيامة بما فيه حتى كأنه رأي عين . ولقد دلّ النبي ﷺ الأمة على ما به يكون لها ذلك ، الأمر الذي يبعث على التزوّد المطلوب ليوم الفصل ، اليوم الذي لا يسأل فيه حميم حميماً ، وترى الناس من شدة الهول، ولكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿**إذا الشمس كورت**﴾ و ﴿**إذا السماء انفطرت**﴾ و ﴿**إذا السماء انشقت**﴾ أخرجه الترمذي ، وأحمد في المسند ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي في « التلخيص » .

ولكم يحسن المؤمن صنعاً إذا أخذ نفسه بسلوك المحسنين ، الذي هو سمة أهل الآخرة مبرهناً على صدق الانتساب إلى أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، لأن هذه الحقيقة التي معها دليلها ، ترتفع به إلى حيث يناله ما بشر الله به النبي عليه الصلاة والسلام من أنه سيرضيه في أمته ولا يسوؤه يوم الدين ، وذلك ـ والله أعلم ـ بالزحزحة عن النار ودخول الجنة ، وما يتبع ذلك من الفضل الذي لا يُحَدّ . أخرج الإمام مسلم رحمه الله تعالى بسنده في كتاب الإيمان من الصحيح «باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم» عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال : «تلا رسول الله ﷺ قول الله عز وجل في إبراهيم عليه السلام : ﴿**رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم**﴾ وقول عيسى عليه السلام: ﴿**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾ فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى . فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبره بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله : يا جبريل ، اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك ».

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى وهو يذكر فوائد هذا الحديث : (ومنها البشارة العظيمة لهذه الأمة زادها الله شرفاً بها وعدها الله تعالى بقوله : **سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك** . وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة أو أرجاها ، إلى أن قال : وهذا الحديث موافق لقول الله عز وجل : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾) .

اللهم وفقنا لصدق الانتساب لهذه الأمة المحمدية كيما نفوز بما بُشر به النبي عليه الصلاة والسلام فيها يوم تحشر الخلائق إلى رب العالمين ..

مشاهد القيامة الناطقة بآثار رحمة الله في تكليف عباده بشريعته ، وجعلِ ذلك طريقاً مسلوكة لمن يأخذ نفسه بالتزام معالمها إلى جنة المأوى؛ نزلِ من يؤمنون ويعملون الصالحات .. هذه المشاهد تحمل على العودة إلى اصطحاب الحقيقة التي سبقت الإشارة إليها ــ فيما سبق ـ من أن الإكرام الإلهي للأمة المحمدية في الآخرة ، مصحوب بما يسَّر الله لهذه الأمة في الحياة الدنيا ـ وهي ميدان العمل والسباق إلى مكارم الخير ــ من شعب الإيمان والعمل الصالح ـ بأوسع مدلول ـ وما فتح لها من أبواب القُرَب والحسنات التي تعز على الحصر .

ولما كان الأمر كذلك ـ وهذه الحقيقة واقع لا ريب فيه ـ فما على المؤمن الذي عقل عن الله ما أراد ، إلا أن يحمل نفسه على الجادة ، فيغتنم الفرص المتاحة بإخلاص وصدق عزيمة ، لايفتر عن فريضة ، ولا يتقاصر عن نافلة . وفي حديث رسول الله ﷺ ما يقطع العذر ، ويوحي بضرورة أخذ الحقائق على هذه الساحة مأخذ الجد الذي يرتفع عن سفاسف الأمور ، والانحدار إلى مستوى الساهين اللاهين .

أخرج الإمام النسائي بسنده عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما قالا : خطبنا رسول الله ﷺ فقال: « والذي نفسي بيده ــ ثلاث مرات ــ ثم أكبَّ ، فأكبَّ كل رجل منا يبكي ، لا يدري على ماذا حلف ، ثم رفع رأسه في وجهه البشرى ؛ فكانت أحبَّ إلينا من حُمْر النَّعَم . قال : ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ويجتنب الكبائر السبع ، إلا فتحت له أبواب الجنة ، وقيل له : ادخل بسلام » وهو حديث حسن .

ولاريب في أن من ذاق حلاوة الطاعة ، وامتلأ قلبه بخشية الله واليوم الآخر،

لا يكاد يبارحه ذكر القيامة ، وصادق الرغبة في أن يكون من هؤلاء الذين تشملهم بشرى النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن بكى خشية لله وخوفاً على أمته ـ والله أعلم ـ أن يكون في عدادهم ، تفتح له أبواب الجنة التي تشتاق أهلها ـ كما جاء في الحديث ـ وهو في زمرة إخوانه المؤمنين يملأ أسماعهم قوله تعالى : ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ .

وبعد : فلا بد من أخذ الهدي النبوي في هذا مأخذ القوة ، والدأب على الطاعات ، واجتناب المعاصي والمخالفات ، والاستنارة في الشؤون كلها بنور التقوى وسبيل المتقين .

وتتسع دائرة العطاء ، فنجد آفاقاً رحبة يشرق بها الهدي المحمدي ، تأخذ بيد المؤمن ـ إن زكى نفسه وشغل عمره بصالح العمل ـ إلى مرابع الخلود في مستقر رحمة رب العالمين . من أمثلة ذلك ما روى أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة كلهم ضامن ـ أي مضمون ـ على الله : رجل خرج غازياً في سبيل الله ، فهو ضامن على الله عز وجل ، حتى يتوفاه الله فيدخله الجنة ، أو يردَّه بما نال من أجر أو غنيمة ؛ ورجل راح إلى المسجد ، فهو ضامن على الله عز وجل ، حتى يتوفاه الله فيدخله الجنة ؛ ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله عز وجل » أخرجه أبوداود وإسناده صحيح .

معنى : «ضامن على الله» أي مضمون على الله ؛ إذ « فاعل » هنا بمعنى «مفعول » كما في قوله تعالى : ﴿ **في عيشة راضية** ﴾ أي مرضية .

وعن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، وقيل : قدم رسول الله ﷺ ، فجئت في الناس لأنظر إليه ، فلما استبنْتُ وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، وكان أولَ شيء تكلم به أن قال : أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام ، وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » أخرجه الترمذي وقال : هذا حديث صحيح .

وفي رواية له عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « اعبدوا الرحمن ، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام ، تدخلوا الجنة بسلام» قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

بل إنك تقع على بعض النصوص ، التي تجعل لوناً من ألوان الفضل الرباني في الجنة جزاء لأنواع من العمل الصالح الذي يقوم به المؤمن في الدنيا : فعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن في الجنة غرفاً يرى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها ، فقام أعرابي فقال : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » . أخرجه الترمذي وهو حديث حسن، كما أخرجه أحمد في المسند عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، والحاكم في المستدرك من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وصححه ووافقه الذهبي في كتابه « التلخيص » .

هذا : وليس من نافلة القول ، إن رسول الله ﷺ لم يدع أن ينبه الأمة على ما ينبغي عمله ، وما ينبغي الحذر منه ، لمن أراد النجاة يوم القيامة والفوز بجنة عالية قطوفها دانية ، يقال لأصحابها: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾. بل إنه عليه الصلاة والسلام نبّه بتأكيد ، على ما يكون من السؤال في القبر ، وكشف عن العلاقة بين حال المؤمن المصدق بعد السؤال فيه ، وبين منزلته في الجنة ، وعن العلاقة بين حال الضال المضل المكذب بعد السؤال فيه . وبين مصيره المشؤوم في نار السعير . ومما ورد في ذلك ما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إن الميت إذا وضع في قبره ، إنه يسمع خفق نعالهم حيث يولون عنه ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه ، فيؤتى من قِبَل رأسه ، فتقول الصلاة : ما قِبَلي مدخلٌ ، ثم يؤتى عن يمينه ، فيقول الصيام : ما قِبَلي مدخلٌ ، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة : ما قِبَلي مدخلٌ ، ثم يؤتى من قِبَل رجليه فيقول فعل الخيرات من

الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى النـاس : ما قِبَلي مـدخلٌ ، فيقـال له : اجلس ، فيجلس وقد مثلت له الشمس وأدنيت للغروب ، فيقال له : أرأيتك هذا الرجل الذي كـان فيكم ما تقول فيه ، وماذا تشهد به عليـه ؟ فيقول : دعوني حتى أصلي ، فيقولون : ستفعل ، أخبرنا عما نسألك عنه ، أرأيتَك هذا الرجلَ الذي كان فيكم ما تقـول فيه وماذا تشهد عليـه ؟ قال: فيقول : محمد أشهـد أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق من عند الله ، فيقال له : على ذلك مِتَّ ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة ، فيقـال له : هذا مقعدك منها ، وما أعدَّ الله لك فيها ، فيزداد غبطةً وسروراً ، ثم يفتح له باب من أبواب النار ، فيقال له : هذا مقعدك منها وما أعدّ الله لك فيها ، لو عصيته ، فيزداد غبطةً وسروراً ، ثم يُفْسَح له في قبره سبعون ذراعـاً ، وينوَّر فيـه ، ويعاد الجسـد لما بدأ منـه ، فتجعل نسمتُـه في النَسَم الطيب وهي طير يعلـق في شجر الجنة ، قال : فذلك قـوله تعالى : ﴿ يثبِّت الله الـذين آمنــوا بالقـول الثابـت في الحياة الـدنيا وفي الآخــرة ﴾ إلى آخر الآيـة (إبراهيم : ٢٧) .

قال : وإن الكافر إذا أُتيَ من قبل رأسه لم يوجد شيء ، ثم أتي عن يمينه ، فلا يوجد شيء ، ثم أتي عن شماله فلا يوجـد شيء ، ثم أتي من قبل رجليه ، فلا يوجد شيء، فيقال له : اجلس ، فيجلس خائفاً مرعـوباً ، فيقال له : أرأيتَك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد عليه ؟ فيقول : أيُّ رجل ؟ فيقال : الذي كان فيكم ، فلا يهتـدي لاسمه حتى يقال له : محمد ، فيقـول : ماأدري ، سمعت الناس قالوا قولاً ، فقلت كما قال الناس ، فيقال له: على ذلك حييت ، وعلى ذلك مُتَّ ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ، ثم يفتح لـه باب من أبواب النار ، فيقال له: هذا مقعدك من النار وما أعدَّ الله لك فيها ، فيزداد حسرة وثبوراً ، ثم يفتح له بابٌ من أبـواب الجنة ، فيقال لـه : ذلك مقعدك مـن الجنة ومـا أعدّ الله لك فيهـا ، لو أطعته، فيزداد حسرة وثبوراً ، ثم يضيق عليه قبره حتـى تختلف فيه أضلاعه ، فتلك المعيشة الضنكـة التي قـال الله: ﴿ فـإن له معيشـة ضنكاً . ونحشره يـوم القيامـة

أعمى﴾(طه : ١٢٤) .

أخرجه ابن حبان وإسناده حسن ، وأخرجه عبدالرزاق وابن أبي شيبة والطبري في «جامع البيان» ، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي والبيهقي في «الاعتقاد» وفي «عذاب القبر» وذكره الهيثمي في «المجمع» وقال : رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن ، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» وزاد نسبته إلى ابن المنذر وابن مردويه .

أنىّ نظرت فيما ورد عن الحبيب الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام في شأن يوم المعاد ، وما يكون فيه ، عدتَ وفي جعبتك العدد الوفير من مظاهر العطاء الرباني هناك لمن ربا الإيمان فيَ قلوبهم ، فأحسنوا العمل في الدنيا مستضيئين بنور التقوى ، خائفين عذاب ربهم حق الخوف ، راجين رحمته حق الرجاء ، كل أولئك وفق ما جاء به الكتاب الكريم ، وبينته السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وإذا ذكرنا أن رسولنا عليه الصلاة والسلام قد اؤتمن على بيان القرآن ، بل على شرع أحكام جديدة في ظل الكتاب ، كانت أخبار السنة الموثقة عن العطاء الإلهي في الآخرة ، من جنات لا ينقطع نعيمها ولا تفنى لذائذها ، وما يفيض الله جل شأنه على أهلها من الرضى ، فلا يسخط عليهم أبداً ، ومن المن عليهم برؤيته جل شأنه وتباركت أسماؤه - ولا كذلك أهل الضلال والإضلال ، هي إخبار عن الله عز وجل ، لما أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ والعلاقة بين الوحي المتلو - وهو القرآن - وبين الوحي غير المتلو - وهو حديث النبي عليه الصلاة والسلام - علاقة وثيقة بين المبيَّن والبيان ، لا تنفصم عراها بوجه من الوجوه .

ومما يتفضل الله به على عباده المحسنين يوم الفصل - إذ القلوب لدى الحناجر ، والروع آخذ مأخذه من النفوس - ما أخرج الترمذي بسنده عن داود بن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال : « لو أن ما يُقِلُّ ظفر مما في الجنة بدا لتزخرفت له ما بين خوافق السماوات والأرض . ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطّلع فبدا أساوره لطمس ضوءَ الشمس كما تطمس الشمسُ ضوء النجوم ».

قال الترمذي : وقد روى يحيى بن أيوب هذا الحديث عن يزيد بن أبي حبيب وقال : عن عمر بن سعد بن أبي وقاص . وهو حديث حسن .

أقَلَّ الشيءَ يُقِلُّه : إذا حمله ؛ فمعنى لو أن ما يُقِل : لو أن ما يحمل . الزخرفة: الزينة ، والزخرف : الذهب . خوافق السماء : آفاقها .

سبحان المنعم المتفضل ، لقد كان صلاح العمل في الدنيا ـ برحمته تعالى ـ سبباً في هذا النور عند الرجل من أهل الجنة ، كما جاء في هذا الحديث .

وفي خطوة أخرى على هذه الساحة من العطاء يوم الدين ، نقرأ قول البخاري في «باب الحور العين وصفتهن» من كتاب الجهاد في الجامع الصحيح : وقال ـ أي حُميد ـ: سمعت أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : « لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها . ولو أن امرأة من أهل الجنة اطّلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولملأته ريحاً ولنَصيفُها على رأسها ـ يعني خمارها ـ خير من الدنيا وما فيها » ورواه بنحوه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال : حدثنا محمد بن عبدالله الأنصاري قال: حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «موضع سوطٍ في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرؤوا إن شئتم: فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » وأخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي في «التلخيص» .

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره ما روى ابن مردويه عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها » . قال : ثم تلا هذه الآية ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ » .

هذا : وقد كان من هدي النبي ﷺ ، أن دلّ من كان يحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة على الذي يجب أن يصنعه في الدنيا، وأن تأتيه منيته وهو على ذلك. روى الإمام أحمد بسنده عن عبدالرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبدالله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » . وأنت واجد في نص الآية الكريمة ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ... ﴾ التي رأينا بعضاً من بيانها فيها ورد من الحديث ، تعزية لجميع الناس؛ إذ لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، كما أن فيها نوعاً من التكامل يشي بما هو كائن من قدر الله في خلقه في الحياة الدنيا وفيما بعد الموت ، كما يؤذن بالارتباط الوثيق بين العمل والتكليف في الدار العاجلة ، والمسؤولية في دار الجزاء، مع التنبيه على حقيقة الحياة الدنيا وأنها متاع الغرور .

يقول الحافظ ابن كثير : هذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدّر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية ، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها ، كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحد مثقال ذرة ، ولهذا قال : ﴿ **وإنما توفون أجوركم يوم القيامة** ﴾ .

هذا : والمعلم الواضح في حياة أمتنا، أن جيل الصحابة رضي الله عنهم - وهم يدخلون دخولاً أولياً فيما كان من بشريات للعاملين ، يجدونها يوم الفزع الأكبر - لم تقعدهم البشارة بالجنة عن المداومة على الطاعات وعمل الصالحات وارتياد ميادين الجهاد بأنواعه ، وكان التأسي بهم واضحاً عند الموفقين من الأجيال التي تبعتهم عبر التاريخ والحمد لله . وفي ذلك عبرة لمن اعتبر ، وتذكير للغافل وشد أزر للعامل الذي يرجو الله واليوم الآخر .

وهذه واحدة من وقائع كثيرة تدل على هذا الذي نقول ، وتشعر بأن المؤمن

الصادق لا يزيده الترغيب في الجنة والترهيب من النار ، إلا حرصاً على استدامة العمل في مرضاة الله تعالى والذود عن حياض الإسلام ، حتى يلقى ربه عز وجل وله جهاده وعمله الصالح ، ما يضمن له ـ بفضل الله ورحمته ـ النجاة من النار والفوز بالجنة دار المتقين .

فعن سهل بن عمرو بن عدي الأنصاري الحارثي المعروف بابن الحنظلية رضي الله عنه قال : « إنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين حتى كانت عشيةً ، فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ ، فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت على جبل كذا وكذا ، فإذا أنا بهوازن عن بَكْرة أبيهم. بظُعُنهم ونعمهم ونسائهم اجتمعوا إلى حنين ، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله تعالى ، ثم قال : من يحرسنا الليلة ؟ قال أنس بن أبي مرثَد الغنوي : أنا يا رسول الله ، قال : فاركب ، فركب فرساً ، فجاء إلى النبي ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : استقبل هذا الشِعبَ حتى تكون في أعلاه ولا تنزل من فرسك الليلة ، فلما أصبحنا خرج النبي ﷺ إلى مصلاه ، فركع ركعتين، ثم قال : هل أحسستم فارسكم ؟ قال رجل : يا رسول الله، ما أحسسنا ، فثوَّب بالصلاة ، فجعل رسول الله ﷺ ـ وهو يصلي ـ يلتفت إلى الشِعب ، حتى إذا قضى صلاته وسلّم قال : جاء فارسكم ، فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب ، فإذا هو قد جاء ، حتى وقف على رسول الله ﷺ ، فسَلّم فقال : إني انطلقت حتى كنت في أعلى الشِعب حيث أمرني رسول الله ﷺ ، فلما أصبحت طلعت الشِعبين كليهما ، فنظرت فلم أر أحداً ، فقال له رسول الله ﷺ : هل نزلت الليلة ؟ قال : لا إلا مصلياً أو قاضي حاجة ، فقال له رسول الله ﷺ: قد أوجبت ، فلا عليك أن لا تعمل بعدها » أخرجه أبو داود في الجهاد من السنن، وإسناده حسن حسّنه الحافظ ابن حجر في الفتح ونسبه المنذري للنسائي .

بَكرة أبيهم : يقال : جاء القوم على بَكرة أبيهم إذا جاؤوا بأسرهم ولم يتخلف منهم أحد . وثَوَّب بالصلاة : نادى إليها وأقامها .

هذا : وقد بشره النبي ﷺ جزاء حراسته وصدقه بقوله : « أوجبتَ ». يقال : أوجب فلان إذا فعل فعلاً وجبت له به الجنة أو النار ، والمراد به هاهنا الجنة، فهنيئاً له ورضي الله عنه وأرضاه .

فغيرَ سهامك أردنا.. واهاً لريح الجنة

ما زلنا مع الحقيقة التي يبدو المسلمون اليوم ـ وهم على الحال التي تبكي القلب ـ أحوج ما يكونون إلى تمثلها و إدراكها ؛ وهي أن الإيمان بما عند الله يوم القيامة لأهل الصلاح والجهاد في سبيل الله ـ على تنوّع ميادين هذا الجهاد ـ كان له أكبر الأثر في حياة المسلمين ؛ من حيث إيجابية العمل ، والحفاظ على سلامة المحور في تحريك دفة الحياة . وقد أعطى ذلك عطاءه العظيم على مستوى الفرد والجماعة والأمة ، فكانت العبودية الصادقة ، والعمل المثمر والإخلاص فيه ، والبناء الحضاري السليم المتكامل الذي يحقق كرامة الإنسان ، وسعادته في الدنيا، ويوم الدين .

حدّث الصحابي الجليل واثلة بن الأسقع قال : «نادى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فخرجت إلى أهلي فأقبلت وقد خرج أول صحابة رسول الله ﷺ ، فطفقت في المدينة أنادي : ألا من يحمل رجلاً له سهمه ؟ فإذا شيخ من الأنصار ، فقال : لنا سهمه على أن نحملَه عُقبةً وطعامه معنا ! فقلت : نعم ، قال : فسِر على بركة الله ، فخرجت مع خير صاحب، حتى أفاء الله علينا ، فأصابني قلائص ، فسُقْتُهنَّ حتى أتيته ، فخرج فقعد على حقيبة من حقائب إبله ثم قال : سقهنّ مدبِرات ، ثم قال : سقهنّ مقبلات فقال : ما أرى قلائصك إلا كراماً ، قلت : إنما هي غنيمتك التي شرطت لك ، قال : خذ قلائصك يا ابن أخي فغير سهامك أردنا » أخرجه أبو داود .

معنى لنا سهمه ، أي ما يكون له من غنيمة أوفيء ، أما الحمل عُقبةً : فيقال: حملتُ فلاناً عُقبةً إذا أركبته وقتاً وأنزلته وقتاً ، فهو يعقُب غيره في الركوب أي يجيء بعده . والقلائص جمع قَلوص وهي الناقة الشابة .

هكذا شرط الأنصاري رضي الله عنه على واثلة ،أن يحمله على مطيته من عنده إلى الميدان ، ولكن على أن يكون له سهمه ، وأن طعامه معهم. ووافق واثلة ، ولكن الذي حدث فيما بعد : أن الرجل أبى أن يأخذ ما حصل عليه واثلة من كرام القلائص وقال : خذ قلائصك يا ابن أخي ، فغير سهمك أردنا !! ما الذي أراده رضي الله عنه ؟ لقد أراد ما هو أسمى من النّوق في الدنيا ! لقد أراد الظفر بما يظفر به من صدقوا في بيع أنفسهم وأموالهم لله عز وجل ، من جنة المأوى والرضوان من الله . إنه مصدّق بما وُعد الباذلون في إعلاء كلمة الله من جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ؛ إنه مصدّق كل التصديق بما جاء في كتاب الله وبيَّنه رسول الله عليه الصلاة والسلام عما يكون من فضل الله في الآخرة على من يغزو في سبيل الله، أو يجهز غازياً ، أو يعين بأي وجه يستطيعه في هذه السبيل ؛ فموضع سوط المقاتل في الجنة خير من الدنيا وما فيها . وأثر ذلك على سلوك الأمة وقدرتها على البناء ، واضح في البذل وحشد الطاقات لتحقيق كلمة الله في الأرض ، فكان لها الوجود الذاتي وبناء تلك الحضارة المثلى في التاريخ .

ويسمو المؤمن بإيمانه وأهليته للسعادة يوم العرض الأكبر ، فتجده والجنة والنار بالنسبة إليه كأنهما رأي عين في الدنيا ، يبلغ به ذلك أن يشم رائحة الجنة وهو ما يزال في دار الفناء ، الأمر الذي يشعر بأن أهل الكرامة الأبرار وهم يساقون إلى الجنة زمراً نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، فيهم من لا يفجؤه ما صار إليه، ولكنه يحسُّ ـ كما وعد الله ورسوله ـ بفضل الله المتجدد وإنعامه على الصفوة من عباده في دار كرامته بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فطوبى للعاملين المخلصين الذين يزدادون كل يوم عملاً يقربهم من مولاهم عز وجل ، ويظفرون في الآخرة بمزيد من الفضل والإحسان . ونماذج ذلك كثيرة موفورة في التاريخ الإسلامي إلى يوم الناس هذا والحمد لله .

وفي مقدمة هؤلاء الصادقين المشوقين ما ثبت عن بعض الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم . أخرج الإمام البخاري بسنده في كتاب المغازي من الجامع

الصحيح قال : أخبرنا حسّان بن حسّان قال : حدثنا محمد بن طلحة قال : حدثنا حُميد عن أنس رضي الله عنه « أن عمه غاب عن بدر فقال : غِبت عن أول قتال النبي ﷺ ، لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرينّ الله ما أُجد ، فلقي يوم أحد ، فهزم الناس فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه ، فلقي سعد بن معاذ فقال: أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد ، فمضى فقتل ، فما عُرف حتى عرفته أخته بشامة ـ أو ببنانه ـ وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم ».

وجاء في رواية الترمذي « .. فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمروٍ أين؟ قال : واهاً لريح الجنة أجدها دون أحُد ، فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، فقالت عمتي الربيعُ بنت النضر :فما عرفت أخي إلا ببنانه ، ونزلت هذه الآية ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً ﴾ »

وكون هذه الآية نزلت في أنس بن النضر وأصحابه ـ كما نرى عند الترمذي ـ مما جزم به البخاري عند روايته للحديث في تفسير سورة الأحزاب من الجامع الصحيح . وجاء ذلك عند مسلم أيضاً ـ كما سنرى إن شاء الله ـ. وتحسن الإشارة هنا إلى ما ذهب إليه الإمام النووي (من أن قول أنس بن النضر : « واهاً لريح الجنة أجده دون أحد » محمول على ظاهره ، وأن الله تعالى أوجده ريحها من أرض المعركة، وقد ثبتت الأحاديث أن ريحها توجد من مسيرة خمسمائة عام) . وقال الحافظ ابن حجر :(يحتمل أن يكون ذلك على الحقيقة ، بأن يكون شم رائحة طيبة زائدة عما يُعهد ، فعرف أنها ريح الجنة ، ويحتمل أن يكون أطلق ذلك باعتبار ما عنده من اليقين ، حتى كأن الغائب عنه صار محسَّاً عنده . والمعنى : أن الموضع الذي أقاتل فيه يؤول بصاحبه إلى الجنة). وقال الإمام مسلم : حدثني محمد بن حاتم قال : حدثنا بهز قال : حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال : قال أنس: «عمي الذي سميت به ـ يعني أنس بن النضر ـ لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدراً ،

قال: فشق عليه ، قال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيبتُ عنه . وإن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها. قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد ، قال : فاستقبل سعد بن معاذ . فقال له: يا أبا عمرو أين ؟ فقال : واهاً لريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قتل . قال : فوجد في جسده بِضعٌ وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية ، قال : فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا ببنانه. ونزلت هذه الآية ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً ﴾ (الأحزاب : ٢٣) فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه ».

اللهم ألحقنا بعبادك الصالحين المجاهدين واجعلنا ممن يتبعون القول العمل ، كيما نفوز بدار كرامتك يوم اللقاء ..

إذا حدثت الأرض أخبارها بأن ربك أوحى لها ، وحشر علام الغيوب الناس ليوم الجمع لاريب فيه ، ورأيتهم يصدرون أشتاتاً ليروا أعمالهم .. هنالك يقول الكافر ــ وقد انخلع قلبه من الخوف ، وشهد يقيناً ما كذّب به من قبل ، وحقت عليه كلمة العذاب ـ : ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾. وهنالك تعلن ثمرات العبودية الخالصة لله في الحياة الدنيا ، والصدق في المواطن بين يديه سبحانه إعلانها ، بما يكون من مشهد تلك الزمر المباركة من أهل جنة الخلد ، وهم يدخلونها ـ مفتحةً لهم الأبواب ـ وتراهم وقد استنارت وجوههم ، وأشرقت نفوسهم بوافر الطمأنينة والرضى ، يستريحون للكلمات النورانية تبارك أسماعهم وتفرح قلوبهم ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ .

وفي ظل التواؤم بين دار العمل ودار الجزاء ، نقع على نماذج كثيرة من أهل هذا المشهد وأمثاله، في جيل الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان عبر تاريخنا الطويل ممن أيقنوا بتلك الحقائق ، وبادروا بما يتلاءم مع هذا اليقين، مسارعين في إتيان كل ما من شأنه ، بلوغ تلكم المنازل ، والحظوة بتلكم النعماء التي لا يقدرها حق قدرها إلا الموقنون المخلصون ، الأمر الذي ينبغي أن يثير كوامن الإيمان في الأجيال المتلاحقة لحسن التأسي .

قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا عفان قال : حدثنا حماد قال : أنبأنا ثابت وعلي بن زيد عن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن المشركين لما رهِقوا النبي ﷺ وهو في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، قال : من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة !! فجاء رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل ؛ فلما رهقوه أيضاً ، قال : من يردهم عني وهو رفيقي في الجنة ، حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ : ما

أنصفنا إخواننا » .

رهِقَه يرهَقُه رَهْقاً : غشيَه . ورهِقَه أيضاً : قرب منه .

وهذه الواقعة التي تحمل ما تحمل من حب الصحابة للرسول ﷺ والتصديق اليقيني بما بشر بـه من يـرد المشركين عنه بعد أن رهِقـوه المرة تلو المرة ، كـانت في « أُحد ». وهنيئـاً لهؤلاء السبعة الذيـن استُشهدوا بين يـديه عليه الصـلاة والسلام مبتسمين للموت، كيما يردوا عنه ﷺ أذى المشركين، وخطرهم المحدِق.. هنيئاً لهم ـ وقد صـدقوا في المبايعة ـ أن يكـونوا رفقاءه في الجنة وهم فيهـا خالدون ، والجزاء من جنس العمـل ؛ لقد صدّقوا وصـدقوا ، وافتدوا نبيهم عليـه الصلاة والسلام ـ وهو يقودهم في ميدان الفداء ـ بأنفسهم ، فكانت لهم تلك العاقبة الحسنة المشرقة كلّ الإشراق ، وأكرموا بذلك الفوز المبين .

ولأحمد في روايـة أخرى مطـوَّلـة ، تصريح بـأن ما حصـل كـان يوم أحـد كما سلفت الإشارة ، وهو ما نجد نحوه عند الإمام مسلم حيث روى بسنده عن أنس رضي الله عنه « أن النبي ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهِقوه قال : من يردهم عنا وله الجنة ؟ أو ـ وهو رفيقي في الجنة ـ فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل ، ثم رهِقوه أيضاً، فقال: من يردهم عنا وله الجنة؟ ـ أو وهو رفيقـي في الجنة ـ فتقـدم رجل من الأنصـار ، فقاتـل حتى قتل ، فلـم يزل كذلك حتى قتل السبعة . فقال رسول الله ﷺ : « ما أنصفنا أصحابنا » .

ومن رُزق الإيمان وهدي إلى سبيل الفاريـن إلى رب العالمين ، لا يتقاصر عن استذكار ما أشرت إليه غير مرة ، من التكامل الواضح ـ كما توحي النصوص ـ بين التصـديق الجازم بـالمغيّبات التـي جاء بها الخبر الصـادق ، والعمل بمقتضـاه في الحياة الـدنيا ، وبين ما يكون مـن العاقبة المبشَّر بها في دار الجزاء يوم يقـوم الناس لرب العالمين . فالحركة دائبة في تحقيق الصلة الجوهرية بين الأمرين جميعاً . وذلكم برهان الصدق والوفاء .

وما أحوج أمتنا اليوم ـ وقد خيّم ظلام الفتن المادية وتخلخلت المعايير والضوابط ـ إلى أن نضع هذه الحقيقة وأمثالها بجدٍ موضع الاهتمام البالغ ، بحيث تحظى بما تستحقه في مناهج التربية والتعليم والإعلام ، على صعيد العقيدة والعلم والعمل ، كيما يكون تطلعها ، إلى سلامة البنية عند الفرد وفي المجتمع ، وإلى مستقبل أفضل للأمة ـ والحال هي الحال ـ قائماً على أسس سليمة ، لا يعتورها خلل ولا تنبو عما تقتضيه الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وما لها من حق في السلوك والالتزام .

والحق أن النصوص التي نستضيء بمعانيها في هذه العجالة من القول ، صورة صادقة لهذا التكامل المومى إليه ... حتى كأن كل مشهد من مشاهدالبررة الخالدين في دار السلام ، ذو نسب أصيل ـ بعد فضل الله ورحمته ـ إلى ما كان عليه أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه في الميادين كلها ، رجالاً ونساءً في حياتهم الدنيا ، حيث ازدانت حياتهم ، بصادق الإيمان ، وصالح العمل ، والجهاد في سبيل الله ـ على أي ثغر كانوا من ثغور الإسلام ـ وكانوا بعد ذلك على ذكر دائم من اليوم الذي لا ريب فيه ، اليوم الذي يتحقق فيه موعود الله ، وموعود رسول الله ﷺ ـ وهو يؤدي أمانة البلاغ المبين ـ ناهيك عن يقينهم بأن وعد الله حق ، وأن وعد رسوله حق ، وأنهم في موقفهم من البشارة والنذارة على هذا الصعيد ، مطمئنة قلوبهم غاية الاطمئنان ، حتى كأنهم يرون ما أشرقت به آي الكتاب العزيز وأحاديث النبي ﷺ من أمور الغيب ، واقعاً في عالم الشهادة بلا ريب .

وفي كلام موصول بدلالة ما وقع في المرحلة الثانية يوم أحد ، على يقين أولئك الصفوة المجاهدين ، بوقوع بشارة النبي ﷺ ، بمرافقته في الجنة والمسارعة في الاستجابة ، تصديقاً بوعده عليه الصلاة والسلام ، أن من يرد المشركين عنه وعمن معه في تلك الساعات العصيبات ، فله الجنة ، يكون فيها رفيقه يوم الدين ... في كلام موصول بذلك : نقرأ ما روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنه قال: « لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يدي النبي

ﷺ، مجوَّب عليه بجَحَفَـة ، وكان أبـو طلحة رجـلاً رامياً شـديد النـزع . لقد كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، وكان الرجل يمر معه الجَعْبَة من النبل فيقول : انشُرها لأبي طلحة. قال : ويُشرف النبـي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة : يـا نبي الله بأبي أنـت وأمي ، لا تُشرفْ يُصبـك سهـم من سهـام القـوم ، نحري دون نحـرك..» الحديث . وفي رواية للبخـاري: « كان أبو طلحة يتترَّس فينظر إلى مـوضع نبله » . مجوّب عليه : أي سا ترله ، قاطع بينه وبين الناس .

والجَحَفَة : الترس الصغير يطارق بين جلـدين . والجَعبة ـ بفتح الجيـم ـ التي يكـون فيها السهـام تتخذ مـن الجلود . وقـوله : يُشرف . الإشراف : الاطـلاع على الشيء ، إذ كان النبي ﷺ يطَّلع أين موضع نبل أبي طلحة .

هكذا يبـدو التكامـل بين ما تشرق بـه زمر أهـل الجنة ، ومـواكب الأبـرار في عليين، وبين تلكم الوقائع التي أسهمت أيّما إسهام في نصرة الدعوة وبناء حضارة الإسلام حيث تعمـل أخبار الرسول ﷺ عـن دار الخلد ـ خير مستقرٍ ـ عملها في إثارة كوامـن الإيمان، والمسارعة إلى البذل ـ ولـو كان جوداً بالنفـس ـ في سبيل الله ودفاعاً عن صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه ، حرصاً على بيضة الإسلام أن ينالها الأعداء بالسوء الذي يريدون .

وهذه صورة أخـرى ، تؤكد أثر بشـارة النبي ﷺ من يصدق في المواطـن بدار النعيم، وأن يكون في تكرمة تجِلُّ عن الوصف ، وهي صحبته عليه الصلاة والسلام هناك ... أجل ؛ تؤكد أثرها في تلكم الوقفـات التي عبّدت الطريق لدعوة الإسلام وحضارة الإسلام . أخـرج النسـائي بسنده عن جابر بـن عبدالله رضي الله عنهما أنه قال : « لما كـان يوم أحد وولى الناس ، كـان رسول الله ﷺ في ناحيـة في اثني عشر رجلاً من الأنصار فيهم طليحة بن عبـدالله ، فأدركهم المشركون فالتفت رسول الله ﷺ فقال : من للقـوم ؟ فقال طليحة: أنا ، فقال رسـول الله ﷺ : كما أنت ، فقال رجل من الأنصـار : أنا يا رسول الله ، فقال: أنـت ، فقاتل حتى قتـل ، ثم التفت

فإذا المشركـون ، فقال : من للقـوم ؟ فقال طليحـة : أنا ، فقال : كما أنـت ، فقال رجل مـن الأنصار : أنا يا رسـول الله ، فقال: أنت ، فقـاتل حتى قتل . ثـم لم يزل يقول ذلك، ويخرج لهم رجل من الأنصار ، فيقاتل قتال من قبله ، حتى بقي رسول الله ﷺ وطليحة بن عبـدالله ، فقال رسول الله ﷺ من للقوم ؟ فقـال طُليحة : أنا ، فقاتل طُليحة قتال الأحد عشر حتى ضربـت يده فقطعت أصابعه فقال : حَسٍّ ، فقال رسول الله ﷺ ، لـو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والنـاس ينظرون ، ثم رد الله المشركين » .

حَسٍّ : كلمة تقال عند التوجع .

صلى الله وسلم وبـارك على من جاهـد في الله حق جهاده حتـى أتاه اليقين ، وهنيئاً لمن فدوه بـأنفسهم وفازوا برفقتـه المباركة في الجنة ، ورضي الله عـن أصحابه أجمعين ، أولئك الذين آمنوا به وعـزروه ونصروه بأموالهم وأنفسهـم ، وعلى من أخذ نفسه بنهجهم القويم إلى يوم التناد .

يا أهل الجنة لا موت.. ويا أهل النار لا موت

ما ازداد المؤمن صلة بحديث خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، في فهم صحيح وإدراك واعٍ لمرامي كلامه في بيان الكتاب العزيز وتفصيل المنهج الرباني، إلا ازداد يقيناً على يقين بأنه عليه الصلاة والسلام ، لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، حتى أدى الأمانة التي كلف أداءها خير ما يكون الأداء ، وبلغ الرسالة التي اؤتمن على تبليغها خير ما يكون التبليغ .

أقول هذا ، وما يزال حديثنا متصلاً بالكلام على بعض من مشاهد القيامة فيما أخبر به عليه الصلاة والسلام ، وبين يديَّ نصوص مباركة من الهدي النبوي ـ والهدي النبوي مبارك كله ـ تكشف عن تقرير وتأكيد حقيقةٍ نطق بها الكتاب العزيز في العديد من المواطن ، وهي قضاء الله بالخلود فيما ينتهي إليه حال المرء في دار القرار ؛ إذ يقال لأهل الجنة : خلود فلا موت ، كما يقال لأهل النار : خلود فلا موت .

جاء في كتاب التفسير من الجامع الصحيح للإمام البخاري عند تفسير قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ قوله رحمه الله : حدثنا عمر بن حفصٍ بن غياث قال : حدثنا أبي قال : حدثنا الأعمش قال : حدثنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي مناد : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي

الأمر وهم في غفلة ـ و هؤلاء في غفلة أهل الـدنيا ـ وهم لا يؤمنون ﴾. وجاء اللفظ في إحدى الروايات عند مسلم « يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار .. وفي آخر الحديث : «ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾** وأشار بيده إلى الدنيا ».

وأوضحت بعض الـروايات ما يكون مـن زيادة الفرح عند أهـل الجنة ، ومن زيـادة الحزن عنـد أهل النـار فقـد جـاء عنـد البخـاري ومسلم : « فيـزداد أهـل الجنةفـرحاً إلى فرحهـم ويزداد أهل النار حُـزْناً إلى حزنهم » كما نجـد عند أحمد في المسند « فـازداد أهل الجنة فـرحاً إلى فرحهم وازداد أهـل النار حزنـاً إلى حزنهم » . وجاءت الرواية عند الترمذي بلفظ « ... فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة، ولو أن أحـداً مات حزنـاً لمات أهل النار » قـال أبو عيسـى : هذا حديـث حسن صحيح، وقـال الإمام مسـلم في كتاب صفـة الجنة ونعيمها وأهلها مـن صحيحه : حدثنا زهير بن حرب والحسن بن علي الحلـوانيُّ وعبد بن حميد (قال عبد : أخبرني وقال الآخران : حدثنا) يعقوبُ ـ وهو ابن إبراهيمَ بن سعيدٍ ـ قال : حدثنا أبي عن صالح قال : حـدثنا نافع أن عبدالله قال : إن رسول الله ﷺ قـال : يُدخل الله أهل الجنة الجنةَ ، ويُدخل أهلَ النار النارَ ، ثم يقومُ مؤذن بينهم فيقول : يا أهل الجنة لا موت ، ويا أهل النار لا موت ، كلٌ خالد فيما هو فيه ».

ولا يخفى أن لهذه النصوص دلالتهـا ، في حفز المؤمن على المزيد مـن الطاعة وأخذ النفس بمنهج أهل التقوى ،والبعد عـن طرائق الغافلين كيما يظفر ـ بفضل الله ـ بـالجنة والخلـود فيها ، كما أن لها دلالتهـا في تذكير الغـافلين الذيـن همُّهم أن يرتعوا هنا وهناك ساهين لاهين عما ينتظرهم يوم الحسرة ـ إن هم أقاموا على ذلك ـ من سوء المصير .

ولكم يحسـن المؤمن صنعاً إذا اتخذ مـن الهدي النبوي على ساحـة التذكير بما يكـون يوم الحسـاب ، باعثـاً متجدداً على مضـاعفة العمـل ، وتجويده ، وتحقيـق

الإخلاص فيه ـ على تنوع ميادين العمل ـ ذاكراً أن الآخرة هي الحياة الحقيقية التي يجب على المؤمن أن لا يغفل عنها ، وهو حين يفعل ذلك ، يكون على المحجة البيضاء من هدي الكتاب والسنة ، وتكون له عقبى البررة الأخيار في جنة الخلد التي وُعدأحباب الله المحسنون .

وليس من مكرور القول ، التذكير بما يكون لهذا النهج القويم في المعتقد والسلوك ، من أثر مجيد طيب في حياة المجتمع والأمة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

هذا : وقد جاء الكلام على خلود أهل الجنة في أحاديث أخر ، ضمن ألوان من الفضل التي يكرم الله بها عباده الأبرار في دار النعيم . أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «ينادي منادٍ إنَّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيَوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشِبّوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعَموا فلا تبأسوا أبداً » ـ وفي رواية «فلا تبتئسوا» ـ فذلك قوله عز وجل : ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾».

سبحان المنعم المتفضل ، هكذا يبين الرسول عليه الصلاة والسلام أن العلاقة وثيقة بين هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف ، وبين تلكم الألوان من العطاء الإلهي في الجنة ، كما كشف صلوات الله وسلامه عليه عن الارتباط بين ما قدّم أهل الاستقامة في الدنيا ، وبين ما أكرمهم الله به في الآخرة ، بأن أورثهم الجنة برحمته، وعمَّهم بإحسانه الغامر من خزائن الفضل التي لا تنفد ، ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ . والحديث رواه الترمذي ، ولكن جاءت الإشارة في آخر الرواية إلى آية الزخرف ، وهي قوله تعالى : ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ قال رحمه الله : حدثنا محمود بن غيلان وغير واحد قالوا : حدثنا عبدالرزاق قال: أخبرنا الثوري قال : أخبرني أبو إسحاق أن الأغرَّ أبا مسلم حدثه عن أبي سعيد

وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ينادي منادٍ إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ » قال أبو عيسى : وروى ابن المبارك وغيره هذا الحديث عن الثوري ولم يرفعه.

هذا : وقد أخرج مسلم الحديث أيضاً برواية فيها بعض الإيجاز ، إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من يدخل الجنة ينعَم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » .

وتحت « باب من يدخل الجنة ينعم لا يبأس » أخرج الدارمي في سننه بسنده عن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من دخل الجنة ينعَم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، وفي الجنة ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ».

وفي خاتمة المطاف : أجد من الخير إيراد الحديث الذي أديرَ الكلام على الحقيقة التي كشف عنها ـ وهي الخلود ـ كما رواه ابن أبي حاتم في تفسيره موقوفاً على عبدالله بن مسعود ؛ ففي هذه الرواية مزيد من البيان يعين على استجلاء المعنى المقصود ، ذلك قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، أتي بالموت في صورة كبش أملح ، حتى يوقف بين الجنة والنار ، ثم ينادي منادٍ : يا أهل الجنة هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا ، فلا يبقى أحد في أهل عليين ولا في أسفل درجة من الجنة إلا نظر إليه ، ثم ينادي : يا أهل النار هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ، ولا في أسفل درْك من جهنم إلا نظر إليه ، ثم يذبح بين الجنة والنار ، ثم ينادى : يا أهل الجنة هو الخلود أبد الآبدين ، ويا أهل

النار هو الخلـود أبد الآبدين . فيفرح أهل الجنـة حتى لو كان أحد ميّتـاً من الفرح ماتوا ، ويشهـق أهل النار شهقة حتى لو كـان أحد ميتاً من شهقة ماتـوا ، فذلك قوله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر﴾ ، يقول : إذا ذبح الموت » .

ومعلـوم أن هذا الحديـث الموقـوف على ابن مسعـود رضي الله عنـه له حكـم المرفوع إلى النبي ﷺ لأنـه ليس مما يقال من قبـل الرأي ، بل لا بد فيه مـن توقيف صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام .

هدانا الله جميعاً لما فيه صلاح القول والعمـل ، وكتبنا عنده من الفائزين بدار المقامة في الخالدين .

جنات النعيم.. وسلوك البررة الأتقياء

بين أهل العزائم في طاعة الله ، المشمرين صادقين للجنة دار المخلصين في طلب أن يكونوا مع الأبرار في مقام أمين ... بين هؤلاء المشوقين إلى تلكم المنازل في عليائها ، وبين ما أخبر به رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام ــ بياناً للكتاب العزيز عما يكون في دار الخلود لأهلها يوم الوعيد ـ آصرة، كلما ربا الإيمان في القلب، اشتدت واستنارت ، وكانت حافز خير وبركة على الثبات على الحق في نصرة الدين، ومضاعفة النصب ـ دونما حرج في النفس ـ طاعة لله وتقرباً إليه ، على تعدد الثغور في ذلك والميادين ، علماً وعملاً وجهاداً وصبراً على البلاء ، وطمعاً فيما عند الله في الآخرة التي هي خير لأولى النهى ، ﴿ يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه ﴾ ويحشر المتقون إلى الرحمن وفداً .

ذلك بأنه جاءهم ما أيقنوا معه أن ذلك هو الطريق ــ بتوفيق الله ـ إلى سلعة غالية ، هي سلعة الله ، وسلعته ـ جل شأنه ـ الجنة.

وما دام الأمر كذلك : فليعدّوا لهذا الأمر الجلل عدّته ، وليربؤوا بأنفسهم عن السقوط في مهواة الاغترار بزخرف العاجلة ، أو الركون إلى الشهوات التي حفت بها النار ، والجزع من المكاره التي حجبت بها الجنة على تلك الطريق .

فمن صدّق بما جاء عن الله ورسوله في شأن ما بعد انقضاء الحياة ، ويوم يقوم الأشهاد ، أحسن في أخذ الأهبة للرحيل ـ شأن من يعقلون عن الوحي وكلماته الهاديات ـ ولم يدع أن يتزود للرحلة إلى دار باقية هي دار القرار .

ومن كانوا على هذه الشاكلة ـ إخلاصاً لله في الدين ،وإيماناً يصدقه عمل المخبتين ـ تراهم كما ينصحون لأنفسهم بالتزام هذا المنهج المبارك ، يحرصون على النصح لإخوانهم المؤمنين ، بدعوتهم إلى كل ما فيه النجاة من عذاب الله يوم

اللقاء ، والفوز برضوانه الأكبر في المقام الأمين . روى أبونعيم في كتابه « حلية الأولياء » بسنده عن صفوان بن عمرو قال : حدثنا أبو سعيد الوهبي عن سلمان الخير ، وهو الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : « إنما مثل المؤمن كمثل مريض مع طبيبه الذي يعلم داءه ودواءه فإذا اشتهى ما يضره ، منعه وقال : لا تقربه فإنك إن أصبته أهلكك ، ولا يزال يمنعه حتى يبرأ من وجعه . وكذلك المؤمن يشتهي أشياء كثيرة مما فُضل به غيره من العيش، فيمنعه الله إياه ويحجزه عنه، حتى يتوفاه فيدخله الجنة ».

وهذا واضح من سلمان رضي الله عنه في الإرشاد إلى الرضى ـ أبداً ـ بحكم الله عز وجل ، لما أنه أعلم بما يصلح أمر عباده ، و إلى التماس الطريق التي تحسن من ورائها العاقبة يوم الفصل ، الذي هو ميقات الخلق أجمعين ، فيكون المؤمن بتقواه وصبره ـ بعد فضل الله سبحانه ـ من أهل جنة المأوى ، وذلك قوله رضي الله عنه : « ... حتى يتوفاه فيدخله الجنة ».

كما جاء في « الحلية » عن جعفر بن برقان قال : بلغنا أن سلمان الفارسي رضي الله عنه تعالى عنه كان يقول : « أضحكني ثلاث وأبكاني ثلاث ؛ ضحكت من مؤمل في الدنيا والموت يطلبه ، وغافل لا يُغفَل عنه ، وضاحك ملء فيه ، لا يدري أمسخطٌ ربَّه أم مُرضيه . وأبكاني ثلاث ؛ فراق الأحبة محمد وحزبه ، وهول المطَّلع عند غمرات الموت ، والوقوف بين يدي رب العالمين ، حين لا أدري إلى النار انصرافي أم إلى الجنة ».

والحق أن هذا كلام من تربى في مدرسة النبوة ، فشهد متَنزّل الوحي ، وعقل عن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يريده من البلاغ المبين في تربية الفرد والجماعة على اليقظة الأخروية ، والبعد عن الغفلة ، وكل ما يؤدي إلى الوقوع فيها ، أو الركون إلى أهلها المقيمين عليها ممن غرتهم الحياة الدنيا ، وغرهم بالله الغرور .

وتحيةً ندية بالتوقير والمحبة للتابعين للصحابة بإحسان ؛ الذين كانوا ينتفعون

لعقباهم بهذا التوجيه النيِّر وأمثاله ، من أولئك الذين صدقوا في صحبة نبيهم والأخذ عنه والتأسي به ، ولم يألوا جهداً في تبليغ ما أخذوا ، وأداء الأمانة التي حمِّلوها ، بما رزقهم الله من تلك الصحبة التي لاتنقطع آثارها الطيبة في الأمة إلى يوم الدين .

وما من ريب في أن المحروم ، من لم يرفع بها يبلغه على هذا الصعيد رأساً ، ولا ينتفع بما جاءه من البينات والهدى ، ويلهيه الشيطان عن الاعتبار بسراء أو ضراء؛ فلا يوقظه البلاء ، ولا تستثير شكره النعماء . أخرج أبو نعيم في الحلية بسنده عن عمارة عن سعيد بن وهب قال : دخلت مع سلمان رضي الله عنه على صديق له من كندة يعوده ، فقال له سلمان : « إن الله تعالى يبتلي عبده المؤمن بالبلاء ، ثم يعافيه، فيكون كفارة لما مضى ، فيستعتِب فيما بقي . وإن الله عز اسمه يبتلي عبده الفاجر بالبلاء ، ثم يعاقبه ، فيكون كالبعير عقله أهله ثم أطلقوه ، فلا يدري فيم عقلوه حين عقلوه ، ولا فيم أطلقوه حين أطلقوه ».

يستعتِب : يرجع عن الإساءة . ويرجو العتبى : الرضا والعفو . ولله سبحانه العتبى حتى يرضى .

أما أهل السعادة والتوفيق : ـ وهو سمة السلف الصالح ـ فقد درجوا على الاستمساك بالمعايير التي تضع ما أعدَّ الله في الآخرة لعباده المحسنين بالحسبان ، فكان أحدهم يفرح أشدَّ الفرح ، إذا وفّق للعمل الذي يكون له نوراً يوم الحساب . ولا يقعد بوجه عن سلوك الطريق التي تجعله ـ بفضل الله ـ ممن تسبق لهم الحسنى فيكونون عن النار مبعدين ، وفي دار السلام جنةِ عدن خالدين .

جاء عن الحسن البصري رحمه الله ـ كما ذكر أبو نعيم والذهبي وغيرهما ـ قوله: « إن لله عز وجل عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلَّدين ، وكمن رأى أهل النار في النار مخلّدين . قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، حوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة . صبروا أياماً قصاراً تُعقب راحة طويلة . أما الليل : فمصافّة

أقدامُهم ، تسيل دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى ربهم : ربَنا ربَنا . وأما النهار: فحلماء علماء ، بررة أتقياء ، كأنهم القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، أو خولطوا ، ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم ». ومن كلامه رحمه الله في أولئك السعداء قوله : « والله ما تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الجنة ، حين أبكاهم الخوف من الله تعالى » .

وذكر العلماء في ترجمة التابعي الجليل العلاء بن زياد يرحمه الله : «أنه عندما أتاه رجل من أهل الشام يريد الحج ، وقصّ عليه رؤيا تبشره أنه من أهل الجنة إن شاء الله ، دخل عليه من الفرح بفضل الله ، والتواضع والذلة بين يديه سبحانه، ما الله به عليم . يقول هشام بن زياد العدوي راوي الخبر : « .... ودخل الرجل وبشره برؤياه ، ثم خرج فركب، وقام العلاء فأغلق بابه، وبكى ثلاثة أيام ـ أو قال: سبعة أيام ـ ... إلى أن قال : فسمعته يقول في خلال بكائه : أنا أنا ـ يعني أنا من أهل الجنة ـ ؟ . ويبدو أنه لم يخرج إلى الناس حتى جاء الحسن البصري رحمه الله ، فضرب عليه بابه وقال : افتح يا أخي . فلما سمع كلام الحسن ، قام ففتح بابه ، وبه من الضر شيء الله به عليم ؛ فكلمه الحسن ثم قال : رحمك الله ، ومن أهل الجنة إن شاء الله ، أفقاتل نفسك أنت ؟ قال هشام : حدثنا العلاء لي وللحسن بالرؤيا ، وقال : «لا تحدثوا بها ما كنت حياً » .

ومن المعلوم يقيناً ـ أن الصحابة عليهم الرضوان ـ بما فهموا من أمر الآخرة فهم الموقن المطمئن ، وتأسَّوا برسول الله ﷺ عن رضى ـ كانوا السبّاقين إلى ترجمة الأقوال إلى أفعال ، والانطلاق بعزيمة صادقة في طلب ما عند الله من الفضل يوم الدين ... طلبوه بالإيمان الخالص ، والعمل الصالح ، والجهاد في سبيل الله ، والاحتكام إلى شرع الله وما جاءهم به محمد ﷺ من عند ربه في كل الشؤون. ناهيك عن لجوئهم إلى مولاهم بالضراعة والتخشع بين يديه ، فليلهم قائم، ونهارهم صائم ، أو دائب في العمل وفق شرع الله والجهاد في سبيل الله ؛حتى قيل فيهم : رهبان بالليل أسود بالنهار .

ولعل مـن الخير والاستزادة مـن النفع ، أن أعيـد إلى الأذهان ، مـا روى ابن ماجة والبزار وابن أبي الدنيا وابن حبان والبيهقي ـ على مقال لبعض أهل العلم في أحد رواة الحديث ـ عن كريب أنه سمـع أسامة بن زيد رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل مشمر للجنة ، فـإن الجنة لا خطر لها . هي ورب الكعبة نـور يتلألأ وريحانـة تهتز ، وقصر مشيـد ، ونهر مضطرد ، وثمـرة نضيجة ، وزوجـة حسناء جميلة ، وحُلـل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة وفـاكهة وخُضرة وحَبْرة ، ونعمة في محلّـة عالية بهيـة . قالوا : نعم يـا رسول الله ، نحن المشمـرون لها . قال : قولوا : إن شاء الله ، فقال القوم : إن شاء الله ».

لاخطر لها : لا عوض لها ولا مثل . والله أعلم .

ما يتفضل الله به على أهل التقوى والإنابة من عباده في دار المقامة التي يُحلُّهم فيها ـ برحمته ـ مفتحةً لهم الأبواب ﴿ **خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً** ﴾ يعزّ على الحصر ، وحسبك أنه لاتعلم نفس ما أخفي لهم فيها من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون . فالعطاء الإلهي هناك أعلى وأغلى من أن يحيط به الإنسان . ويزداد هذا الفضل حتى يبلغ أن يقول الحق عز وجل لأهل الجنة : « أنا أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً ». وقد أوردت في عدد من المناسبات بعضاً مما جاء من الأحاديث التي تبرز صوراً من الكرم الإلهي تشهده الخلائق في دار القرار ، ومن تلك الصور الناطقة ببيان ما جاء في كتاب الله تعالى من مثل قوله عز وجل في سورة السجدة : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ ما نجد فيما روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : قال النبي ﷺ : « إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسَعْديك والخير في يديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ ـ وفي رواية أنا أعطيكم أفضل من ذلك ـ فيقولون : يارب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً ».

وها نحن أولاء مع لون من ألوان الإحسان ، مردُّه إعطاء واحد من أهل الجنة ـ يحب أن يزرع ـ ما يحقق رغبته وما يتمنى. ففي « باب كلام الرب مع أهل الجنة» من كتاب التوحيد في الجامع الصحيح ، روى البخاري بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يوماً يحدث ـ وعنده رجل من أهل البادية ـ : أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال : أولستَ فيما شئتَ ؟ قال: بلى،

ولكن أحب أن أزرع ، فـأسرع وبذر ، فتبادرَ الطرفَ نباتـه واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال ، فيقول الله تعالى : دونـك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء . فقال الأعـرابي : يا رسول الله لا تجد هذا إلا قـرشياً أو أنصارياً ، فـإنهم أصحـاب زرع ، فـأمـا نحـن : فلسنـا بـأصحـاب زرع ، فضحـك رسـول الله » وفي روايـة : «فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ».

قال العلماء في قولـه : «فأحب أن أزرع فأسْرَعَ » فيـه حذف تقديره : فـأذن له فزرع فأسرع . وفي كتاب الحرث والمزارعة من الجامع الصحيح جاءت الرواية عند البخاري بلفظ : «.. قال : فبذر فبادر الطرفَ نباتُه واستواؤه واستحصاده ، فكان أمثالَ الجبال ، فيقول الله : دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء ، فقال الأعرابي: والله لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً ، فإنهم أصحاب زرع فضحك النبي ﷺ ».

أرأيت إلى هذا الكرم الرباني في جنة الخلد !! قال الحافظ ابن حجر . (في هذا الحديث مـن الفوائد أن كل ما اشتُهـي في الجنة من أمور الـدنيا ممكن فيها ؛ قـاله المهلب . وفيـه وصف النـاس بغالب عـاداتهم قاله ابـن بطال . وفيـه أن النفوس جبلت على الاستكثـار من الدنيا . وفيـه إشارة إلى فضل القناعـة وذم الشره . وفيه الإخبار عن الأمر المحقق الآتي بلفظ الماضي).

ونترك هذا الرجل الذي رأينا من إكرام الله له بتحقيق رغبته في الزرع ما رأينا ، إلى رجلين آخرين يسأل الأول منهما عن الخيل في الجنة ، ويسأل الآخر عن الإبل ، ويبشرهما رسول الله ﷺ بما يكون من إحسان الله وكرمه يومذاك ؛ ففي «باب ما جاء في صفة خيـل الجنة » مـن كتاب صفة الجنـة من جامـع الترمذي « السنـن » قال الترمذي : حدثنا عبـدالله بن عبدالرحمن قال : أخبرنا عاصم بـن علي قال : حدثنا المسعودي عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن يزيد عن أبيه « أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : يارسـول الله، هل في الجنة من خيل ؟ قال : إن الله أدخلـك الجنة ، فلا تشاءُ أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك في الجنة حيث شئت. قال:

وسأله رجل فقال : يا رسول الله هل في الجنة من إبل ؟ قال : فلم يقل له مثل ما قال لصاحبه . قال : إن يُدخلْك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذّت عينك » ثم قال أبو عيسى : حدثنا سويد بن نصر قال : أخبرنا عبدالله بن المبارك عن سفيان عن علقمة عن مرثَد عن عبدالرحمن بن سابط عن النبي ﷺ نحوه بمعناه ، وهذا أصح من حديث المسعودي ..

وتحسن الإشارة هنا ، إلى أن هذا العطاء الذي يعجز البشر عن أن يقدروه قدره ـ وما كان عطاءُ ربك محظوراً ـ مضموم إليه الخلود في الجنة الذي يقابله خلود أهل النار في النار ـ كما هو معلوم ـ وذلك فضل عظيم ، على فضل مِثله لأهل التقوى ، ممن له ملك السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير .

من أجل هذا : كان من الخير أن أعيد إلى الأذهان ما يؤكد الحقيقة المتحدَّث إليها ، فأورد رواية الترمذي التي اشتملت على عدد آخر من المكرمات بجانب ما سبق ، وكل ذلك من فيض إكرام الكريم المنان سبحانه وتعالى . أخرج الترمذي بسنده عن العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يطّلع عليهم رب العالمين فيقول: ألا يتبع كل إنسان ما كانوا يعبدونه ، فيمثَّل لصاحب الصليب صليبه، ولصاحب التصاوير تصاويره، ولصاحب النار ناره ، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقى المسلمون ، فيطَّلع عليهم رب العالمين ، فيقول : ألا تتبعون الناس ؟ فيقولون: نعوذ بالله منك ، الله ربنا ، هذا مكاننا حتى نرى ربنا ، وهو يأمرهم ويثبتهم، ثم يتوارى ثم يطّلع فيقول : ألا تتبعون الناس؟ فيقولون : نعوذ بالله منك: الله ربنا ، وهذا مكاننا حتى نرى ربنا وهو يأمرهم ويثبتهم . قالوا : وهل نراه يا رسول الله؟ قال: وهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله، قال: فإنكم لا تضارّون في رؤيته تلك الساعة ، ثم يتوارى ، ثم يطّلع فيعرفهم نفسه ، ثم يقول: أنا ربكم فاتبعوني ، فيقوم المسلمون ويوضع الصراط ، فيمرون عليه مثل جياد الخيل والركاب ، وقولهم عليه : سلّم سلّم ، ويبقى أهل النار

فيطرح منهم فيها فوج ، ثم يقال : هل امتلأت؟ فتقول : ﴿ هل من مزيد ﴾ ؟ ثم يطرح فيها فوج فيقال : هل امتلأت ؟ فتقول : هل من مزيد ؟ حتى إذا أوعبوا فيها وضع الرحمن قدمه فيها وأزوى بعضها إلى بعض ، ثم قال : قطْ . قالت : قطْ قطْ ، فاذا أدخل الله أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : أتِي بالموت ملبَّباً فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، فيطلعون خائفين ، ثم يقال: يا أهل النارِ ، فيطّلعون مستبشرين يرجون الشفاعة ، فيقال لأهل الجنة وأهل النار : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون ـ هؤلاء وهؤلاء ـ قد عرفناه ، هو الموت الذي وكلّ بنا ، فيُضجَع فيذبح ذبحاً على السور الذي بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود لا موت ويا أهل النار خلود لا موت ». قال أبو عيسى : (هذا حديث حسن صحيح . وقد روي عن النبي ﷺ روايات كثيرة مثل هذه يذكر فيها أمر الرؤية وأن الناس يرون ربهم ، وذكر القدم وما أشبه هذه الأشياء .

والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وابن المبارك وابن عيينة ووكيع وأحمد وغيرهم ، أنهم رووا هذه الأشياء ثم قالوا: نروي هذه الأحاديث ونؤمن بها ولا يقال: كيف؟ وهذا الذي اختاره أهل الحديث؛ أن تروى هذه الأشياء ويؤمن بها ولا تفسَّر ولا تتوهّم ، ولا يقال: كيف؟ وهذا أمر أهل العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه؛ فلا تعطيل ولا تأويل ولا تكييف)

ومعنى قوله في الحديث : فيعرفهم نفسه : يعني يتجلى لهم .

هكذا نرى أن كل ما أعدّ الله للأبرار من النعيم ــ على اختلاف صوره وتعدد أنواعه وألوانه ــ مضموم إليه أن هؤلاء المنعم عليهم ، خالدون فيما هم فيه من ذلك الفضل العظيم المتجدد .

ولله الحمد في الأولى والآخرة وصلى الله وسلم على نبينا الهادي إلى سبيل الرشاد في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

عمر بن عبدالعزيز والعقبى..

المسلك الصحيح

الذيـن تعمل أخبـار القيامـة ـ بشـارّة ونذارةً ـ عملها في نفـوسهم ، تستنير بصائرهم، وتصلـح معاييرهم عند النظر فيها ما هـو من عمل الدنيا ،ومـا هو من عمل الآخـرة ؛ فالـدنيا متاع زائل ، والآخـرة خير وأبقى . من أجـل هذا : تـراهم يستزيدون ممـا أخبر به الصادق المصدوق بيـاناً لكتاب الله عز وجـل ، عما أعدّ الله لعباده الأتقياء الأنقياء في جنـات النعيم، وما يُفيض عليهم من كـرمه وإحسانه ، ويُجزل لهم من العطاء الذي لا تبلغ العقول البشرية مداه . ويهولهم ما توعَّد به من جانبوا الحق وغرتهم الحياة الدنيا وغرَّهـم بالله الغرور . وهذا هو المسلك الصحيح الذي يُسلم صاحبه ـ بفضل الله ـ إلى عقبى الدار .

وإنها كان ذلـك ؛لأن آثار الوعد والـوعيد متجددة في حياة المؤمـن، تنعكـس على مفهوماتـه وسلوكه ، فواجـب عليه ـ وهو يـواجه تلكم الحقائق النـاصعة عما يكون بعد الموت ، ومـا يفوز به أهل الطاعـة والإنابة من النعيـم الذي لا ينفد ولا ينقطع، ومـا ينال أهـل الضلال والظلم الـذين حقت عليهـم كلمة العـذاب من الخزي والخلود في دار الجحيـم ـ واجـب عليه والأمـر كذلـك ، أن يجفو التراخـي والكسل ، وينهد بعزيمة أولي الألباب ، وهمة الصـادقين الصابرين ، إلى الإحسان في التزود والإقبال على الله تعـالى بدأب لا يعرف الكلال، وشـوق متجدد إلى ذلك النزل الكريـم ، نزلِ الأبرار الفائزين بـدار المقامة التي لا يسمعـون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً .

ولقد درج سلف هذه الأمة ـ والخير متجدد إن شـاء الله ـ من بُناة تاريخ أمتنا وحضارتها الإنسانيـة الكريمة ، على أخذ أنفسهم بما تقتضيـه تلك الحقائق ، مهما كان الثغـر الذي كـان عليه الواحـد منهم ؛ حـاكماً أو محكومـاً ، غنياً أو فقيراً ، ذا

منصب وجاه ، أو غير ذي منصب وجاه ، بل وتوجيه الأمة إلى التزامها بغيرة صادقة ، وحرقة على المسلم أن يفقد سلامة السلوك في الدنيا ، فلا يكون لبنة صالحة في المجتمع المسلم ، وطاقة فاعلة في كيان الأمة ، وبعد ذلك يكون مآله في الآخرة عذاب السعير . قال أبو نعيم الأصبهاني في «الحلية»: حدثنا محمد بن أحمد قال : حدثنا الحسين بن محمد قال : حدثنا أبو زرعة قال : حدثنا أبوزيد عبدالرحمن بن أبي المعمر المصريُ قال : حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن عن أبيه قال: خطب عمر بن عبدالعزيز هذه الخطبة وكانت آخر خطبة خطبها ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إنكم لم تُخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدىً ، وإن لكم معاداً يَنزل الله فيه ليحكم بينكم ويفصل بينكم، وخاب وخسر من خرج من رحمة الله ، وحُرم جنةً عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمنُ غداً إلا من حذر الله اليوم وخافه، وباع نافداً بباق، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان ؟ ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وستصير من بعدكم للباقين ، وكذلك حتى تُردُّوا إلى خير الوارثين . ثم إنكم تُشيّعون في كل يوم غادياً ورائحاً ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجلُه ، حتى تغيِّبوه في صدع من الأرض ، في شِق صدع ، ثم تتركوه غير ممهّد ولا موسَّد ، فارق الأحباب وباشر التراب ، ووُجه للحساب ، مرتهَنٌ بما عمل ، غني عما ترك ، فقير إلى ما قدَم . فاتقوا الله وموافاتَه وحلولَ الموت بكم ».

وفي تواضع جم تزدان به أخلاق المقربين ـ على ما هو عليه من سلطان الخلافة والحكم ، وخشية صادقة لله وأدب معه ـ جل شأنه ـ وحفظ لحرمات وحقوق المسلمين عامة ، وبعد عن الظلم ومباءات الظالمين ـ خلص خامس الخلفاء الراشدين إلى القول : « أما والله إني لأقول هذا وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي ، وأستغفر الله ، وما منكم من أحد يُبلغنا حاجتَه لا يسع له ما عندنا، إلا تمنيت أن يبدأ بي وبخاصتي حتى يكون عيشنا وعيشه واحداً ، أما والله لو أردت غير هذا من غضارة العيش ، لكان اللسان به ذلولاً ، وكنت بأسبابه عالماً ، ولكن سبق من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة دلّ فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته » ثم رفع طرف ردائه ـــ أجزل الله مثوبته وأعلى مقامه في

الآخرين ـ فبكى وأبكى من حوله . وهذا التابعي الموفّق عمر بن ذر رحمه الله، يذكّر مسلك أهل السعادة الذين هجيراهم العمل للآخرة ، والتزود بتقوى الله في السر والعلن وبما أعدّ الله لهم من كريم المثوى في الآخرة ، وأن من زهد في الطريق إلى ذلك فهو المحروم ، قال رحمه الله في موعظة بليغة وكلام مستفيض له : « المغبون من غُبنَ خير الليل والنهار ، والمحروم من حرم خيرهما ، إنما جعلا سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربهم ، ووبالاً على الآخرين للغفلة عن أنفسهم ، فأحيوا لله أنفسكم بذكره ، فإنما تحيى القلوب بذكر الله، كم من قائم في هذا الليل قد اغتبط بقيامه في ظلمة حفرته ، وكم من نائم في هذا الليل قد ندم على طول نومته عندما يرى من كرامة الله للعابدين غداً ، فاغتنموا ممر الساعات والليالي والأيام رحمكم الله ».

ألا ما أعز هذه الكرامة وأغلاها ، وما أكثر شعَبها المباركة وأنواعها ، وقد مرّ بنا الكثير من النصوص الدالة عليها . ومن ذلك أيضاً ما روى أبو الشيخ بسنده عن الحسن البصري عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة جاءتهم خيول من ياقوت أحمر لها أجنحة ، لا تبول ولا تَروث، فقعدوا عليها ، ثم طارت بهم في الجنة ، فيتجلى لهم الجبار ، فإذا رأوه خروا سجداً ، فيقول لهم الجبار تعالى : ارفعوا رؤوسكم فإن هذا ليس يوم عمل ، إنما هو يوم نعيم وكرامة ، فيرفعون رؤوسهم ، فيمطر الله عليهم طيباً ، فيمرون بكثبان المسك ، فيبعث الله على تلك الكثبان ريحاً فتهيجها عليهم ، حتى إنهم ليرجعون إلى أهليهم وإنهم لشُعث غبر » . وذكر الإمام ابن القيم رحمه الله قول عبدالله بن المبارك : حدثنا همام عن قتادة عن عبدالله بن عمرو قال : « في الجنة عتاق الخَيل وكرام النجائب» . وقال الإمام مسلم : حدثنا أبو عثمان سعيد بن عبدالجبار البصريُ قال : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم قال : إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً ، فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً .

قال الإمـام النووي رحمه الله : المراد بـالسوق مجمـع لهم ، يجتمعون كما يجتمـع الناس في الدنيا في السـوق ، ومعنى «يأتونها كل جمعة» أي في مقـدار كل جمعة أي أسبوع ، وليس هناك حقيقـة أسبوع لفقد الشمس والليل والنهار . والسـوق يذكر ويؤنث والتأنيث أفصح .

ويستـوقفك هنـا بكثير مـن الإعجاب أن النبـي ﷺ ، ـ وهـو سيد البلغـاء والفصحاء ـ أحسن في تقريب المعنى المراد ـ وهو هنا من الغيب في العالم الآخر ـ بالأسلوب المناسب الذي يعين على سلامة الإدراك ،وحسن التصور لتلك الألوان من الإكرام الإلهي في جنات عدن لمن أيقنوا ، ولم يبخلوا ببذل المستطاع في الدنيا ، فضـوعفت لهم المثـوبـة أضعافاً مضاعفـة لا يقـدر قدرهـا ، ﴿ **جـزاءً بما كانـوا يعملـون** ﴾.

قال القـاضي عياض رحمه الله : وخـصّ ريح الجنـة بالشمال لأنها ريـح المطر عند العرب ، كانـت تهب من جهة الشام وبها يأتي سحاب المطر ، وكـانوا يرجون السحابة الشـامية ، وجاءت في الحديث تسميـة هذه الريح المثيرة ، أي المحـركة، لأنها تثير في وجوههم ما تثيره من مسك أرض الجنة وغيره من نعيمها .

ولقد بلغ مـن إيمان سلفنا الصالح ، ومن سار على نهجهـم بما حملت الأخبار الصادقة عـن ذلك العطاء الرباني ،حـداً جعل دار المقامة وما فيهـا ـ كما أسلفت غير مرة ـ كأنها تُرى وتُحسُّ ؛ فكان الجدُّ والاجتهـاد في طاعة الله تعالى ،والبعد أبداً عن طريق الغفلة والغافلين. قال عمر بن ذر أجزل الله مثوبته: «إنما ابن آدم غرض للمنايا منصوب ، من رمته بسهامها لم تخطئه ، ومن أرادته لم تصبْ غيره ، ألا وإن الخير الأكبر خير الآخرة ، الدائم فلا ينفد، والباقي فلا يفنى ، والممتد فلا ينقطع. والعباد المكـرمون في جوار الله تعـالى ، مقيمون في كـل ما اشتهت الأنفـس ولذت الأعين ، متزاورون على النجـائب ، ويتلاقون فيتذاكـرون أيام الدنيا ، هنيئـاً للقوم هنيئاً ، لقد وجد القوم بغيتهم ونالوا طلبتهـم ، إذ كانت رغبتهم إلى السيد الكريـم المتفضل ».

كيف يتزاور أهل الجنة فيها

عباد الرحمن المكرمون في جوار الله تعالى يوم تبلى السرائر ، ويجزى كل امرىء بما كسب، إن خيراً فخير وإن شراً فشر : دلت النصوص على أنهم مقيمون في كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، ومن ذلك أنهم يتزاورون على النجائب ويتلاقون ، فيتذاكرون أيام الدنيا بعد أن فازوا بطلبتهم التي يريدون ، وبغيتهم التي كانوا ينشدون ، وتراهم على الأرائك ينظرون ، منزوع من قلوبهم الغل ،على سرر متقابلين ؛ لقد أحلَّهم الكريم المنان دار المقامة من فضله ، **﴿فهم في روضة يحبرون﴾** ، **﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾**. روى الطبراني بسنده عن **أبي أمامة** قال: «سئل رسول الله ﷺ ، أيتزاور أهل الجنة ؟ قال : يزور الأعلى الأسفل ، ولا يزور الأسفل الأعلى ، إلا الذين يتحابون في الله يأتون منها حيث شاؤوا محتقين الحشايا».

وقد أورد الإمام ابن القيم في كتابه « حادي الأرواح » ما روى الدورقي عن حميد بن هلال أنه قال : « بلغنا أن أهل الجنة يزور الأعلى الأسفل ولا يزور الأسفل الأعلى » وجاء في بعض الروايات عند الطبراني وغيره : « أنهم يتزاورون على النجائب » .

النجائب : النوق العتاق التي يتسابق عليها وهي موضع التكريم عند العرب . يقال : ناقة نجيب ونجيبة والجمع نجائب .

وهكذا ترى أولئك البررة الذين أنعم الله عليهم بجنة الخلد ، يتزاورون فيها ويستزير بعضهم بعضاً ، وبذلك يفوزون بفضل على فضل ، وتتم لذتهم وسرورهم باللقاء فهم جميعاً مغمورون بنعماء لا تنقطع ولا تزول ، **﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة**

وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾. ولعل في الحديث بعض بيان لما جاء في سورة الصافات من قوله تعالى: **﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إني كان لي قرين . يقول أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون . قال هل أنتم مطلعون . فاطلع فرآه في سواء الجحيم . قال تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾** قال الحافظ ابن كثير: (يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ؛ أي عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا ، وماذا كانوا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرابهم ، واجتماعهم في تنادمهم وعشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر ، والخدم بين أيديهم ، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم ، من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) .

وفي الآيات ما يدل على إخباره سبحانه وتعالى ، أن أهل الجنة أقبل بعضهم على بعض يتحدثون ، ويسأل بعضهم بعضاً ــ كما يقول العلماء ــ عن أحوال كانت في الدنيا ، فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة ، إلى أن قال قائل منهم : إني كان لي قرين في الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة ، ويقول ما حكاه الله عنه : أئنك لمن المصدقين بأنا نبعث ونجازى بأعمالنا ، بعد أن مزقنا البلى وكنا تراباً وعظاماً ، ثم يقول المؤمن لإخوانه في الجنة : هل أنتم مطلعون في النار ، لننظر منزلة قريني هذا وما صار إليه ؟ فاطلع فعرفه الله إياه ، فيجده قد تغير وجهه ولونه ، ولقد غيره العذاب الشديد أيَّ تغيير . فعندها قال : تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ؛ أي إن كدت وأنت تكفر بالبعث ، لتهلكني بنفثاتك الضالة المسمومة، ولولا أن أنعم الله علي بنعمته لكنت من المحضرين معك في العذاب .

وجاء في سورة الطور قوله جل شأنه: **﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.**

قالوا إنا كنـا قبل في أهلنا مشفقين . فمنَّ الله علينا ووقانا عـذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ .

ومن حقيقة الإيمان التصديق بما جاء عن ذلك كله في كتاب الله وبيانه ، من حديث رسـول الله عليه الصلاة والسلام . عـن أنس بن مالـك رضي الله عنه « أن النبي ﷺ لقـي رجلاً يقـال له حـارثة في بعـض سكك المدينـة ، فقال : كيـف أصبحت ياحارثة ؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : إن لكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسي عـن الدينا ، فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي ، وكأني بعرش ربي بارزاً ، وكأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها ، وكأني بأهل النار في النار يعذبون . فقـال النبي ﷺ : أصبت فالزم ، مؤمـن نور الله قلبه » وفي رواية أخرى : « عبـد نوّر الله قلبـه » قال الهيثمي في « مجمـع الزوائد » : رواه البـزار وفيه يوسف بن عطيه لا يحتج به . ورواه أيضاً الحافظ الطبراني في المعجم الكبير ـ على مقال للعلماء في أحد الـرواة ـ بلفظ « كيف أصبحـت ياحارثة ؟ قـال : أصبحت مؤمناً ، قال : انظـر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقـة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسي عـن الدنيا ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكـأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكـأني أنظر إلى أهـل الجنة يتـزاورون فيها ، وكـأني أنظر إلى أهـل النار يتضاغون فيها ، قال : ياحارثة عرفت فالزم » .

وأنت واجد في بعـض الروايات الأخرى ، التي جاءت في شـأن هذا التزاور والتذاكر ، مما يكرم الله به هؤلاء الأبرار من عباده المقربين في مقعد الصدق عنده ، تفصيلاً ، يربي الإيمان في القلب ، ويزيـد من الثبات على الحق عند التحدي ، كما يشحذ الهمـة ويقوي العـزيمة مـن أجل اللحاق بـأولئك الـذين صـدقوا الله في الدنيا، فمنَّ عليهـم بذلك الخير العظيم في الآخرة . قال ابن أبي الـدنيا : حدثنا عبدالله قال : حدثنا سلمة بن شبيب ، قال : حدثنا سعيد بن دينار عن الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يشتاق الإخـوان بعضهم إلى بعض ، قال : فيسير سرير هذا

إلى سرير هـذا ، وسرير هذا إلى سريـر هذا ، حتـى يجتمعا جميعاً ، فيقـول أحدهما لصاحبه : تعلم متى غفر الله لنا ؟ فيقول صاحبه : يوم كنا في موضع كذا وكذا ، فدعـونا الله فغفر لنـا » قال : وحدثنـي حمزة بن العباس قـال : أنبأنا عبـدالله بن عثمان قال : أنبـأنا ابن المبـارك قال: أنبأنـا إسماعيل بـن عياش قال : حـدثني ثعلبة بن مسـلم عن أيوب بن بشير العجلي عـن شُفَيّ بن ماتع أن رسول الله ﷺ قال : « إن من نعيم أهل الجنة أنهم يتزاورون على المطايا والنجب ، وأنهم يؤتون في الجنة بخيل مسرجة ملجمة لا تروث ولا تبول ، فيركبونها حتى ينتهوا حيث شاء الله عز وجـل ، فيأتيهم مثل السحـابة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعـت، فيقول: أمطري علينا ، فما يزال المطر عليهم حتى ينتهي ذلك فوق أمانيهم ، ثم يبعث الله ريحاً غير مؤذيـة ، فتنسف كثائب من مسـك عن أيمانهم وعن شمائلهم ، فيـأخذ ذلك المسك في نـواصي خيولهم ، وفي مفارقهم، وفي رؤوسهم ؛ ولكـل رجل منهم جمة على مـا اشتهت نفسـه ، فيعلق ذلـك المسـك في تلك الجمام وفي الخيـل وفيما سوى ذلـك من الثياب ، ثـم يقبلون حتى ينتهوا إلى مـا شاء الله تعالى ، فـإذا امرأة تنادي بعـض أولئك : ياعبدالله أمـا لك فينا من حـاجة ؟ فيقول : ما أنـت ومن أنت ؟ فتقـول أنا زوجتك وحِبـك ، فيقول : ما كنـت علمت بمكانـك ، فتقول المرأة وما علمت أن الله قال: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ فيقول : بلى وربي ، فلعلـه يشتغل عنها أربعين خريفـاً لا يلتفت ولا يعود ، ما يشغله عنها إلا ما هو فيه من النعيم والكرامة » .

شفي بن ماتـع : تابعي ثقة ، قال الحافظ : (أرسل حديثـاً فذكره بعضهم في الصحابة خطأ) وقد أورد الحديث ابن القيم رحمه الله في كتابه « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » غفر الله لنـا وبلغنا منازل أهل القرب عنده سبحـانه وهو المحمود على كل حال .

كلما رجع المؤمن بصره فيما حملت كتب السنة المطهرة عما يكون من تحقيق وعد الله تبارك وتعالى ـ ولا يخلف الله الميعاد ـ عباده الصالحين ، بالمنح الجليلة والعيش الرغد يوم القيامة ، حيث ينشر عليهم رحمته ، ويفيض عليهم من عطائه وكريم إحسانه فيدخلهم جنات عدن ، ويتجلى عليهم برضوانه ، ويزيدهم فضلاً برؤية وجهه الكريم ... كلما رجع المؤمن بصره في تلك النصوص المباركة ، التي هي تقرير وتأكيد وتفصيل لمجمل ما جاء في الكتاب العزيز في هذا الشأن ـ وكان على حال لا تعوزه معها يقظة القلب واستنارة البصيرة ـ ازداد يقيناً على يقين بسمو ما كان عليه النبي صلوات الله وسلامه عليه ؛ من إحسان في تربية أصحابه على الشوق إلى لقاء الله ، والتطلع الإيماني إلى سلوك السبيل المشرقة بالعبودية ، والتي تحمل صاحبها ـ بفضل الله وعونه ـ إلى تلكم المنازل ، منازل أهل الرضا في عالم البقاء ؛ أولئك الذين يتبوؤون مقعد الصدق عند ذي الجلال والإكرام ﴿ **إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾ .

فكان ﷺ لاينـي يحفز على العبادة الخالصة ، والجهاد في سبيل الله ، وفعل الطاعات والقربات ، ويكشف عما لأهل السعادة من الخير المقيم عند الله ، والنعيم الذي لا يزول ؛ حتى في الدعاء ، كان فيما يدعو ويعلم أصحابه ـ أو بعضهم ـ من الأدعية التي يأمرهم بحفظها ، وأن يتعاهدوا أهلهم بها ، أدعية هي في الذروة من مناجاة المخلوق للخالق ، في عبودية خالصة وضراعة باكية ، وخشوع لله وخضوع بين يديه سبحانه ؛ كل أولئك ، رجاء حسن العاقبة ، وأن يكون الداعي من أهل القرب ، فيفوز بنزل الأبرار يوم يبعثون ، ويحظى بما يحظى به أولئك المفلحون الفائزون .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة قال : حدثنا أبوبكر قال : حدثنا ضمرة ابن حبيب بن صهيب عن أبي الدرداء عن زيد بن ثابت «أن رسول الله ﷺ علمه دعاءً وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم قال : قل كل يوم حين تصبح : اللهم لبيك وسعديك ، والخير في يديك، ومنك وبك وإليك . اللهم ما قلت من قول ، أو نذرت من نذر ، أو حلفت من حلف ؛ فمشيئتك بين يديه ، ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ، ولا حول ولا قوة إلا بك إنك على كل شيء قدير . اللهم وما صليت من صلاة فعلى من صليت ، وما لعنت من لعنة فعلى من لعنت ، إنك أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ، أسألك اللهم الرضى بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الممات ، ولذة النظرة إلى وجهك ، وشوقاً إلى لقائك من غير ضراءَ مضرَّة ، ولا فتنة مضلة ، أعوذ بك اللهم أن أظلم أو أظلم ، أو أعتدي أو يعتدى علي ، أو أكتسب خطيئة محبطة ، أو ذنباً لا يغفر ، اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام ، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ، وأشهدك وكفى بك شهيداً ، أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، وأشهد أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، والجنة حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأنت تبعث من في القبور ، وأشهد أنك إن تكلني إلى نفسي، تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة ، وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنبي كله ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، وتب علي إنك أنت التواب الرحيم». وأخرجه أبوداود .

كما أخرجه الإمام أحمد بسنده عن أبي مجلزٍ قال: «صلى بنا عمار صلاة فأوجز ، فأنكروا ذلك فقال : ألم أتم الركوع والسجود ؟ قالوا : بلى ، قال أما إني قد دعوت فيها بدعاء كان رسول الله ﷺ يدعو به . اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وكلمة الحق في الغضب والرضى ،

والقصد في الفقر والغنى ، ولذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهديين » وأخرجه ابن حبان والحاكم .

والحق أن التوجيه النبوي الكريم إلى التزود النافع للآخرة والإعداد ليوم اللقاء بالتضرع إلى الله طلباً للثبات على الإيمان ، ودوام الاستقامة ، ورجاء غسل الحوبة ومغفرة الذنوب ، كان يصحب - كما أسلفت - الدعوة الحارة إلى العمل الصالح الذي تبتغى به مرضاة الله تعالى ، وحسن ثوابه يوم الفصل الذي لا ريب فيه .

من أجل ذلك ؛ كان الواحد من أصحاب النبي ﷺ - ودرج على ذلك من تبعهم بإحسان - لا يني يبحث ، وينقب عن العمل الذي يكون سبيله إلى ما يطلبه أولو النهى من الزحزحة عن النار ودخول الجنة دار النعيم المقيم ؛ وذلكم هو الطريق الأمثل الذي يتسق تمام الاتساق مع حقيقة أن الدنيا دار الفناء ، وأن الآخرة دار البقاء ، وأن الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لها - وهي خير مستقر وأحسن مقيل - أهلها الذين يسلكون طريقها ، مهما تفاقمت العقبات واشتدت المكاره .

ونماذج ذلك كثيرة تكاد تعز على الحصر ؛ منها سؤال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن الأعمال التي هي أقرب إلى الجنة ، فهي تقرب صاحبها إلى دار الخلود ، وتباعده عن جهنم .

قال الإمام مسلم : حدثنا محمد بن أبي عمر المكي قال : حدثنا مروان الفزاري قال : حدثنا أبو يعفور عن الوليد بن العيزار عن أبي عمرو الشيباني عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : «قلت : يانبي الله أي الأعمال أقرب إلى الجنة قال : الصلاة على مواقيتها . قلت : وماذا يانبي الله ؟ قال : بر الوالدين . قلت : وماذا يانبي الله قال : الجهاد في سبيل الله » .

وعلى الصعيد العملي ، ثبت أن أهل السعادة يسألون الاستجابة ،ويسارعون إلى العمل بما تدعـو إليه الكلمة الهادية ، دونما إبطاء أو تسويـف . ولقد أكرم الله الأمة المحمدية بأن أعطاها في الآخرة مالم يعط غيرها من الأمم ؛ لما أنها على الدين الذي أنزله الله ورضيه لعباده ، والعاقل كل العاقل من يحرص على صدق الانتماء ـ إيمانـاً وعملاً ـ إلى خير أمة أخـرجت للنـاس ، ويسعى جـاهداً لأن يكـون على المحجـة البيضاء التـي ترك رسـول الله ﷺ الأمـة عليها ، وأن لا يكـون حظه مـن النسـب إليها أمـانيَّ مبتـورة عن العمـل ،لا تسمن ولا تغنـي مـن جوع . أخـرج الترمذي بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : « كنا مع النبي ﷺ في قبة نحـواً من أربعين ، فقـال لنا رسول الله ﷺ : «أتـرضون أن تكـونوا ربـع أهل الجنة ؟ قالـوا : نعم قال : أترضون أن تكونـوا ثلث أهل الجنة ؟ قالـوا : نعم قال : أترضون أن تكـونوا شطر أهل الجنـة ؟ إن الجنة لا يدخلها إلا نفـس مسلمة ، ما أنتم في الشرك إلا كالشعـرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، أو كـالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر » .

قال أبـو عيسى : هـذا حديث حسـن صحيح . وفي البـاب عن عمـران بن الحصين وأبي سعيد الخدري .

وجبت... كلٌ ميسرٌ لما خلق له

دواعي الفـرح بما يكون للمؤمن يـوم القيامة ــ بفضل الله تعالى ـ مـن النعيم المقيم والخير العميم ، ورجـاء المرء أن يكتب في عداد من يغمرهـم هذا الفضل ، ينعمون مطمئنين بما يكون لأهل الجنة في الجنة ... كل أولئك وأمثاله مما توحي به نصوص الكتاب والسنة، ويدعو المؤمن إلى أن يجدَّ في الطلب، دأباً على طاعة الله، وثباتـاً على الحق ، ووفاءً بما عـاهد الله عليه ، ويتـأكد ذلـك ، إذا علمنا مـا جعله النبـي ﷺ من القيمـة لشهـادة المؤمنين بعضهم على بعـض في أمـر الآخرة . قـال الإمام البخـاري في « باب ثنـاء الناس على الميت » مـن كتاب الجنـائز في الجامع الصحيح ، حدثنا آدم قال: حدثنا شعبة قال : حدثنا عبدالعزيز بن صهيب قال: سمعت أنـس بن مـالك رضي الله عنه يقـول : « مرّوا بجنـازة ـ وفي روايـة مر على النبي ﷺ بجنازة ــ فأثنوا عليها خيراً ، فقـال النبي ﷺ : وجبت، ثم مـروا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال: وجبت ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما وجبت؟ قال : هـذا أثنيتم عليه خيراً فوجبـت له الجنة ، وهـذا أثنيتم عليه شراً فوجبـت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض ».

وبتكرار كلمة «وجبت» ثـلاثاً جاءت رواية مسلم من طريق عبـدالعزيز بن صهيب عـن أنس أيضاً أنه قـال : مرَّ بجنازة فـأثني عليها خيراً ـ أو خير ــ فقال النبيﷺ : وجبت وجبت وجبـت ، ومر بجنازة فأثني عليها شراً ــ أو شر ـ فقال النبي ﷺ : وجبت وجبـت وجبت ، فقال عمر : فدىً لك أبي وأمـي : مر بجنازة فأثنـي عليها خير فقلت : وجبـت وجبت وجبت ، ومـر بجنازة فأثنـي عليها شر فقلت : وجبت وجبت وجبت، فقال رسـول الله ﷺ : من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شراً وجبـت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض » .

وأخرجه الترمذي مختصراً ، كما أخرجه النسائي بنحوه .

ولقد يكون في بعض الروايات ما يعين على مزيد من التبَيُّن ؛ ففي رواية النضر بن أنس عن أبيه عن الحاكم ؛ كنت قاعداً عند النبي ﷺ فمر بجنازة فقال : ما هذه الجنازة ؟ قالوا : جنازة فلان الفلاني ، كان يحب الله ورسوله ويعمل بطاعة الله ويسعى فيها فقال رسول الله ﷺ : وجبت وجبت وجبت ، ومُرَّ بجنازة أخرى قالوا : جنازة فلان الفلاني كان يبغض الله ورسوله ويعمل بمعصية الله ويسعى فيها ، فقال : وجبت وجبت وجبت ، فقالوا : يارسول الله قولك في الجنازة أثني على الأول خير وعلى الآخر شر فقلت فيهما : وجبت وجبت وجبت ، فقال : نعم يا أبابكر إن لله ملائكة تنطق على ألسنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر » . رواه الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذا اللفظ . واتجه الذهبي إلى أنه على شرط مسلم . قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ففيه تفسير ما أبهم من الخير والشر في رواية عبدالعزيز . وللحاكم أيضاً من حديث جابر ، « فقال بعضهم : لنعم المرء ، لقد كان عفيفاً مسلماً » وفيه أيضاً «فقال بعضهم : بئس المرء كان إن كان لفظاً غليظاً ». هذا : والتكرار في رواية مسلم لكلمة «وجبت» لتأكيد الكلام المبهم ـ كما يقول الإمام النووي ـ ليحفظ ويكون أبلغ : وقد كان من البيان غزيرِ النفع قوله ﷺ : « هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة » لأن المراد بقوله: وجبت » أي الجنة لذي الخير ، والنار لذي الشر . قال الحافظ: (والمراد بالوجوب الثبوت ؛ إذ هو في صحة الوقوع كالشيء الواجب ، والأصل أنه لا يجب على الله شيء ؛ بل الثواب فضله والعقاب عدله، لا يسأل عما يفعل). وجميل ما حقق العلماء من أن الظاهر أن الذي أثنوا عليه شراً، كان ـ والعياذ بالله ـ من المنافقين ، ويرشد إلى ذلك ما رواه أحمد من حديث قتادة بإسناد صحيح «أنه ﷺ لم يصلِّ على الذي أثنوا عليه شراً وصلى على الآخر ».

من أجل ذلك، لم يرض رسول الله ﷺ للمسلمين ترك العمل اتكالاً على ما يكون قُدِّرَ . أخرج البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه قال : « كنا في جنازة في

بقيع الغرقد ، فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة، فنكّس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال : « ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة ، فقال رجل : يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ، فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، وأما من كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ؟ قال : أما أهل السعادة فييسَّرون لعمل السعادة ، وأما أهل الشقاوة: فييسَّرون لعمل الشقاوة ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره. لليسرى وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى. فسنيسره للعسرى﴾».

وفي رواية أخرى للبخاري عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ « أنه كان في جنازة فأخذ عوداً ينكت في الأرض فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من النار أو من الجنة قالوا : يارسول الله أفلا نتكل ؟ قال : اعملوا فكلٌ ميسر ﴿فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى...﴾ » الآية . وقوله ﷺ : « اعملوا » جرى مجرى أسلوب الحكيم ـ كما يقول الحافظ ـ أي الزموا ما يجب على العبد من العبودية ، ولا تتصرفوا في أمر الربوبية . ورواه أبوداود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، كما رواه ابن ماجة في المقدمة من « السنن ».

وفي سمة من سمات المنهج النبوي في التربية على التي هي أقوم ـ وهي سمة التكامل والعمق والشمول ـ نجد النبي ﷺ لا يدع أن يوجه الأمة وِجهة العمل الذي يقتضيه الإيمان وتوجبه أهلية التكليف ، حتى يصل الأمر إلى ذكر أوصاف لأهل الجنة في الدنيا وأوصاف لأهل النار ؛ فتحت باب « الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار » قال الإمام مسلم في صحيحه: حدثني أبو غسان المسمعيُّ ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار بن عثمان ــ اللفظ لأبي غسان وابن المثنى ـ قالا : حدثنا معاذ بن هشام قال : حدثني أبي عن قتادة عن مطرف بن عبدالله بن الشخير عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبة : « ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني ، ويومي هذا.

كل مـال نحلته عبداً حـلال ـ أي قال الله تعالى : كـل مال نحلته ــ وإني خلقت عبادي حنفـاء كلَّهم وإنهم أتتهم الشيـاطين فاجتالتهـم عن دينهم ، وحـرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي مـا لم أنزل به سلطاناً . وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عـربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهـل الكتاب . وقال : إنما بعثتك لأبتليـك وأبتلي بك وأنزلـت عليك كتـاباً لا يغسله الماء ، تقـرؤه نائماً ويقظانـاً ، وإن الله أمرني أن أحرِّق قريشـاً . فقلت : ربي إذا يثلغوا رأسي فيـدعوه خبزة ، قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نغزك ، وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشـاً نبعث خمسة مثلـه ، وقاتل بمـن أطاعـه من عصاك . قـال : وأهل الجنة ثلاثـة : ذو سلطان مقسط متصدق مـوفق ، ورجل رحيم رقيـق القلب لكل ذي قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال . قال : وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له ـ أي لا عقل له ـ الذين هم فيكم تبعاً لا يتبعون ـ أو لا يبتغون ـ أهلاً ولا مـالاً ، والخائن للدين لا يخفـى له ــ أى لا يظهر له ــ طمع وإن دق إلا خانه، ورجـل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومـالك » وجاء في رواية لأحمد : وذكر البخـل أو الكذب . والشنظير الفاحش ــ وهو السيء الخلق ـ قال مسلم : ولم يذكر أبو غسان في حديثه « وأنفق فسننفق عليك » .

نُغزك : نعينـك . اجتالتهـم: استخفوهـم فذهبـوا بهم. بقايـا أهل الكتـاب: الباقون على التمسك بـدينهم الحق من غير تبديل. لا زَبْرَ لـه : لا عقل له يمنعه مما لا ينبغي . لا يخفى له طمع : لا يظهر له طمع . قال أهل اللغة . خفيت الشيء إذا أظهرته ، وأخفيته إذا سترته وكتمته . كل مـال نحلته عبداً حلال : فيه حذف أي ، قال الله تعالى : « كل مال ..» والله المحمود على كل حال .

ضحكت فاطمة للبشرى العظيمة

إذا ذكرت الجنة ونعيمها المقيم ، وما تشرق به وجوه أهلها من النور ، وما يفيض عليهم من العطاء ؛ تداعت إلى ذهن المؤمن سير أولئك البررة من السلف الصالح، ومن يسلك نهجهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؛ ذلك بأن الواحد منهم ـ بتوفيق الله تعالى ـ لا يدع باباً من أبواب الخير التي تصل بسالكها إلى دار المقامة ، إلا ولجه ؛ وسيلته إلى ذلك صالح العمل ، والجهاد في سبيل الله، والتجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود. ولا يدع أيضاً أن يكون في أقواله وأفعاله وسلوكه، داعية خير وهداية إلى كل ما فيه سعادة الدنيا ، الموصولة بسعادة الآخرة يوم الفصل ميقاتِ الناس أجمعين .

وهؤلاء الرجال الأتقياء الأنقياء ـ الذين إذا ذُكرت الجنات ذُكروا ـ حجة على أهل الغفلة الذين لا يرجون لله وقاراً ، فلا تتحرك قلوبهم لذكر الآخرة ـ وأنه ليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار ـ ولا يعملون على تزكية أنفسهم كيما يسلَس قيادها ، وتنهض بعبء الطاعة كما ينبغي ، لا تشوبها شائبة من جهل أو رياء ، وترضى بحكم الله ورسوله في الشؤون كلها ، كيما يكونوا ـ برحمة الله ـ في عداد من يقال لهم يوم القيامة : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ .

هذه واحدة ،وأما الثانية : ففي الوقت نفسه تعمل تلك السير عملها في نفوس من عقلوا عن الله ورسوله بشائر الجنة لطلاّب الآخرة ، فيضاعفون من عمل الصالحات ، وتنهض بهم عزائمهم إلى التزود من كل ما هو بر وصدق في المواطن، وبذل للأموال والأنفس في سبيل الله ، موقنين أنهم ملاقو ربهم في اليوم الموعود ، وأن لهم عنده لزلفى وحسن مآب .

تذكر المصادر في ترجمة التابعي الجليل الحسن البصري رحمه الله تعالى ما

روى أبو نعيم في « الحلية » والفسوي في « المعرفة والتاريخ » وأورده الذهبي في «السير» بالسند عن خالد بن صفوان أنه قال: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: ياخالد أخبرني عن حسن أهل البصرة ـ يعني الحسن البصري ـ قلت: أصلحك الله أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم من قِبَلي به: « أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك كيف يضل قوم هذا فيهم ».

هذه الأخلاق التي تبدو على الزلال من إرث النبوة، جعلت أهل البصيرة يعتقدون أن الحسن من أعلم الناس بطريق الجنة. قال عوف بن أبي جميلة الأعرابي: « كان محمد حسن العلم حسن القضاء حسن العلم بالفرائض، حسن العلم بالتجارة، غير أني والله ما رأيت رجلاً أعلم بطريق الجنة من الحسن ».
وكان رحمه الله ـ يعجب لطغيان الغفلة التي تباعد الناس عن طلاب دار الخلد ويأسف له قال رحمه الله: « ما حلِّيت الجنة لأمة ما حليت لهذه الأمَة ـ ثم لا ترى لها عاشقاً » لقد عجب الحسن لصنيع أهل الغفلة وأسف، وحق له ذلك، وكيف يقع هذا، وقد حُليت دار النعيم على النحو الذي جاء في الكتاب العزيز وفي بيانه من حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، اللهم عفوك وعافيتك !! إنه الحرمان والعياذ بالله.

والذي يدعو إلى العجب أكثر وأكثر، لما تصنعه الغفلة وقسوة القلب بأصحابها؛ أن ما حليت به الجنة لا انقضاء له، لأن الخبر الصادق جاء بخلود أهل الجنة وخلود أهل النار. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في مناسبة أخرى، ومما ورد في هذا الشأن ما روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يقال لأهل الجنة: خلود لا موت ولأهل النار خلود لا موت ». وثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه

قال: « يجاء بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يقال: ياأهل الجنة فيطلعون مشفقين ، ويقال : ياأهل النار فيطلعون فرحين ، فيقال: هل تعرفون هذا ؟ فيقولون: نعم ، هذا الموت ، فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال : ياأهل الجنة خلود فلا موت ، وياأهل النار خلود فلا موت ».

وفي هذا الهدي النبوي بيان تقرير وتأكيد لما جاء من قوله تبارك وتعالى في شأن أهل الجنة : ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم﴾ وقوله جل شأنه في شأن أهل النار : ﴿ خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ ومثل ذلك كثير في كتاب الله . إنه الخلود للفريقين ؛ كل بما هو فيه، خلوداً لا انقضاء له دون موت يلحقهم .

وقد يتساءل بعض الناس عن الحكمة في إخبار الكتاب والسنة بالخلود ، والحكمة في الإخبار بوصفين كل منهما يدل عليه الآخر ؛ لأن الخلود يدل على عدم الموت ، وعدم الموت يدل على الخلود . وكان من جواب العلماء على ذلك أن في الإخبار لأهل النعيم بدوامه زيادة في نعيمهم ، ورفعاً لتشويش ممكن وقوعه من تخوفهم سلب ما هم فيه ، فيضاعف بتحقيق ذلك السرورُ عليهم . وكم في ذلك من مضاعفة الأحزان على أهل الشقاوة والعذاب . ثم إن في ذكر الخلود مع ذبح الموت تأكيداً في الإخبار لأهل السعادة المتمتعين بنعيم الجنة حتى لا يبقى فيه - والله أعلم - احتمال بوجه من الوجوه ، ويحصل لهم بذلك أكبر النعيم؛ وهو القطع بدوام نعم المنعم عليهم بلا تعب يلحقهم ، ولا ألم بوجه من الوجوه المحتملة في هذه الدار ، لأن نعيمها وإن دام لأحد ، فالموت يقطعه ، فأخبروا أن ذلك النعيم بخلاف هذا ،لأن دوامه لا ينقضي ، ولا لهم فيها موت يقطعه . ومثل ذلك في ضده أهل دار الشقاء .

وهكذا يزداد المؤمن يقيناً على يقين بفضل الله الذي لا يحدُّ في الجنة التي يورثها عباده الصالحين بما كانوا يعملون ؛ فلا بدع أن يشمر المحسنون عن سواعد الجد صابرين ، ويأخذوا أنفسهم بما يقتضيه طريق الجنة ، فسلعة الله

غالية وثمنها الله ـ صدق معه سبحانه ، وانصراف إلى كل ما فيه طاعة الله ، ونصرة دينه وشريعته ، وأخذ النفس بتقوى الله في السر والعلن . وليس عجباً من العجب أن يكون المؤمن ـ وهو يحس حلاوة الطاعة ويتذوق طعم العبادة ـ محباً لقاء الله ، مشتاقاً إلى جنته ، شديد الفرح إذا نالته البشرى بدار الكرامة عند مولاه سبحانه .

وذلك ما كان من فاطمة رضي الله عنها ، حين بشرها رسول الله ﷺ بأنها سيدة نساء أهل الجنة وأنها أول أهله لحوقاً به ــ عليه الصلاة والصلاة ــ إلى دار البقاء ، أخرج الإمامان البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رشي الله عنها قالت : « لما كان يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله ﷺ أصبح رسول الله كأنه وجد خفةً ، فافترق الناس واجتمع نساؤه عنده ، لم يغادر منهن امرأة ، ثم أقبلت فاطمة ، فلا والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ ، فلما رآها استبشر وتهلل وجهه ، فسارَّها فبكت ، ثم سارَّها فضحكت ، فقلت : ما رأيت كاليوم أقرب فرحاً من بكاء ، ثم سألتها عما سارَّها به ؟ فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ . فلما مات رسول الله ﷺ سألتها وقلت لها : بما لي عليك من الحق إلا ما أخبرتني ، فقالت : أسر إليَّ : أي بنية إن جبريل عليه السلام كان يعارضني بالقرآن في كل عام مرة ، وإنه عارضني الآني مرتين ، وما أراني إلا اقترب أجلي ، فلا تكوني دون امرأة صبراً ، فبكيت ، فقال : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة ، وأنك أول أهلي لحوقاً بي فضحكت » ورواه أبوداود بلفظ مقارب والترمذي مختصراً وحسنه .

وليس هذا بدعاً من فاطمة عليها الرحمة والرضوان ؛ فهي بضعة منه ﷺ . وهنيئاً لها تلك البشرى العظيمة التي يشهد العباد تحققها في يوم لاريب فيه .

ونسأله تعالى ـ بفضله ومنه ـ أن يرزقنا حسن التأسي ، وأن لا يعاملنا يوم الحساب بما نحن له أهل ، ولكن بما هو له ، إنه ـ سبحانه ـ أهل التقوى وأهل المغفرة .

ماذا عن أول زمرة يدخلون الجنة!

كان من فضل الله جـل ثناؤه وتباركت أسماؤه على الأمة المحمديـة ـ وهو ذو الجلال والإكرام ـ أن أكمل لها الدين، وأتم عليها النعمة، ورضي لها الإسلام ديناً. وامتد رواء هذا الفضـل ، فكان الاستخلاف في الأرض ، وتمكين الديـن ، وتبديل الأمة بعد الخوف أمناً . وذلك باقٍ ما لم يغير المسلمـون ما بأنفسهم ، فإذا غيروا ما بأنفسهم ـ كما هي الحال في كثير مـن الناس والبقاع ـ غيرَّ الله ما بهم ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ﴿ إن الله لا يغير ما بقـوم حتى يغيروا ما بـأنفسهم ﴾ . إنها النعماء التـي تتقـاصر الأمة اليـوم عـن شكرانها الحقيقي ، الذي يتمثل في الاهتـداء بهدي الكتاب والسنة ، وأن لا يكون لمؤمن ولا مـؤمن خيرة فيما يقضي الله في كتـابه ، ورسـوله المصطفـى في سنته عليـه الصلاة والسلام .

يصحب هذا : أن مظـاهر الفضل الأخرى : هـي ما يكون للمسلم ــ إن هو التزم طريق الجادة كما هو في شرعة الإسلام ـ ما يكون له في الآخرة من النجاة من عذاب الله المهين في جهنم مـآب الكافرين ، والأخـذِ بيده ليكون من الخالـدين في جنة عدن التـي يورثها الله من عبـاده من كان تقياً ، والتـي أكلها دائم وظلها ، لا يمسُّ أهلَها نصب، ولا يمسُّهم فيها لغوب . وتراهـم ـ في خلودهـم ـ لا يصدَّعون عنها ولا ينزفون . والسعيد من قدر هذه النعماء قدرها ،وتسامى عن الاغترار بزينة الحياة الدنيا ، وحزم أمره على الفرار إلى الله بعزيمة صادقة ، وهمة عالية لا تعرف ـ بعون الله ـ الكلال .

ولقد بلغ مـن إكرام الله لهذه الأمة ـ وفي هـذا ما فيه من العظـة والتذكير ـ أن النبي عليه الصلاة والسلام أخبر ـ وهو الصادق المصدوق ـ عن أول زمرة يدخلون

الجنة، كيف يكونـون ؟ الأمر الذي يحرك بواعث الشوق إلى الجنـة ، ويثير مشاعر الإيمان تطلعـاً إلى تلك اللحظـات النيرات ، كما يبعـث على العمـل بعمل أهـل السعادة ، بصدق نية وإخلاص لله عز وجل .

قـال الإمام البخـاري في : « باب مـا جاء في صفـة الجنة وأنها مخلـوقة» مـن كتاب بـدء الخلق في الجامع الصحيح : حـدثنا إبراهيـم ابن المنذر قال : حـدثنا محمد بـن فُليح قال : حدثنـا أبي عن هلال عـن عبدالرحمن بن أبي عمـرة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أول زمـرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذيـن على آثارهم كأحسن كوكـب دري في السماء إضاءة ، قلوبهم على قلب رجـل واحد ، لا تباغـض بينهم ولا تحاسـد ، لكل امرىء زوجتـان من الحور العين ، يرى مخ سـوقهن من وراء العظم واللحم » وله في روايـة أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمـر ليلة البـدر ، ثم الـذين يلـونهم ، على أشد كـوكب دري في السماء إضاءة ، لا يبولـون ولا يتغوطون » وأخرجـه أيضاً في كتاب أحاديـث الأنبياء من الجامع الصحيح «باب خلق آدم وذريته» .

وأخرج الإمـام مسلم عـدداً من الأحـاديث في كتـاب « الجنة وصفـة نعيمها وأهلها» من صحيحه ، فتحت باب « صفـات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشياً» قال رحمه الله : حدثنا محمد بن رافع قـال : حدثنا عبدالرزاق قال : حدثنا معمر عن همام بن منبه قـال : هذا ما حدثنا أبوهريرة عـن رسول الله ﷺ ؛ فذكر أحاديـث منها : قال رسول الله ﷺ : « أول زمـرة تلج الجنة على صورة القمـر ليلة البدر ، لا يبصقون فيهـا ولا يمتخطون ولا يتغوطون فيها . آنيتهم وأمشـاطهم من الذهـب والفضة ، ومجامرهـم من الألوَّة ، ورشحهـم المسك ، ولكل واحـد منهم زوجتـان يرى مـخ ساقهـا من وراء اللحـم من الحسـن ، لا اختلاف بينهـم ولا تباغـض ، قلوبهم قلب واحـد يسبحون الله بكـرة وعشياً » وجاء في روايـة أخرى لمسلم : إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ... » الحديث .

وذكر الإمـام النووي «أن مذهـب أهل السنـة وعامة المسلمين أن أهـل الجنة يأكلـون فيها ويشربون ، ويتنعمون بـذلك وبغيره من ملاذٍ وأنـواع نعيمها ، تنعماً دائماً لا آخر له ولا انقطاع ، وأن تنعمهم بذلك على هيئة تنعم أهل الدنيا ، إلا ما بينهما من التفاضل في اللـذة والنفاسة التي لا تشارك نعيم الـدنيا إلا في التسمية وأصل الهيئة، وإلا في أنهم لا يبولون ولا يتغوطون.. إلى آخر ما جاء في الأحاديث.. وقد دلـت دلائل القرآن والسنة في هـذه الأحاديـث التي ذكرهـا مسلم وغيره ، أن نعيم الجنة دائم لا انقطاع له أبداً».

وجاء في بعـض الروايات عند مسلـم « إن أول زمرة تدخل الجنـة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على ضوء كوكب دري في السماء، لكل امرىء منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب». قال الشراح عند كلمـة « زوجتان» : هكذا في الـروايات بالتاء وهـي لغة متكررة في الأحـاديث وكلام العـرب ، والأشهر حذفهـا ـ أي التاء ـ وبه جـاء القرآن وأكثر الأحـاديث. وعند كلمـة « أعزب » قال الإمـام النووي : هكذا في جميـع نسخ بلادنـا «أعزب» بالألف وهـي لغة ،والمشهور في اللغة «عَـزَبٌ» بغير ألف . ونقل القاضي ـ يعني القاضي عياضاً ـ أن جميع رواتهم رووه «وما في الجنة عزب » بغير ألف إلا العذري فرواه بـالألف . قـال القاضي : ليـس بشيء والعزب بفتـح العين والزاي: مـن لا زوجة له ، والعزوب البعد ، وسمي عزباً لبعده عن النساء . الألوَّة : العود .

هذا : ونجـد في روايات أخر عـن جابـر بن عبدالله رضي الله عنهما بـالنسبة للطعام « .. ولكن طعـامهم ذاك جشاء كرشح المسك، يلهمـون التسبيح والحمد كما يلهمـون النفَـس ». وجـاء في روايـة الترمــذي : « .. آنيتهـم فيهـا الـذهـب، وأمشاطهم من الذهب والفضة ومجامـرهم من الألوة ورشحهم المسك ... إلى أن يقول: لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم قلب رجل واحدٍ، يسبحون الله بكرة وعشياً » قال أبوعيسى : هذا حديث صحيح .

وإذا كانت هـذه الروايات ، قد حملت إلينـا ما تكون عليه أول زمـرة يدخلون

الجنة يومئـذ ، وأشارت ـ بإجمال ـ إلى طعامهم واستغراقهـم في الحمد والتسبيح : فقد جاء في أحاديـث أخر شيء من التفصيل . أخرج البخاري في كتـاب الرقاق من الجامع الصحيـح عن سعيد بن أبي هـلال عن زيد بن يسـار عن أبي سعيد الخدري قال النبي ﷺ : « تكـون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفـؤها الجبار بيده ، كما يتكفأ أحدكـم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة ، فأتـى رجل من اليهود فقال : بارك الرحمن عليك ياأبا القاسم ، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال : بلى قـال : تكون الأرض خبزة واحـدة ـ كما قـال النبي ﷺ ـ فنظـر النبي ﷺ إلينا وضحك حتى بدت نواجذه ، ثـم قال : أخبرك بإدامهم ؟ قال : إدامهم بالام ونون. قالوا : وما هذا ؟ قال ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً» .

معنى يتكفؤهـا الجبار ، الجبار اسم من أسماء الله عز وجـل ، ويتكفؤها : أي يُميلها ، من قـولك كفأت الإناء إذا قلبتـه وكببته . نزلاً : أي ما يُعـدُّ للضيـف من الطعام والشراب . وفي معنى «بـالام »: قال ابن الأثير : قد جـاء في متن الحديث أنه الثور ولعل اللفظة عبرانية . والنون: الحوت وهو عربي . وأخرج الحديث مسلم بلفظه عن أبي سعيد أيضاً .

والمهم قبـل هذا وبعـده : أن يكون المؤمـن على المستوى الـلائق من العمـل الصالـح والجهاد في سبيل الله ، ومراقبـة المولى عز وجل في السر والعلـن ، كفاء هذا الإنعام العظيـم والطريق الموصلة ـ بفضل الله ورحمته ـ إليـه ؛ فليست هذه الأخبار الصـادقة لتـزجية الـوقت والترف الثقـافي ،ولكنها عنـوان المسؤوليـة يوم الديـن، والحافز العظيـم على اقتحام العقبـات ، وتجاوز المصاعـب التي تعترض طالب الجنة دار النعيـم المقيم الذي لا ينقطع أبداً . والعهد قـريب بما ثبت من الحقيقة التي قـررها النبي ﷺ ، وهي « أن الجنة حجبت أو حفـت بالمكاره ، وأن النار حجبت أو حُفَّت بالشهوات » والله حسبنا ونعم الوكيل ، لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليـه ، بيده الخير كله ، وإليـه يرجع الأمـر كله . مغفرتـه أوسع من ذنـوبنا ورحمته أرجى عنـدنا من أعمالنا . له الحمد في الأولى والآخـرة ، وهو على كل شيء قدير .

كرامة الشهيد..
والجنة تحت ظلال السيوف

ما أعظم ما تقفنا عليه أحاديث المبلغ عن الله ما أراد ﷺ وهي تأتي على ذكر المصائر يوم القيامة ـ من ثمرات مباركات تشرق بلألائها مواكب الخالدين، أولئك الذين جادوا بأنفسهم لله عز وجل في ساحات الجهاد ، ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى ، بعد أن أقبلوا على الموت ، مستعلين على لذائذ الدنيا وشهواتها ، غير آبهين لزخرفها ومغرياتها ، مستبشرين ببيعهم الذي بايعوا ربهم به ، في تشوفٍ إلى ما يحظى به الشهداء من كونهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله .

ما أعظم ما تقفنا عليه أخبار الهدي النبوي في ذلك ، وأكرم بها توجبه من المسابقة إلى ميادين البذل في سبيل الله ؛ لما أن موعود الله لباذلي أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، هو الحق كله والصدق كله . والسعيد الموفق ؛ من انتفع بترغيب القرآن وحديث النبي عليه الصلاة والسلام ، فصدق اللّهَ في ساحة الجهاد ، مقبلاً غير مدبر ، معداً العدة التي ترفع ـ بعد الله ـ صاحبها إلى مصاف أولئك الذين صدق فيهم أن السيف محاء للخطايا ، فسعدوا بالشهادة ودخول الجنة من أي باب يشاؤون ، ذلك بأنهم صدقوا الله فصدقهم ، ووفى بعهده لهم . ألم تر إلى قول الله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ .

ولكم تهفو نفوس أهل الفلاح ، الذين يستعلون على المعوقات في سبيل الله إلى تلكم المشاهد النوارنية يوم الحساب ، مشاهد من يتوجون تاج الكرامة في تلكم الساعات الزاخرة بالشدة والهول ، وعلى رؤوس الأشهاد: يعلَنُ ما هم

عليه من حقيقة أن اللون لون الدم والريح ريح المسك، صدقَ وأحقيةَ ما حملته الأخبار الصادقة في ذلك، ويفيض ربنا تبارك وتعالى عليهم عطاءه ـ ﴿**وما كان عطاء ربك محظوراً**﴾ـ ويحل عليهم رضوانه، جزاء ما قدموا صادقين مخلصين في ساحات الصبر في المواطن والبذل في سبيل الله، راضية نفوسهم، مبتسمة للموت شفاههم.

أخرج الترمذي بسنده عن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تعلُق من ثمر الجنة أو شجر الجنة» قال أبوعيسى: هذا حديث حسن صحيح.

تعلُق بضم اللام: ترعى من أعالي شجر الجنة، والأصل في المعنى أن: علَقت تعلُق: أكلت، وذلك في الإبل إذا أكلت العضاة ـ وهو نوع من شجر البادية ـ فنُقل إلى الطير.

ويقودنا هذا النص الكريم، إلى حديث آخر يحمل لوناً من البشائر الفورية للشهيد؛ منها: أنه يرى مقعده من الجنة؛ فعن المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال: للشهيد عند الله ست خصال: يغفر الله له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه» أخرجه الترمذي وابن ماجة وإسناده حسن وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وأنت واجد ـ كما تدل الأخبار الصحيحة ـ أن الشهيد عندما يرى ما له من الكرامة في الجنة، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات في سبيل الله، كيما يكون الحظ أوفر ـ في تصوره ـ من ذلك الفضل الإلهي الكبير. وهذا يؤكد ما أومأت إليه آنفاً، من الترابط الوثيق بين ما يكون عليه المؤمن في الدنيا دار العمل، وبين ما يكون إليه المصير في الآخرة دار الجزاء. أخرج البخاري ومسلم والترمذي

والنسائي ـ واللفظ للبخاري ـ عـن أنس بن مـالك أن النبيﷺ قال: «مـا أحد يدخـل الجنة يحب أن يرجـع إلى الدنيـا وله ما على الأرض مـن شيء ، إلا الشهيد، يتمنى أن يـرجع إلى الـدنيا فيقتل عشر مـرات لما يرى مـن الكرامـة » . وفي رواية للنسائي قـال رسول الله ﷺ : « يؤتـى بالرجل مـن أهل الجنة ، فيقـول الله تعالى: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أي رب خير منزل ، فيقول : سل وتمن ، فيقول : أسألـك أن تردني إلى الدنيا فـأقتل في سبيلك عشر مرات ، لما يـرى من فضل الشهادة ».

والحق أن الثمرة الطيبـة المباركة التي يجنيهـا الشهداء يوم يقف النـاس لرب العالمين ، منبَّـهٌ عليها من ذي قبـل ، والمؤمن يسبق بـذلَه في سبيل الله ، تصـديقُه الجازم بما جاء عن أجر المجاهد في سبيل الله، والخير العظيم الذي ينتظر الشهيد .

ومـا أحسـن ما جـاء عنـد الإمـام البخـاري في كتـاب الجهاد مـن الجامـع الصحيح تـرجمةً لبعض الأبواب حيث قـال : « باب الجنة تحت بارقـة السيوف» وقال المغيرة بـن شعبة : أخبرنـا نبينا ﷺ عن رسـالة ربنا : مـن قتل منـا صار إلى الجنـة ، وقال عمر للنبـيﷺ : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهـم في النار ؟ قال بلى . ثم قال البخاري رحمه الله : حدثنا عبدالله بن محمد قال : حدثنا معاوية بن عمروٍ قال : حـدثنا أبو إسحاق الفـزاري عن موسـى بن عقبة عن سـالم بن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله ـ وكان كاتبه ـ قال : كتب إليه عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال : « واعلمـوا أن الجنـة تحت ظلال السيـوف » . المراد بقوله ـ وكان كاتبه ـ أن سالماً كان كاتب عبدالله بن أبي أوفى .

والأمر العظيم ذو الدلالة في تلك الحقبة من تاريخ أمتنا ـ ولا أقصد الحصر ـ سرعة الاستجابـة، وعمق التفاعل مع هذا الذي ينبىء بـه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والأمثلة على ذلك موفورة متنوعـة الصور ؛ منها ما أخرج مسلم بسنده عن أبي بكر ابـن أبي موسى الأشعري قـال: ـ سمعت أبي ـ وهـو بحضرة العدو ـ

يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» فقام رجل رث الهيئة فقال : ياأباموسى آنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ؟ قال: نعم قال : فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه فألقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل » .

جفن السيف : بفتح الجيم وسكون الفاء : غِمده ، وجاءت الرواية عند الترمذي عن أبي بكر ابن أبي موسى الأشعري بلفظ : سمعت أبي بحضرة العدو يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف »، فقال رجل من القوم رث الهيئة : أأنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ يذكره ؟ قال : نعم فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام وكسر جفن سيفه فضرب به حتى قتل وأخرجه أحمد وأبوداود . ومما تذكرنا به هذه الواقعة على صعيد الاستجابة السريعة وسرعة التفاعل الصادق مع ما يبشر به النبي عليه الصلاة والسلام ، دليلَ قوة الإيمان : صنيع عمير بن الحمام رضي الله عنه يوم بدر وهي واقعة مشهورة معروفة ثبتت في الصحيح وما أكثر الوقائع !!.

وقوله ﷺ: « إن الجنة تحت ظلال السيوف » نموذج رائع من نماذج البلاغة النبوية ، انظر إلى هذه الصورة التي تبدو غايةً في حسن التعبير عن المراد وإثارة المشاعر لتحقيقه ؛ فالجهاد وحضور معركة القتال حيث بارقة السيوف المتشابكة فوق رؤوس المتقاتلين : طريق إلى الجنة وسبب لدخولها . ويرى ابن الأثير أن هذا التعبير المشرق البليغ ، كناية عن الدنو من الضراب في الجهاد ، حتى يعلوه السيف ويصير ظله عليه . وقال القسطلاني في « إرشاد الساري» : أي أن ثواب الله والسبب الموصل إلى الجنة ، عند الضرب بالسيوف في سبيل الله ، وهو من المجاز البليغ لأن ظل الشيء لما كان ملازماً له ـ ولا شك أن ثواب الجهاد الجنة ـ فكأن ظلال السيوف المشهورة في الجهاد تحتها الجنة ، أي ملازمها استحقاق ذلك، وخص السيوف لأنها أعظم آلات القتال وأنفعها ـ يعني يومذاك ـ لا أنها أسرع إلى الزهوق وهنيئاً لمن قال الله فيهم : ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ .

السيف مخاء للخطايا

مما تشرق به مشاهد القيامة يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرزوا لله الواحد القهار .... تلك المواكب التي تعلن بسناها الوضاح عما لأصحابها من مكانة عظيمة ، ومنزلة رفيعة عند الله الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة ، وأعني بها مواكب الشهداء .

أقول هـذا ، وقد آذنتنـا بعض النصوص مـن حديـث رسول الله ﷺ ـــ وهذا البعض قليل من كثير ـ بشيء من ذلك فيما سبـق من قريب . وما أكثر المبشرات ودواعي الفرح بفضـل الله ، التي تفجأ المؤمن مـن خلال الإطلالة المبـاركة ،عبر الكلمة في الهدي المحمدي.

ومن الخير أن نتابـع النظر في هذا الهدي الميمون ، ابتغـاء الاستنارة المتجددة بما تزدان به تلـك المشاهد من الضياء ، وذلـك مما يسعف في أن يدرك الـواحد منا ببصيرة المؤمن ، ما تحمـل من الدلالة على عظيـم ما تصنعه قطرة الـدم في سبيل الله، بل ما يصنعه أيُّ إسهام مادي أو معنوي في أن تقوم قائمة الجهاد ، ويعبدَ الله حقَّ العبادة فيه .

وليس من ينكر ـــ وقد أوتي حظاً من العقل عن الله ورسوله ـــ ما تحمله تلك النصوص في زيـادة يقين المؤمن بأحقية قـوله عليه الصلاة والسـلام : « إن الجنة تحت ظلال السيوف » علماً بأن هذه الصـورة المعبرة المؤثرة ، تحكي عمل السـلاح البارز يومئذ في معركة المناجزة مع أعداء الله والإنسان ، فلا تعارض بين ذلك وبين ما يجب استخـدامه من أسلحـة متطورة في ميـادين الجهاد في سبيـل الله ، وتظل العظة التي يحملها الحديث بالغة الإثارة ، والترغيب بدار السلام مثوى المجاهدين لتكون كلمة الله هي العليا .

وها هي ذي قبضة من الشذرات الأخر تحمل نوعاً من التفصيل ، يكشف عن آماد الرضى الذي يفوز به من قاتل في سبيل الله رضيَّ النفس راغباً حقاً في الشهادة ، كما تدلُّ على مقام أهل البذل في مرضاة الله ، وما للشهداء عند ربهم من وافر النعماء والخصوصية ، لما أنهم صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فقضوا نحبهم في المعركة مقبلين غير مدبرين ، صابرين محتسبين . وعلى ساحة الاعتبار : توحي بما يجب من الالتزام بأمانة السير على منوالهم ، والعمل بمقتضى التصديق الجازم بما أعدَّ الله جل جلاله ـ بفضله ـ لهم من النعيم الذي لا يزول . وكلما ادلهمت الخطوب ، وتطاول ليل الابتلاء والفتن على هذه الأمة، تبدَّت أكثر وأكثر ، ضرورة الالتزام المومى إليه ، والعمل الجاد الذي يتقتضيه تصديق المؤمن بما جاء به الخبر الصادق عن الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وعن رسوله عليه الصلاة والسلام . قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا معاوية بن عمروٍ قال : حدثنا أبو إسحاق ـ يعني الفزاري ـ عن صفوان ـ يعني ابن عمروٍ ـ عن أبي المثنى ، عن عتبة بن عبدِ السُّلَمي ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « القتل ثلاثة ؛ رجل مؤمن قاتل بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو ، قاتلهم حتى يقتل ، فذلك الشهيد المفتخر في خيمة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة ، ورجل مؤمن فَرِقٌ على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل ، محيت ذنوبه وخطاياه ، إن السيف محاء للخطايا ، وأدخل من أي أبواب الجنة شاء ، فإن لها ثمانية أبواب ، ولجهنم سبعة أبواب وبعضها أفضل من بعض ، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله ، حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل الله حتى يقتل ، فإن ذلك في النار ، السيف لا يمحو النفاق » .

وجاء في المسند أيضاً قول الإمام أحمد :حدثنا يعمَر بن بشر قال : حدثنا عبدالله قال : أنبأنا صفوان بن عمرو أن أبا المثنى المليكيَّ حدثه أنه سمع عتبة ابن عبد السلمي ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ يحدث عن رسول الله ﷺ قال :

«القتل ثلاثـة : فذكر معناه . فـرق بفتح الفاء وكسر الراء : أي خـائف وجزع من فرِق بمعنى خاف .

فهذا المقـاتل في سبيل الله ، خـائف على نفسه من الـذنوب والخطايـا ، وقد أقبل على الله في ميدان القتـال يبغي أن تمحى ويعفى عليها، فلا يبقـى لها من أثر يعوقـه عن دخول الجنة ، وقـد أكرمه الله بذلـك ؛ لأن السيف الذي يقاتـل به في سبيل يمحو الله به الخطايا ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « السيف محاء ـ وهي على وزن فعـال صيغة مبـالغة ــ للخطايا » واكـرم بذلـك من وسيلـة ، ويا سعادة لمن يخوضون معارك الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، يحدوهم الإيمان والإخلاص. وهنيئا لهم ما ينتظـرهم يوم القيامة في جنة الخلـد التي يجدونها فرِحة بهم ؛ كما يكونون فرحين بها .

أما المنافق : فلم يُجْدِه أن يشارك في الجهـاد ـ وَرانُ الكفر مطبق على قلبه ـ ولم ينفعه أن يقتـل هناك ، فهو في النـار خالـد مخلَّد ، لأن السيف لا يمحـو النفاق ؛ فمحو الخطايا قائم حيث الإيمان موجـود تخالط بشاشته القلب، أما محو النفاق: فليس من أمر السيف أن يمحو الخطايا والآثام ، مادام القلب خالياً من الإيمان، قـد باض فيـه الكفر وعشـش ﴿وقـدمنا إلى مـا عملوا مـن عمـل فجعلناه هبـاءً منثـوراً﴾.

والحديث أخرجه الطبراني ،وابن حبان في صحيحه والبيهقي. ولفظه عند ابن حبـان : عن عتبـة بن عبـد السُّلَمـيِّ رضي الله عنه قـال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول: « القتلى ثلاثـة : رجل مؤمن جاهـد بنفسه وماله في سبيـل الله حتى إذا لقي العدو قـاتلهم حتـى يقتل ؛ فذلـك الشهيد الممتحـن في جنة الله تحت عـرشه لا يفضلـه النبيون إلا بفضـل درجـة النبوة . ورجـل فَرِقٌ على نفسـه مـن الذنـوب والخطايا جاهـد بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو قـاتل حتى يقتل، فتلك مُمَصْمِصة محت ذنوبه وخطاياه ، إن السيف محاء للخطايا ، وأدخل من أي أبواب الجنة شاء فإن لها ثمانية أبواب ، ولجهنم سبعة أبواب ، وبعضها أفضل من

بعض. ورجل منافـق جاهد بنفسه وماله ، حتى إذا لقي العـدو قاتل في سبيل الله عز وجل حتى يقتل ، فذلك في النار ؛ إن السيف لا يمحو النفاق » قال المنذري: رواه أحمد بإسناد جيد والطبراني وابن حبـان في صحيحه والبيقهي . وقال الهيثمي في مجمع الـزوائد : رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح ، خـلا المثنى الأملوكـي وهو ثقة . هكـذا وردت الروايـة عند غير أحمد بلفظ « القتلى ثـلاثة» . و«الممتحـن» بـدل « المفتخـر في خيمـة الله » كما رأينـا العبـارة عنـد أحمد . قـال المنذري: الممتحن : بفتح الحاء المهملة هو المشروح صدره ، ومنه «أولئك الذين امتحـن الله قلوبهم للتقـوى» أي شرحها ووسعهـا . وفي رواية لأحمد «المفتخـر في خيمة الله تحت عـرشه » ولعله تصحيـف ، الممصمصة : بضم الميـم الأولى وفتح الثانية وكسر الثالثة وبصادين مهملتن : هي الممحِّصة المكفِّرة .

وعن نعيم بن عمار رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : « أي الشهداء أفضل ؟ قال : الذين إن يُلْقَوْا في الصف لا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك ينطلقون في الغرف العلا من الجنة ، ويضحك إليهم ربهم ؛وإذا ضحك ربك إلى عبـد في الدنيـا فـلا حساب عليـه » رواه أحمد وأبـو يعلى ورواتهما ثقات . وأخـرج الطبراني بإسناد حسـن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قـال : قال رسول الله ﷺ : « أفضـل الجهاد عنـد الله يوم القيـامة الـذين يلتقـون في الصف الأول فـلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا ، أولئك يتلبطون في الغرف من الجنة يضحك إليهم ربك ، وإذا ضحك إلى قوم فلا حساب عليهم».

تلكم نثـارات من نثارات الضيـاء التي تزدان بها مواكـب الأبرار يوم القيـامة فتعلن إعلانها على رؤوس الخلائق ، ونعم أجر العـاملين . قال ابن الأثير في معنى «يتلبطون » فيه : أنه سئل عن الشهداء فقال :« أولئك يتلبطون في الغرف العلا » أي يتمرغون . ومنه حديث ماعز «لا تسبـوه فإنه الآن يتلبط في الجنة » أما المنذري فقال : يتلبطون معناه يضطجعون . والمعنى متقارب والخطب سهل . فما أعظم ما يغمرهـم من الفضـل الكبير في تلكم الغـرف من جنـة المأوى، وأكرم بمـن هذه حاله،يوم لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً .

إلى ربها ناظرة

رؤية أهل الجنة ربهم تبارك وتعالى عياناً يوم القيامة ـ وهم في روضة يحبرون ـ منة إلهية عظمى ، إذا نالوها نسوا ما هم فيه من النعيم المقيم ، وسبحان المنعم المتفضل الذي لا راد لفضله ، ولا حجاز عما يريد ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير . وهذا الإكرام الغامر من الله ، للسعداء من عباده ،برؤية وجهه الكريم في دار البقاء ، لا يرتاب فيه منصف ، لما أنه ثبت بالكتاب العزيز والسنة الصحيحة، وقرت به عيون أهل السنة والجماعة ، ولا يحرمه ـ كما يقول أهل الحق ـ إلا محروم . قال الحافظ ابن كثير (وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها) من هنا كان عجبًا من العجب موقف المنكرين للرؤية في تلك الدار ، مع أن الأدلة على ذلك ، بلغت من وضوح الدلالة وقوتها ـ مع قطيعة ثبوتها ـ حداً لا يتجاوزه إلا مكابر أو زائغ .

وأنت واجد أن أبناء الآخرة تخذوا منها غاية شمروا لها ، وشحذوا هممهم في الطاعات وعمل الخيرات والجهاد في سبيل الله ، من أجل أن يكونوا ـ بفضل الله ـ من أهلها .

وبين يدي ما يجب إيراده من أحاديث، هي بيان لما جاء في القرآن الحكيم، تقرر وتؤكد ، وتفصل ما يكون من إجمال وفق ما يتسع المقام في هذه السطور، تحسن الإشارة إلى ما أفاض به الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه « حادي الأرواح» من كلام طيب تمهيداً لسوق الأدلة على الوجه الذي أراد ؛ فمما نجده هناك : (وإن سألت عن يوم المزيد ، وزيارة العزيز الحميد ، ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه ، كما ترى الشمس في الظهيرة ، والقمر ليلة البدر كما تواتر عن الصادق

المصـدوق صلى الله وسلـم وبـارك عليـه ؛ وذلك مـوجـود في الصحـاح والسنـن والمسانيد مـن رواية جرير وصهيـب وأنس وأبي هريرة وأبي مـوسى ، وأبي سعيد ، فاستمع يوم ينادي المنادي : ياأهل الجنـة إن ربكم تبارك وتعالى يستزيركم فحي على زيارته ـ وما أكرمها وأعزها من زيارة ـ فيقولون : سمعاً وطاعة ، وينهضون إلى الزيارة مبادرين ، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم ، فيستوون على ظهورها مسرعين، حتى إذا انتهوا إلى الوادي الأفيح الذي جعل لهم موعداً ، وجمعوا هناك فلم يغادر الداعي منهم أحـداً ، أمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فنصـب هناك ، ثم نصبت لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ، وجلس أدناهم ـ حاشاهم أن يكون فيهم دنيء ـ على كثبان المسك ما يرون أن أصحـاب الكراسي فوقهم في العطـايا ، حتى إذا استقـرت بهم مجالسهم واطمأنت بهم أماكنهـم ، نادى المنادي : ياأهل الجنة إن لكم موعـداً يريد ربكم أن يجزيَكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجـوهنا ، ويثقل موازيننا ، ، ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا عن النار ؟ فبينما هم كذلك ؛ إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة ، فرفعوا رؤوسهـم، فإذا الجبار جل جـلاله وتقدست أسماؤه قـد أشرف عليهم من فوقهم، وقال : ياأهل الجنة سلام عليكم، فـلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام ، فيتجلى لهم الرب تبارك وتعالى يضحـك إليهم ويقول: ياأهـل الجنة ، فيكون أول ما يسمعـون منه تعـالى : أيـن عبادي الـذيـن أطـاعوني بـالغيـب ولم يـروني ؟ فهذا يـوم المزيـد ، فيجتمعون على كلمة واحدة : أن قد رضينا فارض عنا ، فيقول : ياأهل الجنة لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتـي . هذا يوم المزيد فاسألـوني ، فيجتمعون على كلمة واحدة : أرنا وجهك ننظر إليه ، فيكشف لهم الرب جل جلاله الحجب ، ويتجلى فيغشاهم مـن نوره ما لولا أن الله تعالى قضى أن لا يحترقـوا لاحترقوا ، ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه تعالى محاضرة ، حتى إنه ليقول : يافلان ، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا ، يذكره ببعض غدراته في الدنيا ، فيقول: يارب ألم تغفر لي ؟

فيقول : بلى بمغفرتي بلغت منزلتك هذه).

يقول الإمام ابن القيم : فيالذة الأسماع بتلك المحاضرة ، ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم في الدار الآخرة ، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة **﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة﴾**.

فحيَّ على جنات عدن فإنها   منازلك الأولى وفيها المخيم

والجدير بالذكر أن النصوص لم تدل على وقوع هذه الرؤية فحسب ، ولكن دلت على أن الرؤية تقع عياناً . عقد الإمام البخاري في كتاب التوحيد من الجامع الصحيح باباً ترجم له بقوله: « باب قول الله تعالى: **﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾** ثم قال رحمه الله : حدثنا عمرو بن عون قال : حدثنا خالد أو هشيم ، عن إسماعيل عن قيس عن جرير قال : « كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها فافعلوا » وله من رواية أخرى عن قيس بن أبي حازم قال ؛ حدثنا جرير قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا البدر لا تضامون في رؤيته » ثم روى البخاري بسنده في الباب المومى إليه عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبدالله قال : قال النبي ﷺ « إنكم سترون ربكم عياناً» .

ولذلك قال العلماء في قوله تعالى : **﴿ وجوهٌ يومئذ ناضرة ﴾** أى حسنة بينة مشرقة مسرورة ، **﴿ إلى ربها ناظرة ﴾** أي تراه عياناً كما رأينا في حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه .

ويبدو أن الإمام البخاري في قوله : « باب قول الله تعالى : **﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾** يشير ـ كما يقول الحافظ ـ إلى ما أخرجه الإمام أحمد وابن

أبي شيبة والدارقطني والبيهقي والخطيب في تاريخه وابن المنذر و عبد بن حميد والترمذي، والطبري وغيرهم ـ وصححه الحاكم من طريق ثوير بن فاختة عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه ألف سنة ، وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر في وجه ربه عز وجل في كل يوم مرتين قال : « ثم تلا ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ قال : بالبياض والصفاء ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ قال : تنظر كل يوم في وجه الله ». وهذا لفظ الطبري .

وقال الترمذي : حدثنا عبد بن حميد قال : أخبرني شبابة عن إسرائيل عن ثوير بن فاختة قال : سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غُدوة وعشيَّة ، ثم قرأ رسو ل الله ﷺ ﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة﴾. وروى الإمام أحمد عن ثوير بن فاختة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ، ينظر إلى أزواجه وخدمه ، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين » .

ويبدو أن هذا الحديث، كما روي مرفوعاً إلى النبيﷺ ، روي موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنه في تفسير الآية ـ وللموقوف هنا حكم المرفوع ـ قال الترمذي بعد أن روى الحديث : قال أبوعيسى : وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن إسرائيل عن ثوير عن ابن عمر مرفوعاً : ورواه عبد الملك بن أبجر عن ثوير عن ابن عمر موقوفاً . وورى عبيد الله الأشجعي عن سفيان عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر قوله ، ولم يرفعه .

إلى ربها ناظرة

نواصل اليوم رحلتنا المباركة مع لون من ألوان العطاء الإلهي ، هو غاية الغايات بالنسبة للمؤمن ، وأعني به ما يكون من رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة ، تلك الرؤية التي ثبتت ـ فيما وراء الآيات من كتاب الله عز وجل ـ بأحاديث صحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث وجهابذة العلم ـ كما أسلفنا من قبل ـ لا يمكن دفعها ولا منعها ، من أجل هذا تراها ـ بحمد الله ـ مجمعاً عليها بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة المحمدية ، كما أنها متفق عليها بين أئمة الإسلام وهداة الأنام ، الذين هم على الصراط السوي من نهج النبي عليه الصلاة والسلام ، ولذلك قال قائلهم :

وينسون النعيم إذا رأوه   فيا خسران أهل الاعتزال .

وقد جاءت الروايات التي فيها المرفوع إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وفيها الموقوف على ابن عمر رضي الله عنهما ، تكشف عن تفسيره عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى في سورة القيامة : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ بأنه نظر المؤمنين إلى وجه ربهم الكريم . ونرى في رواية للإمام أحمد « وإن أفضلهم منزلة ـ يعني أهل الجنة ـ لينظر في وجه الله كل يوم مرتين » وفي رواية الترمذي « وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية » ومثل هذا ما أخرج الدارقطني والخطيب في تاريخه عن أنس رضي الله عنه « أن النبي ﷺ أقرأه ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ فقال : والله ما نسخها منذ أنزلها ؛ يزورون ربهم تبارك وتعالى، فيُطعمون ويُسقون ويُطيَّبون ويُحَلَّوْنَ ، ويرفع الحجاب بينهم وبينه ، فينظرون إليه وينظر إليهم عز وجل » وروى ابن مردويه في «تفسيره » بسنده عن المصعب بن المقدام قال: حدثنا سفيان عن ثوير بن أبي فاختة عن أبيه عن عبدالله

بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة** ﴾ قال : من البهاء والحسن « إلى ربها ناظرة» قال :« في وجه الله عز وجل». وقال أبوصالح ذكوان السمان الزيات عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **إلى ربها ناظرة** ﴾ قال : تنظر إلى ربها نظراً . ثم حكى عن ابن عباس مثله . قال الإمام ابن القيم : (وهذا قول كل مفسر من أهل السنة والحديث).

وإذا كان المؤمن يطمع أن يقع على ما يزيده يقيناً على يقين ، بأن لأهل الجنة من عباد الله الصالحين ـ ومن هنا بيانية ـ موعداً لابد هو منجزهم إياه ـ بكرمه وفضله ـ وهو الرؤية التي يتفضل بها عليهم : فهنالك العديد من البراهين التي تؤدي هذا المطلب ؛ من ذلك ما جاء في شأن قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ إذ فسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم سبحانه ، وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ المنزل عليه القرآن ، وهو المؤتمن على بيانه .

قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا عفان قال : أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن صهيب « أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ وقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، نادى منادٍ ياأهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويُجِرنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه ولا أقرَّ لأعينهم» ورواه أيضاً ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر الهذلي ـ على كلام للعلماء فيه ـ عن أبي تميمة الهجيمي به . وقال **الإمام مسلم**: حدثنا عبيد الله بن عمر بن ميسرة قال: حدثني عبدالرحمن بن مهدي قال: حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبدالرحمن أبي يعلى عن صهيب عن النبي ﷺ قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى : تريدون أن أزيدكم شيئاً؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا

من النار ؟ قال: فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » ثم قال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة قال : حدثنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة بهذا الإسناد ثم تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ .

فالذين أحسنوا العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح والإخلاص في الدين ،يبدلهم الله الحسنى في الدار الآخرة ، وهي الجنة كما قال تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ ومن كريم فضله أن ينعم عليهم بالزيادة على ذلك بالكثير الكثير من النعم في دار المقامة ؛ وأفضل ذلك وأعلاه ، النظر إلى وجهه الكريم، وهو ما فسرت به الزيادة ـ كما نرى ـ فإنه زيادة أعظم من جميع ما أُعطوه، لايستحقون ذلك بعملهم ، بل برحمته ـ سبحانه ـ و إحسانه، فهو يعطي الجزيل على العمل القليل .

والحديث الذي نحن بصدده أخرجه أيضاً الترمذي والنسائي وابن ماجة ولفظ الترمذي بسنده ، عن صهيب عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ إن لكم عند الله موعداً ويريد أن ينجزكموه قالوا : ألم يبيض وجوهنا ، وينجنا من النار ويدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف الحجاب ، قال : فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه » قال أبو عيسى : حديث حماد بن سلمة هكذا ، رواه غير واحد عن حماد بن سلمة مرفوعاً ، وروى سليمان بن المغيرة هذا الحديث عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قوله ولم يذكر فيه عن صهيب عن النبي ﷺ .

هذا : وأخرج الطبري الحديث مختصراً ، تقتصر الرواية فيه على تفسير الزيادة وأنها النظر إلى الله عز وجل : فقد روى بسنده عن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : «النظر إلى وجه الرحمن عز وجل » كما روى بسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه « أنه سأل

رسول الله ﷺ عـن قول الله عـز وجل : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال: «الحسنى : الجنـة ، والزيادة : النظر إلى وجـه الله عز وجل» ، ورواه أيضـاً ابن أبي حاتم من حـديث زهير به . وروى الحسن بن عرفة بسنـده عن أنس رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ فقال: «للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى وهي الجنة. والزيادة النظر إلى وجه الله».

ومما يزيـد الأمر توكيداً ، ويضيف إليه قـدراً جديداً من الوثـوق الذي يقدره أهل العلم ، ما نقل بالأسانيد الصحيحة ، من تفسير الآية بما فسرها به النبي عليه الصلاة والسلام ،عـن عدد من الصحابة عليهـم الرحمة والرضوان ، وهـم الذين شهدوا التنزيل ، وعلمـوا بيان الفرقان الحكيم ، ممن وكـل إليه البيان صلوات الله وسلامه عليه. من هؤلاء الأجلة : أبوبكر الصديق ، وأبوموسى الأشعري، وحذيفة ابن اليمان ، وأنس بـن مالك ، وعبدالله بـن عباس وعبدالله بن مسعـود . كما نقل ذلك عن عدد من التابعين يرحمهم الله . منهم سعيد بن المسيَّب ، وعبدالرحمن بن أبي ليلى ،والحسن البصري ، وعبدالـرحمن بن سابط ، ومجاهد بـن جبر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعامر بن سعد ، وعطاء الخرساني والضحاك بن مزاحم ، وقتادة وإسماعيل بن عبدالرحمن السدي ، ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف .

ومما روي في ذلك أيضـاً : ما أخرج الإمام أبو جعفـر الطبري بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه (« للـذين أحسنوا الحسنى وزيادة» النظر إلى وجـه الله الكريم) وبـه عن حـذيفـة رضي الله عنه « النظـر إلى وجـه ربهم تبارك وتعـالى » . كما روى بسنده عـن ثابـت البناني عن عبـدالرحمن بن أبي ليلى في قـوله : « وزيـادة» قال: «قيل له : أرأيت قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : «إن أهل الجنة إذا دخلوا الجنـة ، فأعطوا فيها ما أعطـوا من الكرامة والنعيـم، قال : نودوا: ياأهل الجنة إن الله قد وعدكم الزيادة ، فيتجلى لهم . قال ابن أبي ليلى : فما ظنك بهم حين ثقلت مـوازينهم ، وحين صـارت الصحف في أيمانهم ، وحين جـاوزوا جسر جهنم ، ودخلوا الجنة ، وأعطوا ما أعطوا فيها من النعيم ؟ كل ذلك لم يكن

شيئاً فيما رأوا » .

اللهم اجعلنا من الـذين تثقـل موازينهـم يوم الحسـاب ، ويعطون كتـابهم بأيمانهم ، ويفوزون برؤية وجهك الكريم في جنة النعيم ياذا الجلال والإكرام .

كلما ذكرت مشاهد القيامة ، يـوم يوفي الله العباد دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ، وما ينتظـر الذين ضلوا السبيـل وغلبت عليهم شقوتهم، مـن نار تلظى وحميم وغساق ، وظـل من يحموم لا بارد ولا كريم ، وما يتحقـق معه موعود الله لأهـل تقواه مـن النعيم في الجنـات العاليـة ، وما يتفضـل به عليهـم ـ وهـو المتفضل ذو الإحسان ــ من إحلال رضوانـه عليهم ورؤية وجهه الكـريم .. كلما ذكرت تلك المشـاهد وما فيها ، أشرقـت في نفس المؤمن صور مـن سلوك أولئك الربانيين أهل الآخرة .. الذين كان لهم من عقيدة التوحيد وتذوق حلاوة الإيمان ، مـا حجزهـم عـن محارم الله ، وجعل هجيراهـم أن يكونـوا ــ على كل أحـوالهم ـ جـاهديـن في طاعتـه والتقرب إليـه ؛فتراهـم إليه منيبين ، وبين يـديه خـاشعين خاضعين ، وفي سبيلـه مجاهديـن . ويجتهدون في أن يعبـدوه ـ جـل شأنـه ـ حـق العبادة ويشكروه على نعمـه ـ كما ينبغي ـ فيضعـوا ما أنعم به عليهـم على طريق امتثالهم لما أمـر واجتنابهم لما عنه نهى ؛ فهم أبـداً ـ بتوفيقـه إياهم ـ على الطـريق التـي تجعلهم في عـداد من تـزلف لهم دار المقـامـة يوم الـدين ، ويكـونون ــ بما يتغمدهـم برحمته جل وعلا ـ من أهل القرب والفوز العظيم .

وليس من المغالاة في شيء أن نقول مع القـائلين من أهل البصائر : كأن بين هؤلاء البررة ـ في إيمانهم وتقـواهم وجهادهم ـ وبين العطـاء الإلهي في ذلك اليوم العظيم نسباً ؛ لما أن الجنة ـ كما هو ثابت ـ تشتاق إلى أبنائها ، وكل ميسر لما خلق له .

ثم إن برهان الإخلاص في قول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » القيام بحقها، ومن حقها أن تحجز قائلها عن محارم الله ، قال أبو نعيم في « الحلية » : حدثنا محمد

قال: حدثنا محمد بن أسلم قال : حـدثنا عمار بن عبدالجبار عن الهيثم بن جماز عن أبي داود عـن زيد بن أرقم رضي الله عنـه أنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة . قال رسول الله ﷺ . وإخلاصك بلا إله إلا الله ، أن تحجـزك عما حرم الله عليـك » أخـرجـه الطبراني . وعن أم سلمـة رضي الله عنها قالت: سمعـت رسول الله ﷺ يقول : « من لم تكن فيه واحـدة من ثلاث فلا يعتد بشيء مـن عمله : تقـوى تحجزه عـن المحارم ، و حلـم يكف بـه السفيه ، و خلق يعيش بـه في الناس» قال الهيثمي في « معجـم الزوائد» : رواه الطبراني ، وفيه عبدالله بن مسلـم بن هرمز قال أبو حـاتم : يكتب حديثه وليس بـالقوي ، وبقية رجاله ثقات .

هكذا يأخذ أهل العزائم أنفسهـم بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام في الدنيـا ، فيفوزون بـالزحزحـة عن النار ، ودخـول الجنة دار المتقين ، فضـلاً من الله ورحمة يوم الـدين ، وتتبدى معالم النسـب المتصل بينهم، وبين تلك المكـارم التي يجود بها الرحيم الرحمن على من يحبهم ويحبونه ، يوم تزلف الجنة للمتقين .

بدرت إلى ذهني هذه الخاطرة ، وأنا أسعد برحلة مباركة مع بعض الأحاديث المتعلقة ببعض مشـاهد القيامة، وأنظـر في صفحات من تراجـم أولئك المقربين الذيـن بات سلوكهـم عنواناً على سـلامة الطـريق التي سلكـوها ، إيماناً وطـاعة وجهاداً ، فكان مـوقعهم يوم القيامـة ، أنهم في جنات مكرمون . ذلـك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

والحـق أن أمتنـا اليوم بأمس الحاجة إلى تبين الصلة بين سـيرة هؤلاء الرجـال ـ الـذين همهم سلامـة الاتباع لما كان عليـه رسول الله ﷺ وأصحابه ـ وبين الأثر الـذي يتركـه ما جـاء في أخبـار يـوم الحشر الأكبر ، من الترغيـب والترهيـب، في تصوراتهم وسلوكهـم؛ فقد يحل ذلك كثيراً من المشكلات الفكريـة ، والسلوكية، ويعالج أمراضاً ، مبعثُها ما يكون من انفصام بين العلم والعمل ، أو بين العقيدة

والسلوك . يقـول العالم الـزاهد الثقة أحمد بـن أبي الحواري المتوفى سنـة(٢٤٦هـ) «سمعت أبـا سليمان الداراني ـ المتـوفى سنة (٢٠٥هـ) أو (٢١٥هــ) ـ يقـول : «اختلفوا علينا في الزهد ، بالعراق ؛ فمنهم مـن قال : الزهد في ترك لقاء الناس ، ومنهم من قـال : في ترك الشهوات ، ومنهم مـن قال : في ترك الشبع : وكـلامهم قريـب بعضه مـن بعض وأنا أذهـب إلى أن الزهد في تـرك ما يشغلـك عن الله» . ويشكو أحمد بن أبي الحواري إلي أبي سليمان أنه لم يوتر البارحة ، ولم يصلِّ ركعتي الفجر في جماعة ، فيكون من جوابه : «أن سبب ذلك شهوة أصابها» قال أبونعيم في الحلية : حدثنا أبـو محمد قال: حدثنا أحمد بن أبي المعلى قـال : حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال: «قلت لأبي سليمان : لم أوتر البارحـة ولم أصل ركعتي الفجر ولم أصل الصبـح في جماعة قـال : بما كسبت يـداك والله ليس بظـلام للعبيد ، شهـوة أصبتها».

وفي فهم عميق لما تكون عليه الحال ، والناس على الصراط يـوم القيامة ؛ فإما إلى الجنة و إما إلى النـار، ودعاء الأنبياء والمرسلين «سلم سلـم» يقول أبو سليمان : «إذا قال الرجـل لأخيه : بيني وبينك الصراط ، فإنه لا يعـرف الصراط ، لو عرف الصراط لأحب أن لا يتعلق بأحد ، ولا يتعلق به أحد».

وعلى هذا السنـن، في استشعار مـا جاء في الكتـاب والسنة عـن ذكر الموت، وعما يكون بعد الموت وعن يوم الحساب : يوجه رحمه الله إلى ما ينبغي أن يكون عليه العبد المعنيُّ بنفسه ، كيما يكون بتوفيق الله من أهل الآخرة . قال أثابه الله : «ينبغي للعبد المعنيِّ بنفسه ، أن يميـت العاجلة الزائلة المتعقبة بالآفات مـن قلبه، بذكر الموت وما وراء الموت من الأهوال والحساب ، ووقوفه بين يدي الجبار» .

إنه النهج الذي يجعل من التصديـق الجازم بما جاء عن الله ورسوله في هذه الشؤون ، خير حـافز على العمل المخلص المتـوازن الذي يسعد في الدنيـا ويوم الحساب ، الأمر الذي يجعل من عمارة الأرض وفق المنهـج الرباني ـ بإخلاص نية

وإتقان قائم على الأخذ بالأسباب ـ باباً إلى مرضاة الله في دار الجزاء . ويانعم ما أعده الله لهؤلاء المؤمنين الأتقياء الأصفياء ، من الخير العميم يومذاك ، حيث تكون عاقبة أمرهم أن يتغمدهم الله برحمة من عنده ، فيكونوا في زمرة من يقال لهم وقد وجفت القلوب واشتدت الكرب : ﴿ **ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون** ﴾ .

وهنالك يكشف الغطاء ، فيبصر من أعمتهم الغفلة في الدنيا ، حقيقة الصلة بين ما أخذ أهل التقوى به أنفسهم في تلك الدار ، وبين أحقية ما وُعدوا به من عطاء الرحمن الرحيم الذي لا تنفد خزائنه ، وهو الجواد الكريم .

﴿ **أنتم وأزواجكم** ﴾ : أي أنتم ونظراؤكم و ﴿ **تحبرون** ﴾ تنعمون بسعة ورغد عيش . روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي عبدالرحمن القاسم بن أبي القاسم الدمشقي عن أبي أمامة أنه سمعه يحدث عن النبي ﷺ أنه قال : « **إن قمص أهل الجنة لتبدو من رضوان الله، وإن السحابة لتمر بهم فتناديهم: يا أهل الجنة، ماذا تريدون أن أمطركم ؟** » الحديث . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن هو ابن موسى قال :حدثنا مسكين بن عبدالعزيز قال : حدثنا الأشعث الضرير عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ ؛ « **إن أدنى أهل الجنة منزلة أن له لسبع درجات وهو على السادسة ، وفوقه السابعة ،وإن له لثلثمائة خادم ، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلثمائة صحفة ـ ولا أعلمه إلا قال : « من ذهب» ـ في كل صحفة لون ليس في الأخرى ، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره ، وإنه ليقول: يارب لو أذنت لي لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم ، لم ينقص مما عندي شيء، وإن له من الحور العين لاثنتين وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا ،..** » الحديث ، وأخرجه عبدالرزاق الصنعاني في « المصنف» بأطول من رواية أحمد وشيء من الاختلاف ، وهو مرسل من طريق عكرمة عن ابن عباس .

وروى ابن أبي حاتـم بسنده عن الحسن عـن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبـا أمامة رضي الله عنه حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم ـ وذكر الجنة ـ فقال : « والذي نفس محمد بيده ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها في فيه ، ثم يخطر على باله طعام آخر ، فيتحول الطعام الذي في فيه إلى الـذي اشتهى » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون** ﴾ .

وصلى الله وسلم وبـارك على نبي الهدى والـرحمة ، سيدنـا محمد بـن عبدالله الذي ترك أمته على المحجة البيضاء فيما كان وفيما سيكون ، ورزقنا حسن الانتفاع بما عهد إلينا من أخبـار الغيب يوم ينعم السعداء الموفقون بـألوان العطاء من رب الأرض والسماء . ﴿ تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾ .

الفوز الكبير يوم يحشر الناس لرب العالمين ـ وهو مظهر من مظاهر الرضا عن أولئك الفائزين ـ يناله من وفقوا للإيمان وعمل الصالحات ، راضين عن ربهم مذعنين لما تحكم به شريعته ؛ وذلك الفوز ـ كما ثبت في الكتاب والسنة ـ جنات عالية قطوفها دانية ، ينزع الله ما في قلوب أهلها من غل ، وتراهم على سرر متقابلين، يتوج ذلك بإحلال المولى عز وجل عليهم رضوانه ـ كما جاء في صحيح الأحاديث ـ فلا يسخط عليهم أبداً . ولا تعجب ؛ فالخير منه وإليه سبحانه ؛ إذ الجنة نزل من عنده جل شأنه ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ وقد جعل ذلك كله ثواباً من عنده ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾.

وقد أشرت فيما سلف إلى ما كان من حرص المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ أن يتخذ سلوك المسلمين في الحياة الدنيا ، طابع التطلع إلى العقبى، كيف تكون في خاتمة المطاف؟ وكان هو خير أسوة للأصحاب الكرام ـ ومن ورائهم الأمة بأسرها ـ في مضمار العمل الصالح بأوسع معانيه وأشملها ؛ عبادة وجهاداً في سبيل الله ؛ فلا يدع أن يملأ الوقت كله بما هو سبيل النجاة في الدار الآخرة، حيث يتحقق للعاملين قول ربنا جل جلاله: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدين فيها لايبغون عنها حولاً ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾.

قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الغاشية : ﴿وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية.﴾: ونذكر ههنا هذا الحديث الذي رواه أبوبكر بن أبي داود ـ وقد أشرت إليه في مناسبة سابقة ـ

قال: حدثنا عمرو بن عثمان قال : حدثنا أبي عن محمد بن مهاجر عن الضحاك المعافري عن سليمان بن موسى قال : حدثني كريب أنه سمع أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ « ألاهل من مشمر للجنة ، فإن الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة ، وفاكهة وخضرة، وحَبرة ونَعمة في محلة عالية بهية ؟ قالوا : نعم يارسول الله ، نحن المشمرون لها. قال : قولوا : إن شاء الله ، قال القوم : إن شاء الله » الضحاك المعافري وثقه ابن حبان ، وشيخه سليمان بن موسى الأموي الدمشقي مختلف فيه ، وباقي رجال الإسناد ثقات .

الحَبرة : النَعمة وسعة العيش ، والحَبرة السرور ومنه قوله تعالى : ﴿ فهم في روضة يحبرون ﴾ والمراد بقوله : « إن الجنة لا خطر لها » أي لا عوض لها ولا مثل ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

ومن الواضح هنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام حضّ على التشمير للجنة لأنها عظيمة عظيمة ؛ فهو يقول : ألا فيكم ساع غاية السعي ، طالب لها عن صدق ورغبة ، ووفور عزيمة ، فإنها لا عوض لها ولا مثل ، وذكر الكثير من مظاهر النعيم المقيم فيها وصوره المشرقة، ثم وجَّه ـ وهو الذي أوتي جوامع الكلم ـ إلى عدم الاتكال على العمل ، وأنه لابد لصدق التشمير الذي يقتضي العمل الدائب والاجتهاد في طاعة الله ، من صدق التوكل على الله وتعليق الأمر على مشيئته ، فقال : « قولوا : إن شاء الله ، فقالوا : إن شاء الله ».

والتشمير : الهمّ ، وهو الجد والاجتهاد في الأمر ، والحديث أخرجه ابن ماجة أيضاً في كتاب الزهد من « السنن » من رواية أسامة رضي الله عنه وجاء فيه: «وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجةٌ حسناء جميلة وحللٌ كثيرة في مقام أبداً ، في حبرة ونضرة ، في دور عالية سليمة بهية . قالوا : نحن المشمرون لها يارسول الله ! قال:

قولوا : إن شاء الله . ثم ذكر الجهاد وحض عليه» . وأخرجه ابن حبان في صحيحه «باب وصف الجنة وأهلها » واللفظ عنده أيضاً « قالوا : نحن المشمرون لها يارسول الله ! قال: قولوا : إن شاء الله . ثم ذكر الجهاد وحض عليه. ورواه البغوي في « باب صفة الجنة وأهلها وما أعد الله للصالحين فيها » من كتابه «شرح السنة» واللفظ عنده : « ومقامٌ في أبد في دار سليمة ، فاكهة وخضرة ، وحبرة ، ونعمة في محلة عالية بهية ، قالوا : نعم يارسول الله نحن المشمرون لها ، قال: قولوا : إن شاء الله ، فقال القوم : إن شاء الله » .

والذي صح من سيرة أهل السعادة ، الذين ترنو بصائرهم إلى ما يكون من عاقبتهم في الآخرة ، أنهم يأخذون هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى التشمير ، والاهتمام بما يوصل ـ بفضل الله ـ إلى جنة عدن من الأعمال، مأخذ الجد وصدق العزيمة ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه ،لا ينطق عن الهوى ، وفي الوقت نفسه ،لا يدع أن يهدي أمته إلى الصراط المستقيم في كل ما يعود عليها بخيري الدنيا والآخرة ، وأن يحجز عن كل ما يودي بصاحبه إلى النار . والسعيد من وفقه الله ، فكان على الجادة ، وأخذ نفسه بطريق المتقين ..

وهناك يوم يقف الناس بين يدي مالك الملك رب العالمين ، يجد كل إنسان ما قدم فيوفى حسابه ، والله سريع الحساب ؛ فإما إلى دار الكرامة والنعيم الذي لا ينقضي ، وإما إلى جهنم وبئس المهاد . حتى العلاقة بين شخص وآخر في الدنيا، محسوب حسابها ؛ ما إذا كانت على النهج السوي ، إيماناً ، وصلاحاً ، تواصياً بالحق وتواصياً بالصبر على درب الصلاح ، أم يشوبها من أحدهما ، أو من كليهما ، ما يسيء إلى العقبى ، لما أن الأخلاء يوم المعاد بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ، فالتقوى ضمان أن لا يكون بعض الأخلاء عدواً لبعض هناك .

وما من ريب في أن آثار السلوك ، سوف تبدو واضحة في مشاهد يوم الحساب ﴿ ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ قال عبدالرزاق

الصنعاني في «المصنف»: أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي رضي الله عنه ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ قال : «خليلان مؤمنان وخليلان كافران ، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة ، فذكر خليله فقال: إن فلاناً خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر ، وينبئني أني ملاقيك ، اللهم فلا تضلَّه بعدي حتى تريَه مثل ما أريتني ، وترضى عنه كما رضيت عني ، فيقال له : اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً . قال : ثم يموت الآخر ، فتجتمع أرواحهما .. فيقال : لِيُثْنِ أحدكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل . واذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول : اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، ويخبرني أني غير ملاقيك ، اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه ما أريتني وتسخط عليه كما سخطت علي . قال: فيموت الكافر الآخر: فيجمع بين أرواحهما فيقال: لِيُثْنِ كل واحد منكما على صاحبه ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بئس الأخ وبئس الصاحب ، وبئس الخليل » رواه ابن أبي حاتم ، كما رواه ابن جرير الطبري من غير هذه الطريق .

هكذا تشهد ساحات القيامة آثار العلاقات بين الناس في الدنيا ، فكل صداقة وصحابة لغير الله ، فإنها تنقلب عداوة يوم القيامة، إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه ، ويحظى الأخلاء المتقون بما يفيض الله على أهل الرضى، من جنات تجري من تحتها الأنهار جزاءً بما كانوا يعملون . ويقع من اجتمعوا على الكفر ومعاداة الحق وأهله والصد عن سبيل الله في سواء الجحيم؛ فهم في عذاب الهون خالدون ، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه : ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ العنكبوت : ٢٥ .

والحق أنه ما من امرىء ينير الله بصيرته ، إلا يتخذ لنفسه النهج الذي يسلمه

ـ بفضل الله وعونه ـ إلى متبوأ الكرامة والعطاء الرباني في دار الخلود ، حيث يوفي العليم الحكيم عباده دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين .

ومن مظاهر العدل الإلهي يومذاك : أن أهل النار يرى كل منهم منزله في الجنة ، أن لو آمن مع من آمن وعمل الصالحات ؛ فيزداد حسرة ، وأن أهل الجنة يرى كل منهم منزله في النار ، أن لو ضل السبيل ؛ فيزيد من شكره لله عز وجل، روى ابن أبي حاتم بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة فيقول : ﴿ لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ ليكون له شكراً » وقال: قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة وله منزل في النار ؛ فالكافر يرث المؤمن منزله من النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة » وذلك قوله تعالى: ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ » .

فالأعمال الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله هؤلاء السعداء ، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة ـ كما ثبت في الحديث الصحيح ـ ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما تتفاوت الدرجات التي تنال في الجنة ، بحسب الأعمال الصالحات كما بينا ذلك من قبل .

والله المسؤول أن يتغمدنا برحمته ويورثنا الجنة نتبوأ منها حيث نشاء ، وله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل .

أبناء الآخرة الموفقون ، بينهم وبين الغفلة عما يلزم المؤمن عمله، كيما يكون ـ برحمة الله ـ من أهل النجاة والفوز بدار المتقين: عداء مستحكم لا ينتهي ، وذلك من توفيق الله تعالى ، فما أعد للأبرار في جنة الخلد ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لا يغفل عن التطلع إليه ، وإنفاق الساعات في طلبه، إلا من ضل سعيه وحرم بركة الحياة . ويظهر ذلك آكد وآكد ، إذا كان المؤمن على ذكر من حقيقة أن أبواب الطاعات والقربات التي تجوز بأصحابها إلى الخلود في دار المقامة ـ وهي كثيرة على كل الأصعدة في هذه الدار ـ مفتحة مشرعة، والسعيد من لم يزغ عنها ، وجاهد في سبيل أن يلجها . قال عبدالله بن الإمام أحمد حدثني أبي قال : حدثنا علي بن إسحق قال : أنبأنا عبدالله ـ يعني ابن المبارك ـ قال : أنبأنا محمد بن سوقة عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب بالجابية فقال : قام فينا رسول الله ﷺ مقامي فيكم فقال : «استوصوا بأصحابي خيراً ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب حتى إن الرجل ليبتدىء بالشهادة قبل أن يسألها ، فمن أراد منكم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ؛ فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، ولا يخلون أحدكم بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما ، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» وفي رواية أخرى لأحمد ... «فمن أحب منكم أن ينال بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة» .

الجابية : كانت يومذاك قرية من دمشق لصيقة بها وهي اليوم جزء منها ، وباب الجابية من أبوابها ، وما تزال التسمية قائمة والحمد لله . أما عن البحبوحة ـ وهي المكان المرموق المرتفع كما سيأتي ـ فهل هنالك مسلم آتاه الله نفاذ البصيرة، ورزقه حرقة الشوق إلى لقائه سبحانه ، يعزف عن التطلع إلى حسن

العاقبة يوم الدين ، وأن يدخل الجنة ويكون موقعه في رحابها خير موقع !! صحيح أن الجنة كلها خير ، ولكن الرسول ﷺ أراد ـ والله أعلم ـ مزيداً من الترغيب؛ فالبحبوحة هي الوسط والمكان المختار ،لأن بحبوحة كل شيء وسطه وخياره ، قال ابن الأثير في النهاية : يقال : تبحبح إذا تمكن وتوسط المنزل والمقام. ونجد عند الزبيدي في شرح القاموس قوله : والبحبوحة : وسط المحلة ، قال جرير :

قومي تميم هم القوم الذين هُمو ينفون تغلب عن بحبوحة الدار

وفي الحديث أنه ﷺ قال : « من سره أن يسكن في بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة » قال أبوعبيد : أراد ببحبوحة الجنة وسطها . قال : وبحبوحة كل شيء : وسطه وخياره .

فهنيئاً لمن يصدقون في إيمانهم، ويعملون الصالحات ـ ومنها ملازمة جماعة المسلمين والبعد عن كل ما يحدث الفرقة والضعف ـ هنيئاً لهم ما يكون من الإكرام الإلهي العظيم الذي بشر به من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، وهو أن يسكنوا في بحبوحة دار المقامة جنة النعيم. والحديث السابق رواه الترمذي في باب ما جاء في لزوم الجماعة من الجامع الصحيح سنن الترمذي من طريق محمد بن سوقة أيضاً عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال : خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال : «أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ، ويشهد الشاهد ولا يستشهد ، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان . عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد . من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن » قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقد رواه ابن المبارك عن محمد بن سوقة . وقد

روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر عن النبي ﷺ .

وهذا رجل يخبر النبي ﷺ أنـه من أهل الجنة وقد كان بابـه إلى ذلك ـ بفضل الله تعالى ـ إماطتُـه الأذى عن طـريق الناس ، حيـث عزل عـن طريقهـم شجرة كانـت تؤذيهم . وما أجمل الصورة التـي أحسن النبي ﷺ أيما إحسـان في الكشف عنها وهي صورة ما يكون عليه ذلك الرجل في الجنة ، حين بيَّن ـ فداه أبي وأمي ـ أنه رآه يتقلب في ظـل تلك الشجرة التي عـزلها عن طريق النـاس ؛ الشجرة التي كانت تعـوق طريق الناس، تأخذ مـوقعها المناسب في جنة عـدن بظلها الوارف ، وفاعل الخير الذي أزاحها دفعاً للأذى يستظل بذلك الظل جزاء بما أحسن ﴿إنَّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾. قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى قال : حدثنا أبوهلال قال: حدثنا قتادة عن أنس بن مالك « أن شجرة كانت على طريق الناس تؤذيهم، فأتاها رجل، فعزلها عن طريق الناس ، قال : قال النبي ﷺ : فلقد رأيته يتقلب في ظلها في الجنة ».

وغني عن البيان أن الرجل المومى إليه ما بد أن يكون مؤمناً ؛لأن الإيمان هو القاعدة التي تؤهل العمل للقبول ، وأن يكون في ميزان صاحبه ـ مع الإخلاص ـ يوم الحساب.. أما الكافر : فلا وزن يوم القيـامة لأعماله في الدنيا مهما عظم شأنها لأنها لا تقوم على أساس مـن الإيمان ، وتراه يوفى المثوبة من سمعـة ، وذكرِ حسـن وأجر مادي وما إلى ذلك في الدار العـاجلة . أما يوم عرض الأعمال على الله في دار القرار : فليـس لها أي أثر في ثقـل الموازين . ذلكم قـول ربنا جـل شأنـه في شأن الكفار : ﴿ وقدمنـا إلى ما عملوا مـن عمل فجعلناه هبـاءً منثوراً ﴾ وقوله تعالى : ﴿والذيـن كفروا أعمالهم كسراب بقيعـة يحسبه الظمآن مـاءً حتى إذا جـاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسـابه والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فـوقه سحاب ظلمات بعضـها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ .

وما أكثر ما تضم مواكب أهل الجنة التي تشرق في تلكم الساعات العصيبات يوم الفصل، أناساً تعلن منازلهم عن مدى عدل الله وفضله وإحسانه، فيما يكرمهم به ، جزاء موقف من مواقف الحمد والرضى بمصيبة، أو الشكر على نعمة ، وغير ذلك مما يدل على صدق إيمانهم وصبرهم وعمق تسليمهم لما يأتي به القدر ، وأن ما يختاره الله للمؤمن فهو الخير كله على كل حال . من أمثلة ذلك ما ورد من أن الله ينعم على عبد تقبض الملائكة روح ولده، فيسترجع ويحمد صابراً راضياً بالقضاء ، بأن يبنوا له بيتاً في الجنة ويسموه « بيت الحمد » على كلام لبعض العلماء في أبي سنان عيسى بن سنان القسملي أحد رواة الحديث . قال الحافظ ابن حبان : في «باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض» : أخبرنا أحمد بن الحسين بن عبدالجبار الصوفي قال : حدثنا أبو نصر التمار قال : حدثنا حماد بن سلمة عن أبي سنان قال : « دفنت ابني ، ومعي أبوطلحة الخولاني على شفير القبر، فلما أردت الخروج أخذ بيدي فأخرجني وقال : ألا أبشرك ؟ حدثني الضحاك بن عبدالرحمن بن عرزب، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا مات ولد العبد المؤمن قال الله للملائكة : قبضتم ولد عبدي ؟ قالوا : نعم. قال: قبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا : نعم. قال : فما قال ؟ قالوا : استرجع وحمدك ، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» وأخرجه أبوداود الطيالسي وأحمد والترمذي وحسنه . ولفظ الترمذي «ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد ».

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وجزاه الله عما رغب في الجنة ورهَب من النار ، خير ما جزى نبياً عن أمته في دار القرار .

أهل الطاعة والرضى.. والجزاء الموفور في الجنة

مما تشرق بـه مشاهـد القيامة ــ وقد تبـدلت الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرز الخلق جميعاً لله الواحد القهار ـ أن أهـل الجنة يكون فيهم أناس أدخلهم دار المقامـة ـ وهـو المنان المتفضـل ـ بـدعاء دعـوه في الدنيـا يشتمل على عهـد رجوه سبحانـه ، أن يوفيهم إياه يـوم القيامة ، فيكـون من تحقيق الموعود ــ ولا أحد أوفى بعهده من الله ـ أن يقـول جل وعلا لملائكته في شأن الواحـد منهم : إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه ، فيدخله ـ جل وعلا ـ برحمته الجنة .

والدعاء المشتمل على العهد المذكور ، من الأدعية التي رويت عن النبي ﷺ ورغب بها وأخبر ـ وهو المؤيد بوحي السماء ـ عـن ثمرتها المباركة يوم الدين . قال الإمام أحمد: حدثنا عفان قال: حدثنا حماد بـن سلمة وأخبرنا سهيل بن أبي صالح وعبدالله بن عثمان بن خثيـم عن عون بن عبدالله بن عتبة بـن مسعود وعن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قال : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، إني أعهد إليك في هـذه الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريـك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك ، فـإنك إن تكلني إلي نفسي تقربني مـن الشر وتباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتـك ، فاجعل لي عندك عهـداً توفينيـه يوم القيـامة ، إنـك لا تخلف الميعـاد ، إلا قال الله عـز وجل لملائكته يوم القيامة : إن عبدي قد عهد إلي عهداً فأوفوه إياه ، فيدخله الله الجنة» قال سهيل : فأخبرت القاسم بن عبدالـرحمن أن عوناً أخبر بكذا وكذا ! فقال : ما في أهلنا جـارية إلا وهـي تقول هذا في خـدرها . قال الحافـظ ابن كثير : تفـرد به الإمام أحمد .

هكذا تـزدان مواكـب جنة الخلـد ، بتلكم الصـور المضيئة ، التـي تشهد على

رؤوس الخلائق بفضل الله وإحسانه لمن صدقوا في العبودية، وأنه الجواد الكريم .

وإذا كان الإحسان يذكر بالإحسان ، فإن هذه الزمرة من أهل الجنة تذكرنا بما وقَفنا عليه حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أحمد والترمذي وحسنه ، وابن حبان والطيالسي - كما مر فيما سبق - من أن رضى من قبض الملائكة روح ولده وثمرة فؤاده بقضاء الله وحمده له سبحانه على كل حال ، يجعل عاقبة هذا المؤمن يوم القيامة أن يأمر الله ملائكته بأن يبنوا له بيتاً في الجنة ويسموه « بيت الحمد » فإذا رأيت بيت الحمد في الجنة ، فاعلم أنه لهذا المؤمن الذي كان يحمد ربه في السراء والضراء ، ويرضى بقضائه ويسلم الأمر إليه .

ومما يجدر ذكره هنا ، أن أصح ما ورد في باب المثوبة بالجنة لمن قبض حبيبه المصافي كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان فصبر واحتسب ورضي بقضاء الله : الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري ؛ ففي كتاب الرقاق «باب العمل الذي يبتغى به وجه الله » من الجامع الصحيح قال رحمه الله : حدثنا قتيبة قال : حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن عن عمرو عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » .

الصفي: الحبيب المصافي من الولد والأخ والزوج والأم والأب وكل من يحبه الإنسان . والمراد بالقبض : قبض روحه وهو الموت . والمراد باحتسابه: صبره على فقده راجياً الأجر من الله على ذلك ، فهو لا يجزع ولا يضيق بقدر الله ، بل يكون منه الحمد والتسليم، فلله ما أعطى ولله ما أخذ ، وأصل الحسبة - بالكسر - الأجرة. والاحتساب طلب الأجر من الله تعالى خالصاً . وفي هذا الحديث القدسي تأييد واضح لحديث المجازاة بالجنة ، لمن ابتلي بفقد صفيه فصبر واحتسب، وإن كان هذا الحديث نفسه - كما أسلفنا من قريب - أصح شيء في هذا الباب من ناحية الرواية .

وعندما يكون الأمر متعلقاً بعطاء الله ـ وهو عطاء دائم غير مجذوذ ـ فكن على اليقين الذي لا يعتريه شك من صدق وعد الله تبارك وتعالى ، وأن مظاهر الرحمة والفضل في الجنة يوم الجزاء لا تدع ريبة لمستريب ، ومنها ما ينيله الرحيم الرحمن أولئك الذين لا يقلقون ولا يجزعون عند فقد صفي من الأصفياء . ومن هذا الباب ما روى النسائي عن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً «إن الله لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض ، فصبر واحتسب وقال ما أمر به ، بثواب دون الجنة». ويدخل في هذا ما أخرج الإمام أحمد في المسند عن مرة بن إياس المزني رضي الله عنه «أن رجلاً كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له ، فقال له النبي ﷺ : أتحبه؟ فقال : يارسول الله أحبَّك الله كما أحبُّه ، ففقده النبي ﷺ فقال : ما فعل فلان؟ قالوا : يارسول الله مات ابنه! فقال : ألا تحب أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك ؟ فقال رجل : يارسول الله أله خاصةً أم لكلنا؟ قال : بل لكلكم» وجاء في رواية أخرى له : «فقال : ما فعل ابن فلان ؟ قالوا : يارسول الله مات، فقال النبي ﷺ لأبيه : أما تحب أن تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك ؟» ورواه النسائي ، وسنده على شرط الصحيح . وقد صححه ابن حبان والحاكم . واللفظ عند النسائي «فسأل عنه فقال : أما يسرك أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك ؟» وله من رواية أخرى «فعزّاه عليه ثم قال : أيها كان أحب إليك أن تُمتَّع عمرك ، أولا تأتي غداً باباً من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك ؟».

وعلى هذا السنن تطالعك مشاهد القيامة بتلك الصور المؤثرة المعبرة التي تنبىء عن عظيم فضل الله وكريم إحسانه، لمن وفقوا على طريق الطاعة والرضى: فكل صورة تسلمك إلى أخرى مثلها في مثوى الأبرار دار الخلود .

وهذا الذي رأيناه من ثمرات الصبر والاحتساب ، عند فقد الولد الواحد ، يشدنا إلى ما ورد في شأن فقدان المؤمن لأكثر من ولد ، فقد تنوعت الحوادث ـ والله أعلم ـ ورسول الله ﷺ ـ وقد أوتي من الحكمة ما أوتي ، كما أوتي جوامع

الكلم ـ يداوي كل كَلْمٍ بما يناسبه حقاً وحكمةً ،لأنه لا ينطق عن الهوى ، ويبلغ عن الله ما أراد ، والسبب الخاص الذي يرد عليه الحديث ،لا يمنع عموم اللفظ عندما يكون اللفظ عاماً ، وهذا من سعة العربية المباركة التي بها نزل الكتاب، ورحمة الله بهذه الأمة المحمدية ، وفي ذلك شديد التذكير بوجوب أن يراجع المؤمن نفسه أبداً ويدينها ؛ كيما يكون النسب صحيحاً إلى خير أمة أخرجت للناس ، الأمر الذي يجعل من التصديق الجازم بتلك البشائر عن الجنة وما فيها ، حافز إصلاح للعمل ، وباعث جدية في مراقبة الله عز وجل، وتجنبٍ لكل ما يتصل بالمسالك التي ينجرُّ إليها أهل اللهو واللعب ، والزينة والتفاخر والتكاثر، والغفلة عند النعمة، والقلق والجزع عند المصيبة . روى ابن حبان في صحيحه عن محمود ابن لبيد عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات له ثلاثة من الولد دخل الجنة » قال : قلنا: يارسول الله ، وابنان؟ قال : «وابنان » قال محمود : قلت لجابر بن عبدالله إني لأراكم لو قلتم واحداً لقال واحداً، قال : والله أظن ذلك ».

وأخرجه الإمام البخاري في « الأدب المفرد» كما أخرجه الإمام أحمد في المسند . وإسناده قوي وقد ذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد» وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات.

هذا : ومما هو جدير بالذكر ، وواجب أن يأخذ طريقه إلى النفوس : أن السلف الصالح ومن سلك سبيلهم ،تخذوا من هدي النبي ﷺ معلماً من معالم التربية على ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، وهو يواجه وقائع الحياة في السراء والضراء ، ويقوم بما يوجبه المنهج الرباني في شموله وتكامله ، سواء في أنفسهم وأهليهم ، أو فيمن ولاهم الله أمر توجيهم وإرشادهم ببصيرة وإخلاص إلى ما تقتضيه سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام التي هي بيان للكتاب الكريم، وكان ذلك بحمد الله ، طريقهم إلى أن يكونوا ـ بعد الأنبياء ـ في مقدمة من تشرق بهم مواكب الخالدين في جنات النعيم وسبيلهم هذه أمانة على طريق التأسي والكل راع ومسؤول عن رعيته !!

مفتاح الجنة... والكلمة الطيبة

عندما يدار الحديث حول ما يتفضل الله به على أهل القرب من عباده يوم القيامة في دار السلام ، دار المقامة والنعيم ؛ وأعلاه وأغلاه ما يكون من الرؤية لوجهه الكريم ـ جلَّ ربنا وتنزه عن الشبيه والمثيل .... ـ عندما يدار الحديث حول ذلك تبصراً بما جاء في كتاب الله وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ما بد من أن يستنار بفهوم الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان على هذه الساحة ، فقد كانوا مثال الدقة والاتزان في شأن المنطلق الذي يبدأ به، والوجهة التي يتحدد معها الطريق، التي إن سلكت كان المصير ـ بفضل الله ورحمته ـ تلكم الجنات التي لا يقدر قدر العطاء فيها . ولا تسل عن مقدار السعادة التي تغمر المؤمن بنورها الفياض ، ثمرة الإكرام الإلهي الذي تقر به الأعين، وتنشرح له الصدور . وسبحان من لا تنفد خزائنه ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

أخرج رزين عن يحيى بن طلحة بن عبيد الله التيمي المدني رحمه الله قال: «إن عمر رضي الله عنه رأى طلحة كئيباً بعد ما توفي رسول الله ﷺ واستخلف أبوبكر ، فقال له : مالك ؟ لعله ساءك إمرة ابن عمك أبي بكر ؟ قال : لا ، وأثنى عليه خيراً ، وقال : إني لأجدركم أن لا تسوءني إمرته ، ولكن كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ يقولها ، قال : إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا فرج الله عنه كربته ، وإن جسده وروحه ليجدان رَوْحاً ، فما منعني أن أسأل عنها إلا القدرة عليها حتى مات . قال عمر : إني لأعرفها ، قال : فلله الحمد ما هي ؟ قال . هل تعلم كلمة هي أعظم من كلمة عرضها على عمه عند الموت ؟ ولو علم أن شيئاً أعظم منها لأمره به » قال طلحة : هي والله » قال العلماء : يحيى بن طلحة بن عبيد الله يرسل عن عمر .

وليس خفياً أن الكلمة التي أرادها عمر رضي الله عنه هي الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسـول الله » وهي التي عرض صلوات الله وسلامـه عليه على عمه أبي طالب ــ وهو في مرض الموت ـ أن يقـولها كيما يشهد له بها يوم القيـامة فينجو من عذاب الله مع الناجين ، ويكون من أهل الجنة ، ولو علم ـ وهو المبلغ عن ربه عز وجل ـ شيئاً أعظم منها لأمره به . تلكم هي نقطة البدء ؛ فإذا توافر الإخلاص والعمل بمقتضى تلك الكلمة ، كـان ذلك إيذانـاً بسلامـة الوجهة على طـريق تنتهي ـ برحمة الله ـ إلى دار المقامة التي يتفضل الله بها على أهل السعادة من عباده، الذيـن كانـوا في الدنيا وهـواهم تبـع لما جاء به المصطفـى عليه الصـلاة والسلام، فيحمدونه حق الحمد ، ويشكرونه بالغ الشكـر ، وقد أثنى سبحانه عليهم بذلك فقال جل ثناؤه : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذي أحلَّنا دار المقامة من فضله لا يمسُّنا فيها نصب ولا يمسُّنا فيها لغوب﴾.

والحديث المذكور أخرجه ابن ماجة بسنـده عن الشعبي عن يحيى بن طلحة عن أم سعدى بنت عـوف المُرِّيَّة أنها قالت : «مر عمر بطلحـة بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال : مالك كئيباً ؟ أساءتك إمرة ابن عمك ؟ قال : لا ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : إني لأعلم كلمة لا يقولها أحد عند موته إلا كانت له نوراً لصحيفته، وإن جسده وروحه ليجدان لها روحاً عند الموت ، فلم أسأله حتى توفي . قال : أنا أعلمها ، هي التي أراد عمه عليها . ولو علـم أن شيئاً أنجى له منها لأمره » . قال البوصيري في « الـزوائد »: اختلف على الشعبي فقيـل : عنه ، هكذا ، وقيـل: عن ابن طلحة عـن أبيه ، وقيل: عن يحيى عـن أم سعدى عن طلحة وقيـل : عنه عن طلحة مرسلاً.

وعلى هـذا السنن مـن التبصر الحكيم ، والفهـم العميق الـذي يصل القـول بالفعل ، كيما يفوز المؤمن بـأن يزحزح عن النار ويدخل جنة الخلـد ، نقرأ ما جاء عن وهب بن منبه رحمه الله في شأن مفتاح الجنة ـ وهو لا إله إلا الله ـ من أنه لابد للمفتاح من أسنان ، وهي العمل بحق لا إله إلا الله ، فإذا فعل المرء ذلك، فتح له

ودخل الجنة برحمة الله ، وإلا لم يفتح له . قال الإمام البخاري في كتاب الجنائز من الجامع الصحيح : « باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله» . «وقيل لوهب بن منبه :أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله قال : بلى ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك » قال الحافظ رحمه الله . كأن القائل ـ يعني القائل لوهب ـ أشار إلى ما ذكر ابن إسحاق في السيرة « أن النبي ﷺ لما أرسل العلاء بن الحضرمي قال له : « إذا سئلت عن مفتاح الجنة فقل : مفتاحها لا إله إلا الله » . وروي عن معاذ بن جبل مرفوعاً نحوه أخرجه البيهقي في « الشعب »، وزاد « ولكن مفتاح بلا أسنان ،فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك » وهذه الزيادة نظير ما أجاب به وهب فيحتمل أن تكون مدرجة في حديث معاذ .

والمراد بقول «لا إله إلا الله» في هذا الحديث وغيره ـ كما أسلفنا ـ كلمتا الشهادة، فلا يرد التساؤل عن عدم ذكر الرسالة . قال الزين بن المنير : «قول لا إله إلا الله» لقب جرى على النطق بالشهادتين شرعاً . وأما قول وهب: فمراده بالأسنان التزام الطاعة ، عملاً بمقتضى الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله »؛ وذلك ما أشرت إليه من الفهم العميق والتبصر المؤمن، لما يجب أن تكون عليه نقطة البدء لخطى المؤمن على طريق تبدأ بالتوحيد الخالص والعمل الصالح، وتنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، وإنها لنعم النزل لعباد الله الصالحين ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً ﴾ .

هذا: والأثر الذي رواه البخاري عن وهب معلقاً ـ بدون سند هنا ـ في الجامع الصحيح ، وصله في « التاريخ » ، كما وصله أبو نعيم الأصبهاني في «الحلية» إذ جاء به ضمن كلام طويل لوهب. قال أبونعيم: حدثنا سليمان بن أحمد قال: حدثنا عبيد بن محمد الصنعاني قال: حدثنا همام بن مسلمة قال: حدثنا غوث بن جابر قال : حدثنا عقيل بن معقل قال : سمعت وهب بن منبه يقول... وكان من

ذلك قولـه : « وإن الله عز وجل لا يعطفه على الناس شيء مـن أمرهم إلا التضرع إليه حتـى يرحمهم ، ولا يستخـرج أحد مـن الله شيئاً من الخير بحيلـة ولا مكر ولا مخادعة ولا سخط ولا مشاورة ، ولكن يأتي بـالخير من الله رحمته ، ومن لم يتبع الخير من قبل رحمته لا يجد باباً غير ذلك يدخل منه ، فإن الله تعالى لا ينال الخير منه إلا بطاعته ، ولا يعطف اللهَ على الناس شيء إلا تعبُّدهـم وتضرعهم إليه حتى يرحمهم ... إلى أن يقول : ورحمة الله تعالى باب كل خير يبتغـى من قبله ، وإن مفتاح ذلك الباب التضرع إليه سبحانـه ؛ فمن جاء بذلك المفتاح ، فتـح لديه ، ومن أراد أن يفتح ذلك الباب بغير مفتاحه لم يفتح له. وباب خزائن الله رحمته ، ومفتاح رحمته التضرع إليه ، فمن حفظ ذلك المفتاح وجاء به فتح له الباب ودخل الخزائن، ومن دخل الخزائن فلـه فيها ما تشتهـي الأنفس وتلـذ الأعين ، وفيها ما يشـاؤون وما يدعون في مقـام أمين ، لا يحولون عنها ، ولا يخافون ولا ينصبـون ولا يهرمون ، ولا يفتقرون فيها ولا يموتون ، في نعيم مقيم وأجر كريم عظيم ، وثواب كريم نزلاً من غفور رحيم».

وقد أخرج سعيد بن منصور بسند حسن عـن وهب قوله : «مثل الداعي بلا عمل مثل الرامي بلا وتر ». قـال الحافظ رحمه الله : والحق أن من قال لا إله إله إلا الله مخلصاً أتى بمفتاح وله أسنان ، ولكن من خلط ذلك بالكبائر حتى مات مصراً عليها ، لم يكن للمفتاح أسنان قوية ، فربما طال علاجه .

جزى الله سلفنا الصالح كل خير وأجزل لهم مثوبته، بما علموا الأمة بأقوالهم وأفعالهم، كيـف تسلك الطـريق للـوصول إلى مـا أعد الله لعبـاده الصالحين يـوم القيامة ، مما لم تره الأعين ولا سمعته الآذان ، ولا يحيـط به بشر ، وكان ذلك صورة عن حسن تأسيهم بنبيهم عليه الصلاة والسلام .

لا تضارون في رؤية ربكم

هذه كلمات يراد لها أن تكون موصولة السبب، بوقفات عند الذي دلت عليه بعض النصوص القرآنية وبيانها في السنة النبوية ، من تكرمة ذي الجلال والإكرام يوم المساءلة العظيمة لأحبائه الذين أخذوا أنفسهم في الدنيا ، بأن يكونوا أذلةً على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيله، ولا يخافون على طريق الطاعة وعمل الصالحات لومة لائم ... من تكرمته ـ جل شأنه ـ لهم برؤية وجهه الكريم سبحانه وتعالى الأمر الذي تقر له أعين المؤمنين ، ويشعر أهل الإيمان والتقوى بالمزيد من فضله تباركت أسماؤه ، وأحقية ما وعد به الذين يحسنون في الدنيا ، وأن لهم يوم القيامة الحسنى وزيادة .

وهذا أوان أن نصطحب زمرة من الأحاديث التي تقرر ما سبق من أن الرؤية حق لا ريب فيه ، وتزيد الأمر توكيداً على توكيد ، سائلين المولى سبحانه إخلاص الدين والثبات على الحق ، عسى أن يجعلنا ـ بمنه وكرمه ـ من أهلها ، فإنها غاية الغايات ، وهو المحمود على كل حال . قال الإمام البخاري : حدثنا علي بن عبدالله قال : حدثنا عبدالعزيز بن عبدالصمد عن أبي عمران عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » أبوبكر بن عبدالله بن قيس : هو أبوبكر بن أبي موسى الأشعري واسم أبي بكر ،عمرو ، وقيل : عامر .

هكذا يخاطب رسول الله ﷺ العرب بما يفهمون ، فليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم جل جلاله إلا زوال المانع ورفعه بمشيئة سبحانه. وفي هذا مافيه من تقريب المعنى المراد إلى أفهامهم. ولا تسل عما يشرق في نفس المؤمن من

السرور البالـغ والفرح بفضل الله ورحمته عنـد سماع هذه البشارة العظيمـة ، وهو يرجو أن يكون ممن يسعدون يوم الدين بموعود الله بها .

والحديث أخرجه مسلم والترمذي ، واللفظ عند الترمذي « إن في الجنة جنتين آنيتهما وما فيهما من فضة ، وجنتين آنيتهما وما فيهما من ذهب . وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » والتقدير : وبين أن ينظروا في جنـة عدن ، فهـي ظرف للنـاظر . قال أبـوعيسى : هـذا حديـث حسن صحيح .

ويتفضل الله عليهـم فتقع الـرؤية ، وتكـون عيانـاً لايضامـون فيها . أخـرج البخاري بسنده عن ثابت البناني عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ قـال : « إذا دخل أهـل الجنة ، قـال : يقول الله تبـارك وتعالى : تـريدون شيئـاً أزيدكم ؟ فيقـولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تـدخلنا الجنة وتنجِّنا مـن النار ؟ قال : فيكشف الحجـاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهـم من النظر إلى ربهم عـز وجل» . ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة .

وجـاء في « كتاب التـوحيـد » مـن الجامع الصحيـح « بـاب ﴿ وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة ﴾ قول الإمام البخاري ـ في حديث طويل يشتمل على ذكر عدد من مشاهد يوم القيامة ـ : حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله قال : حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابـن شهاب ، عن عطاء بن يزيد الليثي عـن أبي هريرة رضي الله عنه «أن الناس قالـوا: يارسول الله ، هل نـرى ربنا يوم القيامـة ؟ فقال رسول الله ﷺ : هل تضا رُّون في القمر ليلـة البدر ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قـال : هل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا :لا يارسول الله ، قـال : فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يـوم القيامة فيقول : من كـان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبـع من كان يعبد الشمـس ، ومن كـان يعبد القمـر القمر، ويتبـع من كـان يعبد الطـواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمـة فيها شافعوها أو منافقوها ـ شـك إبراهيم، فيأتيهم

الله ، فيقولون: هـذا مكاننا حتى يأتي ربنـا ، فإذا جاء ربنا عرفنـاه ، فيأتيهم الله في صـورته التـي يعرفـون ، فيقول : أنـا ربكـم ، فيقولـون : أنت ربنـا ، فيتبعونـه ، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فـأكون أنا وأمتي أول من يجيـزها ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ...» الحديث وله في رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا : يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال : هل تضارُّون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً ؟ قلنا: لا ، قال: فإنكـم لا تضارُّون في رؤية ربكم يومئـذ إلا كما تضارون في رؤيتهما ، ثم قال: ينـادي منادٍ : ليـذهب كـل قوم إلى مـا كانـوا يعبدون ، فيـذهب أصحـاب الصليب مـع صليبهم ، وأصحـاب الأوثان مـع أوثانهم ، وأصحـاب كل آلهة مـع آلهتهم حتى يبقى من يعبد الله من بر وفـاجر ، وغبرات من أهل الكتاب. ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب؛ فيقـال لليهود: ما كنتم تعبدون ؟ قالـوا : نعبد عزيراً ابن الله ، فيقال: كـذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولـد ؛ فما تريدون ؟ قالـوا : نريد أن تسقينـا ، فيقال: اشربـوا ، فيتساقطـون في جهنم . ثـم يقال للنصـارى : ما كنتـم تعبدون ؟ فيقولون : كنـا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال : كذبتـم لم يكن لله صاحبة ولا ولد . فما تريدون؟ نـريد أن تسقينا ، فيقال : اشربوا ، فيتساقطـون . حتى يبقى مـن كان يعبـدالله من بـر أو فاجـر فيقال لهم : مـايحبسكم وقـد ذهب النـاس ؟ فيقولون : فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم ، وإنا سمعنا منادياً ينادي : ليلحق كل قـوم بما كانوا يعبـدون ، وإنما ننتظر ربنا. قـال: فيأتيهم الجبـار في صورة غير صورتـه التي رأوه فيهـا أول مرة؛ فيقـول : أنا ربكـم ، فيقولـون : أنت ربنـا ، فلا يكلمه إلا الأنبيـاء ، فيقول : هـل بينكم وبينه آيـة تعرفونـه ؟ فيقولـون : الساق ؛ فيكشف عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ، ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعة فيذهـب كيما يسجد ، فيعـود ظهره طبقـاً واحداً ، ثـم يؤتـى بالجسر فيجعـل بين ظهري جهنم ..» الحديث .

قوله ﷺ: « هـل تضارون » بتشديد الـراء : أي هل تضارون غيركم في حـالة

الرؤيـة بزحمة أو مخالفة في الـرؤية أو غيرها لخفـائه ، كما تفعلون أول ليلة مـن ليالي الشهر . وما يقال هنا ، يقال بالنسبة لرؤية الشمس ليس دونها سحاب . وجاء في بعض الروايـات : « تضارون » بتخفيف الراء . والمعنى : هـل يلحقكم في رؤيته ضير ، وهو الضرر . وقيل : المعنى : لا يحجب بعضكم بعضاً فيضرّبه .

وقد وردت الكلمـة في عدد مـن الروايـات عند البخـاري ومسلم وأبي داود والترمذي بلفظ « هل تضَـامون » بتخفيف الميم ، وبلفظ « تضامـون» بتشديدها، وبتاء مفتـوحة . والمعنـى في « تضامـون » أي : هل يلحقكـم ضيم ، وهـو المشقة والتعب ، فإنكم ترونه جميعاً ، لا يظلم بعضكم في رؤيته ، بحيث يراه البعض دون البعض .

وأمـا بتشديـد الميم ، فهـو من الانضمام والازدحـام ، والمعنى: لا تـزدحمون ، ويضم بعضكـم إلى بعض من ضيق . قـال ابن الأثير في «النهايـة» كما يجري عند رؤية الهلال مثـلاً ، دون رؤية القمر ، إذ يـراه كل منكم مـوسعاً عليه ، منفـرداً به. وصلوات الله وأزكـى تسليماته على سيد الأولين والآخريـن محمد بن عبـدالله الذي قرب بنور هـديه وبلاغته الفذة ، حقيقـة ما يكون من الكرم الإلهي في الـرؤية التي يسعد بها أهل الفلاح الموفقون ، سعادة لا يشقون بعدها أبداً . ونسأله تعالى ـ وهو الجواد الكريم ـ أن يمن علينا بمغفرتـه ورحمته ويجعلنا في زمرة من يفوزون بها ، إنه هو الغفور الرحيم .

رؤية العيان.. والفضل الكبير

كلامنا اليوم موصول بما كنا بسبيله في الصفحات القريبات، من إيراد بعض من نصوص السنة المطهرة، التي تؤكد ثبوت ما جاء في الكتاب العزيز من إكرام الله عباده الصادقين، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، برؤيته جل شأنه وتباركت أسماؤه وتعالى عن الشبيه والمثيل ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾.

وليس من نافلة القول، أن أعيد إلى الأذهان أن هذا العطاء الإلهي الذي يتفضل الله به على أهل الإيمان في جنة عدن ، قد بلغت الأحاديث الدالة عليه مبلغ التواتر ـ ناهيك عما جاء في آي الكتاب الكريم ـ قال الحافظ ابن حجر في كتابه «فتح الباري» : وقد أخرج أبو العباس السراج في تاريخه عن الحسن بن عبدالعزيز الجروي ـ وهو من شيوخ البخاري ـ سمعت عمرو بن سلمة يقول: سمعت مالك بن أنس ، وقيل له : ياأبا عبدالله قول الله تعالى : ﴿ إلى ربها ناظرة﴾ يقول قوم: (إلى ثوابه) فقال : كذبوا فأين هم عن قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ ومن حيث النظر: إن كل موجود يصح أن يرى وهذا على سبيل التنزل ، وإلا فصفات الخالق لا تقاس على صفات المخلوقين ، وأدلة السمع لها جمَّة بوقوع ذلك في الآخرة لأهل الإيمان دون غيرهم ، وإنها لمنقبة عظيمة لأهل الإيمان أن يكرموا زيادة على كل ما ينعم عليهم في الجنة أن يروا ربهم عياناً ، فله الحمد بجميع محامده ، قال ابن بطال : ذهب أهل السنة وجمهور الأمة إلى جواز رؤية الله في الآخرة ، ومنع الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة .. إلى أن قال: وقد تلقاها المسلمون بالقبول من لدن الصحابة والتابعين حتى حدث من أنكر الرؤية وخالف السلف .

كان عليّ أن أقدم هذه الكلمات بين يدي إيراد النصوص من السنة ـ كما

وعدت ــ لأن المهم في الموضوع أن يتذكر المؤمن ما لهذه النعمة الكبرى من حق عليه في هذه الدار ،لأن الذي يستنزل رحمة الله تعالى التي بها يزحزح العبد عن النار ويدخل الجنة .. إيمان صادق وعمل صالح وعبودية خالصة للخالق المنعم المتفضل سبحانه وتعالى ؛ فما بالك بذلك العطاء الجزيل الذي لا يقدر قدره، بعد كل ما يكون لأهل الجنة من النعيم المقيم الخالد الذي لا يبغون عنه حولاً ؛ فأهل الجنة هم فيها خالدون ؛ وقد أوردت فيما سبق من قبل جزءاً من رواية أخرجها البخاري في صحيحه تتعلق بالرؤية ، ومن الخير إيراد ما يتسع له المقام هنا من روايات أخرتزيد الأمر وضوحاً وتعين على استجلاء المعنى المراد ؛ قال الإمام مسلم : حدثني زهير بن حرب قال : حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال : حدثنا أبي عن ابن شهاب عن عطاء بن يزيد الليثي، أن أباهريرة أخبره أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يارسول الله ، قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا :لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ومن كان يتبع القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقولون : نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ...» الحديث. وفي هذا الحديث العديد من الصور التي تطفح بها مشاهد القيامة العظام، أوردها في موضعها إن شاء الله كالذي صنعت في إيراد رواية البخاري .

وغني عن البيان أن كل ما في تلكم الروايات الصحيحة ، يوجب تحريك العزائم إلى مجانبة الغفلة واللحاق بركب أهل السعادة الذين عقلوا عن الله وعن

رسـول الله عليه الصـلاة والسلام ، ووضعـوا الخبر الصـادق عما يكون في الآخـرة لأهل الإيمان البررة المخبتين موضعه اللائق به ،على ساحة العمل والجهاد والتزود ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل ، يوم ينبأ كل امرىء بما قدم وأخر ولا يسأل حميم حميماً .

ولكم تبدو ـ على صعيـد الواقع اليوم ـ آفاق للعمل الصـالح المنتج والجهاد بالمال والنفس وكل الوسائل المشروعة المتاحة ، والدفاع عن حوزة الإسلام ، وصد الغـارات المبيتـة عليـه وعلى أهلـه ، والسعيد مـن لم يبخـل بما يمكنـه على هـذه الساحـة ، وتوظيف إمكاناته تحت هذه الراية . وهنالك الثمرات المرجوة في الدنيا والآخرة إن شاء الله.

ولمسلم من رواية أخرى عن أبي سعيـد الخدري رضي الله عنه أن ناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا : يـارسول الله هل نرى ربنا يوم القيـامة ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم . قال : هـل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليـس معها سحاب، وهل تضـارون في رؤية القمر ليلـة البدر صحواً ليـس فيها سحاب ؟ قـالوا : لا يـارسول الله ! قـال : مـا تضارون في رؤيـة الله تبارك وتعـالى يـوم القيامـة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة أذن مـؤذن ، لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فـلا يبقى أحـد كان يعبـد غير الله سبحانـه من الأصنـام والأنصاب ، إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله من بر وفاجر وغبر أهل الكتاب ـ أي بقـاياهم ـ فيدعى اليهود فيقـال لهم : ما كنتم تعبـدون ؟ قالوا : كنـا نعبد عزيـراً ابن الله ، فيقـال : كذبتم مـا اتخذ الله من صـاحبة ولا ولـد . فماذا تبغون ؟ قالوا : عطشنا ياربنا فاسقنا . فيشار إليهم : ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضهـم بعضاً ، فيتساقطون في النـار ، ثم يدعى النصـارى ، فيقال لهم : ما كنتـم تعبدون ؟ قالـوا : كنا نعبد المسيح ابـن الله ، فيقال لهم : كذبتـم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولـد ، فيقال لهم : ماذا تبغون ؟ فيقولون : عطشنـا ياربنا فاسقنا ، قال : فيشار إليهم : ألا تردون ؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم

بعضها بعضاً ، فيتساقطـون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبـد الله من بر وفاجـر ، أتاهم رب العـالمين سبحانه وتعالى في أدنـى صورة من التـي رأوه فيها ، قال: فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد .قالوا : ياربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ماكنا إليهـم ولم نصاحبهم، فيقول : أنا ربكم ، فيقولـون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً (مرتين أو ثلاثاً) حتى إن بعضهم ليكاد ينقلب فيقول : هل بينكم وبينه آيـة فتعرفونـه بها ؟ فيقولون: نعـم، فيكشف عن سـاق ، فلا يبقى مـن كان يسجد مـن تلقاء نفسه إلا أذن الله لـه بالسجود ، ولا يبقـى من كان يسجـد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورتـه التي رأوه فيها أول مرة فقال : أنا ربكـم ، فيقولون : أنت ربنـا ، ثم يضرب الجسر على جهنـم وتحل الشفاعـة ويقولـون : اللهم سلـم سلم ...» الحديث .

اللهم اجعلنـا من أهـل طاعتـك وأدخلنا الجنة يـوم القيامـة برحمتـك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ،لا يهمها غيرها ، لما يكون من شدة الهول، وتوفى كل نفس جزاء ما عملت في دار الفناء ،وهم لا يظلمون شيئاً ... في ذلك اليوم ينشر الله رحمته على السعداء الذين كانوا في الدنيا ، مقيمين على خشيته بالغيب ، وهنالك ترتفع للعطاء الإلهي أعلام ، ويحظى أولئك الموفقون بالنعيم المقيم في جنة الخلد ، ويبلغ الإكرام الإلهي ما يبلغ من المدى، حين يتجلى الله عليهم ـ وهو أرحم الراحمين ، المتصف ـ جل شأنه ـ بصفات الكمال جميعها ـ يتجلى عليهم برؤية وجهه الكريم سبحانه . وصدق ربنا إذ يقول في محكم تنزيله ﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ وكلامنا اليوم موصول بما كنا فيما سبق من القول بصدده ، من إيراد زمرة مباركة من نصوص الحديث النبوي الشريف، التي حملتها إلينا دواوين السنة في شأن تلكم الكرامة الإلهية، التي يتفضل الله بها على الصفوة من خلقه .

ولكم يسعد المؤمن أن يكون في عداد أهل الرضا ، فيناله ما يناهم من الرحمات والفضل والإحسان . من أجل ذلك تراه في شوق دائم إلى لقاء الله ؛ وهنالك يسعى جاهداً في أن يكون على المحجة البيضاء ، سلوكاً للسبيل الأقوم، وأخذاً للنفس بما يأخذ به أهل العزائم أنفسهم ، طاعة لله وجهاداً في سبيل الله ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . أرأيت إلى قوله تعالى في سورة الدخان : ﴿إن المتقين في مقام أمين . في جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ وهنيئاً لمن يحظون بموعود الله في الرؤية ،وسبحان من لا تنفذ خزائن فضله ، وعطاؤه هو العطاء .

أخرج الترمذي بسنده عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتضامون في رؤية القمر ليلة البدر ، وتضامون في رؤية الشمس ؟ قالوا: لا . قال: إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون في رؤيته » .

تضامون : من الضيم وهو المشقة والتعب فلا يظلم أحداً. وفي رواية «تضامون » من الضم ـ كما مر من قبل . وفي رواية أخرى : هل تمارون أي تجادلون في ذلك أو يدخلكم شك ، وكلها روايات ظاهرة المعنى ، تؤكد ما أراده عليه الصلاة والسلام ـ وهو سيد البلغاء والفصحاء ـ من إيصال القناعة إلى النفوس بحصول ذلك يوم القيامة، ويومئذ يدخل قلوب المؤمنين من الفرح والبشرى ما الله به عليم . قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . وهكذا روى يحيى ابن عيسى الرملي وغير واحد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، وروى عبدالله بن إدريس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ . وحديث ابن إدريس عن الأعمش غير محفوظ، وحديث أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أصح .

وهذا التفصيل في الحكم على الروايات ، صورة من صور الدقة والأمانة العلمية عند علمائنا رحمهم الله . ثم قال أبوعيسى : وهكذا رواه سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. وقد روي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ من غير هذا الوجه مثل هذا الحديث وهو حديث صحيح .

وما من ريب ـ والله أعلم ـ أن هذا العطاء الإلهي الذي يتمثل برؤيته سبحانه، مرده إلى تفضله جل شأنه على عباده المتقين وهو الكريم المنان سبحانه، بأن يرضى عنهم فلا يسخط عليهم أبداً . هذا في الوقت الذي لم يكونوا يطمعون ـ وقد أحلهم دار المقامة في نعيم مقيم ـ بشيء فوق ما هم فيه ، لأنهم موقنون بأنه أعطاهم ما لم يعط أحداً من خلقه .

أخرج الإمام البخاري بسنده عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنـه قال : قال : رسول الله ﷺ: « إن الله تبـارك وتعالى يقول لأهـل الجنة : ياأهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك !! فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : يارب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

ألا إنه الفضل الرباني الذي لا يحد .. وما أعظم أن يجدد المسلمون دينهم ، بتجديـد الصلة بهذه الكلمات النـورانية وأمثـالها، تلك التـي تضيف إلى القنـاعة العقلية حرارة الإيمان بالغيب ، وصدق الوجهة في أن تكـون الدنيا ـ بحق ـ مطية الآخرة .. فهـذا الكلام كلام من لا ينطـق عن الهوى، وإنه لنعم البيـان لما جاء في كتاب الله العزيز مـن ترغيب العاملين الصادقين ، والمجاهـدين المخلصين بدار المقامة نزل الأبرار ، التي يتصاعد الإنعام فيها ويتصاعد حتى يصل إلى ما نرى في هذا الحديـث : رضوان مـن الله أكبر ، ورؤية وجهه الكـريم سبحـانه. والعـلاقة بينهما جد وثيقة ـ كما سلفت الإشارة من قريب ـ والحديث رواه بهذا اللفظ عن أبي سعيد ، أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه وغيرهم . وقال الترمذي : حديث حسن صحيـح وفي رواية أخرى لابن حبـان عن جابر بـن عبدالله رضي الله عنهما قـال : قـال رسول الله ﷺ: « إذا دخـل أهـل الجنـة الجنـة قال : أتشتهـون شيئـاً فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا وما فوق ما أعطيتنا ؟ قال: فيقول : بلى رضاي أكثر ».

هذا وتفيـد بعض الروايـات أن الخطاب بهذا الإنعـام الكريم ، يكـون أيضاً لأولئك الذين يخرجهم ربنا جل جلاله ـ وهو أرحم الراحمين ـ من النار وقد عادوا حمماً ويدخلهـم الجنة ، فيقول أهلهـا عند ذلـك : هؤلاء عتقاء الله ؛ ففـي أعقاب الحديث الطويل الذي بدىء بالكـلام على رؤية الله عز وجل ـ كما رأينا في بعض الروايات ـــ والذي عرض لعدد من مشاهـد يوم القيامة، الناطقـة بصدق وعد الله ووعيده ـ وهو من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ نقرأ «أن أبا سعيد كان

يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحِبة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟ فقال: يارسول الله كأنك ترعى بالبادية، قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا قد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا: فيقولون: يا ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

هؤلاء عتقاء الله أي يقولون: هؤلاء عتقاء الله.

ومن الواضح أن هؤلاء الذين نالتهم عناية الله تبارك وتعالى ورحمته لم يعملوا خيراً ولكنهم من أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله.

والحِبَّة: بكسر الحاء واحدة الحب بالكسر أيضاً وهو بزر مالا يقتات به مثل بزور الرياحين. وحميل السيل: فعيل بمعنى مفعول وهو ما يحمل من غثائه وزبده..

هذا: والحمد لله على نعمه التي لا تحصى ومننه التي لا تستقصى، وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة، سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ومن استمسك بهداه إلى يوم الدين.

عتقاء الله.. والجنة

هذه كلمات أتابع فيها ما العهد به قريب من أن الارتباط ـ والله أعلم ـ قائم بين الإكرام بالرؤية، وبين إحلال الله رضوانه على أهل الجنة ، فلا يسخط عليهم أبداً . وقد أشرت هنالك إلى أن هذه المكرمة الربانية ، تنال أيضاً زمرة من الموحدين الذين لم يعملوا خيراً قط ، وينتهي بهم الأمر إلى الجنة ، بعد أن يخرجهم ربنا برحمته وفضله من نار السعير ، ويحييهم على الوجه الذي أراد ، بعد أن صاروا في جهنم حمماً . وقد أوردت رواية الإمام مسلم في ذلك .

ومما ينبغي ذكره ، أن الإمام أحمد أورد الحديث بطوله في المسند من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفيه الكلام على إخراج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان من النار ، وعلى هؤلاء الذين يقول لهم أهل الجنة : عتقاء الله ، وما يكون من منة الله عليهم وتفضله بالرضا عنهم، فلا يسخط عليهم أبداً ، وقد جاء هناك: «قال أبوسعيد : فمن لم يصدق بهذا : فليقرأ هذه الآية : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وهي الآية الأربعون من سورة النساء . قال: فيقولون : ربنا قد أخرجنا من أمرتنا فلم يبق في النار أحد فيه خير ، قال : ثم يقول الله : شفعت الملائكة ، وشفع الأنبياء ، وشفع المؤمنون ، بقي أرحم الراحمين وقال : فيقبض قبضة من النار أو قال : قبضتين ، فيخرج ناس لم يعملوا لله خيراً قط ، قد احترقوا حتى صاروا حمماً : فيؤتى بهم إلى ماء يقال له : ماء الحياة ، فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحِبة في حميل السيل ، فيخرجون من أجسادهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم ، عتقاء الله ، قال : فيقال لهم : ادخلوا الجنة ، فما تمنيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم . عندي أفضل من هذا . قال : فيقولون : ربنا وما أفضل من ذلك ؟ قال : فيقول : رضائي عليكم فلا أسخط عليكم أبداً » .

ولا يخفى ما تدل عليه النصوص ، من أن هؤلاء الموحدين الذين دعاهم إخوانهم من أهل الجنة : «عتقاء الله » وكانوا قد قصروا في الدنيا ، وتخلفوا عن ركب العاملين ـ إنما جاءتهم الرحمة ، وحفتهم العناية ـ وسبحان الرحيم الرحمن ـ بعد أن ذاقوا ما ذاقوا من العذاب الذي تطهروا به من الأرجاس ، حتى أصبحوا حمماً ، بسبب أنهم قد ماتوا على التوحيد ، ولقوا ربهم على الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله محمد رسول الله» . أما الكفار : فهم خالدون مخلدون في النار ، أعاذنا الله من شرها ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً . خالدين فيها أبداً لايجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ .

أقول هذا دفعاً للالتباس ، وتذكيراً بحق لا إله إلا الله ، وما يجب من أن يدور المؤمن مع الكلمة الطيبة ، عاملاً بمقتضاها ،حيث دارت ، فهي منبع الهداية ، وسلسبيل السعادة الدنيوية الموصولة بسعادة الآخرة . والنظرة المتأملة في مجموع الروايات ، تؤكد مذهب أهل السنة والجماعة في هذه القضية بالنسبة للموحدين وغير الموحدين ، وتبينه أوضح بيان . فلا خلود في النار لأهل التوحيد، ولا جنة لأهل الكفر والضلال . قال الإمام مسلم : وحدثني هارون بن سعيد الأيلي قال : حدثنا ابن وهب قال : أخبرني مالك بن أنس عن عمرو بن يحيى بن عمارة قال : حدثني أبي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يُدخل الله أهل الجنة الجنة . يُدخل من يشاء برحمته ، ويدخل أهل النار النار ، ثم يقول : انظروا من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون منها حمماً قد امتحشوا فيلقون في نهر الحياة أو الحيا ، فينبتون كما تنبت الحِبة إلى جانب السيل ، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية » .

امتحشوا أو امتُحشوا كما في بعض الروايات : احترقوا ، والحيا : المطر سمي حيا لأن به تحيا الأرض . وأنت ترى أن هؤلاء الذين امتحشوا في النار ، كان في قلب كل واحد منهم بقية باقية من إيمان ، وهي ما عبر عنه بمثقال حبة خردل من إيمان ، فنالتهم رحمة الله تبارك وتعالى ، ثم كان لهم بفضله ومنّه ـ جل شأنه ـ ما

أخبر عنه الحديث .

هذا: وبعد أن كشف الإمام مسلم ــ وهو المعروف بدقته في الرواية ــ عن اختلاف الروايات اليسير في بعض الألفاظ ، قال : وحدثني نصر بن علي الجهضمي قال : حدثنا بشر يعني ابن المفضل عن أبي مسلمة عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها : فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال بخطاياهم) فأماتتهم إماتةً ، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر ، فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الحِبة تكون في حميل السيل ، فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية».

قوله ﷺ : «ضبائرَ ضبائرَ » كذا هو في الروايات والأصول كما قال العلماء، مكرر مرتين . وهو منصوب على الحال. والضبائر : جماعات في تفرقة والمفردضبارة وضبارة بفتح الضاد وكسرها ويقال فيها أيضاً : إضبارة بكسر الهمزة . وبثوا على أنهار الجنة : نشروا .

هكذا يحرص النبي ﷺ على تجلية المعنى الذي أراده في شأن هؤلاء المنعم عليهم في دار القرار ، ولقد كان من بلاغته الفاذة عليه الصلاة والسلام أن استعان بما يحصل في البادية في أعقاب السيل من نبات الحِبة ، وهي بزرة مالا يقتات كالريحان وغيره فيما يحمل السيل من الطين والغثاء والزبد ؛ فعتقاء الجنة هؤلاء ــ على الحال التي يكونون عليها بعد خروجهم من جهنم ـ يجيء الله بهم جماعات » متفرقة وينشرون على أنهار الجنة ، أو يلقون في نهر في أفواه الجنة ـ كما رأينا في بعض الروايات ـ فينبتون كما تنبت تلك الحبة في حميل السيل ...إلا أن هذه البلاغة التي وضعت الأمور موضعها ـ ومن ذلك الاستعانة بما يعرف الناس من أمور البادية ، حيث يحمل السيل الذي يحدثه الغيث ما يحمل من الغثاء

والزبـد ، وتنبت فيه تلـك البذور حيث تخرج النبتة صفراء ملتوية ــ قد استوقفت ذلك الـرجل ، وهو مـن أهل اللغة والبيـان والمعرفة بشـؤون البادية فقـال : كأن رسول الله ﷺ قد كان بـالبادية . وسبحان من اختار لبيان كتابـة المعجز بيان نبيِّه محمد عليه الصـلاة والسلام ، فكان هذا التساوق الفذ بين المبيَّن وبيـانه على أبلغ وجه وأكمله ، واتضحت معالم الطريق ، وبان الصبح لكل ذي عينين .

وبعد هـذا: لابد مـن الإشارة إلى أن الظاهـر ـ كما يقـول العلماء ـ مـن معنى الحديث : أن الكفار الـذين هم أهل النـار والمستحقون للخلود، لا يموتـون فيها ولا يحيـون حياة ينتفعـون بها ويستريحون معهـا ،كما قال الله تعـالى: ﴿**لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها**﴾ وكما قال سبحانه ﴿**ثم لا يموت فيها ولا يحيى**﴾ . قال الإمـام النووي رحمه الله : «وهذا جـار على مذهـب أهل الحق أن نعيـم أهل الجنـة دائم، وأن عذاب أهـل الخلـود في النار دائم . وأمـا قولـه ﷺ : «ولكن ناس أصابتهم النار » إلى آخره .فمعناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله تعالى بعـد أن يعذبـوا المدة التي أرادهـا الله تعالى . وهـذه الإماتـة ، إماتـة حقيقية يذهب معها الإحساس ، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم، ثم يميتهم، ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساس المدة التي قدرها الله تعالى ، ثم يخرجون من النار مـوتى قـد صاروا فحماً فيحملـون ضبائر كما تحمـل الأمتعة ، ويلقـون على أنهار الجنة، فيصب عليهـم ماء الحياة فيحيون وينبتون نبات الحبـةفي حميل السيل في سرعـة نباتها ، فتخـرج لضعفهـا صفـراء ملتويـة ، ثـم تشتـد قوتهم بعـد ذلـك، ويصيرون إلى منازلهم ، وتكمل أحوالهم» .

اللهم اجعلنا ممن ينتفعون بهدي نبيـك المصطفى ، فلا يحيدون عن الجادة في العمل ليوم الحساب .

السلف الصالح.. والإيقان بالرؤية

ليس عجباً من العجب أن يكون السلف الصالح ، بدءاً من الصحابة عليهم الرضوان ، مصدقين تمام التصديق بوقوع المغيبات ومنها رؤيته عز وجل يوم الدين ، بعد أن علموا ذلك من كتاب الله المجيد سبحانه وعلى لسان النبي عليه الصلاة والسلام المبلغ عن الله ما أراد . وما من ريب في أن هذا الإيمان الصادق بالغيب ـ كما جاء به الخبر الصادق عن الله ورسوله ـ سمة مميزة ألقت ظلالها على السلوك في حياة الفرد والجماعة عبر تاريخ هذه الأمة ، وكان لذلك آثاره العملية في بناء الحياة الإسلامية بشتى ميادينها ، وفق المنهج الرباني في الكتاب والسنة، كما أن ذلك الإيمان ، كان من الحوافز الجادة على العمل الصالح والجهاد في سبيل الله، وارتياد ساحات العلم النافع والعمل بأوسع معانيهما ، وكل ذلك مع الخشوع والخضوع بين يدي الله عز وجل ، والاجتهاد في العبادة ، والتزود بالتقوى ليوم المعاد.

وقد حملت إلينا المصادر شذرات طيبة تدل على عمق الإيمان عند أصحابها واستنارة بصائرهم ، وذلك عند بعض الصحابة رضوان الله عليهم ـ وقد عاشوا متنزل الوحي ـ وبعض التابعين لهم بإحسان ، ومن سار على دربهم في ذلك، ولست بسبيل الاستقصاء ، ولكني مورد منها ما يتسع له المقام في هذه العجالة، ولعل القليل ينبىء عن الكثير ، قال ابن القيم رحمه الله : قال أبو إسحاق عن عامر بن سعد « قرأ أبوبكر الصديق رضي الله عنه ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ : ما الزيادة ياخليفة رسول الله ؟ قال : النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى». وروى ابن أبي حاتم بسنده عن عمارة بن عبيد قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول: «من تمام النعمة دخول الجنة والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى » أجل، وأكرم بها من نعمة. وذكر أبوعوانة عن هلال عن عبدالله بن حكيم أنه قال: سمعت

عبدالله بن مسعود يقـول في هذا المسجد ـ مسجد الكوفة ـ يبدأ باليمين قبل أن يحدثنا فقال : « والله ما منكم من إنسان إلا إن ربه سيخلو به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر قال : فيقول : ما غرّك بي ياابن آدم ـ ثلاث مرات ـ ماذا أجبت المرسلين ـ ثـلاثاً ـ كيف عملت فيما علمت» وقيـل لابن عباس رضي الله عنهما : «كل من دخل الجنة يرى الله عز وجل ؟ قال : نعم ».

وروى ابن أبي حـاتم عن ميمـون بن أبي حمزة قـال : (كنت جالسـاً عند أبي دائل فدخـل علينا رجل يقال لـه : أبو عفيف ، فقال لـه شقيق بن سلمة : يـاأبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبـل ! قال: بلى ، سمعته يقول : «يحشر الناس يوم القيامة في صعيد واحـد فينادى: أين المتقون ؟ فيقومون في كنـف واحد من الرحمن لا يحتجـب الله منهم ولا يستتر . قلـت : مـن المتقـون ؟ قال: قـوم اتقـوا الشرك وعبادة الأوثان ، وأخلصوا لله في العبادة فيمرون إلى الجنة » .

وروى يزيد بن هارون وابن أبي عدي بـالسند عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه « أنه كـان يحدث الناس فشخصوا بأبصـارهم فقال: ما صرف أبصـاركم عني؟ قالوا : الهلال . قال : فكيف بكم إذا رأيتم وجه الله جهرة !» وقد أحصى الطبري عدداً مـن روى حديث الرؤيـة من الصحابـة فبلغ ثلاثة وعشريـن نفساً منهم: علي وأبوهريرة وأبو سعيد الخدري وأبو موسى وغيرهـم ، وروى الدارقطني عـن يحيى بـن معين أنه كـان يقول : عنـدي سبعة عشر حـديثاً في الـرؤية كلهـا صحاح. وتحدث الإمام البيهقي عـن موقف الصحابة من الرؤيـة وأنه لم يرو عن أحد منهم نفيها ثم قال : ولو كان فيها مختلفين لنقل اختلافهم في ذلك إلينا ، كما أنهم لما اختلفوا في رؤية الله بالأبصار في الدنيا ، نقل اختلافهم في ذلك إلينا ، فلما نقلت رؤية الله سبحانه وتعالى بالأبصـار في الآخرة عنهم، ولم ينقل عنهم في ذلك اختلاف كما نقـل عنهم فيهـا اختلاف في الـدنيا ، علمنـا أنهم كانـوا على القول برؤية الله بالأبصار في الآخرة متفقين ومجتمعين .

وجميل ما ورد عن الصحابي الجليل فضالـة بن عبيد رضي الله عنه أنه كان يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضا ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك».

وقد سار التـابعون ومن سار على نهجهـم سيرة الصحابة في هذا التصـديق والفهم ـ كما أسلفت ـ . هذا عمر بن عبـدالعزيز رحمه الله وأجزل مثوبته ، يكتب إلى بعـض عمالـه فيقول : « أمـا بعـد : فـإني أوصيـك بتقـوى الله ولزوم طـاعتـه، والتمسك بأمره والمعاهدة على ما حملك الله مـن دينه واستحفظك من كتابه ، فإنه بتقوى الله نجا أوليـاء الله من سخطه ، وبها رافقوا أنبيـاءه ، وبها نضرت وجوههم، ونظروا إلى خـالقهم، وهي عصمـة في الدنيا مـن الفتن ، ومـن كرب يوم القيـامة» وقال الحسـن البصري : «لو علم العابـدون في الدنيا أنهم لا يـرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا » . وتحمل إلينا المصـادر ما قال حماد بن زيد عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلى « أنه تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ فقال : إذا دخل أهـل الجنة الجنة أعطوا فيها مـا سألوا وما شـاؤوا ، فيقول الله عز وجل لهم: إنه قد بقي من حقكم شيء لم تعطوه ، فيتجلى لهم ربهم ، فلا يكون ما أعطوه عند ذلك بشيء ، فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه ربهم عز وجل . ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى ».

وحدث عبـدالله بن وهب قـال : قال مالـك بن أنس : « النـاس ينظرون إلى ربهم عز وجل يوم القيامة بأعينهم» . وقد مر بنا من قبل أنه ـ رحمه الله ـ سئل عن قوله عز وجل : ﴿ وجوه يومئذ نـاضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ أتنظر إلى الله عـز وجل، فقال: نعـم ، فقيل له : إن أنـاساً يقولـون : تنظر ما عنـده ، قال : بل تنظـر إليه نظراً، أين هم من قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئـذ لمحجوبون﴾ . وروى الربيع عن الإمام الشافعـي رحمه الله أنه قال في قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ « لما حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا، قال الربيع : قلت: ياأبا عبدالله وتقول به ؟ قال: نعم وأدين الله به»

وحدث أبوالقاسم الأنماطي صاحب المزني قال: قال الشافعي رحمه الله : «في قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ » دلالة على أن أولياء الله يرونه يوم القيامة بأبصارهم ووجوههم» وقال إسحاق بن منصور قلت لأحمد رحمه الله : «أليس ربنا تبارك وتعالى يراه أهل الجنة ؟ أليس نقول بهذه الأحاديث ؟ قال : صحيح ».

وهكذا نجد الأئمة ومن يوثق برأيهم في الإسلام ، يسيرون على سنن الصحابة والتابعين لهم بإحسان في هذا الأمر العظيم والمنة الكبرى .

وذكر ابن أبي حاتم عن قتيبة بن سعيد أنه كان يقول : « قول الأئمة المأخوذ به في الإسلام والسنة، الإيمان بالرؤية والتصديق بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ ». وذكر ابن بطة عن أبي عبيد القاسم بن سلام، أنه ذكرت عنده هذه الأحاديث التي في الرؤية فقال : «هي عندنا حق رواها الثقات عن الثقات حتى وصلت إلينا ، إلا أنَّا إذا قيل لنا فسروها لنا قلنا : لا نفسر منها شيئاً ولكن نمضيها كما جاءت ».

ماذا عن آخر أهل الجنة دخولاً الجنة

من مشاهد الرحمة الغامرة والإنعام الإلهي الكبير يوم اللقاء .. مشهد آخر أهل الجنة دخولاً الجنة !! أو آخر أهل النار خروجاً من النار ودخولاً الجنة حسب تعدد الروايات وألفاظها في ذلك ، فقد أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام خبر هذا الرجل بتفصيل يحرك القلوب ، ويهز المشاعر ، ويثير كوامن الإيمان بعظمة كلمة التوحيد . وماذا أنت قائل بتفصيل واقعة غيبية تتجلى فيها رحمةالله بعباده ، وتبديله السيئات حسنات ، وفيض عطائه الجزيل تفضلاً منه وإحساناً ... وقد جاء ذلك كله على لسان سيد البلغاء صلوات الله وسلامه عليه ببيانه المشرق وأسلوبه الرفيع الأخاذ ...

وتشدك الواقعة المؤثرة التي تأخذ بمجامع القلب أكثر وأكثر ... حين تعيش ـ بإيمانك ـ الحوار الذي ورد في الحديث، بين الواحد القهار غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول سبحانه ، وبين ذلك العبد الضعيف ، الذي أقعده تخلفه في العمل عن اللحاق بركب السابقين، الذين تفتح لهم أبواب الجنة ويقول لهم خزنتها : ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ وكل ما يملكه في هذه الحال أن يرجو ويلحَّ في الرجاء ، لعل الكريم المنان يستجيب؛ على ما كان من ضعفه وتقصيره فيما مضى . ولقد حمله الطمع بفضل الله وجوده ، حتى على عدم الوفاء بما يعد ، من أنه لا يطلب جديداً من ربه ، ويرضى بما حصل له من من العطاء.. أجل حمله الطمع على ذلك ، لأنه يريد أن لا يقف عند الذي يفرضه الوفاء ، فيحرم دخول الجنة وليس له صبر عنها، وكيف يصبر نفسه عنها وقد أشرق جمالها بقلبه ، وأبصرها تلوح أمام ناظريه، وهي من عطاء الرحمن الرحيم ، ثم إنه لا ييأس من استجابة الله له . وإذا امتلأ القلب بالرجاء الصادق، فحدث ولا حرج .. خطوة تتلوها ـ إلى الإمام ـ خطوة .. وطمع بعطاء المنان المتفضل يتبعه

طمع ، ورجاء لا يكاد يتحقق من ورائه المأمول، حتى يندفع الرجل ـ وهو العبد المتخلف عن الركب كما قلنا ـ إلى ما وراء ذلك خاشعاً متضرعاً متوسلاً والشيء البارز في الموضوع : أنه وهو يسأل ربه الكريم جل وعلا بتلك الضراعة والطمع أن يستجاب له ، يعلل كل مطلب جديد بعلة ، ويكشف له عن سبب ، وكل ذلك في ساحة الضعف بين يدي مولاه القادر القاهر والافتقار إليه .. وما أجمل أن يؤوب العبد ويحسن التضرع بخشوع وخضوع .. وكيف لا يعمل ذلك كلّه عملَه ، والمدعو المفتقَر إليه المتضرَّع على بابه ، هو الله ذو القوة المتين الذي كتب على نفسه الرحمة ، ولا ينقص ملكَه العطاء .

ويشدك الحوار العظيم بين الخالق والمخلوق ــ وهو الحوار الذي يتجلى فيه الإحسان بأعز مظاهره وأعلاها وأغلاها ــ ويهفو قلبك لمعرفة ماذا سيكون !! ويسعد الرجل بعد تلك الرحلة ، بدخول الجنة .. جنة عدن التي يخلد أهلها في نعيم مقيم لا ينقطع ولا يزول .

ولكن هل يكون ذلك خاتمة المطاف .. لا . إنه الفضل الذي لا يحد والعطاء غير المجذوذ .. فإذا دخل دار النعيم قال الله له : سل وتمنه ، فيسأل ويتمنى ما يخطر على باله في تلك اللحظات . حتى إن الله ليذكره .. يقول : كذا وكذا حتى تنقطع به الأماني فيقال له : هذا لك ومثله معه. وفي رواية : قال الله له : هذا لك وعشرة أمثاله . إنه مشهد رائع معبر عن الفيض الرباني بكلمة التوحيد ، باعث على المزيد من العمل والطمع بفضل الله الذي لا راد لفضله ، وهو ذو الجلال والإكرام .

ولننظر الحديث : أخرج البخاري بسنده في كتاب التوحيدمن الجامع الصحيح عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن الناس قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا: لا يارسول الله : قال : فهل تضارون في الشمس ليس دونها

سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك ...إلى أن يقول : ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار هو آخر أهل النار دخولاً الجنة ، فيقول : أي رب اصرف وجهي عن النار فإنه قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها ، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه ، ثم يقول الله : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألني غيره ؟ فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء ، فيصرف الله وجهه عن النار ؛ فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول : أي رب قدمني إلى باب الجنة، فيقول الله له: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسألني غير الذي أعطيت أبداً ؟ ويلك ياابن آدم ما أغدرك !! فيقول : أي رب ، ويدعو الله حتى يقول : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، ويعطى ما شاء من عهود ومواثيق ، فيقدمه إلى باب الجنة ، فإذا قام إلى باب الجنة انفهقت له الجنة فرأى ما فيها من الحَبْرة والسرور ، فيسكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : أي رب أدخلني الجنة ، فيقول : ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت؟ ويلك ياابن آدم ما أغدرك ، فيقول : أي رب لا أكون أشقى خلقك ، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه ، فإذا ضحك منه قال له : ادخل الجنة ، فإذا دخلها قال الله : تمنه ، فسأل ربه وتمنى، حتى إن الله ليذكره، ويقول : كذا وكذا حتى انقطعت به الأماني ، قال الله : ذلك لك ومثله معه » .

ثم قال البخاري قال عطاء بن يزيد : وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة لا يرد عليه من حديثه شيئاً ، حتى إذا حدث أبوهريرة أن الله تبارك وتعالى قال : ذلك لك ومثله معه ، قال أبو سعيد الخدري : وعشرة أمثاله معه ياأباهريرة . قال أبوهريرة : ما حفظت إلا قوله : « ذلك لك ومثله معه » قال أبوسعيد الخدري: أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله : «لك وعشرة أمثاله » قال أبوهريرة: «فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة» .

والملاحظ في هذه الرواية للبخاري أنه جاء في أول الحديث عن هذا الرجل هو آخر أهل النار دخولاً الجنة » كما جاء في آخره : قول أبي هريرة رضي الله عنه : « فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة » ...

ويبدو أن المآل واحد ؛ فإذا نظر إلى ما كان فيه قبل دخول الجنة ، فالوجه ما جاء في أول الرواية . وإذا نظر إلى ما آل إليه أمره من بعد حيث أصبح ـ بفضل الله وإحسانه ـ من أهل الجنة فهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة . وذلك ما جاء في رواية الإمام مسلم كما يأتي إن شاء الله ونصها « ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار ، وهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة » وهو رواية أخرى للبخاري أيضاً .

معنى قشبني ريحها : سمني وآذاني وأهلكني . كذا قاله الجماهير من أهل اللغة والغريب . وقال الداوودي : معناه غيرَّ جلدي وصورتي . وأما ذكاؤها ـ بفتح الذال ـ : فمعناه : لهيبها واشتعالها وشدة وهجها ، تقول : ذكيت النار إذا أتممت إشعالها ورفعتها . والأشهر في اللغة : ذكاها مقصوراً تقول : ذكت النار ذكاً : إذا اشتعلت . وذكر جماعات أن المد والقصر لغتان ؛ أي ذكاء وذكا. والاستفهام في قوله سبحانه : هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره ؟ يفيد تقرير المتوقع وهو عودة للسؤال كائن وأن الصواب في هذا التوقع ، ومعنى انفهقت : انفتحت واتسعت. والحبرة : السرور ، وحبره الله: سره ، ومنه قوله تعالى: ﴿فهم في روضة يحبرون﴾ ولفظ رواية مسلم « ورأى ما فيها من الخير والسرور».

اللهم اجعلنا ممن يغمرهم فضلك وإحسانك يوم الدين إنك يا ربنا أهل التقوى وأهل المغفرة .

بين المؤمن ، وبين الخبر الصادق عما يكون يوم القيامة من شديد الأهوال،وما أعد الله لعبـاده الصالحين ، من جنـات هم فيها خـالدون ، وزروع ومقام كـريم، وفوز برضوانه الأكبر ... نسب صحيح كريـم ، وهذا النسب يجعل المؤمن شديد الفـرح بتلكم البشريـات العظيمـة ، ويحمله على التـزود لغده القـريـب بالعمـل الصالح والجهاد في سبيل الله ، كيما يكون ـ بفضل الله ـ ممن ينشر سبحانه عليهم رحمته ، ويورثهم الجنة يتبوؤون منها حيث يشاؤون ، ونعم أجر العاملين . ولذلك تراه عندما يصبـغ صبغة في الجنة يبدو كما ثبت في الحديث الصحيح ـ كأنه خالي الذهن من تذكر شدة مرت بـه في الدنيا، أو بؤس ضرب بجرانه عليه ، لأن النعيم المقيم الذي آل إليه ينسيه ما كان من شدة أو بـؤس ، فأين ما انتهى إليه من جنة عدن وما فيهـا : مما كان عليه أمره في الـدنيا !! وعلى العكس من ذلـك ، من كان مصيره سواء الجحيم وبئس المصير .

قال الإمـام مسلم حدثنـا عمرو النـاقد قال: حـدثنا يزيـد بن هـارون قال: أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بأنعم أهل الدنيا مـن أهل النار يوم القيامة فيصبغ صبغة ثم يقال : ياابـن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بـك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيصبغ صبغة في الجنة ، فيقال له : ياابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ما مر بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » ورواه أحمد في المسند بهذا اللفظ .

وله في روايـة أخرى عـن أنس أيضـاً أن رسول الله ﷺ قـال : « يؤتـى بأشـد الناس كان بلاءً في الدنيا من أهل الجنة فيقول : اصبغوه صبغة في الجنة فيصبغونه

فيها صبغة فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط أو شيئاً تكرهه؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئاً أكرهه قط ، ثم يؤتى بأنعم الناس كان في الدنيا من أهل النار ، فيقول: اصبغوه فيها صبغة فيقول : ياابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ قرة عين قط ؟ فيقول : لا وعزتك ما رأيت خيراً قط ولا قرة عين قط »

قوله: فيصبغ في النار صبغة أي يغمس كما يغمس الثوب في الصبغ ، من أجل هذا لابدع في أن يُلِحَّ ذلك الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولاً الجنةأو آخر أهل النار دخولاً الجنة ــ كما جاء في الحديث الصحيح ــ ويكون ــ على تقصيره وتخلفه عن ركب أهل الصلاح والتقوى ـ شديد هذا الإلحاح بأن يكرمه ربه بإدخاله الجنة، كيلا يكون أشقى خلقه .

وقد أوردت فيما سبق حديثه من رواية الإمام البخاري في كتاب التوحيد من الجامع الصحيح ، وفي لفظ للبخاري من رواية أبي هريرة في الرقاق من الجامع «... حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده وأراد أن يُخرج من النار من أراد أن يُخرج ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم ، فيعرفوهم بعلامة آثار السجود ، وحرّم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود ، فيُخرجونهم قد امتُحشوا ، فيُصَبُّ عليهم ماءٌ يقال له: ماء الحياة ، فينبتون نبات الحِبة في حميل السيل ، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار فيقول: يارب قد قشبني ريُحها وأحرقني ذَكاؤها فاصرف وجهي عن النار ، فلا يزال يدعو الله فيقول : لبيك، إن أعطيتُك أن تسألني غيره ؟ فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ... إلى أن يقول يارب لا تجعلني أشقى خلقك . فلا يزال يدعو حتى يضحك ، فإذا ضحك منه أذِن له بالدخول فيها ، فإذا دخل فيها قيل: تمنَّ من كذا فيتمنى . ثم يقال له : تمنّ من كذا فيتمنى ، حتى تنقطع به الأماني ، فيقول له : هذا لك ومثله معه قال أبوهريرة : فذلك آخر أهل الجنة دخولاً » ثم أضاف البخاري ماروى عطاء من أن أبا سعيد يحفظ « هذا لك وعشرة أمثاله» على أن هنالك رواية للإمام البخاري في كتاب الأذان فيها اختلاف في بعض الألفاظ يسير : فقد جاء فيها : «.. ثم يفرغ

الله من القضاء بين العباد ، ويبقى رجل بين الجنة والنار ـ وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة ـ مقبل بوجهه قِبل النار فيقول: يارب اصرف وجهي عن النار قد قشبني ريحها وأحرقني ذَكاؤها ثم يأذن له في دخول الجنة ، فيقول : تمنّ . فيتمنى ، حتى اذا انقطع أمنِيَّتَهُ قال الله عز وجل : مِن كذا وكذا ـ أقبل يذكِّره ربه ـ حتى إذا انتهت الأماني قال الله تعالى : لك ذلك ومثلُه معه » .

قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة رضي الله عنهما : إن رسول الله ﷺ قال : قال الله : لك ذلك وعشرة أمثاله . قال أبو هريرة : لم أحفظ عن رسول الله ﷺ إلا قوله : لك ذلك ومثلُه معه . قال أبو سعيد : إني سمعته يقول : ذلك لك وعشرة أمثاله». وجاء في « فتح الباري » للحافظ ابن حجر رحمه الله شرحاً لقوله : « يارب لا تجعلني أشقى خلقك » المراد بالخلق هنا : من دخل الجنة ، فهو لفظ عام أريد به خاص . ومراده أنه يصير إذا استمر خارجاً عن الجنة أشقاهم . وكونه أشقاهم ظاهر لو استمر خارج الجنة وهم من داخلها .

قال الطيبي : «معناه : يارب قد أعطيتُ العهد والميثاق ولكن تفكرتُ في كرمك ورحمتك فسألت» . ووقع في الرواية التي في كتاب الصلاة « لا أكون أشقى خلقك» وللقابسي « لأكوننَّ » قال ابن التين : المعنى : لئن أبقيتني على هذه الحالة ولم تدخلني الجنة لأكوننَّ والألف في الرواية الأولى زائدة . وقال الكرماني : معناه لا أكون كافراً : قال الحافظ : قلت : هذا أقرب مما قال ابن التين ، ولو استحضر هذه الرواية التي هنا ما احتاج إلى التكلف الذي أبداه ، فإن قوله : «لا أكون » لفظُهُ لفظُ الخبر ومعناه الطلب ، ودل عليه قوله : « لا تجعلني » ووجه كونه أشقى أن الذي يشاهِد ما يشاهِد ولا يصل إليه ، يصير أشدَّ حسرةً ممن لا يشاهد . وقوله : «خلقِك» مخصوص بمن ليس من أهل النار .

ومهما يكن من أمر : فإن واقعة هذا الرجل بما فيها من الحوار بين رب العالمين جل جلاله، وبين عبد من عباده الضعفاء، الذي أقعده عن أن يكون في

عداد من يدخلون الجنة من أول الأمر ، تقصيرهُ وتوانيه عن العمل الصالح وما إليه. هذه الواقعة الغيبية التي ثبتت بالخبر الصحيح. يفترض أن تشحذ عزائم المؤمنين لمزيد من الاجتهاد في طاعة الله ، والقيام على أمره ، والجهاد في سبيله على كل صعيد أمكن هذا الجهاد ، لأنه إذا كان العطاء الرباني الذي رأينا مع هذا الإنسان الوحيد آخر أهل الجنة، دخولاً الجنة والذي عانى ما عانى قبل ذلك ، فما بالك بالفوز الكبير الذي يناله أهل التقوى الذين دأبوا في الدنيا على المسارعة في الخيرات ودعاء مولاهم سبحانه رغباً ورهباً وكانوا له عابدين . إن الانتفاع بحديث هذا الرجل وأمثال ذلك من الأحاديث التي جاءت على لسان الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ، عنوانه : مثابرة العامل واستدامة سعيه في الصالحات، والجد في كل ما هو طاعة وجهاد في سبيل الله ، ويقظة الغافل كيما يستأنف طريق السعداء الموفقين ، وهنالك يحظى بما ينالهم في الجنة التي أورثوها بما كانوا يعملون.

هذا : والحديث رواه الإمام مسلم بلفظ البخاري الأول ، وفي آخره كلام عطاء ابن يزيد عن مخالفة أبي سعيد لأبي هريرة في شأن الأمثال ، فأبوهريرة سمع «ومثله معه» وأبوسعيد سمع «عشرة أمثاله» ولعلهما واقعتان كما نجده عند أحمد من رواية أبي هريرة بعدة روايات كذلك .

والله المسؤول أن ينفعنا بهدي نبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وأن يباعد بيننا وبين الغفلة والغافلين ، ويقربنا من طريق عباده المتقين المقربين، الذين هم في الآخرة طوبى وحسن مآب ، وصلاة الله وسلامه على إمام الهدى ونبي الرحمة وعلى آله وصحابته ، ومن سلك سبيله واتبع سنته ، وجاهد في سبيل الله إلى يوم الدين .

الموائد الربانية.. والشوق إلى الجنة

السالكون طريق الجنة والزحزحة عن النار بإخلاص الدين وصالح العمل ، المنيبون إلى ربهم في خشية ليوم الحساب .. أهلٌ لأن يغبطوا ويُغبطوا ، لما أنهم صدقوا في الإيمان والعمل للآخرة ، ولم يقعدهم شيء عن تحمل المكاره في سبيل الله ، وعدم الركون إلى العاجلة وزخرفها ، ولا غرَّهم بالله الغرور ، ويوم القيامة تشرق مواكبهم بنور العطاء الإلهي ، ويدخلون ـ بفضل الله ورحمته ـ جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، جزاء بما كانوا يعملون .

والواقع أن هؤلاء البررة كانوا حقاً من أولى النهى ، حين سلكوا إلى جنة الخلد طريقها ، ولم يبخلوا بالثمن ؛ وما أكثر أبواب الخير المفتحة ، على هذه الطريق .

والمهم أن يأخذ المرء نفسه بعزيمة الصادقين، ويرتفع ـ مستعيناً بالله ـ على المعوقات والصوارف ، ﴿ إنَّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾. وقد أوردت فيما مضى عدداً من الأحاديث التي تقرر كثرة أبواب الخير المومى إليها، والتي إن ولجها المؤمن بصدق كانت بريده إلى الجنة ، والسعيد من سارع في الطاعة ولم يسوِّف . وأنت واجد أن بعض الأعمال التي هي من أيسر أحكام التكليف ، أكرم الله بها الأمة، فجعلها على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام ، طريق المؤمن إلى دار النعيم .

فعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال : « كانت علينا رعاية الإبل ، فجاءت نوبتي أرعاها ، فروّحتها بالعشي ، فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث وأدركت من قوله : «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ، ثم يقوم فيصلي ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه ، إلاوجبت له الجنة » فقلت: ما أجود هذا ؟ فإذا قائل

يقول بين يدي : التي فيها أجود ، فنظرت ، فإذا عمر بن الخطاب ، فقال : إني قد رأيتك قد جئت آنفاً ، قال : « ما منكم من أحد يتوضأ ، فيبلغ الوضوء ، أويسبغ الوضوء ، ثم يقول : أشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسولـه ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانيـة ، يدخل من أيها شـاء» أخرجه مسلم .

ونجد عند أبي داود ما روى بسنـده عن معاوية ـ يعني ابن صـالح ـ عن أبي عثمان عـن جبير بن نفير عـن عقبة أيضـاً قـال : «كنا مـع رسول الله ﷺ خـدام أنفسنا ، نتناوب الرعاية ، رعاية إبلنا ، فكانت علي رعاية الإبل ، فروحتها بالعشي فأدركت رسول الله ﷺ يخطـب الناس ، فسمعته يقول : «ما منكم مـن أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يقوم فيركع ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا قد أوجب» فقلت. بخ بخ ما أجود هذه . فقال رجـل من بين يدي : التي قبلها ياعقبة أجود منها، فنظرت فإذا هـو عمر بن الخطاب ، فقلت: ما هي ياأبـا حفص ، قال : إنه قال آنفاً قبل أن تجيء : «ما منكم من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يقول حين يفرغ مـن وضوئه : أشهد أن لا إله إلا الله وحـده لا شريك له ، وأشهـد أن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » قال معاوية: وحدثنـي ربيعة بن يـزيد عـن أبي إدريس عن عقبـة بن عامـر . ثم قـال أبوداود: حدثنا الحسين بـن عيسى قال : حدثنا عبدالله بـن يزيد المقرىء عن حيـوة ـ وهو ابن شريح ـ عـن أبي عقيل ، عن ابن عمه ، عن عقبة بن عـامر الجهني نحوه ، ولم يذكر أمـر الرعاية ، قـال عند قوله : «فـأحسن الوضوء » ثـم رفع بصره إلى السماء فقال : وساق الحديث بمعنى حديث معاوية .

قوله : روحت الإبل ، من الرواح ويكون بالعشي كما يكون الغدو في الصباح تقول : روحت الإبـل والغنم إذا أعدتها إلى مراحهـا بالعشي وهو موضـع مبيتها ، ورواه الترمذي عن أبي إدريس الخولاني وأبي عثمان النهدي ولفظه عن عمر رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من توضـأ فأحسن الوضوء ثم قال: أشهد

أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريـك له ، وأشهـد أن محمـداً عبده ورسـوله . اللهـم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء ».

هكذا يحبّب النبي ﷺ إلى أمتـه عمل الصـالحات وإتقانـه ، وأن يكون هـذا العمل خالصـاً لله تبارك وتعالى ، وهذه أبواب الجنـة تفتح للمؤمن عنـدما يفعل ذلك ، مهما قل ذلك العمل أو كان من طبيعتـه أن يتكرر ... إنها مائدة ربانية من موائد الخير والإحسـان .. وما على المؤمن إلا اغتنـام الفرصة ، وحسـن الامتثال لما دعا إليـه النبي عليـه الصلاة والسلام ورغـب به .. إنه إن فعـل ذلك كـان الفوز هناك ، وأكرم به مـن فوز عنوانه وحقيقته ، حسن المآب وجنـة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

هذا : وقـد جاء الحديـث المومى إليـه عند النسـائي بدون الـدعاء، إذ روى بسنده في المجتبى ـ السنن الصغرى ـ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « مـن توضـأ فأحسـن الوضـوء ثم قـال : أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء ».

وليس مـن مكرور القول ، التنبيه على أن هـذه المثوبة العظيمة التـي تترتب على هذه الطـاعة ، مابـدٌ من أن تصحبها الاستقـامة ، فليس يفترض بـالمؤمن أن يكون موقفه من ذلك ، موقف العابث فيقول : أذنب الآن ويغفر لي عند الوضوء، فأدخل الجنة ، ويتكرر منه ذلك عمـداً لا سمح الله ، فالذي تدل عليه النصوص أن المرء بحاجة أبداً إلى التوبة والمغفرة ، وقد تبدر منه الخطيئة في لحظة من لحظات الضعف ، فإذا تاب وأناب وأقبل على العبادة بكليته صادقاً منيباً إلى مولاه ، كان من وراء ذلـك ـ والله أعلـم ـ ما جـاءت البشارة به في كتـاب الله وسنة نبيـه عليه الصلاة والسـلام ، فالأمـر أمر تـرغيب في العبـادة وحسن الإتيـان بها ، في صدق توجه إلى الخالق البارىء سبحانه وتعالى ، وما دام العبد في مقام العبودية الخالصة

لله ائتماراً بما أمر بـه الشارع ، وانتهـاء عما نهى عنه ، كـان ذلك عنـوان السعادة في الدنيا والآخرة ، وإذا مسه طائف من الشيطان أسرع التذكر فتاب وأناب ، فكان من الذاكـرين المبصرين وذلكم ما جـاء في كتاب الله العزيز مـن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إن الـذيـن اتقوا إذا مسهـم طـائف مـن الشيطـان تـذكروا فـإذا هـم مبصرون﴾.

وتجدر الإشارة هنـا ، إلى أن كثيراً مما بشر بـه النبي ﷺ مـن غفران الـذنوب ودخول الجنة ، ملاحـظ فيه هول الموقف يوم القيامة ، ومـا يضيء به مشهد أولئك الذين ينشر الله عليهم رحمته يوم الدين ويحظـون بالنعيم المقيم ، من أمثلة ذلك ما ورد في فضل المؤذنين مـن قوله ﷺ فيما روى معـاوية رضي الله عنه قـال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المؤذنـون أطول الناس أعناقـاً يوم القيامة » وفي روايـة قال راوية : كنـت عند معاويـة بن أبي سفيـان فجاءه المؤذن يعدو إلى الصـلاة ، فقال معاوية سمعت رسول الله ﷺ وذكره . أخرجه مسلم .

قال ابن الأعرابي في معنى «أطول أعنـاقاً » أي أكثر أعمالاً يقال : لفلان عنق من الخير أي قطعـة . وقال غيره ــ كما يقول ابـن الأثير ـ مـن طول الأعنـاق وهي الرقاب لأن الناس يوم القيامة يكـونون في الكرب ـ والمؤذنون مشرئبون لأن يؤذن لهم في دخول الجنة . ـ وروي « إعناقاً » بكسر الهمزة أي إسراعاً إلى الجنة من العَنق وهو ضرب من سير الإبل سريع .

جعلنـا الله ممـن يستمعـون القـول فيتبعون أحسنـه، ووفقنـا لـلانتفـاع بهدي المصطفـى عليه الصـلاة والسلام ، كيما نكـون في زمرة المرحـومين المغفور لهم يـوم الدين ، الذين يدخلون الجنة هم فيها خالدون .

اذهب فادخل الجنة

في خضم الاستغراق بمطالب دار الفناء العاجلة ، والاغترار بزخرفها الزائل ، والتعامل في دنيا المسلمين ــ إلا من رحم ربك ـ وفق المعـايير الماديّة الصِّرفة التي هبت على المسلمين ريحها من حضارة الغرب التي لها وعليها ، الأمر الذي كان من عقابيله عنـد الكثيرين ، ضعفُ الارتباط القـائم على أخوة العقيدة بين المؤمنين ، والغفلةُ المرعبة عن الله واليوم الآخر ، وما أعدّ الجبار فيه لعباده ، فلكلٍ درجاتٌ مما عملوا إن خيراً فخير و إن شراً فشر .. في خضـم ذلك كلـه يحزن المؤمن على نفسـه وعلى إخوانه ، لما تحدثه تلـك الغفلة بشِقَّيها من الأذى ، وما يترتـب عليهـا من آثار بالغة السوء .. سواء في ذلك ما هو على صعيد الفرد، وما هو على صعيد الجماعة . والواقع الذي تكـاد النفس تذهب من سوئه حسرات ، أقـوى وأوضح شاهد على ذلك .

أقـول هذا ، مـع أن النصوص التـي تحمل أخبـار يـوم القيامـة، وما بُشر بـه المؤمنون الذين يعملون الصالحات ـ مـن جناتٍ تجري تحتها الأنهار ، وما أُنذر به أهل الضـلالة والمظـاهرة على الإسـلام وأهله مـن العذاب الأليـم ـ تملي وجـوبَ الانفلات من الغفلـة ، وتجديدَ العزيمة للعمل الصالـح ، وتغليبَ المعايير الخيرة في السلوك عامة ، وفي التعامل بين أبناء العقيدة المكرَّمة بوجه خاص ، وذلك كيما يكون المسلم أهـلاً لأن تناله الرحمة يـوم الدين ؛ فيزحـزحَ عن النار ويُدخَـلَ الجنة خالداً فيها مع الخالدين ، ولعل القراءة المتدبرة الواعية لقدر من النصوص الواردة في هذا الشأن ، مع التأدب بأدب المنصفين والحياء من الله ، تشعر المؤمن بوجوب الأوبة الصادقة إلى طريق أهل الفلاح ، والإذعـان لما توحي به البشارة والنذارة من ضرورة الإعراض عـن طريق المفتـونين الذيـن لا يرجون لله وقـاراً ،والتشمير لدار الكرامة في الآخرين .

أخرج الإمام البخاري بسنده ـ من حديث طويل ـ عن قتادة عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « يُحْبَسُ المؤمنون يوم القيامة حتى يهِمّوا بذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا .. إلى أن يقول : فيأتوني فأستأذن على ربي في داره ، فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً ، فيدعُني ما شاء الله أن يدعني ، فيقول : ارفع محمد وقل يُسْمع ، واشفع تشَفّعْ وسل تُعط ، قال : فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يُعلِّمنيه ، فيحُدُّ لي حدّاً فأخرج فأدخلهم الجنة . قال قتادة : وسمعته أيضاً يقول : فأخرج فأُخرجهم من النار ، وأُدخلهم الجنة، ثم أعود فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يَدَعَني ، ثم يقول : ارفع محمد وقل يُسْمَعْ ، واشفع تشفّعْ وسل تعطه قال : فأرفع رأسي ، فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلِّمنيه ، قال : ثم أَشفع فيحُدُّ لي حدّاً فأَخرج وأُدخلهم الجنة . قال قتادة : وسمعته يقول : فأَخرُجُ فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربي في داره ، فيؤذن لي عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجداً ، فيدَعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول : ارفع يا محمد وسل تُعْطَه قال : فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يُعَلِّمينه ، قال : ثم أشفع فيحُدُّ لي حداً فأخرج ، فأُدخلهم الجنة قال قتادة : وقد سمعته يقول : فأخرجُ فأخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن ، أي وجب عليه الخلود ، ثم تلا الآية ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ قال : وهذا المقام المحمود الذي وُعِدَ نبيكم ﷺ » .

وفي رواية لمسلم : «فأنطلق فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي . ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفّع فأرفع رأسي فأقول : يارب أمتي أمتي فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . والذي نفس محمد بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة

وبُصرى » .

وبعد : فهذا قليل من كثير من حقائق الغيب التي تعني ـ فيما تعني ـ التنبيه على أن الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام، يمتد رواء رحمته ـ بفضل الله تعالى ـ إلى الآخرة فتكون تلك الشفاعة التي يخرج بها من جهنم أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم من أهل التوحيد . ويدخلون الجنة ويفوزون فيها بالنعيم المقيم .

هذه واحدة ، وأما الثانية : فإن تلك الرحمة ، يجب أن تثير نفحات الإيمان وتشحذ العزائم ، كيما يكون المؤمن في عداد أولئك الأوابين الذين تزلف لهم الجنة غير بعيد، كما جاء في قوله تعالى في سورة ق : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد. هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد** ﴾ .

وما أروعه مشهداً ، يفرح قلوب أهل الفلاح السعداء ، فيحمدون الله حق حمده على ما أولاهم من حسن العاقبة، وما أكرمهم به من صدق وعده بإحلالهم دار المقامة من فضله يتبؤون منها حيث يشاؤون ، وتزداد نفوسهم طمأنينة بأحقية ما وعد الله من أنه لا يضيع أجر العاملين . ألم تر إلى قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿**وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين**﴾ .

هذا : وليس العهد بعيداً ، بما أوردته من حديث آخر أهل الجنة دخولاً الجنة أو آخر أهل النار دخولاً النار . ويبدو للناظر في روايات الحديث أن الأمر تكتنفه صور متعددة تشرق كلها بواسع الرحمة وجزيل الإحسان ؛ قال الإمام البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة قال : حدثنا جرير عن منصور عن إبراهيم عن عَبيدةَ عن عبدالله رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً ؛ رجل يخرج من النار حبواً ، فيقول الله : اذهب فادخل الجنة : فيأتيها فيخيّل إليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول: يارب وجدتها ملأى،

فيقول : اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيّل إليه أنها ملأى ، فيرجع.فيقول: يارب وجدتها ملأى ، فيقول : اذهب فادخل الجنـة ، فإن لك مثل الدنيا وعشرةَ أمثالها ـ أو إن لك عشرة أمثـال الدنيا ــ فيقول : أتسخر مني ــ أو أتضحك مني ــ وأنت الملك ؟ فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، وكان يقال : ذلك أدنى أهل الجنة منزلة » وبهذا اللفظ رواه مسلم .

وتجدر الإشارة إلى أنه كانتَ للعلماء وقفات عند قـوله : أتسخر مني ـ خطاباً لله عز وجـل ـ . ومما ذكـر في ذلك ما جـاء في «فتح البـاري » من قول الحافـظ ابن حجر رحمه الله : ونقل القاضي عياض عن بعضهـم أن ألف « أتسخر مني » ألف كهي في قولـه تعالى : ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهـاء منا ﴾ على أحد الأقـوال . قال: وهو كـلام متدلّلٍ علـم مكانه مـن ربه ، وبسطه لـه بالإعطاء . وجـوّز عياض أن الرجل قال ذلك وهو غير ضابط لما قال ، إذ ولِهَ عقله من السرور بما لم يخطر بباله. ويؤيـده أنه قال في بعـض طرقه عند الإمـام مسلم لما خلص مـن النار ـ وهـو ما سوف يـذكر في مـوضعه إن شـاء الله ـ لقد أعطـاني الله شيئاً مـا أعطاه أحـداً من الأولين والآخرين».

وقال القـرطبي في « المفهـم » : أكثروا مـن تأويلـه ، وأشبه مـا قيل فيـه : أنه استخفه الفرح وأدهشه فقال ذلك . وقيـل : قال ذلك لكونه خاف أن يُجازى على مـا كـان منه في الـدنيـا مـن التساهـل في الطـاعـات وارتكاب المعـاصي كفعـل السـاخريـن ، فكأنه قال: أتجازيني على ما كان مني ؟ فهـو كقوله : ﴿ سخر الله منهم ﴾ ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ جزاء سخريتهم واستهزائهم .

ومن سـلامة وحسن اتبـاعَ الصحابة رضوان عليهـم : أنه جاء في روايـة ابن مسعود رضي الله عنه ، « فضحك ابن مسعود فقالوا : مم تضحك ؟ فقال : هكذا فعل رسول الله ﷺ مـن ضحك رب العالمين حين قال الرجـل : أتستهزىء مني؟ قال : لا أستهزىء منك ، ولكني على ما أشاء قادر » .

والحمد لله أولاً وآخراً ونسأله تعالى أن يغفر لنـا خطيئاتنا ويكتبنا في عداد من ينشر عليهم رحمته يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

آخر أهل النار خروجاً منها

هذه خطوة أخرى في الرحلة مع نصوص مباركة من السنة المطهرة، تشرق بالكشف عن مظاهر الرحمة التي تلحق بمن وافتهم آجالهم وهم على كلمة التوحيد، بعد أن قعدوا عن اللحاق بركب أهل التقوى من المؤمنين الذين يفوزون من أول الأمر بالكريم من العطاء، فيدخلون الجنة ـ برحمة الله وفضله ـ ثم تتفاضل منازلهم حسب أعمالهم، ويحمدون الله على ما حباهم من النعيم المقيم ورؤية وجهه الكريم، إذ كانت لهم الحسنى وزيادة، وهو المحمود على كل حال وهو العلي الحكيم.

وأقول: خطوة أخرى لأنه قد تتعدد رواية الحديث في موضوع واحد، تبعاً لتعدد المجالس أو المناسبات في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، ويكون من أثر ذلك أن يتعدد ـ في بعض الأحيان ـ رواةُ ذلك الحديث من الصحابة عليهم الرحمة والرضوان. وهذا ما نسعد به في شأن واحد من مشاهد القيامة الذي لابد أن يعمل عمله في القلب والعقل، ويوحي بما يجب من التشمير للجنة التي حفت بالمكاره، لأنها سلعة الله وسلعة الله غالية. وكان آخر ما رأينا رواية للإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح؛ مدارها الكلام على واحد من عباد الله قال رسول الله ﷺ في شأنه: « إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً ».

وعلى هدي ما أومأت إليه من أمر تعدد الروايات، أجدني مسوقاً إلى التذكير بعدد منها جاءت في الموضوع نفسه عند الإمام مسلم وغيره. وما نجده عند مسلم جاء تحت باب عنون له الإمام النووي بقوله: « باب آخر أهل النار خروجاً » قال رحمه الله في بعض تلك الروايات: حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة وأبو كريب ـ واللفظ لأبي كُريب ـ قالا: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن عَبيدةَ عن

عبدالله ـ يعني ابن مسعود ـ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار رجل يخرج منها زحفاً ، فيقال له : انطلق فادخل الجنة ، قال : فيذهب فيدخل الجنة ، فيجد الناس قد أخذوا المنازل ، فيقال له أتذكر الزمان الذي كنت فيه ؟ فيقول : نعم . فيقال له : تمنّ فيتمنّ ، فيقال له : لك الذي تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا . قال : فيقول : أتسخر مني وأنت الملك ؟ قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه » سبحان الله كم كان فرح هذا الرجل شديداً بفضل الله، وحُق له ذلك وكأنه قال ـ على ما نقل الإمام النووي رحمه الله عن بعض العلماء ـ : أعلم أنك لا تهزأ بي لأنك رب العالمين ، وما أعطيتني من جزيل العطاء وأضعاف مثل الدنيا حق ، ولكن العجب أنك أعطيتني هذا وأنا غير أهل له .. قال : وهذا كلامُ منبسطٍ متدللٍ .

ويرى القاضي عياض ـ كما سبقت الإشارة ـ أن قول الرجل : « أتسخر مني » قد صدر عنه وهو غير ضابط لما قاله ، لما ناله من السرور ببلوغ ما لم يخطر بباله ؛ فلم يضبط لسانه دهشاً وفرحاً ، فقاله وهو لا يعتقد حقيقة معناه ، وجرى على عادته في الدنيا في مخاطبة المخلوق ، وهذا كما قال النبي ﷺ في الرجل الآخر أنه لم يضبط نفسه من الفرح ـ يعني الذي وجد في الصحراء دابته وعليها طعامه وشرابه بعد فقدها واليأس منها ـ «فقال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » رواه البخاري ومسلم . والنواجذ ـ كما يقول جمهور العلماء من أهل اللغة وغريب الحديث : الأنياب . قال الإمام النووي : وفي هذا جواز الضحك وأنه ليس بمكروه في بعض المواطن ولا بمسقط للمروءة إذا لم يجاوز به الحدَ المعتاد من أمثاله في مثل تلك الحال .

وهذه صورة أخرى تحمل تفصيلاً أكثر ، نقع عليها في رواية أخرى لمسلم إذ روى بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « آخر من يدخل الجنة رجلٌ : فهو يمشي مرةً ويكبو مرةً ، وتسفعه النار مرة . فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال : تبارك الذي نجاني منك ، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من

الأولين والآخـرين ، فتُرفـع له شجـرة ، فيقـول : أي رب أدنِني مـن هذه الشجـرة لأستظلَّ بظِلها وأشربَ من مائها فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها، فيقـولُ : لا يارب ، ويعاهده أن لا يـسأله غيرهـا ، وربُه يَعذِره لأنه يرى مالا صبر لـه عليه ، فيُدنيه منهـا ، فيستظل بظلها ، ويشرب من مـائها ، ثم تُرفع له شجرة هي أحسن من الأولى ، فيقول : أي رب أدنني من هذه لأشرب من مائهـا وأستظل بظلهـا ،لا أسألك غيرهـا ، فيقول : يـا ابن آدم ألم تعـاهدني أن لا تسـألني غيرهـا ، ويقول : لعلي إن أدنيتـك منها تسـألني غيرَهـا ، فيعاهـده أن لا يسأله غيرها . وربُه يَعذِره لأنه يرى مالا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مـائها، ثم ترفـع له شجرة عنـد باب الجنة هي أحســن من الأوليين ، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأستظلَّ بظلها وأشربَ من مائها لا أسألك غيرها ، فيقول : يا ابـن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألنـي غيرها ؟ وربه يعذِره لأنـه يرى ما لا صبر له عليه ، فيدنيه منها ، فإذا أدناه منها ، فيسمع أصوات أهل الجنة ، فيقول : أي رب أدخلنيها ، فيقول : يـا ابن آدم ، ما يصريني منك ، أيُـرضيك أن أعطيك الدنيـا ومثلَها معها ؟ قال : يـارب أتستهزىء مني وأنت رب العـالمين ؟ فضحك ابن مسعود فقال : ألا تسألوني مم أضحـك ؟ فقالوا : مم تضحك ؟ قال : هكذا ضحك رسـول الله ﷺ ، فقالوا : مم تضحـك يا رسول الله ؟ فقال : مـن ضحك رب العالمين حين قال : أتستهزىء مني وأنت رب العالمين ؟ فيقول : لا أستهزىء منك ولكني على ما أشاء قادر » .

معنى « مـا يصريني منـك » : أي ما يقطـع مسألتـك مني ، مـن الصَّر بفتح الصاد وسكون الراء وهو القطع .

صلى الله على معلم الناس الخير الـرؤوف الرحيم بالمؤمنين ، فكـم يحمل هذا الهدي النبوي المشرق بـالأخبار عما يكـون يوم الـدين ، وعما يحصـل من رحمة ذي الجلال والإكرام وفضله وإحسـانه .. كم يحمل هذا الهدي المبارك لأهـل التوحيد من نعـم يعز على العقول تحديدهـا ، وحوافز بـالغة التأثير تـرتفع بالمؤمن ــ وهو

يشتاق صادقاً إلى الجنة ــ ترتفع بـه إلى حيث إخلاص الدين لله ، والمسارعة إلى مغفرةٍ منه جل شأنه وجنةٍ عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

هذا : وفي الصحيح عند الإمام مسلم بعض الروايات الأخر التي تميط اللثام عن جوانب مهمة تزيدنا إحاطة بما يكون عليه حال ذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهل النار . روى رحمه الله بسنده عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجل يؤتى به يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها. فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملت يوم كذا وكذا وكذا ، وعملتَ يومِ كذا وكذا وكذا ، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تُعْرَض عليه ، فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنةً ، فيقول : رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا . فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه » .

ولله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الجنة والنار تتحاجان

أخبار يوم الفصل وما يكون فيه من تحقيق الوعد والوعيد ، لها دائماً آثارها المشهودة في نفوس أهل التوفيق، الذين همُّهم أبداً مرضاة الله عز وجل فيما يأخذون، وفيما يدعون . ويالها من غاية سامية تثمر - بفضل الله - الفوز بالجنة والنجاة من النار . وهؤلاء الموفقون ، يشهد لإخلاصهم أنهم - وقد تذوقوا حلاوة الإيمان - يحبون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم ، فتراهم أمناء نَصَحَةً ، يذكّرون بالموت كما يذكرونه ، ويدعون إلى عدم الغفلة عن يوم الحساب، كما هي الحال في ذوات أنفسهم أنهم لا ينسون يوم الحساب . ثم إنهم لا يفتؤون يعملون على إنارة البصائر ، كيما يباعدوا الناس - وبخاصة ذوي الكلمة المسموعة والمسؤولية الثقيلة منهم - عن الركون إلى دار الغرور ، والفتنة التي توقع في المهالك ، وتقذف بصاحبها - والعياذ بالله - إلى نار الجحيم .

من هؤلاء الموفقين الذين يُذكرون بجميل نصحهم ، وعميق مواعظهم: التابعي الجليل الثقة زِرُّ بنُ حبيش المتوفى سنة سبع وعشرين ومائة ؛ فقد كانت موعظته - وهو من هو بصدقه واستقامته على أمر الله قولاً وعملاً - تأخذ طريقها بالقول البليغ إلى النفوس ، فتحدث ما تحدث من عظيم الأثر ، ونافعه في الدنيا ويوم الدين .

قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في « الحلية » : حدثنا سليمان أحمد بن عبدالوهاب بن نجدَة قال : حدثنا علي بن عياش قال : حدثنا زكرياء بن حكيم الحنفيُّ عن الشعبي قال : كتب زِرُّ بن حبيش إلى عبدالملك بن مروان كتاباً يعظه، وكان في آخره : «.. ولا يُطمِعنك يا أمير المؤمنين في طول الحياة ما يظهر من صحتك فأنت أعلم بنفسك ، واذكر ما تكلم به الأولون :

إذا الرجال ولدت أولادُها　　　وبليت من كبر أجسادها

وجعلت أسقامُها تعتادهـا　　　تلك زروع قددنا حَصادها

فلما قرأ عبدالملك الكتاب، بكى حتى بلَّ طرف ثوبه ، ثم قال : صدق زِرٌّ لو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق ».

وإنها ـ ورب السماء والأرض ـ لمنقبة لهذا العالم العامل الناصح ،لا تفي بقدرها كلمات معدودات ؛ العملُ بالعلم والنصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، وإن ذلك ليسهم أيّما إسهام في توجيه الأمة إلى ما فيه النصر والتمكين في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، حيث الفوز بالنعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار ونعم أجر العاملين .

ولذلك كان من المهم حقاً ، أن يضع المؤمن نصب عينيه تزكية نفسه، والرقي بها إلى مصاف أولئك السعداء ، الذين تكون مواكبهم يوم القيامة إعلاناً صادقاً يُثبتُ على رؤوس الأشهاد سلامة الطريق التي يسلكها من شرح الله صدره لنور الهداية الربانية ، فخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، لأن من وراء ذلك جنة المأوى، والنعيمَ الذي لا ينقضي ، والعطاءَ الإلهي المتجدد .. عطاءَ من لا تنفَد خزائنه جل وعلا ، وهو الرزاق ذو القوة المتين .

وهل علينا من بأس بعد هذا ، إذا نحن استيقنَّا أن هذا التصرف الذي سلمت فيه المقدمات فأعطى ـ بفضل الله ـ أكرم ثمرة وخير عاقبة ، هو الذي يكشف عن التساوق مع الذي يضيء به عقل المعاد !! إنها حقيقة ينبغي أن تكون أبداً في الحسبان عند المؤمن ، كيلا تنالَ منه المعوقات والصوارف في الدار العاجلة فتحولَ دونه ودون اللحاق بركب السعداء الموفقين .

وهل ننسى ما أخبر الله به عن أولئك الذين غلبت عليهم شقوتهم في الدنيا ، فكانوا يوم الفصل من المحرومين ، وكانت عاقبتُهم جهنم وساءت مصيراً . وإذ ذاك يعترفون بذنوبهم معلنين أنهم ـ وقد ضلّوا سبيل الهدى ـ ما أغنى عنهم سمعهم ولا عقلهم الدنيويُّ شيئاً ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في

أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ .

وفي عود على بدء ، من اصطحاب بعضٍ من الأحاديث النبوية في شأن ما يؤول إليه أمر العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين ، لعل من الخير أن أورد هنا ما يكشف عن المحاجَّة التي تقع بين الجنة والنار يومذاك ، ففي ذلك عبرة لمن أراد أن يعتبر وذكرى لمن جعل رضا الله همَّه والعمل للآخرة هجيراه ...

قال الإمام البخاري رحمه الله : حدثنا عبدالله بن محمد قال : حدثنا عبدالرزاق قال : أخبرنا معمرٌ عن همّام عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال النبي ﷺ : « تحاجّت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ! قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي . ولكل واحدة منهما مِلؤها . فأما النار : فلا تمتلىء حتى يضع رجله فتقول : قط قط قط ، فهنالك تمتلىء ويُزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً. وأما الجنة : فإن الله عز وجلّ ينشىء لها خلقاً».

وأخرجه الإمام مسلم رحمه الله بهذا اللفظ ولكن عند قوله : «قالت الجنة ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم» جاءت العبارة عند مسلم « وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقَطهم وغِرّتهم » ورواه الإمام أحمد بلفظ: «فتقول : قط قط قط أي حسبي .. ».

معنى تحاجّت : تخاصمت . أما عن المتكبرين والمتجبرين : فقيل : هما بمعنى واحد ، وقيل : المتكبر : المتعاظم بما ليس فيه ، والمتجبر : الممنوع الذي لا يوصل إليه . وقيل : الذي لا يكترث بأمر . وكم في الظَّلمة الطغاة من يتصفون بذلك ويصرون على إيذاء عباد الله . والكلام هنا في صفات المخلوقين كما هو واضح ، والصفتان مذمومتان فيهم. أما عند الكلام على صفات الخالق جلّ وعلا

المتصف بالكمال المطلق، المنزّه عن كل نقص، وله الأسماء الحسنى والصفات العُلى: فنذكر قوله جل شأنه : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

قوله : ضعفاء الناس وسقطهم . السَقَط بفتح السين والقاف : أي المحتقرون الساقطون من أعينهم . قال الحافظ ابن حجر : هذا بالنسبة إلى ما عند أكثر الناس ، لكنهم بالنسبة إلى ما عند أنفسهم ـ لعظمة الله عندهم وخضوعهم له ـ في غاية التواضع لله والذلّة في عباده ، فوصفهم بالضعف والسَّقَط بهذا المعنى صحيح . أو المراد بالحصر في قول الجنة « إلا ضعفاء الناس » : الأغلب . والغِرّة ، في الرواية المومى إليها عند مسلم كما هي عند الطبري أيضاً بكسر الغين وتشديد الراء المفتوحة أي غَفَلَتُهم ، والمراد به أهل الإيمان الذين لم يفطنوا للشُبَه ولم توسوس لهم الشياطين بشيء من ذلك ؛ فهم أهل عقائد صحيحة ، وإيمان ثابت وهم الجمهور . وأما أهل المعرفة : فهم بالنسبة إليهم قليل .

وكم يحسن المسلم لنفسه ولأهله ومجتمعه ، عندما يعمل على الابتعاد عن صفات أهل النار والاتصاف بصفات أهل الجنة ، وذلك لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح وإخلاص الدين لله عز وجل في الشؤون كلها ، والله جل شأنه ـ وهو الرحيم الرحمن ـ لا يضيع أجر من أحسن عملاً . وقد بلغ من أهمية الصفات المشار إليها أن تحاجت النار والجنة في هذا الأمر ـ كما رأينا في هذا الحديث ـ .

وجميل ما ذهب إليه الإمام النووي رحمه الله، من أن الحديث على ظاهره ، وأن الله تعالى جعل في النار والجنة تمييزاً تدركان به وتقدران على المراجعة والاحتجاج فتحاجَّتا ، ولا يلزم من هذا أن يكون التمييز دائماً .

وقد روى الحديث أيضاً الترمذي والنسائي وآخرون ، وجاءت الرواية عند الترمذي وفيها شيء من الاختصار وبلفظ « احتجت» وبكلمة « المساكين» وكلمة « الجبارون » . إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« احتجت الجنة والنار ، فقالت الجنة: يدخلني الضعفاء والمساكين، وقالت النار: يدخلني الجبارون والمتكبرون . فقال للنار : أنت عذابي أنتقم بك ممن شئت، وقال للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من شئت » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وسبحان من تنزه عن الظلم ، وتفضل بالعدل والرحمة والإحسان .

وصلوات الله وتسليماته على إمام النبيين وخاتم المرسلين الذي ترك أمته على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، وعلى آله وصحابته، ومن دعا بدعوته وجاهد في سبيل الله إلى يوم المعاد ..

﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة﴾

من المسلّمات عند أهل الإيمان ، أن طريق الجنة حزن يحتاج إلى عزائم الرجال، لأن الجنة ـ كما أخبر النبي ﷺ ـ حفّت بالمكاره. أما طريق جهنم : فسهل مذلَّل؛ لما أنها حفّت بالشهوات ؛ من أجل هذا دأب من استنارت بصائرهم على التشمير لدار البقاء ، بارتياد ساحات الجهاد وصالح العمل ، وخلّفوا وراءهم أكداس الشهوات ومطالب النفس الأمارة بالسوء ، وتسويلات شياطين الإنس والجن ، ناهيك عن زخرف الدنيا ولهوها ومغرياتها، وما ينصب فيها للمؤمن من شباك وأحابيل..

وغير خافٍ أن هذا المسلك الجادَّ الذي ألزموا أنفسهم به ـ وهم يركضون إلى الله بزاد التقوى ويتطلعون إلى دار المقامة طامعين بفضله سبحانه ـ كما تظهر آثاره واضحة في أعمالهم وحرصهم على أن تحكم تصرفاتهم شريعة الله ، تظهر أيضاً في كلماتهم التي تبدو وهي على إرث من إرث النبوة ، لا يصرفهم عن ذلك ـ بعون الله ـ صارف ، ولا يُقعدهم عن اللحاق بركب الخالدين في جنة الخلد مطمع من مطامع الدنيا ، أو ركون إلى ما تسربل به الغافلون عن الله واليوم الآخر .

وما دام الأمر كذلك ، فالانتفاع ليوم المعاد كبير على ساحة التأسي، باستذكار مواقفهم وكلماتهم رحمهم الله . وهذه وقفة مع واحد منهم هو عبدالرحمن ابن أحمد بن عطية العَنْسي المذحجي المشهور بأبي سليمان الداراني نسبة إلى بلدة «داريا» قرب دمشق والمتوفى سنة خمس ومائتين للهجرة أو سنة خمس عشرة ومائتين، فقد كان يرحمه الله من عيون صلحاء هذه الأمة وزهادها ، والسالكين إلى دار الخلود بالعلم والعمل . وإن شئت فقل : بحسن التأسي بالرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام .

قال أبو سليمان في كلام طويل له كما روى أبو نُعيم في الحلية وغيره : «... من ترك الدنيا للآخرة ربحهما ، ومن ترك الآخرة للدنيا خسرهما ، وكل أم يتبعها بنوها ، وبنو الدنيا تُسلمهم إلى خزي شديد ، ومقامع من حديد ، وشراب الصديد ، وبنو الآخرة تسلمهم إلى عيش رغد ، ونعيم الأبد ، في ظل ممدود وماء مسكوب ، وأنهار تجري بغير أخدود . وكيف يكون حكيماً من غرّته الدنيا فهو لها يهوى رَكون؟ وكيف يكون راهباً من يذكر ما أسلفت يداه ولا يذوب ؟ الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة ، وعقوبة لأهل الولاية، والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتحيي القلب. ومن نظر إلى الدنيا مولية ، صح عنده غرورها ، ومن نظر إليها مقبلة بزينتها شاب في قلبه حبها ، ومن تمَّت معرفته، اجتمع همه في أمر الله، وكان أمر الله شُغلَه».

وما أحسب منصفاً يمتري في أن وعي هذه الكلمات النيّرة في مبناها، العميقة التأثير في معناها .. مما يعين ـ إذا صدقت الوجهة ـ على انتزاع المسلم من وهدة التأثر بأوضار الحضارة المادية الساحرة ، الحضارة التي تحمل الكثير الكثير مما يلهي عن الخير وقد ينسي البعضَ ربّه، ويشغله ، عن يوم المعاد، ومشاهد القيامة ، وما يجب من التزود النافع لذلك اليوم الذي لا ريب فيه . وإذا حصَل هذا التحوُّل عن ساحة الغفلة ، كان بمقدور المؤمن أن يكون على الطريق التي تنتهي به ـ وذلك برحمة الله ـ إلى جنة المأوى التي لا يبلى نعيمها ولا ينفد ، وذلك الفوز العظيم .

وفي فهم متبصّر لكتاب الله وتدبُّر إيماني لما ورد في شأن العاقبة يوم الدين لمن أكرمهم الله بالإيمان والعمل الصالح ، ولمن غلبت عليهم شقوتهم فضلوا وأضلوا: يقول أبوسليمان رحمه الله كما روى عنه أحمد بن أبي الحواري : «من سرّه أن يشهد يوم القيامة فليقرأ آخر الزمر » . وآخر « الزمر » قوله تعالى بدءاً من الآية السابعة والستين : **﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون . ونفخ في الصور فصعق من السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت**

الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافِّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

حقاً من أراد أن يشهد يوم القيامة، فليقرأ آخر «الزمر» . وكلما صفا القلب وأخلص المؤمن في صلته بكتاب الله عز وجل، كانت الفائدة أعظم والتدبُّر أنفع . وقد وردت أحاديث كثيرة تبدو بياناً مباركاً لهذه الآيات، أوردت عدداً منها فيما خلا من القول . وقال الإمام البخاري في تفسير سورة الزمر من كتاب التفسير في الجامع الصحيح عند قوله تعالى : **﴿وما قدروا الله حق قدره ﴾** حدثنا آدم قال : حدثنا شيبان عن منصور عن إبراهيم عن عَبيدةَ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء حَبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع ، فيقول : أنا الملك ؛ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، تصديقاً لقول الحَبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ «وما قدروا حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ... » الآية .

ورواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من حديث الأعمش عن ابراهيم عن عَبيدةَ عن ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه . وفي رواية للإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن

رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ **ورسول الله ﷺ يقول** : هكذا بيده يحركها يقبل ويدبر ، يمجد الرب نفسه : **أنا** الجبار ، **أنا** المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم فرجف برسول الله ﷺ المنبر **حتى قلنا لَيَخِرَّنَّ به**».

وقد وردت أحاديث كثيرة تحمل البيان لهذه الآية الكريمة وأخواتها، وتبصِّر المؤمنين بما يكون في ذلك اليوم العظيم والطريقُ فيها وفي أمثالها من مذهب السلف: إِمرارها كما جاءت من غير تأويل ولا تكييف ولا تحريف .

والله نسأل أن يجعلنا ممن صدقوا في إيمانهم، وأخلصوا لله دينهم، فكانوا في عداد المتقين الذين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة زمراً ـ جماعة بعد جماعة ـ المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم؛ كل طائفة مع من يناسبهم ، مصداقاً لقوله جل شأنه : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً** ﴾ وصلى الله وسلم وبارك على البشير النذير وعلى آله وصحابته أجمعين .

أهل الجنة وأهل النار

البشائر لمن يعملون الصالحات في الدنيا كثيرة في أخبار القيامة ،ومشاهد من أُكرموا بالفـوز العظيم وحسن المآب ؛ فكانوا ممن غشيتهـم الرحمة وأُدخلوا جنات تجري تحتها الأنهار جزاءً بما كانوا يعملون .

ولعل ممـا يستوقـف المؤمن المتبصِّر ، ما يخلـق ربنا جل جـلاله مـن إحساس خاص عند كل مـن الجنة والنار فتتحاجّان وتختصمان في شأن مـن أوثرت به كل منهما من أصناف الناس ـ كما دلت على ذلك أحاديث أوردتُها من قبل ـ وكيف أن الله تبارك وتعـالى ـ كما هو عنـد البخاري ومسلم ـ يقـول للجنة بعد هـذا : «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبـادي ، ويقول للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي . ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما النار : فلا تمتلىء حتى يضع رجله». وفي رواية ـ«حتى يضع الله تبارك وتعالى رجلـه ـ فتقول : قط قط ، فهنالك تمتلىء ، ويُزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقـه أحداً ، وأما الجنة : فإن الله ينشىء لها خلقاً ». وجاء في بعض الروايات . قول الجنة : «فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرّتهم ».

وإضافـة إلى ما أوردته سـابقاً من كـلام العلماء في بيان المعنى المراد مـن هذا الكلام ، أودُّ الإشـارة إلى أن رواية « وغِـرّتهم » تحمل بشارة خـاصة لأولئـك الغرة الذين قد يرثي لهم بعض الناس أحياناً ،لجهلهم بأمور الدنيا إذ أنهم لايُتقنوها على الوجه الـذي ينبغي عند أهلها ، فالغِـر الذي هو من أهل الجنـة، يستمتع بنعيمها المقيم ، ويفوز منها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ هذا المؤمن إنما كان كـذلك في الدنيا ، لأنه لم يجرب الأمـور الدنيوية بدقـة ، فهو قليل الخبرة منقاد إلى الخير . والمعنى ـ كما يقول ابن الأثير ـ أن من آثر الخمول وإصلاح نفسه والتـزوّد لمعاده ، ونبـذ أمور الـدنيا، فليـس غِرّاً فيها قَصـد له ، ولا سقَطـاً ولا

مذموماً بنوع من الذم .. والحق أن الناس الذين هم على هذه الشاكلة من المؤمنين قد أغفلوا أمر دنياهم ـ فيما وراء ضرورياتها ـ فجهلوا حذق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم فأتقنوا أسبابها ، وشغلوا أنفسهم بها ، ولم يكن ذلك من عجز عن كسب الدنيا ، وتخلف في الحذق بها ، ولكنهم آثروا ما يبقى على ما يفنى ـ وهذا من الفطنة المستنيرة بمكان ـ فأعرضوا عن الفانية إلى اكتساب الباقيات الصالحات . وفي ميزان أهل النجاة : ليس مذموماً من تقاصر عن كسب الدنيا وتخلّف في الحذق بها وأعرض عنها إلى اكتساب ما به يكون من الفائزين يوم الفصل وكلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له .

وهؤلاء الذين خُصت بهم الجنة ، كان ما فيها من العطاء الإلهي الذي لا ينفَد ، رحمةً من الله رحمهم بها وتفضّل عليهم بأن جعلهم من أهلها ، إذ وفَّقهم ـ وهو الكريم المنان ـ لسلوك طريقها . كما خُصّت النار بأصناف الطغاة الظالمين المتكبرين ، الذين يجاهرون الله بمحاربة شريعته، ويحتقرون الناس ويزدرونهم ويظلمونهم ، ولا يرون لهم قدراً ، ويرفعون أنفسهم عليهم تجبراً وتكبراً .

هذا وفي هدي خير العباد ﷺ من الأحاديث الواردة في ذلك ،ما يغني في تصور ما تقوم عليه تلكم المشاهد التي قوامها من خُصت بهم الجنة ومن خُصَّت بهم النار ؛ والتذكير ببعض من صفات كلٍ من الفريقين ؛ الأمر الذي يستثير الهمم ويحرك العزائم إلى الإكثار من الطاعات والقربات والجهاد في سبيل الله ، وأخذ النفس بما عليه طلاب الآخرة الذين لا يصرفهم عن طريق دار المقامة صارف ، ولا يضعفون أمام زخرف الدنيا، ولا يغرهم بالله الغَرور ؛ لأنهم إن وقعوا في هذا الشرك، ضلّوا السبيل ، وعتوا عن أمر الله ، وكان من وراء ذلك الخيبة وسوء المصير ، شأن أولئك الذين جاءت النصوص على ذكر أوصافهم في أهل النار التي لا يصلاها إلا الأشقون العتاة عن أمر الله . من ذلك ما روى البخاري تحت « باب الكبر » من كتاب الأدب في الجامع الصحيح ، حيث قال رحمه الله : حدثنا محمد ابن كثير قال: أخبرنا سفيان قال : حدثنا معبد بن خالد القيسيُ عن حارثة بن

وهب الخزاعي عن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بأهل الجنة !! كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبرّه ، ألا أخبركم بأهل النار !! كل عُتُل جوّاظٍ مستكبر » ولما كان عنوان الباب « الكبر » عُني شراح الحديث ببيان معناه بين يدي الشرح لما جاء تحته من الأحاديث . وكان لا بد من ذلك تحديداً لإبعاد صفةٍ جعلها النبي ﷺ من صفات أهل النار . وقد نقل صاحب « الفتح » عن الراغب الأصفهاني قوله : الكبر والتكبُّر والاستكبار تتقارب ، فالكبر الحالة التي يختص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره وأعظم، كذلك أن يتكبر على ربه ؛ بأن يمتنع من قبول الحق والإذعان له بالتوحيد والطاعة . والتكبر يأتي على وجهين: أحدهما ـ أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن الغير ، ومن ثم وصف سبحانه بالمتكبر ؛ قال تعالى : ﴿العزيز الجبار المتكبر﴾ والثاني ـ أن يكون متكلفاً ذلك متشبعاً بما ليس فيه ، وذلك في وصف عامة الناس ، نحو قوله تعالى : ﴿فبئس مثوى المتكبرين﴾ وقوله جل شأنه: ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ والمستكبر مثله .

وقد أخرج البخاري هذا الحديث أيضاً في كتاب التفسير من الجامع تحت باب ﴿ عُتُلٍ بعد ذلك زنيم ﴾ من سورة « نون » ولكن بلفظ «كلُّ ضعيف متضعِّف». وفي باب قول الله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جَهد أيمانهم﴾ من «كتاب الأيمان والنذور». قال رحمه الله : حدثنا محمد بن المثنى قال : حدثني غُنَدرٌ قال : حدثنا شُعبة عن معبد بن خالد سمعت حارثة بن وهب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « ألا أدلكم على أهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعِّف لو أقسم على الله لأبرّه ، وأهل النار كل جواظٍ عُتلٍّ مستكبرٍ » .

صلى الله وسلم على نبينا محمد الذي لا ينطق عن الهوى. كيف وجّه الأمة إلى محاسن الأخلاق ومكارم الفضائل ، ونبّهها على ما هو في معيار الحق والهدى من مساوىء الأخلاق ومعوج السلوك ، وذلك بأن جعل الأولى من صفات أهل الجنة الذين يفوزون بمرضاة الله يوم القيامة ، ويكونون ممن يُحلُّهم الله دار المقامة، في

البررة المتقين ، كما جعل التي تقابلها من صفات أهل الضلالة الـذين تسعَّر بهم نار الجحيم . وفي ذلك ما فيه من عقد الصلة بين حركة الحياة في الدنيا ، وما يجب أن يكون عليـه المؤمن في سلوكه وأخـلاقه ـ وهـو يكدح إلى ربه سبحانـه وتعالى ـ وبين ما ينتهي إليه الأمر في الآخرة دار البقاء .

لقد أوتي عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم ، وكان منها هذا الهدي المبارك في الدلالة على أهل الجنـة وعلى أهل النار ... والعاقل كل العـاقل من اتخذ لنفسه سلوك الطريـق الأقوم التي تنتهي به ــ بفضل الله ورحمته ـ إلى جنـة الخلد والنعيم المقيم.. إنه إن فعل ذلك ، كان حقاً مـن أولي النهى الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه .. ﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾.

صفات أهل الجنة وحوافز الخير

ما من ريب في أن الرسول ﷺ مبلِّغ عن الله ما أراد ، ومن قبل عن رسول الله فعن الله قَبل ، وهو المؤتمن على بيان الكتاب العزيز ؛ لذا لم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى قام ببيان كل ما يجب بيانه للأمة . هذه حقيقة لا يمتري فيها مؤمن ، بل يتقرب إلى الله بالعمل بها ، أخذاً بما جاء عن صاحب الرسالة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

من هنا كان من البدهيات في ميزان العقل المنقاد لمعايير الإسلام : أنه ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا جاء الخبر الصادق عن مشاهد القيامة وما فيها ، أن يكون الحظُّ من ذلك ترفاً ثقافياً ، وزاداً جديداً من المعرفة وكفى . ولكن الواجب أن تكون المعرفة ـ وهي معراج المسؤولية ـ حافزاً قوياً على العمل الذي يكشف عن التصديق الجازم والرغبة في الاستعداد للموت ولما بعد الموت ، ثم التفاعل العميق مع ما سوف يكون يوم العرض الأكبر على رب العالمين ، حيث الناس بعد ذلك : فريق في الجنة وفريق في السعير . ﴿ ولكلٍ درجات مما عملوا وليوفّيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ .

ويرحم الله الحسن البصري ـ وهو ـ كما نعلم ـ واحد من كبار التابعين وعلمائهم العاملين وأبنائهم الموفقين الذين وجدت الأمة فيهم القدوة الخيِّرة للانتفاع بهدي النبي عليه الصلاة والسلام .. رحمه الله حيث يقول : « ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك ، إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطتَ من بطن أمك » .

وددت تقديم هذه الكلمات العجلى بين يدي ما وعدت به من قريب ، من متابعة الكلام على ماورد عن المصطفى عليه الصلاة والسلام في شأن صفاتٍ من

صفات أهل الجنة، وصفاتٍ من صفات أهل النار ؛ لأن الواجب يقتضي كثيراً من الاحتراس عن الوقوع في أي من تلك الخلائق التي أخبر من لا ينطق عن الهوى: أنها من سمات من تسعّر بهم جهنم يوم الدين. ولا يخفى أن الأمر بالغ الأهمية، والعاقل من أخذ حِذره في الحياة الدنيا ، وكان على هدي من ربه فلم يخض مع الخائضين .

وقد أوردت ـ فيما سبق ـ ما أخرج البخاري في غير موطن من الجامع الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام فيما روى حارثة بن وهب رضي الله عنه : «ألا أدلكم على أهل الجنة ـ وفي رواية : ألا أخبركم بأهل الجنة ـ كل ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبرّه . وأهل النار كل جوّاظٍ عُتّلٍ مستكبر » . وفي رواية « ألا أخبركم بأهل النار ... » الحديث . وقال الإمام مسلم : حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبريُ قال : حدثنا أبي قال : حدثنا شعبة قال : حدثني معبد بن خالد أنه سمع حارثة بن وهب أنه سمع النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ قالوا : بلى . قال ﷺ : كل ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبرّه . ثم قال : ألا أخبركم بأهل النار ؟ قالوا : بلى ، قال : كل عُتُلٍ جواظ مستكبر » وحدثنا محمد بن المثنى قال : حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة بهذا الإسناد بمثله ، غير أنه قال : « ألا أدلكم » .

وهذه الدقة في التفريق بين الروايتين في أن الأولى « ألا أخبركم » والثانية « ألا أدلكم » صورة من مميزات منهج الإمام مسلم رحمه الله في كتابه « الصحيح » .

هذا : وقد جاء في رواية أخرى عنده لفظ « زنيم » بدل « عُتُل » وجاءت الرواية عند الترمذي بلفظ « كل عتل جوّاظ متكبر » . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ثم إن العلماء ـ كما يقول الإمام النووي يرحمه الله ـ قد ضبطوا « متضعَّف » بفتح العين وكسرها . والمشهور الفتح ، ولم يذكر الأكثرون غيره . ومعناه:

يستضعفه الناس ؛ فلا يلتفون له بالاً ، ولا يأبهون له ، بل يتجبّرون عليه لضعف حاله في الدنيا . يقال : تضعّفه واستضعفه . وأما رواية الكسر : « متضعِّف » فمعناها : متواضع متذلل خامل واضع من نفسه . وقال القاضي عياض رحمه الله : (وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها ، وإخباتها للإيمان . والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء ، كما أن معظم أهل النار : القسم الآخر . وليس المراد الاستيعاب في الطرفين) وهذا حق لأنه ما بدٌّ من دفع ما يتوهم من أن في الخبر دعوة للضعف ـ عموماً ـ فمعاذ الله أن يكون ذلك والرسول ﷺ يقول ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير ... » الحديث . وتأويل العلماء للحديث الذي نحن بصدده يعين على ذلك والحمد لله ..

أما الحافظ ابن حجر : فيقول : « متضعِّف » بكسر العين وفتحها ، وهو أضعف وفي رواية الإسماعيلي : « مستضعف » . وفي حديث عبدالله بن عمروٍ عند الحاكم النيسابوري «الضعفاء المغلوبون » وله من حديث سراقة بن مالك «الضعفاء المغلوبون » ولأحمد رحمه الله من حديث حذيفة رضي الله عنه « الضعيف المستضعف ذو الطمرين لا يؤبه له » .

ثم بيّن الحافظ المراد من ذلك (وهو أن الضعيف من نفسُه ضعيفة لتواضعه وضعف حاله في الدنيا ، والمستضعف : المحتقر لخموله في الدنيا) وهذا ما أوضحته من قريب في شأن القوة في الدنيا ؛ فقد يكون هذا الضعيف في نظر من همُّهم تحصيل الدنيا ـ ولو أدى بهم ذلك إلى الغفلة عن الآخرة ـ غاية في القوة في الدين ، والصبر على المكاره في سبيل الله . ثم : أليس الذي يظل مغلوباً بشهواته وأهوائه ضعيفاً غاية الضعف من هذا الوجه ؟ وما أعظم المتضعّف الذي أتى على ذكره سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه مبيناً ما له من المنزلة عند الله ، بحيث إنه لو أقسم على الله لأبرَّ قسمه !! والمعنى : لو حلف يميناً طمعاً في كرم الله تعالى بإبراره لأبره ، وقال : لو دعاه لأجابه . يقال : أبررت قسمه وبررته ، وهو المشهور .

ونجد عند ابن الأثير في كتابه « النهاية في غريب الحديث » قوله : وفي حديث أهل الجنة « كل ضعيف متضعَّف » يقال تضعفته واستضعفته بمعنى، كما يقال : تيقن واستيقن . يريد : الذي يتضعفه الناس ويتجبرون عليه في الدنيا للفقر ورثاثة الحال . ومنه حديث الجنة « مالي لايدخلني إلا الضعفاء » قيل : هم الذين يبرئون أنفسهم من الحول والقوة . ومنه حديث عمر رضي الله عنه « غلبني أهل الكوفة ، أستعمل عليهم المؤمن فيضعّف، وأستعمل عليهم القويَّ فيفجَّر» .

أما « العُتُلّ » : فهو الشديد الخصومة بالباطل . وقيل : الجافي عن الموعظة . وروى عبدالرزاق في مصنفه عن الحسن البصري رحمه الله : العتُل: الفاحش الآثم. وقال الهروي : الجموع والمنوع . وجاء في حديث مختلف في صحته عند الإمام أحمد: أنه الظلوم للناس ، الرحيب الجوف .

أما الجوّاظ : فهو الفظ الغليظ . وقال الخطابي : الكثير اللحم المختال في مشيه. والزنيم: الدعي في النسب، الملصَق بالقوم وليس منهم. والمستكبر: صاحب الكبر . والكبر : بطر الحق وغمط الناس ، وقد سَبَق القول في هذا من قبل .

اللهم خلقنا بأخلاق أهل الجنة ، وباعد بيننا وبين أخلاق أهل النار ، إنك وليٌّ ذلك والقادر عليه يا أرحم الراحمين .

فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون

من الأمراض التي ابتليت بها فئات من الأمة ، ويخشى من اتساع سلطانها ؛ ضعف الارتباط بعلم الغيب والحقائق التي دلّ الخبر الصادق عليها في شأنه ، ومن ذلك أخبار يوم القيامة وما يشهده الناس هنالك من أهوال ، وكيف تكون عاقبة من أشرقت قلوبهم بنور الهداية وتحركت جوارحهم بصالح العمل ، وما يكون عليه حال أولئك الذين اتبعوا سبل الشيطان فضلّوا وأضلوا ؛ فأهل الإيمان والعمل الصالح يفوزون بجنة المأوى ، وهم فيها خالدون ، وأهل الضلالة يبوؤون بالعذاب الأليم في جهنم وساءت مصيراً .

وعواقب هذا الداء العضال في الدنيا ويوم الدين، لا تخفى على ذي بصيرة ؛ إذ المطلوب من المؤمن أن يكون وقافاً عند الذي جاء في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعند الذي صحّ عن الصادق المصدوق رسول الله المبلّغ عنه ــ جل شأنه ــ ما أراد ... وإلا كان سوء العاقبة والضلال المبين في الدنيا والآخرة ﴿ **وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً** ﴾ .

وما من ريب في أن النظرة المؤمنة المتبصرة إلى عالم الغيب عموماً ، وما يشهده العباد يوم القيامة من مشاهد تنطق بعاقبة أهل التقوى ، ومشاهد تبرز عاقبة من تنكبوا الصراط المستقيم .. ما من ريب في أن هذه النظرة لها انعكاساتها الإيجابية الطيبة على الفرد والمجتمع ، لما أنها تبعث على الاستقامة وصدق العزيمة في إدارة حركة الحياة على الوجه المشروع ، ومضاعفة الأعمال الخيرة ، وما به يُتقرب إلى الله تعالى ، وينتهي بالمؤمن إلى جنة المأوى . وكم تكون بنية المجتمع سليمة، إذا كان أفراده يتمتعون بهذه القوة في الإيمان والأخلاق ، والسعي الحثيث إلى تنمية حب الله تعالى وعظيم الرجاء برحمته وفضله ، والخوف من شديد عقابه يوم الدين ، وقد

أشرت غير مرة إلى حقيقـة لايصح جهلها أو تجاهلها ، وهـي العلاقة الـوثيقة بين العمل في الدنيا ، وبين ما تكون عليه الحال في دار البقاء .

ولعـل من الضرورة بمكـان ، أن نشير هنا إلى أن الله جلـت حكمته لا يظلـم مثقال ذرة ﴿وإن تك حسنة يضـاعفها ويؤت من لـدنه أجراً عظيماً﴾. وهذا من سننه الحكيمـة التي لا تتخلـف ، ولن تجد لسنـة الله تبديـلاً . ولا تسل عـن الأثر المبارك لهذه السنة يـوم يقف الناس لرب العالمين . وقد أوردت في منـاسبة خلت ـ ضمن عدد من الروايـات ـ ما أخرج البخاري ومسلم من حديـث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيـد الخدري رضي الله عنه عن رسول ﷺ في حديث الشفاعة الطويل وفيه .. « فيقول الله عز وجل : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خـردل من إيمان فأخرجـوه من النار » وفي لفـظ « فمن وجدتم في قلبـه أدنى أدنى أدنـى مثقال ذرة مـن إيمان فأخرجـوه من النار ، فيخـرجون خلقـاً كثيراً » ثم يقول أبو سعيـد : (اقرءوا إن شئتم ﴿ إن الله لا يظلم مثقـال ذرة وإن تك حسنـة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾) .

وقد وعـى الصحابة رضي الله عنهـم ومن تبعهم بـإحسان عبر تاريخنـا المثقل بـالعبر ، هذه الحقيقـة، واطمـأنت نفـوسهـم إليها ، فسعـوا لـلآخرة سعيهـا ، لا يقعدهـم عن العمل الصـالح رجاء ، ولا يـوقعهم في اليأس مـن رَوح الله خوف ، وأصبحنا نـرى آثار ذلك في بناء الفـرد والمجتمع ، حيث المنهج المتكـامل في إدارة حـركـة الحيـاة، وإعمار الأرض وإعـداد القوة وفـق سنـن الله التـي لا تتخلـف ، مصحوباً ذلك كله بشوق إلى لقاء الله ورغبة صادقة فيما عنده ، وحرصٍ على الفوز العظيم يـوم يفر المرء من أخيـه وأمه وأبيه ، الفوز الـذي عنوانه الـزحزحة عـن نار السعير ، ودخول جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

وأيـن ذلك مـن بـلاء التخلخل في النظـرة إلى عـالم الغيب، وعـدمِ الاهتمام الصادق بما جاء في كتاب الله وفي حديث الرسول ﷺ من أخبار تبرز ما يكون يوم

القيامة للعباد ، جزاءً بما كانـوا يعملون ؛ حيث الشدَّة الشادَّة ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبـو سعيد الأشج ، قال : **حدثنا عيسى بـن يونس عـن** هارون بن عنترة عن زاذان قـال : قال عبدالله بـن **مسعود: «يؤتى بالعبد والأمة يوم القيـامة** ، فينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين : **هذا فلان بـن فلان** ، من كان لـه حق فليأت إلى حقه ، فتفـرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها ، أو أخيها ، أو زوجها ثم قرأ ﴿ **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ **فيغفر الله من حقـه ما يشاء** ،ولا يغفر مـن حقوق الناس شيئاً ، فينصـب للناس، **فيقول : ائتوا إلى الناس حقوقهم** ـ وفي رواية ـ فينادى : هذا فلان بن فلان من كان **له حق فليأت إلى حقـه** فيقول : رب فنيت الدنيا من أين أوتيهـم حقوقهم؟ قال : **خذوا من أعمال**ه الصالحة فأعطوا كل ذي حقه حقه بقدر طَلِبتِهِ ، فإن كان ولياً لله، ففضل له مثقال ذرة ، ضاعفها الله له حتـى يدخله بها الجنة ثم قرأ علينا ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنةً يضاعفْها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ . قال : ادخل الجنة . وإن كان عبداً شقياً ، قال الملـك : رب فنيت حسناته وبقي طالبون كثير !! فيقول : خذوا من سيئـاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ، ثـم صُكّوا له صكاً إلى النـار » ولبعض هـذا الأثـر ــ كما يقول الحافـظ ابـن كثير ــ شاهـد في الحديـث الصحيح.

وقد رواه ابن جرير الطبري في « جامع البيـان » عن ابن مسعود من وجه آخر من طريق زاذان نحوه ولفظه : « إذا كان يـوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد من عند الله : « ألا من كان يطلب مظلمة فليجيء إلى حقه فليأخذه» ! قال : فيفرح والله المرء أن يـذوب له الحق على والده ، أو ولده ، أو زوجتـه ، فيأخذ منه ، وفي روايـة أخرى « فتفـرح المرأة أن يذوب لها الحق على أبيهـا أو على ابنها أو على أخيها أو على زوجها » ومصداق ذلك في كتاب الله تبارك وتعالى ﴿ **فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ فيقال له: إيت هؤلاء حقوقهم ـ أي أعطهم حقـوقهم ــ فيقول : أي رب من أيـن وقد ذهبـت الدنيـا ؟ فيقول الله

لملائكته : « أي مـلائكتي انــظروا في أعمإله الصـالحة وأعطوهــم منها ، فـإن بقي مثقال ذرة من حسنة قالـت الملائكة: ـ وهو أعلم بذلك منها ــ يا ربنا أعطينا كل ذي حـق حقه ، وبقـي له مثقـال ذرة من حسنـة ، فيقـول للملائكـة: ضعِّفوهـا لعبــدي ، وأدخلوه بفضل رحمتي الجنـة » ـ ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿**إن الله لا يظلم مثقـال ذرة وإن تك حسنـة يضاعفهـا ويؤت مـن لدنـه أجراً عظيماً**﴾ أي الجنة، يعطيها . وإن فنيت حسناته وبقيت سيئاتـه ـ قالت الملائكة : ـ وهو أعلم بذلك ـ إلهنا فنيت حسناته وبقيت سيئاته وبقي طالبون كثير . فيقول الله : ضعّفوا عليه من أوزارهم ، واكتبوا له كتاباً إلى النار » قال صدقة : أو « صكاً إلى جهنم ». شك صدقة أيتهما قال .

وليس مـن العبث تكرار التنبيه على هـذا الارتباط بين السلوك في الـدنيا أداءً للحقوق أو عـدم أداءٍ لها ، وبين ما يكون مـن العاقبة يوم الـدين . والعاقـل الذي يخشى الله والدار الآخرة ، يحرص الحرص كله على أن يلقى ربه وقد أدّى حقوق الله وحقوق العبـاد ، لكيلا تـزل به القـدم ، فيكون مـن أصحاب الجحيـم . روى أبو جعفر الطبري عن قتادة قال : كان بعـض أهل العلم يقول : لأن تفضُل حسناتي على سيئاتي ما يزن ذرة أحبُ إليَّ من أن تكون لي الدنيا جميعاً » ﴿ **إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين** ﴾.

الأمر أعجل من ذلك

كلما ذُكرت الجنةُ ونعيمُها المقيم ، ونارُ الجحيم ــ أعاذنا الله منها ــ وعذابُها الأليم ، اتجه القلب إلى صنيع أولئك البررة من عباد الله الصالحين، الذين امتثلوا أمر ربهم؛ علماً وعملاً وجهاداً مستبِقين الخيرات ، وسارعوا ـ وقد أخلصوا دينَهم لله ــ إلى مغفرة منه سبحانه ، وجنة عرضها السماوات والأرض ، بالإقبال على الطاعات والقربات ؛ أسوتهم الحسنة في ذلك إمام المتقين محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه ، ثم صحابته الكرام ومن تبعهم بإحسان .

والأمة ـ وهي تعاني من واقع يخضع في كثير من جوانبه للمعايير المادية التي كانت سبباً في نوع من الفتور المضني عند فئام من الناس ، بينهم وبين ما يجب من عدم الركون إلى زخرف العاجلة ومن التزود النافع ليوم الحساب .. ـ هذه الأمة التي يعمل المصلحون جاهدين على ردها إلى الصراط السوي ، بالتزام المنهج الذي كانت به خير أمة أخرجت للناس ، بحاجة ماسة في هذا الإطار المبارك إلى استئناف الطريق الإيمانية التي توثق العلاقة بين العاجلة والآجلة ، بقراءة جديدة واعية لأخبار القيامة ومشاهد الهول فيها ، وما تكون عليه عاقبة كلٍ من أهل الهدى وأهل الضلال .. ومن الخير أن يقترن ذلك بأخبار أولئك الصفوة المنيبين إلى الله ـ كما أسلفت ـ الذين هم من أهل الآخرة على الحقيقة ، دون إهمال لما به قوة المسلم في الدنيا ، كما تدل على ذلك أقوالهم وأفعالهم ، وسلوكهم المنضبط بمعايير الكتاب الكريم والسنة المطهّرة .

ذلك بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين ــ وهو ما يجب التنبه إليه من الناحيتين التربوية والنفسية ــ بشر من البشر ، عقلوا عن الله ورسوله ، وانتفعوا بما جاء من الخبر الصادق في كلام الله وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، فحملوا أنفسهم، وقد زكت واطمأنت، على الجادة في طاعة الله تعالى وتقواه ، فكان ذلك

إيذاناً بارتقائهم مدارج السالكين بصدق إلى الله ، الفائزين يوم الخوف والحسرة بما أعدّ جل شأنه لعباده المتقين المجاهدين الصابرين في دار البقاء، من إحلالهم دار المقامة من فضله ، والإحسان إليهم برضوانه الأكبر ورؤية وجهه الكريم سبحانه، وهو المحمود على كل حال .

ها هي ذي وصيــة واحد من هؤلاء الأبرار لقــريب له ، يذكّـره فيها الموت وما بعد الموت ، وما يلزم لذلك من الزاد النافـع ليوم الوعيد ، مرحلة بعد مرحلة ، إنها وصية داوود بن نصير الطائي أبي سليمان ـ وهو الثقة الفقيه الزاهد العابد ـ المتوفى سنة خمس وستين ومائة للهجرة ـ فقد قال له رجل من أهله يوماً : يا أبا سليمان قد عرفتَ الرحم التي بيننا فأوصني ، قال : فدمعت عيناه ثم قال : «يا أخي إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مـرحلة حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقـدم لكل مرحلة زاداً لما بين يـديها فافعل ، فان انقطـاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذلك ، فتزود لسفرك واقض ما أنت قاضٍ من أمرك ، فكأنك بـالأمر قد بغتَك . إني لأقول لـك هذا ، وما أعلم أحداً أشـد تضييعاً مني لذلك» يقول الرجل : ثم قام وتركني .

وكأني بهذه الكلمات المضيئة ، على النسب المتصل بما كـان ينتهجه الصحابة عليهم الرضوان ؛ قال الإمام النسائي : أخبرنا محمد بن عبدالله بنِ عبدالحكم عن شعيب عـن الليث قـال : أنبأنـا خالد عـن ابن أبي هـلال عن نُعَيـمِ المجمر أبي عبـدالله قال : أخبرني صهيـب أنه سمـع من أبي هـريرة ومـن أبي سعيد يقـولان : خطبنا رسـول الله ﷺ يوماً فقـال : « والذي نفسي بيده ـ ثـلاث مرات ـ ثـم أكبّ فـأكبَّ كـل رجل منـا يبكي لا نـدري على ماذا حلـف ، ثم رفـع رأسه في وجهـه البشرى ، فكانت أحبَّ إلينـا من حُمْر النَعم ثم قال : ما مـن عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ويخرج الزكاة ويجتنب الكبائر السبع إلا فُتحت له أبواب الجنة فقيل له : ادخل بسلام » وهو حديث حسن .

والحق أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ لم يدع أن يجعل من الوعد على طاعة الله والاستقامة على أمره ، والوعيد على اتباع غير سبيل المؤمنين والتولي عن طريق الهداية ، حافزاً عظيماً من حوافز الإقبالِ على كل ما فيه مرضاة الله ومرضاة رسوله ، واقتحامِ العقبات التي تعترض سبيل طلاب الآخرة ، والانتصار على المكاره التي حفت بها جنة الخلد التي وُعد المقرَّبون .

وكم يُسعد المؤمن نفسه وأهله ومجتمعه ، إن هو انتفع بهدي النبي عليه الصلاة والسلام ، وأعطى العمل للآخرة حظه الأوفى ، فكان من أهل القرب في جنات النعيم ، ولم يكن من جُثَى جهنم الذين هم فيها خالدون .

روى الترمذي بسنده عن زيد بن سلاّم أن أبا سلاّم حدثه أن الحارث الأشعري حدثه أن النبي ﷺ قال: « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، وإنه كاد أن يبطيء بها ، فقال له عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات: أن تعمل بها ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم ! فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أُعذَّب ، فجمع الناس في بيت المقدس ، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشُرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات: أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن . أولُهنّ أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مثَل من أشرك بالله شيئاً كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهبٍ أو ورِق، فقال : هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدِّ إلي ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبدُه كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ؛ فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت . وآمركم بالصيام ، فإن مثَل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صُرَّة فيها مسك كلهم يعجب ـ أو يُعجِبُه ـ ريحها . وإن ريح الصائم عند الله أطيب من ريح المسك . وآمركم بالصدقة فإن مثَل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فأوثقوا يديه إلى عنقه وقدّموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفدي نفسي منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم . وآمركم أن تذكروا الله ، فإن مثَل ذلك كمثل

رجل خرج العدو في أَثَرِهِ أو إِثْرِهِ سراعاً ، حتى إذا أتى على حصن حصين أحرز نفسه منهم ، وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله .

قال رسول الله ﷺ : وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن ؛ السمعُ والطاعةُ والجهاد والهجرة والجماعة ، فإنه من فارق الجماعة قِيدَ شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يُراجع ، ومن دعا دعوى الجاهلية ، فإنه من جُثى جهنم . فقال رجل: يارسول الله وإن صام وإن صلّى ــ وفي رواية : وإن صلى وصام ـ قال : وإن صلى وصام ، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب وهو كما قال . وأخرجه أيضاً ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم وصححه .

معنى الربقة هنا : العروة يشد المسلم بها نفسه من عرى الإسلام . الجُثى : جمع جثوة وهي الشيء المجموع من جماعات جهنم . ويروى جِثي والمعنى : الذين يجثون على الركب واحدها جاثٍ من قوله تعالى في سورة مريم : ﴿ حَوْلَ جهنم جِثِياً ﴾ !

والعاقل كل العاقل من أحسن الفهم وأحسن العمل والله يتولى عباده الصالحين..

الجنة.. ومجتمع الحور العين

إذا خالطت بشاشة الإيمان القلب ، واستنارت البصيرة بالإقبال على الله، صلَحت المعايير التي توزن بها الرغبة والرهبة ، والعطاء والمنع ، وما هو من أسباب السعادة ، وما ليس من تلك الأسباب ؛ ومن هنا يكون الانصراف التام إلى كل عمل هو من الآخرة بسبيل ، ويحصل اطمئنان القلب واستراحة النفس إلى سلامة العاقبة يوم الوعيد بفضل الله ورحمته سبحانه وتعالى ؛ حتى كأن ما جاء الخبر الصادق بوقوعه يومذاك هو رأي عين عند المؤمن . ويترتب على ذلك أن ينتفع بكل من البشارة والنذارة ، ويطمع أن تناله مغفرة الله ورحمته ، فيكون يوم القيامة في جنات وعيون خالداً فيها ونعم أجر العاملين .

وما أعظم ما جاء به كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ من البشائر الأخروية وعطاء الكريم المنان الذي لا تنفد خزائنه جل وعلا ـ وقد مر بنا الكثير من ذلك فيما مضى ـ وهنيئاً لمن يقابلون تلك البشائر بصالح العمل والجهاد في سبيل الله ، والصبر في المواطن ، والاستعلاء على ما يصرف عن الآخرة من زخرف الدنيا وشهواتها ، أو الترغيب فيها والترهيب من خسرانها ، كما توحي بذلك الأهواء الضالة وشياطين الإنس والجن . إنهم إن فعلوا ذلك نالوا من الخير في جنة الخلد ما الله به عليم . من ذلك ما روى الترمذي بسنده عن عبدالرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفِّعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها . يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له » وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد وأنس . قال أبو عيسى : حديث علي حديث غريب . ثم قال الترمذي . حدثنا روح بن عبادة عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير في قوله عز وجل : ﴿فهم في روضةٍ يُحبَرون﴾ قال:

السماع . ومعنى السماع مثل ما ورد في الحديث أن الحور العين يرفّعن بأصواتهن .

الحور : جمع حوراء وهي الشديدة بياض العين ، الشديدة سوادها . والعين: جمع عيناء وهي الواسعة العين . هذا : وللعلماء مقال في إسناد الحديث ، لكن له شواهد بمعناه ذكرها الحافظ المنذري في كتابه « الترغيب والترهيب » يمكن أن يرتقي بها ، وقد رأينا أن الترمذي رحمه الله قال : وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد وأنس وأخرج الحديث البيهقي أيضاً .

ومما أورد الحافظ المنذري وذكره الحافظ ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم» ما روى الحافظ أبو القاسم الطبراني في «الكبير » و «الأوسط » في شأن أسئلة عن الحور العين سألتها أم سلمة رسول الله عليه الصلاة والسلام : حيث قال الطبراني: حدثنا بكر بن سهل الدمياطي ، قال : حدثنا عمرو بن هاشم البيروتي ، قال : حدثنا سليمان بن أبي كريمة عن هشام بن حسّان عن الحسن عن أمه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : «قلت : يارسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿حور عين﴾ قال : «حُورٌ بيضٌ عينٌ ضخامٌ ، شُفر الحوراء بمنزلة جناح النسر قلت : يارسول الله أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ كأنهن الياقون والمرجان ﴾ قال : صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصواف الذي لم تمسَّه الأيدي ، قلت : يارسول الله فأخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿ فيهنَّ خيرات حسان ﴾ قال : خيِّرات الأخلاق ، حسان الوجوه . قلت: يارسول الله فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿كأنهن بَيْضٌ مكنون﴾ قال: رقَّتهن كرقة الجلد الذي بداخل البيضة مما يلي القشر وهو الغِرقىء. قلت: يارسول الله أخبرني عن قوله جل وعلا : ﴿ عُرُباً أتراباً ﴾ قال : هُن اللواتي قُبضن في دار الدنيا عجائز رُمصاً شُمطاً خلقهن الله بعد الكِبَر فجعلهن عذار متعَشِّقات متحبّبات ، أتراباً على ميلاد واحد . قلت : يارسول الله أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : نساء الدنيا أفضل من الحور العين ، كفضل الظِهارة على البطانة . قلت : يارسول الله وبم ذاك ؟ قال بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل !! ألبَس الله عز وجل وجوههن النور ، وأجسادهن الحرير ، بيض

الألوان ، خُضْر الثياب ، صفر الحُلي ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب يقلن : ألا نحن الخالـدات ، فلا نمـوت أبداً ، ألا نحن النـاعمات ، فلا نبـأس أبداً ، ألا ونحن المقيمات فلا نظعن أبـداً ، ألا ونحن الراضيات ، فلا نسخط أبـداً ، طوبى لمن كُنا له وكان لنـا . قلت : يارسول الله المرأة منا تتزوج الـزوجين والثلاثة والأربعة في الدنيا ، ثم تموتُ فتدخلُ الجنة ويدخلون معها ، من يكون زوجَها منهم؟ قال : يا أم سلمة إنها تُخَيَّر فتختار أحسنَهم خُلقـاً فتقول : أي رب إن هذا كان أحسنَهم معي خلقـاً في دار الدنيـا فزوِّجنيه . يـا أم سلمة ذهب حُسـن الخُلق بخير الـدنيا والآخرة ».

الشُفر ، بضم الشين أصل منبت الشعر في الجفـن . الظهارة : ما علا وظهر من الثوب ولم يل الجسد ، والبطانة : ماولي منه الجسد وكان داخلاً . لانبأس : لا نفتقر ولا تشتـد حاجتنـا . والغرقىء كـزبرج : القشرة الملتـزقة ببيـاض البيض أو البياض الذي يؤكل .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط ، إن مما يغنين به ، نحن الخيِّرات الحسان ، أزواج قوم كرام ، ينظرون بقُرَّة أعيـان . وإن مما يغنين به : نحن الخالدات فلا نمتنّه ، نحن الآمنات فلا نخـافنّه ، نحن المقيمات فلا نظعَنُنّه ». قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورواتهما رواة الصحيح . وللحافظ أبي يعلى عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً « إن الحور العين ليغنين في الجنة ، يقلن : نحن خيّرات حسان ، خبئنـا لأزواج كرام » وفي روايـة للإمام عبـدالرحيـم بن إبـراهيم الملقـب بـدحيـم « إن الحور العين يغنين في الجنة : نحـن الجوار الحسـان خلقنـا لأزواج كـرام » ولابن أبي الـدنيا والطبراني والبيهقـي «نحن الحور الحسـان هدينـا لأزواج كرام».

وإذا كان الشيء بـالشيء يذكـر ؛ فقد كان مـن مُزاح النبـي ﷺ مرةً ــ وهو

يمزح ولا يقول إلا حقاً ـ ما أخرج عبد بن حُميد قال : حدثنا مصعب بن المقدام ، قال: حدثنا المبارك بن فَضالة عن الحسن قال : أتت عجوز فقالت : يارسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : « يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز » قال: فولت تبكي، قال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول : ﴿إنَّا أنشأناهن إنشاءً . فجعلناهن أبكاراً عُرباً أتراباً﴾ وهكذا رواه الترمذي في الشمائل عن عبد بن حُمَيْد .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن الابتلاء قائم بتلك البشريات لأهل الإيمان : هل ينتفع بها المؤمن ، فتكون بمثابة حافز يتزوده إلى تزكية النفس ، وحملها على الجادة في طاعة الله وتقواه !! وقل مثل ذلك فيما يكون من النذر لأهل الغيِّ والضلال الوالغين في إثم الغفلة والبعد عن الله .. وإذا كان المؤمن على بينة من أمره وصدق في التعامل مع الخبر الصادق ؛ بشارة أو نذارة ، فما أكثر ما يجد من أبواب الخير التي إذا ولجها منيباً إلى ربه مستعلياً على المعوقات الدنيوية ـ شأن من يخشون ربهم بالغيب .. ـ انتهى به المسير إلى حيث تتنزل الرحمات ـ ويتجلى الله على أحبابه بالفوز العظيم .

ويا نعمّا هي ، مشاهدُ ذلك الفوز العظيم ومنها ما يكون للشهداء . قال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب قال : حدثنا أبي عن ابن إسحاق قال : حدثني الحارث بن فضيل الأنصاري عن محمود بن لبيد الأنصاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً ».

وهل أتاك نبأ التواؤم المطلوب بين ما يعطاه الشهداء في الآخرة ، وبين أن تظل سيوف الجهاد مشرعة لا تفتر عنها العزائم، وأن يظل المؤمنون على استعذاب الموت في سبيل الله لا يزهدون في شأن من شؤون الجهاد ولا ينكلون عن الحرب؟؟ ذلك ما كشف عنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله

وسلامه عليه .

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خُضرٍ ، **ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ، وحُسنَ متقلبهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ﴿ ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون ﴾ وما بعدها » . ورواه ابن جرير وأبو داود ، والحاكم في المستدرك ..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد رسول الله الذي جعل الجهاد ذروة سنام الإسلام .. وأكرم بها للشهداء يوم القيامة من الخير العميم .

أحياء عند ربهم يرزقون

من مشاهد القيامة العميقة التأثير حقاً ـ وكل تلك المشاهد مؤثر ـ والتي ينبغي أن تخالط القلوب وتوثق عرى الإيمان بما عند الله لأهل التقوى والجهاد، وتحفز على استعذابِ الموت في سبيل الله، وعدم النكول عن الجهاد بالمال والنفس مهما كان الثمن .. مشهدُ ما يكون للشهداء عند الله من حسن المتقلّب والعطاء .. عطاء الكريم المنان سبحانه وتعالى الذي لا يضيع عنده ـ جل شأنه ـ عمل عامل. إنه مشهد يعلن إعلانه بتكريم الشهادة والشهداء على رؤوس الخلائق يوم الدين . وحسبك أن هؤلاء الأخيار البررة ـ وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقتلوا في سبيل الله ـ ليسوا بأموات ولكنهم أحياءٌ عند ربهم يرزقون ؛ فهم يقدُمون على مولاهم وقد سعدوا بالشهادة وعطرها الفوّاح ونجيعها المشرق الأخاذ .. ولا تسل عن الحال التي يصيرون إليها وماهية الرزق الذي يرزقون، والكيفية التي يكون ذلك عليها .. فهذا أمر يعز على الإحاطة .. ولكن النبي ﷺ ـ وقد اؤتمن على بيان الكتاب العزيز ـ أخبر عن تلك الحقيقة الكبرى بما يؤدي غرض البيان، والله أعلم بما وراء ذلك في عمقه وأبعاده وجزئياته ...

والمشهد عظيم بالغ التأثيرحقاً بنوره المتلألىء وهيبته ومدى ما يعطي من عبر ودروس، وما يتميّز به أهله من الفضل وجلال الموقع والمنزلة الكريمة عند الله .. والحديث موصول بما روى الإمام أحمد في المسند عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن متقلَّبهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكُلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ﴿ولا

تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون ﴾ الآيات . وقال الإمام الطبري : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا جرير بن عبدالحميد ، وحدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة ، قالا جميعاً : حدثنا محمد بن إسحاق عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق بن الأجدع قال : « سألنا عبدالله بن مسعود عن هذه الآيات ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله ﴾ الآية قال : «أما إنا قد سألنا عنها فقيل لنا: إنه لما أصيب إخوانكم بأحُد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فيطّلع الله إليهم اطّلاعة فيقول : يا عبادي ما تشتهون فأزيدَكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتَنا ، الجنةُ نأكل منها حيث شئنا ثلاث مرات ، ثم يطلع فيقول : يا عبادي ما تشتهون فأزيدكم ؟ فيقولون : ربنا لا فوق ما أعطيتنا ! الجنة نأكل منها حيث شئنا ! إلا أنا نحب تَرُدَّ أرواحَنا في أجسادنا ، ثم تردَّنا إلى الدنيا ، فنقاتل فيك حتى نقتلَ فيك مرة أخرى ».

ثم روى أبو جعفر عن مسروق أنه قال : سألنا عبدالله عن هذه الآية ثم ذكر نحوه وزاد فيه : « إني قضيت أن لا ترجعوا » وفي رواية أخرى عن مسروق قال: سألنا عبدالله عن أرواح الشهداء ،ولولا عبدالله ما أخبرنا به أحد ! قال : أرواح الشهداء عند الله في أجواف طير خضر في قناديل تحت العرش تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم ترجع إلى قناديلها ، فيطَّلع إليها ربها فيقول: ماذا تريدون ؟ فيقولون : نريد أن نرجع إلى الدنيا فنقتَلَ مرة أخرى ». وجاء في رواية أبي داود « لما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكُلوا عن الحرب فقال الله سبحانه : أنا أبلغهم عنكم قال : فأنزل الله ﴿ ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله ... ﴾ الآية. والحديث رواه الحاكم أيضاً وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ورمز له الذهبي برواية مسلم .

ونص رواية مسلم كما جاءت بسنده عن مسروق قال : سألنا عبدالله (هو ابن

مسعود) عن هذه الآية ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا ....﴾ قال : أما إنا قد سألنا رسول الله عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ؛ فاطّلع عليهم ربهم اطّلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أيَ شيء نشتهي ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ! ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا ، قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا » وروى ابن جرير عن أبي عبيدة عن عبدالله « أنهم قالوا في الثالثة حين قال لهم : هل تشتهون من شيء فأزيدكموه ؟ قالوا : تقرىء نبينا عنا السلام وتخبره أن قد رضينا ورُضي عنا » كما روى عن ابن إسحاق أنه قال : «قال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ يرغب المؤمنين في ثواب الجنة ويهوّن عليهم القتل : «ولا تحسبن ... يرزقون » أي قد أحييتهم، فهم عندي يرزقون في روح الجنة وفضلها مسرورين بما آتاهم الله من ثوابه على جهادهم في سبيله .

وروى الحاكم في مستدركه من حديث أبي إسحاق الفزاري عن سفيان عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه ﴿ ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون ﴾ ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وكذا قال قتادة والربيع والضحاك : إنها نزلت في قتلى أحد . على أية حال : خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ، وقد مر بنا من قريب ما يدل على هذا العموم والنصوص في ذلك كثيرة ، وهذا لايغض من قدر قتلى أحد عليهم الرضوان ؛ فهم داخلون في هذه البشارة العظيمة دخولاً أولياً .

وها هي ذي بشارة لفرد بعينه من أولئك البررة الذين صدقوا في المواطن وقضَوا في سبيل الله . روى أبو بكر بن مردويه بسنده عن طلحة بن خراش بن عبدالرحمن بن خراش بن الصِّمَّة الأنصاري قال : سمعت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : «نظر إليَّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : يا جابر ، مالي أراك مهتماً ؟

قال: قلت : يارسول الله استُشهد أبي وترك ديناً وعيالاً ، قال : فقال : ألا أخبرك ! ما كلّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وإنه كلّم أباك كفاحاً .» قال علي : الكفاح المواجهة ــ فقال : سلني أُعطك ، قال : أسألك أن أردَّ إلى الدنيا فأقتلَ فيك ثانيةً ، فقال الرب عز وجل : إنه سبق مني القول أنهم إليها لا يُرجعون . قال: أي رب فأبلغ من ورائي . فأنزل الله ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً..﴾الآية . ثم رواه من طريق أخرى عن محمد بن سليمان بن سليط الأنصاري عن أبيه عن جابر به نحوه ، وكذا رواه البيهقي في « دلائل النبوة » من طريق علي بن المديني به ، وقد رواه البيهقي أيضاً من حديث أبي عبادة الأنصاري عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال النبي ﷺ : « يا جابر ألا أبشرك ؟ قال بلى بشرك الله بالخير قال : شعرت أن الله أحيا أباك فقال : تمنّ علي عبدي ما شئت أعطكه . قال : يارب ما عبدتك حق عبادتك ، أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل فيك وأقتل فيك مرة أخرى ، قال : إنه سلف مني أنه إليها لا يرجع ».

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد بن عبدالله الذي جاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين وعلى آله وصحابته أجمعين .

إن عذابها كان غراماً

إن يوماً تتقلب فيه من شدة الهول والفزع القلوب والأبصار ، ويعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ، وترى الظالمين وقد أخذوا بما ظلموا مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتدُّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء .... إن يوماً تشهد فيه الخلائق سوء عاقبة المجرمين الصادين عن سبيل الله ، إذ تراهم ـ وقد أخذوا أخذ عزيز مقتدر ـ مقرنين في الأصفاد ﴿سرابيلُهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾ .. هذا اليوم الذي لا يجد فيه المرء إلا ما قدّم في دنياه .. جدير أن يكون بحسبان المؤمن وهو يقطع العمر إلى أجله ، جدير أن يتزوّد له بالصالح من العمل، والطيب من القول في طاعة الله عز وجل .. إنه إن فعل ذلك مخلصاً صادق الوجهة ، كان ـ بفضل الله تعالى ـ ممن تدركهم العناية وينشر الله عليهم رحمته، ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقَّون فيها تحية وسلاماً﴾. وهنيئاً لأهل الجنة ـ وهم فيها خالدون ـ ما يفيض عليهم ربهم من كريم الإحسان ، والنعيم المقيم، والفضل العميم .

ولا يرتاب منصف في أن ما يشهده يوم الفصل من إكرام الله لعباده الصالحين، موصول النسب بخوفهم ذلك اليوم العبوس القمطرير ، الذي تشخص فيه الأبصار فكأنهم وهم يأخذون أنفسهم بالاستقامة على الطريقة في العمل والسلوك، على موعد مع حسن المآب الذي يؤولون إليه في الآخرة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . مصداق ذلك من كتاب الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فقد أثنى الله على نفر من عباده الصالحين بأنهم ـ وهم يخالطون الدنيا والكسب فيها ـ لا يغفلون عن الله واليوم الآخر ؛ فهم وقافون عند حدود الله تعالى، مقيمون للصلاة مؤتون للزكاة ، مديمون ذكره جل شأنه وتسبيحه ، تملأ قلوبهم خشية يوم المعاد وما تتسم به مشاهده من عظمة الأهوال وشدتها ، حيث الشغل الشاغل للخلائق أن يكونوا من أهل النجاة من عذاب الله ، والفوز بما أعدَّ

الله لعباده الصالحين . ذلكم قول ربنا جل شأنه في سورة النور : ﴿ **في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾.

ومن الواضح أن أهل الإنابة البررة ، بما يصل بين ما كانوا عليه في الدنيا ، وبين ما يفوزون به يوم العرض الأكبر ، يشرُفون يومذاك بأن ما يعطَوْنه ـ برحمة الله ـ جزاءً بما كانوا يعملون ، برهانٌ صدق على أحقية ما درجوا عليه في دار الفناء من محبة الله عز وجل وخوف يوم الحساب ، وذلك بحسن اتباعهم لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه عليهم الرحمة والرضوان . أخرج النسائي بسنده عن علقمة «أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً ، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً ، فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً ـ وواضح أن هذا في غير رمضان ـ ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾» وروى ابن أبي حاتم بسنده عن أسماء بنت يزيدَ بنِ السكن قالت : قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوت يُسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل ثم يحاسب سائر الخلائق».

وروى الطبراني من حديث بقية بن الوليد عن إسماعيل بن عبدالله الكِندي عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ « في قوله :﴿ **ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله** ﴾ قال : أجورهم : يدخلهم الله الجنة، ويزيدهم من فضله : الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة ، لمن صنع لهم المعروف في الدنيا ».

ومن الأهمية بمكان : التذكير بأن أهل السعادة هؤلاء ، لا يغفلون عن الضرَع إلى الله تبارك وتعالى أن يؤامنهم يوم الخوف ، حيث الفزع الأكبر ضارب على

القلوب بالأسداد ، وأن يصرف عنهم عذاب النار ،لأنهم بمقدار معرفتهم وسلامة تصورهم لما جاء عن الله ورسوله في شأن يوم المعاد ، يكونون - مع الرجاء - في خوف شديد أن يكونوا من أصحاب الجحيم .

ولقد ذكر القرآن من صفات عباد الرحمن ، أنهم يدعون ربهم جلت قدرته أن يصرف عنهم عذاب جهنم، فعذابها ملح ملازم دائم والعياذ بالله . ذلك قوله تعالى: ﴿ **والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاماً** ﴾ روى عبدالله بن المبارك عن الحسن البصري في هذه الآية وأخواتها : « إن المؤمنين قوم ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم - والله - لأصحاء ، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومَنَعَهم من الدنيا علمُهم بالآخرة ، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطَّعُ نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو مشرب ، فقد قلّ علمه وحضر عذابه » ونحن نقول : لقد حُقَّ لهم - والله - أن يبكيهم الخوف من النار ؛ فإن عذابها أليم شديد دائم ملازم ﴿ **إن عذابها كان غراماً** ﴾.
والموفق من لم تلهه العاجلة عن الآجلة ، وأنه ليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار .

والعجب كل العجب ممن يستسلمون للغفلة فلا يحذرون الآخرة ، وينسون قول عباد الرحمن وهم يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم : إن عذابها كان غراماً ، أي دائماً ملازماً ، وكان حرياً بهذه الديمومة والملازمة أن توقظهم من الغفلة وتحرك عزائمهم إلى الإنابة والإحسان من جديد .

ومما يدل على معنى الغرام في عذاب النار قول الأعشى :

إن يعذب يكن غراماً وإن يُعْـــطِ جزيلاً فإنه لا يبالي

يقول: إن يعاقب يكن عقابه عقاباً لازماً لا يفارق صاحبه مهلكاً له؛ فالغرام:

الهلاك والخسران الملح اللازم ومنه الغريم لإلحاحه و إلزامه ولهذا قال الحسن رحمه الله في قوله تعالى : ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرامُ اللازم ما دامت السماوات والأرض ، وكذا قال سليمان التيمي.

وذكر الحافظ ابن كثير عن محمد بن كعب : ان الله تعالى سأل الكفار ثمن النعمة فلم يردوها ـ أو عن نعمه ـ فما أدوها إليه ، فأغرمهم ؛ فأدخلهم النار .

وقال الراغب الأصفهاني : الغرام : ما ينوب الإنسان من شدة ومصيبة .. ثم نقل عن الحسن قوله : كل غريم مفارقه غريمه إلا النار .

والويل كل الويل : أنها ساءت مستقراً ومقاماً . فبئس المنزل منظراً ، وبئس المقيل مقيلاً .

وهذا ما يخشاه عباد الرحمن وذلك قولهم في دعائهم: ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ قال ابن أبي حاتم عند هذه الآية : حدثنا الحسن بن الربيع قال : حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن مالك بن الحارث السُّلمي ـ وهو تابعي ثقة ـ قال: «إذا طرح الرجل في النار هوى فيها ؛ فاذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له : مكانك حتى تتحَف ، فيسقى كأساً من سم الأساود والعقارب ، قال : فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة ، والعصب على حدة والعروق على حدة» .

اللهم أجرنا من النار بمنك وفضلك ، وباعد بيننا وبين كل سبيل موصلة إليها، ووفقنا لطريق عباد الرحمن الذين أتبعوا الإيمان بالعمل الصالح ، وكانت التقوى زادهم إلى يوم المعاد ؛ فهم دائماً يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم العزيز الغفار .

ويل يومئذ للمكذبين

الحديث موصول بما كنا بصدده قبلاً ، من الكلام على ما تفيض به قلوب عباد الرحمن وتمتلىء بـه نفوسهـم من خشيـة الله واليوم الآخـر ، وما يكـون من دعـائهم الخاشع أن يصرف الله عنهم عذاب جهنم ، العذاب الملازم الدائم الذي لا ينقطع ـ والعياذ بالله ـ ﴿ ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾.

ومنـذا الذي يملـك قـدراً من المعـرفـة بما جاء في الكتـاب الكـريم والسنـة الصحيحة عن نـار الجحيم، وما يلقى أهلهـا من العذاب الأليم ، ثـم يغضي عن ذلـك ، ويسلم قيـاده لهواه ويكون في طـاعـة الشيطان ؟! إن الـذي يقع في هـذه الحمأة يحكم على نفسه أنه من أهل الغفلة الذين يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ويعطلّـون ما أعطـاهم الله من وسـائل الهداية والانتفـاع بدعـوة الحياة، وبذلك يساقون يوم القيامة إلى جهنم في زمـر من يساقون إليها إلا أن يتوبوا التوبة النصوح . ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بـل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ .

أما عباد الرحمن الذين آمنوا وعملـوا الصالحات : فهم على ذُكر دائم لما توعّد الله به أهـل الضلالـة الذيـن تسعّربهم الجحيـم ، ويُعطون ذلـك قدراً ذا بـال من الأهمية في سلوكهـم وتعاملهم مع الله تعالى ومـع عباده ؛ فالأمر جـدٌّ لا هزل فيه ، والغفلة عنه إلقاء باليـد في خضم الهلكة والضياع ﴿ إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافـع . يوم تمور السماء مـوراً . وتسير الجبال سيراً . فـويل يـومئذ للمكـذبين . الذين هم في خـوض يلعبون . يوم يدعّون إلى نارجهنم دعّاً . هـذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ قال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى قال : حدثنا سلاّم يعني ابن مسكين ـ عن أبي طلال عن أنس بن مـالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

«إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة يا حنان يامنان ، فيقول الله عز وجل لجبريل: اذهب فائتني بعبدي هذا ، فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون ، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل : ائتني به ، فإنه في مكان كذا وكذا ، فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول : يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : يارب شر مكان وشر مقيل ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدي فيقول : يارب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها ، فيقول الله عز وجل : دعوا عبدي ».

هكذا نرى أن النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو يفيض في البيان عن جهنم وأحوال أهلها ـ لا يدع أن يعمل على تربية النفوس وإعدادها للإفادة من هذا البيان والتنبيه على منافذ النجاة ومواطن الهلكة ، وتحديد الأمور التي تنتفع الأمة بتحديدها ، ليثمر ذلك ما يثمر من التذكر والجد في طاعة الله تعالى ، والجهاد في سبيله ، واجتناب كل ما من شأنه الاغترار بزينة الحياة الدنيا ، والغفلة عما جاء في شأن الصاخّة وأهوالها من الوعد والوعيد ، حيث دار المقامة ونعيمها الدائم لأهل القرب عباد الله الصالحين ، ونار السعير جهنم لأهل الضلالة والمجرمين الظالمين.

روى الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : «قلت : يارسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : يا عائشة ، أما عند ثلاث : فلا . أما عند الميزان حتى يثقل أو يخفَّ : فلا . وأما عند تطاير الكتب ؛ فإما أن يعطى بيمينه أو يعطى بشماله : فلا ، وحين يخرج عُنُق من النار فينطوي عليهم ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وُكلتُ بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلتُ بمن ادعى مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد ، قال: فينطوي عليهم ويُرمى بهم في غمرات ، ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف ، عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله ، والناس عليه كالطرف وكالبرق ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلّم رب سلّم ، فناج مسلَّم ومخدوش مسلَّم ، ومكوّر في النار على وجهه » .

العنق من النـار : الطائفة . المخدوش : مـن خدشه يخدِشه خـدشاً : قشره ، وخدْش الجلد : قشره بعود أو نحوه . والخُدوش : جمع خَدْش لأنه سمي به الأثر ـ كما يقول ابـن الأثير ـ وإن كان مصـدراً . وقولـه : مكوَّر في النار على وجهـه : من التكوير وهو اللفُّ والجمع ، فهو ملفوف مجموع بعضه على بعض ملقىً في جهنم على وجهه مع من أحاط بهم سرادقها جزاءً بما كانوا يصنعون .

وإنها لصورة مفزعة مـرعبة حقاً في ذلك المشهد من المشاهـد المهولة المخيفة لمن تُصلى بهم نـار الجحيم . وإذا كـان الأمر كـذلك : فـإن هذا الهدي النبـوي في الإجابة عن سـؤال السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، يبدو أمـانة في أعناق المكلفين رجالاً ونساءً ؛ من الواجب أن يـؤدوا حق الله فيها ،فتكون حافز خير على إيقاظ الغـافل وشد أزر طلاب الآخـرة ، وتذكّر ما يكـون في عرصات القيامـة وما يجب من الإعداد لتلك الساعات العصيبات . والموفّـق التوفيق كله من عمل على تزكية نفسـه ، فحظي بالنور الإلهي في قلبـه وفي أعماله ، فكان مصيره يوم القيـامة جنة المأوى ويـا نعم دار المتقين . والمحروم من حـرم ذلك النور ، فكـان تقلبه في ظلمات بعضها فوق بعض ، وكانت عاقبته جهنم وساءت مصيراً . قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ نور على نور ﴾ يعني بذلك إيمان العبد وعمله . وقال أبي بـن كعب : ﴿ نور على نور ﴾ فهو يتقلب في خمسـة من النور : فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نـور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة » وقال رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ فهو يتقلب في خمسـة من الظلـم ؛ فكلامـه ظلمة ، وعملـه ظلمة ، ومـدخله ظلمـة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار .

فليختر عاقل لنفسه مستعيناً بالله عز وجل ، صادقاً في العمل ابتغاء مرضاته، مخلصاً في الوقـوف ببابه متضرعاً إليـه .. فعسى أن ينير المولى عز وجل قلبـه وقوله وعمله ويرحمه بأن يكـون يوم القيامة من أهل جنات النعيم ، ويبـاعد بينه وبين ما يـؤول إليه مـن تغلـب عليهم شقـوتهم ، فتلتهمهـم نار تلظـى ﴿لا يصلاهـا إلا

الأشقى. الذي كذب وتولى ﴾. وإني لأسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً وعن أيماننا نوراً وعن شمائلنا نوراً وأن يعظم لنا نوراً . فالله تعالى يهدي لنوره من يشاء ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

ثم إن لله سنة ماضية في ترتيب النتائج على الأعمال، بمنه وكرمه سبحانه وتعالى . ألا ترى إلى قوله جل شأنه في سورة الحديد : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾ ! أخرج البخاري بسنده عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «مثل المسلمين واليهود والنصارى ، كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا ، وما عَمِلْنا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً ،فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ماعَمِلْنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال : أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا ؛ فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور » انفرد به البخاري بهذا اللفظ . وفي رواية للإمام أحمد « فغضبت النصارى واليهود وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا: لا . قال: هو فضلي أوتيه من أشاء ».

ما كان لمؤمن ولا مؤمنة ـ وقد بصّرهم الله في كتابه وعلى لسان رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام بما يكون يوم الدين لأهل الهداية والصلاح ، وما يكون لأهل الضلالة والصد عن سبيل الله ـ ما كان لهم ـ وقد أُكرموا بذلك ـ أن يعرضوا عن ذكر الله ، وينسوا ربهم واليوم الآخر .. فيوم الفصل ، هولُه شديد ، والذين أساءوا في الدنيا لهم السوءى يوم القيامة ، وقد أعذر ربنا جل جلاله ، وأعذر نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وعلى المرء أن يُعد العدَّة للجواب عن تقصيره في العمل وتفريطه في جنب الله ، يوم يقف للمساءلة أمام الواحد القهار رب العالمين، وأن يكون على ذكر مما جاء به الخبر الصادق عن أحوال أهل الجحيم .

قال الإمام البخاري : حدثني محمد بن بشار قال : حدثنا غُندَر قال : حدثنا شعبة قال : سمعت أبا إسحاق قال : سمعت النعمان رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه » وله في رواية أخرى عن النعمان بن بشير قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيام رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل بالقمقم » ورواه مسلم بلفظ : سمعت النعمان بن بشير يخطب وهو يقول . ورواه الترمذي .

وهذا رسول الله ﷺ يذكر النار ، فيشيح بوجهه فيتعوذ منها ، ويوجه المسلمين إلى ما يتقون به عذابها . فقد روى البخاري وغيره عن عدي بن حاتم « أن النبي ﷺ ذكر النار ، فأشاح بوجهه فتعوذ منها ، ثم ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة ». وقال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة قال : حدثنا يحيى بن أبي بُكَيْر قال : حدثنا زهير بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن النعمان بن أبي عياش عن أبي سعيد الخدري

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى أهل النار عذاباً ، ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه » وله في رواية عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً » .

الأخمص : المتجافي من الرجل عن الأرض . والشراكان : مثنى شراك وهو أحد سيور النعل وهو الذي يكون على وجهها وعلى ظهر القدم . والمرجل : قِدر معروف سواء أكان من حديد أو نحاس أو خزف أو نحوها . والمعاذ الله من نار السعير وأليم عذابها ؛ فهذا تأخذه النار إلى كعبيه ، وذاك تأخذه إلى ركبتيه ، وآخر إلى حجزته ، ورابع إلى ترقُوته .. وهكذا .

وفي ذلك وأمثاله بلاغ لمن عقل عن الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وعمل على أن يتقي الجحيم بسلوك الصراط المستقيم ؛ إيماناً وعملاً وسلوكاً وأخذاً بما هدى إليه وبلغه عن ربه نبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . روى مسلم بسنده عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حُجزَته ، ومنهم من تأخذه إلى ترقُوته » وفي رواية أخرى له « إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه إلى حُجزته ، ومنهم من تأخذه إلى عنقه ».

والحق أن المؤمن قد وُضع على المحجة البيضاء في هذا الأمر وغيره ؛ فإذا عمل وأحسن الظن بالله عز وجل ،كان ذلك عنوان النجاة من الوعيد الذي جاء الخبر الصادق عنه يوم القيامة . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه جل وعلا أنه قال : «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين ؛ إذا خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة ». رواه ابن حبان في صحيحه . وقد أوردت غير مرة ما رواه الترمذي وحسّنه عن أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ

المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة ».

فالثمن غال للزحزحة عن النار ودخول الجنة ، ولكن المؤمن وُضع - بحمد الله - على الطريق التي تنتهي بمن يسلكها - بصدق - إلى العاقبة المشرقة الكريمة، وتباعد بينه وبين أن يكون ممن تسعّرهم لظى ويقذفون في الجحيم .. ومن المسلَّمات أن حسن الظن بالله تعالى مع الاستقامة - كما تدل النصوص - عنوان النجاة من عذاب الله بمنه وفضله سبحانه . وقد كشف الرسول ﷺ عن أمثال من الغابرين لهذه الحقيقة كي تنتفع الأمة بها وتعتبر ؛ فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « كان رجل يسرف على نفسه ، ولما حضره الموت قال لبنيه : إذا أنا مُت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذرّوني في الريح ، فوالله لئن قدر الله علي - وهو قادر - ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً ، فلما مات الرجل فعل به ذلك ، فأمر الله الأرض فقال : اجمعي ما فيك ففعلت ، فإذا هو قائم؛ فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يارب ، أو قال: مخافتك، فغفر له» وفي رواية : ثم قال : « لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يارب وأنت أعلم ، فغفر الله تعالى له » . ورواه مالك في الموطأ والنسائي في المجتبى «السنن الصغرى» نحوه. وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : إن رجلاً كان قبلكم رزقه الله مالاً ، فقال لبنيه لما حضر - أي الموت - أيّ أب كنت لكم ؟ قالوا : خيرُ أب ، قال: فإني لم أعمل خيراً قط ، فإذا مِت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في ريح عاصف ، ففعلوا ، فجمعه الله فقال : ما حملك ؟ فقال : مخافتك ، فتلقاه برحمته » رواه البخاري ومسلم .

وما من ريب في أن مخافة الله ، أثر من آثار الإيمان العميق في النفس ، والأمة المحمدية بين يديها - في كتاب الله وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم ما فهمه أئمة الهدى منهما وقدموه للناس بالكلمة والقدوة - بين يديها المنهج المتكامل لإعمار الدنيا والعمل للآخرة ، وأن تكون الوجهة خالصة لله عز وجل، في يقظة تباعد عن اختلاط العمل بالشوائب المحبطة ، وعن الاغترار بما يكون من

زينة العاجلة وزخرفها في المال أو المنصب والسلطان .. بل عن الوقوع في الخلل الذي يصيب أعمال القلوب أحياناً من رياء وسمعة ، ومكر وخداع ، أو مخالطة للأقوال والأعمال الشركية مما ينافي إخلاص العبودية لله عز وجل .

وإذا كان الأمر كذلك ــ والرسول عليه الصلاة والسلام لم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى ترك الأمة على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ـ فالواجب أن يكون المؤمن والمؤمنة على بينة من الأمر في شؤون العمل الأخروي، واستدامة التذكر للجنة ، وما يكون فيها للكرام البررة من أهل التقوى والجهاد والصلاح ، ولنار السعير ، وما يكون فيها لمن ضلّوا الطريق وصدوا عن سبيل الله .

وإدراك الحقيقة باستنارة وتبصُّر ، يفعل في النفس الكثير الكثير ويوجه العمل ـ بعون الله ـ الوجهة المطلوبة . روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين» وفي رواية بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال : «عرضت علي الجنة والنار ، فلم أر كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشدُ منه غطّوا رؤوسهم ولهم خنين » .

الخنين : البكاء مع غنة بانتشار الصوت من الأنف .

رضي الله عن الصحابة أجمعين ، ورزقنا حسن الانتفاع بهذه الرقة في القلب والدمعة الخاشعة في العين إنه هو الرؤوف الرحيم .

وحق لعائشة أن تبكي

كان من فضل الله على هذه الأمة ، أن نبيها محمداً عليه الصلاة والسلام، لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى ـ كما أشرت غير مرة ـ حتى بيّن كلَّ ما يجب بيانه على صعيد الرسالة وتبليغها ، وترك المسلمين على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ؛ وكان من ذلك كشفه عما يكون يوم القيامة بعامة ، وعن صفات كلٍ من الجنة والنار والإفاضة في كل ما يتعلق بهما بخاصة ، كل أولئك رحمة منه بأمته كي تكون على سواء الصراط ، فتسلك السبيل الموصلة ـ برحمة الله ـ إلى دار النعيم ، وتتجافى عن سبل الهوى والشياطين التي تؤدي بها إلى المهالك ،وتجعلُ سالكها من أهل الجحيم . والنصوص في ذلك كثيرة وفيرة أوردت العديد منها فيما خلا من القول .

وفي متابعة لهذه الرحلة المباركة ، أجد لزاماً إيراد بعض ما حملت إلينا كتب الحديث في شأن جهنم ، إضافة لما مضى من قريب . قال البخاري رحمه الله في « باب صفة النار وأنها مخلوقة » من كتاب بدء الخلق في الجامع الصحيح : حدثنا إسماعيل بن أوس قال : حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . قيل : يارسول الله إن كانت لكافية . قال : فُضِلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثلُ حرها » . ورواه مسلم عن أبي هريرة أيضاً بلفظ « ناركم هذه التي يوقِد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم ، قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله ! قال : فإنها فُضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كُلها مثل حرها » وله في رواية أخرى « كلهن مثل حرها » وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من حر جهنم، قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله ، قال : فإنها فُضلت عليها بتسعة وستين

جزءاً كلهن مثل حرها » وفي رواية له : فقال رجل : « إن كانت لكافية » كما له في رواية أخرى « من مائة جزء » والجمع ـ كما يرى الحافظ ابن حجر وغيره ـ بأن المراد المبالغة في الكثرة لا العدد الخاص ، أو أن الحكم للزائد . وزاد الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه « لكل جزء منها حرها » ومما يدل على أن الصحابة هالهم الأمر قولهم : «إن كانت لكافية » فـ « إن » هي المخففة من الثقيلة أي أن نار الدنيا كانت مجزئة لتعذيب العصاة . ومعنى « فضلت عليهن » كما في رواية البخاري : « فضلت على نيران الدنيا » ورواية مسلم ــ كما رأينا ــ ورواية مالك التي تأتي إن شاء الله « فضلت عليها » أي على النار .

وفي «فتح الباري» للحافظ ابن حجر : قال الطيبي ما محصله : إنما أعاد حكاية تفضيل نار جهنم على نار الدنيا إشارة إلى المنع من دعوى الإجزاء ، أي لابد من الزيادة ليتميز ما يصدر من الخالق من العذاب على مايصدر من خلقه . وروى الحديث ابن حبان ونحوَه ابن ماجة ، والحاكم عن أنس رضي الله عنه بلفظ فيه اختلاف يسير ، ورواه مالك في الموطأ في كتاب جهنم باب «ما جاء في صفة جهنم » عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا : يا رسول إن كانت لكافية . قال : « إنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » حدث مالك عن عم أبي سهيل بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « أتُرَوْنها حمراء كناركم هذه ؟ لهي أسود من القار » والقار الزفت . ونقل الزرقاني في شرحه للموطأ عن الباجي قوله : (مثل هذا لايعلمه أبو هريرة إلا بتوقيف ـ يعني لأنه بإخبار عن مغيّب ـ فحكمه الرفع) وعلى هذا فحكم هذا الحديث الموقوف على أبي هريرة في صفة نار جهنم حكم المرفوع لأن الخبر متعلق بعالم الغيب فليس للرأي فيه مجال .

وهذا الحديث أخرجه الترمذي بلفظ أطول وهو حديث حسن ؛ إذ روى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أوقد على النار ألف

سنة حتى احمرّت ، ثـم أوقد عليها ألف سنـة حتى ابيضت ، ثم أوقـد عليها ألف سنـة حتى اسـودت فهي سـوداء مظلمة » قـال الترمذي : وروي مـوقوفـاً على أبي هريرة وهـو أصح . وقد قدمنـا أن له حكم المرفوع لأنـه لا مجال للرأي فيه ، وزاد رزين «فلو أن أهل النـار وجدوا مثل ناركم هذه ، لقالوا فيهـا » وفي أخرى لرزين «أن رسول الله ﷺ ذكر النـار فقال : أتُرونها حمراء مثل نـاركم هذه التي تـوقدون ؟ إنها لأشد سواداً من القار ، ولـو أن أهل النار أصابوا ناركم هذه ، لنـاموا فيها ـ أو قال : لقالوا فيها» . قالوا : من القيلولة .

وبعد : فهذا قليل من كثير ـ كما سوف نـرى إن شاء الله ـ مما ورد في شأن نار السعير وصفتها أعاذنا الله منها .

وكلما ازداد إيمان المؤمن ، ورقّ قلبـه ، وصفَت نفسـه ، كان أكثر تـأثراً بـذكر جهنم، وفَعَل الخبر الصـادق فعله في شحذ العزيمـة إلى طاعة الله وتقواه والإنـابة إليه . من أجل هـذا لم يكن بدعاً أن ينقل عن السلف الصالـح شدة التأثر ، حين يذكرون النـار ، وظهور علامات الخشية الصـادقة على محياهم، والبكاء النـابع من خوفهـا عند ذلـك . قال الإمـام أبو داود في كتـاب السنة مـن «السنن » : حـدثنا يعقوب بـن إبراهيـم وحميد بـن مسعدة ، أن إسماعيل بـن إبراهيـم حدثهـم قال: أخبرنا يونس عن الحسن عن عائشة أنها ذكرت النار فبكت ، فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك ؟ قالت :ذكرت النار فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أما في ثلاثة مواطن: فلا يـذكر أحد أحداً . عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل ؟ وعند الكتاب حين يقال : « هاؤم اقرؤا كتابيه » حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم » .

والحديث حسن تشهـد له روايات أخر .مـن هذه الشواهد مـا رأينا في حلقة سلفت عند الإمام أحمد من الرواية التي تقول فيها عائشة رضي الله عنها : «قلت:

يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيـامة ؟ قال : يا عائشة أما عند ثلاث: فـلا.. وكـانت الثـالثـة: «وحين يخرج عُنـق مـن النـار فينطوي عليهـم ويتغيـظ عليهم..» الحديث . وقال الترمذي في كتاب صفـة القيامة من الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ حدثنا عبدالله الصَّبَّاح الهاشميُ قال : حدثنا بدَل بن المحبَّر قال : حدثنا حـرب بن ميمون الأنصاري أبو الخطـاب قال : حدثنا النضر بـن أنس بن مالك عن أبيه قال : سألت النبيَّ ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل . قلت: يارسول الله فأين أطلبك ؟ قال : أولَ ما تطلبني على الصراط . قال : قلت : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قـال : فاطلبني عند الميزان . قال قلـت : فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قـال : فاطلبني عند الحوض فـإني لا أخطىء هذه الثلاثـة مواطن » وإسناده حسن . قال أبو عيسى : هذا حديـث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

هكذا بكت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عند ذِكرها النار وحُق لها أن تبكي؛ فقـوة إيمانها ، وكمال تصديقهـا بما جاء عـن الله ورسولـه في شأن اليـوم الآخر والجنـة والنار ، كل أولئك ولّـد عندها ـ والله أعلـم ـ ذلك الصفاء الـروحي المقترن بتهذيـب النفس ، فلا عجـب أن تفيض دموعهـا وهي تـذكر بذكـر النار الأنكال والجحيـم والغسَّاق ، وشجرة الـزقوم طعـام الأثيم، وهي كـالمهل يغلي في البطون كغلي الحميـم، وغير ذلك مما يتسربـل به الذيـن ضلّوا السبيل وعمـوا عن طريق الهداية ، فكانت عاقبتُهم أن يصلوا نار السعير خالدين فيها .

رضي الله عن الصديقة بنت الصديـق وعن الصحابـة أجمعين والتابعين لهم بإحسان ، وجعلنا جميعاً ممن تملأ قلوبهم خشية الله ويخافون يوماً كان شره مستطيراً، وباعد بيننا وبين طريق من تسعّر بهم الجحيم .

بشاشة الإيمان ،وما أدراك ما بشاشة الإيمان !! إذا خالطت القلب واستضاء بنورها ، أصبح المسلم على حال لا يسأم معها استدامة النظر فيما يحمله الخبر الصادق من العطاء الإلهي في جنة الخلد يوم الدين، للصفوة من العباد الذين ازدانت حياتهم بمحبة لقائه سبحانه، وعملوا الصالحات ولم يشركوا بعبادة ربهم أحداً . وقل مثل ذلك في مخالطة ما جاء في كتاب الله وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام من النذارة لأهل الضلالة ـ الذين عتوا عن أمر ربهم ، وحادّوا الله ورسوله ـ بالعذاب الأليم والخلود في نار السعير ، جهنم يصلونها فبئس المصير .

ومن ثمرات ذلك كله ـ على صعيد الواقع ـ تحرك الهمم إلى المسارعة في الخيرات والإكثار من القربات ، والبعد عن كل ما هو من الغفلة ونسيان الله واليوم الآخر بسبب ؛ ذلك بأن الأمر يوم الفصل لا يحتمل اللهو والعبث ، فهو خطير جدٌّ خطير ، والله تبارك وتعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، والعاقل كل العاقل من سلك طريق أهل الخشية وأعدّ العدّة ليوم الدين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

قال الإمام البخاري في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح : حدثنا إسماعيل قال : حدثني أخي عن سليمان عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « أول من يُدعى يوم القيامة آدم ، فتراءى ذريتُه ، فيقال لهم: هذا أبوكم آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج بعث جهنم من ذريتك، فيقول : يارب كم أخرج ؟ فيقول : أخرج من كل مائة تسعة وتسعين ، فقالوا : يارسول الله إذا أخذ منا تسعة وتسعين فماذا يبقى منا ؟ قال : إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود » وإذا كان الأمر كذلك : فما أحرى المسلمين رجالاً ونساءً بأن يضعوا نُصب أعينهم ما يجب من سلوك سبيل النجاة ، وأخذ

النفس بالجدّ في طاعة الله والجهاد في سبيله، حذراً من الوقوع في الهاوية يوم المآب ، يوم لا يملك خليل الله إبراهيم عليه السلام أن ينقذ أباه آزر من النار ، وقد جاهر الله بالكفر في الدنيا ، وكان في مواجهة رسالة السماء من الغاوين .

أخرج الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قَتَرة وغَبَرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟! فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، فأيُ خزيٍ أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار ». وأخرجه في باب ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ من كتاب التفسير في الجامع مختصراً بلفظ « يلقى إبراهيم أباه فيقول : يارب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون . فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين ». قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره للآية من سورة الشعراء بعد أن أورد رواية البخاري : رواه عبدالرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبير .

الغَبَرَة من الغبار . والقَتَرَة : غبرة معها سواد . والذيخ : ذكر الضباع ، والأنثى ذيخة . قال الحافظ ابن حجر في الفتح : وصف نفسه ـ يعني إبراهيم عليه السلام ـ بالأبعد على طريق الفرض إذ لم تقبل شفاعته في أبيه .

هذا : وذكر الغَبَرَة والقترة في حديث إبراهيم عليه السلام، يشدنا إلى ما نجد في الكتاب الكريم من أن سمة وجوه الكفار يوم القيامة أن عليها غبرةً ترهقها قترة. والمؤمن ـ مع ما ينبغي أن يكون عليه من الرجاء بفضل الله ورحمته ـ يداخله ما يداخله من الخوف حين يقرأ في بيان هذه الحقيقة قول الله تبارك وتعالى في خواتم سورة عبس : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قَتَرة . أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ .

ولكم نحسن صنعاً ، إذا نحن اتخذنا من سيرة أهل القرب والصفاء الذين

حرصوا على حسن الاتباع لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه .. ضياءً يعين على قطع المسافة بين الواقع الذي نشكو منه ـ حيث حب الدنيا والركون إلى الذين ظلموا وكراهية الموت والاستخذاء أمام الصوارف عن الخير ـ وبين ما يجب أن يكون عليه المؤمن ، من تطلع صادق إلى النجاة من عذاب الله يوم الدين ، والفوز بما أعدّ الكريم المنان لعباده المتقين المجاهدين الصابرين ، الذين تراهم، ووجوههم ـ من الفرح بفضل الله ورحمته وكريم عطائه ـ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة.

من هؤلاء الربانيين الذين نسعد بهديهم: التابعي الثقة والإمام الرباني الواعظ بلال بن سعد أبو عمرو الدمشقي شيخ أهل دمشق المتوفى سنة نيّف وعشرة ومائة. قال الأوزاعي : كان من العبادة على شيء لم نسمع أحداً قوي عليه. وقال أيضاً : سمعت بلال بن سعد ولم أسمع واعظاً أبلغ منه، وقال أبو زرعة النَّصْري : كان لأهل الشام كالحسن البصري بالعراق ؛ ها هو ذا يذكر الناس بالموت وبما بعد الموت كي يحسنوا التزود للآخرة، فيقول ـ كما سمع ذلك عبدالرحمن بن يزيد بن تميم ـ: « يا أهل التقى إنكم لم تخلقوا للفناء ، وإنما تنقلون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ومن القبور إلى الموقف ، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار » .

وفي حرص على إيقاظ من يركن إلى الاستمتاع بالدنيا وملذاتها ، وينسى ما يكون من سوء العاقبة لأهل الغفلة الساهين اللاهين ؛ نجد ما روى أبو نعيم في الحلية بسنده من طريق العباس بن الوليد عن عثمان بن مسلم أنه سمعه يقول : «رُبَّ مسرور مغبون ، ورُبَّ مغبون لا يشعر ، فويل لمن له الويل ولا يشعر ، يأكل ويشرب ، ويضحك ويلعب، وقد حق عليه في قضاء الله أنه من أهل النار . زاد عباس في حديثه : فيا ويلاً لك روحاً ، ويا ويلاً لك جسداً ، فلتبك وليبك عليك البواكي بطول الأبد » وفي رواية له عن الأوزاعي أنه قال : سمعت بلال بن سعد يقول : « رُبَّ مسرور مغبون ، يأكل ويشرب ويضحك ، وقد حق له في كتاب الله

أنه من وقود النار ».

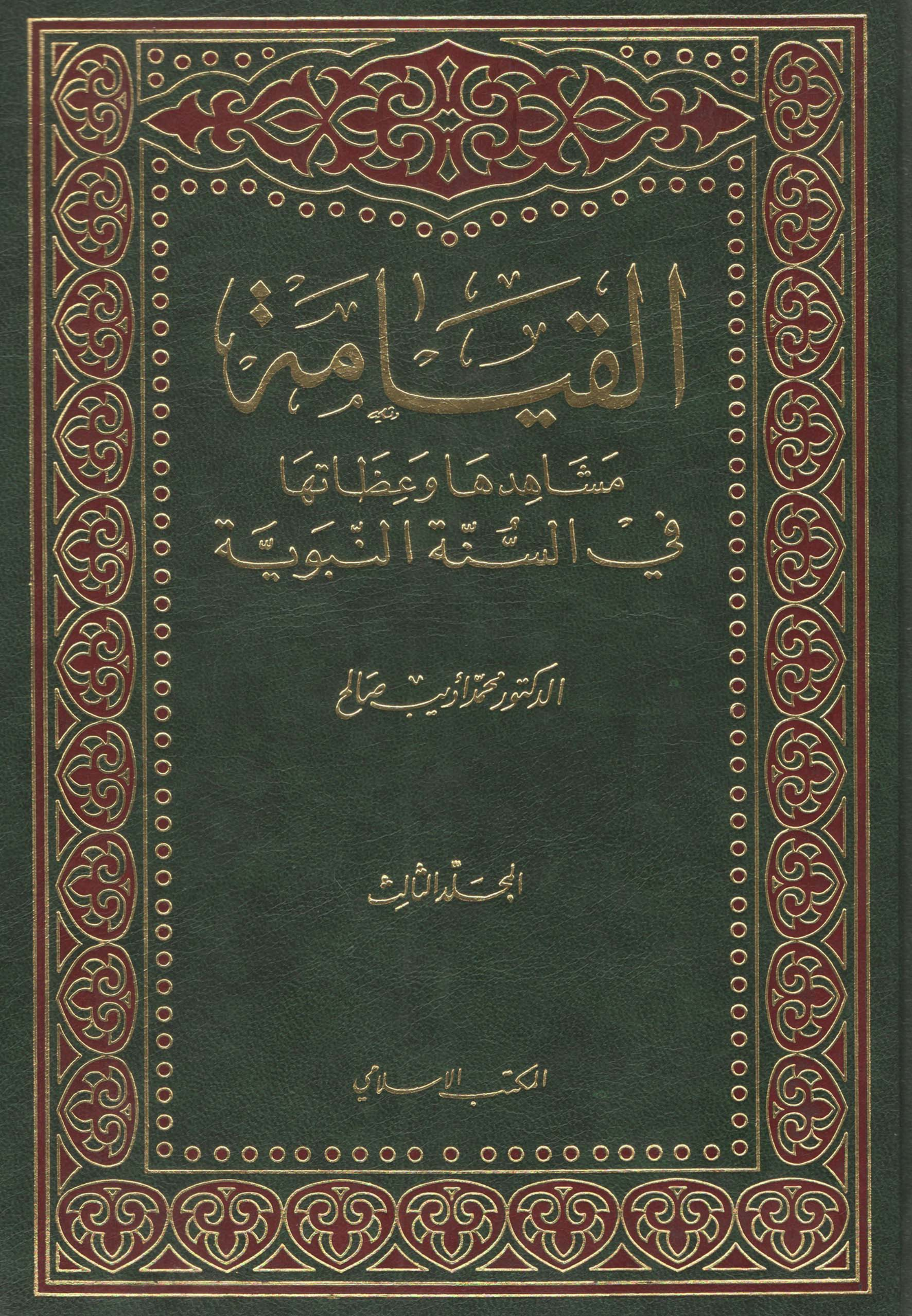
وما أبلغه موعظة . ذلك التذكير بأن لا ينظر المرء إلى صغر الخطيئة ، فيستهين بها عمل ، ويصرّ على تلك الخطيئة التي قد يسوقه الشيطان إلى ما هو أكبر منها ، بل ينظر إلى من عصى سبحانه ، وهنالك يتذكر فيؤوب ويفوّت على الشيطان ما أراد . روى أبو نعيم بسنده عن عبدالله بن المبارك عن الأوزاعي قال : سمعت بلال بن سعد يقول « لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيته ».

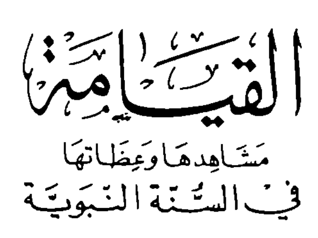
ومن كلماته التي تشير إلى حسن انتفاعه بالعبادة ، وخوفه الصادق من عذاب الجحيم قوله فيما روى عنه الأوزاعي رحمه الله : «تنادي النار يوم القيامة يا نار أحرقي ، يا نار اشتفي ، يا نار أنضجي ، يا نار كلي ولا تقتلي ».

اللهم برحمتك الواسعة ولطفك الخفي ، قنا عذابك يوم تبعث عبادك ، واكتبنا من أهل الفوز بجنتك يارب العالمين .

الفهرس

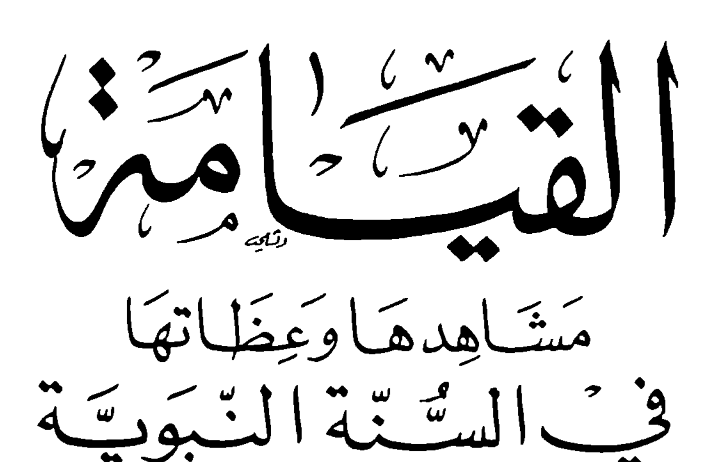
* * * * *


القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية
الدكتور محمد أديب صالح
المجلد الثالث
المكتب الإسلامي


القيامة
مشاهدها وعظاتها
في السنة النبوية



الدكتور محمد أديب صالح



القيامة

مشاهدها وعظاتها في السنة النبوية

المجلد الثالث

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص. ب : ١١/٣٧٧١ - برقياً : اسلاميا - تلكس : ٤٠٥٠١ - هاتف : ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص. ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص. ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٦٥٦٦٠٥ - فاكس : ٧٤٨٥٧٤

فلم أرَ كاليوم في الخير والشر

القراءة المتبصرة للهدي النبوي من قبل المؤمن ـ وهو يرتحل في تلك الرياض النضرة من حديث رسول الله ﷺ ـ عنوان خيرية يغبط عليها ويغبط : وعلى الأخص ما يكون من النظرات الإيمانية الواعية فيما جاء عنه عليه الصلاة والسلام ـ وهو المبين لكتاب الله ـ في شأن يوم القيامة والحصاد الذي يكون هناك ؛ فإما جنات تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلُّها ، وإما عذاب السَّموم في نار الجحيم .

وليس بخاف أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، عندما يخبر عما يكون في يوم الفصل الذي جعله الله ميقاتاً يجمع فيه الأولين والآخرين ، فإنما يبلِّغ ما أمر به من ذلك ، توثيقاً للعلاقة بين العمل في الدنيا وبين المسؤولية يوم الحساب ؛ ولهذه الحقيقة ما لها من انعكاس على انتظام شؤون الحياة ، واستقامة التعامل بين الإنسان والكون ، وبين الإنسان والإنسان ،على المنهج الذي يرضي الله تبارك وتعالى ، ويحقق الخير والعدل ويؤدي ـ بفضل الله ورحمته ـ إلى سعادة الدنيا والآخرة ؛ وسيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه ، لم ينِ يؤدي حق الله في البلاغ والتعليم والتربية على ما يبلِّغ ويعلِّم، حتى لقي الله مستكملاً ما أوجب الله عليه في ذلك ،على خير وجه .

وكان من ثمرات ذلك ، ما رأت الإنسانية من خصائص الجيل الفريد جيل الصحابة رضي الله عنهم ، ثم من تبعهم بإحسان إلى يوم الناس هذا ـ وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ـ من النظرة المتكاملة إلى الدنيا والآخرة جميعاً ، والسلوك الأمثل وفق ما تقتضيه حقيقة أن الدنيا هي الدار العاجلة الفانية متاع الغرور ، وأن الآخرة هي الدار الآجلة الباقية : وهي الحياة الحقيقية لو كان الناس يعلمون . أخرج الإمام البخاري في كتاب الاعتصام من الجامع الصحيح بسنده عن أنس

رضي الله عنه « أن النبـي ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلَّى الظهـر ، فلما سلم، قام على المنبر ، فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أموراً عظاماً ، ثم قال : من أحب أن يسأل عن شيء فليسـأل عنه ، فوالله لا تسألـونني عن شيء إلا أخبرتكم بـه ما دمت في مقـامي هـذا . قال أنـس فأكثـر الناس البكـاء، وأكثر رسـول الله ﷺ أن يقول: سلوني : قال أنـس : فقام إليه رجل فقال : أين مُـدْخَلي يارسول الله ؟ قال: النارُ . فقام عبدالله بـن حذافة ، فقال : من أبي يا رسول الله ؟ قـال : أبوكَ حذافة. قال : ثم أكثـر أن يقول : سلوني سلوني ، فبرَكَ عمر على ركبتيه فقـال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً . قال : فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلـك ، ثم قال رسول الله ﷺ : أوْلى ، والـذي نفسي بيده ، لقد عـرضت عليَّ الجنة والنـار آنفاً في عُـرض هذا الحائط ، وأنـا أصلي ، فلم أر كهـذا اليوم في الخير والشـر » .

هكذا خرج رسول الله ﷺ حين زالـت الشمس ، فصلّى الظهر في أول وقتها ، ثـم قـام إلى المنبر بعد أن سلّم من الصـلاة ؛ وذلك لما بلغه ـ كما يقـول العلماء ـ أن قوماً من المنافقين يسألون منه للتعجيز ـ على زعمهم ـ عن بعض ما يسألونه . وقد أثار كـلامه ﷺ مشاعـر الإيمان والخشية في النـاس ،فأكثروا مـن البكاء . ولأبي ذر عند الكُشميهَينـي « فأكثـر الأنصار البكاء » وذلـك خوفاً ممـا سمعوه عـن أهوال القيامة أو من نزول العذاب العام المعهود في الأمم السالفة ـ كما يقول القسطلاني ـ عنـد ردهم على أنبيـائهم ، بسبـب تغيظه صلـوات الله وسلامـه عليه مـن مقالـة المنافقين السابقة آنفاً .

أما عن الـرجل الذي قال : أيـن مُدخلي يارسول الله ؟ فقـال : « النار » فقد جاء في فتح البـاري للحافظ ابن حجر قـوله : (ولم أقف على اسم هـذا الرجل في شيء من الطرق ، كأنهم أبهموه عمداً للستر عليه) وكذلك قال القسطلاني . قال الحافظ : وللطبراني مـن حديـث أبي فراس الأسلمي نحـوه وزاد « وسألـه رجل في الجنة أنـا؟ قال : في الجنـة » ولم أقف على اسـم هذا الآخـر . وقولـه ﷺ : « أَوْلى »

يعني أولا ترضون ، يعني رضيتم أو لا وفي رواية « أولي لكم» أي قرب منكم ما تكرهون قال ابن الأثير :وهي كلمة تلهُّف ، يقولها الرجل إذا أفلت من عظيمة . وقيل : هي كلمة تهدد ووعيد .

والملاحظ أن النبي عليه الصلاة والسلام ، كان حريصاً على الكشف عن أن النار حق ، وأن الجنة حق ، وتنبيه المسلمين على ما يكون في الجنة من الخير ، وفي النار من الشر ؛ ذلكم قوله صلوات الله وسلامه عليه : « والذي نفسي بيده لقد عرضت علي الجنة والنار آنفاً فلم أر كاليوم في الخير والشر » أي لم أبصر يوماً مثل هذا اليوم في الخير الذي رأيته في جنة الخلد ، والشر الذي رأيته في نار الجحيم ؛ قال هذا وهو يتحدث عنهما كأنهما رأي عين .

ولكم تبدو هذه الكلمات الهادية عميقة ومؤثرة ، على ساحة ما يجب من استشعار صادقٍ لأحقية يوم اللقاء ، وما أعدّ الله فيه للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ـ وهو خير كله ـ وما أعدّ للكافرين الظالمين الذين جاهروا الله بالعداوة وظلموا أنفسهم والعباد ـ وهو شر كله ـ .. وما يستتبع ذلك من وجوب الاستقامة، ومداومة العمل خوفاً من عذاب الله ،وطمعاً في رحمته. وحين يأخذ المؤمن نفسه بهذا المنهج الرشيد، يكون على الجادة في أمور دنياه وآخرته، ويكون ـ بفضل الله ـ من الفائزين يوم الدين ، لأن من تمثَّل الجنة والنار بين عينيه، كان ذلك باعثاً له على المواظبة على الطاعة ـ بأوسع معانيها ـ في كل شأن من شؤونه، والانكفاف عن المعصية وكل ما هو منها بسبب ، وذلكم طريق الفلاح والنجاح .

وفي بعض روايات الحديث ما يزيد هذه الحقيقة وضوحاً ، يبلغ بها أعماق النفس عند المؤمن ؛ وفي ذلك ما فيه من الخير .. قال الإمام البخاري : حدثنا إبراهيم بن المنذر قال : حدثنا محمد بن فُليح قال : حدثني أبي عن هلال بن علي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعته يقول : إن رسول الله ﷺ صلى لنا يوماً الصلاة ، ثم رقي المنبر ، فأشار بيده قِبَل قبلة المسجد فقال : قد أُريت الآن ـ

منذ صليت لكم الصلاة ـ الجنة والنار ممثَّلتين في قُبُلِ هذا الجدار ، فلم أر كاليوم في الخير والشر » . وقال في « باب التعوذ من الفتن » من كتاب الفتن : حدثنا معاذ ابن فضالة قال : حدثنا هشام عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : سألوا النبيَ ﷺ حتى أحفوه بالمسألة ، فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر فقال : لا تسألوني عن شيء إلا بينت لكم ، فجعلت أنظر يميناً وشمالاً فإذا كلُّ رجل رأسه في ثوبه يبكي .. إلى أن قال : ثم أنشأ عمر فقال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً ومحمد رسولاً نعوذ بالله من سوء الفتن ،فقال النبي ﷺ : «ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط » قال قتادة : يذكر هذا الحديث عند هذه الآية **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم ﴾**. وقال عباس النَرسيُّ : حدثنا ـ يزيد بن زُريع قال : حدثنا قتادة أن أنساً حدثهم «أن نبي الله ﷺ حدثهم بهذا وقال : كلُّ رجل لافاً رأسه في ثوبه يبكي ، وقال : عائذاً بالله من سوء الفتن ، أو قال : أعوذ بالله من سَوْأى الفتن » .

إنهم رضي الله عنهم يبكون خوفاً من الفتن في الدنيا ، وخوفاً من عذاب الله في الآخرة . وقد كان لذلك ماله من الأثر في حياتهم التي اصطبغت بالجدية في الاستعداد ليوم المعاد ، وتجويد العمل بإخلاص لله عز وجل ، كيما يكون حظ الواحد منهم في الآخرة ، جنةً عرضها السماوات والأرض أعدها الله نُزلاً لأحبائه المتقين . والحديث رواه أيضاً مسلم وأحمد وغيرهما .

لضحكتم قليلاً... ولبكيتم كثيراً

يتقضّى الليل والنهار ، ويتابع الإنسـان رحلته مع الحياة إلى أجله المضروب ؛ وفي بُحران هـذه الرحلـة التي يتشـابك فيها الـرغَب والـرهَب ، واليقظـة والغفلة، ضمن مطالب الدنيا ومطالـب الآخرة . تتجدد الحاجة أبداً دونها انقطاع إلى تنمية الحوافز التي تـرتفع بالمؤمن إلى جو النقاء والصفـاء ، ذاك الذي لا يكدره الاغترار بزخرف العاجلة الفانية ، ولا الركون إلى الظلم والظالمين ، والغفلة والغافلين .

إنه جـو التطلُّع إلى الجنـة مهما غلا الثمن ، والاستعـلاء على المعوقـات التي تهبط بمن يـذعن للباطل وأهله ــ من شياطين الإنس والجن ــ إلى المستوى الذي يتجافى عـن طريـق طلاب الآخـرة ، أولئك الـذين صحبهـم التوفيـق ، فتراهم لا يرضون بمرضاة الله بدلاً ، ولا يبغون عن دار كرامته في الآخرين حِولاً . و إذا ذكرت هذه الحقـائق : ذكرت معهـا القاعدة الصلبـة التي يقوم عليهـا البناء على سـاحة الفكر والسلوك ، ومـن معالم هذه القاعدة المبـاركة ـ بعد الإيمان بالله ــ التصديق الجازم بيوم المعـاد ، وما يلقّـاه العباد فيـه ثمرة مـا كسبوا واكتسبـوا ، حيث يقترب الـوعد الحق، ويكشـف عن الإنسـان الغطاء ، فـإذا بصره يومـذاك حديـد ، وإذا جنات عدن قد أزلفت للمتقين ، و إذا الجحيم قد برزت للغاوين .

ومنذا الذي خالط الحقيقة ، أو بعضاً منها في ثنايا حديث النبي عليه الصلاة والسلام ــ المؤتمن على بيان القـرآن ـ بنفاذ بصيرة واستنـارة عقل ورقـة قلب ، ولا يبصر تلك المعالم الهادية التي تزخر بها الأخبار الصادقة عن اليوم الآخر ،وما يكون في عرصـات القيامة ، ومـا يؤول إليه أمـر الخلق بعدهـا ، والتي تقود مـن آمن بها وتمسك بمقتضاهـا ـ كما وعد ربنا ـ إلى خير مستقـر وأحسن مقيل ؟! ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً**﴾ .

وقد أوردت من قريب بعضاً مما رواه الإمام البخاري من هديه عليه الصلاة والسلام على ساحة التوجيه إلى تلك المعالم ، حيث أحقية وجود الجنة والنار ، وارتقاء الصحابة رضوان الله عليهم إلى مستوى الانفعال الصادق بذلك البيان، والتأثر البالغ النافع الذي تبدو هيمنته على السلوك في خشية لله تعالى ، ودموع حرّى تذرفُها العيون ، خوفاً من سوء العاقبة ، وأن لا تكون الجنة هي المأوى .

وتقتضينا الرحلة المباركة، اصطحاب روايات أخر عند مسلم وغيره ، تؤكد ما ينفع تأكيده ، وتنير السبيل أكثر وأكثر للصادقين في طلب الفوز الكبير يوم الدين. قال الإمام مسلم : حدثنا محمود بنُ غيلان ومحمد بن قدامة السُّلَمِيُّ ويحيى بن محمد اللؤلؤيُ ـ وألفاظهم متقاربة ـ قال محمد : حدثنا النضر بن شُميل وقال الآخران : أخبرنا النضر قال : أخبرنا شعبة قال : حدثنا موسى بن أنس عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء ، فخطب فقال: «عُرضت علي الجنة والنار ، فلم أر كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، قال : فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشدُ منه ، قال . غطَّوا رؤوسهم ولهم خنين . قال : فقام عمر فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً . قال: فقام ذلك الرجل فقال : من أبي ؟ قال : أبوك فلان ، فنزلت ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم**﴾.

هكذا اشتد الأمر على أصحاب رسول الله ﷺ بعد قوله عليه الصلاة والسلام: «عرضت علي الجنة والنار ، فلم أر كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فما أتى عليهم يوم أشد منه ؛ ولذلك كان تأثرهم بالغاً ، فغطَّوا رؤوسهم وهم خنين » لقد فهموا أن سيد العالمين ، الرحمة المهداة ، جزاه الله عن الأمة ما هو أهله ، لم ير خيراً أكثر مما رآه ذلك اليوم في الجنة ، ولا رأى شراً أكثر مما رآه اليوم نفسه في النار ، يقول : ولو رأيتم ما رأيت وعلمتم ما علمت، مما رأيته اليوم وقبل اليوم ،لأشفقتم ـ كما يقول الإمام النووي ـ إشفاقاً بليغاً ، ولقلَّ ضحككم وكثر بكاؤكم . وسرعان ما كان التأثر البالغ ـ كما ألمحنا ـ

إشفاقاً من عذاب الجحيم ، وانهمرتْ دمـوعهم من شدة البكاء ، وغطوا رؤوسهم أدباً مع الله ومع رسوله ولهم خنين .

وقد وردت هذه اللفظة بالخاء والحاء . فالخنين ـ بالخاء ـ صوت البكاء ، وهو نوع من البكاء دون الانتحاب ، قالـوا : وأصل الخنين : خروج الصوت من الأنف كالحنين بالحاء من الفـم ونقل الإمام النووي عن الخليل قوله : هـو صوت فيه غنة كما أشرت من قبـل . وقال الأصمعـي : إذا تردد بكـاؤه فصار في صـوته غنـة فهو خنين ، وقال أبو زيد : الخنين مثل الحنين وهو شديد البكاء .

ولمسلم في روايـة أخرى بسنـده عن ابـن شهاب أنـه قال : أخبرني أنـس بن مالـك أن رسول الله ﷺ خرج حين زالـت الشمس فصلّى لهم صـلاة الظهر ، فلما سلّم قـام على المنبر ، فذكر الساعـة ، وذكر أن قبلها أمـوراً عظاماً ، ثم قـال: من أحـب أن يسألنـي عن شيء فليسـألني عنـه ، فـوالله لا تسألـونني عـن شيء إلا أخبرتكم به مـا دمت في مقامي هذا . قال أنـس بن مالك : فأكثـر الناس البكاء حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ إلى أن قال : فلما أكثر رسول الله ﷺ أن يقول : سلوني ، برك عمر فقال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، قال : فسكت رسـول الله ﷺ حين قال عمـر ذلك . ثـم قال رسـول ﷺ : أوْلى ، والذي نفس محمـد بيده لقد عُـرضت عليّ الجنة والنـار آنفاً في عُرض هـذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر » .

وقول النبي ﷺ أوْلى : أي أو لا ترضون ، رضيتم أوْ لا ـ كما مر سابقاً ـ وعلى أية حال هي ـ كما يقول العلماء ـ للتهديد والوعيد وقيل : كلمة تلهف : فعلى هذا يستعملهـا من نجـا من أمـر عظيم، والصحيـح المشهـور أنها للتهديـد والوعيـد ومعناها قرب منكم ما تكرهونه ومنه قوله تعالى : ﴿ **أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى** ﴾ أي قاربك ما تكره فاحذره ، مأخـوذ من الوَلْي وهو القرب . ومعنى آنفاً : قريباً الساعةَ ... وعُرض الحائط : جانبه .

وليس خفيـاً أن المصطفى صلوات الله وتسليماتـه عليه ، لم يدع عـذراً لمعتذر بعد هذا البيان الشافي ، وما على المؤمن المصدق بما جاء به من لا ينطق عن الهوى، إلا أن يحزم أمره في طـاعة الله وطلب رضوانـه ؛ عبادة وعملاً وجهـاداً ، على هدي العلم النافع والإخلاص لله عز وجل ، وأن يتجنب مواطن الزلل وصحبة الغافلين، لكيلا يكون ممن تسعّر بهم لظى يوم القيامة ، ويقال لهم : ﴿**و ذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون**﴾ .

مخافة أن يصيبني من لفحها

من الحقائق الناصعة التي تتأكد وتزداد وضوحاً ، كلما طال اصطحاب المرء لنصوص السنة من حديث رسول الله ﷺ ، كما يتضاعف إحساس المؤمن بموقعها على ساحة الهدي النبوي في بيان الفرقان الحكيم ؛ تربية وتعليماً : أنه صلوات الله وسلامه عليه ، قد ترك الأمة في كل ما اؤتمن على تبليغه وبيانه .. على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك . لقد أدى ـ فداه أبي وأمي ـ الأمانة وبلغ الرسالة ، ونصح للأمة ، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين .

ومن هذا الباب : كشفُه ﷺ عما أطلعه الله عليه من الغيب ، وعما يكون في الآخرة من مشاهد يوم الدين ، وما يزخر به من الأمور الجسام ، والجنة وما فيها ، وأحوال أهلها ، والنار وما فيها ، وأحوال أهلها . ولقد وقفتنا من قريب أحاديث أخرجها الإمام البخاري ، وأحاديث أخرجها الإمام مسلم تنصّ على أن النبي ﷺ قال في واحدة من خطبه بعد أن صلى للناس الظهر : « لقد عُرضت علي الجنة والنار آنفاً في عُرض هذا الحائط ولم أر كاليوم في الخير والشر ».

وفي متابعة لاصطحاب النصوص والاستنارة بهديها ، نقع على ما يزيد من جلاء هذه الحقيقة ، وينمي في نفس المؤمن ـ إن شاء الله ـ بواعث العمل، بكل ما يقربه إلى الله زلفى ، ويصل به إلى أن يكون من أهل السعادة في جنةالنعيم خالداً فيها مع الخالدين .. أخرج مسلم وأبو داود والنسائي ـ واللفظ لمسلم ـ قال : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا عبدالله بن نمي وحدثنا محمد بن عبدالله ابن نُمير ـ وتقاربا في اللفظ ـ قال : حدثنا أبي قال : حدثنا عبدالملك عن عطاء عن جابر رضي الله عنه قال : «انكسفت الشمس يوم مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فقال الناس : إنما انكسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقام النبي ﷺ فصلّى بالناس ست ركعات بأربع سجدات ، بدأ فكبّر ، ثم قرأ فأطال القراءة ، ثم ركع

نحواً مما قام ثم رفع رأسه من الركوع ، فقرأ قراءة دون القراءة الأولى ، ثم ركع نحواً مما قام، ثم رفع رأسه من الركوع فقرأ قراءة دون القراءة الثانية، ثم ركع نحواً مما قام، ثم رفع رأسه من الركوع ، ثم انحدر بالسجود ، فسجد سجدتين ، ثم قام فركع أيضاً ثلاث ركعات ليس ركعة إلا التي قبلها أطول من التي بعدها وركوعه نحواً من سجوده ، ثم تأخر وتأخرت الصفوف خلفه حتى انتهينا . وقال أبوبكر : حتى انتهى إلى النساء ثم تقدم وتقدم الناس معه ، حتى قام في مقامه ، فانصرف حين انصرف ـ وقد آضت الشمس ـ فقال : يا أيها الناس إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس ـ وقال أبوبكر : لموت بشر ـ ، فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فصلّوا حتى تنجلي . ما من شيء توعدون إلا قد رأيته في صلاتي هذه ، لقد جيء بالنار وذلكم حين رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيبني من لفحها ، وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجرُّ قُصْبَه في النار ، كان يسرق الحاج بمحجنه ، فإن فطن له قال : إنما تعلّق بمحجني ، وإن غُفل عنه ذهب به ، وحتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خَشاش الأرض حتى ماتت جوعاً ، ثم جيء بالجنة ـ وذلكم حين رأيتموني تقدمت ـ حتى قمت في مقامي ولقد مددت يدي وأنا أريد أن أتناول من ثمرها لتنظروا إليه، ثم بدا لي أن لا أفعل ، فما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه » .

آضت الشمس : رجعت إلى حالها قبل الكسوف وهو من آض يئيض إذا رجع ومنه قولهم: أيضاً وهو مصدر منه. وقوله ﷺ: « مخافة أن يصيبني من لفحها» أي من ضرب لهبها وهو حرُّها ووهجها والعياذ بالله . ومنه قوله تعالى : ﴿**تلفح وجوههم النار**﴾ أي من يضر بهم هبها قالوا : والنفح دون اللفح قال الله تعالى : ﴿**ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك**﴾ أي أدنى شيء منه ، قاله الهروي وغيره .

هكذا نجد أنه ﷺ رأى في جهنم أناساً بأعيانهم ترددوا في ظلماتها بسيء أعمالهم ؛ فرأى صاحب المحجن الذي كان يسرق الحاج بمحجنه يجرُّ قصْبَه في النار . قال ابن الأثير : المحجن : الصولجان وليس به ، وفسّره النووي بالعصا

المغففة الطرف . يجر قُصبتـه : القُصْب : واحد الأقصاب وهـي الأمعاء . كما رأى عليه الصلاة والسلام تلك المرأة التي ظلمت القطة بحبسها عن الطعام ، فلا هي أطعمتها ولا هـي تركتهـا تأكـل من خشـاش الأرض . خشاش الأرض : حشراتها وهوامُّها.

وقد روى الحديـث أبو داود مختصراً ، وجاء في روايـة النسائي عن عبـدالله بن عباس رضي الله عنه ـ بعـد الكلام على صلاة الكسوف ـ ثم انصرف ــ يعني النبي عليه الصلاة والسلام ـ وقد تجلت الشمـس فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله عز وجل ، قالوا : يارسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت ـ يعني تأخرت ـ قال : إني رأيت الجنة أو أُريت الجنة ، فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيـت الدنيا ، ورأيت النار فلم أر كاليوم منظـراً قط ، ورأيت أكثر أهلها النساء ، قـالوا : لم يا رسول الله بكفـرهن ، قيل : يكفرن بـالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسـان لو أحسنـت إلى إحداهـن الدهـر ثم رأت منـك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط ».

وقـال النسائي أيضـاً : أخبرنا عبـدالله بن محمـد بـن عبدالـرحمن بن المِسْـوَر الزهريُ قال : حدثنـا غُنْدَرُ عن شعبة عن عطاء بن السائب عـن أبيه عن عبدالله ابن عمروٍ قـال : « كسفت الشمس على عهد رسـول الله ﷺ فصلى رسول الله ﷺ فأطال القيام ثم ركـع فأطال الركوع ثم رفع فأطال ــ قال شعبة : وأحسبه قال في السجود نحو ذلك ـ وجعل يبكي في سجوده وينفخ ويقول رب لم تعدني هذا وأنا أستغفرك لم تعـدني هذا وأنـا فيهم ؛ فلما صلى قـال : عُرضـت عليَّ الجنةُ حتـى لو مددت يـدي تناولـت من قطـوفها وعُـرضت علي النـار فجعلت أنفـخ خشية أن يغشاكم حرّها ورأيت فيها سارق بَدَنَتَيْ رسول الله ﷺ ورأيت فيها أخا بني دُعْدُع سارق الحجيـج فإذا فُطِـن له قـال هذا عمل المحجـن ورأيت فيهـا امرأة طـويلة سوداء تعذب في هرة ربطتهـا فلم تطعمها ولم تسقها ولم تدعها تـأكل من خشاش

الأرض حتى ماتت ، وإن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا انكسفت إحداهما ـ أو قال فعل أحدهما شيئاً من ذلك ـ فاسعوا إلى ذكر الله عز وجل ».

قال ابن بطال : لم يأخذ العنقود رسول الله ﷺ لأنه من طعام أهل الجنة وهو لا يفنى ، والدنيا فانية ، لا يجوز أن يؤكل فيها مالا يفنى ، وقيل : لأنه لو رآه الناس لكان إيمانهم بالشهادة لا بالغيب ، فيخشى أن يقع رفع التوبة ، فلا ينفع نفساً إيمانها ، وقيل لأن الجنة جزاء الأعمال والجزاء بها لا يقع إلا في الآخرة .

ومهما يكن من أمر : فالأصل الطمأنينة العميقة بالخبر الصادق ، وقفَ المؤمنُ على العلة أم لم يقف ؛ ولابد من ملاحظة أن هذا البيان من رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام ، أمانة في أعناق المسلمين حتى قيام الساعة ، وانتفاع الصحابة رضي الله عنهم به ، في رحلة كل منهم مع سنيِّه التي عُمِّرها وهو يخوض معركة الحياة ، مدعاة لأن يعمل المسلم جاهداً في أن يكون على مستوى الانتفاع أيضاً بصنيعهم عليهم الرحمة والرضوان ، وسبحان الموفق لا إله إلا هو العليم الحكيم .

أعوذ بك
من عذاب القبر ومن عذاب النار

مما يتميز بـه أهل التـوفيق الـذين حباهم الله صـدق الإنابـة إليه سبحـانه ، والحرص على المواءمة أبداً بين الإيمان والعمل ، تفاعلُهم العميق مع الذي أخبر به الصادق المصدوق ـ وهو المبلغ عن الله عز وجل ـ وكشف عنه من الحقائق الغيبية التي تحصل يوم القيامة ، فتراهم مع عظيم رجائهم أن يكونوا من أهل الجنة بفضل الله ورحمته : خائفون أشـد الخوف من النار ، وأن يكونوا من حصبهـا ؛ وهو خوف تبدو آثاره في أعمالهم وسلوكهم، حتى كأن النار أمام ناظريهم أبداً ، فهم يرونها رأي العين ، لذا فهم يَحْذرونها ويُحذرون منها .

ولقد حملت إلينا المصادر التي تحدثت عـن الزاهد العابد علم العلماء الأبرار التابعي الثقة مالك بن دينار البصري المتوفى سنة ثلاثين ومائة للهجرة ، قوله يرحمه الله : « لو وجدتُ أعوانـاً لفرَّقتهم ينادون في سائر الدنيا كلهـا : يا أيها الناس النارَ النارَ » وفي رواية ؛ « لو استطعت لم أنم مخافة أن ينزل العذاب ، يا أيها الناس النارَ النارَ ». والمقصود : احذروا النار احذروا النار . وهذا يعني أن هذا الرجل المبارك ، قد استنار قلبـه بما هدى إليه الكتاب الكـريم ، وبينه حديـث رسول الله ﷺ على ساحـة التصديـق الجازم بما هو واقـع يوم المعـاد ؛ فهو خـائف أن يكون مـن أهل الجحيم ، وحـريص في الوقـت على النصح لإخوانـه وأخواتـه من أمة محمـد عليه الصلاة والسلام ، كي يعملـوا صالحاً ويسلكوا سبيل النجاة ، والفوز يـوم الدين . وإذا صفا القلب من الشوائب وأخذ المؤمن نفسه بطريق أهل التوفيق ، كان ذلك عنوان الاستنارة بهدي النبي عليه الصلاة والسلام فيما رغب به ورهّب منه ..

وينبغي أن لا يفرط المؤمن في جنب البيان النبوي الشافي الذي بلغ من صدقه

وأحقيته كما أراد الله عز وجـل ، أن النبي عليه الصلاة والسـلام أخبر ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ أن الله تعالى أراه الجنة والنار وأنه تناول عنقوداً من الجنة، لكنه رأى أن لا يأكله لحكمة أرادها الله ، وقد أوردت عدداً من الروايات في ذلك. ولعل من الخير أن نقـف على عدد أكثر منهـا ،لأن العنايـة بجمع روايات الحديـث أمر بالـغ الأهمية ـ في كثير مـن الأحيان ـ عند العلماء ، لما أنـه يعين على مزيد مـن فقه ذلك الحديث ، واستنباط مدلولاته ، والإحاطة بمراميه قدر المستطاع ، كيما يتسنى للمكلف أن يعمل بـالنصوص ويفيد من هـديها ، والمفلح الموفَّق من آمـن وعمل بالهدي المحمدي ، ولم تلهه الدنيا عن الآخرة ، وحمل نفسه على الجادة تأسياً بالنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام ومن تبعهم بإحسان .

روى الإمام مسلم بسنده عن فاطمة عن أسماء قالت : «خَسَفت الشمس في عهد رسـول الله ﷺ فدخلـت على عائشـة وهي تصلي : فقلـت : ماشـأن الناس يصلّون ، فأشارت بـرأسها إلى السماء ، فقلت : آية ؟ قالت : نعـم ، فأطال رسول الله ﷺ القيام جداً حتى تجلاّني الغشيُ ، فأخذت قِربة من ماء إلى جنبي ، فجعلت أصب على رأسي ـ أو على وجهي ـ من الماء . قالت : فانصرف رسول الله ﷺ وقد تجلّت الشمس ، فخطب رسول الله ﷺ الناس فحمد الله وأثنى عليه ثـم قال : أما بعد : ما من شيء لم أكن رأيته إلا قد رأيته في مقامي هذا ، حتى الجنة والنار ، وإنه قد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور قريباً ، أو مثل فتنة المسيح الدجال ـ لا أدري أيَّ ذلك قالت أسماء ـ فيؤتى أحدكم فيقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموقن ـ لا أدري أيَّ ذلك قالت أسماء ـ فيقـول : هو محمد هو رسول الله جاءنا بالبينـات والهدى فأجبنا وأطعنـا ثلاثَ مرار ، فيقـال له : نـم فقد كنا نعلـم إنك لتؤمن به ، فنـم صالحاً . وأما المنافق أو المرتاب ـ لا أدري أيَّ ذلك قالت أسماء ـ فيقول : لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت » .

قول أسماء رضي الله عنها : «حتى تجلاّني الغَشي» الغشي : بفتح الغين وسكون الشين ، وروي أيضاً بكسر الشين وتشـديد الياء ــ الغَشِيّ وهما بمعنـى الغشاوة،

وهو معروف يحصل بطول القيام بالحر وفي غير ذلك من الأحوال ، ولهذا جعلت تصب على رأسها أو على وجهها من الماء . وقد ذهب الإمام النووي إلى أن قولها : «فجعلت أصب على رأسي أو على وجهي من الماء» محمول على أنه لم تكثر أفعالها متوالية ، لأن الأفعال إذا كثرت متوالية أبطلت الصلاة.

ومن لطائف التعبير في الحديث عن سؤال الملكين أنهما يقولان للإنسان: ما علمك بهذا الرجل ؟ والحكمة - كما يرى الشراح - في أنهما يقولان ما علمك بهذا الرجل ولا يقولان : برسول الله ؟ أن يكون ذلك امتحاناً للمسؤول وإغراباً عليه ، لكيلا يتلقن منهما إكرام النبي ﷺ ورفعَ مرتبته ، فيعظمه هو تقليداً لهما لا اعتقاداً ، ولهذا يقول المؤمن : هو رسول الله ، ويقول المنافق : لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت . فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ورواه مالك في الموطأ .

هذا : وفي بعض الروايات عند مسلم من رواية أسماء رضي الله عنها تفصيل رأينا نظيره عند النسائي من رواية عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ؛ فقد جاء في هذه الرواية قول أسماء بعد الكلام على صلاة الكسوف كيف صلاها النبي عليه الصلاة والسلام : « ثم انصرف وقد انجلت الشمس ، فقال : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك ، فاذكروا الله. قالوا : يارسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ، ثم رأيناك كففت، فقال : إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ، ورأيت النار فلم أر كاليوم منظراً قط ..» الحديث. وقد جاء في بعض الروايات «تكعكعت» بدل « كففت » والمعنى : توقفت وأحجمت . ولا يخفى ما في تلكم النصوص المباركة ، من تنبيه المؤمنين على أن المساءلة تبدأ من سؤال القبر؛ فقد ذكّر رسول الله ﷺ بذلك وأخبر بما أخبر عن الجنة والخير فيها وعن النار والشر فيها .

ثم إنه لابد من الإشارة إلى أنه قد جاء في بعض روايات الحديث، استعاذته

ﷺ من عذاب القبر ومن عذاب النار جميعاً . روى الدارمي بسنده عن عمرة بنت عبدالرحمن عن عائشة رضي الله عنها « أن يهودية دخلت فقالت : أعاذك الله من عذاب القبر ، فلما جاء النبي ﷺ سألته أيعذب الناس في قبورهم ؟ قال : عائذاً بالله ، قالت : إن رسول الله ﷺ ركب يوماً مركباً فخَسَفت الشمس فجاء النبي ﷺ فنزل ثم عمد إلى مقامه الذي كان يصلي فيه ، فقام الناس خلفه ... إلى أن تقول : ثم تجلت الشمس فدخل علي فقال : إني أراكم تفتنون في قبوركم ، كفتنة الدجال، سمعته يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من عذاب النار ».

وإنا نعوذ بالله مما استعاذ منه النبي عليه الصلاة والسلام ، نعوذ به ــ جل شأنه ـ من عذاب القبر ، ونعوذ به من عذاب النار ، ونسأله أن يتفضل علينا برحمته ويغفر لنا خطيئاتنا يوم القيامة إنه البر الرؤوف الرحيم .

يغبطهم الأولون والآخرون

إذا ذكر النعيم المقيم في جنـة الخلد التي وعد المتقون ، وذكـر العذاب الأليم لأهل الضـلالة في نـار السعير ، تحركت في قلـب المؤمن نـوازع الرجـاء والخوف ، وسارع إلى سلـوك السبيل التـي يكون معهـا ـ بـرحمة الله ـ مـن أهل الفـوز بالجنـة والنجاة من النـار ، ولن يكون ذلك إلا بحسـن التعامل مع حقيقـة أن الآخرة هي دار البقاء ، وأن الدنيـا هي دار الفناء ، وأن العاقـل الفهِم هو الذي يكـون ـ وهو يكدح ويتحـرك وفق سنن الله في الحياة ــ من طلاب الآخرة ، فهـو يعمر الأرض ، ويبني القوة التي تعود عليه وعلى أمته بالنفع، ويحمي حمى الإسلام ، ولا يني يسهم في بناء الحضارة الإسلامية التي تسعد الإنسان في الـدنيا ويوم الدين .. كل أولئك بنية خـالصة ، وطلـب لمرضاة الله عز وجـل ، وسعي حثيـث لأن تكون الجنـة هي المأوى وإدراكٍ لواحدة مـن المسلّمات ؛ وهي أنه مهما عمل العبـد في هذه الدار ، فلا بد لـه من رحمة الله عز وجل ولطفـه وإحسانه ، فالعمـر محدود ، والآجال بيده سبحانه ، ونعمه على عباده لا تحصى ، ومننه لا تستقصى .

قال الإمام الطبراني : حـدثنا علي بن عبدالعـزيز قال : حدثنـا محمد بن عمار الموصلي قال : حدثنـا عتبة بن سالم عن أيـوب بن عتبة ، عن عطاء عـن ابن عمر رضي الله عنهما قال : «جاء رجل من الحبشـة إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله عليه الصلاة والسـلام : سل واستفهم فقال : يـا رسول الله فضلتم علينا بـالصور والألوان والنبـوة ، أفرأيت إن آمنـتُ بما آمنتَ به وعملـت بمثل ما عملـتَ به إني لكائن معك في الجنـة ، قال : نعم والذي نفسي بيده ، إنـه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام ، ثم قال رسـول الله ﷺ : من قال : لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله ، ومن قال سبحان الله وبحمده كتبت له مائة ألف حسنة ، فقال رجل: كيف نهلك بعـدها يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الـرجل ليأتي يوم

القيامـة بالعمـل لو وضـع على جبل لأثقله ، فتقـوم النعمة ــ أو نعم الله ــ فتكاد تستنفد ذلك كله ، إلا أن يتغمده الله برحمته ، ونزلت هذه السورة ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر** ﴾ إلى قوله :﴿ **ملكاً كبيراً** ﴾ فقال الحبشي : وإن عينـي لترى ما ترى عيناك في الجنة ؟ قال : نعم ؛ فاستبكى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يُدليه في حفرته بيده» هكذا أورده الحافظ ابن كثير وقال: غريب جداً .

على أن المؤمن ـ وهو يسهم في حركة الحياة ضمن عمره المحدود ، امتثالاً لأمر الله عز وجل ، وإفادة مما أكرم الله به الإنسان مـن تسخير ما سخره له ـ لاينسى ما وُعـد به مـن العطاء الإلهي في دار الكـرامة ، وأن عليـه إن أراد أن يكون أهـلاً لهذا العطاء، أن يأخـذ نفسه بطريق أهـل الجد والعزيمة في طاعـة الله تعالى والجهاد في سبيله ، ذاكراً قوله سبحانه : ﴿ **وإذا رأيت ثَمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً** ﴾ وقد ثبت في الصحيح ـ كما سلف من قبل ـ أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولاً إليها : « إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها » . وقد أوردت في مناسبة أخـرى عدداً من الروايـات للحديث المروي عن ثـوير بن فاختـة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قـال رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل الجنة منـزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه » قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : فإذا كـان هذا عطـاءه لأدنى من يكـون في الجنة ، فما ظنـك بما هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى ؟!.

هذا : وحـديث ابـن عمر الـذي تقدم مـن قبل أورده المنـذري في «الترغيب والترهيب» بلفظ « أن رجـلاً من الحبشة أتى النبي ﷺ فقال : يـارسول الله فضلتم علينا بالألـوان والنبوة ، أفرأيت إن آمنت بمثـل ما آمنت به وعملت مـا عملتَ به إني لكائن معك في الجنـة ؟ فقال النبي ﷺ : نعم ثم قال عليـه الصلاة والسلام : من قال : لاإله إلا الله ، كـان له بها عهد عند الله ، ومن قال : سبحـان الله كتب له مائة ألف حسنة . فقـال رجل : يا رسول الله ، كيف نهلك بعـد هذا ؟ فقال النبي

ﷺ : والذي نفسي بيده إن الرجل ليجيء يوم القيامة بعمل لو وضع على جبل لأثقله ، فتقوم النعمة من نعم الله فتكاد تستننفد ذلك كله لولا ما يتفضل الله من رحمته ، ثم نزلت ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ إلى قوله: ﴿ وإذا رأيت ثَـمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ فقال الحبشي : يا رسول الله ، وهل ترى عيني في الجنة مثل ما ترى عينك ؟ فقال النبي ﷺ : نعم، فبكى الحبشي حتى فاضت نفسه. قال ابن عمر : فأنا رأيت رسول الله ﷺ يدليه في حفرته» . قال المنذري : رواه الطبراني من رواية أيوب بن عتبة . وأورده السيوطي في كتاب «الدر المنثور » منسوباً إلى الطبري ، وابن مردويه وابن عساكر .

ومهما يكن من أمر : فإن موائد الخير منصوبة يرتادها الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك الذين يفوزون بالموعود من كرم الله عز وجل وفضله يوم المعاد ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾. أجل يفوزون بذلك الموعود من عطاء من لا تنفد خزائنه سبحانه وتعالى . وتشهد الخلائق يوم القيامة ، ما يفيض عليهم جل شأنه من الخير ، وما يجزيهم به في جنات النعيم التي هم فيها خالدون. قال الإمام الترمذي : حدثنا أبو كريب قال : حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي اليقْظان عن زاذانَ عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة على كثبان المسك ــ أُراه قال : يوم القيامة ـ يغبطهم الأولون والآخرون : رجلٌ ينادي بالصلوات الخمس في كل يوم وليلة ، ورجل يؤم قوماً وهم به راضون ، وعبدٌ أدى حقَ الله وحق مواليه » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سفيان الثوري. وأبو اليقْظان اسمه عثمان بن عمير ، ويقال : ابن قيس .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ بعرفة ، فدنا منه حتى اختلفت عنق راحلته مع عنق راحلة رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أنبئني بعمل ينجيني من عذاب الله ويدخلني الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : اعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وأقم الصلاة ، وأدِّ الزكاة ، وصم رمضان ، وحج واعتمر ، وانظر ما تحب من الناس أن يأتوه إليك فافعله ، وما تكره من الناس أن

يأتوه إليك فذره » أخرجه رزين .

والله نسأل أن يبصرنا بدينه ويهدينا سواء السبيل . وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة الذي هدى أمته الى الصراط المستقيم ووضعها على المحجة البيضاء في دينها ودنياها وآخرتها وعلى آله وصحابته ومن اتبع هداه إلى يوم اللقاء .

حقيقة الارتباط الوثيق بين الترغيب بما أعد الله لعباده الصالحين في الآخرة ، والترهيب مما توعد به من يجاهرونه بالعداوة ويستكبرون عن عبادته ، وبين الشعور بالمسؤولية في الحياة الدنيا : حقيقة لابد أن تعمل عملها في انتظام السلوك عند الفرد ، والبناء الذاتي على شريعة الله في المجتمع ، لما أنها سبيل الانضباط بضوابط الحق ، وأخذ النفوس بأخلاق أهل الآخرة ؛ من أجل هذا كانت حقيقةً يأسى على الغفلةعنها المؤمن ، ولا ينكرها إلا مكابر ، يغلبه هواه ، أو متجاهل لايعبأ بدلالات النصوص ، فضلاً عن أن يكون هذا المنكِرُ فريسة لما يوحي به شياطين الإنس والجن من زخرف القول والضلال المبين .

ولا تثريب على من يقرر ذلك الارتباط ، أن يؤكد ما كان له عبْرَ التاريخ من أثر بالغ في تكوين شخصية المسلم ، وبنائها على أخذ المنهج الرباني بقوة ،وإتقان العمل والإخلاص فيه ، مهما كان الثغر الذي أقامه الله تعالى عليه ، وهو يتعاون مع إخوانه على البر والتقوى ويسهم ـ حسب تخصصه وطاقته ـ في بناء المجتمع المسلم المتكامل ، والحضارة الإسلامية الرشيدة .

ومن شاء الاستزادة من المعرفة على هذه الساحة ، فلينظر ما جاء في كتاب الله وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، حيث أعطى النبي ﷺ ـ وهو إمام المربين وسيد الحكماء والمبين عن الله تعالى ـ قضية الفوز بالجنة والنجاة من النار ، ونشدان رضوان الله تبارك وتعالى في كل ما يأتي المؤمن ويذر ، مكانها اللائق في منهجه الذي سلكه لتبليغ الرسالة ، وتربية المسلم على مفهوماتها ، كي يعمل ويجاهد لتحقيقها في نفسه وفي المجتمع .

وددت أن أقدم لرحلة اليوم بهذه الكلمات التي ما أحسبها من مكرور القول،

وأنا أقرأ شيئاً من سيرة خامس الراشدين عمر بن عبدالعزيز ، وأنظر في بعض كلماته رحمه الله وأجزل مثوبته في الآخرين ، حيث اتخذ من مخافة الله واليوم الآخر والرغبة في النجاة من عذاب الله ، والفوز بالجنة ، سلاحاً يقود به نفسه إلى ساحة العدل والرحمة ، ومذكراً يذكره بمسؤوليته عن كل فرد من أفراد الرعية . جاء في «الحلية »لأبي نعيم و « سير أعلام النبلاء » للذهبي وغيرهما : أن عطاء بن أبي رباح رحمه الله قال : «حدثتني فاطمة امرأة عمر بن عبدالعزيز أنها دخلت عليه ، فإذا هو في مصلاّه يدُه على خده ، سائلةٌ دموعه ؛ قالت : فقلت : يا أمير المؤمنين ! ألشيء حدث ؟ قال : يا فاطمة إني تقلدت أمر أمة محمد ﷺ ، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، والمظلوم المقهور ، والغريب المأسور ، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ ، فخشيت ألا تثبت لي حجة عند خصومته فرحمت نفسي فبكيت ».

أرأيت إلى هذا الإحساس العميق بما هو كائن يوم القيامة، من أن الله سائله عمن ولاّه الله أمرهم .. ثم أرأيت إلى هذه الخشية من انعدام الحجة في الخصومة يوم الوعيد ، حيث المصير إما إلى الجنة وإما إلى النار !! أكان عجباً بعد هذا أن يرحم عمر نفسه فيبكي ؟ ويحرص ــ جزاه الله عن المسلمين كل خير ــ على أن تسري روح الشعور بالمسؤولية بين المسلمين ، وأن يتخذوا من ذكر الموت حاجزاً عن العبث وحب الدنيا وإضاعة الوقت بما لا ينفع .

قال الأوزاعي رحمه الله : « كتب إلينا عمر بن عبدالعزيز رسالة لم يحفظها غيري وغير مكحول: أما بعد : فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن عدّ كلامه من عمله ، قلَّ كلامه إلا فيما ينفعه والسلام » وها نحن أولاء نجده رحمه الله يتوق ويتطلع فيما يريد إلى خاتمة المطاف دار المقامة في الآخرين . فأين نعيم الدنيا الزائل من النعيم المقيم في دار الخلود ؟ قالت جويرية بنت أسماء : قال عمر بن عبدالعزيز : « إن نفسي تواقة ، وإنها لم تُعطَ من الدنيا شيئاً إلا تاقت

إلى ما هـو أفضل منه ، فلما أعطيـت مالا أفْضَلَ منـه في الدنيـا ، تاقت إلى مـا هو أفضلُ منه « يعني الجنة » .

والنفس التواقـة إلى الجنة تفزعها معالجة الأغلال في جهنـم . وانعكاسُ ذلك على تصرفات الإنسـان ـ حـاكماً كان أو محكومـاً ـ في تـوجيهها وجهـة الخير خشية عذاب الله ونقمته من الظالمين ، دليل الإيمان وقـوة اليقين . عندمـا لم يتـوافر لديه ـ أعلى الله مقامه ـ شيء يسيرٌ من المال ليشتري به عنباً ، سئل عن ذلك فقال : هذا أهون مـن معالجة الأغلال في جهنم . إنـه لمشهد من مشاهـد القيامة بالـغ التأثير حقاً .. مشهد من يتقدمون موكب الأبرار إلى الجنة ، وفيهم عمر بن عبدالعزيز إن شـاء الله ، وهنـاك تعلـن الحقيقـة إعلانها ، مـؤذنـة بصـدق الارتبـاط بين القيـام بالمسـؤولية حـق القيام في الـدنيا ، وبين الإيمان بيـوم الحساب ومـا يكون فيـه من العاقبة لكلٍ بما عمل؛ إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

هذا : والحديـث موصـول بما نحن بصـدده ، من التماس الهدايـة التي تـرسم المنهج وتحدد المسار على هذه الساحة في توجيـه النبي عليه الصلاة والسلام . هذا واحد مـن كبار الصحـابة عليهـم الرضـوان يرجـو رسول الله ﷺ أن يخبره بعمـل يدخلـه الجنة ويباعـده من النار ، ويمتد الحديـث إلى الوعيد بجهنـم على الكلام الباطل ولَقْلَقة اللسان به . قال الإمام الترمـذي : حدثنا ابن أبي عمر قال : حدثنا عبدالله بن معاذ الصنعـاني عن معمر عن عاصم بـن أبي النُجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبـل رضي الله عنه قال : «كنت مـع النبي ﷺ في سفر ، فأصبحـت يوماً قريباً منه ونحن نسير . فقلت : يارسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال : لقـد سألتني عن عظيم ، وإنه ليسيرٌ على مـن يسَّره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت. ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنـةٌ . والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار . وصلاة الرجل من جوف الليل . قال : ثم تلا ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ حتى بلغ ﴿ **جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ ثم قال : ألا أخبرك برأس

الأمر كلِه ، وعموده ، وذُِروة سَنامه ؟ قلت : بلى يارسول الله ، قال: رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذُِروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا نبي الله . فأخذ بلسانه فقال : كُفَّ عليك هذا ، فقلت: يا نبي الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يُكبُّ الناسَ في النار على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلا حصائدُ ألسنتهم ؟» قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه أحمد والنسائي وابن ماجة .

رأس الأمر الإسلام : أي الإتيان بالشهادتين؛ فهما للدين بمنزلة الرأس من الجسد ، قالوا : وهو من باب التشبيه المقلوب ، إذ المقصود تشبيه الإسلام برأس الأمر ، ليشعر بأنه من سائر الأعمال بمنزلة الرأس من الجسد، في احتياجه إليه وعدم بقائه دونه . الذروة بكسر الذال وهو الأشهر وبضمها وحُكي فتحها : أعلى الشيء .. والسَّنام بفتح السين: ما ارتفع من ظهر الجمل قريب عنقه . والمِلاك في قوله: « بملاك ذلك كله » ما به إحكام الشيء وتقويته .

والآيتان الكريمتان هما قوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ .

هكذا دلّ الرسول ﷺ على ما يوصل إلى الجنة ، وعلى ما يوصل إلى النار كما نبّه على واحد من أسباب الكب في جهنم وبئس المصير .

اللهم ارزقنا طاعتك وطاعة رسولك ،واجعلنا برحمتك ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واسلك بنا السبيل التي تزحزحنا عن النار وتدخلنا الجنة ، أنت المستعان وبك المستغاث ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

عودة

إلى حصائد الألسنة والكب في النار

حديث الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي طلب فيه من النبي ﷺ إخباره بعمل يدخله الجنة ويباعده من النار ، دلنا من قريب على أن من مشاهد القيامة مشهد أولئك الذين يُكَبّون في النار على وجوههم ــ أو على مناخرهم ـ فتراهم يتدهورون في أعماقها يحطم بعضهم بعضاً ، بحيث لا يسقط واحد على وجهه أو على منخره إلا ويلحق به صاحبه على صورة مفزعة مرعبة ، ويزيد من شدة هذا المشهد وتأثيره البالغ ، أن قوامه إصابةُ المرء في وجهه ، وهو أبرز ما في الجسم ، والصورةُ الأولى لاكتماله وحسن تقويمه ، بحيث يحصل هذا الانكباب على المناخر ، وكأن أصحابها لا يعون .

والسبب في ذلك عدم حفظ اللسان ، فترى الهُجر من القول ، والغيبة ، والنميمة ، والإفساد بين الناس ، والافتراء على الآخرين ، والكلام الفاحش البذيء وغير ذلك ، ناهيك عما يكون من الشرك أو بريده والعياذ بالله .. وليس ضرورياً أن يجتمع هذا كله فقد يكون بعضه أو الأقل منه ، ولكنه يقع على الصورة التي تؤدي بصاحبها إلى جهنم وبئس المهاد . وقد جاء النص على هذا المشهد ـ كما رأيناه عند الإمام الترمذي رحمه الله ـ بقوله ﷺ لمعاذ بعد أن بين له رأس الأمر كله وعمودَه وذُروة سَنامه : «ألا أخبركَ بمِلاك ذلك كله ؟ فقال معاذ : قلت بلى يا نبي الله ، فأخذ ﷺ بلسانه ، فقال : كُفَّ عليك هذا . فقلت : يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكبُ الناسَ في النار على وجوههم ـ أو على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم ؟» وفي رواية لابن ماجة «ثم قال: ألا أخبرك بمِلاك ذلك كله ؟ قلت : بلى . فأخذ بلسانه فقال : تكف عليك هذا . قلت : يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك يا معاذ : هل

يكبُّ الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم ؟؟».

قال الراغب في كتابه « المفردات » : الكبُّ : إسقاط الشيء على وجهه قال تعالى : ﴿ **فكُبَّت وجوههم في النار** ﴾ والإكباب جعل وجهه مكبوباً على العمل قال تعالى : ﴿ **أفمن يمشي مُكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم**﴾ والكبكبة: تدهور الشيء في هوة قال تعالى : ﴿ **فكبكبوا فيها هم والغاوون** ﴾. يقال : كبَّ وكبكب نحو كفّ وكفكف .

والملاحظ هنا ، أن كلام النبي ﷺ في الوعيد على عدم حفظ اللسان ، نوع من البيان لما أشارت إليه الآية التسعون من سورة النمل وهي قوله جل شأنه : ﴿**ومن جاء بالسيئة فكُبّت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ وقد ذهب الحافظ ابن كثير الى أن المعنى: من لقي الله مسيئاً لا حسنة له أوقد رجحت سيئاته على حسناته كلٌ بحسبه ؛ ولهذا قال : ﴿**هل تجزون إلا ما كنتم تعملون**﴾ و إذا كان هذا من العموم ، فسقطات اللسان من الخصوص ، ومنها ما يكون سبباً لكب الوجه في النار .

والحق أن هذه الآية الكريمة التي نرى في الحديث بعضاً من بيانها ، تمثل مع الآية التي سبقتها ، قانوناً إلهياً عادلاً ، وفعل الله كله عدل ورحمة . والآية التي سبقتها : هي الآية التاسعة والثمانون من سورة النمل أعني قوله تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾ . هذا ما قضت به إرادة الله وجزاؤه الحكيم . من يعمل الحسنات ، يشكرها الله له فيجزيه في الدنيا والآخرة خيراً منها ، ويأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة . أما الذين يعملون السيئات: فجزاؤهم أن تكبَّ وجوههم في النار جزاءً بما كانوا يعملون . وقد روى الإمام الطبري عن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس وأنس بن مالك رضي الله عنهم ، وعدد من التابعين رحمهم الله في قوله : « من جاء بالسيئة » يعني بالشرك . وقد رأينا عند الراغب الأصفهاني ـ وهو رأي علماء اللغة ـ أن كبَّ وكبكب بمعنىً ، ولذلك يُذكر ما جاء في سورة الشعراء من بيان مشرق وضاء لعاقبة كلٍ من المتقين

والغاوين يوم المعاد ؛ وهو بيان يحمل في طياته الكثير من الوعد والوعيد ، ذلكم قوله سبحانه : ﴿**وأزلفت الجنة للمتقين . وبرِّزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون . فكُبكِبوا فيها هم والغاوون. وجنود إبليس أجمعون**﴾ . من الآية ٩٠ إلى الآية ٩٥.

قال مجاهد : يعني فدُهوِروا فيها . قالوا : تدهور تدهوراً : سقط من أعلى إلى أسفل وهو مأخوذ من تدهور الرمل إذا انهال وسقط أكثره . ودهور الحائط : دفعه فسقط . وقال الزجاج : ﴿ **فكبكبوا فيها هم والغاوون** ﴾ أي في الجحيم ، ومعنى كبكبوا : طرح بعضهم على بعض . وقال آخرون ـ ومنهم الراغب كما سبق ـ كبكبوا أي كُبّوا فيها والكاف مكررة ، كما يقال . كفّ وكفكف . وصرَّ وصرصر . والمراد أنه ألقي بعضهم على بعض ؛ولا تسل عما يكون عليه هذا المشهد المرعب الذي أشار الرسول ﷺ إليه وهو يحذر معاذاً رضي الله عنه من حصائد اللسان بقوله : « وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم »؟! إنه استفهام إنكاري يعني النفي . وإن هذا التعبير الموحي المؤثر وما هو على شاكلته من كلام سيد المرسلين : لون من ألوان بلاغته الفاذّة عليه الصلاة والسلام ؛ فلقد أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً ، فتراه يؤدي المعاني العميقة الغزيرة بألفاظ قليلة لا يعوزها شيء من الفصاحة والنصاعة والجمال .

هذا : ومما تجدر الإشارة إليه : أن في بعض روايات الحديث عند أحمد رحمه الله نوعاً من التفصيل ، يزيد الأمر بياناً ويكشف عن شديد حرص معاذ على اغتنام الوقت مع رسول الله ، كما يكشف عن الحقبة الزمنية التي حصل فيها ذلك الحوار المبارك بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين ذلك الصحابي الجليل رضي الله عنه. قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة عن الحكم قال : سمعت عروة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل قال : « أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ، فلما رأيته خلياً قلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني

الجنة ، قال : بخ لقد سألت عن عظيم ، وهو يسير على من يسَّره الله عليه ؛ تقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتلقى الله عز وجل لا تشرك به شيئاً . أولا أدلك على رأس الأمر وعموده وذُروة سَنامه ؟ أما رأس الأمر : فالإسلام ، فمن أسلم سلِم ، وأما عموده : فالصلاة ، وأما ذِروة سَنامه : فالجهاد في سبيل الله . أو لا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنة ، والصدقة تطفيء الخطيئة ، وقيام العبد في جوف الليل يكفر الخطايا ، وتلا هذه الآية : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾. أو لا أدلك على أمْلَكِ ذلك لك كله ؟ قال : فأقبل نفر ، قال : فخشيت أن يشغلوا عني رسول الله ﷺ قال شعبة : أو كلمةً نحوها . قال : فقلت : يا رسول الله قولك : أو لا أدلك على أملك ذلك لك كله ! قال : فأشار رسول الله ﷺ بيده إلى لسانه . قال : قلت : يا رسول الله ، وإنا لنؤاخذ بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك معاذ ، وهل يكبُّ الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ قال شعبة : قال لي الحكم : وحدثني به ميمون ابن أبي شبيب . وقال الحكم : سمعته منه منذ أربعين سنة » .

قوله « على مناخرهم » وفي روايات سبقت «على وجوههم » شك من الراوي. المناخر جمع منخِر بفتح الميم وكسر الخاء وفتحها : ثقب الأنف . والاستفهام للنفي ـ كما أسلفنا ـ ، وخصهما بالكب لأنهما أول الأعضاء سقوطاً . وقال صاحب «تحفة الأحوذي» بشرح جامع الترمذي(٧/ ٣٦٥) عند قوله «إلا حصائد ألسنتهم» أي محصوداتها ؛ شبه ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود با لمنجل، وهو من بلاغة النبوة؛ فكما أن المنجل يقطع ولا يميز بين الرطب واليابس والجيد والرديء ، فكذلك لسان بعض الناس، يتكلم بكل نوع من الكلام حسناً وقبيحاً . والمعنى: لا يكبُ الناس في النار إلا حصاد ألسنتهم من الكفر والقذف والشتم والغيبة والنميمة والبهتان ونحوها .

جزى الله عنا نبينا محمداً ﷺ ما هو أهله ، وآتاه الله الوسيلة والفضيلة وبعثه المقام المحمود وجنَّبنا كلَّ ما يكون سبباً للكبِّ في النار ، وجعلنا ـ برحمته ـ من أهل دار النعيم .

سجن المؤمن... وجنة الكافر

من علامات صدق الإيمان : أن يكون المسلم أحرص ما يكون على النجاة يوم القيامة من عذاب الله ، والفوز بالنعيم المقيم في جنات عدن التي وعد الله عباده المقربين. ذلك بأن هذا الحرص المبارك يحول ـ بعون الله ـ دون العبد ودون الغفلة، ويحفز إلى التذكر والبعد عن كل ما يوقع في نسيان الله واليوم الآخر ، فتراه مقبلاً على الآخرة بكليته ، لا يني في ذكر الله والعمل بما شرع لعباده ، والاجتهاد في مرضاته سبحانه ، وكل ما يقرب إليه زلفى ؛ شأنَ المتقين الأبرار الذين لا يقعدهم عن العمل الصالح زخرف الحياة الدنيا ، ولا يغرهم بالله الغَرور . والحرصُ الذي نومىء إليه، يقتضيه التصديق الجازم بما جاء من الأخبار الصادقة التي بصَّرت الأمة بما يكون يوم الدين ﴿**يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً**﴾ وبحقيقة أن الدنيا دار ممر لا دار مقر، وأن السعيد السعادة كلها ، من تخذها مزرعة للآخرة دار البقاء ،لا يماري فيها إلا زائغ، أو مكابر عميت منه البصيرة والعياذ بالله .

وإذا كان الأمر كذلك ؛ فالعاقل من يجتهد في مضمار العمل هنا ، ليفوز يوم السباق هناك ، والموفّق من وفّقه الله للسير على النهج الذي رضيه الله لعباده ، وبينَه خير بيان رحمة الله المهداة ، رسولنا وإمامنا محمد عليه الصلاة والسلام ؛ فلقد أحصى صلوات الله وسلامه عليه بهذا البيان ـ كما لا يخفى ـ كل صغيرة وكبيرة مما يتعلق باليوم الآخر وما فيه من الأهوال ؛ وما يتعلق بالجنة والنار ، صفات كلٍ منهما وأحوال أهلها ، وما تزخر به عرصات القيامة من المشاهد العظام .

وكان من هديه ﷺ : ما نبّه عليه من أن الدنيا للمؤمن بمثابة السجن ، لما أن حرصه على الجنة يمنعه من الوقوع فيما يغضب الله تعالى ، كما أنها للكافر بمثابة الجنة ؛ وذلك لحمقه ؛ فهو يقبل غافلاً على الشهوات والمخالفات التي حفت

جهنم بها . قـال الإمام مسلم: حـدثنا قتيبة بـن سعيد قال : حـدثنا عبدالعـزيز ـ يعني الدَّراوَرديّ ـ عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدنيـا سجن المؤمن وجنـة الكافـر » ذلك بأن المؤمـن يحب لقاء الله ، ومطمعه أبداً حسن العـاقبة في جنة المأوى ، أما الكافر : فعلى العكـس من ذلك، وشتان بين الحالين. وقد أوضح الإمام النووي المراد من الحديث بقوله : (معناه أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة ، مكلف بفعل الطاعات الشاقـة ، فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعـد الله تعالى له من النعيم الدائم والـراحة الخالصة من النقصان . وأمـا الكافر : فإنما له مـن ذلك ما حصل في الـدنيا ، مع قلتـه وتكديره بالمنغصـات ، فإذا مات : صـار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد).

وما أكثر ما جاء في هدي النبي عليه الصلاة والسلام، من التنبيه على ما يجب أن يكون عليه المؤمن من اليقظة التي تحرس قلبه ، فلا يقع في حبائل الرغبة الجامحة في متـاع الغـرور ، وعدم الإنـابـة الى دار الخلـود . ولكـم يعمـل الترغيب بـالجنـة والترهيب من النار عمله في نفسه هذا المؤمن ، إذا كان يعمل على تزكيتها وتطهيرها من الأدران ؛ الأمـر الذي يـزيد طالـب الجنة رغبة في عمـل الصالحات ، ويـوقظ الغافل فيسارع إلى تدارك ما فاته من الخير ؛ فالأمر جدٌّ يقينٌ لا هزل فيه ولا ريب ، وما جاء في الأخبار الصادقة واقع لا محالة . قال الإمام أحمد في المسند : حدثنا بهز ابن أسد قال : حدثنا سليمان بن المغيرة قال : حدثنـا حُميد بن هلال عن خالد بن عمير قال : خطب عُتبة بن غزوان ـ قال بهز : وقال قبل هذه المرة ـ «خطبنا رسول الله ﷺ قال : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإن الدنيا قد آذنت بصَرْم ، وولّت حـذّاء ولم يبق منهـا إلا صبابة كصُبـابة الإناء يتصـابُّها صاحبهـا ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقـى من شفير جهنم ، فيهـوي فيها سبعين عـاماً ما يـدرك لها قعراً ، والله لتملؤنّه ، أفعجبتم! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً،

وليأتينَّ عليه يـوم وهو كظيظ من الزحـام ، ولقد رأيتني سابع سبعـة مع رسول الله ﷺ مـالنا طعـام إلا ورق الشجـر ، حتى قـرحت أشـداقنـا ، وإني التقطت بـردة فشققتها بينـي وبين سعد فائتزر بنصفهـا ، وائتزرت بنصفها ، فما أصبح منـا أحد اليوم إلا أصبـح أمير مصر من الأمصار ، وإني أعوذ بـالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً ، وإنها لم تكـن نبوة قط إلا تناسخـت حتى يكون عاقبتهـا ملكاً ، وستَبْلون ـ أو ستخبرون ـ الأمراء بعدنا». ورواه مسلم من حديث شيبانَ بن فرُّوخ بلفظ «فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفة جهنم فيهوي فيها سبعين خريفاً لا يدرك لها قعراً والله لتُملأنّ » وبلفظ « فستخبرُون وتجربون الأمراء بعدنا ».

آذنـت : بهمزة ممـدودة وفتـح الذال أي أعلمـت ، والصُّرم ــ بـالضم ــ أي الانقطاع والذهاب ، وقـوله : حذّاءَ بحاء مهملة مفتوحـة ثم ذال معجمة مشددة وألف ممـدودة أي مسرعة الانقطـاع . والصُبابـة بضم الصـاد : البقية اليسيرة مـن الشراب تبقى في أسفل الإناء . ومعنـى يتصابُّها أي يشربها . وقعر الشيء : أسفله، والكظيظ : الممتلىء . وقـوله : قرِحـت أشداقنا : أي صـار فيها قروح وجـراح من خشونة الورق الذي نأكله وحرارته وكان ذلك في غزوة من الغزوات .

أرأيت إلى هـذا الذي يذكِّـر به من مشـاهد القيـامة في الجنة وفي النـار : هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه !! الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عـاماً لا يـدرك لها قعراً ، وقسَـم بالله لتمـلأنّ وهي على مـا هي عليـه من السعـة والعمق ، نسـأل الله العفو والعافية ، ومـا بين مصراعين من مصاريـع الجنة مسيرة أربعين سنة ، ومـن سعة رحمة الله أنها لابد أن تمتلىء ، إذ ليـأتين عليها يـوم وما بين المصراعين على هذا الامتداد ـ كما شاء الله تعالى ـ كظيـظ ممتلىء من الزحام ، نسأله تعالى أن يمن علينا بلطفه ورحمته فيجعلنا من أهلها .

ولقد كـان النبي ﷺ حريصـاً على أمته أن تـزل بها القدم يوم الـدين .. فبشَّر وأنذر ولم يدع ـ كما أسلفنا ـ أن يبيّن خير بيان وأكمله جزاه الله عنا كل خير . جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره من رواية أبي هريرة رضي الله عنه «... قال :

فيلقـى العبدَ فيقـول : أي فل ـــ يعني أي فـلان ـــ ألم أكرمـك وأسوِّدك وأزوجْـك وأسخِّرْ لـك الخيل والإبل ، وأذَرْك ترأس وتـربع ؟؟ فيقول : بلى ، قـال : فيقول : أفظننت أنك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : إني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فيقول : أي فـل ، ألم أكرمك وأسودك وأزوجـك وأسخر لك الخيـل والإبل وأذرك ترأس وتـربع فيقـول : بلى أي رب ، فيقول : أظننـتَ أنك مـلاقيَّ ؟ فيقـول : لا ، فيقول : فإني أنسـاك كما نسيتني . ثم يلقى الثـالث فيقول له مثـل ذلك ، فيقول : يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلـك، وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع ، فيقـول : ههنا إذاً ، قـال : ثم يقـال له : الآن نبعـث شاهـدنا عليـك . ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي ؟ فيختـم على فيه ، ويُقال لفخذه ولحمه وعظامـه : انطقي . فتنطق فخـذه ولحمه وعظامه بعملـه وذلك ليُعذِر مـن نفسه، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه » .

إنه ـ ورب السماء والأرض ـ مشهـد جدير بأن يوقظ الغافـل ، ويذكر الناسي اللاهي ... ولكن أين القلوب ؟! ﴿**إن في ذلك لذكرى لمن كـان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**﴾.

ما أقرب الجنة والنار

أن يترك النبي ﷺ أمته في أمور دينها ،ودنياها وآخرتها ،على بيضاء نقية، ليلُها كنهارهـا : نعمةٌ عظمـى جليلة القدر ، ومنـة كبرى لا يقادر قـدرها ، تستـوجب الشكر الخالص وتستحق الكثير مـن العناية والتدبر ،وتربيـة الأجيال على ذلك . والصدقُ في طلب النجاة يوم القيامة وأن تكون الجنة هي المأوى ، صورة من صور الشكر الحقيقي لتلك النعمة ، خصوصاً وأن هديَ الرسول ﷺ على هذه الساحة، بلغ من الوضوح حداً لا يدع زيادة لمستزيد ؛ وهنيئاً لمن استنارت بصائرهم فعضوا على الهدي المحمدي بالنواجذ ، وعملوا لما بعد الموت ؛ فكانوا من أهل الجنة ونعم دار المتقين ، والويل كل الويل لأولئك الغافلين الذين يتنكبون الطريق الواضحة، ويتخذون معالمها وراءهم ظهرياً ، وبذلك يمهَدون لأنفسهم دار البوار ، ﴿**جهنم يصلونها وبئس القرار**﴾. وما أقرب الجنـة لمن صدق الوجهة وحـزم أمره في العمل لهـا . وما أقرب النار لمن غفل عن الله وضلّ سواء السبيل .

أخرج أحمد والبخـاري من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « الجنة أقرب إلى أحـدكم من شراك نعله والنار مثل ذلـك » وقد سبقت الإشارة إلى هذا الحديث في مناسبة أخرى .

ويتضح مـن كلام النبـي ﷺ ـ وقـد أوتي جوامـع الكلم واختصر لـه الكلام اختصاراً ـ أن الطاعة طريق العبـد إلى الجنة ، وأن المعصية تعمل عملها في تقريبه من النـار ، وليس الأمر قصراً على الأعمال الكبيرة ، بل قـد تكون كل من الطـاعة والمعصية في الأمور اليسيرة التي لا يحسب لها الإنسان أي حساب .

قال ابن بطال في بيان لمعنى الحديث : « فيه أن الطاعة موصلة إلى الجنة ، وأن المعصية مقربـة إلى النار ، وأن الطاعة والمعصية قـد تكون في أيسر الأشياء ، إلى أن

يقول : فينبغي للمرء أن لايزهد في القليل من الخير أن يأتيه ، ولا في القليل من الشر أن يجتنبه ؛ فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها ، ولا السيئة التي يسخط عليه بها» ويرى الإمام ابن الجوزي في معنى الحديث « أن تحصيل الجنة سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة ، والنار كذلك ، بموافقة الهوى وفعل المعصية» وهذا لا يتعارض مع الذي سلف تقريره غير مرة من أن دخول الجنة كائن برحمة الله تبارك وتعالى ، ولكن التفاضل في المنازل مردُّه إلى الأعمال كما جاء في حديث الترمذي ، إذ أن ارتباط المسؤولية بالجزاء شيء ، وكون العاقبة بيده سبحانه شيء آخر ، حتى رسول الله ﷺ ـ وهو صاحب المقام المحمود والحوض المورود ـ لايدخله الجنة عمله ، إلا أن يتغمده الله برحمة من عنده .

من هنا كان يتَّسم تعامل السلف مع الدنيا بالكثير من الواقعية ؛ من حيث كونها دار عمل وسباق إلى الخير ، وقل مثل ذلك في تعاملهم مع الدار الآخرة ؛ من حيث كونها هي المستقر وهي الحيوان ؛ إمامُهم وأُسوتهم في ذلك رسول الله ﷺ . ومشاهد القيامة إعلان صادق عن أحقية ما جاء به القرآن الكريم في ذلك ، وبيَّنه إمام الهدى وخاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام ؛ فالتالي يتلو في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿**فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير**﴾ وتطالعنا سورة الحديد بقوله جل شأنه ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾. وتتأكد هذه الحقيقة بما نرى من الأمر بالمسارعة في سورة آل عمران : ذلكم قوله تعالى : ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين**﴾ والثناء العظيم كائن على من يسارعون في الخيرات ؛ ففي سورة الأنبياء ﴿**إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً**﴾ وفي سورة المؤمنون ﴿**أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**﴾.

وفهم السلف الصالح للتعامل مع كلٍ من الدار الفانية والدار الباقية ، بدءاً

من الصحابة عليهم رضوان الله يجري ـ كما أسلفنا ـ على هدي هذا التوجيه الرباني وبيانه من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأمثلة ذلك تكاد تعز على الحصر . روى شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري بسنده عن أبي عبدالرحمن السُّلَمي قال : « نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة ، فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة رضي الله عنه فقال : ألا إن الله يقول : ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، فقلت لأبي : أيستبق الناس غداً ؟ فقال: يا بني إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال، وفي رواية : إنما يعني: العملُ اليوم والجزاءُ غداً . ثم جاءت الجمعة الأخرى ، فحضرنا فخطب حذيفة رضي الله عنه فقال : ألا إن الله عز وجل يقول: ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة » وأخرجه الحاكم النيسابوري في « المستدرك» وقال صحيح الإسناد .

هكذا ينصح الصحابي الجليل حذيفة رضي الله عنه المسلمين ــ كما علم من هدي النبي عليه الصلاة والسلام المبين عن الله ما أراد ـ أن اليوم المضمار وغداً السباق إلى الجنة ، وأن السابق من وفق لخالص العمل ، فسبق إلى النعيم المقيم. والمضمار : الموضع الذي تضمّر فيه الخيل ـ وقد مر ذلك في مناسبة أخرى ـ وتضمير الخيل أن تُعلف حتى تسمن ، ثم لا تعلفَ إلا قوتاً لتخف . وقيل : تشد عليها سروجها ، وتجلَّل بالأجلّة حتى تعرق تحتها ، فيذهبَ رهَلها ويشتدَّ لحمها .

ولكم تكون الأمة على الجادَّة ، إذا ضمت إلى مناهج التربية على الإيمان بالغيب ، وما أعدّ الله للعاملين في دار كرامته من الخير العميم، وما يلقاه الظالمون والصادُّون عن سبيل الله ، من سوء المصير ... سلامة التوجيه إلى ما يجب أن يكون عليه التعامل مع ما هو من أمور الدنيا ، ومع ما هو من أمور الآخرة ، مضافاً إلى ذلك تربية على سلامة التصور للعلاقة بين مشاهد القيامة، يوم يقف الناس لرب

العالمين ، وبين ما كان عليه السلوك في الدنيا ؛ من حيث الالتزام بشريعة الله، وتحكيم المنهج الرباني .

وفي واحدة من مواعظ رسول الله ﷺ نقع على نوع من التفصيل في الدعوة إلى اغتنام فرص الخير والعمل الصالح ، وفي ذكر مظانِّ العمل التي لا يجوز التهاون بها والغفلة عن آثارها لمن أراد أن يكون من السابقين يوم السباق إلى جنة الخلد ، ذلكم ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سَقمك، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ـ يعني البخاري ومسلماً ـ .

ومعلوم أن الصدق في طلب الآخرة ، والفوز برضوان الله ، وما يكرم به عباده المنيبين إليه ، الطامعين في رحمته ، يقتضي التخلق بأخلاق هؤلاء الأبرار مخافةً لله ، وبعداً عن الركون إلى الدعة وما عليه الغافلون . روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه جل وعلا أنه قال : «وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين : إذا خافني في الدنيا آمنته يوم القيامة ، و إذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة ».

اللهم اجعلنا ممن يعملون الصالحات الذين يرجون رحمتك ويخافون عذابك ياذا الجلال والإكرام ..

أكثروا من ذكر النار

ما أعظم ما كان من أمانة النبي ﷺ ، في بيان كـل ما يجب بيانه للأمة ؛ تبليغاً وتربية وتعليماً ، وإعطاء الترغيب في دار النعيم المقيم ، والترهيب من نار السعير ، ما هما جديران بـه على صعيد ذلك البيان . وما أكرم ما أثمـر ذلك من انضباط في سلوك الفرد والجماعة ، وتميّزٍ في التحلي بمكارم الأخلاق ، وتزكية النفوس ، ومراقبة الله عز وجل ، والارتفاع بالمطالب والرغبات إلى حيث تكون النجاة من عذاب الله يوم الـدين ، والفـوز بالجنة نُـزُلِ الأبرار المقـربين ، غاية عظيمـة كريمـة ، يحسب حسابها عند كل قول أو عمل في هذه الحياة الدنيا دار الفناء .

أقول هـذا ، و الكلام موصـول بما جاء في خطبـة الصحابي الجليل عُتبـةَ بنِ غزوانَ من روايـة أحمد ومسلم من قوله رضي الله عنـه ـ كما سبق ـ « إنـه ذكر لنا أن الحجـر يُلقى مـن شفير جهنم فيهـوي فيها سبعين عـاماً مـا يدرك لها قعـراً ، والله لتُملأنّ .. أفعجبتم .. » الحديث وجاء في الجامع الصحيح ـ سنن الترمذي ـ بابِ ما جاء في صفة قعر جهنم قوله رحمه الله : حدثنا عبدُ بن حُميد قال : حدثنا حسين ابن علي الجُعفيُّ عن الفضيل بن عياض عن هشام عن الحسن البصري قال : قال عتبـة بنُ غـزوانَ على منبرنـا هذا منبرِ البصرةِ عـن النبـي ﷺ قال : « إن الصخـرة العظيمة لتُلقى من شفير جهنم ، فتهوي فيهـا سبعين عاماً وما تُفضي إلى قرارها». قال : وكان عمر يقول : «أكثروا ذكر النار فإن حرها شديد ، و إن قعرها بعيد ، و إن مقامعها حديد » والروايات التي سبقت تشهد على صحة هذا الحديث ، و إن كان الحسن رحمه الله أسقـط اسم مـن روى عنه ، قال أبـو عيسى: لا نعـرف للحسن سماعاً مـن عُتبة بـن غزوان ، وإنما قـدم عُتبة البصرة في زمـن عمر ، وولـد الحسن لسنتين بقيتا من خـلافة عمر . وكلام عمـر رضي الله عنه عنوان التفاعـل الصادق مع الـذي أخبر عنه نبينـا عليه الصـلاة والسلام مـن صفات جهنـم نار السعير ،

والحرصِ على أن لا تكون الأمة في غفلة عن ذلك ، لأن الغفلة في هذا المقام مهلكة أيّ مهلكة ، وما أسوأ ما يتمرغ به الغافلون من مخازي الضياع وقسوة القلب ونسيانِ الله واليوم الآخر « أكثروا ذكر النار فإن حرها شديد وإن قعرها بعيد ، وإن مقامعها من حديد » والمقامع: واحدتها مِقمَعَة بكسر الميم وهي سياط تعمل من حديد ورؤوسها معوجة .

وهذه الكلمات البليغة المؤثرة التي تتجاوز الآذان إلى القلوب ، تذكرنا بقول الله جل شأنه في سورة إبراهيم : ﴿ **فلا تَحسبنّ الله مخلف وعده رسلَه إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهّار . وترى المجرمين يومئذ مقرَّنين في الأصفاد. سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار**﴾.

ألا ليت للمجرمين والظالمين قلوباً تعي !! ترى يا محمد المجرمين ــ وهم الذين أجرموا بكفرهم وظلمهم وفسادهم ـ مقرَّنين أي بعضهم إلى بعض ، قد جُمع بين النُظراء والأشكال منهم، كل صنف إلى صنف في الأصفاد ، كما قال الله تعالى: ﴿**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم** ﴾ أي نظراءهم وأمثالهم وقال سبحانه : ﴿**وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرَّنين دعوا هنالك ثبوراً** ﴾. وفي بيان لبعض صور الإجرام أورد الحافظ ابن كثير عند تفسير تلكم الآيات من خواتم سورة إبراهيم ماروى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أربع من أمر الجاهلية لا يُتركن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة . والنائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب » وأخرجه مسلم . وفي حديث القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : « النائحة إذا لم تتب توقف في طريق بين الجنة والنار ، سرابيلها من قطران ، وتغشى وجهها النار » .

إنه لمشهد مذهل حقاً ، مشهد أولئك الذين أجرموا بالضلال والصدِّ عن سبيل الله ، فتراهم مقرنين في الأصفاد ، كل نظير إلى نظيره، وكل خليل إلى خليله،

وليس ذلك فحسب ؛ بل إن سرابيلهم من قطران ، وتغشى وجوههم - تلفح وجوههم - النار ، أعاذنا الله من حرها ولفحها .. ولكم يكون المؤمن على بصيرة من أمره ، وحذر من سوء العاقبة يوم الحساب ، إذا عمل على أن يوالي لله ، ويعادي لله، فإذا أحبّ فللّه ،وإذا أبغض فلّله ، كي لا يكون في عداد أولئك الذين يوالون أعداء الله ويعادون أحباءه وأولياءه ، فتكون العاقبة أن يحشر مع من أحب ، ويلقى في جهنم - التي لا يكاد يدرك قعرها - مقرّناً في الأصفاد مع أولئك الذين أحبّهم في الدنيا ابتغاء نفع زائل ، ولوجه الشيطان ، أجل يحشر معهم بعد أن تنقلب تلك الصداقة المصطنعة المشوبة بالضلال في الدنيا ، عداوة يوم القيامة ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾ ولقد بيّن ﷺ أن من علائم التذوق لحلاوة الإيمان ، أن تكون المحبة لله ؛ وذلك ما ثبت في الصحيح من قوله صلوات الله وسلامه عليه : « ثلاث من كن فيه وجد حلاة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار » رواه البخاري .

ألا وإن هذا المشهد العظيم، جدير بأن يزيد المؤمن إيماناً ، وحرصاً على سلوك السبيل التي ينتهي معها - برحمة الله وفضله - إلى حيث النجاة من نار تلظّى ، حرُّها شديد ، وقعرها بعيد ، ومقامعها من حديد . كما أنه جدير بأن يُلجم الغافل - أن لو عقل واستبصر - عن الاستمرار في طريق الغي ، وطاعة الهوى وشياطين الإنس والجن ، والأمر يوم الآزفة شديد شديد ، إنه من الشدة والهول بحيث لا ينفع معه التسويف ، بل إن العقل الأخروي ، يقضي بأن يبادر المرء بالأعمال الصالحة، كلَ ما يمكن أن يسوق إلى جهنم وساءت مصيراً ، وأن يسارع في الخيرات والطاعات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ومن ذا الذي لديه مِسكة من التبصّر ، ونشدانِ السعادة الأبدية ، لا تخيفه تلكم الأخبار الصادقة عن جهنم وصفاتها وأحوال أهلها ، وتجعله ينزع عما هو فيه من الإعراض عن الدين ، والتمرغ في أوحال العبث والعابثين !!.

من هنا ، كان ديدنُ أهل التقوى والصلاح ، تذكيرَ الأمة ، والنصحَ للحاكم والمحكوم ، والرجل والمرأة ، بأن يضع الجميع نُصب أعينهم ، ما يؤول إليه الأمر يوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتُهم ولا هم يُستعتَبون .

يقول الإمام القدوة الثبت العابد الزاهد شيخ الإسلام الفضيل بن عياض المتوفى ١٨٦ هـ : « لما دخل عليَّ هارون أمير المؤمنين قلت : يا حسن الوجه ، لقد كُلفتَ أمراً عظيماً ، أما إني ما رأيت أحداً أحسن وجهاً منك ؛ فإن قدرتَ أن لا تسوِّد هذا الوجه بلفحة من النار فافعل . قال : عظني ، قلت : بماذا أعظك ، هذا كتاب الله بين الدَّفتين ، انظر ماذا عمل بمن أطاعه وماذا عمل بمن عصاه . إني رأيت الناس يغوصون على النار غوصاً شديداً ، ويطلبونها طلباً حثيثاً ، أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسرَ ، لنالوها . وقال : عُد إليّ ، فقال : لو لم تبعث إليّ لم آتك ، وإن انتفعتَ بما سمعتَ ، عُدت إليك » .

رحم الله الفضيل وأعلى مقامه في الآخرين ، ما كان أصدقه ، وأنصحه لأئمة المسلمين وعامتهم ، وأكثر الله في أمتنا من علماء الآخرة الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا يحول دونهم ودون الصدع بكلمة الحق رغب ولا رهب ، ولله عاقبة الأمور .

ذلكم أشقى الأشقياء

لا يعدم المرء حين ينظر في سير أولئك البررة من السلف الصالح ، رجالاً كانوا أو نساءً ، أن يقع على الكثير الكثير من النماذج التي توحي بما صنعت في نفوسهم تلك الأخبار الصادقة عن يوم الحساب ، وعما ينتظر المرء في ذلك اليوم العصيب حيث يجازى المحسن بإحسانه ، ويؤخذ المسيء بما كسبت يداه .. أجل بما صَنَعَتْ تلك الأخبار في نفوسهم وحرّكت من كوامن الخير في قلوبهم، فاستقاموا على الطريقة ، وغضّوا عن محارم الله ، وأخذوا أنفسهم بالدينونة والمحاسبة ، اتقاءً لغضب الله المودي إلى جهنم، ورغبةً في مرضاته التي تعقب الخير والفوز بجنة النعيم .

والأمة اليوم أحوج ما تكون إلى استذكار تلكم السير ، التي تبلغ أن تكون الصورةَ الحية الناطقة بما يجب أن يكون عليه المؤمن، من تطلُّع صادق إلى حسن العاقبة في الآخرة ، لا يلهيه عن ذلك زخرف أو متاع ، ولا تشغله رغبة عاجلة زائلة في دار الفناء والزوال ، ولكن يتخذ من العمل الصالح ، والجهاد في سبيل الله، وإعمار الدنيا وفق معايير شريعة الله وأخلاق المنيبين إلى الله ، جسراً مباركاً يعبر عليه إلى دار الكرامة التي يُحِلُّها الله عباده الصالحين المتقين المجاهدين .

وكيف لا يكون ذلك ؛ والعبد محصيٌّ عليه ما اكتسب، حتى ولو كان ذلك كلمةً واحدة نطق بها ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ فقد يتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرتفع بها درجات ، وقد يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يأبه بها تودي به إلى نار الجحيم . قال الإمام البخاري في الجامع الصحيح : حدثني عبدالله بن منير سمع أبا النضر قال : حدثنا عبدالرحمن بنُ عبدالله ـ يعني ابن دينار ـ عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يُلقي لها بالاً يرفعه الله بها

درجات ، وإن العبد ليتكلّم بالكلمـة من سخط الله ، لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم » ولقد عمـل هذا الوعيد عمله في نفس التابعي الجليل علقمـة بن وقاص الليثيِّ رحمه الله ؛ فكثيراً ما كان يمتنع عن الكلام ، خشية أن يقع في زلة تعود عليه بما لا تحمد عقباه في الآخرة من غضب الله تعـالى ؛ ذلكم ما أخـرج الإمام أحمد في المسند حيـث قال : حدثنـا أبو معـاوية قال : حـدثنا محمد بـن عمرو بـن علقمة الليثي عن أبيه عـن جده علقمة عن بلال بن الحارث المزني قـال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضـوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليـه بها سخطه إلى يوم يلقاه » قال : «فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث». وأخرجه مالك في الموطأ وأصحاب السنن والحاكم وصححه وقال الترمذي : حسن صحيح .

وغير خـافٍ أن علقمة ــ أجزل الله مثـوبته ــ وقد انتفـع بهذا الحديث ــ كما أسلفنا ـ قد بلغ به الورع أن يصمت عـن كثير من الكلام خشية أن تزل به القدم، وهو لا يدري ، فيكـون ممن تسعّر بهم الجحيم . وقال الحافظ ابـن كثير ـ جزاه الله عن الإسلام والمسلمين كل خير ـ : وذُكر عن الإمـام أحمد « أنه كان يئن في مرضه، فبلغه عـن طاوس أنـه قال : يكتـب الملك كـل شيء حتى الأنين . فلـم يئن أحمد حتى مات رحمه الله» .

وهذا الخوف مـن النار والطمع في أن تكـون الجنة هي المأوى ، ممـا حمل أئمة الهدى رحمهم الله ، على الكثير مـن التثبت عند الجواب عن سـؤال ، أو الفتوى في حكـم من الأحكـام . جاء في كتـاب «ترتيـب المدارك » للقاضي عيـاض و «أدب المفتي والمستفتي» للإمام ابن الصلاح أن الإمـام مالكاً كان يقول : «من أجاب في مسألـة فينبغي من قبـل أن يجيب فيها ، أن يعـرض نفسه على الجنة والنـار وكيف يكون خلاصه في الآخرة ؟ ثم يجيبَ فيها» وشدة ورع الإمام أحمد على هذه الساحة معروفـة ومشهورة . وقـد نقل عـن سعيد بـن المسيَّب رضي الله عنهما « أنـه كان لا

يكاد يفتي فتيا ولا يقول شيئاً إلا قال : اللهم سلمني وسلِّم مني » وفي هذا أوضح الدلالة على أن أهل الخشية قد عقلوا عن الله ورسوله عليه الصلاة والسلام حقيقة البشارة والنذارة في أمر الآخرة ، وعاقبة كلٍ من المحسنين والمسيئين .

وكلما ازدادت المعرفة ، ازدادت الخشية ، وقد بشر الله تبارك وتعالى الذين يخشون ربهم بالغيب أن لهم المغفرة والأجر الكبير ؛ ذلكم قوله جل وعلا : ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ والعلماء العاملون أولى الناس بأن يكونوا ـ وهم مسؤولون عن بيان شريعة الله للأمة ـ من أهل الخشية لله الذين لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا يبيعون دينهم بدنيا الآخرين ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ . قال ابن الصلاح في كتابه « أدب المفتي والمستفتي »: (وجاء عن أبي سعيد عبدالسلام بن سعيد التنوخي الملقب بسَحنون إمام المالكية وصاحب «المدوّنة » التي هي عند المالكين ككتاب « الأم » عند الشافعيين أنه قال : «أشقى الناس من باع آخرته بدنياه ، وأشقى منه من باع آخرته بدنيا غيره » . قال : ففكرت فيمن باع آخرته بدنيا غيره فوجدته المفتي يأتيه الرجل قد حنث في امرأته ورقيقه فيقول له : لا شيء عليك ، فيذهب الحانث فيتمتع بامرأته ورقيقه ، وقد باع المفتي دينه بدنيا هذا . قال ابن الصلاح : وعن سَحنون : «أن رجلاً أتاه فسأله عن مسألة فأقام يتردد إليه ثلاثة أيام ، فقال له : مسألتي أصلحك الله ، ليَ اليوم ثلاثة أيام . فقال له : وما أصنع لك يا خليلي ؟ مسألتك معضِلة ، وفيها أقاويل ، وأنا متحيِّر في ذلك. فقال له: وأنت أصلحك الله لكل معضِلة : فقال له سحنون: هيهات يا ابن أخي !! ليس بقولك هذا أبذل لك لحمي ودمي إلى النار ، ما أكثر مالا أعرف ، إن صبرتَ ، رجوتُ أن تنقلب بمسألتك، وإن أردت أن تمضيَ إلى غيري ، فامض تُجَبْ عن مسألتك في ساعة . فقال له : إنما جئت إليك ولا أستفتي غيرك . فقال له : فاصبر عافاك الله ثم أجابه بعد ذلك ».

قلت : بيت القصيد في كلام سحنون ـ بعد كل هذا التثبت والورع وثناء السائل عليه بأنه لكل معضلة ـ: قوله أعظم الله أجره ، وأعلى مقامه يوم اللقاء:

«ليس بقـولك هـذا أبذل لك لحمـي ودمي إلى النـار » إن هذا العـالم الذي ازدان سلوكـه بالحيطـة في دين الله والـورع أن يقول مـا ليس بحـق ، على ذُكر مـن عظم المسؤولية يوم يقف الناس لـرب العالمين ، وأن من تهاون في تجاوز ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله عليـه الصلاة والسلام ، بأن يحرِّم حلالاً أو يحلَّ حرامـاً ، كان عليه وِزره ووزر من كان هو السبب في ضلاله ، وكانت عاقبة أمره خسراً .

ولكـم يحسن العـالم صنعاً ، حين يتقـي الله في نفسـه وفي الآخريـن ، فيذكـر المساءلة أمام جبار السماوات والأرض ، وأن العذاب عذاب الله شديد ، غيرَ ناسٍ ما روى البخـاري ومسلم وغيرهما عن عبدالله بـن عمرو بن العـاص أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعـه من العباد ، ولكن يقبضه بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبـق عالماً اتخذ النـاس رؤوساً جهالاً فسئلـوا فأفتـوا بغير علم فضلوا وأضلوا » وفي رواية للبخاري « فيفتون برأيهم » .

وفقنا الله لمرضاته ، وجنَّبنا مزالق الأقدام ومُضلات الفتن ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجارنا ـ بمنه وكرمه ـ من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ..

جهنم عقبى الظالمين

كلما ازداد النظر المتبصّر فيما جاء عن الله تعالى ، وعن رسوله عليه الصلاة والسلام ، في شأن دار البقاء ، وما يجب من إعداد العدة والتزود ليوم القيامة الذي لا ريب فيه ... ربا إيمان المؤمن في قلبه ، وأشرقت في نفسه أكثرَ وأكثَر سلامة التصور لتلك الرحلة بين الدنيا والآخرة ، فيما قسم للإنسان من عمر يقضيه في دارٍ من أوضح سماتها أنها زائلة فانية ، وأنه منقلب بعد الموت إلى دار ، هي حقاً دار البقاء والخلود. من أجل هذا ترى الموفقين لا تلهيهم دنياهم عن ذكر الله ، والعمل لما بعد الموت ؛ يفرحون بما يأتون من عمل ليوم المعاد ، راجين من الله قبوله ، ويحزنون على ما يفوتهم من ذلك ، فرقاً من يوم الحساب ، سائلين المولى عز وجل عفوه ومغفرته فهو سبحانه الغفور الرحيم . ويا نعم ما يفوزون به يوم الفصل من جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا وكانوا يتقون .

أما أهل الضلالة : فالقضية عندهم لا تقدم ولا تؤخر ، قلوب غافلة ـ والعياذ بالله ـ وبُعد عن الله في الأقوال والأفعال . وبئس ما يصنعون من سلوك طريق الغواية التي تنتهي بهم إلى جهنم وساءت مصيراً . أخرج الترمذي بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فطار » ذلك بأن المؤمن منوّر قلبه ، دائمُ الخوف والمراقبة لله عز وجل ؛ فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينوّر به قلبه. عظم الأمر عليه وتاب وأناب . وأين الفاجر اللاهي من هذا ؟!!

والحق أن المؤمن كما تُفرح قلبَه بشريات الجنة ونعيمها ، وما أعد الله فيها من كريم الفضل وجزيل العطاء لأهل الإنابة والصلاح ، يخيفه ويرعبه ما جاء في الأخبار الصادقة عن نار السعير وما يملؤها من مشاهد الهول والعذاب الشديد؛

وكلما زكت النفس، كان ذلك أدعى للانتفاع وصدق التوجه إلى العمل الذي يصلح به المؤمن آخرته ، فيفوز بدار النعيم ، وينجو من أن يكون في عداد من يقال عقاباً للواحد منهم: ﴿خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ والأمر أولاً وآخراً ، خطير جدُّ خطير ، فمع الرجاء برحمة الله وفضله ، مابد من أن يكون المرء على ذكر من تلك الأهوال التي تنصبُّ على أولئك الذين يهوون في جهنم التي لا يكاد يدرك قعرها ، ولا ينفعهم أن يصطرخوا فيها من شدة العذاب : هل إلى مردٍ من سبيل ؟ .

جاء في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو أن حجراً قذف به في جهنم لهوى سبعين خريفاً حتى يبلغ قعرها» . رواه البزار وأبو علي وابن حبان في صحيحه والبيهقي كلهم من طريق عطاء بن السائب. وقال الإمام مسلم : حدثنا يحيى بن أيوب قال : حدثنا خَلَف بن خليفة قال: حدثنا يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبةً . فقال النبي ﷺ : تدرون ما هذا ؟ قال : قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها » . قال المنذري : ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « سمع رسول الله ﷺ صوتاً هاله ، فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا الصوت يا جبريل ؟ فقال : هذه صخرة هوت من شفير جهنم من سبعين عاماً ، فهذا حين بلغت قعرها ، فأحبّ الله أن يُسمعك صوتها . فما رئي رسول الله ﷺ ضاحكاً ملء فيه حتى قبضه الله عز وجل » .

من هنا رأينا أهل الصلاح الربانيين في هذه الأمة ، يأخذون الأمر مأخذ العزيمة؛ فيجدّون في طاعة الله والجهاد في سبيله ، ويجتهدون ، ومع عظيم رجائهم بسعة رحمته سبحانه وتعالى ، يأخذون أنفسهم بالخوف من عذاب الله ونقمته، وتعمل أخبار جهنم وما هي عليه ، عملها في تذكيرهم إذا غفلوا ، وشحذ هممهم

لمضاعفة التزود النافع ليوم المعاد، وتراهم يعملون على النصح للأمة كيما تكون على الجادة في تدبُّر كتاب الله والعمل بهدي رسول الله عليه الصلاة والسلام، لأن ذلك هو المعتَصم ـ بعون الله ـ من الغفلة والإعراض عن تذكر ما يمكن أن يكون عليه الحال ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً** ﴾ .

هذا أبو بشر صالح بن بشير المرّي المتوفى سنة ثنتين وسبعين ومائة : واحد من أولئك الوعاظ الزهاد الذين رقت قلوبهم، وصفت من أكدار الدنيا نفوسهم، فتذوقوا حلاوة العمل للآخرة، وكانوا على كثير من الخوف مع الرجاء، وكذلك يفعل الربانيون . أخرج أبو نعيم في كتابه «حلية الأولياء» عن الحسن بن حسّان قال : «كنا يوماً عند صالح المري وهو يتكلم ويعظ، فقال لرجل حَدَثٍ بين يديه : اقرأ يابني، فقرأ الرجل ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع** ﴾ فقطع عليه صالح القراءة فقال : وكيف يكون للظالمين حميم أو شفيع ؟ والطالب لهم رب العالمين . إنك والله لو رأيت الظالمين وأهل المعاصي يساقون في السلاسل والأغلال إلى الجحيم حفاةً عراةً مسودةً وجوههم، مزرقةً عيونهم، ذائبةً أجسامهم، ينادون ياويلاه يا ثبوراه !! ماذا أنزل بنا، ماذا حلّ بنا، أين يُذهب بنا، ماذا يراد منا، والملائكة تسوقهم بمقامع النيران، فمرة يُجرّون على وجوههم ويسحبون عليها متكئين، ومرة يقادون إليها عنتاً مقرَّنين ؛ من بين باك دماً بعد انقطاع الدموع، ومن بين صارخ طائر القلب مبهوت ؛ إنك والله لو رأيتهم على ذلك، لرأيت منظراً لا يقوم له بصرك، ولا يثبت له قلبك، ولا يستقر لفظاعةِ هوله على قرار قدمك . ثم نحب وصاح : ياسوء منظراه، ويا سوء منقلباه، وبكى وبكى الناس . فقام شاب به تأنيث فقال : أكل هذا في القيامة يا أبا بشر ؟ قال : نعم والله يا ابن أخي وما هو أكبر من ذلك !! لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم، فلا يبقى منها إلا كهيئة الأنين المدنف، فصاح الفتى : إنا لله، واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة، ويا أسفي على تفريطي في طاعة الله، وا أسفاه على تضييع عمري في دار الدنيا . ثم بكى

واستقبل القبلة ثم قـال : اللهم إني أستقبلك في يومي هذا بتـوبة لك ، لا يخالطها رياء لغيرك، اللهم فاقبلني على ما كـان مني ، واعف عما تقدم من عملي ، وأقلني من عثرتي وارحمني ومن حضرني ، وتفضل علينا بجودك أجمعين يا أرحم الراحمين . لك ألقيت معاقد الآثام من عنقي ، و إليك أنبت بجميع جوارحي ،صادقاً بذلك قلبي، فالويل لي إن لم تقبلني ؛ ثم غُلب فسقط مغشباً عليه ، فحمل من بين القوم صريعاً يبكون عليه ويدعون له ».

وكان صالح كثيراً ما يذكره في مجلسه يـدعو الله له ويقول : بأبي قتيل القرآن ، بأبي قتيل المواعظ والأحزان ؛ فرآه رجل في منامه فقال : ما صنعت ؟ قال : عمَّتني بركة مجلس صالح ، فدخلت في سعة رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء .

سبحان الرحيم الرحمن لا رب غيره ولا خير إلا خيره . اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ، أصلـح لنا شأننا كله واغفر لنا ذنبنا كله ، برحمتـك نستغيث ومن عذابـك نستجير ، لك الأمر كله وبيـدك الخير كله ، إنك على كل شيء قدير .

أدنى أهل النار عذاباً

أعاذنا الله وإياكم من النار ؛ ذلك ما دعا بـه الإمام العابد الثقة الزاهد فضيل ابـن عياض التميمـي المتوفي سنـة ١٧٨ في ختـام كلمات لبعض مـن كان يعظهـم ويذكرهم الموت واليوم الآخر . قـال رحمه الله : «لا تجعل الرجال أوصياءك ، كيف تلومهم أن يضيّعـوا وصيتك وأنت قد ضيعتهـا في حياتك ، وأنت بعـد هذا تصير إلى بيت الوحشة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، ويكون زائرك فيها منكراً ونكيراً ، وقبرك روضةً من رياض الجنـة ، أو حفرة من حفر النار ، ثم بكـى الفضيل وقال : أعاذنا الله وإياكم من النار » . وحُقَّ للفضيل رحمه الله أن يدعو الله بأن يعيذه ومن كان يعظهم مـن النار ؛ فلكم تعوّذ رسول الله ﷺ وأمـر بالتعوذ منها لشـديد هولها وما فيها من النكال .

والمؤمن الحريص على دينه ، الصادق في طلب النجاة من عذابها يوم الدين ، يسلك مع التعوذ بلسانه ،مسلك الأصفيـاء أهل الصدق مع الله ، فيبتعد عن كل ما هو من طريقها بسبب .

من يا تـرى ، يكون له قلب ، ويتـدبَّر ولو القليل مـن أخبارها ، ثم يلهـو مع اللاهين ، ويتمرّغ في حمأة الغفلة والغافلين ؟؟ قال الإمام الترمذي : حدثنا عبدالله ابن عبدالرحمن قـال : أخبرنا عاصم بن يوسـف قال : حدثنا قُطْبَة بن عبـدالعزيز عن الأعمـش عن شِمْرِ بـن عطيةَ عن شهـرِ بن حـوشَب عن أم الـدرداء عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « يُلقى على أهـل النار الجوع ، فيعدل ماهم فيه من العذاب ، فيستغيثون ، فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، فيستغيثـون بالطعـام ، فيغاثـون بطعام ذي غُصَّـة ، فيـذكرون أنهم كـانوا يجيـزون الغَصَص في الدنيا بالشراب، فيستغيثون بالشراب، فيرفع إليهم الحميم، بكلاليب الحديد ، فإذا دنت مـن وجوههم ، شوَت وجوههم ، فـإذا دخلت بطونهم قطَّعت

ما في بطونهم ، فيقولون : ادعوا خزنة جهنم ، فيقولون : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُم رُسُلُكُم بالبيِّناتِ قالوا بَلى قالوا فادْعوا وَما دُعاءُ الكافِرِينَ إلاّ في ضَلالٍ ﴾ قال : فيقولون : ادعوا مالكاً ، فيقولون : ﴿ يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا ربُكَ ﴾ قال : فيجيبهم : ﴿إنَّكُم ماكِثونَ ﴾ قال الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألفَ عام، قال : فيقولون : ادعوا ربكم ، فلا أحد خير من ربكم ، فيقولون : ﴿ ربَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنا وكُنّا قوماً ضالّينَ . ربّنا أَخْرِجْنا مِنْها فإنْ عُدْنا فإنّا ظالمون﴾ قال : فيجيبهم ﴿ اخْسَئوا فيهَا ولا تُكلِّمون ﴾ فعند ذلك يئسوا من كل خير ، وعند ذلك يأخذون في الزفير والحسرة والويل ». قال عبدالله بن عبدالرحمن ـ يعني الدارميَّ ـ والناس لا يرفعون هذا الحديث ، أي بل يروونه موقوفاً على أبي الدرداء قال أبو عيسى : إنما نعرف هذا الحديث عن الأعمش عن شِمْر بن عطية ، عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله : وليس بمرفوع . وقُطبة بن عبدالعزيز هو ثقة عند أهل الحديث .

هذا : والحديث وإن كان موقوفاً لكنه في حكم المرفوع ـ كما يقول صاحب تحفة الأحوذي ـ فإن أمثال ذلك ليس مما يمكن أن يقال من قبل الرأي . وإذا كان الأمر كذلك ، فلا شك في أن الفوز المبين ، إنما يكون في الزحزحة عن النار ودخول الجنة، ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ .

والحديث المذكور ، يذكرنا بما جاء في شأن أهل الجنة وما يتفضل الله به عليهم من العطاء ، وأهل النار وخلودهم فيها ،وما يسقون من الحميم الذي يقطِّع أمعاءهم وذلك في صورة تعين على التمييز بين الحالين ، نجدها في الآية الخامسة عشرة من سورة محمد ذلكم قوله تعالى : ﴿ مَثَل الجنة التي وُعِدَ المُتقونَ فيها أنهارٌ من ماء غير آسنٍ وأنهارٌ من لبن لم يتغيّر طَعْمُه وأنهار من خمر لذةٍ للشاربين وأنهار من عسلٍ مصفّى ولهم فيها من كل الثمراتِ ومغفرةٌ من ربهم كمن هو خالد في النار وسُقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم ﴾ .

ولقد كـان من رحمتـه ﷺ بأمته ، أنـه لم يقتصر على بيان مـا يكون عليـه أهل الجحيم عمـوماً ـ وهـم يصلون العذاب الأليـم ويصطرخون ، ولا يقضـى عليهم فيموتوا ـ ولكنه كشف عن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة ، ليذهب الذهن كل مذهـب في أشدهم عذابـاً والمعاذ الله ؛ وذلك إبعـاداً للناس عن كل مـا يؤدي إلى الغفلة عن يوم الغاشية ، وشحذاً للهمم في طـاعة الله ومرضاته والجهاد في سبيله ، لأن الأمور آخـذ بعضها برقـاب بعض، والتكليف في الـدنيا وارتبـاطه با لمسـؤولية والجزاء يوم القيـامة ــ كما أشرت غير مرة ــ واضح كـل الوضـوح . أخرج الإمـام البخـاري في الجامع الصحيـح بسنده عـن النعمان بـن بشير رضي الله عنه قـال : سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عـذاباً يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجـل بالقمقم » ورواه مسلم دون ذكر « كما يغلي المرجل بـالقمقم » ورواه الترمذي بـأخصر من هذا أيضـا . وللبخاري في رواية أخرى « إن أهون أهل النـار عذاباً يوم القيامة لرجل تـوضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه » . وروى مسلم بسنـده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : « إن أدنى أهـل النار عـذاباً ينتعـل بنعلين من نـار ، يغلي دماغه من حرارة نعليه ».

فإذا كان هذا حال الأدنى ، فما بالك بما هـو أشد وأشد ؟عافانا الله جميعاً من هول جهنـم ، وسلك بنا ــ وهو الرحيـم المنان ــ سبيل من ينشر عليهـم رحمته في ذلك اليـوم العصيب ، ﴿ ويدخلهـم الجنة عـرّفها لهم ﴾ . قـال الإمام مسلـم : وحدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة قال : حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال : قـال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذابـاً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه ، كما يغلي المِرْجَلُ ، ما يرى أن أحداً أشدَّ منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً » .

والحق أن هذا البيان المفصّل من النبي ﷺ لما جاء في كتاب الله عز وجل ، فيه مزيد من التبصير ، لمن أراد التبصُّرَ وصدقَ الوجهة في طلب النجاة من عذاب الله

يوم القارعة ؛ لأن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ ، وأبواب الجنة مفتّحة لطالبيها بصدق وعزيمة وإخلاص لله عز وجل ، في القول والعمل .

هذا: ولم يدع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، أن يبيّن صور أخذ النار لأهلها وقانا الله شرها . أخرج مسلم بسنده عن قتادة قوله : سمعت أبا نَضْرة يحدث عن سَمُرة - يعني ابنَ جُندب - أنه سمع نبي الله ﷺ يقول : « إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى حُجْزته ومنهم من تأخذه إلى عنقه » . وأخرج من رواية سمرة بن جندب رضي الله عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال : «منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقُوته » ثم قال الإمام مسلم : حدثناه محمد بن المثنى ومحمد بن بشار قالا : حدثنا رَوْحٌ قال : حدثنا سعيد - بهذا الإسناد - وجعل مكان حُجزته - حِقْويه - .

الحُجزة : معقِد الإزار والسراويل . والترقُوة : العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق . (حِقوَيه) بفتح الحاء وكسرها : هما معقد الإزار ، والمراد هنا ما يحاذي ذلك الموضع من جنبيه .

ومما يجدر ذكره أن المؤمن إزاء ذلك كله ، لا ييأس من رحمة الله تبارك وتعالى ، بل يعمل الصالحات ويجدُّ في طاعة الله الكريم سبحانه ،والجهاد في سبيله ، ويتخذ من الترغيب في الجنة وما فيها مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والترهيب من النار وما يلقى أهلها من عذاب السموم ، وما يطعمون من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، وما يسقون من ماء حميم يقطع أمعاءهم... يتخذ من ذلك كله حافزاً إلى الارتفاع عن كل ما يقعد عن مسلك أهل الإنابة الموفقين، مهما كلّف ذلك من جهد واحتمال للمكاره ؛ والله تبارك وتعالى لايضيع أجر من أحسن عملاً ، ومن لطفه وإحسانه أن جعل العاقبة للمتقين .

عظيم من أبناء الآخرة

قال الله جل ثناؤه : **﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفّى كل نفس ما عملتْ وهـم لا يظلمون ﴾** اللهـم لطفك ورحمتـك بنا في هـذا اليوم العصيـب ، ونسألك ـ وأنت الكـريم المنان ـ أن تؤتي أنفسنا تقواها في هـذه الدار ، وأن تزكيها أنت خير من زكاها، كي تكون يوم الفصل في ذلك المشهد الزاخر بترقب المصير ، على الحق بين يديك ، وأنت أحكم الحاكمين .

ولكم كان أولو النهى مستبصريـن صلحاء حكماء ، حين صحبوا في حياتهم حقيقة ما يحفل بـه ذلك اليوم من المشاهد العظام ، واتخذوا مـن تلك الحقيقة نوراً يضيء لهم السبيل ، فـلا يحول دونهم ، ودون العمل لـلآخرة ، رغـب أو رهب مـن أمور الـدنيا ، ولا يقعدهم عـن اللحاق بركـب أهل الاستقامة الصـادقين ، تزيين هوىً أو نفثـات شيطان !! أجل : كم كـان هؤلاء البررة صلحاء حكماء ، عنـدما آثـروا ما يبقـى عل مـا يفنى ، وحـرصـوا على اقتحام العقبـات مهما غلا الثمـن ، وأوجب من تضحيات . وتـراهم ـ وقد ذاقوا حلاوة السلـوك إلى مرضاة الله والفوز بدار النعيم ـ لايعدلون بلذة صبرهم على اللأواء ، وجهاد النفس والعدو ، لذة من لذائذ الدار الفانية التي يعمي حبها قلوب الغافلين .

أرأيت إلى رسول الله ﷺ كيف كـان يؤكد بشارة آل ياسر بالجنـة التي هم بها مؤمنون ، عندمـا كان يمر بهم وبنو مخزوم ينزلون بهم شـديد العذاب !! روى ابن إسحاق وغيره « أن بني مخزوم كـانوا يخرجون بعمار بن ياسر ، وبـأبيه وأمه رضي الله عنهم إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضـاء مكة ، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول : صبراً آل ياسر ، موعدكم الجنة ؛ فأما أمه : فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام ». ألا إن دار الخلود الجنة التي فيها من النعيم المقيم ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، موعد هؤلاء الذين صبروا للفتنة القاتلة والبلاء المدمّر ، فلم يغيروا ولم يبدلوا ..

إنه لمشهد بالغ الأنس حقاً ؛ مشهدهم وقد أحلّهم الله دار الكرامة من فضله وقيل لهم : ﴿**سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾ .

هذا :ومع ما جاء في الترخيص لمن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، عندما يقابل بالأذى الذي يضعف من احتماله وذلك قوله تعالى : ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ نجد العلماء ـ وقد عقلوا عن الله ما تشرق به مشاهد أولئك المكرّمين من العطاء غير المحدود في جنة الخلد يوم القيامة ـ يرون جواز أن يستقتل المؤمن في سبيل الله عندما يواجَه بالفتنة ومرارة الأذى لصده عن سبيل الله ... قال الحافظ ابن كثير يرحمه الله : «ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يواليَ المكرَه على الكفر إبقاءً لمُهجَتِه ـ يعني ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان ــ ويجوز له أن يستقتِل كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ،وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه أن يشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول: أحَد أحَد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة أغيظَ لكم منها لقلتها ، رضي الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن خلّاد بن زيد الأنصاري لما قال مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم . فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول: لا أسمع : فلم يزل يقطعه إرْباً إرْباً وهو ثابت على ذلك» .

ولقد عمل هذا الثبات الصابر عمله في مواجهة التحديات، على ساحة الصراع بين الحق الذي يحمله المسلمون ، وبين الباطل الذي يتمرغ في حمأته أهل الضلال الكافرون ؛ فلا مساومة ولا مداهنة ، وما عند الله خير وأبقى ، والموعد الجنة دار الخلود . ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبدالله بن حُذافة السهمي أحد الصحابة رضي الله عنه : «أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصّر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي ، فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت : فقال: إذاً أقتلَك . قال : أنت وذاك ! فأمر به فصُلب ، وأمر الرماة ، فرموه قريباً من يديه ورجليه ـ وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ــ ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدِر ـ

وفي رواية ببقرة من نحاس ـ فأحميت ، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح ، وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يُلقى فيها ، فرُفع في البَكَرة ليُلقى فيها ، فبكى ، فطمع فيه ودعاه ، فقال له : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة ، تلقى في هذه القدر الساعة في الله ، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله . » وفي بعض الروايات (أنه سجنه ومنعه من الطعام والشراب أياماً ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير ، فلم يقربه، ثم استدعاه. فقال: ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حلّ لي ، ولكن لم أكن لأشْمِتك فيَّ ، فقال له الملك : فقبّل رأسي وأنا أطلقك ،فقال : وتطلق معي جميع أسارى المسلمين ؟ فقال : نعم ، فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حقٌّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبدالله بن حذافة ، وأنا أبدأ ، فقام فقبّل رأسه) وهذه الرواية عند ابن عساكر أخرجها من طريق البيهقي ، وكذا الحافظ ابن حجر في كتابه «الإصابة» ولها شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موصولاً عند ابن عساكر ، وابن الأثير في كتابه « أسد الغابة ».

وفي « سير أعلام النبلاء » للذهبي : (الوليد بن مسلم قال : حدثنا أبو عمروٍ ومالك بن أنس أن أهل قيسارية أسروا ابن حذافة ، فأمر به ملكهم، فجُرّب بأشياء صبر عليها ، ثم جعلوا له في بيت معه الخمر ولحم الخنزير ثلاثاً لا يأكل ، فاطّلعوا عليه ، فقالوا للملك : قد انثنى عنقه ، فإن أخرجته وإلا مات، فأخرجه وقال : ما منعك أن تأكل وتشرب ؟ قال : أما إن الضرورة كانت قد أحلّتها لي، ولكن كرهت أن أشمتك بالإسلام . قال : فقبِّل رأسي ، وأخلّي لك مائة أسير قال : أمّا هذا : فنعم ، فقبّل رأسه ، فخلّى له مائة ، وخلّ سبيله).

لقد كانت جنة الخلد وما يشرق على أهلها من موعود القرآن وحديث النبي عليه الصلاة والسلام حيث الروضات التي فيها يحبرون . ولهم فيها ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم ، وإنعام الله عليهم برضوانه الأكبر ؛ لقد كانت الجنة وما

فيهـا من مـوعود الصـدق الـذي هو حـق اليقين نُصـب عيني ـ هذا الصحـابي الجليل— ناهيك عـن حرصه على عزة الإسلام والمسلم والبـذل الصادق في سبيل الله مهما كانت العواقب .

هذا : وقد كـان موقف ملك الـروم الذي تأثر التـأثر كله بصنيع ابـن حذافة مدعاة لتساؤل العلماء عن الحقيقة وراء هذا الموقف، وهل هي الإيمان؟ قال الإمام الذهبي : (ولعل هـذا الملك قد أسلم سِراً ، ويدل على ذلك مبـالغته في إكرام ابن حذافة . وكذا القـول في هرقل إذ عرض على قومه الدخول في الـدين ، فلما خافهم قال : إنما كنت أختبر شدتكم في دينكم . فمن أسلـم في باطنه هكذا ، فيرجى له الخلاص من خلود النار ، إذ قد حصّل في باطنه إيماناً ما ، وإنما يخاف أن يكون قد خضع للإسلام وللرسول ، واعتقد أنهما حق ، مع كون أنه على دين صحيح ، فتراه معظِماً للدينيين إلى أن قال : فهذا لا ينفعه الإسلام حتى يتبرأ من الشرك).

مات المجاهد الصادق ابن حذافة في خلافة عثمان رضي الله عنهم أجمعين.

دعوى الجاهلية وجُثاء جهنم

ما من مكلَّف يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ـ وهو مؤمن ـ إلا ويجد في هدي النبي ﷺ ـ وهو المؤتمن على بيان الكتاب العزيز ـ طريقاً إلى الفوز بالجنة والنجاة من النار ، وتلك حقيقة لا ينكرها إلا من سفه نفسه ، وأسلم قياده الفكري والعملي للهوى والشيطان ، وأياً ما كانت التعلُّلات المنتحلة ، والمعاذير التي لا يقوم لها دليل .. فإن النصوص المتعلقة بعاقبة أهل الضلالة والصد عن سبيل الله؛ من نار تلظى وعذاب أليم ، والنصوص المتعلقة بعاقبة أهل الهداية والتقوى والجهاد في سبيل الله ؛ من جنة عرضها السماوات والأرض أعدّها الله لعباده المنيبين المتقين .. كل أولئك مما يشهد للحقيقة المومى إليها ، شهادةً مشرقةً مبينة تستعلي على كل الدعاوى الفارغة والأباطيل .

هذا واحد من الأمثلة التي تكاد تعز على الحصر في هذا الجانب، من هديه عليه الصلاة والسلام ؛ إنه مشهد تنخلع له القلوب من مشاهد يوم القيامة.. مشهد نفر من الناس يدعون بدعوى الجاهلية ، فيسهمون في نقض عرى الإسلام بما يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وقد بلغ من وعيد النبي ﷺ على هذه الضلالة المفسدة أن أصحابها يكونون يوم الدين من جثي جهنم والعياذ بالله ؛ ذلك لأن الجاهلية تلك : شرك بالله وعدوان على الفطرة والعقل ، وتقليد أعمى للآباء والأجداد واتباع للهوى ، ومظاهرة للباطل على الحق ، ناهيك عما تحمل من جناية على إنسانية الإنسان !!

جاء في حديث طويل أخرجه الترمذي عن زيد بن سلّام أن أبا سلّام حدثه أن الحارث الأشعري رضي الله عنه حدثه أن النبي ﷺ قال في هذا الحديث : «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع ، والطاعة ، والجهاد ،والهجرة ، والجماعة؛ فإنه من فارق الجماعة قِيدَ شبر ، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، إلا أن يرجع ، ومن

ادّعى دعوى الجاهلية ــ وفي رواية من دعا دعوة الجاهلية ـ فإنـه من جُثى جهنم ؛ فقـال رجل : يـا رسول الله ، وإن صلى وصـام ؟ قال : وإن صلى وصـام ، فادعـوا بـدعـوى الله الذي سماكـم المسلمين المؤمنين عبـاد الله » قـال أبو عيسـى : هـذا حديـث حسن صحيـح غريب. قـال محمد بـن اسماعيل : الحارث الأشعـري له صحبة ولـه غير هذا الحديـث . ثم قال الترمـذي : حدثنا محمـد بن بشـار قال: حدثنا أبو داود الطيالسيُّ قال : حدثنا أبانُ بن يزيدَ عن يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلاّم عن أبي سلاّم عن الحارث الأشعري عن النبي ﷺ نحوه بمعناه . ثم قال: هذا حديـث حسن صحيح غريـب . وأبو سلاّم الحبشيُّ اسمه ممطـورٌ ، وقد رواه عليّ بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير .

قيدَ شِبرٍ : أي قدَر شِبرٍ . الرِّبقة في الأصـل كما يقول العلماء : حبلٌ فيه عرىً كثيرة تشد به الغنم ، الواحدة منها رِبقةٌ التي هي العروة . فاستعار للإسلام ربقة ، يعني بها العروة يشد بها المسلم نفسه من عُـرى الإسلام . جُثى : جمع جُثوة بالضم وهي الشيء المجموع من جماعات جهنم . قال ابن الأثير : هذا فيمن رواها مخففة يعني «جُثى » ومن رواهـا « جُثيّ » مشدّدة ـ فإنه أراد الذيـن يجثون على الركب، واحدها : جاثٍ من قوله تعالى : ﴿حول جهنم جثياً﴾ وفي «لسان العرب». (وفي الحديث « فـلان من جُثى جهنـم » قال أبو عبيد : لـه معنيان : أحدهما : أنـه ممن يجثو على الركـب فيها ، والآخرُ : أنه مـن جماعات أهل جهنم على روايـة من روى جُثى بالتخفيف ، ومن رواه من جُثيّ جهنم بتشديد الياء ،فهو جمع الجاثي قال الله تعالى : ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جِثِياً ﴾.

وأنت ترى مع هذا البيان منه عليه الصـلاة والسلام عن مشهد أولئك الذين يدعون بدعوى الجاهلية، بكونهم من جُثى جهنم، أو من جُثيٍّ جهنم يوم القيامة.. ترى تلك الإشارة الواضحة إلى قوله تعالى في آخر آية من سورة الحج : ﴿ وجاهِدُوا في الله حَقَّ جِهـادِهِ هُو اجْتباكـم ومَا جَعَلَ عليكُـم فِي الدّيـن من حَرَجٍ مِلَّـةَ أبيكُم إبراهيـمَ هُوَ سمّاكُـم المسلمين من قبـلُ وفي هذا ليكُـونَ الرّسُـول شَهِيداً عَلَيْكُـم

وتكُونُوا شُهَداء على النّاس فأَقيموا الصّلاةَ وآتُوا الزّكاةَ واعْتَصِموا بالله هُوَ مَوْلاكُم فَنِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصير ﴾ .

والحديث أخرجه أحمد في المسند وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ، والحاكم في المستدرك وقال : على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في «التلخيص» وجاء النص عند الإمام أحمد في إحدى الروايات بلفظ « من جثاء جهنم » بالمد ؛ ذلكم ما روى بسنده عن يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلاّم عن جده ممطور عن الحارث الأشعري ، حيث جاء هناك : «... وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله ، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثاء جهنم قالوا : يارسول الله وإن صام وإن صلّى وزعم أنه مسلم ؟ قال : وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم ؛ فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل » . وله من رواية أخرى «.. ومن دعا دعوى الجاهلية فهو جُثاء جهنم . قال رجل : يارسول الله وإن صام وصلّى ؟ قال : نعم وإن صام وصلّى ، ولكن تسمّوا باسم الله الذي سمّاكم عباد الله المسلمين المؤمنين ». الجَثاء كسحاب : بفتح الجيم : الشخص ويضم ، ويأتي بمعنى الجزاء والقدر والزهاء يقال : جُثاء كذا أي زهاؤهم .

وغير خاف ما للصلة البيانية بين حديث النبي ﷺ ـ وهو يتوعد من يدعو بدعوى الجاهلية الناقضة لعرى الإسلام ـ وبين قوله تعالى في الآية السابعة والستين من سورة مريم : ﴿ فوربِّك لنَحشُرنَّهم والشَّياطينَ ثُمَّ لنُحضِرنّهمُ حَوْلَ جَهَنّم جِثِيّاً﴾ والسياق يدل على أن هذا الوعيد الشديد جاء لأولئك الذين ينكرون البعث يوم القيامة إذ سبقت بقوله جل شأنه : ﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً . أولا يذْكُر الإنْسانُ أنا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ ولم يَكُ شيئاً ﴾ فالله تبارك وتعالى يقول لنبيه محمد ﷺ : فوربك يا محمد لنحشرنّ هؤلاء القائلين: أئذا متنا لسوف نخرج: أحياء من قبورهم مقرّنين بأوليائهم من الشياطين ، ثم لنحضرنَّهم حول

جهنم جثياً ـ و قرئت كلمة « جثياً » بضم الجيم وكسرها ...

وقد روى الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المعنى: ولنحضرنهم حول جهنم قُعوداً ــ جمع قاعد ـ أو أنهم يكونون جماعات جماعات ، أو جثياً على الركب ــ كما روي عن قتادة ـ ؛وكل هذه الصور توحي بهول ذلك المشهد أعاذنا الله منه . ومن الجائز ـ كما روي عن مقاتل ـ أن يكون معنى « حول جهنم » أي في جهنم ، وذلك أن حول الشيء يجوز أن يكون داخله تقول : جلس القوم حول البيت ؛ إذا جلسوا داخله مطيفين به ، وقيل : يجثون حولها قبل أن يدخلوها . ولقد يشتد الكرب أكثر وأكثر على أولئك الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم ، فيبصرهم الناس في ذلك اليوم ـ وقد بركوا على الركب من شدة الخزي والهول حول جهنم أيضاً ـ نقرأ ذلك في آية أخرى من سورة مريم ـ يبدو الحديث الذي نسعد بالرحلة معه ، وثيق الصلة البيانية بها كذلك ـ ألا وهي قوله تعالى : **﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثيّاً ﴾** .

قال ابن زيد : الجُثِيُّ : شر الجلوس ، لا يجلس الرجل جاثياً إلا عند كرب ينزل به . وقد ورد عن قتادة أيضاً « إن الناس وردوا جهنم وهي سوداء مظلمة ، فأما المؤمنون : فأضاءت لهم حسناتهم فأُنجوا منها ، وأما الكفار : فأوبقتهم أعمالهم واحتبسوا بذنوبهم» ويا بؤس الظالمين في ذلك اليوم العصيب ..

التهاب الشملة... والمسؤولية والجزاء

في رحلتنا مع زمرة طيبة من مشاهد القيامة ـ كما جاءت الأخبار عنها في السنة المطهرة المبينة للكتاب العزيز وما في تلك المشاهد من تحقق وعد الله عباده الصالحين المستقيمين على الصراط السوي ، وما فيها مما أوعد به أولئك الذين استعبدتهم الضلالة فعموا وصمّوا وكانوا من أهل السعير ـ.. في هذه الرحلة المباركة ، نقع على العديد من المواطن التي تحمل إيذان النبي ﷺ ـ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ـ بما تكون عليه صورة من يظلمون أنفسهم بالمخالفة عن أمر الله وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام ، ويشترون الحياة الدنيا بالآخرة ، مولّين ظهورهم لحقيقة ما يؤذن به قول الله تعالى تنبيهاً للأمة وتحذيراً لها من الغفلة : ﴿ **قُلْ متاعُ الدُّنيا قليلٌ والآخرةُ خَيْرٌ لِمَن اتَّقى وَلاَ تُظْلَمونَ فتيلاً** ﴾ والآخرةَ هنا هي الجنة ؛ إذ أخبر عما هو واقع بهم من العذاب جزاء ما اقترفوا من الإثم ، ويوم القيامة ينكشف الغطاء ؛ ويزداد الأمر اتضاحاً وجلاءً .

قال الإمام البخاري في كتاب المغازي من « الجامع الصحيح » : «حدثني عبدالله بن محمد قال : حدثنا معاوية بن عمرو قال : حدثنا أبو إسحاق عن مالك ابن أنس قال : حدثني ثورٌ قال : حدثني سالم مولى ابن مطيع أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : «افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة ، إنما غنمنا البقر والإبل والمتاع والحوائط ، ثم انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القُرى ومعه عبدٌ له يقال له : مِدْعم، أهداه له أحد بني الضِّباب . فبينما هو يحطُّ رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد ، فقال الناس : هنيئاً له الشهادة . فقال رسول الله ﷺ : بلى والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من الغنائم التي لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه ناراً . فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراك أو شراكين فقال : هذا شيء كنت أصبته ، فقال رسول الله ﷺ : شِراك

أو شِراكان من نار » .

الحوائط : البساتين، جمع حائط . سهم عائر : لا يُدرى من رمى به وقيل : هو الحائد عن قصده . أما الشراك ـ بكسر الشين ـ : فهو سَيْرُ النعل على ظهر القدم ، والسَّيْر يُقَدُّ عادة من الجلد . والشملة: كساء يتغطى به ويتلفّف فيه .

والملاحظ أن القوم قد جزموا بأن الرجل شهيد محكوم له بالجنة أول وهلة ، فزجرهم النبي ﷺ رداً لحكمهم هذا ، قائلاً : « بلى والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من الغنائم التي لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً » ذلك بأن أخذ هذا الثوب لنفسه قبل أن تقسم المغانم هو من الغلول ؛والغلول حرام منهي عنه . قال أبو عبيد : الغُلول هو الخيانة في الغنيمة خاصة ، وقال غيره: هو الخيانة في كل شيء . ويقال منه : غَلَّ يَغُلُّ . وقال ابن قتيبة : سمي الغُلول بذلك لأن آخِذَه يغلُّه في متاعه أي يخفيه فيه ، ونقل الإمام النووي رحمه الله الإجماع على أنه من الكبائر . وقال تعالى .. ﴿ وما كان لنبي أن يغّل ومن يغلُل يأت بما غلَّ يوم القيامة ﴾.

واشتعال الشملة على مِدْعم ناراً .. يحتمل ــ كما قال الحافظ ـ أن يكون ذلك حقيقة بأن تصير الشملة نفسها ناراً فيعذبَ بها ، ويحتمل أن يكون المراد أنها سبب لعذاب النار ، وكذا القول في معنى قوله ﷺ : « شراك أو شراكان من نار » . إذ أن النبي ﷺ نبَّه على المعاقبة عليهما ، وقد تكون المعاقبة بهما نفسيهما ، فيعذب بهما وهما من نار ، وقد يكون المراد أنهما سبب لعذاب النار ؛ أعاذنا الله من حرها ولفحها بمنه وكرمه سبحانه .

ولا بد من الإشارة هنا إلى ما حكى الدارقطني عن موسى بن هارون أنه قال: وهِمَ ثور في هذا الحديث لأن أبا هريرة لم يخرج مع النبي ﷺ إلى خيبر ،لكنه قدم بعد خروجهم ، قال أبو مسعود : ويؤيده حديث عنبة بن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أتيت النبي ﷺ بخيبر بعدما افتتحوها » قال : ولكن لا

يشك أحد أن أباهريرة حضر قسمة الغنائم . فالغرض من الحديث قصة مِدعم في غلول الشملة ، وأن ذلك تسبب في أن تشتعل عليـه ناراً . قال الحافظ ابن حجر : قلت : وكأن محمد بن إسحاق صاحب المغازي استشعر بوهْم ثور بن زيد في هذه اللفظة ، فـروى الحديث عنـه بدونها . أخرجـه ابن حبان والحاكـم وابن منـده من طريقـه بلفظ « انصرفنـا مع رسـول الله ﷺ إلى وادي القرى » وروايـة أبي اسحاق الفَزاري التي في هذا الباب تسلم من هذا الاعتراض ؛ بأن يحمل قوله: « افتتحنا » أي المسلمون . قال رحمه الله: وقـد تقدم نظير ذلك قريباً . وروى البيهقـي في كتابه «دلائل النبوة » من وجه آخر عن أبي هريـرة قال : «خرجنا مع النبي ﷺ من خيبر إلى وادي القرى » فلعـل هذا أصـل الحديث . وحـديث قـدوم أبي هريـرة المدينة والنبي ﷺ بخيبر ، أخرجه أحمد وابن خزيمة والحاكم من طريق خُثَيْم بن عراك بن مـالك عـن أبيه عـن أبي هـريرة قـال : « قـدمت المدينـة والنبي ﷺ بخيبر وقـد استخلف سباع بـن عرفطة ، فذكر الحديـث وفيه : « فزودنا شيئـاً حتى أتينا خيبر وقد افتتحها النبي ﷺ ، فكلّم المسلمين فأشركونا في سهامهم».

هذا : وكان لابد للحافظ من الجمع بين هـذا ـ أعني القسم لأبي هريرة ومن معه من غنائم خيبر ـ وبين الحصر في حديث أبي موسى الذي قبله عند البخاري؛ وهو قوله رضي الله عنه : « قدمنا على النبـي ﷺ فقسم لنا ولم يقسم لأحد لم يشهد غيرنـا » وكان الجمـع بين الحديثين بأن مـوسـى أراد أنه عليـه الصلاة والسـلام لم يسهم لأحـد لم يشهد الوقعة مـن غير استرضاء أحد من الغـانمين: إلا لأصحاب السفينة التي قدم فيها أبو موسى ، ومن معـه من الحبشة مع جعفر بن أبي طالـب، وأما أبوهريرة وأصحابه : فلم يعطهم إلا عن طيب خواطر المسلمين والله أعلم .

وفي عود على بدء في ظـل الاعتبار بذلك المشهـد المروّع ، مشهدِ الشملة ، أو العباءة ـ كما جاء في بعض الروايات ـ التي تلتهب على صاحبها الذي غلّها ناراً في الدنيـا، ويوم يقوم الحساب: ننظـر في روايات أخر للحـديث الذي ندنـدن حول معناه ودلالتـه ؛ فقد روى الإمام مسلـم بسنده عـن أبي هريرة رضي الله عنـه قال:

«خرجنـا مع النبي ﷺ إلى خيبر ففتح الله علينـا ، فلم نغنم ذهباً ولا ورِقـاً ، غنمنا المتاع والطعام والثياب ، ثم انطلقنا إلى الوادي ، ومع رسول الله ﷺ عبدٌ له وهبه له رجل من جُذامٍ يُدعـى رفاعة بنَ زيد من بني الضبيب ؛ فلما نـزلنا الواديَ قام عبد رسول الله ﷺ يحِلُّ رحله ، فرمـي بسهم كان فيه حتفه . فقلنا : هنيئـاً له الشهادةُ يا رسول الله ! قال رسول الله ﷺ : كلا والذي نفـس محمد بيده ، إن الشملة لتلتهب عليه ناراً ، أخـذها من الغنائم يـوم خيبرَ لم تصبها المقاسم ، قـال : ففزع الناس ، فجاء رجل بشراك أو شراكين فقـال : يا رسول الله أصبت يـوم خيبر ، فقال رسول الله ﷺ: شراك من نار أو شراكان من نار» .

ويبدو أن الرجل المشار إليه هنا : هـو «مِدْعم» المصرح به في رواية البخاري، وهو كذلك في الموطأ عند مالك رحمه الله .

و الحق أن مما يخيـف المؤمن ويذكـره وجوب الثبـات على الصراط السويِّ في حيطة وحذر بـالغين : ذلك المشهد البارز ، يـوم القيامة بدلالتـه والذي أخبر عنه النبي ﷺ هنا في هذه الـدار وكانت الطريق إليه تعـدّي حدود الله في أمر الغنيمة، الأمر الذي يـؤكد ما يجب أن يكون في حسِّ المؤمن مـن الترابط بين العمل في دار الفناء والمسؤولية في دار الجزاء .

هو في النار...

في متابعة للرحلة مع بعض من نصوص السنة المطهرة ، في شأن تلكم المشاهد التي تعلن إعلانها يوم القيامة ، وتنذر من تسوّل لهم أنفسهم المخالفة عن أمر الله ورسوله بالفتنة في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة ، تحسن الإشارة إلى أن الرجل الذي أخبر النبي ﷺ بأن الشملة التي غلّها تلتهب عليه ناراً ـ ولذلك زجر من حكم له بالشهادة والشهيد له ما له من المكانة العظيمة عند الله ـ هو مدعم الذي جاء التصريح به في رواية الامام البخاري ،ولم تصرح به رواية مسلم ؛ إذ جاء عنده على لسان أبي هريرة « ثم انطلقنا إلى الوادي ومع رسول الله ﷺ عبد له وهبه له رجل من جذامٍ يدعى رفاعة بن زيد .. » الحديث ؛ فقد روى الإمام مالك في الموطأ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر ، فلم نغنم ذهباً ولا ورِقاً إلا الأموال والثياب والمتاع ـ ولعله أراد بالأموال هنا الحوائط كما جاء عند البخاري ـ فوجّه رسول الله ﷺ إلى وادي القُرى ، حتى إذا كنا بوادي القُرى ، بينما مِدْعمٌ يحُط رحل رسول الله ﷺ إذ جاءه سهم عائر . فأصابه فقتله. فقال الناس : هنيئاً له الجنة . فقال رسول الله ﷺ : كلاّ والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذ يوم خيبرَ من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتمل عليه ناراً . قال: فلما سمع الناس ذلك جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : شِراك أو شراكان من نار » . ورواه أبو داود .

على أن هنالك رواية عند الإمام البخاري جاءت بلفظ «كَركَرة أو كَركِرة» لرجل غلّ عباءة من المغانم أخذها من المغانم لم تصبها المقاسم . فتحت «باب الغلول » من كتاب الجهاد قال رحمه الله : حدثنا علي بن عبدالله قال: حدثنا سفيان عن عمرو عن سالم بن أبي الجعد عن عبدالله بن عمروٍ قال : « كان على ثَقَل النبي ﷺ رجل يقال له كَركِرة فمات ، فقال رسول الله ﷺ : هو في النار

فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءةً قد غلَّها » .

الثَقَل بثاء وقاف مفتوحتين : العيال وما يثقل حمله من الأمتعة . أما كَرْكَرة أو كركِرة : فقد ذكر الواقدي أنه كان أسود يمسك دابة رسول الله ﷺ في القتال . وروى أبو سعيد النيسابوري في كتابه « شرف المصطفى» أنه كان نوبياً أهداه له هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة فأعتقه . قال الحافظ رحمه الله : وفي الحديث تحريم قليل الغلول وكثيره . وقوله : « هو في النار » أي يعذب على معصية ، أو المراد هو في النار إن لم يعف الله عنه .

ونظراً لغلظ تحريم الغلول ، وأن ذلك يتنافى مع صدق النية للقتال في سبيل الله جاء البخاري في كتاب الجهاد من الجامع الصحيح بباب ترجمته : «باب الغلول وقول الله عز وجل: ﴿ومن يغلُل يأت بما غلّ يوم القيامة﴾». ثم أتى بحديث يدل على مشهد الفضيحة يوم القيامة على رؤوس الخلائق لهذا الإنسان الذي وقع في ذلك الإثم ، وكيف أن رسول الله لا يستجيب لاستغاثته ، لو استغاث به في تلك الساعة العصيبة لأنه بُلّغ وعصى ما بُلِّغه حيث زينت له نفسه أخذ ما أخذ ، رغبة في عرض زائل ، لا قيمة له أمام ثواب المجاهد الصادق في سبيل الله ، قال رحمه الله : حدثنا مسدّد قال : حدثنا يحيى عن أبي حيَّان قال : حدثني أبو زرعة قال : حدثني أبو هريرة رضي الله عنه قال : «قام فينا النبي ﷺ فذكر الغُلول فعظّمه وعظَّم أمره قال : لا ألفينّ أحدكم يوم القيامة على رقبته فرس له حَمحَمةٌ يقول : يارسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك . أو على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . أو على رقبته صامت فيقول : يارسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ، أو على رقبته رقاع تخفق فيقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك شيئاً قد أبلغتك ».

الصامت : الذهب والفضة ، وقيل : مالا روح فيه من أصناف المال .

سبحان الله كم يحمل هذا النص المبارك ، من التذكير واستثارة كوامن الإيمان بأن الدنيـا متاع زائل ، وأن ما عند الله خير وأبقى !! قال المهلـب : «هذا الحديث وعيد لمن أنفذه الله عليه من أهل المعاصي ، ويحتمل أن يكون الحمل المذكور لا بد منه ،عقـوبة لـه بذلك ، ليفتضـح على رؤوس الأشهاد . وأمـا بعد ذلـك : فإلى الله الأمر في تعذيبـه أو العفو عنه» . وقال غيره : «هـذا الحديث يفسر قوله عـز وجل ﴿يأت بما غلّ يوم القيامة ﴾».

وقد جاء عند الإمام مسلم ـ بمناسبـة الغلول ـ ما يكشف عن ارتباط الإيمان وكماله ، بـالاستقامـة على شرع الله وعدم تجاوز حـدوده سبحانـه ، وأنه لا يـدخل الجنة إلا المؤمنـون ؛ فقد روى بسنـده عن عبـدالله بن عبـاس رضي الله عنهما قال: حدثنـي عمر بـن الخطاب رضي الله عنـه قال : «لما كـان يوم خيبر أقبـل نفر مـن صحابة النبي ﷺ فقالوا : فلان شهيد ، فـلان شهيد ، حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد ، فقال رسول الله ﷺ : كلا إني رأيته في النار في بُرْدة غلّها أو عباءة، ثم قال رسول الله ﷺ : يـا ابن الخطاب اذهب فنـاد في الناس أنّه لا يدخـل الجنة إلا المؤمنون ، قال: فخرجت فناديت : ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون » .

قوله ﷺ : « إني رأيته في النار في بردة غلّها ـ أو عباءة ـ » أما البُردة بضم الباء: فكساء مخطط وهي الشملة والنمرة وجمعها بُـرَد بفتح الراء . وأما العباءة : فمعروفة ويقال فيها أيضاً : عباية بالياء ، قاله ابن السكّيت وغيره . وقوله ﷺ :« في بردة »: أي من أجلها وبسببها . وقد استنبط الإمام النووي من هذا الحديث وسابقه الذي أوردناه من قبـل : غلظ تحريم الغلول وأنه لا فـرق بين قليله وكثيره حتى الشراك ، وأن الغلول يمنع من إطلاق اسم الشهادة على من غلّ إذا قتل .

هذا : وتحت باب « تعظيم الغلول » من السنن أخرج أبو داود بسنده عن زيد ابن خالد الجهني « أن رجلاً من أصحـاب النبي ﷺ توفي يوم خيبر ، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال : صلـوا على صاحبكم ، فتغيرت وجوه الناس لـذلك ، فقال : إن

صاحبكم غلّ في سبيل الله ، ففتشْنا متاعه ، فوجدنا خرزاً من خرز يهود لا يساوي درهمين» . وأخرجه ابن ماجة في كتاب الجهاد ـ باب الغلول ـ من السنن من رواية زيد بن خالد الجهني أنه قال : «توفي رجل من أشجعَ بخيبر ، فقال النبي ﷺ : «صلوا على صاحبكم » فأنكر الناس ذلك وتغيرت وجوههم ، فلما رأى ذلك قال: إن صاحبكم غلّ في سبيل الله . قال زيد : فالتمسوا في متاعه فإذا خرزات من خرزات يهود ، ما تساوي درهمين ».

وصلى الله وسلم وبارك على الأسوة الحسنة معلّم الناس الخير الذي ترك الأمة على بيضاء نقية ليلُها كنهارها لا يزيغُ عنها إلا هالك وعلى آله وصحابته ومن اتبع سنته واهتدى بهديه المبارك الميمون .

من خير ما يزين سلوك المؤمن في علاقته بربه الرحمن الرحيم : أن يكون من أهل الذكرى والتذكر ـ فما يتذكر إلا من ينيب ـ بعيدَ القلب والعقل عن الغفلة وسبل الغافلين ، الغافلين الذين ذرأهم الله لجهنم وساءت مصيراً . ذلك بأنهم لم يستخدموا عقولهم وحواسَّهم في مرضاة الله تعالى ، بل وضعوها في طاعة الهوى والشيطان ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّم كثيراً من الجنِّ والإنْس، لَهُمْ قُلوبٌ لا يَفْقَهونَ بها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصرونَ بها وَلَهُم آذانٌ لا يَسْمعون بها أولئكَ كالأنْعامِ بَلْ هُمْ أَضلُّ أولئك هُم الغافِلون** ﴾ .

من هنا كان الوقوع في شرك الغفلة عنوان الإعراض عن الحق ، والركون إلى ما هو ملهاة وانصراف عن ذكر الله واليوم الآخر ، وذلك هو الخسران المبين .

ومن الواضح ـ كما تدل الأخبار الصحيحة الموثقة ــ أن الكثير ممن تحطِمهم أهوال القيامة ، ويفتضحون في مشاهدها على رؤوس الأشهاد ، يكونون من الغافلين الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وجعلوا من الركون إلى ما فيها من المتاع الزائل ، حائلاً بينهم وبين النظر إلى الآخرة بعين البصيرة ، والعملِ ليوم تشخص فيه الأبصار ﴿ **وتَرى المجْرمينَ يَومَئِذٍ مُقرَّنين في الأَصْفادِ . سرابيلُهم مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجوهَهُم النَّارُ** ﴾ .

وإذا كان الأمر كذلك : فالعمل ليوم الجمع الذي هو آتٍ لا محالة ــ أخذاً بالمنهج الأقوم الذي سلكه إمام المتقين سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام ، والسلف الصالح من بعدهم وحتى يوم الناس هذا ــ دليلُ التبصُّر الإيماني وحسنِ الأحدوثة ، ناهيك عن التصديق الجازم بما دلت عليه معالم الهداية في كتاب الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، حين كشفت بجلاء

ووضـوح لا مزيـد عليهما ،عن عـاقبة كـلٍ من أهـل الهداية والاستقـامة ، وأهـل الضلالة والانحراف، يـوم يجمع الله الخلائق ليوم لا ريب فيه ، وتوفى كـل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

فترى أولئك البررة الآخـذين أنفسهم بـذلك المنهـج المبارك ، يفرحـون أشد الفرح إذا وُفّقـوا إلى ما يقربهم إلى الله زلفى ، ويجعلهـم من أهل السعـادة في ذلك اليوم العصيب . ويحزنون أشدّ الحزن إذا فاتهم شيء من ذلك الخير ، لأن مطلوبهم أبداً أن تنـالهم رحمة الله ، ويفوزوا بمرضاتـه، فيزحزحـوا عن النار ، ويدخلـوا جنة الخلد التي وعد الـرحمن عباده بالغيب؛ ﴿إنه كان وعده مأتِيّاً ﴾. روي عن مالك ابن دينار «أنه كان يتقنع بعباءة ثم يقول : إلهَ مالِك : قد علمتَ ساكن الجنة من ساكـن النار ، فأيُ الـدارين دار مالـك ؟ وأيُ الرجلين مـالك ؟ ثم يبكـي. وكان يقول رحمه الله : لو استطعت أن لا أنام ، لم أنم ؛ مخافـة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعواناً لفرقتهم ينادون في منـار الدنيا كلها : يا أيها الناس النارَ النارَ . وقد أوردت بعـض ذلك عنـه في مناسبـة سابقـة . وكان يقـول : لو كـان لأحد أن يتمنى، لتمنيت أن يكون لي في الآخرة خص من قصب فأَروى من الماء وأنجوَ من النار».

ولم لا يكون الـربانيـون على هذه الشاكلـة ، والرسول ﷺ ــ وهو نعـم الأسوة الحسنة لـلأمة ــ كان يكثر أن يسـأل الله الجنة ، وأن يستعيذ بـه من النـار ، أخرج أبوداود في السنن بسنده عن أبي صالح رحمه الله عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ «أن رسول الله ﷺ قـال لرجل : كيـف تقول في الصـلاة ؟ قال : أتشهّد ثـم أقول: اللهم إني أسـألك الجنة وأعوذ بـك من النار . أمـا إني لا أحسن دندنتك ودنـدنة معاذ ، فقال رسول الله ﷺ : حول ذلك ندنـدن أنا ومعاذ » ورواه ابن ماجة بلفظ: أتشهد ثـم أسأل الله الجنـة ، وأعوذ به مـن النار . أما والله مـا أحسن دنـدنتك ولا دندنة معاذ: فقال : « حولها ندندن » . قال البوصيري في الزوائد : صحيح ورجاله ثقات. وقال الإمـام أحمد في المسند : حدثنا معـاوية بن عمرٍو قـال : حدثنا زائدة

عن الأعمش عن أبي صالح عن بعض أصحاب النبي ﷺ أنه قال : « قال النبي ﷺ لرجل : كيف تقول في الصلاة ؟ قال : أتشهد ثم أقول : اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ـ أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ . فقال النبي ﷺ : حولها ندندن ».

الدندنة : أن يتكلم الإنسان بكلام تسمع نغْمته ولا يفهم لخفائه . قال ابن الأثير في كتابه « النهاية في غريب الحديث » : (فيه أنه سأل رجلاً ما تدعو في صلاتك ؟ فقال : أدعو بكذا ، وأسأل ربي الجنة ، وأعوذ به من النار . فأما دندنتك ودندنة معاذ : فلا نحسنها ، فقال عليه الصلاة والسلام : «حولهما ندندن ». وروي: «عنهما ندندن » ثم قال : الدندنة أن يتكلم الرجل بالكلام تسمع نغْمته ولا يفهم، وهو أرفع من الهينمة قليلاً ، والضمير في حولهما للجنة والنار أي حولهما ندندن وفي طلبهما .. إلى أن قال : وأما «عنهما ندندن » فمعناه أن دندنتنا صادرة عنهما وكائنة بسببهما).

والأحاديث في دعائه ﷺ بهذا الدعاء وأمثاله وتعليم ذلك الصحابة رضي الله عنهم كثيرة وفيرة . وكل أولئك من رحمته ﷺ بأمته وتوجيهها وجهة العمل الصالح وحسن التضرع إلى الله ،طمعاً بالجنة واتقاءً للنار ، وطالما فصّل عليه الصلاة والسلام القول في الجنة ونعيمها ،والنار وأهوالها وأحوال أهلها . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقتهم فلفحتهم لفحة ، فلم تدع لحماً على عظم إلا ألقته على العرقوب » رواه الطبراني في «الأوسط» والبيهقي في كتاب « البعث والنشور » مرفوعاً . قال المنذري : ورواه غيرهما موقوفاً عليه وهو أصح .

وماذا أنت قائل بمشهد المجرمين وهم مقرنون في الأصفاد ، وبسيماهم التي يعرفون بها ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم فيؤخذُ بالنّواصي والأقْدام ﴾ أي بعلامات تظهر عليهم . قال الحسن وقتادة : يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون . قال

الحافظ ابن كثير : قلت: هذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء. وبعد التَعـرُّف عليهم تجمع الـزبانيـة ناصية المجـرم مع قدميـه ويلقونـه في النار كذلـك. وقال الأعمش عـن ابن عباس رضي الله عنهما : يؤخـذ بناصيته وقـدمه ، فيكسر كما يكسر الحطـب في التنـور . وعنـه وفي رواية أخـرى : يُجمـع بين رأسـه ورجليه ثم يقصف كما يقصف الحطب . رواه البيهقي . وروى عن الضحاك قوله : يجمع بين نـاصيته وقـدميه في سلسلة مـن وراء ظهره . ونرى عنـد السدي قـوله : يجمع بين ناصية الكافر وقدميه ، فتربط ناصيته بقدمه ويفتل ظهره .

اللهم إنا داعون بدعاء نبيك عليه الصلاة والسلام ؛ فنسألك الجنة ونعوذ بك من النار . لك العتبى حتى ترضى ،وأنت المحمود على كل حال .

نار لا تُطفأ.. وعذاب لا ينفد

من صفات المؤمن الذي يرجو الله واليوم الآخر : أنه يدعو الله رغباً ورهباً ، ولا يتوانى عن السباق في مضمار العمل الصالح ، والقيام بالطاعات وفعل الخيرات ، رجاء أن يكون مـن الناجين من عذاب الله يـوم القيامة ، الفائزيـن بجنته ورضاه . وفي الوقـت نفسه ، يتخذ من الترغيـب بما أعد الله لعباده الطـائعين المخبتين ، يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، من الخير العميم . ومن الترهيب مما توعّد به من ظلموا أنفسهـم ، وغرتهم الحيـاة الدنيـا ، وغرّهم بـالله الغرور ، مـن سوء العـاقبة والعذاب الغليظ .. يتخذ من ذلك كله عوناً ـ بعد الله ـ على نفسه الأمارة بالسوء ، فيدينها ويزكيها ، ويجعل اليوم الآخر نصب عينيه ،طامعاً برحمة الله ومغفرته ،خائفاً من عقابه الأليم .

وذلكم هو العقـل المبصر ؛لا العقل الذي تقوده الأهواء والشهـوات ؛ فالأمر عندمـا تأزف الآزفة لا يحتمل التسـويف . والأخبار عـن الذين يحكم عليهـم بأن يذوقوا العذاب الأليم : تضطرب لها القلوب وتقشعر من هول ما تنذربه الأبدان . أرأيت إلى مشهد أولئك الذين كفروا بآيات الله ؛ كيف يصليهم ربنا القادر القاهر نـار جهنـم ! وكيف أنـه كلما نضجـت جلـودهم بـدلـوا جلـوداً غيرها ليـذوقـوا العذاب؟! ﴿ **إنّ الذينَ كَفَرُوا بـآياتِنا سَوْف نُصْليهمْ ناراً كُلَّما نَضِجـتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلوداً غَيْرها ليذُوقوا العذابَ إنَّ الله كانَ عَزيزاً حكيماً** ﴾ إنه مشهد كشف رسول الله ﷺ عن بعض صوره المرعبة، التي تحفـز إلى أخذ النفس بالجد في طاعة الله تعالى ، وقطع مـا بينها وبين من ضَربت العماية قلـوبهم ، وانقلبوا على أعقابهم خاسرين ؛ قـال ابن مردويه : حدثنا محمـد بن إسحاق عن عمران قـال : حدثنا إبراهيم بـن محمد بن الحارث قال : حدثنا شيبـان بن فرّوخ قال : حدثنا نـافع أبو هرمـز قال : حدثنا نـافع عن ابن عمـر رضي الله عنهما قال : «تلا رجل عنـد عمر

هذه الآية ﴿**كلما نضجت جلودهم**﴾ الآية فقال: أعدها عليَّ ــ وثَمَّ كعب ـ فقال: يا أمير المؤمنين أنا عندي تفسير هذه الآية ، قرأتها قبل الإسلام ، قال : هاتها يا كعب، فإن جئت بها كما سمعتُ من رسول الله ﷺ صدّقناك ، وإلا لم ننظر إليها ، فقال : أني قرأتها قبل الإسلام : كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، في الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة ، فقال عمر : هكذا سمعت من رسول الله ﷺ) ورواه البيهقي بلفظ : « يا كعب أخبرني عن تفسيرها فإن صدَقت صدّقتُك، وإن كذبت رددت عليك ، فقال : إن جلد ابن آدم يحرق ويجدَّد في ساعة أو في يوم مقدار ستة آلاف مرة ، قال : صدقت» .

ويبدو ــ والله أعلم ـ أن العدد هنا لا مفهوم له والمراد به الكثرة ؛ فقد روى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري رحمه الله : «كلما أنضجتهم فأكلت لحومهم قيل لهم : عودوا فعادوا ». كما روى بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قرأ رجل عند عمر هذه الآية ﴿**كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ..**﴾ الآية فقال عمر: أعدها عليّ. فأعادها ، فقال معاذ بن جبل ؛ عندي تفسيرها : تُبَدل في ساعة مائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعت رسول الله ﷺ » .

وإنا مع سؤالنا المولى لطفه ، والضراعة إليه أن يجعلنا بمنه وكرمه من الناجين، لابد أن ننتبه على أن كون الآية تكشف عن مشهد من مشاهد العذاب الأليم لأولئك الذين كفروا بآيات الله ،لا يُنسي أن عصاة المؤمنين يدخلون جهنم إذا شاء الله ذلك ، فيؤدبون بالعقاب المكتوب عليهم، جزاء ما اجترحوا من السيئات، ثم في خاتمة المطاف ، يُخرجون من النار ويُدْخلون الجنة ، على تفصيل نطقت به الأحاديث الصحيحة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد أوردت في صفحات مضت بعضاً منها . وهذا ما يوجب الحذر ، والحرص على التزود بما ينفع يوم اللقاء، ويباعد بين المؤمن وبين أن يكون ممن تسعّربهم نار السعير ؛ شأن من يظلمون أنفسهم ، ويلِغون في إثم الظلم للآخرين ، وتمهد لهم الشياطين ـ شياطين الإنس والجن ـ سبل الطغيان والجناية على عباد الله المؤمنين. أجل : إن

المؤمن حين يسلك هذا المسلك المرضيَّ يفوز بالجنة ـ إن شاء الله ـ وينجو من عاقبة الظلم ومرتعه الوخيم ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظّالمِينَ مَعْذِرَتُهم وَلَهُمْ اللّعْنَةُ ولَهُمْ سوءُ الدّار ﴾ والعقل المؤمن يقضي بإيثار ما يبقى على ما يفنى ؛ خصوصاً وأن النصوص قد دلّت على أن صَبغة واحدة في النار ـ وهي الغمسة ـ تنسي أنعَم أهل الدنيا من أهل النار ، ما كان فيه من النعيم في دار الفناء ، وصَبغة واحدة في الجنة تنسي أشدَّ الناس بؤساً في الدنيا ما كان فيه .

وقد مر بنا من قبل ما روى الإمام مسلم بسنده عن ثابت البُناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيُصبغُ في النار صَبغةً ثم يقال : يا ابن أدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قطّ ؟ فيقول : لا والله يارب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبَغ صَبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ما مرّ بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط » يصبَغ صَبغة : أي يغمس غمسة كما يغمس الثوب في الصِبغ . وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان قال : حدثنا حماد قال : أنبأنا ثابت عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بأشد الناس كان بلاءً في الدنيا من أهل الجنة ، فيقول اصبغوه صبغة في الجنة ، فيصبِغُونه فيها صَبغة ، فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ أو شيئاً تكرهه ، فيقول : لا وعزتك ما رأيت شيئاً أكرهه قط ، ثم يؤتى بأنعم الناس كان في الدنيا من أهل النار ، فيقول اصبِغُوه فيها صَبغة ، فيقول : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ، قرة عين قط ؟ فيقول : لا وعزتك ما رأيت خيراً قط ولا قرة عين قط » .

هكذا تنير مشاهد القيامة السبيل للسالكين ، وتذكّر بحقائقها الغافلين ، وتدفع إلى العمل الصالح المقِّصرين ؛ فما من امرىء يعقل عن رسول الله ﷺ ما نبّه عليه، من وجوب أن يؤثر المؤمن ما يبقى على ما يفنى ، وأنه لا يستوي من يسلك طريق أهل الجنة ، ومن يسلك طريق أهل النار .. إلا بادر بالأعمال الصالحة

المعوقاتِ والفتنَ ، وسارع إلى مغفرة من مولاه عز وجل، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . وذلك ما حرص ربانيو هذه الأمة الماجدة ، أن يأخذوا به أنفسهم ، ويؤدوا حق الله في نصح الآخرين وتوجيههم إلى العمل به . روى أبو نعيم في الحلية بسنده عن يزيد بن هارون قال : قال أبو عبيدة : قال الحسن ـ وهو البصري ـ أجزل الله مثوبته : (رحم الله امرءاً عرف ثم صبر ، ثم أبصر فبَصُر ؛ فإن أقواماً عرفوا فانتزع الجزع أبصارهم ، فلاهم أدركوا ما طلبوا ، ولا هم رجعوا إلى ما تركوا . اتقوا هذه الأهواء المضلَّة البعيدةَ من الله ، التي جماعها الضلالة وميعادها النار لهم محنة . من أصابها أضلته ، ومن أصابته قتلته. يا ابن آدم دينك دينك فإنه هو لحمك ودمك ، وإن يسلمْ لك دينك يسلمْ لك لحمك ودمك ، وإن تكن الأخرى ، فنعوذ بالله ، فإنها نار لا تطفأ ، وجرح لا يبرأ ، وعذاب لا ينفد أبداً ، ونفس لا تموت ، يا ابن آدم إنك موقوف بين يدي ربك ومرتهَن بعملك ، فخذ مما في يديك لما بين يديك ؛ عند الموت يأتيك الخبر ، إنك مسؤول ولا تجد جواباً ، إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همه)..

وعلى هذا السنن من الدعوة إلى إحياء القلوب بذكر الله واليوم الآخر وإعطاء التبصُّر بحقيقة أن يوم القيامة لا ريب فيه ، ما يستحق من العمل والمخافة من الله.. على هذا السنن كان من كلامه كما أخرج أبو نعيم في الحلية من رواية أحمد بن حنبل قال : حدثنا محمد بن سابق قال : حدثنا مالك من مِغْوَل عن حميد قال : (بينما الحسن في يوم من رجب في المسجد ـ وهو يمصُّ ماءً ويمجُّه ـ تنفّس تنفّساً شديداً ، ثم بكى حتى ارتعدت منكباه ، ثم قال : لو أن بالقلوب حياةً !! لو أن بالقلوب صلاحاً !! لأبكيتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة ، إن ليلة تمخّض عن صبيحة يوم القيامة لهي الليلة . ما سمع الخلائق بيوم قط ، أكثر فيه من عورة بادية ، ولا عين باكية من يوم القيامة).

وادٍ تتعوذ منه جهنم

لا يرتاب امرؤ ذاق حلاوة الإيمان ،واستيقنت نفسه ما جاء به الخبر الصادق عن الغيب ،أن الطريقَ القاصدة إلى العقبى الكريمة ـ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ـ التِزَامُ الهدي المحمدي ؛ إيماناً وعملاً ودقة في معايير ما هو من أمور الدنيا وما هو من أمور الآخرة ، ثم سلوكُ السبيل التي تباعد بين الإنسان وبين الوقوع في أحابيل الهوى والشيطان ؛ فلا يغرُّه بالله الغرور ، ولا ينسى في غمرة الحياة الدنيا وزينتها ، أنها دار فناء لا دار بقاء ، وأن السعيد من جعل النجاة في الآخرة نصب عينيه ، وأن السفر بين العاجلة والآجلة ،لا بد له من الزاد وخير الزاد التقوى.

ذلك طريق أهل الفلاح ؛ من سلكه كان الترغيب في الجنة ونعيمها الذي لا ينفد، والترهيب من النار وما فيها من عذاب السعير ، وأنها ساءت مستقراً ومقاماً، سلَّماً إلى المسارعة في الخيرات والقربات ، وإسهارِ الليل وإظماءِ النهار في عبادة الله عز وجل؛ طمعاً في الفوز بالنعيم المقيم والنجاة من النار .. النار التي حرها شديد، وقعرها بعيد ، ومقامعها من حديد . ولا تسل عن طعام أهلها وشرابهم، وهي تلفح وجوههم، وكلما نضجت جلودهم بُدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب. قال الترمذي في جامعه الصحيح (السنن) حدثنا عباس الدوري البغدادي قال: حدثنا يحيى بنُ أبي بُكيْر قال : حدثنا شريك عن عاصم هو ابن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أوقد على النار ألفَ سنة حتى احمرّت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضّت ، ثم أوقد عليها ألفَ سنة حتى اسودّت فهي سوداء مظلمة » قال أبو عيسى: حديث أبي هريرة في هذا موقوفٌ أصح . ولا أعلم أحداً رفعه غيرَ يحيى بن أبي بُكير عن شريك ورواه ابن ماجة والبيهقي في كتابه (شعب الإيمان) مختصراً . اللهم سلّم سلّم يا كريم،

اللهم مغفرتَك ورحمتـك يا أرحم الراحمين . اللهم إنا نسألك الجنـة وما قرب إليها من قـول أو عمل ونعوذ بك مـن النار وما قرّب إليهـا من قول أو عمل يـا سميع الدعاء يارب العالمين . وروى البزار عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ «أنه ذكر ناركم هـذه فقال : إنها لجزء من سبعين جزءاً مـن نار جهنم ، وما وصلـت إليكم حتـى ـ أحسبـه قال ــ نُضحت مـرتين بـا لماء لتضيء لكم ، ونـار جهنم سـوداء مظلمة». وأخرجه الحاكـم وصححه ورواه ابن ماجة عن أنـس أيضاً ولفظه : « إن نـاركم هـذه جزء مـن سبعين جزءاً مـن نار جهنـم . ولولا أنها أطفئـت مرتين مـا انتفعتـم بها ، وإنها لتدعـو الله عز وجـل أن لا يعيـدها فيهـا » قال البـوصيري في «الزوائد »: أخرجه الحاكم كما رواه المصنف ـ يعني ابن ماجة ـ وقال: صحيح على شرط الشيخين وبعضه في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

ومهما هوّن من شـأن جهنم الغافلون ، أو أصمّوا آذانهم عـن سماع أخبارها ؛ فالأمـر أشد والهول أعظـم نسأل الله العافيـة ، وياويل كـل ظالم لنفسـه يجعل لله الواحد القهّار نداً ويشرك به ، وياسوء عقبـى كل جبار عنيد وكل شيطان مريد .. ويل لهم جميعـاً ،ولمن يتعلق بأذيـالهم، من لفـح لظى وما تفعلـه بهم نار السعير ! أورد الحافظ ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى في سورة المرسلات ﴿**هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فـإن كان لكم كيد فكيدون . ويلٌ يـومئذ للمكذبين**﴾ «ما روى ابن أبي حاتم بسنده عن حسـان بن المخارق أو ابن أبي المخارق عن أبي عبدالله الجَدَلي أنه قال : «أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبدالله بن عمرو وكعب الأحبار يتحدثون في بيت المقدس ، فقال عبادة : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخـرين بصعيـد واحـد ينفذهـم البصر ، ويسُمعهـم الداعـي ويقول الله: ﴿**هذا يـوم الفصل جمعناكم والأولين . فـإن كان لكم كيـدٌ فكيدون**﴾ اليوم لا ينجو منـي جبار عنيد ، ولا شيطان مريـد . فقال عبدالله بن عمـرو : فإنا نجد في الكتـاب أنه يخرج عُنـق من النـار ، فتنطلق حتـى إذا كانـت بين ظهراني الناس نادت : أيها الناس إني بعثت إلى ثلاثة ؛ أنـا أعرَف بهم من الأب بولده ومن

الأخ بأخيه ، لا يُغيبهم عني وَزَر ، ولا تُخفيهم عني خافية : الذي جعل مع الله إلهاً آخر ، وكلٍّ جبار عنيد ، وكلّ شيطان مريد . فتنطوي عليهم ، فتقذف بهم في النار قبل الحساب بأربعين سنة» وأورده السيوطي في « الدر المنثور في التفسير بالمأثور». العُنق من النار : الطائفة . والوَزَرُ : بفتح الواو والزاي : الملجأ .

والحق أن الأخبار الصادقة قد تظاهرت عن الهول الهائل الذي يطبع جهنم ، وعن أن الواناً من العذاب فيها تكون لفئات من أهل الضلالة بأعيانهم ؛ روى ابن ماجة بسنده عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «تعوّذوا بالله من جُبّ الحُزْن . قالوا : يا رسول الله وما جُبُّ الحُزْن ؟ قال : وادٍ في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة . قيل : يارسول الله من يدخله ؟ قال : أعدّ للقرّاء المرائين بأعمالهم ، وإن من أبغض القراء إلى الله الذين يزورون الأمراء الجَوَرَة ». ورواه الترمذي وقال : حديث غريب . قال الحافظ المنذري : ورواه الطبراني من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إن في جهنم لوادياً تستعيذ جهنم من ذلك الوادي كلّ يوم أربعمائة مرة ، أعِدَّ للمرائين من أمة محمد ﷺ » . جب الحُزن أو الحزَن : الجب : البئر التي لم تطْوَ ، والحَزَن بفتحتين أو ضم وسكون : ضد الفرح . قال الطِيبي : وهو علم . والإضافة كما في « دار السلام » أي دار فيها السلام من الآفات.

وإذا كان هذا للمرائين الذين لا يريدون وجه الله أو يسخطون الله بمرضاة الناس ، حيث تسقط الأقنعة ، وينكشف الزيف ، ويظهر من كان عمله خالصاً لله عز وجل ، ومن كان مرائياً ؛ يقول أو يفعل اتباعاً للهوى ، وتحقيقاً لغرض من أغراض الدنيا ، أو طلباً لمرضاة من يقدم رضاهم ـ والعياذ بالله ـ على رضا من بيده ملكوت السماوات والأرض ، وهو الرازق ذو القوة المتين ..

إذا كان ذلك الوادي من وديان جهنم ـ وقانا الله شرها وأعاذنا والمسلمين من لفحها وزمهريرها ـ لهؤلاء ، فماذا عن الذين لا يفتؤون يسيئون إلى المؤمنين ولا

يكفون عن أذاهم ما استطاعوا إلى ذلـك سبيلاً ؟!! روى ابن أبي الدينا بسنده عن يزيـد بن شجرة الـرهاوي قال : « إن لجهنم لجِبـاباً في كل جـب ساحل كسـاحل البحر فيه هوامٌ وحيّـاتٌ كالبخاتيّ وعقارب كالبغال الدُّلُلِ ، فـإذا سأل أهل النار التخفيف ، قيل : اخرجوا إلى الساحل ، فتأخذهم تلك الهوام بشفاههم وجنوبهم وما شـاء الله من ذلك فتكشِطهـا ، فيرجعون فيبادرون إلى مُعْظَـم النيران ، ويسلّط عليهم الجَرَب ، حتى إن أحدهـم ليحُك جلدَه حتى يبدوَ العظم فيقـال : يا فلان هل يؤذيك هـذا ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : ذلك بما كنـت تؤذي المؤمنين » ترجم الحافظ ابـن حجر ليزيـد بن شجرة وقال : مختلـف في صحبته . وقال الـذهبي في «سير أعلام النبـلاء » أبو شجـرة الرهاوي : فقـديم يقـال : له صحبـة . كان أمير الجيش في غزو الروم . أرسل عن النبي ﷺ وروى عن أبي عبيدة واستعمله معاوية رضي الله عنه . قال شبـاب : استُشهد سنة ثمان وخمسين . وقال ابـن سعد : وقتل هو وأصحابه في البحر سنة ثمان . قال منصور عن مجاهد : كان يزيد بن شجرة مما يذكرنا نبكي . وكان يُصدّق بكاءه بفعله رضي الله عنه .

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل ، وجنبنا مزالق الرياء والهلكة، اللهم واجعلنا بمنك وكرمك هداة مهتدين، واسلك بنا طريق الجنة التي وعدت عبادك الـذين لا خـوفٌ عليهم ولاهـم يحزنون ، وصلى الله وسلـم وبارك على نبـي الهدى والرحمة فيما رغّب ورهّب ، وحذّر وأنذر ، وجزاه الله عن الأمة خير ما يجزى نبيٌ عن أمته في الآخرين .

إذا ذكر أهل التوفيق والفلاح، فحيَّهلا بأولئك الذين خافوا ربهم أشد الخوف، ورجوه أعظم الرجاء ، فلا الخوف جعلهم من أهل اليأس والقنوط ، ولا الرجاء حملهم على التقاعس عن عمل الصالحات ونسيان ما يكون من أهوال يوم الحساب. وهذا دليل أنهم انتفعوا بما عرفوا عن مسؤولية العبد يوم القيامة ، وأحسنوا التذكّر لمشاهد ذلك اليوم العصيب، وتزودوا له بالإكثار من الطاعات، وفعل القربات قدر المستطاع ؛ والملاحظ أن الكتاب العزيز قد أثنى الثناء الكريم على المؤمنين من عباد الله، بأنهم يجمعون بين شدة الخوف من الله ، والإحسان في العمل استعداداً ليوم المعاد ، ذلك قول الله تبارك وتعالى في سورة المؤمنون : **﴿إنّ الذين هُمْ من خَشْية رَبِّهم مُشفِقُون . والذين هُمْ بآياتِ رَبِّهمْ يُؤْمنُون . والذين هُمْ بربهمْ لا يُشْركون . والذينَ يُؤْتُون ما آتوْا وَقُلوبُهُمْ وَجِلَةٌ أنهُمْ إلى ربهم راجعون . أولئكَ يُسَارعُون في الخيْراتِ وَهُمْ لها سابِقون ﴾**.

ولما كان هؤلاء البررة الموفَقون قد قدروا اليوم الآخر حق قدره ، وأَوْلَوْا ما تكون عليه العاقبة فيه ، لكلٍ من أهل الهداية وأهل الضلالة ، ما تستحق من العناية والاهتمام .. كان تطلعهم إلى الخاتمة تطلعاً شديداً ، نابعاً من الرغبة الصادقة في النجاة يوم الدين ؛ فهم يرجون مولاهم أن يكرمهم بحسن الخاتمة ، ويعوذون به من سوئها ؛ لأن حسنها عنوان ما يكون بعد الموت ـ برحمة الله ـ من الزحزحة عن نار الجحيم والفوز بما يكون للسعداء من جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً .

وفي هذا الإطار من الإحسان الإيماني ، كان السلف الصالح يخافون أشد الخوف من سوء الخاتمة . قال سهل التستري : «خوف الصّدّيقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال : **﴿والذين**

يؤتون ما آتـوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾» ولا شك أن حسن الخاتمة يتمثل في أن يختـم للمرء بكلمـة التوحيـد (لا إله إلا الله محمـد رسول الله) هـذه الكلمة الطيبـة التي آمـن بها في حياتـه ، وعمل بمقتضـاها مخلصـاً الديـن لله عز وجل. عقـد الإمام البخـاري في كتاب الجنـائز من الجامـع الصحيح بـاباً عنـوانه «بابٌ في الجنائز ومن كـان آخر كلامه لا إله إلا الله . وقيل لوهـب بن منبه : أليس مفتاح الجنة لا إلـه إلا الله ؟ قال : بلى ولكن ليس مفتاح إلا له أسنـان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتـح لك وإلا لم يفتح لك». وقول البخاري في تـرجمة هذا الباب وهو أول باب في كتاب الجنـائز : «ومن كان آخر كلامه لا إلـه إلا الله» فيه إشارة ـ كما يقـول بعض العلماء ــ إلى مـا رواه أبو داود والحاكـم من طـريـق كثير بن مـرة الحضرمي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » . وذهـب الزين بن المنير رحمه الله إلى أن البخاري قد حـذف جواب (من) مـن الترجمة مراعاة لتـأويل وهب بـن منبه ، فأبقـاه إما ليوافقه ، أو ليبقى الخبر على ظاهره .

ولعل من النافع المفيد حقاً ، أن نشير إلى عظيم ما يتميّز به العالم العامل من يقظة على طريق الآخرة ، وما يكرمه الله بـه من حسن الخاتمة ، لما أنه ـ بتوفيق الله ـ كان على المورد العـذب من العمل بسنـة النبي ﷺ وخـدمتها والذود عنهـا . فقد روى ابن أبي حاتم في ترجمة الحافظ أبي زرعـة أنه لما احتُضر أرادوا تلقينه ، فتذكروا حديث معاذ « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » فحدثهم به أبو زرعة بإسناده ، وخـرجت روحه في آخر قـول «لا إله إلا الله ». وقد أخرج مسلـم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» وأخرجه الترمذي والنسائي من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بهذا اللفظ ، وفي رواية للنسائي عـن عائشة رضي الله عنها قالت : قـال رسول الله ﷺ : « لقنوا هلكـاكم لا إلـه إلا الله » قـال الترمذي بعـد إخـراج رواية « لقنـوا مـوتاكـم... » الحديث . وفي الباب عن أبي هريرة وأم سلمة وعـائشة وجابر وسعدى المرّيّة وهي

امرأة طلحة بن عبيد الله . قال أبو عيسى : حديث أبي سعيد : حديث حسن غريب صحيح . وقد نقل الحافظ ابن حجر عن الزين بن المنيِّر (أن هذا الخبر ـ يعني حديث معاذ ـ يتناول بلفظه من قالها فبغته الموت ، أو طالت حياته لكن لم يتكلم بشيء غيرها . ويخرج بمفهومه من تكلَّم ، لكن استصحب حكمها من غير تجديد نطق بها . فإن عمل أعمالاً سيئة ،كان في المشيئة ، وإن عمل أعمالاً صالحة، فقضيته سعة رحمة الله ، أن لا فرق بين الإسلام النطقي والحكمي المستصحب والله أعلم).

ومن سعة رحمة الله تعالى بعبده المؤمن ، ما نرى من بيان النبي ﷺ للأدب الذي ينبغي أن يكون عليه عواد المريض ، وهو مقبل على الله في سياقة الموت ، والمردّ فيما بعد ؛ إما إلى جنة عرضها السماوات والأرض فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، أو إلى نار حامية أعاذنا الله منها ليس لأهلها طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع . روى الترمذي بسنده عن أم سلمة قالت : قال لنا رسول الله ﷺ : « إذا حضرتم المريض ـ أو الميت ـ فقولوا خيراً فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون » قالت : فلما مات أبو سلمة ، أتيت النبي ﷺ فقلت : يارسول الله إن أبا سلمة مات . قال : فقولي : اللهم اغفر لي وله وأعقبني منه عقبى حسنة » . قالت: فقلت ؛ فأعقبني الله منه من هو خير منه ؛ رسول الله ﷺ . قال أبو عيسى : حديث أم سلمة حديث حسن صحيح، وقد كان يستحب أن يلقن المريض عند الموت قول لا إله إلا الله .

والحديث أخرجه النسائي بلفظ « فلما مات أبو سلمة قلت : يا رسول الله كيف أقول : قال : «قولي : اللهم اغفر لنا وله وأعقبني عقبى حسنة» فأعقبني الله عز وجل منه محمداً ﷺ . وفي شأن تلقين المريض عند الموت قول لا إله إلا الله حكى الترمذي عن بعض أهل العلم قوله : «إذا قال ذلك مرة ، فما لم يتكلم بعد ذلك ، فلا ينبغي أن يلقَّنَ ولا يُكثر عليه في هذا » قال : وروي عن عبدالله بن المبارك أنه لما حضرته الوفاة ، جعل رجل يلقنه لا إله إلا الله وأكثر عليه ، فقال له

عبدالله : إذا قلتها مرةً فأنا على ذلك مـا لم أتكلم بكلام . وإنما معنى قول عبدالله: أنه أراد ما روي عن النبي ﷺ : « من كان آخر قوله لا إله إلا الله دخل الجنة » وقد أورد الحافظ ابن حجر ما حكى الترمذي عن ابن المبارك ثم قال : (وهذا يدل على أنه يرى التفرقة في هذا المقام) .

ومهما يكن أمر : فـالقضية التي حولها دندنة الصـالحين وإليها تطلع المؤمنين خوفاً مـن الحور بعد الكور ، أن تكون الخاتمة بحسنهـا وضيائها عنوان النجـاة من عذاب الله يـوم الدين ، والفـوز برحمة الله ورضوانـه في دار المتقين . «لما حضرت أبا هريرة رضي الله عنه الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : يبكيني بُعد السفر، وقلة الزاد ، وضعف اليقين ، والعقبة الكؤود التي المهبط منها إما إلى الجنة وإما إلى النـار » .

ومن هذا المنطلـق ، يذكر في ترجمة عبدالملـك بن مروان أنه لما حضرتـه الوفاة جعل يقول : والله لوددت أني عبد لرجـل من تهامـة أرعى غنيمات في جبالها ولم ألِ ـ يعني لم يتولَّ شيئاً من أمر المسلمين ـ وروي عن المزني ـ رحمه الله ـ قال : دخلت على الشـافعي ـ أجزل الله مثـوبته ـ في مـرضه الـذي مات فيـه ، فقلت: كيـف أصبحت يـا أبا عبـدالله ؟ قال : أصبحـت من الـدنيا راحـلاً ، ولإخواني مفـارقاً، ولسوء فعلي ملاقياً ، ولكأس المنية شارباً ، وعلى الله عز وجل وارداً ، فوالله ما أدري أروحي تسير إلى الجنة فأهنيها ، أم إلى النار فأعزيها . ثم بكى وأنشد :

فلما قسا قلبي وضاقت مذاهبـي	جعلت رجائي نحو عفوك سلما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل	تجـود وتعفـو مِنَّةً وتكرمـا
تعاظمني ذنبي فلما قرنتـه	بعفوك ربي كان عفوك أعظمـا

رحم الله الإمـام الشافعي وأجـزل مثوبته في الآخـرين ورزقنا حسـن الانتفاع بسيرة أولئك الربانيين الـذين كانوا على السنة ؛ رجاءً لرحمة الله وخوفـاً من عذابه ، وذلك هو الفوز المبين .

الذين يكبكبون في جهنم

الحقائق التي تبرزها مشاهد القيامة ، لها في قلب المؤمن موقع يتفق مع القدر الذي أوتيَه من التصديق الجازم واليقين ، فما كان من بشارة :فرح به واستبشر ، وما كان من نذارة: حزن منه وعاد على نفسه بمزيد من التزكية ، ودفع إلى الإقبال الصادق على الله عز وجل .. والمؤمن لا ينكر أن الجنة تزلف يوم الفصل للمتقين، وأن الجحيم تُبَرَّزُ للغاوين، كما قال ربنا جل شأنه : **﴿وأُزْلفت الجنَّةُ للمُتقين وبُـرِّزت الجحيمُ للغـاويـن . وقيـل لهم أيْن مـا كُنْتـم تعْبـدون . من دون الله هـلْ ينصرونكُم أو ينتصرون ، فكُبْكُبوا فيها هم والغاوون . وجنودُ إبْليس أجْمعون ﴾** .

هكذا تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها ، حتى يستشعروا الروع والحزن ، كما تُقَرَّبُ الجنة وتُدنى ، كي يستشعر أهلها الفرح بفضل الله ؛ لعلمهم أنهم من أهل النعيم المقيم . ولا تسل عن أولئك الضالين المضلين وأهل الغواية الظالمين كيف يقلبون على رؤوسهم ، ويلقى بعضهم على بعض في جهنم ، بعد أن يجمعوا ويطرحوا فيها **﴿ فكبكوا فيها هم والغاوون . وجنود إبليس أجمعون ﴾**. أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الناس يمرون يوم القيامة على الصراط ، والصراط دَحْضٌ مَزَلَّة ، يتكفأ بأهله والنار تأخذ منهم ، وإن جهنم لتنُطف عليهم مثل الثلج إذا وقع ، لها زفير وشهيق ، فبينما هم كذلك إذ جاءهم نداء من الرحمن : عبادي من كنتم تعبدون في دار الدنيا ؟ فيقولون : ربَّنا تعلم أنا إياك كنا نعبد ؛ فيجيبهم بصوت لم تسمع الخلائق مثله قط: عبادي حق عليَّ أن لا أكلكم اليوم إلى أحد غيري ، فقد عفوت عنكم، ورضيت عنكم ، فتقوم الملائكة عندئذ بالشفاعة ، فينحَّون من ذلك المكان ، فيقول الذين تحتهم في النار : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ، فلو أن لنا كرَّة فنكون من المؤمنين ، قال الله : **﴿فكبكبوا فيها هم والغاوون ﴾**» قال ابن عباس

رضي الله عنهما : ادُّخِروا فيها إلى آخر الدهر . دحض : زلق لاتكاد تستقر قدم من يمشي عليه .

ويا لشدة بؤس من يحذَّرون فلا يحذرون ، ويذكَّرون فلا يذكرون . إن الذين يتمرغون في أوحال الصدِّ عن سبيل الله والظلم في الدنيا ، وتتلطخ أيديهم بدماء المسلمين ، لهم الحظ الأوفى من تلكم المشاهد الجهنمية التي تتقطّع من هولها وشدة أخذها الأكباد ؛ فتراهم وهم يطرحون في السعير ، ويكبكبون فيها، يصطرخون ولا من مجيب ، بعد أن يطلب منهم أن يعيدوا الدماء التي سفكوها في أجسادها .. ويتمنون ، لو كان الواحد منهم في الدنيا تراباً ، ولم يقع فيما وقع فيه .. ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين الجاحدين الظالمين . أخرج ابن مردويه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أمتي ستحشر يوم القيامة ، فبينما هم وقوف إذ جاءهم منادٍ من الله : ليعتزل سفاكو الدماء بغير حقها ، فيُميَّزون على حدة ، فيسيل عندهم سيل من دم ، ثم يقول لهم الداعي : أعيدوا هذه الدماء في أجسادها ، فيقولون : كيف نعيدها في أجسادها ، فيقول : احشروهم إلى النار ، فبينما هم يجرُّون إلى النار ، إذ نادى مناد فقال : إن القوم قد كانوا يهللون ، فيوقفون منها مكاناً يجدون وهجها ، حتى يُفرغ من حساب أمة محمد ﷺ ، ثم يكبكبون في النار هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون » هذه حال من غلبت عليهم شقوتهم ، ولم يرفعوا لأخبار القيامة وأهوالها رأساً ، وظلوا في الغواية والظلم لدين الله وأهله سادرين .

أما من عقلوا عن الله ورسوله ما أراد : وأخذوا أنفسهم بما توجبه طريق أهل الفلاح من الاستقامة على دين الله والاستعداد للموت ولما بعد الموت ، والاعتبار بعاقبة كل من أهل السعادة ، وأهل الشقاوة ، ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾.. أما هؤلاء : فيحظون بالنجاة من الكبكبة في النار ، ويفوزون بما يفوز به المتقون من جنات ونهر ، ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾. أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أمامة أن عائشة رضي عنها قالت:

«يا رسول الله ، يكون يومٌ لا يغني عنا فيه من الله شيءٌ ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم في ثلاثة مواطن ؛ عند الميزان ، وعند النور والظلمة ، وعند الصراط ، من شاء الله سلّمه وأجازه ، ومن شاء كبكبه في النار ، قالت : يا رسول الله وما الصراط ؟ قال : طريق بين الجنة والنار يجوز الناس عليه ، مثل حد الموسى ، والملائكة صافون يميناً وشمالاً يخطفونهم بالكلاليب مثل شوك السعدان وهم يقولون : سلّم سلّم ، وأفئدتهم هواء ؛ فمن شاء الله سلّمه ، ومن شاء كبكبه في النار ».

و ـ كما أسلفنا ـ ما من ريب في أن العاقل يستمطر رحمة الله وكريم فضله في دار العمل ، باتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ، وسلوك الطريق الأقوم التي أوضح معالمها خير ما يكون الإيضاح سيد العالمين وخاتم المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام ، والموفق التوفيق كلّه من جعل الآخرة همّه ، ودار مع الكتاب العزيز في رحى الحرب الدائرة بينه وبين الباطل وأهله حيث دار ، لافرق بين رغب ورهب، ولا بين منشط ومكره ، وكان مع السنة المطهرة لا يريم عنها ولا يحيد . إنه إن حمل نفسه على هذا النهج المبارك ، حسنت ـ بفضل الله ـ عقباه يوم الدين وأتته الدنيا وهي راغمة . أخرج الترمذي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت الآخرة همّه ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة . ومن كانت الدنيا همّه ، جعل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله . ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له » .

صلى الله على رحمة العالمين سيدنا رسول الله.. ما أعظم هذا البيان وأنفعه ؛ فلكم يكون الذي جعل الآخرة همّه على نور من ربه يُعقب الخير يوم القيامة، ولكم يكون من جعل الدنيا همّه على ظلام يجعله يتخبط ، فتسوء من وراء ذلك العقبى ، يوم لا يغني مال ولا بنون . وأخرج الحديث ابن ماجة من رواية أبان بن عثمان بن عفان قال : خرج زيد بن ثابت من عند مروان بنصف النهار . قلت : ما بعث إليه هذه الساعة إلا لشيء سأل عنه . فسألته فقال : سألنا عن أشياء سمعناها من رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كانت الدنيا همّه فرّق الله عليه

أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له . ومن كانت الآخرة نيّته ، جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة». وأخرجه أحمد أيضاً من رواية أبان من حديث طويل بلفظ « ومن كانت نيتُه الدنيا فرّق الله عليه ضيعته » .

ومن هنا وجّه النبي ﷺ إلى جعل الهموم هماً واحداً ، هو همُّ المعاد وما يكون عليه الأمر في دار البقاء ، وإلا ساءت الحال في الدنيا والآخرة والعياذ بالله . وذلكم هو التوحيد الخالص ، الذي يسعد صاحبه بعدم نسيان الله واليوم الآخر في كل ما يأخذ وكل مايدع . والمؤمن مطلوب منه أن يعمُر الدنيا ولكن وفق منهج الله ، وذكرٍ لعرصات القيامة ويوم الحساب ، وأن الدنيا دار عمل وكسب، والآخرة دار مسؤولية وجزاء ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾.

وصلى الله وسلم وبارك على إمام المتقين وخاتم النبيين وعلى آله وصحابته ومن أخذ بسنته وعمل بهديه إلى يوم الدين ..

أهل الآخرة.. وأخذ الحذر في الدنيا

ما أكثر ما يسّر ربنا تبارك وتعالى لعباده من صنوف الخير ، وما أعظم ما فتح لهم من مغاليق الهداية، التي ترتفع بهم إلى سدةِ النجاة من عذاب السعير يوم القيامة ، والإسعادِ بدار المقامة يوم يحشر الناس لرب العالمين .. وتبدو آثار ذلك واضحة للعيان ، في ذلك اليوم الذي يوفي الله فيه العباد دينهم الحق، ويعلمون أنه ـ جل شأنه ـ هو الحق المبين . فالذين تذكّروا وانتفعوا بالهدي الذي دعاهم رسول الله ﷺ إليه، نجوا من عقاب الله وكانوا من الفائزين ، والذين اتخذوا القرآن ظهرياً، وأعرضوا عن هديه عليه الصلاة والسلام ، أصابتهم قارعة النقمة، وحلّ بهم العذاب المهين ؛ حتى إنك لترى يوم القيامة مئات من المؤمنين، يتمنون أن لو لم تعجل لهم استجابة لدعاء دعوه في الدنيا؛ لما يجدون من إكرام الله لهم في ادخار دعواتهم لتكون عطاءً في جنة الخلد .

وعلى العكس من ذلك: يتمنى أهل الغفلة والإعراض عن الله ، لو أن بينهم وبين ما أسلفوا من مساءات في الدنيا أمداً بعيداً ، لما يرون من تحقق الوعيد الذي كانوا به كافرين ﴿ **يوم تجدُ كلُ نفسٍ ما عملتْ منْ خيْرٍ مُحضراً وما عمِلتْ من سُوءٍ تودُّ لوْ أنَّ بيْنَها وبَيْنَهُ أمداً بعيداً ، ويُحَذِّرُكُم الله نَفْسهُ واللهُ رؤوفٌ بالعباد** ﴾.

أخرج الحاكم في المستدرك بسنده عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه فيقول : عبدي إني أمرتك أن تدعوني ووعدتك أن أستجيب لك ، فهل كنت تدعوني ؟ فيقول : نعم يارب ، فيقول : أما إنك لم تدعني بدعوة إلا استجبتُ لك، أليس دعوتني يوم كذا وكذا لِغَمّ نزل بك أن أفرّج عنك ففرَّجت عنك، فيقول : نعم يارب ، فيقول : إني عجّلتها لك في الدنيا . ودعوتني يوم كذا وكذا لِغَمٍ نزل بك أن أفرّج عنك فلم تر فرجاً ؟ قال : نعم يارب ، فيقول : إني ادخرت

لـك بها في الجنة كـذا وكذا . ودعـوتني في حـاجة أقضيهـا لك في يـوم كذا وكـذا فقضيتها ؟ فيقول : نعم يارب ، فيقول : إني عجّلتها لـك في الدنيا ، ودعوتني يوم كذا وكذا في حاجـة أقضيها لك ، فلم تر قضاءها ؟ فيقـول : نعم يارب ، فيقول : إني ادّخرت لك بها في الجنة كذا وكذا . قـال رسول الله ﷺ : فلا يَدَعُ الله دعوة دعا بها عبدُه المؤمن إلا بيَّن له إما أن يكون عجّل لـه في الدنيا ، و إما أن يكون ادّخر له في الآخرة . قال : فيقـول المؤمن في ذلك المقام : يـاليته لم يكن عُجِّل لـه شيء من دعائه »

هكذا تشرق الرحمة الـربانية بضيائهـا على المؤمن المخلص في عبوديتـه لله عز وجل ، فيسعد في الدنيا ، ويجد من الكرم الإلهي يوم الحساب في جنات عدن، ما لم يخطر على قلبه في يوم من الأيام ، و إذا كان الأمر كذلك : والعبد بأمسِّ الحاجة في ساعـات الشدة مـن ذلك اليوم ، إلى نفحـة من نفحـات الله تنجيه مـن طعام ذي غُصّةٍ وعذاب أليم ، وتنظِمـه في عِقد من رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئـك الذين تُزلف لهم الجنة غير بعيد . إذا كان الأمر كذلك : فحريٌّ با لمؤمن أن يأخذ حِذره في دار الفناء حتى يلقـى الله يوم يلقاه وهو طاهـر الذيل ، نقي الثـوب ، لا تثقله عن طريق النجـاة أوزاره ، ولا تقعده عن المرتقى الكـريم خطاياه ، يضيء طـريقَه يوم يـدلهمُّ الكرب إخـلاصٌ في الـدين ، وعمـل بشريعـة سيد المرسلين ، وصـدق في الوجهة رجاءً وخـوفاً ؛ فهو يرجو رحمة الله ويخشى عذابه ،والله جـل شأنه لا يُضيع مثقال ذرة من عمل .

وذلكم ما ازدان به مسلك أهل التوفيـق ، أولئك الذين دأبوا على الاجتهاد في طاعة الله ، والعمل على حسـن التأسي برسول الله ﷺ ذكراً للآخـرة ، وعدمَ نسيان لأهوال يوم الفصـل موعِد الخلق أجمعين ؛ولذلـك ترى الواحد منهـم ـ على تعدد مذاهبهم في العمل والزهادة ـ حريصاً الحرص كلّه على أن تأتيه منيته وهو من أهل التذكـر ، إيماناً وعمـلاً ، بعيداً عـن الغفلة وطـريق الغـافلين . روى أبو نعيـم في «الحلية » والذهبي في «السير » وغيرهما أن إبراهيم بن بشار الخراسانيَّ خادمَ القدوة

الإمام العارف سيد الزهاد أبي إسحاق العجلي إبراهيم بن أدهم نزيل الشام المتوفي سنة ١٦٢ هـ قال : « أمسينا مع إبراهيم بن أدهم ذات ليلة ، وليس معنا شيء نفطر عليه ، ولا بنا حيلة ، فرآني مغتماً حزيناً فقال : يا إبراهيم بن بشار ، ماذا أنعم الله على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في الدنيا والآخرة ، لا يسألهم الله يوم القيامة عن زكاة ، ولا عن حج ولا عن صدقة ،ولا عن صلة رحم ، ولا عن مواساة ؛ وإنما يسأل ويحاسب عن هذا هؤلاء المساكين .. أغنياء في الدنيا فقراء في الآخرة ، أعزة في الدنيا ، أذلة يوم القيامة ، لا تغتم ولا تحزن ، فرزق الله مضمون سيأتيك ، نحن والله الملوك الأغنياء ، نحن الذين قد تعجلنا الراحة في الدنيا ، لا نبالي على أي حال أصبحنا وأمسينا ، إذا أطعنا الله عز وجل ، ثم قام إلى صلاته وقمت إلى صلاتي ، فما لبثنا إلا ساعة ، إذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفة وتمر كثير ، فوضعه بين أيدينا وقال : كلوا رحمكم الله . قال : فسلّم وقال : كل يا مغموم ؛ فدخل سائل فقال : أطعموني شيئاً فأعطاه إبراهيم ثلاثة أرغفة مع تمر، وأعطاني ثلاثة ، وأكل رغيفين ، وقال : المواساة من أخلاق المؤمنين ».

ويحسن التنبيه على أن إبراهيم رحمه الله كان حريصاً على أن يأكل من كسب يده ، ولا يجد غضاضة ـ على فضله وزهادته ـ أن يأجر نفسه لحراسة بستان ـ أو حصد زرع يوم حصاده ـ وما إلى ذلك . وقال ابن بشار ـ كما في « سير أعلام النبلاء» للذهبي ـ «وكنت معه ـ أي مع إبراهيم بن أدهم ـ فأتينا على قبر مسنّم ، فترحم عليه وقال : هذا قبر حميد بن جابر أمير هذه المدن كلها . كان غارقاً في بحار الدنيا ثم أخرجه الله منها . بلغني أنه سُرّ ذات يوم بشيء ونام ، فرأى رجلاً بيده كتاب ، ففتحه ، فإذا هو كتاب بالذهب: لا تُؤثِرنّ فانياً على باق ولا تغتَرّنّ بملكك ، فإن ما أنت فيه جسيم لولا أنه عديم ، وهو مُلك لولا أنه هُلك ، وفرح وسرور لولا أنه غرور ، وهو يوم لو كان يوثق له بِغد ، فسارع إلى أمر الله ، فإن الله تعالى قال: ﴿**وسَارعُوا إلى مغفِرةٍ من ربّكم وجنةٍ عرضُها السماوات والأرض أُعدت للمتقين**﴾ آل عمران (١٣٣) . فانتبه فزعاً وقال : هذا تنبيه من الله وموعظة

فخرج مما هو فيه وقصد هذا الجبل فعبد الله حتى مات » .

وأنت واجد أن ورع أهل التقوى ، خوفاً من المساءلة في يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلَّة ، قبس من هدي رسول الله ﷺ الذي وجه الأمة إلى ما فيه النجاةُ يوم الحسرة، والفوزُ بمرضاة الله عز وجل ، ويتأكد وجوب الحيطة والحذر مما يوقع في الهلكة يوم الدين إذا كنا على ذكر من أن الأمة الإسلامية ،مطلوب منها ـ مع إباحة الطيبات ـ أن تعمُرالأرض في طاعة الله ،وتُعدَّ ما تستطيع من قوة من أجل الجهاد في سبيل الله، وأن تحكم ضوابط الإسلام في التصرفات جميعها ، فساحات العمل متسعة الأرجاء على صعيد الاقتصاد وكسب المال و إنفاقه ، والسياسة والاجتماع ، والبناء الحضاري ـ على وجه العموم ـ والمسلم في كدحه إلى ربه بصدق و إخلاص وخوضه غمار الحياة تحقيقاً لرسالته في الأرض ، لا يشغله عن الآخرة شاغل ، ولا يصرفه عن الوقوف عند حدود الله وعدم اعتدائها صارف .. ولو كانت الأخرى، فهي طريق الهلكة يوم الدين . قال الإمام الترمذي : حدثنا هنّاد وأبو زرعة وغير واحد قالوا : أخبرنا قبيصة عن إسرائيل عن هلال بن مقلاص الصيرفي عن أبي بشر عن وائل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من أكل طيباً وعمل في سُنة ، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة ، فقال رجل: يا رسول الله إن هذا اليوم في الناس لكثير قال : وسيكون في قرون بعدي » . قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث إسرائيل وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٤٦) : رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح غريب ، والحاكم ، وقال صحيح الإسناد .

البوائق : جمعٌ مفرده بائقة ، وهي الداهية من الشر والظلم ، قال ابن الأثير في «النهاية» ومنه « لايدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه » أي غوائله وشروره . والبوائق : الدواهي جمع بائقة وهي الداهية .

المحرمات وإعانة الظالمين..
المسؤولية والجزاء

ما أكرمه وأعزه موقفاً ؛ حرص المؤمن على التزام الطاعة ، وحجز نفسه عن المخالفة عن أمر الله ورسوله ، كيما يكون ـ بعون الله وفضله ـ يوم الدين في زمرة أولئك الذين يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، ناجياً من أن يكون في عداد أولئك الذين مأواهم جهنم وساءت مصيراً . وأبواب الخير مُشرعة متاحة لمن يجاهد نفسه وهواه ، ولا يستبدل عاجلاً بآجل ، أن يدخلها ويكون ــ بعون الله ــ من أهل ذلك الفضل العظيم . أما من يركن إلى الدنيا ، ويرضى بالقعود عن اللحاق بركب أهل الآخرة الطائعين المجاهدين ، الصابرين المنيبين: فقد ظلم نفسه وكان من الخاسرين . عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ **﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌّ مبين ﴾**البقرة آية (١٦٨) فقام سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه فقال : « يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال له النبي ﷺ : يا سعد أطب مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده ، إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ، ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً ، وأيُّما عبد نبت لحمه من سُحت فالنار أولى به» . رواه ابن مردويه والطبراني في « الصغير » ، وأحد الرواة عند ابن مردويه متكلم فيه عند العلماء .

السحت : الحرام . وقيل : الخبيث من المكاسب . وعن ابن سيرين ـ كما جاء عند البخاري ـ كان يقال : السحت الرشوة في الحكم . أرأيت إلى السحت كيف يقود صاحبه إلى جهنم؟ .

وأخرجَ الترمذي بسنده عن طارق بن شهاب عن كعب بن عُجرة رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ: « أعيذك بالله ياكعب بن عجْرة من أمراء يكونون من بعدي : فمن غشي أبوابهم ، فصدّقهم في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولست منه ، ولا يرد عليّ الحوض . ومن غشي أبوابهم أو لم يغش. فلم يصدقهم في كذبهم ،ولم يعنهم على ظلمهم؛ فهو مني وأنا منه وسيرد عليَّ الحوض . يا كعبُ بن عجرة ! الصلاة برهان ، والصوم جُنة حصينة ، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، يا كعب بنَ عجرة ! إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به . يا كعب بنَ عجرة ! الناس غاديان : فغاد في فكاك نفسه فمعتقها وغاد فموبقها ». قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . ورواه ابن حبان في صحيحه . وجاء عند الإمام أحمد في المسند من رواية جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لكعب بن عجرة : أعاذك الله من إمارة السفهاء قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : أمراء يكونون بعدي ، لا يقتدون بهديي، ولا يستنون بستني فمن صدقهم بكذبهم ولم يُعنهم على ظلمهم ، فأولئك مني وأنا منهم وسيردون علي حوضي. يا كعبُ بنَ عجرة ! الصوم جنة ، والصلاة قربان ، أو قال : برهان . يا كعب بن عجرة ! إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به . يا كعب بن عجرة ! الناس غاديان : فمبتاع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها » وأخرجه النسائي ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي .

معتق نفسه : مبعدها عن نار جهنم بما يعمل مخلصاً من الصالحات ، ويكثر من الطاعات والقربات . وموبقها : مهلكها بكثرة المعاصي واقتراف السيئات؛ فطوبى لمن ابتاع نفسه وغدا في فكاكها ،فأعتقها من النار ، وفاز برضا الله في جنة الرضوان !.

وجزى الله الكريم المنان رسولنا عليه الصلاة والسلام خير الجزاء بما هدى إلى الصراط المستقيم ، وبما وضع أمته على المحجة البيضاء النقية التي تسلك

بالمستمسك بها طريقاً قاصدةً إلى دار النعيم ، وتحجزه عن أن يكون من أهل الجحيم . والحق أن الناظر في هدي النبي صلوات الله وسلامه عليه لا يعدم أن يقع على الصلة الوثيقة بين ما رغب فيه من الاستقامة، والعمل الصالح ، وحسن الخلق وما هو من ذلك بسبيل ، وبين مشاهد النور والعطاء الإلهي يوم القيامة ؛ إذ أنه عليه الصلاة والسلام ، قاد بإرشاده وتعليمه إلى حيث يكون العاملون المخلصون من أهل تلك المشاهد المباركة الميمونة . كما أن الناظر في ذلك الهدي الميمون ، لا يعدم أن يقع على الصلة بين ما رهّب ﷺ وحذّر من الوقوع فيه من الاعتداء على حدود الله ، وارتكاب ما نهى الله عنه والتعامل بسوء خلق مع الناس، وما إلى ذلك من مهاوي الضلال ، وبين تلكم المشاهد المروعة يوم الدين ؛ لما أنه عليه الصلاة والسلام قد أخذ بحجز الناس عن النار ، ولكن أهل الخسران أبوا إلا أن يكونوا من أهل تلك المشاهد ، ويقعوا فيها والعياذ بالله . عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه . والذي نفسي بيده لا يُسلم عبد حتى يُسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه . قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال : غشْمُه وظُلمه . ولا يكسب عبد مالاً من حرام فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبَل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله تعالى لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » رواه أحمد في المسند وغيره .

هكذا يكشف المصطفى عليه الصلاة والسلام عن الداء الذي يودي بصاحبه إلى جهنم ، ويضع الأيدي ببيان عظيم مشرق على الدواء ، وتراه صلوات الله وسلامه عليه ، يضع القواعد النورانية التي ينقاد إليها المنصفون أولو النهى، ويدخُل بعظمته وهديه أعماق النفس الإنسانية ؛يعالجها ويوجه استعدادها وجهة الخير بعيداً عن السطحية وكلام المتطفلين : إنه ـ فداه أبي وأمي ـ لا ينطق عن

الهوى ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ . أخرج الإمام الترمذي في الجامع «سنن الترمذي» عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «استحيوا من الله حق الحياء ، قال : قلنا : يارسول الله - أويا نبي الله - إنا لنستحيي والحمد لله . قال: ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء ». قال أبو عيسى : حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد .

وما من ريب في أن هذا الحياء - كما حدّده النبي عليه الصلاة والسلام - يحمل صاحبه على أداء حقوق الله وحقوق العباد على الوجه الذي ينبغي ، وبذلك يكون لبنة صالحة قوية في بناء المجتمع المسلم . وهذه الحال التقية النقية ، التي لا ينسى صاحبها الله واليوم الآخر ، ويصبح ويمسي وهو على ذكر للموت ولما بعد الموت تكون - بفضل الله - مُدخله إلى الفوز بسعادة الدارين ، وأن يكون في الآخرة من المقربين في جنات النعيم .

والحديث أخرجه أحمد أيضاً في المسند عن ابن مسعود رضي الله عنه من رواية أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد وجاء في هذه الرواية «ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى ، وليحفظ البطن وما وعى ، وليذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء » .

اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واكتبنا في زمرة من يستحيون منك - وأنت الغفور الرحيم - حق الحياء ، واجعلنا - بلطفك وإحسانك - من ورثة جنة النعيم . وصلِّ اللهم وسلم وبارك على من أبان عن الخالق جل شأنه ما أراد ، وأوضح لأمته معالم الطريق إلى الفوز بسعادة الدارين .

الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً..

يوم تحدِّث مشاهد القيامة أخبارها فترى ــ يا أيها الإنسان ـ عقبى أهل الفلاح والنجاح وعقبى أهل الضلالة والصدِّ عن سبيل الله ، يومئذ يتبيّن الغافلون أنهم لم يكونوا على شيء مـن الحق ، وأنهم ليسوا من العمل لما خلق لـه الإنسان ؛ في قليل ولا كثير . ويوم تحدث مشـاهد القيامة أخبـارها، وتعلنُ حقيقة المسـؤولية والجزاء إعـلانَها ـ فـالناس مجزيـون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ــ في ذلك اليـوم العصيب الذي يحمل مـن شدة الهول ما يحمل ، ويأخذ الفزع مـن سوء العاقبة في عرصاتـه بمجامع القلوب .. يضيء نـور الخشية من الله ،لأهل الخشيـة طريقهم، فتنقشع الظلمة ، ويفوزون بجنة النعيم ؛ فضلاً من الله ورضواناً . ويا نعم ما يفعل المؤمن في الـدنيا حين يستعلي على المعـوقات ويسلـك طريـق من قـال الله فيهم : ﴿**إنما يخشـى الله من عبـاده العلماء**﴾ قـال الحافظ ابـن كثير أي: إنما يخشاه حـق خشيتـه العلماء العارفـون بـه ، لأنه كلما كـانـت المعـرفة للعظيـم القـدير العليـم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ـ كلما كانت المعرفة والعلم به أكمل ـ كانت الخشية له أعظم وأكثر . روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذا: العالم بالرحمن :من لم يشرك به شيئاً ، أحل حلاله ، وحرَّم حرامه ، وحفظ وصيته ، فأيقن أنه ملاقيه ، ومحاسب بعمله . وقال سعيد بن جبير : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل .

وهذه الخشيـة التي تؤول بصاحبهـا إلى الفوز بمرضـاة الله ، وأن يحشر في زمرة المنيبين المتقين .. هذه الخشية عنـوان كمال الإيمان . قال الحسن البصري : الإيمان من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغَّـب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور**﴾. وهكذا يكون من الأهمية بمكان : أن يقوم البرهان على تلك الخشية ، بالتزام كل ما فيه طاعة الله،

والرغبة فيما رغب فيـه سبحانه ، والبعد عما رهّب منه في كتابـه أو على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام .

والحق أن منهج الهداية إلى مـا فيه خير الفرد والجماعة في الدنيـا والآخرة ـ كما هـو واضح في كتـاب الله وسنة نبيـه عليـه الصلاة والسـلام ـ قطـع على المتبطلين الغافلين انتحال الأعذار ، والتعلُّلات الشيطانية الكاذبة . وقد ترك النبي ﷺ الأمة على بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك . فليـس من صورة من صور المؤاخذة التي يشهدهـا العباد يوم الـدين ، على المخالفـة عن أمـر الله ورسوله ، إلا وهـي حجة ناطقـة ، يفترض أن تشد من أزر العـاملين ، وتوقـظ المهملين الغافلين ، وتحدث ـ من وراء ذلـك ـ ما تحدث من طمـأنينة في حياة الفرد واستقـراره في المجتمع ؛لأن إنسـانية الإنسـان مصونـة ، والحقوق والـواجبـات آخذة حقهـا وفق شريعـة الله، واستقامة الأمة على العمل بها .

هـذا واحـد مـن الأمثلـة على هذه السـاحـة ، تعـز على الحصر قـال الإمـام البخاري: حـدثنا عبـدان عن أبي حمزة عـن الأعمش عـن شقيق عـن عبدالله بـن مسعود رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قـال : « من حلف على يمين يقتطـع بها مال امريء مسلـم هو عليها فـاجر لقي الله وفي روايـة لقي الله يـوم القيامة وهـو عليه غضبان » . فـأنزل الله تعـالى : ﴿**إن الذيـن يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنـاً قليلاً أولئـك لا خـلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهـم الله ولا ينظـر إليهـم يوم القيـامـة ولا يزكيهم ولهم عـذاب أليم**﴾ . فجـاء الأشعث بـن قيس فقـال : ما حـدّثكم أبـو عبدالـرحمن ؟ فيّ أنزلت هـذه الآية ، كانـت لي بئر في أرض ابن عـم لي ، فقال لي : شهودَك . قلت : ما لي شهودٌ . قال : فيمينُه . قلت : يارسول الله إذن يحلف . فذكر النبي ﷺ هذا الحديث ، فأنزل الله ذلك تصديقاً له ».

فليحذر الذين يـؤذون عباد الله ويغتصبون حقوق المسلمين ـ أياً كـانت هذه الحقوق ـ أن يكونـوا يوم القيامة ممن تؤجـج بهم نار السعير ؛ لأنهم يلقون الله وهو

عليهم غضبان . وقد جاء التصريح عند مسلم وغيره بإيجاب الله النار ، وتحريمه الجنة لمن اقتطع حق امريء مسلم بيمينه . أخرج الإمام مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من اقتطع حق مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة » ورواه أحمد وأبو داود والترمذي .

ياله من مشهد مرعب مَهول !! يستمتع هذا المؤذي بحق المسلم في الدنيا، فيعاقب بأن يكون من وقود جهنم في الآخرة . ونجد في بعض روايات الحديث تفصيلاً أوفى مما في رواية الإمام البخاري التي فيها ذكر الأشعث رضي الله عنه. فعند مسلم من رواية أبي عبدالرحمن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر ، لقي الله وهو عليه غضبان ». قال : فدخل الأشعث بن قيس فقال : ما يحدثكم أبو عبدالرحمن ؟ قالوا : كذا وكذا . قال : صدق أبو عبدالرحمن فيَّ نزلت . كانت بيني وبين رجل أرض باليمن فخاصمته إلى النبي ﷺ فقال : « هل لك بينة؟ فقلت : لا . قال : فيمينه . قلت : إذن يحلفُ ـ أو يحلفَ ـ فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان » ، فنزلت ، ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ..** ﴾ إلى آخر الآية .

وحملت إلينا بعض الروايات واقعة أخرى توعدّ فيها النبي ﷺ مقترف تلكم الجناية ذلك الوعيد الشديد ، وهو وعيد حسبك من شدته أن يغضب الله عليه ، ومن لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان فقد أوجب له النار وحرّم عليه الجنة. روى مسلم بسنده عن الأحوص عن سماك عن علقمة بن وائل عن أبيه قال : «جاء رجل من حضرموت ، ورجل من كِنْدة إلى النبي ﷺ ، فقال الحضرمي: يارسول الله إن هذا قد غلبني على أرض لي كانت لأبي ، فقال الكِندي : هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق ، فقال رسول الله ﷺ للحضرمي : ألك بينة ؟ قال: لا . قال : فلك يمينه . قال : يا رسول الله إن الرجل فاجر لا يبالي على ما

حلف عليه ، وليس يتورع من شيء ، فقال : ليس لك منه إلا ذلك . فانطلق ليحلف ، فقال رسول الله ﷺ لما أدبر : أمالئن حلف على ماله ليأكله ظلماً ، لقي الله وهو عنه معرض » . وله من رواية أخرى عن وائل بن حجر عن أبيه قال: «كنت عند رسول الله ﷺ فأتاه رجلان يختصمان في أرض فقال أحدهما : إن هذا انتزى على أرضي ــ أي غلب عليها ـ في الجاهلية وهو امرؤ القيس بنُ عابسٍ الكِنديُّ ، وخصمه ربيعة بن عِبْدان . قال : بينتك . قال : ليس لي بينة . قال : يمينه . قال : إذن يذهب ـ أو يذهب ـ بها . قال : ليس لك إلا ذاك ، قال : فلما قام ليحلف قال رسول الله ﷺ : « من اقتطع أرضاً ظالماً لقي الله وهو عليه غضبان » .

ذلكم نطق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، وإنها للفتنة العمياء والضلال البعيد ، أن يضرب الران على القلوب بالأسداد ، فيسود الظلم ، ويستعلن الاعتداء على حقوق العباد ، ولا من ينكر على الظالم ولا من يأخذ على يديه ؛ فأهل الصلاح مقهورون ، وزبانية الفساد والإفساد يسرحون ويمرحون . ويح أولئك الظالمين ، من يوم تشخص فيه الأبصار ، وتشهدهم الخلائق يُدَعُّون إلى نار جهنم دعّاً ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ .

وصلاة الله وأزكى تسليماته على نبي الرحمة الذي لم يأل جُهداً في بيان كل ما يجب بيانه للأمة وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين.

المفلس.. والطرح في النار

من أمـارات الفلاح المشرقة في حيـاة المؤمن : أن يكـون وقّافاً عنـد حدود الله عزوجل ، كلِفاً أبداً بما يجعله من أهل الرضا ، يرجو رحمة مولاه التي بها يحظى بجنة النعيم ،والإقامة الخالـدة في دار الكرامة ، كما يخاف صادقاً من سـوء الحساب يوم المعاد ، وهو اليوم العبوس القمطـرير الذي شره مستطير ، منتشر عام على الناس، إلا من رحم الله ﴿**يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقُوا ففي النار لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ . خالدين فيها مادامت السماواتُ والأرضُ إلا ما شاء ربُّـك إن ربَّك فعَّال لما يريد . وأما الـذين سُعدوا ففي الجنة خالـدين فيها مادامت السمواتُ والأرضُ إلا ما شاء ربُّك عطاءً غيرَ مجذوذ**﴾.

والمفلح حقـاً من أخـذ نفسه بمنهاج أهـل السعادة ، فكانـت له جنـة عدن خالـداً فيها مادامت السماوات والأرض ، ونـأى بها عن أن يكون من أهـل الشِقوة الذيـن يؤول أمـرهم إلى نـار تلظى ، لهم فيهـا زفير وشهيق . والمؤمـن لا يتعدى في عمله سنـة الله في عاقبة كـل من الفريقين ، وأنـه لا تزر وازرة أخرى ؛ فهـو يعمل جاهداً مخلصاً يرجو رحمة الله ويخشى عذابه ، كيما يكون ـ بتوفيق الله ـ من الناجين الفائزين.

ولقد قـصّ علينا القرآن قصـة كفار قريـش يوم كانـوا يقولون لمن آمـن منهم واتبع هدى الله : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ﴿ **اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم**﴾ أي وآثامكـم إن كانت لكـم آثام في ذلك علينا ، فـأكذبهم الله تبارك وتعـالى مبيناً أنهم لا يحملون من خطـاياهم شيئاً ، وأنهم كـاذبون مفترون ؛ ذلكم قولـه تعالى في سـورة العنكبـوت : ﴿**وقـال الذيـن كفروا للـذيـن آمنوا اتبعـوا سبيلنا ولنحمـل خطاياكم ومـا هم بحاملين من خطاياهـم من شيء وإنهم لكاذبون**﴾ تلكم سنة

الله التي لا تتبدل في أنَّ كلَّ إنسـان يؤخذ بعمله وهو مسؤول يوم القيـامة مسؤولية فردية عما كسبت يداه ، ولا يحمل أحد وزر أحد ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ وكما قال جل شأنه : ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى** ﴾ فليتق الله امرؤ في عاقبة أمره ، وليكن دائماً على ذُكر من طبيعة المسؤولية يوم الدين ، كائناً ما كان الثغر الذي أقامه الله عليه في الدنيا .

غير أن مما يجب التنبيـه عليهْ : أن مـن المشاهـد المروعة يـوم القيامـة ، مشهد أولئك الذين أجرموا في الدنيا بما كانـوا يضلون الناس ، ويدعونهم إلى ما هو عداءٌ لله ولرسله عليهم الصلاة والسلام ، مشهدهم وهم يُسحبون في النار على وجوههم مَقُولاً لهم : ﴿ **ذوقوا مسَّ سقر** ﴾، حيث يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة مضافاً إلى ذلك أوزار أخرُ ، يُضاعف لهم العذاب ، بسبب ما أضلوا عباد الله ، وزينوا لهم الباطل وكـانوا من الجاحديـن المفترين. ﴿**وليحملنَّ أثقالهم وأثقـالاً مع أثقالهم، وليُسألنَّ يوم القيامة عما كانوا يفترون** ﴾ هكذا ينطق مشهد عذاب هؤلاء يوم الدين بمسؤوليتهـم عن ضلالهم في أنفسهـم، وعن دعوتهم الضـالَّة لـلآخرين وقـذفهم إياهم في حمأة الغواية والمظاهـرة على الحق وأهله من المؤمنين . كل هذا من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيء ، كما قال ربنا جل شأنه: ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم** ﴾ .

ألا وإن هـذا المشهد النـاطق ببشـاعة الجريمـة التي يقترفها أولئـك الذيـن يصدون عن سبيل الله ويبغـونها عوجاً ، ويعملون على تمزيق شمل الامـة بإبعادها عن الطريق السوي ، ومجافاتها لحقيقة التوحيد ، وتعطيل شريعة الله ، والعمل على أن تحتكم إلى معايير شيطانية مستوردة ... إن هذا المشهد الناطق بذلك كله، يشي بمشهد يقـابله ، زاخر بـالنور والإشراق ، دلت عليـه السنة المطهرة !! إنـه مشهد أولئك الذين أنعـم الله عليهم بالهداية ، وقاموا بحقهـا في الدعوة إليها ، والحرص على أن تكون الأمة على حـال تدور فيه مع الحق حيث دار ؛ فقـد جاء في الحديث الصحيح الـذي رواه مسلم عن أبي هريـرة رضي الله عنه قوله ﷺ : « مـن دعا إلى

هدىً كان له من الأجر مثلُ أجور مـن اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليـه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقـص من آثامهم شيئاً ». وفي الصحيح أيضاً نجـد قوله عليه الصلاة والسـلام « ما قُتلتْ نفسٌ ظلماً إلا كـان على ابن آدم الأول كِفْلٌ منهـا لأنه أول من سنّ القتل ». وحين تجدُ هذه الحقيقة التي نطق بها ووجه إليها من لا ينطق عن الهوى ﷺ مكانها من العقول والقلوب ، تكشـف عن أن من يقصِّر في الدعوة إلى الخير ـ وهو قادر عليها ـ فقد سفه نفسه وحرم الخير الكثير .

ويا ويح أولئك الدعاة على أبواب جهنم، الذين من استجاب لدعوتهم جَرُّوه إلى نار السعير ، يا ويحهم من ذلك العذاب الأليم يوم لا ينفع الظالمين معذرتُهم ، ولا يغني عن أهل الضلالـة والدعاة إليها ، ما كانوا ينشدونـه في الدنيا من مال أو جاه، أو إرضـاء لأعداء الله والحق الـذي أوحى به إلى نبيـه عليه الصـلاة والسلام؛ فالأولون يكرمـون بأجورهم ومثل أجور مـن دعوهم إلى حظيرة الخير ، من غير أن ينقص ذلـك من أجـورهم شيئـاً ، وهؤلاء يفتضحـون بتحمل أثقـالهم وأوزارهم، مضمـوماً إليهـا آثام مـن تبعهم ، مستجيبـاً لتمويهاتهم وأضـاليلهم ، مـن غير أن ينقص من تلك الأوزار والآثام شيئاً .

هذا : وقد ختمت آية سورة العنكبوت التـي عرضت لأهل الضلالة الداعين إليهـا وكـونِهم يحملـون أثقالهم وأثقـالاً مـع أثقـالهم يـوم القيـامة بقـولـه تعـالى : ﴿ولَـيُسْأَلُنَّ يوم القيامـة عمَّا كانوا يفترون ﴾ وفي هذا تأكيد لمسـؤوليتهم عما كانوا يكذبـون ويختلقون من البهتـان والصدِّ عن سبيـل الله . وقد ذكر الحافـظ ابن كثير يرحمه الله ما روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بلَّغ ما أرسـل به ثم قال : « إياكم والظلـم فإن الله يعزم يوم القيامـة فيقول : وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلـم ، ثم ينادي منادٍ فيقـول : أين فلان بن فـلان ؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثـال الجبال ، فيشخص الناس إليه بأبصـارهم ، حتى يقوم بين يدي الرحمن عز وجل ، ثم يأمر المنادي فينادي : من كانت له تباعة أو ظلامة

عند فلان بن فـلان فهلم !! فيُقبلون حتى يجتمعوا قيامـاً بين يدي الرحمن ، فيقول الرحمن: اقضـوا عن عبدي ! فيقولـون : كيف نقضي عنه ؟ فيقول : خـذوا لهم من حسنـاته ، فـلا يزالـون يأخـذون منها حتـى لا يبقى منهـا حسنة ، وقـد بقي مـن أصحاب الظلامـات ! فيقول: اقضوا عن عبـدي ، فيقولون : لم يبق لـه حسنة .. فيقول : خذوا مـن سيئاتهم فاحملوها عليـه . ثم نزع النبي ﷺ بهذه الآيـة الكريمة ﴿وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ .

نزع : استشهد .

وهذا الحديث له شـاهد في الصحيح أوردناه في مناسبة أخـرى ، يوضح هذا المشهد تمام الإيضـاح ويعرِّف بصـاحب الـواقعة ؛ إذ يطلـق عليه النبـي ﷺ اسم المفلس . ذلكم ما أخرج مسلم في صحيحـه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيـامة بصلاة وصيامٍ وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هـذا !! فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ».

ألا ما أكثر الـدروس والعبر في هذا الهدي المحمدي، وأقلَّ المعتبريـن . إن ما يؤول إليه أمر هـؤلاء المفلسين من الطرح في النار يوم يقوم النـاس لرب العالمين .. جديرٌ بالوقفـة الإيمانية المتبصرة التي تدعو إلى البعد عن كل مـا يوقع في الإفلاس الحقيقي بين يـدي من لا تخفـى عليه خـافية ، والعمـلِ على حسن التعـامل وأداء حقوق الآخـرين ، كـاملة غير منقوصـة ، وعدمِ الإيـذاء لعباد الله .. فمـن أصلح العمل استدرّ رحمة الله ، فكان من الناجين ، ومـن تعدى حدود الله ؛ فوقع فيما نبّه عليه النبي عليه الصلاة والسلام ، افتضح على رؤوس الأشهاد يوم الدين ، وكانت عاقبة أمره خسراً ، وأي خسـارة أشد من الطرح في النار ـ والعياذ بـالله تعالى ـ بعد هذا الافتضاح والناس قيام ينظرون !!

العطاء الرباني.. الآفاق والجنة

لله ما أعظم ما امتنّ الله به على هـذه الأمة بهدي النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فهو ﷺ الـرحمة المهداة للعـالمين ، وهو البشير النذيـر ، وهو الـذي سلك بـالأمة السبيل القويـم والصراط المستقيم ، ولم يدع طـريقاً من طرق الهداية إلى الخير ، إلا دلَّهم عليه ورغَّب فيه ، كما لم يدع طريقاً مـن طرق الضلالة والشر ، إلا كشف عن عواره ورهّب منه . وهكذا رسم عليـه الصلاة والسلام المنهج الخيِّر المشرق ، وكان خير أسوة في تطبيقه والعمل به. وعاقبةُ الأمة ـــ أن لو التزمت هذا المنهج ـ سعادة في الدنيا ، وجنات تجري من تحتها الأنهار في دار الخلود .

وساحـة الفضل متسعة الأرجـاء في ظل هذه الحقيقـة ، فأنّى تلفّـتَ المؤمن ، وجد موائد العطاء منصـوبة ؛ وما عليه إلا أن يُقبل عليها بقلبـه وعقله وجوارحه ، ويأخذَ نفسـه بذلك الهدي المحمدي ، الـذي هو نعم البيان لكتـاب الله الذي لا يأتيه البـاطل من بين يديـه ولا من خلفه تنزيـل من حكيم حميد . ومـا أكثر وأوفر مشاهـد الفضل الكبير يوم القيامـة لأولئك السعداء الموفقين !!. أخـرج البخاري بسنده عن شداد بن أوس رضي الله عنه عـن النبي ﷺ قال : « سيّد الاستغفار أن يقول العبـد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنـت خلقتني وأنا عبدك وأنـا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعـت ، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها في النهار موقناً بها ، فمات من يومـه قبل أن يمسيَ فهو من أهل الجنـة ، ومن قالها من الليل وهـو موقن بها ، فمات قبل أن يصبحَ فهو من أهل الجنة » .

أرأيت : يستغفر الله تعالى موقناً بما يقول : مصدقاً تصديقاً جازماً بدلالة تلكم الكلمات النورانيـة التي يناجـي بها مولاه بخشوع وخضـوع ، فيكون ممن تـدركهم رحمة الله ويفوزون في الآخرة بالنعيم المقيم .

وماذا أنت قائل بدلالة ذلك المشهد العظيـم البالغ التأثير العميق الدلالة !! مشهد مـا يعطاه النبي عليـه الصلاة والسلام مـن المقام المحمود ؛حيـث الأهوال العظـام ، والشـدة الشـادَّة التـي تضرب على الخلائق بـالأسـداد ؛ إذ يكـرمـه الله بالشفاعة لهم في فصل القضاء ، ثم يكون دعاؤه الكريم لأمته . ولا تسل عن إكرام الله و إحسانه وفضله العظيم الذي لا يُحَدُّ . وهذا كله من موجبات التذكير بالعمل ليوم المعاد ، وأن يحرص المؤمن على فعل الطـاعات وعمل الصالحات ، كيما يكون ذلك طـريقه إلى رحمة الله تعـالى التي بها يـزحزح عـن النار ويُحِلُّـهُ الله دار الكرامـة ويحظى بما يتفضل سبحانه به على عباده المتقين ؛مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

عن أبي هـريرة رضي الله عنه قـال : كنا مع رسـول الله ﷺ في دعوة فرفـع إليه الذراع ـ كـانت تعجبه ـ فنهس منها نهسـة وقال : « أنا سيد الناس يـوم القيامة ، هل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فينظرهم الناظر ، يطيقون ولا يحتملون ، فيقـول الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيـه إلى ما بلغكم ؟ ألا تنظـرون من يشفـع لكم إلى ربكـم ؟ فيقول بعـض الناس لبعـض : أبوكـم آدم ! فيأتونه فيقولون : يا آدم أنت أبـو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنـة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى إلى ما نحـن فيه ومـا بلغنا ؟ فقـال : إن ربي غضب غضبـاً لم يغضب قبلـه مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري : اذهبـوا إلى نوح ، فيـأتون نوحـاً فيقولون : يـا نوح أنت أول الـرسل إلى الأرض، وقد سّماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى إلى ما نحـن فيه ؟ ألا ترى ما بَلَغْنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ فيقول : إن ربي غضـب اليوم غضباً لم يغضب قبلـه مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري، اذهبـوا إلى إبراهيم ، فيقولـون : يا إبراهيم أنـت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟! فيقول :

إن ربي غضب اليـوم غضباً لم يغضب قبله مثلـه ولن يغضب بعـده مثله .. إلى أن يقول : اذهبـوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى ، فيـأتون موسى فيقولون : يـا موسى أنت رسول الله فضّلك الله برسالاته وبكـلامه ،على الناس ؛ اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيـه ؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضـب قبله ولن يغضب بعـده مثله .. إلى أن يقول : اذهبـوا إلى عيسى ، فيـأتون عيسى فيقـولون : ياعيسـى أنت رسـول الله وكلمته ألقاهـا إلى مريـم وروح منه ، وكلمـتَ الناس في المهد اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟! فيقول عيسى : إن ربي غضب اليوم غضبـاً لم يغضب قبله مثلـه ولن يغضب بعـده مثله ــ ولم يذكر ذنبـاً ـ نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ﷺ »

وفي رواية فيأتوني فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك مـا تقدم من ذنبـك وما تأخـر ، اشفع لنـا إلى ربك ، ألا ترى إلى مـا نحن فيه؟! فـأنطلق فآتي العرش ، فـأقع ساجـداً لربي ، ثم يفتح الله عليّ مـن محامده ، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ، ثـم يقال : يا محمد ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع . فأرفع رأسي ، فأقول : أمتي يارب ، أمتي يارب ، أمتي يارب . فيقال : يا محمد أدخل من أمتـك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهـم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . ثم قال : والذي نفسي بيده إن مـا بين المصراعين من مصاريـع الجنة ، كما بين مكـة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى » رواه البخاري ومسلم .

واذا كان الأمر كـذلك: فليس من مكرور القـول ، أن هذه الكلمات الطيبات المباركات من النبي عليه الصلاة والسلام ،مدعاةٌ للكثير الكثير من الاهتمام الذي يشحذ العزائم ويـوقظ الهمم للعمل على أن يكـون المؤمن بقوله وفعلـه وسلوكه ـ بعون الله وفضله ـ ممن تشملهم تلك البشـارة العظيمة التي لا يقدر قدرها ،والتي هي عنوان النجاة من عـذاب الله ، والفوزِ بدار كرامته ﴿ **يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله** ﴾.

وفي حرص على الوجهة السليمة ، ابتغـاء أن يكون المؤمن على سواء الصراط في العمل للآخرة ، تطالعنا الكثير من نصوص الحديث النبوي التي تفتح للمؤمن ـ أن لو عمل بمضـامينها ـ آفاق السعادة الأخروية التي يتطلـع إليها أهل الصدق مع الله ، الـذين اتخذوا من الـدنيا مـزرعة للآخـرة ، ومن العمل الصـالح بـاباً إلى حسن العاقبة يوم الدين . موقنين أن الأمر ـ أولاً وآخراً ـ بيده سبحانه وهو على كل شيء قدير .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريـرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد أو راح أعدّ الله له في الجنة نُزُلاً كلما غدا أو راح » وأكرم بهذا النزل الذي موطنه جنة الخلد التي تزلف للمتقـون . ويا بؤس من يعلم الطريق إلى هذه التجارة الرابحة، ثم يتوانى عن تحصيلها طاعةً للنفس الأمارة بالسوء والشيطان .. والموعد يوم الحساب .

وفي متـابعـة لمعـالم هـذا الفضل الإلهي على لسـان المصطفـى عليـه الصـلاة والسـلام صاحـبِ الشريعة ومبينِ الكتـاب العـزيز ، نقـع على ما روى أبـو داود والترمذي عـن بريـدة رضي الله عنه عـن النبي ﷺ أنـه قال : « بشِّروا المشـائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » .

ياله مشهداً بالغ العِظة والإشراق، مشهد هؤلاء المشائين إلى بيوت الله في تلك الأوقات التـي يأوي فيها النـاس إلى منازلهم ومواطن استقـرارهم طلباً للـراحة. و «مشاؤون» صيغة مبالغـة تدل على صدق الوجهة والمثابـرة ، وتشعر بما يجدون من لذة العبادة ، وتحمُّـل المشاق في سبيلها؛، فأجسـامهم تتجافى عن الـراحة المادية، لأن راحتهـم في بيوت الله صـلاةً وذكراً وتـلاوة لكتاب الله ، وطلبـاً للعلم، أعظـم منهـا، إن لذة العمـل بما يكون زلفـاهم إلى الله، تنسيهـم ما يمكـن أن يكون مـن التعب والمشقة في هذه الدار . وما عند الله خير وأبقى .

اللهم اجعلنـا من أهـل النور التام يـوم القيامة إنـك أنت المتفضـل المنان .
وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين وعلى آله وصحابته أجمعين .

العناية بإصلاح الآخرة التي إليها المعاد ، حرصاً على حسن العاقبة يوم القيامة : من الأمور التي يجب، أن تنال حظها الأوفى من الاهتمام في حياة المؤمن . وذلكم ما تميز به نهج النبي ﷺ وبارك ، وربى أصحابه الكرام عليه ، وبلغ من اهتمامه عليه الصلاة والسلام بذلك ـ وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ـ أنه ـ إلى جانب العمل ـ كان يدعو ربه بإصلاح آخرته التي فيها معاده . أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر » وهذا منه ـ ﷺ ـ إحسان في تربية أصحابه، والمسلمين من ورائهم ، على الجدّ في طلب الآخرة ، والضرع إلى الله تعالى أن يجعلهم من أهل النجاة والفوز بمرضاته ، والنعيم المقيم في جنة الخلد يوم الدين ؛ ذلكم بأن العبرة بما يكون عليه الأمر هناك يوم الفصل ، حيث تقف الخلائق بين يدي ذي القوة المتين سبحانه .

وإذا كان الأمر كذلك : فإن المؤمن مدعو لأن يحسن الغرس في الدنيا ، سلامةَ قصد وصالحَ عمل ، كي يكون ممن ينشر الله عليهم رحمته في ذلك اليوم، ويدخل دار النعيم مع الداخلين ، وإلا ساءت العاقبة ، وحلت الندامة ، ولات ساعة مندم !! ولكم بصّرت سنة رسول الله الأمة ،وفتحت الأعين على مشاهد مروعةٍ يوم القيامة تضطرب القلوب لذكر ما تحمل من الهول ، وهي مشاهد لا تشي بانعدام العمل ظاهراً في الدنيا ، ولكنها تنبىء عن الدخَل الذي صحب ذلك العمل ، فكانت العاقبة الخاسرة التي ينطق بها ما ينال صاحبَها من العقاب الأليم . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول

الناس يُقضى يوم القيامة عليه : رجل استُشهد فأتي به ، فعرَّفه نِعَمَه ، فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استُشهِدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جريء ! فقد قيل . ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجلٌ تعلم العلم وعلّمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به فعرّفه نِعَمَه فعرفها. قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم ! وقرأت القرآن ليقال : قارىء !! فقد قيل. ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال . فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت ، ولكنك فعلت ليقال: جواد ! فقد قيل ، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار » رواه مسلم .

إن هذه الحقائق التي تكشف عنها تلكم المشاهد ، جديرة بأن تثير في قلب الإنسان وعقله مزيداً من الحرص على محاسبة النفس ، والعمل على سلوك طريق أهل الفلاح بتزكيتها ، كيما تكون الأعمال خالصة لله عز وجل ، بعد أن تكون وفق ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام . قال الله جل شأنه : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾ وإنما الأعمال بالنيات كما بيّن النبي عليه الصلاة والسلام . فمن أراد صادقاً أن يسلم له العمل يوم المعاد ، فليأت ما يأتي من الصالحات والقربات والمبرات ، علماً، وجهاداً ، وعبادة ، ونفقة .. وما إلى ذلك ، وهو صادق الوجهة ، همُّه أن يرضى الله عنه ، ويكونَ من أهل القبول . أخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » .

فالله تعالى يخبر عن هذا المرائي الذي أشرك مع الله غيره في العمل ، أنه يتركه وشركه ؛ أي لا ينظر إليه ولا يتقبل عمله ، بل تكون عاقبته أن يحبط عمله ، ويحرم

الأجر والثـواب ، لأنه أطـاع الشيطان والهوى في الجنـوح عن الإخـلاص لله تبارك وتعالى ؛ فـإذا جاء يوم القيـامة انكشفـت الحقيقة ، ﴿وخسر هنالـك المبطلون ﴾ أجـارنا الله ممـا يستلـزم الفضيحة على رؤوس الأشهـاد بين يـديه . روى البخـاري ومسلم عن جندب بن عبدالله بن سفيان رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « من سمّع سمّـع الله به ومـن راءى راءى الله به » وأخرجـه مسلم أيضـاً من روايـة ابن عباس رضي الله عنهما .

قال علماؤنا رحمهم الله : « سمّع » ـ بتشديد الميم ـ أظهر عمله للناس رياءً . و « سمّع الله بـه » : فضحه يوم القيامـة . وقال الإمام النووي : معنـى من « راءى راءى الله به » أي من أظهـر للناس العمل الصالح ليعظم عنـدهم راءى الله به ؛ أي أظهر سريرته على رؤوس الخلائق.

وهذا النبي عليه الصلاة والسلام يتوعَّـد من يجعل الدنيا همّه ،فيقوده الغرض الهابط لتعلم علمٍ مما يُبتغى به وجه الله عز وجل ، بحيث ينحصر مبتغاه في عرض من الدنيـا .. يتوعده بأن لا يجد عَرف الجنـة يوم القيامة . أخـرج أبو داود في سننه بإسناد صحيـح عن أبي هريرة رضي الله عنـه أنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « من تعلّم علماً ممـا يُبتغى بـه وجه الله عـز وجل ، لا يتعلمـه إلا ليصيب بـه عرضـاً من الدنيا ، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة » ـ يعني ريحها ـ .

من هنـا كان حرص الصحـابة رضي الله عنهم ، ومـن تبعهم بإحسـان ـ عبر تاريخنا الطويل ـ على صلاح الآخـرة ، وكان معنى هذا الحرص المبارك : الاستقامة على الطـريقة ، والـدأب على عمـل الصالحات والجهـاد في سبيـل الله بإخـلاص وصدق عزيمة ، وثبات في مواطن الرغبـة والرهبة ، وما يكون من المنشط والمكره ، ولسوف ترى الخليقـة يوم المعاد ، المشاهد النـاطقة بذلك كلِه ، الـدالةِ على خيرية ذلك السلوك النيّر المستقيم .

أرأيت إلى الصحابي الشهيد عبدالله ، والد جابر رضي الله عنهما ، ماذا بلغ من

حرصه على سلامة العاقبة في الآخرة ، وكيف كان يشغله ـ وهو يحسّ أنه مقبل على الموت والشهادة في سبيل الله ـ قضاء دينه ، وأن يستوصي ولده بإخوته خيراً ، كي يلقى الله وهو متخفف مما يثقل الكاهل من حقوق الآخرين ، الأمر الذي قد تسوء الحال معه إن لم تدرك المرءَ رحمة الله سبحانه وتعالى !! أرأيت إليه وهو يوصي ولده عبدالله بذلك ليلة حضرت أحد ، وهو يعدّ نفسه لخَوض معركة الحق مع الباطل، ولا يرى إلا أنه مقتول في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ ؟! أخرج البخاري بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : « لما حضرتْ أحدٌ ، دعاني أبي من الليل فقال : ما أُراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ ، وإني لا أترك بعدي أعزّ عليّ منك ، غير نفس رسول الله ﷺ، وإن عليّ ديناً فاقضه ، واستوص بأخواتك خيراً. فأصبحنا فكان أولَ قتيل ، ودفنت معه آخر في قبره ، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع آخر ، فاستخرجته بعد ستة أشهر ، فإذا هو كيوم وضعتُه ، غيرَ أذنه ، فجعلته في قبر على حدة » إنه الصدقُ في طلب الشهادة ، والصدقُ في أن يلقى عبدالله رضي الله عنه مولاه يوم الدين ، وليس شيء من أوضار المخالفة عن شرع الله يثقل كاهله عن دخول الجنة ، بعد الفوز بما يتفضل به المولى على الشهداء في سبيله من الخير الذي لا ينفَدُ وإكرامِهم بأن يكونوا أحياء عنده سبحانه يُرزقون .

والحق أن في سيرة هؤلاء البررة ، الذين حملوا عن رسول الله إلى الأمة دين الإسلام ؛ إيماناً وعلماً وعملاً وجهاداً وكانوا ـ كلٌ في موقعه ـ على خير ما يَكون الحب والطاعة للرسول عليه الصلاة والسلام .. الحق أن في سيرتهم عموماً ، وعملهم للآخرة ـ على وجه الخصوص ـ معالم مشرقة على طريق هذه الأمة ؛ فيها من الحياة ، وواقع الإنسان ـ الذي اتجه بصدق وجهة الإسلام ـ ما يعصم ـ بإذن الله ـ من مضلات الفتن والصوارف عن متابعة منهج الحق ، مهما كانت التبعات والأعباء ؛ لأن مَرضاة الله بحسبان ، ومثوبته جل شأنه في الآخرة بحسبان . له الحمد في الأولى والآخرة .

وصلاة الله وأزكى تسليماته ، على نبينا نبي الهدى والرحمة ، وعلى آله وصحابته ومن استقام على سنته واتبع هداه إلى يوم الدين .

أين عقبى من عقبى.. لا تستويان

كلما تفاقمت مصائب الأمة ، وتشعبت بها سبل الحياة ، ازدادت الحاجة إلى تحديد الارتباط بما تمليه سنن الله التي لا تتخلف ولا تتبدّل ، والانضباط بضوابط الكتاب والسنة ، على صعيد العلاقة الوثيقة بين طرائق الحياة وسلوك الفرد والجماعة في دار العاجلة ، وبين العاقبة المترتبة على ذلك يوم الوعيد ، يوم يوفّى العبادُ دينَهم الحقَّ ﴿ **ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾.

ولا يُعْوِزُكَ أن تجدَ في كتاب الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، العديد من نصوص الترغيب بالخير وما يمت إليه بصلة ، وبيان ما ينبني عليه من سلامة العقبى وحسن المآب ، يوم يحشر الناس لرب العالمين ، والترهيب مما هو عكس ذلك ، والكشف عما ينبني عليه من سوء المصير ، وقباحة المنقلب والعياذ بالله .

ها نحن أولاء أمام واحد من النماذج التي تشرق بهذه الحقيقة ، حيث نصوص الكتاب وبيانها من النبي عليه الصلاة والسلام . قال الله تبارك وتعالى في سورة الرعد: ﴿**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب**﴾ ثم أتى - جَلَّ ثناؤه — على تفصيل لأخلاق أولي الألباب فقال: ﴿**الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار**﴾ ثم بين تعالى ما هي عقبى الدار فقال سبحانه : ﴿**جناتُ عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾ .

هكذا يدخل هؤلاء المكرَّمون الجنة ، وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ، ومن

ههنا للتهنئة بـدخول دار النعيم ، إنه لمشهـد يفرح قلب المؤمن ، ويعلي مـن همته للعمل الأخروي وفق تلكم الأخلاق التـي وُصف بها أولو الألباب . وعند دخولهم الجنـة تَفِد عليهـم الملائكـة يحيُّونهم مهنئين إيـاهم بما حصـل لهم مـن التقريـب والإنعـام ، والإقامـة في دار السـلام ، في جـوار الصديقين و الشهـداء ، والأنبيـاء والرسل الكرام .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو عبدالـرحمن قال : حدثني سعيد بن أبي أيوب قال : حدثنا معروف بن سويـد الحراني عن أبي عُشَّانةَ المعافري عن عبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يـدخل الجنة من خلـق الله ؟ قالوا : الله ورسولـه أعلم . قال : أول من يـدخل الجنة من خلق الله: الفقراء المهاجرون الـذين تُسَدُّبهم الثغور ، وتُتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهـم ـ وحاجته في صـدره لا يستطيع لها قضاءً ـ فيقـول الله تعالى لمن يشاء مـن ملائكتـه : ائتوهـم فحيُّوهـم . فتقول الملائكـة : نحن سكـان سمائك وخيرتك مـن خلقك ، أفتـأمرنا أن نـأتي هؤلاء فنسلم عليهـم ؟ قال : إنهم كـانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، وتسدُّبهم الثغور وتُتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحـاجته في صدره ، فلا يستطيع لها قضـاء ـ قال : فتأتيهـم الملائكة عند ذلك، فيـدخلون عليهـم من كـل باب، ﴿سـلام عليكم بما صبرتـم فنعم عقبـى الدار﴾.

ورواه أبو القاسم الطبراني بسنـده عن أبي عُشَّانَةَ أنه سمع عبـدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قـال: « أول ثلة يدخلون الجنة فقـراء المهاجرين ، الـذين تُتَّقى بهم المكاره، و إذا أُمروا سمعوا وأطـاعوا ، و إن كانت لرجل منهـم حاجة إلى سلطان لم تُقض ، حتى يموت وهي في صدره، و إن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول : أيـن عبادي الذين قاتلـوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي ، وجاهدوا في سبيلي ؟ ادخلـوا الجنـة بغير عـذاب ولا حساب . وتـأتي الملائكـة فيسجـدون ويقولـون : ربنا نحـن نسبحك الليـل والنهار ، ونقـدس لك ، مـن هؤلاء الـذين

آثرتهم علينـا ؟ فيقول الرب عـز وجل : هؤلاء عبـادي الذين جـاهدوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي : فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ .

ترى !! كم تكون أمتنا على الجادة اليوم ، إذا فقهت هذا البيان النبوي لكتاب الله في شأن أولئك البررة الـذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وحاولـت ـ بكثير من العناية والجد ـ أن تـأخذ التربيةُ على فقه هذه الحقائق مكـانَها اللائق في بناء الفرد والجماعة ، والإعـداد لمواجهة التحديات إعـداداً متكاملاً ، يجمـع بين العمل على عمارة الأرض بعلم وفهم للـواقع ، وبين التوجه الصادق إلى الآخـرة وطلب النجاة فيهـا ؟! إنها إن فعلت ذلـك ، كان هـذا التـوجه عنـوانَ استئناف لمسيرة السلـف الصالـح بُناةِ حضـارة الاسلام ، الحضـارةِ التِي تسعـد الفرد في الـدنيا والآخـرة . ناهيـك عن وضـع حد لمرحلـة القلق والاستخـذاء أمام العـدو الداخلي في أعماق النفس ، وأمام العدو الخارجي المهين .

ومن صور العطاء لهؤلاء الـذين يقال لهم: ﴿ **سلام عليكـم بما صبرتهم فنعم عقبى الدار**﴾ ما روى عبدالله بن المبـارك عن بقية بن الوليد أنه قـال: حدثنا أرطاة ابن المنذر قال : سمعت رجلاً من مشيخـة الجند يقال له : « أبو الحجاج » يقول: جلست إلى أبي أمامـة فقال : (إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكتـه إذا دخل الجنة وعنـده سماطان مـن خـدم ، وعند طـرف السماطين بـاب مبوَّب ، فيقبل الملـك فيستأذن ، فيقول أقصـى الخدم للذي يليه : « ملَك يستأذن » ويقـول الذي يليه: «ملَـك يستأذن » حتـى يبلغ المؤمـن فيقـول : ائذنوا ، فيقـول أقربهم إلى المؤمـن : ائذنوا ، ويقـول الذي يليـه للذي يليه : ائذنـوا ، حتى يبلغ أقصـاهم الـذي عند الباب ، فيفتح له ، فيدخل ، فيسلم ثم ينصرف) رواه ابن جرير الطبري .

أما الظـالمون الناقضـون لعهد الله الضالـون سواء السبيـل: فمآلهم شر مآل ، وعاقبتهـم على النقيض مـن عاقبـة أولئك البررة الكـرام ؛ ذلكم قـوله عـز وجل: ﴿**والذيـن ينقضون عهد الله مـن بعد ميثاقـه ، ويقطعون مـا أمر الله به أن يـوصل**

ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ أجل لهم بصنيعهم السيء المرذول الإبعاد والطرد عن رحمة الله تعالى ، ولهم سوء العاقبة والمآل ، وإذا رأيت مشهد عذابهم الأليم يوم القيامة ، رأيت ما يخيف ويفزع أشد الفزع ، ويذكِّر بعِظم المسؤولية ووثيق العلاقة بين ما كانوا عليه في الدنيا ، وبين ما آل إليه أمرهم في الآخرة ، يوم الوعيد ؛ إنهم الجاحدون المنافقون . قال أبو العالية رحمه الله في قوله تعالى : **﴿والذين ينقضون عهد الله ﴾** الآية : « هي ست خصال في المنافقين : إذا كان فيهم الظهْرة على الناس، أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا ائتمنوا خانوا ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض ، وإذا كانت الظهْرة عليهم ، أظهروا الثلاث خصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا ائتمنوا خانوا ». وهذا من أبي العالية مأخوذ من بيان النبي ﷺ فيما بيَّن من شأن المنافقين وخصالهم .

سبحان الله أين عقبى هؤلاء من عقبى أولئك **﴿ تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾**. ألا إن أولي النهى عندما يتدبرون هذه الأخبار الصادقة في كتاب الله الكريم والسنة النبوية المطهرة ، يختارون ـ بلا ريب ـ الطريق الأولى التي تحسن معها العاقبة ، ويبصرهم الناس معها يوم الدين ، وقد ازدانت بهم مواكب النور المتلاحقة إلى خير مفاز .. إلى دار النعيم المقيم ، حيث العطاء الذي لا يُحَدّ وفضل الله الجوادِ الكريم الذي لا تنفد خزائنه سبحانه وتعالى . وذلك ما أخذ به الذين تربوا في مدرسة النبوة أنفسهم ، ودرج على ذلك من تبعهم بإحسان، فأوفوا بعهد الله ، ولم تقعدهم مطامع الدنيا وزخارفها عن اللحاق أبداً بركب الصديقين والشهداء والصالحين ؛وحسن أولئك رفيقاً . روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن اللهُ أشهدني قتال المشركين لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع ؛ فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون ، قال : اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : ياسعد

بنَ معاذ الجنة ورب الكعبة إني أجد ريحها من دون أحد . قال سعد : فما استطعت يا رسـول الله ما صنع . قال أنـس : فوجدنـا به بضعاً وثمانين ضربة بـالسيف ، أو طعنة برمح ، أورمية بسهم . وجدناه قـد قتل ومثّل به المشركون ؛ فما عرفه إلا أخته ببنانـه . قال أنـس : كنا نـرى أو نظن أن هذه الآيـة نزلـت فيه وفي أشبـاهه **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضـى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾** .

أخبار القيامة، وما يتحقق فيها من موعود الكريم المنَّان سبحانه وتعالى عبادَه الطائعين المخبتين ،ومن وعيد ماتوعَّد به الصادِّين عن سبيله، والطغاة الظالمين .. هذه الأخبار عملت عملها، وما تزال، في نفوس السعداء الذين أهمهم أمر الآخرة، وأقض مضاجعهم خوف يوم الحساب ، فتراهم ـ أبداً ـ من خشية ربهم مشفقون ؛ وديدبهم مضاعفة العمل الصالح ، وكلِ ما يقربهم إلى الله زلفى، وينأى بهم عن مسلك من أضلّ الله وكانوا من الغافلين المفسدين . أقول هذا وبين يدي صفحات نيرات من سيرة التابعي الثقة العابد عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي أبي عبدالله الكوفي المتوفى سنة عشرين ومائتين . قال الإمام البخاري : سمع أبا هريرة وابن عمرو رضي الله عنهما ، وقال ابن حبان في « ثقات التابعين » : كان من عبَّاد أهل الكوفة وقرائهم . بلغ من إدراكه ـ رحمه الله ـ لأهمية ملء الوقت بالطاعة وتقوى الله ، ومن حسّه الإيماني بحقيقة أن الأجل آت لا ريب فيه ، وأن مقتضى ذلك عدمُ الركون إلى الأمل والاغترار بالدنيا .. بلغ من إدراكه المبصر وحسّه الإيماني المشرق لذلك كله أن يقول : (ما أحد يُنزل الموت حقَّ منزلته إلا عَدّ غداً ليس من أجله ، كم من مستقبلِ يوماً لا يستكمله ، وراجٍ غداً لا يبلغه . لو تنظرون إلى الأجل ومسيرِه لأبغضتم الأمل وغروره) وفي رواية أخرى ـ كما نرى في الحلية لأبي نُعيم ـ (كم من مستقبل يوماً لا يستكمله ، ومنتظر غداً لا يبلغه ، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره).

والحق أن ما حملت الأخبار الصادقة إلى الأمة عن مشاهد القيامة وما يكون فيها ، جدير بأن يشد أزر المجتهدين في الطاعة ، والإكثار من عمل الصالحات والقربات ، وأن يوقظ الكسالى الذين يركنون إلى حطام العاجلة ، وينسون يوم الدين ؛ فإذا عقل المؤمن عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله عليه الصلاة والسلام ،

استقام له طريق النجاة بعون الله ، وبدا على سلوكه الأثر الواضح لانتفاعه بما ورد في شأن القيامة وما فيها من الأخبار ، ولقد ترك النبي ﷺ أمته على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها ؛ ويا بؤس من يعرض عنها ويقع فريسة للهوى والشيطان. ومن المعالم الخيِّرة في هذه البيضاء النقية ما جاء من التنبيه على وضع الأمور مواضعها، وعدم تقديم الحياة الدنيا الفانية ، على الحياة الآجلة الباقية. يقول ربنا جل شأنه : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى** ﴾ تقدمونها على أمر الآخرة الذي فيه نفعكم وصلاحكم، في معاشكم هنا ، ومعادكم يوم الحساب .

والحقيقة التي لا ريب فيها ، أن ثواب الله في الدار الآخرة ، وما أعدّه لعباده المتقين من نعيم الجنة الذي لا يزول : خير وأبقى ، فالدنيا دانية فانية ، والآخرة شريفة باقية . والعاقل مستنير البصيرة : يؤثر ما يبقى على ما يفنى ، ويعطي العمل لدار البقاء والخلد ، ما يستحق من العناية والاهتمام .

هذا : وفي تصور صحيح لهذه الحقيقة وإدراك لأبعادها ، يجد الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن عمله دون الذي يجب في هذا المضمار . روى الإمام أبو جعفر الطبري بسنده عن عرفجة الثقفي قال : « استقرأت ابن مسعود ـ أي طلبت منه أن يقرأ ـ ﴿**سبح اسم ربك الأعلى**﴾ فلما بلغ : ﴿**بل تؤثرون الحياة الدنيا**﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال : آثرنا الدنيا على الآخرة ؛ فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة ، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل » . قال الحافظ ابن كثير : وهذا منه ـ رضي الله عنه ـ على وجه التواضع والهضم ، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو ، والله أعلم .

ولا بدع أن يبلغ أبو عبدالرحمن بن مسعود هذا المبلغ العظيم تدبُّراً وتواضعاً ـ وهو من هو في علمه وصلته بالقرآن وهدي النبي عليه الصلاة والسلام ـ !! قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود الهاشمي قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر قال:

أخبرني عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن عبدالله عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من أحب دنياه أضرّ بآخرته ، ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » قال ابن كثير : تفرد به أحمد.

ومن الواضح البيّن في هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، أنه - صلوات الله وسلامه عليه - كان لا يَدَعُ أن يُحْكِمَ العلاقة بين شُعَب الحياة ومسالكها في الدنيا، وبين ما يكون من تحقق الوعد والوعيد في الآخرة ، والكيّس الفَطِنُ من اتخذ من معيار الكتاب والسنة، ثم فهوم أئمة الهدى وسيرتهم في العمل ليوم المعاد ، نوراً يضيء له الطريق ، فيؤثر ما يبقى على ما يفنى ، ولا يدع أن يكون - في قوله وفعله وسائر تصرفاته - على الجادة التي أوضح معالمها سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ؛ إنه إن فعل ذلك ، كان بعون الله وفضله من أهل النجاة يوم الدين، والحظوة بما أعد الله لعباده الصالحين . ها نحن أولاء نجده ﷺ يجعل من حسن الخلق باباً عريضاً يحظى من يدخله بالدرجة العالية من القرب يوم القيامة ، وعلى العكس من ذلك يكون مصير المعرض عن هذا الباب،عافانا الله من ذلك .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله يُبغض الفاحش البذيء » . أخرجه الترمذي في « السنن » وابن حبان في صحيحه وقال الترمذي : حديث حسن صحيح. وزاد في رواية له « وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة ». ورواه بهذه الزيادة البزار بإسناد جيد ولم يذكر فيه : «الفاحش البذيء ». ورواه أبو داود مختصراً ؛ قال : « ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق ». فمن شاء أن يحظى بهذا العطاء يوم لايجد المرء إلا ما قدَّم ، وأن يكون في عداد من تزدان بهم مشاهد أهل النجاة من النار ، والفوز بالجنة : فليأخذ نفسه بما وجه إليه نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام . عن أبي هريرة رضي الله قال : «سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناسَ الجنةَ ؟ فقال : تقوى الله وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يُدخل الناس النار؟ فقال: الفم والفرج». رواه الترمذي

في جامعه الصحيح «السنن» وابن حبان في صحيحه والبيهقي في كتاب «الزهد» وغيره وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب .

صلى الله على رسول الله ، كم تعمل تلكم البشائر والنذارات عملها في تربية الأمة وتقويم الأخلاق عند الفرد والجماعة ، أن لو استقامت الأمور، وظل الارتباط قائماً بين الأخلاق في الدنيا وبين ثمراتها وما يؤول إليه الأمر في الآخرة . وعن أنس رضي الله عنه عن رسول ﷺ قال : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم ». قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني ورواته ثقات سوى شيخه المقدام ابن داود وقد وثق .

وما أكرمه وأغلاه مشهداً : مشهد القرب من رسول الله ﷺ يوم القيامة ، لأولئك الذين هم أحاسن الناس أخلاقاً ، ومن أحب المؤمنين إليه عليه الصلاة والسلام . أخرج الإمام البخاري بسنده عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: «إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ، وقال : إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً » وروى الإمام الترمذي بسنده عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي اللهعنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أحبكم إليَّ وأقربِكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً . وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون . قالوا : يارسول الله قد علمنا « الثرثارون والمتشدقون » فما المتفيقهون ؟ قال : المتكبرون ». قال : أبو عيسى : والثرثار : هو الكثير الكلام ، والمتشدق: الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم . وفي رواية لأحمد في المسند وابن حبان في صحيحه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة ؟ فأعادها مرتين أو ثلاثاً قالوا : نعم يا رسول الله قال : أحسنكم خلقاً» . اللهم اجعلنا ممن يعلمون فيعملون ، وهب لنا أن نفوز يوم القيامة بالقرب من نبينا محمد عليه الصلاة والسلام يا سميع الدعاء .

عمل الجنة.. وعمل النار

الحزن والسهل

من مظاهر الانتفاع القلبي بما جاء عن الله تعالى وعن الرسول عليه الصلاة والسلام في شأن الآخرة، وما تزخر به المشاهد العظام التي تنطق بتوفية الله عباده دينهم الحق : أن يزداد المؤمن حرصاً على التقرب إلى الله تعالى بالعبادة والجهاد وصالح العمل ، مع إخلاص النية وصدق التوجه إليه سبحانه ؛ وتلك أمور تضيف إلى زيادة الإيمان ما تحدث ـ بفضل الله ـ من مضاعفة في رقة القلب ولطافة الشعور الأخروي ، والإحساس الصادق بما تعنيه أهوال يوم القيامة في تلكم الساعات العصيبات التي يتطلع فيها الخلائق إلى ما يكون إليه المآب ، وما يستقر عليه المصير . وعندما يتجه المؤمن هذه الوجهة المباركة ، يكون على النبع السلسبيل ـــ إن شاء الله ـــ من سنة النبي عليه الصلاة والسلام وسيرته الميمونة المشرقة بالخير والعطاء . وما أكثر ما يقع الناظر فيما كان عليه السلف الصالح رجالاً ونساءً ، من نماذج تنم عن حسن التأسي بالمصطفى صلوات الله وسلامه عليه ؛ حيث التوجه إلى الآخرة ، وإيثار الباقية على الفانية .

وهذه النماذج الكريمة أمانة في أعناق المسلمين بعامة ـ والعلماء منهم بخاصة ـ عليهم أن يحتذوها ـ وهم يحملون أمانة العلم والعمل في الأمة ، لما أنهم على إرث من إرث النبوة ، والمنهج الذي يحمل صاحبه ـ برحمة الله وعونه ـ إلى دار الخلد ، نقياً طاهراً في عداد البررة المتقين . وفي الجعبة اليوم مبتدأً هذه الكلمات شذرات يسيرة عن شيخ الإسلام ، إمام الحفاظ ، سيد العلماء العاملين الورعين والعباد الزاهدين في زمانه ، الذي حمله العمل بالعلم ، وخوف يوم الحساب، على أن يصدع بالحق ولا يخافَ في الله لومة لائم ، أبي عبدالله سفيان الثوري المتوفى سنة

ست وعشرين ومائة للهجـرة . جاء في « صفة الصفوة » للإمام أبي عبـدالرحمن بن الجوزي : عن أبي زيد محمد بن حسان قال : سمعت عبدالرحمن بن مهدي يقول : (ماعـاشرت في الناس رجلاً أرق من سفيـان ، وكنت أرمقه الليلة بعـد الليلة ، فما كان ينام إلا أول الليل ، ثم ينتفض فزعاً مرعوباً ينادي : النار !! شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات ، ثم يتوضأ ويقول على إثر وضوئه : اللهم إنك عالم بحاجتي غير مُعْلَم ، وما أطلب إلا فكاك رقبتي مـن النار ، إلهي إن الجزع قد أرقني ، وذلك من نعمـك السابغة علي ، إلهي لـو كان لي عـذر في التخلي ، ما أقمت مـع الناس طرفة عين . ثم يقبل على صلاته؛ وكان البكاء يمنعه من القراءة ، حتى إن كنت لا أستطيع سماع قراءته من كثرة بكائه ، ومـا كنت أقدر أن أنظر إليه استحياءً وهيبةً منـه).

إنها لنعمة سـابغة حقـاً ، أن تأخـذ أخبار يوم المعـاد مأخـذها مـن النفس ، وتعمل في القلب والعقل عملها ، وينعكس ذلك على العلاقة بين العبد وخالقه جل شـأنه ، فترى مـلء الوقـت بالعلـم والعمل ، وبـالعبادة الخاشعـة والخضوع الصادق بين يـدي الله عز وجل ، وتستشعر رقـة القلب التي يصحبها البكـاء من خشية الله ، والصـدق في المواطن ، والإحسـاس العميق بما يمكـن أن يكون عليـه الحال يوم الحشر الأكبر ، حتى كأن الجنة والنار أمام المؤمن ، يراهما رأي العين .

وقد ألمحت غير مرة إلى أن من رحمة الله بهذه الأمة ، ما نطق به الكتاب العزيز وبينته أحاديـث النبي عليه الصلاة والسـلام ، من الإيذان بتلك الأبـواب المفتحةِ من أبـواب الخير في الدنيا ، المؤذنـةِ بوصول مـن يلجها إلى شـاطىء السلامـة يوم الدين بفضـل الله أرحم الراحمين . ونحن اليـوم على موعد نتابـع معه الحديث عما تثمر محاسن الأخلاق لأصحابها من الخير في الدنيا والآخرة ؛ ها نحن أولاء نقرأ في سورة آل عمـران قول الله تعـالى : ﴿**وسارعـوا إلى مغفرة من ربكـم وجنة عـرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين**﴾ ثم جاءت الآيات على العـديد من صفات هؤلاء المتقين وأخلاقهم وختمت بتأكيد تلك البشارة العظيمة وهو قوله سبحانه:

﴿أولئك جـزاؤهم مغفـرة من ربهم وجنات تجري مـن تحتها الأنهار خـالديـن فيها ونعم أجر العاملين﴾ وذِكْرُ الجنة التي عرضها السماوات والأرض ، يذكرنا بطرف من بيان النبي ﷺ على هذه الساحة . قال الإمام البخاري : حدثنا يحيى بن صالح قال : حدثنا فُليـحٌ عن هلال بن علي عن عطاء بن يسـار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبـي ﷺ : « من آمن بالله وبرسوله وأقـام الصلاة وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلد فيها . فقالوا : يارسول الله ، أفلا نبشر الناس ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجـاهـديـن في سبيل الله ، مـا بين الـدرجتين كما بين السماء والأرض ؛ فـإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أُراه قال : وفوقه عرش الـرحمن ـ ومنـه يفجّر أنهار الجنـة » قال محمـد بـن فُليح عـن أبيه « وفـوقه عـرش الرحمن ».

وأنـت واجد أن في قـول النبي ﷺ : « وجلـس في بيتـه » تأنيسـاً ـ كما يقـول الحافظ ابـن حجر ــ لمن حُرم الجهـاد ، وأنه ليـس محروماً مـن الأجر ، بـل له مـن الإيمان، والتزام الفرائض مـا يوصله إلى الجنة ، وإن قصّر عن درجة المجـاهدين . والـذي قـال: يارسـول الله أفـلا نبشر النـاس ؟ هـو معـاذ بن جبـل كما في روايـة الترمذي، أو أبو الدرداء كما وقع عند الطبراني ، وأصله في النسائي ؛ لكن قال فيه : «فقلنا » وقـال الطيبي في شرح قول النبـي ﷺ : « و إن في الجنة مائة درجـة » هذا الجواب من أسلوب الحكيم ، أي بشِّرهم بـدخول الجنة ، بما ذكر من الأعمال ، ولا تكتفِ بـذلك : بل بشِّرهم بـالدرجات، ولا تقتنع بـذلك : بل بشرهم بـالفردوس الذي هو أعلاها .

واستظهر الحافظ غير هذه الوجهة ، إذ قال بعد نقل كلام الطيبي : قلت : لو لم يرد الحديث إلا كما وقع هنا ، لكان ما قال متجهاً ، لكن وردت في الحديث زيادة دلت على أن قوله ﷺ : « في الجنة مائة درجة » تعليل لترك البشارة المذكورة ؛ فعند الترمذي من رواية معاذ المذكورة « قلت : يا رسول الله ألا أخبر الناس ؟ قال: ذر

الناس يعملون ، فإن في الجنة مائة درجة » فظهر أن المراد : «لا تبشِّر الناس بما ذكرتُه من دخول الجنة لمن آمن وعمل الأعمال المفروضة عليه ، فيقفوا عند ذلك ، ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه ، من الدرجات التي تحصل بالجهاد». وهذه هي النكتة في قوله ﷺ : « أعدها الله للمجاهدين » وإذا تقرر هذا : كان فيه تعقب أيضاً على قول بعض شراح كتاب المصابيح : «سوّى النبي ﷺ بين الجهاد في سبيل الله ، وبين عدمه وهو الجلوس في الأرض التي وُلد المرء فيها» . ووجه التعقب: أن التسوية ليست على عمومها ، ولكنها في أصل دخول الجنة ، لا في تفاوت الدرجات كما تقرر والله أعلم.

والحديث المذكور رواه الإمام أحمد أيضاً ولكن بلفظ «هاجر في سبيل الله» بدل «جاهد» فقد أخرج في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان ، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها ، قالوا : يا رسول الله، أفلا نخبر الناس ؟ قال : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ؛ فإذا سألتم الله عز وجل، فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة... » الحديث .

وطرق الجنة مفتحة ميسّرة لمن يسر الله سلوكها له ؛ ومن ذلك حسن الخلق - كما سبق - ، غير أن الأمر يحتاج إلى علو في الهمة، وصدق في العزيمة ؛ لأن الجنة - كما جاء في الحديث الصحيح - حفت بالمكاره ، كما حفت النار بالشهوات . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبدالله بن يزيد قال : حدثنا نوح بن جَعْونة السُّلَمي ، عن مقاتل بن حيان عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أنظر معسراً أو وضع له ، وقاه الله من فيح جهنم ، ألا إن عمل الجنة حَزْنٌ بربوة - ثلاثاً - ألا إن عمل النار سهل بسهوة ، والسعيد من وُقي الفتن . وما من جُرعة أحب إلى الله من جُرعة غيظ يكظمها عبد ،ما كظمها عبدٌ لله إلا ملأ جوفه إيماناً » قال الحافظ ابن كثير : انفرد به أحمد ، إسناده حسن ليس فيه مجروح ، ومتنه حسن .

وتجدر الإشارة الى ما سبق من أن التوبة ليست على عمومها ،ولكنها في أصل دخول الجنة لا في تفاوت الدرجات .

الحزن : المكان الغليظ الخشن . والرّبوة بضم الراء وفتحها: ما ارتفع من الأرض . والسَّهوة : الأرض اللينة التربة . شبّه المعصية في سهولتها على مرتكبها بالأرض السهلة التي لا حُزونة فيها . وقد شبه الطاعة ـ من قبل ـ في صعوبتها على النفس بالمكان الغليظ الخشن في مرتفع من الأرض لابد من الصعود إليه . الجُرعة : بالضم : الاسم من الشرب اليسير . وبالفتح : المرة منه .

أحاسنُ المؤمنين أخلاقاً.. والقُرب العظيم

بصائر كتاب الله الكريم، وحديثِ المصطفى عليه الصلاة والسلام ، في شأن اليوم الآخر ، وما يشهد فيه العباد من مثوبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وعقاب الذين عموا وصمُّوا واتبعوا الأهواء والشهوات !! هذه البصائر المشرقة الهادية: أمانة ،لا يتخلف عن أداء حق الله فيها ، إلا ظالم لنفسه ، ضلّ سعيه وكان من الغافلين . ذلك لأن أداء حق الله في هذه الأمانة ، عنوان خيرية يقي صاحبه السوء في العاجلة ، ويبشر بالزيادة من فضل الله في دار القرار ، يومَ توفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون .

ومن هنا ،وجدنا أهل السعادة يشتد حرصهم على أن يكونوا على الجادة في أمر البشارة والنذارة ، والترغيب والترهيب ؛ فالبشارة لا تقعد الواحد منهم عن العمل ، بل تشد من أزره في الاستزادة من الخير الذي يضمن معه ــ بإذن الله ــ حسن العقبى، فكلما فرغ من عمل مبرور ، انصرف إلى عمل آخر ينصَب في تحقيقه، تقرباً إلى الله تعالى .ورسول الله أسوته في ذلك ﴿ **فإذا فرغتَ فانصَبْ وإلى ربك فارغب** ﴾ .

كما أن النذارة لا تيئسه ، بل تحرك كوامن الإيمان في قلبه ، فينصرف عن التهاون في عمل أهل الآخرة ، ويحاذر ـ قولاً وعملاً ـ أن يكون ممن يتَّبعون خطوات الشيطان ، وينقلبون على أعقابهم خاسرين . من هنا كان هذا الصنف المبارك من الناس شديد الانتفاع بما يرد من البشائر المرتبطة بإحسان العمل وسلامة السلوك، وبما يرد من النذارات المرتبطة بما هو عكس ذلك .

أقول هذاوأنا بسبيل النظر في نصوص نبوية كريمة أخرى تتعلق بالأخلاق وما إليها ، ترغيباً في محاسنها ، وترهيباً من مساوئها ، وتكشف عن آثار ذلك في

عقبى المؤمن يوم الدين .

فإذا كان في مشاهد القيامة ـ كما رأينا من قبل ـ مشهد أولئك الذين يبدون وهم أقرب الناس مجلساً من رسول الله ﷺ ، بسبب ما يتصفون به من مكارم الأخلاق ، فإن من تلك المشاهد ، مشهد أولئك الذين أبعدهم عن رسول الله ﷺ يوم الدين ، ما كانوا عليه في الدنيا من مساوىء الأخلاق ؛ والأخلاق في دين الإسلام: جوهرها وأساسها : انضباط السلوك بمعايير الكتاب والسنة ، يشهد لذلك ما ثبت في الحديث الصحيح من قول عائشة رضي الله عنها ــ وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ ــ: «كان خلقه القرآن» . وقد مر بنا فيما سبق من القول ، ما أخرج أحمد في المسند وابن حبان في صحيحه من رواية عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ، وما أخرج الترمذي من رواية جابر بن عبدالله رضي الله عنهما في شأن من يحملهم كريم الخلق إلى مكان الأقربية يوم القيامة من مجلس رسول الله ﷺ ، ومن تثقلهم مساوىء أخلاقهم، فيعاقبون بالإبعاد ـ والعياذ بالله ـ عن مجلسه صلوات الله وسلامه ، بل يكونون أبعد الناس منه وأنه ـ ﷺ ـ فسّر المتفيهق بالمتكبر . وهذه رواية أخرى لأحمد عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه يقول فيها : قال رسول الله ﷺ : « إن أحبّكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرة أحاسنُكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقاً : الثرثارون المتفيهقون المتشدقون » .

وقد أشرت من قريب إلى تفسير الترمذي لصفات أولئك الذين لم يذكرهم رسول الله ﷺ بخير ، بل أخبر عن سوء ما يكون من مشهدهم يوم الدين . ولمزيد من البيان أُورِدُ تفسير الحافظ المنذري حيث قال : الثرثار ــ بثاءين مثلثتين مفتوحتين ــ: هو الكثير الكلام تكلفاً ، والمتشدق : هو المتكلم بملء شدقه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه . والمتفيهق : أصله من الفهْق وهو الامتلاء ، وهو بمعنى التشدق ، لأنه الذي يملأ فمه بالكلام ، ويتوسع فيه إظهاراً لفصاحته وفضله، واستعلاءً على غيره ، ولهذا فسّره النبي ﷺ بالمتكبر .

هذا :وليس مـن مكرور القول التنبيه على أن الحريص على سلامـة عقباه يوم المعـاد، يكون أبـداً على حـذر من أن يقـع في شيء من مسـاخـط الله التي تـودي بصاحبها إلى سـوء المصير ، بل يكون على العكس من ذلـك : لا يدع أن ينظر فيما رغبَ فيه الشارع ، فيأتيَ به على خير وجـه وأكمله ، كي يجزى على صنيعه ـ بفضل الله ـ الجزاء الأوفى يوم الحساب . وموائد الخير والعطاء منصوبة، والعاقل من سعى للآخرة سعيها ، وأقبل على الله بعزيمة وصدق . قال الإمام الترمذي : حدثنا سلمة ابن شبيب قال : حـدثنا عبدالله بن إبراهيم الغِفاريُ المدنيُ قـال : حدثني أبي عن أبي بكر بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاث من كنّ فيه نشر الله عليه كنفه وأدخله جنته ؛ رفقٌ بالضعيف ، وشفقة على الوالدين ، وإحسان إلى المملوك » قال : هذا حـديث حسن غريب ، وأبوبكر بنُ المنكدر هو أخو محمد بن المنكدر .

فمن الواضح ، أن اتصاف المسلم بتلك الخلال الثلاث التي سَداها ولُحمتها الـرفق بـالضعيف ، والشفقـة على الوالـدين ، والإحسـان إلى المملوك ، أضـاءت طـريقه إلى أن يكـون في كنف الله ورحمتـه يوم القيـامـة ، وأن يُدخلـه جنة الخلـد؛ فسبحان الكريم الوهاب .

قال صاحب « النهاية » في مادة « كنف » (وفيـه « يُدنى المؤمن من ربه حتى يضعَ عليـه كنفه» أي يستره وقيـل : يرحمه ويلطـف به : والكنَـف ـ بـالتحريـك ـ الجانب والناحية . وهذا تمثيل لجعله تحت ظل رحمته يوم القيامة . ومنه حديث أبي وائل « نَشَر الله كنفَه على المسلم يـوم القيامة هكذا ، وتعطَّـف بيده وكمّه» . وجمع الكَنَفِ أكناف) . فهنيئـاً لمن يبدون ـ يوم العـرض الأكبر ـ وهم قِوام هـذا المشهد المشرق بفضل الله ورحمته ،جزاءَ ما كانوا عليه مـن حسن الخلق ، وفق ما وجّه إليه ورغب به رسول الله ﷺ .

والحق أن البشارة العظيمة التي أهداها النبـي ﷺ لأحاسن المؤمنين أخلاقاً ـ

وهي كونهم أحبَ الناس إليه وأقربهَم منه مجلساً يوم القيامة ـ تُسلم المرء إلى حيث يبصر في كل بشرى على حسن الخلق توكيداً لحقيقة تلك البشارة ، ويا فوز منْ يخالطون هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام مخالطة عمل وحسن امتثال، واستمساك بمحاسن الأخلاق التي دعا الأمة إليها ، ورغب في التخلق بها ؛ وهم واجدون ــ إن وفقوا لذلك ـ أنهم على حال يغبطون عليها ، يوم يقول رب العزة لجهنم: ﴿ **هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾.

وبعد : فهذه مكرمة يزجي النبي ﷺ البشارة بها لمن يكظم غيظه ــ وكظم الغيظ من مكارم الأخلاق ـ وهو قادر على أن ينفذه وينتصر ، نبصرها في مشهد من مشاهد القيامة يُدخل على قلب المؤمن من الأنس والفرح بفضل المولى عز وجل ما الله به عليم . أخرج الإمام أحمد في المسند عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من كظم غيظه ـ وهو يقدر على أن ينتصر ـ دعاه الله تبارك وتعالى على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره في حور العين أيتَهن شاء . ومن ترك أن يلبس صالح الثياب ـ وهو قادر عليه ــ تواضعاً لله تبارك وتعالى، دعاه الله تبارك وتعالى على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره الله تعالى في حلل الإيمان أيَّتهن شاء » وأخرجه أبو داود وابن ماجة والترمذي ولفظه « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن يُنفِذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيِّره في أي الحور شاء » .

وكظم الغيظ : أن يكف المرء عن إمضائه والانتصار لنفسه ابتغاء وجه الله ، وهو قادر على ذلك . وإنما حُمد الكظمُ ــ كما يقول الإمام الطيبي ـ لأن فيه قهراً للنفس الأمارة بالسوء ، ولذلك مدح الله الكاظمين بقوله : ﴿**والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾ فإذا تخلق المؤمن بهذا الخلق استحق تلك الكرامة يوم القيامة.. فدعاه الله على رؤوس الخلائق وخيّره في أي الحور شاء. وفي ذلك ما فيه من شهرة بين الناس ، والثناء عليه ، والمباهاة به في ذلك الموقف العظيم ..

الظلم ظلماتٌ يوم القيامة

كان من وضع الأمور مواضعها في منهج النبي ﷺ ـ وهو يعلم الناس الكتاب والحكمة ويزكيهم ـ أن أعطى للكشف عن عاقبة كلٍ من الإحسان والإساءة في الدنيا، يوم يحشر الناس لأحكم الحاكمين، ما يستحقه من الأهمية؛ وذلك على سنن الكتاب العزيز، وكلما ازداد حرص الأمة على الاحتكام إلى ضوابط الشريعة المطهرة في الشؤون جميعها، ظهرت أهمية الكشف المومى إليه في تقويم الاعوجاج عند الفرد والجماعة، وشد الأمة إلى الصراط السوي، لما أنها تكون بذلك قد جمعت الخير من أطرافه؛ فهي تقوم بعمارة الأرض والإفادة من تسخير الله الكون للإنسان: علماً وعملاً وأخذاً بالأسباب، وفي الوقت نفسه، يكون التوجه الأخروي الذي يبدو من ثمراته ـ في إطار التكامل والنظرة الشاملة إلى العاجلة والآجلة ـ رسم المناهج التي تجعل المسلم، وهو يدير حركة الحياة، لا ينسى الله واليوم الآخر؛ فترى الحرص على الاستقامة ابتغاء مرضاة الله، والدأب على فعل الطاعات، والإكثار من القربات والجهاد في سبيل الله؛ لما أن ذلك سبيل النجاة ـ بعون الله وفضله ـ يوم الدين زحزحةً عن نار السعير، وتقلباً بنعمة الله وفضله في جنة عدن حيث العاقبة للتقوى.

ولننظر في شذرات من توجيهاته ﷺ المسلمين، وهم يبنون الحياة الإسلامية، كيف وثق ﷺ علاقة الإحسان في الدنيا، بمثوبته في الآخرة، والإساءة في الدنيا، بعقوبتها هنالك، وجلَّى ـ فداه أبي وأمي ـ قيمة المسؤولية والجزاء تجليةً تجعل أثر النظرة إلى العاقبة يوم المعاد، ذات أثر فعال في توجيه شؤون الحياة على صعيد الفرد والجماعة والأمة. قال الإمام مسلم: حدثنا عبدالله بن مسلمة بن قعنبٍ قال: حدثنا داود ـ يعني ابن قيس ـ عن عبدالله بن مِقسم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا

الشحَّ فان الشح أهلك من كان قبلكم ؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » هكـذا يحذّر النبي عليه الصـلاة والسلام من أمـرين اثنين يبدو الـوقوع فيهما شراً مستطيراً في حياة الأمة؛ أما أحدهما : فهو الظلم، وأما الثاني: فهو الشح.

ولقد سلـك ﷺ في التوجيـه إلى الاحتراس من الـوقوع في الشـح ـ الـذي هو البخل الشديد مـع الحرص ، وهو ذو نسب إلى الظلم ـ مسلك النـذارة من الفتنة العمياء التي لفّت بظـلامها من وقعوا فيه ممن كان قبلنا مـن اليهود وغيرهم ، تلك الفتنة: هـي ما حملهـم عليه الشـح من سفـك دماء بعضهـم بعضاً ، واستحـلال بعضهم محارم بعـض ـ والعياذ بـالله ـ واحتمالُ أن الهلاك كائن في الآخـرة قائم ـ والله أعلم ـ ويحتمل أنه أصابهم ما أصابهم من الأذى في الدنيا ، والعذاب الأليم ينتظرهم في يوم المعاد .

وعلى هذا : فلسوف يكون من المشاهد المؤثرة حقاً يوم القيامة : مشهد أولئك الأشحّة ـ وقـد حكم عليهم بالهلاك في الآخرة مع مـاذاقوه من الويل في الـدنيا ـ. ولعل من الخير التذكير بما قـاله بعض العلماء بأن الشح أشد مـن البخل وأبلغ في المنع من البخل ، وقيل : هو البخل الشـديد مع الحرص . وقيل : البخل يكون في أفراد الأمور ، والشحُّ عام . وهنالك من يقول بأن الشح هو الحرص . وهنالك من يقول بأن الشـح هو الحرص على ما ليس عنده ، والبخـل بما عنده ، والمعنى المراد من مجموع الأقوال واضح كل الوضوح ، وتجاوز الحق فيه إلى الباطل أوضح .

أما عن الأمر الأول ـ وهو الظلم ـ فـاتجه الهدي النبوي في التحذير من الوقوع فيـه إلى التذكير بسـوء العـاقبة وشـدة ظـلامها في ذلـك اليـوم العصيب. « اتقـوا الظلـم»: اجعلـوا بينكـم وبين الظلـم وقايـة مـن تقـوى الله وتحكيـم شرع الله في أنفسكم وفيمن ولاكم الله أمرهم ، لأن الظلم ظلمات على صاحبه يوم المعاد ، فهو لا يهتـدي في تلكم السـاعات العصيبـات ، يوم يفـر المرء من أخيـه وأمه وأبيـه ، سبيـلاً ، وتراه وقـد تسربل ثـوب المهانـة في جهنم ، وأي ظلمات أشـد من تلـك

الظلمات التي أخبر عنهـا القرآن الكريم مثـل قوله جـل وعلا : ﴿ **ولا تحسبنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لـدى الحناجر كـاظمين ما للظـالمين من حميم ولا شفيـع يطاع** ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ **ترى الظالمين مشفقين مما كسبـوا وهو واقع بهم ..** ﴾ . هنالك يفتضح الظلمة وأعوانهم وتشهد الخلائق تلك الظلمات ، ويعلـم الجميع أن ذلك المشهد المظلم المروِّع الذي آلت إليه حال الظـالمين ، ناطق على رؤوس الأشهاد ـ بضلال ما كانوا عليه في الدنيا ؛ من ظلم أنفسهم وظلم عباد الله ..

على أن الصورة التي تعنيهـا كلمة «ظلمات» في الحديث ـ وهي نكـرة ـ تبدو أوسع مـدلولاً ممـا يمكن أن تصـل إليه قـدرتنا في تحديـد مداهـا واتساع دائرتها ، وذلك متسـق تمام الاتساق ، مع الـذي تدل عليه نصوص القـرآن الكريم ــ وهي كثيرة وفيرة ـ في بيان عاقبـة الظلم والظالمين والترهيب الشديد مـن ذلك .. وذلك من بلاغة النبـي ﷺ ـ وقد أوتي جوامع الكلم واؤتمن على بيـان كتاب الله المعجز ـ «الظلم ظلمات يوم القيـامة » يذهب الـذهن في تبين ذلك كلَّ مـذهب ، وينقلب خاسئاً كليلاً لم يحط بأبعادها والصـور التي تعنيها وتشملها . وذلك ما يبعث على الخوف الشديد الشديد من مغبَّة تلك الصفة الأثيمة يوم القيامة ، ويعمل عمله في إبعاد المؤمن عن الوقـوع فيها أو في أسبابها وكل ما هو منها بسبيل ، أيـاً كان موقع هذا المؤمن في المجتمع والأمة !!.

ودائرة السَّوْء هـذه التي تغمر بظلماتها مشهـد الظالمين ظـاهراً وباطنـاً في يوم تشخص فيـه الأبصار ، يُـرى معها وعلى التقـابل ، مشهـد المؤمنين الذيـن عملوا الصـالحات في الدنيـا ، ولم يتمرغـوا في حمأة الظلم والاعتـداء على حقوق الإنسـان المكرّم عند الله ؛ تشهدهـم الخلائق ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، ورحمة الله قـد نشرت عليهم ، والجنـة أزلفت لَهُمْ جـزاء مـا أسلفوا مـن خير ؛ وهل تستـوي الظلمات والنور ؟؟

هذا : وفي « كتاب المظالم » من الجامع الصحيح للإمام البخاري نقع على قوله رحمه الله «باب الظلم ظلمات يوم القيامة » حدثنا أحمد بن يونس قال : حدثنا عبدالعزيز الماجِشون قال : أخبرنا عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « الظلم ظلمات يوم القيامة » وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر . ورواه أحمد في المسند بلفظ «أيها الناس اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » وله في رواية أخرى « يا أيها الناس إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » وبهذا اللفظ أخرجه الدارمي. وأخرجه البيهقي في « الشعب » من هذا الوجه وزاد فيه : قال محارب : « أظلم الناس من ظَلَم لغيره » فياويح أعوان الظلمة ، وياويلهم من يوم كان شره مستطيراً . قال الإمام ابن الجوزي : « الظلم يشتمل على معصيتين : أخذ مالالغير بغير حق ، ومبارزة الرب بالمخالفة ، والمعصية فيه ـ أي في الظلم ـ أشد من غيرها؛ لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار . وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ، لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر . فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى ، اكتنفت ظلمات الظلم الظالمَ حيث لا يغني عنه ظلمه شيئاً » .

وإذا كان الأمر كذلك ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ولا تنفع الظالمين معذرتهم ولاهم يستعتَبون ، فلا بدع أن نرى سادة أولي النهى، لا يلهيهم زخرف الدنيا ومتاعها عن الحق ، ولا ينسيهم السلطان فيها مهما كان شأن ذلك السلطان ماهم صائرون إليه يوم الدين . أخرج أبونعيم في الحلية عن ميمون بن مِهران قال : «خرجت مع عمر بن عبدالعزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، ثم أقبل عليَّ فقال : يا أبا أيوب هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حَلَّت بهم المُثلات ، واستحكم فيهم البلاء وأصابت الهوام في أبدانهم مقيلاً . ثم بكى حتى غشي عليه ، ثم أفاق فقال : انطلق بنا ، فو الله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من

عذاب الله » .

أما ميمـون بن مِهران : فهـو ثقة فقيـه ولي الجزيرة لعمر رحمه الله وتـوفي سنة ١١٧هـ .

« المثـلات » جمعٌ مفرده مُثْلَـه . قـال الـراغب الأصفهـاني في « المفـردات »: (والمُـثْلَةُ: نِقمـة تنزل بالإنسـان ، فيجعل مثالاً يرتـدع به غيره ، وذلك كـالنكال ، وجمعه مُثُلات و مَثُلات) وفي سورة الرعد/ ٦ ﴿ **من قبلهم المثُلات** ﴾.

اتقِ دعوة المظلوم!!

دخلت النار بظلم هرة

الحديث موصول برحلتنا مع بعض النصوص، التي نسعد باستجلاء ما تكشف عنه من وثيق الارتباط بين مشهد من مشاهد القيامة ـ ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾ ـ وبين ما كان عليه أمر الذين يضمهم هذا المشهد من إحسان ،أو إساءة في الدنيا دار الفناء. والعهد قريب بوقفة مع عدد من الروايات لحديث التنفير من الظلم ، والوعيد عليه، ووجوب الاحتراس منه ؛ وكان من تلك الروايات قول النبي ﷺ كما في رواية البخاري « الظلم ظلمات يوم القيامة» وجاءت بعض الروايات عند أحمد بلفظ « يا أيها الناس إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » ولمسلم « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ».

ومما يزيد الأمر تأكيداً ويدل على حرص النبي ﷺ تجنيب المسلم، أن يكون واحداً ممن يلفهم مشهد الظلمات التي تحيق بالظالمين يوم القيامة ، وتعوق سبيلهم عن دخول جنة الخلد : ما نبّه عليه ﷺ من اتقاء دعوة المظلوم ؛ لأنه ليس بينها وبين الله حجاب ؛ فإذا وقع الظلم على إنسان ودعا على ذلك الظالم ، استجيبت دعوته وحلّت بظالمه النقمة في ساعات عصيبات يوم القيامة ، يكون المرء فيها أحوج ما يكون إلى شُعاع من الأمل ، يستشعر من خلاله أنه من الناجين من عذاب السعير ، ناهيك عن افتضاحه على رؤوس الخلائق أجمعين .

أخرج البخاري بسنده في كتاب المظالم من الجامع الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال : اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب». وجاءت الرواية أكثر تفصيلاً في كتاب الزكاة من الجامع من رواية ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى

اليمن : «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » وعند مسلم « فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » وأخرجه أبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد واللفظ عنده « واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله عز وجل حجاب » .

قال صاحب الفتح رحمه الله في شرح « اتق دعوة المظلوم » : (أي تجنب الظلم لئلا يدعو عليك المظلوم ، وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم . والنكتة في ذكره عقب المنع من أخذ الكرائم في قوله : «وإياك وكرائم أموالهم» الإشارة إلى أن أخذها ظلم) . ثم نقل عن بعضهم قوله : (عَطف «واتق» على عامل «إياك» المحذوف وجوباً ؛ فالتقدير : اتق نفسك أن تتعرض للكرائم ، وأشار بالعطف إلى أن أخذ الكرائم ظلم ، ولكنه عمَّم إشارة إلى التحرز عن الظلم مطلقاً).

والمؤمن الذي يخاف الله واليوم الآخر ، ويحذر من الوقوع فيما تسوء عقباه يوم المعاد ، يستوقفه أكثر وأكثر قول النبي ﷺ « فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» فهي ليس لها صارف يصرفها ولا مانع . والمراد ـ كما يقول العلماء ـ أنها مقبولة وإن كان عاصياً ، كما جاء في حديث أبي هريرة عند أحمد مرفوعاً « دعوة المظلوم مستجابة ، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه » وإسناده حسن وقال الطيبي : قوله: « اتق دعوة المظلوم » (تذييل : لاشتماله على الظلم الخاص من أخذ الكرائم ، وعلى غيره). وقوله : « فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » (تعليل للاتقاء ، وتمثيل للدعاء كمن يقصد دار السلطان متظلماً فلا يحجب) ولله جلّ شأنه المثل الأعلى .

ولا عجب في هذا: فالله تبارك وتعالى كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم وأحمد وغيرهما قد حرّم الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرماً ونهاهم عن التظالم « ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا » بل إن الظلم منهي عنه حتى للعجماوات التي لا تعقل. ولسوف تشهد الخلائق يوم الحساب امرأة دخلت النار بظلمها لهرة ، إذ أنها حبستها حتى ماتت جوعاً ؛ فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض . وهو مشهد ذو دلالة عميقة وأثر بالغ في قلب المؤمن وعقله ؛ لما يدل عليه من شناعة الظلم التي ينطق بها ، وكيف أن الظلم يكون طريق المكلَّف إلى جهنم ــ ولو كان لمخلوق غير الإنسان ـ فما بالك بظلم الإنسان ، واغتصاب حقوقه ، وانتهاك حرماته !! وكلما اتسعت ساحة الظلم كماً وكيفاً ، تفاقم الخطب يوم القيامة ، وتراكمت الظلمات التي أعقبها ذلك الظلم ، وكان من وراء ذلك سوء المنقلب وعذاب الجحيم؛ ناهيك عن الافتضاح على رؤوس الأشهاد ، وما يتسربل به الظالم من ألوان المؤاخذة والضيق والاضطراب في نفسه ومشاعره ، ساعة يعضُّ على يديه نادماً ولات ساعة مندم !!!

أخرج البخاري بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « دخلت النار امرأة في هرة ربطتها فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » قال : وحدثنا عبيد الله عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مثله . وله في رواية أخرى « عُذبت امرأة في هرة ربطتها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » وقد مر بنا من قبل أن النبيَّ ﷺ أُريَها تتقلب في الحجيم .

خَشاش الأرض : هوامُّ الأرض وحشراتها من فأرة ونحوها. وظاهر هذا الحديث ـ كما يقول العلماء ـ أن المرأة عذبت بسبب قتل هذه الهرة بالحبس . وقال القاضي عياض : (يحتمل أن تكون المرأة كافرة فعذبت بالنار حقيقة أو بالحساب ؛ لأن من نوقش الحساب عذب . ثم يحتمل أن تكون المرأة كافرة فعذبت بكفرها وزيدت عذاباً بسبب ذلك ، أو مسلمة وعذبت بسبب ذلك) . قال النووي : (الذي يظهر أنها كانت مسلمة وإنما دخلت النار بهذه المعصية) يعني ظلم تلك

المخلوقة التي هي الهرة .

وأخرج الحديث أحمد وابن ماجة. وله عدة روايات عند مسلم ؛ جاء في إحداها قول رسول الله ﷺ : « عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار ، لا هي أطعمتها وسقتها ـ إذ هي حبستها ـ ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض» . وقال الإمام مسلم : حدثنا محمد بن رافع قال : حدثنا عبدالرزاق قال : حدثنا مَعْمَرٌ عن همّام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ . فذكر أحاديث منها : وقال رسول الله ﷺ : « دخلت امرأة النار من جرّاء هِرّة لها أو هرٍ ؛ ربطتها ، فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض حتى ماتت هزلاً » .

وقوله ﷺ . (تُرَمْرِم) هكذا هو في أكثر النسخ ـ كما يقول الإمام النووي ـ وفي بعضها تُرَمِّمُ ، وفي بعضها : تَرَمَّمُ أي تتناول ذلك بشفيتها . وقوله . «من جراء هرة » أي من أجلها ، يُمَدُّ ويقصر ، يقال : من جرّائك ومن جَرّاكَ وجريرك وأجلك بمعنى واحد .

وسبحان من لا يضيع عنده عمل عامل ، ولو كان ذلك العمل مثقال ذرة ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرةٍ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ في مقابل المشهد الذي ندندن حوله ـ وهو جدٌّ واضح في عقبى الظلم في الآخرة ولو كان للحيوان ـ يطالعنا قبس من الهدي النبوي في شأن رحمة البهائم . روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها ، فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفمه حتى رقيَ ، فسقى الكلبَ، فشكر الله له ، فغفر له . قالوا : يا رسول الله وإن لنا في هذه البهائم لأجراً ؟ فقال : في كل كبدٍ رطبةٍ أجر » .

سمي الحي ذا كبد رطبة لأن الميت يجف جسمه وكبده .

وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة ، وردّ الأمة إلى هديه المبارك الميمون رداً جميلاً ، ولله الأمر من قبلُ ومن بعد ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

إن عذابها كان غراماً...

من الحقائق التي لا يتمارى بها مؤمن ، وجـوب أن يظلّ المرء على ذكر من يوم المعاد، وما يكون فيه ، وأن يكن لديه مع رجاء النجاة والفوز بجنة الخلد ، الخوفُ من أن يُلقـى يوم الحشر في العذاب المهين ، لـذا تراه يُسهر ليلـه ويظمىء نهاره في طاعة الله ، وفي الوقت نفسه ، يتضرع إلى مـولاه أن يجيره من عذاب النار ، ويحفظه من سوء المصير ؛ فلا يكـون في عداد من تقشعر لمشهدهم الأبدان ــ وهم يساقون إلى جهنم ورداً ـ حتـى إذا ألقوا فيها لم يكن لهم طعام إلا مـن ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع .

ولقد وجّـه النبي ﷺ الأمة من خـلال الوقائع هـذه الوجهة المباركـة، وسلك بالمسلمين سبيل النجاة يـوم الدين . وطوبى لمن استنارت منهـم البصائر فاهتدوا بهدي المصطفى عليه الصـلاة والسلام وكانوا من المحسنين . قـال الإمام مسلم : حـدثنا إسحـاق بن إبـراهيـم الحنظلي وحجّاج بـن الشـاعر ــ واللفظ لحجـاج ـ (إسحاق : أخبرنا ، وقـال حجّاج : حدثنا) عبـدالرزاق قال: أخبرنا الثـوريُّ عن علقمة بنِ مَرْثَدٍ عن المغيرة بن عبدالله اليشكـري عن معرور بن سويد عن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه قـال : « قالت أم حبيبة : اللهم متعني بـزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان ، وبـأخي معاوية ، فقال لها رسول الله ﷺ : إنـك سألت الله لآجال مضروبة ، وآثـار موطوءة ، وأرزاق مقسومـة ، لا يعجِّل شيئاً منها قبـل حِلِّه ولا يؤخر شيئاً بعد حِلِّه ، ولو سألـت الله أن يعافيك من عذابٍ في النار ، وعذابٍ في القبر ، لكان خيراً لك». وأخرجه أحمد في المسند يقال : حلَّ الأجل حَلاً وحِلاً .

وهذا وأمثالـه من النبي ﷺ : لون مبـارك من ألوان البيان لما جـاء في الكتاب الكريم حول هذا الأمر الجلل . من ذلك ما جاء من الدعاء على لسان عباد الرحمن

من قول الله تبارك وتعالى في سورة الفرقان ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ الغرام : ما كان لازماً ، يقال : فلان مغرم بكذا أي لازم له مولع به . وقيل : الغرام أشد العذاب . وكثيراً ما كان رسول الله ﷺ يتعوذ من النار ، ويعلـم أصحابه ذلك . روى أبو داود في سننه بسنده عن عمـرو بن شعيب عن أبيه قـال : « طفت مع عبدالله ـ يعنـي أباه ـ فلما جئنا دُبُـرَ الكعبة قلـت : ألا تتعوذ ؟ قال : نعـوذ بالله من النـار ، ثم مضـى حتى استلم الحجر ، فـأقام بين الركن والبـاب ، فوضع صدره ووجهـه ، وذراعيه وكفيه هكذا ـ وبسطهما بسطـاً ـ ثم قال : هكذا رأيت رسـول الله ﷺ يفعله » ورواه ابن ماجة ووقع عنده :عن أبيه عن جده ؛ فيكون شعيبٌ ومحمدٌ طافا جميعاً مع عبدالله. وجاء في هذه الرواية : « .. فلما فرغنا مـن السبع ركعنا في دبر الكعبة ، فقلت : ألا تتعوذ بالله من النار ؟ قال : أعوذ بالله من النـار » قال : ثم مضى فاستلم الركن ، ثم قام بين الحِجْر والباب ، وألصق صدره ويديه وخدّه إليه ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل » .

جزى الله نبيَّناً محمداً ﷺ ما هو أهله ، ورفع مقامه في الآخرين ، وآتاه الوسيلة والفضيلة ،وبعثـه المقام المحمـود ، على ما علّم وبيّن ؛ ومـن ذلك تعليمـه الناس بالقـول والفعل أن يتعوذوا من النـار . روى الإمام أحمد في المسند عن ابـن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الـدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن : «اللهـم إني أعوذ بـك من عـذاب جهنم ، وأعـوذ بك مـن عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجـال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » . وكيف لا يتعوذ المؤمـن من النـار ومن عذاب النـار ، وهي على مـا هي عليـه كما جاءت نصوص الكتـاب والسنة في شـأنها ، وفي أحوال أهلها ومـا ينزل بهم مـن الأهوال الشداد !! قال الإمـام الترمذي : حدثنا سـويد قال : أخبرنا عبـدالله قال : أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن ابـن حجيرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما

في جوفه حتى يمرق من قدميه ـ وهـو الصهر ـ ثم يعاد كما كان » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . وسعيد بن يزيد يكنى أبا شجاع مصريٌ روى عنه الليـث بن سعد . وابـن حجيرة هو عبـدالرحمن بن حجيرة المصريُ. وأخـرجه الإمام أحمد في المسنـد من روايـة أبي هريرة أيضـاً ولفظه « إن الحميـم ليصبُّ على رؤوسهم ، فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسْلُت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه » . وفي كتاب الله بعد أن تحدثت الآيات في سورة الصافّات عن المؤمنين وما لهم يوم القيامة من كريم المثوبـة وجزيل العطاء قال ربنا جل جلاله : **﴿أذلك خير نُزُلاً أم شَجَـرَةُ الزَّقّوم . إنّا جعلنـاها فتنةً للظالمين . إنها شجـرةٌ تخرج في أصل الجحيم . طَلَعُها كأنه رؤوسُ الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطونَ. ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم﴾** .

فالله تعـالى يذكر أن أهـل النار يأكلـون من هـذه الشجرة التي لا أقبـحَ من منظرهـا، ولا أبشعَ منها ، ناهيـك عما هي عليه مـن سوء الطعم والريـح والطبع ، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها ، لأنهم ـ على شدة ما يعانون من الجوع ـ لا يجدون إلا إياها ، وما هو في معناها ، كما قال سبحانه : **﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾** . روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقـال : « اتقوا الله حقَّ تقاته ، فلو أن قطرة من الـزقوم قطرت في بحـار الدنيا لأفسـدت على أهل الأرض معايشهـم ؛ فكيف بمن يكون طعامَـه » ، وليس الزقوم فحسب ، ولكنه يمـزج بالحميم أيضاً **﴿ثم إن لهم عليها لشوبـاً من حميم ﴾** وأخرج الحديث الترمـذي والنسائي وابن ماجـة من حديث شعبة ولفظ الترمذي « قرأ رسول الله ﷺ **﴿اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾** قال رسول الله ﷺ : لـو أن قطرة من الزقوم قُطـرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح . وعند البغوي في « شرح السنة» « فلو أن قطرة من الزقوم قطرت على الأرض لأمرّت على أهل الدنيا معيشتهم ، وكيف بمن هو طعامه ، وليس لهم طعام غيره!!» وعند

تفسير قوله تعالى في سورة الدخان : ﴿ **إن شجرة الزقـوم طعام الأثيم..** ﴾ الآيات، ونقل شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري ذلك عن مجاهد أيضاً.

ولقد كان من آثار التصديق بذلك ، ومخافة السلف الصالح أن يكون الواحد منهم في عداد الآثمين أهل هذه العقوبة ـ والمعاذ الله ـ أن عملوا ـ مع أخذ النفس بعمل الصـالحات والإكثار من القربـات ـ على توجيـه من ولاَّهم الله أمرهـم هذه الوجهة ، وأن يسألوا ربهم الجنة ويتعوَّذوا به من النار . أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي نَعـامة «أن عبدالله بـنَ مغَفَّلٍ رضي الله عنه سمـع ابناً له يقـول : اللهم إني أسألك الفردوس وكذا ، وأسألك كذا ؛ فقال : أي بنيَّ سل الله الجنة وتعوذ به من النـار؛ فاني سمعـت رسول الله ﷺ يقـول : يكـون في هذه الأمـة قوم يعتـدون في الدعاء والطَّهور » ورواه ابن ماجة مقتصراً على الدعاء . وأخرجه أبو داود من رواية أبي نَعامـة أيضاً « أن عبدالله بن مغفّـلٍ رضي الله عنه سمع ابنه يقـول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتهـا ، فقال : أي بنيَّ سل الله الجنة وتعوذ به مـن النار ، فإني سمعت رسـول الله ﷺ يقول : إنه سيكون في هـذه الأمة قوم يعتدون في الطَّهور والدعاء » .

من هنا ، كان الـذين يغبطون حقاً : هم أولئك الفطنـاء في كل عصر ، الذين جعلوا همَّهـم سلامـة العاقبـة يوم المعاد ، ولم يـدعوا أبـداً أن يزِنـوا تصرفاتهم بهذا الميزان الـدقيق. مـن هؤلاء السعداء الإمـام أبو إسحـاق الشيرازي العالم العـامل صاحب التصانيف والمتوفى سنة ٤٧٦ هـ جاء في «طبقات الشافعية الكبرى »لتاج الدين السبكي: (لما تـوفي قاضي القضاة أبو عبدالله الحسين بن جعفـر بن ماكولا ببغداد أكـره القائم بـأمر الله الشيخ الإمـام أبا إسحـاق على أن يتقلد لـه النظر في الأحكام والمظالم شرقاً وغرباً ، فامتنع ، فوكّل به ، فكتب إليه «ألم يكفك أن هلكتَ حتى تهلكني معك » فبكى القائم بأمر الله وقال : هكذا فليكن العلماء . إنما أردنا أن يقال : إنه كان في عصرنا من وكِّلَ به وأكره على القضاء فامتنع وقد أعفيناه ..)

رحـم الله العالم الـربـاني أبا إسحـاق الشيرازي ، وأكثـر في الأمة مـن العلماء العاملين النُّصحاء الذين لا يتبدّلون الـدنيا بالآخرة ، ولا يخافون في الله لومة لائم، وأولئك هم أولو الألباب .

تجارة تنجي من العذاب الأليم

من رحمة الله بهذه الأمة، ما هيّأ لها من نصَحة لا يحيدون في نصحهم وتذكيرهم عن المنهل العذب الذي خلّفه سيد الرحماء رسول الله عليه الصلاة والسلام . ومن أبرز مظاهر النصح في حياة هؤلاء: تذكيرهم الناس باليوم الآخر ، وتحذيرهم من الغفلة عن المسؤولية يوم الحساب ، الأمر الذي يثير مشاعر التقوى ، ويحرك القلوب، ويوقظ من طائف النسيان والشيطان .. ولا تسل عن آثار ذلك في حياة من يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، في العاجل والآجل ؛ فترى الوقوف عند حدود الله في الدنيا ، والفوز بعظيم الأجر والمثوبة يوم الحساب . ونعمت عاقبة المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وينتفعون بما يذكّرهم بالله واليوم الآخر ، فيشمّرون عن ساعد الجد لمضاعفة العمل الصالح وتنقيته من الشوائب ابتغاء مرضاة الله، ويحظون يوم الحشر بما يفرح قلوبهم وينسيهم هموم الدنيا وأوضارها .. أجل يحظون بما يؤتيهم الله من فضله، من الفوز بالجنة والنجاة من عذاب السعير .

قال : ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين قال : حدثنا علي بن محمد الطنافسي قال : حدثنا إسحاق بن سليمان ـ شيخ من أهل العراق ـ قال : أنبأنا شعيب بن صفوان عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : « كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبدالعزيز رحمه الله وأعلى منزلته في الآخرين : أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد : فإنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله ، وحُرم جنةً عرضها السماوات والأرض ، أفلا تعلمون أنه لا يأمن غداً إلا من حذِر هذا اليوم وخافه وباع نافِداً بباق ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان !! ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين !! وسيكون مَن بعدَكم الباقين ، حتى تردوا إلى خير الوارثين، ثم إنكم في كل يوم تشيّعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل ، قد قضى

نحبه وانقضى أجله ، حتى تغيّبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهَّد ولا موسَّد ، قد فارق الأحباب وباشر التراب ، وواجه الحساب ، مرتهن بعمله ، غنيٌّ عما ترك ، فقيرٌ إلى ما قدّم ، فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم . ثم جعل ـ رحمه الله ـ طرف ردائه على وجهه ، فبكى وأبكى من حوله » .

والنسبُ الواضح بين هذا الكلام ، وبين معدن النبوة من هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام بيّنٌ لاشية فيه ؛ فكم حذّر رسول الله ﷺ الغافلين وأنذر ، وكم رغّب أمته في العمل لما بعد الموت ، ورهّب من الغفلة عن يوم يصدر الناس فيه أشتاتاً ليُروا أعمالهم، وترى العدل الإلهي منصوب الأعلام ؛ ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ . أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن صفوان عن أيفعَ بن عبد الكَلاعي أنه سمعه يخطب الناس فقال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : يا أهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، قال : لنعم ما اتّجرتم في يوم أو بعض يوم ! رحمتي ورضواني وجنتي ، امكثوا فيها خالدين مخلدين . ثم يقول : يا أهل النار ، كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم . فيقول : بئس ما اتّجرتم في يومٍ أو بعض يوم ! ناري وسخطي ، امكثوا فيها خالدين مخلدين ». وما من ريب في أن وسيلة المؤمن ـ مستعينا بالله ــ إلى الربح العظيم يوم الدين : رحمته وجنته ورضوانه : تقوى الله في السر والعلن ، وخشيتُه سبحانه بالغيب في استقامة وإخلاص يباعدان بينه وبين الغفلة والغافلين ... إنه إن أخذ نفسه بهذا : كان ــ بفضل الله وعونه ـ من الناجين من عذاب الله الأليم، الفائزين بما أعدّ لأوليائه الصالحين المتقين .

وفي كتاب الله تعالى واحدة من حقائق كثيرة تأخذ بيد المؤمنين إلى ذلك الأفق الرحب يوم تأزف الآزفة ، فينالون مع المغفرة والرحمة والنصر على الأعداء ، جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين . ذلكم قول الله جل شأنه في سورة الصف : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب**

أليم . تؤمنون بـالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأمـوالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتـم تعلمون . يغفـر لكم ذنـوبكم ويـدخلكم جنـات تجري من تحتهـا الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ فيا نعم ذلك المشهد العظيم يوم القيامة ، مشهد أولئك الـذين أظلتهم العنـاية ، وتنسّمـوا عبير الهداية ، وغمرتهم نفحـات الرحمن فجمعوا إلى الإيمان بـالله ورسولـه : أن جاهـدوا بأمـوالهم وأنفسهم في سبيـل الله ، مخلصين صادقين . مـوقنين بما أعد الله للمجاهـدين في سبيله مـن الفضل الكبير والعطاء الجزيل .

وعملاً بالهدي الرباني الكريم؛ كان الصحابة رضوان الله عليهم يحرصون أشد الحرص على فعل مـا يكون سبيلهم إلى حسـن العاقبـة يوم اللقاء . جـاء في سبب نزول سورة الصف ـ ومنها هذه الآيات وقوله تعالى : **﴿ إنّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيـان مرصوص ﴾** ـ مـاروى أحمد والترمذي وابن أبي حـاتم واللفظ له عن عبـدالله بن سلام رضي الله عنه «أن ناساً قالـوا : لو أرسلنا إلى رسول الله ﷺ نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ؟ فلم يذهب أحد منا، وهِبنا أن نسأله عن ذلك ، قال : فدعا رسـول الله ﷺ أولئك النفر رجلاً رجلاً حتى جمعهم ونزلت فيهم هذه السورة ﴿ سبّح ﴾ الصف . قال عبدالله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله ﷺ كلّها . «قـال أبو سلمة : وقرأهـا علينا عبدالله بن سـلام كلّها . قال يحيى بن أبي كثير : وقرأها علينا أبو سلمة كلَّها . قال الأوزاعي : وقرأها علينا يحيى ابن أبي كثير كلها . قال أبي : وقرأها علينا الأوزاعي كلَّها ».

ألا وان في النصوص ما يشهد أن الذين يأتون بأحب الأعمال إلى الله: هم من يحبهم الله تعالى ؛ وأكـرم بهذه المحبة من فضل ... أخرج الترمـذي في كتاب صفة الجنة من السنن ـ « الجامع الصحيح ـ عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «ثلاثة يحبهـم الله وثلاثة يبغضهم الله . فـأما الذين يحبهـم الله : فرجل أتى قـوماً فسـألهم بالله ولم يسـألهم بقرابـة بينه وبينهـم فمنعوه ، فتخلّـف رجل في أعقـابهم

فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه . وقوم ساروا ليلتَهم حتى إذا كان النومُ أحبَّ إليهم مما يُعدَل به نزلوا فوضعوا رؤوسهم ، فقام أحدهم يتملقني ويتلو آياتي . ورجل كان في سرية ، فلقي العدوَّ فهُزموا وأقبل بصدره حتى يُقتل أويُفتح لـه . والثـلاثة الـذيـن يبغضهـم الله : الشيـخ الزاني ، والفقير المختـال ، والغنـيُّ الظلوم». ورواه أحمد بنحوه والنسائي وابن أبي حاتم .

وإذا كان الأمر كذلك : فما ظنك بعاقبة هؤلاء المحبوبين يوم العرض على الله الذي أحبهم سبحانه !!

وهذا مشهـد من مشاهد القيـامة لزمـرة من الشهداء ، وما أعـز وأغلى منازل الشهـداء . فعـن نعيم بن همّار الغطفاني رضي الله عنـه « أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : أيُّ الشهداء أفضـل ؟ قال : الذين إن يلقـوا في الصف لا يلفتون وجـوههم حتى يقتلـوا ، أولئك ينطلقون في الغرف العـلا من الجنة ويضحـك إليهـم ربهم ، وإذا ضحـك ربـك إلى عبد في الـدنيـا فـلا حساب عليـه » رواه أحمد وأبـو يعلى بـإسناديـن جيديـن ورواه الطبراني بنحوه مـن حديـث أبي سعيد رضي الله عنـه . ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾..

كذبت... سئلت أيسر من ذلك

لله ما أشدَّ ما يظلم الإنسان نفسه قبل ظلم الآخرين ، حين يكفر بالرحمن ويصدُّ عن سبيل الله؛ ولو عقل واتخذ من سبيل الإنصاف للحقيقة سبيلاً ، لعوفي مما يصيبه من التمزق والقلق النفسي في الدنيا ، ولكان له منجاة مما ينتظر الجاحدين في الآخرة من العذاب المهين .

ولقد حملت إلينا النصوص النبوية الموثقة ـ فيما حملت ـ أخبار واحد من المشاهد التي تؤذن يوم القيامة بما فعل الجحود بالكافر ؛ إذ أوصله إلى أن يقذف في النار ويهلك مع الهالكين ، وهي أخبار تحمل لوناً من الحوار الذي لا يملك الكافر معه إلا أن يستكين للحقيقة ، ولكن بعد فوات الأوان . أخرج الإمام البخاري بسنده عن قتادة عن أنس رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كان يقول: «يُجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقال له: قد كنت سئلت أيسر من ذلك» ولفظه عند مسلم «يقال للكافر يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم : فيقال له : قد سئلت أيسر من ذلك ». وجاء التصريح في روايات أخر بأن الذي يخاطب الكافر الخطاب المذكور ، هو الله تبارك وتعالى ، أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي عمران الجوَنيِّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً : لو كانت لك الدنيا ، أكنت مفتدياً بها ؟ فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم . أن لا تشرك (أحسبه قال) ولا أُدخلَك النار ، فأبيت إلا الشرك » .

والإشارة إلى ما جرى من أخذ العهد على الإيمان والناس في صلب آدم

واضحة . وهـو ما نجده عند أحمد والبخـاري أيضاً قال عبدالله ابـن الإمام أحمد : حدثني أبي قال : حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا شعبة عن أبي عمران الجونيِّ قال : سمعـت أنس بـن مالك يحدث عـن النبي ﷺ قـال : « يقول الله عـز وجل لأهـون أهل النـار عذابـاً : لو أن لـك مـا في الأرض من شيء أكنـت تفتدي بـه؟ فيقول: نعم . فيقول : قد أردت منك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم ، أن لا تشرك بي ، فأبيت إلا أن تشرك بي » .

وكون التوحيد الخالص أهون أو أيسر على الإنسـان ـ كما يقرره الحديث ـ إنما جاء ـ والله أعلم ـ من كون التوحيد وعدم الشرك هو ما فُطر عليه البشر ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ ولكن أهل الضلالة يستحبون العمى على الهدى فيعفّون على هذه الفطرة ، ويسترونها بأهوائهم حيناً ، وبالتقليد الأعمى حيناً ، ويتجاهلون آيات الله في الآفـاق وفي أنفسهم ، فيقعـون في مغبة اتخاذ إلـه من دون الله الخالـق القادر سبحانه وتعالى ، وتكون عاقبتهم الخسران المبين يوم القيامة .

ونجد عنـد الإمام البخـاري : « يقول الله تعالى لأهـون أهل النـار عذابـاً يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به ؟ فيقول : نعم . فيقول : أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم : أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك بي » .

ومشهد هذا الكافر وأمثاله يوم القيامة : مدعاة للكثير من التحسُّب والخوف من الوقوع فيما لا تحمـد عقباه ؛ من أمور قد تجرُّ صاحبهـا إلى الشرك والعياذ بالله. وذو البصيرة تستوقفه كـل لمحة من لمحات المشهـد المذكور ، وبخاصة مـا جاء في بعض الروايات عند مسلم « فيقال له : كذبت قد سئلت أيسر من ذلك فأبيت » وهو ما نجده من رواية قتادة عـن أنس رضي الله عنه قال الإمام النووي يرحمه الله . (وأما قوله : «كذبت» فالظاهر : معناه أن يقال : لو رددناك إلى الدنيا وكانت لك كلُّها أكنـت تفتدي بها ؟ فيقـول : نعم. فيقال لـه : كذبـت، قد سئلـت أيسر من

ذلك فأبيت . ويكون هذا مـن معنى قوله تعالى : ﴿ **ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه**﴾ ولا بد من هذا التأويل ليجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿ **ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به مـن سوء العذاب يوم القيامة** ﴾ أي لو كان لهم يوم القيامة ما في الأرض جميعاً ومثله معه وأمكنهم الافتداء لافتدوا).

وفي هـذا الحديث ـــ كما يقول الإمـام النـووي ـ دليـل على أنه يجوز أن يقـول الإنسان :« الله يقول». وقد أنكره بعض العلماء وقال : يكره أن يقول : « الله يقول» ولكن يقـال : « قال الله » والصـواب جوازه ، وبـه قال عـامة العلماء مـن السلف والخلـف، وبـه جـاء القـرآن العزيـز في قـولـه تعـالى : ﴿**والله يقــول الحق**﴾ وفي الصحيحين أحاديث كثيرة مثل هذا والله أعلم ..

هذا : وممـا يصحب سوء العـاقبة في أمر الكـافر ، وأنها الخسر الذي مـا بعده خسر، أنه يأتي يوم لا ينفع مال غني ولا جاه ذي جاه ولا سلطان ذي سلطان ، فلا يجد حسنة يُجزى بها ممـا كان قـد قدم في الـدنيا ﴿ **وقدمنـا إلى ما عملوا مـن عمل فجعلناه هباءً منثوراً** ﴾ ذلك لأن هـذا العمل ـــ مهما بلغ مـن الخيرية في الـدنيا ـ فأجره في الدنيا، وليس لصاحبه في الآخـرة من نصيب ؛ لأن القاعدة التي لابد أن يقوم عليها العمل ـ وهي الإيمان ـ مفقودة؛ أعاذنا الله من ذلك وعافانا وا لمسلمين من كل ما يوصل إليه ، أو يتصل به من قريب أو بعيد ، وهذا يذكِّر بقوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿**مثل الـذين كفروا بـربهم أعمالهم كرماد اشتـدت به الريـح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد**﴾.

أما المؤمن : فـلا تسل عما يلقى في الآخرة على صنيعـه في الدنيا ، من جـزيل العطاء ، ووافر الفضل والـرحمة والإحسان ، جزاء عبوديته الصادقـة لله عز وجل ، بعد أن يكون لم يُظلم شيئاً بعمله في دار الفناء . روى الإمام مسلم بسنده عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ؛ يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة . وأما الكافر : فيُطعم بحسنات ـ ما عمل

بها لله ـ في الدنيـا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكن لـه حسنة يُجزى بها » وله في رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه أنه حدث عن رسول الله ﷺ : « إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طُعمـةً في الدنيا ، وأما المؤمن : فإن الله يدَّخـر له حسناته في الآخرة ، ويُعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته» .

وهكذا أجمع العلماء ــ أخذاً مـن نصوص الكتـاب والسنة ــ على أن الكافـر الذي مـات على كفره لا ثـواب له في الآخـرة ، ولا يُجازى فيها بشيء مـن عمله في الدنيا متقرباً إلى الله تعالى ، وجاء في هذا الحديث التصريح بأنه يُطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات ، أي بما فعله متقرباً إلى الله تعالى ، بما لا تفتقر صحته إلى النية، كصلة الرحم والصدقة ، والضيافة ، وتسهيل الخيرات ونحوها .

وأما المؤمن : فيـدخر الله له حسناته وثواب أعمالـه إلى الآخرة ، ويجزى بها مع ذلك أيضاً في الدنيا ، قال العلماء : ولا مانع من جزائه في الدنيا والآخرة ، وقد ورد الشرع به ، فيجب اعتقاده .

هذا والحديـث صريح بـأن الله لا يظلم مـؤمناً حسنـة ؛ بمعنى أنـه لا يترك مجازاته بشيء من حسناتـه، والظلم يطلق بمعنى النقص . قالـوا : وحقيقة الظلم مستحيلة من الله تعالى .

وأما إذا فعل الكافر مثل هذه الحسنات ثم أسلم : فإنه يثاب عليها في الآخرة على المذهب الصحيح كما استظهر الإمام النووي وغيره .

وعلى المؤمن أن يتحـرّى ويحذر ما يمكن أن يبطـل عمله قال تعـالى في سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الذين آمنـوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالـذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لايقدرون على شيء مما كسبوا والله لايهدي القوم الكافرين** ﴾.

وبعـد : فكم يحمـل المشهـد الذي نحـن بصدد الحديـث عنـه ـ وغيرُه مـن

المشاهد يوم الدين ــ من الدروس والعبر التي ينقاد لدلالتها أهل البصائر ، فيضاعفون العمل ، ويتحرّون الإخلاص وسلامة المقصد ، والبعد عن كل ما قد يعكِّر صفو التوحيد الخالص الذي هو قاعدة القبول .

وصلى الله وسلم على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحابته أجمعين ..

كيف تنظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين!!

بصائر الهداية في القرآن الكـريم، جعلت من نورها المتألـق حظاً وافراً للعقل والقلب، أضاء للمؤمنين بكثير من الدقة والعمق طريق التعرف إلى حقيقة ما يقع يوم القيامة مـن الأهوال والشدائد ، حتى باتت منهـم كأنها رأي عين .. وكان من رحمة الله بهذه الأمـة أن النبـي عليـه الصلاة والسـلام لم يـدع أن يَـدُلَّ على تلكـم البصائر في كتـاب الله، ويكشف ـ مع البيـان ـ عما يعين على الفهم والتـدبر ، كيما يكون المؤمـن على بصيرة من أمر آخـرته ، فيملـك ـ بعون الله ـ القدرة على تجاوز الصعاب ، وتـذليل النفـس للعبادة الخالصـة ، والإتيان بـالعمل الصـالح الـذي تحسن معه العقبى يوم الدين .

قال عبدالله بن الإمـام أحمد : حدثني أبي قال: حدثنا عبدالـرزاق قال : أنبأنا عبدالله بـن بَحير الصنعاني القـاص أن عبدالـرحمن بن يـزيد الصنعـاني أخبره أنه سمع ابـن عمر رضي الله عنهما يقول : قـال رسول الله ﷺ : « مـن سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ و﴿ **إذا السماء انفطرت**﴾ و ﴿**إذا السماء انشقت**﴾ وأحسبه قـال : وسورة ﴿ **هود** ﴾ ونقع عنده على رواية أخرى لم تذكر فيها سورة الانشقاق ولفظها: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ : ﴿ **إذا الشمس كورت** ﴾ ، و ﴿ **إذا السماء انفطرت** ﴾ وحسبتُ أنه قال: سورة هود » وهنالك رواية أخـرى لا نجد فيها الإشارة إلى سورة هود ؛ ذلكم قول عبـدالله ابن عمـر رضي الله عنهما ـ كما سمـع ذلك منـه عبدالـرحمن بن يـزيد الصنعاني ـــ قال رسول الله ﷺ : «من سرّه أن ينظـر إلى يوم القيامة كـأنه رأي عين فليقـرأ : ﴿**إذا الشمـس كـورت** ﴾ و ﴿**إذا السماء انفطـرت** ﴾ و ﴿**إذا السماء انشقت**﴾» وقد أورد هذه الرواية الحافظ ابن كثير بين يدي تفسيره لسورة التكوير .

وهكذا رواه الترمذي عن العباس بن عبـدالعظيم العنبري عن عبدالرزاق به، وقال : هـذا حديث حسـن غريب . وروى هشام بـن يوسف وغيره هـذا الحديث بهذا الإسناد وقال : « مـن سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كـأنه رأي عين فليقرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ولم يذكر ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾.
وكذلك رواه الحاكم في «المستدرك» وصححه ووافقه الذهبي في كتابه «التلخيص» ولكن بلفظ « من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ **﴿ إذا الشمس كورت ﴾**».

هكذا يوجه النبي ﷺ المسلمين إلى ما يجعل الغيب الذي يؤمنون به كأنه تحت سلطان حواسهـم في الدنيا ، الأمر الـذي يحفز إلى المزيد من اليقظـة ، والبعد عن كل مايوقع في الغفلة ونسيان الله واليوم الآخر .

والملاحظ أن سـورة التكوير بـدئت بقولـه تعالى : **﴿ إذا الشمس كـورت ﴾** وتتالى التـذكير بما يقع يوم القيامـة من آيات الله العظام ؛ حيـث تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ، ثم جاء قـوله تعالى : **﴿ وإذا الصُّحـفُ نُشرت ، وإذا السماء كُشطت. وإذا الجحيم سُعِّرتْ . وإذا الجنةُ أُزلفتْ . عَلمتْ نفْسٌ ما أحْضرتْ ﴾.**

ونشْر الصحـف هـذا : جديـر بـأن يشـدَّ أزر العـاملين ، ويوقـظ الكسـالى المتهاونين . وهنيئاً لمن يقـرأ ويتدبر ، ويعطي هـذه الحقيقة ـ حقيقة أن كـل إنسان يعطى صحيفته بيمينه أو بشماله ـ ما تستحق من الاهتمام ، ويضعها موضعها على ساحة العمل للآخرة والتزود بالتقوى لذلك اليوم ، يومِ الفصل الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين للمساءلة والجزاء .

روى الإمـام الطبري عـن قتـادة في قولـه تعـالى : ﴿وإذا الصحـف نشرت﴾ «صحيفتَك يا ابـن آدم تُملي فيها ثم تُطوى ، ثـم تنشر عليك يوم القيامـة . فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفتـه » وأخرج ابن المنذر عن ابـن جريج **﴿وإذا الصحف نشرت ﴾** قال : « إذا مات الإنسان طويت صحيفته ثم تنشر يوم القيامة فيحاسب بما فيها » .

والأمر هنالك حقٌّ لا مرية فيه ، والعاقل من راقب الله وأعَدَّ لذلك اليوم الزاخر بمشاهد الهول عدّته .. ﴿**وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سُعّرت**﴾. سُعِّرت : أحميت كما يقول السُّدِّي . وقال قتادة: أوقدت . قال : وإنما يسعِّرها غضب الله وخطايا بني آدم . وإذا كانت الجحيم تسعَّر ، ويكون أهل الضلالة من وقودها ، فإن الجنة أيضاً تُزْلَف أي تقرّب إلى أهلها ، أولئك الذين ينشر الله عليهم رحمته يوم الدين ، فيكونون في نعيمها المقيم خالدين . فإذا وقعت تلك الأمور التي دلت عليها الآيات بدءاً من قوله تعالى : ﴿ **إذا الشمس كورت** .. ﴾ الآيات ، حصل ما دلَّ عليه ﴿ **علمت نفس ما أحضرت** ﴾ . هذا هو الجواب ، نعم : إذا وقعت تلك الأمور : حينئذ تعلم كل نفس ما عملت ، وأحضر ذلك لها ، كما قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً** ﴾. وكما قال جل شأنه في سورة القيامة: ﴿**ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر** ﴾.

ولقد كان من فضل الله على الصحابة رضي الله عنهم ـ على تفاوت مراتبهم ـ أنهم كانوا يقرأون القرآن قراءة تدبُّر وخشية ، منتفعين بما وجّه إليه النبي عليه الصلاة والسلام . ولقد انتفع عمر رضي الله عنه بما وجه إليه الرحمة المهداة صلوات الله وسلامه عليه في شأن سورة التكوير هذه وأختيها ، فكنت تراه حين يقرأ ، يقرأ تلك القراءة التي تُسْلمه إلى حيث يرى كأن القيامة تحت ناظريه من عالم الشهادة ، لا من عالم الغيب . أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق زيد بن أسلم عن أبيه قال: « لما نزلت ﴿ **إذا الشمس كوّرت** ﴾ قال عمر لما بلغ ﴿**علمت نفس ما أحضرت** ﴾ ، قال : « لهذا أجري الحديث » .

والحق أن من رزق التبصّر بتلكم السور الثلاث: التكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والتدبُّر لمعانيها حق التدبر ، فقد حظي بالوافر من الخير ، وكان على حق اليقين بصدق ما رغب به النبي عليه الصلاة والسلام ؛ من أن القراءة الواعية

المتدبرة ، تثمر أن ينظر المؤمن إلى يوم القيامة ـ وهو من الغيب ـ كأنه رأي عين ؛ وهو ما كان عليه سلف هذه الأمة ومن جرى على منوالهم ممن رزقوا الإخلاص في القول والعمل ، وصدقوا في إيمانهم وعبوديتهم لله عز وجل ؛ كالذي رأينا من عمر رضي الله عنه .

ثم إن التذوق الإيماني الذي يبلغ بصاحبه، أن ينظر إلى يوم القيامة يومِ الحشر الأكبر نظرة اليقين الذي ما بعده يقين ، حتى كأن ذلك اليوم من عالم الشهادة يراه بحاسة البصر ، وينفعل بمشاهده ووقائعه ... إن هذا التذوق الرفيع مرتبة غاية في السمو واستنارةِ القلب والعقل ، ينبغي لكل مؤمن أن يكون جاداً في سلوك الطريق الموصلة إليها .

وغير خافٍ أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان ـ وهو سيد البلغاء ـ على خير مستوى في الدعوة إلى ذلك حين قال : « من سرّه ـ أو من أحب ـ أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿ **إذا الشمس كورت** ... ﴾ » الحديث.

ومنذا الذي يعقل عن رسول الله ما أراد ، ولا يسرّه ، أو لا يحب أن يكون كذلك؟ إذن فليسلك الطريق .. الطريق التي عنوانها الإيمان والعمل ، والابتلاء ، والصبر على ما يعترض من مشاقّ وصوارف. وحسبك في تحديد المسار على هذه الساحة قوله عليه الصلاة والسلام : « حفّت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » على تعدد الروايات. صلى الله وسلم وبارك على من أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً ..

ذهبوا وبقيت أعمالهم..

ولكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه

أرأيت إلى الإنسان إذا خاف أن يمسَّه الضر في الدنيا ، كيف يسعى جاهداً لدفع ذلك الضُّرّ ، والحيلولة دونه ودون أن يقع ، وكيف يدعو ربه ويتضرع إليه من أجل ذلك ؟؟ أو ليس الضرُّ الذي يمكن أن يمسَّه يوم المساءلة والحساب ، أولى وأحرى أن يعمل على دفعه ، وسلوك السبل الكفيلة ــ بعون الله ــ أن تحول دون الوقوع في مغبته !! بل إن العاقل ـ كل العاقل ـ هو الذي يسعى جاهداً ـ ما وسعه الجهد ـ إلى أن يكون في عداد من يزحزحون عن النار ، ويفوزون بجنة الخلد التي وعد الله عباده الصالحين . وإن يوماً يبلغ فيه الهول مبلغ أن يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، والإنسان ـ في واقع الحال ـ بأمسِّ الحاجة إلى الحسنة ، بل إلى مثقال ذرة من الحسنة ، بغية النجاة من عذاب السعير .. إن يوماً تبلغ فيه شدة الهول هذا المبلغ: جدير بأن يُحسب له كل حساب، وأن يُتزوّد للرحلة الشاقة الطويلة إليه ، بالزاد المناسب من تقوى الله ومخافته في السر والعلن ، والطمع برحمته وعونه وفضله ..!

ولو ترى مشهد العباد يوم المعاد ــ والقلوب يومئذ واجفة والأصوات خاشعة ـ !! إذن لرأيت العجب العجاب ، ولأقلقك أشدَّ القلق ، أن تكون في ذلك اليوم ممن يساقون إلى العذاب الأليم في جهنم وبئس المهاد . ﴿ يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميماً . يبصَّرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا إنها لظى . نزَّاعةً للشّوى . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى ﴾ .

ويزداد الأمر انكشافاً ، لايبقى معه عذر لمن يغفل عن النظر في عاقبة أمره يوم الحساب ـ معرضـاً عن حقيقة أنه ليس بعد هذه الدنيـا من دار إلا الجنة أو النار ـ بقول الله تبـارك وتعالى : ﴿ **فإذا جـاءت الصاخّـة . يوم يفـر المرء من أخيـه . وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيـه . لكل امرىء منهم يومئـذ شأن يغنيه** ﴾ . قال عكرمة ـ كما روى الطبري وأورده الحافظ ابن كثير ـ «يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه أيَّ بعل كنت لك ؟ فتقول : نعم البعل كنتَ ! وتثني بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تَهَبِينَها لي لعلي أنجـو مما ترين : فتقول له: ما أيسر مـا طلبـت، ولكنـي لا أطيق أن أعطيَـك شيئـاً ؛ أتخوّف الـذي تخاف . وإن الرجل ليلقـى ابنه فيتعلق به فيقـول : يا بني ، أيَّ والد كنـت لك ؟ فيثني بخير ، فيقول له : يا بنيّ إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى ! فيقول ولده : يا أبـت ما أيسر ما طلبت ، ولكني أتخوف مثل الـذي تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً . قال عكرمة : يقول الله تعالى : ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه** ﴾».

ولقد مر بنا في غير موطن من هذه الصفحات ، ما جاء في الحديث الصحيح في أمر الشفاعة أنه إذا طُلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق ، يقول : نفسي نفسي ، لا أسـأله اليـوم إلا نفسي ، حتى إن عيسى بـن مريـم عليه السلام يقول : لا أسأله اليوم إلا نفسي ، لا أسأله مريم التي ولدتني .. حتى يكون ما يكون من شفاعة محمد ﷺ في القضاء بين العباد ...

والحقُّ أن النبي عليه الصـلاة والسلام لم يدع زيادة لمستزيـد في الكشف عن جوانب هـذه القضية الكبرى بياناً لقـوله تعالى : ﴿**لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**﴾ وليس من القول المعاد ، التذكير بما روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عبـاس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « تحشرون يـوم القيامة حفاة عراة غرلاً » قال: فقالت: زوجته : يارسول الله ، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال : ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ أو قال : « ما أشغله عن النظر ».

والغُرل جمع أغرل وهو الأقلف غير المختون . وقد روى هذا الحديث النسائي منفرداً بـه عن أبي داود عن عـارم عن ثابـت بن يـزيد ـ وهـو أبو اليزيـد الأحول البصري أحد الثقات ــ عن هلال بن خبـاب عن سعيد بن جبير عـن ابن عباس بــه ، كما رواه الترمذي من طريق عكرمة عن ابن عباس بلفظ «.. فقالت امرأة » ثم قـال الترمذي : هـذا حديث حسـن صحيح وقد روي مـن غير وجه عـن ابن عباس رضي الله عنهما .

ويبدو أن الزوجة المومى إليها ، هي أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها. فقد أخـرج النسائي بسنده عن عـروة عن عائشة رضي الله عنهـا أن رسول الله ﷺ قال : « يُبعـث الناس يوم القيـامة حفاةً عـراة غرلاً فقالـت عائشة : يـارسول الله، فكيف بالعورات ؟ فقال : ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ » .

وهل يرتاب مؤمن ، في أن المعتصم من مخاطر تلكم الساعات العصيبات يومَ الفصل ، حيث يجمع الله الأولين والآخرين .. عملٌ صالح يقوم على إيمان راسخ، وصدقٌ مع الله واستعانـةٌ به سبحانه وتعالى ، وضراعة خاشعة إليـه تدني من رحمته وتباعد من نقمتـه ، مع ذكر للموت وما بعد الموت ، واستغفار مـن الذنوب ، قبل أن تبلغ الـروح الحلقومَ ، ولا تنفـع الغافلَ تـوبة ؟!! أما التـولي عن هـذه السبيل، والتسربل بـالغفلة عـن الله ، والصد عن سبيلـه .. فلا يزيـد المرء يوم القيـامة غير تخسير ، ويا بؤسه وشقاءه هناك ، وهو لا يجد من دون الله ولياً ولا نصيراً ..

قال الحافـظ أبو نعيـم الأصبهاني في الحلية : حـدثنا عبـدالله بن محمـد قال : حدثنـا محمد بن سهـل قال : حدثنـا سلمة بـن شبيب قال : حـدثنا إبراهيـم بن الحكم بن أبـان قال : حدثنا أبي عن عكـرمة قال : «إن الله تعالى أخـرج رجلاً من الجنة ورجـلاً من النار ، فـوقفهما بين يديه ثـم قال لصـاحب الجنة :عبـدي كيف وجدت مقيلك في الجنة ؟ فيقول : خيرَ مقيل قاله القائلون ؛ فذكر من أزواجها وما فيها مـن النعيم . ثم قـال لصاحب النار : عبـدي كيف رأيت مقيلـك في النار ؟

فقال : شرَّ مقيل قاله القائلون ، وذكر عقاربها وحياتها وزنابيرها ، وما فيها من ألوان العذاب . فقال له ربه عز وجل : ماذا تعطيني إن أعفيتك من النار ؟ فقال العبد : إلهي وما عندي ما أعطيك ، فقال له الرب : لو كان لك جبل من ذهب أكنت تعطيني فأعفيَك من النار ؟ فقال : نعم ! فقال له الرب جل شأنه : كذبت! لقد سألتك في الدنيا أيسر من جبل من ذهب ، سألتك أن تدعوني فأستجيبَ لك ، وأن تستغفرني فأغفر لك ، وتسألني فأعطيَك ، فكنت تتولى ذاهباً » .

من هنا كان أهل الخشية على ذُكر لما يكون في عرَصات القيامة ، وتحسُّب شديد لما يمكن أن يؤول إليه الأمر بعد المساءلة بين يدي من لاتخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، فيحرصون أشد الحرص على أن يلقوا الله ـ يوم يلقونه ـ بصالح العمل ، مع صدق الإنابة إليه ورجاء الرحمة منه ، فالباقيات الصالحات ﴿خير عند ربك ثواباً وخير مردّاً ﴾. جاء في ترجمة الإمام الثقة مجاهد بن جبر قوله رحمه الله : «مررت مع عبدالله بن عمر على خَرِبة ، فقال : يا مجاهد ناد يا خربة ما فعل أهلك أين أهلك ؟ قال : فناديت . فقال ابن عمر : « ذهبوا وبقيت أعمالهم » ..

كتاب المؤمن يوم القيامة..
وكتاب الكافر والمنافق

أورد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ما ذكر ابن أبي الدنيا وغيره من أنه ورد في بعض الآثار :« أن الله سبحانه يأمر بناس من الناس إلى الجنة ، حتى إذا رأوها وشاهدوا ما فيها من الكرامة ، قال الله لملائكته : اصرفوهم عنها ، لاحظَّ لهم فيها. قالوا : يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينَا ما أريتنا ، كان أهونَ في عذابنا ! قال الله: ذلك أردت بكم ، إذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين متواضعين ، و إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم ، أجْلَلْتم الناس ولم تُجِلُّوني ، وخفتم الناس ولم تخافوني ، فاليوم أذيقكم أليم عذابي كما حرمتكم جزيل ثوابي » .

إنه لمشهد ناطق بجناية هؤلاء المنافقين ومرضى القلوب على أنفسهم ؛ فالذي أراده الله بهم من الصرف عن الجنة، بعد أن رأوها وشاهدوا ما فيها من الكرامة ، إنما كان بما أسلفوا في الدنيا من تواضع و إخبات إذا لقوا الناس ، ومبارزة لله بالعظائم إذا خلوا بأنفسهم ؛ وفي هذا إجلال للناس ، وعدم إجلال لله سبحانه وتعالى ، وخوفٌ من الناس وعدمُ خوف من الله الذي يعلم السرَّ وأخفى . وكان ذلك طريقهم إلى سوء العاقبة وبئس المصير « فاليوم أذيقكم عذابي كما حرمتكم جزيل ثوابي » .

وأين هذا المشهد من مشهد أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأخبتوا إلى ربهم ، حيث الفوز بالنعيم المقيم، والكرامة الربانية التي لم تخطر على قلب بشر .

هكذا ينكشف الغطاء ، وتعبِّر المشاهد عما كان عليه أصحابها في الدنيا ؛ من رغبة في الحياة الدنيا وزينتها ، أو إرادة للآخرة وسعي حثيث لها . فإذا دعيَ كل

أنـاس بإمـامهم كتـابِ أعمالهم ، فـاز أهل الإنـابة والتقـوى ، ﴿ **وخسر هنالـك المبطلون** ﴾. وفي كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، ما يبصّر بهذه الحقيقة التي لا يماري فيها مؤمن ، ويزيل الغشـاوة عن الأعين ، ولكن المنافقين بآيات الله يجحدون، وماذا الذي ينجي الكافر من عذاب الله في ذلك اليوم ، وقد أعرض عن ذكر الله في هذه الدار ، وأسلم عقله وقلبه للهوى والشيطان ؟؟

جاء في سورة الإسراء قـول الله تبارك وتعالى : ﴿**يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمـى وأضل سبيلاً** ﴾ . قال ابـن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ أي بكتاب أعمالهم ، وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك ، وهذا القول هـو الأرجح ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ لقوله تعالى : ﴿ **وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيـه ويقولون يا ويلتنا مـا لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ .

ثم مـاذا بعد هذا المظهـر من مظاهـر العدل الإلهي يوم الـدين؟ ﴿**فمن أوتي كتابه بيمينه فـأولئك يقرأون كتابهم**﴾ أي مـن فرحتـه وسروره بما فيـه من العمـل الصالح والقربات والطاعات ، يقرأه ويحب قـراءته. قال الترمذي : حدثنا عبدالله بن عبدالرحمن قـال : أخبرنا عُبيد الله بن موسى عن إسرائيل عـن السدّى عن أبيه عـن أبي هـريـرة رضي الله عنه عـن النبـي ﷺ في قـول الله ﴿**يوم ندعـو كل أناس بإمامهم**﴾ قال :« يُدعى أحـدهـم فيعطى كتابَه بيمينه ، ويُمَـدُّ له في جسمه ستون ذراعـاً ، ويُبيَّضُ وجهُـه ، ويُجْعَـلُ على رأسه تـاج من لـؤلـؤ يتلألأ ، فينطلـق إلى أصحابـه ، فيرونه مـن بعيد فيقـولون : اللهـم ائتنا بهذا وبـارك لنا في هـذا ، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا لكل رجل منكم مثل هذا . وأما الكافر : فيسَوَّد وجهُه ويُمدّ له في جسمه ستون ذراعـاً على صورة آدم ، فيُلبس تاجاً ، فيراه أصحابـه فيقولون : اللهم أخْزِه فيقول: أبعدكم الله ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا ». قال أبو عيسى:

هذا حديث حسن غريب. والسُّدّي اسمه إسماعيل بن عبدالرحمن . ورواه البزار وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وابن مردويه كلهم عن أبي هريرة كما ذكر ذلك السيوطي في كتابه « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » .

وفي رواية البزار شيء من الاختصار ولفظها : « يدعى أحدهم فيعطى كتابَه بيمينه ، ويُمدُّ له في جسمه ، ويبيَّض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة تتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه ، فيرونه من بعيد ، فيقولون : اللهم ائتنا بهذا وبارك لنا في هذا . فيأتيهم فيقول لهم : أبشروا ، فإن لكل رجل منكم مثل هذا . وأما الكافر : فيَسوَّدُ وجهُهُ ، ويُمَدُّ له في جسمه ، ويراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من هذا ـ أو من شر هذا ـ اللهم لا تأتِنا به ، فيأتيهم فيقولون : اللهم أخزه ، فيقول : أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا » .

وقد كشفت النصوص المباركة ،عن مقدار الفرحة التي تنال من أوتي كتابَه بيمينه ، والخزيِ الذي يحيق بمن أوتي كتابه بشماله ؛ فقال تعالى في سورة الحاقة : **﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه. فهو في عيشة راضية﴾** إلى أن يقول سبحانه :**﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه﴾** .

فهذا الذي أوتي كتابه بيمينه يقول ـ وقد غمرته السعادة وأشرقت عليه الفرحة بذلك ـ.. يقول من شدة فرحه لكل من لقيه : **﴿ هاؤم اقرؤا كتابيه ﴾** أي خذوا اقرؤا كتابيه ؛ لأنه يعلم أن الذي فيه : خير وحسنات محضة ؛ لأنه ممن بدّل الله سيئاتهم حسنات ، وذلك عنوان النجاة والفوز المبين . قال ابن أبي حاتم : حدثنا بشر بن مطر الواسطي قال : حدثنا يزيد بن هارون قال : أخبرنا عاصم الأحول عن أبي عثمان قال : «المؤمن يُعطى كتابَه في ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغيّر لونه ، حتى يمر بحسناته، فيقرؤها فيرجع إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته

سيئاته قد بُـدلت حسنات ، قال : فعند ذلك يقول : هـاؤم اقرؤا كتابيه » . وروى بسنده عن عبدالله بن عبدالله بن حنظلة ـ غسيل الملائكة رضي الله عنه ـ قال : إن الله يقف عبدَه يوم القيـامة ، فيبدي سيئـاته في ظهر صحيفتـه، فيقول لـه : أنت عملـت هذا ؟ فيقـول : نعـم أي رب . فيقول لـه : إني لم أفضحـك به ، وإني قـد غفرت لك ، فيقول عند ذلك . **﴿هاؤم اقرأوا كتابية إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾** حين نجا من فضيحة يوم القيامة ».

وقوله : **﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾**. أي قد كنت موقناً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالـة ، كما قال تعالى: **﴿ الذين يظنون أنهم مـلاقو ربهم وأنهم إليه راجعون﴾**.

وغسيل الملائكة صحابي من سادات المسلمين وفضـلائهم ، وهو حنظلة بن أبي عامر عمرو بن صيفي . استشهد يوم أحد وسبب تسميته غسيل الملائكة ـ كما يروي ابـن اسحاق ـــ قول النبي ﷺ : « إن صـاحبكم لتغسلـه الملائكة » ـــ يعني حنظلة ـ فسألـوا أهله : ما شأنه ؟ فسئلت زوجته فقالـت : خرج وهو جنب حين سمع الهائعـة ـ الصيحـة التي فيهـا الفزع ـــ فقال رسـول الله ﷺ : لذلـك غسلته الملائكة ، قال ابن الأثير : وكفى بهذا شرفاً ومنزلة عند الله تعالى .

وأبوه أبو عامر كان قد أضمر النفـاق وخرج إلى مكة ثم عاد ليقاتل المسلمين مع قـريش يوم أحد ، فسماه رسـول الله ﷺ : الفاسق . ولما فتحت مكـة هرب إلى هرقل الروم فمات كافراً هناك سنة تسع .

وسبحـان من يخرج الحي مـن الميت ويخرج الميـت من الحي . ورضي الله عـن حنظلة غسيل الملائكة وأرضاه .

في اليوم العظيم
يكونون في العرق على قدر أعمالهم!

من المشاهد التي تنبىء يوم القيامة عن مقدار العلاقة بين ظلم العباد بعضهم بعضاً ـ في منع حق أو تجاوزه إلى ما هو دونه ـ وبين المسؤولية في الآخرة: مشهد أولئك الذين يعذَّبون، لأنهم كانوا يبخسون في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى أحدهم من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم.

وهؤلاء هم المطفِّفون الذين توعدهم الله بالويل ـ وهو وادٍ في جهنم، أو الخسار والهلاك الذي يودي بهم إلى عذاب السعير ـ جزاء صنيعهم في عدم الوفاء بالكيل والميزان ﴿**ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون**﴾ إنهم إذا اكتالوا من الناس: يستوفون حقهم بالوافي والزائد، وإذا كالوهم أو وزنوهم ينقصون، وفي هذا مخالفة صريحة لما أمر به ربنا تبارك وتعالى من الوفاء بالكيل والميزان؛ ففي سورة الإسراء نقرأ قوله تعالى: ﴿**وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً**﴾ ونقرأ في سورة الأنعام قوله عز وجل: ﴿**وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها**﴾ وجاء في سورة الرحمن قوله تباركت أسماؤه: ﴿**وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان**﴾ وأخبر الكتاب الكريم عن أن الله أهلك قوم شعيب ودمّرهم على ما كانوا يبخسون الناس في المكيال والميزان.

ولقد جاء الوعيد صريحاً مشدّداً بالتذكير بذلك اليوم الزاخر بالشدائد والأهوال، يومِ القيامة الذي يجد كل امرىء فيه ما قدّم. ويا ويل الظالمين، وأكَلةِ أموال الناس بالباطل مما ينصَبُّ عليهم ـ بما اجترحته أيديهم ـ من العذاب الأليم. ﴿**ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ أما

يخاف أولئك الظالمون المتصفون بالأثرة وحبِ الذات ، عند التعامل المالي أو غيره مع الآخرين .. أما يخافون من البعث، والقيام بين يدي من يعلم ما تخفي السرائر وتنطوي عليه الضمائر ، في يوم عظيم الهول ، كثير الفزع جليل الخطب ، مَنْ خسر فيه أُدخل ناراً حامية ﴿ **لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغسّاقاً ، جزاءً وفِاقاً** ﴾ !

ولقد حملت إلينا السنة ـ في صور من رائع البيان ـ ما يكشف عن بعض من مظاهر الهول العظيم المطبق بكلكله في عرصات القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين .. يوم يقومون حفاةً عُراةً غُرلاً ، في موقف صعب حرج ، شديد الضنك على المجرم الذي ظلم نفسه وظلم عباد الله ، ويغشاهم من أمر الله ما تعجز القوى والحواس عنه ، نسأل الله ــ بكرمه ولطفه ــ العفو والعافية . جاء في الجامع الصحيح «باب يوم يقوم الناس لرب العالمين» من كتاب التفسير قول الإمام البخاري : حدثنا ابراهيم بن المنذر قال : حدثنا معن قال : حدثنا مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أذنيه» . وترجم ـ رحمه الله ــ لهذا الخطب الجلَل في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح بقوله : «باب قول الله تعالى : ﴿**ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **وتقطّعت بهم الأسباب** ﴾ الوُصُلات في الدنيا ».

وأخرج هناك بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يعرقُ الناس يوم القيامة ـ حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجُمهم حتى يبلغَ آذانهم ». وكأن البخاري رحمه الله ـ كما يقول الحافظ ــ أشار بهذه الآية ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ إلى ما أخرجه هنَّاد بن السَّري في كتابه «الزهد» من طريق عبدالله بن الحارث عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال له رجل: «إن أهل المدينة ليوفون الكيل ، فقال : وما يمنعهم وقد قال الله تعالى : ﴿**ويل للمطففين**﴾ إلى قوله : ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ قال : إن العرق ليبلغ

أنصاف آذانهم من هول يوم القيامة » وهذا لما لم يكن على شرطه ، أشار إليه ، وأورد حديث ابن عمر المرفوعَ في معناه .

والأسباب: هي الوُصُلات التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا واحدتها وُصلَةٌ . قال قتادة : الأسباب الموصلة التي كانت بينهم في الدنيا يتواصلون بها ويتحابون ، فصارت عداوة يوم القيامة . وأخرج الامام أحمد بسنده عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة ، حتى إن العرق ليُلجم الرجال إلى أنصاف آذانهم » .

وجاء في بعض روايات الحديث ، ما دل على أن الناس يكونون في العرق على قدر أعمالهم . أخرج الإمام مسلم بسنده عن سُلَيم بن عامر قال : حدثني المقداد ابن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكونَ منهم كمقدار ميل ـ قال : سُلَيم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل ! أمسافة الأرض أم الميل الذي تُكْتَحَلُ به العين. قال : فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ؛ فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيهِ ، ومنهم من يُلجمه العرق إلجاماً ، قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه » . وله في رواية أخرى : « فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق » وعند الإمام أحمد من رواية المقداد أيضاً رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد ، حتى تكون قِيدَ ميل أو ميلين . قال : فتَصهَرهم الشمس ، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عقبه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حَقويه ، ومنهم من يُلجمه إلجاماً ».

القِيد : بكسر القاف : القَدْر يقولون : قِيدَ رمح أي قدره . والحَقْوُ : بفتح الحاء: موضع شد الإزار وهو الخاصرة ، ثم توسعوا حتى سموا الإزار الذي يشد

على العورة حَقْواً . قال ابن الأثير في كتابه « النهاية » : والأصل في الحَقو : معقد الإزار : وجمعه أَحْقٍ وأحقاء ، ثم سمي به الإزار للمجاورة وفي القاموس المحيط : جواز كسر الحاء من حقو .

وإذا كان الأمر كذلك : فيا بشرى الذين لانت قلوبهم لأخبار ذلك اليوم يومِ القيامة ، الذي يأخذ فيه العرقُ الناس على قدر أعمالهم ، فراحوا يبذلون قصارى جهدهم في ملء الوقت بطاعة الله ، وأخذ النفوس بكل ما هو من طريق النجاة بسبب ، ودعوا إلى ذلك بحالهم ومقاهم وكانوا من المحسنين . روى أبو نعيم في (الحلية) عن القاسم بن أبي بَزَّةَ قال : حدثني من سمع عبدالله بن عمر رضي الله عنه «أنه قرأ ﴿ ويل للمطففين ﴾ حتى بلغ ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ فبكى حتى خرّ وامتنع من قراءة ما بعده » .

اللهم باعد بيننا وبين طريق المطففين الظالمين واجعلنا ـ برحمتك ـ من أهل النجاة يوم الحَسْرَة ، واكتبنا من الفائزين المنعم عليهم برضوانك في جنة النعيم .

أن يكون في كتاب الله الذي لا يـأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه و في عهد مبكر من عمر الدعوة ـ أعني العهد المكي ـ آيات تتوعّد المطففين الذين إذا اكتالوا على النـاس يستوفون . وإذا كالوهـم أو وزنوهم يخسرون ، وتنذرهـم شديد بطش الله ، ومـا ينزل بـالطاغين من الـويل يوم الـوعيد .... أن يكـون في الكتاب الكريـم آيات مبكِّرة تحمـل وعيد العقاب الأليـم ، ونذارة الهول الشديـد في ذلك اليـوم العظيم لأولئـك العاديـن على الآخـرين : دليـل واضح على حكمـة الله في الهداية ـ من أول الطريق ـ إلى صياغة المجتمع المسلم ، صياغة تنأى به عن الأذى والظلم ، وتصونـه عن كل ما من شـأنه إضاعة الحقوق ، أو تجاوز حـدود إنسانية الإنســان .

كما أن في ذلك، مـا يؤذن بما يجب من توظيـف الوعيد الأخروي ؛ على سـاحة البناء الأمثل للفـرد و الجماعة في الدنيا دار العمل ؛ فإذا نجـا الظالمون والمنتهكون لحرمات الإنسان وحقوقه في الدنيا : فـانهم غير معجزي الله في الآخرة ، بل هنالك العقوبة المناسبـة ، في يوم يشيب فيه الوليد من شدة الهول جـزاءً بما كانوا يعملون **﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾** .

وقد عرضنا مـن قريب لشذرات مضيئة من حديث النبـي ﷺ تتناول بالبيان النبوي الكريم ، كشفاً عن جانب من جوانب الهول العظيم في ذلك اليوم العظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين، وكان مما أسعدتنا به الرحلة مع تلكم النصوص : ما روى الإمام البخـاري عن أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : «يعرق الناس يوم القيـامة حتى يذهـب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهـم حتى يبلغ آذانهم» وطـالعتنا بعض الأحاديـث بما يدل على أن الناس يكونـون في العرق

على قدر أعمالهم كما جاء ذلك فيما أخرج الإمام مسلم من رواية المقداد بن الأسود رضي الله عنه « فمنهم من يأخذه إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ومنهم من يأخذه إلى حَقويه » .

وفي متابعة للرحلة المباركة مع الكلمة الهادية البانية ، في حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام التي تقف المسلم على صور من مشاهد يوم الفصل ، نقع على رواية انفرد بها الإمام أحمد في المسند عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ، ويزاد في حرها كذا وكذا ، تغلي منها الهوامُّ كما تغلي القدور ، يعرقون فيها على قدر خطاياهم ، منهم من يبلغ إلى كعبيه ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يُلجِمُه العرق » وجاء في رواية أخرى لأحمد قول الرسول ﷺ ـ كما روى عقبة بن عامر رضي الله عنه ـ: « ومنهم من يبلغ الخاصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه ومنهم من يبلغ وسط فيه ـ وأشار بيده فألجمها فاه ـ رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا ، ومنهم من يغطيه عرقه ـ وضرب بيده إشارةً » . وعند الحاكم من رواية عقبة أيضاً «.. ومنهم من يغطيه عرقه ، وضرب بيده على رأسه » .

ولا تعجب : فذلك من الخوارق التي تقع يوم القيامة ـ وما أكثرها ـ والقوانين هناك في دار البقاء ـ وهي من الغيب بالنسبة إلينا ـ غيرها هنا في دار الفناء، ولنذكر قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **يوم تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾.

والحق أن من نعم الله العظمى على المسلم أن تزكوَ نفسه ، فيكونَ صادق الانفعال والتأثر بتلك الحقائق على الوجه الذي يقود إلى الاستمساكِ بحبل هذا الدين ، وملء الوقت بصالح العمل ، استعداداً للموت وما بعد الموت ، وتزوّداً لذلك اليوم الذي لا ريب فيه . ولقد كان من نصح النبي ﷺ لأمته ذلك البيان النبوي الثَّرُّ في شأن ذلك ؛ حيث قطع الطريق على المتبطلين وشُداة الأعذار ، ولم

يدع زيادة لمستزيـد . فهذه الشدة العاتية التي تلحق بمستحقيها : أمـدُها طويل وثِقْلُها ثقيل . أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ما مـن صاحـب ذهـب ولا فضـة لا يؤدي منهـا حقهـا ، إلا إذا كـان يوم القيـامـة، صفّحت له صفائح من نار ، فأحمي عليهـا في نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فيُرى سبيلَه: إما إلى الجنة وإمـا إلى النار .. » الحديث .. وأخرج أحمد وابـن حبان ، والبيهقي في كتاب « البعـث والنشور » من طريـق عبدالله بن الحارث عن أبي هـريرة رضي الله عنه « يحشر الناس قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم فيلجمهم العرق من شدة الكرب » .

من أجل هذا : كـان النبي صلوات الله وسلامه عليه يتعوذ مـن كرب القيامة وسوء الحساب ، معلماً أمته ذلك ؛لأنه لا ملجـأ ولا منجى من الله إلا إليه . أخرج ابن أبي حـاتم بسنـده عن أبي هـريرة رضي الله عنـه قال: قـال النبي ﷺ : لبشير الغفاري : « كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين من أيـام الدنيـا ، لا يأتيهـم فيـه خبر من السماء ولا يـؤمـر فيه بـأمر ؟» قـال بشير : المستعان الله. قـال : « فإذا أويـت إلى فراشك، فتعـوذ بالله من كـرب يوم القيـامة وسوء الحساب» . وعن عاصم بن حميد قال : «سألت عائشة بأي شيء كان يفتتح رسول الله ﷺ قيـام الليل ؟ فقالت : لقـد سألتني عـن شيء ما سألني عنـه أحد قبلـك ، كـان إذا قـام كبّر عشراً ، وحمد الله عشراً ، وسبَّـح عشراً ، وهلّـل عشراً ، واستغفر عشراً، وقـال : اللهم اغفـر لي، واهدني ، وارزقنـي، وعافنـي ويتعوذ مـن ضيق المُقام يوم القيامة » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجة واللفظ لأبي داود .

ويُذكر أنّ هنالك بعض النصوص التي تدل على تهوين الشدة في العرق على المؤمن ؛ فقد أخرج أبـو يعلى وصححه ابن حبان عن أبي هريـرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ﴿ **يوم يقوم النـاس لرب العالمين** ﴾ قال : مقدار نصـف يوم من خمسين ألف سنة ، فيتهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس إلى أن تغرب » .

وجاء عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما « أن الذي يُلْجمُ العرقَ الكافر » أخرجه البيهقي في « البعث والنشور » بسند حسن عنه قال : «يشتد كرب ذلك اليوم حتى يلجم الكافر العرق. قيل له : فأين المؤمنون ؟ قال : على الكراسي من ذهب ويظلل عليهم الغمام » وبسند قوي عن أبي موسى قال : «الشمس فوق رؤوس الناس يوم القيامة وأعمالُهم تظلهم» . وعن ابن المبارك في كتابه « الزهد» بسند جيد عن سلمان «ولا يضر حرُّها يومئذ مؤمناً ولا مؤمنة » قال القرطبي: «المراد من يكون كامل الإيمان لما يدل عليه حديث المقداد وغيره أنهم يتفاوتون في ذلك بحسب أعمالهم» ونجد في حديث ابن مسعود عند الطبراني والبيهقي «إن الرجل ليُلجم العرقَ يوم القيامة حتى يقول : يارب أرحني ولو إلى النار ».

ومن خلال ما تعطي النصوص مجتمعه قال الشيخ أبو محمد بن أبي جَمْرة في كتابه «بهجة النفوس» : «ظاهر الحديث تعميم الناس بذلك ، ولكن دلت الأحاديث الأخرى أنه مخصوص بالبعض وهم الأكثر . ويستثنى الأنبياء والشهداء ومن شاء الله ، فأشدُّهم في العرق الكفار ، ثم أصحاب الكبائر ، ثم من بعدهم ، والمسلمون منهم قليل بالنسبة للكفار ... إلى أن يقول : ومن تأمل الحالة المذكورة عرف عظيم الهول فيها ، وذلك أن النار تحف بأرض الموقف ، وتدنى الشمس من الرؤوس قدر ميل ، فكيف تكون حرارة تلك الأرض ،وماذا يرويها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعاً ، مع أن كل واحد لا يجد الا قدر موضع قدمه !! ... إن هذا لما يبهر العقول ، ويدل على عظيم القدرة ، ويقتضي الإيمان بأمور الأخرة ؛ إذ ليس للعقل فيه مجال ، ولا يعترض عليه بعقل ولا قياس ولا عادة ، وإنما يؤخذ بالقبول ويدخل تحت الإيمان بالغيب . ومن توقف في ذلك دل على خسرانه وحرمانه » .

هذا : وفي الوقت نفسه ما بدٌ من تذكر أحاديث من يكرمهم الله بأن يظلَّهم في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه .

اللهم اجعلنا من أهل اليقين . واسلك بنا سبيل النجاة يوم الدين بفضلك وإحسانك يا أرحم الراحمين .

جهنم.. ومشهد من يعذبون الناس!!

أهل الآخرة الأتقياء الأنقياء، الجديرون حقاً بأن يغبطوا : همُّهم ـ على الدوام ـ الاستزادةُ من البر ، والصبرُ على مكاره الطريق التـي تقربهم إلى الله زلفى . وتراهم يُقبلون بقلوبهم وعقولهم على مخالطة تلكم الأخبـار التي تقف المسلمَ على مايكون في القيامة ، يوم تعنو الوجوه للحي القيوم ، ﴿ **وقد خاب من حمل ظلماً** ﴾ .

والحال التي هـم عليها ــ من الخوف والـرجاء ــ تجعلهم ينتفعـون بما يقرؤون ويسمعون ، وينعكـس ذلك لديهم على أعمال الجوارح ، كما يظهـر أثره في أعمال القلوب . وأين من هـؤلاء : زمرةُ المفرطين الذين ألهتهم الدنيا عـن الآخرة وغرّهم بالله الغَرور !!

ولعـل مـن الأمراض التـي يعـاني منهـا كثير مـن المسلمين اليوم ؛ مـواجهـة نصوص الهداية بلا قلوب ، وإذا ووجهت بالعقول ـ كما هو الزعم ـ ألفيتَ تحميل العقل مالا يحمل ، ودفعه أحياناً إلى مزاحمةِ نصوص الوحي ، أو مسابقتها ، مع أن الذي تقتضيه سنة الله التي لا تتبدل : أن تكون نصوص الوحي متبوعةً ، وأن يكون العقل الذي امتنّ الله به ــ على تعدد وظائفه ومهامِّه العظيمة ـ تـابعاً للوحي يفهم عن الله ورسوله ما أراد من أجل التفكـر والتدبُّر و استنباط الأحكام ، والإفادة من كل مادل عليـه الوحي ، ثم البحث عـن الحكم اجتهاداً في ضوء المبـادىء العامة التي يقررها ، عنـدما لا يكون هناك نص . أما مسائل الغيـب التي تحملها الأخبار الصـادقة مـن آيـة كريمـة أو حـديـث مقبول : فـالعقـل السليم يقضي بـالإيمان والتسليم ؛ وتلك أولى صفات المتقين ، وواجب أساسي من واجبات الدين .

ولقد كان علماؤنا على بصيرة نافـذة ، حين وجهّوا الأمة إلى حسن الانتفاع بما حملت النصـوص من أخبـار اليوم الآخـر ومشاهـد القيامـة ، فبينوا أن مـن فائدة

الإخبار بما يكون يومـذاك من الشدة والضيق ؛ أن يتنبه كلٌ مـن المسلم والمسلمة ، فيأخذَ بالأسباب التي تخلِّصه من تلك الأهوال ، وتنجيه مما يؤول إليه أمر الغافلين الذين ضرب الران على قلوبهم بالأسداد ، ويبـادرَ إلى التوبة من التبعات ، ويلجأ إلى الكريم الوهاب: في الأخذ بيده وعونه ، على أسباب السلامة والنجاة ، ويتضرع إليه في معافاتـه من دار الهوان ، وإدخاله دار الكرامة ، ـ بمنـه وفضله ـ كيما يكون من الفائزين الذين يُنادَوْن ــ وهم يتقلبون في النعيم المقيم ـ: ﴿**كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية**﴾.

ولعلي لا أبعد النجعة ، إذا عدت لما نحن بسبيلـه ؛ من الكلام على بعض من تلك المشاهد ، مشاهد يوم الوعيد التـي تحمل ما تحمل من بالغ التذكير والتنبيه ، وتبدو من شدة وضوحها ، حجةً على أولئك الضاربين في تيه الغفلة معرضين .

لقد دلت النصوص ، على أن العباد سوف يشاهـدون بأم أعينهم أناساً تسعّر بهم جهنم، فيذوقون فيها العذاب الأليم، جزاء مـا كانوا يعذبون الناس في الدنيا؛ ظلماً وعتواً في الأرض واستهتـاراً بما شرع الله من حفـظ الحقوق ، وصيـانة إنسـانية الإنسـان ، وحراسـة كـرامته أن تهان . ولقـد حـدث أن أخطـأ البعض على هـذه الساحة مرة في تـاريخنا ، فنَهَد من شهد ذلك من الصحابـة ، لإنكار هذا المنكر ، مذكّـراً أولئك الـرجال وأميرهم ، بنهـي النبي ﷺ المشدّد عـن تعذيـب الناس في الدنيـا ، ووعيد مـن يفعلون ذلك بمجـازاة الله لهم بالعذاب يـوم القيامـة ، فخلَّوا سبيلهم ، مقلعين عما فعلوه . قال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة قال : حدثنا حفص بن غياث عن هشام بن عروة عن أبيه عن هشام بن حكيم بن حزام أنه: مـرّ بالشـام على أناس وقد أُقيمـوا في الشمس وصُـبَّ على رؤوسهم الـزيت، فقال: ماهـذا ؟ قيل : يعذبون في الخراج ، فقال : أمـا إني سمعت رسول الله ﷺ يقـول: « إن الله يعذِّب الـذيـن يعـذِّبون في الـدنيـا » ألا ليـت للظلمة وأعـوانهم وزبـانيتهم ، قلـوباً يسمعـون بها هذا النطـق النبوي الكـريم ، أن لـو كانـت لهم قلوب!!

وجاء في رواية أخـرى لمسلم: « مر هشام بـن حكيم بن حزام على أنـاس من الأنباط بالشام قد أقيموا في الشمس ، فقال : ما شأنهم ؟ قالوا : حبسوا في الجزية، فقال هشام : أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقـول : « إن الله يعذب الذين يعذبون في الدنيا» .

أرأيت إلى هذا الأمر الـذي أنكره هذا الصحابي الجليل ، لأنه كـان عذاباً في نظره !! أرأيت إلى هـذا الحدث الذي اعتبر غريباً كل الغرابـة على جسم الحضارة الإسلاميـة؟ إيقاف نفر مـن الأنباط (فلاحـي العجم) غير المسلمين من الـرعية عقوبة لهم !! فما بـالك بما يلاقيه المستضعفون مـن المسلمين في كثير من البقاع ! وما نُقم منهم ـ على الحقيقة ـ إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ؟!!..

هذا : وقد جاء في بعـض الروايات، التصريح باسم أمير أولئـك النفر الذين ذكّرهم هشام رضي الله عنه بما حذر منه عليه الصلاة والسلام ، من تعذيب الناس بغير حق وأن هشـاماً حدّثـه ، فأمـر بهم ، فخلّى سبيلَهُم ؛ إذ جاء في روايـة لمسلم أيضاً «وأميرهم يومئذ عمير بن سعد على فلسطين ، فدخل عليه فحدّثه ، فأمر بهم فخُلّوا».

ونجد عن أبي داود من طـريق عروة بن الزبير « أن هشام بـن حكيم بن حزام وجد رجلاً ـــ وهو على حمص ـ يشمِّس نـاساً من القبط في أداء الجزيـة ، فقال: ما هـذا؟ سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: «إن الله يعذب الـذيـن يعـذبون النـاس في الدنيا».

ولقد أحسن الإمام النـووي صنعاً ، حين ترجم لروايات الحديـث عند مسلم بقوله: « بـاب الوعيد الشديد لمن عـذب الناس بغير حق » ولذلـك جاء في شرحه للحديث: (هذا محمـول على التعذيب بغير حق ، فلا يدخل فيـه التعذيب بحق كالقصاص ، والحدود ، والتعزير ، وغير ذلك) .

وقـد أورد الإمام أحمد في المسنـد عدداً مـن الروايـات لهذا الحديث، نجـد في

بعضها شيئاً من التفصيل . قال ولده عبدالله : حـدثني أبي قال : حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن ابـن حزام «أنه مرّ بأناس من أهل الـذمة قد أقيموا في الشمس بالشام . فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : بقي عليهم شيء من الخراج . فقال : أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يعـذب يوم القيامة الذين يعـذبون الناس . قـال : وأمير الناس يـومئـذ عمير بن سعـد على فلسطين ، قـال : فـدخل عليـه ، فحدّثه ، فخلّى سبيلهم».

وأنت ترى أن في هـذه الرواية وفي رواية أخرى سبقـت ، أن هشاماً رضي الله عنه كان على اهتمام بالغ بهذه القضية ؛ فهو لم يكتف بالتذكير بحديث النبي عليه الصلاة والسـلام الذي يقـول فيه : « إن الله عز وجـل يعذب يوم القيـامة الـذين يعذبون الناس في الدنيا » ولكن جمع إلى ذلك أن دخل على أمير فلسطين في الشام ـ يومذاك ـ عمير بن سعد ، فحدّثه بشأن أولئك النفر غير المسلمين الذين يعاقبون على تقصيرهم المالي بالـوقوف بالشمس ، وبـان في ضوء ما أعقب ذلـك ، من أن الأمير خلّى سبيلهم : أنه صدع عنده بـالحق ؛ وهو أن هذا الصنيع بهؤلاء الناس ـ على بساطته إذا قيس بـاليسير مما يحدث اليوم ـ تعذيب لهم ، وهـو أمر مخالف كل المخالفـة لما وجه إليـه النبي عليه الصـلاة والسلام بعدم تعـذيب عبـاد الله ، ومن وعيده من فعل ذلك بأن الله معذبُه يومِ القيامة ،جزاء ما اجترحت يداه .

وفي خاتمة المطاف : إنـه مظهر منير رائع من مظاهر العدالـة الإلهية ، وعنوان على أحقيـة دين الإسـلام ، أن يكون مـن مشاهـد القيامـة يوم يقـوم الناس لـرب العالمين : مشهد أولئك الذين يكبكبون في جهنم مآبِ الظلمة الطغاة ،ويسحبون في السلاسـل على وجوههـم ـ وهم يصطـرخون ويُعـوِلون ـ جـزاء ما اقترفـوا من تعذيب عباد الله المستضعفين . ولله عاقبة الأمور ..

إذا ذكر أهل البصيرة ، ذوو العقول الراجحة الذين لا ينسون الله والدار الآخرة، فَحَيَّهَلا بأولئك الذين يتميّزون بسلوك ، يشعر أنهم ـ من فرط يقينهم بما جاء عن الله ورسوله في شأن العاقبة يوم الحشر الأكبر ـ كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلّدين ، وكمن رأى أهل النار في النار مخلَّدين ، ومن ثمَّ كانت قلوبهم مع الله الذي لا تخفى عليه خافية ، ومطمحُ أنظارهم ــ وهم يقطعون أعمارهم في الدنيا ـ أن يكونوا من أهل النجاة والفوز يوم الدين .

قال الحسن البصري سيد أهل زمانه علماً وعملاً رحمه الله : « إن لله عز وجل عباداً ؛ كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلَّدين ، وكمن رأى أهل النار في النار مخلّدين . قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة . حوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة. صبروا أياماً قصاراً تعقب راحة طويلة . أما الليل : فمصافَّةٌ أقدامهم، تسيل دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم ربنا ربنا !! . وأما النهار : فحلماء علماء بررة أتقياء، كأنهم القداح ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، وما بالقوم من مرض ، أو خولطوا ! ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم » .

رحم الله الحسن البصري أبا سعيد !! فلقد كشف لنا عن الأثر العظيم الذي تركه إيمان هؤلاء البررة بالغيب، وعن ذكرهم للآخرة في علاقتهم بربهم عز وجل، وسلوكهم الأمثل مع الآخرين . وليس ذلك ببِدع أو مستغرب ، وهم في هذا الصفاء والنقاء ،على إرث من إرث النبوة وحسن التأسي بإمام المتقين عليه الصلاة والسلام ، وسيد الزهاد العابدين .

والحق أن الناظر ببصيرة إلى عظم المسؤولية يوم الدين ، وما ينبني على ذلك من عقوبةٍ تودي بأهل الضلالة إلى جهنم وبئس المصير . أو مثوبةٍ تنتهي بأهل

الإيمان والاستقامة إلى جنـة الخلد ومفاز المتقين .. الحق أن الناظـر المتبصّر في هذا الأمر الجليل ، لا يسعـه إلا أن يزن الأمور بالميـزان الأخروي ، ويضع ما يكـون من مشاهد القيامة يوم الحساب ، نصب عينيـه ، لكيلا تزلّ به القدم في الدنيا ، فيلقى مولاه سبحانـه ـ يوم يلقاه ـ وهـو خالي الوِفاض مـن الخير ، ويهلك مع الهالكين . ومن وفّق إلى ذلك : فهو الموفّق الذي يغبطـه أهل الصلاح والفلاح . وقدوة الناس في ذلـك ، بعد رسـول الله عليه الصـلاة والسلام ، الصحـابة الكـرام ومن تبعهـم بإحسان.

قال الإمام الترمذي في كتاب التفسير من سنن الترمذي ـ الجامع الصحيح ـ: حدثنا مجاهـد بن موسى ، بغـداديٌّ ، والفضل بن سهل الأعـرج ، بغداديٌّ ، وغير واحد قالوا : حدثنا عبدالرحمن بن غزوان أبو نوح . قال : حدثنا ليث بن سعد عن مالك ابن أنـس عن الزهري عن عروة عن عائشـة رضي الله عنها : «أن رجلاً قعد بين يـدي النبـي ﷺ فقال : يـارسـول الله إن لي مملـوكين يكـذبـونني ويخونـونـني ويعصوننـي ، وأشتمهُم وأضربهم ، فكيـف أنا منهـم ؟ قال : يُحسـب ما خـانوك وعصوك وكذبـوك وعقابُك إياهـم ، فإن كان عقابـك إياهم بقدر ذنـوبهم ، كان كفافاً ،لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابـك إياهم دون ذنوبهم ، كان فضلاً لك . وإن كان عقـابك إيـاهم فوق ذنـوبهم ، اقتُصَّ لهم منـك الفضل . قـال : فتنحىّ الرجـل ، فجعل يبكي ويهتف . فقـال رسول الله ﷺ : أما تقـرأ كتاب الله ﴿**ونضع الموازين القسط ليـوم القيامة فلا تظلم نفـس شيئاً وإن كان مثقال حبـة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ . فقال الـرجل : والله يـارسول الله مـا أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرار كلهم ». قال أبو عيسى هذا حديث غريـب لا نعرفه إلا من حـديث عبدالرحمن بـن غزوان . وقد روى ابن حنبـل عن عبدالرحمن بن غزوان هذا الحديث .

تبارك الله : إن هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه، أفزعه احتمال أن يكون هو المسيىء في قدر العقوبة لمن ولاه الله أمرهم ، فجعـل يبكي ويهتف ـ يصيح باكياً ـ

ورأى نجاتـه من الـوقوع فيما يكون مـدعاةً لأن يقتـصّ منه ـ يـوم توضـع الموازين القسط ليوم القيامـة ـ أن يعتق أولئك المملوكين ويجعلهم أحـراراً طلباً لمرضاة الله، وخوفاً من الوقوع في شديد العقاب وأليم العذاب في تلكم الساعات العصيبات، التي يكـون المرء فيها أحوج مـا يكون إلى الحسنـة ، مهما قل شأنها ، لعلهـا تنفعه ـ بإذن الله ـــ على طريـق النجاة . وفي ذلـك المنهج القـائم على وزن الأمور بـا لميزان الأخروي ، فليتنافس المتنافسون .

هذا : والذي أشـار إليه الترمذي من رواية أحمد: هـو ما روى رحمه الله بسنده عن عائشـة رضي الله عنها « أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلـس بين يديه فقال : يـارسول الله إن لي مملـوكين يكذبـونني ويخونـونني ويعصـونني ، وأضربهم وأسبُّهم فكيـف أنا منهـم؟ فقال له رسـول الله ﷺ : يحسب مـا خانـوك وعصوك وكذبوك ، وعقابُك إياهم : إن كان دون ذنوبهم ، كان فضلاً لك عليهم . وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم ، كان كفافاً لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم ، اقتُصَّ لهم منك الفضل الذي قِبلك . فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتـف . فقال رسول الله ﷺ : مـا له ؟ ما يقـرأ كتاب الله ﴿**ونضع الموازين القسط ليـوم القيامة فلا تظلم نفـس شيئاً وإن كان مثقال حبـة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ قال الحافظ المنذري : إسناد أحمد والترمذي متصلان ورواتهما ثقات ، عبدالرحمن هذا يكنى أبا نوح ثقة احتج به البخاري ، وبقية رجال أحمد ثقـات احتج بهم البخـاري ومسلم . وأخـرج الحديـث أيضاً ابـن جريـر في «تهذيب الآثار » وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه .

وأنـت واجد أن في التـذكير بهذه الآية الكـريمـة ، ـ في أعقـاب سؤال ذلـك الرجل ـــ بغية تنبيهه على أن العمل ـــ وإن كان مثقالَ حبة مـن خردل يأت بها الله وتأخذْ مكـانها في تلك الموازين القسط ليوم القيـامة ـ نوعاً مـن البيان العملي منه عليه الصـلاة والسلام لـلآية نفسها ، والتـوجيهِ إلى الاستنارة بـالحقيقة التـي دلّت عليهـا .

وقد أخبر رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ عن وقائع تشهدها الخلائق يوم القيامة تحمل مزيداً من التقرير والتأكيد لما جاء في هذه الآية وأمثالها، مما مرّ بنا في مناسبة سابقة، من ذلك ما أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي عبدالرحمن الحُبُلِيّ قال: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً؛ كل سجل مدَّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يارب. قال: أفلك عذر أو حسنة؟ قال: فيُبْهتُ الرجل فيقول: لا يارب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله). فيقول: أحضروه، فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة. قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، قال: ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم».

ورواه الترمذي وابن ماجة من حديث الليث بن سعد وقال الترمذي: حديث حسن غريب..

وضع الموازين القسط..
والبطاقة العظمى

كان مـن نصح النبي ﷺ لأمته ، دأبـه على إحكام الصلة بين هـدي الكتاب العزيز ، وبين الإنسان المسلم في أقوالـه وأفعاله وسلوكه ـ على وجـه العموم ـ كيما يكون على بصيرة يتخـذ معها أدق المعـايير وأسلمها لـدينه ودنيـاه وآخرتـه . ومن قريـب رأينا صـورة من صور التـوجيه النبـوي الكريم في هـذا حين ذكّر الـرسول صلوات الله وسلامه عليـه ، ذلك الرجل ، الذي شرح له طبيعـة العلاقة بينه وبين مـواليـه على صعيـد الإسـاءة والإحسـان ، وما يخشـى على نفسـه مـن ذلـك يـومَ الحساب.. حين ذكَّـره بقول الله تبارك وتعالى في سـورة الأنبياء : **﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيـامة فلا تظلم نفس شيئـاً وإن كان مثقال حبة مـن خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾** .

وفي هـذا الهدي المحمدي ، مـا يحمل المسلـم على الإنصاف مـن نفسه عنـد التعـامل مـع الآخريـن ، وعدم التعسـف في استعمال الحق ، حرصـاً على سلامـة العاقبة يوم الحساب ، يوم يضع الجبار سبحانه وتعالى الموازين القسـط ، وتوفَّى كل نفس ما كسبت ، ولو كان العمل مثقال حبة من خردل ، ولا يظلم ربك أحداً .

وفي تأكيد لهذه الحقيقة نذكر ما أورد السيوطي في كتابه « الدر المنثور » الرواية الأخرى للحديث الذي رواه الترمذي وغيره ـ كما سبق مـن قريب ـ وهو ما أخرجه الحكيم الترمذي عن زيـاد بن أبي زياد قال : «قال رجل : يـا رسول الله إن لي مالاً وإن لي خدماً وإني أغضب فأعِرُم وأشتِم وأضرب . فقال له رسول الله ﷺ : « توزن ذنوبهم بعقوبتك ؛ فإن كانت سواءً فلا لك ولا عليك ، وإن كانت العقوبة أكثر ، فإنما هو شيء يـؤخذ من حسناتـك يوم القيامة ، فقـال الرجل : أوَّه أوَّه يؤخـذ من

حسناتي ؟ أشهدك يارسول الله أن مماليكي أحرار ، أن لا أمسك شيئاً يؤخذ من حسناتي له ، قال : فحسبت ماذا ؟ ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ..﴾ الآية ؟

قوله : فأعِرُم من العُرام وهو الحِدَّة والشَّرَس يقال : عَرَمَ يعْرُم وعَرَم يعرِم.

وغير خاف أن تلكم الكلمات الهاديات المبينات في سورة الأنبياء ، كما تحمل النذارة ، تحمل البشارة ؛ ولينظر عاقل ماذا يقدم بين يديه ليوم الحساب ، حيث الوزن يومئذ الحق . وقد وقفنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره ـ واللفظ لأحمد ـ على مشهد ذلك الرجل الذي نشر الله عليه رحمته ، فانتفع بالكلمة الطيبة لا إله إلا الله محمد رسول الله، بعد أن كاد ييأس من دخول الجنة ، ورجحت كفة البطاقة التي فيها الشهادتان على الكفة الأخرى التي حملت ما حملت من سجلات السيئات . وما من ريب في أن مشهد ما حصل لهذا الرجل ، مشهد عظيم مبارك، يحمل ما يحمل من البشرى المفرحةِ بفضل الله ، للمؤمن الذي ينطق بالشهادتين مخلصاً صادق العزم على أداء حقهما ؛ طاعةً لله في عبودية صادقة تطبع الحركة والسلوك .

هذا : ونجد في لفظ الحديث عند الترمذي ما يزيد الأمر تأكيداً على تأكيد . قال رحمه الله : حدثنا سويد بن نصر قال : أخبرنا عبدالله عن ليث بن سعد قال : حدثني عامر بن يحيى عن أبي عبدالرحمن المعافِريِّ ثم الحُبُلِيِّ قال : سمعت عبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن الله سيُخلّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مثلُ مَدِّ البصر . ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : ألك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتُخرَجُ بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول: احضر

وزنك: فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : إنك لا تُظلم، قال : فتوضع السجـلات في كفة والبطاقة في كفة . فطاشـت السجلات ، وثقلت البطاقـة ، فلا يثقل مع اسم الله شيء ».

فيقول : يـارب ما هـذه البطاقة ؟ أي البطـاقة الواحـدة مع هـذه السجلات الكثيرة التي بلغت تسعـة وتسعين سجلاً ، وما قدرها بجنبها ومقـابلتها . فقال : فإنك لا تظلم : أي لا يقع علَيك الظلـم ، لكن لا بد من اعتبار الوزن ، كي يظهر أن لا ظلم عليـك فاحضر الوزن . وهذا منتهـى العدل والفضل ،وسبحـان أرحم الراحمين .

فطـاشت السجـلات : أي خفّـت. وثقلت البطـاقـة : أي رجحت . وجـاء التعبير بالفعل الماضي « فطـاشت وثقلت » لتحقق الوقـوع؛ وهذا كثير في نصوص الكتاب والسنـة . وما أكثـر ما نقـع على هذه السمات البـلاغية في كـلامه المتميّـز وأسلوبه الفذ عليه الصلاة والسلام .

وأخـرج الحديـث ابن مـاجـة في السنـن وابـن حبان في صحيحـه والبيهقـي والحاكم وقال ـــ كما ذكر الحافظ المنذري ـ : صحيح على شرط مسلـم . ولفظ ابن ماجة « يُصـاحِ برجل من أمتـي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فينشر لـه تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مدَّ البصر ، ثم يقول الله عز وجل : هل تنكر من هذا شيئاً ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ ثم يقول : ألك عن ذلك حسنـة ؟ فيُهاب الرجل ، فيقـول : لا . فيقول : بلى إن لك عندنـا حسنات ، وإنه لا ظلـم عليك اليوم ، فتخـرَج له بطـاقة فيها : أشهـد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . قال : فيقول : يارب : ما هذه البطاقة مع هذه السجلات !! فيقول : إنـك لا تُظلم . فتـوضع السجلات في كفـة ، والبطاقـة في كفة فطـاشت السجلات وثقلت البطاقة » قال ابن ماجة قال محمد بن يحيى : البطاقة : الرقعة . وأهل مصر يقولون للرقعة بطاقة .

ومهما يكن من أمـر : فإن من خالطـت قلبَه بشاشةُ الإيمان ، ولم ينـس ـ وهو

يخوض غمار الحياة الدنيا ـ مولاه تبارك وتعالى واليوم الآخر ، لا تزيده البشائر والنذارات إلا حرصاً على الطاعة ، ووزنِ الأمور جليلِها ودقيقها بالميزان الأخروي السليم ، الذي وجّه إليه الكتاب العزيز ، وبين معالمه رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وإذا توافرت للمؤمن هذه الاستنارة ؛ إيماناً وعملاً ، كان على ذُكر من أن الصدق في طلب النجاة في الأخرى ، لابد له من أداء الحقوق ، وإلا أديت إلى أهلها يوم القيامة ذلكم ما أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ».

ثم إن هذا الصدق ، لا بد أن تذكر معه حقيقة أن دخول الجنة إنما يكون برحمة الله تعالى ـ كما ثبت في صحيح الحديث وأن المنازل تكون بحسب الأعمال ـ. ناهيك عما يجب على المؤمن من قدر النعم حق قدرها ، لكيلا يغترَّ بعمله وينسى عظيم فضل الله بما أسبغ عليه من تلك النعم الظاهرة والباطنة ، فيبوء بالخسران يوم اللقاء .

ومن مشاهد القيامة التي تعطي أبلغ العظات على هذه الساحة : ما روى الطبراني عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : «يبعث الله يوم القيامة عبداً لا ذنب له ، فيقول الله : أيُّ الأمرين أحب اليك أن أجزيَك بعملك أو بنعمتي عندك ؟ قال : يارب إنك تعلم أني لم أعصك ، قال : خذوا عبدي بنعمة من نعمي ، فما تبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة ، فيقول : رب بنعمتك ورحمتك ! فيقول : بنعمتي ورحمتي » ..

أما بعد : فهل يرتاب منصف في أن مما يستمطر به الرحمة أن يكون العبد على الجادة ، طاعةً لمولاه ، وأدباً معه سبحانه شاكراً لنعمه ، معترفاً بعظيم فضله ، وأنه ـ جل شأنه ـ لا يظلم عبداً من عباده مثقال ذرة ، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً ؟!

ماذا عن مشهد الغاش لرعيته..

لا يجد ريح الجنة

من عظمة الإسلام وأحقيته ، في كونه الـدينَ الذي رضيه الله لعباده : ما يُرى من التنبيه الشديد في الكتاب والسنة ، على وثاقة الارتباط بين الدنيا والآخرة ؛ وأن الإنسان إذا أخـذ نفسه في الحياة العاجلـة بمنهج أهل الخشية المتقين ، كـان ذلك عنوان نجاته ـ بفضل الله ورحمته ـ في الآجلة دار القرار ، والعكس بالعكس .

والقراءة المتدبرة للخبر الصادق عن مشاهـد القيامة ، تكشف اللثام بوضوح تام عن مدى الارتباط بين تلك المشاهد ـ التي يرفل أصحابها بالنعيم المقيم في دار الخلود ـ وبين استقامتهم في الدنيا على شرع الله ونهج دينه القويم ، كما تضع أيدينا على العلاقة الضـاربة في جذور التاريخ ، بين تلـك المشاهد ـ التـي يكبكب فيها المجرمون على وجـوههم في النار ، وبالسلاسـل يسحبون ـ وبين ما كـانوا عليه في الـدنيا مـن ظلم أنفسهـم ، وظلم عبـاد الله ، ومظاهـرة الكفر وأهلـه على الإيمان وأهله!! واذكر ما شئت هنا من طاعة الهوى والشيطان ، وموالاة أعداء الله !!.

وهذا قمين ـ في الواقع ـ أن يحرك العـزائم ويثير الهمم ، لتوظيف هذه الحقيقة على طريق التربية والإعداد ، وأن تكون موضع عناية الدعاة والمربين ، كي يسهموا في الدلالـة على طريق النجـاة يوم الـدين ! الطريـق الذي يبدأ بـالعمل الصـالح القـائم على الإيمان العميق ، والإخـلاص لله عـز وجل ؛ وينتهـي بجنـة عرضهـا السماوات والأرض أعدَّت لأهل الخشية المنيبين .

وها هـي ذي بعض النصوص المنيرة ، التـي تمدّنا ببعـض من المشاهـد التي تحذر وتنذر أهل الانحـراف من التقصير في أداء الأمانة ، وحقوق مـن استرعاهم الله، أن يغشـوا أو يظلموا . وأنهم إن فعلـوا ذلك وقعـوا في سخط الله ، واحتجـب

جلّ شأنه دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم يوم القيامة ، وباءوا بالحرمان المهين من جنة الخلد ، وكانوا من أهل جهنم وبئس المهاد . قال الإمام أبو داود في «كتاب الخراج والإمارة والفيء » من «السنن» : حدثنا سليمان بن عبدالرحمن الدمشقي قال : حدثنا يحيى بن حمزة قال : حدثني ابن أبي مريم أن القاسم بن مخيمرة أخبره «أن أبا مريم الأزدي أخبره قال : دخلت على معاوية رضي الله عنه فقال : «ما أنعَمَنا بك أبا فلان ـ وهي كلمة تقولها العرب ـ فقلت: حديث سمعته أخبرك به، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من ولاه الله عز وجل شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلَّتهم وفقرهم احتجب الله عنه دون حاجته وخلّته وفقره » قال : فجعل رجلاً على حوائج الناس» وإسناده حسن . قال الإمام الخطابي : «ما أنعمنا بك» يريد ما جاءنا بك ، أو ما أعملك إلينا ، وأحسبه مأخوذاً من قولهم : (نَعَمْ ونُعْمَةُ عين) أي قرة عين . وإنما يقال ذلك لمن يُعتدُّ بزيارته ويُفرح بلقائه ؛ كأنه يقول : ما الذي أطلعك علينا وحيانا بلقائك ....».

لقد أحسن هذا الصحابي الجليل أبو مريم الأزدي ـ وهو عمرو بن مرة الجهني ـ حين أسدى إلى معاوية رضي الله عنه هذه النصيحة العظيمة التي أشرق بها حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأعانه على أن لا يكون يوم القيامة ممن تحلُّ بهم تلك النقمة والعياذ بالله ؛ وسرعان ما انتفع معاوية بالتذكير ، خوفاً من سوء العاقبة يوم الدين .

والحديث خرّجه الترمذي بلفظ « ما من إمام يُغلق بابه دون ذوي الحاجة والخَلَّة والمسكنة ، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس . قال : وفي الباب عن ابن عمر .

الخَلَّة : الفقر والحاجة .

ومن الواضح أن هذه الرواية ـ على وجازتها ـ لم يقتصر الوعيد فيها على الأخرى ولكن شمل الدنيا أيضاً ؛ وهذا ما تنطق به في عبارة « إلا أغلق الله أبواب

السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » وهو ما نجده عند الإمام أحمد ؛ إذ روى بسنده « أن عمرو بن مرة ـ وهو أبو مريم الأزدي ـ قال لمعاوية : يا معاوية إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من إمام أو والٍ يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله عز وجل بابه دون حاجته وخلته ومسكنته .. » الحديث.

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من ولي من أمر الناس شيئاً فاحتجب عن أولي الضعافة والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة ». فإذا وقر الإيمان في الصدر وصدَّقه العمل بهذا الهدي المحمدي ، كان من وراء ذلك الإسهامُ الكبير في إسعاد الفرد المسلم، وسلامةِ كيان المجتمع ؛ ناهيك عن مشهد الضياء والفضل الإلهي ، الذي يكون أولئك العاملون من أركانه ومقوماته .

أما المعرضون الذين يستبدلون طاعة الهوى والشيطان بهدي النبي عليه الصلاة والسلام : فيعيثون في الأرض فساداً ، ويستمتعون بظلم عباد الله : فليرتقبوا عذاب السموم يوم القيامة ، وأن يكونوا من وقود المشاهد التي تنخلع لها القلوب ، وتطيش الحلوم .

ورضي الله عن أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا في التذكير بهذه الحقيقة نِعْمَ القدوة لكل من تبعهم ويتبعهم بإحسان عبر تاريخنا الطويل ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؛ كما رأينا في موقف أبي مريم الأزدي مع معاوية رضي الله عنهما ومثل ذلك كثير.

هذا صحابي آخر ممن بايعوا تحت الشجرة ـ وهو أبو علي معقل بن يسار ـ لم يدع أن يصرخ بها واضحةً بريئة من اللبس في وجه عبيد الله بن زياد ، وهو زياد ابن أبيه الذي يقال له : زياد بن أبي سفيان ، وكان إذ ذاك أمير البصرة لمعاوية . قال الإمام البخاري : حدثنا أبو نعيم قال : حدثنا أبو الأشهب. عن الحسن ـ هو

البصري ـ أن عبيد الله بن زياد عاد معِقل بنَ يسار في مرضه الذي مات فيه ، فقال له معقل: إني محدثـك حديثاً سمعته من رسـول الله ﷺ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيّةً فلم يُحْطِها بنُصْحِه إلا لم يجد رائحة الجنة ».

ولقد دلت رواية أخرى للبخاري أن الحسـن رحمه الله، كان عند معقل يعوده عندما جاءه ابن زياد يعوده أيضاً ؛ إذ روى بسنده عن الحسن قوله : أتينا معقل بن يسار نعوده ، فدخـل علينا عبيد الله ، فقال له معقل : أحدثك حـديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال : « ما من والٍ يلي رعيّةً من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرّم الله عليه الجنة ».

وللحديـث بقية نسعد مـن خلالها بنصوص أخـر تزيـدنا تبيانـاً لما يجب من العدل في الـرعية والنصـح لها ، وأن العدول عـن ذلك انصراف عـن طريـق الجنة والنعيم المقيم ....

يُكَبُّ على وجهه في النار..
لأن شر الرعاء الحُطَمة

حقيقة أنه ليس بعد هذه الدار العاجلة الفانية دار ، إلا الجنة أو النار : حقيقة جديرة بالكثير من الشوق المقلق إلى الله عز وجل ، وأن يكون المؤمن ممن تنالهم الرحمة ويفوزون بجنات تجري من تحتها الأنهار ، لهم فيها النعيم المقيم . كما أنها جديرة بالكثير من الخوف المزعج ، فرقاً من سوء العاقبة والخلود في جهنم، وبئس المصير .

وإذا علمنا أنه : ما من طريق من طُرق الخير التي مابد من سلوكها ، طلباً للنجاة من عذاب الله ، والفوز بجنة الخلد : إلا أوضح معالمها ورغب بها سيد العالمين رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وأنه : مامن طريق من طرق الغواية والشر ، التي يضل سالكها ، وتودي به إلى سوء المنقلب ، حيث يبوء بالخسران المبين ويدخل النار مع الداخلين ، إلا أوضح مسالكها ، ورهَّبَ منها صلوات الله وسلامه عليه .. إذا علمنا ذلك : كان لزاماً أن ندين أنفسنا ونعمل لما بعد الموت ، وأن نذكر أن منهج الهداية النبوي الذي جعل الأمة على بينة من أمور الآخرة، وتركها على بيضاء نقية ليلُها كنهارها ، حجةٌ في أعناق العباد ، وأمانة لا يتخلف عن أدائها إلا من سَفِهَ نَفْسَه ، وضلّ سعيُه واستجاب للدعوات الشيطانية ، التي تقذف به إلى طريق الهالكين .

ومن الأمور التي حذر رسول الله ﷺ ، وأنذر أصحابها جهنم وبئس المهاد ، إن هم انحرفوا عن الطريق السوي ، وبشرهم بحسن الأُحدوثة وسلامة العقبى يوم الدين إن هم استقاموا على الطريقة : أمرُ النَّهجِ الذي ينبغي سلوكه لمن ولاّه الله شيئاً من أمور المسلمين ، وكيف أن ألواناً من مشاهد القيامة ، توحي بالذي كان

عليه أصحابها في تعاملهـم مع الرعية ؛ عطاءً أو منعاً ، نصيحـة أو غشاً ؛ والعاقل من انتفع بالبشارة والنذارة ، ولم يغفل عن دلالة الترغيب والترهيب .

وقد كـان فيما أوردت من قبـل ، ما روى الإمام البخـاري من قـول الصحابي الجليل معقل بـن يسار المزني لعبيد الله بن زياد ــ وقد جاء يعوده في مـرضه الذي مـات فيه ــ إني سمعت رسـول الله ﷺ يقول : « مـا من عبـد يسترعيه الله رَعِيَّـةً ، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة » .

وفي متابعة للرحلة مع النصوص: نقرأ ما جاء في صحيح مسلم من قوله رحمه الله: حدثنا شيبان بـن فرّوخ قال: حدثنا أبو الأشهب عـن الحسن ـ هو البصري ـ قال: (عاد عبيد الله بن زياد معقل بن يسار في مرضه الذي مات فيه . قال معقل: إني محدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لو علمت أن لي حياة ما حدثتك . إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة ») .

إنـه لمشهد بـالـغ النذارة ؛ يُفترض أن يستـوقف مـن أوتـوا حظاً مـن الإيمان الصادق بيـوم الحساب ، وكـانوا في الـدنيا على الثغـر الذي عيّنـه رسول الله عليـه الصلاة والسلام ؛ فقد تسبب الانحراف ـ كما يدل النص ـ في أن يحرم أصحابه من الجنة ويُقذفوا في نار السعير ، وتعبير «إلا حرم الله عليه الجنةَ » بهذا الحصر ، جدير بالكثير من التأمل .

وهذه رواية أخرى لمسلم ، تدل على أن عبيـد الله قد سأل معقلاً رضي الله عنه وهو يعوده ، وأنه تمنى لو أنه حدث بالحديث المومى إليه من قبل ، ولفظها: (دخل عبيدالله بن زياد على معقل بن يسار وهو وجِـع فسأله ، فقال : إني محدثك حديثاً لم أكن حدثتكـه : إن رسول الله ﷺ قال : «لا يسترعي الله عبـداً رعية يموت حين يموت ، وهو غاش لها إلا حـرّم الله عليه الجنة » قال : ألا كنت حدثتنـي هذا قبل اليوم ؟ قال : ما حدثتك ، أو لم أكن لأحدثَك). وله في رواية أخرى « إني محدثك

بحديث لولا أني في الموت لم أحدثك به ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يَجْهَد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة »). وأخرج الإمام أحمد عن معقل بن يسار قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليس من والي أمة قلّت أو كثرت ، لا يعدل فيها ، إلا كبّه الله تبارك وتعالى على وجهه في النار » وجاء في رواية أخرى له «.. من استرعى رعية فلم يُحطهم بنصيحته لم يجد ريح الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة مائة عام » وأخرجه الدارمي .

وفي كلام على فقه الحديث أوضح الإمام النووي أن قوله ﷺ « حرَّم الله عليه الجنة » فيه التأويلان المتقدمان في نظائره !! أحدهما ـ أنه محمول على المستحلّ والثاني ـ حرَّم عليه دخولها مع الفائزين السابقين . ومعنى التحريم هنا : المنع قال القاضي عياض رحمه الله : (معناه بَيِّنٌ في التحذير من غش المسلمين لمن قلّده الله تعالى شيئاً من أمرهم ، واسترعاه عليهم ، ونصبه لمصلحتهم في دينهم أو دنياهم؛ فإذا خان فيما اؤتمن عليه ، فلم ينصح فيما قُلِّده ، إما بتضييعه تعريفهم ما يلزمهم من دينهم وأخذِهم به ، وإما بالقيام بما يتعين عليه من حفظ شرائعهم والذب عنها لكل متصدٍ لإدخال داخلة فيها ، أو تحريفٍ لمعانيها ، أو إهمال حدودهم وتضييعِ حقوقهم ، أو تركِ حماية حوزتهم ومجاهدةِ عدوهم ، أو تركِ سيرة العدل فيهم فقد غشَّهم) . قال القاضي : (وقد نبَّه ﷺ على أن ذلك ـ يعني غشّ الرعية ـ من الكبائر الموبقة المبعدة عن الجنة والله أعلم)..

وأما قول معقل رضي الله عنه لعبيد الله بن زياد : (لو علمت أن لي حياةً ما حدثتك) وفي الرواية الأخرى (لولا أني في الموت لم أحدثك) فقال القاضي عياض رحمه الله : (إنما فعل ذلك لأنه علم قبل هذا أنه ممن لا ينفعه الوعظ كما ظهر منه من غيره، ثم خاف معقل رضي الله عنه من كتمان الحديث ورأى تبليغه ، أو فَعَله لأنه خافه لو ذكَّره في حياته بما يهيِّج عليه هذا الحديث ويثبته في قلوب الناس من سوء حاله) . قال الإمام النووي رحمه الله : (هذا كلام القاضي والاحتمال الثاني هو الظاهر، والأول ضعيف ؛ فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسقط

باحتمال عدم قبوله ـ والله أعلم ـ).

والذي أشار إليه القاضي من أن معقلاً علم قبل هذا أن ابن زياد ممن لا ينفعه الوعظ ـ وهذا من السوء بمكان ـ كما ظهر منه مع غيره : واضح في بعض الوقائع التي نذكر منها ما روى مسلم بسنده عن الحسن البصري رحمه الله (أن عائذ بن عمرو ــ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ـ دخل على عبيد الله بن زياد فقال : أي بنيَّ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن شر الرعاء الحطمة » فإياك أن تكون منهم . فقال له : اجلس فإنما أنت من نُخالة أصحاب رسول الله ﷺ !! قال : وهل كان لهم نُخالة ؟! إنما النُخالة بعدهم وفي غيرهم).

الحُطَمة : بوزن هُمَزَة : الظلوم الشديد الوطأة . وقال ابن الأثير في النهاية : هو العنيف برعاية الإبل في السوق والإيراد والإصدار ، ويُلقي بعضها على بعض ويعسفها ، ضربه ﷺ مثلاً لوالي السوء .

ويقال أيضاً : حُطَم بلا هاء .. والحُطم من أبنية المبالغة ، وهو الذي يكثر منه الحطم . ومنه سميت النار الحُطمة لأنها تحطم كل شيء . ومنه الحديث «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً».

وصلاة الله وسلامه على سيدنا محمد معلم الناس الخير وعلى من اتبع سنته وانتفع بهديه على أي ثغر كان من ثغور المسلمين .

أهل العدل وأهل الجور.. مشاهد ومشاهد

لا يسأم المرء من حديث أهل الخشية ومواعظهم النابعة من القلب ، تلك التي تصدر عنهم، وفيها من الحياة ما يشعرك بأنهم يتكلمون ، وكأن الجنة والنار ـ منهم على مرمى البصر ، يرونها رأي عين. وفي الجَعْبة اليوم كلمات نيرات لواحد من هؤلاء البررة الذين أخذوا أنفسهم بهدي النبي عليه الصلاة والسلام فكانوا يمشون في الأرض أطهاراً مباركين ، لما يزين سلوكهم من الخوف والرجاء وصدق مراقبة الله تعالى ، واليقين بأحقية اليوم الآخر ، وما يكون فيه. ذلكم هو الإمام المحدث الثقة الرحّال في طلب العلم النافع ، أبوعمران موسى بن عبدالحميد الجوني البصري نزيل بغداد ، والمتوفى سنة سبع وثلاثمائة . أخرج أبو نُعيم في الحلية بسنده عن الإمام أحمد قال : حدثنا عفان قال : حدثنا همام قال : سمعت أبا عمران الجوني يقول : «ما من ليلة تأتي إلا وتنادي اعملوا ما استطعتم من خير ، فلن أرجع إليكم إلى يوم القيامة ».

وفي تذكير بحقيقة أنه ليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار ؛ قال فيما أخرج أبو نعيم من طريق أحمد أيضاً عن جعفر قال : سمعت أبا عمران الجوني يقول : « إنه ليس بين الجنة والنار طرق ولا فياف ولا منزل هنالك لأحد. فمن أخطأته الجنة صار إلى النار ».

وتراه ـ وقد عملت مشاهد الجبابرة الظالمين وهم يتقلبون في النار ، ومشاهد المتقين الأبرار وهم يرفلون بنعيم الجنة على سرر متقابلين ـ عملها في نفسه حتى كأنه يشهدها ماثلة أمام ناظريه يُحسُّ نعيم الجنة ويصلى نار السعير .. تراه يقول : «بلغنا أنه إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى بكل جبار وكل شيطان وكل من يخاف الناس من شره فيوثقون في الحديد ، ثم أمر بهم إلى النار ثم أوصدها عليهم ـ أي أطبقها ـ فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرارٍ أبداً ، ولا والله ماينظرون إلى أديم

سماء أبـداً ، ولا والله لا تلتقـي جفـون أعينهم على غمـض نـوم أبـداً ، ولا والله لا يذوقـون فيها بـارد شراب أبداً . قال : ثـم يقال لأهل الجنـة : افتحوا الأبـواب فلا تخافوا شيطاناً ولا جباراً ، و **﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتـم في الأيام الخالية ﴾**. قال أبوعمران : هي والله ياإخوتاه أيامكم هذه ».

ولا غرابة في أن تعيـد كلمات أبي عمران هذه إلى الذاكرة، ما وقفتنـا عليه من قريـب بعض الأحاديث ــ برواياتها المختلفـة ـ من مشهـد أولئك الذين خـانوا الأمانة مع من ولاهم الله أمرهـم، فلم يروحوا بسبب ذلك رائحة الجنة ، وانقلبوا إلى الجحيم خاسرين .

ونحن على موعد مع مشهد من مشـاهد يوم الحساب ، لأولئك الذين اتخذوا من العدل فيمن استرعاهم الله إياهم، والنصيحة لهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، طريقاً انتهت بهم ـ بفضل الله ورحمته ـ إلى أن يكونوا عند الله يوم يقوم الناس لرب العالمين، على منـابر من نور عـن يمين الرحمن ـ وكلتا يـديه يمين ـ. وأكرم بـه من مشهـد يبعـث في النفس معـاقـد الـرجاء ، ويـذكـي نـار العزيمـة على الصـلاح والإصلاح ــ أن لو صدقـت النوايا ـ عنـد من يوليهـم الله شيئاً من أمـور الأمة .. ويـاحسن العـاقبة يـوم الحشر الأكبر لمن يعدلـون ولا يظلمون ، وينصحـون ولا يغشُّون، وعلى مظاهر الدنيا وزخارفها يستعلون .

قال الإمام مسلم رحمه الله :حدثنا أبوبكـر بن أبي سعيد وزهير بن حرب وابن نمير قالوا : حـدثنا سفيان بن عيينة عن عمـروٍ ـ يعني ابن دينار ـ عـن عمرو بن أوس عن عبدالله بن عمـرو قال ابن نمير وأبوبكر : يبلغ بـه النبي ﷺ وفي حديث زهير قال : رسـول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابـر من نـور عن يمين الرحمن عز وجل ـ وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلوا» وأخرجـه أحمد كما أخرجه النسائي مـن طريق محمد بـن آدم ولفظه « إن المقسطين عند الله تعـالى على منابـر من نـور على يمين الرحمن الـذين يعـدلون في حكمهـم وأهليهم وما ولوا ». قال محمد في حديثه : « وكلتا يديه يمين » .

المقسطون : هم العادلون . وقد فسره في آخر الحديث، والإقساط ، والقسط بكسر القاف : العدل : ، يقال : أقسط إذا عدل قال الله تعالى : ﴿**وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾ وقال سبحانه ﴿**قل أمر ربي بالقسط**﴾ والقسط : الميزان سمي به من القسط : العدل . ويقال : قسط يقسط بفتح الياء وكسر السين قُسوطاً وقَسطاً بفتح القاف فهو قاسط ، وهم قاسطون : جاروا ، من القسط وهو الجور . قال تعالى: ﴿ **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً** ﴾.

والمنابر : جمع منبر سمي به لارتفاعه . قال القاضي عياض : (يحتمل أن يكونوا على منابر حقيقةً على ظاهر الحديث ، ويحتمل أن يكون كناية عن المنازل الرفيعة). قال الإمام النووي : (والظاهر الأول ، ويكون متضمناً للمنازل الرفيعة، فهم على منابر حقيقة ومنازلهم رفيعة) .

وأما قوله ﷺ: « عن يمين الرحمن » فهو من أحاديث الصفات نؤمن به ـ كما ورد النص ـ ولا نتكلم في تأويله .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» فمعناه ـ كما يقول الإمام النووي رحمه الله ـ (أن هذا الفضل إنما هو لمن عدل فيما تقلده من خلافة ، أو إمارة أو قضاء ، أو حسبة ، أو نظر على يتيم أو صدقة ، أو وقف، وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله ونحو ذلك ، والله أعلم) « وماوَلُوا » بفتح الواو وضم اللام المخففة : أي كانت لهم عليه ولاية .

ويسلمنا هذا المشهد الغني بالدلالة على ماهؤلاء البررة ـ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا ــ من كرامة عند الله الذي لايظلم عنده مخلوق ـ إلى مشهد القرب من الله لأولئك المقسطين ، ومشهد البعد من الله لأولئك الجائرين الظالمين . قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم قال : حدثنا فضيل عن عطية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحبَّ الناس إلى الله عز وجل يوم القيامة وأقربهَم منه مجلساً : إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى

الله يوم القيامة وأشدَّهم عذاباً : إمام جائر ».

كم ذا تجادل هذه الحقيقة أهل الغفلة الذين ينسون الله واليوم الآخر ،إذا ولوا أمراً من أمور المسلمين ، إنها حقيقة صارخة في وجه كل جائر عدوٍ للحق والإنسان ؛ فكما أن الذين أكرمهم الله بأن كانوا على الجادة ؛ عدلاً ووقوفاً عند حدود الله ،وبعداً عن كل ما فيه العدوان على إنسانية الإنسان وحقوقه : أحبُّ الناس إلى الله وأقربهُم منه مجلساً يوم القيامة ، فهؤلاء الظلمة المنكوسةُ قلوبهم ، العميُ بصائرهم ، المنتهكون لحرمات الله ولكرامة الإنسان وحريته ، أبغض الناس إلى الله وأشدهم عذاباً ـ وفي رواية ـ وأبعدهم منه مجلساً يوم القيامة .

فقد جاءت الرواية عند الترمذي ، تقرر أن هؤلاء الأناسيَّ أبعد الناس مجلساً من الله يوم الحساب . أخرج رحمه الله بسنده عن أبي سعيد أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل . وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر » قال : وفي الباب عن عبدالله ابن أبي أوفى قال أبوعيسى :حديث أبي سعيد حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

اللهم أصلح الراعي والرعية وهيىء للمسلمين من أمرهم رشداً ، وصلِّ على عبدك ورسولك محمد بن عبدالله إمام الهداة وسيد العادلين المنصفين وعلى آله وصحابته ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين .

يخافون سوء العقبى..
ويبكون بُعد السفر وقلة الزاد

يوم تبلى السرائر ، ويعرف المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصي والأقدام ... يزداد المؤمنون يقيناً بأحقية ما كانوا عليه من الإيمان في الدنيا ، بل يرون أن ذلك ـ والحمدلله ـ حق اليقين ، ويدركون تمام الإدراك أن كل ما قدموه في العاجلة من طاعة وعمل صالح ، يبدو ضئيلاً أمام ما ينالون من الفضل العظيم الذي يتجلى الله به على عباده الصالحين ، ولا تسل عما يغمرهم من الفرح والغبطة يومذاك ، وكم يتمنون لو أنهم ازدادوا طاعة على طاعة ، وجهاداً على جهاد ، وصبراً على صبر ، فالله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

ولا مرية في أن ما يصير إليه هؤلاء المنيبون المخبتون إلى ربهم ، من كريم الفضل والإحسان : عنوان مشرق على نسبهم الأصيل إلى تلك المشاهد التي يغمرها الرضى وجزيل العطاء، ومَعْلَمٌ بارز يدل على سلامة ما كانوا عليه من نهج سوي، يديمون معه مراقبة الله عز وجل ، ويضعون نصب أعينهم ما يمكن أن تكون عليه العقبى يوم الدين ، وأنه مادامت الرُّجعى إلى الله ، فالواجب مراعاة ذلك في كل صغيرة وكبيرة ، أعمالُ الجوارح وأعمالُ القلوب في ذلك على حدٍّ سواء ، وإلا ضلَّ سعي المرء ، وخاب فأله ، وكان في الآخرة من الخاسرين .

هذا عامر بن عبدالله المعروف بابن عبد قيس العنبري ، أول من عرف بالنسك من عُبَّاد التابعين بالبصرة ، ومن أقران أويس القرني ، وأبي مسلم الخولاني: «يبكي مرة وهو مريض ، فيقال له ـ كما روى صاحب الحلية ـ ما يبكيك وقد كنت وكنت ؟ فيقول : مالي لا أبكي !! ومن أحق بالبكاء مني ، والله ما أبكي على الدنيا ، ولا جزعاً من الموت ، ولكن بعد سفري ، وقلة زادي ، إني أمسيت في

صعود وهبوط : جنة أم نار ؛ فلا أدري إلى أيهما أصير » .

وذلكم شأن أولئك الربانيين أهل القرب من الله الذين يحبهم ويحبونه ؛ فقد كان ـ رحمه الله يقول : « أحببت الله عز وجل حباً سهَّل عليَّ كلَّ مصيبة ، ورضاني في كل قضية ؛ فما أبالي مع حبي إياه ما أصبحت عليه وما أمسيت» وهذا لا ينافي أن العافية أوسع للعبد ، ولكن شديد حبه لمولاه ، يسهل عليه كل مصيبة، ويجعله من الصابرين .

ولعل من الخير اصطحاب شذرات من حديثه عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وهي شذرات تؤكد ما أسلفنا ، من أن ما تفيض به مشاهد الفضل والإحسان في دار المتقين يوم القيامة : برهان ناطق على صدق النسب بين ما كان عليه أهل البر في دار العمل والفناء ، وما آل إليه أمرهم من كريم العقبى في دار الجزاء والبقاء .

قال عامر ـ أجزل الله مثوبته ــ : « رأيت نفراً من أصحاب النبي ﷺ وصحبتهم ، فحدثونا أن أصفى الناس إيماناً يوم القيامة أشدُّهم محاسبة لنفسه في الدنيا ، وأن أشد الناس فرحاً في الدنيا ، أشدُّهم حزناً يوم القيامة . وأن أكثر الناس ضحكاً في الدنيا أكثرهم بكاء يوم القيامة . وحُدِّثنا أن الله فرض فرائض ، وسنَّ سنناً ، وحد حدوداً ؛ فمن عمل بفرائض الله وسننه واجتنب حدوده ، دخل الجنة بغير حساب، ومن عمل بفرائض الله وسننه وركب حدوده ، ثم تاب وأناب، استقبل الشدائد والزلازل والأهوال ، ثم يدخل الجنة . ومن عمل بفرائض الله وسننه وركب حدوده ، ثم مات مصراً على ذلك !! لقي الله مسلماً إن شاء غفر له وإن شاء عذبه » مات عامر رحمه الله في نحو سنة ٥٥ ببيت المقدس .

ولما كان الصحابة رضي الله عنهم خير هذه الأمة ــ بعد نبيها عليه الصلاة والسلام والمؤتمنين على نقل الدين الحق إليها ـ فالواجب أن يُستنَّ بهم وتؤخذ النفوس بما كانوا عليه من النهج القويم ؛ إيماناً وعلماً وعملاً وجهاداً . قال عبدالله

ابن عمر رضي الله عنهما : «من كان مستَنّاً فليستنَّ بمن قد مات ، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هـذه الأمة ، أبرَّها قلوباً ، وأعمقَهـا علماً ، وأقلَّها تكلفاً . قوم اختارهم الله لصحبـة نبيه ﷺ ، ونقل دينه؛ فتشبهـوا بأخلاقهم وطـرائقهم ؛ فهم أصحـاب محمـد ﷺ . كـانوا على الهدى المستقيـم والله رب الكعبـة . يـا ابـن آدم صاحب الدنيا ببدنك وفارقها بقلبك وهمِّك، فإنك موقوف على عملك ، فخذ مما في يديك لما بين يديك عند الموت ، يأتك الخير » .

والواقع أن الصحابة رضوان الله عليهـم ، كما كانوا كلفين بالاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام في حياتهم الدنيا ، كانوا شديدي الحرص على كل ما فيـه تجنب الوقوع فيما يسيء إلى العقبـى في الآخرة يوم اللقاء ، ولقـد أغنت مشاهـد القيامة ومـا فيها ، هذا المسلك عنـدهم، وظهر ذلـك على تصرفاتهم في دقيق الأمور وجليلها ، وبـاتوا خير قدوة ـ بعد رسول الله عليـه الصلاة والسلام ـ لكل من ترقى همته لأن يكون تابعاً لهم بإحسان عبر تاريخنا الطويل ، وحتى يأذن الله بانقضـاء الدنيـا . وقد مـرت بنا نماذج كثيرة لهذه المنقبـة العظيمة فيما مضـى، وقال الإمام مسلم : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة قال : حدثنا وكيع بن الجراح قال: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيـس بن أبي حازم عن عدي بن عَميرة الكندي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مِخْيَطاً فما فـوقه كان غلولاً يأتي به يـوم القيامة . قال : فقام رجـل أسودمن الأنصار كأني أنظر إليه فقال: يارسول الله اقبل عني عملك. قال: ومالك؟ قال: سمعتك تقول : كذا وكذا . قال : وأنا أقوله الآن . من استعملناه منكم على عمل فليجىء بقليله وكثيره ، فما أوتي منه أخذ ، وما نهي عنه انتهى» .

المخيـط بكسر الميم وسكـون الخاء : الإبرة . والغلـول : السرقـة من الغنيمـة والفيء ؛ وهو أمـر رهَّب منه النبي ﷺ ترهيبـاً شديداً كما مر في منـاسبات خلت. وأصل ذلك في كتاب الله عز وجـل : قال الله تعالى في سورة آل عمران : ﴿وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا

يظلمون﴾ قال العلماء ﴿ يأت بما غل يوم القيامة ﴾ أي حاملاً له على عنقه كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة .

إن مشهد الغل يوم القيامة ـ وهو يحمل ما غل على عنقه والناس قيام ينظرون ـ أفزع ذلك الرجل من الأنصار ؛ إذ خشي رضي الله عنه ـ وهو يلي أمراً من أمور المسلمين لرسول الله ﷺ ـ أن يقع فيما هو بمثابة الغاول؛ فيفتضح يوم القيامة على رؤوس الاشهاد؛ فاعتذر إلى رسول الله عن متابعة الولاية وقال : «اقبل عني عملك» . وقوّى ذلك في نفسه ـ والله أعلم ـ ما كان من الدقة في الوعيد مهما كان قدر الذي غُلَّ حتى لو كان إبرة فما فوقها . وأخرج الحديث أبوداود في سننه وأحمد في المسند بلفظ «لا فهو غُلٌّ يأتي به يوم القيامة » ..

وفي رواية أحمد ما يدل على أن المعتذر عن الولاية سعد بن عبادة رضي الله عنه. قال عبدالله بن الإمام أحمد : حدثني أبي مرتين قال : حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل بن خالد قال : حدثني قيس عن عدي بن عميرة الكندي قال : قال رسول الله ﷺ : « من عمل لنا منكم على عمل ـ وفي رواية من استعملناه منكم على عمل ـ فكتمنا مخيطاً فما فوق فهو غُلٌ يأتي به يوم القيامة ، قال : فقام رجل من الأنصار أسود ـ قال مجالد : هو سعد بن عبادة ـ كأني أنظر إليه قال : يارسول الله اقبل عني عملك فقال : وما ذاك ؟قال : سمعتك تقول كذا وكذا . قال : وأنا أقول ذلك الآن : من استعملناه على عمل فليجىء بقليله وكثيره ؛ فما أوتي منه أخذ وما نهي عنه انتهى » .

هكذا كان انتفاع سعد رضي الله عنه بدلالة ذلك المشهد المروِّع ، فرجا رسول الله أن يقبل عنه عمله ، خوفاً على أخراه أن تسوء ، وينالَه الخزي بين يدي رب العالمين .

وما أكثر العبر والدروس في حياة أولئك الرجال الذين كانوا لا يعدلون بالميزان الأخروي ميزاناً آخر ، ولم يَحُلْ ذلك دونهم ودون أن يبنوا الحياة على خير وجه وأكمله.

مشاهد الفضل... والبشريات

لا يعدم الناظر في نصوص السنة التي تحمل للأمة هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، في شأن الدار الآخرة وما يتحقق فيها من المثوبة للطائعين المخبتين ، ومن العقوبة للضالين المجرمين .. لا يعدم أن يقع على الكثير من المبشرات التي تضاعف الأمل والرجاء ، بجانب ما يكون من المنذرات التي تثير كوامن الفزع والخوف ؛ ومشاهد هذه وتلك ناطقة بما ينير الطريق ويشدُّ إلى ساحة الفوز والنجاة .

وحري بالمؤمن ــ كما أسلفت غير مرة ـ أن يكون على الجادة في موقفه من البشارة ... والنذارة ... ومن الترغيب والترهيب .

وإذا كان الصادق المصدوق ـ عليه الصلاة والسلام ــ لا ينطق عن الهوى: فالخير كل الخير في التبصر بما يقول ، وبما يفعل ، وبما يقر ، وحين يحرص المؤمنون على ذلك ويلتمسون الطريق إليه ؛ سلوكاً في أنفسهم ، وتربية وتعليماً وإعلاماً في المجتمع ، يكون ذلك عنوان التوفيق في الدنيا ويوم الدين .

وقد مر بنا في حلقات مضت عدد من النصوص المبشرات . ومن المبشرات أيضاً ما أخرج الترمذي في كتاب صفة جهنم من السنن « الجامع الصحيح » عن الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة ؛ يؤتى برجل فيقول : سلوا عن صغار ذنوبه وأخبئوا كبارها ، فيقال له : عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا عملت كذا يوم كذا وكذا : قال : فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة قال : فيقول : يارب لقد عملتُ أشياء ما أراها ههنا . قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ».

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه مسلم ولفظه « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها ؛ رجل يؤتى به يوم القيامة . فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها ، فتعرض عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا . وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا .فيقول: نعم ، لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه. فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة . فيقول : رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا ؛ فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ».

وليس من مُعاد الحديث التذكير بأن هذا الذي كشف عنه اللثام رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يدل ـ أول ما يدل ـ على سعة رحمة الله تعالى بعباده ، وعلى ما للكلمة الطيبة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ـ حين يستودعها الإنسان قلبَه صادقاً مخلصاً ـ من أثر واضح في عقباه يوم الدين ؛ فتراه قد رحمه الله تعالى بسببها، بعد أن تطهر من الأدران في جهنم ، وأعطاه مكان كل سيئة حسنة ، وأدخله جنة الخلد ، يتمتع فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب واحد من عباد الله .

وإذا كان الأمر كذلك : فما أجدر الإنسان الذي خالطت بشاشة الإيمان قلبه، أن يقدر هذه القضية الكبرى قدرها ، ويسعى لمحبة الله ورسوله سعيها ، وبذلك تكون البشريات قد زادته حرصاً على حرص ، في العمل على تحصيل رضوان الله تعالى ، وأن يكون يوم الحشر ممن ينشر الله عليهم رحمته ، ويغمرهم بفيض إحسانه ويجعلهم في زمرة الناجين من النار ، الفائزين بالنعيم في دار القرار .

وقال الإمام مسلم : حدثنا حجاج بن الشاعر قال : حدثنا الفضل بن دكين قال: حدثنا أبو عامر (يعني محمد بن أبي أيوب) قال: حدثني يزيد الفقير قال: كنت قد شغفني رأيٌ من رأي الخوارج ، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحجَّ ، ثم نخرجَ على الناس ، قال : فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبدالله

يحدث القوم ــ جالس إلى سارية ـ عن رسول الله ﷺ . قال : فإذا هو قد ذكر الجهنميين . قال : فقلت يا صاحب رسول الله ! ما هذا الذي تحدثون والله يقول: ﴿إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾ ويقول: ﴿ كلما أردوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ فما هذا الذي تقولون ؟ فقال : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم ! قال : فهل سمعت بمقام محمد عليه الصلاة والسلام ؟ (يعني الذي يبعثه فيه) قلت: نعم. قال: فإنه مقام محمد ﷺ المحمود الذي يخرج الله به من يخرج . قال : ثم نعت وضعَ الصراط ، ومَرَّ الناسِ عليه . قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك . قال: غير أنه قد زعم أن قوماً يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها . قال : يعني فيَخرجون كأنهم عيدان السماسم قال : فيدخلون نهْراً من أنهار الجنة ، فيغتسلون فيه ، فيخرجون كأنهم القراطيس ، فرجعنا قلنا : ويحكم أترون الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ ؟ فرجعنا فلا والله ما خرج منا غيرُ رجل واحد » أو كما قال أبو نُعيم .

رأي من رأي الخوارج : وهو أنهم يرون أن أصحاب الكبائر يخلدون في النار ولا يخرج منها من دخلها ـ خلافاً لما عليه أهل السنة والجماعة ـ وقوله : «ثم نخرج إلى الناس» أي مظهرين مذهب الخوارج ندعو إليه ونحثُّ عليه . وظاهر أنه قد رجع عن ذلك بما ثبت من حديث رسول الله ﷺ الذي سمعوه من جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، والذي يدل بوضوح على عدم خلود أهل الكبائر في النار ، كما تزعم الخوارج .

وسبحان من هو على كل شيء قدير ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون؛ فهؤلاء الذين رزقوا أن يكونوا من أهل الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بعد أن يتطهروا من معاصيهم بالنار يُخرَجون منها كأنهم عيدان السماسم ، وبعد أن يغتسلوا بنهر من أنهار الجنة ، يخرجون كأنهم القراطيس وهي الصحف التي يكتب عليها ، وشبهوا بالقراطيس لشدة بياضهم بعد اغتسالهم وزوال ما كان عليهم من السواد ـ والله أعلم ـ . والسماسم : جمع سمسم وهو نبات يزرع في بلاد الشام يستخرج منه الشيرَج ـ وتقول العامة : السيرَج . فإذا

قلعت عيدانه وتركت ليؤخذ حبها تراها دِقاقاً سوداً كأنها محترقة .

ومن بلاغتـه ﷺ وعظيم الدلالة على فضـل الله عز وجل : أنه ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ شبه بهذه العيدان هؤلاء الذين يخرجون مـن النار وقد امتُحشوا أو امتَحشوا : احترقت جلـودهم وظهور عظامهم ، حتى أصبحـوا على تلك الصورة من السواد .

هذا: وقـد رجع يـزيد بن صهيـب المكي راوي الحديث الـذي كان يـدعى بالفقير ـ لأنه كان يشكو فقار ظهره ـ. رجع عن رأي الخوارج ـ كما سبق ـ ومعه من كان الـرفقة إلا واحداً . ذلكم قولـه : «فرجعنا فلا والله ما خـرج منا غير رجل واحد» أي رجعنا من حجنا ولم نتعرض لـرأي الخوارج بل ، كففنا عنه وتُبنا منه إلا رجلاً منا، فإنه لم يوافقنا في الانكفاف عنه .

وما من ريب في أن انصيـاعهم إلى ما دلَّ عليه حديث الـرسول عليه الصلاة والسلام ، مـؤذن بصدقهـم ، وأنهم لا يسيرون مع الهوى .. بـل يَدَعـون خيرتَهم لما جاء عن نبيهم الذي لا ينطق عن الهوى ، صلوات الله وسلامه عليه .

الأمانة والرحم.. على جنبتي الصراط

لا يرتـاب منصف رزق حسن الإنابـة ، ورقة القلب ، أن مـن دلائل الهداية والتوفيق : ما ينشرح له صدر المؤمن من الإقبال على صالح العمل ، وما تطيب به نفسه من صدق الاهتمام بكل ما هو مـن أمور الآخرة بسبب ... ثم ما يترتب على ذلك ـ بفضل الله ورحمته ـ من الفوز بموعود الله عبادَه الصالحين ، يوم تزلف الجنة للمتقين ، وتبرَّز الجحيم للغاوين .

وعنـدما تطيـب النفس بهذا النهـج الميمـون ، وينشرح الصدر لملازمتـه على صعيد العلم والعمـل ، فقل : الخير هناك ، ويخرج الأمر عن أن يكـون دعوى بلا دليل ـ كما هو شأن الساهين اللاهين ـ إلى أن يكون ائتماراً بما أمر الله ، واجتناباً لما عنه نهى ، وخشيةً له سبحـانه بالغيب ، وانفعالاً مثمراً بما جـاء به الخبر الصادق عن القيامة وما فيها ، وعما يكون في تلكم الساعات العصيبات يوم الدين .

أقـول هذا ، وبين يـديَّ شذرات مبـاركات مـن الهدي النبوي ، تشير إلى مـا يشهد العباد يوم الحساب من عِظَم أمر الأمانة والرحم ، ودلالة ذلك المشهد على ما ينبغي أن يكون عليه الأمر في شأنهما ،على ساحة العمل في الدار العاجلة ، وما يطلب من التزود فيها ، لرحلة تصل بالعبد إلى القيام بين يدي العزيز الحكيـم .

قال الإمـام مسلم : حدثنا محمـد بن طريـف بن خليفة البجليُّ قال : حـدثنا محمد بن فضيل قال : حدثنا أبو مـالك الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة ، وأبو مـالك عـن ربعي عن حـذيفة قالا : قـال رسول الله ﷺ : « يجمـع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تزلفَ لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقـول : هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئـة أبيكم آدم ؟ لست بصاحب ذلك . اذهبـوا إلى ابني إبراهيم خليل الله ، قال : فيقـول إبراهيم: لست

بصاحب ذلك إنما كنت خليلاً من وراء وراء ، اعمدوا إلى موسى ﷺ الذي كلَّمه الله تكليماً ، فيأتون موسى ﷺ ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه ، فيقول عيسى ﷺ : لست بصاحب ذلك . فيأتون محمداً ﷺ ، فيقوم فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً ، فيمر أَوَّلُكُم كالبرق . قال : قلت: بأبي أنت وأمي أيُّ شيء كَمَرِّ البرق؟ قال : ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمرِّ الطير وشدِّ الرجال تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط يقول : رب سلِّم سلِّم ، حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفي حافَّتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أُمرت به فمخدوش ناج ، ومكدوس في النار . والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً » .

هكذا ، وفي خضم هذه الشدة المحدقة بالناس، الشدِة التي بَلغ من هولها ما يرى في محاولة الاستشفاع بعدد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى أُذن لنبينا محمد ﷺ ، وظهر فضله على الجميع... أقول : في خضم هذه الشدة ، ترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط . وجنبتا الصراط : جانباه ، وإنما كان ذلك، لعظم أمرهما وكبير موقعهما ، فتصوران مشخصين على الصفة التي يريدها الله تعالى ؛ وجميل ما قاله الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل التميمي الأصبهاني الشافعي رحمه الله تعالى صاحب كتاب « التحرير في شرح صحيح مسلم » من أن في الكلام اختصاراً ، والسامع يفهم أنهما ـ يعني الأمانة والرحم ـ تقومان لتطالبا كل من يريد الجواز ، بحقهما .

سبحان الله ما أعظم هذا الحق ، وما أدل هذا المشهد ، والناس يمرون على الصراط على صور شتى تختلف باختلاف مراتبهم وما قدموا في الدنيا ، حتى يجيء الرجل ، فلا يستطيع السير إلا زحفاً ... ما أدل هذا المشهد على التذكير بما يجب من أداء الأمانة وحفظها ـ على سعة مدلولها ـ وعلى الإحسان في صلة الرحم. اللهم اكتبنا مع الذين يمرون مسرعين بسلام ، حيث يمر أول الناس كالبرق ، ثم

كمر الريح ثم كمر الطير . وانظر إلى قوله : «وشدُّ الرجال تجري بهم أعمالهم ونبيكم قائم على الصراط » وذلك من شدة شفقته ﷺ على أمته .. إنه قائم على الصراط ـ فداه أبي وأمي ـ يقول : ربِّ سلِّم سلِّم . وشدُّ الرجال : عدوها البالغ وجريها ، قال العلماء : وأما قوله ﷺ : « تجري بهم أعمالهم » فهو كالتفسير لقوله عليه الصلاة والسلام : «فيمر أولكم كالبرق ثم كمر الريح ..» إلى آخره . ومعناه ـ كما أسلفت ـ أنهم يكونون في سرعة المرور على حسب مراتبهم وأعمالهم . وقوله ﷺ : « فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة » هو بضم التاء وإسكان الزاي . ومعناه : تقرب كما قال الله تعالى : ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ أي قربت ، وحول قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ــ كما ذكر النبي ﷺ ـ: « إنما كنت خليلاً من وراء وراء » قال صاحب « التحرير » : (هذه كلمة تذكر على سبيل التواضع أي لست بتلك الدرجة الرفيعة . قال : وقد وقع لي معنى مليح فيه وهو أن معناه أن المكارم التي أعطيتُها كانت بوساطة سفارة جبريل ﷺ ، ولكن ائتوا موسى فإنه حصل له سماع الكلام بغير واسطة قال : وإنما كرَّر وراء وراء، لكون نبينا محمد ﷺ حصل له السماع بغير واسطة . وأما ضبط وراء وراء : فالمشهور فيه الفتح فيها ــ كما يقول الإمام النووي ـ بلاتنوين ، ويجوز عند أهل العربية بناؤها على الضم أي فتقول: من وراءَ وراءَ ، ومن وراءُ وراءُ .

وبعد : فإن هذا الموقف الذي يكرَّم به النبيﷺ ، ويدل على مزيد شفقته ورحمته بأمته، يذكرنا بما أخرج الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول الناس يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً» وله في رواية أخرى « أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة » ويتضح هذا المقام أكثر وأكثر بما روى مسلم أيضاً عن أنس رضي الله عنه من قول النبي ﷺ : « آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت؟ فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك » ورواه الإمام أحمد في المسند . ﴿إن في ذلك لآيةً لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ .

حق الرحم والأمانة..
وعاقبة التجاوز يوم الدين

وقفتنا في الأسطر القريبة، كلمات هاديات مضيئات من هدي نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، على مشهد من مشاهد القيامة، بالغِ العظة والتأثير ، يتعلق بعظم أمر الأمانة والرحم وأداء حق الله فيهما : وذلك فيما رأينا من رواية الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه والتي جاء فيها «... وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً » الحديث . وإنما تقومان هذا المقام لتطالبا كل من يريد الجواز على الصراط ، بحقهما.

وفي متابعة لدلالة هذا الهدي النبوي الكريم ، في الكشف عما يشهده العباد يوم القيامة في هذا الشأن ، نقع على ما جاء في مسند الإمام أحمد رحمه الله من قول ولده عبدالله : حدثني أبي قال : حدثنا بهز وعفان قالا : حدثنا حماد بن سلمة قال : أنبأنا قتادة عن أبي ثمامة الثقفي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « توضع الرحم يوم القيامة لها حُجْنَةٌ كَحُجْنَةِ المِغزل تتكلم بلسان طلق ذَلْق فتصل من وصلها وتقطع من قطعها » .

حُجنة المغزل : الصُّنَّارة المنعقفة في رأسه . والمغزل ـ مثلثة الميم ـ ما يغزل به . جاء في لسان العرب لابن منظور (وفي الحديث توضع الرحم يوم القيامة لها حُجنة كحُجنة المغزل أي صنارته المعوجة في رأسه التي يعلق بها الخيط يفتل للغزل، وكل متقف أحجن) . و قوله : « تتكلم بلسان طلق ذلق ». يقال: رجل طلق اللسان أي ما ضي القول سريع النطق وذَلْقٌ وذَلَقٌ وذُلُقٌ وذُلُقٌ أي : حديد بليغ.

أرأيت إلى هذا المشهد المثقل ببليغ التأثير وعظيم التذكير ، كيف يحمل إلى الأمة هذا القدر من الوعد والوعيد !! فالله سبحانه وتعالى ــ وهو القادر القاهر ـ

يعطي الرحم يوم يقوم الأشهاد ، تلك القدرة الفائقة التي تمكنها من أن تصل من وصلها ، وتقطع من تقطعها . والعاقل من ذُكِّر فتذكَّر ، واستقبل الموعظة بقلب خاشع خاضع فاتعظ ... ويانعم ما يفعل المؤمن حين يتخذ من مشاهد القيامة الناطقة بأجلى بيان وأظهره ــ على ساحة البشارة والنذارة ، والوعد والوعيد ـ حافزاً يوقظ من الغفلة ، ويشد الأزر على طريق الاستقامة على المنهج الأقوم ، وفي ذلك ما فيه من السعادة في الدنيا ، والنجاة ـ برحمة الله وغفرانه ـ يوم الدين .

وفي حديث موصول بمشهد الأمانة والرحم ــ وهما قائمتان على جنبتي الصراط والناس يمرون كلٌّ حسب مرتبته وعمله في دار العمل ـ تجدر الإشارة إلى ما حذر وأنذر رسول الله ﷺ من تضييع الأمانة ، معلناً أن ذلك من علامات الساعة، كما أنه ظاهرة سوء تشي بالخراب في الدنيا ، وشرِّ المآب في العقبى يوم الحساب . أخرج الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : كيف إضاعتها يارسول الله ؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » وفي رواية «إذا وسِّد» وتكون تعديته بكلمة «إلى » بدل اللام ليدل على تضمين معنى الإسناد .

قال ابن بطال : معنى أسند الأمر إلى غير أهله : أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عباده ، وفرض عليهم النصيحة لهم ، فينبغي تولية أهل الدين، فإذا قلَّدوا غير أهل الدين، فقد ضيعوا الأمانة التي قلدهم الله تعالى إياها) .

وأشد من هذا وأنكى : ما ينتهي إليه أهل الضلالة الطاغون ؛ من معاقبتهم برفع الأمانة من قلوبهم ــ والعياذ بالله ــ . وإذا كان الأمر كذلك : فلا تسل عما ينتظرهم في عرصات القيامة من الخزي والمآب المهين ﴿ **إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً** ﴾. وما أشد ما يلقون في هذا المآب من النكال والجحيم والطعام ذي الغصة والعذاب الأليم ﴿ **والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً** ﴾ .

قال الإمام البخاري : حدثنا محمد بن كثير قال : أخبرنا سفيان قال : حدثنا

الأعمش عن زيد بن وهب قال : حدثنا حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا «أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال . ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة ، وحدثنا عن رفعها ؛ قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكْت . ثم ينام النومة فتقبض ، فيبقى أثرها مثل المَجْلِ ، كجمر دحرجته على رجلك فنفِط ، فتراه منتبراً وليس فيه شيء ، فيصبح النّاس يتبايعون ، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، ويقال للرجل : ما أعقله وما أظرفه وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . ولقد أتى عليَّ زمان وما أبالي أيّكم بايعت ، لئن كان مسلماً رده عليَّ الإسلام ، و إن كان نصرانياً رده عليَّ ساعيه ، فأما اليوم : فما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً ».

قال الفربري : «قال أبو جعفر : حدثت أبا عبدالله فقال : سمعت أبا أحمد ابن عاصم يقول : سمعت أبا عبيد يقول : قال الأصمعي وأبو عمر و وغيرهما : «جذر قلوب الرجال ». الجذر : الأصل من كل شيء . والوَكْتُ : أثر الشيء اليسير منه . والمَجْلُ : أثر العمل في الكف إذا غلُظ » .

وله في رواية أخرى : « فيبقى فيها أثرها مثل أثر المجل » وقد أورده في كتاب الاعتصام والسنة « باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ وقول الله تعالى : ﴿**واجعلنا للمتقين إماماً**﴾ » من الجامع الصحيح مختصراً من رواية زيد بن وهب ، ولفظه سمعت حذيفة يقول : حدثنا رسول الله ﷺ «أن الأمانة نزلت من السماء في جذر قلوب الرجال ، ونزل القرآن فقرأوا القرآن وعلموا من السنة ».

وإلى أن نلتقي على خطوة أخرى ، مع نصوص مباركات من هدي خير البرية محمد عليه الصلاة والسلام في هذا الباب ، أود الإشارة إلى ما بشر به النبي ﷺ بأن من اجتمعت له أربع خصال ـ في مقدمتها حفظ الأمانة ـ أنه لا عليه ما فاته من الدنيا .

ويفهم من ذلـك: أن له ـ بفضل الله ورحمتـه ـ حسن العاقبـة في الآخرة . من أجل هذا : لا عليه ما فاته من الـدنيا ؛ فالآخرة خير وأبقى . أخرج الإمام أحمد في المسند بسنـده عن عبدالله بـن عمرو بن العـاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « أربع إذا كن فيك : فـلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفـظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة في طِعمة » .

جاء في النهاية لابن الأثير : والطعمة بالكسر والضم: وجه المكسب ، يقال: هو طيب الطعمة ، وهي بالكسر خاصة : حالة الأكل .

جعلنـا الله ممـن ينتفعـون بالهدى حين يعلمـون . وإذا ذكِّـروا بها يحصـل يـوم القيامـة يذكـرون . وله ـ جـل ثناؤه ـ الحمـد في الأولى والآخرة . وصـلاة الله وأزكى تسليماته على إمام الهداة نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين .

رفع الأمانة... وسوء العقبى

حديث رفع الأمانة من بعض القلوب الذي أخرجه البخاري وغيره عن حذيفة رضي الله عنه ، يصلنا على صعيد المراد بالأمانة والمقصود منها ، بقول الله تعالى في شأنها :﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ والمحققون ـ كما سيأتي ـ على أن الأمانة المذكورة في الحديث ، هي الأمانة المذكورة في هذه الآية الكريمة من سورة الأحزاب ، وهي عين الإيمان ؛ فإذا استمكنت هذه الأمانة من قلب العبد وخالطته بشاشتها ، قام حينئذ بأداء التكاليف المطلوبة على وجهها ، واغتنم ما يرد عليه منها ، وجدَّ في إقامتها . وإن شئت قلت : المراد بها التكليف الذي كلف الله تعالى به عباده ، والعهد الذي أخذه عليهم، على الوجه الذي أراده سبحانه .

وعلى هذا : فالنسب متصل بين رفع الأمانة من القلب في الدنيا ، وبين سوء العقبى في الآخرة .

ولكم يحسن المرء صنعاً ، إذا صدق الوجهة مع الله ، ولجأ إلى المعتصم القوي ـ وهو تقوى الله في السر والعلن ـ الذي يعصمه ـ بإذن الله ـ من أن يكون في زمرة الهالكين الذين جاء ذكرهم في قوله ﷺ محذراً منبهاً : « حتى يقال للرجل ما أجلدَه ما أظرفه ما أعقله ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ..» .

ثم إن الحديث المومى إليه عند البخاري : رواه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد في المسند وغيرهم؛ فتحت باب «رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب » أخرج الإمام مسلم بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ؛ حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من

السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة ؛ قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفِط ، فتراه منتبراً وليس فيه شيء ـ ثم أخذ حصىً فدحرجه على رجله ــ فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة ، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . ...» الحديث.

الوكت ـ كما مر ـ أثر الشيء ، اليسير منه ، والمجل بفتح الميم وإسكان الجيم وفتحها لغتان حكاهما بعض العلماء ، والمشهور الإسكان . يقال منه : مجلت يده تمجل مجلاً ، ومجلت تمجل مجلاً وأمجلها غيرها . قال أهل اللغة والغريب : المجل هو التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها ويصير كالقبة فيه ماء قليل . وأما قوله : « كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شيء » فالجمر والدحرجة معروفان ونفِط : مجل ـ كما سبق ـ ويقال: تنفط بمعناه ، ومنتبراً : مرتفعاً ، وأصل هذه اللفظة الارتفاع ، ومنه المنبر لارتفاعه وارتفاع الخطيب عليه .

وصلى الله وسلم على الرحمة المهداة رسول الله ، لقد كان رحيماً بما بشر وأنذر ونبَّه على مكامن الخطر التي ينبغي أن تُجتنب ، وكان أبلغ أهل الأرض بما أعطي من هذه القدرة الفاذَّة على تقريب تلك الأمور المعنوية ـ على عمقها ودقتها ـ بتلك الصور المادية الملموسة المؤثرة . وما من ريب في أن أهل الفلاح الذين أوتوا حظاً من الحرص على أخراهم ، وأن يكونوا يوم القيامة من الناجين من عذاب الله ، الفائزين بجنته ورضوانه ، يضعون في حسابهم تلك الحقيقة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ ونبه المسلمين عليها ، ويعملون على تقويم سلوكهم في التعامل مع التكاليف الشرعية والعمل بطاعة الله ، تقويماً يحجزهم عن المخالفة عن أمر الله ورسوله ، ويباعد بينهم وبين أن يكونوا ملهاة في أيدي دعاة جهنم، الذين يقدمون للناس الزخرف المبطن بالكفر والضلال ، وأن يحذروا ما حذَّر رسول الله من حالهم ونبَّه على مخاطر الوقوع في أحابيلهم .

نقل الإمام النووي عن صاحب « التحرير » شرح صحيح مسلم في معنى الحديث: «أن الأمانة تزول عن القلوب شيئاً فشيئاً ، فإذا زال أول جزء منها زال نورها ، وخلَفته ظلمة كالوكت ، وهو اعتراض لون مخالف للَّون الذي قبله ، فإذا زال شيء آخر صار كالمجل ، وهو أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة ، وهذه الظلمة فوق التي قبلها . ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقاب الظلمة إياه ، بحجر يدحرجه على رجله حتى يؤثر فيها، ثم يزول الحجر ويبقي التَّنَفُّطُ . وأخذه ـ ﷺ ـ الحصاة ودحرجته إياها : أراد به زيادة البيان وإيضاح المذكور والله أعلم ».

ألا إنه نذير من النذر المرعبة المرهبة ، وهو جدير أن يقض المضاجع ، ويحرك القلوب ؛ وكلٌّ هذا ، لأن المخوف عليه أن يرفع هو الأمانة التي هي الإيمان ، أو التكليف الذي كلف الله به عباده ، وعهده المأخوذ عليهم . قال الإمام النووي رحمه الله : «وأما الأمانة : فالظاهر أن المراد بها التكليف الذي كلف الله به تعالى عباده والعهد الذي أخذه عليهم ـ قال الإمام أبو الحسن الواحدي رحمه الله في قول الله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال** ...﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي الفرائض التي افترضها الله تعالى على العباد . وقال الحسن : هي الدين والدين كله أمانة . وقال أبو العالية : الأمانة ما أمروا به وما نهوا عنه . وقال مقاتل : الأمانة الطاعة . قال الواحدي : فالأمانة في قول جميعهم ـ يعني المفسرين ـ : الطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب وبتضييعها العقاب». وجميل ما ذهب إليه صاحب التحرير رحمه الله فبعد أن بين ـ كما أسلفنا ـ أن الأمانة في الحديث هي الأمانة المذكورة في قوله تعالى : ﴿**إنا عرضنا الأمانة**...﴾ قال: «وهي عين الإيمان ؛ فإذا استمكنت الأمانة من قلب العبد ، قام حينئذ بأداء التكاليف ، واغتنم ما يرد عليه منها وجدَّ في إقامتها ـ والله اعلم ـ».

اللهم ثبتنا بقولك الثابت ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

يا له مشهداً.. قرب كافل اليتيم
من رسول الله ﷺ في الجنة

تبارك اسم ربنا ذي الجلال والإكرام ، مـا أعظم ما شرع لعباده من الخير ، وماأكرم ما أفاض بـه على الأمة المحمدية من بالـغ الفضل والإحسان ، حين بشرَّ المتقين بعطاء غير مجذوذ في دار البقاء ، ومن هذا العطاء : جنات تجري من تحتها الأنهار ، لا ينفد نعيمها ، ولا ينقطع أمد الإحسان فيها .

وليس عجيبـاً ـ وهو سبحـانه المنان المتفضـل ـ أن يكون في تلكـم الجنات ، جناتِ الخلد : ما لا يغادر قدره من العطاء الرباني الذي لا يُحَدُّ ، ومن وراء ذلك رضوان من الله أكبر .

ومما يـزيد إيمان المؤمـن بحكمته وواسـع فضله ، جـل شأنـه: أنه ـــ كما وعد الصالحين من عبـاده ، المنيبة إليه قلوبهم ، المزدانـة بتقواه جوارحهم، بـالخلود في دار النعيم والتجلي عليهم برضوان أكبر لا يسخط بعده أبداً ـ يسر لهم سبل الخير في الدنيا ، وفتح لهم أبواب السعادة الأخروية على مصاريعها ، هنا وهناك ؛ وبقي أن تنقاد القلـوب للطاعة ، وأن يعـزم المرء عزمه متكـلاً على الله في التشمير عن ساعـد الجد ، وسلوك طريـق الجنة التي حفت بـا لمكاره ، وأن يكون على ذُكْـرٍ من ضرورة التأسي بسيـد الأنبياء و إمام الهداة محمد عليـه الصلاة والسلام . وهنـالك يتخذ من تلك الأبواب المشرعة ، على طرائق العمل الصالح والجهاد في سبيل الله والالتزام بكليات الـدين وجزئياتـه ، مناسباتٍ خيرة للانطـلاق الخيرِّ الذي يحوِّل الانقياد المهتدي والتأسي المستنير ، إلى مغانم أخروية غير ذات حدود ؛ ناهيك عما يتحقق من طمأنينة في الدنيا ، ونفع للعامل وللآخرين .

ويالها من تجارة رابحة ، لا تقتصر على جانب من الحياة دون جانب؛ ولكنها

لكل جوانب الحياة ومختلف ميادينها ؛ لأن الإسلام منهج رباني متكامل للحياة . وما مو بنا من النماذج المضيئة لهذه الحقيقة فيما سبق ، يدعو إلى الاستزادة من هذا الخير العميم.

هذا مشهد من مشاهد القيامة ، ناطق بقرب كافل اليتيم ـ المحسنِ معاملته وتربيته وتعليمه وأدبه ـ من رسول الله ﷺ في الجنة ، ذلك بأن النفع الذي يثمره هذا السلوك لا يقتصر ـ والله أعلم ـ على اليتيم نفسه ، ولكن يتعداه إلى المجتمع . على أن عظمة الإحسان إلى اليتيم تذكِّر تلقائياً بقول الحكيم الخبير في سورة الضحى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ قال الإمام البخاري : حدثنا عمرو بن زرارة قال : أخبرنا عبدالعزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل ـ هو سهل بن سعد ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما شيئاً » وجاء اللفظ في رواية أخرى له « وقال بإصبعيه السبابة والوسطى » ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ومالك في الموطأ وأحمد في المسند .

قال ابن الأثير في « النهاية » : الكافل هو القائم بأمر اليتيم المربي له ، وقد أوضح الحافظ ابن حجر رحمه الله، أن في هذا الحديث إشارةً إلى أن بين درجة النبي ﷺ وكافل اليتيم ، قدْر تفاوت ما بين السبابة والوسطى ؛ وهو نظير الحديث الآخر « بعثت أنا والساعة كهاتين » الحديث . ويكفي عنده في إثبات قرب المنزلة من المنزلة أنه ليس بين الوسطى والسبابة إصبع أخرى .

وفي تعليلٍ لهذا الفضل الإلهي الذي ينبىء عنه هذا المشهد المشرق ، نقل الحافظ عن شيخه العراقي في شرحه للترمذي قوله : (لعل الحكمة في كون كافل اليتيم يشبه في دخول الجنة ، أو شبهت منزلته في الجنة ، بالقرب من النبي ﷺ أو منزلة النبي ؛ لكون النبي شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم ، فيكون كافلاً لهم ومعلماً ومرشداً . وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه ، بل ولا دنياه ، ويرشده ويعلمه ويحسن أدبه ؛ فظهرت مناسبة ذلك).

على أن إشعار اليتيم بإنسانيته ـ على الوجه المطلوب ـ والتسامي به إلى المنزلة التي يدرك معها أنه طاقة نافعة في المجتمع ، لم ينزل به اليُتْمُ عن إنسانيته ولا عنها: أمر في غاية الأهمية ـ كما هو ظاهر ـ .

ولقد نقع في بعض روايات الحديث على مزيد من البيان ؛ روى مسلم بسنده عن مالك عن ثور ان زيد الديلي قال : سمعت أبا الغيث يحدث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة وأشار مالك بالسبابة والوسطى » وإذا كان كافل اليتيم هو القائم ـ كما سبق ـ بأموره ؛ من نفقة وكسوة ، وإحسان تربيته وتأديبه ، وتعليمه : فإن هذه الفضيلة ـ وهي القرب من النبي ﷺ في الجنة ـ تحصل ـ كما يقول الإمام النووي ـ لمن كفله من مال نفسه ، أو من مال اليتيم بولاية شرعية .

وأما قوله : « له أو لغيره » فالذي له : أن يكون قريباً له؛ كجده وأمه وجدته وأخيه واخته وعمه وخاله وعمته وخالته وغيرهم من أقاربه ، والذي لغيره: أن يكون أجنبياً . وطوبى لكافل اليتيم المستقيم على طاعة الله المحسن القيام بهذه الكفالة على الوجه المشروع ، بما يظفر به يوم القيامة من دخول الجنة ،والقرب فيها من سيد العالمين عليه الصلاة والسلام . قال ابن بطال رحمه الله : (حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة).

ومن الجدير بالذكر أن الإطلاق الذي رأيناه في الروايات السابقة ، نجده مقيداً بتقوى الله عند أحمد في المسند ومالك في الموطأ ، وإن كان هذا القيد من المعهود الذهني .

فتقوى الله في أي عمل من الأعمال التي يقوم بها المسلم ـ بوصفه مسلماً ـ ركن أساسي من أركان القبول ، والتقوى هنا تشمل صحة العمل من الناحية الشرعية التي بينها رسولنا عليه الصلاة والسلام ، كما تشمل الإخلاص بأن يكون العمل لله تبارك وتعالى ابتغاء مرضاته . قال عبدالله بن الإمام احمد : حدثني أبي

قال : حدثني إسحاق قال : أنبأنا مالك عن ثور بن زيد الديلي قال : سمعت أبا الغيث يحدث عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة إذا اتقى الله ، وأشار مالك بالسبابة والوسطى » . ولمالك في الموطأ عن صفوان بن سليم ؛ أنه بلغه أن النبي ﷺ قال: « أنا وكافل اليتيم له ، أو لغيره ، في الجنة كهاتين إذا اتقى » وأشار بأصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام » .

وفي خاتمة المطاف : ما أحسبني بحاجة إلى مزيد من التذكير بالقدر العظيم لهذا المشهد الذي يبصره الناس يوم الدين ، وماله من دلالة بالغة في انتظام الحياة الاجتماعية ، وتحقيق إنسانية الإنسان ، وتنمية طاقاته والإفادة منها ، وفق المنهج الرباني الذي هدى رسول الله ﷺ الأمة إليه ، وربى أصحابه على الالتزام به ؛ قولاً وعملاً وسلوكاً . وما أحوج أمتنا اليوم إلى هذا الالتزام ، بإخلاص نية وصدق عزيمة ، ورغبة فيما رغّب به الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام من صنوف الخير التي يبدو العمل بها بمثابة طريق مسلوكة إلى حيث القربُ من رسول الله ﷺ يوم القيامة في الخالدين .

كافلة أيتامها.. ومشهد الاعتبار هناك!

كانت رحلة مباركة ، تلك التي أسعدتنا ـ في صفحات خلت ـ بصحبة ما روى البخاري ومسلم وأحمد ومالك وغيرهم عن رسول الله ﷺ في شأن ما يجزي الله كافلَ اليتيم ـ إذا اتقى ربه فيه فأكرمه وعلمه وأحسن أدبه وتربيته ـ وذلك بأن يدخله الجنة ،ويكونَ فيها رفيقاً لسيد العالمين محمد عليه الصلاة والسلام .

وهذا المشهد المشرق بجزيل العطاء الرباني ـ كما أخبر عنه الصادق المصدوق ـ بالغ الأهمية في الدلالة على ما لكفالة اليتيم ـ حين يرعاها من وكلت إليه حق رعايتها ـ من عظيم الأثر في حياة الإنسان اليتيم نفسه ، وفي المجتمع الذي يأبى عليه إسلامه أن يكون اليُتْمُ عامل نزول بالفرد عن مستواه الإنساني اللائق ، بل يكون طاقة فاعلة في بناء الصرح الإسلامي العتيد . وأهميةُ هذا المشهد الناطق بعظم ما قدم كافل اليتيم المتَقي لله في الدنيا ، يدعو إلى الاستزادة من النظر في هدي النبي صلوات الله وسلامه عليه في هذا المضمار الذي يتجاوز الفرد إلى الجماعة ، ويتعدى اليتيم إلى غيره بالتربية والتعليم والإحسان ، كما يصل عمل العاجلة بجزائه في الآجلة دار القرار .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كفَل له ذا قرابة أو لا قرابة له ، فأنا وهو في الجنة كهاتين ، ضم أصبيعه ، ومن سعى على ثلاث بنات فهو في الجنة ، وكان له كأجر المجاهد في سبيل الله صائماً قائماً » رواه البزار .

وكم هو رائع ومثير لعزائم الإيمان : ذلك المشهد الذي يطالعنا به حديث عند أبي داود ــ على كلام لبعض العلماء في أحد رواته ـ ؛ فقد أخرج بسنده من رواية يزيد بن زريع عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أنه قال : قال رسول ﷺ « أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة » ـ وأومأ يزيد بالوسطى

والسبابة ـ « امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال ، حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا» وفي النهاية لابن الأثير «أنا وسفعاء الخدين الحانية على ولدها : يوم القيامة كهاتين ، وضم أصبعيه » .

السفعة نوع من السواد ليس بالكثير ، وقيل : هو سواد مع لون آخر . أراد أنها تبذلت وتركت الزينة والترفه حتى شحِبَ لونها واسودَّ ، إقامةً على ولدها بعد زوجها . قال الخطابي في كتابه « معالم السنن » (السفعاء : هي التي تغير لونها إلى الكمودة والسواد من طول الأيْمِة وترك التزين ، وكأنه مأخوذ من سفع النار ، وهو أن يصيب لفحها شيئاً فيسودَّ مكانه ، يريد بذلك أن هذه المرأة قد حبست نفسها على أولادها ، ولم تتزوج فتحتاج إلى أن تتزيَّن وتُصَنِّعَ نفسها لزوجها) .

وقد أورد الحافظ المنذري هذا الحديث في كتابه « الترغيب والترهيب» وعزاه إلى أبي داود ، وقال هناك : السفعاء : بفتح السين المهملة وسكون الفاء بعدهما عين مهملة ممدوداً : هي التي تغير لونها إلى الكمود والسواد من طول الأيمة ، يريد بذلك أنها حبست نفسها على أولادها ولم تتزوج ، فتحتاج إلى الزينة والتصنع للزوج . وآمت المرأة بمد الهمزة وتخفيف الميم: إذا صارت أيِّماً ، وهي من لا زوج لها ، بكراً كانت أو ثيباً ، تزوجت أو لم تتزوج بعد . والمراد هنا : من مات زوجها وتركها أيِّماً لم تتزوج .

سبحان الله ما أدل هذا المشهد في ذلك اليوم الذي تشخص فيه القلوب والأبصار ، على كريم فضل الله تبارك وتعالى وجميل عطائه عباده الصالحين ، وما أروعه بياناً نبوياً لما جاء في الكتاب العزيز ؛ من أن المثوبة في الآخرة، ليست مقصورة على الرجل دون المرأة ، ولكنها لمن يعمل الصالحات ـ وهو مؤمن ـ ذكراً كان أو أنثى ؛ ذلكم قول الله جل ثناؤه في سورة آل عمران : ﴿**فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ...**﴾ ونقرأ في سورة النساء قوله تعالى : ﴿**ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن**

فأولئك يدخلـون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾ وتسعدنا سورة النحل بقـوله تباركت أسماؤه : **﴿من يعمـل صالحاً مـن ذكر أو أنثـى وهو مـؤمن فلنحيينـه حياة طيبـة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾** أما في سورة غافر (المؤمن) : فنقرأ قول الحكيم الخبير : **﴿ من عمل سيئـة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمـل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾** .

ويزيد هذه الحقيقـة تأكيداً ما كشف عنه النبي ﷺ ؛ مـن ذلك المشهد الذي يبدو أكثـر تبيانـاً في التعبير عما ينتظر تلك المرأة المؤمنـة التي تركـت زينة الـدنيا وقعدت على أيتام لها ـ بعد أن تأيمت ـ ترعاهـم حق الرعاية وتشعرهم بكرامتهم الإنسانية وتحسن ـ على ضعفها ـ تربيتهم وإعدادهم ، ليكونوا لبنات صالحات في المجتمـع المسلم ؛ الأمـرُ الـذي يضمن لهم ـ بـإذن الله ورحمته ـ سعـادة الدنيـا والآخـرة ؛ فعـن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أني أرى امـرأة تبادرني فأقول لها : مالك ومـن أنت؟ فتقول : أنا امرأة قعدت على أيتام لي » قال الحافظ المنذري : رواه أبويعلى وإسناده حسن إن شاءالله .

وهذا الحافز الأخـروي العظيم للمرأة المسلمة الموفقة في طـاعة الله ،لا يعفي المجتمع ـ بدءاً مـن الخلية الأولى فيه وهي الأسرة ـ من مدِّ يـد العون الكريم لهذه المرأة وتذليل ما يعترض عملها ـ في رعاية يتاماها ـ من صعـاب ، بل هو واجب حتم ، والمؤمـن للمؤمـن كالبنيـان يشد بعضـه بعضاً . وغير خـاف أن أبواب البر والتقوى مفتحة لمن أراد الآخرة وسعـى لها سعيها ـ وهو مؤمن ـ وما أكثر شعب الإيمان التي تـرتفع بالعـاملين بها المخلصين لله فيها ـ ذكوراً كـانوا أو إناثـاً ـ إلى حيث الفضل الإلهي بالنعيم الخالد يوم القيامة والمستقر الكريم **﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾** قال الإمام أحمد : حدثنا قُرّان بن تمّام أبو تمام الأسدي قال : حدثنـا محمد بن أبي حميد عن المطلب بن عبـدالله المخزومي قال : دخلتُ على أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ . فقالت : يابني ألا أحدثك بما

سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: قلت: بلى ياأمه: قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق على ابنتين أو أختين أو ذواتي قرابة يحتسب النفقة عليهما حتى يغنيهما الله من فضله عز وجل أو يكفيهما، كانتا له ستراً من النار» رواه الطبراني.

وما أشد احتياج المكلَّف ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه، ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ﴾ إلى أن يجد فيها قدم من الأعمال في الدنيا، عملاً يباعده - بفضل الله - عن النار ويصله بجنة الخلد؛ إن ذلك مطمح كل مؤمن يخاف الله واليوم الآخر.

وأخرج الترمذي يسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «دخلت امرأة معها بنتان لها فسألت، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ فأخبرته، فقال النبي ﷺ: من ابتلي بشيء من هذه البنات كنَّ له ستراً من النار» قال أبوعيسى: حديث صحيح.

فمن أراد أن تغمره أنوار تلك المشاهد العظيمة يوم القيامة، فليفعل ما رغب به الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام وهناك يصدِّق الخبَرَ الخُبْرُ والله يتولى عباده الصالحين.

سلكوا طريق الجنة.. شهداء مقربون..
علماء عاملون.. توابون متطهرون

ما أعظم ما يتميز به العلماء العاملون ، من إخلاص لله في علمهم وتحصيلهم، وخوفٍ على أنفسهم من الرياء وحب المنصب والظهور ، وحرصهم ـ بعد هذا كله ـ على أن تسلم لهم آخرتهم فيكونوا ـ بحق ـ ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ .

وإذا حصلت خشية الله بالغيب ، فيا نعم ما تكون عليه عاقبة الأمر ؛ من أمنٍ يوم الفزع الأكبر ، وفوز بالجنة دار الخلود ، انتظاماً في سلك من تزدان بهم مشاهد الفضل الإلهي يوم القيامة ، والعطاءِ بغير حساب .

أورد الحافظ الذهبي رحمه الله في كتابه «سير أعلام النبلاء» عند الكلام على محمد بن رمح العالم الثقة الثبت المتوفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين حديثاً صحيحاً من مروياته ، وهو قوله ﷺ : « إن الدين النصيحة قالوا : لمن يارسول الله قال : لله ولكتابه ولأئمة المسلمين ـ أو المؤمنين ـ وعامتهم » ثم قال الذهبي : هذا حديث صحيح في « صحيح مسلم ». وفي ضوء الحرص على العمل بحديث النبي ﷺ والحرص على أن يتخذ المؤمن من الهدي النبوي طريقاً إلى النجاة يوم المعاد: قال صاحب «سير أعلام النبلاء» أجزل الله مثوبته: «فتأمل هذه الكلمة الجامعة، وهي قوله ﷺ : « الدين النصيحة » فمن لم ينصح لله وللأئمة وللعامة ، كان ناقص الدين . وأنت لو دعيت : ياناقص الدين ، لغضبت , فقل لي : متى نصحت لهؤلاء ؟ كلا والله ، بل ليتك تسكت ، ولا تنطق ، أولا تحسّن لإمامك الباطل؟ وتجرّئه على الظلم وتغشُّه ؟ فمن أجل ذلك سقطتَ من عينه ، ومن أعين المؤمنين . فبالله قل لي : متى يفلح من كان يسرُّه ما يضرُّه ؟ ومتى يفلح من لا

يراقب مولاه ؟ ومتـى يفلح من دنا رحيله ، وانقرض جيلُـه ، وساء فعله وقيله ؟ فما شاء الله كان ، وما نـرجو صلاح أهل الـزمان ، لكن لا ندع الـدعاء ، لعل الله أن يلطف بنا ويصلحنا » . والحق أن من أمانة النصيحة عند أهل العلم أن يناصحوا أئمتهم ، ومن النصيحة لعامة المسلمين : هذا الـذي ذكَّر به الحافظ الذهبي رحمـه الله .

وأكرم بالعمل بهدى النبي ﷺ ، مدخـلاً كريماً إلى حيث الطريق المضيئة إلى دار المقامة ،عند من لا رب غيره ، ولا خير إلا خيره سبحانه وتعالى .

ومن هـؤلاء الذين رزقـوا بفضل الله أن يكونـوا من سـالكي هذه الطـريق ، ففازوا بخيري الدنيا والآخرة : أولئك الذين صدقوا في المواطن ، وصبروا على بذل المال والنفس في سبيل الله . وكلما تأمل المتأمل ما تزدان به مشاهدهم يوم القيامة ـ من النور الغامـر ، والفضل المتجدد ـ ازداد إيماناً بصدق ما كانـوا عليه ، وسلامة النهج الذي وفقوا لسلـوكه ، حين استبدلوا الآجلة بالعـاجلة ؛ مجاهدين مخلصين. قال الإمـام أحمد في المسند : حـدثنا الحكـم بن نافـع قال : حـدثنا إسماعيـل ابن عياش عن بَحير بن سعد عن خالد بن معدان عن كثير بن مرة عن نُعيم بن همَّار « أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الشهداء أفضل ؟ قال : الذين إن يلْقَوا في الصف ، لا يلفتون وجـوههم حتـى يقتلوا ، أولئـك ينطلقون في الغـرف العلى من الجنـة ، ويضحك إليهم ربهم ، وإذا ضحـك ربك إلى عبد في الدنيا فـلا حساب عليه » ورواه أبو يعلى . قال الحافظ المنذري : ورواتهما ثقات .

إنه لمشهد عظيم يفيض بالبشرى لأولئك الرجـال الذين يصدقون ما عاهدوا الله عليه . وإذا لم يغبط هؤلاء على هذا المقام في الجنة : فمن ذا الذي يغبط من أمة خاتـم النبيين ؟ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنـه قال : قـال رسول الله ﷺ : «أفضل الجهـاد عند الله يوم القيـامة الذيـن يلتقون في الصف الأول ، فـلا يلفتون وجوههـم حتى يقتلـوا ، أولئك يتلبَّطـون في الغرف مـن الجنة ، يضحـك إليهـم ربـك ، وإذا ضحك إلى قوم فلا حساب عليهم » . رواه الطبراني بإسناد حسن .

معنى يتلبطون هنا : يضطجعون أو يتمرغون . جـاء في النهاية (فيه أنه سئل عن الشهداء فقال : «أولئك يتلبطون في الغرف العلى» أي يتمرغون . ومنه حديث ماعز «لا تسبَّه فإنه الآن يتلبط في الجنة ») والمعنيُّ بهذا الحديث: ماعز بن مالك الأسلمي الـذي أتى بما يـوجب حدَّ الـرجم واعترف بذلـك نتيجة يقظـة إيمانية، جعلته يسرع إلى رسول الله ﷺ يقول : أريد أن تطهرني ، وكانت له ـ بتوبته النصوح الصادقـة ، وأوبتِهِ الخاشعـة إلى الله، وندمِـه العميق على مـا فعل ــ هذه المكـرمة المشار إليها ، وقد ثبت ذكره في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة ، ويزيد ابن خالد ، وآخـرين ؛ فقد جاء ذكره في حديث أبي بكر الصـديق وأبي ذر وجابر ابن سمرة وغيرهــم ؛ سماه بعضهم وأبـرزه بعضهم . وفي بعـض طرقـه ـ كما يقـول الحافظ رحمه الله في « الإصابة » ـ أن النبي ﷺ قال : « لقد تاب توبة لو تابها طائفة من أمتي لأجزأت عنهـم». وفي صحيح أبي عوانة وابن حبان وغيرهما مـن طريق أبي الزبير عـن جابر بن عبـدالله رضي الله عنهما « أن النبي ﷺ لما رجم ماعـز بن مالك قال : لقد رأيته يتحصص في أنهار الجنة » . الحصحصة : تحريك الشيء في الشيء حتى يستمكن ويستقر فيه .

وجاء في حديث طويل أخرجه أبوداود في « السنن » من رواية أبي هريرة رضي الله عنه « أن رسـول الله ﷺ سمع رجلين يغلظان القـول في شأن مـاعز رضي الله عنه ؛ لما أنه قـد ستر الله عليه فلم تدعْه نفســه حتى رُجِمَ رَجْمَ كـذا... إلى آخر ما قالا ، ثـم سار ﷺ حتى مـر بجيفة حمار شائل برجلـه ،فقال : أين فـلان وفلان؟ فقالا : نحن ذان يارسول الله. قال: انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا : يانبي الله ، من يأكل مـن هذا ؟ قال : فما نلتما من عرض أخيكما آنفاً أشـد من أكلٍ منه. والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها ». وفي رواية: «ينقمس».

ينقمس أي ينغمس ويغوص فيها .

لله ما أشد فرح ربنا الكريم المنان بتـوبة عبده المؤمن ؛ وما هذا المشهد الذي أخبر عنه الصادق المصدوق: إلا توكيـد لهذه الحقيقة الجديرة بأن تشد الجانحين إلى التوبة النصوح ، كيما يتوب الله عليهم، ويجعلَهـم من أهل جنته، ينغمسون في أنهارها ، ويتمتعون بنعيمها المقيم. وسبحان من يحب التوابين ويحب المتطهرين.

سلام عليكم بما صبرتم..
فنعم عقبى الدار

كلما اتسعت دائرة المعرفة الحقة ، واستنار العقل والقلب بما تدل عليه مشاهد القيامة ، من عدل الله وفضله وواسع رحمته، ازداد اليقين بأن المؤمن ذو حظ عظيم عند الله تعالى ، وأن السعيد المصحوبة حياتُه بالتوفيق ، هو الذي لا تلهيه الدنيا عن الآخرة ، ولا يدع أن يملأ الوقت بالنافع الذي يجمع ـ إلى إعمار الأرض بصدق نية ــ حرصاً لا يدانيه حرص ، على أن يكون في عداد من تغمرهم يوم المعاد مشاهد الفضل والعطاء الرباني ، فيسعى لذلك سعيه ؛ علماً وعملاً وجهاداً ، وهو مؤمن مصدق بما وعد الله عباده الصالحين ، وأوعد أولئك الضالين المكذبين.

وإني متابع في هذه العجالة ، نظرات في روايات أُخَر ، فيها من النصوص السابقة القريبة مشابه ، وثمة ما يوحي بضرورة أن لا يخلي المؤمن ساعات عمره ، من دقيق النظر في مدلول المشاهد الأخروية التي تكشف عنها تلك النصوص ، فإذا كان على الجادة : ازداد طاعة وتعرفاً إلى الله بعمل الصالحات ، وإن كان غير ذلك : تاب وأناب واستأنف طريق النجاة يوم الدين . عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم عن الأجود الأجود ، الله الأجود الأجود ، وأنا أجود ولد آدم ، وأجودهم من بعدي رجل علم علماً فنشر علمه ، يبعث يوم القيامة أمةً وحدَه ، ورجل جاد بنفسه لله عز وجل حتى يقتل » رواه أبو يعلى والبيهقي .

وهذا مشهد زاخر بفضل الله وحكمته البالغة . ويدل ـ فيما يدل ـ على عظم ما صنع فقراء المهاجرين رضي الله عنهم ، فيما أبلوا من البلاء الحسن في سبيل

الله ـ كما سبق بعض ذلك ــ ، الأمر الذي يدل على أنه لابد لنصرة الإسلام من التضحية الخالدة والصبر . ومشاهدُ القيامة ناطقة بأن الله تعالى لا يضيع عنده مثقال ذرة ، وأنه ذو الفضل العظيم. فليهنأ العاملون المخلصون الصابرون .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو عبدالرحمن قال : حدثني سعيد بن أبي أيوب، قال: حدثنا معروف بن سويد الجذامي عن أبي عُشَّانَة المعافري عن عبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : «هل تدرون أولَ من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيُّوهم . فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ــ قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾.

ورواه أبو القاسم الطبراني بسنده عن أبي عُشانة أنه سمع عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره ، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كان لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تُقْضَ حتى يموت وهي في صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول : أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلى وأوذوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب . وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبحك الليل والنهار ، ونقدس لك ، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل : هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ » . قال

الشهداء في رأس كل حول ، فيقول لهم: ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ وكذا أبوبكر وعمر وعثمان) . قال الحافظ المنذري : ورواه الأصبهاني بإسناد حسن .

ولا يخفى أن فيما كشف عنه النبي ﷺ من تكريم فقراء المهاجرين ، بعقبى الدار :ـ نصرةً على أعداء الله في الدنيا وخلوداً في الجنة يوم القيامة ، جزاء صبرهم على الجهاد والإيذاء في سبيل الله ، ووفائهم بوعد الله واستعلائهم على معوقات الدنيا ، وكيف أن الملائكة تقول لهم حينذاك : ﴿**سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ وكذلك نطقه ﷺ بالآية الكريمة عند زيارة الشهداء ـ .. لا يخفى أن في ذلك لوناً مشرقاً من ألوان البيان النبوي لما جاء في سورة « الرعد » من صفات أولي الألباب ـ الذين علموا الحق فآمنوا به واتبعوه ـ وما يحصل لهم يوم القيامة من حسن المآب وكريم العطاء الإلهي في جنة الخلد التي وعد المتقون. والآيات المشار إليها هي قول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية التاسعة عشرة من هذه السورة .

﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب. الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ .

ولقد عمل التطلع إلى عقبى الدار هذه، عمله في نفوس الصحابة عليهم الرحمة والرضوان ، ومن تبعهم بإحسان ، فكان الشوق إلى لقاء الله والصبر في المواطن والمسارعة إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والارض أعدت

للذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب .

وإني مذكِّر بما أوردت من قبل من رواية الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه أن أم الربيع بنت البراء رضي الله عنها ــ وهي أم حارثة بن سراقة « أتت النبي ﷺ، فقالت : يارسول الله ألا تحدثني عن حارثة ــ وكان قتل يوم بدر ــ فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدتُ عليه بالبكاء ، فقال : يا أم حارثة إنها جِنان في الجنة ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » .

ألا إنها عقبى الدار التي ينشدها أولو الألباب الذين أضاء نفوسهم الانتفاع بهدي الكتاب والسنة في شأن ما يؤول إليه أمر العباد يوم التناد ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ .

العين السلسبيل لأهل الصدق..
وللقوم البُهتِ النارُ وبئس القرار

مما يساعد المسلم عن الغفلة ، ويجعله من أهل القرب الذين يخشون ربهم بالغيب ... صلة التدبر القلبية الخاشعة بكتاب الله العزيز الحميد ، وببيانه المبارك من حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن زكت نفسه واستشرف أن يكون من أبناء الآخرة ، حرص على ذلك شديد الحرص ،وصبر نفسه على ما يتطلبه هذا الأمر الجلل من نَصَبٍ وتكاليف ؛ إنه إن فعل ذلك ـ بتوفيق الله تبارك وتعالى ـ تفتحت له أبواب الخير ، وعوفي من الركون إلى دار الفناء ، وكانت حياته سبيلاً إلى خير عقبى في دار القرار . وهنالك يهنأ بما يبصر من الفضل الكبير الذي يُنعم الله به على أولي النهى من عباده في جنة عدن خيرِ مستقَر وأحسنِ مقيل . وكلما ازداد صدقاً وصبراً على طريق أهل الهمم في طاعة الله تعالى ، استنارت أمامه شعاب الوصول إلى ما دعت إليه نصوص الكتاب والسنة ، حين لم تترك شاردة ولا واردة في شأن اليوم الآخر ، وعاقبة كلٍ من أهل الهدى وأهل الضلالة ﴿ **يوم تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار** .. ﴾ إلا أتت عليها.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي أسماء الرحَبي : أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال : كنت قائماً عند رسول الله ﷺ ، فجاءه حَبْر من أحبار اليهود ، فقال : السلام عليك يامحمد ، فدفعته دفعة كاد يُصرع منها ، فقال : لم تدفعني ؟ فقلت : ألا تقول : يارسول الله ؟ فقال اليهودي : إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله؛ فقال رسول الله ﷺ : إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي . فقال اليهودي: جئت أسالك . فقال رسول الله ﷺ : أينفعك شيء إن حدثتك ؟ فقال : أسمع بأذني . فنكتَ رسول الله ﷺ بعود معه ، فقال : سل ، فقال اليهودي : أين يكون الناس يوم تُبدَّل الأرض والسماوات ؟ فقال رسول الله ﷺ : هم في الظلمة دون

الجسر . فقال : فمن أول الناس إجازة ؟ قال : فقـراء المهاجرين ، قال اليهودي : فما تحفتهم حين يـدخلون الجنـة ؟ قال : زيادة كبـد النون ــ وفي رواية زيـادة كبد الحوت ـ قال : فما غذاؤهـم في إثرها ؟ قال : ينحر لهم ثور الجنة الـذي كان يأكل من أطرافها . قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : من عين فيها تسمى سلسبيلاً . قال : صدقت ..... وجاء في آخر الحديث قال اليهودي : لقد صدقت ، وإنك لنبي ثم انصرف . فقال رسول الله ﷺ : لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه ، ومالي علم بشيء منه ، حتى أتاني الله به » .

أبـو أسماء الرحبـي : هو بفتـح الـراء والحاءواسمه عمـرو بـن مرثَـد الشامـي الدمشقـي ، قال أبو سليمان بـن زيد : كان أبو أسماء الـرحبي ، من رحبـة دمشق قرية من قراها ، بينها وبين دمشق ميل ، رأيتها عامرة والله أعلم .

وفي الحديث ما يدل على مزيد اهتمام الـرسول ﷺ ببيان ما يراد الجواب عنه ، فقد جاء على لسان ثوبان رضي الله عنه راوي الحديـث ـ كما رأينا ـ «فنكت رسول الله ﷺ بعودٍ معه» قال العلماء : نكت بفتح النون والكاف والتاء المثناة من فوق : ومعناه : يخط بالعـود في الأرض ويؤثر به ، وهذا يفعله المفكـر . وفي هذا دليل على جواز فعل هذا ، وأنه ليس مخلاً بالمروءة والله أعلم .

وفي قولـه ﷺ : « هـم في الظلمـة دون الجسر » كشف اللثـام عن هـذا المشهد الذي يضـم الخلائق يوم القيامة ؛ ويـاله من مشهد بـالغ التأثير عميق الـدلالة!! فالناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، في الظلمة دون الجسر . والجِسْرُ والجَسْرُ بفتح الجيـم وكسرها : لغتـان مشهورتـان والمراد به هنـا : الصراط . وأول النـاس إجازة ــ أي جـوازاً وعبوراً ــ هم فقـراء المهـاجريـن . وقـد أسعدتنـا في صفحات قريبات بعـض النصوص النبوية المباركة بذكر مجمـوعة من الصفات الخيرة التي أهلت أولئـك البررة الصالحين ـ بجانـب منقبة الهجرة لله ورسولـه من مكة إلى المدينة ـ لنيل هذه المكرمة الربانية في ساعة الحشر ، دون الصراط ؛ حيث يكتنف الناسَ في تلكم الساعات العصيبات من شدة الهول والحزن والفزع ما الله

به عليم .

والمراد بـ « زيـادة كبد النـون » زيادة كبد الحوت ، كما جـاء مصرحاً بـذلك في بعض روايات الحديث. وجاء في رواية أخرى لمسلم : « زائدة كبد النون» والزيادة والزائدة شيء واحد هو طرف الكبد وهو أطيبها .

وغير خـافٍ أن في قولـه ﷺ «مـن عين فيها تسمـى سلسبيلاً» لـونـاً من بيـان التقرير والتأكيد لكونهم يشربون مـن عين في الجنة تسمى السلسبيل، وهو ما جاء الإخبار عنه في قوله تعـالى في سورة «الدهر»: ﴿ **ويسقون فيها كأسـاً كان مزاجها زنجبيلاً . عيناً فيها تسمى سلسبيلاً** ﴾ قال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وجـريانها ؛ فهـي سلسبيل أي حـديدة الجريـة . وقال قتـادة : ﴿**عيناً فيها تسمى سلسبيلاً**﴾ عينٌ سلسة مستقيدٌ ماؤها . وحكـى شيخ المفسرين أبوجعفر الطبري عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستهـا ولينها في الحلق . وكان حسناً ما اختاره من أنها تعـم ذلك كلـه ، فقال: «والصواب مـن القول في ذلـك عندي أن قـوله : ﴿تسمى سلسبيلاً ﴾ صفة للعين ، وصفـت بالسلامة في الحلـق، وفي حال الجري وانقيادها لأهـل الجنة ، يصرفونها حيث شاؤوا ، كما قال مجاهـد وقتادة . وإنما عنى بقوله : « تسمى » توصف ، وإنما قلت : ذلك أولى بالصواب لإجماع أهل التأويل على أن قولـه : سلسبيلاً صفـة لا اسم» . وارتضى ذلـك الحافظ ابـن كثير فقال: «واختار هو ـ يعني الطبري ـ أنها تعم ذلك كله ، وهو كما قال ».

وقال عبدالله بن الإمام أحمد في المسند : حدثنـي أبي قال : حدثنا ابن أبي عدي عن حميد عن أنـس رضي الله عنه « أن عبدالله بن سلام أتى رسـول الله ﷺ مَقْدَمَه المدينة ، فقال : يـارسول الله إني سائلك عن ثلاث خصـال لا يعلمهن إلا نبي. قال : سل . قال : مـا أول أشراط الساعة ، وما أول ما يأكل منـه أهل الجنة ، ومن أيـن يشبه الـولد أبـاه أو أمـه ؟ فقال رسـول الله ﷺ : أخبرني بهن جبريل عليـه السلام آنفاً . قال : ذلك عدو اليهود من الملائكة !! قال : أما أول أشراط الساعة:

فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب . وأما أول ما يأكل منه أهل الجنة : زيادة كبد حوت . وأما شبـه الولد أباه وأمه : فإذا سبق ماء الـرجل ماء المرأة ، نزع إليه الولد ، وإذا سبـق ماء المرأة ماء الرجل ، نزع إليهـا . قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسـول الله . وقال : يـارسول الله إن اليهـود قوم بُهتٌ ، وإنهم إن يعلمـوا بإسلامي يبهتوني عندك ، فأرسل إليهم فاسألهم عني ؛ أيُّ رجل ابن سلامٍ فيكم؟ قال: فأرسـل إليهم فقال : أيُّ رجل عبدالله بـن سلام فيكم ؟ قالـوا : خيرنا وابن خيرنا ، وعالمنا وابن عالمنا وأفقهنا وابن أفقهنا . قال : أرأيتم إن أسلم، تسلمون ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ، قال : فخرج ابن سلام ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقـالوا : شرُّنا وابن شرِّنا وجـاهلُنا وابن جاهلِنـا ؛ فقال ابن سلام : هذا الذي كنت أتخوف منه » .

قوم بُهت . بُهْت : جمع بَهوت من بنـاء المبالغة في البُهت ، مثـل صَبور وصُبُر ، ثم سكِّن تخفيفـاً ، وهو مأخوذ مـن البهت وهو الكذب والافتراء ، أو هـو الباطل الذي يُتحَيَّر منه. قال ابن الأثير في « النهاية » : (ومنه حديث الغيبة « وإن لم يكن فيه ما تقول فقـد بَهَتَّهُ » أي كذبت وافتريت عليه . ومنه حديـثُ ابن سلام في ذكر اليهود « إنهم قوم بُهت») وعلى هذا . فقول عبدالله بن سلام فيهم ، يعني أنهم أهل الباطل الـذي يحيِّر وهو البهتان العظيم . ويشـاء الله أن لا يتأخر تصديـق حكمه عليهم ؛ فكان منهم ما هو على النقيض مما قالوه في المجلس نفسه .

أليـس من العـدل الإلهي أن ينقلب هـؤلاء يـوم القيامـة إلى شر مآب !! وأيـن مشهدهـم وهم يسـاقون بكفـرهم وبهتانهم إلى الجحيـم من مشهـد أولئك الـذين تُزلف لهم جنة الخلد ، ويسقون فيها من عين تسمى سلسبيلاً .

رزقنا الله الاعتبـار ، وأكرمنـا بتوفيقـه للانتفـاع بما زخرت بـه نصوص الكتـاب والسنة مـن حقائق عن أولئك القـوم البُهْت ، وله الحمد في الأولى والآخـرة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . و سبحان الله أين مشهد من يغمرهـم الفضل الإلهي في الجنة من مشهد هؤلاء المغضوب عليهم وهم إلى جهنم يحشرون .

من مشاهد الإحسان..
يشفعه الله فيمن صنع معه المعروف..

ما يكـون يوم الفصـل ـ ومـا أدراك ما يـوم الفصل ـ من مشـاهد لها دلالاتها وتأثيرها وعظاتها ؛ إذ يجمع الله الأولين والآخرين ؛ حقائق خالطت وتخالط قلوب وعقول أولي الألبـاب ، حتى غدا ذلـك عندهم ركيـزة ، من أهم ركـائز التصور ، والعمل ليوم المعـاد ، وصارت تلك الحقائق منهم كأنها مـن المحسِّ المرئيِّ الذي لايشوبه التباس .

وآية ذلك : أنهم باتـوا يعرفون للوقت حرمته ، فملؤوه بصـالح العمل وتقوى الله ، وأدركوا أن مـا يجده المرء يوم القيـامة ، إنما هو امتـداد لما قدَّم في الـدنيا ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ؛ فاستمطروا بـالنَّصَبِ في سبيل الله والكدح في طـاعته، والتذلـل الخاشع الخاضع بين يديـه : رحمتَه سبحانـه ، فكانوا بها من النـاجين من أليم عذابـه ، الفائزين بالخلود في جنتـه وثوابه . قال عبـدالله بن مسعود رضي الله عنه : «إنكـم في ممر الليل والنهار ، في آجـال منقوصة ، وأعمال محفـوظة ، والموت يأتي بغتة ، فمـن زرع خيراً ، فيوشك أن يحصد رغبة ، ومـن زرع شراً ، فيوشك أن يحصد ندامة . ولكل زارع مثل ما زرع ، لا يسبق بطيء بحظِه ، ولا يدرك حريص ما لم يقدَّر له ».

والواقع أن هذه الحقائق ـ ما كان منها منتسباً إلى المثوبة ، وما كان منتسباً إلى العقاب ـ كما جاءت الأخبـار عنها في الكتاب والسنة ـ جديـرة ـ والذي نواصي الخلائق بيده ـ بالكثير الكثير من الاهتمام ؛ وكيـف لا يكون ذلـك ، والموت يأتي بغتة ، والعبرة للمآل يـوم الحسرة ، وما تكـون عليه الحال بين يـدي جبار السماوات والأرض ربِ العـالمين!! وهذا مـا أقـض مضاجـع الصـادقين ، وجعل جنـوبهم

تتجافى عن مواقع الدعة والراحة ، وألهب مشاعر اللهفة والترقب عند أهل القرب الموفقين ، هذا مع عظيم رجائهم بفضل الله ، ووافر رحمته وإحسانه .

وإذا ذكرنا لأهـل التوفيق والسعادة ذلـك : ذكرنا معه، أن الله تبـارك وتعالى ، أنعم على عباده ، وأكرمهم بجزيل العطاء حين جعل من عبادته ، وتقواه ، والجهاد في سبيله ، واستقـامة المرء على الأخلاق الفـاضلة النـابعة من الإيمان ، مسـالك مباركة تصل بصـاحبها ـ إن صدق الوجهة وأخلص لله العمـل ـ إلى حيث منازل السـالكين المخلصين المنيبين في جنـات تجري مـن تحتهـا الأنهار ــ أُكُلُهـا دائم وظِلُّها ، وهم فيها خالدون .

ها نحن أولاء أمام لونين من ألوان فعل المعروف ، يشهد الناس يوم القيامة أن كلاً منهما ، كان سبباً لشفاعة من صُنـع معه المعروفُ بصاحبه . وإنه لمشهدٌ قمين بـأن يرتفـع با لمسلـم ، إلى جوّ مـن النقـاء والصفاء ، في إسـداء الخير إلى إخوانـه والتعاون وإياهم على البر والتقوى . فعن أنس بـن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج خلق من أهل النار ، فيمُّر الرجـل بالرجل من أهل الجنة ، فيقول : يـافلان أما تعرفنـي ؟ فيقول : ومن أنـت ؟ فيقول : أنا الذي استـوهبتني وَضوءاً فـوهبت لـك ؛ فيشفع فيه . ويمـرُّ الرجـل فيقول : يافـلان أما تعـرفني ؟ فيقول : من أنت ؟ فيقـول : أنا فلان بعثتني في حاجة كـذا وكذا ، فقضيتها لك ؛ فيشفع لـه فيُشَفّعُ فيـه » قال الحافظ المنـذري رواه ابن أبي الدنيـا باختصـار وابن ماجة ... والأصبهاني واللفظ له .

وفي بعض النصـوص ما يـدل على أن خلقاً من خلـق الله الذيـن يتقربـون إليه بقضاء حوائج العباد في الدنيا ، يكرمهم ـ سبحانـه وتعالى ـ بالأمن من عذابه يوم القيامـة . وما من ريـب في أن تفضُّل الله عليهم بهذا الأمـن العظيم ـ والهلـعُ آخذٌ بالرقاب هنا وهنـاك ـ من شأنه ، أن يكون إعلاناً عن عِظـم الأمر الذي قدموه في الـدنيا ، ومـا له مـن ثقل في ميـزان العبد ، عنـد من لا يضيـع عنده مثقـال ذرة

سبحانه . ذلكم ما روي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله خلقاً خلقهم لحوائج الناس ، يفزع النـاس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون مـن عذاب الله » رواه الطبراني وأبو الشيخ وابـن حبان ، ورواه ابن أبي الـدنيا في كتـاب « اصطنـاع المعروف » عـن الحسـن مـرسلاً . أي أن الحسـن البصري رحمه الله رواه عن رسول الله ﷺ دون ذكر الصحابي الذي أخذه عنه .

وكم هو مُفْرِحٌ لقلب المؤمن ، ومثير فيه مشاعر اليقظة ، للعمل على مافيه تنمية الأخوة الإيمانيـة الصادقة ، التي هـي عنوان المجتمع المتماسك القـوي في البناء الإسلامي .. كـم هو مفرح لقلبه أن يشهد يوم الحسـاب ، السرورَ على وجه أخيه المسلم ـ وحال الناس هي الحال ـ لما أن هـذا المسلم لقي أخاه في الدنيا بما يحب ليسرَّه ، ـ والكل إن شاء الله ـ على طريق التقوى والاستقامة . روى الطبري بإسناد حسن وأبو الشيخ في كتاب «الثواب» عن أنـس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من لقي أخاه المسلم بما يحب ليسرَّه بذلك ، سرَّه الله عز وجل يوم القيامـة » وروى الطبراني عن عائشة رضي الله عنهـا قالت : قـال رسول الله ﷺ: «من أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً لم يرضَ الله له ثواباً دون الجنة ».

أمـا الـذين يجترحـون السيئـات ، ويـدخلون المسـاءة والخوف والترويـع على المسلمين ، ويعملون على إيذائهم في دينهـم ودنياهم : فياويحهم يوم القيـامة من أخذةٍ رابيةٍ من جبـار السماوات والأرض الواحد القهار ، ﴿ **وترى المجرمين يومئذ مقرَّنين في الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار** ﴾ .

ومهما يكن مـن أمر : فإن النصـوص التي أوردتها والتـي تكشف عن مشـاهد الضياء يـوم القيامة ، لأولئك الـذين يتعاونـون مع إخوانهم على ما فيـه خير الفرد والجماعة ، ويقضـون حوائجهـم ، ويدخلـون السرور عليهم ... هـذه النصوص النبويـة المباركة : ترتـد إلى قواعد نورانيـة عامة في حـديث الرسول عليـه الصلاة والسلام ، بياناً للقرآن المجيد .

من ذلـك ما جاء في حـديث صحيح مشهور يعـرفه القاصي والـداني ، ولكن العاملين بـه ، يكادون يكـونون قلة في هـذا العصر الذي تـداعت فيـه الأمم على المسلمين من كل جانب ، مع الكوارث والمصائب النازلة فيهم .

ذلكم ما روى مسلم في صحيحه عن أبي هـريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من نفَّس عن مؤمن كُربة من كُـرَب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخـرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عـون أخيه . ومن سلك طريقاً يلتمـس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنـة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدراسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفَّتهم الملائكـة ، وذكرهـم الله فيمن عنده ، ومن بطَّـأ به عملُه لم يسرع به نسبُه » .

وصلاة الله وأزكـى تسليماته على نبـي الهدى والرحمة سيـدنا محمـد بن عبـدالله الذي جعل من عمل الخير وتعاون المؤمنين على ما فيه صلاحهم وصلاح مجتمعهم في ظل شريعة الإسـلام .. طريقاً إلى النجاة يوم الهول ، والأمـنِ يوم الخوف ، حيث الكُرب العظام والمخاطر الجسام ـ وعلى آلـه وصحابته ومن اتبع هداه علماً وعملاً وسلوكاً أخرويّاً إلى يوم اللقاء .

الدنيا في المثل النبوي.. والآخرة خيرٌ وأبقى

من الحقائق التي ينبغي للمؤمن اصطحابها ؛ قناعةً ، وذوقاً إيمانياً ـ وهو يذكر ما تكون عليه العقبى في اليوم الموعود ، وما يكون من تحقيق الوعد لأهل الهداية ، والوعيد لأهل الضلال ـ!! هوان الدنيا على الله ، وأن النسبة بينها وبين الآخرة ، تكاد تكون معدومة ؛ فالآخرة خير وأبقى ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾... وحُق للعاقل أن يتساءل .. أين قِصَر مدة الدنيا ، وراحتُها المختلطة بالعناء ، وصفاؤها المشوب بالكدر ، وفناءُ لذاتها مهما كانت الأسباب وكان السلطان ... أين ذلك كله ، من دوام الآخرة ؛ في عطاء رباني لا يُجَذُّ ، وخُلودٍ في جناتٍ نعيمُها مقيم ، ولذاتها خالصةٌ من شوائب الكدر والمنغّصات .

ولقد كان من نصح النبي ﷺ لأمته ، أن كشف عن هذه الحقيقة ، بياناً لكتاب الله عز وجل في شأنها ، كيما يكون المؤمن ـ وهو يعمر الأرض ، ويبني الحضارة ، ويفيد من تسخير الله ما سخر للإنسان ـ ممسكاً بعاتق الميزان ، محتكماً إلى شريعة الله وأخلاق الإسلام ؛ فتراه مبتغياً فيما آتاه الله الدار الآخرة، غير ناسٍ نصيبَه من الدنيا، يعقل عن الله ورسوله ، أن العاجلة ينبغي ان تكون مطية الآجلة ، وأن الآخرة هي دار القرار .

ومما ورد في السنة المطهرة ، تجليةً للحقيقة المشار إليها : ما أخرج الإمام مسلم في صحيحه من رواية يحيى بن سعيد قال : حدثنا إسماعيل قال : حدثنا قيس قال: سمعت مستوراً أخابني فهر يقول : قال رسول الله ﷺ : « والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثلُ ما يجعل أحدكم إصبعه هذه ـ وأشار يحيى بالسبابة ـ في اليم ، فلينظر بم يرجع » .

اليم : البحر . وهذا الحديث ـ وهو من جوامع كَلِمِهِ عليه الصلاة والسلام ـ

تبدو فيه بلاغته صلوات الله وسلامه عليه ، بـواحدة من أجلى صورها فالدنيا : ما تحمله الأصبع السبابة من البحر ، والآخرة : هي البحر نفسه . وانظر إلى قوله ﷺ: «فلينظر أحدكم بم يرجع » كم فيه من إثارة الاهتمام العقلي والنفسي بدقة وعمق!! فهذه الإصبع التـي غمسها صاحبها في البحـر ، لا يعلق بها كثير شيء من الماء ، وأين ما علق بها من الماء ، من ماء البحر الزخّار نفسه ؟

وبهذا البيـان المتميّز المشرق ، وضـع رسـول الله ﷺ المسلـم على المفترق ، بين طريقي الآخرة والدنيا ؛ والسعيد الموفـق من أحسن الاختيار . قال الإمام النووي: «ومعنى الحديث : ما الدنيا بالنسبة إلى الأخرة ـ في قصر مدتها وفناء لذاتها ـ ودوام الآخـرة ودوام لذاتها ونعيمهـا : إلا كنسبة الماء الـذي يعلـق بالإصبـع ، إلى باقـي البحر » .

وروى الحديثَ الترمـذي غيرَ مصدَّر بالقسم ولفظـه: « ما الدنيـا في الآخرة إلا مثل مـا يجعل أحدكـم إصبعه في اليم فلينظـر بماذا يرجـع » قال أبوعيسـى : هذا حديث حسن صحيح ــ وأخرجه ابن ماجة بلفظ « ما مثـل الدنيا في الآخرة ...» الحديث. وفي بعـض الروايات عنـد الإمام أحمد : مـا يؤكد أن المراد مـن الأصبع السبابة ؛ قـال عبدالله : حدثني أبي قال : حـدثنا ابن نمير قال : حـدثنا إسماعيل ويزيد بن هارون قال أنبأنا إسماعيل عن قيس قال : سمعت المستورد أخابني فهو يقول : قـال رسول الله ﷺ : « والله مـا الدنيا في الآخـرة إلا مثل مـا يجعل أحـدكم أصبعه في اليم فلينظر بم ترجع ـ يعني التي تلي الإبهام ...ـ» .

وكم يحسن المؤمن صنعـاً : إذا هو اتخذ من هذه الحقيقة ـ حقيقـةِ هوان الدنيا على الله ، وأنها دار مـآلها إلى الهلاك ـ معيـاراً يوجـه حـركته وسلـوكه في الحيـاة ، وبذلـك يضع كـلاً من دار العمـل ودار الجزاء ، موضعهـا من تصـوره وسلوكـه ، مستشعراً ــ بجانـب ما ورد في الكتـاب العزيز في شـأن ذلك ــ هذا المثـل الذي ضربه النبي ﷺ ـ وهـو سيد البلغاء ـ لقيمة الدنيا بـالنسبة إلى الآخرة ؛ والمؤمن

إذا أخـذ نفسه بهذا النهـج الميمـون يطمئن ــ فضـلاً مـن الله ورحمة ـ إلى حسـن العاقبة يوم المعاد ، وأن يكون واحداً من أولئـك الذين تشرق بنورهم مشاهدُ من مشاهد القيامـة ، تنبىء عن صلاح ما كان عليه أصحابها في الـدنيا ، وأنهم كانوا على الجادة فيما يأخذون وما يذرون .

ومما يزيد الأمـر وضوحاً : صورة أخرى في حديـث رسول الله ﷺ ، وهي صورة عملية معبرة أصدق تعبير عن المراد ، تدل ـ فيما تدل ـ على حرص النبي ﷺ على أن تأخذ الحقيقة التي حولها ندندن ، طـريقها بدقة وعمق ، إلى القلوب والعقول ، كيما تـؤتي أكلَهـا في مسيرة الإسـلام وأهلِـه ؛ الأمر الـذي أثمـر مـا أثمـر ، مـن الاستعلاء على الحطـام العاجل، في شتى الميـادين ، والتطلع الصادق إلى مـا عند الله، يوم يعرض الخلق عليه جل شأنه ،فلا تخفى منهم خافية .

قال الإمام مسلم : حدثنا عبدالله بـن مسلمة بنِ قعنَب قال : حدثنا سليمان ـ يعني ابـن بلال ــ عن جعفر عـن أبيه عن جـابر بـن عبدالله رضي الله عنهما « أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلاً من بعض العـالية ـ والناس كنَفَتَهُ ـ فمر بجدي أسكَّ ميتٍ فتناوله ، فأخذ بأذنه ، ثم قال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم ».

كنَفَتَهُ: جانبه. وفي بعض النسخ « كنفتيه » أي جانبيه . وأخرجه أحمد وأبوداود .

ومن الواضح: أن هـذا البيان النبوي في بيان قيمة الدنيا مـن الآخرة ، وشديدِ هوانها على الله ، يـذكر بـالكثير من آي الكتاب العـزيز التي منهـا قولـه تعالى في سورة النساء : ﴿قل متـاع الدنيا قليـل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمـون فتيلاً﴾ روى ابن حـاتم بسنـده عن حماد بـن زيد عـن هشام قـال : قرأ الحسـن ـ يعنـي البصري ـ ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ فقال : رحم الله عبداً صحبها ـ يعني الدنيا ـ

على حسب ذلك ، ما الدنيا كلها أولَها وآخرَها إلا كرجل نام نومة ، فرأى في منامه بعض ما يُحِبُ ، ثم انتبه . وقال ابن معين : كان أبو مُسْهِر الدمشقي ينشد :

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له ... من الله في دار المقام نصيب

فإن تُعجب الدنيا رجالاً فإنها ... متاع قليل والزوال قريب

وإذا كان الأمر كذلك : فالمعتصم - بعد عون الله وتوفيقه - من الاغترار بزخرفها، وجعلِ تحصيلها هو الغاية ، والوقوعِ في شرك الغفلة عن المنعم الرزاق ذي القوة المتين ، وعن حقيقة ما يكون يوم الحساب : الوفاء بعهد الله قولاً وعملاً وسلوكاً ، وتزكيةُ النفس ، كيما تكون على الجادة في طاعة الله وتقواه ، والعمل على زيادة الإيمان بما أخبر الله عنه ورسوله ، والرغبةِ فيما رغب فيه ، والرهبةِ مما رهب منه . وذلكم هو الخير العميم الذي تستمطر به الرحمة ، فيظفر العبد بأن يكون برحمة الكريم المنان في زمرة من تزدان بهم مشاهد الأبرار الموفقين .

المتحابون في الله..
مشهدهم على منابر النور يوم القيامة

من العلماء العاملين ، الـذين أخذوا أنفسهم بشدة الورع في ديـن الله ، وكانوا على ذكر من حقيقة أنه لا خير في الدنيا لمن لم يعمل لـلآخرة ؛ فالدنيا متاع قليل ، وزوالها قريب، وأن العاقلَ كُل العاقل مـن لم يشغله ما يفنى عما يبقى .. من هؤلاء الرجال الأفذاذ في تاريخنا أبو مُسهر الدمشقي عبدالأعلى بن مسهر ، الإمام الثقة الفقيه شيخ الشام والمتوفى سنة ثمان عشرة ومائتين أو تسع عشرة ومائتين للهجرة. قـال أبوزرعـة الدمشقـي : قـال لي أحمد بن حنبـل : «عنـدكم ثـلاثةٌ أصحـابُ حديث: الـوليد ، ومروان بن محمـد ، وأبومسهر » وقال أبـو داود : «سمعت أحمد ابن حنبل يقول: رحم الله أبـا مسهر ، ما كان أثبته ، وجعل يطريه» وقـد مرَّبنا من قريب قـول ابن معين رحمه الله ـ وهو ما يقولـه الذُّهليُّ أيضاً ـ بأن أبـامسسهر كان ينشد :

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له   من الله في دار المقام نصيب
فإن تُعجب الدنيا رجالاً فإنهـا   متاع قليـل والزوال قريـب

وفي تذكير لنفسه وللآخرين بالموت، وأنه كائن لا محالة ولا مفرَّ منه، مهما عُمِّر المرء في هذه الحياة ... كان أجزل الله مثوبته ينشد ـ كما قال ابن دَيْزيل ـ :

هبك عمرتَ مثل ما عاش نوحٌ   ثم لاقيـت كـلَّ ذاك يســارا
هل مـن المـوت لا أبـالـك بد   أيُّ حي إلى سوى الموتِ صارا

والحق أن استذكـار ما جاء على لسـان هذا العـالم رحمه الله ـ وهو مـن حقائق الكتـاب والسنـة ـ يفتـح للمـؤمنين آفـاق العمـل للأخـرى ، ويعين على تخطـي

الصعاب وتجاوز العقبات ، حتى يلقى المؤمن ربه يوم يلقاه ، آمناً من الفزع الأكبر، لا يرهقه ما تحمله ساعات ذلك اليوم من الهول والحزن ، والكرب ؛ لما أنه كان في الدنيا على طريق العبودية الخالصة لله عز وجل ، وأخذ نفسه بمنهج أهل التقوى، الذين كانوا على هدىً من الله في أنفسهم ، وفي علاقتهم بالآخرين ،وكان واضحاً أنه كان من إكرام الله لهم، أن جعلهم أولياءه وأعدَّ لهم في دار المقامة من الفضل ما به يكونون على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس .

قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري : حدثنا أبوهشام الرفاعي قال: حدثنا أبو فضيل قال : حدثنا أبي عن عُمارة بن القعقاع عن أبي زرعة بن جرير البَجلي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ :« إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء . قيل : من هم يارسول الله ؟ لعلنا نحبهم ، قال : هم قوم تحابّوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم قرأ ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ . ورواه أبوداود أيضاً من حديث جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال النبيﷺ : « إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى . قالوا : يارسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فو الله إن وجوههم لنور ، وإنهم على نور . لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » وقرأ هذه الآية ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾. قال الحافظ ابن كثير : هذا إسناد جيد ، إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب ، والله أعلم .

ألا إنه مشهد يفيض من جنباته النور الذي أكرم الله به هؤلاء المتحابين فيه، وهو ناطق في تلكم الساعات العصيبات، بما للتحابب في الله ولله ، دونما غرض

دنيوي عاجل ، أو قرابة تفرض هذا التلاقي ... ناطق بها لهذا التحاب ، من مكانة عند الله عز وجل ، بقربهم منه سبحانه ، ويرتفع بهم في عرصات القيامة ، إلى أن يكونوا آمنين حيث يفزع الناس ، فرحين بفضل الله ، حيث الحزن يلفُّ وجود الناس . ناهيك عما له من أثر ملموس في بناء الحياة الإسلامية ، على صعيد المجتمع والأمة .

ومن الطريف: أن هذا الحديث ليس موجوداً في عدد من نسخ السنن عند أبي داود ، غير أنه موجود في النسخة التي أقام عليها الإمام أبوسليمان الخطابي شرحه «معالم السنن » ولكن جاء ذكره في «باب الرهن » من كتاب البيوع والإجارات . وكان في غاية الحسن ما اجتهد أبو سليمان في تعليله لهذا في « معالم السنن » من أن هذا الحديث ، لا يدخل في أبواب الرهن ، ولعل أباداود ذكره هنا ، من باب الترغيب في المعاونة وبر المعوزين والمحتاجين للرهن ، ليقترضوا ما يسد حاجتهم والله أعلم .

وفي حديث الإمام أحمد من رواية أبي مالك الأشعري جاء قوله رضي الله عنه : «.. ثم إن رسول الله ﷺ لما قضى صلاته ، أقبل إلى الناس بوجهه فقال : ياأيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبِطهم الأنبياء والشهداء ، على مجالسهم وقربهم من الله . فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس ، وألوى بيده إلى نبي الله ﷺ فقال : يانبي الله ، ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله ؛ انعتهم لنا ـ يعني صفهم لنا ـ فسَرُّ وجه رسول الله ﷺ لسؤال الأعرابي ، فقال رسول الله ﷺ : هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابَّوا في الله وتصافوا في الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسهم عليها ، فيجعل وجوههم نوراً ، وثيابهم نوراً ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

هذا : وحري بالمؤمن الذي تتوق نفسه ــ صادقاً ــ إلى اللحاق بركب هؤلاء المقربين ، الذين تغمرهم هذه الأنوار يوم القيامة ، وقد أجلسهم الله على منابر من نور ... حري به أن يكون وقّافاً عند الذي يدل عليه قوله تعالى : ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾ بعد قوله جل شأنه : ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ .

وهدي النبي ﷺ واضح في وجوب الاستمساك بالتقوى مع الإيمان ، حين أتبع ﷺ كلامه على العطاء الإلهي لهؤلاء السعداء ، بأن قرأ ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ فنور إيمانهم الصادق، وتقواهم في كل صغيرة وكبيرة من القول والعمل ، كانا ـ بفضل الله ـ طريقهم إلى ما فازوا به من الجلوس على منابر من النور ، وأنهم لا يخافون يوم القيامة ، إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس .

وسبحان الكريم المنان ذي الفضل العظيم ، قال عبدالله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف : «أولياء الله الذين إذا رُؤوا ذكر الله». وجاء ذلك في حديث مرفوع رواه البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قال رجل : يارسول الله من أولياء الله ؟ قال : الذين إذا رؤوا ذكر الله » ثم قال البزار : وقد روي عن سعيد بن جبير مرسلاً .

وهذا يدل على أن حالهم، أصبحت ناطقة بما هم عليه من الإيمان والعمل الصالح ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

وإن منكم إلا واردها..
وقلوب أهل الخشية

من أبرز سمات الصالحين في هذه الأمة : أنهم ذوو بصائر ينتفعون معها بكل ما أخبر الله عنه ورسوله عليه الصلاة والسلام ، من شؤون الموت ، والساعة ، والحساب ، وما يؤول إليه أمر الخلائق ، بعد تلكم الساعات المشحونة بالكرب الشديد ، والهول الهائل ، والفزع الذي يقطع نياط القلوب . وترى أن من مظاهر انتفاعهم بذلك والاتّعاظ بدلالاته ومعانيه : أنهم يترجمون هذه المشاعر الصادقة، إلى طاعة خالصة لله عز وجل ، وإنابة لربهم سبحانه وتعالى .

ولنستمع إلى واحد من عيون العبّاد الزهاد ـ وهو ذو النون المصري ثوبان بن إبراهيم الأخيمي المتوفى سنة ٢٤٥هـ يصف طرفاً من حال هؤلاء . قال أبو نعيم في « الحلية » : حدثنا عبدالله بن محمد بن جعفر قال : حدثنا أبوبكر الدينَوري قال: حدثنا محمد بن أحمد الشمشاطي قال: سمعت ذا النون المصري يقول : «إن لله عباداً أسكنهم دار السلام ، فأخمصوا البطون عن مطاعم الحرام ، وأغمضوا الجفون عن مناظر الآثام، وقيّدوا الجوارح عن فضول الكلام ، وطووا الفرش وقاموا جوف الظلام ، وطلبوا الحور الحسان من الحي الذي لا ينام ؛ فلم يزالوا في نهارهم صياماً ، وفي ليلهم قياماً ، حتى أتاهم ملك الموت عليه السلام» . كما روى أبو نعيم أيضاً بسنده عن عبدالله بن سهل قال : «سألت ذا النون فقلت : متى أعرف ربي ؟ قال : إذا كان لك جليساً ولم تر لنفسك سواه أنيساً . قلت : فمتى أحب ربي؟ قال : إذا كان ما أسخطه عندك أمرَّ من الصبر . قلت: فمتى أشتاق إلى ربي؟ قال : إذا جعلت الآخرة لك قراراً ، ولم تسمِّ الدنيا لك مسكناً وداراً » .

فأنت ترى أن الآخرة ، وما يؤول إليه حال المرء فيها ، دائماً بالحسبان ، ومُنْيَةُ

الواحد من هؤلاء الصلحاء الأتقياء ، أن يكون في زمرة من تشرق عليهم شمس الرحمة الإلهية في مشاهد أهل القبول المقربين يوم القيامة، يوم ينجي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين في جهنم جثياً.

والحق أن هؤلاء الأصفياء من أهل الهداية والتقوى ـ مسلمين كانوا أو مسلمات ـ جديرون بالكثير من الغبطة على ما وفقوا إليه من العمل الصالح، والإخلاص فيه ، الأمر الذي حملهم على الانفعال الصادق الواعي ، بأخبار القيامة ومشاهدها ـ كما سبق ذكر ذلك ـ. لأن هذا طريق النجاة يوم الدين، والفوزِ بما يتفضل الله به على عباده المخلصين .

ولا يخفى على مؤمن متصل القلب بالله ، أن مشاهد الهول يوم المعاد ، ليس من الخير في قليل أو كثير ؛ نسيانها أو تناسيها ، بل المطلوب الحتم: عكسُ ذلك ، وهو ما درج عليه الصحابة عليهم الرضوان الذين عاشوا متنزل الوحي ، ونقلوا هذا الدين بأمانة عن رسول الله ﷺ إلى الأمة ، وسلك هذه السبيل من تبعهم بإحسان.

انظر إلى موقف الخشية والترقب عندهم، وعند من سار على نهجهم: من مشهد ورود النار في اليوم الموعود ؟ المشهدِ الذي جاء ذكره في قول الله تعالى في سورة مريم: ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً. ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾ روى الحافظ عبدالرزاق في « المصنف » وأبوجعفر الطبري في تفسيره « جامع البيان ... » عن قيس بن أبي حازم قال : «كان عبدالله ابن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته، فبكى ، وبكت امرأته. فقال : ما يبكيك؟ فقالت : رأيتك تبكي فبكيت ، قال : إني ذكرت قول الله عز وجل : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا ؟» وفي رواية ـ وكان مريضاً ـ .

أرأيت إلى هذه اليقظة الإيمانية التي تنهزم أمامها الشهوات والرغبات !! إنه لمشهد بالغ الخطورة في تقرير المصير ؛ يقدره حق قدره أولئك الذين أشرقت قلوبهم بالإيمان وصفت نفوسهم من الأكدار .

ومن جرى على هذا السنن المبارك ؛ من ترقب ما ينتهي إليه ذلك المشهد العظيم ، الذي تشهده الخلائق يوم الحساب : التابعي الجليل العابد الثقة أبوميسرة الكوفي عمرو بن شرحبيل المتوفى سنة ٦٣هـ يرحمه الله إذ كان ينفعل صادقاً ويأخذه البكاء من الخوف ،عندما يذكره .

قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري : حدثنا أبوكريب قال : حدثنا ابن يمان عن مالك بن مِغْوَلٍ عن أبي إسحاق السَّبيعي قال : «كان أبوميسرة إذا أوى إلى فراشه قال : ياليت أمي لم تلدني ، ثم يبكي ، فقيل : ما يبكيك يا أباميسرة ؟ فقال: أُخبرنا أنا واردوها ولم نُخْبَرْ أنا صادرون عنها» وقال عبدالله بن المبارك عن الحسن البصري قال : «قال رجل لأخيه : هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم . قال فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك ؟ قال : فما رئي ضاحكاً حتى لحق بالله ».

ودلالة ذلك على أخذ النفس بالحزم ، في أمور الآخرة واضح كل الوضوح ، ولا يتنافى مع الرجاء بفضل الله تعالى ، ثم ما دلت عليه الأخبار المبينة لمعنى الورود كما جاء في كتاب الله العزيز . قال عبدالله ابن الإمام أحمد : حدثني أبي قال : حدثنا سليمان بن حرب قال . حدثنا غالب بن سليمان أبو صالح عن كثير بن زياد البُرساني عن أبي سُمَيَّةَ قال : « اختلفنا ههنا في الورود : فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا : يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا ؛ فلقيت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، فقلت له : إنا اختلفنا في ذلك الورود : فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا : يدخلونها جميعاً ، فأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال : صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الورود الدخول ... لا يبقي بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ـ أو قال لجهنم ـ ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ، ويذر الظالمين فيها جثياً » قال الحافظ ابن كثير : غريب ولم يخرجوه .

ونجد في « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » للطبري : ما روى بسنده عن خالد بن معدان قال : « قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة : ألم يعدنا ربنا الورود على النار ؟ قال : قد مررتم عليها وهي خامدة ».

ويجد الناظر في الأخبار الواردة عن ابن عباس رضي الله عنهما ايضاً وغيره ، ما يدل على تفسير الورود بالدخول ، أو بالمرور ؛ ويلطف الله بالمؤمنين المتقين فينجيهم سالمين ، ويدخلهم الجنة غانمين. قال عبدالرزاق : أخبرنا ابن عيينة عن عمرو قال: أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق المتوفى سنة ٦٥هـ فقال ابن عباس : «الورود الدخول ، وقال نافع : لا ، فقرأ ابن عباس : **﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾** . وقال: **﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾** وردٌ هو أم لا ؟ أما أنا وأنت : فسندخلها ، فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك » .

ولنا عودة إن شاء الله إلى متابعة الكلام على هذا المشهد الزاخر بالعبر والدروس ، الفياض بما يوقظ الغافلين لو كانوا يسمعون .

ونسأله تعالى أن يجعلنا فيمن يعملون بما يعلمون ويتعظون بما يفقهون !

دعاء الملائكة عند الورود: اللهم سلم سلم

هذه خطوة أخرى ، مع زمرة مباركة من الأحاديث والآثار التي تتحدث عن مشهد الورود يوم القيامة ؛وهو مشهد بالغ الخطورة من مشاهد يوم الجزاء .. تلك المشاهد الناطقة بلغة الواقع الذي لا يحتمل اللبس ، المعلِنة على رؤوس الاشهاد عن طبيعة العلاقة بينها ـ كما أشرت غير مرة ـ وبين ما كان عليه أمر أصحابها في الدنيا ؛ والمهم : الانتفاع بما هو وارد من الأخبار الصادقة عن تلكم المشاهد ، كي يزداد المؤمن إيماناً ، فيضاعفَ العمل ، مسارعاً إلى ما فيه مرضاة مولاه ، ونجاته يوم الدين ، ويصحوَ الغافل ، وتعلوَ همة المقصر ، لأن الأمر في غاية الجد والبعد عن الهزل والعبث .... والعاقل من اتعظ واعتبر ، وأفاد مما يقرأ ويسمع ، وحداه الحرص على أخراه ، إلى المزيد من الجد في طاعة الله ، قبل أن يوافيه الأجل المحتوم، وهو كائن لا محالة .

وقد رأينا من قريب ما روى عبدالرزاق في المصنف عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه فسر الورود في قوله تعالى :﴿ وإن منكم إلا واردها﴾ بالدخول، ثم تكون النجاة للمؤمنين المتقين،ويذر ربنا تبارك وتعالى الظالمين في جهنم جِثيّاً .

وأخرج هذا الأثر الطبري أيضاً من طريق عبدالرزاق ، وروى ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح قال : قال أبو راشد الحروري ـ هو نافع بن الأزرق ــ ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ . فقال ابن عباس : ويلك أمجنون أنت ؟ أين قوله تعالى : ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ والمعني فرعون ، وقولُه : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴾ ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ؟ والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجني من النار سالماً وأدخلني الجنة غانماً .

وقد مر بنا ـ من قبل ـ تذكير ابن عباس رضي الله عنهما نافعاً هذا ، بما هو المهم

في الموضوع ـ ألا وهو النجاةُ من النار ، ودخولُ الجنة بفضل الله عز وجل ـ. وهذه رواية أخرى تدل على مزيد من تذكير حَبْرِ الأمة لـه بذلك ؛ فقد أخرج ابن جرير بسنده عـن مجاهد قال : كنت عنـد ابن عباس ، فأتـاه رجل يقال له : أبـوراشد ـ وهو نافع بن الأزرق ـ فقال لـه : ياابن عباس ، أرأيت قول الله : ﴿**وإن منكم إلا واردهـا ، كـان على ربـك حتماً مقضيـاً**﴾ ؟ قـال : «أما أنـا وأنت يـاأباراشـد : فسنردها، فانظر هل تصدر عنها أم لا ؟ »

وقد دلت بعض الروايات على اختـلاف القراءة في قوله تعالى : ﴿**وإن منكم**﴾ فقد روى أبـو داود الطيالسي عـن شعبة قال : أخبرني عبـدالله بن السـائب عمن سمع ابن عباس يقرأها « وإن منهم إلا واردها » يعني الكفار . وأورده الحافظ ابن كثير في التفسير .

قال : وهكذا روى عمرو بن الوليد الشني أنه سمع عكرمة يقرأها كذلك «وإن منهم إلا واردها » قال : وهم الظلمة ؛ كذلك كنا نقرأها . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

ويبدو ـ والله أعلـم ـ أن الورود في الآية، أعـم من أن يكون الدخـولَ فحسب، وقد فسَّره كثيرون بالجواز على الصراط ؛ لأن الصراط ممـدود على جهنم ـ كما ورد في عدد من الأحاديث ـ وقد مر بنا بعضها في مناسبات خلت .

وعن ابن عباس ـ كما يقول صاحب البحـر المحيط ـ قد يرد الشيءَ ولم يدخله، كقوله تعالى : ﴿**ولما ورد ماء مدين**﴾ ووردت القافلة البلد ولم تدخله ، ولكن قربت منـه ، أو وصلـت إليه . وتقـول العـرب : وردنـا مـاء بنـي تميم وبنـي فـلان : إذا حضروهم ودخلوا بلادهم ، وليس يراد به الماء بعينه .

وقد روى الإمام أحمد بسنـده عن عبدالله بن مسعـود رضي الله عنه ﴿**وإن منكم إلاواردها**﴾ قـال رسـول الله ﷺ : « يـرد النـاس النارَ كلهـم ثـم يصـدرون عنهـا بأعمالهم» ورواه الترمذي عن السـدي قال : سألت مُرَّةَ الهمدانيَّ عـن قول الله عز

وجل: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ فحدثني أن عبدالله بن مسعود حدثهم قال: قال رسول الله ﷺ : « يرد الناس النار ثم يصدرون عنها بأعمالهم ؛ فأولهم كلمح البرق، ثم كالريح ، ثم كحُضر الفرس ، ثم كالراكب في رحله ، ثم كشد الرجل ، ثم كمشيه». قال الترمذي : هذا حديث حسن رواه شعبة عن السُّدِّي ولم يرفعه ، وأخرجه الحاكم وصححه والبيهقي والدارمي وابن أبي حاتم . وعلى هذا يكون المراد بالورود ههنا : الجواز على جسر جهنم .

قوله : ثم يصدرون عنها . أي ينصرفون عنها ؛ لأن الصدر إذا عُدِّيَ بعن اقتضى الانصراف ـ وهذا على الاتساع ـ ومعناه النجاة إذ ليس هناك انصراف ، ولكنه المرور عليها ، فوضع الصدر موضع النجاة للمناسبة التي بين الصدور والورود . قال الطيبي رحمه الله: «ثم» في «ثم يصدرون » مثلها في قوله تعالى : ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ في أنها للتراخي في الرتبة ، لا في الزمان. بيَّن الله تعالى التفاوت بين ورود الناس النار ، وبين نجاة المتقين منها ؛ فكذلك بيَّن رسول الله ﷺ التفاوت بين ورود الناس النار ، وبين صدورهم عنها . والمراد بالصدور : الانصراف .

ولقد نجد أن الحديث الذي يشعر بأن المرور هو الجواز على جسر جهنم ، وقع ههنا مرفوعاً ، وقد رواه أسباط عن السدي عن مرة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : (يرد الناس جميعاً الصراط ، وورودهم قيامهم حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مَرّاً رجل نوره على موضع إبهامي قدميه ، يمر يتكفأ به الصراط ، والصراط دحضٌ مزلة ، عليه حسك كحسك القتاد ، حافتاه ملائكة ، معهم كلاليب من نار ، يختطفون بها الناس ..» وذكر تمام الحديث . رواه ابن أبي حاتم . ويروي ابن جرير عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود أيضاً : « قوله : ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال : الصراط على

جهنم مثل حـد السيف ، فتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثـانية كالريـح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم » .

الدحض : الزلِق . والحسك الشوك ، والقتاد : شجر له شوك ، وحُضْرُ الفرس: عدوه ، أو عدوها لأن الفرس يقع على الذكر والأنثى . قال ابن الأثير : في حديث ورود النـار « ثم يصـدرون عنها بـأعمالهم كلمح البرق ثـم كالـريح ، ثـم كحُضْرِ الفرس» الحُضْر بالضـم : العدو . وأحضرَ يُحْضِر فهو مُحْضِرٌ .

ونِعِمّا يفعـل المؤمن ، حين يجعـل نصب عينيـه هـذا المشهد الـذي يتقرر معـه المصير إلى الجنـة أو إلى النار ، فيـديـم عمل الصـالحات ، والتـوبـة من الـزلات والمخالفات ، ويُعِـدّ نفسه بالزاد المنـاسب لتلكم اللحظات التـي يشيب لهولها الوليد .

وقال أبوجعفـر : حدثني يونس قـال : أخبرنا ابن وهب قال : قـال ابن زيد في قوله : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ورود المسلمين: المرور على الجسر بين ظهـريها ، وورود المشركين أن يدخلـوها . قال : وقال النبـي ﷺ : « الزّالّون والزّالاّت يـومئذ كثيـر ، وقد أحاط الجسر سماطان من الملائكة دعواهم يومئذ : يا الله سلم سلـم ».

لا يدخل النار من بايع تحت الشجرة..
لا تمسه النار إلا تحلة القسم

نتابع اليوم ما أتينا عليه في صفحات قريبات ، من الكلام على مشهد الورود يوم القيامة في ظل قول الله تبارك وتعالى في سورة مريم : ﴿**وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً**﴾ [٧١] وما جاء في بيان ذلك من الأحاديث والآثار . واللهَ نسأل أن يؤمننا ـ بمنّه وكرمه ـ يوم الفزع الأكبر وأن يجعلنا من الملطوف بهم في ذلك الورود ، فنجوزَ الصراط إلى مقعد الصدق في جنة الخلد ، وما ذلك على أرحم الراحمين بعزيز .

وإني مذكّر هنا بما جاء عند الإمام في «المسند» حيث قال رحمه الله: حدثنا سليمان بن حرب قال : حدثنا غالب بن سليمان عن كثير بن زياد البُرساني عن أبي سُمَيَّةَ قال : «اختلفنا ههنا في الورود ، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا : يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما فقلت له : إنا اختلفنا في ذلك الورود ، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا : يدخلونها جميعاً فأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال : صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : الورود : الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جِثِيّاً » قال الحافظ ابن كثير : غريب ولم يخرجوه .

وقال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » : «قلت: لجابر حديث صحيح موقوف غير هذا ، رواه أحمد ، ورجاله ثقات» . وأسنده ابن عبدالبر في كتابه «التمهيد». وقد أوردت فيما سبق من القول ، ما ورد من الاختلاف في المراد

بـ(الورود) والمؤدى واحد ـ والله أعلم ـ إذ العبرة بالنجاة ؛ سواء دخل المؤمن النار، فكانت برداً وسلاماً عليه، أو اجتازها وهو يمر على الصراط .

وجنح الإمام القرطبي في تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » إلى أن ظاهر الورود: الدخول؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : «فتمسُّه النار » لأن المسيس حقيقتُه في اللغة: المماسة ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، ويخرجون منها سالمين . قال خالد بن معدان : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنا نرد النار؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رماداً ».

ثم قال القرطبي: « قلت : وهذا القول يجمع أشتات الأقوال : فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها ، فقد أُبعد عنها ونُجِّيَ منها ؛ نجانا الله تعالى منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالماً ، وخرج منها غانماً ».

ثم إن القرطبي أراد بالإشارة إلى عبارة « فتمسُّه النار » ما جاء في حديث صحيح يأتي قريباً إن شاء الله .

هذا : ولسوف تشهد الخلائق يوم الحساب ـ حقيقة ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قائمة لها سلطانها ، والنفوس في وَلَه مُضْنٍ وحَيْرَةٍ بالغةٍ ، وخوف شديد ـ لسوف تشهد الخلائق يومذاك ـ والحال على ما وصفت وأشد ـ أناساً تغشاهم الرحمة الربانية ويخصهم الله بلون من ألوان الفضل في شأن الورود .

قال الإمام مسلم : حدثني هارون بن عبدالله قال : حدثنا حجاج بن محمد قال: قال ابن جريج : أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول : أخبرتني أم مبشر «أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة : لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها . قالت : بلى يارسول الله ،فانتهرها ، فقالت حفصة : ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ فقال النبي ﷺ: قد قال الله عز وجل : ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾» .

هذا : وقد كشف العلماء اللثام عن أن معنى قوله ﷺ : « لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها » لا يدخلها أحد منهم قطعاً ، كما صرح به في حديث جابر رضي الله عنه الذي رواه مسلم وغيره ، من «أن عبداً لحاطب بن أبي بلتعة ، جاء رسولَ الله ﷺ فقال : يارسول الله ليَدْخُلَنَّ حاطبٌ النار ، فقال رسول الله ﷺ: كذبتَ لا يدخلها ؛ فإنه شهد بدراً والحديبية». وهكذا يكون قوله عليه الصلاة والسلام في حديث أم مبشر « إن شاء الله » للتبرك لا للشك . قال الإمام النووي رحمه الله : (وأما قول حفصة : «بلى» وانتهار النبي ﷺ لها فقالت: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ فقال النبي ﷺ : وقد قال : ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ فيه دليل للمناظرة والاعتراض ، والجوابِ على وجه الاسترشاد ؛ وهو مقصود حفصة رضي الله عنها ،لا أنها أرادت رد مقالته ﷺ . والصحيح : أن المراد بالورود في الآية : المرور على الصراط ــ وهو جسر منصوب على جهنم ـ فيقع فيه أهلها وينجو الآخرون) .

ولا ريب في أن ما جاء في هذا الحديث ، من البشرى العظيمة للذين بايعوا تحت الشجرة ، يحمل مزيداً من البيان لما جاء في القرآن في فضلهم ؛ ذلكم قوله تعالى في سورة «الفتح»: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافي قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾. وحديث حفصة أخرجه أيضاً الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما «أن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت : «كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة ، فقال : لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية . قالت حفصة : أليس الله عز وجل يقول : « وإن منكم إلا واردها » قالت : قال رسول الله ﷺ : فمه ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾» .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن معاذ بن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله تبارك وتعالى متطوعاً لا يحُدُّه سلطان لم ير النار بعينيه إلا تَحِلَّةَ القسم فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ وإن منكم

إلا ورادها ﴾ . ورواه أبو يعلى والطبراني ، قال الحافظ المنذري : ولا بأس بإسناده في المتابعات . وقال الهيثمي : في أحد إسناديه أحمد بن لهيعة وهو أحسن حالاً من ابن رشدين .

«لا يأخذ ه سلطان » أو « لم يأخذه سلطان » ـ كما في بعض الروايات ـ أي أنه خارج للحراسة في سبيل الله بنية خالصة من قلبه ابتغاء وجه الله ، لم يقهره حاكم ولم يجبره وال ، بل كان عمله جهاداً لنصرة ديـن الله ، وإعلاء كلمته رغبةً لا رهبةً . فإذا توافر له ذلك : كان من أهل تلك البشارة العظيمة التي جاءت في الحديث.

وسبحان من وسع فضله العباد. ومـا على المرء إلا أن يكون على طريق العبودية الخالصة له ـ جل شأنه ـ. روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث الزهري عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسُّه النار إلا تَحِلَّةَ القسم» ورواه عبدالرزاق في «المصنف » ولفظه « من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلة القسم » يعني الورود . وأخرج أبوداود الطيالسي بسنده عن أبي هـريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يموت لمسلم ثـلاثة من الولد تمسه النـار إلا تحلة القسم» قال الزهـري : كأنه يـريد هـذه الآية ﴿ وإن منكـم إلا واردهـا كـان على ربـك حتماً مقضياً﴾ .

وفي النهـاية لابـن الأثير : قيل : أراد بـالقسـم، قولـه تعالى : « وإن منكـم إلا واردها» تقول العـرب : ضربه تحليلاً وضربه تعـذيرياً إذا لم يبالـغ في ضربه ، وهذا مَثَلٌ في القليل المفرط في القلة ، وهو أن يباشر من الفعل الذي يُقسِم عليه المقدار الذي يُبِرُّ بـه قسمه ، مثـل أن يحلف على النـزول بمكان ، فلـو وقع وقعـة خفيفة أجزأته ، فتلك تحلة قسمه . فالمعنـى: لا تمسُّه النار إلا مسَّةً يسيرةً مثل تحلة قسم الحالف ، ويـريد بتحلتـه الورود على النـار والاجتياز بها،والتـاء في التحلة زائدة . وطوبى لأهل البشريات الموفقين .

الجمعة في أبواب الخير...
والفضل الإلهي يوم الحساب

إذا صدق العبد مع الله ، وجد بحق ، أن تلك المشاهد الغامرة بالضياء والعطاء يوم الدين : مفاتيحها المباركةُ مذللة بين يديه هنا في هذه الدار ، وكلما كان أشدَّ تمسكاً بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام ، كان ـ بفضل الله ورحمته ـ أكثر حظوة بما يمن الله على عباده الصادقين المنيبين ؛ من الإكرام والإحسان ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً ﴾.

فإذا رغب فيما رغَّب الله ورسوله به ، وعمل بصدق لذلك ، وانتهى عما نهى عنه الله ورسوله ، ورهب منه ، ـ مستعلياً على تسويلات الشيطان والهوى ـ فقد اتخذ المحجة البيضاء طريقاً إلى الجنة ، يدخلها برحمة الله ويكون خالداً فيها ، وهي خير مستقراً وأحسن مقيلاً .

هذه أبواب الخير والبر مشرعة في ساحات العبادة والعمل والجهاد والسلوك، حتى إنك لترى أن السعي لفريضة الجمعة ـ مثلاً ـ على الوجه الذي نبه عليه رسول الله ﷺ يرقى بالمؤمن المخلص دينَه لله ، إلى الدرجات العلا يوم القيامة ، حيث الفضل الإلهي الذي لا يُحَدُّ .

قال الحافظ ابن كثير : (روى البزار وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي عن عثمان بن عمير أبي اليقظان عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ولدينا مزيد﴾ من قوله سبحانه في سورة قٓ ﴿لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد﴾ قال : «يظهر لهم الرب عز وجل في كل جمعة ») وأورد الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه (زاد المعاد) ما ذكر الطبراني في (معجمه) من حديث أبي نعيم المسعودي عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة قال : قال عبدالله : «سارعوا إلى الجمعة ، فإن

الله عز وجل يبرز لأهـل الجنة في كل جمعة في كثيـب من كافور ، فيكـونون منه في القرب ، على قـدر تسارعهـم إلى الجمعة ، فيحـدثُ الله لهم من الكـرامة شيئـاً ، لم يكونوا قد رأوه قبل ذلك ، ثم يرجعون إلى أهليهم ، فيحدثونهم بما أحدث الله لهم. قال : ثـم دخل عبـدالله المسجد ، فإذا هـو برجلين ، فقـال عبدالله : رجـلان وأنا الثـالث ، إن شـاء الله يبارك في الثـالث» . وقـد ذكره الحافـظ الهيثمي في « مجمـع الـزوائد » وقـال : رواه الطبراني في «الكبير» وأبـوعبيدة لم يسمـع مـن أبيـه ؛ فهـو منقطع. وقـال الحافظ المنـذري في « الترغيب والترهيـب» (رواه الطبراني في الكبير وأبوعبيدة اسمه عـامر ولم يسمع من أبيه عبدالله بـن مسعود رضي الله عنه ، وقيل : سمع منه).

ولكـم يكون المؤمـن على الجادة ، إذا هـو اتخذ مـن هذه البشرى ، حـافـزاً على الإقبال على الطاعـة بعزيمة صادقـة ،وبُعْدٍ عن الكسل الـذي يغشى المنافقين ـ وهم يقـومون إلى الصلاة ـ وسـارع حيث تُطلَبُ المسـارعة رغبةً بما رغب بـه سيد الخلق محمد عليه الصـلاة والسلام .... إنه إن فعل ذلك : حظي بتلـك الكرامة من الرحيم الرحمن سبحانه ، وكان من أولئـك الذين يغمرهم ضياء ذلك المشهد ، الـذي تهفو إليـه ـ بخشـوع وخضوع ـ قلـوب المؤمنين. وذكر البيهقـي في كتابـه «شعب الإيمان » عن علقمـة بن قيس قال : «رحت مع عبـدالله بن مسعود رضي الله عنه إلى جُمَعَـةٍ ، فوجد ثـلاثة قد سبقـوه ، فقال : رابـع أربعة، وما رابـع أربعة ببعيد ، ثم قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس يجلسون يوم القيامة من الله على قدر رواحهم إلى الجمعة ؛ الأول ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم الرابع » ثم قال : «ومـا رابع أربعـة ببعيد». ورواه ابن مـاجة في كتاب « إقـامة الصـلاة » من السنن «باب مـا جاء في التهجير إلى الجمعة» . وابن أبي عاصـم وإسناده حسن ، حَسَّنه الحافظ المنذري في « الترغيب والترهيب » والبوصيري في « الزوائد » .

وفي عود على ما نجد في الحديث والأثر من معاني قوله تعالى : ﴿ولدينا مزيد﴾ حيث مر بنا من قريب ما قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «يظهر لهم الرب عز

وجل في كل جمعة» وفي رواية «يتجلى» ومع تقرير أن قول أنس هذا لا يتعارض مع ما مر بنا في مناسبة أخرى من قول صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه : أن الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم .. في عود على ما نجد من هذه الصورة المباركة من صور الفيض الإلهي على أهل التقوى من عباده يوم المعاد : نذكر قول الإمام ابن القيم يرحمه الله في الزاد : (حدثنا محمد بن نوح قال : حدثنا محمد ابن موسى بن سفيان السكري ، قال : حدثنا عبدالله بن الجهم الرازي. قال: حدثنا عمرو بن أبي قيس عن أبي طيبة عن عاصم عن عثمان بن عمير أبي اليقظان عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « أتاني جبريل وفي يده كالمرآة البيضاء فيها كالنكتة السوداء : فقلت : ما هذا ياجبريل ؟ قال : هذه الجمعة يعرضها الله عليك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك ، قلت : وما لنا فيها ؟ قال : لكم فيها خير . أنت فيها الأول ، واليهود والنصارى من بعدك ، ولك فيها ساعةٌ لا يسأل اللهَ عز وجل عبدٌ فيها شيئاً هو له قَسْمٌ إلا أعطاه ، أو ليس له قَسْمٌ إلا أعطاه أفضلَ منه، وأعاذه من شر ما هو مكتوب عليه، وإلا دفع عنه ما هو أعظم من ذلك . قال : قلت : وما هذه النكتة السوداء ؟ قال: هي الساعة تقوم يوم الجمعة ، وهو عندنا سيد الأيام ، ويدعوه أهل الآخرة يوم المزيد . قال : قلت : ياجبريل وما يوم المزيد؟ قال : ذلك أن ربك عز وجل اتخذ في الجنة وادياً أفْيحَ من مسك أبيض . فإذا كان يوم الجمعة ، نزل على كرسيه ، ثم حُفَّ الكرسيُّ بمنابرَ من نور ، فيجيء النبيون ، حتى يجلسوا عليها ، ثم حُفَّ المنابر بمنابرَ من ذهب، فيجيء الصدّيقون والشهداء ، حتى يجلسوا عليها ، ويجيء أهل الغُرَف حتى يجلسوا على الكُثُبِ . قال : ثم يتجلى لهم ربهم عز وجل، قال : فينظرون إليه فيقول : أنا الذي صدقتكم وعدي ، وأتممت عليكم نعمتي ، وهذا محل كرامتي فسلوني ، فيسألونه الرضى ، قال : رضاي أنزلكم داري وأنا لكم كرامتي : فسلوني، فيسألونه الرضى ، قال : فيشهد لهم بالرضى ، ثم يسألونه، حتى تنتهي رغبتهم ، ثم يفتح لهم عند ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على

قلب بشر .... إلى أن يقول : فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة، ليزدادوا من كرامة الله عز وجل ، والنظرِ إلى وجهه الكريم ، فذلك يوم المزيد» .

عثمان بن عمير أبو اليقظان ضعّفه بعضهم ، والحديث في مسند الشافعي بنحوه ، وأورده السيوطي في « الدر المنثور » وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، والبزار ، وأبي يعلي ، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني في «المعجم الأوسط » وابن مردويه ، والآجري في « الشريعة » والبيهقي في « الرؤية » وأبو نصر السجزي في « الإبانة » .

وصلاة الله وأزكى تسليماته على إمام المرسلين المبعوث رحمة للعالمين الذي لم يدع أن يرغِّب في ولوج أبواب الخير ، ويُرهِّب من الوقوع في مزالق الشيطان والهوى، حرصاً على صالح العقبى للمؤمنين وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهديه وأخذ نفسه بما يبلغ به النجاة في عاقبة أمره ويحظى بفضل الله ورضوانه يوم المزيد .

موازين القسط..
ما يثقلها ويقرب من رسول الله ﷺ يوم الدين

لله ما أهدى أولئك البررة ، الذين تـمَّ لهم أن يعقلوا عن الله تبارك وتعالى وعن رسولـه عليه الصـلاة والسلام ، مـا ينبغي للمـؤمن أن يكـون عليه في الـدنيا، كيما يستقيم له أمر الآخرة ، وينجو مع الناجين ، بل ويفوز مع الفائزين .

وأنت واجد ـ حقاً ـ أن حسن العقبى لهم يوم الدين ـ بإذن الله ورحمته ـ ، وأن الناس سـوف يشهدون في ذلـك اليوم الـذي تضع فيـه كل ذات حملهـا ، ﴿ **وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ...** ﴾ سوف يشهدون أن هؤلاء الذين عقلوا عن الله ورسوله مـا أراد في شأن الدنيا والآخرة ، هم أصحاب المكارم يوم القيامـة ، وهم الذين تزدان بهم مشاهد النـور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

وطوبى لمن أخذ نفسه بالتزام الطريق التي دعا إليها الكتاب الكريم، وأوضح معالمها بـالبيان النَّيِّر الشافي رسـول الله عليه أفضل الصلاة وأتـم التسليم . وغير خاف أن مـن أحقية تلكم القيـم التي دعا إليها الإسـلام ، وربى عليها أصحـابَه محمد عليه الصلاة والسلام .... أنك لا تجد عصراً ، يخلو من أولي العزائم والهمم الذين تمسكـوا بأهداب السنة ، وكـان تطلعهم إلى النجاة يوم الـدين؛ في أنفسهم وفيمن ولاهـم الله دعوتهم إلى طريـق الحق ، محوراً لا يلتفتون عنـه يمنة ولا يسرة ، كائناً ما كان الميدان الذي يضربون فيه ، والثغر الذي أقامهم الله عليه.

وما من ريب في أن هذا من كمال التوفيق؛ لأن الأمر يوم الدين شديد، والعاقل كل العاقل مـن عمل على إصلاح الخطأ ، وتقويم الاعوجـاج ،صادقاً مخلصاً بين يدي مـولاه الذي يضع الموازيـن القسط ليوم القيامـة ، كما أخبر جل شأنـه عن

ذلك بقوله في سورة الأنبياء ـ وهي سورة مكية ـ **﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾**.

هذا ابن السماك محمد بن صَبيح العجلي الزاهد القدوة سيد الوعاظ في عصره ـ كما يقول الذهبي ـ والمتوفى سنة ثلاث وثمانين ومائة يقول: «همة العاقل في النجاة والهرب ـ يعني من النار ـ، وهمة الأحمق في اللهو والطرب. عجباً لعين تلذُّ بالرقاد، وملك الموت معها على الوساد، حتى متى يبلِّغنا الوعاظ أعلام الآخرة، حتى كأن النفوس عليها واقعة، والعيون ناظرة! أفلا منتبهٌ من نومته، أو مستيقظ من غفلته، ومفيقٌ من سكرته، وخائف من صرعته!! كدحاً للدنيا كدحاً، أما تجعل للآخرة منك حظاً؟ أقسم بالله لو رأيتَ القيامة تخفق بأهوالها، والنارَ مشرفة على آلها، وقد وضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء، لسرَّك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة!! أبعد الدنيا دار معتمَل؟ أم إلى غير الآخرة منتقل؟ هيهات هيهات، ولكن صُمَّت الآذان عن المواعظ، وذهلت القلوب عن المنافع، فلا الواعظ ينتفع، ولا السامع ينتفع».

وفي تذكير لمن تسكرهم الدنيا بزينتها، ويشغلهم عن اليوم الحق في الآخرة زخرفها: يقول رحمه الله مجلِّياً الحقيقة بوضوح: «هب الدنيا في يديك، ومثلها ضُمَّ اليك، وهب المشرق والمغرب يجيء إليك؛ فإذا جاءك الموت، فماذا في يديك؟ ألا من امتطى الصبر قوي على العبادة، ومن أجمع الناس استغنى عن الناس، ومن أهمَّته نفسه لم يول مَرَمَّتها غيرَه، ومن أحب الخير وفِّق له. ومن كره الشرَّ جُنِّبَه، ألا متأهب لما يوصف أمامه، ألا مستعد ليوم فقره، ألا مبادر أجله، ما ينتظر من ابيض شعره بعد سواده، وتكرَّش وجهه بعد انبساطه، وتقوَّس ظهره بعد انتصا به، وكلَّ بصره، وضعف ركنه، وقلَّ نومه، وبلي منه الشيء بعد الشيء في حياته!! فرحم الله امرءاً عقل الأمر، وأحسن النظر واغتنم أيامه.... قد أصبحت في دار العزاء، وغداً تصير إلى دار الجزاء، فاشتر نفسك لعلك تنجو».

ولكم نبه رسول الله ﷺ الأمة على ما بِفِعْلِه ، تكون الجنة هي المأوى ، وعلى ما بالوقوع فيه، تكون جهنم هي الموعد والعياذ بالله . ومن ذلك ما نرى على ساحة الأخلاق والتعامل بين المسلمين ؛ فقد رغّب صلوات الله وسلامه عليه في كل ما يلُمُّ الشعث ،ويجمع الكلمة في الدنيا ، ويُعقب الفوز المبين في الآخرة ، كما رهَّب من كل ما هو عكس ذلك. وما أحوج الأمة اليوم إلى تبين تلكم العلاقة الوثيقة ، بين ما وجه إليه رسول الله ﷺ ، وبين ما هي عليه الحال في الواقع الذي يقضُّ مضاجع المخلصين ، وما يمكن أن يؤول إليه الأمر من سوء العاقبة يوم الدين، قال الإمام الترمذي : (حدثنا ابن أبي عمر قال: حدثنا عمرو بن دينار ـ عن ابن أبي مليكة ، عن يعلى بن مملك عن أم الدرداء عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله ليبغض الفاحش البذي » . قال أبو عيسي : وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وأنس وأسامة بن شريك وهذا حديث حسن صحيح .

ويتساءل المرء : أينا لا يريد أن تثقل موازينه يوم القيامة ـ وثقل الموازين طريق الجنة يوم اللقاء، وعلى العكس من ذلك ترى الخسران المبين لمن خفت موازينه ـ؟!

﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية. وما أدرك ما هيه . نار حامية ﴾ .

إنه لمشهد مثقل بالعبرة أن يرى الناس بأم أعينهم يوم القيامة ، كيف أن فلاناً من الناس ، أثقل ميزانَه يوم الحساب حسنُ خلقه ـ كما بين الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام .. ـ وأن آخرين خفت موازينهم ، بسبب الإعراض عما وجه إليه النبي الكريم ، وأعقبتهم طاعة الشيطان والهوى : أن كانت الجحيم هي المأوى .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضَكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة ، الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون . قالوا :

يارسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين ، فما المتفيقهون ؟ قال : المتكبرون ». وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . وابن حبان في صحيحه من حديث أبي ثعلبة ، والطبراني .

فمن شاء أن يكون من أحب الناس إلى النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام ومن أقرب الناس منه مجلساً يوم القيامة — وياله من مشهد يعز على الوصف — فليكن عند الذي هدى إليه ﷺ من حسن الخلق ، في ظل شرعة الإسلام . وما أطيب الآثار التي تترتب على ذلك في الأسرة والمجتمع ، وتلك سمة الهدي النبوي ؛ خيرٌ في الدنيا وخيرٌ في الآخرة ، والله يحب المحسنين . .

ومما يؤكد هذه الحقيقة ويوجب الأخذ بها في السلوك : ما روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « احتجت الجنة والنار: فقالت النار : فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة : فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم، فقضى الله بينهما : إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء ، وإنك النار عذابي أعذب بك من أشاء ، ولكليكما علي ملؤها » وقد مر بنا من قبل تفسير ذلك ، وأن المراد بالضعفاء والمساكين — هنا — من ليسوا من الظلمة والجبارين والمستكبرين.. كما دلت على ذلك نصوص كثيرة أخرى . وسبحان من فضله هو الفضل ، وعطاؤه هو العطاء .

وصلّى الله وسلم وبارك على من أنار سبيل الأمة ودلّها بهديه القويم على كل ما فيه سعادة الدنيا والقرب منه صلوات الله وسلامه عليه **﴿يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾**.

المفسدون.. وردغة الخبال يوم المعاد

لا يرتاب مؤمن جادٌّ في طلب الآخرة ، وأن يكون - بفضل الله - في عداد من يغمرهم العطاء وتشرق عليهم الرحمة في جنة الخلد .. أنه لابد من المعرفة الحقيقية لما دُعينا إلى معرفته من تحديدٍ لما هو من أمر الدنيا ، ولما هو من أمر الآخرة ، وذلك أعون على فهم النصوص الواردة في ذلك ، كيما يكون الإنسان على بينة من أمره - وهو على مفترق الطرق في هذه الحياة - فإما طريق السعادة التي تنتهي بدار المقامة ، والخلود في النعيم المقيم ورضوان من الله أكبر ، وإما طريق الشقاوة التي تنتهي - وقانا الله شرَّ ذلك - بعذاب بئيس أليم في جهنم وبئس المصير . قال أحمد بن الحواري الإمام الحافظ الثقة الزاهد شيخ أهل الشام المتوفى سنة ست وأربعين ومائتين رحمه الله : «من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه» . وسئل واحد من كبار الأصفياء عن المحبة فقال : «أن تحب ما أحب الله ، وتبغض ما أبغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفض كل ما يشغل عن الله ، وألا تخاف في الله لومة لائم ، مع العطف على المؤمنين ، والغلظة على الكافرين ، واتباع رسول الله ﷺ في الدين » .

وغير خافٍ أن هذا اللون - من التحديد النابع من المعرفة والذوق الإيماني ، والإدراك العميق للبعد العملي الذي يجب أن يلتقي مع المعرفة في حياة المسلم ، كيما يكون ممن يزحزحون عن النار ويدخلون الجنة - ذو نسب إلى ما كان عليه من تربَّوا في مدرسة النبوة ، وسعدوا بالأخذ عن رسول الله ﷺ وكانوا الجسر المبارك الذي عبرت عليه قيم الإسلام إلى الأمة المحمدية والحمد لله .فلقد علَّم الرسول ﷺ أصحابه - ومن ورائهم الأمة في أجيالها المتلاحقة - أن الجزء الأوفى كائن يوم القيامة لا محالة ، فلينظر عبد ما هو صانع لغده !! وليعتبر بالماضين ، ويعد العدة ليوم قادم لا ريب فيه ، يحاسب فيه المرء - إلا أن يعفو الله - على النقير والقطمير .

وتربية المؤمن على هذا : كفيلة ـ بإذن الله ـ بقطع دابر الفساد في كثير من الأصعدة ؛ لأن الكلمة الهادية في الكتاب والسنة ، طلعت علينا بأوثق رباط ، بين ما يكون عليه سلوك المرء في هذه الدار ، وبين ما ينبني على هذا السلوك ـ من المثوبة أو العقوبة ـ في دار الجزاء ، وقد أشرت إلى ذلك غير مرة من قبل ، وما أكثر وأوفر الأمثلة والنماذج لما نقول .

فمثلاً على صعيد العلاقات الاجتماعية ، بين أفراد المجتمع ،وما يمكن أن يولده انحراف السلوك الأخلاقي في التعامل ، نذكر ما جاء من الوعيد الأخروي في شأن الفتنة ، وما هو منها بسبب : لنجده نعم العلاج لكثير من الانحراف والفساد . فعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من ذكر امرءاً بشيء ليس فيه ليعيبه به ، حبسه الله في نار جهنم ، حتى يأتي بنفاذ ما قال فيه » رواه الطبراني بإسناد جيد .

أرأيت إلى هذا المشهد الذي تضطرب لهوله النفس ، ويرجف الفؤاد !! يحبس هذا الإنسان المفتري على أخيه بالتماس العيب له .. يحبس في نار جهنم ، حتى يحقق قوله الذي صدر منه كذباً وزوراً وافتراءً . وفي رواية له : « أيُّما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة ـ وهو منها بريء ـ يشينه بها في الدنيا ، كان حقاً على الله أن يذيبه يوم القيامة في النار حتى يأتي بنفاذ ما قال » .

ومع استذكار أن الموحِّد لا يخلد في النار ، نجد أن هذا الحديث يذكِّر بما جاء في شأن واحد من الكفار ، في جهنم من قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ . وفي كتاب الأقضية من « السنن » باب « فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها » قال الإمام أبوداود : حدثنا أحمد بن يونس قال : حدثنا زهير قال : حدثنا عمارة بن

غزية عن يحيى بن راشد قال: جلسنا لعبدالله بن عمر ، فخرج إلينا فجلس فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضادَّ الله ، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه، لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه ، أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال » .

وأخرجه الإمام أحمد في المسند بسنده عن يحيى بن راشد أيضاً قال : خرجنا حجاجاً عشرة من أهل الشام ، حتى أتينا مكة ـ فذكر الحديث ـ قال : فأتيناه ، فخرج إلينا ـ يعني ابن عمر ـ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله عز وجلّ ، فقد ضادَّ الله في أمره ، ومن مات وعليه دين ، فليس بالدينار ولا بالدرهم ، ولكنها الحسنات والسيئات ، ومن خاصم في باطل ـ وهو يعلمه ـ لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه، أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال » . ورواه الطبراني بلفظ « من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال وليس بخارج حتى يخرج مما قال » كما رواه الحاكم بنحوه وقال: صحيح الإسناد .

قال الإمام الخطابي: « الرَّدغة بفتح الراء وسكون الدال : الوحل الشديد ، ويقال : ارتدغ الرجل إذا ارتطم في الوحل . وجاء في تفسير ردغة الخبال أنها عصارة أهل النار ». وقال الحافظ المنذري : «هي عصارة أهل النار . كذا جاء مفسراً مرفوعاً ، وهو بفتح الراء وإسكان الدال المهملة ، وبالغين المعجمة» . وفي النهاية لابن الأثير : (فيه : « من قال في مؤمن ما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال » تفسيرها في الحديث « أنها عصارة أهل النار » والردغة بسكون الدال وفتحها : طين ووحل كثير وتجمع على ردغ ورداغ . ومنه الحديث « من شرب الخمر سقاه الله من ردغة الخبال » والحديث الآخر «خطبنا في يوم ذي ردغ »).

وحسن أولئك رفيقاً

الرحلة الخاشعة ، مع بشريات يوم القيامة لعباد الله الصالحين المصلحين ، تقف المرءَ على حقيقة ما كان عليه هؤلاء البررة في الدنيا ، حتى كافأهم الرحيم الرحمن ، بذلك العطاء الربانيِّ يوم يقوم الأشهاد . ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك ، ما يعطاه أهل الطاعة الصادقة لله والرسول ، بأن يكونوا في ذلك اليوم الذي ـ لكل امرىء من العباد فيه شأن يغنيه ..ـ أن يُعْطَوْا تلك المنزلة السامية ، وهي أن يكونوا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . على أن الفضل أولاً وآخراً من الله تبارك وتعالى ﴿ **ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً** ﴾ .

إنه لمشهد عظيم جدٌّ عظيمٍ، مشهد غامرٌ بالنور وكل ما هو من الفضل الإلهي. زُمَرٌ من عباد الله: عملوا بما أمر الله به ورسوله ، صادقين مخلصين ، وتركوا ما نهى الله عنه ورسوله ، راضين مطمئنين ؛ فكان جزاؤهم أن نشر الله عليهم رحمته، وزادهم إحساناً على إحسان ، فجعلهم في دار البقاء مرافقين للأنبياء ، ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم عموم المؤمنين وهم الذين صلَحت سريرتهم وعلانيتهم ، وجاء الثناء عليهم بعد ذلك بقوله سبحانه: ﴿**وحسن أولئك رفيقاً** ﴾ قال الإمام البخاري : حدثنا محمد بن عبدالله بن حوشب قال : حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن عروة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من نبي يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة ـ وكان في شكواه الذي قبض فيه ـ فأخذته بُحَّة شديدة فسمعته يقول : ﴿**مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين** ﴾ فعلمت أنه خُيِّر ، وكذا رواه مسلم من حديث شعبة . قال العلماء : وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر ـ كما جاء عند أحمد في المسند من رواية عائشة رضي الله

عنها - « اللهم الرفيق الأعلى - ثلاثاً - ثم قضى عليه أفضل الصلاة والتسليم ». قال الحافظ ابن حجر : قوله « في شكواه الذي قبض فيه» في رواية الكشميهني «التي قبض فيها » .

وفي روايات سبب النزول لقوله تعالى في سورة النساء: **﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾** ما يزيد هذا المشهد - الغني بالموعظة والعطاء - وضوحاً واستنارة في نفس المؤمن المتطلع إلى حسن العاقبة ، وأن يكون مثواه جنة المأوى . روى ابن جرير الطبري بسنده عن سعيد بن جبير قال : «جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون ، فقال له النبي ﷺ : يافلان مالي أراك مَحْزوناً ؟ قال : يانبي الله ، شيء فكرت فيه : قال : وما هو ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ، ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يردَّ النبي ﷺ شيئاً ، فأتاه جبريل بهذه الآية : **﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ..﴾** الآية ، فبعث النبي ﷺ فبشره ». قال الحافظ ابن كثير : وقد روي هذا الأثر مرسلاً عن مسروق وعكرمة وعامر الشعبي ، وقتادة ، وعن الربيع بن أنس ، وهو من أحسنها سنداً .

وإن في هذا الذي كان عليه هذا الرجل من الأنصار ، ما يشي بالحال التي كان عليها أولئك الذين بُشروا بتلك المعية المباركة ، من خلال القاعدة النورانية العامة التي عنوانها : طاعة الله والرسول، وما كان يزين أعمال الجوارح والقلوب لديهم ، من محبة لله تعالى ، ومحبة للرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

قال ابن جرير رحمه الله : حدثنا المثنى قال : حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع : قوله: **﴿ومن يطع الله والرسول﴾** : الآية ، قال : « إن أصحاب النبي ﷺ قالوا : قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على من آمن به في درجات الجنة ،ممن اتبعه وصدقه ، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً ، فأنزل الله في

ذلك ـ يعني هذه الآية ـ فقال : يعني رسول الله ﷺ : « إن الأَعْلَيْنَ ينحدرون إلى من هو أسفلُ منهم ، فيجتمعون في رياضها ، فيذكرون ما أنعم الله عليهم، ويُثنون عليه ، وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدْعون به، فهم في روضة يحبرون ويتنعمون فيه » .

وغير خافٍ أن مجموع الروايات المتعلقة بهذه البشريات ، والعروة المباركة التي تصل بين أولئك الذين كان شوقهم إلى أن يكونوا من أهل القرب من رسول الله ﷺيوم القيامة .. توحي أن ما طلبوه وكانوا بشوق صادق إليه: ذو نسب إلى ما أكرمهم الله به في الدنيا ، من صفاء ، وإشراق ، وحرص على كل ما يقربهم إلى الله زلفى ، ويضيء لهم طريق الجنة التي حفت بالمكاره ، ويسمو بهم على ساحة المحبة لرسول الله وحسن اتباعه ، إلى حيث يكونون ـ برحمة الله ـ أهلاً لذلك القرب الذي يُغبطون عليه ويغبطون . أخرج أبوبكر بن مردويه بسنده من طريق فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله إنك لأحب إلي من نفسي ، وأحب إليَّ من أهلي ، وأحب إلي من ولدي ، وإني لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتيَك فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك ، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين ، وإن دخلتُ الجنة ، خشيت أن لا أراك ؛ فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت الآية : ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً**﴾ » وهكذا رواه الحافظ أبو عبدالله المقدسي في كتابه « صفة الجنة » من طريق الطبراني عن أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال عن عبدالله بن عمران العابدي ثم قال : لا أرى بإسناده بأساً والله أعلم .

وصلى الله وسلم على رحمة العالمين معلم الناس الخير ؛ فقد كان لا يني يُحكم تربية الإنسان في الأمة على حقيقة أن الانخراط في مشهد القرب يوم القيامة منه عليه الصلاة والسلام ، وأن يكسب المسلم مرافقته في دار الكرامة والنعيم المقيم،

لا يكون بالتمني ، ولكن بالعمل وصدق الوجهة ، وحسن التأسي به صلوات الله وسلامه عليه .

قال الإمام مسلم : حدثنا الحكم بن موسى أبو صالح قال : حدثنا هِقْلُ بن زياد قال : سمعت الأوزاعي قال : حدثني يحيى بن أبي كثير قال : حدثني أبوسلمة قال : حدثني ربيعة بن كعب الأسلمي قال : «كنت أبيت مع رسول الله ﷺ ، فأتيته بوضوئه وحاجته ، فقال لي : « سل » فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة. قال : أو غيرَ ذلك ؟ قلت : هو ذاك قال : فأعني على نفسك بكثرة السجود». ورواه أبو داود والنسائي وأحمد.

وإني مذكِّر بما سبق من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه « أن رسول الله ﷺ أُفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رَهِقوه قال : « من يردُّهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقي في الجنة؟» فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضاً فقال: « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقي في الجنة ؟» فتقدم رجل من الأنصار ، فقاتل حتى قتل ، فلم يزل كذلك ، حتى قتل سبعة ـ فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : « ما أنصفنا أصحابنا » .

أرأيت إلى هذا الإقدام في ظل الخطر المحدق من هنا وهناك ؟!! الإقدامِ الذي انتهى بالشهادة ، ذوداً عن رسول الله ﷺ ومن معه !! ثم أرأيت إلى المطلب العظيم ، وهو أن يكون هذا الشهيد رفيق النبي ﷺ في الجنة ؟!!

في جهنم... يسقون من طينة الخبال

كان من حرص النبي المصطفى ﷺ، على أمته، ورأفته ورحمته بالمؤمنين : أنه أعطى لوعد المثوبة على الاستقامة وفعل الخير ، ولوعيد العقاب الأليم على المخالفة وتعدي حدود الله: كبير الاهتمام في بيان ما يكون عليه الأمر في الدنيا وفي الآخرة ، وتجليةِ المشاهد التي تضم يوم المعاد زمر الطائعين السعداء ، والمشاهدِ التي تضم زمر الضالين الأشقياء . والعهد قريب بما وقفْنا عليه من مشهد من يقفه الله في ردغة الخبال في جهنم، لما أنه يقول في أخيه المؤمن ما ليس فيه ، وليس بخارج منها حتى يخرج مما قال . وجرت الإشارة إلى ما جاء في الحديث من تفسير لردغة الخبال ، بأنها عصارة أهل النار ؛ وعند مسلم ـ كما سنرى : عرق أهل النار أو عصارة أهل النار ، وكشف رسول الله ﷺ عن ذلك ، وهو يتوعد على معاودة شرب الخمر مرة بعد مرة ـ في أعقاب إظهار التوبة .

وهذا يدل ـ فيما يدل ـ على أن أهل هذا المشهد المخيف حقاً ، ليسوا أولئك المفترين على إخوانهم المتقولين عليهم ما ليس فيهم فحسب، ولكنَّ مِن أَهْلِهِ أيضاً ، أولئك الذين يشربون الخمر ثم يتوبون ، ويعبثون بالتوبة ـ مكررين ذلك ـ كأنهم يستهزؤون بما شرع الله ، بل يستهزئون بربهم ـ وأستغفر الله ـ عندما يعودون لما نهوا عنه ، مرة تلو المرة ، بعد أن يستغشي الواحد منهم سرابيل التائبين ، فكان جزاؤهم أن يسقوا من عصارة أو من عرق أهل النار . وقد جاء التعبير في النصوص بردغة الخبال، وبطينة الخبال . قال الإمام مسلم في كتاب الأشربة من صحيحه : حدثنا قتيبة بن سعيد قال : حدثنا عبدالعزيز ـ يعني الدراورديَّ ـ عن عُمارة بنِ غَزِيَّةِ عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه « أن رجلاً من جيشان (وجيشان من اليمن) سأل النبي ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له « المِزْر » ؟ فقال النبي ﷺ : أمسكر هو ؟ قال : نعم . قال رسول الله ﷺ : « كل

مسكر حرام . إن على الله عـز وجل عهداً ، لمن يشرب المسكر أن يسقيـه من طينة الخبال » قالوا : يارسول الله وما طينـة الخبال ؟ قال : «عرق أهل النار ، أو عصارة أهل النار » . وعنـد أبي داود في كتاب الأشربة من « السنن » من روايـة ابن عباس رضي الله عنه « كل مخمِّرٍ أو كل مخمَّرٍ خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب مسكراً بخَّست صلاته أربعين صباحاً ، فإن تاب ، تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة ، كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قيل : وما طينة الخبال يارسول الله ؟ قال: صديد أهل النار ، ومن سقاه صغيراً لا يعرف حـلاله من حرامه كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال » .

مخمِّر بكسر الميـم الثانيـة : مغطي العقـل ، ويحتمل الفتـح أي ما يُجعـل خمراً مسكـراً . وبَخَّسَـتْ نقصت . جـاء في القـامـوس المحيط : بَخَّـس المخُّ تبخيسـاً وتبخَّس: نقص ولم يبق إلا في السلامى والعين .

وأنت واجـد في هذا النص معنى ثـالثاً لطينة الخبـال ؛ وهو صديد أهـل النار أعاذنا الله مـن الوقوع فيها تكون عاقبتـه السوء يوم الدين . وهـذا المعنى منصوص عليه أيضاً في روايـة الترمذي ـ كما سنرى ـ وجاء هنـاك بلفظ « نهر الخبال » على لسان عبـدالله بن عمر رضي الله عنهما ، مضافـاً إلى ذلك تفصيلٌ في المراحـل التي سبقت عـودة هذا المبتلى بـالمعصية ، إلى معاقـرة الخمر في المرة الـرابعة ، وبـذلك يتضح استهزاؤه بما يحرم الاستهـزاء به ، وضعفه الشديـد أمام شهوته العـارمة لما حرم الله ، وخضوعه لتسويلات الهوى والشيطـان ، وقد تكون صحبة الأشرار من أهم العوامل المؤديـة إلى هذا الإصرار والاستهزاء .. فان تاب بعد الـرابعة : لم ينل فضل أن يتـوب الله عليه في الدنيـا ، وعوقب في الآخـرة بأن يسقى مـن نهر الخبال وهو ـ كما في الرواية المومى إليها عند الترمذي ـ نهر من صديد أهل النار .

فليتق الله امرؤ في نفسه ، وليضع بينه وبين الضلالـة وأهلها ، حاجزاً من مخافة الله عز وجل ، والحرصِ على اجتنـاب ما حذر منه رسول الله ﷺ ؛ وبـذلك يعافى

من أن تحقَّ عليه كلمة العقاب ويأمنُ ـــ بفضل الله ـ من أن يدخل النار ويشرب من عـرق أهلها ـ أو عصارتهم أو صديـدهم ـــ...قال الإمام الترمـذي في كتاب الأشربـة من السنـن (جامـع الترمذي): حـدثنا قتيبـة قال : حـدثنا جـرير بـن عبدالحميد عـن عطاء بن السائب عن عبـدالله بن عبيد بن عمير عـن أبيه قال : قال عبـدالله بن عمر : قال رسـول الله ﷺ: «من شرب الخمر لم يقبل الله لـه صلاة أربعين صباحاً ، فـإن تاب، تاب الله عليه ، فإن عاد، لم يقبـل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب ، تاب الله عليه ، فإن عاد، لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب ، تاب الله عليه ، فإن عاد الـرابعة ، لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب ، لم يتب الله عليـه وسقاه من نهر الخبال . قيل : ياأبـا عبدالرحمن وما نهر الخبال ؟ قال نهر من صديد أهل النار» .قال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، وقد روي نحو هذا عن عبدالله بن عمرو وابنه عباس عن النبي ﷺ .

وللحديث عند أحمد في المسند عدة روايـات؛ منها: ما روى بسنده عن عبدالله ابن عبيـد بن عمير عـن ابن عمـر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قـال : « من شرب الخمر لم تُقبَلْ صلاته أربعين ليلة ، فإن تاب ، تاب الله عليه ، فإن عاد ، كان حقاً على الله تعالى أن يسقيه من نهر الخبال ، قيل : وما نهر الخبال ؟ قال : صديد أهل النار » والخبال في الأصل : الفساد . وأعطاه النبـي ﷺ هذا المعنى الاصطلاحي ؛ قال ابن الأثير في النهايـة (وفيه « من شرب الخمر سقاه الله من طينـة الخبال يوم القيامة» جاء تفسيره في الحديث أن الخبال عصارة أهل النار . والخبال في الأصل الفساد ، ويكـون في الأفعال والأبدان ، والعقول وفي الحديـث « وبطانة لا تـألوه خبـالاً » أي لا تقصر في إفساد أمـره . ومنـه حديـث ابن مسعـود « أن قـوماً بنـو مسجداً بظهر الكوفـة ، ـ ويبدو أنه مسجد ضرار ـ فأتـاهم فقال : جئت لأكسر مسجد الخبـال أي الفساد) وأورد الراغـب الأصفهاني قول زهير بـن أبي سلمى : «هنالـك إن يُستَحبَلُوا المال يَخْبِلـوا » أي وإن طلب منهـم إفساد شيء مـن إبلهم أفسدوه.

هذا : وما جاء في الحديث ـ كما أشير إلى ذلك قريباً ـ من تفسير ردغة الخبال بأنها عصارة أهل النار ـ أو كما ورد في بعض الروايات ـ : عرق أهل النار ، أو صديد أهل النار : مما يزيد المشهد ترويعاً على ترويع ؛ عافانا الله والمسلمين من ذلك بمنه وكرمه .

وقد رأينا ـ كما ذكر آنفاً ـ أن الوعيد بسقيا ردغة الخبال ، جاء في معرض التحذيرِ من شرب الخمر التي تذهب العقل ، والترهيبِ من معاقرتها . ومن النصوص الواردة أيضاً في ذلك ما أخرج ابن ماجة في « السنن » بسنده عن ابن الديلمي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً وإن مات دخل النار . فإن تاب تاب الله عليه... » وبعد الإشارة إلى التكرار في العودة بعد التوبة جاء في الحديث: « .. وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من ردغة الخبال يوم القيامة . قالوا : يارسول الله وما ردغة الخبال ؟ قال : عصارة أهل النار » .

هذا : وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، والعقلاء يستحسنون ضم النظير إلى نظيره ، فإن في نصوص السنة المطهرة ، ما يدل على أن العقوبة التي جاء النص عليها في شأن من يفترون على إخوانهم ويبهتونهم ـ وأولئك الذين يرتكبون كبيرة شرب الخمر ، مع العبث في أمر التوبة التي ينقضونها مرة بعد مرة ... إن في هذه النصوص ما يدل على أن هذه العقوبة ، تنال أيضاً أولئك الذين ترم أنوفهم، ويتجبرون في الأرض بغير الحق ؛ فهؤلاء أيضاً سوف ينظر العباد إلى مشهدهم المزري يوم القيامة ـ وهم يشربون من طينة الخبال أو من نهر الخبال ـ فكما يعاقب المفتري على أخيه كذباً ، وشارب الخمر بهذا النتن في فمه الذي استخدمه في المعصية ، يعاقب هؤلاء العصاة المتكبرون عقوبة توحي بأن الجزاء من جنس العمل ، ومن ذلك ما يُجَرَّعون من نتن الطعم والرائحة جزاءَ عتوهم وتعاليهم على عباد الله المؤمنين ، روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شُعَيْب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال : «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صُوَر الناس ،

يعلوهـم كل شيء من الصَّغار ، حتـى يدخلوا سجنـاً في جهنم يقال له بُـوْلَس ، فتعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » . ورواه الترمذي بلفظ « يغشاهم الذل من كل مكان » وقال : حديث حسن صحيح .

قال ابن الأثير : (فيـه « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر ، حتـى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له بولَس » هكذا جـاء في الحديث مسمًّى) وهذا يؤكد ـ كما أسلفـت ـ أن الجزاء لهؤلاء الطـاغين المستكبريـن على إخـوانهم المؤمنين كان مـن جنس العمل ؛ إذ كـان جزاء هذا التعالي الممقوت أن يحشروا أمثـال الذر ، وليس هذا فحسب ، بل يُزادون عقوبة تحمل ما تحمل من العذاب البئيس المهين وهي أن يُسْقَوا من عصارة أهل النار التي هي طينة الخَبال !!.

سبحان جبار السماوات والأرض : أيُّ مشهدٍ هذا المشهد البالغ العظة الناطق بالعدالة الإلهية ، المشهـدُ الذي ينم عن سوء وشناعة ما كـان عليه هؤلاء العصاة المستكبرون الذيـن خالفـوا عن قـول الله تعالى في صفـة أهل الإيمان ﴿ **أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين** ﴾ ؛ إنهم قبـل أن يسقوا مـن طينة الخبـال يحشرون أمثال الـذر ، والذرُّ النمل الأحمر الصغير ، وهـو من المخلـوقات التي لا يـؤبه لها بحسب الظاهر . سئل الإمام في اللغة ثعلبُ عنها فقال : إن مائة نملة وزنُ حبة، والذَّرَّةُ واحدةٌ منها .

اللهم اجعلنـا أذلةً على المؤمنين أعزةً على الكافـرين ، واحشرنا يوم القيـامة في زمرة عبادك الخاشعين المتواضعين برحمتك ياخير الراحمين .

المقيمون على مظالم العباد..

مشهدهم هناك!

مما يدعو إلى الكثير من العِظَةِ والتذكر ـ على صعيد ما يجب من أداء الحقوق، والبعدِ عن التظالم في الدار العاجلة ـ ما تطالعنا به نصوص السنة المطهرة ـ وهي المبينة للكتاب العزيز ـ من أخبار غنية بالمشاهد التي تعلن إعلانها يوم القيامة، في شأن الظلم واقتصاص المظالم، وما يكشف عن عاقبة التظالم في الدماء، والأموال والأعراض، وسائر الحقوق. قال الإمام البخاري في باب «من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبين مظلمته» من كتاب المظالم في الجامع الصحيح: حدثنا آدم بن أبي إياس قال: حدثنا سعيد المَقْبُرِيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلِمة لأخيه من عرضه أو شيء فلْيتحَلَّلْهُ منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات، أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه» قال أبو عبد الله: قال إسماعيل بن أبي أويس: إنما سمي المقبريَّ لأنه كان ينزل ناحية المقابر، قال أبو عبدالله: وسعيد المقبرُيُّ هو مولى بني ليث، وهو سعيد بن أبي سعيد واسم أبي سعيد: كيسان.

ومن فقه الإمام البخاري أنه جاء بهذا الحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح تحت باب عنوانه «باب القصاص يوم القيامة، وهي الحاقَّة لأن فيها الثوابَ وحواقَّ الأمور» ولفظه «من كانت عنده مظلِمة لأخيه فَلْيتحَلَّلْهُ منها، فإنه ليس ثَمَّ دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات، أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه».

المظلمة ـ بفتح الميم الأولى وكسر اللام ـ والظلاَّمَةُ ـ كثُمامة ـ ما تظلَّمه الرجل ـ وقال الفيومي في « المصباح المنير » : المظلمة اسم لما تطلبه عند الظالم . ومعنى «من كانت له مظلمة لأخيه »: من كانت عليه مظلمة لأخيه ، لأن اللام في « له» بمعنى على . وتأيد ذلك بما رأينا من قريب من رواية البخاري التي أخرجها من طريق مالك عن المقبري إذ جاء اللفظ هناك : « من كانت عنده مظلمة لأخيه» . وما جاء عند الترمذي ـ كما سيأتي ـ من طريق زيد بن أنيسة عن المقبري أيضاً «رحم الله عبداً كانت له عند أخيه مظلمة ...» الحديث .

هكذا يدعو النبي ﷺ ـ وهو الرحيم بأمته ـ يدعو المسلم إلى رد مظلمة أخيه هنا في الدار العاجلة ، وأن يتحلَّله منها ، سواء أكان ذلك من عرضه ، أم من ماله أم من حريته وكرامته ، وإنسانيته ، أم من أي شيء آخر ، قبل أن يأتي يوم لا دينار يفتدى به ولا درهم ، ولكنها الحسنات والسيئات !!

فإن عاد هذا الظالم إلى صوابه ، فتاب وأناب ، وأدّى الحقوق متحلِّلاً منها : فبها ونعمت ، وإلا فسوف يشهد الخلق ـ يوم المعاد ـ صورة عميقة الدلالة بالغة التأثير، شديدة الرهبة، للمؤاخذة على هذا الظلم ـ مهما كان شأنه ـ لأن الله حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده مُحرَّماً كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم وغيره : « ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ..» الحديث .

فالظلم مَخوفُ العاقبة ، مُظْلِمُ المآل يوم يشتد الكرب في عرصات القيامة وتشخص الأبصار . إن مشاهد الظالمين المفزعةَ المجللةَ بالخزي ؛ يوم تراهم مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ... إن هذه المشاهد التي أخبر الله عنها ورسوله ، جديرة ـ والذي أمر بالعدل والإحسان ـ أن ترتفع بالمسلم إلى حيث يراقب الله في نفسه، فلا يظلمَها بالمخالفات ، ويراقب الله في حقوق الآخرين ، فلا يظلمَ أخاً من إخوانه شيئاً ؛ هنالك يكون قد رعى آخرته

حقَّ رعايتها ، ولم يقع فيما حذر منه المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله: «..إن كان له عمل صالح أُخذ بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات ، أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » . ورب العالمين لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، مهما أحيط الظلم بالزخرف ، ومعسول القول ومُظاهرةِ الشياطين والمنافقين الذين لا يرجون لله وقاراً .

هذا ولفظ الحديث عند الترمذي من رواية أبي هريرة رضي الله عنه « رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال ، فجاءه فاستحلَّه قبل أن يؤخذ وليس ثَمَّ دينار ولا درهم ، فإن كانت له حسنات أُخذ من حسناته وإن لم تكن له حسنات حمَّلوه عليه من سيئاتهم » .

وإذا رأيت كيف يُعَدُّ من شاء الله لهم دخول الجنة بعد أن أدبوا بدخول النار..

إذا رأيت كيف يُنَقَّوْن من آثار الظلم وتُصَفَّى نفوسهم من رواسب التجاوز لحقوق الآخرين ، إذا رأيت ذلك كله ثَمَّ ... رأيت أمراً عجباً ، له دلالته الفاعلة، على ما للظلم من أثر في عاجل الإنسان وآجله **﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** جاء في «باب قصاص المظالم »من كتاب المظالم في الجامع الصحيح للإمام البخاري ما أخرج ـ رحمه الله ـ بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حُبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصُّون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا أُذِن لهم بدخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأَحُدُهم بمسكنه في الجنة، أَدلُّ بمنزله كان في الدنيا » .

المراد بالمؤمنين هنا: بعضهم ؛ فهو عام أريد به الخصوص. واستظهر الحافظ أن القنطرة طرف الصراط مما يلي الجنة قال : ويحتمل أن تكون من غيره بين الصراط والجنة. والمراد بكونهم يتقاصون تَتَبُّع ما بينهم من المظالم، وإسقاطُ بعضها ببعض. ومن الواضح أنهم إذا هُذِّبوا ونُقُّوا ــ أو وَنقوا كما في رواية أخرى ـ أي خلصوا من

الآثام بمقاصصة بعضها ببعض ، أذن لهم بدخول الجنة .

وقد أورد الإمام البخاري الحديث أيضاً في كتاب الرقاق من الجامع الصحيح من رواية أبي سعيد الخدري أيضاً ولفظه « يخلص المؤمنون من النار ، فيُحْبَسون على قنطرة بين الجنة والنار ،فيُقَصُّ لبعضهم من بعض ، مظالمَ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا ، أُذن لهم في دخول الجنة . فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا » .

يالها من عظة بالغة ، يشرق بها هذا المشهد ، الذي يثير في المؤمنين كوامن الأخوة ، وما يجب للحفاظ عليها من البعد عن الظلم، وكل ما هو منه بسبب، ويباعد بينهم ــ أن لو أخذوا ذلك بقوة ـ وبين أن يكونوا نهباً مقسماً للأهواء والنزوات ، ويقفهم على حقيقة : أن الأمر ، إذا عجزت عنه ضوابط دار الفناء، فدار البقاء هي الموعد ، وإن ربك لبالمرصاد .

ومما يشهد للحديث الذي نسعد باصطحابه ، ما جاء في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عند البخاري من قول النبي ﷺ : « لا يَحِلُّ لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد قِبَلَهُ مظلِمة » .

وموعدنا كلمات قادمات نتابع فيها ـ إن شاء الله شذرات مما تفيض به نصوص الهدي النبوي من طرائق الخير التي تسعد الآخذين بها ، المستضيئين بنورها في الدارين ، وترسي قواعد العدل والإحسان والتراحم فيما بينهم ــ والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

مواكب السنا..
والشهيد الممتحن في دار الخلود

كلما تبصر المرء في سيرة أولئك الذين رزقوا حُسْنَ النظر ، فيما قدمت أنفسهم لغدهم يوم الحساب ، ازداد يقيناً بِعِظَم ما كانوا عليه ، من وَجَلِ القلوب إذا ذكر الله ، وعميقِ التدبر لآي الكتاب العزيز ، وصدقِ التأسي بإمام المتقين ، سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام . وذلك ما سما بهم عن صغائر الأمور وسسفسافها ، وجعل النجاة في العقبى : مبتغاهم الذي يؤرقهم نيله والوصول إليه . قرأت في سيرة الإمام الحجة والفقيه الثقة ، عالمِ الجزيرة ومفتيها أبي أيوب الجزري ميمون بن مهران المتوفى سنة سبع عشرة ومائة للهجرة، ما روى أهل التراجم والسِّيَر عن ولده عمرو بن ميمون بن مهران : من أنه أخذ بيده لزيارة الحسن البصري رحمه الله ، وكان من أمر هذه الزيارة : أنها حملت إلينا ـ فيما حملت ـ مزيداً من التذكير بالآخرة، والعناية بكل ما يوقظ القلب ، ويباعد عن الغفلة ، مما هو ديدن السالكين الموفقين .

يقول عمرو : « فطرقت الباب ، فخرجت إلينا جارية سداسية فقالت: من هذا؟ قلت: هذا ميمون بن مهران أراد لقاء الحسن ، فقالت: كاتب عمر بن عبدالعزيز؟ قلت لها : نعم . قالت : ياشقي ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء ؟ قال : فبكى الشيخ ، فسمع الحسن بكاءه ، فخرج إليه ، فاعتنقا ثم دخلا ، فقال ميمون : ياأبا سعيد قد أنست من قلبي غلظة فاستَلِنْ لي منه . فقرأ الحسن : بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ **أفرأيت إن متَّعْناهُم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتَّعونَ** ﴾ قال : فسقط الشيخ فرأيته يفحص برجله ، كما تفحص الشاة المذبوحة ، فأقام طويلاً ثم أفاق . فجاءت الجارية فقالت : قد

أتعبتم الشيخ ، قوموا تفرقوا ؛ فأخذت بيـد أبي فخرجت به ثم قلت : ياأبتاه ، هذا الحسن قـد كنت أحسـب أنه أكبر من هـذا . قال : فوكـزني في صدري وكـزة ، ثم قال: يابني لقد قرأ علينا آية ، لو فهمتها بقلبك لأبقى لها فيك كلوماً » .

ومن كلماتـه ـ يرحمه الله ــ التي تدل على مدى خـوفه على نفسه، وعلى إخـوانه المؤمنين ، من سوء العاقبة يوم الدين ، وحرصِه على النصح لكل مسلم : قوله ـ كما ذكر الـذهبي في السير ـ « ثلاث لا تَبْلُـوَنَّ نفسك بهن : لا تدخـل على السلطان ـ وإن قلت: آمـره بطاعة الله ــ ولا تُصْغِيَنَّ بسمعك إلى هـوى ، فإنك لا تـدري ما يعلق بقلبك منـه ، ولا تدخل على امرأة ـ ولـو قلت أعلمها كتاب الله ــ » وقال له رجل: ياأبا أيوب ما يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم ، فقال : «أقبل على شأنك ما يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم » .

ذلكم هو الأدب مع الله ، والورع الذي تبعث عليه مخافة الله واليوم الآخر . جاء في « الحلية» و «سير أعلام النبلاء »: قال الإمام أبو الحسن الميموني ـ حفيد ميمون ابن مهران ـ قال لي أحمد بن حنبل : (إني لأشبِّه ورع جدك بورع ابن سيرين).

وفي خضم الحياة الزاخـرة بالمطالب المادية وبالمعـوقات التي تصرف الكثيرين عن استذكار المآل بعد الموت ، وما ينتهي إليه أمر الناس بعد قيام الساعة ، وكيف يتفاضل العبـاد بما قدموا من عمل في الـدنيا ؛ إذا الناس فريقٌ في الجنـة وفريق في السعير ... في هذا الخضـم المرعب ــ وسلطان المادة والقيـمِ المهزوزة مهيمـنٌ على بعض النفـوس ـ تبدو فضيلـة هؤلاء البررة الأصفياء ، وتبرز ضرورة التـأسي بعباد الله الصالحين الذين هم على ذُكْرٍ أبـداً من يوم البعث والنشور ؛ لما أنهم على النبع الصافي من سيرة سيـد المرسلين ! وكم في هديه صلـوات الله وسلامه عليه ــ وهو المؤتمن على بيان القرآن الحكيم ــ من طرائق مباركة إذا سلكها المسلـم ـ بخلوص نية وصدق عـزيمة ـ انتهت به ــ فضلاً من الله ورحمة ـ إلى مـا بشّر به المولى عبادَه المجاهدين المتقين المخبتين من جناتٍ تجري تحتَها الأنهار ، لا يمسهم فيها نصب

ولا يمسُّهم فيها لغوب ، يتجدد فيها العطاء الرباني ، على أرائك النعيم الخالد المقيم.

والراية السامقة المضيئة في هذه الطرائق ، راية من أخلصوا عملهم لله ، وجاهدوا فيه ـ سبحانه ـ حق الجهاد . ولا تسل عن الشهداء ، الذين يرى الناس بأم أعينهم ، ما تشرق به مشاهد القيامة من منة الله عليهم ، بما ينالون من الكرامة وما يحظون به من قرة أعين لا يفضلهم بها النبييون عليهم الصلاة والسلام ، إلا بما أعطوا من درجة النبوة .

أخرج ابن حبان في صحيحه ـ واللفظ له ـ وأحمد بإسناد جيد ، والطبراني والبيهقي عن عتبة بن عبدالسُّلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « القتلى ثلاثة : رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدوَّ قاتلهم حتى يُقْتَلَ ، فذلك الشهيد الممتحن في جنة الله تحت عرشه لا يفضله النبييون إلا بفضل درجة النبوة ، ورجل فَرِق على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، حتى إذا لقي العدو ، قاتل حتى قتل ، فتلك مُمَصْمِصَةٌ محت ذنوبه وخطاياه ـ إن السيف محاء للخطايا ـ وأدخل من أي أبواب الجنة شاء ؛ فإن لها ثمانية أبواب ـ ولجهنم سبعة أبواب ـ وبعضها أفضل من بعض ، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله ؛ حتى إذا لقي العدو ، قاتل حتى قتل ، فذلك في النار ، إن السيف لا يمحو النفاق » .

الضمير في قوله : « وبعضها أفضل من بعض » يعود إلى أبواب الجنة «الممتحَن» : بفتح الحاء المهملة : الذي انشرح صدره ، ومنه قوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿**أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**﴾ أي شرحهاووسعها ، أو أخلصها للتقوى ، من قولهم : امتحن الذهب إذا أذابه واختبره ، فميَّز إبريزه من غيره . وقال ابن الأثير في « النهاية » : (فيه «فذلك الشهيد الممتحن » هو المصفى المهذب . مَحَنتُ الفضة ، صفّيتَها وخلَّصتَها بالنار . وفي حديث الشعبي « المِحْنَة

بدعة» هي أن يأخذ السلطان الرجل فيمتحنه ، ويقول : فعلت كذا وفعلت كذا ، فلا يـزال به حتـى يسقطَ ويقـول ما لم يفعلـه، أو ما لا يجوز قـوله ، يعنـي أن هذا الفعل بدعة).

وقـد جاء في روايـة لأحمد : « فذلـك المفتخـر في خيمة الله تحت عـرشه » بـدل «الممتحن » ولعله ـ كما يقول الحافظ المنذري ـ تصحيف .

وما أثقلها عبرةً وأروعها عظةً ـ للمتأمل المتدبر ـ أن يكون ما أقدم عليه المقاتل في سبيل الله من بذل نفسه ومـاله، بريدَه ـ بعون الله وفضله ـ إلى هـذه المنزلة التي يبصرها العباد مشرقةً أخّاذةً يوم يقوم الأشهاد .

وماذا أنـت قائل بـذاك الذي يمحو الله ذنـوبه وخطايـاه ، بسيفه الـذي بات يقطر دماً من أعـداء الله في ساحة الجهاد ؛ ذلكم قوله عليـه الصلاة والسلام ـ كما مرّ آنفًا ـ : « فتلـك ممصمصة محَتْ ذنوبه وخطاياه » فنال بفضـل الله تلك المنزلة التي وصفها الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه .

الممصمِصَة المطهِّـرة . وأصله مـن المَوْص وهو الغَسْل . جـاء في النهايـة لابن الأثير : (فيه : «القتل ممصمصة» أي مطهرة من دنـس الخطايا . يقال : مصمص إناءَه : إذا جعـل فيه الماء ، وحَركه ليتنظَّـفَ . وإنما أنثها والقتل مذكـر ، لأنه أراد معنى الشهادة: وهذا من بلاغته عليه الصلاة والسلام. أو أراد «فعله ممصمصة»، فأقام الصفة مقام الموصوف).

ويانعـم ما تُبرز هذه البشريات مـن عظيم قدر الجهاد في سبيـل الله ، وجلال المنازل التي يشرق سناها يـوم الدين للمجاهدين ، بله الشهداء الـذين هم أحياء عند ربهم يـرزقون . والحمد لله الذي جعـل سيف الجهاد محّاءً للخطـايا وأخبر في كتابه أنه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنهم بنيان مرصوص .

عاقبتُهم يوم الدين..
اللونُ لونُ دم والريحُ ريحُ مِسْك

إذا ذكر المرء ما تكون عليه أحوال العباد يوم المعاد ، وما يجب من التزود لذلك اليوم بالصالح من العمل ؛ لما أنه يوم يبلغ هلع الناس فيه وخوفهم من سوء المصير مبلغَه ، وتجدهم ـ وقد ضرب الترقب عليهم بالأسداد ـ لا يسأل حميم فيهم حميماً ، ولا يجد الإنسان إلا ما قدم في حياته الدنيا ... إذا ذكر المرء ذلك ، أو بعضاً منه، ادَّكر ما كان عليه الرحمة المهداة صلوات الله وسلامه عليه ، من شدة الحرص على هداية الخلق ، والرغبة المنقطعة النظير ، في أن يجنِّب أمته سوء المنقلب في الأخرى ، فلم يدع أن ينوع أساليب التبليغ والبيان ، وأن يستخدم ما آتاه الله من البلاغة الفاذة المقترنة بالرحمة التي ملىء بها قلبُه ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ كيما تصل كلمته الهادية إلى أعماق النفوس ، وتستنيرَ بها العقول والقلوب ، وهنالك تؤتي أكلها في تقويم العمل ، وسلوكِ الجوارح سبيلَها المستقيم .

أخرج الإمام أحمد في المسند بسنده عن النوَّاس بن سَمعان الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتَّحة ، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاة ، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتفرجوا ، وداعٍ يدعو من جوف الصراط ؛ فإذا أراد يفتح شيئاً من تلك الأبواب ، قال : ويحكَ لا تفتحه ؛ فإنك إن تفتحْه تلجْه . والصراط : الإسلام، والسوران : حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة : محارم الله تعالى ، وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله عز وجل، والداعي فوق الصراط : واعظ الله في قلب كل مسلم » .

ولكم يبدو أهل الفلاح الذين انتفعوا بهذا الهدي المحمدي ، جديرين بالغبطة

والثناء ، لما أنهم قد وُفِّقوا لسلوك طريق السعادة في عاجلهم وآجلهم ؛ ففي الدنيا طمأنينة ورضىً ، ومسارعة دائبة إلى فعل الخيرات ،والقيام بالطاعات والجهاد في سبيل الله . وفي الآخرة فوز مبين ، ونعيم في الجنةمقيم ، ورضوان من الله الكريم المنان ،لا يسخط بعده أبداً . وسبحان من لا رب غيره ولا خير إلا خيره وهو ـ جل شأنه وتباركت أسماؤه ـ ذو الفضل العظيم .

وإذا كان الأمر كذلك : فلسوف يبرز للعيان يوم القيامة ما يؤكد هذه الحقيقة ـ وما أكثر مؤكداتها يومذاك ـ . ونشير هنا إلى مشهد بالغ الإثارة والتعبير ؛ مشهدِ أولئك الذين كُلموا في سبيل الله ـ وهم يقارعون أعداء الله في ساحات الجهاد ـ كيف يكون اللون في جراحاتهم لون الدم ، والريح ريح المسك .. الأمر الذي يذكِّر بعظمة هؤلاء الرجال عند الله ، وَضَعَةِ القادرين المتقاعسين ، الراضين بالقعود عن بذل المال والنفس في سبيل الله ... وشتان بين عاقبة هؤلاء ، وعاقبة أولئك ، يوم يقف الناس للمساءلة والحساب .

روى الإمام البخاري بسنده عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « كُلُّ كَلْمٍ يُكْلَمُه المسلم في سبيل الله ، تكون يوم القيامة كهيئتها إذ طعنت تفجَّر دماً : اللونُ لونُ دم ، والعَرف عُرف المسك » ورواه أحمد .

« كلُّ كَلْمٍ يُكْلَمُه »: أي كل جرح يجرحه . والعرف : بفتح العين وسكون الراء : الريح . وأعاد الضمير مؤنثاً في قوله «كهيئتها» لأنه أراد الجراحة . هكذا يكون الأمر : لون الدم هو اللون المعروف ، ولكن الريح ريحُ المسك .

تبارك الله !! ما هذه المنقبة العظيمة المعبِّرة التي يشهدها أهل الموقف أجمعون ، وما هذه اللغة التي ينطق بها دم المصابين في سبيل الله بلونه الأخّاذ ورائحته الزكيَّة!! ألا إن الأمر بجلاله وبهائه يدعو إلى الكثير من التَّبَصُّرِ والاعتبار ، والمشهد له أكثر من دلالة ، ويحمل أكثر من عظة ؛ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (والحكمة في كون الدم يأتي يوم القيامة على هيئته : أنه يشهد لصاحبه بفضله،

وعلى ظالمه بفعله . وفائدة رائحته الطيبة: أن تنتشر في أهل الموقف ، إظهاراً لفضيلته أيضاً).

ولا يخفى على ذي بصيرة ، أن تلك المنقبة ـ كما يدل الحديث ـ إنما تكون لمن كانت جراحاتُه في سبيل الله ، فإخلاص النية لله عز وجل: حجر الزاوية في الموضوع ، وقد جاء ذلك صريحاً في بعض الروايات الأخرى ؛ فعند البخاري في الجهاد من طريق الأعرج عن أبي هريرة : «والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله» . وأخرج مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يكلم أحد في سبيل الله ـ والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله ـ إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَبُ ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك ».

يُكْلَم: يُجرح ـ يثْعَب : يجري متفجراً أي كثيراً ، وهو بمعنى ما جاء في الرواية السابقة عند البخاري « يتفجر دماً» قال ابن الأثير في النهاية : (فيه يجيء الشهيد يوم القيامة وجرحه يثعب دماً » أي يجري . ومنه حديث عمر رضي الله عنه « صلى وجرحه يثعب دماً »).

ومما يجدر ذكره ، أن العلماء ، في شرحهم لهذا الحديث وأمثاله ، أدركوا من قوله عليه الصلاة والسلام :« والله أعلم بمن يُكْلَمُ في سبيله » أنه ـ بجانب ما تنبه عليه الكلمات الهاديات من وجوب الإخلاص لله عز وجل ، وأن ما يعطاه المكلوم يوم القيامة من الفضل ، منوط بذلك الإخلاص ... ـ تشعر أيضاً بتعدد الميادين التي يمكن أن يقتل فيها المؤمن ، أو يكلم ويكون ذلك في سبيل الله . قال الإمام النووي رحمه الله : (هذا تنبيه على الإخلاص في الغزو ، وأن الثواب المذكور فيه إنما هو لمن أخلص فيه ، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا . قالوا : وهذا الفضل وإن كان ظاهره أنه في قتال الكفار .. فيدخل فيه من خرج في سبيل الله في قتال البغاة ، وقطاع الطرق ، وفي إقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك والله أعلم). فطوبى لعاملين المخلصين في كل ميدان من ميادين الخير ، ما يلقون

من الكرامة يـوم القيامة، جزاء ما أصابهم وهـم يجاهدون ويعملون في سبيل الله ، أياً كان الثغرُ الذي أقامهم الله عليه في هـذه الدار ، دار العمل والتزوّد النافع لدار الجــزاء .

وبعد : فلا ينسينك بهاء الموقف وجلاله ـ وأنت تشهد ما ينطق به دم الشهيد ، أو المكلوم في سبيل الله ، يـوم العرض الأكبر ـ ما جاء في رواياتٍ أُخَـرَ للحديث، حملت مـزيداً من التجلية للترغيـب في الجهاد الصادق في سبيل الله ،لإعـزاز هذا الدين ، وما يدعو إلى حسن التأسي في ذلك بالنبي عليه الصلاة والسلام . .

روى مسلم من طريـق أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قـال : قال رسول الله ﷺ : « تضمن الله لمن خـرج في سبيله لا يخرجه إلا جهـاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديقـاً برسلي ، فهو عليَّ ضـامن أن أدخلـه الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنـه الذي خرج منـه نائلاً ما نال مـن أجر أو غنيمة ، والذي نفـس محمد بيده : ما مـن كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يـوم القيامة كهيئته حين كُلم ، لونـه لون دم وريحه ريح مسك . والـذي نفس محمد بيده لـولا أن يشق على المسلمين ، ما قعـدت خلاف سرية تغـزو في سبيل الله أبـداً ، ولكن لا أجـد سعة فـأحملَهم ، ولا يجدون سَعَـةً ، ويشق عليهـم أن يتخلفوا عنـي ، والذي نفس محمـد بيده: لـوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتلُ ، ثم أغزو فأقتلُ ، ثم أغزو فأقتل » .

تضمَّن : تكفَّـل . ومعنى «لا يخرجـه إلا جهاداً في سبيلي » لا يخرجـه إلا محضُ الإيمان والإخلاص لأجل الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته في العالمين .

ومعنى « وتصديـق كلمته » أي كلمة الشهادتين ، وقيل : تصـديق كلام الله بما للمجاهد من عظيم الأجر ورفيع المنزلة . وفي شأن المراد بقوله : « فهو عليَّ ضامن» قـال الإمام النـووي : ذكـروا في « ضـامن » هنـا وجهين : أحـدهما ــ أنه بمعنـى مضمون؛ كماء دافق ومدفوق ، والثاني ـ أنه بمعنى ذو ضمان .

وهنيئاً للمجاهدين القتل أو الجرح في سبيل الله ، وما يكرمون به على مشهد من الخلائق أجمعين يوم التناد .

جنتان.. جنتان

وحور مقصورات في الخيام

لله ما أعظم ما يتفضل به الله على عباده الأبرار ، يوم يوفي الناسَ دينَهم الحقَ وتجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء: تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ؛ وكلما ازداد المؤمن تبصراً في تلكم الأخبار الصادقة عن يوم الدين وما يكون فيه ، ازداد يقيناً بعظم الفضل وكريم الإحسان ، لأولئك الذين أخلصوا دينهم له سبحانه ، وجاهدوا في سبيله مقبلين غير مدبرين ، ولم يدَعوا أن يأتوا بالطاعات وصالح الأعمال ، على الوجه الذي يرضيه سبحانه وتعالى . قال الإمام البخاري تحت باب ﴿ **حور مقصورات في الخيام** ﴾ من سورة الرحمن : وقال ابن عباس : حور : سودُ الحَدَق . وقال مجاهد : مقصورات: محبوسات ، قُصر طرفُهن وأنفسهن على أزواجهن . قاصرات لا يبغين غير أزواجهن .

ثم قال محمد بن إسماعيل رحمه الله : حدثنا محمد بن المثنى قال : حدثنا عبدالعزيز بن عبدالصمد قال : حدثنا أبو عمران الجونيُّ عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه « أن رسول الله ﷺ قال : إن في الجنة خيمةً من لؤلؤة مجوفة عرضُها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين ، يطوف عليهمَ المؤمنون » .

« وجنتان من فضة آنيتُهما وما فيهما ، وجنتان من كذا آنيتُهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبر على وجهه في جنة عدْن » .

عبدالله بن قيس هو : أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ، والراوي عنه ابنه أبوبكر . قال الحافظ ابن حجر عند قوله : « يطوف عليهم المؤمنون » قال الدمياطي : صوابه « المؤمن » بالإفراد . وأجيب بجواز أن يكون من مقابلة

المجموع بالمجموع . وكشف رحمه الله عن أن «جنتان من فضة» معطوف على شيء محذوف تقديره : هذا للمؤمن ، أو هو من صنيع الراوي . وقال أبو موسى عن النبي ﷺ: جنتان ...الخ.

وسبق أن رأينا : ما أخرج البخاري تحت باب ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ من سورة الرحمن ، في كتاب التفسير من الجامع الصحيح من رواية أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه أبي موسى « أن رسول الله ﷺ قال : «جنتان من فضة آنيتُهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ، إلا رداء الكبر ـ أو الكبرياء ـ على وجهه في جنة عَدْن ».

هذا : وللعلماء كلام حول ما جاء في آخر الحديث « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر ـ أو الكبرياء ـ على وجهه في جنة عدن » حاصله ـ كما يقول الحافظ ـ أن رداء الكبر مانع من الرؤية ؛ فكأن في الكلام حذفاً تقديره بعد قوله : إلا رداء الكبرياء : فإنه يمن عليهم برفعه فيحصل لهم الفوز بالنظر إليه ؛ فكأن المراد أن المؤمنين ، إذا تبوأوا مقاعدهم من الجنة ، لولا ما عندهم من هيبة ذي الجلال ، لما حال بينهم وبين الرؤية حائل ؛ فإذا أراد إكرامهم، حفَّهم برأفته ، وتفضل عليهم بتقويتهم على النظر إليه سبحانه .

قال الحافظ : ثم وجدت في حديث صهيب في تفسير قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ ما يدل على أن المراد برداء الكبرياء في حديث أبي موسى: الحجابُ المذكور في حديث صهيب ، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يكشف لأهل الجنة إكراماً لهم . والحديث عند مسلم والترمذي والنسائي وابن خزيمة وابن حبان ، ولفظ مسلم ـ وقد مر بنا من قبل ـ أن النبي ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله عز وجل : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيِّض وجوهنا وتدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم منه ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ » أخرجه مسلم عقب

حديث أبي موسى ولعله أشار إلى تأويله به ، ومعنى حديث الباب ـ كما يرى القرطبي في «المفهم» ـ أن مقتضى عزة الله واستغنائه: أن لا يراه أحد ، لكن رحمة المؤمنين اقتضت أن يريهم وجهه إكمالاً للنعمة ، فإذا زال المانع ، فعل معهم خلاف مقتضى الكبرياء ؛ فكأنه رفع حجاباً كان يمنعهم . ونقل الطبري عن علي وغيره في قوله تعالى : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ قال : هو النظر إلى وجه الله . وقال المازري رحمه الله : كان النبي ﷺ يخاطب العرب بما تفهم ، ويخرج لهم الأشياء المعنوية إلى الحس ليقرِّب تناولَهم لها ، فعبر عن زوال المانع ورفعه عن الأبصار بذلك .

وما من ريب في أن من علامات الفلاح عند المؤمن : أن تزيده تلكم البشريات حرصاً على العمل الصالح في كل شأن من شؤونه ، وأن يكون هجيراه مرضاةَ الله تعالى ، كيما يفوز في الآخرة بما يفوز به أولئك الذين بشرهم النبي ﷺ ، بياناً لما جاء في الكتاب الكريم من ذلك ؛ وسبحان من أرسل محمداً ﷺ رحمةً للعالمين . ثم إن رواية الحديث عند مسلم قد جاءت بلفظ « إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوَّفة ، طولُها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » . وله في رواية أخرى « في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها ، أهل لا يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمن » .

وقال الإمام الترمذي في كتابه « السنن »ـ جامع الترمذي ـ باب « ما جاء في صفة غرف الجنة » من كتاب صفة الجنة : حدثنا محمد بن بشار قال : «حدثنا عبدالعزيز أبو عبدالصمد العَميُّ عن أبي عمران الجونيِّ عن أبي بكر بن عبدالله ابن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة جنتين: آنيتُهما وما فيهما من فضة ، وجنتين آنيتُهما وما فيهما من ذهب ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا الكبرياء على وجهه في جنة عدن » وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة لخيمةً من درة مجوفة عرضُها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الأخرين ، يطوف عليهم المؤمن » .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وأبو عمران الجوني : اسمُه عبدالملك بن حبيب ، وأبو بكر بن أبي موسى : قال أحمد بن حنبل : لا يعرف اسمه، وأبو موسى الأشعري اسمه عبدالله بن قيس ، وأبو مالك الأشعري اسمه سعد بن طارق بن أشيم .

ومن الجدير بالذكر : أن العلماء فهموا من مجيء قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ومن دونهما جنتان﴾ بعد الكلام على فضله سبحانه على عباده الذين يخافون مقامه ـ جل شأنه ـ بقوله ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ أن هاتين الجنتين دون اللتين قبلهما في المرتبة ، والفضيلة ، بنص القرآن . قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ومن دونهما جنتان﴾ من دونهما في الدرَج ، والدرَج المراقي جمع درجة . وقال ابن زيد : من دونهما في الفضل .

قال الحافظ ابن كثير : والدليل على شرف الأولين على الأُخريين وجوه: أحدها أنه نعت الأولين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ، ثم قال : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ وهذا ظاهر في شرف المتقدم وعلوه على الثاني .

اللهم اجعلنا من الذين يخافون مقامك ـ صادقين ـ ويفوزون بكريم عطائك في الآخرين . لك الحمد في الأولى والآخرة . توفّنا مسلمين وألحقنا بالصالحين .

أهل الرسوخ في الطاعة..
وبشريات ما يكون يوم الدين

في متابعة لقراءة ما يتسع له المقام من نصوص الهدي المحمدي ، المبينة للكتاب الكريم و الكشافة عما يكون من واسع فضل الله وإحسانه يوم القيامة ، وما أعد لعباده المقرَّبين في دار كرامته ، من وافر العطاء : تجدر الإشارة عطفاً على ما رأينا من قريب مما روى البخاري ومسلم وغيرهما في هذا الشأن العظيم - إلى ما روى الدارمي أيضاً بسنده عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً ، في كل زاوية أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون » ورواه الإمام أحمد في المسند . قال عبدالله بن الإمام أحمد : حدثني أبي قال : حدثنا يحيى عن حميد عن أنس عن النبي ﷺ قال : « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدي في مجرى الماء ، فإذا مسك أذفر ، قلت : ياجبريل ما هذا ؟قال : هذا الكوثر الذي أعطاك الله - أو أعطاك ربك عز وجل - » وفي رواية له « قلت : ما هذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاكه الله » .

ويستوقفنا في هذه النصوص وأمثالها : هذا اللون من الإكرام الإلهي الذي يتمثَّل في تلكم الخيام ، وإلا فقد أوردنا فيما مضى من القول ، عدداً من النصوص التي تتعلق بالكوثر ، وتفضيل الله نبيه ﷺ به . ونقع في «مسند أحمد » على مثل أو نحو ما رأينا عند الشيخين من نصوص مباركة يرد فيها ذكر الجنتين بياناً لقوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ كما يرد فيها أيضاً ذكر الجنتين الأخريين بياناً لقوله جل شأنه في السورة نفسها : ﴿ **ومن دونهما جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان** ﴾.

فقد أخرج رحمه الله بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال : «جنتان من فضة آنيتهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما . وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم تعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه عز وجل في جنات عدن ».

المسك الأذفر : هو المسك طيب الريح . قال ابن الأثير في « النهاية في غريب الحديث » في صفة الحوض «.. وطينه مسك أذفر » أي طيب الريح ، والذَّفَر ـ بالتحريك ـ يقع على الطَّيِّب والكريهِ ويفرَّق بينهما بما يضاف إليه ويوصف به، ومنه صفة الجنة « وترابها مسك أذفر » .

ومن كرم الله تعالى ، وبالغ منته على من أسعدهم بدخول جنته ، أن جعلها لهم دار إقامة وثبات ؛ فهم فيها مقيمون خالدون . وقد تعَدَّد ذكر هذه الحقيقة كثيراً في القرآن الكريم ، وفي حديث النبي ﷺ ، ومن ذلك مارأينا آنفاً من قوله صلوات الله وسلامه عليه : « وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه عز وجل في جنات عدْن » قال الراغب الأصفهاني في « المفردات»: جنات عدن : أي استقرارٍ وثباتٍ . عَدَن بمكان كذا : استقرَّ . وجاء في النهاية : جنة عدن : أي جنة إقامة . يقال : عدن بالمكان يَعْدِنُ عدناً : إذا لزمه ولم يبرح منه . وقال صاحب القاموس المحيط : عدن بالبلد يعدِن ويعدُن عدناً وعُدُوناً : أقام. ومنه «جنات عدن ».

ومنذا الذي يزعم لنفسه منا ـ نحن العبيدَ الضعفاءَ ـ القدرةَ على إحصاء ما يجود به الكريم المنان ، على عباده الذين أحبهم وتفضَّل بنشر رحمته عليهم، في دار كرامته بعد قوله تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ .

وقبل هذا وبعده : لايخفى على ذي لب أن كل لون من ألوان النعماء: يقودك إلى لون آخر ، ويضيء في نفسك بواعث اليقين ، بصدق ما وعد الله الصالحين من عباده الذين خلعوا الأنداد والأضداد ، وعرفوا الحق فلزموه ، ولم يبارحوا باب

الخضوع والإنـابة ، متقين مولاهـم حقَّ تُقاتـه ، مجاهدين في سبيلـه ، لا يخافون في نصرة الدين لومـة لائم .. حتى لو اشتهى أحدهم الولـد أو الزراعة أو غير ذلك ، سرعـان مـا يعطى قـال الإمـام الدارمي في « السنـن »: أخبرنـا محمـد بن يـزيـد القواريـريُ عن معـاذ ابن هشام عـن أبيه عـن عامر الأحـول عن أبي الصـديق الناجي عـن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبـي ﷺ قال : « إن المؤمن إذا اشتهى الـولد في الجنـة كان حملُه ووضعُـه وسنُّه في ساعـة كما اشتهى ». وأخـرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب .

وما أوفر المبشرات التي تبدو حقائقَ ناصعةً يوم القيامة ، يسعد بها الذين كانوا في الـدنيا يـرجون لقـاء ربهم، ولا يفتؤون صـابـرين لجلالـه على كل مـا يعترض سبيلهم وهم على طريق النجاة يوم الدين . أرأيت إلى دلالة ذلك المشهد العظيم الذي يصـف حال الأمة يـومذاك ، حين يكون أهـل الجنة عشرين ومـائة صف ، فيكون أهل الإسـلام ثمانين منها ؟ روى الإمام أحمد بسنده عن سليمان بـن بريدة عـن أبيه بـريدة الأسلمـي رضي الله عنه قـال : قال رسـول الله ﷺ: « أهل الجنـة عشرون ومائة صف ، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً .» وفي رواية له عن عبدالله ابن مسعـود رضي الله عنه قـال : قال لنـا رسول الله ﷺ: « كيـف أنتم وربـع أهل الجنة، لكم ربعها ولسـائر الناس ثلاثة أرباعها ، قالوا : الله ورسـوله أعلم : قال: فكيف أنتم وثلثها ؟ قالوا : فذاك أكثر . قال : فكيف أنتم والشطر ؟ قالوا : فذاك أكثر ، فقال رسول الله ﷺ: أهـل الجنة يوم القيامة عشرون ومائة صـف أنتم منها ثمانون صفـاً» . ورواه الحاكم في « المستدرك » بنحوه عـن ابن مسعود من طـريق ابنه عبدالرحمن وقال : عبدالرحمن بن مسعود لم يسمع من أبيه في أكثر الأقاويل ، وقال الذهبي في «التلخيص »: لم يسمع عبدالرحمن من أبيه .

وبمثل ما رأينا مـن الرواية الأولى عند أحمد عن بُريـدة الأسلمي رضي الله عنه، نجد الرواية عندالدارمي وابن مـاجة والترمذي والحاكم ، ولفظ الترمذي : « أهل الجنة عشرون ومائة صـف ، ثمانون منها من هـذه الأمة وأربعون من سـائر الأمم »

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . وقد روي هذا الحديث عن علقمة بن مَرْثَد عن سليمان بن بريدة عن النبي ﷺ مرسلاً . ومنهم من قال : عن سليمان بن بريدة عن أبيه .

وفي رواية الحاكم بعض الاختصار ، وقد قال بعدها : أرسله يحيى بن سعيد وعبدالرحمن بن مهدي عن الثوري .

والأمر البالغ الأهمية الذي لا غنى عن التذكير به في هذا المقام ، وليس من معاد القول : أن تلكم البشريات الكريمة في دار الخلود ، لم تزد أهل الخشية إلا دأباً على الطاعة ، ورسوخاً في العبودية ، وثباتاً على طريق أهل اليقين المفلحين . قال التابعي الجليل طلق بن حبيب المتوفى قبل المائة للهجرة ـ وكان من العلماء الزهاد ـ: « التقوى : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، خوفاً من عذاب الله » .

اللهم اجعلنا من أهل الإخلاص في طاعتك ، لا تقعدنا عن العمل بشارة ، ولا تيئسنا من رحمتك نذارة ، واكتب لنا برحمتك الفوز بالجنة والنجاة من النار مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

اليوم العسير.. ومبشرات النجاة والفوز

أشرت غير مرة ، إلى أن مما تميز به السلف الصالح عليهم الرضوان : ما كان من عدم ركونهم إلى الدَّعة ، والفتور عن عمل الصالحات ـ تأثراً بما تحمل الأخبار الصادقة من مبشرات للمؤمنين ، يشرق بها العطاء الإلهي يوم المعاد ـ بل كان ذلك بمثابة الحافز القوي إلى مضاعفة العمل ، واستشعار الخشية من أهوال ذلك اليوم، والحذرِ من الوقوع في مغبَّة الاغترار بالله ، والغفلة عما جاء من النذر التي لا قِبَلَ للإنسان بها ، إلا أن تناله رحمة ربه ، فينجوَ مع الناجين ؛ وذلك هو المسلك الصحيح ، الذي يدل على استنارة القلب والحياء من الله، وصواب الفهم لما جاء عن الله ورسوله في شأن يوم الدين .

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم**﴾ (هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب ، حيث قال : «الكريم » حتى يقول قائلهم: غره كرمه ؛ بل المعنى في هذه الآية : ما غرَّك ياابن آدم بربك الكريم ـ أي العظيم ـ حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق؟ كما جاء في الحديث : «يقول الله يوم القيامة : ابن آدم ما غرك بي ؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين»؟. وقد أورد قول البغوي: قال بعض أهل الإشارة: إنما قال: ﴿ **ما غرّك بربك الكريم** ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته ، كأنه لقَّنه الإجابة ... أورد هذا القول ولم يجد بُـدّاً من إيضاح هذه المسألة التي لها آثارها في تلكم الساعات المهولات يوم يقوم الناس لرب العالمين ؛ فردَّ على تلك المقولة التي اعتبرها نوعاً من التخيُّل في معنى الآية . قال رحمه الله : (وهذا الذي تخيله هذا القائل ، ليس بطائل لأنه ــ سبحانه ـ إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابَل الكريمُ بالأفعال القبيحة ، وأعمال السوء) . ولقد يستأنس لذلك بما روى ابن أبي حاتم عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿ **يا أيها الإنسان ما غـرّك بربك**

الكريم﴾ فقال عمر : الجهل . وروي مثلُ ذلك عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم ، قال ابن عمر : غرّه ـ والله ـ جهله .

وإذا كان الأمر كذلك : فما أجدر أولئك الصلحاء الأتقياء ، بالكثير من الغِبْطَةِ ؛ لما أنهم وَلَّوا وجوههم شطر ما فيه النجاة من عذاب الجحيم ، والفوزُ بجنة الخلد ونعيمها المقيم . جاء في ترجمة التابعي الجليل قاضي البصرة أبي حاجب العامري زرارة بن أوفى يرحمه الله وكان من أهل الخشية والعلم والعمل ـ ولا نزكي على الله أحداً ـ: أنه صلى الصبح في مسجد بني قشير فقرأ **﴿ ياأيها المدثر ﴾** حتى قوله تعالى: **﴿فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير .على الكافرين غير يسير ﴾** فشهق شهقة ثم خرَّ ميتاً رحمه الله . قال بهز بن حكيم راوي الخبر ـ كما جاء في الحلية والسير وغيرهما ـ: « فكنت فيمن حمله إلى داره » .

وهذا الإحساس الصادق بما تكون عليه شدة العسر يوم القيامة ، اليوم الذي وصفه الله تبارك وتعالى بأنه يوم عسير **﴿ على الكافرين غير يسير ﴾**ـ كما يشهد لصاحبه بصفاء النفس واستنارة القلب ـ يذكّر بما رُزِقَهُ المفلحون من عباد الله من مراقبة لله عز وجل في كل صغيرة وكبيرة ، كيما يعتقوا أنفسهم من النار ، ولا يوبقوها في غضب العزيز الجبار .

والإمام أحمد بن حنبل رحمه الله واحد من أكرم النماذج وأفضلها لهذا النهج الكريم ، ذُكر في ترجمته أنه كان ينشد هذين البيتين إمّاله أو لغيره :

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل	خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبنَّ الله يغفُل ساعةً	ولا أن ما يخفى عليه يغيب

وهذا الذي نرى : قبسٌ من هدي النبي ﷺ في ذلك . أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يا أيها الناس لا يغترّنَّ أحدكم بالله ؛ فإن الله لو كان مغفلاً شيئاً ،لأغفل البعوضةَ والذَّرَّةَ » كما أخرج عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله قوله: « لو كان الله مُغفلاً شيئاً لأغفل ما

تُعَفِّي الرياح من أثر قدَمي ابن آدم ».

وما من ريب في أن الذين أكرمهم الله بفقه تلك المعاني ـ التي ترتبط بأعمال القلوب ، قبل أعمال الجوارح ، وكانوا على صدق مع الله عزوجل في السر والعلانية ـ موقنين بأنه ـ جل شأنه ــ لا يعجزه شيء ، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ، ولا في السماء ... ما من ريب في أن هؤلاء المحبوبين لله عز وجل ، لابد نائلون ـ بفضله وكرمه سبحانه ـ ما لا يُقْدَرُ قدْرُه من العطاء الرباني يوم القيامة ؛ ولسوف يشهد العالَمون ذلك ، على أوضح صورة وأكملها ؛ حيث يفرح الصادقون الأتقياء ، بما نالهم من الخير ـ وهم يتقلبون بمشاهد ذلك العطاء ـ ويعض الظالمون على أيديهم ، ويندم المفرطون ، ولات ساعة مندم .

والخير لهؤلاء الصفوة كائن عند الاحتضار ، ويوم يقوم الأشهاد ؛ فالنفس الزكية المطمئنة ــ وهي الساكنة الثابتة مع الحق ـ يقال لها : **﴿ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي﴾** يقال لها ذلك عند الاحتضار ، وفي يوم القيامة أيضاً ـ كما ذكرتُ آنفاً ــ وترى الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره ، وعند قيامه من قبره . أخرج ابن أبي حاتم من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : **﴿ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾** قال : نزلت وأبوبكر جالس ، فقال : يارسول الله ما أحسن هذا ! فقال عليه الصلاة والسلام : « أما إنه سيقال لك هذا» . وله في رواية أخرى : قُرِئت عند النبي ﷺ **﴿ياأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾** فقال أبوبكر رضي الله عنه : إن هذا حسن ، فقال النبي ﷺ : « أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت ».

ومشاهد اليوم الموعود ، حافلة بما يدل على ما يؤول إليه أمر تلك النفس المطمئنة من التقلب في النعيم الذي لا يزول ، والخيرِ الذي لا يَنْفَدُ في جنات عَدْن التي وُعِدَ ؛ فكل عمل صالح ـ مهما قل شأنه ـ بحسبان ، والخاتمة الحسنى تشرق

بضياء قوله تعالى ﴿ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي﴾ . قال الإمام أحمد في المسند: حدثنا هاشم بن القاسم قال: حدثنا الفرج قال : حدثنا لقمان عن أبي أمامة ـ صُدَيِّ بنِ عجلانَ ـ عن عمرو بن عَبَسَةَ وهو أبونَجيح السُّلَمي قال: قلت له: حدثنا حديثاً سمعته عن رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهَم: قال: سمعته يقول : « من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام ، فماتوا قبل أن يبلغوا الحِنثَ ، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ، ومن شاب شيبة في سبيل الله ، كانت له نوراً يوم القيامة ، ومن رمى بسهم في سبيل الله، بلغ به العدوَّ ـ أصاب أو أخطأ ـ كان له عتق رقبة ، ومن أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل عضو منها ، عضواً منه من النار ، ومن أنفق زوجين في سبيل الله ، فإن للجنة ثمانية أبواب ، يُدخله الله من أي باب شاء منها » وروى أبوداود والنسائي بعضه.

معنى «من أنفق زوجين في سبيل الله»: من أنفق صنفين من ماله في سبيل الله . والمراد بالأولاد الذين لم يبلغوا الحنث : أنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال ، ويجري عليهم القلم فيكتب عليهم الحنث ـ وهو الإثم ـ وقال الجوهري في « الصحاح » : بلغ الغلام الحنث : أي المعصية والطاعة .

وفقنا الله لما فيه النجاة من عذابه ، والفوز بجنته عقبى أحبابه ، وهو المحمود على كل حال .

تلك عقبى الذين اتقوا..
وعقبى الكافرين النار

إذا وقعت الواقعة ، وتحقق موعود الله ـ بجنته ورضوانه ـ لأهل الهداية من عباده،كما تحقق وعيده ـ بنار السعير والعذاب الأليم ـ لأهل الضلالة منهم ـ وذلك حقيقة ناصعة لا مرية فيها ـ .. إذا حصل ذلك ، وهو حاصل لا محالة ، ازداد المؤمنون يقيناً بما كان من فضل الله عليهم ومنّته أن هداهم للإيمان ، ووفقهم للطاعة، وجعلهم من عباده المتقين ، وهنا يندم المفرِّطون الظالمون ، ويتمنون لو يعادون إلى الدنيا ، فيعملوا غير الذي كانوا يعملون ، ولكن يتبدى لهم أن مطلبهم هذا من العبث العابث الذي لا وزن له ولا قيمة ، بعد أن قامت عليهم الحجة، وأعرضوا عن هداية الله ، ولم يعتبروا بسنة الله في الماضين من الظالمين والكافرين . ولقد أُمر رسولنا ﷺ بأن ينذر الناسَ هذه الحقيقة ، وأن يبصرهم العواقب؛ والسعيد من اهتدى ، والشقيُّ من أعرض وضلَّ سواء السبيل .

والآيات في ذلك كثيرة ، نقرأ منها قول الله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿**وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال**﴾.

قولهم : « ربنا أخرنا » : أي بأن تردنا إلى الدنيا . كما نقرأ في سورة الأعراف قوله عزوجل : ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانو يفترون** ﴾ .

إنها العدالة الإلهية المطلقة في تيئيس أولئك الظالمين الصادين عن سبيل الله في

أمانيهِّم الكاذبة ، يتأكد ذلك في صورة أخرى للحوار نجدها في سورة فاطر وقول الله جل ثناؤه : ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفَّف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمِّركم ما يتذكر فيه من تذكَّر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾ .

والحق أنه بقدر ما يُحِسُّ هؤلاء الذين خسروا أنفسهم ، بمدى تفريطهم في جنب الله ، يفرح أهل الإيمان والطاعة ، بما ينالون من الفضل و الإحسان وهم يرفُلون ـ أعزة مكرمين ـ بالنعيم المقيم، عند ربهم في دار السلام ، ويظلُّهم رضوان الله الأكبر وينظرون إلى وجهه الكريم ـ تقدس وتعالى عن الشبيه والمثيل ـ وسبحان من قضى بمنه وكرمه : أن للذين أحسنوا الحسنى وزيادة.

ومما يُفيض آثار الإيمان في النفس ، ويفترض أن يحرك الهمم للمزيد من الطاعة وعمل الصالحات ، والجهاد في سبيل الله ؛ إقبالاً على الله وإخلاصاً في الدين .. أن أولئك البررة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، يجدون يوم الجزاء ، أن الله قد منَّ عليهم فجزاهم بما عملوا الجزاء الأوفى ، مهما دق هذا العمل أو جلَّ ، فزحزحوا عن النار وأدخلوا الجنة ، وذلك هو الفوز العظيم .

والمؤمن على يقين لا يعتريه أدنى ريبة : أن الخلائق سوف يشهدون يوم الحساب وقوعَ كلِ ما بشر به الخبر الصادق أهل الإيمان والعمل الصالح ... يشهدون ذلك عياناً ، يقطع ما كان عليه أهل الزيغ والضلال ، أو الشك والانحراف !! .

وإنه لأمر بالغ الأهمية عند أهل البصائر ، الذين يؤرقهم المصير يوم الدين ، أن تزيد تلك الحقائق المغَيَّبَةُ المؤمن إيماناً ، يسعى معه جاهداً لمضاعفة العمل في سبيل الله ، وتجاوز المعوقات رغباً ورهباً ، وملءِ ساعات العمر بما ينفع يوم الدين. وفي ذلك الخير كل الخير ، للفرد والجماعة ، الأمر الذي يعود على المجتمع المسلم

بالقوة والتمكين ، وكلِ ما فيه سعادة الدنيا والآخرة .

ومن النماذج المشرقة على هذه الساحة ـ وما أكثرهـا وأوفرها ـ ما رأينا من قريب في واحدة من بشريات النبي ﷺ ؛ كيف أن زمرة من المؤمنين يضيء بهم مشهد من مشاهد القيـامة ، حيث يدخـل كل عامل الجنـة ـ فضلاً من الله ــ بما عمل ، هذا عمل كذا ، وذاك عمل كـذا ، وفق ما رسمت له الهداية النبوية ــ بياناً لكتاب الله العزيز ــ وذلك ما روى الإمام أحمد عن أبي أمـامة صُديّ بن عجـلان الباهلي أنه سأل أبا نجيح السُّلمي عمرو بن عَبَسَة رضي الله عنهما أن يحدثه حديثاً سمعه من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهـم ـ والوهـم الغلط ـ قال أبو نجيح سمعته يقول : «من ولـد له ثلاثة أولاد في الإسـلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنـث أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم . ومن شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة. ومن رمى بسهـم في سبيـل الله بلغ به العدو ـ أصاب أو أخطأ ـ كـان له عتق رقبة . ومن أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل عضـو منها عضواً منه من النار ، ومن أنفق زوجين في سبيل الله ، فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها » .

هكذا تعلن الحقيقة إعلانها في تلك الساعات المثقلة بالأهوال ، ويشهد أهل الموقف العظيم بأم أعينهم إنجاز ما وعد الله ورسوله المخلصين في عبوديتهم لله، العاملين بما أرشد إليه المبلِّغ عن الله ، رسولُ الله عليه الصلاة والسلام . وكما تحقق الخير على أيديهم في الدنيا دار العمل ، أكرموا بثمرات ذلك في دار الجزاء .

وأبونَجيح هـذا صحابي جليل نقل الحافظ ابـن حجر عن الواقـدي انه أسلم بمكة ثم رجع إلى بلاد قومه ، ثـم قدم على رسول الله ﷺ المدينة . وقال ابن سعد: يقولون : إنه رابع أو خامس في الإسلام ، وقـال أبو نعيم: كان قبل أن يسلم يعتزل عبادة الأصنام رضي الله عنه وأرضاه .

وهذه رواية أخرى عند أحمد يستوثق فيها السائل أكثر وأكثر عن حديث رسول الله ﷺ . قال عبدالله بن الإمام أحمد : حدثني أبي قال: حدثنا هشيم قال : حدثني

عبدالحميد قال : حدثني شهر قال : حدثني أبو طيبة قال : إن شُرَحْبيلَ بنَ السِّمْطِ دعا عمرو بن عبسة السلمي أبا نجيح فقال : ابن عَبَسَةَ هل أنت محدثي حديثاً سمعته أنت من رسول الله ﷺ ليس فيه تزيد ولا كذب ، ولا تحدثنيه عن آخر سمعه منه غيرك ؟ قال: نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قد حقت محبتي للذين يتحابون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتصافَون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتباذَلون من أجلي ».

وقال عمرو بن عبسة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أيُّما رجلٍ رمى بسهم في سبيل الله عز وجل فبلغ ـ مخطئاً أو مصيباً ـ فله من الأجر كرقبة يعتقها من ولد إسماعيل ، وأيُّما رجل شاب شيبة في سبيل الله ، فهي له نور يوم القيامة ، وأيما رجل مسلم ، أعتق رجلاً مسلماً : فكل عضو من المعتَق بعضو من المعتِق ، فداءٌ له من النار، وأيما امرأة مسلمة : أعتقت امرأة مسلمة ، فكل عضو من المعتَقة بعضو من المعتِقةِ فداءً لها من النار . وأيُّما رجل مسلم ، قدم لله عز وجل من صلبه ثلاثة لم يبلغوا الحنث ـ أو امرأة ـ فهم له سترة من النار ، وأيما رجل ، قام إلى وضوء يريد الصلاة فأحصى الوضوء أماكنه ، سلم من كل ذنب أو خطيئة له ؛ فإن قام إلى الصلاة ، رفعه الله عز وجل بها درجة ، وإن قعد قعد سالماً » فقال شرحبيل بن السمط . أنت سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ يا ابن عبسة ؟ قال : نعم والذي لا إله إلا هو لو أني لم أسمع هذا الحديث من رسول الله ﷺغير مرة أو مرتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو سبع ـ فأنهى عند سبع ـ ما حلفت ، يعني ما باليت أن لا أحدث به أحداً من الناس ولكن والله ما أدري عدد ما سمعته من رسول الله ﷺ .

سبحان الله ، تلك عقبى الذين اتقوا ؛ بما استجابوا لدعوة الحق ، وسلكوا طرائق البر ، وعقبى الكافرين المعرضين عن الهداية ، أعداءِ الحق وأهله : النار .

الاهتمام بالعقبى ، وما يمكن أن تكون عليه حال المرء في الآخرة ، قضية كبرى ، أرّقت أهل القلوب ، وجعلت العلماء العاملين ، على حذر يحملهم على مزيد من الورع ، واللجوء إلى الله عز وجل ، كيما يَمُنَّ عليهم بالنجاة يوم الحسرة ، وأن يحشروا في زمرة الآمنين .

كان عليَّ أن أقدم هـذه الكلمات ، بين يدي ما قرأت في سيرة واحـد من أعلام العربية الكبار ، إمام الكوفيين في النحو واللغة ، الثقةِ الحجةِ أحمد بن يحيى بن زيد ابن سيار الشيباني بالولاء ، المشهور ، بـ «ثعْلب» والمتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين للهجرة . قال عنه الخطيب البغدادي : ثقة حجة ديِّنٌ صالح ، مشهور بالحفظ .

فعلى كل ما قدمه للعربية التي هي لغة القرآن الكريم والسنةِ المطهرة ، والمعرفةُ بها ركن ركين في العلم بالشريعة وأحكامها وآدابها ، ومعرفة معاني الكلام ودلالاته... نجده على حال من الخوف عما تكون عليه حاله يومذاك ؛ فقد روي عنه ـ رحمه الله ـ قوله : « اشتغل أهل القرآن بالقرآن ففازوا ، واشتغل أهل الحديث بالحديث ففازوا ، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا ، واشتغلت أنا بزيد وعمرو ، فياليت شعري ماذا تكون حالي في الآخرة ؟» أرأيت إلى هذا الخوف من يوم الوعيد ؟.

وإنما كان ذلك من هذا العَلَم من أعلام الأمة ؛ لما أنه يقدُر يوم الحساب قدره، ويدرك مسؤولية العالم في نفسه وأهله وفي الأمة ، وما كان من الوعيد لمن لا يعمل بعلمه ، أو يطلب بهذا العلم الدنيا ، أو القربَ من السلطان ؛ ناهيك عن الرغبة في المباهاة ، وأن يقال له « عالم » معرضاً عما هو على يقين منه ، وهو أن الله جل

شأنه لا يخفى عليه من عباده شيء ، فهو يعلم السر وأخفى . ومنذ الذي ينكر أن خدمة هذه اللغة الميمونة المقدسة بإخلاص خدمةٌ للإسلام ، وأن العناية بها من الدين : ولكنه خوف الله واليوم الآخر ، حمل عالمنا الكبير ، على قول ما قال. أجزل الله مثوبته وأعطاه يوم المعاد ، خيرَ ما يعطي العلماءالعاملين أهلِ الخشية الصادقين.

هذا : ووحدة المنهج الفكري عند المؤمن ـ في تصوره وسلوكه ـ توجب أن لا يغيب عن البال ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، من الوعيد لأولئك الذين يستبدلون عرض الدنيا بمرضاة الله تبارك وتعالى ، وما يكون من افتضاحهم على رؤوس الخلائق ، يوم لا يغني عنهم ما كسبوا ـ طاعةً للهوى والشيطان ـ شيئاً ، وماهم من اللهمن ولي ولا نصير . من ذلك ما أخرج البخاري ـ كما أشرنا من قبل ـ عن أسامةَ بن زيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتابه في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أي فلان ، ما شأنك ؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » رواه غُنْدَرٌ عن شعبةَ عن الأعمش .

إنه مشهد مخيف حقاً ، وهو مشهد جدير ـ وأيم الله ـ أن يتدبره العالم ، وينظر من خلاله فيما هو عليه من مقدار التحسُّب للعاقبة ، يومَ الرُّجعى إلى الله ،لا إلى أحد سواه ؛ الأمر الذي يسعفه ـ بعون الله ـ في تجاوز ما يكون من رغب، أو رهب السلطان وأعوانه، وما يكون من سحر الدنيا ـ بمناصبها وزخرفها ـ ناهيك عن تسويل بطانة السوء ، وأصحاب الأهواء الذين يتقنَّعون ـ عند الاقتضاء ـ بقناع الغيرة على الحق ،وما يدْعونه ـ زوراً وبهتاناً ـ بالمصلحة العامة ، وخدمة الإسلام .

معنى تندلق أقتابه ـ أو أقتاب بطنه كما في بعض الروايات ـ تخرج أمعاؤه من مكانها في جوفه وتقع في النار ـ أعاذنا الله من ذلك ـ فالاندلاق : خروج الشيء

من مكانه . والأقتاب : الأمعاء : جمع قِتْبٍ أو قِتْبَة على رأي الأصمعي . وقال ابن الأثير : (وفي حديث الربـا « فتندلق أقتاب بطنه » الأقتاب : الأمعـاء ، واحدها : قِتْبٌ بالكسر .. والاندلاق: خروج الشيء من مكانه يريد خروج أمعائه من جوفه. وأورد الزمخشري في كتابه « الفائق في غريب الحديث » النص بكامله ثم بين المراد من الاندلاق والأقتاب . والحديث رواه مسلم أيضاً وأحمد . كما رواه ابن أبي الدنيا وابن حبان والبيهقي من حديث أنـس رضي الله عنه، وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في رواية لهما « ويقرأون كتاب الله ولا يعملون به » .

ولفظ الحديث عنـد أحمد ـ في بعض الروايات ـ: « يـؤتى بالرجل يـوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلـق أقتاب بطنه ، فيدور بها في النار كما يدور الحمار بـالرحا ، قال : فيجتمع أهل النار إليه ، فيقولون : يافلان أمـا كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال: فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه».

وتكشف روايـة أخرى عند أحمد عن أن هـذا المشهد المروع ، هو أيضـاً مشهد رجل كان يطاع في معاصي الله عز وجل ، ولفظها :« يؤتى بالرجل الذي كان يطاع في معاصي الله تعالى ، فيقذف في النار ، فتندلق أقتابه ، فيستدير فيها كما يستدير الحمار في الرحا ، فيأتي عليه أهل طاعته مـن الناس ، فيقولون : أي فل ـ يعني أي فلان ـ أين ما كنت تأمرنا به ؟ فيقول إني كنت آمركم بأمر وأخالفكم إلى غيره ».

ولكم يغبط أولئك الذين تشرق قلوبهم بهداية الله ، فينتفعون بما نبه عليه الرحمة المهداة إمام الأنبياء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام !! وصورة هذا الانتفاع أن لا ينسوا لقـاء اليوم الموعـود ، فيسلكوا طـريق الاستقـامة والأمـانة ؛ علماً وعمـلاً وسلوكـاً ، وبذلـك يحظون بـأن يباعـدهم الله مـن النار وأهـوالها في ذلك اليـوم ، ويجعلَهم في زمرة العلماء العاملين الذين لايخافـون في الله لومة لائم... وإلا فالأمر شديـد شديـد ، والعقبى مهولـة مخيفة لمن ينسـون الله واليوم الآخـر ، ويستمرئون طريق الغافلين.

روى الطبراني في « المعجم الكبير » بسنده عن الوليد بن عقبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « إن أناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم، فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل ».

ألا وإن صدق الإيمان باليوم الآخر ،واليقينَ بأن الله تبارك وتعالى ، يعلم السرَّ وأخفى ، وأن العبد ، لا تزول قدماه يوم القيامة ــ كما روى الترمذي والبيهقي وغيرهما عن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ـ حتى يُسألَ عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله فيم اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل فيه ؟

كل أولئك ـ بإذن الله ـ ضمانة الإقلاع عن الجنوح المردي ، إلى طريق النجاة يوم الدين . والمفلح من وفقه الله للأخذ بطريق أهل الفلاح . روى مالك بن دينار عن الحسن البصري رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يخطب خطبة إلا الله عز وجل سائله عنها ـ أظنه قال ـ ما أراد بها ؟» قال جعفر : كان مالك بن دينار إذا حدث بهذا الحديث ، بكى حتى ينقطع ، ثم يقول : «تحسبون أن عيني تَقَرُّ بكلامي عليكم ، وأنا أعلم أن الله عز وجل سائلي عنه يوم القيامة ، ما أردت به؟» قال الحافظ المنذري ؛ رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي مرسلاً بإسناد جيد.

توفي مالك بن دينار ـ يرحمه الله ـ سنة ثلاثين ومائة للهجرة أو نحوها . وما ذكر من بكائه الشديد عند الحديث عن مسؤولية الكلام يوم الحشر الأكبر ،ليس موضعَ استغراب !! فهو العابد الزاهد الورع إلى كونه من رواة الحديث المعنيّين بالسنة والعلم بها ، والكلامُ في المصادر الموثقة عن خشيته لله وخوفه سوء الحساب كثير وفير .

رزقنا الله حسن التأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام ، والانتفاعَ بما كان عليه السلف الصالح عليهم الرحمة والرضوان ، إنه سبحانه ولي التوفيق .

مكارم الأخلاق..

ومنازل من يتركون المراء في الجنة

من المشاهد الناطقة يوم القيامة بالكشف عن السبيل التي اتبعها أصحابها، حتى كانوا على الحال التي هم عليها ، في تلكم المشاهد ؛ مشهدُ زُمَرٍ من العباد ، كانوا عند الأدب الذي أدب النبي ﷺ أمته في شأن المراء ؛ فكانت لهم مكرمة دخول جنة عدن ، حسب الذي قدموا بين أيديهم من ذلك الأدب. ومشهد زمر آخرين أعرضوا عن التزامِ ذلك الأدب العظيم ، فكانت عاقبة أمرهم خسراً .

والمراءُ خُلُقٌ كثيراً ما يؤدي إلى ضياع الحق ، في حمأة الانتصار للباطل ، ناهيك عما قد يحدث من المنازعة المرهقة للفريقين المتجادلين ،وتنافر القلوب . لذلك عرَّفه العلماء بأنه : المنازعة في القول ، أو العمل ، أو الاعتقاد بقصد الباطل ، فإن كان بقصد الحق : فهو الجدال ويفترض أن يكون بالتي هي أحسن . وقد تذكر الشبهة في معرض الدليل ويكون مراءً أيضاً ، حتى يقصد صاحبها الحق ، ويبدي طلب الدليل لظهور ما هو صدق ، وقال بعض المحققين : المراء : الاعتراض على كلام الغير ، بإظهار خلل فيه ؛ إما لفظاً ، أو معنى ، أو في قصد المتكلم . والعلاقة وثيقة بين المراء وبين المِرْيةِ وهي التردد في الأمر ، وهو أخص من الشك ـ كما قال الراغب ـ وأصل المراء عربيةً: من مريتُ الناقة إذا مسحتَ ضرعها للحلْب، فأمرتْ هي: أي درَّ لبَنُها ، فكأنك تستخرج ما عند الآخر من القول بهذه الطريقة.

أخرج الترمذي في باب « ما جاء في المراء » من كتاب البر والصلة في السنن بسنده عن سلمةَ بنِ وُرْدانَ الليْثيِّ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من ترك الكذب ـ وهو باطلٌ ـ بني له في ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها ، ومن حسَّن خُلُقَهُ بني له في أعلاها » قال

الترمذي : وهذا الحديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن وُرْدانَ عن أنس ابن مالك . ورواه ابن ماجة والبيهقي والطبراني في « المعجم الأوسط» ربَض الجنة بفتح الباء : ما حولها خارجاً عنها ـ كما يقول أهل الغريب ـ تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع . ومعنى « من ترك الكذب » أي وقت مرائه كما تدل القرينة في النص ، ويحتمل الإطلاق والله أعلم . وقد جاءت جملة « وهو باطل» معترضةً بين الشرط والجزاء للتنفير من الكذب ، فإن الأصل فيه أنه باطل .

هكذا تشهد الخلائق يوم المعاد ، هذا العطاء الربانيَّ لهؤلاء الذين جاء الحديث على ذكرهم بالثناء ، وكم لذلك من أثر طيب في الروابط الثقافية والاجتماعية .

أما من أعرضوا عن ذكر الله : وجانبوا الحق ، مُصرِّين على نصرة الباطل الذي يدَّعون ، فهم محرومون من هذا الخير ، ولهم ما يليق بصنيعهم من العقوبة ، عافانا الله من ذلك .

وللحديث رواية أخرى ـ كما ذكر الحافظ المنذري ـ بلفظ « من ترك المراء ـ وهو مبطلٌ ـ بُني له بيتٌ في ربض الجنة ، ومن تركه ـ وهو محقٌّ ـ بني له في وسطها ، ومن حسَّن خلقه ، بني له في أعلاها » . وأخرج الإمام ابوداود في كتاب الأدب من «السنن» بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه » .

قول النبي ﷺ : «أنا زعيم » أي ضامن وكفيل ، والزعامة الكفالة ، ومنه قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿ وأنا به زعيم ﴾ قال الإمام الخطابي في كتابه «معالم السنن » : والبيت ههنا : القصر ، أخبرني أبوعمر قال : أخبرنا أبو العباس عن ابن الأعرابي قال : البيت القصر ، يقال : هذا بيت فلان أي : قصره . وقد أثنى النبي عليه الصلاة والسلام على السائب رضي الله عنه بحسن الخلق والسهولة في المعاملة ، وترك المراء والخصومة . قال أبوداود : حدثنا مسدَّد قال : حدثنا يحيى

عن سفيان ، قال : حدثني إبراهيم بن المهاجر عن مجاهد عن قائد السائب عن السائب قال : أتيت النبي ﷺ ، فجعلوا يثنون عليَّ ويذكرونني ، فقال رسول الله ﷺ : « أنا أعلمكم - يعني به - فقلت : صدقت بأبي أنت وأمي ، كنت شريكي فنعم الشريك ، كنت لا تداري ولا تماري » ، قال الخطابي في شرح الحديث: (قوله: «لا تداري » يعني لا تخالف ولا تمانع، وأصل الدرء الدفع ، يصفه ﷺ بحسن الخلق والسهولة في المعاملة ، وقوله :« لا تماري » يريد المراء والخصومة) وجاء في «النهاية» : (والحديث الآخر «كان لا يداريء ولا يماري » أي لا يشاغب ولا يخالف وهو مهموز ، وروي في الحديث غير مهموز ليزاوج يماري . فأما المداراة في حسن الخلق والصحبة : فغير مهموز ، وقد يهمز). وفي « القاموس المحيط »: دارأته ، وداريتُه ودافقته ، ولاينته ضِدٌّ .

وعند الإمام أحمد ما يكشف عن زمن تلك المشاركة بين الرسول ﷺ والسائب رضي الله عنه ؛ فقد أخرج في المسند بسنده عن السائب بن أبي السائب:« أنه كان يشارك رسول الله ﷺ قبل الإسلام في التجارة ، فلما كان يوم الفتح ، جاءه فقال النبي ﷺ : مرحباً بأخي وشريكي ، كان لا يداري ولا يماري . ياسائب قد كنت تعمل أعمالاً في الجاهلية لا تقبل منك ، وهي اليوم تقبل منك ، وكان ذا سَلف وصلةَ » . السلف هنا: القرض من غير ربا، إذ كانت العرب تسمي القرض : سلفاً. والصلة : صلة الأرحام ، وإكرام اليتيم ، والإحسان إلى الجار ، وما إلى ذلك من محاسن الأخلاق . وإنما لم تكن تقبل منه تلك الأعمال الخيِّرة في الجاهلية ، لأنه كان مشركاً ، والمشرك ينال أجر عمله في الدنيا ، بالثناء وما إليه ، وليس له في الآخرة من نصيب ، لأن قبول العمل والمثوبة عليه في الآخرة ، منوطان بالإيمان .

وجاء في رواية أخرى عند الإمام أحمد عن مجاهد عن السائب بن عبدالله قال : «جيء بي إلى النبي ﷺ يوم فتح مكة ، فجعل عثمان وغيره يثنون عليَّ ، فقال لهم رسول الله ﷺ : لا تُعلموني به ، قد كان صاحبي في الجاهلية ، قال : نعم يارسول الله ، فنعم الصاحب كنت ، قال : فقال : ياسائب انظر أخلاقك التي كنت

تصنعها في الجاهلية ، فـاجعلها في الإسلام ؛ أقر الضيف ، وأكـرم اليتيم ، وأحسن إلى جارك » وعند الحافظ ابن حجر في « الإصابة » وهذا : أي السائب بن عبدالله لعله السـائب بن أبي السـائب ، واسمه «صيفي بـن عائذ » فإنـه هو الـذي كان شريك النبي ﷺ . وفي ترجمتـه لقيس بن السائب ، ذكر تفصيلاً لهذه المسـألة ترى في موطنها.

وإذا كان الأمر كذلك في شأن الخلق الذي يدور حوله الحديث ، فإن الحرص على تخفيف العبء يـوم التغابن ، يقتضي العزم على الـوقوف عند الذي وجَّـه إليه رسول الله ﷺ ونبـه عليه ؛ وبـذلك يفوز العـامل بالتـوجيه ، بما بشر بـه صلوات وسلامه عليه من النعيم في الجنة .

وفي تأكيد لما سبـق : نذكر ما روى الطبراني في « المعجـم الكبير » من رواية أبي الدرداء وأبي أمامة وواثلـة بن الأسقع وأنس بن مالك رضي الله عنهـم من حديث طـويل « أن النبـي ﷺ قـال : « ذروا المراء فأنـا زعيم بثـلاثـة أبيات في الجنـة في رباضها ووسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق .» الحديث .

وصلى الله وسلـم وبارك على معلـم الناس الخير ، وعلى آلـه وصحـابته ، ومـن أطاعه ، وأخذ نفسه بهديه القويم .

الذين تلفح وجوههم النار.. والمنتفعون بالوعيد

ما أجمل أن يديم المرء ـ والدنيا متاع الغـرور ، والآخرة خير وأبقى ـ استذكارَ ما ينبغي ، بل مـا يجب عمله لأثقال الموازين يوم القيـامة ، وأن يكون هو ممـن يؤتَوْنَ كتبهم بأيمانهم .

وإن تعجب: فَعَجَبٌ نومُ الهارب من النار عما يقتضيـه خوفه منها ، وهلعُه من الخلود فيها ، فهو ساهٍ لاهٍ لا يأبه للذكرى ، ولا يلتفت إلى قيمة الوقت .

وإن تعجب أيضـاً. فعجب نـوم طالب الجنـة ، عما يقتضية التطلـع الصادق إليها ؛من أخـذ النفس بعزائم الأمور ، والارتفاع بها إلى حيث النَّصَـبُ في طاعة الله ، ومخالطة الحقيقة المستنيرة التـي نبه عليها سيد النصحـاء وإمام المربين محمد عليه الصلاة والسلام ، من أن الجنة حُفّت بالمكاره وأن النار حُفَّتْ بالشهوات .

ثـم إن الله تبـارك وتعـالى لا يظلم أحـداً مـن خلقـه **﴿ولكن النـاس أنفسهم يظلمون﴾** لذا فهو ـ جل شأنه ـ لا يساوي في حكمه يوم القيامة ـ والهول مطبق ، والفزع آخذ بالنواصي ـ بين الذيـن آمنوا وعملوا الصالحات ، وجاهدوا في سبيله ؛ نصرةً لـلإسلام وأهلـه ، وبين المفسـدين في الأرض ، الصـادِّيـنَ عن سبيـل الله ، السالكين طريق الغـواية والضلالة **﴿ أم نجعل الـذين آمنوا وعملـوا الصالحات كالمفسديـن في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾** **﴿ لا يستـوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾** . ويا ويح من أزرى بنفسه وظلمها فكان من أهل الشقوة في سواء الجحيم .

قال الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصـاري القرطبي في كتابه « التذكرة في

أحوال الموتى وأمور الآخرة»: « يروى أن لهب النار يرفع أهل النار حتى يطيروا كما يطير الشرر ، فإذا رفعهم أشرفوا على أهل الجنة ، وبينهم حجاب ، فينادي أصحاب الجنة أصحاب النار ﴿**أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين**﴾ فتردهم ملائكة العذاب بمقامع الحديد إلى قعر النار ، قال بعض المفسرين : هو معنى قول الله تعالى : ﴿**كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها**﴾ ذكره أبو محمد عبدالحق في كتاب« العاقبة » له: قال : ولعلك تقول: كيف يرى أهل الجنة أهل النار ، وأهل النار أهل الجنة؟ وكيف يسمع بعضهم كلام بعض ، وبينهم ما بينهم من المسافة وغلظ الحجاب ؟ فيقال لك : لا تقل هذا : فإن الله تعالى يقوي أسماعهم وأبصارهم، حتى يرى بعضهم بعضاً ، ويسمع بعضهم كلام بعض وهذا قريب في القدرة». وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيَّدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، وإن الملائكة لتقمعهم » .

إنه لمشهد بالغ العظة عميق الدلالة ؛ عافانا الله من الغفلة ، وجنَّبنا طريق الغافلين ؛ فما أكثر السبل الشيطانية التي يُزلِق إلى اتِّباعها نسيانُ الله واليوم الآخر، ولا يلبث سالكها أن يكون يوم القيامة في عداد من قال الله جل جلاله فيهم: ﴿**ومن أظلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات ربه ثم أعرض عنها إنّا من المجرمين منتقمون**﴾ رروى أبو جعفر الطبري بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث من فعَلَهُنَّ فقد أجرم ؛ من عقد لواءً في غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره : فقد أجرم ، يقول الله تعالى ﴿ **إنّا من المجرمين منتقمون** ﴾ ».

ولاريب في أن من مظاهر الفلاح وعلائم التوفيق : أن يقطع المرء ما قد يكون بينه، وبين تلكم السبل ـ التي تنتهي به إلى سوء العاقبة ـ من أسباب ، وأن يتبصَّر فيما تكون عليه أحوال أهل الجحيم، يوم تحل نقمة الله بالمجرمين ، حيث لا ملجأمن الله إلا إليه ، وهو سبحانه عزيز ذو انتقام . أورد الحافظ ابن كثير عند

الكلام على قوله تعالى : في سورة المؤمنون: ﴿**تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون**﴾ ما روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إن جهنم إذا سيق لها أهلها يلقاهم لهبها .. ثم تلفحهم لفحة ، فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب » وقال ابن مردويه : حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز قال : حدثنا الخضر بن علي بن يونس القطان : قال : حدثنا عمر بن أبي الحارث بن الخضر القطان قال : حدثنا سعيد المقبُرِيُّ عن أخيه عن أبيه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله : ﴿**تلفح وجوههم النار**﴾ قال :« تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم » وها هو أبو عبدالرحمن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يُبرز بكلامه هذا المشهد على صورة تدل على شديد تأثره ، وتفاعله مع الحقيقة ؛ يقول في قوله سبحانه ﴿**وهم فيها كالحون**﴾ ألم تر إلى الرأس المشَيَّطَ الذي قد بدا أسنانه وتقلصت شفتاه » ؟ ؟ المشَيَّط : الذي أُحرق بعضه . من شَيَّطَ اللحم أو الشعر إذا أحرق بعضه . جاء في النهاية لابن الأثير (فيه : إذا استشاط السلطان ، تسلط الشيطان ، أي إذا تلهب وتحرق من شدة الغضب ، وصار كأنه نار ، تسلط عليه الشيطان فأغراه بالإيقاع بمن غضب عليه ، وهو استفعل من شاط يشيط : إذا كاد يحترق .... وفي صفة أهل النار «ألم تروا إلى الرأس إذا شيط » من قولهم : شَيَّطَ اللحَم ،أو الشعَر أو الصوفَ إذا أحرق بعضه).

وما دام الأمر بهذه المثابة : فطوبى لمن انتفع بالذكرى ، وعمل على إنقاذ نفسه من أن يكون من أصحاب هذا المشهد ، الذي تنخلع له القلوب وتتقرَّح لهوله الأكباد! روى البيهقي في كتاب « البعث والنشور» بسنده عن عبدالله بن أبي الهذيل عن أبي هريرة في قوله عزوجل : ﴿ **لواحة للبشر** ﴾ قال : تلقاهم جهنم يوم القيامة ، فتلفحهم لفحة فلا تترك لحماً على عظم إلا وضعته على العراقيب » ورواه أبو نعيم الأصبهاني في « الحلية » ثم قال: لم يروه مرفوعاً متصلاً عن أبي سنان عن عبدالله ، إلا محمد بن سليمان الأصبهاني .

ولا تعجب بعد هذا ، إذا رأيـت أهل القرب الفارّين إلى الله يناجـون مولاهم ـ وقد ملأت الخشيـة قلوبهم ـ باكين خاشعين متضرعين ، لا يفتؤون يـذكرون اليوم الآخـر وما فيـه ، وساعـات الحشر وما تنطـوي عليه مـن الأهوال العظـام ؛ ومهما جهدوا في الطاعة يرون ـ بيقين ـ أن ما لله أكثر مما يؤتون . والماثلُ أمام ناظريهم :ما يرون أنه تفـريط في جنب الله ، فهم ظِماءٌ أبـداً إلى مغفرته ورحمته سبحـانه وتعالى . جاء في مناجاة خـاشعة للعابد الثقة القدوة ، عونِ بن عبـدالله المتوفى سنة عشرين ومائة «..ومن سوءِ الحسـاب فعافني يوم تبعثني فتحاسبنـي ، ولا تُعرض عني يوم تُعَرِّفني بما سلف مـن ظلمي وجرمي ، وآمني يوم الفـزع الأكبر ـ يوم لا تُهمُّني إلا نفسي ـ وارزقني نفع عملي يوم لا ينفعني عمل غيري ...

سبحانك خالقي فأنا تائب إليك متبصْبِصٌ فاقبل توبتي ، واستجب دعائي، وارحم شبابي وأقلني من عثرتي وارحم طول عبرتي ، ولا تفضحني بالذي قد كان مني » .

متبصبص : طـامع بـالنجاة خـائف من العـذاب ، وفي « القامـوس المحيط » تبصبص إذا تملَّق .

منازل الشهداء يوم القيامة..
حجة على القاعدين

من المشاهد التي لا يسأم العباد يوم القيامة التَّمليِّ من رؤيتها ، والاعتبارَ العظيم بدلالاتها ، والاستنارةَ بنورها ... مشاهدُ قوافل النور ، من أولئك الذين قتلوا في سبيل الله صابرين محتسبين ، مقبلين غير مدبرين .. حيث لا يكون وجودهم في الجنة أُنُفاً ، ولكنه امتداد طبيعي لما كانوا عليه بعد أن قضوا نحبهم صادقين تحت راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وسبحان من فضلُه هو الفضل ، وعطاؤه هو العطاء !

أخرج الإمام أحمد بسنده في المسند عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها وتأوي إلي قناديل من ذهب في ظل العرش ؛ فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم ، وحسن متقلبهم ، قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكُلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ؛ فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

هكذا يفرح هؤلاء البررة الطيبون الطاهرون ، الذين استعذبوا الموت في سبيل الله فقدّموا أرواحهم، برضا نفس ، وطمأنينة قلب، لإعلاء كلمة الله ، وهم يستبشرون بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، إذا كانوا على السَّنَن نفسِه

ـ بذلاً وإخلاصاً ـ أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. إنهم ـ بما بذلوا في سبيل الله ـ يأمنون يوم القيامة ، حيث يخاف الناس ، وتطمئن قلوبهم بعطاء الله وفضله، حيث الهَلَعُ مطبق على قلوب الظالمين الغافلين .

وهكذا يبصرهم الناس في حُلَلِ الكرامة في جنات عدن ، وقد كانت أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل. والملاحظ أن اللفظ عام ـ وإن كان السبب خاصاً ـ واستبشارهم بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، يؤكد ذلك العموم ، وأن الفضل كائن لكل من أخذ نفسه بطريق الجهاد الخالص في سبيل الله ، ولم يبخل بروحه على معركة من معارك الحق مع الباطل ... ومعلوم أن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ عند المحققين .

والرواية التي أوردها الإمام أحمد في المسند ـ وهي عند غيره أيضاً ـ تدل على أن الآيات تنزلت في قتلى أحد ، وهنالك روايات أخر ، تدل على أنها نزلت في « أهل بئر معونة » الذين غدر بهم المشركون وأخذوهم على غِرة ـ وهم يدعون إلى الله ـ. قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري : حدثنا محمد بن مرزوق قال : حدثنا عمربن يونس عن عكرمة قال : حدثنا ابن إسحاق بن أبي طلحة ، قال حدثني أنس بن مالك في أصحاب النبي ﷺ الذين أرسلهم نبي الله عليه الصلاة والسلام إلى أهل بئر معونة ـ قال : لا أدري أربعين أو سبعين ـ . وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري ؛ فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء ، فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ ؟ فقال : ـ أُراه ابنَ ملحانَ الأنصاري ـ أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ. فخرج حتى أتى حيّاً منهم ، فاحتبى أمام البيوت ، ثم قال : ياأهل بئر معونة، إني رسول رسول الله إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فآمنوا بالله ورسوله . فخرج إليه رجل مِن كِسْرِ البيت برمح ، فضرب به في جنبه حتى خرج من الشق الأخر ، فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة ؛ فاتبعوا أثره،

حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل . وقال : قال إسحاق: حدثني أنس بن مالك أن الله أنزل فيهم قرآناً ، رُفِعَ بعد ما قرأناه زماناً وأنزل الله ﴿**ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءعند ربهم يرزقون**﴾ .
والذي في تاريخ الطبري وعند الحافظ ابن كثير نقلاً عن أبي جعفر : أنزل فيهم قرآناً : «بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه» ثم نسخت ، فرفعت بعدما قرأناه زمناً وأنزل الله : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ الآيات . ونجد نحو هذا عند البخاري .

هذا : وليس ما يمنع ـ كما يذكر العلماء ــ أن يكون للآية أو الآيات أكثر من سبب نزول ..

ومن نافلة القول ، أن النصوص ـ على ما دلت عليه من كون الآيات نزلت في قتلى أحد ، وما حظوا به من الكرامة أو في قتلى بئر معونة ، وما أكرمهم الله ، جزاء ما نالهم من الأذى وأنهم قتلوا في سبيل الله ـ .. من نافلة القول التذكير بعظمة مشهدهم يوم القيامة ، وقد تبوأوا منازل الشهداء ، بعد الذي كانوا عليه من أن أرواحهم في جوف طير خضر ، في قناديل من ذهب معلقة بالعرش ، تسرح في الجنة حيث شاءت ، فكان المآل نوراً على نور !! وكم في ذلك من عظيم البشرى لمن يرتفعون بتضحياتهم وبذهم في سبيل الله ، إلى أن يكونوا على سَنَن هؤلاء البررة المكرمين ، فيفوزوا بأن يكونوا كِفاءَ ذلك المشهد المشرق العظيم .

هذا والحديث رواه مسلم وأبوداود والحاكم في « المستدرك » والبيهقي في «السنن الكبرى » وفي « البعث والنشور » كما رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» وغيرهم .

ولفظ رواية مسلم كما جاءت بسنده عن مسروق قال : سألنا عبدالله (هو ابن مسعود) عن هذه الآية ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك . فقال : « أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى

تلك القناديـل ، فاطّلع إليهم ربهم إطلالـة فقال : هل تشتهون شيئـاً ؟ قالوا : لا شيء نشتهي ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنـا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لـن يُتركوا مـن أن يُسألـوا ، قالـوا : يـارب نريـد أن تردَّ أرواحنـا في أجسادنا ، حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا » .

وإذا كان الجهـاد ماضيـاً إلى يوم القيامـة ـ كما بيَّن رسـول الله ﷺ ـ فليهنـأ من يُكرمون بالتسامي إلى ساحـات الجهاد ، وتبوُّءِ منازل الشهداء ، وليستبشروا بنعمة الله وفضله وأن الله لا يضيع أجر المحسنين .

شهيد كلّمه ربه كفاحاً..
المشهد الأمانة .. والعطاء الكبير

ما كان لمؤمن ولا مؤمنة ، مهما تكاثفت العوائق ، واشتد ظلام المادة الصارفة عن استذكار اليوم العسير ، أن يصرُّوا على السلوك المردي في نسيان الله واليوم الآخر ، والغفلة عن أن من أبرز أركان الإيمان ـ بعد الإيمان بالله تعالى ـ التصديق الجازم اليقيني بيوم المعاد ، يومِ التغابن الذين يتلاوم فيه بنو البشر ؛ المحسنُ : لو أنه زاد في الإحسان ، والمسيءُ : لو أنه أقصر عن الإساءة ، لما يرون من الهول وثقل المسؤولية ، وأن النار من أحدهم قاب قوسين أو أدنى ؛ ذلك بأن كل صغيرة وكبيرة محصاة ، ويا ويح من يحرم الرحمةَ ويتدحرج ـ بعماه عن الحقيقة ، وضلالِه سواءَ السبيل ـ إلى جهنم وبئس المهادِ ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما هٰذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ وما أكثرَ ما أدى رسول الله الأمانةَ، في بيان ذلك على خير وجه .

أجل ما كان لمؤمن ولا مؤمنة ـ وعلمُ ذلك كلِّه عندهم ـ أن تضرب الغفلة بجِرانها على قلوبهم ، فينسوا تلك الحقائق التي أخبر عنها الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ، وهو يؤدي أمانة البيان للكتاب العزيز ، ويقصرِّوا في الاستعداد للموت ، ولما بعد الموت ، ويكونوا ممن هم في غفلتهم يعمهون .

روى الطبراني بإسناده إلى سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين ، نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء ، فقال النبي ﷺ : « اجمعوا من وجد عوداً فليأت به ، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به ، قال : فما كان إلا ساعةٌ حتى جعلناه ركاماً ، فقال النبي ﷺ : أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل

منكم، كما جمعتم هذا ، فليتق الله رجل ، ولا يذنبْ صغيرة ولا كبيرة ؛ فإنها محصاة عليه » .

ألا إن هذا المشهد الذي يخبر الرسول ﷺ أنه كائن يوم القيامة ، جدير أن يعمل عمله في الإيقاظ من الغفلة ، وشحذِ الهمم في طاعة الله تعالى ، والحذرِ من الوقوع في حبائل النفس الأمارة بالسوء والشيطان . ومبتغي رحمةِ الله ، وشفاعةِ أهل الشفاعة يوم القيامة : عليه أن يعمل جاهداً في دار العمل، كيما يكون أهلاً لما يرجو من النجاة يوم تُحدِّث الأرض أخبارها ويقوم الأشهاد . ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ .

ولقد كان من رحمة الله بهذه الأمة : أن هيأ لها ذلك الجيلَ الفريد ، جيلَ الصحابة عليهم الرضوان ، الذين يرى فيهم المرء خيرَ قدوة بعد الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام ، لأنهم كانوا أمناءَ في الأخذ عنه ، أمناءَ في تطويع سلوكهم لما علموا منه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حتى إن أحدهم ليرحل الليالِيَ والأيام الطوالَ من أجلِ التثبت من حديث عن رسول الله، يريد أن يعمل به ، كيما يفوز ـ برحمة الله ـ بالجنة وينجوَ من النار، وكيما يبلِّغه الناسَ أداءً لحق التبليغ وعدم كتمان العلم . روى الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول : «بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ ، فاشتريت بعيراً ، ثم شددت عليه رَحلي ، فسرت إليه شهراً ، حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبدالله بن أُنيس ، فقلت للبواب : قل له: جابر على الباب . فقال : ابنَ عبدالله ؟ فقلت : نعم . فخرج يطأ ثوبه ، فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حديث بلغني أنك سمعتَه من رسول الله ﷺ في القصاص ، فخشيت أن تموتَ أو أموتَ قبل أن أسمعه . فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة ـ أو قال العباد ـ عُراة غرُلاً بُهماً ـ قال: قلت: وما بُهماً ؟ قال: ليس معهم شيء . ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرُب : أنا الملك أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل

النار ـ وله عند أحد من أهل الجنة حق ـ حتى أَقُصَّهُ منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ـ و له عند رجل من أهل النار حق ، حتى أَقُصَّه منه ، حتى اللطمة . قال : قلنا : كيف ، وإنما نأتي الله عز وجل عراة غرلاً بهماً ؟ قال: بالحسنات والسيئات» . وجاء في رواية أخرى لأحمد عن جابر رضي الله عنه قال: «بلغني حديث في القصاص ـ وصاحبه بغزة ـ رحلت إليه مسيرة شهر» . وقال الإمام البخاري في كتاب العلم من الجامع الصحيح : «ورحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أنيس في حديث واحد » . وقال في كتاب التوحيد من الجامع أيضاً : «ويذكر عن عبدالله بن أُنيس الأنصاري ...» فذكر طرفاً من الحديث. وأخرجه أيضاً في كتابه « الأدب المفرد » . كما أخرج الحديث المذكور أبو يعلى في مسنده من طريق عبدالله بن محمد بن عقيل ، أنه سمع جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول : «بلغني عن رجل حديثٌ سمعه من رسول الله ﷺ ، فاشتريت بعيراً ، ثم شددت رَحلي ، فسرت إليه شهراً . حتى قدمت الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ...» فذكر الحديث .

وعبدالله بن أنيس بضم الهمزة مصغراً هو الجهني حليف الأنصار ، شهد رضي الله عنه العقبة وما بعدها ، وكانت وفاته بالشام سنة أربع وخمسين للهجرة .

ولكم تَقَرُّ عين المؤمن ـ في دار البقاء ـ بما يغمره من العطاء الجزيل ، إن هو أقبل على الله ، وقد عمل الصالحات ، ولم يتوانَ عن القيام بما يستطيع من أعمال البر والجهاد في سبيل الله . وهنيئاً ثم هنيئاً ، لأولئك الذين رُزقوا أن يكونوا من أهل القُرب من الله عز وجل ، لاستدامة إقبالهم عليه سبحانه مخلصين منيبين، راجين ثوابه ، خائفين غضبه وعقابه ، في يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار . جاء في واحد من أسباب نزول قول الله تعالى : ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ ـ وقد رأينا سببين من قبل ـ ما روى ابن مردويه من طريق علي بن عبدالله المديني عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «نظر إليَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام ذات يوم فقال : ياجابر ، مالي أراك

مهتماً؟ قال : قلت يارسول الله استُشهِد أبي وترك ديناً وعيالاً ، قال : ألا أخبرك ؟ ما كلَّـم الله أحداً قـط إلا من وراء حجاب ، وإنـه كلَّم أباك كفـاحاً ــ قال عليٌّ : الكفاح : المواجهة ـ فقال : سلني أعطك . قال: أسألك أن أُردَّ إلى الدنيا ، فأُقتلَ فيك ثانيـةً ، فقال الرب عز وجل : إنـه سبق مني القول أنهم إليهـا لا يرجعون ، قال : أي رب فأبلغْ مَن ورائي . فأنزل الله ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً...﴾الآية ».

قال الحافظ ابن كثير : ثـم رواه ـ أي ابن مردويه ـ من طريـق أخرى عن محمد بن سليمان بن سَليط الأنصـاري ، عن أبيه عن جابر بـه نحوه . وكذا رواه البيهقي في « دلائل النبوة » من طريق علي بن المديني به. وأخـرجه الترمذي وابن ماجة من حديث جابر وسنده حسن .

هذا : ونقع في بعض النصوص على مكرمـة أخرى لهذا الصحابي الجليل ؛ فقد ثبـت في الصحيحين وغيرهما أن أبـا جابـر ــ وهـو عبـدالله بـن عمرو بـن حـرام الأنصاري رضي الله عنه ــ قتل يوم أُحدٍ شهيـداً . قال البخاري : وقال أبـو الوليد عن شعبة عن ابـن المنكدر قال : سمعت جابراً قـال : « لما قُتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه ، فجعل أصحـاب رسول الله ﷺ ينهونني والنبي ﷺ لم ينهَ ، وقال النبـي ﷺ : لا تبكه ما زالت الملائكـة تُظلُّه بأجنحتها حتـى رفع » إنها الأمانة في أعناق المسلمين أن يتخذوا من هذه الواقعة وأمثالها باعث استئناف واع لطريق الجهـاد في سبيل الله ـ وما أكثر ميـادينه ـ، وفي ذلك خير الـدنيا بالتمكين، وخير الآخرة بالفوز بما يفوز به المجاهدون المخلصون .

إنها لمنـاقب عظيمـة لهذا الصحابي المجـاهـد الذي رزق الشهـادة يوم أحُـد ، ولسوف يشهد العباد نورها يوم يوفي الله عباده دينهم الحق **﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾** وهي في الـوقت نفسه بشارة أيُّ بشـارة لأهل الإيمان المجاهـدين ، الذين يرجون الله واليوم الآخر **﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾** .

وفي خاتمة المطاف : أحمد الله على كريم فضله وعونه . وهذا ما يسَّر الله من القول في القيامة ؛ عظاتِها ومشاهدِها في السنة النبوية المطهرة ، بدءاً من القيامة الصغرى وسؤال القبر ، والسنة بيان الكتاب الكريم ـ مصحوباً ذلك بطائفة مباركة من سيَر وكلامِ أبناء الآخرة أولي النهى الذين يؤرقهم ما يمكن أن تكون عليه الحال يوم الحساب .

ولعلّ الله يفتح ـ مستقبلاً ـ باستكمال نقص وتلافي تقصير .

وهو المسؤول أن يتفضّل علينا جميعاً بغفر الزلات وتكفير السيئات ، وأن يجعل هذا الجهد المتواضع من ذي البضاعة الزجاة في العلم والعمل ، زلفى لمرضاته إنه سميع مجيب .

وصلى الله وسلم وبارك على من أرسله الله رحمة للعالمين وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان وصدق في الاستمساك بنهجهم إلى يوم الدين .

فهارس

الآيات القرآنية والأحاديث النبوية

وضعها

سليمان مسلم الحرش

فهرس الآيات القرآنية

الآيـة	رقم الصفحة
إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق .. (الفتح: ١٠)	٢/ ٢٢٠
إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة ... (الملك: ١٢)	١/ ٣١٣ـ٣/ ٤٧
إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلاً .. (آل عمران: ٧٧)	٣/ ١٠٢، ١٠٣
إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب ... (ص: ٢٦)	١/ ١٧٦
إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ... (التوبة: ١١١)	٢/ ٢٠، ٨٣، ٨٤، ٣١١
إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. (النحل: ١٢٨)	٢/ ٢١٢
إن الله لا يضيع أجر المحسنين. (التوبة: ١٢٠)	١/ ١٧٨
إن الله لايظلم مثقال ذرة ... (النساء: ٤٠)	١/ ٢٤٥، ٢٤٨ـ٢/ ٣٦٤، ٣٦١، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١، ٣/ ١٤٦، ٣٣٨
إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. (الرعد: ١١)	٢/ ٣٠٧
إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً. (الأحزاب: ٦٤)	٢/ ٣٦٦

الآيـة	رقم الصفحة
حرف القاف	
قل هو الله أحد . (الإخلاص : ١)	٢/٢٤٦
قل يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم.. (المائدة: ٧٧)	١/٤٠٤
قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير .. (النساء : ٧٧)	٣/ ٦٥ـ٢٥٣
قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا (يونس : ٥٨)	٢/ ٢٣٤
قل أمر ربي بالقسط . (الأعراف : ٢٩)	٣/ ٢٠٥
قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون .. (الفرقان : ١٥)	٢/١٧٨
قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . (المائدة: ١٥)	٢/ ١٣٥
قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها . (الشمس : ٩)	١/ ٢٣١
قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون. (المؤمنون : ١)	١/٣٥٢
قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين.. (غافر : ١١)	١/ ٥٠
قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا	٢/ ١٤٣

الآيـة	رقم الصفحة
بمثل هذا القرآن ... (الإسراء : ٨٨)	
كان على ربك وعداً مسؤولاً . (الفرقان : ١٦)	٢/ ١٧٩
كأنهن بيض مكنون . (الصافات: ٤٩)	٢/ ٤٢٠
كتب ربكم على نفسه الرحمة .. (الأنعام : ١٢)	٢/ ١٥
كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار . (غافر : ٣٥)	٢/ ٤٠٥
كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم .. (آل عمران : ١٨٥)	١/ ٦، ١٠ـ ٢/ ٢٥٧
كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . (المطففين : ١٥)	٢/ ٣٥٧، ٣٧١، ٣٧٢
كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة . (القيامة : ٢٠)	١/ ٣٥٥
كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها . (السجدة : ٢٠)	٣/ ٢١٣، ٣٣٠
كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية . (الحاقة : ٢٤)	١/ ٣٦١ ـ ٢/ ٢٥١ ـ ٣/ ١٨٤
كما بدأنا أول خلق نعيده . (الأنبياء : ١٠٤)	١/ ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١
حرف اللام	
ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة . (النحل : ٢٥)	٣/ ١٠٦

حرف الميم

الآيــة	رقم الصفحة
من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن .. (النحل: ٩٧)	٣/ ٢٣٣
من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها .. (هود: ١٥)	١/ ٨٠
من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها .. (الإسراء: ١٨)	١/ ٣٥٦
من المؤمنون رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .. (الأحزاب: ٢٣)	٣/ ١٢١
من يطع الرسول فقد أطاع الله .. (النساء: ٨٠)	٢/ ١٠١، ١٠٢
حرف النون	
النار يعرضون عليها غدواً وعشياً. (فاطر: ٤٦)	١/ ٤٩
حرف الهاء	
هؤلاء الذين كذبوا على ربهم .. (هود: ١٨)	١/ ٢٥٢
هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله ... (الأعراف: ٥٣)	٢/ ١٤ ـ ٣/ ٣١٧
هل جزاء الإحسان إلا الإحسان . (الرحمن: ٦٠)	١/ ٢٠٣ ـ ٢/ ٣٢٥
هل تجزون إلا ما كنتم تعملون . (النمل: ٩٠)	٣/ ٣٠

الآيــة	رقم الصفحة
هل امتلأت وتقول هل من مزيد . (ق: ٣٠)	٢/ ٥ـ٣/ ١٣٦
هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن .. (الإنسان: ١)	٣/ ٢٣
هاؤم اقرؤا كتابيه . (الحاقة: ١٩)	١/ ٢٣٣ـ٣/ ١٧٤
هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . (المرسلات: ٣٨)	٣/ ٨٢
هذان خصمان اختصموا في ربهم (الحج: ١٩)	٣/ ٢٨٠
حرف الواو	
واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله .. (البقرة ٢٨١)	١/ ١١٦
واجعلنا للمتقين إماماً . (الفرقان: ٧٤)	٣/ ٢٢١
وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين (الفرقان: ١٣)	١/ ٣١٤ـ٣/ ٤٢
وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً و .. (الإنسان: ٢٠)	
وإذا السماء كُشِطت . وإذا الجحيم سُعِّرت .	٢/ ٢٩١ـ٣/ ٢٣
(التكوير: ١١ـ١٢)	٣/ ١٦٥
وإذا الصحف نُشِرت . (التكوير: ١٠)	
وإذا العشار عطلت . (التكوير: ٤)	٣/ ١٦٤
وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين .	١/ ٧٢
(الشعراء: ٩٠)	٣/٣١، ٨٩، ٢١٧
وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد .. (ق: ٣١، ٣٢)	٢/ ٣٨٧

فهرس الأحاديث النبويّة

الحديث	رقم الصفحة
إن جبريل يقرأ عليك السلام ..	١/ ٤٤٤
إن جهنم لما سيق إليها تلقتهم تلقتهم فلفحتهم ..	٣/ ٧٥
إن حبك إياها يدخلك الجنة ..	٢/ ٢٤٦
إن حبها أدخلك الجنة ..	٢/ ٢٤٦
إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن ..	١/ ٣٤٣،٣٤٨،٣٥٢
إن ذلك سيكون ..	١/ ٧٠
إن رجلاً حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى ..	١/ ١٨
إن رجلاً كان قبلكم رزقه الله مالاً ..	٢/ ٤٣٩
إن رجلاً ممن كان قبلكم خرجت به قرحة ..	٢/ ٧٩
أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه ..	٢/ ٢٨٣
أن رسول الله ﷺ حدث أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله ..	٢/ ١٠٠
أن رسول الله ﷺ سأل بلالاً ..	٢/ ٢٤٤
أن رسول الله ﷺ سمع رجلين يغلظان القول ..	٣/ ٢٣٧
أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم ..	٢/ ٤٠١
إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ..	٣/ ١٢٦
أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة ..	١/ ٤٠٥
أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور ..	٣/ ٢٤٠
أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلاً من بعض العالية	٣/ ٢٥٣
إن شر الرعاة الحطمة فإياك أن تكون منهم ..	١/ ٣٤٠ـ ٣/ ٢٠٢
إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي ..	١/ ٢٧٥، ٣١٨

الحديث	رقم الصفحة
أيها الناس مثلي ومثلكم مثل قوم ..	٢/ ١٤١
الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعلة ..	٢/ ١٨_٣/ ٣٧
الجنة والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل ..	٢/ ٣٢٦
الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ..	٣/ ٣٤
الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلاً ..	٢/ ٢٠٢
الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ..	٢/ ٤٢٢
الصلاة على مواقيتها قلت وماذا يا نبي الله ..	٢/ ٢٩٧
الصراط جسر جهنم ..	١/ ٢٢٧
القتل ثلاثة: رجل مؤمن قاتل بنفسه ..	٢/ ٣١٦
القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله ..	٢/ ٣١٧_٣/ ٢٩٩
القبر أول منازل الآخرة ..	١/ ٢٢، ٤٥
النظر إلى وجه الرحمن عز وجل ..	٢/ ٣٢٥

* * * * * *

الحديث	رقم الصفحة
حرف العين	
وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين ..	٤٣٨/٢
وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ..	٢/ ٣٥ـ٣/ ٤٠
وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم ..	١٢٢/١
عائد المريض في مخرفة الجنة ..	٢٢٥/٢
عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت ..	١٤٦/٣
عرض علي أول ثلاثة في أمتي يدخلون الجنة ..	٢٤٣/٢
عرضت علي الجنة والنار فلم أر كاليوم ..	٢/ ٤٤٠ـ٣/ ١٠
عشرة في الجنة ..	٢١٣/٢
على الصراط ..	٢٣٢/١
عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ..	٢١٥/٢
عوذوا بالله من عذاب الله ..	٤٣/١
عينان لا تمسهما النار ..	٢٢/١
حرف الغين	
غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا ..	١٦٧/٢
غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم..	٨٦/١

حرف الكاف

الحديث	رقم الصفحة
لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه ..	١/ ٧، ٢٠٧
لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل ..	١/ ٦، ٢٠٧
لا تسألوني عن شيء إلا بينت لكم ..	٣/ ٨
لا تسبه فإنه الآن يتلبط في الجنة ..	٣/ ٢٣٧
لا تعلموني به قد كان صاحبي في الجاهلية ..	٣/ ٣٢٧
لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله ..	٢/ ٦١، ٦٢
لا تنسانا يا أخي من دعائك ..	٢/ ١١٤
لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة ..	٢/ ١٨٢
لا فتنة أعظم من فتنة الدجال ..	١/ ٩٥
لايتبع الجنازة صوت ولا نار ..	١/ ٦١
لا يحل لأحد من أهل الجنة أن يدخل ..	٣/ ٢٩٦
لا يحولن بين أحدكم وبين الجنة ..	١/ ٢٦٦
لا يدخل أحد الجنة إلا أُرِي مقعده ..	٢/ ١٦٨
لا يدخل الجنة أحد إلا أري مقعده من النار ..	٢/ ١٧١
لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة ..	٢/ ٢٢٠
لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة..	٢/ ٢٢٠ـ ٣/ ٢٦٨، ٢٦٩
لا يسترعي الله عبداً رعية يموت حين يموت ..	٣/ ٢٠٠
لا يكلم أحد في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم ..	٣/ ٣٠٣
لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد ..	٣/ ٢٧٠
لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد تمسه النار ..	٣/ ٢٧٠

* * * * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
حولها ندندن	٧٣
نار لا تُطفأ ... وعذاب لا ينفذ	٧٧
وادٍ تتعوذ منه جهنم	٨١
عقبى المؤمن ... والخوف والرجاء	٨٥
الذين يكبكبون في جهنم	٨٩
أهل الآخرة ... وأخذ الحِذر في الدنيا	٩٣
المحرمات و إعانة الظالمين ... المسؤولية والجزاء	٩٧
الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً	١٠١
المفلس ... والطرح في النار	١٠٥
العطاء الرباني ... الآفاق والجنة	١٠٩
المراءون ... والنار	١١٣
أين عقبى من عقبى ... لا تستويان	١١٧
والآخرة خير وأبقى	١٢٣
عمل الجنة ... وعمل النار الحَزْن والسَّهل	١٢٧
أحاسنُ المؤمنين أخلاقاً ... والقُرب العظيم	١٣٣
الظلم ظلماتٌ يوم القيامة	١٣٧
اتَّقِ دَعْوة المظْلومِ !! دخَلَتْ النار بظلم هرة	١٤٣
إن عذابها كان غراماً	١٤٧
تجارة تنجي من العذاب الأليم	١٥٣
كذبتَ ... سئلتَ أيسر من ذلك	١٥٧

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * * * * * *